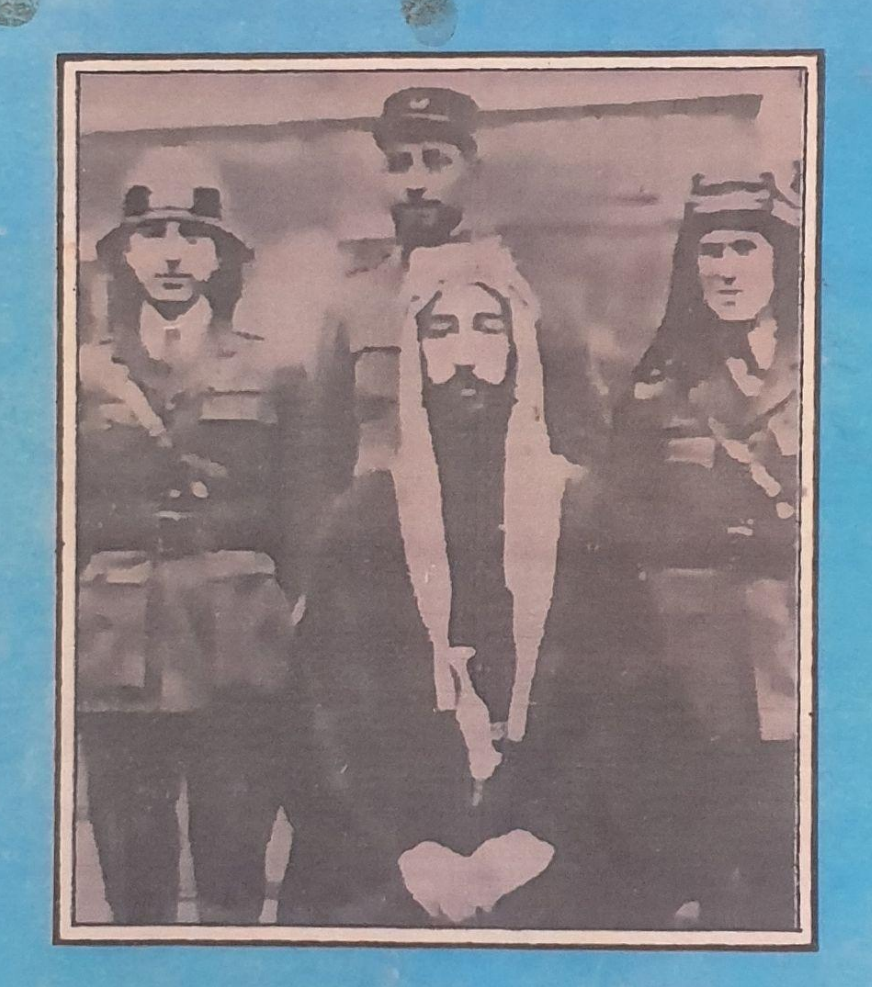
العراق الحديث

من سنة ١٩٠٠ الى سنة ١٩٥٠

الجزء الاول



تأليف
ستيفن همسلي لونگريگ

ترجمة وتعليق
سليم طه التكريتي

الفجر
للنشر والتوزيع بغداد

احمد المبارك
١٤/٠٠٠ دينار

اشتريته من شارع المتنبي ببغداد في ٢٢/رجب/١٤٤٣هـ
٢٥/٢/٢٠٢٢م

م. سرمد حاتم شكر

العراق الحديث

من سنة ١٩٠٠ الى سنة ١٩٥٠

تاريخ سياسي، اجتماعي، واقتصادي

رقم الايداع في المكتبة الوطنية ٤٢٥ لسنة ١٩٨٨

طبع بمطبعة حسام

العراق الحديث

من سنة ١٩٠٠ الى سنة ١٩٥٠

تاريخ سياسي، اجتماعي، واقتصادي

تأليف

ستيفن همسلي لونكريك

ترجمة وتعليق

سليم طه التكريتي

الجزء الأول

الطبعة الأولى - بغداد ١٩٨٨

منشورات الفجر
شارع السعدون ٨٨٨٥٤٨٨ - ٧١٩٨٤٢٢

الطبعة الاولى ١٩٨٨

«اجل انا ! اجل انا ! مهما كانت صفة القلب»
«الاخر ، الذي كنت اضمه بين ضلوعي في الايام الخوالي البعيدة»
«ان كنت انا هو الذي كان ينظر الى الشيء الصافي»
«الذي اخذ يتكون من حوله ! ....»

من قصيدة «تثموس» للشاعر الانكليزي «الفريد تنسون»

عنوان الكتاب باللغة الانكليزية

IRAQ

1900 - 1950

APOLITICAL, SOCIAL, AND ECONOMIC HISTORY

BY

STEPHEN HEMESLEY LONGRIGG

ISSUED UNDER THE AUSPICE OF

ROYAL INSTITUTE OF INTERNATIONAL AFFAIRS

1968

الإهداء

الى زوجتي المرحومة ام رياض ...
التي شاركتني حمل الشدائد وشظف العيش
وبطش الطغاة من الحاكمين ...

والتي ماتزال روحها ترفرف في سماء حياتي
تهبني العزم على قطع الطريق السوي الذي
اختططته لحياتي ، الدفاع عن الحق ، والكشف
الامين الخالص لكل جوانب تاريخ العراق العظيم
بماضيه ، وحاضره ومستقبله
تحية واجلالاً لذكراها العزيزة العطرة ..

بغداد ١ حزيران ١٩٨٣ سليم طه التكريتي

تقديم ..

مايزال الاحياء الواعون الذي عاشوا تأريخ العراق القريب ، في العهد الملكي ، يتذكرون جيداً المزيد من الحوادث المهمة التي حفل بها ذلك العهد ، ومارافقها من العواصف الشديدة ، متعددة البواعث ومختلفة النزعات والغايات ، التي كانت تعصف بالحكم انذاك منذ مولده حتى انهياره .

ومع ان المام امثال هؤلاء الاحياء ، وقد اصبح عددهم الان قليلا جداً ، بالاوضاع الراهنة في تلك الايام كان كبيرا الا ان كثيرا من حقائق الامور ماتزال بعيدة عن ادراكهم ، فكيف بجيلنا الجديد الذي لايعرف اي شيء من تلك الحقبة بل ربما يجهل تأريخ العراق بأكمله قديمه وحديثه ؟

ان هذا الكتاب الذي نقدم الترجمة الامينة الكاملة له ، يشتمل على سرد كامل رغم ايجازه ، للخمسين سنة التي مر بها تأريخ العراق منذ سنة ١٩٠٠ الى سنة ١٩٥٠ ، وهي فترة تعد -بكل حق وحقيقة ، نقطة تحول اساسية كبرى في حياة الشعب العراقي كله ، ذلك لان العراق قد اصبح في اعقاب الحرب العالمية الاولى ، بلدا ينعم لاول مرة بعد مئات من السنين المتوالية ، بنوع من الحكم والتنظيم لم يكن موجوداً قبلا ، ولم يألفه سكانه قط ، لان هذا الحكم كان يقوم على اسس وافكار جديدة مغايرة ، انها اسس الدمقراطية البرلمانية الغربية التي سارعت امم الشرق ومن ضمنها امتنا العربية الكبيرة الى تقليدها ومحاكاتها في ظل انظمة حكم هزيلة لم تتوفر لديها اسباب القوة لتطبيق تلك الديمقراطية ، ويطغي عليها الفساد ، والمطامع الذاتية الضيقة ، وهيمنة التأثير الاجنبي ، وتسلطه ، وتحكم العقلية العشائرية الجامدة الضيقة المشبعة بالتعصب العرقي والطائفي . ولئن احاق الفشل الذريع بالاساليب التي اريد بها تطبيق الدمقراطية الغربية ، فان مرد هذا الفشل يعود قبل كل شيء الى تنكب الطريق الدمقراطي الصحيح في اسلوب الحكم ، والانهماك في المنافع الخاصة ، والتأثر بالحزازات ومختلف انواع التعصب البغيض . ولقد كانت حصيلة ذلك كله ان الديمقراطية لم تعد مشوهة حسب ، بل غدت ممقوتة

ايضا ليس من قبل الذين لم يتقبلوا بها اصلا ، بل حتى من اشد المدافعين عنها ، مما كانت له نتائجه الخطيرة على الوضع العام في البلاد .

ان مؤلف هذا الكتاب ، وان كان من ضباط الحملة البريطانية التي احتلت العراق خلال الحرب العالمية الاولى ، الا انه كان صاحب فكر نفاذ ، استطاع خلال فترة قصيرة لم تزد عن ست عشرة سنة ، الى جانب عمله في ادارة الاحتلال وخدمة العهد الملكي ، ان يستغل ماتوفر لديه من وقت في الغوص في دراسة تأريخ العراق الحديث ، فيخرج بذلك كتابين يعتبران من اهم ما كتب عن العراق الحديث ، اولهما كتابه «اربعة قرون من تأريخ العراق الحديث» الذي ترجمه المرحوم جعفر خياط ، وصدرت له خمس طبعات ، وثانيهما هذا الكتاب الذي نقدم ترجمته الآن ، والذي يعد مكملا للكتاب الاول لأنه يبدأ من حيث وقف ذلك الكتاب .

ومع ان المؤلف يمثل ذات النظرة الغربية المألوفة تجاه الشؤون الدولية ، وقضايا الشعوب المغلوبة على أمرها ، تلك النظرة التي قد لاترضي بعض الوطنيين ، الا ان تحليلاته للاوضاع التي مر بها العراق خلال تلك الفترة كانت في معظم الاحيان صائبة ، ودقيقة ، وموفقة مما يكسب كتبه قيمة كبيرة ، واهمية ليست بالقليلة ، وهذا هو الذي حفزنا الى ترجمة هذا الكتاب ونشره ، ونسأل الله سداد الطريق ، كما نسأل القارىء أن لا يضن علينا بأي رأي او ملاحظة عن كل مايراه في ثنايا الكتاب من مآخذ او هفوات .

بغداد ١ حزيران ١٩٨٣

سليم طه التكريتي

مُقدِمَة المؤلف

مضى اكثر من ربع قرن (١) منذ ان اقدمت – وانا موظف شاب لدى الحكومة العراقية – على نشر كتاب يثمن اربعة قرون من تأريخ تلك البلاد ، والذي ينتهي بالسنة ١٩٠٠ .

ولم يكن ذلك العمل التجريبي الناقص – حسبما اعلم – قد تمّ التخلي عنه ، واذ يظهر الآن وجود متطلب للاستمرار في تأريخ عصور متأخرة ، فقد حاولت في هذا الكتاب الآن ، ان اقدم على انجاز هذه المهمة .

لقد اشتمل ارتباطي بهذه البلاد ، ذلك الارتباط الذي ظل متواصلا منذ سنة ١٩١٥ ، على اقامة فيها استمرت ست عشرة سنة ، وكانت تعقبها زيارات سنوية ، واكثر من سنوية ، نالت تقبل صداقة العشرات من العراقيين على مختلف المستويات ، بل ربما شملت ثلثي الافراد الذين اشير اليهم في هذه الصفحات .

لقد تعاظم الاهتمام الذي قدمه العراق فيما سبق للعالم ، اي بالنسبة الى التأريخ ، والستراتيجية ، والاقتصاد ، والتكوين الاجتماعي ، ليس بصفة اقل ، بل بصفة اعظم خلال الجيل الماضي . فعلى حدة من الاهتمام الشخصي المحبب الذي يشعر به الكثيرون من اصدقاء العراقيين ، فان الاحوال التي احاطت بتأسيس دولتهم ، والوصاية عليها ، وانعتاقها ، والفضائل والمزايا التي تتمتع بها ، باعتبارها دولة مستقلة ، وتطورها الاجتماعي والثقافي والذي بصور التأثير المعتاد والصعب معا ، الذي يفرضه الغرب على الشرق ، وابرازها لصفتها القومية ، ومشاركتها في السياسة العربية والتكتلات الدولية ، وتطورها المادي ، ومستقبلها المتوقع فكل هذه الامور يجب ان تساهم في حبك قصة جديرة بان تقص اذا ماتمّ قصها بصفة صائبة .

---

(١) يقصد المؤلف بذلك الفترة التي سبقت صدور الطبعة الاولى من هذا الكتاب في سنة ١٩٥٣ . ونود ان يدرك القارىء باننا سوف نرمز الى هوامش المؤلف بالرمز ٥٥٥ في حين نضع لتعليقاتنا وهوامشنا ارقاما متسلسلة لكل فصل من فصول الترجمة .

المترجم

وفي الوقت ذاته ينبغي علي ، وربما على بعض القراء ايضا ، ان نأسف لخلو هذه الصفحات من اسماء كثير ، بل من معظم الشخوص القبلية ورؤساء القرى ، والمشاهير من سكان المدن ، وارباب الحرف ، الوضيعين منهم والبارزين ، في ميدان الوظيفة ، او الحياة العامة ، اولئك الذين كانوا موجودين ومعروفين معرفة جيدة في العراق ، في هذا الجزء او ذاك من هذا القطر المتغير الواسع ، ذي الاهمية العميقة .

والامر الذي يدعو الى الاسف حقا ، هو انه لن يظهر في هذا التاريخ ، سوى القليل من عنصر الحياة الاجتماعية هذا ، والغني بالكثير من الشخصيات المعبرة المتجاوبة ، والشهيرة غالبا في هذا القطر . والحقيقة ان افضل مايقدمه العراق من مجاملة ، ومتعة ، وعطف يجب إن لايتم تدوينه هنا .

لم تتم بعد تلبية الحاجة الماسة الى تقييم عام لنصف القرن الاخير الذي قطعه العراق . هناك اوراق دبلوماسية ، وتواريخ عسكرية ، ومراسلات ، وقصص الرحالين ، والكتابات العراقية السياسية ، والصحافة الواسعة ، وتراجم المشهورين ، وقلة من مدونات الباحثين والاخصائيين . ولكن يظهر انه لايوجد كتاب واحد يهدف الى ان يصبح شاملا وموثوقا به معا ، بالصفة التي يسمح بها تغير الاحداث ، وتلازمها الوثيق .

لقد كنت امل ان اكون معينا للقارىء المعاصر ، وللمؤرخ المستقبل معا ، في تكوين احكام صائبة ، وفي تجنب الاخطاء التي تقع ، وذلك بان اعطيها المدخل لصورة موضوعية ، عما فعله العراق ، وقاسى منه ، وتلقاه ، وساهم فيه ، خلال هذه الخمسين سنة .

لقد كان التصميم الذي قمت به في سنة ١٩٢٥ لأن اختم حديثي عن «القرون الاربعة» (٢) بالسنة ١٩٠٠ ، تصميما حكيما ، لانه تجنب الاشارة الى الشخوص التي برزت على المسرح العراقي ، وما تزال اكثريتها على قيد الحياة ، وكان افرادها من اصدقائي في كثير من الحالات . انني لا استطيع في هذا الوقت ان اتجنب مخاطر مثل هذه الاشارات ، وانني لاتوقع الدهشة المؤلمة من لدن هؤلاء الذين قد يشعرون بانني قد اسأت تشبيههم ، او انني قد اسأت الحكم عليهم .

اما الاخرون فانهم يشتملون على بعض من ابناء وطني ، ولذلك فانهم سوف يأسفون لان اسماءهم لن تجد مكانا لها في هذه الصفحات ، على الرغم من الخدمات المعجبة التي قدموها ، والتي لا استطيع ان اتجاهلها . فمهما كانت جهود الانسان صائبة ، فلا يمكن ان تكون مغايرة في

---

(٢) اصدر المؤلف كتابه «اربعة قرون من تأريخ العراق الحديث» في سنة ١٩٢٥ وبعد قيام ثورة تموز ١٩٥٨ اصدر المؤلف مع صديق له يدعى «ستوكس» كتابا جديداً الخص فيه كتابه «العراق ١٩٠٠ – ١٩٥٠» ، واضاف اليه بعض الفصول عن الحوادث التي شهدها العراق بعد سنة ١٩٥٠ . وهذا الكتاب مدرج في قائمة الكتب المهمة التي نعكف على ترجمتها ونشرها في مستقبل قريب بعون الله وللمؤلف كتاب مهم عن الانتداب الفرنسي على سوريا ولبنان .

الواقع ، مادام المؤرخ الذي يتعرض للخطر ، مضطرا - كما هي حاله - الى الاضافة والحذف . فالامر المؤكد هنا ، هو ان الخدمة المفيدة كثيرا للعراق لم تدون هنا ، وان كاتباً اخر قد يحسن الحكم ، بصفة مختلفة ، على تصرفات كثير من الافراد ، ودوافعهم ، وحركاتهم ، او العوامل التي لعبت ادوارها في هذه الصفحات . ذلك لانني متأكد من ان نواقص هذا الجهد لن تكون واضحة لاي قارىء بالشكل الذي اراه انا . ذلك لان الضرورة التي تستلزم الضغط ، وتتجاوز التبسيط ، وتكون في الغالب مصحوبة بمعرفة غير كاملة ، قد ادت الى نتائج ينبغي علي ان استنكرها في صفحة بعد اخرى ، لانها ليست تامة بالنسة الى اهمية مادة الموضوع .

ان عراق سنة ١٩٥١ ، يمثل بلداً يطغى عليه احساس ، وان كان متزايدا غير انه ليس تاما ، بالوحدة وبالمواطنة . وليست لديه اية مطاليب معقولة ، او انه يحس بالحيف ازاء اي بلد اخر . كما انه نفسه ليس عرضة لمطالب اخرى ، ذلك لانه حدوده مثبتة ، ومناخه صحي ، وشعبه في ازدياد وتقدم ، وهو يمتلك الوفير من الاراضي الخصبة ، والمياه التي يمكن التحكم بها ، والتأكد بان هذين المصدرين ، الاراضي الخصبة والمياه ، قادرين - مثلما حدث ذلك اثناء العصور القديمة - على انتاج ثروة مادية هائلة . كذلك ضمن القطر استغلال موارده المعدنية ذات الثروات الاستثنائية ، لتهيئة الاموال ، وفي ذات الوقت لغرض النهوض بتطوير الخدمات الاجتماعية .

هنالك القليل من البلدان التي باركتها الطبيعة ، فوهبتها المواد اللازمة لتحقيق الحياة الصالحة لمواطنيها . وهؤلاء المواطنين اذكياء بصفة غير اعتيادية ومستعدين ، في ذات الوقت، لانجاز التقدم . وعلى هذا فان التوسع المتنوع في هذا التقدم وادخاره ، سوف يكون متوفرا .

ان الآمال الرفيعة للعراق لايمكن ان تكون قد صيغت بشكل غير معقول ، سواء من لدن شعبه او من قبل اصدقائه الاجانب ، وهم كثيرون ومخلصون، ولسوف يستطيع هؤلاء الاصدقاء وانا نفسي من ضمنهم ، ان يراقبوا بكل سرور تقدم هذه الامة وسعادتها . ولتحقيق هذه الاهداف يكون الاستقرار والديمومة من الشروط التي لامعدى عنها . وينبغي للجميع ، كما يبدو ، بان يعتمدوا على قابلية هذه الامة ومن ورائهم الجمهور ايضا ، وان يديروا ظهورهم للزمرة الانانية ، وللتكلف المتعب ، وان يحافظوا على حسن نوايا الاصدقاء والاقوياء بين الدول ، وان يكون الهدف الرئيس او الوحيد ، الذي يختارونه ، هو توفير «اعظم سعادة للعدد الاكبر» من ابناء شعبهم ، وان ينفقوا اموالهم باحساس جيد وباعتدال .

لايستطيع اي مؤرخ للحوادث الجارية او المتأخرة ان يشعر بالثقة بانه قد اطلع على كل مصادر المعلومات التي نشرت عن تلك الحوادث . وليست لدي انا مثل هذه الثقة . وكل ما استطيع ان امله هو ان الفهرس الذي وضعته للمصادر ، وهو يهدف الى الايجاز وليس الى تضخيم اطروحة المؤلف ، ان هذا الفهرس لم يحذف منه في الواقع ، اي كتاب له قيمته .

لقد استعملت النطاق المتغير والمختار من الصحافة المعاصرة ، والمطبوعات الدورية في العراق ، وفي بريطانيا وفرنسا وامريكا وايطاليا ، وكذلك كتب التأريخ والاطروحات التي نشرت في هذه البلدان . كما انني قد استفدت من الاتصالات الشخصية الوثيقة بالاوضاع في العراق ، خلال معظم المدة التي يشملها هذا الكتاب . وانني لمدين ، بصفة استثنائية ، الى المساعدة السخية التي نلتها من الاصدقاء العراقيين والبريطانيين ، من ذوي الخبرة والمعرفة الحديثة . ومن بين هؤلاء الاصدقاء اود ان اشكر ، بصفة خاصة ، السيد توفيق النقيب مدير الموانىء في البصرة ، والسيد سلمان جويدة مدير جمعية التمور ، والسيد «كلت» مدير الميناء ، والسيد خليل كنة وزير التربية ، والسيد «دتشبورن» رئيس التفتيش الاداري ، والسيد «ستوكس» مدير شركة النفط العراقية ، والسيد «اوستن» الموظف السابق في الحكومة العراقية(٣) ورئيس المستشارية السياسية اثناء الحرب العالمية الثانية ، والسيد «غمبل» من القسم التجاري في السفارة البريطانية ، والسيد «بيج» و «جابمان» من شركة النفط العراقية ، والسيدين «هاردي» و «اتكنسون» من مديرية الري ، والسر هاري سندرسن ناظر الخدمات الصحية العراقية ذي القابليات الكثيرة (٤) والدكتور كراتشلي في ذات الدائرة والسيد «بتري» من شركة مسبرس ، والاستاذ «ملوان» مدير دائرة الاثار البريطانية في العراق .

ولقد اطلع السادة التالية اسماؤهم على النسخة المطبوعة من هذا الكتاب على الالة الطابعة ، واجروا عليها التعليقات والتصويبات القيمة ، وهم كل من السر ريدر بولارد ، والسيد ادمونز ، والسيد ستورج ، وهم ممن امضوا سنوات في مراكز المسؤولية في العراق ، كذلك قرأ ولداي هذه النسخة ولكن لم يجريا اية تعليقات نقدية عليها .

ولقد تلقيت المساعدة الحفية من البعثات التبشيرية او الهيئات الدينية العاملة في العراق ، واخص بالذكر منهم ، الاب «مريك» والاب تنمر من الدومينيكان في الموصل ، ومن السكرتير العام لجمعية الاليانس اليهودية في باريس ، ومن المتحدثين او المراسلين الممثلين للبعثات التبشيرية في العراق .

وقدم الي كثير من الاصدقاء معلومات شفهية واخرى تحريرية منهم السيد «الارد» المدير السابق للري ، والسيد سوان المستشار السابق لوزارة المالية ، والسيد غمبلي ، المفتش العام السابق للبرق والبريد والسيد «كابرن» المستشار الفني السابق لوزارة المواصلات والاشغال ،

---

(٣) تولى (اوستن ، منصب مدير تسوية الاراضي في العراق سنوات عديدة .

(٤) طبيب العائلة المالكة في العراق وقد ترجمنا مذكراته واخرجناها في ثلاث طبعات فاخرة خلال سنة ١٩٨١ - ١٩٨٥ وربما اصدرنا لها طبعة جديدة منقحة في وقت قريب .

والدكتور احمد سوسة (٥) مهندس الري والمؤلف ، والسر جون بريجارد رئيس محكمة التمييز في العراق سنة ١٩٥١ ، والسيد درويش الحيدري مدير الزراعة العام ، والسيد طارق العسكري ، وهو الآن من طلائع العاملين في ميدان الزراعة العلمية في العراق ، والسيد توفيق وهبي الوزير السابق والمتخصص في الشؤون الكردية (٦) والحاكم عبد الحافظ طه الذي كان يعمل في شركة نفط البصرة ، والسيد «هيغ» رئيس هيأة الري خلال الفترة ١٩٤٦ - ١٩٤٩ ، وولدي ج . س . لونغرغ من موظفي السفارة البريطانية ببغداد ، والسيد «ماليت» من السفارة البريطانية ، والسيد «بيلي» مدير دائرة البرق والبريد .

واذ جوبهت بالمشاكل المعتادة للترجمة من العربية الى الانكليزية فانني اعترف بانني ربما قد وقعت في حالات من عدم التثبت ، لكنني امل ان تكون معظم الكلمات قد ترجمت ترجمة صافية .

ايار ١٩٥٢ (٧)

ستيفن همسلي لونكريك

(٥) توفي المرحوم د . احمد سوسة بحادث سيارة في اليوم الاول من شباط ١٩٨٢ ، وترك وراءه ثروة واسعة من المؤلفات القيمة بالعربية والانكليزية وبعناية ابنته الدكتورة «عالية» اصدرت وزارة الثقافة والاعلام في سنة ١٩٨٣ اخر مؤلفاته المهمة «تاريخ حضارة وادي الرافدين» الذي يقع في جزئين .

(٦) كان السيد توفيق وهبي يعيش في لندن منذ سنوات وقد توفي في اذار ١٩٨٤ ونقل جثمانه الى العراق .

(٧) صدرت الطبعة الاولى من كتاب العراق ١٩٠٠ - ١٩٥٠ في سنة ١٩٥٣ والثانية في سنة ١٩٥٦ والثالثة وهي التي نقدم هنا ترجمتها .

الفصل الأول
عراق سنة ١٩٠٠

١ ـ الولايات الثلاث
٢ ـ القطر والسكان
٣ ـ الفرس والعرب المتجانسون
٤ ـ المجتمع العراقي ـ المدن
٥ ـ المجتمع العراقي ـ العشائر
٦ ـ الموارد والمواصلات
٧ ـ الحكومة



١ ـ الولايات الثلاث

«ليست بغداد بعيدة عن المشتاق». و «ان بيانا كاذبا قد يعود حتى من بغداد» بهذه الامثال واشباهها كان اتراك اسطنبول قبل نصف قرن من الزمن، يعترفون بالبعد الذي تقع عليه اراضي نهري دجلة والفرات فالولايات الثلاث سوف تصبح في يوم ما «المملكة العراقية التي تقع في الواقع على الحدود القصية جدا للمتلكات التركية». في الوقت الذي لم يكن فيه الاتراك يسكنونها كانت هذه المملكة بالاحرى، تعود الى الامتداد الشمالي لشبه الجزيرة العربية، واصبحت تؤلف النصف الشرقي من هلالها الخصيب. وكان قطر العراق في الايام القديمة يؤلف الولاية العباسية من العراق وجزءا من الجزيرة. وفي القرون الثلاثة الاولى من الحكم التركي، اتحدت في ولاية واحدة هي ايالة بغداد، وهي واحدة من اعظم ولايات الامبراطورية التركية التي يحكمها باشا يحمل الراية ذات الاذناب الثلاثة[1]

وبفضل شهرتها القديمة وموقعها الستراتيجي، ونطاقها الحالي، كانت بغداد على الدوام تحتفظ بالسيادة الهينة على المدينتين الاخريين المتجددتين في العراق، اي الموصل والبصرة. وحتى في سنة ١٩٠٠ وبعد ان ظهرت الموصل في صفة ولاية سنة ١٨٧٩، والبصرة في سنة ١٨٨٤، كان والي بغداد يعتبر على مستوى واسع هو كبير الولاة الثلاثة.

وهذا الاقليم الثلاثي يحده من الشمال، وسط ذو جبال موحشة سواء منها جبال «حكاري» التابعة الى ولاية «وان»، ومن الشمال الغربي جزء قصير من قضاء «جزيرة ابن عمر» في «ولاية ديار بكر». اما من الناحية الغربية فيحده لواء «دير الزور» المستقل الذي انشئ حديثا. وتمتد الحدود في اقصى الجنوب حتى منتصف الحدود الصحراوية لولاية دمشق، ومن ثم تعبر باتجاه الجنوب صحاري شمالي الجزيرة العربية حيث تمتد فيما وراء ذلك اقاليم الواحات العربية. وكذلك تحده من الجنوب ايضا مياه الخليج العربي وعلى امتداد شواطئه الغربية عند المناطق العربية البحرية التي ادعت تركيا السيادة عليها وضمتها بصفة رسمية الى ولاية البصرة.

---

(١) تحدد الرايات التي كانت تسلم الى الولاة في العهد العثماني بعدد الذيول فيها. وهي تكون على ثلاثة اقسام عادة الاولى هي ذات الذنب الواحد، والثانية ذات الذنبين. اما الراية ذات الاذناب الثلاثة. فانها تعتبر اكبر درجة يبلغها الوالي عند تعيينه واليا، ولاعلاقة لاذناب هذه الراية، بالولايات الثلاث التي كان العراق ينقسم اليها في ذلك العهد، وانما هي من صنوف الدرجات ليس الا

اما في ناحية الشرق فان الولايات الثلاث كلها تجاور بلاد فارس(٢)، وهذه الحدود هي حدود العراق الحديث، ماخلا بالنسبة لثلاث خاصيات. ذلك ان الحدود مع فارس ماتزال غير مخططة، وان الخط الذي تمت مراقبته، واستخف به، ينبغي تعديله في اماكن كثيرة حسب اتفاقية سنة ١٩١٤(٣)

اما الحدود مع ولايتي «وان» و «ديار بكر» فقد ثبتت في سنة ١٩٢٦، ومع سوريا في سنتي ١٩٢٢ و ١٩٣٣، ومع حكام الجزيرة العربية في سنة ١٩٢٢ اما اقاليم الاحساء، وقطر، والكويت فلم تعد تعتبر اقاليم تركية قبل الحرب العالمية او خلالها، ولذلك فانها لاتخص المؤرخ الذي يكتب عن العراق. ولقد تقررت مكانة العراق في الامبراطورية التركية، بعوامل مختلفة. ذلك لان بعدها، ولان سكانها من غير الاتراك، وقسوة جوها، كل هذه كانت من الاعتبارات التي جعلت كل الخدمة في العراق تمثل الفزع لمعظم الموظفين، ولذلك فان قلة من هؤلاء الموظفين في الواقع قد ساهموا في تصحيح هذه الشهرة السيئة عن العراق وذلك عن طريق التحدث عن الاعتبار والامجاد التي كانت تتغنى بها بغداد، وتاريخ نضالها الطويل ضد الجيوش الفارسية، ومحاولاتها الناجحة للانفصال.

ان التقدم الذي اوجدته الثقافة التركية في بعض الاوساط العراقية، لم ينتقص سوى القليل من الصفة العربية التي كانت تشاركها فيها بصفة متساوية، الولايات المتأخرة في الحجاز وفي اليمن، وفي افريقيا الشمالية، وتشترك مع هذه الولايات، ولاية لبنان المعقدة كثيرا.

تتجاوز مساحة الارض العربية كلها بقية اراضي تركيا، وهي تحتفظ بوحدة ثقافية، وتختلف عن الممتلكات التركية، في قضايا العرق والتاريخ واللغة والجو الاجتماعي والعادات. ومثل بقية الولايات العربية، بصفة عامة، فقد جعل العراق بشكل خاص سلطات الحكومة التركية في تماس مع القضايا الاجنبية ذات الذوق الخاص. فالخليفة لم يشغل نفسه بمدى اخلاص العنصر الذي كان يهيمن على المدن المقدسة في الحجاز، وعلى الاضرحة الشيعية في الفرات وضريح الشيخ عبد القادر الكيلاني في بغداد، ذلك لان على الذين يتحدثون بلغة الاسلام الواحدة ويسكنون في اراضيهم، ان يهيمنوا على المزيد من مشاعر لغة الاسلام الموحدة الحية في الاقطار الاسلامية فالى هذه الحقيقة والى مجرد الفخفخة، تعزى الجهود المتوالية التي كان الاتراك يبذلونها لاكمال مالم يستطيعوا في النهاية ان يحققوه الا وهو افتتاح الجزيرة العربية. فالفتوحات التي حققها

---

(٢) فضلنا استعمال كلمة بلاد فارس، لان كلمة ايران لم تطلق الا بعد ان ثبت رضا بهلوي سلطنته بعد سنة ١٩٢٦، واحتل امراء غير فارسيين اقاليم الاحواز (العراق العربي)، واذربيجان، والاقسام الشمالية الشرقية من اراضي كردستان، وقد سلخت مقاطعات من العراق، وعلى الاخص الاقاليم المتاخمة لمنطقة السليمانية، والتي كانت مدينة «سنة» او «سنندج» عاصمة لها

الاتراك على سواحل البحر الاحمر، والاحساء وعمان، قد افلتت في النهاية من ايديهم، بعد المحاولات العدوانية المحيفة المضعفة، والتي كان العراقيون من المشاهدين لها. وهذه المشاهد لم تقلل شيئا من التنافر الملزم المتبادل، الذي كان يسم بصفة عامة، مواقف الاتراك والعرب.

ومع كل ذلك فلم تحظ ولايات العراق الا بالضئيل من الاهتمام الذي كان حيويا لمركز الخليفة. فما خلا شهرته في التاريخ والدين الاسلاميين، كان للعراق مطلب او ادعاء اخر. ذلك لانه من هذه الولايات المهملة، والبعيدة جداً، كانت تصل حكايات تتحدث عن ثروات محتملة هائلة، وتوقع تطور مقبل عظيم الاهمية. ففي السنوات الاخيرة من القرن الماضي لم يكن الرحالون والدبلوماسيون الاجانب وحدهم حسب، بل وحتى الاتراك انفسهم والباب العالي والولاة المتطلعون الى التقدم، كل هؤلاء كانوا يتحدثون عن انشاء السكك، ومشاريع الري، واستغلال المعادن، وتوسيع الملاحة في الانهار، وبناء الجسور، وتخطيط المدن، ففي سنة ١٩٠٠ لم تكن مثل هذه التصاميم لتتقدم فيما وراء مرحلة الانتظار الكسول او المشاريع الوهمية. ذلك لان امراض الفقر المدقع، وجهل الحكومة، وانعدام الامن، كل ذلك قد حال دون تنفيذ اي جزء من هذه المشروعات. ولكن هذه المشروعات ظلت حية في الاحاديث التي تدور في الدواوين والمقاهي، وحققت للعراق مدى من الاهتمام والاحترام.

اصبحت هذه البلاد، العراق، بالنظر الى الاوربي خلال قرن مضى معروفة الى حد ما، وذلك عن طريق ذات الاحلام ومشاريع التنمية، تلك المشاريع التي قيمت نسبها تقييما جيدا ربما في لندن او بطرسبرغ[٤] بدلا من اسطنبول، والتي لم تخل من رائحة المنافسة الدولية.

لقد كانت للعراق طيلة سنين طويلة مكانته في التجارة الدولية، اضافة الى الاهتمام بخطوط النقل النهري والبحري، ولدى الباحثين عن الاسواق الذين تشجعوا بفتح قناة السويس. وظل العراق منذ زمن طويل يحظى باعجاب الطلبة الذين يدرسون التأريخ القديم، وتاريخ التوراة والدين الاسلامي.

ولقد ادهش العالم بالكشف عن مواقعه الاشورية والبابلية والسومرية التي تم التنقيب فيها عن الاثار. كما انه كان يهيئ مدخلا طيلة ثلاثة قرون، امام مشاريع التبشير الكاثوليكية والبروتستانتية. ولقد قدر الستراتيجيون فيما بعد قيمته الستراتيجية، باعتباره الان هو البلد الوحيد الذي يتصل بالخليج العربي، وباعتباره بصفة عامة اكثر، هو الجسر التقليدي الذي يربط بين الشرق والغرب.

اما بالنسبة الى بريطانيا، فان العراق او نصفه الجنوبي كان يؤلف جزءا من «مجال الاهتمام» بالخليج العربي الذي انشأت فيه الدبلوماسية البريطانية طيلة قرنين من الزمن، لها موضعا فريدا

---

(٣) بطرسبرغ من اشهر موانئ روسيا وتعرف الان باسم لنينغراد لان الثورة الشيوعية قد بدأت فيها قبل غيرها من اجزاء روسيا في سنة ١٩١٧.

هناك. فلقد كان القضاء على الاسلحة، ونقل الارقاء، والقرصنة، ووضع الخرائط، والعلامات لارشاد السفن، والاضوية في القنوات، من الانجازات التي لها قيمتها الغالية. ولذلك كان رجال الدولة البريطانيون يشعرون ان احسن مكافأة لهم هي التحرر من المنافسة في مياه الخليج وشواطئه، والعوائق القائمة في شط العرب. وتشترك في ذلك ايضا، المصالح التجارية، والملاحة في المحيطات، والطريق الستراتيجي الى الهند. ولذلك كانت نسبة عالية من وسائط النقل في البصرة بايدي البريطانيين، بالاضافة الى تسعة اعشار حمولة البواخر التي كانت تستعمل في ذلك الميناء.

اما في العراق فان البواخر التي بقيت للسير في نهر دجلة، كانت بواخر بريطانية، وكانت الشركات البريطانية الهندية تمارس اعمالها في كل من بغداد والبصرة.

كان الحجاج الهنود يصلون بالمئات لزيارة الاضرحة العراقية. وكانت الاموال التي تتبرع بها مؤسسة «الاودة» يقوم بها المقيم البريطاني منذ عهد طويل مرتين كل سنة، لكي توزع بصفة صدقة بايدي المجتهدين الشيعة في النجف وكربلاء، وتلك مهمة حصل منها هؤلاء المجتهدون على قدسيتهم، وادى رفضهم الاشراف عليها وجشعهم، كما زعم، الى عملية مربكة ومحزنة.

ولقد كان البريطانيون هم طلائع الاثاريين الذين عملوا في العراق من امثال لايارد، وورولنصون، ولوفتس، وتايلر، الذين جربوا ذلك العمل في اقدم فترة، ثم اعقبهم كل من بدج، وكنغ، في فترة متأخرة.

قامت بعثة من جمعية التبشير الكنسية بانشاء كنيسة ومستشفى لها في بغداد سنة ١٨٨٢ ثم مالبثت ان مدت اعمالها الى الموصل فيما بعد.

واذ كان المقيم البريطاني والقنصل البريطاني العام في بغداد، يراقبان كل هذه المشاريع فانهما كانا يرأسان هذه المؤسسات المهمة اكثر من اي من الممثلين الاجانب. فهما بطبيبهما الجراح ومستوصفهما في دار المقيمية، وبباخرتهما النهرية «كوميت»[٥] التابعة للخطوط البحرية الهندية الملكية، وحرسهما المولف من الهنود، ودوائر البريد الهندية التي تصل الى الاقاليم البعيدة ومقيميهم المتعاقبين، قد اجبرتهم غيرة الولاة منهم على ان يخوضوا نضالا شاقا في سبيل الاحتفاظ بامتيازاتهم.

كان المقيم البريطاني ينتمي عادة الى الخدمة السياسية الهندية. وقد نقل قنصل البصرة بعد سنة ١٨٩٨ الى الخدمة القنصلية في بلاد المشرق[٦] وكان هناك نائب قنصل من جنسية هندية يقوم [illegible] ١٨٩٣ بمراقبة مصالح الزوار الهنود، وتوزيع مبالغ هبات مؤسسة «الاودة» هناك. [illegible] منصب مماثل لذلك في الموصل كان يتولاه احد المسيحيين المحليين.

[illegible] على هذه الباخرة اسم «كمت»

[illegible] وليبان وفلسطين.

كان الموقف ازاء الخدمة في الدولة في العراق خلال سني التسعينات من القرن الماضي، بالنسبة لاي مشروع بريطاني او اجنبي حتى وان كان مقبولا من الناحية الاجتماعية بالنظر الى كل الافراد – ينطوي على الشك. فلقد تنوسيت منذ زمن طويل ايام الايلجي الكبير(٧) وفي الوقت الذي لم يكن يوجد فيه اي منافس للبريطانيين في اسطنبول.

ذلك لان احتلال الانكليز لكل من قبرص ومصر، والموقف البريطاني ازاء مذابح الارمن، والكلمات الشديدة التي اطلقها «غلادستون» كل هذه قد كلفت صداقة بريطانيا للباب العالي، الشيء الكثير، وادت الى اتخاذ موقف ينطوي على الغيرة، واثارة مشاعر المسلمين ضد الاجانب المتطفلين.

وكانت الطلبات الصريحة المتواصلة لرجال العشائر العراقية في الحصول على المساندة البريطانية، وان كان يجري رفضها بصفة صائبة من لدن المقيم او القنصل، كانت تثير الباشاوات بصفة خاصة، وتجعلهم مع قسم من الرأي العام، يصدقون مطامع البريطانيين في الاراضي العراقية ذاتها، مما دفعهم الى بناء حصن طين تافه في «الفاو» لصد الغزاة!

ولقد جاء اهتمام روسيا بولايات العراق، بعد اهتمام بريطانيا بوقت طويل. فالقنصلية الروسية التي اعيد انشاؤها في بغداد سنة ١٨٨٩ كانت تدرك على الاقل، عن طريق جواسيس لها من الارمن، اصرار الروسيا على التغلغل في الاقسام الشمالية الغربية من فارس، وفي اطراف ولاية «وان» وحتى في الجبال الواقعة في اقضية ولاية الموصل ذاتها. ذلك لان القنصل الروسي في البصرة ومساعده، ومجموع موظفيها البالغ عددهم ثلاثين شخصا وهم من الفرس، كانوا جميعا يعتبرون من الرعايا الروس بصفة اسمية ولم تكن لديهم سوى واجبات اخرى قليلة. ولم تطرح على بساط البحث مسألة حماية الروس للمسيحيين الارثوذكس الا نادرا. وذلك لان عدد هؤلاء الارثوذكس في العراق كان ضئيلا.

اما بالنظر الى المشروعات والامال المتعلقة بمد نفوذ القيصر الروسي نحو اهداف اخرى، فان الروس كانوا في العراق اقل نشاطا مما كانوا عليه في بلاد فارس. ولقد كان الطلب الذي تقدم به «الكونت كابنست» للحصول على امتياز بمد خط حديدي من البحر الابيض المتوسط الى الخليج العربي، وكما سيظهر فيما بعد، هو الذي عجل في عقد الاتفاقية البريطانية مع الكويت سنة ١٨٩٩

وشارك الفرنسيون جميع الاخرين في التعيينات القنصلية في العراق، وعلى الاخص تعيين قنصل لهم في البصرة خلال القرن السابع عشر، وفي بغداد في القرن الثامن عشر، اما في سنة ١٩٠٠ فلم يبق لديهم سوى نائب قنصل في بغداد وكانت مصالحهم التجارية طفيفة في الواقع، واغراضهم السياسية لاوجود لها الا نادرا. وكان لهم المجال في نوعين من النشاط. الاول هو

---

(٧) الايلجي كلمة تركية يقصد بها السفير.

التنقيب عن الاثار ذلك الميدان الذي ولجه المنقبون الفرنسيون في وقت مبكر من امثال «بلاس» و «فرسنل و اوبير» بينما لعب «دي سارزك» الدور الشهير فيه. اما النوع الثاني فهو في ميدان الكثلكة، اذ لعب الفرنسيون بصفة مطلقة، دور الحماة لجميع الكاثوليك، والموحدين[٩] المحليين. ولقد اصبح لهم عن طريق بعثاتهم التبشيرية وقسسهم، والمندوب البابوي الذي كان يقيم في الموصل، تأثير قوي على اكبر عدد من الهيئات المسيحية واكثرها غنى، وهو تأثير وجد فيه المراقبون عنصر القومية الغالية (بتشديد الياء)[١٠] التي صاحبها الحقد على غير الكاثوليك وعلى الدول التي قد تساندهم. كانت بعثات التبشير قديمة وجمة النشاط وكان الكرمليون الذين اقاموا طويلا في العراق، يحتفظون لهم بمدرستين للبنين، وبمطبعة وميتم ومستوصف في بغداد

اما في الموصل فان الاباء الدومنيكان، وهم من الايطاليين قبلا، ثم اصبحوا من الفرنسيين منذ سنة ١٨٥٩ كانوا هم الاخرون ايضا، يحتفظون بمدارسهم في المدن وفي القرى، وبمستوصفاتهم، وبكلية لتدريب القسس وكنيسة خاصة بهم وبمطبعة حجرية تجارية. هذا في الوقت الذي كانت فيه جمعية اخوات عيد تجلي العذراء وهي من نفس الطائفة، تقوم بادارة المدارس الابتدائية، ومعامل الحياكة بالابرة للفتيات في الموصل منذ القرنين السابع عشر والثامن عشر. وقد مدت هذه الجميعة نشاطها الى بغداد في سنة ١٨٨١، وقطعت هذه الجهود شوطا بعيدا في نشر اللغة الفرنسية، واغنت ثقافة طائفة الموحدين، وشاركت في ايجاد عنصر من التعليم الحقيقي للعالم المحلي. والواقع ان العراق، وولاية الموصل بصفة خاصة، كانا يؤلفان جزءا من نطاق الهيمنة الثقافية الفرنسية. اما النشاط التبشيري لليهود والفرنسيين، فلسوف يرد ذكره فيما بعد.

استبدل منصب قنصل الولايات المتحدة الامريكية في سنة ١٨٩٤ بمنصب نائب قنصل، كان يقيم بصفة متقطعة في بغداد. ذلك لان الاهتمام الامريكي بالعراق كان طفيفا. ولكن حدثت مطامع امريكية في ميدان التنقيب عن الاثار في العراق خلال سني الثمانينات من القرن الماضي، ومن ثم اعقبها موسم من التنقيبات، وانشاء فرع لبعثة تبشيرية عربية تابعة للكنيسة الهولاندية الجددة في امريكا، بدأت في سني التسعينات بانشاء مدرسة[١١] ومستوصف ومستشفى في البصرة، والاقدام فيما بعد على القيام بعمل اخر مماثل في كل من العمارة والناصرية.

واستطاعت هذه الجهود الامريكية، التي جوبهت بمقاومة تركية عنيفة، ان تحافظ على بقائها ذلك ان عددا من الكاثوليك المحليين قد تحولوا الى المذهب البروتستنتي.

ولم تبد امم اوربا الاخرى في هذه الفترة اي اهتمام، وربما اهتماما ضئيلا جدا في العراق. فقد

---

(٨) « UNIATE

(١٠) الغالية نسبة الى بلاد (الغال) التي كانت تضم في وقت سابق من الزمن اقساما كبيرة من الاراضي الفرنسية الحالية.

(١١) [illegible] هذه هي مدرسة الرجاء التي ظلت قائمة حتى اواخر سني الستينات من القرن الحالي.

ظل الرعايا اليونانيون يلجأون الى المقيم البريطاني حتى سنة ١٨٩٧ في حين بقي النمساويون يلجأون الى القنصل الفرنسي حتى سنة ١٩٠٠ وكانت الامبراطورية الالمانية قد وطدت مصالحها الطفيفة في العراق بالنسبة الى بريطانيا حتى سنة ١٨٩٤ عندما عين المقيم الالماني في بغداد بصفة قنصل. وظهرت في اواخر القرن الماضي نشاطات الالمان في ميدان التنقيب عن الاثار فظهر سخاو في سنة ١٨٧٩، ثم ظهر كولدوي في سنة ١٨٨٩ وعاد ثانية مرة اخرى سنة ١٨٨٩ ومابعدها(١٢)

غير ان الالمان لم يبدوا اي اهتمام اخر بالقطر الا بعد ان طرح شعار السياسة الالمانية القائل بالزحف نحو الشرق في نهاية القرن الماضي(١٣) وكانت المسألة الملتهبة فيه هي قضية سكة حديد بغداد.

وفي الوقت ذاته بدأ تغلغل الالمان داخل تركيا عن طريق ارسال بعثة من الضباط الالمان العسكريين، وقيامهم بمشروع مد سكة حديد الاناضول، وزيارات القيصر الرسمية. وتخلي حكومته وحدها عن الدول التي استنكرت المذابح التي اوقعها الاتراك في الارمن. الامر الذي وطد مكانة المانيا في المكان الخالي الذي كانت تشغله بريطانيا قبلا باعتبارها الدولة الغربية الرئيسة في الامبراطورية العثمانية.



(١٢) انظر عن نشاط هؤلاء المنقبين الالمان كتابينا «سومر» و «بلاد اشور» اللذين ترجمناهما عن المنقب الفرنسي الشهير اندريه بارو وصدرا ضمن مطبوعات وزارة الثقافة والاعلام في سنتي ١٩٧٩ و ١٩٨٠

(١٣) كان هذا الشعار هو DRAG NACH OSTEN وتطبيقاً لهذا الشعار بدأ الالمان يعملون بجد على انجاز مشروع سكة حديد بغداد – برلين ونجحوا في الحصول على امتياز بمد هذا الخط قبيل الحرب العالمية الاولى باعوام قليلة ثم توقف العمل عند بدء تلك الحرب.

٢ ـ القطر والسكان

يمكن الاشارة بايجاز الى مناطق سطح الارض التي ينقسم اليها العراق، وان كانت هذه المناطق تعود بصفة اساسية الى الموضوعات الجغرافية، وبصفة اقل الى القضايا التأريخية، ذلك لان هذه المناطق تؤثر تأثيرا عميقاً في حياة السكان، وتعكس اصول سلالاتهم

يأتي في الدرجة الاولى حزام الجبال في الشمال وفي الشمال الشرقي من العراق. ذلك ان جزءا من بلاد ارمينيا الرئيسة، ومن جبال زاغروس، اصبح في سنة ١٩٠٠ يؤلف محافظة السليمانية، والقسم الاكبر من محافظتي الموصل وشهرزور. فهذه البقعة من البلاد ليست عربية وكل سكانها من الاكراد قطعا، وهي عبارة عن جبال جرداء من الدرجة الاولى، لكنها تشتمل في ذات الوقت على مناطق تملؤها الغابات، وتتقسمها الأودية العميقة التي تتسع في بعض الاحيان فتتحول الى سهول، حيث ينتج السكان في مئات من القرى التي تنتشر في هذه السهول، الحنطة، والرز، والخضار والفواكه، والتبغ، وكلها تنمو على مياه الينابيع والجداول والامطار الغزيرة نسبياً ويكون المناخ فيها مقبولا خلال الصيف، وقارس البرد اثناء الشتاء، في حين يفيض الجمال الظاهر فيغمرمنظر الارض بصفة عامة. وفي المناطق السهلية المنبسطة في كل من لوائي الموصل وشهرزور، تمتد اراضي مرتفعة خالية من الشجر، بالاضافة الى مجاري واطئة لنهري الزاب الكبير والصغير معا

ولقدكان الزراع الذين سكنوا القرى في عصور اشور القديمة يزرعون الحنطة التي كانت تنمو خلال فصل الربيع على مياه الامطار، وفي بعض الاماكن على المياه التي ترفع من الانهار. ويقع القطر، متوسطا في محيطه وفي عنصره. بين منطقة الجبال والاراضي المنبسطة الحارة في الوسط وهذا القسم الاخير عبارة عن منطقة اكثر سعة، واعظم ميزة من بقية انحاء القطر تشمل محافظتي بغداد وكربلاء ومعظم اراضي محافظة الحلة. ففي اي مكان من هذه الاراضي المنبسطة الميتة، لايتوفر فيه الحجر ولاتسقط فيه الامطار الكافية لزراعة الحاصلات الا في مواسم نادرة، وتحتاج الى ان تزرع عن طريق رفع المياه من الانهار، والقنوات المسيطر عليها او السيطرة على قنوات الفيضان

وتتألف الحاصلات التي تنمو في الشتاء والصيف من الحنطة والخضراوات وبعض الرز الحلي، وبساتين النخيل الشاسعة. ويعيش السكان، وكلهم من العرب. في قرى مبنية بالطين او خيام مصنوعة من الشعر او الاكواخ المصنوعة من القصب.

ويشمل الريف الرسوبي المنبسط هو الاخر، والمؤلف من دلتا نهري دجلة والفرات وبجوار خط الساحل الذي عرف في فجر التأريخ وماقبله، القسم الجنوبي من محافظة الحلة، ومعظم اراضي المحافظات الثلاث الاخرى وهي العمارة والمنتفق والبصرة[١٤]

وقد تميز هذا الريف بوجود نسبة اعلى من اكواخ القصب، ونسبة ادنى من القرى الطينية، وبقلة من منتوج الحنطة والشعير، ولكن بوفرة كبيرة من منتوج الرز في المناطق التي يغمرها الفيضان. كما يتميز ايضا بوجود اميال من بساتين النخيل، وبالطريقة الخاصة للحياة التي طورها مربو الجاموس، وحائكو الحصر. وصيادو الاسماك في الاهوار الواسعة.

واذ نتجاوز التوابع العربية للبصرة، يبقى علينا ان نشير الى منطقتين اخريين، احداهما منطقة شط العرب في محافظة البصرة التي تشتهر ببساتينها المنظمة التي تمتد الى عدة اميال في شقة منخفضة بين النهر والصحراء، وثانيهما الريف السهوبي المقفر الذي لاتسقط فيه الامطار غالبا، ولاينمو فيه سوى الحد الادنى من العشب، وهو يعادل في مساحته بقية ارض العراق في الصحراء الشامية جنوبي غربي نهر الفرات وغربيه، والجزيرة العليا التي تقع شرقي نهر دجلة الى الاسفل من بغداد ومن فوقها، على جانبي جبل حمرين. فهذه الاراضي المقفرة تعود الى البدو الاعراب الحقيقيين الذين يعنون بتربية الابل. وقد كانت اغنام الذين ينتشرون في حوافيها المبسطة على مقربة من الانهار، موطنا للنصف من اقسام العشائر التي تشتغل بالزراعة

ويختلف سكان هذه الاقسام اختلافا واسعا في مدى تماسهم بالحضارة المدنية، واتصالهم بالحكومة. والى مقربة منهم يأتي مواطنو المدن، ومن ثم القرى المأهولة بالسكان، والمزارعون القبليون الذين يسكنون الاكواخ، وسكنة الاهوار، والرعاة شبه المتوطنين عند حافة الصحراء، والبدو الخلص. وهذه الاقسام الاخيرة تؤلف عنصرا صغيرا، ولذلك فان اعتبار العراق قطرا بدويا على نطاق واسع، يعد خطا شائعا، ذلك لان معظم مناطق القطر كانت على الدوام توفر الفرص الملائمة للحياة المستقرة فيها، ولايوجد البدو الاّ في المناطق التي لايتوفر فيها اي شكل اخر من اشكال الحياة

ليس مستطاعا اعطاء تقدير يوثق به سواء الان او فيما بعد، لسكان الولايات الثلاث. ذلك لان احصاء النفوس في العهد التركي كان يتم بشكل واه حيث تنعدم الكفاية الواسعة للقيام به، وكان يقتصر على المدن وعلى اغراض الكتابة ليس الا والارقام التي يعطيها رجال العشائر ورؤساء المجتمعات المدنية، تختلف تبعاً لمخاوفهم او امالهم في الضمان او المنفعة. ذلك ان محافظة البصرة في سنة ١٩٠٠، باستبعاد المناطق العربية التابعة لها، ربما كانت تضم مليونا وربع المليون نسمة. وقد يعتبر معدل مجموع السكان مابين مليونين ومليون ونصف المليون من التقديرات الصائبة

---

(١٤) الى ميسان وذي قار والبصرة حسب التسمية الحديثة

ولقد كانت العناصر التي يتألف منها سكان العراق، والمساهمة التي يقدمها كل فريق منهم، متباينة هي الاخرى. فالعرب يؤلفون الا كثرية الساحقة ولكن من هم هؤلاء العرب؟ لقد كان حتى سكان الجزيرة العربية القديمة مزيجا من اصناف جسمانية، وان من الخطأ ان نتطلع الى «نقاوة العنصر» في الفروع المتأخرة، كما هو الامر بالنسبة الى العناصر الاخرى من العالم المتحضر.

لقد كان العرب في عراق سنة ١٩٠٠، كما هو الامر بالنسبة الى الوقت الحاضر[١٥] من العراقيين الذين يتكلمون اللغة العربية وهم عبارة عن خليط موحد يضم عناصر جسمانية من جميع السكان الذين دخلوا هذه البلاد منذ فجر التأريخ، بصفة غزاة او مهاجرين، حيث تمثلوا فيما بينهم ليؤلفوا بذلك المجتمع العراقي الذي طغي عليه عرب الجزيرة العربية في القرن السابع للميلاد فحولوه بفضل اسلحتهم وعقيدتهم الدينية الى عرب مثلهم تماما.

ولقد كان الشعب العراقي في نهاية القرن السابع عشر لاهيا عن اية مؤسسات ثقافية او اخلاقية.

اما في داخل المجتمع العراقي فان الشيء السائد فيه هو التقليد المشترك والمفاخرة بالعرق الى ابعد مدى، وفي معظم العلاقات، هي الفروق التي اوجدها تنوع المحيط والمصلحة الذهنية والمادية. ومع ذلك كله فقد تكون مثل هذه الفروق ثابتة بين المدينة والقبيلة، كما انها موجودة ايضاً بين المجتمعين الرئيسين وهما المجتمع الديني والمجتمع الاجتماعي. ومن هنا فان تنافرهم الشامل قد يتحول الى العنف كما إن التمازج الاجتماعي فيما بيهم كان ضئيلا

تضم ولاية الموصل الجبلية اكبر قدر من الاقليات العراقية الى جانب الاكراد. وهذه الاقليات تؤلف جزءاً جوهرياً، ربما يبلغ الثلث من مجموع العنصر الكردي، الذي يعيش في حزام واسع من الحدود الشرقية من الاناضول، ويمتد حتى عبر الحدود الروسية والايرانية، وهو اقليم يدعى المتطرفون من الارمن بانه كان تابعا لهم، ويشمل خمس ولايات من تركيا، كانت ولاية الموصل تؤلف الولاية الجنوبية الشرقية منها

ويؤلف الاكراد بشكل واضح كتلة عرقية ولغوية تتباهى مباهاة شديدة بالانجازات القديمة، وبذكرى الامارات المستقلة. واذ يقتنع هؤلاء بتفوقهم على العرب والاتراك معا، فانهم يختلفون اختلافا ملموسا عن العرب في السلوك والمحيط والعادات الشخصية، لكنهم يشبهونهم شبهاً وثيقاً في التنظيم الاجتماعي الذي يمثل تجاوباً مشهودا لذات الحاجات الاجتماعية. ولقد كانت الحياة البدوية فيما بين الاكراد، والمصحوبة عادة بامتلاك الاغنام بدلاً من الابل، تكاد تكون محصورة في عشائر قليلة، لكن الولاء العشائري هو الذي يسود في كل مكان، الا في الحالة التي تؤدي فيها مصالح القرية او المنطقة، او مجرد انعدام الزعماء، الى التفتت والانهيار

كانت اكثرية النصف من محافظة الموصل اقليما كرديا مقسما الى اقضية دهوك والعمادية

---

(١٥) يقصد المؤلف بالوقت الحاضر، التأريخ الذي صدر به هذا الكتاب وهو سنة ١٩٥٢.

عقره. وريبار بالاضافة الى محافظة السليمانية ذاتها وثلثي محافظة شهرزور.

وما خلا فئات قليلة جدا من الشيعة، وجدت فئة من الاكراد في محافظة الموصل، وهم من اتباع المذهب الشافعي او الطريقة القادرية. ولكن تماسكهم من ناحية اللغة والثقافة ليس كاملا فهم يتألفون من ثلاث مجموعات تقليدية او ضبابية هي الاكراد البهدنانيون الذين يسكنون فيما بين نهر الزاب الاكبر وحدود ولاية «وان»[١٦] والصورانيون فيما بين الزابين الاكبر والاصغر. والبابانيون بين الزاب الاصغر حتى نهر «سروان»، «ديالى». وتختلف المجموعة الاولى في لغتها الكرمانجية عن المجموعتين الاخريين اللتين تتكلمان، بالاشتراك مع اكراد بلاد فارس، اللغة الكردية التي لم تحقق لها اية صفة ادبية[١٧]

اصبح ميل الاكراد المتجولين الى الاستقرار والتوطن واضحا منذ وقت طويل. لكنه مع ذلك مايزال يحتاج الى وقت اطول، في ذلك الوقت الذي سوف يستمر فيه تجمع سكان التلال في السهول بيتا الى بيت خلال مدى نصف قرن مقبل من الزمان.

في سنة ١٩٠٠ كانت الحرية التي تتمتع بها السلالات والاسر الحاكمة في الوادي الكردي، تعود الى العهد الماضي على نطاق واسع وقد كان بعض القائمقامين والمديرين الاتراك، وبعضهم من عنصر كردي، يقيمون احيانا في كل قضاء وناحية. ومقابل ذلك كان الاكراد يوفرون الكثير من الموظفين والجنود للامبراطورية العثمانية. وكانت الطبقة المتعلمة، وعلى خلاف الولايات العربية، ذات نسبة ضئيلة تماما، اذ لم تكن هناك اية طبقة كردية مثقفة، ماخلا بعض الافراد النادرين الذين كانوا يعيشون في المنفى. ذلك لان الكردي المتعلم في وطنه او في الخدمة الحكومية، كان في تلك الفترة، يحمل مشاعر الرجل التركي وثقافته

ومن ناحية اخرى كان التنظيم القبلي للاكراد، والذي يتألف من مجمعات متراصة متآلفة يتراوح عدد افرادها فيما بين الف، والف وخمسمائة نسمة، غير قادر على مجابهة الادارة الحكومية الا اذا كانت هذه الادارة رحيمة، وقوية سهلة الانقياد. والحقيقة ان افراد العشائر في مناطق واسعة كانوا مايزالون يظهرون اصدق الولاء لزعمائهم بدلا من الحكومة التركية، وهكذا ظلت الاكثرية الساحقة من الاكراد غير متجاوبة او متعاونة. ويبدو ان عدم استقرار الامن فيما بينهم، والناجم عن طريقة الحياة المفضلة لديهم، لايمكن تقليصه باي نظام كان من انظمة الحكم غير

---

(١٦) البهدنانيون نسبة الى بهدينان وهي امارة منطقة «العمادية» وهم يدعون من بقايا العباسيين الذين التجأوا الى منطقة العمادية بعد الغزو المغولي للعراق وان زعيمهم يدعى «بهاء الدين» فسموا باسمه

(١٧) حدث تطور كبير بالنسبة الى اكراد العراق في السنوات الاخيرة. فالتطور الاقتصادي قد صاحبه تطور ثقافي واسع برز واضحا في ظهور حركة ثقافية واسعة وبروز عدد من الكتاب والشعراء الاكراد الذين اخذوا يسعون الى نشر تراثهم الثقافي، بحيث اصبحت العلاقات المميزة للثقافة الكردية متميزة تمييزا جليا في ميدان الثقافة والادب الذي شمل العراق كله بعربه واكراده في السنوات الاخيرة وعلى الاخص منذ قيام ثورة الرابع عشر من تموز حتى الان.

المباشر الذي حاول الاتراك تطبيقه. او كان الاكراد يتقبلونه

ولما كان اليزيديون يشاركون الاكراد في الاصول العرقية فانهم يشبهونهم تماما في العادة وفي طراز الحياة ذلك لأن اليزيديين كانوا قد تركزوا اساسا في جبل سنجار على بعد خمسين ميلا غربي مدينة الموصل. في حين ان المكان المقدس لديهم وهو ضريح «شيخ عدي» يقع في سهل الموصل ذاته

ولقد كان التركمان المزارعون من سكان القرى والذين لايضمهم اي تنظيم عشائري، يوجدون باعداد في مدن كركوك والتون كوبري واربيل وكفري. وفي قرى قره تبه، وطوز خرماتو وداقوق وذلك على امتداد الطريق المتشعب بين بغداد والموصل، ويوجد عدد منهم في تلعفر في منتصف الطريق بين الموصل وسنجار. وربما كان هؤلاء الناس الذين يتكلمون التركية، منحدرين في الاصل من حرس الحدود الذين وضعهم الخلفاء العباسيون هناك، والذين لم تكن لهم اية مواهب، او بسالة، لكنهم كانوا يساهمون منذ امد طويل بصفة مضيفين للافندية من افراد الطبقة البيروقراطية. ولقد اغنوا القرى ومناطق الريف بصناعاتهم الكاملة. وباحساسهم الصادق. واشتهر البعض منهم بانهم اصبحوا بغداديين، وان قلة من العائلات الاقليمية تنحدر في الاصل من الدم التركماني. اما مستقبل تأريخهم فالمتوقع عنه بانه سوف يكون الذوبان التدريجي لهم في المجتمع العربي. ويصدق هذا الشيء ايضا على طائفة «الشبك» الصغيرة التي تعيش وتتحدث بلهجة كردية محلية على ضفاف نهر دجلة جنوبي الموصل والمعتقد انهم يمثلون الطراز الهرطقي من الشيعة

وتكاد تكون هذه الاقليات الكردية واليزيدية والتركمانية محصورة في ولاية الموصل وحدها في الغالب، كما يوجد الفرس في بغداد ايضا وقد تغلغلوا في كل طبقة من طبقات المجتمع العراقي، وبذلك كانوا يؤلفون مجتمعا اجنبيا لاتمكن السيطرة عليه وذلك لان مايدينون به. والواقع الذي دفع بهم للقدوم الى العراق كان في ذات الوقت من اهم اسباب الارتباك الذي كان يحدث في الامبراطورية العثمانية. وليست للفرس ولا «للار» الذين يسكنون المدن المقدسة او بغداد، اية جنسية بصفة عامة. ذلك ان الذين يسكنون منهم المناطق الجنوبية من جبال زاغروس ويخضعون لسلطة واليهم المقيم هناك، يفدون على بغداد والبصرة ويشتهرون فيهما بممارسة الاحمال الثقيلة، وهي المهنة التي يحتكرونها. كما انهم في ذات الوقت يعيشون في صفة تجار وصناع في مناطق

---

(٢١) الشبك طائفة من الاكراد الشيعة الغلاة في التشيع والتمسك ببعض الاساطير غير المعقولة ولهم صلتهم القوية باليزيدية وبطائفة اخرى من الاكراد يعرفون باسم طائفة «حقة» وغيرها ويسكن الشبك في القرى المجاورة لمدينة سنجار، ويتجاوز عددهم عشرة الاف نسمة، ولهم طقوسهم الغريبة جدا وخير من تحدث عنهم هو الاستاذ احمد حامد الصراف في كتابه «الشبك» الذي صدرت **طبعته الاولى في سنة ١٩٥٤** وهم ينسبون العديد من المعجزات الى «علي بن ابي طالب» كرم الله وجهه، **مثل بقية الطوائف الشيعية الاخرى.**

اواسط دجلة والغراف، ويعرفون هنالك باسم اكراد الفيلية[19] ويسيطرون على مدن مندلي وبدرة والقرى القريبة منها ولم يحدث نصف القرن الذي مضى اي تغيير في هذا الوضع، ويصدق ذات القول على طائفة الصابئة الصغيرة المؤدبة المعروفة باسم «المندائيين» والذين يسميهم الرحالون خطأ بانهم المسيحيون الذين يتبعون «يوحنا المعمدان» فهؤلاء الناس بلغتهم التي تشبه طراز اللغة السريانية وبكتابهم المقدس المكتوب باللغة وبالحروف المندائية، يعملون في صفة صاغة وصانعي زوارق في المدن والقرى التي تقع على شواطئ الانهار، حيث يكون الماء الجاري متوفرا لاداء شعائرهم الدينية. ولكن اصولهم ومعتقداتهم ليست اسلامية ولامسيحية، ولم تتم حتى سنة ١٩٠٠ اية دراسة لاحوالهم وعوائدهم المميزة لهم الا بصفة ضئيلة[20]

وكان يهود العراق في سنة ١٩٠٠ يؤلفون الاقلية الرئيسة في البلاد فكانوا مثل الطوائف المسيحية الاخرى، يؤلفون «ملة» معترفا بها في الامبراطورية العثمانية، ولهم استقلالهم الداخلي في شؤونهم الخاصة، والاجتماعية. وكانوا يتجمعون باعداد كبيرة او صغيرة في كل مستوطن مدني او قرية كبرى ابتداءا من حدود ولاية «وان» حتى اقصى انحاء الجنوب. ذلك انهم كانوا يعيشون في كل مكان تتوفر الصناعات فيه، ولايلاقون فيه الاذى، ويضمون فيما بينهم، ولاسيما في الموصل وفي الشمال، اكثر عناصرهم فقرا وتأخرا. ولما كانوا يعفون من الخدمة العسكرية[21] ولايساهمون في الحياة العامة الا بدور ضئيل، فقد كانوا يشغلون الوظائف، ويبرزون مميزات عنصرهم، ويديرون مدارسهم وبيعهم بانفسهم. وكثيراًمايشاهد البعض منهم حتى في اشد المناطق الكردية وحشية، يعمل وكيلاً، وذا قيمة، لاحد الاغوات الذي قد يتباهى بوجود العامل اليهودي الشاطر لديه

اما في بغداد وهي المدينة التي كانت تضم خمسين الف نسمة، فان عدد اليهود فيها كان كبيرا. ونظراً لوجود وكلاء لليهود في بومباي، وفي مانجستر وباريس، فقد اصبحت لهم السيادة في ميدان التجارة، والشؤون التجارية، التي غالبا ماكان المسلمون يضطرون الى المشاركة معهم فيها، في حين كان التجار المسيحيون يبتعدون في نطاق واسع عن طرق هذا الميدان. كان التعليم الغربي منتشرا في مدى واسع بين اليهود وكانت تبشر به المدرسة اليهودية الفرنسية التقدمية الفاخرة

---

(١٩) يحاول بعض الكتاب والساسة الاكراد ولاسباب سياسية خالصة، ان يعتبروا افراد الفيلية من الاكراد في حين ان هؤلاء من الاصول الاساسية للعنصر الفارسي، وان لغتهم فارسية وان اختلفت في لهجتها، كما ان ولاءهم على طول الازمان كان ومايزال لحكام بلاد فارس وليس للبلد الذي يعيشون فيه وهو العراق.

(٢٠) من خيرة الدراسات التي وضعت عن الصابئة في العراق، هي الدراسات التي الفتها «المسزدرا زوجة السيد دراور، مستشار وزارة العدل. ولقد قام الاديبان نعيم بدوي وغضبان رومي بترجمة احدى هذه الدراسات القيمة ونشرها في كتاب ضخم صدر في سنة ١٩٦٩ بعنوان «الصابئة المندائيون في العراق» كما ان للمسز دراورد ايضاً دراسة موسعة ومهمة عن اليزيدية اصدرتها في سنة ١٩٢٨ بعنوان «الملاك طاووس»

(٢١) لم يكن اليهود معفوين من الخدمة العسكرية لكنهم كانوا يتفادونها عادة بدفع البدل النقدي عنها حتى في العهد الملكي

والمعروفة باسم «رابطة الاليانس» التي اسست في سنة ١٨٦٤ فهذا المجتمع الذي كان يضم الاغنياء من الاقطاعيين والبارزين، والذي كان ينمي بصبر، يتجاوز حدود المساواة الاجتماعية، كل القابليات والثراء الناجح الذي يثير الحسد، والجشع المتزايد ولكن من دون اثارة اية شكوك سياسية. ان التدمير الذي احدثته السياسة الصهيونية لوضع اليهود ولسعادتهم سوف يظل قائما مابعد نصف قرن مقبل من الزمن

ولم تكن الطوائف المسيحية في الولايات الثلاث لتختلف الا قليلا عما هي عليه في ايامنا هذه. ذلك لأن الطوائف كثيرة العدد تنتمي الى الملل الرسمية التي يرأسها محليا اسقف او مطران او بطريق. وعلى مثل هذه الشاكلة يكون وضع ءالارمن الارثوذكس الذين كان عددهم كثيرا في المدن، لكنهم اصبحوا الان اكثر تركيزا [٢٢] وهنالك الاثوريون او النساطرة وكانوا قلة ظاهرة في عراق سنة ١٩٠٠ وكانوا محصورين غالبا في قصبة العمادية في الشمال. اما اليعاقبة فلا توجد سوى بيوت قليلة مهم في الموصل اضافة الى السريان الكاثوليك، وهم من اليعاقبة الذين اعتنقوا الكثلكة، ومجمعات صغيرة من الاغريق الارثوذكس، وفئات اصغر ممن تحولوا الى البروتستنتية، بفعل نشاط بعثات التبشير، واخيرا طائفة الكلدان المهمة كثيرة العدد، وكانوا في الاصل من النساطرة الذين نزحوا من الجبال التي كانوا يعيشون فيها الى الموصل وقراها ثم اعتنقوا الكاثوليكية لكي يؤلفوا الكنيسة الوحدانية

ويتمتع المسيحيون الذين لايهتم الاتراك ولا العرب، بالفروق الحاصلة في مسلكهم وادارتهم لكنائسهم، بمنزلة تفوق منزلة اليهود ومماثلة لمنزلة المسلمين. ومع انهم اكثر فقراً من اليهود الا انهم اقل تذمرا.

ويمتلك المسيحيون الاراضي الخاصة ويزرعونها في قراهم الشمالية، لكنهم لم يتعودوا مثل ذلك في القسم الادنى من العراق وهم يتخصصون في تجارة المفرق وادارة الفنادق والصناعة واحتراف المحاماة والقانون، ويعمل عدد كبير منهم في الوظائف الحكومية. وكان الكلدان من «تلكيف» منذ زمن طويل يحتكرون العمل في البواخر النهرية. ولكل هذه الطوائف كنائسها وقساوستها ومدارسها الاعتيادية التي كانت تدار طيلة سنوات عديدة خلت من قبل بعثات الكنائس الاوربية. وكان مستوى التعليم فيما بيهم متقدما بالنظر الى المستويات العراقية في ذلك الوقت، وقد شرعوا منذ البداية في انشاء مدارس البعثات التبشيرية. وكان المسيحيون، مثل اليهود، معفوين من الخدمة العسكرية، او يدفعون ضريبة البدل عنها. وكانت الطائفتان المسيحية واليهودية معا، تشاركان باعضاء منها في المجالس الرسمية المقامة في مناطقها

---

(٢٢) سمحت الحكومة العراقية في سنة ١٩٥٩ لعدد كبير من الارمن بالعودة الى جمهورية ارمينيا، غير ان طائفة كبيرة من الارمن اثرت البقاء في العراق بعد ان تعودت الحياة فيه وتوفرت لديها وسائل العيش الطيبة، وميادين العمل الواسعة في الدوائر الحكومية وخارجها.

ويؤلف الاتراك انفسهم اخر الاقليات التي تمكن الاشارة اليها وهم ممثلون في العراق بعشرات قلائل من كبار الموظفين، وبعوائل اجبرتها ثرواتها او اوضاعها السياسية على العيش هناك. كما انهم يمثلون ايضا بالنساء التركيات لعوائل الطبقة العليا في المدن، وربما بنسبة الخمس من افراد القوات العسكرية الموجودة، او العشرين في المائة من افراد الجندرمة.

ولكن هذه الاقلية كانت قوية بصفة ظاهرة، وذلك بسبب سلطة الحكومة، وباتصالات رؤسائها بادارة الحكم في اسطنبول، وكذلك بانتشار الثقافة التركية فيما بينها.

ولقد نجم عن ذلك ان عددا من العراقيين، لم يكن عددهم كبيرا، قد اجتذبتهم الامتيازات التركية فاصبحوا كلهم من المبرزين واعتبروا انفسهم بانهم من الاتراك، وذلك قبل ان يطلع فجر القومية العربية وحتى مابعده. وكانت اللغة التركية في كل مكان هي لغة الحكومة والمحاكم والمدارس الحكومية





٣ ـ الفرس والعرب المتجاورون

عانت كل من تركيا والعراق، لامد طويل، من عدم الاتفاق مع جيرانهما الفرس. ومع ان ايام الحروب العدوانية الواسعة التي شهدها العراق، قد انتهت في القرن التاسع عشر[١] فقد بقيت تلك الايام من الاسباب التي توذي الرغبة في الاتفاق بين الشعبين المتنافرين اللذين يختلفان في اللغة والثقافة والسلوك. ولم يتناقص ذلك التنافر حتى بوجود ممثلين قنصليين من الفرس، كان البعض منهم تحيط به الريب والشكوك، في حوالي اثنتى عشرة مدينة في العراق. كذلك كانت الامبراطوريتان التركية والفارسية المختلفتان مذهبيا، تمران عبر مراحل متباينة من تطورهما. ذلك ان تركيا كانت تناضل في سبيل توفير الحياة العصرية والالهامات الغربية، في حين ظلت بلاد فارس تعيش بذهنية العصور الوسطى، ويستبد بها القلق بسبب وجود توابع نصف مستقلة في اراضيها. ولقد تجلى رد الفعل باقسى صيغه عندما بزغ نجم «مظفر الدين شاه» في طهران، منذ اعتلائه العرش في سنة ١٨٩٦

لقد برهنت قضية الحدود بانها كانت من القضايا الكبرى التي تثير الاضطراب. ذلك لان خط الحدود لم يجر تحديده، ولم تتم تسويته بصفة اكثر استقرارا من التسوية التي قامت على اسس اعتبارها من التعويضات عن كثير من الحروب التي وقعت، وعن الولاء المتقلب للقبائل. ذلك لان خط الحدود كان يمر في اراض منبسطة لا مظهر لها في المناطق الشرقية من اداني نهر دجلة، ومن ثم يجتاز الخط جبال كردستان المتعرجة. فضلا عن ان خط الحدود هذا يفصل بين شعوب متحدة في الجنس كانت تتوق الى الهجرة في الغالب، او غير قادرة على ان تمنح الولاء لعرش بعيد عنها.

اعقبت معاهدة ارضروم سنة ١٨٤٧ ثلاثون سنة اخرى، كانت ملأى بالاتفاقات، والبعثات، ووضع الخرائط. وفي الربع الاخير من القرن الماضي شهدت تلك الاتفاقات الكثير من الانتهاكات البسيطة، ومجابهة التدخلات، والاحتجاجات الحانقة.

---

(١) يشير المؤلف بهذا الى الاعتداءات المتعاقبة التي شنها الفرس على العراق، منذ ايام الصفويين ومن جاء بعدهم من الحكام الحاقدين من امثال كريم الزند و نادر شاه وغيرهما، مما اكد للعالم كله مدى اطماع الفرس في العراق ومحاولاتهم المتكررة لبسط سلطانهم عليه. فلقد كانت لهذه الاطماع والاعتداءات جذورها قبل التاريخ الميلادي، المتمثلة في اعتداءات «كورش» وغزوات الفرثيين والساسانيين قبل الاسلام وعدد من غزوات البويهيين والصفويين وغيرهم بعد الاسلام واخيرا الحرب العدوانية الغادرة التي شنها «الخميني» الذي انكشفت عمالته للامبريالية والصهيونية ابتداء نن ايلول ١٩٨٠.

الاتراك مايزالون يطالبون باستعادة من واوديه كان الفرس "وبانه" وسردست ورهاب. الوقت الذي كان فيه الفرس يطالبون بسهل حول وجبل هورمان اضي تقع على مقربة خانقين. فهذه الاشكال من العراك التي كانت تعكر كل أمن الحدود. كان صداها يتردد حتى في اقصى الجنوب. وذلك بالادعاءات التي يطلقها كلا الطرفين بامتلاك المياه الضحضاحة من نهر سط العرب والجزر القائمة فيه[4]

كانت تركيا في هذا الوقت قد حلت عن مطالبها بالمحمرة ولكن الخصومات والمصادمات بشان سط العرب قد هيأت خصبا لممارسة اعمال القرصنة. وادت بدورها الى التدخل البريطاني. وتهديد القنصل البريطاني في الفاو. وتمركز احدى السفن المزودة بالمدافع في نهر شط العرب سنة ١٨٩٨[5]

العدد الكبير الفرس لمدن النجف وكربلاء والكاظمية وسامراء سببا من الاسباب التي كانت تشارك في رة المشاعر. لكنها كانت في ذات الوقت غنية بالمناسبات التي كانت تثير صرامة الحكومة التركية. وتؤدي الى ممارسة عملية الابتزاز الخاص. وذلك نتيجة الالحاف في الطلب للحصول على سمات الدخول. ودفع ضريبة الحجر الصحي فلقد كانت الحكومة التركية تتقاضى ضريبة مقدارها جنيها واحدا عن كل جثة من الجثث التي يأتي بـ الفرس لدفنها في النجف. وقد نجم عن ذلك اقدام الفرس على خرق الحدود. وتحويرها في عشرات من الصيغ ففي كل مكان سواء في الطرق المدن كان الزوار تحت رحمة اصحاب الخانات. والحمالين والمقيمين على الاضرحة

وكانت تجارة المرور بين العراق وفارس تتألف من السلع الفارسية التي يتم نقلها عبر العراق الى البصرة. واهم ذلك كله نقل السلع الاجنبية الى بلاد فارس عبر البصرة وبغداد وخانقين. وكان انقطاع هذا المورد الكبير في تجارة العراق كثير الحدوث في الاوقات التي يضطرب فيها حبل الامن سواء في دجلة (وفي طريق كرمنشاه) وكان هذا الامر يؤلف موضوعا للانتقام. مثلما تفعل ذلك ايضا. اعمال التأخير والرشوة التي يطبقها ضباط الكمارك من الاتراك

---

(٢) GUL - AMBAR تعرف باسم غول عنبر بليدة تبعد بحدود ثمانية عشر كيلومترا عن حلبجة وقد بنيت في مكانها بليدة خورمال وهي مركز ناحية خورمان التابعة الى قضاء حلبجة.

(٣) هورمان منطقة جبلية من العراق محاذية لقضاء حلبجة الى محافظة سليمانية وتمتد منطقة في حلبجة من حور احمداو وطويلة الموقعين يعتبر مائف مهمة السليمانية لكبير يوحد سيطرة على مياه سعد سعد بشاطئيه. صيعي احع سنة ١٩٨١م

(٥) هده ندد في **الاسطول الانكليزي** **رمياه الخليج** العربي

كانت لكل ولاية من الولايات الفارسية التي تسير مع خط الحدود. صفها الخاصة بها. وليس في الامكان ادارتها بشكل فعال فعلى جناح البصرة، وعبر نهر شط العرب، يقع اقليم الاحواز. ولقد ترك الفرس النصف الجنوبي من هذا الاقليم وكل سكانه من العرب، طيلة ستين سنة تحت امرة ميشيخة آل محيسن العربية القبلية. وتحت الادارة التي تغلبت على الفساد الطاغي الذي كانت طهران تمارسه بنفسها، استطاعت مدينة المحمرة التي تقع عند مصب نهر الكارون، ان تتطور الى ميناء وسوق لها اهميتها وقد تعاظمت هذه الاهمية كثيرا منذ ان اصبحت ملاحة البواخر في نهر كارون منذ سنة ١٨٨٨ تدار من قبل احدى الشركات البريطانية (٥) وبالاضافة الى ذلك، فقد طبقت في المحمرة مشاريع الري بل وحتى سكك الحديد. كما بوشر باعمال التنقيب عن الاثار تحت احتكار الفرنسيين، وظهور عدد من القناصل والوكالات الاجنبية فيها.

ولقد اظهر حاكم المحمرة الشيخ خزعل نباهة خارقة في مركزه، باعتباره حاكما عربيا مستقلا فوق ارض تدعيها فارس. ولذلك كان يتقبل وجود مبعوث فارسي في عاصمته، ويبعث بالهبات الى طهران، ويتقبل الالقاب الفارسية، ويحتفظ بسلام وطيد مع والي البصرة. وكان الشيخ خزعل ومستشاره الحاج محمد علي المعروف لدى الكثيرين من الاصدقاء الاوربيين باسم الحاج الرئيس ذوي افكار عصرية بالنسبة الى قضايا التعليم والتنمية. لكنهما كانا تقليديين بالنسبة الى الادارة العشائرية. وكانت المحمرة هي الملجأ لشيوخ العشائر الذين يسكنون اسافل نهر دجلة، وذلك في الاوقات التي يتخاصمون فيها مع حكامهم المحليين والي الشمال من الاحواز. «عربستان» وعلى استقلال مساو عن سلالة القاجار الحاكمة، تقع لورستان او اقليم اللر، الذي يتميز سكانه بالعرق واللهجة عن الفرس، ويمتد هذا الاقليم في منطقتين احداهما كبرى والاخرى صغرى، ويؤلف «بشتوكوه» القسم الغربي من المنطقة الصغرى موطن الفيلية من اللر، وتتاخم حدودها ولايتي البصرة وبغداد. وقد بقيت هذه المنطقة طيلة ثلاثة قرون تخضع لحكم وال من سلالة واحدة. وكانت التزامات الحاكمية فيها محصورة في هبة صغيرة تدفع الى الحكومة المركزية في طهران، وسلطاتها غير محدودة داخل اقليم «يشت كوه» وكان نفوذها ملموسا في شرقي العراق. وكان غلام رضا خان، وهو الحاكم الرابع عشر من تلك السلالة، محترما نتيجة الحقبة

.ب بعد تلك السنة تبعث بسفنها الى مياه اضافة الى احتكارها الملاحة في

محمد علي البهباني رئيس التجار وكان اكبر تاجر في المحمرة ومن اكابر الاغنياء في الاحواز

الاحواز واليه ينتسب عدد كبير من التجار المشهورين من اسرة البهباني في العراق

ه الاخرى وقد حدث عنه ارنولد ولسون الحاكم البريطاني العام في العراق اثناء الاحتلال

الانكليزي في كتابه المعنون «جنوبي غربي بلاد فارس» A. WILSON: SOUTHWEST PERSIA وقد تولى ابو الحسن بن محمد علي البهباني مسؤولية الشؤون الفارسية لدى الشيخ خزعل بعد وفاة ابيه وعلى هذه الشاكلة كانت بطانة الشيخ خزعل وامثاله الذين مكنوا الفرس من توطيد اقدامهم في الخليج العربي.

وملاحظاته الدينية، لكنه كان مكروها بسبب جشعه الطاغي.

والى الجنوب من مملكة «غلام رضاخان» وعلى امتداد الحدود، تقع معظم الاراضي الخالية من السكان، والتي لا يحكمها احد، لكنها تعود الى القبائل الكردية. ذلك لان النصف الغربي من «كرمنشاه» يسكنه الاكراد كلية، وهو غير محكوم لاحد بالفعل. والى الشمال من ذلك تقع ولاية «اردلان» التي عرفت بصفة رسمية باسم ولاية كردستان وعاصمتها مدينة «سنة» كما تقع الى الشمال من ذلك ايضا حدود «اذربيجان» وهي ولاية غنية وشهيرة، كانت تعتبر اقطاعا اعتياديا لاحد الورثة من الفرس، وتشتمل على مناطق تمتد الى الجنوب والى الغرب من «اورميا» على الحدود التركية.

كان من العسير بصفة ثانية، عبر هذا الحزام العميق من كردستان الفارسية، ايجاد اي تمييز بين رجال العشائر، او البقاع التي تنسب الى اي من الدولتين دون الاخرى. ذلك لان المناطق الكردية من ولاية الموصل، مثلها في هذا مثل ولاية «وان» التي تأتي فيما وراءها، كانت تشبه ولايتي اردلان، وكرمنشاه في السيطرة التامة للعنصر الكردي عليها، وفي اللغة، ونمط الحياة، بالاضافة الى وجود الاتصالات الثابتة معها، وفي وسائل النقل، والتزاوج، والمنازعات والتحالفات التي لم تكن الجنسية الاسمية فيها، تؤخذ بنظر الاعتبار.

تمتد طرق القوافل في كل مكان خلال حدود المنطقة، وتكون كثير من العشائر مقسمة تقسيما قوميا بين اقلمين قوميين، مثلما هو الامر بالنسبة لكل افراد عشائر «هورمان»، و« بلباس» و« باجلان» او نتيجة لعادة الهجرة الموسمية خلال الحدود، لغرض رعي الاغنام، مثلما تفعل ذلك عشائر «سنجابى» و «الجاف» و «الهركي» او انها تعتبر نفسها حرة، اثناء موسم الصيد من امثال عشيرة الهاوند، للحصول على ملجأ لها في اي من الاقطار.

وفي الاقسام الكردية من ولاية كرمنشاه التي تمتد خلالها الطرق المتعرجة الخطرة، تسكن مجموعة من العشائر القوية امثال «كلهر» و «سنجابى» و «غوران». اما عشيرة «باجلان» فانها مقسمة بسبب الحدود. ويسكن باشاهذه العشيرة في خانقين، في الوقت الذي يعيش فيه معظم افراد العشيرة حول مدينة «زهاو» المتنازع عليها بين العراق وفارس.

وفي القسم الشمالي عبر الجزء الاعلى من نهر ديالى، والذي يدعى هنا باسم «سيروان» استقرت اقسام من عشيرة الجاف المتجولة. وتعد هذه من اعظم القبائل الكردية المهاجرة التي بقيت مخلصة لعادتها في حركة التنقل داخل الحدود. وعلى جانبي جبل هورمان تسكن قبيلة تحمل ذات الاسم وهي موزعة في ولائها لفارس والعراق. والى ما وراء هذه المناطق تقوم منطقة «مريوان» الفارسية، وقطعة من ريف اردلان المأهول وهي تعتمد على مدن «بانه» وسردشت وساقيز[8]

والى اقصى الشمال وفي جوار اذربيجان تقع مجموعة عشائر «مكري» القديمة الشهيرة. واخيرا

(٨) بانه: قضاء مستقل في منطقة صاو جبلاق تتبعه ثماني نواحي وتسكنه عشائر مكري الكردية في كردستان بلاد فارس.

ومن ادنى الاراضي الواطئة قبالة «اورميا» وفيما وراء قرى الحدود التي تسكنها قبائل «شبروان» و «برادوست» تمتد القرى التي يسكنها الا كراد والتركمان. ولا تختلف الاراضي الجبلية الكردية في شمالي الموصل، في اي شيء عن المنطقة الكردية الفارسية الا في القفر المتزايد الذي يغمر جبال «حكاري» العائدة الى ولاية «وان». وتتجه هذه الجبال من ناحية الشرق الى مواطن عشائر «سلماس وشكاك في اذربيجان الفارسية ومن ثم تتجه نحو الغرب من «شمدينان» حيث تقع قرية «نيري»(٩) موطن «السيد صادق بن الشيخ عبيد «المحارب الشهير ضد المسيحيين(١١٠) حتى تصل الى نهر دجلة في «جزيرة بن عمر»

فهذه المنطقة التي تحكم من «جلمرك» عاصمة اقليم حكاري، كان يتم اجتياحها، والتوطن فيها اثناء الهجرات التي تقوم بها قبائل ذات شهرة فائقة، من امثال «الغويان» و «شرناخي»، و «ارتوشي» والتي رحب رؤساؤها قبل عشرين سنة خلت بالمنزلة والمنفعة اللتين ظفروا بها، بعد ان قدموا الى «الخليفة» السلطان سرايا الخيالة، التي عرفت باسم «سرايا الحميدية»(١١) وبدلا من السلالات الكردية المتنفذة وغير المقيدة في مدن «بتليس» وجزيرة ابن عمر وجلمرك، قبل نصف قرن مضى. ينتشر الان على جانبي حدود ولاية الموصل، نظام لحياة قبلية موزعة، وسلطة اقطاعية متغلغلة، تديرها وكالات الحكومة التركية. نصف الفعالة احيانا، والاسمية في احيان اخرى كما تناثرت في كلتي الولايتين ايضا، طوائف من الارمن والكلدان، واليهود والنساطرة. وهؤلاء الاخيرون يمتهنون الزراعة، ورعي المواشي، ولايعرف اصلهم، ولاعرقهم، ولادمهم ويصعب تمييزهم في حياتهم ومعيشتهم وملبسهم عن الاكراد الذين يسكنون بينهم.

والى ناحية الغرب من العراق، تمتد سهوب صحراوية تجوبها مجموعة قبيلة «عنزة» البدوية والى الجنوب من هذه السهوب، وفيما وراء المناطق التي تقطنها قبيلتا «الضفير» و «مطير»، تقع اقاليم تعتبر من اصل الجزيرة العربية الخالصة. فهناك دولة الكويت الصغيرة التي تأسست قبل قرن مضى تحت زعامة بيت الصباح، وهناك اراضي الاحساء الساحلية بواحاتها وحياة عشائرها البدوية الظاهرة واخيرا هناك اواسط الجزيرة العربية التي كانت الى ما قبل سنوات قلائل خلت، تتنازع السيادة عليها سلالتان حاكمتان. فمن بين هذه الاقاليم كانت الكويت وامارة ابن سعود

---

(٩) العصابات هو قرية نهري اما شمدينان فان اسمها الصحيح هو شمرينان

(١٠) قام الشيخ عبيد الله النهري عام ١٨٨١ بثورة عامة وكان قد عقد قبل الثورة اي في سنة ١٨٨٠ مؤتمرا للعشائر الكردية في قرية نهري وسبق ذلك اجراء اتصالات له مع الاكراد واقامة علاقات حسنة مع الارمن والاثوريين، واتصل بممثلي بريطانيا وروسيا [illegible] اهداف الثورة. وبعد [illegible] احرزت الثور[illegible] انتصارات هامة خدع قائدها بعد تدخل روسيا وبريطانيا ضد الثورة واذ ذاك [illegible] تركيا و بلاد فارس جهودهما لضرب الثورة واستدعي عبيد الله ال اسطنبول بحجة التفاوض معه ولكنه ما ان وصل ال هناك حتى اودع السجن بدل التفاوض.

[illegible] هذه القوات في [illegible] السلطان عبد الحميد الثاني بطلب من لدنه، لكي يعهد اليها بمقاومة العشائر المتمردة. وقد استقرت قوا[illegible] [illegible] وكان يقودها ابراهيم باشا الملي. الذي عرف بين الاكراد باسم «برهة باشا» وكانت سلطاته في ذلك الوقت تمتد الى «[illegible]» «الصالحية» دير [illegible] حتى حدود العراق.

الوهابية. تؤلفان سلطتين عربيتين اما الاحساء التي بقيت جزءا من الامبراطورية السعودية سنة ١٨٧١ فقد كانت قطعة ... سيادة خارجية ليس الا في حين كانت الرشيد تؤلف تنظيما عشائريا خالصا لقبيلة «شمر» الحوبية وكانت تشبهها في ذلك شبها تاما ، في مستوياتها الحكومية والاجتماعية. ماخلا الاحساء بصفة جزئية. حيث بقيت شبه الجزيرة العربية الاصلية من دون اضطراب او تغيير في شكل حكومتها وجهالتها واقتصادياتها ذلك ان الثورة التي شهدها نصف القرن المقبل والتي بدأت تماما في العراق. لم تلق ظلالها بعد على شرقي الجزيرة العربية.

ظفر مبارك شيخ الكويت بالعرش في سنة ١٨٩٦ واعلن تبعيته للسلطة التركية مثل الشيخين اللذين سبقاه. كانت سنواته من الحكم تمثل صراعا في سبيل البقاء الذي حققه بتطبيق العدل الفظ في الداخل وادراك قيمة الرشاوى في اسطبول والبصرة ولذلك استطاع في ذلك القرن ان يظفر باعتراف السلطان به.

ولكن هذه الشهرة والمصلحة الخاصة الاخيرة، كانت لها اسباب اخرى. ففي سنة ١٨٩٧ ومن ثم في سنة ١٨٩٨ طلب الشيخ مبارك حماية الحكومة البريطانية له. وقد رفضت الطلبات التي تقدم بها في هذا الشأن. ولكن اخيرا في سنة ١٨٩٨ تغير الوضع بصفة مفاجئة فقد دارت اشاعات عن وجود احتلال عسكري تركي. والشروع بمد خط حديدي روسي من شواطئ البحر الابيض المتوسط. وكذلك المشروع الالماني لمد سكة حديد بغداد والذي كان يهدد بالوصول الى شواطي الخليج العربي.

تم ارسال المقيم البريطاني من بوشهر الى الكويت. وفي شهر كانون الثاني ١٨٩٩ وقع المقيم البريطاني على اتفاق مع الشيخ مبارك يلزمه بان لا يتنازل عن اية اراضي من اراضيه من دون موافقة بريطانيا[١٢] على ذلك. ولكن الضغط التركي المتجدد. ما لبث ان اوقف مطامحه في الاستقلال، غير ان مبارك بقي صامدا الى جانب اتفاقه مع بريطانيا وان ظل يحمل لقب قائمقام الكويت من لدن الاتراك.

ومنذ سنة ١٨٩٧ غدا بلاط الشيخ مبارك منفى شهيراً لرئيس الاسرة الوهابية الحاكمة عبد الرحمن السعود وولده الصغير عبد العزيز، اللذين هربا من موطنهما حين تغلبت عليه في سنة ١٨٩١ قوات السلالة الحاكمة في جبل شمر، بزعامة رئيسها الشهير الامير «محمد» الذي زاره الرحالة البريطاني «دوتي» حيث عينت تلك الاسرة نوابا للامير في مناطق الواحات هناك. ومن ثم شهدت السنوات العشر الاخيرة من القرن الماضي تفوق سلطة ابن سعود على سلطة

(١٢) كان المقيم البريطاني في الخليج العربي ... الذي اتصل بالشيخ مبارك الصباح وعقد معه معاهدة ١٨٩٩ التي وقع الطرفان عليها في ٢٣ ... الثاني ١٨٩٩

الامير المنتصر   الرشيد الذي ظل يقدم الولاء النافع للاتراك

اما في الاحساء محافظة حد من المملكة التركية فان الاحتلال العربي هناك والذي استمر ثلاثين سنة. لم يحاول انشاء حكومة اعتيادية فيها. ولا استطاع ان يؤثر في حياة الشعب تأثيرا كبيرا ولكن على خلاف الكويت كان الاحتلال التركي للاحساء فعالا بصيغة جزئية[١٣] ذلك ان الموظفين الاتراك كانوا يأتون ويذهبون. والقوات التركية تعسكر في المدن. والضرائب تجبى كما تم فتح المدارس الحكومية هناك وان ظل عدد الملتحقين بها قليلا

وكانت الادارة السنية تمتلك اموالا لها قيمتها في محافظة الاحساء التي كان المحافظون العراقيون ورئيس عشائر المنتفق وعدد من الاشخاص البارزين من البصرة. يحكمونها من وقت الى اخر



(١٣) بعد ان استولى الاتراك على اليمن، ضموا اليها «الاحساء» بصفة اسمية. وبعد ان قضوا على حكم اسرة «اجود بن زامل العامري الجبري» في سنة ١٥٩٢، اصبحت الاحساء تدار من قبل ولاة من الاتراك، كان اولهم «فاتح باشا». وفي سنة ١٨٧٠ جهز مدحت باشا والي العراق جيشا فتح القطيف والاحساء. وحين ثارت الاحساء على الحكم العثماني، استنجدت الدولة العثمانية بشيخ المنتفق «ناصر باشا السعدون» فسار بجيش قوامه اكثر من عشرة الاف مقاتل، فاخمد الثورة واعاد الاحساء الى الحكم العثماني.

(١٤) استغل ناصر باشا السعدون نجاحه في ضربة ثورة الاحساء، فحصل على امر من الباب العالي بتعيين ولده «مزيد» واليا على الاحساء، بدلا من «بزيع بن عريعر» (ابن حاكم الاحساء السابق). وبعد ان سحبت اكثرية القوات التركية من الاحساء، هاجمها في سنة ١٩١٣ عبد العزيز بن السعود فاستولى عليها وغدت جزءاً من المملكة السعودية منذ ذلك الوقت.

٤ ـ المجتمع العراقي ـ المدن

ابتداءاً من سنة ١٨٣٠ حتى سنة ١٩٠٠ حصلت تغييرات عميقة في المجتمع المدني في العراق وقد اخذت هذه التغييرات – وهي اكثر بروزا لدى الطبقة العليا ، وان كان محسوسا بها لدى الطبقة الدنيا ايضاً – تشع خارج هاتين الطبقتين في كل انحاء ذلك البلد المتخلف من الناحية الاجتماعية ، ففي اوائل القرن التاسع عشر ظل مجتمع المدينة في العراق معزولا كلية في الغالب ، عن المؤثرات الغربية فلم يكن هنالك اي اتصال مع العالم الخارجي ، وبقي طابع الحياة هو ذات طابع العصور القديمة ، حيث تشغل الطرق التقليدية الميدان القائم ، وتقوم الحياة في كل علاقة لها على اساس قواعد السلام ولم يظهر اي شيء من روح التقدم القلق ، وبقيت شرور الازمان ، مقبولة من لدن الجميع بكل ماتحمله من الدمار الشامل

كان وقع المفاهيم والفعاليات الغربية على هذا المجتمع في بلدان المشرق يجري بصفة تدريجية وكان هذا الواقع في العراق يعتبر من الامور المفاجئة نسبيا ، ذلك لان مثل هذه الافكار والظواهر قد جاءت الى العراق لاول مرة عن طريق الجيش الجديد الذي استطاع في يوم واحد ان يقضي على عصابات «الانكشارية» و «الهايتا»[1]

فقد كان ذلك الجيش يضم ضباطاً متدربين على ايدي الاوربيين ، وسرعان ماجاء في اعقابهم ، الاطباء والمهندسون ، وكل الافندية المقلدين للغربيين .

كان كبار الموظفين ، وهم ممن يتحدثون بالتركية ومن انصاف الاوربيين في تربيتهم ، تصحبهم زوجاتهم ، وكذلك الاولاد والاحداث الذين تعلموا في مدارس تقوم على طراز

---

(١) الانكشارية هو اللفظ الذي تعارف عليه العامة في العراق وفي تركيا بالنسبة الى الجيش الذي تألف في تركيا وعرف باسم الجيش الجديد – يني جيرى. اما «الهايتا» فانهم خليط غير متجانس من الجنود غير النظاميين كان الحاكم يستخدمهم لقاء اجور ومنها اشتق اسم «هتلي» بمعنى العاطل عن العمل ومعظمهم من العنصر الالباني وقد تم القضاء على الانكشارية والهايتا في عهد السلطان محمود الثاني الذي تولى العرش في ٢٨ تموز سنة ١٨٠٨ وفي سنة ١٨٢٦ نفذ السلطان محمود نفسه خطته في القضاء على الانكشارية اذ اوعز بفرض التدريب على بعض الفرق الانكشارية ولم يهن على الانكشاريين ذلك طبعا فاجتمعوا كلهم في احد الميادين واعلنوا الثورة على السلطان ثم تقدموا بجمعهم نحو السراي . وكان السلطان قد استعد لهم اذ نصب في مكان ما عددا من المدافع تحت قيادة رجل يعتمد عليه اسمه ابراهيم ويلقب «قره جهنم» وقد استقبل ابراهيم هذا حشود الانكشاريين بقصف مركز من مدافعه وحين تراجعوا الى ثكناتهم لاحقهم واخذ يصب قنابله على ثكناتهم فاشعل النار فيها ولم يسلم احد من الانكشاريين (علي الوردي لمحات من تأريخ العراق الحديث ج ١ ص ٢٠٣ – ٢٦٤).

عصري . وهكذا بدأت دوائر البريد ، والبرق ، والتجارة الاجنبية والمشاريع تمارس اعمالها واستمرت الاقليات المسيحية واليهودية ، بعلومها الاوربية ، تؤلف مستوى عالياً من التعليم ، وتساندها في ذلك بعثات التبشير التي كانت تخدمها

كان الأثر الفعال لهذه المؤثرات ، قد انتج في سنة ١٩٠٠ مجتمعاً مدنياً عراقياً يختلف اختلافا كبيرا عن الحياة في العصور السابقة واذ تم تطعيم هذا المجتمع ، بالهاتف ، وبالصحافة البدائية ، وبالمقيمين الاجانب ، والاحاديث التي كانت تجري بين الموظفين في «السراي» ، وبين التجار والوكلاء في المقاهي ، وبين الرجال البارزين في الدواوين ، فقد استطاع المجتمع العراقي ، لاول مرة ان يحتضن مصالح اكثر سعة

ذلك ان معرفة القراءة والكتابة ، غدت مألوفة ، ومن ثم ظهرت التغييرات الداخلية والاجتماعية فقد اخذت اقلية تزداد عددا كل يوم ، في ارتداء الملابس الاوربية ، واصبح ناموس الحياة اكثر سرعة ولقد ازداد عدد افراد الطبقة الثرية ، وتعاظمت ثرواتهم ، فوجدوا ازاء ذلك طرقاً جديدة للانفاق

كانت الزعامة الاجتماعية ماتزال تستند الى اسس الابوية او الى الثراء ، وكان من النادر وجود طبقة من المثقفين . ولكن سرعان ما بدأت الافكار القديمة المسلم بها ، تخضع في اوساط اكثر سعة ، لنوع من عدم الرضا والتساؤل ، واصبح يحس بثقة قوية في العلم والمعرفة العصريتين اللتين كان ينظر اليهما قبلا بانهما صيغة ذات كفاية عجيبة

وما خلا مايتعلق بموضوع الايمان السلفي بالاسلام ، وهباته التي كانت تحظى بالاهتمام ، بدأت تظهر دلائل على تقليل الاحترام لذلك الدين وعلمائه ولكن ثقل هذا كان مايزال بعيداً جداً عن نقطة الانحراف نحو الالحاد ، كما انه لم يتم التخلي عن المقاييس القديمة للسلوك ، حتى من قبل المتطورين

لم يكن هذا التطور الاجتماعي الذي ابرزته مثل هذه العمليات ، يمثل اي تطور داخلي وطيد ، ذلك لان اي جزء من السكان كان يتطلع اليه ، كما انه لم يكن يتجاوب مع روحية الاختراع فلقد تم فرضه من لاشيء نتيجة الضغط الذي احدثته المكتشفات كالسفن التجارية والبرق من ناحية ، ومن ناحية ثانية نتيجة التأثير الغربي الواسع غير المقصود ، في كثير من النقاط وثالثا بفعل الحكومات ولذلك تم تقبله من دون تمييز .

ذلك ان الافكار ذات القيمة التي يشك فيها ، وروابط الكلمات المتحذلقة التي انطوت عليها السياسة الاوربية ، والمشاهد الاجتماعية الغربية عن الشرق ، كل هذه الامور اخذت تلقى الترحيب لانها كانت جديدة ، ولانه لايوجد سوى فهم ضئيل لمدى اهميتها ولذلك فلم توجه العناية الى القواعد الصحيحة للفكر الاوربي ، ولا الى جوهره وفي الوقت ذاته غدا واضحا جدا بان المجتمع العراقي ، مهما كانت مميزات افراده ، ومواهبهم الانسانية او الاجتماعية ، فانه

كان مبتلى بشرور خطيرة ذلك لان مستوى التثقيف كان واطئا بالنظر الى المستويات الاخرى وكانت الخرافات المكثفة فيه ظاهرة بصفة بارزة ، اذ كانت النساء يعاملن معاملة مخلوقات غريبة ولم يكن الامن موطدا حتى في المدن ، وذلك بسبب انتشار الجريمة التي لم يكن ليعاقب عليها ، وبالنظر لوجود التطرف الطاغي القائم بين الاقليات وذلك في الاوقات التي تسوء فيها الاوضاع

كان سوء التغذية يشمل اربعة اخماس السكان وكان معدل وفيات الاطفال من اعلى المعدلات في العالم وكانت كثير من الامراض متوطنة ، لانه لم يكن يجري علاجها ، ولانها كانت تساهم في انتاج عنصر عادي ، او غريب من الناحية البدنية ، من امثال امراض الملاريا ، والحمى الصفراء ، والدزنتري ، والتيفوئيد ، والجدري ، والكوليرا الوافدة ، والانكلستوما والامراض التناسلية

وكان الامر الذي يتفوق على كل ذلك هو الضرر الساحق الذي يحدثه الفقر ، الذي لا يمكن ازالته الا عن طريق احداث تغييرات اساسية في اقتصاديات البلاد كلها ، فقد كانت الحاجة تدعو الى ايجاد روح جديدة ، واستغلال جديد للموارد ، وفي الغالب الحاجة الى عنصر جديد من الناس ، قبل ان تتم معالجة هذا الداء ، وذلك عن طريق التاكد من الطاقات الواسعة المتوفرة للقطر ، وباتخاذ موقف اجتماعي جديد

لقد كان عراق سنة ١٩٠٠ يمثل مجتمعا تتفشى فيه المستويات المنحطة ، وكل آفات الجوع والتذمر . ذلك لان المدن العراقية في سنة ١٩٠٠ لم تكن قد تغيرت لا في مظهرها ولا في اطارها ، عما كانت عليه لعدة قرون ، الا قليلاً ففي القرن التاسع عشر كانت تتوفر ذات المواد المحلية المستعملة في البناء ، وذات تصاميم المنازل والمساجد والاسواق ، ونفس الزخارف التقليدية التي كانت توحد الاحياء المزدحمة الخالية من التخطيط التي كانت سائدة خلال القرن السادس عشر .

لقد اصبحت الشوارع الآن ، تسمح بمرور عربات النقل اما الازقة الضيقة الملتوية فانها تؤلف الممر الوحيد لمرور الحمير ، او الحمالين الذين يحملون الاحمال على ظهورهم ولم تبن سوى قلة من المباني الحديثة ، ولكن حتى هذه كانت من طراز قديم ، غير ان هذه المباني اخذت تغير حدود المدن القديمة ، فاصبحت تؤلف العشار ، الناحية الجديدة للبصرة ، او جهة النهر في العمارة وهكذا بقيت بغداد ضمن خط من اكوام الانقاض التي كانت تؤلف اسوار بغداد قبلا كذلك اخذت الموصل تمتد الى بدايات حي جديد خارج حلقتها الضيقة جدا ، في حين ظلت اسوار البصرة مهدمة ، وكذلك اسوار كركوك او اربيل التي يندر ان يتذكرها الناس

كانت الاسواق والمخازن التي تؤلف القلب التجاري للمدن ، تجري حراستها من قبل حراس متعهدين كان التشنيع من بين الاعيبهم وكانت الجسور المصنوعة من قوارب مشدودة الى

بعضها البعض تستعمل في حوالي اثني عشرة مدينة من المدن التي تقع على ضفاف الانهار .
وكانت الانارة في الشوارع تتألف في احسن الاحوال ، من استعمال فوانيس قليلة توقد بالزيت وكان يجري تزويد الاهالي بالماء في قرب تحملها الحمير من شاطىء النهر او من ابار ملوثة في باحات خاصة

ولم يكن في بغداد سوى حي واحد من المدينة مزودا بانابيب تنقل الماء غير النقي (٢) وكان كناسو الشوارع يحتفظون ببعض مظاهر التأدب ، في الازقة الرئيسة وفي الاسواق ، في حين كانت تتراكم الاوساخ والقاذورات في بقية انحاء المدينة

وكان لكل مدينة او قرية كبيرة مقبرتها الخاصة بها والتي تقع في وسطها او في احد حوافيها وكانت خانات القوافل موجودة في كل مكان ولم تكن الفنادق ، التي لاتبلغ ادنى حد من اوطأ الفنادق الاوربية ، موجودة الا في بغداد وحدها

كانت ادارة البلدية ، ماعدا القرى المنتظمة ، يعهد بها الى رئيس البلدية ومجلسه وهذه الوظائف التي كان يجري اختيارها وفق اجراءات ترتفع الى حد ترشيح الحكومة لها ، تتمتع بامتيازات محلية ، لكن سلطاتها كانت محددة بصفة جامدة الى درجة ان المحافظ المحلي كان في الواقع هو الذي يسيطر على كل المشاريع وكل النفقات فلقد كانت بغداد في سني القرن التاسع عشر ، مقسمة الى ثلاث بلديات ، اثنتان منها للضفة اليسرى من النهر ، وواحدة للضفة اليمنى وكان امين العاصمة عضوا او مرشحا من لدن احدى العوائل الاساسية في المدينة ، او موظفا حكومياً ، وهذا لم يكن يحدث الا بصفة نادرة ولم يكن قانون البلدية كاملا ، وذلك لان قانون الضريبة والتنفيذ كان شديد التدقيق ، وكان نطاقه الاسمى ملموسا

ولكن هذا الادارات كانت في التطبيق العملي فاسدة ، وفعالة بصفة غير اساسية في تهيئة مرتب لاحد اشراف المدينة ، مع ثلاثة خدم مجانيين للمحافظ المحلي ومع كل ذلك فان مباهاة المدينة لم تكن ناقصة ، وكانت مشاريع تحسين المدينة من الموضوعات المشهورة بين عشرات القضايا التي ينعدم فيها النشاط والاعمال

ولابد ان كانت صورة المجتمع المدني في تلك الفترة ، تشتمل على مشاهد متغيرة فقد كانت البصرة ببساتين النخيل التي تمتد الى عدة اميال ، وشبكة الجداول والقنوات التي تجري فيها

---

(٢) اقدم والي بغداد «سري باشا ١٨٨٩ - ١٨٩٠ عند ابتداء ولايته في سنة ١٨٨٩ على انشاء حوض كبير في ساحة اقامها في محلة «خان لاوند» الحالية فاخذت نساء المحلة المذكورة والمحلات المجاورة ينقلن الماء من ذلك الحوض وقد انشئت اول مضخة للماء في بغداد في سنة ١٩٠٧ في ايام الوالي «حازم بك» (١٩٠٧ - ١٩٠٨) نصبت في «شريعة الميدان واجري الماء بواسطة الانابيب وكانت اجور الماء الشهرية لكل دار شيء زهيد وهي عشرة قروش صحيحة» (بغداد القديمة ص ٧٥ للمرحوم عبد الكريم العلاف الطبعة الاولى ١٩٦٠)

مياه المدن والنشاط الذي يغمر ضاحيتها التي تقع على النهر[٣] وباعتبارها الميناء البحري الوحيد للعراق ، وباتصالاتها اليومية مع نجد والمحمرة ، وغناها بالبساتين التي يمتلكها الاشراف ، وبتجارها ، ووكلائها العالميين ، كل ذلك كان من الامور التي لها ميزة فريدة في العراق انذاك .

ومن المدن الاخرى في محافظة البصرة ، مدينة «القرنة» التي يسيطر عليها ابناء العشائر ، وقرية ابو الخصيب غير العشائرية والمتنامية ، ومدينة الزبير التي كانت تقع عند حافة الصحراء ويحكمها شيوخ وارثون وكان من بين العوائل البارزة في البصرة عائلة النقيب ، وبيوتات آل باشا اعيان ، والمنديل ، والصانع

وكانت بغداد بضواحيها المهمة الاعظمية ، والكاظمية ، وكرارة[٤] تؤلف اعظم مركز تجاري في ولايات العراق كلها فقد كانت مهمة من الناحية الصناعية ، ولها السيطرة الادارية والعسكرية

كانت المدينة ضعيفة واهنة ليست لها اية تحسينات عصرية ، ومن دون وقاية من اخطار فيضانات النهر . ولم تكن تشتهر الا باثنتين او ثلاث من البنايات التذكارية والمساجد ذات الاهمية التأريخية ، اضافة الى مرقد الشيخ العظيم عبد القادر الكيلاني وكذلك تشتهر بغداد بمجتمعها الواسع المؤلف من كبار الموظفين ، وباوساطها المؤلفة من الاسر الاسلامية ، وبطائفتها اليهودية الثرية نصف الاوربية ، وبيوتات تلك الطائفة من اشكال بيوتات دانيال وساسون واطبائها ومحاميها ، ورجال الاعمال ووكلاء التجار النشيطين فيها وبهذا كانت تستطيع على اقل تقدير ان تدعي المساواة مع البصرة في طليعة التقدم الذي اصاب العراق . ففي كلتا المدينتين بغداد ، والبصرة ، كان المجتمع الاوربي الصغير ، الذي يتزعمه القناصل ، ويسيطر عليه البريطانيون ، يحتفظ بمنازله المريحة ، وبنواديه والعابه ، ويجد الحياة بهيجة هناك .

ومع ان الموصل كانت متخلفة تخلفاً بعيدا ، فقد كانت اقل مستوى في اوضاعها ، وابعد عن المؤثرات الغربية ، ماعدا الفرنسيين الكاثوليك الذين يعيشون فيها ومع ذلك كانت الموصل تتصرف بمثابة نقطة اتصال بين الجزيرة والمرتفعات الكردية ، وتحتفظ بجو دائب النشاط لكنه غير تقدمي بين سكانها المختلطين . فعلى الرغم من الشرف الذي تتمتع به العوائل الرئيسة فيها ، من باشوات الاقليم في الايام الخوالي ، وبيوتات آل الجليلي وآل العمري ، وبعض العوائل المسيحية المشهورة ، فقد كانت شهرة الموصل سيئة في ممارسة اعمال الجريمة وفي تطرفها ، وقذارتها ذلك

---

(٣) المقصود بذلك منطقة العشار وهي من المناطق الحديثة في البصرة وقد نشأت بعد ان اخذت السفن تتقدم الى البصرة وتقف عند مصب نهر العشار في نهر شط العرب .

(٤) كرارة هي المنطقة التي تقع فيا وراء نهر ديالى جنوبي بغداد وكانت في مرتبة قضاء في العهد العثماني وفي مكانها تقوم الان ناحية جسر ديالى في الطريق القديم الى سلمان باك (المدائن)

لان عواصفها الترابية ، وخلوها من الشجر ، لايتفوق عليها سوى الدخان المنبعث من افران الكلس والذي قد يجتذب بعض الزوار

وفي المدن الاخرى التي كانت اقل حجما سواء كانت عربية ام كردية ، اخذت اجواء المجتمع واحواله تتغير تغير واسعا تبعاً للمحيط فكثير من المدن لم تكن لتحظى باية اهمية سوى انها كانت تؤلف نقطة مرحلية للقوافل ، او ان توفر سوقاً لاحدى المناطق الزراعية ، او محطة لتزويد البواخر النهرية بالوقود ، او معسكرات للقوات المسلحة اما المدن الاخرى فقد كانت لها صفتها الفردية جدا من امثال مدينة «هيت» والتي اشتهرت بصناعة القار فيها ، وكركوك واربيل باعتبارهما نقاط اتصال مع كردستان وكانت خانقين نقطة اتصال مع بلاد فارس ، في الوقت الذي كانت تبرز فيه كل من مندلي وبدرة شرقي جبال بشت كوه ، احاسيسها واهتماماتها ، وكانت السليمانية عاصمة للاكراد الجنوبيين ، وكانت تسيطر عليها العائلة المقدسة المضطهدة عائلة السادة البرزنجية وكانت حلبجة مركزاً مدنياً بقبيلة الجاف الكبيرة ، مثلما كانت العمارة هكذا بالنسبة الى سكنة اهوار دجلة ، الناصرية بالنسبة الى ال المنتفق

وتشتهرالكاظمية وسامراء بوجود المراقد الشيعية فيهما وباعتبارهما اماكن للزوار من الفرس ، في حين كانت بعقوبة وشهربان ودلتاوة مراكز لاقطاب ملاك الاراضي

وكانت مدن اواسط الفرات تعاني ، في ذلك الوقت ، من الاضطراب المؤذي الذي يحل باوضاع الري في نهر الفرات اما في الفرات الاعلى ، فان مستوطنات الدليم سرعان ما تحولت الى قرى لها صفة المدن وفي مدن اقضية محافظة الموصل ، الى عقرة ، ودهوك ، والعمادية ، وزاخو ، ورانية ، وراوندوز ، وكويسنجق ، كانت الحياة المدنية فيها اخذة بالتطور . ولقد استطاعت طبقة من اشراف المدن وهي دينية ، في بعض الاحيان ، ان تحافظ على كيانها ضد الاغوات القبليين . ومع كل ذلك فقد كانت مهمة المدن المقدسة في الفرات ، اي كربلاء والنجف مهمة خاصة فقد كانت هاتان المدينتان المركزين الشيعيين المضادين للنفوذ التركي في الاقليم ومع انه لم تكن هناك اية منطقة ، او طبقة اجتماعية في البلاد تجهل دينها او غير معروفة بملاحظاتها العصرية والاجتماعية التقليدية ، وبذكائها البديهي الحي ، فقد كانت مظاهر الحياة العقلية والثقافية تعد نادرة

ذلك ان المستوى العام بالنظر الى الالمام بالعالم ، بماضيه او حاضره ، او لتقييم الجمال ، كان واطئا حتى بين الطبقات التي كانت تعرف القراءة والكتابة في المدن. فقد كانت الامية والجهل عميقين بين افراد العشائر ، ولم تكن الفنون لتمثل الا في مستوى ضيق جدا من الموسيقى التقليدية ، وقطعة من الاغاني العربية التي يتذكرها القوم ، والقصائد العصرية لاثنين او ثلاثة من الشعراء المحترمين ، وسوى الزخرفة الهندسية في اعمال الاجر ، والحقير جدا بل التافه من الصناعات اليدوية .

وكان مستطاعاً ان يتم العثور على التعليم الذي لايتميز بالاهمية ، في عدد نادر من الدارسين بين افراد الاقليات (مثل الاب انستاس الكرملي) ولدى بعض الافراد من بعض اسر الطبقات الرفيعة من امثال آل باش اعيان، والالوسي، والكيلاني والعمري، ممن كانوا يحتفظون بمكتبات اهلية خاصة بهم، ويضعون تواريخ لمدنهم، ولاسرهم.

اما مايتصل بالنشر، وانتاج الكتب او النتاج الادبي المقروء بصفة عامة فلم يكن من ذلك كله شيء ما سوى وجود صحيفة رسمية كليلة. وكانت الاكتشافات الاثرية ، وهي من اعظم دعاوي العراق في الاهتمام بالعلوم في حينه ، كانت هذه الاكتشافات الاثرية تؤلف بالنسبة الى العراقيين سرا مجهولا او سرا مشكوكا فيه ، في حين كانت الطبقات الحرفية من امثال المحامين والاطباء والضباط العسكريين ، يحصلون من المصادر التركية على نزر المعرفة المتخصصة لكنها لاتبلغ المستوى المقبول في اوربا   اما الفروع الاخرى من المعارف ، من امثال الزراعة ، والهندسة ، والاقتصاد فلم يكن يوجد اي شيء من ذلك او لايمكن اظهار شيء ما

ويكون التاريخ الفقهي والديني وقفاً على طبقة واحدة على حدة فهذا العلم يتمثل لدى الاسر الدينية في كيان من التعليم الاصلي الحقيقي ولكن في مجال محدود نتيجة لتقاليده الضيقة وانعدام الاصالة   اما لدى ابناء الطائفة الشيعية ، وقبل كل شيء في المدن المقدسة ، فتكون امثال هذه الدراسات مترادفة مع التعليم ذاته ، لانه لايوجد غيرها من الدراسات ، وتحظى بالاهتمام غالباً   واذ كان هذا النوع من التعليم يقتني زمن الحياة ، في سبيل الذكرى والتظاهر المجرد بالعلم ، ويجتذب المئات من التلاميذ الباهتين الذين ربطوا مصيرهم بحياة دين موهوب يظفر بالحماية ، لذلك كان مثل هذا التقليد ، يؤلف البضاعة الرابحة والاحتكار لدى العالم او المجتهد اللذين كانا يدعيان ، طبقاً لهذه القاعدة ، بانهما هما اللذان يجب ان يتزعما العشيرة والمدينة في كل الشؤون الحياتية



٥ - المجتمع العراقي - العشائر

اذا كانت عناصر التقدم الاجتماعي النسبي قد وجدت في المدن، فما ابعدها عن الاكثرية الساحقة من السكان في الخارج، والتي كانت ما تزال تعيش في عالم بعيد عن التغيير؟ ذلك العالم الذي ما يزال يهيمن عليه مستوى خاص من الافكار الموروثة، من الولاء والكراهية، حيث لم تكن عوائد الحياة المدنية وحدودها معروفة، وحيث تكون للمشاهد الاجتماعية، من امثال الزواج، والقرابة، وتسوية المنازعات، قواعدها التقليدية وهي غير معروفة للقانون السكني، وحيث يكون لفضائل الصحراء من الكرم والشهامة تفسيرها. في مثل هذا العالم الخاص الممزق، والمحاط به، تكون المدن والقرى الكبرى في العراق في كل ناحية، هي التي تسيطر على كل المواصلات، وتحتفظ بتسعة اعشار الاراضي المزروعة.

اما العشائر، وهي متشابهة في اعرافها، ونظرتها - وكل واحدة منها تركز همها على الولاء الشديد - فانها مع كل ذلك كانت تختلف فيما بينها بالنسبة الى القضايا المهمة. ومن هنا كان لمحيطُ العشيرة تاثيره، ليس في الاقتصاديات حسب، وانما في نمط الحياة ايضاً.

لقد كان الاكراد الجوابون يتحركون بين الجماعات المستوطنة، في حين كان عرب الصحراء يقيمون في عالمهم الفارغ المنعزل. ومن هذا العالم برز ابتعادهم العقلي، وعدم تقبلهم لقوى الحكومة. اضافة الى تعرضهم للاذعان والخضوع نتيجة اعتمادهم على الاسواق التي تقع في اطراف الصحراء وعلى مثل هذه الشاكلة كانت اوضاع قبائل «الضفير» في القسم الجنوبي الغربي من العراق، و «عنزة» في سهوب الشامية، و «شمر» في الجزيرة العليا، وجماعات اخرى اصغر حجما داخل العراق.

كان محيط العشائر المتوطنة التي تشتغل بالزراعة، يختلف طبقاً لطريقة الري التي كانوا يزرعون بها، ووفقاً لطبيعة حاصلاتهم ايضا، فالفواكه والتبوغ كان ينهض بها المزارعون في كردستان، في حين كان زراع الحنطة والخضراوات من سامراء، يختلفون اختلافا واسعا عن اصحاب بساتين النخيل في بعقوبة والشامية او عن العاملين في حقول الرز من «البو محمد» او «الفتلة». ذلك ان امثال هؤلاء الناس كانوا يعتبرون من الاخساء في عيون طبقة النبلاء الارستقراطية الفاشلة الجائعة التي كانت تسكن الصحراء.

وكانت اصول العشائر من كل نوع، متغايرة هي الاخرى، مثل تغير محيطاتها. ولكنها مع كل ذلك كانت اقل يسرا في طريق تطورها.

كان العنصر الذي يحفز على الوحدة والولاء هو الاسم لدى كل هذه العشائر، وهو نفسه يؤلف عقدة التقليد المشترك التي ينهض بها. غيران التساؤل عن الهوية العشائرية، وزمانها، كانا من الامور التي تندر الاجابة عنها. وذلك لان ذاكرة القبلي تكون قاصرة، ويكون حبه للاسطورة طاغيا. واحساسه بالمكان وبالزمان مبهماً.

كانت بعض العشائر تتألف بشكل واضح من مجرد جماعات مستقرة من الجيران الذين يقطنون ذات الوادي او نفس شاطيء النهر، مثال ذلك، «الزيباريون» و «السوامرة» في حين كانت عشائر اخرى تنبع عن مجتمع نشأفي احدى الواحات، او عند الابار او الاضرحة، بكل ما عرف عنها من تكاثرها، وسرعان ما تماثلت هذه المجمعات فيما بينها، وذلك هو النطاق الذي تدعو اليه طبيعة الحياة.

اما بالنسبة للعشائر الاخرى، فتكون رابطة النسب الاصلية هي التي تحتفظ بها الاسرة المتحكمة فيها بصفة مؤثرة، ومن ثم تبدأ بانتشار اوسع فاوسع عن طريق التزاوج داخل المجموعة، وابراز الاحساس لها من جانب مئات الاقارب المخلصين الممتازين، الذين تم الاعتراف بهم من الخارج على مدى قرون. والحقيقة ان صلة القربى التاريخية او المدعاة او المتصورة، ما تزال تؤلف جوهر النواة العشارية.

وقد يختلف حجم العشيرة من خيام قليلة الى اتحادات مترابطة، ذات تماسك اوسع او اقل، كأن تصبح مثلاً اثنتي عشرة عشيرة خاضعة لسلطة مفردة. ولكن ليس هناك مظهر من مظاهر الحياة العشائرية يكون اكبر مشقة على وجه الدقة، من التنظيم الداخلي للعشيرة او تضامنها او انعدام ذلك التضامن. ذلك لان السلطة التي تخضع لسلطة اخرى، لا تتكون الا بفضل صفات يتم الاعجاب بها، من امثال الولادة، والعمر والقبول، ولكن مثل هذا الخضوع قد لا يكون ثابتا على الدوام.

ويبقى العقل الغربي دوما في حيرة، من شدة احتمال تحطم السلطة العشائرية، ومن المهارة والصرامة المتينة اللتين يبدوبان كل شيء في العشيرة انما يعتمد عليها. وفي وسط عناصر التنوع الكثيرة، قد تصبح العشائر موحدة في اسس نظرتها، وفي مستوى مراحل تطورها، وفي احساسيها المشتركة التي تتميز ، عن سكان المدن المحكومين، ولذلك تكون سلطة العشيرة ان في سبيل الخير او الشر، موكولا بها الى فئة مشهورة من شخصيات يسمح نطاق المجتمع المطلق ببروزها. فمهما كان ساكن المدينة في بغداد او الموصل يتحسس بالصرامة او القسوة اللتين يتحسس بهما رفيقه العشائري ساكن الريف والذي قد لا يعترف به الا مترددا، فلابد له من ان يعترف بقوة بعض الشيوخ وفرديتهم وتلك صفات نجدها متساوية لدى شخص عظيم من شيوخ

الصحراء من امثال شيوخ عشائر عنزة او شمر، او لدى زعيم لقلة من سكنة اكواخ القصب في بحيرة الحمار، او لدى امير من امراء ربيعة او زبيد او لدى احد اغوات الريف الكردي.

وعلى الرغم من كل الضوضاء الناجمة عن السياسات المستقرة للعشائر، وعداواتها، فقد كان يبدو جيدا للمراقب، بان الاحوال المادية والاجتماعية للعشائر في سنة ١٩٠٠، لم تتغير تغيراً اساسيا عما كانت عليه طيلة قرون، ومع كل ذلك كانت التغييرات في الواقع تتحرك عبر نشاط طويل، كما كانت نفس هذه التغييرات في جوهرها تتحرك ايضا بين سكان المدن، وهي ناجمة عن ذات التغيرات التي اوجدها الزمن. لقد تغير المفهوم التركي للحكومة، واستبدلت سيطرة المناطق العشائرية بفرض الضرائب على الزراعة باعتبارها انها هي الغرض من السيطرة، واصبحت القوات العصرية متوفرة. وحتى افراد العشائر انفسهم لم يستطيعوا ان يتجاهلوا تأسيس المحاكم التي كانت على الاقل تدعي بالحكم الجماعي، وتطالب بتسليم المجرمين من لدن الاشخاص الذين يلجأون اليهم من العشائريين. ذلك ان مدير الناحية مع حفنة من ضباطه، يستطيعون ان يبرزوا من مقرات غير بعيدة. وغدت خطوط البرق منظورة، واصبح سعاة البريد يتنقلون راكبين من مدينة الى اخرى.

وفي السنوات الاخيرة من القرن، شهدت مجموعة جديدة من المدن، من امثال الناصرية في المنتفق والعمارة في ادنى دجلة والكوت والبغيلة[1] تنمو باعتبارها نقاط تموين للبواخر بالوقود، اضافة الى بناء خانات جديدة، ومراكز للجندرمة على طول الطرق الرئيسة. ولقد اصبحت السيطرة التي يمارسها رؤساء القنوات الكبيرة، من الوظائف الحكومية. وغدا المحافظ اكثر فاكثر هو الذي يفصل في المنازعات العشائرية. كما احدث تسجيل الاراضي العشائرية الجماعية في دوائر التسجيل العقاري، باعتبارها ملكا خالصا للشيوخ وحدهم، علاقة جديدة كانت تترجرج بين مالك الارض والفلاح، وقد اضرت هذه العلاقة بالرئيس وبتابعه المخلص له على حد سواء.

وهناك عناصر اخرى اقل وضوحا، كانت تعمل عملها في تقويم العزلة الريفية القديمة. فالادراك المتزايد للعالم الخارجي قد حدث نتيجة الزيارات التي كان يقوم بها وكلاء التجار الذين يشترون الحبوب، بعد ان جعلت البواخر، التصدير المكثف للحبوب امرا ممكنا. فالتأثيرات التي احدثها تسيير البواخر ذاتها كانت تنطلق من الداخل، من البصرة ومن الزوارق التي تمخر نهر دجلة، ولذلك اخذت السلع المصنعة تتغلغل الى كل عشيرة. وغدا الشراة، والافندية والضباط، وجمهور المدينة الذي يندر ان يزوره احد من افراد العشائر، غدا هؤلاء أنفسهم ادوات عاكسة تعكس، في نوعيتها ودرجتها، ذلك النور الباهت عن المخترعات الغربية في عالم الحديث والاراء والمقارنات.

---

(١) البغيلة هو الاسم القديم الذي كان يطلق على النعمانية الحالية والتي تقع على مقربة من المكان الذي بنى النعمان ابن المنذر فيه قصوره الشهيرة.

لقد اخفقت قلة من الرحالين الاجانب خلال سني القرن التاسع عشر، في ان تعلق على التقدم الاجتماعي الذي حدث في الربع الاخير من ذلك القرن، وعلى التغلغل الواسع للحكومة التي كانت تمارس حكمها من مناطق خارجية بعيدة.

لقد كانت قبيلة الضفير التي تغطي الصحراء الجنوبية الغربية على جانبي الطريق الممتد الى نجد، تعيش علاقات سيئة مع ابن الرشيد ولذلك كانت تغير على قبائل مطير وعنزة.

وكانت قبيلة عنزة وهي من اوسع المجموعات البدوية في شمال الجزيرة العربية، تمسك بصحراء الشامية من النجف الى هيت. كان زعيمها المتعلم «ابن هذال» قائمقام الرزازة[٢] عرضة للمحاكمة الان على يد الاتراك، حيث حكم عليه بالسجن، قد اخذ يتعقب خصومه القدامى من قبيلة «شمر» ويزدري بالحكومة. فلقد كانت عشائر الدليم في سنة ١٩٠٠ قد استقرت على نطاق اوسع في جزء من الارض تحيط به سلسلة من مراكز الشرطة على امتداد الطريق الى مدينة حلب.

ومنذ عهد بعيد، امضت قبيلة شمر، ايام عظمتها في الوحدة الثابتة. وما ان دخلت غمار الحرب مع شخصية شهيرة في ذلك الوقت، هو ابراهيم باشا زعيم جماعة «المللي» الكردية، ورجل الدين، والقائد العام للقوات الحميدية، عميلة السلطان عبد الحميد[٣] حتى وجدت قبيلة شمر نفسها مجزأة بشكل مرير الى افخاذ بين اولاد فرحان باشا، [٤] ولكنها كانت تستطيع ان تظهر امام سلطة محافظة الموصل ضد دير الزور، وان تنهب وسائط النقل النهرية، وان تحكم بنفسها، وترفض المصالح الحكومية.

اما في الفرات الادنى فان السلطة التي كان يتمتع بها امراء السعدون على خليط من العشائر، غدت معرضة لخطر الانقسام والتدهور.

---

(٢) من المناطق التابعة لمحافظة كربلاء وقد اعتبرت احدى اقضية كربلاء نظرا لكثرة العشائر التي كانت تقطن فيها. اما ابن هذال فهو محروت الهذال شيخ عنزة في العراق ولقد قربه الانكليز اليهم كثيرا خلال الحرب العالمية الاولى وما بعدها

(٣) ابراهيم باشا الملي قائد القوات الحميدية، احد زعماء الاكراد المشهورين بالشجاعة وبالورع: وكانت كل عشيرة توافق على الانضمام الى هذه القوات، تقدم احد فرسانها فيبقى في الخدمة ثلاثا وعشرين سنة، ولهذه القوات اصناف هي: الاحضارية، والنظامية والاحتياطية (كردستان في سنوات الحرب العالمية الاولى تأليف د. كمال مظهر احمد ترجمة محمد ملا كريم ص ٨٥).

(٤) تولى فرحان باشا زعامة «شمر الجربا» في العراق بعد مصرع ابيه «صفوق» بامر من الوالي محمد نجيب (١٨٤٢ – ١٨٤٨) وذلك لان «صفوق» تحالف مع «بدرخان» زعيم قبيلة «بوتان» الكردية في الثورة ضد الحكومة. ولما كان «فرحان» قد عاش زمنا منفيا مع ابيه في اسطنبول، فقد تأثر بمظاهر الحضارة والتقدم في العاصمة العثمانية.

ولذلك عندما تولى المشيخة، كان اكثر اقتناعا بسياسة التفاهم مع الحكومة، والاستقرار في الارياف. واستجابت الحكومة لميوله تلك، فرتبت له مرتبا شهريا كي يمتنع عن الغزو، وتغاضت عن استيفائه الاتاوة «الخوة» من القبائل التي كانت تمر عبر اراضيه. (د. عبد العزيز ابو نوار: تأريخ العراق الحديث ص ١٦٩ ومابعدها).

ففي خلال جيل واحد، برزت مدرستان منفصلتان للزعامة اولاهما محاولة كل من ناصر باشا في اول الامر ومن ثم ولده فالح[٥] فيما بعد، لتحويل افراد العشائر الى فلاحين اليفين في مزارع آل السعدون التي خططتها سياسة تسجيل الاراضي العثمانية، ووضعتها تحت اقدام المزارعين منذ عصور طويلة. اما المدرسة الثانية فهي محاولة منصور باشا في اول الأمر، ومن ثم ولده سعدون فيما بعد، الحفاظ على الاستقلال القديم الذي كان يتمتع به آل السعدون.

وهكذا ارتبطت المطامع والكراهية الشخصية، بمسألة السياسة الواضحة مع حكومة كانت تلعب لعبة الانتهازية المترنحة.

لقد استمرت الحروب العشائرية سنة بعد اخرى وساهمت فيها القوات التركية احيانا. ولم تكن الحكومة المدنية فعالة في الغالب، ومع كل ذلك فان توطين العشائر وتفكيكها، كان يجري بشكل نصف منظور، طيلة الوقت.

ما يزال اليوم الذي يمكن فيه دفع «العشر» بشكل هاديء من قبل فلاحي المنتفق، بعيدا، وذلك بسبب الخوف الذي عرف في الماضي من وجود جيش منتفقي موحد. كانت عشائر الفرات الاوسط تمثل في هذه الفترة، صورة مشوشة لتأريخ محلي متشابك. وكان النموذج البارز لتلك العشائر، يتمثل في عشائر «بني حجيم» و «شبل» و «الفتلة» و «الخزاعل» و «بني حسن» اضافة الى عشائر منطقة عفك والدغارة. ولقد تحولت هذه العشائر مؤخرا الى العقيدة الشيعية وبذلك وقعت تحت نفوذ «الملالي». وتظهر السجلات التي تخص هذه العشائر في اواخر القرن التاسع عشر، ازدياد توطن الاقسام التي ترعى المواشي منها، والانصياع التدريجي لجباة الضرائب من الاتراك الجشعين، والضعفاء في ذات الوقت. فلقد احدث اولئك الجباة تنافرا بين العشائر صحبته اعمال النهب والسلب، واطلاق نيران البنادق بصفة غير متعمدة. في المعارك العشائرية، كما اظهر افراد هذه العشائر تعطشا مريرا الى املاء الشواغر التي تحدث في رئاسات العشائر، والتي كان مدير الناحية، او القائمقام يستطيع ان يتدخل فيها حين يقدر على ذلك التدخل. وعلى الرغم من قدرة زعيم موحد، كان هنالك ميل نحو التسوية، و «الانقسام، وانعدام الوحدة. وكان يتم

---

(٥) ناصر باشا تولى مشيخة المنتفق بالالتزام بدلا من فهد بك وذلك في عهد ولاية نامق باشا ١٨٩٩ - ١٩٠٢ وفي عهد ناصر تم بناء مدينة الناصرية تخليدا لاسمه والتي خططها احد المهندسين الفرنسيين. كما تخلت الاسرة السعدونية في عهده عن حياة البداوة وتذوقت حياة الحضر واكثرت من تسجيل الاقطاعات باسماء افرادها

اما فالح بن ناصر فقد حاول التمرد على الحكومة العثمانية فجردت عليه حملة كبيرة اوقعت به الهزيمة ولذلك هرب ال سعدون الى الحوزة في اقليم الاحوار ومكثوا فيها زمنا ثم اذنت لهم الحكومة بالعودة الى المنتفق فعادوا بصفة ملاكين واقطاعيين الى ان برز منهم سعدون بن منصور الذي اعاد للاسرة مجدها القديم

(٦) منصور باشا هو ابن الشيخ راشد وشقيق ناصر باشا الذي مر ذكره قبلا، وقد انشق على اخيه ناصر بعد ان ساهما معا في القتال ضد الشيخ فارس، اختارت الحكومة العثمانية «منصورا» هذا لزعامة الاسرة ومنحته لقب باشا، ولكن ايامه لم تطل كثيرا بعد [illegible] [illegible] وبين اخيه ناصر باشا. «ذكرى عبد المحسن السعدون للشيخ علي الشرقي طبعة ١٩٢٩ بغداد ص ٤٢ [illegible]

دعم مثل هذا الانقسام عن طريق نشر النظام الجديد الذي يخص تسجيل الاراضي، واقدام الادارة السنية على شراء كل المقاطعات الزراعية التي تستطيع استثمار اراضيها من دون اية وكالة عشائرية.

ولقد ادى تحويل مياه الفرات من القناة الشرقية الى القناة الغربية، والذي سيرد ذكره فيما بعد، الى حدوث تغييرات وتأثيرات عميقة بالنسبة الى تنقل العشائر، كما ادى في ذات الوقت الى وقوع مصادمات، وانشقاقات، وغزوات، وجعل السلطة المباشرة للحكومة تبدو وكأنها هي الاداة الوحيدة المسيطرة على مياه نهر الفرات.

كذلك شهد القسم الادنى من نهر دجلة في نهاية ذلك القرن، احداثاً كانت تنذر بعواصف الحرب الاهلية. فبالنظر الى وجود عدد قليل من العشائر التي كانت تسكن الاهوار، والى ظهور المدن الجديدة غير العشائرية، اصبحت الجماعات المسيطرة هي جماعات «بني لام» الذين كانوا يمتلكون الابل، و «البو محمد» الذين كانوا يزرعون الرز. كان رخاء تينك العشيرتين يعتمد على تخصيص الحكومة للمقاطعات الزراعية والتي كان توزيعها بصفة دورية يؤدي في العادة الى حدوث مخاصمات شديدة. وعلى هذه الشاكلة اضيف الى الاسباب الاعتيادية للحروب العشائرية، سبب جديد مثير، كان من تطبيقاته المعتادة، الاعتداء على وسائل النقل النهري في دجلة ونهبها. ولذلك كانت الهجمات المسلحة على مثل هذه الوسائل تمثل المظهر المشترك للحياة في «العمارة». وكانت هذه الاعمال تشتمل على مصاحبة الضبطية [7] للزوارق التي تحركها الرفاسات، واحتجاجات الوالي، وارسال البرقيات من لدن مدراء شركة بيت لنج الى لندن بالاضافة الى النفقات التأديبية والتي لم تكن ناجحة في اغلب الاحيان.

ولقد بقي الشيخ غضبان آل بنية يتمتع بالثراء وبالمركز المرموق بين عشائر بني لام طيلة عشرين سنة حتى وفاته في سنة ١٩٠٣. في حين كانت السلطة بين عشائر البو محمد تتركز في بيت «خليفة» الذي كان يحكمها، والتي كانت تتعرض لمنافسات لا انقطاع لها.

اما مجاميع الاقوام التي استوطنت القسم الاوسط من نهر دجلة، ومنها قبيلتا «ربيعة» و «زبيد» فقد عاشت ايامها في تمرد موحد. كانت هذه المجاميع قد اخذت تتوطن هناك تماما، منذ اواسط القرن. وعانت قبيلة زبيد انشقاق عناصر كبيرة منها ورحيلها الى منطقة الحلة. كما ادى نمو المدن التي كانت تمد السفن بالوقود من امثال العزيزية، والصويرة والكوت الى احلال نطاق ما من سيطرة الحكومية عليها، وتوفير الفرص الاقتصادية لها.

---

(٥) المقاطعة عبارة عن منطقة محددة من اراضي قابلة للارواء تكون في بعض الاحيان ذات مساحة واسعة، وقيمة انتاجية كبيرة، ويتم تاجيرها الى احد شيوخ العشائر وفقاً لايجار سنوي يدفع مبلغه نقدا ولذلك كان امتلاك مقاطعة جيدة، عرضة لحصول منافسة حادة

(٧) الضبطية هي القوة التي الفها الاتراك وكانت مهمتها في الدرجة الاولى جباية الايرادات الزراعية من المزارعين والعشائر

(٨) ذكره المؤلف باسم «الشيخ بنية» والمقصود به الشيخ غضبان بنية» رئيس عشيرة بني لام

وعبر المنطقة الملحقة من جبال حمرين بولاية الموصل، كانت الحكومة قوية نسبيا في جميع الاوقات. كانت العشائر التي تعيش هناك، وهي البيات والداوودية، و«دزئي»، بعيدة عن الاعتداء بصفة عامة، وان لم تكن تخضع لسلطة القوانين الابشكل طفيف.

كانت حياة هذه العشائر الخارجة على القانون، وذات الصفة الذاتية المركزة، ماتزال على مثل ماكانت عليه حياة الا لوف من الاقطاعيين الذين كانوا يسكنون ذلك الوادي غير المحكوم.

لم تكن المطاليب التركية، في القسم الاعظم منها، مطبقة وظاهرة ومع كل ذلك فان تغلغل الوسائل الحديثة غدا مشهودا خلال خمسين سنة من الزمن، واستطاعت هذه الوسائل الحديثة، رغم تعرضها لمزيد من الطعنات المحلية والازدراء، ان تواصل مسيرتها، وان تكسب موطأ قدم لها هناك.

كانت السيطرة التركية التي تجري ممارستها على افضل وجه، في الاراضي المنبسطة التي يسهل الوصول اليها، تغدو اشد ضعفا، وتصل حتى الى نقطة التلاشي تماما في المناطق الجبلية. فلقد كانت قبيلة «الهماوند» في بازيان» وهي من اشهر القبائل السلابة، تغير على القرى فتصل حتى الحدود الروسية، ومن ثم تروح ترهب سكان الارياف المحيطة بكركوك، ولا يفتأ افرادهم المغيرون ان يعودوا سالمين من اصقاع قصية جدا، ليعيشوا في ظروف متباينة تماما مع السادة البرزنجيين المحترمين. في حين كانت عشيرة «الجاف» التي استوطن قسم منها داخل الاراضي الفارسية، وسهل «غول عمبر» مايزال افرادها يتنقلون بين العراق وبلاد فارس تحت زعامة موحدة كان يفرضها «محمد باشا»[٩] على كل رجل من قومه، في حين استطاع اخوه «عثمان باشا» مع زوجته الفارسية المعتقة «عادلة خانم» تكوين منطقة «حلبجة» والسيطرة عليها سيطرة مطلقة، وبذلك استطاعت «الجاف» ان تنازع الحكومة، وترفض دفع الضرائب، وتعمد الى قطع خطوط البرق، وتذكر الناس بالطرق التي كان يمارسها بيكات «البيرة» القدامى[١٠]



(٩) [illegible] الي استوطنت لقضاء حلبجة

(١٠) [illegible] (دره بيكى) اي حكام بعض المناطق

٦ ـ الموارد والمواصلات

يعود كثير من المآسي او معظمها التي كان العراق يعاني منها في سنة ١٩٠٠، – كما هو منظور – الى سبب واحد، هو الفقر الطاغي في البلاد وفي الحكومة معا. ولابد من التساؤل اذن كيف صار العراقيون المحدثون وحكومتهم، يحيون تلك الحياة الفقيرة في بلد اشتهر بثرائه منذ القدم؟

كانت الموارد المعدنية لولاية العراق في ادنى درجة. ذلك ان الحجر الذي كان يستعمل للبناء في الشمال، والطين الذي يستعمل لغسل الملابس[1] وبعض الكبريت والملح، وشيء من الفحم من درجة واطئة، والجبس، كانت هذه الموارد هي المعدة للاستعمال الداخلي، ولم تكن تتوفر اية صناعات لغرض التصدير.

وكان اكثر اهمية من هذه المواد، هو نزيز الزيت المعدني في اماكن كثيرة من شمالي العراق. ففي «هيت» على الفرات كان «القار» هناك يستخرج منذ عصور ساحقة في القدم، ومازال يؤلف مادة لصناعة القوارب والقفف محليا. وفي «القيارة» وطوز خرماتو، كانت الادارة السنية تمتلك منتوج سائل النفط، وتستغله بادوات قديمة تدعو الى السخرية[2] وفي كركوك، كان نزيز النفط في «بابا غرغر» مملكا طبقا لفرمان قديم الى عائلة «النفطجي[3]».

اما بالنسبة الى نزيز النفط في مندلي (والذي يستغل الان في منطقة «نفطخانة») فقد تم اعداد مشروع لتصفيته في بعقوبة سنة ١٨٧١ ولكن المشروع مالبث ان تضاءل وفشل. ولقد تقدم الاوربيون بطلب امتياز لاستثمار نفط مندلي ونفط القيارة فرفض طلبهم ذاك، ولكن خبراء المان سبق ان زاروا تلك المنطقتين خلال سنة ١٨٧١ وارسلت نماذج من ذلك النفط الى لندن

---

(١) هناك نوع من الطين الاحمر كان الاهليون حتى الى نهاية سني الثلاثينات من القرن الحالي يستعملونه بدل الصابون في غسل الملابس وشعر الراس، ويعرف بأسم «طين خاوة».

(٢) ذكر الرحالة الانكليزي جمس بكنغهام في رحلته سنة ١٨١٦ قدرا كبيرا عن ظهور النفط في طوز خرماتو واستغلاله ﴿انظر كتابنا رحلة بكنغهام ج (١) المطبوع سنة ١٩٦٨﴾.

(٣) عائلة النفطجي في كركوك: هي العائلة التي منح لها امتياز استخراج النفط من منطقة «باباغرغر» المشهورة في كركوك وقد برز من هذه العائلة رجال اشتهروا في العهدين التركي والانكليزي معا، كان من بينهم صالح باشا النفطجي الذي اختير نائبا عن كركوك في البرلمان العثماني الاول، وولده ناظم النفطجي الذي فاز بالنيابة في الانتخابات الثالثة لما عرف باسم مجلس المبعوثان والتي جرت سنة ١٩١٤.

لفحصها. واخيرا حولت حقوق النفط في ولاية العراق سنة١٨٨٩ من وزارة المالية الى خزينة السلطان الخاصة [٤]

ولم تكن الصناعة المحلية مهمة، وكانت غير ميكانيكية في الغالب. وكانت تنسج بعض الملابس القطنية والصوفية والحصر والسجاجيد الفجة. وكانت صناعة المجوهرات ضعيفة في نوعيتها ماعدا صناعة المينا والفضة في العمارة، والتي كان الصابئة يمارسونها. وكان العمل الانيق الذي يقوم به الصناع الفرس في الحفر على الخشب والعاج، وكذلك اواني بغداد التي يصنعها الصفارون، تسد الحاجات المحلية. وفي الاماكن المقدسة،كان الفرس هم الذين يصنعون القاشي ذا الالوان البراقة

وكانت البنادق المزودة بمواسير من صنع روسي، يتم صنعها في مصنع قديم انشئ في السليمانية، ومن هناك يجري توزيعها الى كل انحاء كردستان وكانت دباغة الجلود تمارس في ضاحية من بغداد [٥] غير ان صناعة منتجات الجلود من الاحذية والاحزمة والسروج كانت من نوعية واطئة.

وكانت وسائل النقل النهرية المحلية، وهي ذات تصميم بدائي، تصنع بشكل غير مهندم من الاخشاب المستوردة، والقار الذي يجلب من هيت على نهر الفرات، كما كانت تستعمل الاكلاك المصنوعة من اعمدة خشبية وجلود للنقل داخل النهر بين الموصل وديار بكر [٦] في حين كانت الاسرة والسلال تصنع من سعف النخيل، وتصنع الحصر من القصب الذي ينمو في الاهوار. وكل هذه الصناعات، الى جانب الصابون، والعرق، الذي كان اليهود يقومون بتقطيره، وصنع الاثار المزيفة، تكمل القائمة الهزيلة من الصناعات.

كان الحديث يجري في كل مكان عن تجارة المرور بين العراق وفارس، والتي تؤلف عاملا اقتصاديا رئيسا. والى هذه التجارة التي تعتبر من الصادرات غير المنظورة، يجب ان يضاف عدد كبير من الزوار الذين كانوا يؤلفون «دم الحياة» بالنسبة الى مراقد الائمة في النجف وكربلاء والكاظمية وسامراء. ومرقد الشيخ عبد القادر الكيلاني في بغداد. وبالاضافة الى ما كان ينفقه

---

(٤) في هذه السنة اصدر السلطان عبد الحميد فرمانا حصر بموجبه منح الامتياز بالبحث عن النفط بخزانته الخاصة، اي اصبح الامتياز له وحده. وقد جاء في ذلك الفرمان قوله «بما ان بعض ينابيع النفط قد اكتشفت في املاكي الشاهانية الخاصة الموجودة في ولاية الموصل، وسواء كانت تلك الينابيع في املاكي المذكورة ام في اراضي غيرها في تلك الولاية، فان اجازات التفتيش وامتيازات استثمار معادن النفط يحصر حق منحها حصرا باتا باسم الخزانة الشاهانية الخاصة..»(انظر كتابنا معركة النفط في العراق ج ١ ص ١٣ طبعة ١٩٥٢).

(٥) كانت الاكلاك تستعمل لنقل مختلف الحمولات، وعلى الاخص المواد الغذائية، من امثال الحنطة والشعير والفواكه المجففة وما عداها من الموصل الى بغداد حيث ترسو هذه الاكلاك عند الضفة اليمنى من نهر دجلة في شريعة النواب بجانب الكرخ او على الضفة اليسر [illegible] النهر ذاته في شريعة الاعظمية وقد ظلت هذه الاكلاك الى اواخر سني الثلاثينات تعتبر الواسطة الاساسية لنقل هذه المواد [illegible] بكر والموصل الى بغداد، ومن ثم بطل استعمالها بعد ان تم ايصال سكة حديد بغداد الى الموصل في سنة ١٩٣٩ او [illegible] عمال السيارات لنقل البضائع والاشخاص في نفس الوقت.

هؤلاء الزوار من نقود في هذه المدن، كان الرحالون، والمنقبون عن الاثار، والبعثات والقناصل، ينفقون بدورهم ايضا، قدرا من النقود في العراق.

وعلى حدة من عمليات التصدير، وتجارة المرور، كانت تجارة البلد، تتألف من استيراد السلع التي يحتاج اليها، ولايستطيع البلد ان يوفرها. لقد كانت جميع المواد المستوردة، عدا قسم منها كان يجلب برا من سوريا، ونجد اوالاناضول، تمر بالبصرة، ويتم توزيعها في بغداد العاصمة التجارية للعراق دون شك.

كانت الملابس القطنية التي تصنعها الشركات اليهودية والبريطانية، تؤلف ثلاثة ارباع المواد المستوردة. وكان معظم هذه المواد يأتي من مدينة مانجستر، وقليل منها من الهند. في حين كانت تستورد بعض السلع الصوفية والحريرية من كل من فرنسا والنمسا.

اخذ الفحم يصل الى العراق من مقاطعة «ويلز»، والقهوة من البرازيل، واليمن، واكياس الجوت والنيلة من الهند، والنفط الابيض من الولايات المتحدة الامريكية، والسكر من مصر وفرنسا، والنمسا، والاخشاب والشاي والخيوط والتوابل من الهند، والصناديق التي تعبى فيها التمور من النمسا، والتبوغ من فارس.

وهكذا كانت كميات نسبية اقل من الورق والادوات الصلبة، وصفائح الزنك، والاصباغ والقناديل والطرابيش هي المواد المستوردة التي كان يصل توزيعها الى حدود سكان الارياف، والى الاسواق المعقودة او المسقفة بالحصر، وحوانيت القرى وحتى الباعة المتجولين.

كانت العملة النقدية المتداولة في الولايات الثلاث هي القرش النحاسي، و«المجيدي» الفضي، والليرة الذهبية في ذلك الوقت، وكانت هذه تؤلف عملة ثابتة ووافية بكل الحاجات. وكان تداول الروبية الهندية الساري في البصرة، والنقود الفارسية في مدن اواسط نهر دجلة في كردستان، اقل تناسبا، وذلك في عهد تميز بمعدلات ثابتة للتحويل من دون قيود، ومن دون وجود عملة ورقية.

كانت وحدة الاوزان والمقاسات المحلية تختلف اختلافا بارزا بين منطقة واخرى. اما معاملات الصيرفة فكانت ممثلة في اعمال المصرف العثماني الامبراطوري، وفي العمليات الحاذقة التي يمارسها كثير من الصيرفيين المحليين.

ومن بين الصادرات الطبيعية التي كان العراق يصدرها، تؤلف التمور، اعظم اهمية قائمة وهي تسد، كما هو عليه الوضع الان، اعلى نسبة من حاجة العالم الى التمور. ومع ان تجار التمور كانوا متاخرين بالنظر الى كيفية تهيئة التمور وحزمها، وفنون تسويقها، الا ان هذه الحرفة بحد ذاتها، والتي كانت تلقى الدعم بكل فائدة طبيعية، قدتطورت تطورا ممتازا، واخذت التمور العراقية الشهيرة يجري تصديرها بوفرة كبيرة الى امريكا، واوربا، والهند وشرق افريقيا، ومناطق الخليج العربي وكان الرز يعتبر من الصادرات الشهيرة لكنه كان عرضة للتغيير، في حين كان الفشل يحيق

بتوفير كميات قابلة للتصدير من الحنطة والشعير ولاسيا هذا الاخير، الافي السنوات التي يحل فيها الجفاف، ويكثر ظهور الجراد. ولكن الكميات التي تصدر من هاتين المادتين كانت تتغير تغيرا واسعا، وكانت النوعية تعد من اوطأ الانواع المعروفة في العالم. وكانت ترد اطنان قليلة من بذور الحاصلات وبعض الصموغ والعفص من كردستان، وعرق السوس من شواطىء نهر دجلة، وتعتبر هذه المواد، رغم قلتها من بين الصادرات المتميزة.

وكان يجري نقل الخيول العربية بالسفن الى الهند، منذ القدم لكنه كان عرضة للتقلب. كما كانت الجلود الخام او المدبوغة يتم ارسالها الى اسطنبول، واوربا، والمصارين التي تستعمل لصنع «السجق» الى امريكا، والبطم المستعمل للدباغة الى النمسا. وهناك درجات متباينة من الصوف المحلي كان يتم كبسها استعداداً لتصديرها الى امريكا او لندن. وكانت الابل العراقية تنقل برا الى سوريا، كما يتم نقل الاغنام الى حلب عن طريق الموصل، والمواشي الى مصر، والجاموس الى الاناضول.

وفي الحزام الجبلي لشمالي العراق، كانت الغابات توفر موارد محتملة لها بعض الاهمية. ذلك لانه بين العشر والخمس من الجبال العالية، مغطى بالغابات المزروعة ذات القيمة الانتاجية، بالاضافة الى موارد اخرى تافهة ليست قابلة للتحسين.

ففي بلد تعوزه الاخشاب من كل الانواع، ويضطر الى استيرادها بنفقات عالية، كان الوضع يستدعي تنمية هذه الاشجار لسد حاجيات العراق الى الاخشاب التي تستعمل في البناء، وصنع صناديق التمور، والاثاث واستعمالها في الوقود. والواقع انه كانت توجد كميات غير محددة من الفحم والوقود، والاعمدة الخشبية التي تستعمل للسقوف، الى جانب المواد التي تستعمل علفا للماشية. فكل هذه المواد كان القرويون الاكراد يسطون عليها سنويا من دون ادنى تفكير في نتائج ذلك السطو، او رقابة، لان تموينهم المحلي يعتبر امرا ممكنا. ولم تكن حماية الغابات من الرعي ، والتلف او الحريق، تحظى باي نوع من الحماية تماما. كما كان يتم تجاهل اعادة تشجير الغابات. ولهذا السبب كانت تتعرض حوافي الجبال الجرداء لقسوة امطار الشتاء، في حين كان يؤدي التأكل الحادث فيها، وانحدار سيل الامطار والانهار، الى تدفق الطمى الاتي من المناطق الكردية وتكدسه في الانهار والقنوات التي تمتد في الاقسام الدنيا من العراق، وبذلك تخلق مشكلة التطهير المستديمة من الطمى.

تتألف الاشجار التي تنمو في مناطق كردستان من البلوط، وهو اكثر من نوع واحد، ومن بينه العفص. واقل من ذلك عدد اشجار العرعر، والفستق والكمثري البرية، والجوز، والقنب. كما تنمو على ضفاف الانهار بمستويات واطئة ،اشجار التوت، وخشب الحور والصفصاف والدلب، والطرفاء.

وكانت الزراعة منذ القدم تؤلف اوسع حرفة في العراق، ويعمل فيها اربعة اخماس السكان.

ومع كل ذلك، وبكل الفوائد المتوفرة من الاراضي الخصبة الواسعة، ووفرة المياة، فلم تظهر الزراعة الا بمظهر بائس بالنسبة الى الصادرات، وبمستوى واطئ من الحياة التي يحياها السكان.

كانت تحكي مبالغات عن امكانيات الزراعة في العراق* ذلك لان المناطق التي كانت تروي سيحاً او بواسطة لم تكن غير محدودة** وحتى مع المحافظة بصيغة افضل على مياة العراق، فان هذه المياه لايمكن ان تكفي في وقت واحد (وعلى وجه التقريب) لكل الاراضي القابلة للارواء. كما ان الامطار*** التي يعتمد عليها شمالي العراق اعتمادا كليا، تكون متقلبة، ونادرا ما تكون كافية.

ولم يكن من اليسير انجاز سدود للري مثلما عليه الحال في مصر، ويجب ان توضع نفقات مثل هذه السدود دوما موضع عدم توفر الفائدة المرجوة منها اذا ماقورنت بما هو موجود منها في كندا او روسيا، والتي تعتمد تلك البلاد عليها مثلما هو الامر بالنسبة الى اواسط العراق.

وكان الجراد «المراكشي» المحلي، والجراد «النجدي» الغازي، يؤلفان خطرا سنويا على الحاصلات الزراعية وكان الفلاح العراقي، حتى وان تم تزويده بمقدار واسع من الاليات، لايستطيع ان يجاري الفلاح الاوربي، او فلاح امريكا الشمالية، في نطاق الانتاج. وعلى كل حال فقد وجدت في العراق في سنة ١٩٠٠ اسباب لوجود الفقر الزراعي، ولوجود الفقر الجماعي نتيجة لذلك. فلقد كانت الاوضاع يمكن احتمالها في المناطق التي تعتمد على المطر في مناطق الموصل، وشهرزور، اذ كان تنظيم القرى متوفرا هناك، والضرائب معقولة، واخطار الفيضان غير معروفة.

وكانت ممتلكات الاراضي في الغالب صغيرة وشخصية وممكنة ايضا من النواحي الأخرى، في الحزام الذي يضم بساتين النخيل في شط العرب، اذ كانت حالة الامن جيدة هناك ، وقد وطد المجتمع جذوره بصفة جيدة، وتطورت مهارة المزارعين تطورا رفيعا. فلوان حياة الديون، وما يقرب من الجوع كان نصيب معظم الافراد في هاتين المنطقتين، على مثل ماكان عليه في اي مكان اخر من اداني العراق، لما استطاع التركيب الاجتماعي، ولا اجراءات الحكومة بشان تسوية الاراضي، ان تخلق الاحوال التي يصبح التقدم فيها امرا ممكنا.

(*) يمكن القول بان الرخاء الزراعي كان حتى في الماضي الاسطوري للعراق اقل مما هو حادث فعلا. ذلك لان الامطار لم تكن اكثر غزارة وكانت الفيضانات اوسع تخريبا والمستنقعات اوسع مساحة، وكان البدو اشد فظاظة، كما ان القنوات» اذا ماحكمنا عليها بالاعمال الاساسية منها الباقية الان بصفة مخربة، كانت هي القنوات الوحيدة التي تغمرها مياه الفيضان، ويتم تطهيرها من الطمى المتراكم فيها كل سنة.

(**) هناك حوالي عشرين مليون فدان من الاراضي الصالحة للري (في اواسط العراق وجنوبه) وعشرة ملايين فدان من الاراضي التي تعتمد على المطر في اروائها في المناطق الشمالية.

(***) يعتبر المعدل السنوي لسقوط المطر في منطقة الموصل حوالي اربعمائة وخمسين ملمترا، وينخفض هذا المعدل في التلال الواقعة في اواسط العراق الى مابين مائة ملمتر وخمسين ملمترا.

لقد كان الامن مهددا في العادة في مناطق واسعة نتيجة الغزوات التي يقوم بها المجاورون، اضافة الى غارات البدو وابلهم الجائعة. وحتى في الاوقات التي تكون فيها ملكية الاراضي مضمونة بشكل معقول، فان نظام المشاركة في المنتوج، السائد هناك، لم يكن يوفر سوى ادنى حد من العيش للفلاح، ذلك لان الشيوخ ووكلائهم وشيوخ الاقطاع المتغيبون عن المزارع، وتغاضي الحكومة وتعاميها، كل هذه الامور كانت تشترك في اغتصاب ثمرة الكدح الماضي والمستقبل المثير. ذلك لان الشيوخ ورؤساء الاقطاع لم يكونوا يفكروا في واجب تحسين وضعية الانتاج. ففي كل مكان كانت الزراعة المحلية، تتطلب بذل الجهود المشتركة والمنظمة، لتطهير القنوات من الطمى، وحماية الضفاف من الفيضان ومكافحة الجراد، وتنظيم المبازل، في ذات الوقت الذي لايتوفر فيه لديهم المال اللازم لذلك، ولا التوجيهات السامية، وحتى القليل من التنسيق، ولا الاحساس بالالتزام الاجتماعي. اما الحكومة فمن النادر ان تتوفر لديها المعرفة او السيطرة العملية، او الموارد، كما تبادر باستخدام الطرق الحديثة، اوتحسين الطرق القديمة.

ولقد كان المزارعون انفسهم، وهم اعتياديون من الناحية العملية، ولاتشجعهم الظروف الملمة بهم، يرغمون على تقبل اوطأ مستوى من العيش على اساس انه افضل ما تستطيع الحياة ان توفره لهم، ولذلك بقيت وسائل زراعتهم بدائية. والواقع انه كانت لديهم مقدرتهم في السيطرة على الحياة ذات المستوى الضيق وان كانت الوسائل التي يستخدمونها لرفع المياه من الانهار، مضيعة لذلك الماء.

ولما كانت تحفزهم الى نيل المنفعة، تلك الامطار التي كانت تسقط بصفة عرضية، اضافة الى الطمى المبتل المتخلف عن الانهار المتقلصة، فانهم كانوا منذ ايام طفولتهم يتحكمون في ابسط مالديهم من الادوات. ولكن لم يكن يوجد تحسين في الانواع القليلة من الحاصلات التي كانت تزرع، ولا اية تجربة في الصيغ الجديدة، ولا الطموح الى انتاج اصناف اكثر نقاء من البذور التي من شأنها ان تضاعف من الاسعار التي يفرضها التجار، كما انه لم يكن هنالك اي تردد في عرض المنتجات المغشوشة او غير النظيفة للبيع.

والواقع كان هناك اموات ، بل مجاعة قاتلة تدعمها قرون من العادات والهلاك المقيت. فما عدا المقاطعات السنية، لم تكن توجد اية اثار لمستويات اخرى يمكن انجازها من دون معجزة، او توفير امن افضل، ينهض به بصفة احسن، افراد الضابطية، او توفير الابنية الحديثة، وتطهير القنوات والانهار بصفة منتظمة من الطمى، او حتى ايجاد حد ادنى من التنظيم والتمويل المشجعين. لقد كانت الاراضي السنية تظهر مشاهد اقل حزنا من الحالة العامة السائدة في ميدان الزراعة في العراق، ومع كل ذلك فلم تستطع الاراضي السنية هذه ان تحل ايا من المشاكل الكبرى للزراعة.

كان البعض من هذه المشاكل واضحا بما فيه الكفاية، انها مشاكل حماية العمل والحياة

معا، والوسائل التي تستخدم لمارسة الوظائف الجماعية لكل انحاء الريف، والتمويل، والتعليم الريفي، والضرائب، والايجار. اما بالنسبة الى مشكلة الري، وهي حيوية للمجتمع العراقي واقتصادياته في كل عصر، فينبغي التحدث باسهاب عنها، ذلك لان العراق، من وجهة النظر هذه، لم يكن يعرض الامال الرفيعة حسب، بل وكذلك المشاق التي لم تبدر في سنة١٩٠٠ اية محاولة للسيطرة عليها.

كانت النقطة الاساسية في هذا الامر، هي ان النهرين كانا يتغيران في تصريفهما للمياه اكثر من عشر مرات، في كل فصل من فصول السنة، وبذلك تصبح الاحواض اللازمة لتصريف مياهها عند حلول اشهر الجفاف، غير كافيه لتقبل مياه الفيضانات، وهكذا تكون النتيجة حدوث فيضان شامل، والحقيقة ان هناك اولا مناطق واسعة في اواسط العراق هي اوطأ من مستوى الفيضان العالي للانهار. وثانيا ان موسم الفيضان يحدث في شهر نيسان. فعندما تتحكم مستويات النهر وحدها بالاراضي القائمة على ضفافه، فانها تبدأ في وقت متأخر في انضاج حاصل القمح الربيعي، ومن ثم تنتهي قبل ان تنضج الحبوب، والخضراوات الصيفية

ولذلك كانت المتطلبات الاساسية تتألف بكل وضوح من خمسة مطالب هي (١) الوقاية من الفيضانات المدمرة في فصل الربيع. (٢) خزن مياه الفيضانات. (٣) واعادة استعمالها عندما يتدنى الماء في نهاية الفصل. (٤) انشاء السدود لصيانة مستويات النهر التي يمكن السيطرة عليها، عن طريق استعمال النواظم. (٥) واخيرا توفير المبازل الرئيسة والمحلية سواء بسواء وذلك للحيلولة دون تراكم الطمى المحتم تراكمه، واتساع نطاقه بصفة عملية.

ومع ان هذه الشروط لم تكن في سنة١٩٠٠ من الامور التي لا يمكن تحقيقها سواء من قبل حكومة بغداد، او اسطنبول، الا انها لم تكن تعتبر من المشكلات المعقدة التي تتطلب الحل. ذلك لان نشاط الحكومة في هذا المجال، لم يكن –حسب مزاج الباشوات– يتألف اكثر من القيام باجراء لتنظيم الاعمال المحلية الطفيفة، لان الادارة لم تكن في الواقع، تملك لا المعرفة ولا السيطرة، ولا المال الضروري لاقامة او تنظيم نظام شامل للري.

فبالاضافة الى عدم الاكتراث بهذه المتطلبات الراهنة، والى الامكانيات الغنية، لم يكن حكام العراق يعملون او يخططون لعمل شيء ما، في الوقت الذي كان فيه الري في مصر وفي الهند يحرز تقدما واسعا ومثمرا[٧] وكذلك لم تكن مشاركة الجمهور في هذا العمل اكثر تشجيعا

(٧) يحاول المؤلف هنا من وراء هذه المقارنة بين العراق ومصر والهند ان يشير الى ما فعله الانكليز الذين كانوا يسيطرون على مصر والهند بشأن تنظيم امور الري فيهما، وايهام الناس بان الانكليز هم ادوات اصلاح في البلاد التي يحتلونها ويخضعونها لحكمهم ذلك لان الاصلاحات الزراعية في مصر وفي الهند في اوائل القرن العشرين لم تكن قد خطت خطوات واسعة وحقيقية في توفير الانتاج لاعاشة سكان تلك البلاد، ورفع مستواهم المعاشي. فلقد بقيت مصر متأخرة في ميدان الزراعة حتى منتصف القرن الحالي اكثر مما كان عليه الامر في العراق. اما بالنسبة الى الهند فيكفي ان نقول ان هذا البلد مايزال يشكو الفقر والمجاعات المهلكة حتى بعد ان تباهى الانكليز بالجلاء عنه وظفرة بالاستقلال في سنة١٩٤٩

ذلك لان المزارعين المتنقلين القليلين، لم يكونوا يحققون سوى مستوى واطىء من الكفاية في الانتاج، وسوى الحد الادنى من تطهير الانهار، واصلاح سدود الفيضانات التي كانوا يجبرون بالقوة على النهوض بها، واقامة الرؤوس الموقتة للقنوات سواء من حزم القصب او الاحطاب ومضاعفة وسائلهم البدائية في رفع الماء من الانهار، والتبديد الدائم للقنوات التي يستعملونها وتحويل مواقعها، وتخريب المنطقة تلو المنطقة، وذلك ببرك الطمى يتراكم فيها.

ولقد كانت حالة تخريب امور الري كثيرة الحدوث في تلك السنين في اواسط الفرات. فحتى سنة ١٨٨٠ كان شط الحلة يعتبر هو المجرى الرئيس لماء الفرات، وكان فرع الهندية عبارة عن قناة تتفرع من ذلك الشط. ولكن اغلاق الرأس الاعلى لجدول الصقلاوية، وعمل الطبيعة في تركيم الطمى وانحراف الماء، ادى الى توسيع عرض فرع الهندية وتصريف مياهه، وبذلك اصبحت المحافظة على جريان الماء في شط الحلة صعبة بشكل حاد اولا، ثم غدت مستحيلة ثانيا، واستطاع المهندسون الفرنسيون في سنة١٨٩١ ان ينجزوا بناء سد مايزال قائما بشكل حذر حتى سنة ١٩٠٠ لكن ذلك السد فشل في مقاومة الخراب المتزايد الذي حصل في ري شط الحلة.

* * *

بقيت الطرق البرية القديمة للعراق ثابتة على ماكانت عليه قبل قرون. فقد كانت القوافل المؤلفة من الابل تستعمل الطرق الصحراوية التي تمر بدمشق وحلب، في حين كانت قوافل البغال تجتاز طرق التلال التي حفرها الزمن الى داخل لورستان، وكرمنشاه والقسم الكردي من ايران، وولاية «وان». اما في داخل العراق فقد كانت انطرق مثبتة بالعرف الذي يعتمد على اساس الملاءمة. غير انه كانت توجد هنا، وهناك، اشارات لتقدم حديث في توفير الخانات التي تقوم على الطرق والجسور الجديدة التي تدفع عنها الرسوم، والمشيدة من الحجر او الاجر والتي تستقر فوق عوامات قابلة للانكسار

كانت الطرق التي تختلف باختلاف المناطق في امتدادها وسلامتها، مهملة وغير مكسوة، وتغرق عمقا في اتربة الصيف، وتفيض فتتحول الى بحار من الوحل، بسبب الامطار او فيضان القنوات. وغدت سكك الحديد تلقى الترحيب عن بعد طيلة سنوات عديدة من لدن العراقيين من سائر الطبقات باعتبارها من الوسائل التي تجلب التيسير والتقدم. ولقد طرحت مشاريع عديدة من السكك من بينها مشروع «جسني[٨] في سني الثلاثينات من القرن التاسع، ومشروع

---

(٨) جسني Chesney كان برتبة نقيب في الجيش البريطاني وقد بدأ مغامراته في العراق في سنة ١٨٣٠ عندما انحدر مع اثنين من المساحين العاملين في الاسطول الهندي في نهر الفرات من القائم الى الفلوجة وركز جل اهتمامه على انشاء خط نهري للنقل بواسطة السفن اما مشروعه لمد سكة حديد الى العراق فقد اشترك فيه مع كل من بيت لنج ومكنيل وغيرهم، وبحماسة من السيد اندرو في سنة ١٨٥٤ حيث الف الجميع شركة لمد سكة حديد من شاطىء البحر الابيض المتوسط حتى الخليج العربي وكان المقرر ان تمر السكة بانطاكية وحلب وهيت وبغداد ومن هناك الى القرنة والبصرة. وقد فاز هذا المشروع بالتأييد الرسمي من لدن الحكومة البريطانية والحكومة العثمانية ايضا

«اندرو»[9] في سني الخمسينيات واخيرا مشاريع كل من فون برسل النمساوي، وتونيني الايطالي وكابنست الروسي وكوتار الفرنسي، واخيرا في سني الثمانينات من ذلك القرن، تألفت شركة محلية لمد خط حديدي بين خانقين وبغداد، وقد حال عدم توفر راس المال اللازم دون تحقيقه، ولم يكن المشروع الذي خلفه في سنة ١٨٩٠ احسن حظا.

وحين اوشك القرن التاسع عشر على الانتهاء، اصبح الحديث عن مشروع سكة حديد بغداد، اكثر تكرارا مما كان عليه قبلا. فابتداء من سنة ١٨٨٠ بدأ الالمان يهتمون بمطامحهم الشرقية. فبعد ان اكملت «الشركة العثمانية لانشاء سكةحديد الاناضول» خطها الذي يصل الى انقرة سنة١٨٩٣ بتمديده الى «قونية» حصلت في تلك السنة ذاتها، على اذن بايصال الخط المذكور الى ديار بكر، وان يصل في النهاية من هناك الى العراق. غير ان معارضة روسية مباشرة اثيرت ضد ذلك المشروع، ولهذا تم التخلي عن فكرة ايصال الخط الى ديا بكر، واعقب ذلك حصول توقف في اعمال الشركة استمر طيلة سنتين.

وبعد ان قام قيصر المانيا[10] بزيارته الثانية للممالك العثمانية، واقسم يمين الاخلاص للخليفة العثماني وللاسلام، ظفر في سنة١٨٩٩ في اعداد مسودة لامتياز بمد خط الحديد من قونية الى الموصل، فبغداد والخليج العربي، وقام وفد الماني بزيارة العراق لكي يضع تقريرا عن حالة الطرق فيه، كما ظهرت احدى الطرادات الالمانية في الخليج العربي وكذلك قامت بعثة المانية في سنة١٩٠٠ بجولة في المناطق التي يتوقع مرور الخط الحديدي فيها عبر العراق الى الكويت، واذذاك ثارت الشكوك البريطانية بشكل متفاقم ازاء هذا المشروع.

وفي الوقت الذي اجتمع فيه الدبلوماسيون الاتراك والالمان لتهيئة اتفاق محدد، كانت وزارة الخارجية البريطانية وحكومة دلهي، تراقبانهم باهتمام بالغ. اما جماهير بغداد التي كانت بعيدة عن هذه المناورات، فانها لم تراي مشروع لسكة حديد اكثر الحاحا من خط الترام الذي تجر الخيول

---

(٩) دخل مشروع اندرو ضمن المشروع الذي شارك فيه جسني وبيت لنج ومع ان المشروع استمر مدة خمس عشرة سنة فلم يتوفق اصحابه في جمع المال اللازم لنجاحه ولذلك تخلوا عنه والحقيقة ان امثال هذه المشاريع قد فترت واهملت بعد ان تم افتتاح قناة السويس واصبح في مقدور السفن الاوربية ان تصل الى الشرق عبر السويس والبحر الاحمر والبحر العربي والمحيط الهندي والخليج العربي. وكانت كل هذه المشاريع من الامور التي مهدت فيا بعد للتفكير في تحقيق سكة حديد بغداد برلين والذي كان من الاسباب الاساسية التي حفزت كلا من بريطانيا وفرنسا على اثارة الحرب العالمية الاولى. اما توريني الايطالي فكان يمثل مجموعة من اصحاب رؤوس الاموال الايطاليين، في حين كان المسيو كوتار وهو مهندس يرأس احد مشاريع سكة الحديد في تركيا، ومثله كان كابنست الروسي ايضا.

(١٠) قيصر المانيا: هوغليوم قام في سنة١٨٩٨ مع زوجته القيصرة اوغستا بزيارة السلطان عبد الحميد في اسطنبول وطبع قبلة على خده وتلك اول قبلة فعلها ملك مسيحي على خد سلطان عثماني ومن ثم ذهب القيصر وزوجته الى فلسطين لزيارة الاماكن المقدسة فيها ثم زار قبر صلاح الدين الايوبي ووضع عليه اكليلا من الزهور وامر بصنع قنديل من الفضة للقبر هدية شخصية منه (علي الوردي: لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث ج ٣ ص ٢٨

عرباته والممتد من الكاظمية الى بغداد، والذي خلفه مدحت باشا[١١]

كانت طرق العراق الخارجية الطبيعية منذ فجر التاريخ، وانهاره العظيمة التي تمخر فيها عشرات الانواع من الزوارق والمراكب الشراعية الصغيرة، والاطواف والقفف، ماتزال مستعملة. ولكن منذ سني الاربعينات من القرن التاسع عشر، اخذت الملاحة التجارية تلعب دورها في انهار العراق. ففي سنة ١٨٦١ تألفت «شركة الملاحة البخارية في الفرات ودجلة» على يد اسرة لنج[١١] التي كانت تدير في بغداد والبصرة شركات تحمل اسمها، وظلت محافظة على الخدمة في نهر دجلة طيلة جيلين كاملين، ولم تتوقف الابفعل العقبات التي وضعتها السلطة في طريقها، والتي زاد ذلك المشروع الاجنبي في حنقها[١٢] وبسبب الصعوبات التي يمثلها انخفاض مستوى المياه امام الملاحة، والاعتداءات التي يقوم بها رجال القبائل الذين يمارسون اطلاق نيرانهم على بواخرها. ويبدو ان الفرمان الذي اصدرته السلطة والمؤرخ في سنة ١٨٣٠ كان يقضي بان لاتستعمل الشركة اكثر من باخرتين* ولكن جهود بيت لنج لم تنقطع عن الاتصال بالسلطة لغرض زيادة هذا العدد، ولاستخدام مراكب للنقل. وقد تركز اهتمام الشركة في سنة ١٨٧٩ او ما بعدها بالمشاركة الوثيقة مع «شركة الهند البريطانية للملاحة التجارية»

وفي جيل سابق انضمت اعداد مختلفة من المشاريع التركية او العراقية الفردية، الى بعضها البعض، لتشكل ماعرف باسم «ادارة عمان العثمانية» تحت اشراف وزارة البحرية التركية. وكان اسطول هذه الادارة والمؤلف من سفن صغيرة ليس في مستطاعها العمل الافي الانهار، لايستطيع ان ينقل الاحوالي النصف من مجموع الحمولة. وقد اضيف مشروع واحد، اومشروعان من هذه المشاريع الفردية الى ما كان موجودا منها. فقد كانت احدى السفن المملوكة للافراد في البصرة تصل الى بغداد في حين كانت سفينة اخرى غيرها تنتقل مرة واحدة في الاسبوع مابين بغداد وسامراء.

وتألفت مشاريع عدة في سبيل تطور اوسع لكنها كانت فاشلة. ففي سنة ١٨٩٠ تقدمت

---

(١١) بقي هذا الترام مستعملا حتى سنة ١٩٣٦ وقبل الغائه بمدة استعيض عن الخيول بشاحنة بخارية كانت تسحب كل عربتين سوية وكان ناظم باشا والى بغداد قبل الحرب العالمية الاولى قد فكر في تسيير شاحنات كهربية لسحب عربات هذا الترم ولكن الفكرة لم تنفذ.

(١٢) بيت لنج MESSRS LYNCH وهو من ضباط البحرية البريطانية في الاصل وقد حصل على امر وزاري من الصدر الاعظم في سنة ١٨٦١ باستخدام باخرة في المياه العراقية كانت تعرف باسم «مدينة لندن» ثم اعقبتها الباخرة «دجلة» في سنة ١٨٦٤، وبلوس لنج وغيرها.

(١٣) المقصود بهذا المشروع سكة حديد بغداد.

(*) كانت الباخرة المسماة «مدينة لندن» التي نزلت الى البحر سنة ١٨٦٢ قد ضاعت في سنة ١٨٨١ في حين ضاعت الباخرة «دجلة» التي انزلت سنة ١٨٦٥ الى النهر في سنة ١٨٧٠ وفي سنة ١٩٠٠ كان لايزال في الخدمة كل من الباخرة «بلوس لنج» التي انزلت في سنة ١٨٧٨، والباخرة «خليفة» التي انزلت في سنة ١٨٨٠ والباخرة «مجيدية» التي انزلت في سنة ١٨٨٢.

الادارة السنيه[١٣] مخطط لانشاء مصلحة موسعة تشتمل على القيام برحلات الى الموصل، بل حتى الى جزيرة ابن عمر، وصدرت الاوامر باجراء مسوحات جديدة في نهر الفرات تمهيدا للقيام بملاحة حرة فيه من «مسكنة» او «جرابلس»[١٤] الى البصرة. غير ان شيئا ما لم ينتج عن امثال هذه المشاريع ولكن الظل المتقدم لمشروع سكة حديد بغداد، والذي كان المصممون له يودون الارتباط به، اعطى نوعا من التشجيع ولذلك تم انشاء رصيف للسفن في بغداد في سنة ١٨٩٠

كان ميناء البصرة، وهو المنفذ البحري الوحيد للعراق، ينقل اعظم قسم من تجارة العراق وحمولاته، تلك التجارة التي لم يكن الجزء المنظور منها في سنة ١٩٠٠ سوى التجارة البريطانية، او التجارة البريطانية الهندية. اما التجارة الروسية والالمانية فانهما لم تكونا قد توطدتا بعد، في حين لم يساهم العراقيون الاقليلا في حركة الميناء.

وكانت مياه شط العرب وبفضل التحريات والعوامات التي اقامتها الايدي البريطانية تؤلف طريق الوصول والامن لرسو السفن قبالة العشار ونهيرات «الخندق»[١٥] التي تربط العشار بمدينة البصرة

كانت ادارة الميناء بدائية ووسائل الحجر الصحي، وقضايا المكوس غير ملائمة بل ومغيظة وتخضع للرشاوي. ولم تكن في الميناء ارصفة، ولارافعات، ولامظلات اواية اجهزة اخرى متوفرة. وكان تحميل الحمولات الى المراكب الخفيفة التي تقف وسط نهر شط العرب وتفريغها منها، يجري ببطء ويتطلب عمليات باهظة النفقات.

ومنذ سني الستينات في القرن التاسع عشر، اصبحت للعراق مكانته في نظام البرق الدولي فقد كان يرتبط من الفاو بالهند، وخلال الموصل وجزيرة ابن عمر الى بقية انحاء تركيا. كما كان يرتبط عبر خانقين اوعن طريق الفاو وميناء بوشهر ببلاد فارس. وكانت ممارسة اعمال النقل بطيئة ولايمكن الاعتماد عليها ولكن اتساع نظام البرق الى معظم اجزاء العراق، وان كان عرضة للاضطراب وللهجمات عليه، وبوجود مناطق كردية لم يمكن التغلغل فيها، مع كل ذلك عمل نظام البرق، المزيد لمساعدة الادارة على تحديث المجتمع. وكانت الخدمات البريدية تعود في تاريخها الى القرن الثامن عشر. وفي الستينات من القرن التاسع عشر بدأت البواخر البريطانية الهندية، بنقل البريد الهندي والاوربي الى البصرة، اذكانت مصلحة البريد مرتبطة بالسفن التي

---

(١٤) الادارة السنية هي الادارة التي كانت تدير الممتلكات التي سجلت باسم السلطان سواء منها المباني والمنشأت الاخرى او الاراضي الزراعية والمزارع وغيرها وقد الغيت هذه الادار السنية بعد خلع السلطان عبد الحميد

(١٥) مسكنة قامت مقام مدينة جرابلس القديمة في شمالي سوريا وكانت قبلا عاصمة دولة «كركميش» التي قامت بعد انقراض الدولة الحثية في آسيا الصغرى في الالف الاول قبل الميلاد.

(١٦) من الانهار الداخلية الشهيرة بالبصرة وكانت القوارب تسير فيه الى نهر العشار، كما كان يوجد رصيف على نهر الخندق لوقوف القوارب والسفن الشراعية عنده.

تسير في الانهار

في سنة١٨٦٨ تم افتتاح دائرة البريد الهندية، وكان البريد البريطاني الذي ينقل على ظهور الجمال قد توقف عن العمل سنة١٨٨٦، وتم استبداله، بعد قرن من الزمن، ببريد تركي عبر ذات الطرق السابقة، ويقوم افراد من عشيرة «عنزة» الذين يمتطون الخيول، وكان السعاة الذين يركبون الخيول واشتهروا في حينه بنقل البريد، يغادرون بغداد في يوم الاثنين من كل اسبوع الى اسطنبول بطريق الموصل وديار بكر.



٧ ـ الحكومة

كانت المصاعب الهائلة التي تواجه كيفية حكم الولايات الثلاث، تبرز واضحة من عوامل متشابكة ومعقدة. ذلك لان سبل المواصلات المتوفرة في البلاد، كانت ضعيفة، ومعظمها يتألف من جبال لايمكن المرور فيها، او من مستنقعات. وفي الوقت ذاته كانت السلطة الحاكمة فيها اجنبية ممقوتة، وفقيرة بشكل مميت. فلم يكن هناك سوى جزء ضئيل من السكان، مستعدا للترحيب بقيام حكومة كفوءة، وذلك لان القسم الاعظم من السكان كانوا يعتبرون مثل هذه الحكومة غريبة عن وسائلهم وعن مصالحهم

كان العراقيون وما يزالون حتى الان يتميزون بالنزعة الاستقلالية، والفردية التي لم تتعود الاذعان للسيطرة. ولذلك كان الشغب في المدن، والحروب العشائرية المتواصلة، يمثلان القاعدة لقرون عديدة. وكان الانقسام العميق بين المدينة والعشيرة، يعتبر من اعظم العقبات امام تشكيل الادارة الحكومية، يضاف الى هذا، تلك الهوة السحيقة الناجمة عن الخلافات الطائفية. على هذه الشاكلة كانت حال العراق، الذي بقي الفكر الغربي ينظر اليه نظرة جماعية خلال خضوعه طيلة اربعة قرون من الحكم العثماني، بانه كان من اسوأ بلاد العالم التي بذلت المحاولات لادارته.

كانت حكومة سنة ١٩٠٠ التي نتحدث عنها هنا، وتماسها بهذه المشاكل، تختلف، في الواقع، اختلافا جوهريا عن تلك الحكومات التي شهدتها الاجيال الثلاثة السابقة. فبالنسبة الى الشكل الاصلي للحكم العثماني، والذي تميز بالاستبداد الشرقي الخالص، كانت السلطة كلها في يد السلطان. ذلك لان السلطان كان يقف على راس سلطة وراثية متقنة، تتألف من وظائف متشابكة، وكان يمثله فيها حكام محليون مستبدون مثله تماما. فقد كان الحكم كله لمنفعته وابهته. وليس هناك من قانون ماعدا «الشرع» الذي كان يطبق ولايوجد حداواستئناف يقيد السلطات المحلية الممنوحة للوالي اوالمتسلم وكانت جميع الوظائف، بما في ذلك المناصب الرفيعة، عرضة للبيع.

بدأ التغيير في هذا النظام، ينصب على الاسرة العثمانية الحاكمة في اوائل القرن التاسع عشر، وذلك نتيجة الهزائم العسكرية التي لحقت بها، وارغمتها على الاستعانة بالمعلمين العسكريين الاوربيين. وفي الوقت ذاته دفعت هذه الضرورة بالسلاطين المتعاقبين، الى دعم مفهوم الحكومة

وادائها، بكيان جديد من القانون والاجراءات، وبطبقة جديدة من الموظفين، والمؤسسات العصرية التي بادرت بالعمل، من امثال المؤسسات التجارية، والملاحة، والوظائف التعليمية، والرحالين والبعثات، والمواصلات العصرية، والصحافة.

والى هذا التأثير الذي احدثه الثقل الغربي، يجب ان يضاف ايضا، الموقف الذي وقفه الدائنون الاوربيون لتركيا، ورد الفعل الناشيء في اوربا، ومآسي الولايات المسيحية التي اخذت تنفصل بالتعاقب عن الامبراطورية العثمانية

تحت مثل هذا الضغط، اخذت الحكومة التركية نصف المتحضرة والواعية والمثقلة بالاعباء، والتي كان يحتاج الى وجودها، تتطور في القرن التاسع عشر. فخلال سبعين سنة مضت قبل سنة ١٩٠٠/ استطاع العراق ان يستمتع ببركات حكومة اصلاحية، اذرأى ادارتها معتدلة على الورق في اول الامر، وفي ميدان العمل فيما بعد، في كل قانون جديد شديد التدقيق يتناول نظام الولاية المعدل الذي وضعه مدحت باشا. ذلك لانه باصدار الانظمة التي يجب تطبيقها، واحداث الوظائف المتخصصة، برزت الى الوجود طبقة كثيرة العدد تتمتع بالنفوذ، وذلك لانه لارؤساء الاقطاع، ولاالتجار، ولا رجال الدين، لم يكونوا من طبقة مدنية متوسطة، ولاطبقة دنيوية مؤدبة.

كان العراقيون، ما خلا بالنسبة الى الوظائف العليا، يتألفون من عنصر الافندية الذين يؤلفون القسم الأعظم من العنصر الاجتماعي الذي تقبل الثقافة التركية، وراح يعمل بمثابة جسر اساسي بين الاتراك والعرب. ولقد كان بين اصناف العراقين، مسلمون من الطراز القديم، او الذين يسخرون من التفكير الحر، والذين يمقتون الاجانب، ومن العالميين بصفة علنية. ولذلك كان هؤلاء من الاميين ويصرون على التحدث باللغة التركية، ومع انهم كانوا متخلفين الاانهم كانوا يتظاهرون بالعادات الاجتماعية، ويقلدون الاوربيين في ملبسهم، وكانوا فاسدين بشكل دائم، وبعيدين عن روحية الخدمة العامة، ولذلك استطاعوا ان يسموا الكيان السياسي بطبقتهم الخاصة، فيزدروا بالقبيلة وبالمزارعين. ولما كانت اجورهم ضعيفة، ومطامعهم واسعة، فانهم لم يستطيعوا الاعتماد على عنصر الاحقية وحدها بشكل معقول. فقد كانت المحاباة متفشية بينهم، ولم تهمل اية مكيدة او مؤامرة الاوتم استعمالها

كانت الخدمة المدنية في العراق سنة ١٩٠٠ قد بلغت اخطر درجة اذا ما قيست حتى بالمستويات القائمة في الاقطار الاسيوية المعاصرة. ومع ذلك فقد كانت هذه الادارة تضم، في جميع الاوقات وعلى كل المستويات، عددا غير قليل من الرجال المخلصين ذوي العقول السامية.

كان تقسيم الاراضي الاقليمية التركية الى ولايات، ومحافظات واقضية، ونواحي من الامور الادارية. وكانت الوحدات الادارية تتجاوب ليس طبقا للتقسيمات الجغرافية، وغالبا ما كان يساء فهمها. وكانت التغييرات التي تحصل في الاوضاع القائمة، وفي الحدود، وانشاء وحدات

ادارية جديدة، من الامور الشائعة. وفي سنة ١٩٠٠ كان العراق بمجموعه يقل بمقدار اربع محافظات عن المحافظات التي وجدت في سنة ١٩٥٠، وبعشرة اقضية، وباقل من عشرين ناحية. وكانت الاقضية تقسم الى درجة اولى، وثانية، وثالثة، وهي لاتختلف بالنظر الى المساحة او السكان، او الصعوبات الادارية. وكان البعض من هذه الاقضية يعتبر من الضواحي، والبعض الاخر يكون عشائريا برمته، في حين كانت اقضية اخرى، من امثال قضاء «الرزارة»، او الكويت اقضية اسمية ليس الا.

وكان الولاة والمحافظون يعينون وفق مرسوم امبراطوري، في حين يعين الموظفون الذين يقلون عنهم درجة من قبل الوالي محليا. وكانت اعادة التعيينات وفصل الموظفين بصفة دائمة، تعكس القلق المستتر الذي تثيره الدسائس، واختلاق الشائعات التي كانت نذير شؤم للاستمرار في الادارة.

وكان الوالي، باعتباره ممثلا للسلطان، يتعامل مع رؤساء الكيانات المحلية، والقناصل الاجانب، وكبار رؤساء القبائل، وكانت الادارة العامة والادارة غير الوظيفية في يده. فهو الذي يوجه البلديات، و ويفض الخلافات العشائرية التي تتحدى التسوية، ويستمع الى المظالم المتفشية. وعن طريق الدفتر دار، يكون له تأثيره اوسيطرته على ميدان جمع الواردات المهمة التي تستحصل من الاراضي. ففي كل ولاية، اواية مراكز تابعة لها، يتألف مجلس اداري يكون قسم من اعضائه من الموظفين، والقسم الاخر من اعضاء منتخبين، فيما بينهم ممثلون عن المسيحيين واليهود.

وكانت صيانة القانون والنظام تعتمد على قوة «الجندرمة» اولئك «الضابطية» المألوفون لدى الرحالين الاوربيين. وكانت هذه القوة التي تتم قيادتها وتنظيمها على الاسس العسكرية، تدار من قبل وزارة الحربية، لكنها توضع تحت تصرف الحكومة المحلية.

ولما كانت اجور اولئك «الضابطية» تافهة، وكانوا بدورهم شديدي الجشع، ونصف مزودين بالسلاح، وغير مهندمين في الملبس، ويتم استخدامهم لكل غرض من اغراض الحماية، ونقل البريد، بل وحتى الخدمات الاهلية، فانهم مع كل ذلك لم يكن ينقصهم الاخلاص ولا الجرأة. وقد عمل الكثير منهم اعظم مايمكن عمله للحفاظ على الادارة القائمة.

ولم يكن للمحافظ، على كثير من الدوائر التي تعمل في منطقته، سوى السلطة العامة للتنسيق والتوجيه. وكانت هذه الدوائر الموجهة من اسطنبول، تشتمل على ادارة العدل، وهو الميدان الذي استطاع فيه القانون في سنة ١٩٠٠ ان يتطور الى ابعد مما كان قائما من اصول الشرع فقد تم اختيار «المجلة»(١) المدنية، سيئة التأليف والتشريع، وهي عبارة عن مجموعة «تشريعية»

---

(١) يقصد بذلك مجلة الاحكام العدلية والتي كان يحكم بموجبها في المحاكم المدنية في الامبراطورية العثمانية ومنها العراق. وظلت هذه المجلة تدرس في كلية الحقوق العراقية حتى اوائل الخمسينات حين تم وضع القانون المدني العراقي من قبل لجنة كان من =

ملخص هذا الموضوع، مضافة اليها مجموعة القانون التجاري الفرنسي.

ولم تدون القوانين التي نتجت عن ذلك بصفة ناقصة وملئ بالشذوذ حسب، وانما كانت غير متلائمة مع حاجات العراقيين بشكل تام في اغلب الاحوال. وكانت المحاكم التي تطبق تلك القوانين، تمثل نظاما شاملا اسيئ الاهتمام به، وتم افساده بالتأخير. وسوء الاستعمال اثناء التطبيق، وباستخدامه اللغة الاجنبية بصفة مطلقة، وبعدم دفع مرتبات للقضاة.

ولقد تم التأكيد على حماية الاوضاع الممتازة للاجانب، الذين كانت تحميهم الامتيازات التي تعود الى عصور موغلة في القدم، والتي كانت تثير الاستفزاز، وذلك بالترتيبات التي اجريت بالنسبة الى الامور المدنية والجنائية على حد سواء.

التي الوفير من الاعمال على عاتق المحاكم من قبل دائرة تسجيل الاراضي. او دائرة التسجيل العقاري «الطابو»، حيث شرع لاول مرة بتطبيق هذا النظام في العراق على يد الوالي «مدحت باشا» باعتباره اداة لتسوية قضية الاراضي، ولتحقيق الاستقرار. ولكن في الاراضي التي لم يتم مسحها بعد، والتي كان معظمها مملوكاً بصفة دائمة للعشائر، وابعد من ان تتطابق مع وجهة النظر الرسمية التي تعتبر اراضي الدولة غير المحولة، بانها موضوعة تحت التصرف الحر للحكومة، لم تستطع دائرة التسجيل العقاري ان تفعل سوى الشيء القليل مما كانت تعمله، عدا عن اثارة منازعات جديدة، وتحويل حقوق لفرقاء لاحول لهم في ممارسة تلك الحقوق، وتدمير افضل العناصر القائمة في العلاقة بين الشيخ وافراد العشيرة. ومن هنا كانت الصعاب العملية الهائلة التي جابهتها عملية تسوية الاراضي، من الامور غير المتصورة، اذ كان الاساس الشامل لعملية مسح الاراضي، والسيطرة الاجتماعية، ناقصا.

وفي ميدان الطب والحجر الصحي، كان مستوى الاطباء الاتراك (ونادرا ان يكون هولاء الاطباء من عنصر تركي)، واطئا، وكان مساعدوهم ومفتشوهم غير متدربين، واجهزتهم ناقصة. وكانت الخدمات الطبية التي اعتادت الاعتماد على وجود المستشفيات والمستوصفات التي تديرها البعثات التبشيرية، ضئيلة جدا في المدن، وغير موجودة خارجها.

ولم تبرز الخدمات التربوية سوى مظهر ضئيل من التحسن، وان كانت المستويات في كل ناحية اوطأ من مستويات المدارس الاجنبية او المدارس التي تشرف عليها البعثات التبشيرية الاجنبية

اعضائها الفقيه والدستوري الكبير المرحوم عبد الرزاق السهوري المصري. وكان المرحومان الاستاذان منير القاضي وحسين علي الاعظمي من اشهر الذين درسوا «المجلة» في كلية الحقوق العراقية خلال سني الاربعينات وما بعدها.

ذلك لان المدارس الابتدائية المجانية، والمنظمة تنظيماً جيدا على الورق ليس الا، كانت موجودة في معظم المدن، في حين وجدت بعض المدارس الثانوية ايضا في المدن التي تعد اوسع من غيرها. كذلك انشئت مدارس صناعية في كل من بغداد والبصرة، واصبح التعليم الديني العالي متوفرا، في حين كان نظام التعليم العسكري مميزا. فقد كان ابناء الاشراف من المدنيين وكبار الموظفين، يذهبون الى اسطنبول لاكمال تعليمهم التركي، في حين كانت تذهب قلة من ابناء الشيوخ الى الكلية العشائرية [٢] وكانت حرفة التعليم سيئة السمعة وممقوتة، وطرائقها بدائية.

ولم تكن كل هذه القضايا لتشتمل على قائمة الوظائف الامبراطورية. ذلك لان ادارة الديون العامة، التي تدير شؤون الايرادات المختارة، نيابة عن العراقيين للباب العالي، والدوائر المحلية لشاريع الاحتكار، والتي كانت تنهض باعمال احتكار مصانع منتجات التبوغ وبيعها، ودائرة المكوس، كل هذه الدوائر وامثالها، لم تكن تحظى بالاهتمام المباشر من لدن الوالي. ومثل هذا الامر كان يطبق ايضا على اعمال عامة نادرة، يعهد بها الى مهندس الولاية او الى ادارة الاوقاف.

فلم يكن الوالي يغامر في الاقدام على اي تدخل رسمي في ادارة عمان العثمانية [٣] ولا في الادارة السنية المفضلة على غيرها من الادارات الاخرى. وذلك لان هذه الادارة الاخيرة التي اشتهرت مؤخرا، قد خولت مديرها في سنة ١٩٠٠ ارجحيه شراء اكثر من ثلث الاراضي الصالحة للزراعة في ولاية بغداد، بالاضافة الى مقاطعات اوسع في ولايتي الموصل والبصرة.

كان الجيش السادس الذي تشتمل منطقته الاقليمية ذات الحدود المشتركة، ومن بينها العراق بأكمله، يعتبر اقل فخامة من التشكيلات العسكرية التركية الرئيسة الاخرى. اذ كان هذا الجيش يتألف من فرقتي مشاة، وفرقة خيالة، وتشكيلة من المدفعية. وكانت وحدات كل جيش متناثرة تناثرا واسعا، ويتغير موقعها باستمرار طبقا لمتطلبات الحروب العشائرية.

وكانت المواصلات المرهونة بالمناسبات، وبالترتيبات التموينية، بدائية تماما، في حين كانت التجهيزات تافهة وناقصة. كان الموظفون وتنظيم الجيش يجري بصفة عامة على النمط الذي تنظم به القوات العصرية ولكن كان يساء استعمال افراد تلك القوات وكان تدريبها مفككا، ولاتدفع مرتباتها بانتظام.

كانت الخدمة في الجيش ناشئة من التجنيد الاجباري الذي كان يعفى منه غير المسلمين بالاضافة الى طبقات كثيرة من المسلمين ايضا، لقاء البدل الذي تدفعه مقابل ذلك. وكان افراد

---

(٢) تأسست هذه الكلية في اسطنبول وكان ابناء العشائر هم المفضلين في الالتحاق بها، وكان عبد المحسن السعدون من بين الذين التحقوا بهذه الكلية.

(٣) كانت عمان في ذلك الوقت تخضع بصفة اسمية للامبراطورية العثمانية ولذلك انشئت لها ادارة خاصة عرفت بأسم «ادارة عمان العثمانية» وكانت تعتبر من الادارات المتعلقة بالسلطان مباشرة، ولايحق لاي والي او متسلم ان يتدخل فيها الاباذن من الباب العالي.

العشائر كلهم معفوين من التجنيد. وكانت الخدمة الاجبارية تمدد عادة لاكثر من المدة القانونية المحددة بثلاث سنوات وهذا الاجراء وما كان يضاف اليه من احتمال ارسال المجندين الى مناطق مخيفة في اليمن او في اوربا، قد جعل التجنيد يثير الحنق والامتعاض اكثر مما تثيره المؤسسات التركية الاخرى. ومع كل ذلك فلم يكن اي من الاقاليم العربية يزود الجيش التركي بالمزيد من الضباط ذوي المستوى الرفيع، مثلما كان العراق يفعل ذلك.

كان الاسطول في البصرة، وهو عبارة عن مصلحة تافهة منحطة جدا، يخضع لامرة رئيس عمارة بحرية. وكان الواجب الظاهر لهذا الاسطول هو نفس ما تقوم به الشرطة النهرية، ذلك الواجب الذي فشل فيه فشلا ذريعا ملموسا. ومع وجود مؤسسة للسواحل، تضم حوالي مائتي رجل، كان السلاح الوحيد الذي يمتلكه اسطول البصرة في سنة ١٩٠٠، عبارة عن سفينة بحرية قديمة غير قادرة على ان تغادر مراسيها تسمى «قليد البحر»[٤] وسفينة صغيرة مسلحة تتحرك بالرفاس عرفت بأسم «الوس»

هذه الحكومة التركية في العراق، والتي اطلعنا الان على واجبها، وتطورها وتنظيمها، كانت لها اهداف اعتيادية لايمكن الوصول اليها، من امثال النظام، والتقدم، والمنفعة العامة. فقد كانت انظمتها شاملة، ويجري تعديلها باستمرار. واشتمل مدراؤها على رجال متعلمين لديهم التجربة والمعرفة بالاوضاع المحلية، ومع كل ذلك كانت هذه الحكومة تتلقى اشد الانتقادات من لدن العاملين فيها، بما لايقل عما ينتقدها به المراقبون الخارجيون. ولما كانت هذه الحكومة شديدة المركزية بشكل مستديم، فقد كانت مقيدة بألف من القواعد سيئة التطبيق، التي كانت تعرقل المبادرة المحلية. لقد كانت الحكومة سيئة الاستعمال، رديئة المساكن، سيئة التجهيز، وغير قادرة على الاحتفاظ بقوات تكفي للاقل من حاجاتها. كانت تعوزها صفة الاخلاص، مثلما يعوزها الرجال المتحمسون القادرون على ممارسة الوسائل الضرورية لحكم بلد عشائري متخلف، والذين يحظون بثقة رؤسائهم فيهم.

وحتى لو تحركت مثل هذه الحكومة في بعض الاوقات، الى امام بفضل قلة من الموظفين العصريين فيها، وعلى مثال الاقليات المحلية، فانها سرعان ماكانت تتوقف عن تقدمها، بفعل ايدي عناصر لاتهتم الا بمصالحها الشخصية، دون المجتمع العراقي، وحتى المجتمع التركي ايضا.

وفوق كل ذلك «كانت السمكة جائفة من الرأس الى الذنب»، (بالك باشدان كوكر). فلم يكن العراق سوى جزء من الامبراطورية العثمانية، التي كانت حكومتها المركزية في سنة ١٩٠٠ تمثل الاستبداد الشاذ المتعاظم، وقد اذهلتها المخاوف والشكوك التي كانت الدول تثيرها، وغدت فريسة للمغامرين الذين كانوا يستخدمون الجواسيس، ونقلة الاشاعات، بالاضافة الى الفساد والمحاباة التي عملت على تمزيقها.

---

(٤) قليد البحر KELID AL BAHR المقصود العبارة «اقليد البحر» وهي تسمية عربية خالصة.

كانت لدى الباب العالي وقصر يلدز رغبة واسعة في كسب الوقت، وفي اضعاف المعارضة، وذلك عن طريق اللعب بالقوى المتنافسة، وارشاء الافراد الخطرين، والتشدد في قطع الوعود الكاذبة، بدلا من المبادرة باقامة حكومة نظيفة وفعالة كانت تنقصها حتى الوسائل المثالية ناهيك عن الوسائل المادية.

فالى هذه الحكومة المركزية كانت تتبع الولايات العراقية. ومن بين صفوفها كان يأتي كبار الموظفين، الى كل محافظة ودائرة، واليها ينقل الدساسون والساخطون في العراق حكاياتهم.

ومن الناحية الاقتصادية، كانت هناك كما شاهدنا ذلك قبلا - امال كبيرة لتحقيق تطور العراق. اما من الناحية السياسية فقد كانت طريقة السلطان التي اتبعها، هي ان يتودد الى الاسر المهمة في المدن، ولاسيما تلك الاسر التي كانت تتظاهر بالدين، وذلك بالتشديد على المفاضلة والمجاملة، اذ كان يشجع مراقد الائمة والهبات التي تخصص لها، ويؤكد مظهر الخلافة في الحكم الذي كان يمارسه، وان يكون معروفا عنه بانه هو الذي كان يخطط لإيصال سكة الحديد الى مكة والمدينة[٥] وتوسيع نطاق الجامعة الاسلامية التي كانت تدعو الى اتحاد العرب والاتراك، واختيار حرسه الخاص من العرب

وعلى هذا كانت اية حكومة لابد وان تجابه، ان عاجلا ام اجلا، بسياستها ازاء المشكلة العشائرية. فاذا ما استحال العثور على عناصر عشائرية قادرة على اظهار التبعية المخلصة، واذا ماتم التأكد من ان الشيوخ سوف يسيئون على الدوام، استعمال كل السلطات التي تمنح لهم، حينذاك تغدو السياسة الوحيدة البديلة لذلك، هي عرض الحكم المباشر في مراحل ممكنة التطبيق.

ولكن مثل هذا المشروع كان يلقى المعارضة والمقاومة من لدن تسعة اعشار رؤساء العشائر، لانه يحطم مراكزهم المفضلة، ولذلك كان تطبيق مثل هذا المشروع يشتمل على كفاح دائب تقوم به الحكومة لتأكيد سيطرتها، ولكي تدفع الشيوخ الى القبول به.

لقد ادت الصفة المتغيرة للحكومة، وفقر مواردها، الى حدوث المزيد من التقلبات. فلم تعد تستطيع على الدوام ان تصنع التظاهرات العسكرية، اوان تحرك الارتال التأديبية الناجحة. فقد كان يظهر في كثير من الاوقات، المزيد من سياسة التغاضي عن الاعتداءات الفاضحة، ومساندة بعض الشيوخ البارزين بل وحتى تعيينه في الحكومة، مثلما كان يحدث بالنسبة الى تعيين محافظ المحافظة نفسه.

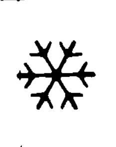
وكان الشيخ في بعض الاحيان، اذا ما اخفقت كل السياسات، يستطيع ان يشتري نقدا

---

(٥) يقصد بذلك خط حديد الحجاز الذي اوصل قبل الحرب العالمية الاولى من شرقي الاردن الى المدينة المنورة وقد هجر استعمال هذا الخط بعد تلك الحرب ولم يشجع الانكليز استعماله ولا ايصاله الى مكة، كما جرت في اوائل الستينات محاولات من قبل الحكومة السعودية لاصلاح الخط واستعماله ولكن تم التخلي عنه في اعقاب هزيمة حزيران ١٩٦٧.

كل متطلباته من السلطة، او التخلص من العقاب. فقد كانت القاعدة المطبقة للحكم لدى المديرين الاتراك في العراق هي قاعدة«السيف والسكر»

ومايختص بالوضع السياسي، نقول بأن الحياة السياسية لم تكن في ظل الحكم الحميدي، من الامور المتوقعة. ذلك لانه كانت تعوقها الطبيعة القاسية الغريبة التي تتسم بها الحكومة، ونظام التجسس الشامل المطبق لديها. ولذلك فلم يكن موقف العراق ازاء الحكم التركي بمجموعه، سوى القبول المذل والممزوج بالكره العاطفي والمذهبي من قبل بعض الاوساط الطائفية، واحترام بعض الاوساط السنية لشخص الخليفة السلطان. ومع ذلك كانت الحركات الادبية والسياسية في مصر ولبنان، تبشر بان حركة عربية على وشك ان تولد.



الفصل الثاني
اخر مراحل العراق التركي

١ ـ السياسة التركية والقومية العربية
٢ ـ اخر مرحلة ادارية
٣ ـ المدينة والقبيلة
٤ ـ مشاريع الارض والماء
٥ ـ الجيران والاجانب

١ - السياسة التركية والقومية العربية

لايوجد سوى القليل من الحظوظ التي اصابتها تركيا خلال الفترة من سنة١٩٠٠ الى سنة١٩١٤، مامن شأنه ان يشجع العالم بل حتى رعاياها العراقيين على الامل في قيام ادارة افضل، اوالتمتع بحياة احسن. لقد شهد القرن الثامن عشر بعض البوادر (منها الاضطرابات التي وقعت في جزيرة «كريت» وما اعقبها من قيام الحرب اليونانية التركية) والتي دللت على ان التوقف الطويل الذ ي حدث منذ سنة١٨٧٨ ازاء تفكك الامبراطورية العثمانية، ان ذلك التوقف لن يستمر الى الابد.

فني القرن الجديد دفعت الاوضاع التي حدثت في مقدونيا، بالدول الغربية، الى التدخل، والى فرض قيود على السلطة التركية. كما ان التقدم الذي اصابه النظام الجديد في الحكومة التركية، قد اخذ يشير هو الاخر الى المزيد من الخسائر. في سنة١٩٠٨ اعلنت بلغاريا استقلالها، وانضمت النمسا الى «بوسنيا» و«هرزيغوفينا». وفي سنة١٩١١ غزت ايطاليا ولايتين من ليبيا، في حين اعلنت عصبة دول البلقان في سنة١٩١١٢، الحرب على تركيا، ودحرت الجيوش التركية دحرا شنيعا، ولكن المنازعات على الارض ما لبثت ان ادت الى تجدد المعارك، اي قيام الحرب البلقانية الثانية وعلى هذه الصورة كانت تلك الفترة، ماخلا نجاحات تذكارية، تعتبر من اشد الهزائم اذلالا، وتمزيقا، وابتعادا عن الاصلاحات. كانت الصورة من الناحية الداخلية تحتوي على مظاهر اكثر جدة. فالواقع ان الحكم الحميدي قد اضاف امتعاضا جديدا لكل اوربا (ماعدا المانيا) وذلك بسبب المذابح الارمنية التي وقعت في سني التسعينات من القرن الماضي، ذلك الامتعاض الذي ادى الى تخلي السلطان عن حكمه الشخصي بدرجة اكثر مما كان يفعله وزارؤه انفسهم، والى تشديد نظام التجسس. غير ان القوى الاصلاحية التي كان عبد الحميد، قبل جيل مضى، يتملقها في اول الامر، وقضى عليها بمنتهى الوحشية فيما بعد، لم يتم القضاء عليها قضاء تاما

وما ان تعززت تلك القوى سنة بعد اخرى، بالتعليم الاجنبي للضباط العسكريين، حتى اخذت تجند لها الانصار المتحضرين من سكان سوريا ولبنان، واليهود في سلانيك وبين الوطنيين الاصليين من الاتراك. ومن هنا كانت الموجة الثانية من النشاط السياسي من الامور الحتمية، ولو

انها كانت قد تأخرت نتيجة الاهتمام الذي اخذ النظام القديم بيديه ازاء المصالح القوية، وبالفطنة التي كان الحاكم يتميزبها

فابتداء من لجنة المنفيين التي تألفت في مدينة جنيف خلال سني التسعينات من القرن الماضي، عادت الحركة الاصلاحية فانتشرت في تركيا، وتركزت في مقدونيا خلال الفترة ١٩٠٦ – ١٩٠٨ [١] وكان ظهور الشبان الاتراك ولجنتهم التي عرفت باسم «الاتحاد والترقي» في شهر اب ١٩٠٨ قد وطد السبيل لارغام السلطان على ان يعيد اصدار الدستور، وان يأمر بأجراء انتخابات مباشرة، وان يصدر – ولاول مرة خلال ثلاثين سنة – مرسوما بالغاء شعبة الجاسوسية، وطرد المزيد من موظفيه المتعسفين. ولقد انتهت الحركة الرجعية المناهضة للثورة في شهر نيسان ١٩٠٩ [٢] بتنازله عن الحكم لاخيه العاجز [٣] وبسيطرة الشبان على الحكومة من سنة١٩٠٩ حتى سنة١٩١٤، وذلك نتيجة تأثيرهم في الانتخابات، والتعليمات التي اصدروها الى كبار الموظفين عن طريق وكلاء الحزب، والنوادي السياسية، والمحاكم العرفية التي انشأوها، والتي ادت، بصفة عملية، الى وقف مجرى العدل والادارة خلال تلك السنوات

لقد تحولت الامال السامية التي حيت بها الامم الغربية، ولا سيما بريطانيا، النظام الجديد في سنة١٩٠٨، الى خيبة تلك الامال. صحيح ان الازمات المتكررة قد عملت بما فيه الكثير لتجريد لجنة الاتحاد والترقي من الفرصة الطيبة التي سنحت لها، الاان الحاجات اليائسة بالنسبة الى تركيا قد اظهرت بانها تتطلب التأكيد على كفاءة النظام من الناحية العسكرية. ذلك ان البواعث التي اوضحت، في نطاق واسع، مدى فشل الشبان الاتراك في تحقيق الامال المنشودة، انما اثارتها الاحتجاجات المبكرة من جانب كل عنصر كان يخضع للحكم.

غير ان هناك سببا اكثر عمقا، هو ان مفهومي التطور واللامركزية، كانا يعتبران مفهومين غريبين حتى عند اكثرية الفكر التركي المتنور في ذلك الوقت. فالحرية التي تم تقديمها هي الحرية التي تعتبر الشعوب الخاضعة للحكم شعوبا عثمانية، وان المساواة تقوم على اساس ان الجميع

---

(١) كشفت الوثائق التي نشرت مؤخرا عن الجمعيات الاصلاحية التي تأسست في تركيا وخارجها لمقاومة السلطان عبد الحميد الثاني بانها كانت ملغمة بالعناصر الصهيونية والماسونية معا، وان الصهاينة والماسونيين قد نشطوا للقضاء على حكم السلطان عبد الحميد بعد ان رفض العروض السخية التي عرضها مؤسس الحركة الصهيونية «هرتزل» للحصول على اذن بهجرة بعض اليهود الى فلسطين وتأسيس احدى المستوطنات الصهيونية ولعل من خيرة ما صدر في هذا المجال هوكتاب «دور اليهود والقوى الدولية في خلع السلطان عبد الحميد العثماني عن العرش» الذي طبع مؤخرا في بيروت. ومؤلفه علي حسان حلاق.

(٢) قامت بهذه الحركة الرجعية «الجمعية المحمدية» وقد ناصرها الجيش في اسطنبول، واذ ذاك قام محمود شوكت وزير الحربية بضرب تلك الحركة وقبرها في مهدها، وتسلطت الجمعية الاتحادية على الحكم وتمكنت من القضاء على كل مخالف (عباس العزاوي: العراق بين احتلالين ج ٨ ص ١٧٤).

(٣) استغل الاتحاديون هذه الحركة الرجعية فارغموا السلطان عبد الحميد على التنازل عن الحكم بفتوى شيخ الاسلام محمد ضياء وتولى اخوه محمد رشاد الحكم مكانه وكان يرمى بالبلاهة وضعف الرأي ولذلك تشاءم الناس من سلطنة محمد الخامس وجرى على لسانهم (اذاحكم رشاد ظهر الفساد).

عثمانيون، وان المركزية الاشد والاوسع، والتعود الثابت على الطاعة، هو الذي يمثل الصيغة التي اختارها الشبان الاتراك لبعث بلادهم.

لقد كان العرب، والارمن، واليونانيون، يأملون عكس ذلك تماما. ذلك ان سياسة العصابة الحاكمة بالشكل الذي تطورت اليه، تمثل الانتصار للعنصر المستبد جدا في لجنة الاتحاد والترقي، والذي لم يكن يتطلع الا الى التركيز، وكفاية الوسائل التي يمكن بها انقاذ الامبراطورية، والتي سرعان ما اعادت المانيا الى تبوأ مركز ممتاز بل احتكاري في بعض الاحيان لدى القناصل الاتراك.

وفي ولايات العراق، لم تثر انباء الحروب الاجنبية والاندحارات التي عانتها الامبراطورية العثمانية سوى الضئيل من الاهتمام في المدن، وبين الافندية نصف المستتركين، في حين ادت الحرب الايطالية الى افتتاح التبرعات في بغداد للاغراض الخيرية الحربية او شبه الحربية ولكن كانت نتائج ذلك مما يبعث على السخرية حقا. وبرزت محاولات للتظاهر بالوطنية، من امثال تقديم عروض غير حقيقية، من الخدمات الشخصية، واقامة الصلوات في سبيل النصر. ولكن عدم مبالاة الشعب العراقي بالبلاغات الحربية الكاذبة التي كانت تصدرها وكالة الانباء العثمانية، ورضاه – بدلا من تخوفه – بالارتباكات التي نزلت باسياده، كل هذه الامور قد جعلت الولاء العملي غير منظور.

لقد ارسلت بعض الجيوش الى اوربا، وتم التشدد في التجنيد، وزادت الضرائب بمقادير عالية، واعلنت التعبئة العامة، وانقصت مرتبات الموظفين نتيجة فرض ضريبة الحرب، وطلب الى الناس تقديم التبرعات لتوفير البواخر الحربية والطائرات والعناية بالجيش والجرحى، وتم الاعلان عن اصدار قرض داخلي، ولكن ذلك كله لم يثر سوى ادني حد من التجاوب.

ومع كل ذلك فقد كانت للثورة السياسية في العاصمة العثمانية، نتائجها العملية في العراق. فقد تم نقل بعض الموظفين الكبار في الحال، واصبح في مستطاع بعض المنفيين السياسيين ان يعودوا الان الى اسطنبول، واحدثت البرقية التي اعلنت في شهر اب ١٩٠٨ اجراء انتخابات مباشرة، هياجا شديدا لدى معظم النواب المحتملين، بذلك ارتجت دواوين حواضر الولايات الثلاث، وقوبلت الزيارة التي قام بها افراد يمثلون لجنة الاتحاد والترقي من اسطنبول، الى مدن العراق، بحماسة بالغة لكن سرعان ماخنقت تلك الحماسة نتهجة الوسائل غير الملائمة التي اقدم عليها الزائرون، وبالاكاذيب التي جند العنصر الرجعي قواته لها مسبقا[٤] وسرعان ماغادر النواب

(٤) ركز وفد الاتحاد والترقي الذي قام بزيارة العراق بعد الانقلاب كل همه على فتح فروع لجمعية الاتحاد والترقي. فقد تألف فرع بغداد من السادة عبد القادر باشا الخضيري، ويعقوب باشا عيساني، ويعقوب افندي، واسكندر افندي عزيز، وميشيل افندي باغجي، والحاج جودي جابي.

ولكن ظهر للعراقيين فيما بعد ان مندوبي الاتحاديين بدأوا يسلكون مع اعوان الاستبداد سلوك من يغتنم الفرصة ويبتزون منهم المبالغ الكبيرة تغريما لهم وبعدها يضموهم الى صفوفهم وقد لعبت الرشوة والمحسوبية دورا هاما (فيصل محمد رحيم: تطور بغداد تحت حكم الاتحاديين ص ٢٤٢ ط ١٩٧٥).

الذين تم انتخابهم الى اسطنبول في الحال(*) وحددت العطلة العامة موعد انعقاد البرلمان في شهر كانون اول ١٩٠٨، ثم اعقب الشهور الاربعة شهر اخر لجلوس السلطان محمد الخامس

وبمغادرة البارزين من العراقيين الى اسطنبول لكي يجربوا ايديهم في السياسة، وليؤثروا في شؤون العراق، ان استطاعوا الى ذلك سبيلا، عن طريق الحصول على تعيينات اعلى(٥) دخل الحياة العراقية عنصر جديد

ففي اسطنبول الف النواب العراقيون من اول يوم مع النواب السوريين، جماعة متضامنة في البرلمان، وكذلك في مشاركتهم في احد النوادي الادبية هو «المنتدى الادبي»(٦) الذي كان ناديا سياسيا اكثرمنه ثقافيا. وما ان عادوا الى العراق اثناء العطلة، حتى بداوا ينشرون في البلاد افكاراً غريبة عنها منذ عهد طويل.

ولقد قامت بعض العوائل المبرزة في الواقع وهي حانقة بمقاومة تلك البدع الشاذة الخطرة، وراحت تعلن اسفها على السلطان الذي كانت تعتبره اباً لها(٧) وخابت امال شيوخ العشائر الذين كانوا يعتقدون بان الحرية تعني انعدام الحكومة، واخذوا يطالبون بالحصول على مقاعد منفصلة لهم في البرلمان

كانت الاقليات تأمل بادئ ذي بدء في نشر العدل والتقدم، لكنها مالبثت ان ادركت فيما بعد، ان كل ما ظفرت به هو تجنيدها وتحويلها الى العثمنة التامة. لقد غدت الاوضاع كلها على حد سواء، تهدد كبار الموظفين بالانتقام السياسي، والتدخل في شؤون الانتخابات، وتشكيل النوادي السياسية، والانضمام الى «الحزب الحر» الذي اصبح بعد سنة١٩١١ يتحدى «الاتحاد

(*) كان اول الاعضاء من بغداد في المجلس النيابي التركي هم محمدبك (من اسطنبول) وتوفيق بك الخالدي، ومراد بك، وفؤاد بك الدفتري، وجميل الزهاوي الشاعر (وكلا العضوان من عوائل بغداد البارزة) واليهودي ساسون حسقيل.

ولكن عباس العزاوي اضاف الى هذه الاسماء اسماعيل حقي بابان، والحاج علي علاء الدين الالوسي، شوكت باشا بن رفعت باشا (والد ناجي شوكت) ومصطفى نور الدين الواعظ، عبد المهدي الحافظ، طالب النقيب، احمد الزهير، رأفت السنوي والد نشأت السنوي، خضر لطفي، محمد علي حافظ (والد الدكتور عبد الاله حافظ) داود يوسفاني، ملا سعيد كركوكلي علي بن مصطفى قيردار، صالح باشا ال النفطجي، عبد المحسن السعدون، مجيد الشاوي.

(٥) يذكر المؤرخ الكبير المرحوم عباس العزاوي ان النواب صاروا يميلون الى التوظيف واحراز مناصب اعلى في الدولة «وبذلك اهملوا النيابة، وتركوا النضال والجهاد في سبيل الاصلاح...والنواب كانوا في الاغلب بوضع عدم مبالاة، ونال الكثير منهم الغرور (العراق بين احتلالين ج٨ ص ١٦٧).

(٦) تاسس المنتدى الادبي في شهر اذار ١٩٠٩ بعد ا انحلت جمعية «الاخاء العربي العثماني» وهي اول جمعية قومية عربية في الاستانة كانت قد تألفت في اب ١٩٠٨ وكان من اشهر مؤلفي المنتدى الادبي عبد الكريم قاسم الخليل، وسيف الدين الخطيب، طالب النقيب، واحمد الزهير ويوسف سليمان حيدر ورزوق سلوم، ومعروف الرصافي ورشيد رضا وجميل الحسيني وعبد الحميد الزهراوي وعزيز علي المصري. وعندما انكشفت اهداف المنتدى الادبي للحكومة الاتحادية اقدمت على اغلاقه في اذار ١٩١٥ كماان قيام الحرب العالمية افقده العديد من الاعضاء الضباط فيها الذين ارسلوا الى جبهات القتال الى ان انهار تلقائيا بعد ان بدأت محاكمة اعضاء الجمعيات العربية في عاليه سنة ١٩١٦

(٧) اشارة الى الحركة التي قامت بها «الجمعية المحمدية بدعم من الجيش ضد حكومة الاتحاد والترقي والتي سبقت الاشارة اليها.

والترقي»[8] غير ان هذا الحزب الاخير، بل بصفة عامة، خلال الفترة التي شهدها العراق من سنة١٩٠٨ الى سنة١٩١٤، يهيمن على الاوساط السياسية، وعاش فترات الانطلاق والنكوص، وظل لوحده يحتفظ بتنظيم واسع له في القطر. وحين كان هذا الحزب يبدي معارضة قوية في البصرة، كانت تلك المعارضة التي تبدر من اعضائه اضعف من الاغراءات القوية التي كانت تثيرها الافكار الاخرى والتي اصبح التحدث بها شائعا انذاك في العراق، ونعني بها احاديث القومية العربية

كان ظهور مثل هذه الحركة امرا حتميا مثل حركة الاصلاح ذاتها التي ظهرت في تركيا. ذلك لان الاحساس بالاخطاء المتواصلة، وبالخيبة كان عاما بالنسبة الى المسؤولين عن تلك الاخطاء وتلك الخيبة معا، ولم تستطع الشخصية العربية التي تتميز بالفخر والفردية، ان تعترف بالخطة المستديمة. ذلك لان انعتاق العناصر الخاضعة في اوربا غدا من الامور المعروفة بشكل متزايد لدى العرب. ولقد قضى موقف الشبان الاتراك من الدين والخليفة، على ذلك الرباط الوحيد الذي كان يربط العرب بالحكومة العثمانية. ذلك ان وصول العراقيين في القسم الجنوبي من العراق الى المناصب الرفيعة، والاشاعات التي كانت تنشر عن الحياة السياسية في مصر، وتلميحات الادعاء بالقومية العربية التي اخذ المهاجرون العرب في باريس يبسطونها هناك، كل هذه الامور اضافة الى تطور المواصلات، والادراك الواسع للفكر العالمي، قد مهد التربة الصالحة للقوميين في العراق، حتى قبل ان يحدث الزخم النهائي للثورة التركية

في الوقت الذي اوجدت فيه ثورة سنة١٩٠٨ حياة سياسية تركية نشطة في العراق، فانها سرعان ماأخذت تشير الى الهوة الساحقة بين الاماني التركية والعربية. ذلك ان مجموعة «الاخوة العربية» التي تألفت في اول مجلس نيابي تركي، سرعان ما قضى عليها الشبان الاتراك بقسوة، علما بأن نسبة المندوبين العرب من النواب والاعيان في البرلمان كانت واطئة بشكل غير عادل بالنسبة الى النواب والاعيان من الاتراك

كان الولاة الذين عينوا بعد الثورة على الولايات العراقية، لايظهرون سوى عطف ضئيل جدا على حركة اللامركزية، والاقتراح القاضي باستعمال اللغة العربية ولذلك اخذ كثير من العراقيين يتضورون الما من مطاليب التجنيد المقيتة في الجيوش التركية، وربما لانهم قد يحاربون اخوانهم العرب في الحروب التي ظلت متواصلة في اليمن.

---

(٨) الحزب الحر: هناك حزب بهذا الاسم تألف من بعض النواب العرب في سنة ١٩٠٩ تزعمهم رشدي الشمعة نائب دمشق في البرلمان العثماني وشارك فيه كل من عبد الحميد الزهراوي وشكري العسلي وصالح باشا التونسي. وفي سنة ١٩١١ تألف حزب باسم الحزب الحر المعتدل في بغداد بزعامة عبد الرحمن النقيب وابنه محمود وقد انضمت اليه بعض الاسر الدينية والمحافظة التي بقيت على ولائها للسلطان عبد الحميد وكان الحزب معارضا للاتحاد والترقي وقد تأسس في البصرة وبغداد في شهري اب وايلول ١٩١١ على التوالي (د. غسان العطية العراق: دراسة سياسية ١٩٠٨ - ١٩٢١ باللغة الانكليزية ١٩٧٣).

واعقب ذلك كله، ان سياسي العراق سرعان ما شرعوا يمزجون [illegible] روابط الحركة العربية الانفصالية، بالمجادلات المؤيدة لتلك الحركة، او المناهضة للاتحاد والترقي، ويعالجون بصفة جدية، الاراء الصريحة للحصول على امتيازات محلية اوسع، وبالاستقلال المحلي في النهاية.

لقد كان لمثل الادعاء، اساس في السمة وفي الثقافة العربيتين، وفي الانفصال الجغرافي للعراق، وكذلك في الاماني الشخصية لمطامح العراقيين الذين كانوا يتصورون امكانية ايجاد مسلك اوسع في قيام دولة عربية او عراقية، يكون ايسر من وجود دولة تركية.

وفي الوقت ذاته كانت هناك بدايات للاتصال بالحلقات التي تألفت في الخارج للدعوة الى تحقيق المطامح العربية ووضع الاطراللازمة لتلك المطالب. كان من بين هذه الحلقات «الجمعية القحطانية» السرية[٩] قصيرة العمر، التي تألفت في اسطنبول، والتي كان اعضاؤها يفضلون «انشاء مملكة عربية داخل الامبراطورية التركية» و«جمعية العربية الفتاة»[١٠] التي انتقلت من باريس الى بيروت في سنة١٩١٣، ولعبت دورا بطوليا في سنة١٩١٥ واكثر من هذا اهمية انه كانت في العراق حلقات لها اتصالها بالحزب اللامركزي العثماني الموجود في القاهرة، وهو عبارة عن جمعية تأسست سنة١٩١٢[١١] ولها مفهومها في التمتع بالاستقلال المحلي ضمن الامبراطورية العثمانية وفي هذا المنطوق كان هذا الحزب اقرب الى التعبير عن مطامح العراقيين في تلك الايام. وكانت له جذوره في كل من بغداد والبصرة.

ولقد غدت علاقات الضباط العرب في الكتائب التركية متوترة مع اخوانهم الضباط الاخرين، ولذلك وجد القائمقامون العراقيون ان من الشناعة ان يطبقوا الاجراءات التعسفية التركية المطلوب اليهم تطبيقها.

وابتداء من سنة ١٩١٠ حتى سنة ١٩١٤ حدث تطور مدهش في الصحافة العراقية، دلل على قيام عهد سياسي جديد. فبدلا عن وجود ست صحف من الصحف التي لا لون لها والتي

---

(٩) الجمعية القحطانية تأسست هذه الجمعية بصفة سرية في الاستانة ويعزو المؤرخ المعروف احمد عزت الاعظمي تأسيسها الى الشهيد المرحوم سليم الجزائري رئيس اركان حرب الفرقة المرابطة في ازمير وقد اعدم مع الشهداء الذين اعدمهم جمال السفاح بقرار من الديوان العرفي في عاليه وكان من اعضاء الجمعية كل من عادل ارسلان وعارف الشهابي وعبد الكريم قاسم الخليل وامين لطفي الحافظ وحسن حمادة والدكتور عزت الجندي وعلي النشاشيبي. وعلى خلاف ماذكره المؤلف هنا فان عمر الجمعية القحطانية لم يكن [illegible] اد بقيت حتى قيام الحرب العالمية الاولى.

(١٠) العربية الفتاة [illegible] هذه الجمعية في باريس من [illegible] الذين يدرسون هناك سنة ١٩٠٩ وكان من اعضائها عوني عبد الهادي ومحمد المحمصاني وعبد الغني العريسي وجميل مردم وقد انضم اليها عدد من كبار العرب وضباطهم وشبابهم في سوريا ومصر والاستانة وانتقل مركز الجمعية الى دمشق فانضم اليها عدد من الرجال من بينهم الملك فيصل الاول، وياسين الهاشمي ورضا الركابي وكامل القصاب وقد اعدم بعض اعضائها في عاليه واسست الجمعية حكومة في شرقي سوريا بعد سقوط الحكم [illegible] فيها ولكن الجمعية مالبثت ان تهاوت بعد واقعة ميسلون واحتلال الفرنسيين للاراضي السورية.

(١١) حزب اللامركزية تأسس في مصر كان رئيسه رفيق العظم ومن اعضائه حقي العظم وعبد الحميد الزهراوي ومحمد رشيد رضا وغيرهم. وهذا الحزب يطالب بما يعرف الان باسم «الحكم الذاتي» للعرب ضمن الامبراطورية العثمانية.

كانت تصدر في حواضر الولاية وفي النجف في العهود الحميدية[١٢] اخذت صحف من مختلف الالوان تصدر بالعربية والتركية شهرا بعد شهر حتى بلغ مجموعها في النهاية زهاء خمسين صحيفة[١٣].

لقد راحت هذه الصحف تدافع عن مناهج مختلفة، البعض منها لامع، والبعض الاخر مخبول وخالي من المسؤولية، من امثال الجامعة الاسلامية، والجامعة القومية المحلية او العربية، والوطنية التركية، وضد الشكوك الاجنبية.

كان عدد من الضباط العراقيين والمشاهير من الشبان الذين تولوا فيما بعد مراكز رفيعة في الحكومة العراقية، من بين الذين نشطوا كثيرا في هذه الامور السياسية قبل سنة ١٩١٤ وكانت الموصل من بين الحواضر الثلاث لولاية العراق، اول من اظهر تحمسا للحركة العربية التي كانت تهيمن عليها، كما هو الواقع، عوائل النظام القديم، والعلماء السلفيون، والمناطق العميقة من الاكراد. اما في بغداد فان المجتمع السياسي فيها قد انقسم الى عدة فرق، منها الفرق المؤيدة للاشتراك في حزب الاتحاد والترقي. وللاحرار، وللحزب الحميدي. ومنها الفرق المناصرة للامركزية ذات الاتصال الوثيق مع سوريا ومصر، اضافة الى الفرق التي كانت موجودة في البصرة. ومن بعض المنضمين الى هذه الفرق. تألف «الحزب العربي الوطني»[١٤] في سنة ١٩١٢ ووضع له مهاجا مبهما عن الحكم الذاتي.

كانت البصرة، وهي ابعد المناطق عن المصالح التركية، واقربها الى الجزيرة العربية المستقلة، قد تسلمت قيادة الحركة العربية من دون منازع. وقد تأثرت هذه الحركة او ارهبت على يد السيد طالب النقيب، الابن الاصغر لعائلة النقيب الشهيرة محليا. كان السيد طالب رجلا قديرا، ظريفا، وجسورا ورجل دولة طموح، وزعيم عصابة ووطنيا. وقد اصبح متصرفاً لولاية الاحساء[١٥] وكانت له ارتباطات وثيقة مع نجد والكويت والمحمرة، وقد فرض هيمنته على

---

(١٢) كانت هذه الصحف حكومية في اغلبها وهي الزوراء والموصل والبصرة وبغداد والعراق.

(١٣) من بين هذه الخمسين صحيفة كانت صحف قليلة تدافع عن القضايا الوطنية العربية في مقدمتها جريدة الرقيب التي اصدرها المرحوم عبد اللطيف ثنيان التي صدرت في اول كانون الثاني ١٩٠٩، والايقاظ التي اصدرها المرحوم سليمان فيضي في البصرة في ٢ ايار ١٩٠٩، والرصافة لصاحبها المرحوم محمد صادق الاعرجي التي صدر عددها الاول في ٧ حزيران ١٩١٠، وسبيل الرشاد التي اصدرها محمد بهجت في ٢٨ ايلول ١٩١٠، والصاعقة للمرحوم عبد الكريم الشيخلي التي صدر عددها الاول في ٨ حزيران ١٩١١ وقد فصلت ذلك في الجزء الاول من كتابنا «مفصل تأريخ الصحافة العراقية» المعد للطبع.

(١٤) المقصود بالحزب الوطني العربي هنا، هو «الجمعية الوطنية» التي تألفت في بغداد بصفة سرية في سنة ١٩١٢، وكان معظم اعضائها من الضباط العراقيين العرب، الذين كانوا يسعون الى طرد الاتراك من العراق، وتأسيس حكومة ذاتية عراقية. وكانت هذه الجمعية تقوم بنشر وتوزيع المنشورات والملصقات الجدارية التي تهاجم الحكومة الاتحادية وكانت هذه المنشورات تصل اليها من البصرة ومن الاستانة ايضا (عبد الجبار حسن الجبوري «الجمعيات والاحزاب السياسية في القطر العراقي ١٩٠٨ – ١٩٥٨ ص ٢٨ ط ١٩٧٧»).

(١٥) سير مدحت باشا جيشا اعاد احتلال الاحساء وعندما ثارت المنطقة على الاتراك في سنة ١٨٧٦ استعانت الحكومة التركية بشيخ المنتفق ناصر باشا السعدون فقضى على الثورة. وفي سنة ١٩٠٢ اضطربت الاحوال مجددا في الاحساء واذ ذاك عين طالب

البصرة. وكان عند مطلع القرن معروفا معرفة جيدة في اسطنبول بأنه رجل صاحب وعد او خطر اكبر وعلى استعداد لاختيار اية مزاعم تسند ارتقاءه لكي يتولى امارة مستقلة في جنوبي العراق. فبعد سنة من انضمامه الى جمعية الاتحاد والترقي، انفصل عنها واصبح من الد اعدائها، وراح يتطلع لكي يغدو احد الوكلاء البارزين لدى اسطنبول في ولايته، والاول بين الوطنيين العرب.

وفي سنة ١٩١٢ قام باتصالات ومفاتحات مع البريطانيين في مصر وفي «سملا»[١٦] ونشط في سنة ١٩١٣ في جمع الاموال للجيوش التركية واعلن مساندته للامبراطورية[١٧] وبعد شهر على ذلك الف «لجنة الدفاع الوطني» واوصل مذكرة الى الوالي، والى السردار الاعظم (رئيس الوزراء) يلح فيها على استدعاء المجلس العام للولاية لعقد جلسة لغرض المباشرة بتنفيذ المشاريع الاصلاحية وفي شهر اذار الف المتحدثون باسم اهالي بغداد طلبا موحدا لتحقيق اللامركزية على اساس النموذج الذي نشرته لجنة بيروت القومية وحظي بالترحيب والتصفيق، وكانوا يراقبون الاعلانات المناهضة للاتراك والتي الصقت ليلا في شوارع بغداد. وفي الوقت ذاته كان سيد طالب يعقد في «المحمرة» اجتماعا مع كل من الشيخ خزعل شيخ المحمرة، ومبارك شيخ الكويت، وموظفين كبار من ولاية البصرة، وذلك لوضع صيغة لمقترحات بأنشاء حكومة ذاتية. ولقد ظهرت بعض النتائج لذلك في شهر ايار، وربما كان ظهور تلك النتائج بسبب الضغط الذي مارسته بيروت اكثر من البصرة ذاتها. فلقد سن قانون جديد للولاية يحبذ زيادة استعمال اللغة العربية في الولايات العربية، وتشكيل مجلس عام غير فعال في كل واحدة منها، واذ ذاك بعث السيد طالب ببرقية الى اسطنبول يحتج فيها عبثا ضد مثل ذلك الامتياز الاجوف، كما انه اعلم السيد «كرو» القنصل البريطاني، بان تجربة القوة اصبحت الان امرا حتميا. ولقد ظن القنصل ان من الحصافة ان يستقدم الباخرة الحربية البريطانية «البرت» والتي القت مراسيها لبعض الوقت خارج «العشار».

النقيب محافظا لها بدلا عن موسى كاظم الحسيني وبعد ان امضى السيد طالب في هذا المنصب زهاء سنتين استقال منه وتوجه الى الامستانة.

(١٦) احدى المدن الشهيرة في الهند وكانت من المراكز العسكرية المهمة لدى الانكليز هناك.

(١٧) بعد ان اغتال طالب النقيب فريد بك الذي عين قائداً للبصرة ومعه بديع نوري محافظ المنتفق واخذ ببث الدعاية ضد الاتحاديين ويؤيد مطالب الحزب اللامركزي، وجد الاتحاديون ان من الافضل لهم ان يجاملوا السيد طالب فارسلوا امير اللواء «صبحي» واليا على البصرة واستطاع هذا «باساليب لم يكشف الزمن النقاب عنها بعد من استمالة السيد طالب النقيب اليه، حتى انه حمله على ان يجمع للاسطول العثماني اموالا طائلة وان يتبرع هو نفسه بخمسمائة ليرة عثمانية، وان يكف عن المطالبة بالاصلاح، وان يذيع هذا المنشور.

«اعلن مع كمال الفخر الى عموم اهالي الولايات والملحقات باننا قد اتفقنا في امر تشريك المساعي كاننا روح واحدة وجسد واحد لاجل رفع شأن وشوكة حكومتنا السنية والتي قدرت صداقتنا رسميا ولم يبق خلاف بيننا وبين الحكومة السنية باي صورة [illegible] زوالا قطعيا وصرنا كلنا كتلة واحدة نعمل على سعادة دولتنا الابدية، ونسعى في محافظة وحدتنا العثمانية بكل قوانا».

ولكن السيد طالب النقيب صمم. بعد كل ذلك، على انتهاج سياسة الضغط المعتدل، الى ان وقعت حادثة مقتل القائد المحلي «فريد بك»[١٨]، وهي جريمة نسبت الى السيد طالب، التي حولت الاهتمام عن قضايا سياسية اقل اثارة.

وفي ذات الشهر، اي حزيران سنة ١٩١٣ عمد والي بغداد الى اعتقال اربعة من المتحدثين البارزين بأسم القومية[١٩] كان من بينهم «يوسف السويدي»، وذلك بسبب الحرية الواسعة التي تحدثوا بها بعبارات معادية للاتراك، ولكن هؤلاء، ماعدا واحد منهم، قد اطلق سراحهم فعلا.

وفي شهر تموز واب بدأت في اسطنبول مفاوضات عربية تركية، بدت مشجعة، وذلك بعد ان كان العرب قد نظموا في شهر حزيران اجتماعا في باريس حضره اثنان من العراقيين[٢٠] وتم التاكيد فيه على تحقيق المركزية. وفي شهر اب صدر مرسوم اعلن في جميع الولايات، وبدا منه بانه سوف يحقق جزءا جوهريا من المطاليب العربية، حيث تقرر ان لاتمارس الخدمات العسكرية الاداخل المفتشيات، وان يجري التدريس بالعربية في المدارس ويتم التدريس العالي بالتركية، وان يكون الموظفون في الاقاليم العربية من الذين يتكلمون اللغة العربية، وان تتم كل التعيينات ماعدا الرفيعة منها محليا، وان يستخدم خبراء متقدمون من الاجانب، ويصبح من المتوقع تقديم منحة مالية، وان تنفذ القرارات التي تصدرها المجالس العامة للولايات، وان تعطى للعرب ثلاثة مناصب وزارية في الحكومة المركزية، وان يكون خمسة ولاة وعشرة محافظين من العرب. غير ان هذه القرارات، التي فشلت بسبب وجيه، قد اثارت شكوك العراقيين اكثر من ثقتهم.

اصبحت الهوة التي تفصل بين الاراء العربية والتركية، عميقة وصريحة في هذا الوقت. ذلك لان معظم الاجانب الذين لم يقفوا موقف عدم العطف على المطاليب العربية، مايزالون يشعرون بان القومية العربية، كانت تمثل مرشحا مبتسرا لايمكن الاعتماد عليه. فقد كان اولئك الاجانب لايثقون بالسلطات الادارية العربية حتى اذا ما قورنت مع الادارة التركية، كما لاحظوا وجود الجماعات المعادية بصفة مشتركة، تلك الجماعات التي انقسم اليها العالم العربي قبلا، والتي لم يكن

---

(١٨) كانت حكومة الاتحاديين قد فكرت في ضرورة التخلص من السيد طالب النقيب بكل وسيلة ولذلك بعثت باللواء فريد بك قائد ا البصرة لكي يبطش به وحين احس السيد طالب النقيب بالشر استعد للامر وقرر ان يتغدى بفريد بك قبل ان يتعشى هذا به وعندما وصل فريدبك يرافقه بديع نوري الذي تعين محافظا للمنتفق على ظهر احدى السفن في العشار، اعد السيد طالب بعض المسلحين الذين اختفوا وراء اكوام من الحطب على ضفة نهر العشار وعندما مر فريد وبديع نوري بعد نزولها من السفينة على جسر العشار، اطلق المسلحون النار عليهما فخرا صريعين وكان مقتلهما في شهر حزيران ١٩١٣

(١٩) كان من بين المعتقلين ابراهيم حلمي العمر الصحفي المعروف وقد نفي قبا بعد الى مدينة بتليس ويقول صاحب كتاب «تطور العراق تحت حكم الاتحاديين» ص ٢٤٢ ان فروع الاتحاد والترقي اخذت تستعمل البطش ضد خصومها، وقد دبر فرع بغداد مكيدة لاغتيال يوسف السويدي، كما نظم فرع السليمانية حركة اغتيال الشيخ سعيد البرزنجي في الموصل.

(٢٠) انظر مقالتنا عن مؤتمر باريس العربي في مجلة الاقلام العراقية العدد ١١ السنة الثالثة وقد حضره كل من توفيق السويدي وسليمان عنبر من العراق وكان الاثنان يدرسان الحقوق في باريس وقد اشيع فيا بعد بأن سليمان عنبر كان جاسوسا لدى الاتحاديين في مؤتمر باريس.

لاحد ان يتحدث فيها عن العراق، نظرا لان مثل هذه الوحدة لم يكن قد تم تصورها بعد.

ومع كل ذلك ومهما كان المستوى، فقد استمر التحريض في صيغة من الصيغ، وازداد الاتصال مع الحركات القائمة في سوريا ولبنان.

كانت احدى الجمعيات السرية وهي جمعية «العهد»[٢١] تحتضن منذ اوائل سنة ١٩١٤ عشرات الضباط العراقيين في الجيش التركي. اما في البصرة فان «لجنة الاصلاح»[٢٢] التي كان يرأسها السيد طالب النقيب، قد نشرت كراسا ملتهباً، وكانت البرقيات مانزال تنهال على اسطنبول من العراق تطالب بالحكم الذاتي للعرب.

ولقد تجنب كتاب الصحف المشاركة في النوادي القومية المتشددة التي تألفت بصورة علنية، وتم التخطيط لعقد مؤتمر في الكويت في شهر كانون الثاني سنة ١٩١٤، وان يحضره مندوبون عن شريف مكة، وابن السعود، وابن رشيد، وسيد طالب، وعجمي باشا المنتفق، ولكن حدوث المعارضة التركية، والتردد الذي اصاب اولئك المندوبين، قد حال دون عقد ذلك الاجتماع[٢٣] وفي شهر اذار اعلن السيد طالب، بشكل مثير للعجب، بأن خلافاته مع الحكومة التركية قد سويت الان. ذلك لانه كان قد تلقى وساما تركيا رفيعا، واعطي له حق اختيار منصب «سفير» او«عين» او «والي».

ولكن السياسة القومية مالبثت ان اصابها الكسوف في سنة ١٩١٤ وذلك نتيجة الهياج الذي رافق انتخابات مجلس النواب التركي، واعقب ذلك اجراء الانتخابات للمجالس العامة للولايات، ولكن اجتماع مثل هذه الهيئات لم يحدث سوى القليل من الاهتمام، ولو ان امر النزاع

---

(٢١) جمعية العهد جمعية سرية اسسها عزيز علي في الاستانة في ٢٨ تشرين الاول سنة ١٩١٣ وكان معظم الذين انضموا الى الجمعية من الضباط العرب، من اشهرهم سليم الجزائري ومن العراقيين ياسين الهاشمي، ومولود مخلص، ونوري السعيد وجميل المدفعي، وعلي جودت الايوبي، وتحسين علي، ومحمد حلمي باشا الحاج ذياب، وعلي رضا الغزالي، وعبد الغفور البدري، وموفق كامل بالاضافة الى عدد من الضباط السوريين وقد انشئ فرع لجمعية العهد في العراق، كان نشيطا قبيل الحرب العالمية الاولى ومابعدها.

(٢٢) المقصود بها « الجمعية الاصلاحية في البصرة» اسسها طالب النقيب على اثر تأسيس الحزب اللامركزي في مصر والجمعية الاصلاحية في بيروت ولكن هذه الجمعية لم تقم بأي عمل مثمر للقضية العربية وقد انحلت بصفة ذاتية بعد تفاهم السيد طالب مع الاتحاديين ونشر منشوره الذي اشرنا اليه قبلا.

(٢٣) خطط السر برسي كوكس، المقيم البريطاني في الخليج العربي، لعقد هذا المؤتمر وذلك بقصد مؤازرة حسين بن علي شريف مكة في ثورته التي اعلنها ضد الاتراك وكان المقرر ان يعقد المؤتمر حسب الموعد الذي ضربه لهم للاجتماع بهم في الكويت بتاريخ ٢٣ تشرين الثاني ١٩١٦ (حسين خلف الخزعلي: التاريخ السياسي للكويت ج ٣ ص ٣٣).

(٢٤) كان المقرر ان يعقد هذا المؤتمر في الكويت في شهر تشرين الاول سنة ١٩١٥، وليس في كانون الثاني ١٩١٤ كما ذكر ذلك المؤلف خطأ، ولكن المؤتمر لم ينعقد لان بريطانيا ارادت من وراء عقده جر الزعماء العرب في الخليج العربي الى جانبها فقد ذكر الوزير البريطاني جمبرلن في رسالة الى نائب الملك في الهند «ان العرب مترددون، وقد يمشون مع الاتراك اذا نحن لم نبذل الوساطة الفعالة في الاغراء» (تأريخ الكويت السياسي ج ٣ ص ٣١).

المكشوف بين السلطات [illegible] لها، وحقيقة السيطرة التركية المركزية، لم يعد من الامور المستبعدة، وكانت البرقية التي اذاعت نبأ اغتيال الارشيدوق في سراجيفو، قد دخلت الى العراق الذي لم تكن مشاكله السياسية قد حلت بعد في ذلك الوقت.

كان البارزون من العراقيين في الشؤون السياسية في تلك الفترة يشتملون على عدد من الافراد الذي امن لهم، او لعوائلهم، مستقبل متميز. وعلى هذه الشاكلة كانت اوضاع آل العمري والجليلي، وخياط في الموصل، والنقيب ، وباش اعيان، والمنديل في البصرة، وفي بغداد كانت عوائل الجادرجي (رفعت بك وولده رؤوف) والسويدي (يوسف افندي واولاده الثلاثة) وبابان الكردية (اسماعيل حقي بك وحمدي بك) والباجه جي، والدفتري، والراوي، والحيدري، وجميل زادة، والخضيري، وشوكت باشا، وعدد اخر يزيد على العشرة.

ولم يشارك نقيب بغداد «(عبد الرحمن الكيلاني) والذي كان عرضة للهجوم عليه في الامور السياسية، وانما اتخذ موقف المحافظة والاحترام العميق للخليفة السلطان، في حين اشتهرا اولاده بانهم كانوا من القوميين المعتدلين.



٢ ـ اخر مرحلة ادارية

لم تبرز الادارة التركية في السنوات الاخيرة شيئا ما يتجاوز التطلع الهادف بشكل جيد الى الاصلاح بعد سنة ١٩٠٩، سوى القليل من العناصر الجديدة. والواقع ان تلك العناصر الجديدة كانت تتعارض بصفة واضحة مع الصراعات القائمة، والفساد والفوضى الناشبة اظفارها في بلاد فارس جارة العراق الشرقية. كما انها لم يكن ينقصها مبتدعو الاعذار من الاوربيين. فلقد سمع عن المستر «كرو» القنصل البريطاني في البصرة قوله، وهو يصف الاتراك، بانهم «من الخصوم الحاذقين والمقبولين للحكم الاستبدادي وشيء حلو لا يدل على شيء ما»، كما يقرر «ديفيد فريزر» في سنة ١٩٠٨ بانه ليس لدى الشعوب المسلمة في تركيا الاسيوية اية رغبة عميقة الجذور في الاصلاح. وان تركيا من وجهة نظر الشعوب الشرقية لم تكن تمارس حكما سيئا».

غير ان مثل هذه الاراء لم تكن بمعزل عن غيرها. ذلك لان الكثيرين من الاجانب المتوطنين لم يعودوا يحتملون اصحاب الطرابيش الحمراء السخفاء، واعمال الرشوة الهينة، والتأخير والتعجيز التي يمارسها الافندية. ولم يرتفع مستوى الادارة ارتفاعا كبيرا بالجهود التي بذلتها الحكومة المركزية بعد الثورة. فقد انشئت لجنة لتحسين الادارة في سنة ١٩١٠ بقصد تقديم الادارة المدنية وطرد العشرات من الموظفين، ولكن سرعان ما استبدلت هذه اللجنة بهيئة اخرى اعادت النظر في معظم قراراتها وتضاعف اقحام الاعتبارات السياسية والمسائل الوظيفية بعد الثورة ولم تتوقف هيمنة كبار الموظفين من هذا الفريق، من الاشخاص البارزين المحليين او ذاك. ولم تستطع بعثات التحقيق المرسلة من العاصمة، والتي اخذت تظهر في العراق من دون اعلان سابق عنها، وباعتمادات غامضة غير مكتوبة، ان تعالج المشاكل الاساسية.

ومع كل ذلك فقد تم اتخاذ بعض الخطوات البناءة. ذلك انه عمد الى انشاء الشرطة، وهي القوة المدنية المخصصة المميزة عن قوة «الضبطية» في وقت مبكر من القرن. وعززت قوات «الجندرمة» ووثق تنظيمها، ولكن لم تعدل اخطاؤها القديمة. وفي سنة ١٩١٢ تم فتح مدرسة لتدريب المدراء، وخلفت روحية الاتحاد والترقي، التي ظهرت في الملابس العسكرية والاستعراضات، ضغطا على اولئك الموظفين المدنيين. ذلك لان هؤلاء المدراء اصبحوا يفضلون مالم يكونوا يحصلون عليه الا نادرا. الا وهو ان يتم دفع مرتباتهم بصفة منتظمة.

ولقد اصدرت انظمة جديدة تحكم ايرادات الاراضي، ولو ان فضائح رسوم الاعشار التي كانت تعلن في المزاد العلني، وفساد التقديرات، والتخمينات، بقيت متواصلة. واعيد اصلاح دائرة الاوقاف، وتم فرض ضريبة الدخل ولكن في شكل بسيط لم يحدث سوى القليل من الضرر لدى الطبقات العليا. وظهرت ضريبة الاملاك المدنية وسط عواصف من الاحتجاج، وعدل نظام احصاء النفوس لتسهيل مهمة تنفيذ الانظمة الجديدة المتعلقة بالخدمة العسكرية والتي اصبحت منذ سنة ١٩٠٩ مطبقة على المسيحيين واليهود وبعض الطبقات التي كانت معفاة منها قبلا.

وتم نقل مركز محافظة الحلة من هذه المدينة الى مدينة الديوانية، وفصل قضاء (عنه) عن ولاية بغداد وضم الى محافظة دير الزور، ووحدت البلديات الثلاث في بغداد في بلديه واحدة. ولكن سوء الادارة المؤلم لدوائر المكوس لم يتم اصلاحه، ولو ان معدلات الرسوم كانت قد ارتفعت من ثماني في المائة الى احدى عشرة في المائة سنة ١٩٠٦، ثم قفزت الى اربع عشرة في المائة في سنة ١٩١٤

وانشئت المحاكم الاستئنافية في مقر الولاية. واذ اوشكت الحرب ان تقع تم انتخاب عشرة من القضاة تمهيدا لطردهم، ثم انشئت مدرسة الحقوق في بغداد سنة ١٩٠٩[1] وحولت الاملاك السنية الواسعة الى خزانة الدو بعد سقوط السلطان عبد الحميد، ولكن ادارتها المنفصلة والتي تعد من الادارات الرفيـ ظلت قائمة.

غير ان الجيش، سيء التجهيز والممزق والمثقل بالاعباء، حتى في سنة ١٩٠٩، لم يستطع ان يتخلى من غزو السياسة لكل اصنافه ورتبه بعد الثورة. ذلك ان الادارة التي صدرت في شهر تموز ١٩١٢ والتي كانت تحظر على الجيش الاشتغال بالسياسة، لم يكن لها سوى تأثير طفيف ولكن شخصيات القادة المحترمين كانت تتلهف للحفاظ على مظهر التعود على الطاعة والانقياد. وبقيت واجبات الجيش في معاقبة العشائر خارج نطاق قدراته ذلك لانه لم يستطع ان يكون نشطا وفعالا على الدوام في كل المناطق

كذلك لم تثمر في الواقع، تلك الجهود التي بذلها الوالي ناظم باشا وخلفه، في بناء بعض الثكنات الجديدة والمستشفيات العسكرية، وتحسين وسائل النقل، وتوفير الملابس المهندمة، والمزيد من الاسلحة الحديثة.

---

(١) كانت مدرسة الحقوق هذه تقع في ذات الموقع الذي قامت فيه محافظة بغداد سابقا (دائرة كاتب عدل شمالي بغداد حاليا) وقد انتقلت من هناك الى البناية التي كانت تحتلها مطبعة الحكومة قبلا (المتحف البغدادي في الوقت الحاضر) وعندما استولى الانكليز على بغداد عين المستر «بيل» عميداً لكلية الحقوق ومن ثم خلفه في منصبه المرحوم توفيق السويدي ومن هناك نقلت كلية الحقوق الى باب المعظم ثم الى الصرافية واخيرا الى محلها الحالي وراء بناية المجمع العلمي الحالية

ولقد ترك المعمل العسكري لانتاج الملابس[٢] اثره في الانتقادات الا... الجيش، وذلك لما امتاز به من حسن الادارة. كما ادت الاستعراضات الاعتيادية. والاحوا الموسيقية العسكرية الى رفع الناحية المعنوية ولقد حافظ الولاة الذين خلفوا ناظم باشا على السياسة التي اتبعها في تركيز قواته. بعض الوقت.

كانت حالة العداء بين الوالي وقائد الجيش في كل ولاية من الامور المعتادة اكثر من حصول التعاون فيما بينهما، ولم يستطاع معالجة تلك الحالة الا حين يكون المنصبان مشتركين. في الجيش، مثلما هو عليه الامر في الادارة المدنية ايضا. كان الداء الاساسي يتمثل في الفقر الدائم الذي كان يحتاج في الميدان الاقتصادي، الى القبول بوجود القوى العسكرية المسيطرة. والمستودعات التي لا يحسن الحفاظ عليها، وتاخير دفع اجور الاجازات. وارغام القوات العسكرية على العيش في الارياف والصحارى.

لم يعد للقوات «الحميدية» التي جندت في العراق. ووضعت في اقصى الاجزاء الشمالية[٣] منه، اي وجود بعد سنة ١٩٠٩ غير ان سرايا الحدود التي اريد بها استخدام ابناء العشائر الكردية في محافظتي السليمانية وشهرزور بصفة عسكرية، كان قد تم انشاؤها سنة ١٩١٢ بكثير من التعقيدات العسكرية والقليل من السيطرة العائلية.

كانت اعادة التنظيم على نطاق اوسع بالنسبة الى القوات العسكرية التي تمت في سنة ١٩١١ تنفيذا لنصيحة «فون درغولتز»[٤] باشا، قد ادت الى انشاء المفتشية الرابعة التي كانت تغطي العراق، والقسم الجنوبي من الجزيرة العربية بفيلقين هما الفيلق الثاني عشر والفيلق الثالث عشر واللذان كانا يتركزان في كل من الموصل وبغداد على التوالي وكذلك الفيلق الرابع الموجود في اليمن. ولم يتغير نظام خدمة الاحتياط الا بعد التدمير التام الذي اصابه. ولكن تم تعديله في وقت متأخر جدا اي في سنة ١٩١٤

بقيت البحرية التركية في البصرة متهرئة وتافهة. ذلك ان الزورق المسلح بالمدافع، والذي سمي باسم «زهاب» وتم الحصول عليه في سنة ١٩٠٢، قد استولى عليه الايطاليون في سنة ١٩١١ في البحر الاحمر. اما السفينة «قليد البحر» فقد بقيت شاهقة، في حين وصل الطراد «مرمريس» الى البصرة في سنة ١٩٠٨

---

(٢) هو المعمل الذي عرف لدى اهل بغداد باسم «العبا خانة» في محلة سيد سلطان علي ولقد بقيت مدخنة هذا المعمل قائمة حتى اوائل الخمسينات

(٣) هي القوات التي وضعت تحت امرة ابراهيم باشا المللي في ... المجاورة للحدود التركية والسور

(٤) من كبار قادة الجيش الالماني وكان يشرف على تنظيم الجيش العثماني واعداده وعلى الاخص في الفترة القصيرة التي سبقت نشوب الحرب العالمية الاولى وخلالها وقام بزيارة العراق ومقرات جيوشه ومواقعه العسكرية عدة مرات وكان در غولتز يحمل رتبة مشير في الجيش كان مرافقا للسلطان عبد الحميد ثم تولى قيادة الجيش السادس الذي ارسل الى العراق لمحاربة الانكليز وقد توفي بمرض التيفوس في نيسان ١٩١٦ ودفن في الباب الشرقي في المكان الذي يبدأ به مدخل جسر الباب الشرقي الحالي

من بين التحسينات التي اصابت طرق الموصلات في هذه الفترة، هو الاستعمال الموسع للعربات ذات العجلات وعلى الاخص في طرق اعالي الفرات، وفي الطرق التي تتفرع من بغداد، والتي كانت تتطلب بمقياس معتدل لشق الطرق. وتم بناء جسر الزاب من دون فضيحة مخزية[٥] ووسعت مصلحة البرق الى معظم المدن الصغيرة، بما في ذلك الاقضية الكردية وفي سنة ١٩١٤ كان يدور حديث عن انشاء مصلحة لاسلكي بين بغداد والبصرة.

كانت مصلحة نقل البريد التي يقوم افراد من عشيرة عنزة بنقلها عبر الصحراء، والتي امتدت من دمشق الى نقطة النهاية في مدينة حلب في سنة ١٩٠٦، قد تعرضت للسلب مرتين من قبل عشائر الدليم في سنة ١٩٠٩، ولذلك توقفت هذه المصلحة عن العمل في سنة ١٩١٢ وبقيت مصلحة نقلة البريد (الططر) بطريق الموصل الى اسطنبول قائمة حتى اندلاع نيران الحرب. وجرى تقديم عروض مرتين لنقل البريد بالسيارات الى سوريا. كان العرض الاول، وهو يبعث على التفاؤل قد تقدم به «حمدي بابان» في سنة ١٩١١، والثاني تقدمت به مجموعة فرنسية سنة ١٩١٤ ولقد كان اختيار اي من العرضين، ينطوي على اجراء تحسينات كبيرة في الطرق، ويتطلب مستوى من الاعتماد على الاليات مما لايمكن تحقيقه

كانت تدور في العراق انذاك عشرات من الحكايات الشخصية النادرة عن تعاقب الموظفين الاتراك الكبار ممن تجدر الاشارة اليهم. لقد كان الجميع يقاسون من تغلغل السياسة الحزبية في الادارة التركية بعد سنة ١٩٠٨، بالاضافة الى ماكانوا يعانونه من التصرفات الرذيلة، والمحسوبيات قبل ذلك التاريخ. وكان الجميع يستطيعون ان يجدوا موقفا مشهورا مرغوبا فيه فيما كان يظهر من عداء شديد للاجانب. غير ان ايا منهم لم يكن يعتمد على سلامة وظيفته وضمانها، وذلك لان بقاء الموظفين لمدة سنتين او ثلاث سنوات، كان يعتبر من الامور الاستثنائية، وقد كانت الخيانة الشخصية المكشوفة من الامور النادرة بين ارفع الموظفين، اكثر مما كانت عليه قبل جيل مضى ومع ذلك فقد بقيت مألوفة وينظر اليها نظرة تسامح في حين ازداد استخدام القادة العسكريين في صفة حكام مدنيين بعد سنة ١٩٠٨

كان النموذج بين افاضل الطبقة العليا من الموظفين يتمثل في طاهر باشا والي الموصل المخلص والعادل الذي عين سنة ١٩١٠، وفي «عون الله بك» محافظ كركوك ١٩١٠ الى سنة ١٩١٣ ومن الشخصيات التي ما تزال تختار بمثابة نماذج مثالية للحكام المتسمين بالشهامة «على رضا بك» الذي كان يشغل وظيفة نائب والى بغداد في سنة ١٩١٢، وكان قائداً ممتازاوصديقا ودودا للسيد «لورمر»[٦]، وكذلك «جلال باشا» الذي رقي من وظيفة محافظ كربلاء الى وظيفة والي

---

(٥) المقصود به الجسر الذي اقيم على فرعي الزاب الصغير في مدينة« التون كوبري» على الطريق الرئيسي الذي يربطها بكركوك والموصل والذي اصبح الطريق يتجاوزه في الوقت الحاضر.

(٦) لورمر LORIMER من كبار الانكليز الذين عملوا في الخليج العربي خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر واوائل

البصرة، لكن هذا ما لبث ان عاد مظهر مشاكسا ومغرورا عندما اصبح واليا على بغداد في سنة ١٩١٣ وكان «حمدي باشا» في سنة ١٩٠٠ امير الا في البصرة وقد اتصف بالشجاعة والصبر. اما خلفه «فخري باشا» فقد اشتهر عنه بانه كان يضع المجرمين في اكياس يخيطها عليهم ثم يلقي بهم في شط العرب! ولكن «عارف بك المارديني» الذي كان في سنة ١٩٠٩ يعيش في البصرة في منزله الحديث، ولديه مربية انكليزية لاولاده، قد فاق كل هؤلاء نزاهته. وحين وصل سليمان نظيف بك والي البصرة في سنة ١٩٠٩، كان مليئا مثل بقية القادمين الجدد، بمشاريع تحسين الاوضاع. (٧)

اما ذلك الوطني المسعور جمال بك والي بغداد خلال الفترة ١٩١١ - ١٩١٢ فقد غادرها لكي يصبح الحاكم العسكري لاسطنبول، وليصبح فيما بعد من اشد المستبدين في سوريا.

وكان حازم بك في بغداد سنة ١٩٠٧، هو اول من انشأ نظام اسالة الماء في بغداد، في حين ذكر عن جواد باشا اخر والي لبغداد قبل الحرب، بانه كان اول من استعمل سيارة خاصة تعود ملكيتها اليه. واشتهر «عمر لطفي باشا» مساعد الوالي الذي كان يعمل تحت امرة الوالي ناظم باشا، بانه كان يمثل الرئيس المخيف لعشرات من اللجان وهيئات التحقيق وعلى هذه الشاكلة كانت اقلية ضئيلة من الباشوات الذين يشاد باحقيتهم او صفاتهم

وكان من بين الممثلين الصالحين للمدرسة القديمة محمد زكي باشا «قائد الجيش» والوالي في بغداد خلال الفترة ١٩١٢ - ١٩١٣ والرجل الشهير «محمد فاضل باشا الداغستاني» ذلك الانسان الكبير المعروف من زمان في العراق التركي، والفارس الاصم الذي عين واليا بالوكالة في الفترات التي كان يرأس فيها الجيش ولقد قاد عشرات الحملات التأريخية ضد المتمردين (٨)

القرن العشرين وقد وضع مؤلفا كبيرا عن الخليج العربي يقع في عدة مجلدات بعنوان «دليل» الخليج العربي وقامت حكومة قطر في اوائل سني السبعينات بترجمة هذا الكتاب ونشره على حسابها في ستة مجلدات ولكن المطبوع منه لم ينتشر على نطاق واسع في الاقطار العربية

(٧) اخطأ المؤلف في ذكر اسمه الصحيح اذ قال ان اسمه هو «سليمان ناصيف بك».

(٠) كان ولاة بغداد في القرن العشرين يتألفون من كل من نامق باشا ١٨٩٨- ١٩٠٢ واحمد فيضي باشا ١٩٠٢ - ١٩٠٤ وعبد الوهاب باشا ١٩٠٤، وعبد المجيد بك ١٩٠٥، وحازم بك ١٩٠٧ وناظم باشا (وكالة) ١٩٠٧ و نجم الدين ملا ١٩٠٨، والفريق محمد شوكت باشا ١٩٠٩، والفريق حسين ناظم باشا ١٩١٠ - ١٩١١ و يوسف باشا (وكالة) ١٩١١ وجمال باشا ١٩١١ - ١٩١٢، ومحمد زكي باشا ١٩١٢، والفريق حسين جلال بك ١٩١٣ والفريق جاويد (جواد) باشا ١٩١٤ والدكتور رشيد بك ١٩١٥، وسليمان نظيف بك ١٩١٥، ثم جاء من بعد هؤلاء القائد العام للجيش السادس.

(٨) وهناك اخر اشتهر من بينهم هو محمد فاضل باشا الداغستاني الذي عين وكيلا للوالي لفترات قصيرة.

(٩) فاضل باشا الداغستاني من نسل امراء مقاطعة داغستان «التي احتلها الروس في اواخر القرن التاسع عشر وقد هرب بعد الاحتلال الروسي ولجأ الى الاستانة وعمل تابعا في قصر السلطان عبد الحميد ونظرا لما اتصف به من اخلاص ومواهب فقد بعث به عبد الحميد الى العراق قائد الجيش لتأديب العصاة من افراد عشائر الفرات ومن ثم اقطعه السلطان عبد الحميد بعض الاراضي الزراعية في العراق فعاش هناك مشتغلا بزراعة اراضيه واستغلالها. وعندما بدأت الحرب العالمية الاولى التجأ اليه الانحاديون فعهدوا اليه بقيادة جيش العشائر فحارب الانكليز بكل حمية وقد استشهد في المعركة التي وقعت قرب الكوت عندما

وعلى خلاف ذلك حداً، كان المسن فيضي باشا الوالي وقائد الجيش العام في السنوات ١٩٠٢ ١٩٠٤[٦] الذي اشتهر بفساده، وعبد الوهاب باشا الالباني والي بغداد سنة ١٩٠٥ والذي كان يرهب الاجانب وقناصلهم، ومصطفى باشا شقيق عزت باشا «سكرتير السلطان المكروه، والذي طرد من الموصل سنة ١٩٠٩ عند مجيء حزب الاتحاد والترقي الى الحكم. على ان الشخصية الشهيرة في تلك السنين كانت شخصية حسين ناظم باشا، والقائد العسكري ذو الاعتبار الكبير، وذو التأريخ الطويل من سوء المعاملة التي عامله بها السلطان عبد الحميد. فقد عين في سنة ١٩١١ قائداً عاما للجيش ووالياً على بغداد، ومنح سلطات للاشراف على الولايات الاخرى. لقد اعاد ناظم باشا اصلاح هيئة الموظفين الواسعة لديه، واخضع الجيوش التي كانت تحت امرته للتدريب الشاق، وجبي الضرائب من بعض العشائر المتمردة، وفرض الشروط الثقيلة على عشائر اخرى. كان ناظم باشا يقم الاستعراضات، ويرعى التعليم، ويحكم بالعدل ازاء الاقليات، ويقوم على الوقاية من الفيضان بنفسه. وقد امر بتوفير الادوات النهرية من امثال العبارات للمدن، واقدم على انشاء مصلحة عقيمة لنهر الفرات، وكان يلح على هدم الابنية لغرض فتح شوارع جديدة في بغداد، كان صاحب همة وقرار[١] لكنه ان ضعيفا بصفة ظاهرة، في رغبته الملحة للقيام بحركة اصلاح عصرية بينة، بالاضافة الى نقص الاعداد لمشروعاته الموسعة، وقلة الاهتمام الاصيل بالشؤون المالية، او الحقوق الخاصة (ولا سيما بالنسبة الى الاجانب) وسهولة انقياده الى النصحاء المسنين ،غير ان استدعاءه الى اسطنبول، في شهر شباط سنة ١٩١١، نتيجة الدسائس التي دبرها رجال الاتحاد والترقي، وما الفه بعض البغداديين من حملة الاكاذيب ضده، لم يسمح له بالبقاء في كم العراق الاباقل من سنة واحدة.

ولقد صاحب مغادرته بغداد قيام تظاهرات جماهيرية، كما ان اغتياله على يد «انور باشا» في العاصمة اسطنبول في سنة ١٩١٣، قد اثار العطف عليه وعلى محافظته القديمة، اي العراق

حاول الانكليز فك الحصار عن قواتهم المحاصرة في الكوت وذلك في شهر تشرين الثاني ١٩١٥ (انظر ما كتب عنه جرالددي غوري في كتابه ثلاثة ملوك في بغداد) الذي صدرت طبعته الاولى ١٩٨٣ وقد صدرت الطبعة الثانية منه ١٩٨٧

(٨) هو نور الدين بك ابن المشير ابراهيم باشا عين في الوقت ذاته قائدا عاما للجبهة العراقية في الحرب ضد الانكليز وقد خلفه في منصب الولاية وقيادة الجيش العميد خليل بك في ١٢ كانون الثاني ١٩١٦ بطل حصار الكوت المعروف.

(١٠) هو احمد فيضي تولى ولاية بغداد وكالة بعد ان كانت الوكالة لمدة شهرين بعهدة القاضي ابي بكر حلمي وكان احمد فيضى باشا سيء الاحوال انفصل عن الوكالة في ٢١ تشرين اول سنة ١٩٠٤

(١١) كان ناظم باشا الثاني بعد مدحت باشا، من الولاة المصلحين في العراق حصل على فتاوى من علماء الدين في العراق بمحاربة اعمال الغزو التي كانت تقوم بها القبائل على احداها الاخرى فاستطاع ان يحقق الامن والهدوء لفترة ما وكان من بين اعماله دفن الخندق المحيط ببغداد واقامة السدة الشرقية التي تقي بغداد منْ الغرق والتي عرفت باسمه وكان من بين المشروعات التي فكر في انجازها تشغيل ترامواي بغداد الكاظمية بالكهرباء، وانشا جسر حديدي في بغداد، وجعل السقاية في بغداد بالماء المصفى، واصلاح طرق العاصمة وشوارعها وتسيير السفن في انهار العراق وبناء المستشفيات واقامة الحدائق والجسور على نهر الفرات. وقد اغتيل ناظم باشا بعد عزله من ولاية بغداد بتدبير من الاتحاديين لانه كان يقاوم استبدادهم.

٢ ـ المدينة والقبيلة

ومع ان كثيرا من مظاهر التأخر. بقيت بعد سنة ١٩٠٠، قائمة في حياة المدن في العراق، الا ان الخمس عشرة سنة الاولى، من القرن شهدت تقدما مؤكدا. ذلك التقدم الذي سار بخطى حثيثة نتيجة التأثر المتعاظم الذي احدثته التجارة الاجنبية، ووفود المزيد من الزوار من الخارج، وزيادة عدد الاجانب المقيمين، والاتساع الذي اصاب الصحافة والحياة السياسية معا[1] كانت الهوة التي تفصل بين الطوائف الاسلامية الرئيسة، السنة والشيعة، قد ازدادت اتساعا، بدلا من ان تضيق في الاوقات المتغيرة، ذلك لان رد الفعل من جانب هذه الطوائف، على الدعوة الملحة للمركزية التركية، كان متباينا حتماً في الوقت الذي اخذ فيه اليزيديون يقاومون التجنيد مقاومة عنيفة، بينما اخذ التركمان يبدون اسفهم لا نزال السلطان عبد الحميد عن العرش. اما الاقلية الفارسية التي كان يتحكم بها الملالي في مدن المراقد المقدسة، فانها كانت جد مبتعدة عن الجماهير الاساسية في البلاد. ذلك ان مجتهدي الشيعة واصلوا عدم تقبلهم للحكومة القائمة، سواء تلك التي كان السلطان يرأسها، ام حزب الاتحاد والترقي، ولذلك فقد اربك هؤلاء المجتهدون، المقيم البريطاني في العراق، بموقفهم الذي انطوى على عدم التعاون، وشدة الطمع بالنسبة الى الاموال التي كانت توزع من اوقاف «الاودة». ولم يكن وجود هؤلاء المجتهدين والامتيازات التي كانوا يسيئون استعمالها، باقل مضايقة للحكام الاتراك مما كانت عليه في هذه الفترة، كما لم يكونوا انفسهم اكثر نشاطا في عقد الاجتماعات، وحبك المؤامرات، ونشر الشائعات

---

(١) فتح انقلاب ١٩٠٨ مجالا رحبا امام نشاط الصحافة والاحزاب في العراق فبعد ان كان عدد الصحف والمجلات قليلا، صدرت اكثر من سبعين صحيفة ومجلة ما بين ادبية وسياسية اجملناها في الجزء الاول من كتابنا «مفصل تاريخ الصحافة العراقية» المعد للطبع اما بالنسبة الى الاحزاب ففي الوقت الذي كان فيه العراق محروما من اية منظمة حزبية سياسية عدا المنظمات السرية، ظهرت عدة منظمات حزبية في مقدمتها حزب الاتحاد والترقي الذي فتحت له فروع في بغداد والبصرة والموصل والحلة والنجف. والحزب المعتدل في بغداد، وحزب الحرية والائتلاف في بغداد والبصرة والموصل والجمعية الاصلاحية في البصرة وجمعية المشورة في بغداد والجمعية العربية الوطنية في بغداد، وجمعية العصابة الحمراء في بغداد، الى جانب عدد من الاندية والمؤسسات الادبية في بغداد والبصرة والموصل (راجع كتاب عبد الجبار حسن الجبوري: الاحزاب والجمعيات السياسية في القطر العراقي ط ١٩٧٧ وكتاب تاريخ الصحافة العراقية الجزء الاول للاستاذ عبد الرزاق الحسني والذي لم يصدر الجزء الثاني له حتى الان.

واذ رفض اولئك المجتهدون المواقف المعتدلة التي نصحهم بها المقيم البريطاني. فقد اخذوا يمطرون حكومة طهران بوابل من البرقيات والمذكرات يحتجون فيها على عدم تدين الشاه، ومقاومة الدستور الفارسي الجديد، والتغلغل الروسي وبقيت الاقليات غير الاسلامية، تمثل العنصر البارز في الميدان الاقتصادي، ومحافظة على زعامتها للوظائف المختارة وان كانت منعزلة من الناحية الاجتماعية وغير مهمة من الوجهة الحكومة. ونظراً للرجة التي احدثتها الخدمة العسكرية الاجبارية، فقد اخذت هذه الامكانات تنشط للعمل بصفة مميزة. فلقد قرر اليهود بانه اذا لم ينجحوا في شراء الاعفاء من الخدمة العسكرية بالمال، ان يحققوا النجاح في صفة مجندين، وان يقبلوا على الدراسات العسكرية والتدريب العسكري، في الوقت الذي اختار فيه المسيحيون كل الوسائل المتوفرة لتجنب الخدمة العسكرية عن طريق الفرار من الوحدات، واستعمال الرشاوى، وتزوير السجلات.

في هذه الفترة تعاظمت اتصالات الاقليات وارتباطاتها بالاوربيين. فقد اصبحت اللغة الانكليزية تدرس في مدارس الاقليات بصفة متزايدة واقدمت جمعية الاتحاد الاسرائيلي «الاليانس» على فتح مدارس لها في بغداد والموصل والحلة والبصرة وخانقين، والعمارة. وعن طريق الدكتور ويغرام[٣] استطاع مطران البعثة الاثورية التبشيرية ان يؤسس مدرسة في قرية «ببايدي» قرب العمادية. ونشطت بعثات التبشير الكرملية والدومينيكانية. بما انشأته من مدارس ومستوصفات ومطابع حتى بين طائفة الموحدين من المسيحين، بينا نشط الامريكيون نشاطا واسعا بين كل الطبقات في جنوبي العراق، في الوقت الذي نشطت فيه مدارس التبشير الكرملية حتى بين البروتستنت الموجودين في بغداد والموصل، في حين افتتح الالمان مدرسة لهم في بغداد سنة ١٩٠٩

لم تلبث الاحاسيس السيئة بين الطائفتين الكلدانية والاثورية حيث كانت الاولى تحظى بالمساعدات الفرنسية الواسعة، في حين راحت الثانية، والاثورية، تلح بصفة مثمرة على طلب المساندة من البريطانيين، تقول لم تلبث هذه الاحاسيس ان انفجرت في صفة خصومة حانقة بالنسبة الى مسألة الانفصال والتسجيل بين الطائفتين. لقد ذكر في حينه ان كثيرا من الكلدان سيرحبون بالانضمام الى طائفتهم القديمة هذه، التي كان يتزعمها مار شمعون اذا ما اصبحت

---

(٢) كانت مدارس الاليانس اليهودية هي النواة المبكرة لنشر الافكار الصهيونية في العراق وكانت نشاطاتها في هذا المجال واسعة. ولقد بقيت مدرسة الاليانس في بغداد قائمة حتى بعد ان تخلى اكثرية اليهود عن جنسيتهم العراقية وغادرو الى اسرائيل خلال سنتي ١٩٥٠ و ١٩٥١ وان كانت هذه المدرسة بعد تلك الفترة قد فقدت معظم طلابها ومدرسيها من اليهود.

(٣) الدكتور ريغرام A. WIGRAM احد اعضاء البعثة التبشيرية التي ارسلها رئيس اساقفة كنتر بري الى الاثوريين في العراق وكانت البعثة تضم خمسة قساوسة، وذلك تلبية لطلب قدمه بطريرك الاثوريين الى كنيسة لندن ولقد شارك هذا القس زميلا له يدعى تي اي ويغرام في وضع كتاب عن مغامرة البعثة المذكورة في العراق بعنوان مهد البشرية صدرت طبعته الاول سنة ١٩٢٢ وترجمه الى العربية جرجيس فتح الله وطبعته جريدة التاخي سنة ١٩٦٩.

الحماية الاجنبية لهم، مساوية للحماية التي يظهرها مندوب البابا.

اما الحركة الصهيونية، التي كانت حركة وليدة وغير منذرة بالخطر انذاك، فان اول اشارة اليها لم تخلق اية مخاوف، وان كانت البعثات الصهيونية، قد وفدت على العراق مرتين بقصد وضع تقرير عن احتمالات الهجرة اليهودية، وتوزيع كراس يهودي في سنة ١٩١٣ كان يلح على انتاج سياسة قوية للمطالبة بفلسطين ذاتها[٤]

* *

تمت صيانة الامن بصفة معتدلة خلال الاوقات الاعتيادية. واخذت تزداد تحسينا بصفة مباشرة ومستديمة عند حلول اي وال قوي. وكان سماع اصوات الاطلاقات النارية اثناء الليل من الامور الاعتيادية، لكن هذه الاطلاقات كانت عديمة المعنى عادة. وكان الكشف عن الجرائم لا يعتمد لاعلى المهارة ولا على التصميم. في حين كانت التحريضات او الجرائم الموجهة ضد المسيحيين او اليهود، وهي على نطاق ضيق، مؤهلة دوما للظهور، وان ظهرت فلن تلقى سوى القليل من الاستنكار. ومع كل ذلك فان معظم الاسباب التي كانت تعكر السلام، انما كانت تنجم اما عن الفاقة القاتلة التي كانت في بعض الاحيان تقترب من المجاعة الشاملة (كما حدث في الموصل سنة ١٩١٣) والتي كانت تحصل بسبب احتكار الطعام من قبل التجار، الامر الذي كان يدفع الناس الى ارتكاب اعمال السطو والقتل، او ظهور عصابات منتظمة من المجرمين في كثير من المدن.

ففي البصرة كان وجود حرس خاص اعتدائي من بين مصادر القوة التي كان يتمتع بها السيد طالب النقيب. وفي الموصل والسليمانية كان المواطنون البارزون، من امثال محمد باشا الصابونجي في الدرجة الاولى، والشيوخ البرزنجيون في الدرجة الثانية، هم الذين يستخدمون عصابات الشقاة عند الحاجة. اما في المدن التي يسيطر عليها رجال العشائر الاقوياء، فلم تكن الجرائم التي يقترفها اتباع الشيوخ من الامور التي يعاقب عليها قط

وقعت ثلاث قضايا مميزة لهذه الفترة، لابد من الاشارة اليها هنا. واول هذه القضايا هي

---

(٤) بدا النشاط الصهيوني في بغداد عام واستمر بالتعاون مع سكرتير الجمعية الصهيونية في بغداد بنيامين ساسون. كان بنيامين ورفاقه يطالعون الصحف اليهودية التي تتحدث عن الصهيونية مثل صحيفة «هشفيراه» اي الفجر وازداد النشاط الصهيوني في العراق ابان الحرب العالمية الاولى حيث طلب كل من اهرون ساسون وبنيامين ساسون من المنظمة الصهيونية العالمية تخويلهما حق تشكيل فرع لمنظمة «كيرن كيمث» الصندوق القومي اليهودي وهي منظمة صهيونية خالصة يقع مركزها في مقاطعة كولون بالمانيا وقد ادى نشوب الحرب والحكم بنفي بعض اليهود بتهمة الفرار من الخدمة العسكرية، والتجسس لحساب الانكليز الى ضعف الحركة الصهيونية في العراق وكانت اول مجموعة صهيونية قد اسسها اسحاق بن اسحاق اهرون، وتتألف من عشرة اشخاص في بغداد في شهر اب ١٩١٣ (صادق حسن السوداني: النشاط الصهيوني في العراق ص ٣٢ – ٣٣ ط ١٩٨٠)

مقتل الشيخ سعيد البرزنجي شيخ السليمانية في مدينة الموصل في اليوم الاول من سنة ١٩٠٩ (٥) كان حادث القتل عملا عدوانيا شنيعاً ضد شخصية تتمتع باعظم شهرة. فلقد ارتجت محافظة السليمانية لذلك الحادث بعد وقوعه. اما القضية الثانية فهي مقتل فريد بك القائد، ومعه المحافظ السابق للمنتفق في سوق البصرة في حزيران ١٩١٣ (٦) في حين اشتملت القضية الثالثة على مصرع «احمد بك» امر الجندرمة في بغداد في شهر اب سنة ١٩١٣

* * *

حدث تقدم مناسب في ميدان الخدمات المدنية. فقد ظهرت بعض المباني الجديدة، التي يمكن الادعاء بوجودها والمباهاة بها، عند البوابة الجنوبية لبغداد، اضافة الى ضواحي مدن كربلاء، والموصل، وضاحية العشار في البصرة. كذلك تطورت المدن التي تقع على شواطيء نهر دجلة تطورا سريعا، وتضاعفت مساحات كل من كركوك واربيل خلال الفترة بين سنتي ١٨٩٠ و ١٩١٤، وتم تأسيس مدينة حلبجة التي كانت تخضع لاسرة الجاف التي كانت تحكمها.

اخذ عدد من المستشفيات العسكرية وقلة من المستوصفات في الظهور وافتتح مستشفى «مير الياس» اليهودي في سنة ١٩١٠ (٨) وكملت البناية الجديدة لمدرسة البعثة الكرملية التبشيرية في سنة ١٩١٣، في حين كانت مستشفيات البعثة في الموصل يجري اغلاقها واعادة فتحها حسب الفصول. غير ان الترتيبات الطبية بصفة عامة، بقيت بدائية، وظلت المحاجر على نطاق اوسع مصدرا لاستخلاص الرشاوى، ولم تبذل اية جهود جدية لمكافحة الامراض وسوء التغذية.

---

(٥) كان الشيخ سعيد البرزنجي من اصحاب النفوذ لدى السلطان عبد الحميد، ولذلك كان الاتحاديون يمقتونه ويحرضون ضده وحدث ان كان الشيخ سعيد يزور الموصل في طريقه الى اسطنبول مع بعض اعوانه واهله بعد ان استدعاه السلطان عبد الحميد وفي احد ايام عيد الاضحى سنة ١٣٢٦هـ كانون اول ١٩٠٨، اعتدى احدى السكارى من الجنود الخيالة الاكراد على امرأة فاستنجدت بالمارة فحصلت معركة بين الجنود والاهالي استمرت يومين وفي حينه سرت اشاعة مفادها ان اعوان الشيخ سعيد هم المسببون لذلك الحادث، واذ ذاك تجمهر القوم ضده وضد اعوانه، وحين توجه الى الثكنة العسكرية للاحتماء بها بعد ان استدعاه الوالي الى هناك سدت ابواب الثكنة بوجهه، وعندئذ تجرأ احد المتظاهرين فضرب الشيخ سعيد بحجر كبير على رأسه وتلاه اخرون، ففتكوا به وببعض اهله وانصاره، ونهبوا داره، ولم ينج من القتل سوى ولده الصغير «محمود» اي الشيخ محمود الحفيد الشهير في السليمانية (فيصل محمد الرحيم: تطور العراق تحت حكم الاتحاديين ص ٩٤).

(٦) يظهر في عبارة المؤلف هنا شيء من الارتباك لان من يقرأ عبارته يفهم منها ان فريد بك كان محافظا سابقا للمنتفق ولكن الحقيقة هي ان محافظ المنتفق هو بديع نوري الذي قتل مع فريد بك وقد اشرنا في تعليق سابق الى ذلك.

(٨) هذا المستشفى أنشأه اليهودي «مئير الياهو الياس» خارج باب المعظم قبالة ثكنة الخيالية التي عرفت فيما بعد بأسم «الكرنتينة» التجنيد العامة في الوقت الحاضر وقد جرى الاحتفال بافتتاحه في التاسع من شعبان سنة ١٣٢٨ه وقام الوالي ناظم باشا بفتح باب المستشفى بيده وظلت هذه المستشفى قائمة طيلة العهد الملكي ثم امم في العهد الجمهوري وعرفت باسم مستشفى الشعب ولكن تم التخلي عنها بعد سنة ١٩٧٤ على اثر انشاء الشعب الجديد قبالة مستشفى دار السلام.

ولقد ...... الاضاءة في الشوارع. وظهرت الفنادق في المدن الكبرى تحت ادارة الارمن او الكلدان، وتم فتح اول دار للسينما في بغداد سنة ١٩١١ وكان توفير المعابر البخارية التي تعبر الانهار، وانشاء الحدائق العامة. وفتح الشوارع العريضة، وانشاء حديقة للحيوان، وتحسين الجسور الحديدية والترامواي. والاضاءة بالكهرباء، من الامور التي كانت لها مواقعها في خطط الولاة والمحافظين القادمين الى العراق. والواقع ان النجاح الذي حدث في تحسين البلدية، من امثال فتح الشوارع وانشاء الحدائق. والدوائر واسباب اللهو، ان هذه كلها قد ظهرت في هذه الفترة. ولو ان مشاريع ناظم باشا ذاتها، بقيت فاشلة لمدة احد عشر شهرا. فلقد كمل ترامواي الكوفة - النجف في عهد ولايته، واسس التاجر البغدادي الشهير محمود الشابندر في سنة ١٩١٢ في لندن شركة للتنوير الكهربائي، ولاستعمال الكهرباء في تشغيل الترامواي ايضا.

* *

وحصل بعض التقدم في ميدان التجارة والصناعة معا. ذلك ان الصادرات النباتية للبلاد بقيت تختلف سنويا تبعا للحصاد. ولمستوى الامن الداخلي واصبحت حمولات المواد المستوردة واقيامها اكثر من ضعف ما كانت عليه في سنة ١٩٠٠ وقد عكست هذه الزيادة، مدى الحاجة الى انشاء سكك الحديد. نتيجة لازدياد استعمال وسائط الري الالية، والوسائل الاخرى، واستعمال النفط من ناحية، ومن ناحية اخرى لارتفاع مستوى الحياة المدنية بما كانت تتطلبه من طلبات واسعة على الملابس القطنية، والسكر، والشاي، والشخاط.

لابد من الاشارة هنا الى التغلغل المعتدل لكل من روسيا والمانيا في الاسواق العراقية في تلك الفترة. فقد كان الجزء الاعظم من تجارة الواردات والصادرات، مايزال موزعا بين الشركات البريطانية والشركات اليهودية المحلية. فمن الشركات البريطانية التي كانت لها دوائر في البصرة، كل من شركة لنج، وغري مكنزي، وستريك، وشركة البصرة التجارية، وشركة ماك اندروفوربس الامريكية التي كانت تستثمر عرق السوس، في حين كانت الشركات البريطانية العاملة في بغداد تتألف من كل من شركة لنج، وبلوكي كري، وساسون وهذه كان مركزها في بومباي.

وحاول رحال من الانكليز مرتين تأسيس شركات للخياطة، في حين اصبحت للمصرف العثماني الامبراطوري. فروع في بغداد والبصرة تحت الاشراف الفرنسي، او الفرنسي الانكليزي المشترك وظهر المصرف الفارسي الامبراطوري لكنه مالبث ان اختفى، وذلك لان منافسيه لم يرحبوا بظهوره في بلاد تركية، بينما افتتح «المصرف الشرقي» ابوابه في بغداد سنة ١٩١٢ وبقيت العملة المحلية ثابتة، ولم تكن العملة الورقية معروفة انذاك، في حين كانت اعمال التحويل من الاموال المودعة

واصاب التجارة عطب كبير نتيجة التعليمات غير الحكيمة التي كان الولاة يصدرونها بالنظر الى السيطرة على الاسعار، وللحظر الذي كان يفرض على تصدير المواد الغذائية وذلك لصالح المستهلكين العراقيين، كما كانوا يزعمون ذلك. ومع كل هذا فلم يكن هنالك من امر يوقف الاحتكار المجرد من الحياء والذي كان الاغنياء يعمدون اليه في السنوات التي تقل فيها المواد الغذائية.

*

وفي خارج المدن والمناطق الهادئة المصاقبة لها كانت صورة الفوضى العشائرية المقاربة لما صوره الرحالون والمقيمون الاجانب، تبرز في العراق خلال الفترة ١٩٠٠ – ١٩١٤ بصفة مؤلمة حقا، ومع ان مستويات الامن كانت متدنية تماما، وكانت الحوادث اللاقانونية تتكرر بصفة تدعو الى اليأس، وعدم كمال قوات الحكومة، فان الاوضاع غدت اشد سوءا عما كانت عليه قبلا وعلى الرغم من المدن الكثيرة التي انشئت حديثا، ومراكز الشرطة، وازدياد وسائل النقل، واتساع نطاق الزراعة، فان تغلغل الحكومة بصفة اوسع (سواء كان للاحسن ام للاسوء) قد ابرز تقدما جوهريا بالنسبة الى الاحوال التي كانت سائدة في القرن الماضي.

من بين الامور المخادعة من ناحية ما، ان اصبح البحث يطرح بشأن تحقيق المواصلات السريعة عبر البلاد، وهي امور كان لها قبلا محض اهتمام شخصي ليس الا كما ان المستويات التي تخص تحديث الحكومة، وازدياد المصالح الاجنبية قد غدت اكثر اتقانا. فقد اصبحت اعمال المغيرين او العصابات تعتبر من الاعمال الشائنة، في حين كانت قبل سنوات مضت، تمضي باعتبارها من القضايا الاعتيادية التي لا يلاحظها احد من الناس.

اصبحت القبائل الان اكثر انقساما وضعفا، وغدت مقاومة الحكومة من قبل قبيلة موحدة، من الامور النادرة. ولقد ازداد انهماك شيوخ القبائل والعشائر في حياة المدن وفي القضايا السياسية، في الوقت الذي تناقصت فيه رغبة الحكومة في اغماض عيونها عن التمرد العشائري، ولذلك كانت الادارة المباشرة هي القانون اليومي المطبق، ففي كل وقت وفي اي مكان، يتم الاخبار فيه عن حدوث عنف عشائري، كانت توجد فترات طويلة، ومساحات اوسع، يشملها الهدوء

كانت قبيلة شمر[9] التي مزقتها منافساتها الخاصة بها، وعداؤها المستديم لقبيلتي «الملي» و«عنزة» تمثل حتى سنة ١٩٠٩ الصورة الكاملة لعدم استقرار الصحراء. اما بعد ذلك الوقت فان

---

(٩) المقصود بها ... الجربا وكانت منازلها انذاك تمتد من منطقة الشرقاط حتى سنجار وعلى مقربة من الحدود التركية السورية ... قبيلة «الملي» الكردية التي كان يرأسها ابراهيم باشا الملي.

سقوط ابراهيم باشا رئيس قبيلة الملي، ووفاته، قد قلبا ميزان القوة لصالح «شمر». فلقد اختفت قبيلة «الملي» كوحدة متماسكة، واخذت قبيلة «عنزة» الشمالية بمفردها تقاوم سطوة قبيلة شمر.

ولكن اعمال السلب المتعاقبة التي كانت «عنزة» تقترفها، لم تعزز مكانتها الاقليلا ذلك لان الاتراك كانوا يقدمون على تغيير شيوخها الرسميين سنويا، ولان اندلاع القتال مع قبائل الدليم في سنة ١٩٠٩، قد ادى الى تقدم ارتال من قوات كان يقودها «محمد فاضل باشا» ضد هذه القبيلة. وبعد سنتين من ذلك التأريخ تم التوصل الى تسوية مع «عنزة» على يد «حسن رضا بك» رئيس اركان الجيش الذي يراسه ناظم باشا. وصحبت هذه التسوية كالعادة، اعادة المنهوبات، واداء القبيلة القسم بالطاعة والولاء. ولكن هذا النظام الجديد لم يعش طويلا، اذ استؤنفت الغارات على الطرق، وتعاظم النزاع والمنافسة على المباهاة، والمشيخة المربحة.

ولم تثر قبائل الدليم القوية التي كانت تبسط نفوذها من «عانه» الى «الفلوجة» سوى القليل من المتاعب للحكومة او للمسافرين، بعد ان تولى مشيختها «علي السليمان» في سنة ١٩٠٣، فقد تم بناء خانات جديدة على امتداد الطريق منها خان «القائم» في سنة ١٩٠٧، وخان البغدادي في سنة ١٩٠٨ ولقد وقعت حوادث معكرة للامن في سنة ١٩٠٩، وذلك في اعقاب احدى التسويات التي تفاوض فيها «ناظم باشا» نفسه، ولكن المنطقة كانت واحدة من المناطق التي حققت الحكومة فيها تقدما جليا في اواخر الجيل الماضي.

لم يحدث اي تغيير بالنسبة الى قبيلة «عنزة» المطرحة بعيدا. فلقد بقيت مجموعتا «العمارات» اللتان يتزعمها «ابن مجلاد» المنافس المثير لـ «ابن هذال» في خصام دائم. وكانت الغارات ضد «ابن الرشيد» في نجد، وضد القرى الكردية في الشمال الاقصى من الجزيرة[١٠] وقبائل الفرات، كل هذه الغارات قد اظهرت مدى النشاط الذي كانت تقوم به قبيلة عنزة. كان «فهد بن هذال» شيخ «الجبل» من العمارات مايزال يعتبر حتى سنة ١٩١٤ هو القائمقام الاسمي لقضاء الرزازة.

اما الاحوال التي كانت سائدة في «الدلتا» الواطئة من الرافدين فكانت سيئة بمقدار مايستطيع العراق التركي ان يبينه في تلك الايام. فلقد اضطربت العشائر التي كانت تعيش على ضفاف شطي الحلة والهندية، اضطرابا عميقا نتيجة التغييرات التي وصفت بانها قد اخذت تحدث في مستويات النهر في كل مكان. وقد كشفت الاوضاع عن عدم طاعة ذلك المجتمع، الذي لم تتغلغل فيما بينه وسائل المواصلات العصرية، والذي بقي غير ثابت في ولائه بين الحكومة، والعشيرة وسيطرة الملالي الرجعيين. ذلك ان العداوات التي كانت تثير المنازعات بين

---

١٠) المقصود [illegible] البادية الممتدة الى الشمال الغربي حتى الحدود السورية والتركية من نهر دجلة وحتى نهر الخابور والتي كانت [illegible] وشمر وعنزة. وهنالك منطقة اخرى في العراق تعرف باسم الجزيرة او الحويجة هي الممتدة [illegible] الشرقاط والتي تسكنها قبيلة «العبيد» المتاخمة اراضيها للمنطقتين التركمانية والكردية معا.

قبيلة واخرى، كانت توفر في بعض الاحيان ذريعة للتدخل التركي العسكري، ولهذا فلم يكن من النادر وجود الاسباب التي تدعو الى استمرار القتال لعدة شهور. وعلى هذا كان اجتياز هذه المناطق، امرا محفوفا بالمخاطر بالنسبة الى المسافرين، فقد وجد العلماء الالمان الذين كانوا يمارسون اعمال التنقيب عن الاثار في خرائب بابل، ذات مرة انفسهم وقد غدوا محاطين بالفوضى من كل صوب.

وفي ادانى نهر دجلة، الفت تلك الفترة، الصراعات العنيفة على المشيخة بين «بني لام» و «البو محمد»، ومطالبة المتنافسين بالحصول على المساندة التركية وحتى الحماية البريطانية في بعض المناسبات. ولم تستطع التدخلات النادرة والدامية معا، التي كانت تقوم بها القوات التركية، وضع نهاية للحروب القائمة بين تينك العشيرتين، وما كان يصحبها من اقدام دفعات منها على اجتياز النهر، واطلاق النيران، ومن تطلع شيوخ البو محمد الى الاحتماء بشيخ المحمرة.

وبلغ تعطيل سير السفن البخارية في نهر دجلة نتيجة لهذه الاوضاع، ذروته في سنة ١٩٠٨ وحاول ناظم باشا في سنة ١٩١١ تهدئة الاحوال، ولكن اسباب الاضطراب بقيت جد عميقة، ولم يكن من الهين ازالتها، وحين انفجرت الحرب العالمية الاولى في سنة ١٩١٤، كانت العشيرتان ماتزالان في خضم خصام مرير، في حين بقيت الشخصيات البارزة في كل منهما، والمتنافسة على السيادة، تتزعم الاقسام المتنازعة في المستنقعات النائية التي يزرع الرز فيها، وعلى ضفاف نهر دجلة.

بقي ريف المنتفق في الفرات الادنى مدينا بالشيء القليل، الى الادارة التركية خلال هذه السنين. فلقد كان سجل الزمن من النزاع والتآمر، مرتبطا، الى درجة ملموسة، بشخصيات عاصمة الولاية. فمنذ سنة ١٩٠٠ الى سنة ١٩٠٨ كان ولاء القبيلة موزعا بين سعدون باشا وفالح باشا. فالاول كان وريثا لوالده في سياسة المقاومة للادعاءات التركية، في حين عرف الثاني بميله الى خدمة المصالح العثمانية. ولقد ادى التدخل العسكري التركي الى وقوع المذابح التي يتذكرها الناس والتي اوقعت بقواتهما في الشطرة سنة ١٩٠٤ ولكن المسبب لذلك، وهو سعدون باشا، قد اوجد العذر والسبيل لصالح الحكومة، وذلك بالدعم المتباهى به من قبل حزب الاتحاد والترقي. فما ان حظى سعدون باشا بمساندة ناظم باشا في سنة ١٩١١، حتى اقحم نفسه بارهاب مارسه في شكل ثورة عامة قام بها رجال القبيلة، اعقبتها زيارة من بعثة تركية للتحقيق الامر الذي ادى الى انتهاج سياسة معاكسة له، وهكذا انفجرت العمليات العسكرية للمرة المائة، واذ ذاك حجز سعدون باشا نفسه في قارب مسلح في البصرة، ومن ثم ارسل الى المنفى في حلب ليموت هناك في ظروف مريبة[11]

(١١) اتهم السيد طالب النقيب بتدبير مكيدة ضد سعدون باشا في سنة ١٩١١ حيث سلمه الى الاتراك الذين نقلوه الى حلب ومن ثم نقلوه الى السجن في استنبول فمات فيه وكان سعدون باشا قد نزل ضيفاً على طالب النقيب في داره بالبصرة، فما ان علم

اعطى هذا الحادث انذارا بالتجمع العام لتمجيد سعدون باشا ولكن ولده «عجمي» طير المستقل والضحل[١٢] كان قد خلفه في زعامة مضطربة لقبيلة ضاعت منها وحدتها وولاؤها الى الابد، وهكذا بقي تجمع هذه القوات العشائرية وولاتها في ادنى الفرات حتى سنة ١٩١٤، وان لم يكن يخلو من المصادمات الفجائية والدموية معا.

ادى الكسوف المؤقت الذي اصاب حكم الاتحاد والترقي في سنة ١٩١٢ الى عزل «عجمي» عن الرئاسة، وتنصيب اولاد فالح لفترة قصيرة ولكن التيار مالبث ان تحول، اذتم الاعتراف مرة اخرى بان «عجمي» هو الرئيس، وان في استطاعته ان يقود للمرة الثانية قوات المنتفق ضد قبيلة «الضفير» التي يدعمها امير حائل، وان يثير الفزع في البصرة، ولكن اندلاع نيران الحرب العالمية، قد جعلته يعسكر في الزبير، وان ينذر بالخطر لكنه لم يصمم على التحرك.

لم تكن المناطق التي تتعاظم فيها ابلغ القلاقل، لتقتصر على الاراضي التي تستطيع الحكومة الوصول اليها، وتغلغل القوات العصرية فيها حسب، وانما تضاف اليها ايضا، تلك المناطق التي كان تأخرها الاقتصادي الصريح، ناجما عن النظام الفاسد، والمطبق لاستملاك الاراضي. وذلك ان اعادة توزيع المقاطعات في كل سنة في محافظة العمارة، بما تتضمنه من امثلة عديدة، على طمع الاتراك وسماجتهم، وبالعلاقات غير الحقيقية والقبلية المتوترة بين ملاك الاراضي والفلاحين في المنتفق، ومعضلة الحقوق او الادعاءات المتعلقة بالاراضي في منطقة الشامية والهندية بين عوائل السادة رؤساء العشائر المتحاربة، وتغيب اصحابها المالكين لها في بغداد، في كل هذه المناطق كانت تكمن جذور الاضطراب الاجتماعي العميق، والتي كانت تزود الاتراك ومن جاءوا بعدهم الى الحكم، باوسع المشاكل المعقدة والمبددة للاموال، والتي كانوا يجابهونها.

لم يكن لاواسط العراق، خارج نطاق محافظة الديوانية، سوى الضئيل من التأريخ القبلي، اثناء الفترة التي امتدت من سنة ١٩٠٠ الى سنة ١٩١٤ ذلك لان قبيلة «ربيعة» كانت متوطنة، ويمكن الوصول اليها، كما ان عدد قبيلة زبيد قد تناقص بالتتابع ولم تعد كثيرة الشعب، في حين

والي البصرة بذلك حتى اخبر لجنة التحقيق التركية بالامر فما لبثت هذه ان طلبت الى الوالي القاء القبض على سعدون باشا وسوقه مخفورا إلى بغداد ومن ثم تم تسفيره الى حلب عن طريق الموصل في ٢٠ اب ١٩١١ (انظر تفاصيل ذلك في تقرير المس بل ترجمة جعفر الخياط «فصول من تأريخ العراق ص ٦ - ٤٧.

(١٢) يحاول المؤلف هنا ان يحط من منزلة عجمي باشا السعدون وان يتهمه بالضحالة، والسبب في ذلك واضح: هو ان عجمي ابى ان يسالم الانكليز او يتعاون معهم، مثلما فعل ذلك كل شيوخ العشائر في الجنوب، وحتى شيوخ عنزة والدليم. فلقد حافظ عجمي على ولائه بدافع الحمية الدينية في الدرجة الاولى، للاتراك فشارك معهم في كل الحروب التي خاضوها ضد الانكليز في منطقة اعالي الفرات وعلى الاخص جبهة الدليم رغم تسخير الانكليز لعملائهم من رؤساء عنزة والدليم وعلى الاخص، محروث الهذال، لمطاردة عجمي وقواته ومحاولة اغتياله بكل وسيلة. وقد انسحب عجمي مع الاتراك الذين انسحبوا من العراق وامضى بقية حياته في تركيا الى ان توفي فيها سنة ١٩٦١

كانت العشائر الموزعة في انحاء ديالى وفي اعالي نهر دجلة، تستجيب في الغالب، للعمل الذي تقوم به الشرطة بصفة مصادفة. كانت هذه المناطق هي التي بلغ فيها مستوى المعيشة، اوربما تجاوز المستوى المناسب لها، والتي اصبحت الضريبة تجبى منها بصفة منتظمة، ويستطيع ملاك الاراضي الذين يسكنون بغداد، ان يبرزوا بعض الشواهد على ادارتهم لمقاطعاتهم الزراعية.

اما المناطق المحاددة لبلاد فارس من امثال بدرة، ومندلي، وخانقين، فقد كانت مبتلاة، كما كانت عليه في الازمان السالفة، بالاضطرابات التي كانت تقع عبر الحدود، وبالمنافرات. غير ان تلك الاضطرابات السائدة لم تكن تؤلف بصفة عامة، خطراً على الامن.

ولقد امضت المناطق الكردية الواسعة في ولاية الموصل، نصف جيل من السلام النسبي، والانحلال البطيء للقبيلة. ذلك ان العداوات بين الاغوات المتنافسين، والغارات الجماعية الموضعية التي يقوم بها اصحاب الدماء الفوارة، لم تكن تحتاج الى اكثر من استطلاع يقوم به افراد الضبطية، او نصف سرية من الحامية المحلية.

ولقد اشتركت كل عناصر اللصوصية، ووعورة الاراضي، ويسر العبور الى الاراضي الفارسية، وسخط الاكراد من ازدياد المطالب التركية، في الابقاء على هذه المناطق «ذات الاستقلال العدواني».

كان العنصر الرئيس في هذه المناطق يتمثل في عشائر «الهماوند» و«الجاف» و«البرزانيين». ذلك ان الهماوند قد اخذوا في هذه السنين يوطدون مركزهم اكثر من ذي قبل، فاصبح عاملا مزعجا للمجتمع كله، ماعدا هم انفسهم. وما خلا فترات من الهدوء، واصل شبان هذه العشيرة تفضيلهم لشن الغارات على الخيرات التافهة التي كانت الزراعة توفرها، لكنهم مالبثوا في النهاية وخلال شهور عديدة، يخرقون اوامر الحكومة، ويؤذون الموظفين الاتراك، ويرفضون دفع الضرائب، ويرهبون الطرق.

وفي سنة ١٩٠٨ غدت ثورة هذه العشيرة خطيرة، ذلك انها امضت السنوات التي اعقبت ذلك التأريخ في مقاومة، اومراوغة الحملات العسكرية التي تجلب اكاليل الفخر للقادة الاتراك. وفي سنة ١٩١٠ تم العفو عن عدد من اغوات الهماوند الصغار، ولكن تأثير ذلك كان موجزا، لان قواتهم مالبثت ان حاصرت مدينة «جمجمال» ولم يعد مستطاعا الحيلولة دون تفاقم اضطرابات اوسع، الاعن طريق التسوية السلمية التي قام بها ناظم باشا، وقد استمرت تلك التسوية لمدة سنتين.

ومن سنة ١٩١٢ الى منتصف سنة ١٩١٤، تفاقمت الاوضاع في مناطق «بازيان» و«قرة داغ» فاصبحت اكثر سوءا مما كانت عليه في اي وقت مضى، وادى عبور معظم القوات

العشائرية فيها الى الاراضي الفارسية، الى مزيد من الارتباك في المنطقة التي كان يحتلها «سلار الدولة»[١٣]

على ان عشيرة الجاف، كانت اقل همجية، ولكن كان يندر ان تكون اكثر انقيادا من عشيرة الهماوند، ذلك لان وفاة عثمان باشا في سنة ١٩١٠، لم تقلل من سيادة الجاف على حلبجة، والتي استمرت عادلة خانم تديرها، على الرغم من الوجود غير الضار، لاحد القائمقامين هناك.

لم تكن للاقسام الجوابة من الاكراد، التي كان يتزعمها محمود باشا، الذي يعتبر في بغداد من اعظم رؤساء الاكراد، ولو انه في شخصه لم يكن يؤلف تلك الشخصية المهمة المنظورة، اية اتصالات خارجية مخيفة وغير مرغوب فيها ماعدا مع الناس الذين كانوا قد استقروا في القرى التي تجتازها تلك الاقسام. فبعد ان امضى محمود باشا شهورا في الموصل، لتنظيم مقادير الايرادات التي يجبيها من افراد قبيلته، قام بزيارة بغداد في سنة ١٩١٠، حيث اولم له ناظم باشا وليمة. وكانت قوات الجاف من بين القوات التي قاتلت في مناطق غربي كرمنشاه سنة ١٩١٢، وقد انتهت تلك الفترة باقتراح ينص على الموافقة على العيش بسلام بين الادعاءات التركية بالحكم، وبين تمسك الجاف بحياتهم التقليدية.

اما الشيخ الديني الذي يتزعم «برزان» وهو «بك الديرة» الحقيقي حتى اخر يوم، فكان مايزال يحتفظ ببلاطه غير القانوني الذي لا يمكن الوصول اليه عبر نهر الزاب الكبير من ريف الزيباريين، فقد اخفق بصفة منتظمة في ان يقدم حتى الحد الادنى من الاحترام المطلوب للحكومة، وكان في كل سنة يورط نفسه في قتال مع عشائر «الهركي» المتوحشة اثناء الهجرات التي كانت تقوم بها تلك العشائر. كان ارسال القوات التركية الى هناك، يقابل بمجرد الالتجاء الى اعالي الجبال، في حين كان استخدام السلطات التركية لعشائر الهركي بمثابة وكلاء لانزال العقاب، يعتبر من الامور الخطرة.

ولقد ساءت الاوضاع بحدوث الاضطهاد نصف المخبول والتحرش بالمسيحيين، على يد الشيخ الشاب عبد السلام الذي خلف اباه في سنة ١٩٠٨[١٤] ولم تكن الحملة التي وجهها محمد فاضل باشا من الامور التي تحمل على الاقناع، واذ ذاك عهد الى ناظم باشا مرة اخرى بأن يتقبل الاعذار التي تذرع بها الشيخ وان يعيده الى الوفاق ولو لفترة قصيرة الامد. غير ان الشيخ

---

(١٣) سلار الدولة. من اخوان محمد علي شاه الذي تولى الحكم في بلاد فارس سنة ١٩٠٧ بعد وفاة ابيه مظفر الدين. وقد استعان سلار الدولة باللر واحتل كردستان الفارسية لكنه اندحر على يد «فرمان فرما» حاكم كردستان الفارسية ذاتها، فغدا شريدا مطاردا الى ان تم القاء القبض عليه من قبل الانكليز خلال الحرب العالمية الاولى في منطقة قزوين.

(١٤) هو ابن الشيخ احمد المتربع على اقليم برزان في تلك الفترة. والامر الذي نود ان يعلمه القارىء ان «برزان» ليس اسم عشيرة او قبيلة وانما هو اسم اقليم من الاقاليم ليس الا وكان ريف منطقة برزان مأهولا من الاصل بعشائر الزيباريين الذين ظلوا في جميع الاحوال والفترات يقاومون تسلط شيوخ برزان عليهم ولم يأتلفوا معهم ابدا، ولم يوافقوهم في كل اعمال التمرد التي كانوا يقومون بها سواء في العهد التركي ام العهد الملكي او الجمهوري ايضا.

مالبث ان عاد الى شق عصا الطاعة من جديد في سنتي ١٩١١ و ١٩١٢، ومن ثم عبر الى منطقة «اورميا» لكي ينضم الى الروس، حيث شرع من هناك يقوم بعمليات عسكرية ضد افراد عشيرته خلال سنتي ١٩١٣ و ١٩١٤

كان الشخص المنافس لشيخ برزان، والذي يعيش عبر حدود منطقة «وان» ويعادله في القدسية وفي الارهاب، هو زعيم شمدينان الشيخ صادق النيري[١٥] كان اخوه الشيخ عبد القادر يحتل مكانة عالية في سياسة اسطنبول. اما الشيخ صادق، والذي كان ممقوتا لجشعه وقسوته، فكان يعيش على اعمال السلب وعلى سمعة القداسة، وقد حول سكان القرى المسيحية التي كان يسيطر عليها الى ارقاء، وقتل مطرانهم، ومن ثم هرب من المنطقة الى ان اصطادته الجيوش التركية مصادفة.

ادت وفاة الشيخ صادق في سنة ١٩١١ الى ان ينهض اخوه عبد القادر للمطالبة بالسيادة مكانه، ولكن من دون طائل. اما «سيد طه» ابن الشيخ صادق، والذي اشتهر بطاعته، فقد خلف اباه في الرئاسة بشكل حسن، ووطد مركز اسرته على جانبي الحدود التركية الفارسية معا.

وفي قلب ريف منطقة حكاري، كانت العشائر الاثورية ماتزال تتمسك بمواطنها، ومازالت تجتذب المبشرين البروتستنت من الاوربيين. كان بنيامين، وهو المار شمعون الضعيف[١٦] غير المدبر، قد نجح في سنة ١٩٠٣ في زعامة «الملة الاثورية» وتولى بطريكيتها. وما ان ساندہ اتباعه بولائهم له، وتعاضدهم، وعلى الاخص اخته المثقفة ذات الرأي الحصيف «سرما»، حتى اصبح الان عرضة للتآمر عليه من لدن ابناء عمومته الذين يغارون منه، اضافة الى شكوك الاتراك فيه، نتيجة نفوره منهم.

ظفر اليزيديون الساخطون، في هذه الفترة، بشيء من الاسس تجاه المساواة في المعاملة. فالوحشية التي اشتهروا بها، قد تم ترويضها من ناحية خلال سني التسعينات من القرن الماضي، كما اعيد اليهم مرقد «عدي» في سنة ١٩٠٧، وظل اميرهم يحتفظ بسلطته، في الوقت الذي استمرت فيه طائفتهم المعادية تتمسك بشعائرها ومن ممارساتها نصف السرية. ولقد اثار التجنيد الاجباري بينهم مقاومة مسلحة في سنة ١٩١٣، ولكن الزيارة التصحيحية التي قامت بها القوات التركية لمنطقتهم لم تواجه اية معارضة جدية.

---

(١٦) الصواب الشيخ صادق النهري وتعرف شمدينان باسم شمزينان وكان الشيخ عبيد الله والد الشيخ صادق قد اشعل في سنة ١٨٨٠ ثورة كردية هدف من ورائها الى تشكيل دولة كردية مستقلة على ان تكون تحت وصاية تركيا الاسمية «الدكتور شاكر خصباك: (الكرد والمسألة الكردية)»

(١٦) «المار شمعون» لقب ديني بالنسبة الى قساوسة الطائفة الاثورية وليس اسما من الاسماء الخاصة كما قد يتخيل البعض ذلك.

٤ ـ مشاريع الارض والماء

بعيداً عن الوضع الكالح المضطرب في العراق ، استمرت المفاوضات حول سكة حديد بغداد ، التي تأثرت تأثراً حيويا حين ابتدأ القرن الحالي ولقد تم احتواء النتائج التي تم التوصل اليها بين المصرف الالماني «دويتش بانك» وشركة سكة حديد الاناضول ، والحكومة التركية ، في ارادة سلطانية صدرت في شهر كانون الثاني سنة ١٩٠٢ واذ اعيد عرض تلك المفاوضات في شهر اذار سنة ١٩٠٣ فانها قد كشفت عن حصول الالمان على شروط فاخرة ذلك لان سكة الحديد سوف تبني من مدينة «قونية» (١) الى الخليج العربي ، وسيتم انشاء فروع لها داخل العراق وكانت الشروط المالية سخية ، ولسوف تتألف شركة تركية جديدة ، باسم الشركة العثمانية الامبراطورية لسكة حديد بغداد

اثار نشر ذلك الامتياز اهتماما واسعا في كل ارجاء العالم فالفرنسيون الذين سبق لهم في سنة ١٨٩٩ ان وافقوا بصفة مبدئية ، على المشاركة في المشروع لم يظهروا الان سوى حماسة ضئيلة له ، في حين كان المنشئون الالمان يتطلعون بشوق الى تعاون البريطانيين معهم غير ان الرأي في لندن ، والذي كان فيما سبق معارضا للمشروع او محبذا له ، قد اصيب الان بهزة عنيفة لانه اعتبره تهديدا للهند وللمصالح البريطانية في العراق ، وفي الخليج العربي

لكن تيار الرأي البريطاني مالبث ان تحول بصفة حاسمة ضد المشروع ، واذ ذاك اضطر المستر «بلفور» — وهو غير راغب — الى ان يعلن امتناع بريطانيا عن المساهمة في المشروع ، بينما خابت امال الالمان خيبة شديدة اما في تركيا ذاتها فقد وجهت الى المشروع انتقادات كثيرة في حين حبذه الأخرون باعتباره تطورا يبعث على الامل ، ويتعدى نطاق القدرة التركية التي لادعم لها

ولقد تنامى المشروع في العراق ، بصفة بطيئة ، واعلنت ذات الفئتان من الرأي العام اراءهما فيه ، فرحبت احداهما بالتقدم الذي قد يحصل باية صفة كانت ، في حين خشيت الفئة الاخرى من التغلغل الاجنبي والمسيحي المخيف في البلاد

كان القسم الذي يمتد بين قونيه — ارغلي من سكة الحديد ، قد كمل انشاؤه في شهر تشرين الاول سنة ١٩٠٤ ، ومن ثم ايصال الخط الى «بلغورلو» حيث توقف هناك حتى سنة ١٩٠٩ وفي سنة ١٩١٤ شرع بحفر نفق تحت جبل «امانوس» وانشيء جسر على نهر الفرات ، واخذت

---

(١) مدينة قونية هي ايقونيوم القديمة عاصمة سلطنة الروم السلجوقية في سنة ١٠٨١هـ وتقع في وسط تركيا.

الاعمال الترابية للسكة لسير للدما حتى «رأس العين»

وفي الوقت ذاته شرع بالتفكير في انشاء مشاريع اخرى لسكك الحديد فقد كان هناك مشروع بريطاني لمد سكة حديد يبدأ من «بور سعيد» الى العقبة ومنها الى «الجوف» حتى البصرة[٢] وهناك مشروع فرنسي لسكة تمر بمدن حمص وتدمر ودير الزور واستمرت محاولات الالمان للحصول على تأييدهم لمشروعهم في مد «سكة حديد بغداد BAGHDAD BAHN» ولكن هذه المحاولات جوبهت بجواب سلم للالمان في اسطنبول سنة ١٩٠٧ مفاده بان مقاومة المشروع ستتوقف ، عندما يعهد الى البريطانيين وحدهم بمد سكة حديد من بغداد الى البصرة

كان للثورة التركية تاثير على المشروع فلقد اصبح الالمان غير مرغوب فيهم ، ولقيت سكتهم معارضة شديدة جدا وعلى الاقل من قبل اسماعيل حقي النائب الكردي من بغداد[٣] ولقد عاد الانكليز يتمتعون بشعبية مختصرة ولكن في سنة ١٩١١ استأنفت مراكز القوى القديمة نشاطها فاصبحت المانيا هي الدولة المقبولة والقادرة على انجاز سكة الحديد

كانت بريطانيا ماتزال ترفض المشاركة في المشروع واخذت تميل بعد ذلك الى درجة الموافقة على رفع معدلات رسوم الكمارك التي طالبت تركيا بها ولم تحصل اية نتيجة من وراء الاقتراحات التي عرضت في سنة ١٩١٠ بشأن سيطرة البريطانيين على القسم الجنوبي من سكة حديد بغداد ، ولكن في اوائل سنة ١٩١١ رفضت للمرة الثالثة الخطة التركية القاضية بتأليف شركة بريطانية فرنسية مشتركة لانشاء القسم الذي يمتد بين بغداد والبصرة من مشروع سكة حديد بغداد ، ولكن سرعان ماتم التوصل الى اتفاق وضعت مسودته فيما بعد حالا ، اي في شهر اذار ١٩١١ ، ينص على ان تتنازل الشركة الالمانية عن حقوقها المطلقة في جنوبي العراق ، لقاء تاكيد بالمساهمة في اية شركة غير تركية ، قد تعمد الى القيام بمثل هذه الاعمال

وفي الوقت ذاته ، وطبقا لاتفاق بوتسدام المعقود سنة ١٩١٠[٤] قبلت المانيا بالمركز الذي تحتله روسيا في شمال بلاد فارس ، ووافقت على ان لاتعارض في مد خط حديدي روسي من طهران الى خانقين اما فرنسا التي اضطربت لهذا الاتفاق فقد تمت تهدئتها وضمن تأييدها

---

(٢) مدينة الجوف: المدينة الرئيسة شمالي صحراء النفوذ في الجزيرة العربية على الطريق المباشر مابين سوريا ووسط جزيرة العرب في واحة تمتد حوالي ثلاثة اميال وكلها حدائق وبساتين.

(٣) المقصود به اسماعيل حقي بابان وكان من اعضاء مجلس المبعوثان الاول في العهد التركي

(٤) اتفاق بوتسدام عقد هذا الاتفاق في التاسع عشر من شهر اذار سنة ١٩١٠ وذلك على اثر اجتماع جرى في مدينة بوتسدام الالمانية بين الامبراطورين الالماني والروسي وحصول التفاهم بينهما وبتوقيع ذلك الاتفاق تخلصت المانيا من منافسة روسيا لها في الامبراطورية العثمانية ، واعقب ذلك حصول تفاهم بين بريطانيا وفرنسا في كانون الاول ١٩١٢ بشأن سوريا حيث اعترفت بريطانيا بالنفوذ الفرنسي في سوريا ، وكان ذلك الاتفاق تمهيدا لمعاهدة سايكس بيكو التي عقدت بين الدولتين اثناء الحرب الاولى لاقتسام البلاد العربية فيما بينهما

لمشروع سكة حديد بغداد ، وذلك عن طريق تدبير فرنسي الماني ، اعترف بوجود مركز ممتاز لفرنسا في سوريا وازالة اسباب الاحتكاك او الشكوك الاخرى فيما بينهما

وقبل عقد هذا الاتفاق جرت محادثات تركية بريطانية اخرى خلال سنتي ١٩١١ و ١٩١٢ تناولت موضوع مد سكة حديد عبر العراق ، وفي شهر ايار ١٩١٣ تمت الموافقة مؤخرا على الشروط ولو انه لم يوقع عليها في الواقع لقد كانت تلك الشروط تعترف – بالاضافة الى سكة الحديد – بوضع شبه مستقل للكويت داخل الامبراطورية العثمانية ، ومنح بريطانيا مركزا خاصا في الخليج العربي

تم الاتفاق على ان تكون نهاية سكة حديد بغداد في مدينة البصرة ذاتها ، الا اذا وافقت بريطانيا على ايصالها الى سواحل الخليج العربي وان يضاف الى مجلس ادارة الشركة التي تقوم ببناء السكة اثنان من المدراء البريطانيين ، وان يضمن مركز بريطانيا في ميدان الملاحة النهرية ، وان يسمح – مقابل ذلك – برفع معدل الرسوم الكمركية التركية الى حد خمس عشرة في المائة

ولغرض توطيد كل هذه النتائج ، بودر في اليوم الخامس عشر من شهر حزيران ١٩١٤ بتوقيع اتفاق الماني بريطاني من قبل كل من السر ادورد غراي ، والمسيو لخفاوسكي ولقد كان من المقرر ، لو لم تقع الحرب العالمية الاولى ، ان يتم التوقيع على هذا الاتفاق في شهر اب من تلك السنة كان ذلك الاتفاق يضمن توقف المعارضة البريطانية لمشروع سكة حديد بغداد ، بما في ذلك انتهاؤها بمدينة البصرة ، وتطبيق سياسة الباب المفتوح في العراق ، مع الاعتراف بالمصالح البريطانية في نطاق الري ، ومن ثم تأكيد الاتفاق التركي البريطاني الموقع عليه في ايار ١٩١١

وبالنسبة الى القسم الجنوبي من بلاد فارس [٥] فقد قبلت المانيا بان يكون هذا القسم منطقة نفوذ بريطانية لاستثمار النفط فيها ولكسب التأييد لذلك لن تقوم اية معارضة لمد خط حديدي من الكوت الى مندلي ومع ذلك فان هذه الشروط التي ارتفعت ضدها اصوات كثيرة بين الوطنيين الاتراك ، قد عرضت المطامح لاكمال سكة حديد بغداد ، التي ظلت موضوع امال ومخاوف كثيرة طيلة عشرين سنة

في شهر اب سنة ١٩١١ ظهر في بغداد مايسنر باشا [٦] ذلك العالم الالماني المختص بالشرقيات

---

(٥) يقصد به اقليم الاحواز العراقي العربي الاصيل والذي ظهر النفط فيه سنة ١٩٠١م على اثر التنقيب الذي قامت به شركة دارسي صاحبة الامتياز من شاه فارس في ذلك الوقت (راجع كتابنا معركة النفط في ايران سنة ١٩٥١).

[illegible] MEISSNER من علماء الاثار الالمان الذين عملوا في وقت مبكر في العراق لكنه مالبث ان تحول الى اعمال التنقيب عن المعادن [illegible] الاخص النفط حيث اجرى بعض التنقيبات عنه في القيارة وفي مندلي وقد وضع الالمان حجر الاساس لسكة [illegible] الخط في احتفال جرى يوم السبت السابع والعشرين من تموز ١٩١٢ وسار اول قطار بين بغداد [illegible] الاول [illegible] حزيران ١٩١٤ ثم وقف الخط عند سامراء لما اندلعت الحرب .

والرجل اللامع المتوثب النشاط والمجامل ، لكي يفتح في بيت «كاظم باشا» ذلك البيت الذي اصبح بعد عشر سنوات من ذلك التأريخ مقر البعثة البريطانية العليا ومن ثم دار السفارة البريطانية

تم اختيار محطة السكة المقبلة على الضفة اليمنى من نهر دجلة ، وشرع بالمرحلة الأولى من القسم الاول المقترح من الخط والممتد من بغداد الى سامراء بحضور الوالي نفسه في شهر تموز ١٩١٢ (٧)

تم التغلب على المعوقات والمصاعب المتعلقة بالعمل ، والنقل بالنهر ، وتوفير القوارب والبارجات نوعا ما وكما ذكر «لورمر» في كتابه «استحال سواد رأس مايسنر الى بياض» خلال ثلاث سنوات من الكفاح غير انه تم انشاء واحدا واربعين ميلا من الخط الى سميكة في ايار ١٩١٤ في حين كملت الثمانون ميلا الى سامراء بعد اعلان الحرب بوقت قصير.

* * *

يرتبط تأريخ استعمال الملاحة التجارية في الانهار ، خلال هذه الفترة ، ارتباطا وثيقا بتاريخ انشاء سكك الحديد لقد اثارت احدى الفقرات التي وردت في اتفاق سكة حديد بغداد ، مخاوف كل من شركة لنج للملاحة في نهري الفرات ودجلة ، والادارة العثمانية في عمان ، وذلك بالتهديد الذي ينطوي على المنافسة المفضلة غير ان تلك المنافسة لم تبرز الى حيز التنفيذ

وفي سنة ١٩٠٤ تسلمت الادارة السنية ، مقابل تعويض يبعث على السخرية ، من ادارة عمان العثمانية ، كل الاسطول والتجهيزات التي كانت لديها ، والتي اشتملت على اربع بواخر للركاب هي «بغدادي» ، و «فرات» و «رصافة» و «الموصل» بالاضافة الى عدد آخر من سفن اصغر حجما وفي هذا الوقت اقدمت ادارة الملاحة الحميدية ، والتي كانت تعرف بهذا الاسم ، على تشغيل باخرتين جديدتين وفخمتين نسبيا ، تتحركان بالرفاسات تم بناؤهما في اسكوتلاند ، هي «حميدية» و «برهانية» اللتان كانت ادارة عمان العثمانية قد امرت ببنائهما قبل سنوات ، اضافة الى اربع بارجات جديدة لقد عملت هاتان الباخرتان خلال حياتهما التي استمرت خمس سنوات ، بكفاءة اوسع من الكفاءة التي سبقتها وقد وصفهما احد الزوار الانكليز فعلا في سنة ١٩٠٨ فقال عنهما بانها «تمخران المياه بشكل حسن يثير الدهشة» واكد بانهما سوف تحلان محل سفن بيت لنج ، الا اذا حلت سكة حديد بغداد محل السفن التابعة لكلتا الشركتين

---

(٧) جرى الاحتفال بوضع الحجر الاساسي لبناء سكة حديد بغداد بحضور والي بغداد جمال السفاح صباح يوم السبت ٢٧ تموز ١٩١٢ وحضر الاحتفال كافة رجال الحكومة العثمانية من عسكريين وملكيين وقناصل الدول ، وكان الاحتفال عظيما ماشاهدت بغداد مثله (عبد الكريم العلاف : بغداد القديمة ص ١٨٨ طبعة ١٩٦٠).

وفي الوقت ذاته اخدت شركة لنج تتلهف بصفة متواصلة للحصول على حريه اوسع من التطور الذي منعت من تحقيقه بصفة متماسكة ولو ان باخرة ثالثة من بواخرها قد سمح لها بالابحار بصفة منتظمة بعد سنة ١٩٠٧

كانت صعوبات الملاحة في مياه دجلة المنخفضة ، والاخلال بالامن الذي كانت تقوم به العشائر الساكنة في اعالي «العمارة» واسافلها ، قد ادت الى تعطيل كل وسائل الملاحة ، واشغلت مديري شركة لنج والهتها وهما السيدان «باري» ، و «تود» فلقد استملكت شركة لنج في سنة ١٩٠٨ السفينة «جلنار» وضمتها الى اسطولها ، في الوقت الذي استمرت فيه سفن شركة لنج الاخرى التي نالت التكريم قبلا ، وهي «بلس لنج» و «خليفة» و «مجيدية» تمارس خدماتها ، تحت امرة ضباط محاربين اشداء ، وملاحين متطوعين[٨] كذلك استمرت المراكب الحرة التي تعمل في النهر ويمتلكها اثنان من التجار ورئيس اسرة الخضيري ، تساهم في حركة النقل النهري ، في الوقت الذي لم تستطع فيه المشاريع الاخرى المنافسة ان تواصل عملها ومنها الشركة اليونانية الانكليزية المشتركة التي تألفت في سنة ١٩٠٥

ادى قيام الثورة التركية الى تحويل بواخر الادارة الحميدية من الخزينة الخاصة الى منظمة تتبع الحكومة المركزية عرفت باسم «الادارة النهرية العثمانية» ولكن الخدمة اصابها التدهور ، على الرغم من وجود وحدات جديدة ومهمة تم الحصول عليها في سنة ١٩١٢ وتمثلت في الباخرتين «بغداد و البصرة»

بدأت بعد سنة ١٩٠٩ مفاوضات ملحة للمشاركة بين شركة لنج والادارة النهرية العثمانية ، لكن هذه المفاوضات تأخرت طويلا وذلك بسبب الاحتجاجات المحلية المعادية بصفة قوية وفي اسطنبول ايضا ، ضد مثل هذا النموذج من السيطرة الاجنبية ، وظلت هذه المفاوضات غير كاملة عند اندلاع الحرب ، ولقد كان هذا الموضوع في الواقع من المواضيع التي شملها الاتفاق الانكليزي التركي في سنة ١٩١٣ والذي لم تتم المصادقة عليه فقد اشترط هذا الاتفاق ، بالنسبة لمصلحة البواخر ، بان لايتم تحويل الانهار الصالحة للملاحة عن مجاريها الحالية ، وان تعطى حقوق الملاحة لمدة ستين سنة الى شركة الملاحة النهرية العثمانية التي سيتم تشكيلها على اساس المشاركة المتساوية بين المصالح التركية والانكليزية

ولقد سمح لباخرة رابعة (ولكن تحت العلم التركي) بالانضمام الى شركة الفرات التي يمتلكها بيت لنج ولكن في الوقت الذي كان فيه هذا الترتيب مقبولا من لدن شركة سكة حديد بغداد ، التي ضمنت لشركة الملاحة الجديدة اعلى نسبة من الحمولة ، كان الضرر الذي يمس مصالح شركة بيت لنج واضحا كل الوضوح ولقد تمت مجابهة هذا الترتيب بدوره ، باتفاق اخر تم

---

(٨) د كرها المؤلف باسم TALL KAYFI وهم الرجال الذين يتطوعون للقيام ببعض الاعمال لقاء اجور او من غير اجور.

التوصل اليه في اذار ١٩١٤ ، وهو يتضمن ادخال مصالح بيت لنج ذاتها في مصالح شركة الملاحة العثمانية ، وقد تقرر ان تنقل حقوق شركة سكة حديد بغداد بشأن بناء ميناء في البصرة ، الى شركة الميناء العثمانية ، وتشارك فيها مصالح بيت لنج ، واللورد انتشكيب ، وكذلك المصالح الهندية والبريطانية ، وشركة سكة حديد بغداد ذاتها على ان الحوادث العالمية ، على اية حالة ، قد حالت دون اخراج اي من هذه الترتيبات الى حيز التنفيذ فقبل انتهاء سنة ١٩١٤ كان الاهتمام التركي الالماني بالملاحة التجارية في نهر دجلة قد خمد الى الابد

وفي الوقت ذاته ادت المهمة المباشرة لنقل مواد سكة حديد بغداد من البصرة الى بغداد ، الى تشكيل شركة لهذا الغرض في سنة ١٩١٢ هي «شركة النقليات النهرية في الشرق» والتي شاركت فيها كل من شركة لنج ، والمصرف الالماني على حد المساواة ولقد حصلت هذه الشركة على باخرة صغيرة ملائمة لتحقيق اغراضها ، كانت تسيطر عليها محليا ادارة دجلة والفرات

* * *

وفي ميدان الري الذي يحظى بكل الاهمية ، شهد القرن الجديد ، تطورات واسعة ومشجعة فلقد شهدت سنة ١٩٠٠ والسنوات التي اعقبتها ، فعلا ذات الشرور والمفاسد التي كانت تتفاقم وتتعاظم من دون اي تصد لها من امثال الفيضانات الشتوية المدمرة ، وعدم كفاية مياه الري في الفصل الذي تشتد فيه الحاجة اليها ، ونقص الرقابة ، ونقص عمليات الكري والبزل وكان وجود نفس الزراع غير المدربين وغير الملمين بامور الزراعة ، والذين كانت تعوزهم المساعدة ، كما كانت ذات الطرق القديمة البالية ، والمشاريع المبهمة الفاشلة التي كانت تخطط لها الاوساط العليا ، كل هذه الامور قد واصلت مسيرتها في عرقلة توفير العلاج العملي لذلك

ولقد اخذت الاوضاع في اواسط الفرات تميل من سيء الى اسوأ فقد تم التخلي عن الاراضي الزراعية ، وجفت القنوات ، وشرعت العشائر تكافح في سبيل وجودها ، وما لبثت سدة الهندية ان تداعت جزئيا مرة اخرى في سنة ١٩٠٣ ثم اخذت تتدهور تدهورا سريعا واتخذ النهر الان مجراه في فرع الهندية حتى بلغ تسعة اعشاره ، فخلف وراءه الدمار والخراب ، في مناطق الحلة ، والديوانية والدغارة

اقدمت الحكومة على تنظيم اعمال الاصلاح ، ولكن كانت تنقص هذه الاعمال ، الاموال او القدرة التامة وهكذا برهنت الجهود الواسعة التي بذلت في اوائل سنة ١٩٠٩ تحت اشراف «السيد كوغنين» على عدم جدواها

على ان النجدة لذلك كانت في متناول اليد ذلك ان مهندس الري الحاذق في مصر ، السر وليم ولكوكس كان يقوم بدراسة مشاكل السيطرة على مياه العراق ابتداء من سنة ١٩٠٢ وما

بعدها واستطاع من طريق السفير البريطاني ان يقدم الى حكومة استنبول مقترحات في هذا الشأن واخيراً عين ولكوكس في سنة ١٩٠٧ مستشاراً لشؤون الري في العراق ، حيث وصل الى بغداد في كانون الاول من تلك السنة وشرع يتجول ويدرس بطاقة لاحدود لها وبجهد وتصميم في ذات الوقت الذي راحت فيه مؤسسة مسح الري في بلاد الرافدين توالي اعمالها وفي سنة ١٩١٠ استطاع ولكوكس ان يحل مشاكل الري.

من المشروعات التي وردت في تقاريره ، والتي بقي معظمها يحتل الميدان طيلة اربعين سنة فيما بعد ذلك التأريخ ، برزت الضرورة الملحة الى المبادرة باعمال مباشرة على نطاق اوسع فلكي يحول دون حدوث الفيضان ، طلب ولكوكس تهيئة مسارب منتظمة لتصريف مياه الفيضانات ، في نقاط رئيسة ، واقامة سدود قوية ، وسد الثغرات الموجودة. ذلك ان تصريف مياه الفرات مثلا سوف يكون عند مدينة الرمادي او قريباً منها كما ينصب في بحيرة «الحبانية» وفي منخفض «ابو دبس» في حين يبدأ تصريف فيضان دجلة من منطقة سامراء عبر اميال من ارض مرتفعة الى منخفض «الثرثار» ، الا اذا اثبتت كلفة مثل هذا المشروع الواسع بانها غير ممكنة التحقيق

ولغرض رفع مستويات المياه في الفصل الذي تهبط فيه ، وتوفير تجهيزات مائية يمكن بها ارواء القنوات التي تجف ، لابد من اقامة سد على مقربة من بلدة «بلد» فوق بغداد ، وانشاء سد اخر في «الكوت» وذلك لغرض اعادة ارواء اراضي شط الغراف (شط الحي) وكان لابد من استعادة قناة النهروان القديمة باحدى الطرق التي لامعدى عنها وان تصب مياه نهر ديالى ، وحتى بعض مياه نهر دجلة ، في هذه القناة ، وان تستصلح اهوار الفرات الادنى ومستنقعاته ، وذلك عن طريق اعادة القنوات الرئيسة هناك وتهيئة تصريف مياه الفيضان ذلك لان انشاء سد في «كرمة علي» من شأنه ان يسيطر على الري في منطقة البصرة

ولابد من توفير مبازل على نطاق واسع في انحاء الريف ، وذلك باستغلال المنخفضات الموجودة فيه ، ويمكن حماية الملاحة في نهر دجلة بالسيطرة على ثغرات الفيضان في منطقة العمارة ، من امثال قنوات «البتيرة» و «الكحلاء» «المجر الكبير» «والمشرح»

لم يكن النقد الموجه الى فشل هذا المشروع الخطير الذي يكلف نفقات كثيرة يحتاج على اي مستوى ، الى اسس للادعاء بنقص الاموال وانعدام الامن العشائري ، ونقص القوى البشرية العاملة وسوء الادارة التركية الذي استشرى داؤه ومع كل ذلك فقد وافقت الحكومة التركية على المشروع بكل حزم وفضلت بأن يشرع ببناء سدة الهندية كخطوة اولى لذلك

شهد السر ولم ولكوكس من سنة ١٩٠٩ الى سنة ١٩١١ الفشل الذي احاق بكل المحاولات الـ[illegible] لترميم السدة التي كانت قائمة على شط [illegible] وسرعان ماأخذ يجرب تذوقه الاول الا معظم في ايجاد حل لكل المشاكل التي كانت تواجهه ، وبعي بذلك الحصول على

الاموال اللازمة من الحكومة التركية ومع ذلك فقد بوشر ببناء السدة الجديدة وتم استدعاء المناقصين للقيام بالاعمال الكاملة ومن ثم منح العقد الى شركة بريطانية هي «شركة جون جاكسون وشركاه»

كان انشاء سدة الهندية التي كانت انذاك وحتى في الوقت الحاضر تعتبر من اعظم الاعمال في العراق ، يجري بسرعة خارقة ، على يد مجموعة من الاتراك والهنود ، والارمن وحوالي ثلاثة الاف وخمسمائة عراقي كانت مشاق العمل قليلة ، وكانت عملية النقل ولاسيما على طرفي نهر الفرات من البصرة ، تمثل اشد الصعاب ، والمعوقات الاخرى التي تفوق الملاحة ولذلك فان الكفاح المتواصل الذي كان يحتاج اليه للحصول على اموال من الخزينة الخاوية في اسطنبول والبخل الذي تميز به الدفتردار في بغداد ، لم يثمر الا بعد ان اصبح التوقف العام للعمل في المشروع ، امراً محتماً

وصلت البوابات الحديدية للسدة في اواخر صيف ١٩١٣ واقيم احتفال حاشد وظافر بافتتاح العمل كله في شهر تشرين الثاني من تلك السنة (٩) والى جانب السدة التي كلف بناؤها اقل من نصف مليون جنيه .كان لابد من تنظيم القنوات التي صممت لدعم انخفاض مستوى النهر ومع ذلك فان السدة قد حققت منافع هائلة مباشرة في انحاء الريف التي كانت تفيد منها

ولقد كان مستطاعا ان تكون مثل هذه المنافع مائة ضعف لو انها اشتملت على صيانة الامن ، وايجاد نظام ملائم للاراضي ، وبعض الامل في استخدام الطرق الحديثة في الزراعة

ومثل اي مكان اخر في العراق فان اكثرية الاعمال الترابية التي شرع بها لتصريف مياه الحبانية كانت قد كملت في المرحلة الاولى من هذا المشروع ، وشرع بحفر قناة الصقلاوية ولكن مالبثت ان تم التخلي عنها كما ان اعمال المسح الاخرى قد وفرت معلومات ذات قيمة واسعة مقبلة ، ولو انه لم تكن هنالك اية مشاريع اخرى كبيرة ، تخص هذه الفترة من الزمن

لقد بوشر بدراسة مشروع لايصال المياه الى «الحويجة» شمال غربي منطقة كركوك ، من نهر الزاب الصغير ، ولكن الدراسة انتهت الى الفشل والفضيحة واكثر اهمية من ذلك ، واعظم تنبوأ بتطور اوسع في المستقبل ، هو تعاظم استعمال المضخات التي تشتغل بالنفط ، ونصبها على ضفاف الانهار لاغراض الري

ولقد ازداد عدد هذه المضخات من مجرد اثنتي عشرة مضخة في سنة ١٩٠٠ الى بضع عشرات منها في سنة ١٩١٤

---

(٩) كان العمل في اقامة سدة الهندية القديمة شرع به في سنة ١٨٨٩ على يد المهندس «شوندرفر» في عهد الوالي مصطفى باشا. وقد جرى الاحتفال بافتتاح السدة الجديدة يوم الجمعة (١٢ محرم ١٣٣٢ هـ تشرين الثاني ١٩١٣) وحضر الاحتفال وكيل الوالي وهو الفريق محمد فاضل باشا والاعيان والامراء وتم فتح الابواب ومن ثم جرى الماء في شط الحلة والقى وكيل الوالي خطابا بالتركية اشاد فيه بالسدة وبالثناء على المهندسين الذين اشادوها ومما ذكره ان هذه السدة لاتكفي لارواء محافظة الحلة الواسعة ووعد بانه سيسعى الى اكمال هذا العمل (عباس العزاوي: العراق بين احتلال ج ٨ ص ٢٤٨).

وفي الوقت ذاته اصبحت وقاية ضفاف الانهار من الفيضانات ، يجري تجديدها كل سنة ، بعد ان كانت هذه الوقاية غير مؤكدة ، ولكثرة النفقات الباهظة التي كانت تنفق عليها ، رغم انها لم تكن فعالة الا بصفة نادرة ، وكانت على الدوام تؤلف عبئاً ثقلا وكانت السدة التي بناها ناظم باشا لحماية بغداد من الغرق قد اخفقت في سنتها الاولى ، ومع ذلك فقد كانت من الاعمال التي لها اهميتها

تميزت السنوات الاخيرة من الحكم التركي للعراق .بظهور تطور صناعي ضئيل فقد حصلت بعض الزيادة في اعمال بناء السفن ، واستعمال مضخات الري ، ومكائن الثلج الصناعي ولاول مرة تطلبت معامل النسيج الصوفي والمشروبات ، توفير التسهيلات اللازمة لتصليح الالات وظهرت اول سيارة في بغداد سنة ١٩٠٨ وكانت قادمة من حلب وفي سنة ١٩١٤ كانت تستعمل في بغداد اقل من عشر سيارات ، وكان من بينها نوع من سيارات النقل التي استخدمت في طريق بعقوبة بالاضافة الى سيارات خاصة كانت تملكها قلة من الافراد المشهورين ولكن الجهود التي بذلت لاستخدام قاطرة لسحب تراmواي الكوفة – النجف قد باءت بالفشل

سوف تأتي الاشارة الى صناعة النفط في بلاد فارس المجاورة ، في مكان اخر من هذا الفصل اما في العراق فعلى الرغم من التوسع الذي حدث في استخراج النفط بصفة بدائية ، واقامة مشاريع لتكرير النفط في القيارة ، وفي امكنة اخرى غيرها ، فانه لم يظهر اي مشروع حديث لحقول النفط ومع ذلك فان وجود احتياطي مهم من النفط في ولايتي بغداد والموصل ، كان موثوقا به بصفة جماعية ولقد اكده الزوار الالمان في سنة ١٩٠٧

ولقد بدأت اول حركة في موضوع النفط بتخصيص ارض مساحتها عشرون مترا مربعا على جانبي امتداد سكة الحديد ، وذلك في الاتفاقين اللذين تم التوصل اليهما في سنتي ١٩٠٢ و ١٩٠٣ لمد سكة حديد الاناضول ولقد عاد السلطان واكد مجددا في كانون الاول ١٩٠٣ الارادات التي اصدرها والتي تعلن بأن الخزينة الخاصة هي المالك الوحيد للنفط الموجود في اراضي العراق

وفي شهر تموز سنة ١٩٠٤ اعطي الخيار من قبل تلك الادارة الى شركة سكة حديد بغداد للبحث عن النفط ، فقامت هذه الشركة بتحويل ذلك الخيار الى المصرف الالماني ، ولكن الموضوع لم يتم تعقبه وبعد تجديد الخيار مرتين ، اعتبره الاتراك لاغيا (وان لم يقع ذلك من قبل المصرف الالماني)

وفي الوقت ذاته ، وبعد ان حصل «دارسي» على امتيازه من شاه فارس ، بعث بممثل عنه الى اسطنبول في ذات السنة وهي ١٩٠١ وبعد ثلاث سنوات من المفاوضات والمواعيد الوزارية بمنح امتياز ، قدم دارسي طلبا ثانياً تقدمت به مؤسسته المؤلفة حديثاً باسم «شركة النفط

التركية   واذ ذاك تحقق له النجاح في هذا المجال في سنة ١٩٠٨ ، ولكن الثورة التركية تدخلت في الامر

ذلك ان الارادات السلطانية قد حولت حقوق النفط التركية الى الخزينة ، وعندئذ اخطر جميع الذين شاركوا في المفاوضات السابقة ، ان يبدأو بها مجددا مرة اخرى   وكان المتفاوضون المتأخرون ، قد ضموا اليهم الان ، مجموعة بريطانية اخرى متشاركة مع «غلبنكيان» ذلك الرجل الارمني التقدمي القدير ، وممثلين عن الاميرال تشستر ، الضابط السابق صاحب المواقف الطويلة في الاتصالات مع تركيا ، والذي اصبح الان مرشحاً للفوز بامتيازات لمد سكك الحديد واستثمار المعادن[١]

لم يلبث الطامعون في استثمار نفط العراق ، وقد اصبح موضوع النفط قضية اساسية وان لم تكن حاسمة ، ان عاودوا الهجوم بعد ان تجمعوا مرة اخرى في سنة ١٩١٠ ، وفي كانون الثاني ١٩١١ الفت جماعة غلبنكيان «شركة الامتيازات الافريقية الشرقية المحدودة» والتي ساهم فيها برؤوس اموال كبيرة كل من «مصرف تركيا الوطني» (وهو بريطاني تم تاسيسه حديثا ، ومصالح شركة شل) والمصرف الالماني ، والمستر غلبنكيان نفسه   وفي اواخر سنة ١٩١٢ غيرت هذه الشركة اسمها الى «شركة النفط التركية T.O.C» وبرأسمال مضاعف، حيث وافق المصرف الالماني على ان يحول الى هذه الشركة الافضليات التي اخذ يطالب بها للبحث عن النفط في قطع الاراضي التي تمر سكة حديد بغداد خلالها

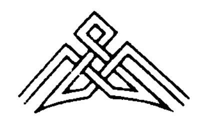
اما مصالح «دارسي» التي اختلطت بشركة النفط الانكليزية الفارسية منذ سنة ١٩٠٩ فقد واصلت ضغطها بغية ترشيحها للمشاركة في شركة النفط التركية ، ولكن لاحقها الفشل مرة اخرى في سنة ١٩١٣   وفي الوقت ذاته وفي اواخر سنة ١٩٠٩ صوتت لجنة البرلمان التركي على منح الحقوق باستغلال المواد المعدنية في الارض المحاذية لسكة الحديد ، والتي تمتد الى مسافة تسعمائة ميل الى الاميرال تشستر ، ومن هنا غدت الحاجة ملحة الى قيام معارضة المانية شديدة ، لاحباط جهود الاميرال تشستر في تحقيق المصادقة على ذلك الامتياز الذي منح له

في سنة ١٩١٣   اصبحت الرغبة في ايجاد مصالحة بين اصحاب الطلبات المتنافسين ، وللمساعدة على الشروع بالعمل ، من الامور الواضحة للجميع   وعلى هذا الاساس اضيف اتفاق الماني انكليزي على مستوى دبلوماسي ، الى الاتفاقات الموقعة بين الشركات   وعلى هذا الاساس اعيد تشكيل شركة النفط التركية مرة اخرى   فقد خصص ربع رأسمالها الى المصرف الالماني ، وربع اخر الى شركة شل ، والنصف الباقي من رأس المال الى شركة النفط الانكليزية الفارسية ، في حين حددت مصالح غلبنكيا فيها بنسبة خمس في المائة ٥٪ من رأس المال

---

(١٠) انظر كتابنا «معركة النفط في العراق ص ١٩٥٢» للاطلاع على مناورات المتنافسين على نفط العراق في ذلك الوقت.

غدا الان مستطاعا تقديم طلب سري الى رئيس الوزراء التركي ، وبدعم من **السفيرين** الانكليزي والالماني وكانت نتيجة ذلك ان وجه رئيس الوزراء سعيد حليم باشا رسالة الى هذين السفيرين مؤرخة في اليوم الثامن والعشرين من شهر حزيران سنة ١٩١٤ وقد قيل في حينه ان وزير المالية التركي كان قد وافق على ان يؤجر لشركة النفط التركية كل احتياطي النفط الذي تم اكتشافه ، او الذي سيتم اكتشافه في ولايتي الموصل وبغداد ، وان وزير المالية «يحتفظ بالحق فيما بعد في ان يحدد حصة الشركة وكذلك الشروط العامة للاتفاق وعلى اساس هذه الرسالة على وجه الدقة بني اساس الطلب الذي تقدمت به شركة النفط التركية في سنة ١٩٢٣ الى الحكومة العراقية للحصول على امتياز للتنقيب يشمل الاقسام الشمالية والوسطى من العراق[١١]



[illegible] التي ساهمت في تكوين شركة النفط التركية ان تتشبث به بعد انتهاء الحرب العالمية الاولى هو [illegible] المالية التركي بان يؤجر لشركة النفط التركية كل احتياطي النفط في ولايتي بغداد والموصل. ولما [illegible] محل الحكم التركي في العراق. ونظراً لضعف هذه الحكومة انذاك وشدة الضغوط الانكليزية [illegible] الانكليز الى جانب العراق في قضية الوصل فلم يكن امام الحكومة العراقية من مناص سوى الموافقة [illegible] النفط التركية بانها حصلت على الامتياز من السلطات التركية ولذلك ابرمت اتفاقية النفط مع [illegible] النفط العراقية قبل ان يصدر قرار عصبة الامم باعتبار ولاية الموصل جزءاً لايتجزأ من ارض العراق.

٥ ـ الجيران والاجانب

ازداد الاهتمام من قبل الاجانب، والمصالح الاجنبية في العراق، خلال هذه الفترة، زيادة سريعة تتجاوز ماكان قد سبقها. ويمكن تفسير ذلك بان ذلك الاهتمام كان نتيجة للنشاط المتعاظم الذي ساهم به العراق في الحركة القومية، وفي القضايا السياسية حتى في اسطنبول، وفي المؤسسات التعليمية من امثال الكلية العشائرية، والجامعة الامريكية في بيروت، وماتبع ذلك من دعم تمثل في سكة الحديد، ومشاريع الري التي خططت واصبحت قيد التنفيذ، فضلا عن الاعتبارات الستراتيجية والانمائية التي كانت تشير اليها تلك المشاريع

لقد ادخل الالمان منذ سنة ١٩٠٠، قطر العراق في منطقة توسعهم في بلدان الشرق. ذلك انهم قد اخذوا زمام القيادة بايديهم في اعمال التنقيب عن الاثار التي استمرت زهاء عشرين سنة، والتي قام بها «كولدوي» في بابل، وكذلك المباشرة بالتنقيب في اي مكان اخر من العراق، مما جعل قناصلهم يدعون بان ذلك النشاط كان ناجما عن اهتمام القيصر بصفة شخصية به. وعلى اساس ذلك الادعاء، انشأ الالمان مدرسة لهم في بغداد، ودعوا الاباء الفرنسيين الكرمليين الى تدريس اللغة الالمانية في تلك المدرسة

كما ان الالمان عينوا لهم قنصلا اعتياديا في بغداد سنة ١٩٠٥، وتعيين نائب له في البصرة، ووضعوا الخطط لاقامة حي يسيطر عليه الالمان في المدينة، تقوم فيه القنصلية، ومحطة سكة الحديد، ودائرة الكمارك والارصفة. ومنذ وقت متقدم اخذت السفن الالمانية تصل الى ميناء البصرة ابتداء من سنة ١٨٩٩، وقد تعاظمت اعمال النقل التي كانت تقوم بها هذه السفن الالمانية وتضاعفت بشكل ثابت. ذلك ان خط مواصلات هامبرغ – امريكا، كان قد بدأ اعمال الابحار المنتظمة منذ سنة ١٩٠٦، واعقب ذلك انطلاق وفرة من المسافرين التجاريين، والوكلاء والمقيمين من الالمان، وعلى الاخص شركة «فانكهاوس WANCK HAUS» في البصرة، وظهور البضائع الالمانية في اسواق بغداد. وهكذا ظهر العراق وكأنه في الواقع قد كرس بان يعرض مرحلة من مراحل التغلغل الالماني الكامل فيه

* * *

كانت المشاريع الروسية في العراق ماتزال تقتصر على مجالات محددة، وغير تجارية. وما ان اخفق الروس في الكويت حتى اتخذوا طريقهم الى احد الموانئ الفارسية املا في الفوز بحقوق لهم هناك. واعداد العدة لمد سكة حديد عبر بلاذ فارس. غير ان الاتفاق الروسي الانكليزي الذي تم التوصل اليه في شهر اب سنة ١٩٠٧ استطاع ان يزيل من تلك المشاريع الروسية، عنصر الخطر على المصالح البريطانية في الخليج العربي

ولم تحاول الزيارات العرضية التي كانت تؤديها البواخر الروسية المنطلقة من ميناء «اودسا» الى البصرة، فتح طرق داخلية جديدة لها الى الاسواق العراقية، ماخلا جلب النفط والاخشاب. ولقد ادهش الضباط البحريون الروس في زياراتهم النادرة لشط العرب، الطائفة الاجنبية هناك. بما كانوا يبدونه من تطبيق ممتاز لانظمة الميناء وخلافاً لذلك وجه القنصل الروسي العام ونائبه في الموصل. اهتمامها بالقسم الشمالي من العراق. حتى وان كان معظم التغلغل الروسي داخل كردستان يتم تنظيمه من منطقة «وان» ومن مدينة «اورميا» التي كان الروس يسيطرون عليها.

وابتداء من سنة ١٩١١ اخذ اغوات الاكراد على الحدود يتطلعون الى مساندة روسيا لهم. ذلك ان السادة الذين كانوا يحكمون في «نهري» والشيخ عبد السلام زعيم بارزان، وزعماء «الجاف» وقساوسة الطائفة الاثورية ورؤساء كل هؤلاء، لم يكونوا الوحيدين الذين كانوا يعملون على توطيد اتصالاتهم مع الروس. ومع كل ذلك فقد ظهر هذا التوسع الروسي الزاحف بانه لايستهدف في الواقع اهدافا محددة ولامباشرة

كان اهتمام الفرنسيين بالعراق منذ القدم، اهتماما ثقافياً، ذلك ان قنصلهم في بغداد راح يثير. بمنتهى الحماسة، الخصومة والعداء اللذين يبديهما الكاثوليك ضد النساطرة في الشمال، ويدعم طوائف الاليانس، والدومنيكان، والكرمليين الذين شرعوا يوسعون بصفة بارزة مؤسساتهم ومنظماتهم الخيرية في الفترة مابين ١٩٠٠ و ١٩١٤، والذين كانوا يستقبلون في الحديقة الفرنسية. او النادي الفرنسي في بغداد، مشاهير المنقبين عن الاثار الذين بدأوا اعمال التنقيب من سنة ١٩٠٣ ومابعدها

وكانت فرنسا بصفتها التجارية ممثلة في العراق بالمصرف العثماني الذي سيطر عليه الفرنسيون ولكن لفترة قصيرة. ولم ينتج اي شيء من العرض الذي تقدم به الفرنسيون للتعاقد مع الحكومة التركيه حول نقل البريد من بغداد الى سوريا، او توصيل «سكة حديد المشرق» الى نهر الفرات

اما اهتمام الولايات المتحدة الامريكية في سنة ١٩١٤، فانه لم يتجاوز المشاريع الخاصة

بارسال بعثات التبشير البروتستنية، وتطوير المدارس، وتصدير التمور، وعرق السوس الى امريكا، في الوقت الذي اخذت فيه بريطانيا تزيد من اهتمامها وتوطيد اقدامها

ولقد سبق لنا ان وصفنا اهتمام بريطانيا في ميادين الري، والنفط، والتجارة، وتسيير السفن في الانهار. وقد انصب التأكيد بصفة تدعو الى الغيرة، على الاهمية الستراتيجية لجنوبي العراق، والخليج العربي، عندما افسح التهديد الروسي، الطريق امام الالمان، حيث تم بحث مثل هذه التعقيدات على مستويات رفيعة في كل من لندن ودهلي. ذلك ان الزيارات التي قام بها اللورد كرزن لموانئ الخليج العربي في سنة ١٩٠٣ والتصريحات البريطانية التي افضى بها اللورد لانسدن، في ذات السنة، وتصميمه المحافظة على كل الامتيازات التي يتمتع بها المقيم البريطاني في بغداد. كل هذه الامور قد اظهرت مدى القيمة المركزة على ارتباط بريطانيا بالعراق

كانت السفن البريطانية ماتزال تمخر مياه الخليج العربي، وتبعث الحياة والنشاط في المجتمع البريطاني في البصرة، والذي زاد عدد افراده الى الثلاثة اضعاف مما كان عليه قبل تلك الفترة، وذلك بالزيارات التي كانت تقوم بها تلك السفن البريطانية للعشار. فالقنصلية البريطانية التي كمل بناؤها في سنة ١٩٠٣، وكذلك المقيمية البريطانية الجديدة في بغداد سنة ١٩٠٥، كانتا تعتبران من الاعمال التي لها تأثيرها بالنسبة الى المستويات المحلية. وفي سنة ١٩٠٦ اضيف معاون تجاري الى موظفي المقيم البريطاني، كما تم تعيين نائب قنصل في الموصل سنة ١٩٠٨ بعد فترة استمرت مدة عشرين سنة

وكان من بين الزوار البريطانيين للعراق، عشرات من ضباط الجيش الهندي ذوي الاهتمام بالشؤون العربية، من امثال لجمن، وهوبرت يونغ، وترنجارد فول، وهورروثفن، واخرون غيرهم، بالاضافة الى عدد من الكتاب المميزين كان من بينهم عدد من الرحالين الباحثين الموهوبين من امثال المس غرترودبل

وكان من بين البريطانيين المقيمين الخاصين شخصيات بارزة ومهمة من امثال الدكتور ويغرام رئيس البعثة الاسقفية التبشيرية، وارثر تود، من شركة بيت لنج، والنقيب «كولي» من شركة البواخر النهرية. ولكن حتى وان بقيت العلاقات الشخصية مع الباشوات ودية، فان سياسة الملاحظات المزعجة التي تعكس معاداة الاجانب المنطوية على الغيرة والريبة، كان يجري توجيهها في بعض الاحيان ضد المصالح البريطانية. ذلك ان المصادرة من دون تعويض، والرفض المتعمد لحق استعمال القوانين التجارية، والطلبات التي لااساس لها والقاضية بتسجيل الاجور، والاذن للاطباء البريطانيين بممارسة اعمالهم، والمعاملة المهينة للمستخدمين البريطانيين الذين كانوا يجندون للوظائف بين الفينة والفينة، كل هذه الامور كانت من الشواهد على وجود حرب متواصلة من الحقد الدفين

اما رفض المقيمين القناصل البريطانيين، الاصغاء الى شيوخ العشائر او الاشخاص البارزين

الذين كانوا يطلبون الحماية البريطانية منهم، واظهارهم العطف على الحكام العابثين، فان ذلك لم يوفر سوى الشيء القليل للتغلب على الشك الحاصل، وهو ان للبريطانيين تصاميم مخلصة في ولايات العراق. ومع كل ذلك فقد كانت الحياة في العراق بهيجة بما فيه الكفاية بالنسبة الى المقيمين الانكليز، حيث قامت صداقات حميمة وكثيرة بينهم وبين العراقيين.

ولقد قدم المقيمون البريطانيون وقناصلهم، خلال تلك الفترة، مستوى رفيعا من الاخلاص والخدمة التي لاتباري. ففي البصرة بقي «راتسالاف» يعمل قنصلا فيها خلال الفترة من ١٨٩٨ الى ١٩٠٣ وعمل «كرو» في نفس المنصب من سنة ١٩٠٣ الى سنة ١٩١٤ وكان الاثنان من الاصدقاء الحميمين للولاة المتعاقبين. وفي بغداد اشغل العقيد «نيومارتش» منصب المقيم والقنصل العام من سنة ١٩٠٢ الى سنة ١٩٠٦، وكل من العقيد «رمزي» و «لوريمر» من سنة ١٩٠٦ الى ١٩٠٩، ومن ١٩٠٩ الى ١٩١٣ بالتعاقب

ولم يكن هؤلاء الممثلون البريطانيون وحدهم حسب، من موظفي الخدمة العامة المشهورين، ومن الاصدقاء الجيدين للشعب العراقي. ولذلك فقد كانت وفاة السيد «لوريمر» مؤلف كتاب «دليل الخليج العربي» في سنة ١٩١٤ تمثل خسارة فادحة

ولم تتقلص المصالح البريطانية الهندية. فقد استمرت دوائر البريد الموجودة عبر الممالك، تثير الاشمئزاز لدى الموظفين الاتراك وحنقهم، وظل وكلاء الزوار الهنود في سامراء وفي الكاظمية، يخدمون رفاقهم الزائرين من ابناء بلدهم، على الرغم من التدخل الرسمي، وشرعت المؤسسات التجارية تعمل على تطوير فعالياتها. وكانت الزيارات التي يقوم بها الاغنياء والعظماء من المسلمين للمدن المقدسة، من الحوادث المشتهرة لدى المجتمعات الهندية التي كانت موجودة في معظم المدن الكبرى في اواسط العراق وجنوبه. غير ان هذه الجماعات، لم يكن لها – ماخلا الاختلاط الجزئي بالسكان – سوى تنظيم اجتماعي ضئيل، وقلة من الافراد البارزين فيها

*

نعود الان الى جيران العراق من العرب والفرس لنقول بان الشيخ مبارك كان في الكويت، يحتفظ بمركز ثلاثي دقيق فهو قائمقام تركي من الناحية الاسمية، وعميل بريطاني مقيد بمعاهدة معها، وحاكم مستقل بصفة فعالة. ولقد عاش مبارك فترة الزيارة المعقدة التي قامت بها لجنة سكك الحديد الالمانية الى الكويت، ورفض ان يقدم لها كل التسهيلات. كذلك زارت السفن الحربية الفرنسية والروسية بلده، بينما كانت البواخر الحربية البريطانية يتم استدعاؤها للقدوم الى هناك بصفة متواصلة

لم تلق المحاولات التي بذلها الشيخ مبارك، لخدمة ضيفه النجدي نافد الصبر، عبد الرحمن بن سعود، واعادته الى وطنه، التشجيع من لدن الحكومة البريطانية كما منعت تلك المحاولات من قبل والي البصرة[1] الذي جرد سعدون باشا شيخ المنتفق من قواته. غير ان ابن سعود ثابر محاولاته الى ان باء بخسران كبير في اذار سنة ١٩٠١ [2] ومن ثم عاش فترة السخط التركي ضده، بفضل الاتفاق الذي تم التوصل اليه بين اسطنبول ولندن، على ان تتمتع الكويت بالامر الواقع [3]

وفي تشرين الاول اخذت قوات ابن الرشيد تهدد الكويت بالهجوم عليها ولكن الهجوم لم يكن متشددا[4] وفي كانون الاول من تلك السنة ضغط الاتراك مجددا، ولكن من دون طائل، لاجبار مبارك على التخلي عن مطالبه في الحصول على مركز خاص له، حيث قامت القوات التركية باحتلال نقاط عند حدود الكويت، وتمت الاغارة على قطعان ماشية الشيخ مبارك، ونهبت داره في البصرة، وصودرت بساتينه في شط العرب

واخيرا في شهر ايلول سنة ١٩٠٢ وقع هجوم على مدينة الكويت نظمه اعداء الشيخ مبارك بمساندة من الاتراك، ولم يتوقف ذلك الهجوم الا بتدخل من البارجة الحربية البريطانية «لوبونغ» ولم تجر بعد ذلك اية محاولة اخرى لطرد الشيخ مبارك او افساد ارتباطاته مع البريطانيين[5]

وفي سنة ١٩٠٤ حرر الاتراك ممتلكات مبارك في البصرة وفي الفاو وفقاً لوثيقة تملك صريحة، وعين وكيل بريطاني في الكويت في تلك السنة ذاتها. اما بالنسبة الى اسطنبول ووالي البصرة فقد بقيا يعربان عن مواقف اكثر صحة حتى سنة ١٩١٤ حيث تم الاعتراف باستقلال شيخ الكويت تبعا لاتفاق تركي بريطاني عقد في سنة ١٩١٣

*

---

(١) كان والي البصرة انذاك هو «القمندان مصطفى نوري باشا»

(٢) ذاق عبد الرحمن بن سعود هزيمة منكرة على يد ابن الرشيد في معركة «الصريف» والتي شاركت فيها قوات الشيخ مبارك الى جانب قوات ال سعود وقد توجهت القوات الكويتية والسعودية المشتركة لمقاتلة ابن الرشيد ودارت بين الطرفين معركة حامية استمرت خمس ساعات كتب النصر فيها لقوات ابن الرشيد فاضطر الشيخ مبارك ان يعود الى الكويت، في حين الح عبد العزيز السعود على والده عبد الرحمن بان يواصلا الهجوم على الرياض واستوليا عليها ولكنهما خرجا منها بعد ان وصلت اليهم انباء اندحار الشيخ مبارك

(٣) تم التوصل الى هذا الاتفاق في اليوم السادس من ايلول سنة ١٩٠١

(٤) عندما علم ابن الرشيد بالتدبير الذي اعده الشيخ مبارك لاعادة آل سعود الى حكم الرياض وسواها، سارع بالهجوم على اطراف الكويت والحق بعض الاضرار في منطقة «دار عريب» كما قدم ابن الرشيد شكاية الى الدولة العثمانية ضد تصرفات عبد العزيز السعود المتسمة باثارة الفتن والقلاقل. ولكن الحكومة العثمانية لم تتخذ اي اجراء ضد ابن السعود سوى منعها اياه من الاكتيال الحسا والقطيف وقطع الراتب الذي خصصته لوالده عبد الرحمن

(٥) وذلك بعد ربط الانكليز شيخ الكويت بالعديد من الاتفاقات والمعاهدات.

لم يحل اندحار قوات ابن السعود في اذار ١٩٠١، دون استمرار ذلك الامير المنفي لتلك الاسرة، في وضع الخطط لاستعادة حكمه. فقد كانت الهجمة الشهيرة التي قام بها ولده عبد العزيز بن سعود من الكويت على الرياض في كانون الثاني في سنة ١٩٠٢، ودخوله المدينة ليلا، وطرده جميع حاميات بن الرشيد من كل مناطق «الخرج» و «الحريق»، من الحوادث التي لاتخص تأريخ العراق، غير ان تلك الحوادث قد ادت بشكل ثابت الى اعادة توطيد حكم بيت ال سعود في نجد، ذلك الحكم الذي توسع بعمليات اخرى وجهت ضد امارة حائل من سنة ١٩٠٢ الى سنة ١٩٠٤، وفي تلك العمليات كان الشاب عبد العزيز يمثل والده بصفة متزايدة، باعتباره الرئيس الفعال للدولة. ومع ذلك فان الالتماسات التي قدمها ابن الرشيد الى الاتراك للحصول على مساندة منهم لمجابهة ذلك العدوان، لم تكن من الامور التي يمكن تجاهلها دوما

في اوائل سنة ١٩٠٤ طلب الى قيادة الجيش التركي السادس، بان تقوم من العراق بغزو الجزيرة العربية، وعلى هذا كانت القوة التي تحركت او بدأت زحفها نحو الجنوب الغربي من مدينة «السماوة» في شهر ايار من تلك السنة، انما كانت تهدف انقاذ «حائل» من الهجوم الوهابي. كانت قوات ابن السعود قد اندحرت على يد قوات خصمه، لكن ابن الرشيد مع ذلك رفض ان يسمح للاتراك بالدخول الى مدينة «حائل» اما ابن السعود المندحر، الذي قدم الاعذار المقبولة الى اسطنبول، والتقى مع والي البصرة[٦] فانه قد عين قائمقاما لنجد التي كانت تابعة لابن الرشيد

وفي اواخر سنة ١٩٠٤، وجهت حملة ثانية من العراق، الى نجد، سلم زمام قيادتها الى احمد فيضي باشا الرجل المسن المستهتر. ومع ان تلك الحملة كانت سيئة التنظيم، وغدت ضعيفة لكثرة من فر من رجالها، الا انها وصلت الى مدينة «البريدة» من دون ان تلقى اية مقاومة. واذ ذاك نظم عرض عسكري، ونطق المصلون رسميا باسم الخليفة السلطان، وقد بلغت المهزلة النهائية للادارة التركية ذروتها، عندما شرع بتقسيم واحات اواسط الجزيرة العربية الى اقضية ونواحي تابعة للامبراطورية العثمانية

مكثت القوات التركية التي تحركت من العراق، والتي لم تكن فعالة ابدا، وقد فقدت اعدادا كثيرة من افرادها نتيجة الهرب اثناء مسيرتها الى الكويت والبصرة، نقول مكثت في اواسط الجزيرة العربية حتى الاسابيع الاخيرة من سنة ١٩٠٦ عندما تم انسحابها من هناك. ولقد ظهر فيما بعد، التوصل الى اتفاق مقبول على العيش بسلام في اواسط الجزيرة العربية وفي شرقيها. غير ان ضربة جديدة لاتمام تقويض الامال طويلة الامد التي كان الاتراك يتطلعون اليها لافتتاح الجزيرة كلها، كانت تنتظرهم هناك. في شهر ايار سنة ١٩١٣، كانت القوات التي يقودها عبد العزيز بن سعود، قد احتلت محافظة الاحساء، وقوبلت بالترحاب من افراد القبائل وسكان

---

(٦) كان والي البصره انذاك هو الفريق مخلص باشا

الواحة على حد سواء الامر الذي ارغم الموظفين المدنيين الاتراك على الانسحاب الى البصرة (٧) واذ ذاك اعلن ابن السعود انه يحتفظ بالاقليم من السلطان ولحسابه كمواطن مخلص، ولكن الاحتلال التركي لم يعد يمكن ان يكون مقبولا مرة اخرى

لقد فقدت البصرة تلك المحافظة، لكن الضربة التي وجهت الى اعتبار تركيا، كانت اشد وقعا، ذلك لان الاحساء لم تتأثر بالاتراك قط، كما ان مشيخة «قطر» التي تم التغاضي عنها، او اعتبرت غير ذات اهمية، ظلت تحتفظ بحامية تركية تعسة، الى ان ازاحتها الحرب. وفي سنة ١٩١٤ تقبل ابن السعود من الاتراك لقب «محافظ نجد والحسا»

* * *

وعن العلاقات العراقية الفارسية نقول بانه كانت توجد على الدوام، دلائل على وجود تجارة المرور بينهما عن طريق كرمنشاه، وقدوم الزوار الفرس الى المراقد المقدسة في النجف وكربلاء والكاظمية وسامراء، اضافة الى النفوذ الذي كان يثير السخط والتذمر الذي كان يتمتع به المجتهدون الفرس. ولقد كان الممثلون الدبلوماسيون الفرس منتشرين في كل مكان من العراق، ويرأسهم قنصل عام في بغداد. وماخلا ذلك، وعمليات النقل الاعتيادية عبر الحدود كان يوجد اتصال جم النشاط، يندر ان يكون وديا، في نقاط اربع على الحدود الممتدة الى مسافات طويلة، ونعني بهذه النقاط، شط العرب، وطريق بشتوكوه، وكرمنشاه، واقليم كردستان

ففي هذه النقاط الاربع كان ينعكس التعمق المأساوي للفساد وللانحلال الفارسيين، وبدايات الجهود التي شرع ببذلها لاصلاحها بعد سنة ١٩٠٥ ففي سنة ١٩٠٧ تم انتزاع وعد من الشاه مظفر الدين، باقامة مجلس نيابي. ولكن خلفه المستبد، محمد علي، بقي حتى تنازله عن العرش في سنة ١٩٠٩، يتجاهل الشعور الشعبي، وحتى مشاريعه الخاصة التي اقسم على تنفيذها. ثم اعقبت ذلك عشرون شهرا من الاضطرابات والتدخل الروسي، وتلت ذلك جهود مضنية بذلها محمد علي للعودة الى الحكم مرة اخرى، وانتزاعه من ولده الطفل، احمد شاه، الذي خلفه على العرش

والى كل المساوىء التي انطوى عليها سوء الحكم في الداخل، والارهاب الذي كان يعم

---

(٧) نشر ابن السعود بيانا برر به استيلاءه على الاحساء فقال ان الدولة العليا، غصبت من ابائي هذا اللواء بدون امر مشروع بحجة دعوة عبد الله السعود شقيق والدي، وبعد ان اخذته لم تحسن اليهم صنعا، وكان والدي يومئذ ولي العهد بعد والده على امارة نجد التي يدخل فيها هذا اللواء ومايتبعه، وعمان وسواحله... (عباس العزاوي العراق بين احتلالين ج ٨ص ٢٣٦ ومابعدهما) وقد ارسلت الحكومة التركية وفداً الى ابن السعود كان من اعضائه السيد طالب النقيب وانتهى الوفد الى المصالحة واقر بان يدفع ابن سعود عشرة في المائة من واردات الاحساء والقطيف الى الدولة العلية واعلن ولاءه وطاعته وقبلت الدولة هذ الحل على مضض (تطور حكم العراق تحت حكم الانغاديين ص ٢٢٥ تأليف فيصل محمد الارحيم ط ١٩٧٥).

الاقاليم، يجب ان يضاف ايضا سوء التصرف الذي كان يمارسه البيت المالك المتهرئ، والمنهمك في جمع المال، وكذلك الجار الشمالي الذين كانوا يتوثب للاعتداء

ولم يكن حكام العراق ولاجماهيره يدهشون الا قليلا، حين يفكرون في جيرانهم الشرقيين، اي الفرس، الذين كانوا يغرقون في بحر من المآسي والبؤس، كان العراق يبدو بالنسبة اليه، فردوساً حقاً. ففي شط العرب راحت الحكومة التركية تصر بصفة متزايدة على ان تسيطر سيطرة تامة على هذا النهر الذي ادعت بان معاهدة «ارضروم» قد ضمته اليها. ولقد تضاعفت الشواهد على تفاقم اعمال التهريب، والتملص من تنفيذ اوامر الحجر الصحي، وتعاظم الاضطراب المجاور.

وفي الوقت ذاته واصل الشيخ خزعل، حاكم المحمرة اظهار تفوقه على ممثل الحكومة الفارسية، او المقيم الفارسي في بلاطه، والسيطرة على جنوبي عربستان برمته. ولقد ازدادت عاصمته، بعد سنة ١٩٠٠، حجما ورخاءاً بفضل الدعم الذي وفره استثمار النفط، والتجارة النشطة واستتباب الامن المحلي بصفة جيدة، الامر الذي اجتذب الشركات البريطانية، والفارسية، والالمانية. كذلك ضاعف الشيخ خزعل من صداقاته مع شيوخ مزارع الشلب في العمارة الذين كانوا يعيشون في المنفى عنده، وتحالف مع السيد طالب النقيب في البصرة، ومبارك شيخ الكويت

وعاش الشيخ خزعل الخصومات والمنازعات الحادة مع ولاة البصرة المتعاقبين الذين اصابهم السخط والانزعاج لما كان يتمتع به من استقلال ورخاء. واحبط التدخل البريطاني، تجاوز الاتراك على اراضي الشيخ خزعل في منطقة «الحويزة» حين قصفت المدافع التركية قصره. وكانت علاقات الشيخ خزعل مع طهران، يشوبها الشك الذي يثير الغيرة، في حين كانت صداقته مع طلائع المنقبين عن النفط غير مستحبة. وكان اولاد الشيخ خزعل وكذلك اولاد سكرتيره «الحاج الرئيس» يدرسون في احدى المدارس التبشيرية الغربية في البصرة

* * *

قبرت الخطة التي اعدت لمد سكة حديد عبر بلاد فارس الى الخليج العربي. وحين لم تعد هذه الخطة تخضع لتصرف الروس كليا، فقد تم اختيارها مجدداً على يد «شركة البحوث الانكليزية الفرنسية الروسية» التي وضعت مشروعا لقسم السكة الذي يسيطر عليه الروس من القفقاس الى طهران، بالاضافة الى اقسام اخرى يسيطر عليها البريطانيون من طهران حتى سواحل الخليج العربي. ولقد تمت مناقشة هذه المشاريع في مجلس العموم البريطاني في سنة ١٩١٢

وفي الوقت ذاته وضعت مشاريع اخرى كلها بريطانية بما فيها مصالح شركة بيت لنج لمد سكة حديد الى جنوبي بلاد فارس تنتهي اما بالمحمرة او في «خور موسى» ولقد تم انجاز اعمال

المسح التفصيلية لهذه المشاريع، على يد ضابط شاب كان يعمل في الجيش الهندي، هو الملازم «ارنولد. ت. ولسون»[٨] وذلك عبر منطقة تقطنها العشائر الهمجية

كانت امثال هذه التهديدات الموجهة ضد سيادة البصرة، الميناء الرئيس على الخليج العربي، تتبارى مع التطورات التي كانت تجري في عربستان. في شهر ايار سنة ١٩٠١ حصل «وليم نوكس دارسي» وهو انكليزي اصاب له ثروة في استراليا، على امتياز من شاه فارس للتنقيب عن النفط في المناطق الوسطى والجنوبية من بلاد فارس كلها. وبعد مرور ثمانية عشر شهرا من اعمال المسح الجيولوجي، بوشر بالتنقيب عن النفط، في «كيا سرخ» وهو موقع اصبح يقع داخل الاراضي الفارسية، طبقا للحدود التي تم الاعتراف بها فيما بعد، بالقرب من قصر شيرين، على طريق خانقين - كرمنشاه

وعلى الزغم من مصاعب النقل والتموين وتدخل افراد العشائر والموظفين، فقد تم استخراج كميات غير تجارية من النفط في ذلك الموقع في اوائل سنة ١٩٠٤ ولما كانت هذه الكميات لاتبرر مد خط لانابيب النفط الى المحمرة، فقد تم التخلي عن ذلك الموقع، اي «كياسرخ» وحيث ان ذلك التخلي لم يعق «دارسي» عن مواصلة نشاطه، فقد نقل نشاطه وعمليات التنقيب الى اقصى الجنوب في اقليم «بختياري» والذي تمر الطريق الموصلة اليه عبر المحمرة ذاتها

لم تكن البئر التي حفرت في احدى الجبال ناجحة. واخيرا، وحين كان «دارسي» يوشك ان يتخلى عن المشروع كله، تفجر النفط في منطقة «مسجدي سليمان» وذلك في اليوم السادس والعشرين من شهر ايار سنة ١٩٠٨ اعقب هذا النجاح تأليف شركة النفط الانكليزية الفارسية[٩] في سنة ١٩٠٩، وتم اختيار الموضع الذي ستقام فيه المصافي في جزيرة «الخضر» او «عبادان» المقفرة الجرداء، التي تقع على شط العرب، والى بضعة كيلومترات جنوبي المحمرة

كانت الفترة التي مرت بها «عربستان» من سنة ١٩٠٩ حتى ١٩١٤، ذات نشاط مكثف كان له تأثيره الذي اصبحت البصرة تحس به بشكل ملحوظ. ذلك لان اول المنشآت النفطية قد كملت في سنة ١٩١٢ وحين انفجرت الحرب العالمية الاولى، كان تصدير النفط يتم بمعدل

---

(٨) هو الحاكم السياسي الانكليزي العام في العراق اثناء الاحتلال الانكليزي وصاحب النشاط السياسي الواسع في الخليج العربي والمؤلفات القيمة الخطيرة عن الخليج العربي وبلاد فارس والعراق. ورغم تقاعده وكبر سنه فقد التحق ولسون بالجيش البريطاني خلال الحرب العالمية الثانية وقتل في احدى الغارات الجوية التي قام بها الطيارون الانكليز على المانيا المعتدية وهكذا يكون الاخلاص للوطن وللامة

(٩) انظر تفاصيل المؤامرة التي حاكتها الاستخبارات البريطانية «انتلجنس سرفس» لخداع «دارسي» واستحصال امتياز نفط الاحواز منه. حيث اصبح هذا النفط كله احتكاراً للحكومة البريطانية والشركات الانكليزية المساهمة معها من سنة ١٩٠٩ حتى حركة مصدق سنة ١٩٥٠. وذلك في كتابنا «معركة النفط في ايران المصادر في سنة ١٩٥١، ولقد اصبحت امريكا بعد اسقاط مصدق عن الحكم في سنة ١٩٥٣ هي المسيطرة على القسم الاعظم من نفط الاحواز، اذ كانت لها سبع حصص من مجموع الكونسرتيوم المؤلف من تسع شركات.

ربع مليون طن في العام الواحد. ولقد ادى هذا التطور الى زيادة الاهمية الستراتيجية للخليج العربي، وممرات شط العرب، وجنوبي العراق زيادة جوهرية. في ربيع سنة ١٩١٤، وبمبادرة من السر ونستون تشرتشل اصبح للحكومة البريطانية النصيب المسيطر على شركة النفط الانكليزية الفارسية، وبذلك غدت العلاقات بين شيخ المحمرة، والشركة، ودية بشكل ثابت

اما منطقة «بشتوكوه» الحدودية فقد بقيت العلاقات اعتيادية في ميدان الخصومات بشأن القضايا العشائرية، وقضايا الرعي هناك، بالاضافة الى قضايا الماء المشتركة في «مندلي»، ودائرة الكمارك في بدرة.

لم يشأ والي بشتوكوه، غلام رضاخان، الذي كان يتظاهر بالورع ذلك البخيل الجشع، الذي ازداد ثراء، وحصل على بيت له في بغداد، الا ان يدعم الادعاءات الملحة بالعرش التي كان يطالب بها «سلار الدولة» نصف العتوه، وشقيق محمد علي شاه، الذي ابعد عن عرشه في سنة ١٩٠٩ كانت التصرفات الدموية المتعبة لهذا الامير تؤلف في الواقع، القسم الرئيس من منطقة الحدود التي تحادد طريق كرمنشاه والمحمرة، وذلك في السنوات الخمس الاخيرة من وقتنا الحاضر ذلك ان ظهوره كل سنة على مسرح الحوادث، واغراءه بعض عشائر الحدود، وتهديداته لكل من كرمنشاه والمحمرة وعكوفه على اعمال السلب، والغدر، والعيش المضني في تلك المنطقة المعتصرة من الريف، قد اصبحت من الامور الاعتيادية في ذلك الاقليم الخصب البهيج. ومع ان سلار الدولة لم يستطع ان يندفع ضد القوات الرسمية التي يتزعمها الامير «فرمان فرما» التي تمثل الحكومة المركزية والعائلة الملكية، فان الامير فرمان لم يقدر هو الاخر ان يوطد الامن في الريف او ان يطرد سلار الدولة منه. وكان المنقبون عن النفط من جماعة دارسي، من بين الذين عانوا كثيرا من الاضطراب العام في المنطقة. وذلك لانه كان يتم اغلاق الطريق بصفة مستمرة، وتتكدس البضائع في بغداد، ولاتستطيع قوافل الزوار ان تتحرك

ولقد اضافت ادعاءات «سلار الدولة» اشارة اضافية الى الانقسامات المعتادة والحروب بين العشائر الكردية الفارسية، ووقوع الغارات واعمال الالتجاء التي كانت تقوم بها القبائل العراقية الكردية من امثال الهماوند، وزنكنة، والجاف والطلباني. ولم يلبث رؤساء هذه العشائر، ان انضموا الى الحكومة بقوات تم تجميعها وتوجيهها ضد ذلك المطالب التعس بالعرش، والذي لم يتم اقناعه بمغادرة كردستان، الا بمشقة ظاهرة في سنة ١٩١٤، ومع ذلك فقد ظهر مرة اخرى عند الحدود العراقية

* * *

وفي اقصى شمالي العراق تكررت الغارة الكبيرة التي قام بها الشيخ **عبيد الله (١٠) في سنة** ١٨٨٠ ذلك لان اخر ازمة بشأن الحدود والتي ثارت حول «وزنة» في **سنة ١٨٨٩، لم تتم** تسويتها بعد. وفي سنة **١٩٠٦** واصلت القوات الفارسية الاستيلاء على اراضي كان **الاتراك قد** طالبوا بها وفقا للشروط الغامضة التي تضمنتها معاهدة سنة ١٨٤٧ (١١)

وادي التمزق الداخلي الذي اصاب بلاد فارس، وساعدت عليه الرشاوى، الى **فتح** الباب امام غزو تركي تم الاعداد له طويلا للاستيلاء على المنطقة المتنازع عليها. **فقد** شاركت الافواج الحميدية. والقوات النظامية. والعصابات العشائرية في ذلك الغزو، حيث تم احتلال كل من «سردشت» **«بانه»** وتهديد «اورميا». وتدمير السهل الذي يحيط بها

غير ان الهجمات الفارسية المضادة التي قام بها الامير فرمان فرما قد حالت **دون تقدم الاتراك.** ولكن في سنة **١٩٠٧** اطبقت قوات تركية قوية، كانت قد رفضت الانصات الى احتجاجات الحكام الفرس، على مدينة «صاوج بولاق»، ولم يتم انقاذ هذه المدينة من السقوط الا بالضغط الذي مارسه الممثلون الانكليز والروس معا، واذ ذاك انسحب الاتراك الى مسافة ما عن المدينة، وعن مدينة «اورميا» ايضا

ولكن في سنة **١٩٠٩**، اثار وضع محمد علي شاه، والحالة الميؤوس منها في بلاد فارس، مطامع الاتراك مرة اخرى، فعادت قواتهم مجددا الى احتلال المنطقة المتنازع عليها، وتم زرع الحاميات التركية في مناطق «قوتور» و «خوي» وسلماس، ومرغوار، وترغوار وبرادوست. اما مدينة «صاوج بولاق» فقد تم احتلالها باعتبارها جزءا من شريط واسع وعميق من اراضي حدودية، لم تكن مهما كانت الادعاءات القديمة اراضي تركية منذ بضعة اجيال

ولكن الاتراك اخفقوا في اخضاع الاكراد التابعين الى فارس. في مناطق. مريوان و «هورمان» وان كانت هذه مناطق سنية، وتغلغلوا قليلا بين القبائل الشيعية التي تقطن في اقليم كرمنشاه. ولقد اعطي الرحالون الاوربيون في ذلك الوقت صورة زاهيةً لتجمع القوات التركية من الاناضول في نقاط الحدود، وللمشاكل والصعاب التي كان ضباط الحدود يعانونها في الوصول الى ذلك الموقع، مدفوعين بحميتهم الوطنية، رغم انهم كانوا يجهلون جهلا تاما تاريخ تلك المناطق واوضاعها الجغرافية

كان مستطاعا تجنب مثل هذه الحوادث على اكثر احتمال، باستعمال الطرق الدبلوماسية بدلا من الحروب الواسعة. ولهذا وجدنا ان قضية الحدود هذه اصبحت الان تؤلف الاهتمام المباشر

---

(١٠) المقصود به الشيخ عبيد الله الشمزيناني الذي سبقت الاشارة اليه

(١٠) هي معاهدة ارضروم التي تم التوقيع عليها في ٣١ ايار ١٨٤٧ والتي تقاسمت بموجبها كل من حكومتي طهران واسطنبول مناطق النفوذ في الاحواز وبعض الاقسام الشرقية من العراق (انظر شاكر صابر الضابط): العلاقات الدولية ومعاهدات الحدود بين العراق وايران. ص ٦٣ ط ١٩٦٤

للبريطانيين، وذلك نتيجة وجود النفط في «كياسرخ» وعلى ضفاف شط العرب، ومن هنا اصبح التصرف البريطاني الروسي المشترك منذ سنة ١٩٠٧، ايسر من ذي قبل. فلقد نجحت هاتان الدولتان في سنة ١٩١٢ في بعث لجنة الحدود الفارسية التركية التي مضت على تأليفها في اسطنبول خمس وستون سنة. فلقد تقرر في سنة ١٩١٣ تجديد تلك اللجنة بانضمام كل من بريطانيا وروسيا الى عضويتها، حيث تم التوصل الى اخراج نسخة «الهوية الذاتية» القديمة بمشقة بالغة، وسمت كل دولة اسماء ممثليها، واستطاع البريطانيون - ببعد نظرهم - ان يحققوا احد المشاريع الذي يقول بانه اذا ماتم تحويل احدى الاراضي الفارسية الى تركيا فينبغي ان تحترم حقوق «وليم دارسي» النفطية في تلك الاراضي المحولة. ولم يلبث ممثلو الدول الاربع ان اجتمعوا في مدينة المحمرة في شهر كانون اول سنة ١٩١٣، وقد مثل بريطانيا في ذلك الاجتماع كل من «راتسلاف» و «ارنولد ولسون»

سارت اعمال اللجنة لتخطيط الحدود في امان ملحوظ، واشتمل خط الحدود الذي تم تثبيته على انسحاب تركيا من معظم اجزاء المنطقة التي احتلتها مؤخرا، ولكن خصصت لها مقابل ذلك قطعتين من الاراضي في منطقة خانقين - مندلي وفي شمال «سروان»[١١] وهي المنطقة التي عرفت فيما بعد باسم «الاراضي المحولة».

وصلت البعثة بعد ذلك الى جبل ارارات في اواخر شهر ايلول ١٩١٤ وقد برهن عملها على مساهمة مهمة في موضوع العلاقات الفارسية التركية، وفي تثبيت الحدود العراقية الفارسية عن طريق وضع الاعمدة الاسمنتية ورسم الخرائط المطلوبة لها. ولم يستطع انكار الفرس، بعد عشرين سنة من توقيع ذلك الاتفاق، ان يؤثر في الثقة بتلك الحدود والتي بقيت مقبولة حتى سنة ١٩٥٠.

---

(١١) «سروان» هو الاسم الذي يطلق على القسم الشمالي من نهر ديالى الحالي ومايزال الاكراد يطلقون هذا الاسم على نهر ديالى كله حتى الان.

الفصل الثالث

الحرب والاحتلال البريطاني للعراق

١ ـ منتصف صيف سنة ١٩١٤

٢ ـ الحرب في الاقسام الواطئة من العراق

٣ ـ عراق البريطانيين والاتراك خلال ١٩١٥ ـ ١٩١٦

٤ ـ الكوت ـ بغداد ـ الموصل

٥ ـ الادارة البريطانية اثناء الحرب سنة ١٩١٧ ـ ١٩١٨

١ ـ منتصف صيف سنة ١٩١٤

كانت الحوادث التي وقعت خلال الفترة من ١٩١٤ الى ١٩١٨ ، قد احدثت في عدد قليل من بلدان العالم تغييرات اعظم مما احدثته في العراق ذلك لان العراق الذي انفصل عن الامبراطورية العثمانية بعد اربعة قرون ، قد شهد الان تغييرا تمثل في صفة الحاكم المتسلط عليه ، من مسلم شرقي ، الى مسيحي غربي ، كما تمثل في بروز روحية وتأثير في ادارته ، يختلفان اختلافاً عميقا ، وفي تقبله لتأثيرات حضارية معززة تعزيزا واسعا في المجتمع والسياسة ، وفي فرص اقتصادية جديدة انه عالم متغير ذو وضع متحول ، ومشاكل حديثة في الشؤون الدولية ، وفي الدخول في غمرة فيض من الشهرة الاوربية ، والمطابقة التفصيلية مع شعوبه ، ومواقعه واوضاعه

ومع ذلك فان الاقسام المتأخرة من سكانه ، وهي تؤلف الاغلبية ، كانت تريد ان تترسم خطى حياة لم تتغير الا نسبيا ، في حين استمرت المشاكل الاقتصادية والسياسية في العراق ، تضع العوائق امام الحلول التي لم يتم ابتداعها الا بعد مرور اكثر من جيل

ومن اللحظة التي وقعت فيها هذه البدع ، التي لم تكن منظورة ولا متوقعة ، حتى هذا التأريخ ، برزت تأملات محددة اشتملت على مقارنة الواقع المحسوس مع مايمكن تحقيقه

بلغ الوضع بالشعب العراقي وبحكومته في منتصف صيف سنة ١٩١٤ درجتهم، اصبحت فيها الشرور التي اوجدها انعدام الامن ، والانحطاط ، والفقر ، مما يمكن مشاهدته بيسر ، ووصفه بما فيه الكفاية ولكن كانت هنالك ايضا ، وبصفة اقل وضوحا ، اسس طيبة للتفاؤل. فاذا ماتم تطوير العشائر قليلا فان المجتمع المدني ، لابد ان يتقدم بكل وضوح تحت تأثير التعليم ، او التمدن النسبي الذي كان يظهر نافعا عند الموازنة

في ميدان السياسة التي كانت محصورة في اقلية صغيرة كانت القومية العربية ، قد اصابت لها مركزا ثابتا ولسوف تسود حقا ، في حين بدأت ارتباطات الحركة القومية بامثالها في كل من سوريا ومصر ، بداية طيبة. على ان هذه القومية ، لايمكن لها عند قسم رفيع من العوائل السنية والبيروقراطية العثمانية ، ان تحول دون ظهور عواطف مؤيدة للاتراك ، ومخلصة للطرق القديمة

وماعدا الحركة القومية ، كانت عناصر اخرى قوية في العراق تعادي الحكومة على هذه

الشاكلة. وكانت هذه العناصر على وجه التأكيد تقاوم كفاءة الحكومة في اي مجال يمكن استغلاله فقد كانت العشائر ، تتطلع الى امكانية الحصول على حكم قد يهيي ها توفير مياه الري ، وضمان اسواقها ، ووقف المصادمات الدموية فيما بينها ، ومعالجة امراضها ولكن الدولة وبصفة اكثر من العامة ، بقيت هي البعبع البعيد المقيت ، المتدخل ، في حين كان العدو بالنسبة الى شيوخ العشائر ، يتمثل في اي تقدم قد يحصل على حساب سلطاتهم وحياتهم

ومع كل ذلك ، وفي الفترة التي سبقت سنة ١٩١٤ ، كان الميل واضحا نحو تشديد سلطة الحكومة ، وهي عملية كانت ممكنة بل ومؤكدة لان تستمر في ظل الشكل الجديد للادارة الذي بدأ في سنة ١٩٠٩ ذلك لان مثل هذه الادارة ، وان كانت غير حصيفة ، واكثر مركزية ، الا انها كانت حيوية ، واكثر تحضرا من اية حكومة عثمانية سبقتها ذلك لانسجامها الاداري ، حتى في الفترة المعقدة المرتبكة التي مرت من سنة ١٩٠٨ حتى سنة ١٩١٤ ، كان يحتوي مظاهر موثوقا بها. فقد وجه اهتمام افضل نحو التعليم ، والخدمات الصحية ، وتخطيط المدن وقد ادخل التحسين على قوات الدرك (الجندرمه) وغدت شرطة المدن كاملة ، واعيد تنظيم الجيش ، وعدل النظام القضائي في جزء منه. كما ظهر بان الاتفاقات الدولية التي عقدت خلال سنتي ١٩١٣ و ١٩١٤ بين تركيا وبريطانيا والمانيا قد ازالت الكثير من العقبات التي كانت تقف في طريق التطور

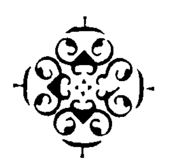
وبالنسبة للتطور كان هنالك في الواقع ، مجال لآمال طيبة فعلى الرغم من وجود كثير من المشاكل التي لم تحل بعد ، من امثال تحسين الزراعة ، واستخدام المياه ، وتسوية الاراضي ، الا ان بداية طيبة كانت قد بدأت بالنسبة لاعمال الري كما ان مشروع سكة حديد بغداد قد كمل اعداده مؤخرا ولقد تحسنت الملاحة النهرية هي الاخرى وفقاً للترتيبات التي طبقت في سنة ١٩١٣ وكان افتتاح المناطق الانتاجية ، والاسواق من شأنه ان يشجع التجارة والزراعة ، ولربما يساعد على ايجاد الصناعة ايضا ، حيث تم اعطاء وعد بمنح امتياز لاستثمار النفط في ولايتي بغداد والموصل ، الى فرقاء قادرين قدرة جيدة على استغلاله ان تم العثور عليه

وهكذا فان المراقب الحصيف الذي كان ينظر الى العراق في منتصف صيف سنة ١٩١٤ لابد له ان يتنبأ بمستقبل لزيادة استغلال الموارد والمواصلات ذلك لان وجود مثل هذه المشاريع الموجهة من قبل حكومة غيورة تحررت في النهاية من الضغط الدولي ، يمكن ان تنتج درجة من الثروة اللازمة لصيانة قوى اكثر قوة تستطيع ان تفرض الامن وان تهتم بتحسين الخدمات المدنية ، وان تعالج في الواقع الشرور البارزة في الادارة

ذلك لان المجتمع لابد وان يتقدم حتما نحو مستويات ارقى وحركة القومية المحلية كانت مستعدة للظفر باسس اخرى لتوجيه الوضع الممتاز بل حتى الحكم الذاتي ، داخل الامبراطورية غير ان الانفصال التام للاقاليم العربية عن الامبراطورية ، لم يكن مرغوباً فيه لانه

لايلق الدعم لامن القوات المسلحة ، ولايحظى باي عطف خاص من اوربا ، على النحو الذي كانت تتمتع به اقاليم البلقان المسيحية ولايمثل وحدة الهدف بين العرب

ولكن التصرف الذي اقدمت عليه المانيا في اثارة الحرب العالمية في شهر اب سنة ١٩١٤ ودخول تركيا في تلك الحرب ، قد ادى الى اكتساح كل تلك الاعتبارات والامال بصفة نهائية والى الابد



٢ ـ الحرب في الاقسام الواطئة من العراق

كان تدخل القوات البريطانية المسلحة في العراق سنة ١٩١٤ يمثل ضربة غير متوقعة اطلاقاً فلقد تم اضعاف الجيش الهندي ، نتيجة التكتيل الذي شرع به منذ الاتفاق الانكليزي الروسي الذي عقد في سنة ١٩٠٧ والواقع كان ارسال لواء من الجيش الى مصب شط العرب قد اعتبر، الى حد ادنى في المؤتمر الذي عقده رؤساء الاركان في «سملا» عملية معقولة ، ولكن لم يتم التخطيط لها بصفة جدية

ذلك لان جميع القوات الهندية التي يمكن توفيرها من الهند ذاتها ، كانت قد ارسلت الى فرنسا عند اندلاع نيران الحرب كما كان يخشى على الدوام من الاصطدام بتركيا بالنظر لما يثيره مثل هذا الاصطدام من خوف لدى الهنود المسلمين . وكذلك فان الاستيلاء بصفة عملية على اراضي تقع على نهر الفرات او دجلة لم يؤخذ بنظر الاعتبار في اي وقت من لدن الاوساط البريطانية المسؤولة

لم تكن القيمة العسكرية المباشرة لارسال حملة «الفاو» او «البصرة» مقررة ، بل كانت توجد في الواقع اسباب كثيرة لمقاومة مثل هذه الحملة ولكن هناك مناقشات مناقضة لمثل هذا النقاش فحتى قبل ان تعلن الحرب كان موقف الاتراك في العراق معاديا بصفة جلية اذ تمت مصادرة الممتلكات البريطانية من دون ادنى مبالاة وغادر الجواسيس الاتراك والالمان الى بلاد فارس لاثارة العواطف المعادية للاجانب وراح اولئك العملاء يتطلعون حتى الى فصل شيخ المحمرة عن فارس

كذلك تمت تعبئة الجيش وتجهيزه ، واعلنت الاحكام العرفية ومع ان تحركات القوات التركية كانت متجهة بصفة رئيسة الى الشمال نحو الاناضول ، الا ان الانباء قد ذكرت بان تلك القوات قد تحركت جنوباً ايضا ، اي الى البصرة. كان هنالك سبب للخوف من ان وجود القوات التركية المتمركزة في رأس الخليج العربي سوف تؤدي اذا ما تحققت شراستها وتركت من دون تصد، الى اضعاف مركز بريطانيا هناك وتقضي على الشيوخ الخاضعين للنفوذ الانكليزي في كل من المحمرة والكويت ، وحتى السعوديين الى درجة ما، وان تشجع العناصر المحرضة في فارس والتي يمكن استخدامها من لدن الالمان في الواقع ، بمثابة تهديد مقلق ، للهند ذاتها

حصلت خلال شهور اب وايلول وتشرين اول مشاورات مكثفة بين لندن ودلهي ، تبودلت فيها وجهات النظر العسكرية والسياسية البريطانية والبريطانية الهندية ولقد تم التركيز فيها على التفكير المتزن الحكيم الذي يتمتع به السر برسي كوكس الذي اصبح الان يشغل منصب وزير الخارجية في حكومة الهند ، بعد خدمة استمرت مدة اثنتي عشرة سنة في الخليج العربي

اخذ الاحساس لتأييد فكرة ارسال حملة عسكرية الى العراق ، تتنامى قوته ببطء ، وباتفاق الآراء او بالحماسة ، كما تعاظم التأكد من احتمال دخول تركيا الحرب وفي اليوم الثاني من شهر تشرين الاول ، تم التوصل الى قرار حاسم في الموضوع كانت مهمة قوات الحملة ، هي حماية المنشآت النفطية في عبادان وتشتمل في الوقت ذاته ، على احتمال انزال تعزيزات عسكرية ودعم الحكام العرب

ابحر لواء من الفرقة السادسة (فرقة بونا) وفق اوامر مختومة تحت امرة اللواء و. س. ديلامين وذلك في اليوم السادس عشر من شهر تشرين الاول ، وقد وصل هذا اللواء بعد اسبوع من تحركه الى البحرين. وبعد اسبوعين تحركت نقليات هذا اللواء الى الشمال. غدت الحرب مؤكدة في اليوم التاسع والعشرين من تشرين الاول حيث تم اعلانها في اليوم الخامس من تشرين الثاني. وقد اعلن السر برسي كوكس ، باعتباره الضابط السياسي الرئيس لتلك القوة بان الحكومة البريطانية ليست في نزاع مع العرب القاطنين على ضفاف شط العرب ، طالما اظهر هؤلاء انفسهم بانهم اصدقاء.ولكن بريطانيا اضطرت نتيجة العدوان التركي الى اتخاذ مثل هذه الخطوة لحماية اصدقائها ومصالحها

وفي فجر اليوم السادس من تشرين الثاني تم اسكات المدافع التركية في حصن «الفاو» من قبل المدافع البحرية البريطانية،واذ ذاك نزلت القوات البريطانية في عبادان وسرعان ماتم تعزيزها لكي تصل بصفة متقدمة الى مدى فرقة واحدة تحت قيادة الفريق السر باريت. ادت المقاومة التركية الى اتخاذ عملين شديدين في كل من «سيحان» و «الساحل» [1] في اليومين الخامس عشر والسابع عشر من شهر تشرين الثاني ولقد اخفقت المحاولات التركية لاغلاق «شط العرب» عن طريق اغراق بعض السفن فيه ، من بينها السفينة اقليد البحر [2]

---

(١) وقعت معركتان بين القوات البريطانية والتركية:الاولى في سيحان التي كانت تقع على بعد اربعة اميال الى الغرب من معسكر السنية الذي عسكرت القوات البريطانية فيه ، في حين كان الاتراك يتمركزون في بلدة الساحل وفي منطقة «كوت الزين» بينما كانت القوة التركية الرئيسة في البلجانية الى الجنوب من الساحل،وقد اندحرت القوات التركية في هذين الموضعين الامر الذي مهد لتقدم الانكليز نحو البصرة واحتلالها

(٢) اغرقت اربع سفن هي اقليد البحر ، العثمانية واكبتانا الالمانية و «جعفري» العائدة الى «اغاجعفر» احد اثرياء البصرة وجون اوف سكوت البريطانية ، وذلك في شط العرب شمال جزيرة دبة «ام الخصاصيف» وجنوبي جزيرة الشمشومية على بعد ثلاثة اميال ونصف من مصب نهر كارون (حميد احمد حمدان التميمي البصرة في عهد الاحتلال البريطاني من ١٧٩ هـ ١٩٧٩) .

بقيت البصرة مكشوفة وتم الدخول اليها في اليوم الثاني والعشرين من شهر تشرين الثاني [٣] وقضي على اعمال النهب والحرق المتعمد فورا فاستتب الامن ورفع العلم البريطاني ولوح البارزون والاهالي باشارات الترحيب، ولم يلبث السر برسي كوكس ان اذاع مرة اخرى في بيان له بان اي اذى لن يصيب السكان المدنيين، ولسوف يحترم العدل والحرية، وان القوات البريطانية ستتصرف باهتمام وصداقة ثابتتين»وعلى هذه الشاكلة بدأ الاحتلال البريطاني للعراق

تم انجاز اهداف قوة الحملة الهندية (د) بصفة تامة فتمت حماية عبادان، ودحرت القوات التركية، وتم ترويض الشيوخ الاصدقاء•فهل كانت هذه هي النهاية؟ ليس هناك اي قرار يعتبر امرا طبيعيا اكثر من البقاء بحزم في البصرة وفي ضواحيها وان لايجري اي تقدم عسكري اخر، ولكن نتيجة لضعف المقاومة التركية، واملا في رفع قيمة الاعتبار البريطاني، ابرق آمر المكتب السياسي [٤] في اليوم الثاني والعشرين من تشرين الثاني الى نائب الملك في الهند يقول له بانه وجد"ان من العسير علينا ان نرى كيف نتجنب الاستيلاء على بغداد"(والواقع ان اغراء بغداد بقي متواصلا الى ان تم الاستيلاء عليها في شهر اذار سنة ١٩١٧) لبقود الجيش الى اندفاعات ومغامرات لم يشر اليها الدور الجوهري الذي كان يقوم به، ولو ان ذلك الامر لم تحدد صيغته بجلاء نتيجة الانقسام الحاصل بين مجالس وزارة الحرب، والخارجية ووزارة الهند، ونائب الملك والقادة المحليين

كانت معلومات القيادة العسكرية بالاوضاع الراهنة في العراق ضعيفة، ذلك لان ضباط استخباراتها والضباط السياسيين لديها لم يكونوا على المام تام باوضاع البلد، مثلما كان عليه السر برسي كوكس كما حدث استخفاف بقوة الجيش التركي، ولم تنكشف النواقص الموجودة في ماكنة الحرب الهندية الا بصفة تدريجية ولكن مثل هذه الاعتبارات لايمكن ان تفسر النقص القوي في تحديد اهداف قوة الحملة الهندية (د) بصفة دقيقة فلغرض دحر الجيوش التركية الالمانية، كانت مساهمة هذه الحملة منذ بدايتها وحتى نهايتها غير متعادلة لامع ثمنها ولامع الخسائر الفادحة التي وقعت

وفي الوقت ذاته فان اول اقتراح بالتقدم نحو بغداد، كانت قد رفضته كل من لندن ودلهي وفي الاخير تم الاستيلاء على القرنة، والقي القبض على والي البصرة «صبحي بك» وموظفيه واغرق الزورق القديم المزود بالمدافع (مرمريس» ثم اعقب ذلك الاستيلاء على بعد اميال قليلة

---

(٣) تحركت السفينتان البريطانيتان اسبيكل واودن الى البصرة في حدود وقت الظهر وكانت دائرة الكمرك تحترق بعد ان سارع الناس الى نهب مافيها من اموال ثم انزلت مجموعة من جنود البر في دائرة الكمرك و بعد ان اطلقت السفينة اسبيكل مدفع الامان، اذ ذاك سارع رئيس البلدية بتكليف رجل، ربما بايعاز من البريطانيين، راح ينادي باسمه في الشوارع بان البصرة قد احتلتها القوات البريطانية وان هذه القوات قد التزمت بالمحافظة على الامن فيها (المصدر السابق ص ١٨٦).

(٤) هو السر برسي كوكس

من الاراضي الواقعة غربي البصرة وشمالها ، بما في ذلك منطقة «الشعيبة» ولو ان الاقتراح الطموح بالتقدم نحو الناصرية والسيطرة بذلك على منطقة المنتفق،قد تم رفضه

وجدت بداية السنة ١٩١٥ ، القوات البريطانية وقد وطدت اقدامها بصفة ثابتة على ضفتي شط العرب اما بالنسبة الى حكومة مدينة البصرة ، وضواحيها ، فقد تم تعيين حاكم عسكري ، يعاونه احد الضباط من دائرة الخدمة القنصلية في المشرق ، هو ريدر .و. بولارد ، وكيل القنصل في البصرة ، بصفة مستشار مدني

ادخلت «الروبية» الى المدينة ، وتم جلب قوات هندية وصومالية ، والاتصال بالشخصيات البارزة من اهالي البصرة والارياف ، الذي بادروا بارسال برقيات الترحيب الى الملك جورج. م الخامس[٥] كذلك قام نائب الملك في الهند ، اللورد هاردنغ بزيارة البصرة في شباط ١٩١٥ واتصل السيد طالب النقيب[٦] بالضباط السياسي البريطاني الرئيس عن طريق الشيخ خزعل في شهر تشرين الاول ليعرض خدماته عليه مقابل الاعتراف به اميراً على البلاد ، ولكن اقتراحه هذا تم رفضه ولم يعد يرى مرة اخرى في العراق ، الا في سنة ١٩٢٠

رافق كثير من المواطنين وكل الموظفين تقريباًالاتراك المنسحبين من البصرة ، ومع ذلك فقد انشئت صداقات مع (شيخ الزبير»[٧] ورجال العشائر الذين يعيشون على ضفاف الانهار اما «عجمي السعدون» الذي كان يتنقل في اطراف الصحراء فقد عرض خدماته ، لكنه رفض ان يظهر نفسه ، وراح يساوم،واخيرا آثر الانسحاب. فيما بعد ليصبح حليفاً لانفع به لدى الاتراك

ظهرت في اوائل سنة ١٩١٥ دلائل تؤكد بان الاتراك لايمكن ان يتقبلوا الغزو البريطاني بيسر. وانهم يستطيعون – باجراءات مضادة – ان يوجهوا ضرباتهم باتجاه الجنوب في نهر دجلة حتى مدينة القرنة ، وفي نهر الفرات نحو مداخل «الشعيبة» بل وحتى الى عربستان عن طريق مهاجمة حقول النفط وخطوط انابيبه. وكانت الخطة الاخيرة هي التي وقع الاختيار عليها،ولذلك

---

(٥) «لقد تباينت مواقف وجهاء البصرة من الاحتلال فهناك من ساندوا التغيير او الدور الجديد الى درجة ان بعضهم ارسل برقية تهنئة للملك جورج الخامس ودفع معونة مالية للصليب الاحمر البريطاني بينما وقف البعض الاخر موقف المتردد منه (المرجع السابق ص ١٩٠).

(٦) اقترح اللورد كرومر في مذكرة مؤرخة في ١٦ تشرين اول ان يتم الاتصال بالسيد طالب النقيب واستعماله عميلا كما ذكرت المس بل في احدى رسائلها بان من اليسير شراء السيد طالب النقيب لانه يميل نحونا جيدا» حيث قدم المقيم البريطاني في الخليج مقترحات بهذا «الشأن (انظر IRAQ1908 -- 1921 BYGHASSANATIYYAH: 1973).

(٧) هو ابراهيم عبد الله ابراهيم الذي اقر الانكليز وجوده في منصبه ذاك ، والحقيقة ان شيخ الزبير هو محمد المشري الذي عينه العثمانيون بعد اغتيال «خالد العون» في سنة ١٩٠٧ وقد كان اثناء الاحتلال في الشامية ولما عاد محمد المشري الى البصرة بعد تراجع العثمانيين ، ابعده البريطانيون قبل معركة الشعيبة مباشرة (حميد احمد حمدان البصرة في عهد الاحتلال البريطاني في حاشية ص١٨٩).

ولقد بقي ابراهيم العبد الله بحكم الزبير الى ان تم اعلان هذه البلدة «ناحية» تابعة للبصرة وعين لها مدير ناحية حيث تم القضاء على سلطة ابراهيم بعد استدعائه بالقدوم الى بغداد في عهد [illegible] الهاشمي الاول .

تم افساد ولاء قسم من قبائل عربستان من مواطني المحمرة ، فقطعت خطوط انابيب النفط ، واذ ذاك تحركت قوة بريطانية صغيرة وتمركزت في مدينة الاحواز ولكن كان لابد من مرور اسابيع من القلق الحاد ، وارسال المزيد من القوات ، قبل ان يتم الاستيلاء على الاراضي النفطية

اما في جبهة الشعيبة ، حيث اوجدت فيضانات الربيع اقسى المصاعب بالنسبة الى التموين فقد تواردت الانباء في شهر اذار عن هجوم محتمل تقوم به القوات التركية ومساعديها من العرب واصبح هذا الهجوم وشيكا في اوائل نيسان ، وفي اللحظة التي تم فيها انزال الفرقة الهندية المؤلفة حديثا في البصرة ، وهي الفرقة الثانية عشرة،كانت معركة الشعيبة التي استمرت اربعة ايام من اليوم الثاني عشر ، الى اليوم الخامس عشر من شهر نيسان ، من المعارك الحرجة الميؤوس منها،وقد انتهت هذه المعركة بانسحاب الاتراك ، الذين طحنهم حلفاؤهم العرب طحنا واسعا ، مما ادى الى انتحار القائد التركي «سليمان بك العسكري»

وابتداء من اليوم الثامن من شهر نيسان اعيد تنظيم قوة الحملة الهندية (د) في صفة فيلق (فيلق الجيش الهندي° الثاني) تحت قيادة الفريق السر جون نكسون كانت الاوامر التي نقلت الى الفريق نكسون تقضي بان «يسيطر على ولاية البصرة وتلك الاجزاء من الاراضي المجاورة التي قد تؤثر في امنها ، وان تضمن سلامة حقول النفط وخطوط انابيبه ومصافيه وان يضع الخطط لاحتلال فعال ولتقدم اخر نحو بغداد»

بدت هذه الاوامر ، في نظر قائد يعتمد عليه اعتماداً فائقاً ، غير قابلة لتجاوز الهجمات المحدودة التي سوف تدفع بقواته الى اماكن اكثر عمقاً داخل العراق ، وتحقيق الاغراض السياسية التي يتوخاها السر برسي كوكس بما في ذلك السيطرة على العشائر الكبرى ، وعلى العراق

وفي شهر نيسان بعث الفريق نكسون برتل يقوده العميد «غورنج» الذي استطاع بعد ثلاثة اشهر ، ان يعيد الوضع الى ما كان عليه في عربستان،وان يعاقب الثائرين من رجال القبائل وتلا ذلك بان وجه الفريق نكسون ، في شهر ايار ، اللواء «طاونزند» والفرقة الهندية السادسة المزودة بوسائل نقل محسنة في الانهار كان على القوارب التي اعدها «طاونزند» ان تتقدم بمساندة بحرية نحو الشمال من القرنة التي تحيط بها الاهوار،وكان هدفه من وراء هذه الحركة هو الوصول الى مدينة العمارة.ولقد نجحت هذه العملية نجاحا باهرا ، نتيجة الانسحاب المخبول الذي قام به الاتراك،وبذلك تم الاستيلاء على مدينة العمارة في اليوم الثاني من شهر حزيران ١٩١٥ وحينذاك وباذن متردد فيه من «سملا» اصدر الفريق نكسون اوامره الى قوة يقودها العميد غورنج باحتلال مدينة الناصرية.ولقد كملت هذه المهمة في اليوم الخامس والعشرين من شهر تموز ، وبعد كفاح بطولي ضد الحر واوضاع الاهوار حيث ادى ذلك الى احتلال المثلث الذي يتألف من الفاو

والعمارة والناصرية ، في حين تم ترك الفيلق الثاني موزعا ، وعلى حدة من مواقع خطوط مواصلاته،في خمس مجموعات رئيسة في البصرة والقرنة ، والاحواز ، والعمارة،والناصرية

في هذه المرحلة وبهذه الدرجة من الانتشار ، استطاع هذا الفيلق ، بل كاد ان يحقق سيطرته وتموينه ولكن كان هناك الشيء الكثير مما ينبغي الاقدام عليه ذلك ان مسائل الاعتبار ، واغراءات احتلال بغداد ، قد حملت الجيش على مواصلة التقدم على الرغم من كل الاعتبارات العسكرية الاساسية.ولقد كان من بين هذه الاعتبارات هو الرد المباشر على الفشل الاخير الذي احاق بالانكليز في معركة «غاليبولي» [٨] كما كان يعود قسم اخر من تلك الاعتبارات الى التوقع بانه ليس من المستحيل حدوث احتلال روسي

كان وزير شؤون الهند الذي مايزال هو المسؤول عن حرب العراق ، قد حمل على ان يوافق على زيادة في خطوط المواصلات تبلغ مائة وخمسين ميلا ، كانت تعتبر ضرورية للوصول الى الكوت ، و «علي الغربي»والى مفرق الغراف – دجلة. بدأ طاوزند في اليوم الاول من شهر ايلول بتركيز فرقته ولواء الخيالة السادس في «علي الغربي» فوق العمارة،فوصل الى موقع «الصناعيات» واستولى عليه،وبذلك حقق انتصارا حاسما في اليومين ٢٧ – ٢٨ من ايلول على قوات «نور الدين بك» [٩] وعزز ذلك الانتصار بتعقب القوات التركية بكل حماسة ، عبر منطقة الكوت وماجاورها ،حيث وصلت قواته الى «العزيزية» في اليوم الخامس من شهر تشرين الاول

في غضون ايام قلائل وبعد تبادل البرقيات مع الهند ولندن، تم التوصل الى القرار الحاسم في محاولة الاستيلاء على بغداد دون مزيد من الضجيج والجعجعة،بعد ان تم توفير وسائل النقل الوافية. ومن دون اية تحفظات كمل التركيز باتجاه العزيزية في اليوم الرابع عشر من شهر تشرين الثاني في ذات الوقت الذي تم فيه،وبدون علم طاونزند،نقل فرقتين تركيتين جديدتين تحت قيادة «خليل باشا» [١٠] من غاليبوي الى العراق ، في اعقاب انسحاب القوات البريطانية هناك ، حيث وصلت هاتان الفرقتان الى العراق لتعزيز الجيش السادس التركي الموجود فيه

اضطرت الفرقة السادسة الهندية بعد تقدمها ونجاحاتها الاولى،واخيرا انتصارها اللامع في «المدائن»،الى التراجع مرغمة بطريق «اللج» و «العزيزية» الى مدينة الكوت ، وفقاً لما ذكره التاريخ العسكري البريطاني الذي كتبه اعتباطا كتاب آخرون. وصلت القوات البريطانية

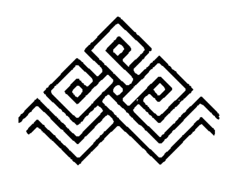
---

(٨) معركة غاليبولي غاليبولي في الاصل شبه جزيرة تمتد داخل البحر زهاء خمسين ميلا على مضيق الدردنيل وقد وقعت معركة غاليبولي وهي من اشهر معارك الحرب العالية الاولى بين الانكليز والاتراك،في سنة ١٩١٥ وتكبد فيها الانكليز خسائر بالغة .

(٩) نور الدين بك تولى القيادة العامة للقوات التركية في العراق قبل قدوم خليل باشا وعمل معه ، نقل الى قيادة جبهة القفقاس وذلك بعد ان اعترض على تسليم قيادة العراق الى القائد الالماني فوز دور غولتز باشا

(١٠) خليل باشا من مشاهير قادة الترك في الحرب العالمية الاولى اشترك في محاربة الروس في القفقاس ومن ثم عين قائدا عاما للقوات التركية في العراق.نجح في محاصرة الانكليز في الكوت وارغمهم على الاستسلام بعد ان رفض الرشوة التي عرضوها عليه لقاء ذلك،ومقدارها مليونا باون ذهب

المتراجعة الى الكوت في اليوم الثالث من شهر تشرين الثاني و بدلا من التراجع بصفة اكثر ، فقد طلب الى طاونزند او الى قواته الضعيفة المتعبة،بوقف التراجع والاحتفاظ بمدينة الكوت. بدأ الآن حصار الكوت[11] واستمر هذا الحصار مائة واربعين يوما حتي اليوم التاسع والعشرين من شهر نيسان سنة ١٩١٦،وانتهى باستسلام الحامية البريطانية من دون قيد او شرط.



---

(١١) دملنا ترجمه احدث واربع كتاب صدر مؤخرا عن حصار الكوت لمؤلفه السيد رسل برادون الذي وضعه بعنون «الحصار» صدر هذا الكتاب في جزء واحد كبير محلي بالصور النادرة وقامت بطبعه ونشره (دار احياء» التراث العربي ببغداد سنة ١٩٨٥.

٢ ـ عراق البريطانيين والاتراك خلال ١٩١٥ ـ ١٩١٦

كان وقع المسرح العراقي وشعب العراق على الغزاة ، غير ملائم بصفة عامة فلقد تأثرت القوات من جميع الاصناف ، بعزلة الصحراء التي تثير الاشمئزاز ، وبالفقر والقذارة الطاغيتين في القرى ذلك ان المستويات الواطئة من الحياة ، والصنوف المتدنية من البشر التي واجهتها تلك القوات، فجعلتها تحكم عليها بأنها كانت اناسا من الكسالى والشحاذين واللصوص المتذللين والديوثين الذين كانوا يشاهدون في اطراف المعسكرات الانكليزية

ولم تتأثر هذه الانطباعات بالعمال المغايرين بدنيا والتابعين لفيلق العمال العرب الذي تم تأليفه على وجه السرعة ، ولا بحراس حوانيت الاسواق الطامعين ، والابتزاز المجرد من الخجل والقاتل في الغالب ، وتمزيق جثث القتلى في ميادين المعارك بأيدي افراد العشائر الساكنين على ضفاف الانهار

لم يتيسر لاحد ، عدا الضباط السياسيين ، الالتقاء بالعناصر الطيبة والمواطنين المحترمين ، ورؤساء العشائر او القرى الذين ظلوا يتمتعون بصفاتهم من الاحترام الشخصي والمرح والذكاء، وان بقوا، مع الاسف الشديد ، غير معروفين الى الاغلبية الساحقة من افراد القوات فاذا لم يكن الجندي الهندي ورفيقه المسلم ، معروفا بصفة خاصة لدى سكان الجنوب من العراق ، فالضابط والجندي البريطانيان يكونان غريبين كلية بالنسبة لاختلاف طرائقهما وامزجتهما ووقعهما ، ومستوياتهما عن الجنود الاتراك

وعندما تتجمع الواجبات او المصالح المشتركة في الاداة النهرية مع الفرقاء المتعبين ، او في اجتماعات المقاهي بأشكال جيدة من العنصرين سوية ، سرعان مايسهل قيام علاقات ودية ، ولكن مثل هذه الحالات كانت جد نادرة فقد ثبت عدم الادراك والردع الذاتي المشتركين بين الجيش والسكان ، دوامهما بصفة مؤسفة ، حتى لو تصرف افراد القوات المسلحة تصرفا حسنا ، ودفعت مبالغ وفيرة لكل السلع والخدمات ولم تكن الرقابة صارمة، ومن ذلك اسكان الجنود في المدن ، واتخاذ اجراءات الحصار لحماية التموينات من غارات العدو ، وفرض الاجراءات الصحية ، والحجر الصحي الشديد ، والسيطرة على الحركة والسفر ، وانشاء الطرق عبر القنوات ، والتلف الذي تلحقه الاجراءات العسكرية بالحاصلات وبالبساتين ، كل ذلك كان من الامور المحزنة المتواصلة .

وفضلا عن ذلك فان الاتصالات الاولى بالادارة المدنية الوليدة[1] التي كان يديرها السر برسي كوكس ، ومساعده المخلص الذي لايكل ، السيد ارنولد ولسون ، قد طغى عليها انعدام اي تأكيد بأن الاحتلال سيكون دائما فما ان تأثر البريطانيون بالحذر وبالشكوك الصادرة عن الفرنسيين ، حتى كان صمتهم عن هذا الامر ، يعتبر مقدمة فعالة لتعاون نابع عن قلوب العراقيين فقد يعود الاتراك الان ولكن كثيرين بل ان معظم البارزين من سكان المدن والعشائر ، بدا عليهم بأنهم كانوا راغبين في اظهار افضل تعاون يمكن توجيهه ويكون مفيدا الى درجة قصوى[2]

لم تكن الحماسة الخالصة والمجربة لدى الضباط السياسيين القادمين والتي تعتبر من اغرب المفارقات ازاء اسلافهم الاتراك ، قد احدثت ادنى ضرر بالمجتمعات التي لم تتعود الطمأنينة التي حصلت مؤخرا او التطلع الى اعمال السلب ثانية او الاعمال التي كانت تثيرها الدعاية التركية فلقد كانت هناك ارتال تقوم باعمال تأديبية كثيرة وغير ناجحة في بعض الاحيان ، وذلك لاقتناص المعتدين والمذنبين وفي الوقت ذاته كانت الدوائر السياسية المقيدة ، سيئة التجهيز ، تغص بالكتبة من الهنود ، وتطفح بأصحاب الالتماسات ، وتشهد منذ الصباح حتى الليل قضايا التصرف بالاراضي ، والايرادات والامور العشائرية، والمحاكمات الاجرامية ، والقضايا البلدية ، ومهام الشرطة والمحاولات الجبرية لمواجهة الطلبات العسكرية المتزايدة للحصول على المعلومات ، وبطاقات التجول ، والعمل والتجهيزات

ادى احتلال مدينة العمارة الى ادخال البو محمد ، وبني لام داخل نطاق الادارة الجديدة

---

(١) من بين الموظفين البريطانيين الذين عملوا مع كوكس وولسون في خدمة الادارة المدنية في العراق خلال السنتين ١٩١٥ – ١٩١٦ ، كل من نوكس في القسم القضائي ، والاطباء بوري وسكوت ، القسم الطبي ، وكذلك واتكنس في الكمارك وغريسون في الشرطة ، وضم قسم الضباط السياسيين كلا من بارتيت ، ودكسون ، وادمونز ، وفاول ، وهولاند ، وليجمن ، ومكنزي ، ومكفرسون ، ومارس ، ونويل ، وفلبي وفي سنة ١٩١٦ انضم الى هذه الادارة كل من فوربس للقضاء ، والاطباء بشوب ، وفنج وود (القسم الطبي)، وجرارد وبرايت للشرطة وويكفورد لمطبعة الحكومة ، وولسن للقضاء التجاري ومن بين الذين عملوا في الواردات كل من دوبس ، وغاريت ومارس بعض الضباط السياسيين مهات متنوعة منهم كل من بلومفيلد ، وبولارد ، وغولدسمث ، وغرين هاوس ، وهايلز ، وهول ، وماكي ، ونواري ، وسون وغوردون ، ووكر ، وولسون ، والمس غرترود بل وكان هؤلاء الضباط السياسيون تابعين اما لادارة الهند او السودان او المشرق ، او الخدمات المعنوية السياسية ، او البيوتات التجارية التي كانت موجودة في العراق قبل الحرب (من امثال بيت لنج وغري مكنزي) وغيرهما

(٢) استطاع جواسيس الانكليز الذين طافوا بالعراق قبل الحرب العالمية الاولى بسنوات ان يوثقوا علاقاتهم الودية ويغدقوا الاموال الوفيرة على رؤساء عشائر الفرات الادنى والاوسط بشكل خاص وان يضمنوا تعاونهم مع الجيش البريطاني الغازي وكان في مقدمة هؤلاء الجواسيس العقيد ليجمن الذي زار العراق عدة مرات خلال الفترة ١٩١١ – ١٩١٣ ، والمس بل التي طافت بالعراق بحجة البحث عن الاثار فيه سنة ١٩١٠ وحين دخل الانكليز العراق كان جواسيسهم يسبقون تقدم القوات الغازية ويمهدون لها الطريق ، وذلك بالاتصال باصدقائهم القدامى من رؤساء العشائر ورجال الدين ، الامر الذي سهل على القوات الانكليزية احتلال الاقسام الجنوبية من العراق بصفة واضحة

التي كانت مطبقة في الناصرية اخذت العلاقات تتوطد بالتدريج كان كثير من زعماء العشائر يخجلون من الاتصال بحكومة مسيحية مستحدثة وقد استنكر البعض منهم مثل ذلك الاتصال ، ورفض الاذعان لتلك الحكومة في المنتفق كانت زيادة السيطرة بطيئة وشاقة ولذلك تم ترتيب نوع من العيش بسلام بين رؤساء آل السعدون وفلاحيهم الاعتياديين ، فبرزت عن ذلك اداة بسيطة للادارة ، وشرع بجمع الايرادات ، واصبح مستطاعا اقامة حكومات ادارية في الارياف يديرها مدراء من افراد العشائر انفسهم ، وحوصرت العداوات المريقة للدماء ، وجندت قوة من شرطة الهجانة كانت مقدمة لقوات المرتزقة في العراق[٣]

ولم يقع في البصرة او القرنة مايعكر الطمأنينة فيها اما في الصحراء فقد اصبحت قبيلة «الضفير» مسؤولة عن مسيرات الحدود ، وقد تم استدعاء «ابن الرشيد» من قبل السر برسي كوكس لكي يطبق الصلح ،لكنه فضل ان يظل يدور في الفلك التركي

وشرع في منطقة العمارة بتطبيق نظام المقاطعات الزراعية ، وذلك لعدم وجود اية تغييرات يمكن اتخاذها هناك ، وتم فرض الضرائب بنوع من الفطنة

وبعد احتلال مدينة الكوت شرع باجتذاب الشيوخ الذين كانوا موالين للاتراك ، الواحد منهم تلو الاخر ، وذلك بعد ان حصلت تغييرات حاسمة في المواقف، وبقي «والي بشتكوه» يحتفظ بالحياد الخاضع للمراقبة ، في حين كانت قبيلتا «زبيد» و «ربيعة» في حالة انتظار للاحداث

بقيت العلاقات مع الشيخ خزعل قوية وودية ، وقد اعيدت له سلطته القبلية التي تعرضت لهزات عنيفة في اوائل سنة ١٩١٥ اما «مبارك» شيخ الكويت الذي ظل مخلصا للانكليز حتى النهاية فقد توفي في شهر تشرين الثاني ١٩١٥ وقد تنازل ولده «جابر» الذي خلفه لمدة سنة واحدة ، عن الرئاسة الى اخيه «سالم» الذي تطلب موقفه الموالي للاتراك ، وجود قوات بريطانية في الكويت

وبالنسبة الى عبد العزيز بن سعود فقد تم ارسال بعثة حسن النوايا كان يمثلها النقيب شكسبير من الادارة السياسية الهندية ، وذلك عند اندلاع نيران الحرب ولكن هذا المبعوث قتل في حادث مأساوي خلال معركة وقعت بين آل سعود والرشيد في شهر كانون الثاني ١٩١٥ ولذلك انشغل ابن سعود بالتمرد الذي حدث بين افراد القبائل الخاضعة له وفي شهر كانون الاول سنة ١٩١٥ تم التوقيع على معاهدة اعتراف وصداقة متبادلين بين ابن سعود والحكومة

---

(٣) قوات المرتزقة هي القوات التي شكلها الجيش البريطاني لدى دخوله العراق واكمال احتلاله والتي عرفت باسم قوات «الليفي» وكانت اولى هذه القوات قد تألفت في الناصرية من افراد من ابناء العشائر ، ومن قوات «الشبانة» القديمة،ثم فتح الباب على مصراعيه امام الاثوريين للانضمام الى هذه القوات التي لعبت دورا فعالا في توطيد السلطة البريطانية ، وعندما اقدم غلوب باشا على تشكيل الجيش او الفيلق العربي في الاردن ، التحق بهذا الجيش عدد كبير من افراد القوات المرتزقة وعلى الاخص من ابناء الناصرية وغيرهم ، وتجنس البعض منهم بالجنسية الاردنية -.

البريطانية وكان السر برسي كوكس هو الذي نظم تلك المعاهدة وفي شهر تشرين الثاني ١٩١٦ وبعد استعراض حكومي في «البصرة» قرر البريطانيون منح ابن السعود كمية من الاسلحة ، وهبة مالية تبلغ ستين الف باون كل سنة

واذ قرر ابن السعود تأجيل التسوية مع ابن الرشيد فقد كان ينظر بعين الشك الى الثورة والادعاءات التي اظهرها امير مكة الطموح ذو الفكر الثاقب ، الحسين بن علي غير ان ابن السعود نفسه ، ولاسباب نابعة من السياسات العربية ، لم يشارك في الحرب

ادى تراجع الاتراك الى انتقال كبار الموظفين من جنوبي العراق ، الامر الذي جعل الذين يمارسون اعمال النهب ، والممتنعين عن دفع الضرائب ، يقدمون على اتلاف السجلات الحكومية ولذلك كان على الادارة الجديدة ان تبدأ من لاشيء وكان استبدال اللغة التركية باللغة العربية يتطلب الاحتفاظ بالكثير من اشكال الاجراءات التركية التي كانت سائدة ، بما في ذلك قضايا تخمين الايرادات لانه كان يتعذر وجود ماهو افضل منها

كان يجري استيفاء الرسوم الكمركية بنسبة عشرة في المائة عن جميع مدخولات السلع المدنية وقد بقي الفصل في قضايا الاجرام في يد الحاكم العسكري والضباط السياسيين ومساعديهم

من بين الشروط التي الغاها قرار تركي نشر في كل انحاء الامبراطورية التركية اثر اندلاع نيران الحرب قرار يقضي في ذلك الوقت بعدم الحاجة او السؤال اما بالنسبة الى القضايا التي تقع بين رجال العشائر، فقد تم تطوير قانون خاص هو نظام المنازعات العشائرية» الذي ظل ساري المفعول لسنوات عديدة وكانت القضايا المدنية تجري معالجتها على يد محاكم انشئت حديثا في مراكز متتابعة ، ويتم تنفيذها باللغة العربية كذلك تم انشاء تشكيلات للشرطة ، وللشرطة المحلية تحت اشراف الضباط البريطانيين في كل من العمارة والناصرية اما قوات «الجندرمة» التي عرفت باسم «الشبانة» فقد ظلت تطبق الاوامر تحت اشراف الضباط السياسيين ، وتمارس مختلف الخدمات في المدن الصغرى والارياف الواقعة على ضفاف الانهار

كانت قوات الشبانة في منطقة العمارة ذاتها قد تألفت من الشيوخ البارزين انفسهم اما في القرنة والاهوار فلم يكن افراد الشبانة هؤلاء من ابناء العشائر وفي الناصرية وسوق الشيوخ اضيفت الى قوات الشرطة فيهما تشكيلات من الخيالة العشائريين تحت امرة القيادة العسكرية بصفة مباشرة

ومثل هذا الاهتمام تم بذله حسب المستطاع ، وفي وقت مبكر ايضا ، نحو المتطلبات الصحية حيث تمثل في صفة مستوصفات ومستشفيات تقوم بخدمة السكان المحليين ، وكذلك الاصرار على التمسك بالامور الصحيه والسيطرة على التزود بمياه الشرب في المدن ، واتخاذ الاجراءات المضادة لمرض الملاريا والامراض الوافدة الاخرى

وتم في البصرة انشاء مصلحا [illegible] للانباء حيث تم اصدار صحيفة باللغتين العربية والانكليزية[٤]

واقدم المصرفان الشرقي والعثماني الامبراطوري على فتح فروع لهما في مدينة البصرة ، وسرعان ما اعقبهما في ذلك المصرف الفارسي الامبراطوري[٥] وبدأت في سنتي ١٩١٥ و ١٩١٦ مدارس ابتدائية قليلة تمارس اعمالها وقدمت الهبات الى مدرسة التبشير الامريكية في البصرة[٦] وكذلك الى المدارس التي تديرها الاقليات المسيحية واليهودية هناك

غير ان الاحتلال البريطاني لم يكن في هذه المرحلة ليشمل سوى اجزاء صغيرة من العراق اما بقية الاجزاء فقد بقيت تحت اشراف الحكومة التركية التي تعاظمت عسكريا وفظاظة ووهما فقد غادر بعض المقيمين الاجانب في بغداد قبل اعلان الحرب الى كل من البصرة والمحمرة وبقيت الطائفة البريطانية مصونة غالبا عندما انفجرت الحرب ، ولم يلبث الرجال من افرادها ان غادروا الى سوريا حيث استطاع جمال باشا والي بغداد السابق والمعروف بصفة شخصية لدى معظم البريطانيين ، بتدخله ان يضمن اطلاق سراحهم من دون ادنى قيد او شرط في حين عاد البعض منهم الى العراق ، وكان من بين هؤلاء المقدم سون وارثر تود اللذان عادا الى البصرة عن طريق مصر ،[٧] اما النساء البريطانيات فقد مكثن في بغداد حتى شهر اذار ١٩١٧ حين تم ارسالهن الى اسطنبول ليبقين فيها بقية ايام الحرب

ولقد تعرضت المصالح الاجنبية وكذلك مصالح معظم العراقيين الممتازين لخسائر فادحة ، نتيجة القيود المفروضة واعمال المصادرة الشديدة والاغتصاب الذي يندر ان يدفع اي تعويض عنه وازداد سوء معاملة الاتراك للسكان ، تبعا لتعاظم الحركة القومية العربية فأشتد الاتراك في سخطهم نتيجة عدم مبالاة العرب ، او سوء موقفهم ازاء المجهود الحربي الذي

---

(٤) هي صحيفة «الاوقات البصرية» Basrah Times التي صدرت باسم سليمان الزهير وبقيت تصدر لمدة خمس سنوات الى ان حلت محلها جريدة الاوقات العراقية Iraq Times التي اصدرتها شركة انكليزية في شهر ايار ١٩٢١

(٥) المصرف الشرقي والمصرف العثماني وكذلك المصرف الفارسي كلها مصارف انكليزية بحتة ، وان كانت تحمل اسماء تحيل الى من يقرأها او يسمعها انها تعود الى الدولة العثمانية او الحكومة الفارسية

(٦) هي مدرسة الرجاء التي التحق بها عدد كبير من البصريين كان من بينهم يوسف سلمان يوسف (فهد) مؤسس الحزب الشيوعي العراقي في سنة ١٩٤٠ وبهجت العطية مدير الامن العام في اواخر العهد الملكي وكان الاثنان يدرسان في صف واحد في تلك المدرسة

(٧) كان المقدم سون قد عين اثناء الحرب ضابطاً سياسيا للسليمانية والمعروف عنه انه امضى اربع سنوات متنكرا في تلك المنطقة من كردستان وكانت له علاقة وثيقة بزعماء عشيرة «الجاف» الكردية وقد وضع كتابا مهما عن مشاهداته واختباراته هناك بعنوان «رحلة تنكرية الى كردستان» ترجمه فؤاد جميل في جزئين وشحنه كعادته بالفاظ نابية واستشهادات سخيفة .

كان حكامهم يبذلونه فقد تم حل «اللجنة الحرة»[٨] في سنة ١٩١٦ واوقفت اعمال البعثات التبشيرية الاجنبية ، الكرملية منها واليهودية والبروتستنتية في بغداد والدومنيكية في الموصل، وفرض الحظر على نشاطها وتم فرض التجنيد بشدة على الطبقات التي كانت معفاة منه قبلا ، واوجدت التعبئة العامة ، المزيد من المصاعب الكثيرة

وتم تعزيز الاعلان المبكر للحرب المقدسة ضد الكفار ، من لدن جميع الوعاظ في اي مسجد يعود الى طائفة السنة ام طائفة الشيعة ، يستطيع الاتراك التأثير فيه وتم خلق احساس شعبي او ديني الا انه كان ضعيفا ولفترة قصيرة في مدينة البصرة خلال سنة ١٩١٥ ولكن هذا الامر برهن على انه ممكن في ظل مثل هذا التنكر ، وذلك بتعبئة بضعة الاف من افراد العشائر المتعطشين الى اعمال السلب ، من اواسط العراق ، ويضع مئات من جنوبي كردستان وانضمامها الى القوات التركية التي كانت تقاوم في الشعيبة وفي عربستان[٩]

ولقد كانت القوة الحربية لهؤلاء غير ذات بال ، وكان نتاجها عبارة عن حدة اضافية بين الاتراك والعرب ، وفشل مشروع الجهاد بصفة نهائية ذلك ان رجال العشائر عادوا الى اهليهم مطمئنين بعد ان تأكدوا ان هربهم لم يعرضهم للاذى على ايدي البريطانيين المحتلين بصفة مؤقتة ذلك ان كثيرا من شيوخ العشائر قد بدلوا ولاءهم عدة مرات – اذا كان حسدهم ، وتصرفاتهم العقيمة في التشبث تستحق ان تذكر – وهكذا استمر الاتراك يغدقون المنافع على عجمي السعدون وابن الرشيد ، ويحرضون الرجال في اواسط الفرات على مقاومة الغزاة الكفار ولقد جوبهت هذه الجهود بالخلافات العميقة القائمة من ناحية ، وبالدعاية البريطانية من ناحية اخرى وكذلك بالاتصالات العشائرية السابقة التي لم تنتج عنها اية نتائج حربية

---

(٨) يقصد المؤلف «باللجنة الحرة» «حزب الحرية والائتلاف» المناهض للاتحاد والترقي والذي تأسس في اسطنبول في شهر تشرين الثاني ١٩١١ وحصل الحزب في كانون الثاني ١٩١٢ على اذن له بفتح فرع له في بغداد كان اول رئيس له هو شكري الفضلي وهو من الشبان والادباء العراقيين الذين عملوا قبلا في حزب الاتحاد والترقي ومن بين الاعضاء البارزين في حزب الحرية والائتلاف محمود نديم الطبقجلي صاحب جريدة بين النهرين ، وحمدي الباجه جي وكلاهما من اعضاء الحزب الحر المعتدل المعارض للاتحاد والترقي وقد استطاع حزب الحرية والائتلاف ان يعيد المعارضة القوية ضد الاتحاديين كما افتتح فرعا له في البصرة ترأسه لاول مرة السيد طالب النقيب ثم خلفه في الرئاسة الحاج محمود عبد الواحد –.

(٩) يشير المؤلف بذلك الى قوات المجاهدين وهي قوات من المتطوعين المسلمين لمحاربة الانكليز الكفار وقد نادى الغيارى من المسلمين بتأليفها بعد ان افلح الانكليز في احتلال الفاو والتقدم لاحتلال البصرة حيث اعلنت حالة الجهاد في الليلة السادسة عشرة من شهر محرم ١٣٣٣ هـ ٢٦ تشرين الثاني ١٩١٤ ، وتحركت جموع المجاهدين في اليوم التالي الى الكوفة ومنها توجهت الى السماوة ومنها ركبت السفن الى الناصرية ومن ثم تقدمت قوات المجاهدين الى الشعيبة لتتركز في منطقة النخيلة في حين تركزت قوات الاتراك في منطقة البرجسية على بعد اميال من الجنوب الغربي للشعيبة وقد خضعت قوات المجاهدين لامرة سليمان العسكري كان الأنكليز قد احتلوا الشعيبة ولذلك بدأ هجوم المجاهدين والقوات التركية عليها صباح يوم الاثنين الثاني عشر من نيسان ١٩١٥ واستمرت المعركة ثلاثة ايام تفوق فيها الانكليز فانسحبت القوات التركية الى البرجسية واذ ذاك سادت الفوضى صفوف المجاهدين فراح كل واحد يحاول ان ينجو بجلده ولقد تألم سليمان العسكري للهزيمة التي لحقت به فجمع ضباطه وانتحر امامهم بأن اطلق النار من مسدسه على رأسه فخر صريعا وهكذا تشتتت قوات المجاهدين ولم تقم لها اية قائمة فيما بعد.

وفي الوقت ذاته تطورت في المدن المقدسة حالة خطيرة جدا بالنسبة الى الاتراك ذلك لان حقد الاتراك على رجال الدين في النجف وكربلاء لم تخف حدته بعد فقد وجد الهاربون من صفوف القوات التركية ملجأ لهم في مدينة النجف ، وجرت محاولة لانقاذهم مما اضاف المزيد من اعمال الاغتصاب والشغب الحادة ، والانتقام التي احدثت العطب بالابنية المقدسة

ولم تلبث الحشود الخانقة ان تغلبت على القوات التركية ، ونهبت دوائر الحكومة ، واقامت حكومة مؤلفة من بعض المواطنين البارزين واخذت حركة الثورة ضد الاتراك تنتشر الى كربلاء وغيرها ، نتيجة الدعم الواسع الذي حظيت به من لدن افراد العشائر . وطردت الحامية التركية والموظفون الاتراك ، واحرقت منازلهم ودمرت ممتلكاتهم ولكن هذه الحركة لم تتطور الى عمل موحد وسرعان ماخمدت ، واستطاع الاتراك ، بعد فترة من المصالحة والتهدئة ، ان يستعيدوا سلطتهم الاسمية

وتطورت المراسلات في شهر ايلول سنة ١٩١٥ بين الناطقين باسم المدن المقدسة والسر برسي كوكس ، حيث عرض اولئك الناطقون بعبارات تصويرية رفيعة ، نقض ولائهم للاتراك في حين قدم لهم السر برسي كوكس هبات من الاموال لقاء ذلك

بعد ستة اشهر اخرى انفجرت الاضطرابات مجددا في كربلاء ، فقد ادت محاولة اعتقال بعض الاشخاص الى اعمال عنف، ثم طرد الاتراك من المدينة خلالها مجددا واعقب ذلك حدوث نفس الاعمال في كل من النجف والحلة ولقد كانت الحلة مسرحا لمأساة ظل الناس يتذكرونها مدة طويلة ذلك ان القوات التركية التي ظهرت خارج المدينة في شهر تشرين الثاني ١٩١٥ ، قد اقدمت على اعتقال عدد من الرجال المعروفين في المدينة فشنقت بعضا منهم ، ثم ضرب قسما من المدينة ونهبته

اما في شمالي العراق فان الحياة الاقتصادية وتجارة المرور الى فارس ، قد تعرضت الى كارثة نتيجة تعطيل خط البصرة التمويني ، الامر الذي ادى الى تراكم الحبوب والتمور المعدة للتصدير ، في الوقت الذي تعاظم فيه نقص المنسوجات ، والادوات ، والحاجيات الضرورية المستوردة وبذلك شلت الحركة التجارية ، وصاحب حركة اصدار العملة الورقية التي فقدت قيمتها ، احتكار وحشي للذهب ، وللمواد التي لها قيمتها ، وبذلك غدت الحياة المدنية اكثر اضطرابا واقل تحملا ولقد تعقدت تلك الحياة بزيادة الضغط على الاقليات ، وبظهور اللاجئين الارمن بالمئات نتيجة المذابح التي وقعت بينهم وبين الاتراك في الاناضول خلال سنتي ١٩١٥ و ١٩١٦

ولقد وجد بعض هؤلاء اللاجئين مستقرا لهم في المدن ، في حين تفرق البعض الاخر بين افراد العشائر . واضطر الحكام الضعفاء المعتصرون الى تجاهل الاوامر الصادرة اليهم بالقضاء على تمرد العشائر ، ومع ذلك كانت توجد بعض الضربات الموجهة من قبل الحكومة التركية .

٤ ـ الكوت ـ بغداد ـ الموصل

استغل تراجع طاونزند الى الكوت في اوائل شهر كانون الاول ، استغلالا تاما في نهاية ذلك الشهر. كان برسي كوكس قد غادر العراق ، طبقاً للاوامر التي صدرت اليه قبل ان يكمل حصار الكوت كان في داخل مدينة الكوت حوالي ستة الاف عراقي ، ولقد تم رفض تنفيذ الاقتراح الداعي الى اخلاء هؤلاء العراقيين من المدينة بدأ الحصار بهجوم تركي عنيف في اليوم الرابع والعشرين من شهر كانون اول ، ولم ينجح ذلك الهجوم ، ولم يتكرر ايضا كانت القوة التي يقودها خليل باشا في ذلك الوقت ومايليه ، تتألف من عناصر قوية من الفيلق التركي الثالث عشر (الفرقتان ٣٥ و ٣٦) والفيلق الثامن عشر (الفرقتان الخامسة والاربعون والحادية والخمسون) اضافة الى الفرقتين الثانية والثانية والخمسين اللتين وصلتا فيما بعد

كان جيش خليل باشا اكثر عددا ، وايسر تجهيزا من القوات التي جاءت لنجدته اما جيش طاونزند فكان مؤلفا من فيلق دجلة ، المؤلف من الفرقة الهندية السابعة والتي عرفت بعد فترة قصيرة باسم الفرقة الهندية الثالثة ، ولواء الخيالة السادس ، وفيلق من قوات متنوعة ، وقد تولى امرة قيادتها ابتداء من اليوم الثاني عشر من شهر كانون الاول الفريق «ايلمر». تركزت هذه القوات في «علي الغربي» منذ الايام الاولى لسنة ١٩١٦، ومن ثم تحركت في اعالي النهر ، واحتلت بلدة «شيخ سعد» لكنها اخفقت في الاستيلاء على موضع «ام حنة» في اليوم الحادي والعشرين من شهر كانون الثاني ١٩١٦ [١] لكن احوال الفيضان ، ووجود الاوحال ، والمرض ، ونقص وسائل النقل والتموين ، قد اوقفت عمليات هذه القوات بحيث غدت غير قابلة للحركة قبل اسبوع من ذلك الوقت ، استخلف الفريق السر نكسون الذي انهارت صحته ، بالسر برسي ليك في منصب القيادة العليا ، كانت العناية الاولى التي ابداها السرليك ، هي التخطيط لتحسين التسهيلات في ميناء البصرة ، لان الاضطراب والفوضى كانتا ضاربتين هناك ؛ ولغرض الاقدام على تعزيز الاسطول النهري الذي كان يكتنفه النقص المشين ، وشق الطرق ، ومد سكك الحديد

---

(١) موقع ام حنة ، على الضفة اليمنى من نهر دجلة وفي الجنوب مباشرة من دورة النهر التي عرفت انذاك باسم (دورة الخضيري والى الشمال مقام «محمد الحسن» ومن ام حنة وبامتداد النهر على الجهة اليمنى كان يقوم خط المراقبة التركي

ادت هذه الخطة الى اعطاء وعد باجراء تحسينات مقبلة لكن تلك التحسينات جاءت كلها جد متأخرة بالنسبة الى عمليات الكوت وكان ارسال الفرقة البريطانية الثالثة عشرة من اوربا ، والعملية الشاقة لتحويل السيطرة على الجيش البريطاني والجيش البريطاني الهندي ، وقوة الحملة الهندية (د) والتي اصبحت الان تعرف باسم «قوة حملة بلاد الرافدين» من الدائرة الهندية الى السيطرة المباشرة لوزارة الحرب البريطانية ، كل ذلك كان من العوامل الاخرى المشجعة ، كذلك كان احتلال الروس لارضروم في اليوم السابع عشر من شباط ، وتقدم قواتهم جنوبا نحو كرمنشاه على الطريق المؤدي الى بغداد ، من العوامل المشجعة ايضا. ولكن النجوم التي تسري في مسالكها وبتحالف قوي معها من الانحطاط العسكري الخالص ، والاوضاع المدمرة للقلوب ، كل هذه القوى قد تحالفت الان ضد فيلق دجلة ذلك ان الهجوم الموعود به على الضفة اليمنى من فرع «الدجيلة» قد تحول الى كارثة ، نتيجة سوء فهم القادة وكانت الطلبات التي تقدم بها «طاونزند» للنجدة ، تشير الى تواريخ جد متأخرة بالنسبة الى طاقة تحمله

خلف «غورنج» الفريق «ايلمر» في قيادة الفيلق ، واستطاع بقوات جديدة من الفرقة الثالثة عشرة التي يقودها اللواء «ستانلي مود» ان يقتحم موقعي «ام حنة» و «الفلاحية»[٢] وذلك في اليوم الخامس من شهر نيسان ، ولكن خط «الصناعيات»[٣] قد برهن على عدم اختراقه اما موقع «بيت عيسى» على الضفة اليمنى من النهر ، فقد تم احتلاله[٤] ولكن الهجوم الذي وجه في اليوم الثاني والعشرين من نيسان ضد «الصناعيات» لم يكن ناجحا وسبب خسائر فادحة

ارتفع عدد القتلى من فيلق دجلة ، خلال اربعة شهور الى اكثر من ثلاثة وعشرين الف رجل وكانت الهجمات الجبهوية الاخرى خارج نطاق البحث ، في الوقت الذي غمرت فيه الفيضانات اجنحة ذلك الفيلق ، ولم تعد التموينات التى تلقيها الطائرات تحول دون النهاية المحققة كما ان المحاولة اليائسة غير الجديرة التي اريد بها شراء سلامة الحامية بالمال من القائد التركي ، قد تم عرضها فرفضت تم ارسال كل من «لورنس واوبري هويرت» الى العراق للقيام بجهد لم يكن السربرسي كوكس قد وافق عليه[٥]

---

(٢) الفلاحية تقع في ذات المنطقة التي يقع فيها موقع ام الحنة وقد حدثت فيه عدة معارك اولها المعركة التي وقعت في ٢١ كانون الثاني ١٩١٦ والثانية في ٢٢ شباط.

(٣) موقع الصناعيات يقع شرقي الكوت بمسافة ثمانية اميال على الضفة اليسرى من نهر دجلة والى مقربة منها نحو الجنوب تقع منطقة تخيلات

(٤) بيت عيسى، يقع الى الشمال من موقع حجلة على الضفة اليمنى من النهر

(٥) قام لورنس بمهمة اقناع القائد التركي خليل باشا بفك الحصار عن الانكليز في الكوت مقابل مبلغ مليون جنيه استرليني ولما رفض القائد خليل باشا ذلك العرض رفعه لورنس ورفيقه هوبرت الى مبلغ مليوني جنيه ولكن الرفض المطلق كان الجواب الحاسم على ذلك وقد تحدث خليل باشا في مذكراته التي نشرت بالتركية مؤخرا وترجم قسم منها الى العربية في بعض الصحف العراقية منها جريدة «العالم العربي» عن معركة الكوت ورشاوي الانكليز باسهاب.

واخيرا فشلت مغامرة بطولية لاقتحام الحصار من ناحية النهر ، عن طريق استخدام احدى سفن شركة لنج المعروفة باسم «جلنار» التي كان يقودها النقيب «كولي». وفي اليوم التاسع والعشرين من شهر نيسان ، استسلم طاونزند هو وافراد حاميته المؤلفة من الفين وستمائة وخمسين نفرا من البريطانيين ، وستة آلاف وخمسمائة نفر من الهنود. كانت المعاملة المقيتة في العراق وتركيا ، لاسرى الكوت الذين وقعوا في ايدي الاتراك ، والاجراءات والتقرير الذي اعدته لجنة العراق ، والذي القت فيه اللوم عن تلك الهزيمة على عاتق كل من يخصهم الامر، قد اعدت بايد سخية ولكن متحاملة ، انما تعود بالاحرى، الى تأريخ الجيش البريطاني، اكثر مما تعود الى تأريخ العراق . ومع كل ذلك تم تقييم المؤثرات المحلية لانحدار الكوت ذلك لان الكثيرين من افراد العشائر المتقلبين قد غيروا مواقفهم مجددا ، وانسحبوا من الميدان ، ولهذا فلم يبق في مستطاعنا عمل شئ ما ، سوى بذل القليل لتطوير الادارة المدنية ، او توسيع نطاقها ، فيما وراء ضفاف النهر ، وقد ازداد التردد لدى سكان المدن في تعريف انفسهم للبريطانيين ، ولو ان ذلك كان اقل مما كان متوقعا له

بدأ الاتراك الذين دخلوا الكوت مجددا منتصرين ، يتصرفون في حملة واسعة لتعويد الناس على الطاعة ، وقد شنقوا او فتكوا ببعض المدنيين من العراقيين الذين اقترفوا الخيانة لانهم تحملوا وقع الحصار ، وذلك درس لن ينساه الجمهور العراقي في اي مكان وبعد ان وطد خليل باشا مركزه على نهر دجلة ، استولى على منطقة الصناعيات بفيلقه الثامن عشر (الفرقتان ٤٥ و ٥٢) واستطاع ان يبعث بفيلقه الثالث عشر الى داخل بلاد فارس لمقاومة الروس الذين استطاعوا ان يردوا ذلك الفيلق بصفة حاسمة على اعقابه ، وذلك بعد ان سبق للقائد «باراتوف» ان احتل «كرند» وراح يهدد مدينة خانقين(٦)

تسلم رئيس الاركان البريطاني في اليوم الثلاثين من نيسان تعليمات تقضي بان يقوم بدور الدفاع ، ولكن عليه ان يصون مواقعه المتقدمة ، على امل التعاون مع الروس ، والتقليل من فقدان الانحياز،وعلى اثر ذلك دخلت قواته مرحلة من اعادة التجمع ، واعادة التشكيل،وهكذا انضمت فرقة جديدة هي الفرقة الرابعة عشرة ، الى القوات المتقدمة التي كانت تقابل مدينة الكوت

ومع ان الفترة الممتدة من شهر نيسان حتى شهر كانون اول من سنة ١٩١٦ ، لم تتميز باية

---

(٦) كان باراتوف يقود الفيلق القفقاسي الاول الذي خصص له لمهاجمة العراق الاوسط على محور كرمنشاه - خانقين - بغداد ، وقد تصدى له الفيلق التركي الثالث عشر الذي كان يقوده العميد علي احسان ، وعندما تولى الجنرال باولوف قيادة القوات الروسية بدلا من باراتوف في نيسان ١٩١٧ كانت قواته ترابط في كل من قصر شيرين وخانقين ووصلت مفرزة من هذه القوات الروسية الى ناحية «السعدية» كما احتلت قلعة «شروان» في التاسع من ايار ١٩١٧ وكانت القيادة الروسية قد طلبت من القيادة الانكليزية التعاون بتعرض للقوات التركية في «دلي عباس» وسد نهر العظيم (العميد الركن شكري محمود نديم الجيش الروسي في حرب العراق ص ٣٢) .

عمليات حربية ، الا انها شهدت انتقالا تدريجيا للقوات البريطانية من موضع النقص في التجهيزات وخدمات النقل ، وتعزيزات تنظيم تميزت بالوفرة وبالاصالة وعلى الرغم من الجهود الكبيرة التي بذلها القائد «السر برسي ليك» الا ان هذه الامور لم تتحقق ، الا بصفة تدريجية تنطوي على الالم ، حتى في شهر اب ، حيث كان من اللازم – لاسباب تموينية – سحب الفرقة الثالثة عشرة الى المؤخرة

اخذت الاسلحة ، والذخيرة والتجهيزات ، ومواد سكك الحديد ، ووسائط النقل البري والنهري ، تصل اسبوعا اثر اسبوع فلقد تم انشاء ميناء البصرة حسب اسس عصرية موسعة على يد «السر جورج بكونان» وذلك ببناء الارصفة ، وتوفير التجهيزات ، وعمليات الكري والتعويم . كذلك انشئت الطرق وسكك الحديد الخفيفة لغرض استخدامها ، وتمت صيانتها بانشاء سدود تحميها من الفيضانات التي تهدد دوما

وتضاعف عدد الاسطول النهري الى خمسين ضعفاً ، وذلك بضم سفن متنوعة اليه من كل الاماكن ، كما تم تنظيم مديرية للنقل النهري الداخلي التي اخذت تشرف على اسطول لامثيل له في انهار العالم ، بالنظر الى عدد الحمولات المستعملة ومقاديرها ، الامر الذي لعب فيما بعد ، دورا له اهميته الواسعة

كذلك تمت تقوية القنوات ، وعمليات الانارة ، في نهري دجلة وشط العرب بقصد تسهيل الملاحة فيهما ، كما شقت قناة عميقة بكلفة فائقة عبر «هور الحمار» ولكن تم التخلي عنها ولم يتم استعمالها

اما بالنسبة الى الطرق البرية فقد شرع باستخدام وسائل النقل الآلية على نطاق موسع خلال سنة ١٩١٦ ، وانشئت نواة للمستودعات ، واماكن التصليح اللازمة لذلك واستطاعت هذه الوسائل ان تغير في يوم من الايام والى الابد ، مفاهيم العراقيين عن الحركة في البر . اما الطائرات التي لم تكن موجودة عند اندلاع الحرب ، والتي لم يزد عددها عن ثلاث طائرات في خريف سنة ١٩١٥ ، فقد تضاعف عددها وكانت من انواع محسنة ، بحيث تصل الى مستوى التفوق على طائرات العدو لاول مرة

وبالنظر الى الخدمات الطبية التي كانت ناقصة فيما سبق الى درجة الفضيحة المحزنة ، فقد اعيد ترتيبها ، وازدادت زيادة كبيرة وتم توحيد مديرية العمل ، التي وفرت الاجور الجيدة ، والاستخدام الحسن ، للالوف من العرب والاكراد في مديرية متقدمة هي مديرية المواد المحلية ، التي وسعت عملياتها توسيعا كبيرا في كل المناطق المسيطر عليها ، واخذت تمارس اعمالها عن طريق عدد لايحصى من التعهدات والتجهيزات ، فهذه الخدمات المنوعة المتشابكة التي ضاعفت الطاقة التموينية للحملة ، وملأت مناطق القاعدة ، وخطوط المواصلات ، قد تم تنسيقها بقدوم مفتش المواصلات العام الفريق «هاكمون».

بوشر ببناء سكك الحديد ، على حدة من الخطوط الخفيفة المتوفرة في الميناء ، وذلك في شهر نيسان سنة ١٩١٦ اذ كمل مد خط متري من البصرة الى الناصرية في شهر كانون اول ١٩١٦ ، في حين شرع بمد خط من قياس اضيق بين القرنة والعمارة في شهر تموز/حيث تم افتتاحه في شهر تشرين الثاني وفي شهر اب مد خط خفيف اخر يربط بين شيخ سعد والسن[٧] ومن ثم اوصل هذا الخط الى «امام منصور»[٨] وفي سنة ١٩١٧ حول خط القرنة – العمارة الى خط متري ، بينما انشئ في صيف تلك السنة خط آخر بين الكوت وبغداد ، وقد ملئت الثغرة القائمة بين القرنة والبصرة فيما بعد بينما بقيت الثغرة القائمة بين العمارة والكوت ولكن كل هذه السكك كانت قد قلعت كلها بعد انتهاء الحرب ماعدا السكة الممتدة بين البصرة والناصرية وكانت كل هذه السكك قد استخدمت لاغراض الحرب،ولم يكن لها اي دور اقتصادي في الحياة المدنية

اصبح مستطاعا في خريف سنة ١٩١٦ امعان النظر في القيام بعمليات حربية اخرى ، حيث اخلى السر برسي ليك القائد المسن والمريض ، المجال امام القائد الجريئ المنافس ستانلي مود ، وذلك في شهر اب من تلك السنة كان فيلق دجلة قد تم تقسيمه الآن الى فيلقين:الاول والثالث ، وحل الفريق «كوب» محل غورنج في قيادة الفيلق الاول (الفرقتان الثالثة والسابعة) في حين اعطيت قيادة الفيلق الثالث (الفرقتان الثالثة عشرة والرابعة عشرة) الى العميد مارشال واستطاعت الفرقة الخامسة عشرة ، تحت قيادة الفريق بروكنغ ، ان تحتل القسم الادنى من الفرات

كان هناك لواءان من الخيالة ، واكثرية قوات الجيش ، مهيأة للقيام بعمليات هجومية ، دون التخلي عن صيانة طرق المواصلات التي ظفر بها الآن. كانت الحالة بالنسبة الى العمل الان ، اقوى ، منذ التراجع الروسي ، والتغلغل التركي في بلاد فارس ، ذلك التغلغل الذي اذا لم يتم صده،فانه قد يهدد حقول النفط هناك .

بدأت اللجنة العسكرية في الوزارة البريطانية تؤيد فكرة الاقدام على تطبيق «سياسة شبه هجومية على اقل تقدير» ، «وان يتوطد النفوذ البريطاني في ولاية بغداد فيما بعد». ولهذا الغرض صدرت التعليمات الى القائد «ستانلي مود» بان يعزز مواقعه الامامية ، وبذلك احس بأنه قد اصبح طليقاً كما يأخذ بنظر الاعتبار احتمال حصول تقدم كي يتزامن ذلك مع الجهود التي يبذلها الروس في بلاد فارس وفي كردستان.

---

(٧) السن مجموعة من الروابي الرملية تمتد من ضفة دجلة اليمنى الى جدول الدجيلة ويعرف القسم الشمالي من هذه الروابي باسم «السن» والجنوبي باسم «الابتر»

(٨) امام منصور يقع على الضفة اليمنى من استدارة قناة الدجلية التي تتفرع من دجلة .

من بين القوات التي كانت تواجه احداها الاخرى في مواضع الكوت، اصبحت القوات البريطانية الآن اكثر قوة. ولذلك صمم «مود» حسب خطة مدروسة يتم تنفيذها في مراحل محدودة ومتلاحقة. على ان يدحر قوات العدو، دون الاهتمام ببغداد، او بأية اعتبارات سياسية.

بدأ مود عملياته الحربية في اليوم العاشر من شهر كانون اول ١٩١٦. ان تفاصيل هذه العمليات تخص التاريخ الحربي، ولكن يكفي هنا ان نسجل بان المراحل التي تم بها تنظيم تقدم «مود»، والتي بقيت كل مرحلة منها تسير بصبر وبمنطق حتى النهاية، قد ادت - رغم المقاومة الشديدة والخسائر المعتدلة - الى تطهير القوات التركية من الضفة اليمنى لنهر دجلة حتى شط الغراف (الحي) وذلك في اليوم الرابع من شهر شباط، ومن ثم الاستيلاء على (دهرابند)[9] في اواسط شباط، وعلى موقع «الصناعيات» في اليوم الرابع والعشرين منه.

تم عبور نهر دجلة من ضفته اليمنى الى الضفة اليسرى في دلك اليوم، ولهذا راحت القوات التركية المنحلة المندحرة، تتعقب الضفة اليسرى لنهر دجلة متجهة نحو بغداد. وبعد توقف لاغراض التموين، واعادة التنظيم، واعاقة موقتة لعبور نهر ديالى، لم يستطع الاتراك اظهار اية مقاومة جدية، دون ماسمح به رئيس الاركان الامبراطورية العامة في لندن، في البرقية التي بعث بها، من استغلال النجاح الذي حققه القائد «مود» الى اقصى حد، والاستيلاء على بغداد، وهكذا استطاعت القوات البريطانية ان تدنار بغداد في اليوم الحادي عشر من شهر اذار سنة ١٩١٧

تحقق الآن، الهدف السياسي من الحرب، ان كان ذلك هو القصد حقا. غير ان احتلال بغداد من الناحية الستراتيجية، لايمكن صيانته من دون احتلال اراضي اخرى الى الشمال والى الغرب. وعلى هذا فلابد من تهيئة الطرق التي تصل الى تلك الاراضي، وان تتم الحيلولة دون خطر الفيضان المدمر. اندفعت الارتال البريطانية بحماسة الى امام، واستطاعت في نهاية شهر اذار، وبعد سلسلة من العمليات الناجحة، على نهر دجلة وضفتي نهر ديالى، ان تستولي على خط شهربان سميكة - فلوجة، ولو ان منخفض عقرقوف، والطرق الواقعة الى الغرب من بغداد قد اغرقها الاتراك بالمياه بعد ان نسفوا السدود المقامة على نهر الفرات. وحتى اواخر شهر نيسان، وحين تواصلت العمليات للاستيلاء على سامراء، وجبل حمرين، اعتبر الوضع آنذاك مصونا بصفة تامة، وعندئذ سمح للقوات المتقدمة بالتوقف.

لم تلبث القوات الروسية، على الرغم من اندلاع نيران الثورة في الحادي عشر من اذار[10]

---

(٩) دهرابند. لم نجد لهذا الموقع اي ذكر في الخرائط العسكرية والمعتقد انه فرضة عند ثنية دجلة بين الفلاحية والصناعيات.

(١٠) يقصد المؤلف بالثورة هنا هي الثورة البلشفية التي وقعت ضد القيصرية في اليوم الثامن شهر تشرين الثاني سنة ١٩١٧ وليس في اليوم الحادي عشر من اذار كما ذكر ذلك المؤلف خطأ. وهذه [illegible] ره البرجوازية الاولى التي [illegible]ثت في السابع من شهر شباط سنة ١٩١٧.

ومن دون نتائج غير متوقعة، ان تقدمت مرة اخرى عبر شمالي غربي بلاد فارس، وتوجهت نحو كرمنشاه، في وجه مقاومة ضارية ابداها الفيلق التركي الثالث عشر، ولكن هذا الفيلق لم يلبث مؤخرا ان تحرر وارتد الى «كفري» في حين احتل الروس كلا من «قصر شيرين» و «خانقين»، واخيراً قزل رباط، حين اصبحوا قادرين على ان يضعوا ايديهم في ايدي البريطانيين[11]

على ان الامال التي كانت معقودة على مساعدة الروس للبريطانيين من ناحية الشمال ضد الموصل او الاستيلاء على بغداد، قد ثبت بانها كانت باطلة. ذلك لان قوات القيصر «اخذت تتفكك ببطء، واصبح وجودها على حدود العراق الشمالية والشمالية الشرقية لاينطوي على اي شيْ نافع، سوى الارباك المثير للالام».

مر خريف سنة ١٩١٧ وشتاؤها، وربيع سنة ١٩١٨، من دون وقوع عمليات حربية كبيرة. كان توقع اقدام الاتراك على حركة مضادة في العراق، يقوم بها جيش الصاعقة «ييلدرم» الذي كان يتباهى به، والتي تهدف الى كنس القوات البريطانية وارجاعها الى الخليج العربي، كان هذا التوقع مخيبا للآمال، وذلك لان الاتراك فضلوا ان يبذلوا مثل هذا الجهد وباقصى مايستطيعون في جبهة سوريا – فلسطين. كذلك كان في مستطاع البريطانيين الذي يحتفظون الآن بقوات مهمة في اي مستوى من المستويات، وبنظام عجيب، ان يخططوا لنجاح غير موسع، وذلك نتيجة نقص القوات الفعالة لدى العدو لدحر القوات البريطانية، او احباط الهدف الستراتيجي من عمليات التعقيب.

وفي شهر ايلول، ونتيجة واحد من الاخطاء في قراراته العسكرية، اقدم القائد «مود» على محاولة فجة غير ناجحة للاستيلاء على الرمادي. وبعد شهرين من ذلك الوقت وفي جو افضل، عاود الهجوم مرة اخرى فاستطاع ان يقدم مواضعه ليس الى الرمادي حسب، بل والى مضيق جبل حمرين على نهر ديالى، والى تكريت على نهر دجلة. وكانت تلك هي آخر العمليات التي قام بها القائد مود، فلقد توفى بالهيضة، وهو مكلل بالاعجاب والتقدير، في اليوم التاسع عشر من شهر تشرين الثاني حيث خلفه في منصبه الفريق «مارشال» من الفيلق الثالث، يعاونه الفريق (غلمان) رئيس اركان قواته.

لم يدع رئيس الاركان الجديد اية لحظة من الوقت ان تضيع، في تحقيق سياسة تتصل به حسب مهمة القيادة المفترضة له. وكانت تلك السياسة تنطوي على الاستمرار في الضغوط المتواصلة، بهجمات محلية، وان يعمد البريطانيون في الوقت الذي يوطدون فيه مركزهم في بغداد،

---

(١١) لم يتجاوب القائد الانكليزي «مود» مع طلب القيادة الروسية للتعاون في تطويق القوات التركية في قاطع دلي عباس وسد نهر العظيم والتقدم نحو كفري، الامر الذي ساعد علي احسان على حشد قواته الاحتياطية التي هاجم بها القوات الروسية واخرجها من قلعة شروان ودفع بها الى شرقي ديالى، واسترد «السعدية» حين شرعت قوات باراتوف في الحادي عشر من ايار ١٩١٧. بالانسحاب عن طريق كرمنشاه – همدان والذي نعتقده ان الانكليز لم يرغبوا ان يشركوا احدا غيرهم من حلفائهم في احتلال العراق.

الى تطوير موارد النفط. والقوة البشرية جهد المستطاع. لخدمة المجهود الحربي.

انتهت احدى العمليات التي قامت بها الفرقتان الثالثة عشرة والرابعة عشرة. في اواخر شهر تشرين الثاني بالاستيلاء على ممر صقلتوتان[١٢] في جبل حمرين وعلى مدينة «قره‌تبه» في كفري، وفي شهر اذار تقدمت القوات البريطانية على نهر الفرات. فاحتلت كلا من «هيت» و «آلوس» و «حديثة» و «عانة». واخيرا وبعد استطلاعات خفيفة قامت بها الى مسافة خمسة وسبعين ميلا فيما وراء هذه المدن، ثبتت القوات مواقعها في «حديثة».

وبعد مرور شهر واحد، بدأت حركة تقدم اخرى على الجناح الايمن. فتم احتلال كفري في اليوم الثامن والعشرين من نيسان، كما احتلت طوزخرماتو في اليوم التالي. ومن ثم وحسب الاوامر الصادرة من وزارة الحرب البريطانية، تقدمت القوات نحو مدينة كركوك في اليوم السابع من شهر ايار، ووجهت على الفور غارة على «التون كوبري» قامت بها قوات الخيالة خلال منطقة «الحويجة» من نهر دجلة.

لم تمكث القوات في كركوك بعد ذلك بسبب مصاعب التموين العسكري. فضلا عن ان البقاء فيها كان ينطوي على مأساة من وجهة نظر العلاقات المحلية. ولذلك انسحبت من المدينة بعد اسبوعين، في اعقاب احتلال لها قوبل بالترحيب والوعود من قبل مئات من المسيحيين، واليهود المحليين الذين استبد بهم اليأس. وبذلك اصبحت «طوزخرماتو» هي الموقع المتقدم. وعلى هذه الشاكلة انقضى صيف سنة ١٩١٨، واخيرا وفي شهر تشرين الاول غدت الهدنة مع تركيا مشهورة، واستطاعت القوات البريطانية، رغم وجود قوات «احسان علي باشا» المتناقصة اليائسة التي تركزت في مضيق «الفتحة» وفي منطقة كركوك، ان تتقدم بصفة متواصلة نحو كركوك وآلتون كوبري على الجناح الشرقي، وان تندفع صعدا الى نهر دجلة في الناحية الغربية.

لم تلاق القوات الاولى سوى مقاومة خفيفة، ولذلك اعيد احتلال كركوك. اما القوات الاخرى، فانها بعد ان اصابت بعض الاراضي. لاقت مقاومة عنيفة في جبل مكحول بجانب نهر دجلة، حيث نشب قتال عنيف هناك[١٣] ثم اعقبت ذلك عمليات متحركة لكنها كانت ضارية جدا، انتهت في اليوم الثلاثين من شهر تشرين الاول. بتدمير واستسلام كل العناصر المتبقية من الجيش السادس التركي، ماعدا بضع مئات من الرجال والمدافع التي كانت موجودة في مدينة

---

(١٢) صقلتوتان لفظ «صاقال طوتان» ومعناه الممسك باللحية وهو مضيق قليل العرض عبر التلال التي تقع في الطريق بين قزل رباط وخانقين.

(١٣) كانت معركة الفتحة من اشد واوسع المعارك الاخيرة التي حدثت بين الاتراك والانكليز. فلقد استبسل الاتراك في هذه المعركة والحقوا بالانكليز خسائر فادحة في الرجال والعتاد ولقد بقيت بعض تجهيزات الانكليز وبقايا ملابسهم واحذيتهم في شعاب جبل حمرين ظاهرة حتى بعد مرور ثلاث سنوات على تلك المعركة. كما حدثني بذلك المرحوم العم ياسين الحاج خلف الناصري. الذي خاض تلك المعركة مع الاتراك.

الموصل[١٤] وصلت القوات البريطانية الى القيارة في اليوم الحادي والثلاثين من شهر تشرين الاول، وفي اليوم التالي له قوبلت قوات الخيالة التي كان يقودها الفريق «كاسلز» بعلم الهدنة وبانبائها، التي وصلت الى بغداد في اليوم الثاني من شهر تشرين الثاني حيث اشترطت تلك الهدنة بان «على كل الحاميات التركية في بلاد الرافدين ان تستسلم الى اقرب قائد حليف»، في حين اقرت المادة السابعة من الهدنة، بانه يحق للحلفاء ان يحتلوا اية نقاط ستراتيجية في حالة ظهور وضع قد يهدد سلامة الحلفاء». ومع كل ذلك فقد طلب علي احسان باشا الذي اتصل بالفريق كاسلز بلن تنسحب القوات البريطانية الى القيارة وهي ابعد نقطة كانت تلك القوات قد احتلتها عند اعلان الهدنة. غير ان رئيس اركان القوات البريطانية من الناحية الثانية فسر مواد الهدنة بشكل مغاير جدا، واعتبر الاحتلال البريطاني المباشر لمدينة الموصل، متطابقاً تمام المطابقة مع المادة السادسة عشرة من الهدنة.

اخفقت البرقيات التي تبودلت مع العقيد لجمن الذي عين حاكما للمدينة، في اخراج علي احسان وقواته من الموصل. فقد زعم علي احسان بان الموصل ليست من العراق، وان قواته ليست «حامية» بل هي جيش ميدان. وفي مؤتمر عقد في الموصل في اليوم السابع من تشرين الثاني، حضره القائد «مارشال» ووكيل المفوض المدني، وقع علي احسان على اتفاق الهدنة، محتجا بان الشروط قد امليت عليه املاء، وانه ينبغي له ان يخلي كل اجزاء المدينة في غضون عشرة ايام.

ولقد تم تنفيذ هذا الشرط والشروط الاخرى المرتبطة بجماهير سكان الموصل. ولسوف يظهر فيما بعد، بان الموقف الحازم والناجح، الذي اتخذه القائد مارشال، في هذه المبادلات، كان من المواقف الفعالة في اعتبار الموصل جزءا لايتجزأ من العراق. فلو ان خط الهدنة الذي تم تقبله، كان يشمل الاراضي التي كان الاتراك يتشبثون بها، ومن بينها مدينة الموصل واطرافها التي تؤلف الاقضية الكردية جزءا منها في الوقت الحاضر، لكان من المحتمل ان تغدو تلك الاراضي لتركيا بدلا من ان تكون للعراق.

الاتراك والانكليز. وقبل اعلان الهدنة بايام قلائل قد وقعت في سهل «الحويش» عند بلدة الشرقاط.

٥ ـ الادارة البريطانية اثناء الحرب سنة ١٩١٧ ـ ١٩١٨

شهدت العشرون شهرا الاخيرة من الحرب، فترة تكوين عميقة من العلاقات الانكليزية العراقية، اذ احتلت القوات البريطانية اواسط العراق، واقامت فيه للجماهير ادارة في كل منطقة. كانت اوضاع الحياة والحكومة معا شاذة بصفة واضحة، ذلك لان السلطة التركية قد اختفت، وانعدم وجود كثير من العراقيين، من افراد الطبقة العليا، وكبار الموظفين، وغدت السياسة المحلية خاملة، واعطيت الاسبقية للحاجات الحربية من دون نقاش، كما اغلقت المواصلات على نطاق واسع في وجه المدنيين

ومع كل ذلك فان الروابط الوثيقة التي وجد العراقيون، والضباط البريطانيون، والقوات البريطانية، انفسهم في ضمنها، في علاقات كثيرة متبادلة، ومانجم عن ذلك من التقييم المشترك، والمشاركة في ضرورة اعادة مهمات الحكومة والمجتمع، قد ادت هذه الامور بصفة حتمية الى اتخاذ الكثير من القرارات التي ساهمت بصفة مباشرة، او في صفة رد فعل، في اضفاء شكل للحياة العامة طيلة جيل كامل، من امثال القرارات التي تخص القانون، وتطبيق الاجراءات التركية الموجودة او تعديلها، وبناء هيكل الادارة ووحداتها، وقضايا العملة وماشاكلها

اما في جنوبي العراق، فان جميع القوات العسكرية البريطانية المتوفرة، قد استطاعت ان تسيطر على المدى الممتد على كل المناطق التي تقع حول الانهار. ولقد كان استغلال الموارد المحلية لاستعمال الجيش، واستخدام العمال العراقيين، وبناء سكك الحدود، والجهود المبذولة لتحسين امور الملاحة في نهر دجلة، من بين الامثلة على النشاط العسكري الذي اوجد نتائج مدنية. ولقد برزت عن هذه النتائج الوف الادعاءات، واسباب التظلم، والطلبات التي قدمت من المعوزين وكبار السن بين الجماهير، الى الضباط السياسيين الذين يمكن الوصول اليهم بصفة دائمة

ولقد كان التصرف المنطوي على الصبر ازاء هذه الحالات، هو الذي اوجد نغمة «الادارة الوليدة»، ودلل على بعد هذه الادارة عن المستويات التركية.

فلقد بدا على اهالي البصرة ان انتشر الغنى فيما بينهم على نطاق واسع، وكان يقود اولئك الاهالي رجال تقدميون وصفوا بانهم كانوا في تلك الفترة، اكثر اهتماما بالمستقبل المادي لمدينتهم، من الحركة القومية الوليدة التي برزت قبل سنة ١٩١٤ وفي مدينة «العمارة» كان مشهد النشاط

العسكري الهائل ومارافقه من رخاء قد استطاع ان يحكم السّيطرة على «بني لام» «والبومحمد». ولكم كان امرا محزنا اذ وجدنا افرادا من هؤلاء كانوا يتهمون بالمراسلة مع الاتراك، ويجري نفيهم الى الهند.

اصبح الضباط السياسيون البريطانيون، نتيجة الاستقرار النسبي في جنوبي العراق، وبعده عن خط النار، قادرين على توسيع اتصالاتهم، وفرض الضرائب، وادارة شؤون «الشبانة» ومكافحة العداوات، والمعاقبة على اقتراف الجرائم، بروح الحماسة، وحسن النية، والتجارب اليومية المستخلصة. لقد تعلم هؤلاء الضباط السياسيون على الفور، ان يميزوا بين من يعتمد عليهم، وبين المتذبذبين من شيوخ العشائر، وان يلموا بالمناسبة التي يرون فيها الحاجة تدعو الى ترحيل المعاندين من هؤلاء الشيوخ من اماكنهم

كانت حالة الامن على الطرق الرئيسة جيدة بصفة عامة، وقد توقفت المعارك بصفة غالبة، ولم تعد هناك سوى حدود جبال «بشتي كوه»، ومناطق اخرى نائية من المنتفق، «وبني ججيم»، لم تتم السيطرة عليها بعد. وكان الضباط السياسيون او مساعدوهم خلال الفترة ١٩١٧ - ١٩١٨ موجودين في جميع مراكز الاقضية التابعة لولاية البصرة تقريبا

كان البيان الذي اعلنه القائد «مود» لدى احتلاله بغداد، ذلك البيان الذي صاغ عباراته «السرمارك سايكس» في نثر ملتهب في لندن، قد اكد للجمهور العراقي تقديم الاريحية البريطانية (!!) ودعا الجمهور «عن طريق نبلائكم وكباركم وممثليكم للمساهمة في ادارة شؤونكم المدنية».

لم يحدث اي انطباع كبير. ولكن تعاظم التأكيد على الفور، وبصفة اوسع، على الامور التي تستدعي الاهتمام العاجل من لدن الضابط السياسي الرئيس، واصبح الزوار العديدون الذين كانوا يفدون على مكتب الضابط السياسي الرئيس، يشمل كل وجهاء بغداد والمناطق الممتدة، بما فيهم الشيخ المسن السيد عبد الرحمن النقيب، باعتباره رئيسا لاولئك الوجهاء، وعشرات بل مئات من رؤساء العشائر من كل جزء من اجزاء البلاد

ارسلت برقية مجاملة من علماء الشيعة الكبار في مدينتي النجف وكربلاء الى الملك جورج الخامس. وكان السربرسي كوكس يقابل بالتكريم من لدن شيوخ العشائر في مناطق الفرات التي لم تطأها من قبل اقدام اي جندي بريطاني، ولا يمكن له ان يصل اليها لعدة شهور اخرى. ومن ثم كان اولئك الرؤساء يعودون الى اهليهم مزودين بالتعليمات للحفاظ على الامن، والاستمرار في زرع حقولهم

اما في مدينة بغداد ذاتها، فان السنتين اللتين كان ينذر خلالها تحمل البؤس المخيم على المدينة، قد بلغتا ذروتهما بانتشار اعمال الغصب والتخريب التي شهدتها الاسابيع القليلة الاخيرة من الاحتلال التركي. فلقد دمرت المباني العامة تدميرا تاما، وحولت محطة اللاسلكي التي اكمل

الالمان بناءها، الى خراب. وكانت الاوضاع المزرية شاخصة في السجون، وفي المستشفيات وحتى الشوارع. فلقد تعطلت الاعمال الجديدة التي تم الشروع بها وبقي البعض منها نصف جاهز في اكوام من الانقاض المتراكمة

وغدا الطعام في بعض انحاء مدينة بغداد شحيحا الى درجة انه اصبح ينذر بالموت جوعا، واصبحت الحياة هامدة، ولم يعد للخدمات العامة من وجود، وفزع الناس كثيرا من هذا الوضع، الى ان انتعشت الاوضاع في صفة وسائل للنقل لم تكن متوقعة قبلا، وتدفق الاموال، وظهور عملة نقدية ثابتة، وفتح مصارف بريطانية جديدة، واعادة فتح ماكان موجودا منها من قبل. كما توفر للجمهور مجال العمل، والمستوى العالي من الامن، وتطورات الخدمات العامة الى الحد الذي تسمح به الامكانيات الحربية

كان الالحاح على فرض القيود الصحية، واسترداد المساكن المغتصبة، والتفتيش عن الاسلحة، والقيود المفروضة على الحركة، واصدار الانظمة المتنوعة، كانت كل هذه الامور من المظاهر التي لم يتقبلها الجمهور الا قليلا. وبصفة عامة كانت مدينة بغداد في الفترة ١٩١٧ – ١٩١٨ اكثر دهشة وتفاؤلا، وتقبلا للآراء وللوسائل الحديثة، ولذلك كان من العسير كثيرا على الادارة العسكرية ان ترضى بها بالصفة التي قدرت لها وذلك «بالحد الادنى من الكفاءة الادارية اللازمة لحفظ النظام».

وفي مدن الكوت، والعزيزية، وبعقوبة، كان عدد من شيوخ العشائر فيها، الذين كانوا يتوقعون عودة الاتراك وانتصارهم، قد رافقوا جيش «علي احسان». ولكن عودة الاحوال الاعتيادية الى ضفاف نهر دجلة كانت سريعة، فاعتبرت اعادة بناء مدينة «الكوت» مجددا، من الامور النموذجية. كذلك عاد افراد عشائر شمر طوقة، وزبيد، وربيعة، مبكرين الى حقولهم ومحاريثهم

وفي منطقة ديالى كان التقدم يسير مسرعا، ذلك لان انسحاب الاتراك من جبل حمرين قد مهد الوصول الى رؤوس القنوات الحيوية هناك، كما عرضت عشائر الفرات التي تقطن في اعالي الهندية، وهي عشائر زوبع والدليم، ولاءا ينطوي على التردد بعد احتلال مدينة الرمادي والمراكز الاخرى للدليم

ادت الضرورة الملحة لزيادة انتاج الغذاء في الاراضي التي اجتاحتها الحرب، بالاضافة الى حماية الملاحة العسكرية في الانهار في سنة ١٩١٧، الى تأسيس «مشروع التنمية الزراعية» تحت اشراف المستر «غاربت» رئيس مجلس الايرادات. وكان ذلك المشروع يهدف الى انتاج ثلثمائة الف طن من القمح، بالاضافة الى الوسائل التي استعملها المشروع لتوفير البذور، وتجهيز المحاريث، والمواشي، والمساعدة في تطهير قنوات الري

ولقد تم الحصول على مساندة الشيوخ لهذا المشروع، عن طريق الوعد بحصولهم على

ايرادات ممتازة، وبالدعاية المتحمسة التي كان الضباط السياسيون يبثونها للمشروع. وعلى الرغم من العقبات المتنوعة، من امثال الاضطرابات العشائرية، وفشل استعمال بعض القنوات، وسرقة البذور، واعمال المسح المغشوشة، فقد نجح مشروع التنمية الزراعية في تحقيق جزء كبير من اهدافه، ووفر لعامة العشائر مظهرا غير متوقع من التخطيط الحكومي، والانفاق بقصد زيادة الانتاج الذي ينبغي ان يحصل عليه رعايا الحكومة بصفة مباشرة

وفي مناطق الفرات، وكانت تؤلف الميدان الرئيس لتطبيق مشروع التنمية الزراعية، ذلك الميدان الذي يكتنفه الاضطراب عادة، لم تكن القوات العسكرية متوفرة في تلك المناطق لشهور، كيما يستطاع بها تثبيت منزلة الدولة الجديدة واعتبارها، كما انه لم تكن للبريطانيين اية معرفة بالشخصيات البارزة في تلك المناطق. فلقد كان كل رئيس قبلي مطلق التصرف لتقوية مركزه، وضمان الامتيازات له، والانتقام من خصومه.

كانت المرحلة الأولى بالنسبة الى وضع مناطق الفرات هذه، تتمثل في أرسال ضابط سياسي بريطاني الى مدينة الحلة في شهر ايار سنة ١٩١٧ ولقد استطاع هذا الضابط السياسي، ومن دون قوات تحت امرته، ان يوطد شيئا من السلطة في منطقة الحلة وفي منطقة الهندية أيضا، لكنه فشل في مهمته تلك في مدينة الديوانية وذلك لوجود قوة تركية كانت قد تمركزت في المدينة تحت أمرة ملازم شركسي[٢] حتى شهر آب من تلك السنة، ولهذا فلم يتم التقدم الى الجنوب من الديوانية.

ولقد ترك لسكان الشامية، والسماوة، والرميثة، أن يزاولوا قسرا وسائلهم الخاصة، كذلك اكد السر برسي كوكس لأسرة «كمونة» الكربلائية التي كانت على اتصال معه منذ سنة ١٩١٦، بأن تحتفظ بنفوذها الى حين ابداء ملاحظة اخرى بشأن ذلك. وحين اثيرت هذه الأسرة من قبل الاسر المنافسة[٣] استطاع كل من محمد علي كمونة، وفخر الدين كمونة، توطيد نوع من الأمن في كربلاء لعدة شهور.

ولما كان الحصار التام على الأتراك في كربلاء متوقعا، او منظما من قبل نظام حكم كان يوجه السباب اليه صراحة، فأن حكم آل كمونة لم يستطع ان يواصل وجوده، وسرعان ماتم عزل الأخ الأول، ولحق به الاخ الثاني، واذ ذاك تم ارسال ضابط بريطاني لادارة مدينة كربلاء ومنطقتها.

وفي مدينة النجف جوبهت السلطة البريطانية فيها، من قبل شخص يدعى «عطية ابو كلل» وهو رجل قوي كان يتزعم قبلا جماعة «الزغرت»، واستطاع أن يؤلف حكومة داخلية في النجف

---

(٢) كان هذا الضابط الشركسي يدعى الملازم محمد اغا

(٣) كانت اسرة (آل الوهاب) في مقدمة الاسر الكربلائية التي قاومت نفوذ آل كمونة.

خلال الفترة ١٩١٥ ١٩١٦، ولكن هذه الحكومة لم تستمر طويلا في شهر تموز سنة ١٩١٧ تم ارسال وكيل معتمد للحكومة البريطانية هو «حميد خان» (ابن عم اغاخان) من بغداد، ومن دون قوات تشد ازره، لكي يبذل جهده في تهدئة الوضع هناك.

ولقد ادت اعمال التمرد والمقاومة للاحتلال التي نشبت في النجف، خلال شهر تشرين اول، ومارافق ذلك من سخط نتيجة وصول اعداد كبيرة من عشائر «عنزة» الى المدينة، ادت هذه الأعمال الى وضع خطير، كان من نتائجه استقالة حميد خان من عمله، ووصول ضابط سياسي بريطاني الى الشامية[٤]

كان عطية ابوكلل مايزال قادرا على اشاعة الاضطراب والاعتصاب ليس في النجف وحدها حسب، بل وفي الكوفة وابي صخير ايضا. ولم يكن مستطاعا اعادة النظام الى حاله الا عن طريق الاستعانة بالمجتهدين. ولكن هذه الأوضاع كانت تتناقض بجلاء مع المهمات الضرورية لحكومة الأحتلال، ولذلك استقرت في شهر كانون الأول ١٩١٧ حاميات عسكرية صغيرة في مدن اواسط الفرات، يصحبها ضباط سياسيون بريطانيون حيث شرع بوضع البدايات الأولى للادارة الاعتيادية. استقر عطية ابوكلل في النجف، واقام علاقات له مع عجمي السعدون، ومع الأتراك، في الوقت الذي كانت فيه الأوضاع في السماوة وعشائر بني حجيم يسودها الاضطراب. وفي اوائل سنة ١٩١٨ وقع حادث وفر الفرصة للاختيار امام سلطة الحكومة في مناطق الفرات الأوسط، التي عانت لعدة شهور من الدعاية المعادية الممولة جيدا من المصادر التركية والألمانية[٥]

ومع انه لم توضع في النجف اية حامية بريطانية، الا ان المدينة بقيت لبضعة اسابيع، تدار من الكوفة بقوات شرطة جديدة، وببلدية مستعارة، وتوفير بعض الخدمات في المدينة، وتوزيع الهبات التي ترسلها عائلة الأودة في الهند، الى علماء الشيعة في الوقت المحدد لها.

في شهر كانون الثاني ١٩١٨ ادت النيران التي اطلقت بجدة على القوات الهندية، من وراء اسوار مدينة النجف، الى فرض غرامة على المدينة وفي اليوم التاسع عشر من شهر اذار قتل النقيب، «مارشال» مساعد الضابط السياسي البريطاني الذي كان يسكن في احد الخانات

---

(٤) هو النقيب بلفور الذي كان يتقن العربية وقد جعل مقره في الكوفة.

(٥) كان الانكليز كالعادة وحتى الان يعتبرون اي تمرد او ثورة ضدهم في ذلك الوقت وعلى الأخص في المناطق التي يحكمونها بأنها موحى بها وممولة من قبل الأتراك والألمان وهم يقصدون بذلك ان ينكروا الباعث الوطني الذي كان يحفز ابناء العراق الى مقاومة الاحتلال بشتى الطرق والوسائل كما حدث ذلك بالنسبة الى ثورة النجف سنة ١٩١٨ وكذلك الثورات التي حدثت في المناطق الكردية خلال سنتي ١٩١٨ و ١٩١٩، ١٩٢٠ فلقد كان الانكليز يعتقدون نتيجة تعاون بعض رؤساء العشائر ورجال الدين معهم بأن الحكم الذي كانوا يطبقونه في ظل الأحتلال كان حكما مقبولا من لدن الشعب، متجاهلين في ذلك تجاهلا تاما، الاحاسيس الوطنية وتطلع الناس الى التحرر والمساهمة في تشكيل حكومة وطنية تكون مقبولة من اكثرية الشعب. ونفس هذه النظرة الخاطئة كان الانكليز ينظرون بها الى الثورة العراقية الكبرى في سنة ١٩٢٠ وغيرها من الثورات اللاحقة.

خارج اسوار النجف. وكان مقتله هذا بداية حركة لمنهاج الماني منظم لحدوث مثل هذه الأعمال.

كانت قدسية مدينة النجف تتطلب في نظر السر برسي كوكس، وقائد الجيش البريطاني حمايتها من انزال العقوبة الصارمة بها،ولكن ابداء اي ضعف ظاهر ازاء ذلك من شأنه ان يؤدي الى نتائج اشد سوءا. ومن دون ان تطلق اطلاقة واحدة تم فرض الحصار تماما على المدينة. ولقد استنكر رئيس المجتهدين[٦] حادث مقتل النقيب مارشال، وبقي على اتصال مع القوات التي تحاصر المدينة.

في اليوم العاشر من نيسان اخذت المدينة تقوم بتسليم القتلة الذين تم تشخيصهم اضافة الى الذين اشتركوا معهم، وسرعان ماارتفع العدد المطلوب منهم الى مائة شخص وشخصين[٦] وقد ثبتت التهمة على اثنى عشر متهما حكم عليهم بالأعدام، بينما حكم ثمانية اخرون بالسجن مدى الحياة، وعلى اخرين غيرهم بالحبس لمدد اقل.

لم يجر الضباط السياسيون الذين كانوا يتقدمون الجيش البريطاني الزاحف، اي اتصال مع الاكراد قبل سقوط بغداد، ولذلك كانت العلاقات التي اقامها البريطانيون مع الأكراد بعد سقوط بغداد في شهر اذار ١٩١٧، مخيبة للآمال.ولم تعقب الرسائل التي تبودلت مع الأكراد الساكنين في كركوك وفي السليمانية اية رسائل اخرى. وكانت «خانقين» وهي المنطقة الكردية الوحيدة التي فتحت ابوابها امام التغلغل البريطاني،تعاني من اوزار الاحتلال الروسي لها. ولم تنتج عن الاتصالات التي اجراها الروس مع الاكراد قبل الحرب، سوى عودة اكراد كل المناطق المجاورة الى جانب الأكراد، وخسران حسن النية بشكل مؤلم.

ادى الأنسحاب الروسي الذي حدث في شهر حزيران بقواته المفككة، وبنصف ما كان لديها من الذخيرة،الى عودة الأتراك مجددا الى المناطق التي انسحب الروس منها، وتدمير كل مناطق الحدود. على ان هذا الأمر نفسه قد افسح المجال امام العمليات الحربية البريطانية التي وقعت في خريف سنة ١٩١٧ وأخيرا تم استقرار احد الضباط السياسيين البريطانيين في خانقين، بعد تسعة أشهر من التماسات كبيرة اجراها مصطفى باشا باجلان ومعه سكان الريف الذي اصابه الدمار[٧]

---

(٦) هو السيد محمد كاظم اليزدي راجع عنه علي الوردي: لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث الجزء الخامس، القسم الأول ص ٦٢

(٦) يتضح هنا بكل جلاء مدى التعسف الذي جبل عليه الانكليز في معاملة الشعب العراقي الذي وقع ضحية احتلالهم البغيض في الحرب العالمية الأولى،في سبيل الانتقام من الشعب لمقتل ضابط انكليزي واحد، وبقصد تحطيم روحية الكفاح ضد المحتلين، ابى الأنكليز الا ان يعتقلوا هذا العدد الكبير من الرجال الذين اتهموا بمقتل النقيب مارشال، وان يشنقوا اثني عشر رجلا فضلا عن العشرات الذين حكم عليهم بالسجن لمدد متفاوتة.

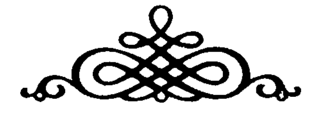
(٧) بدا الروس هجومهم على مدينة خانقين في صبيحة اليوم الثالث من شهر حزيران سنة ١٩١٦ وكانت القوات التركية التي واجهت ذلك الهجوم الروسي تتألف من الفيلق الثالث عشر الذي كان يقوده «علي احسان» اضافة الى الفرقة السادسة واللواء

تم احتلال مدينة كفري خلال شهر نيسان ١٩١٨،ولذلك بوشر بالعمل فورا لاعادة الأوضاع الأعتيادية الى منطقتي خانقين وكفري، وبذلك عادت الخصومات مجددا بين العشائر التي تقطن المنطقتين ماعدا عشيرة «سنجابي» التي كانت تسكن عبر الحدود.

كان تقدم القوات البريطانية باتجاه كركوك في ربيع سنة ١٩١٨ قد قوى آمال الانكليز في اجراء اتصال مع جنوبي كردستان، وقوبل وصول القوات الانكليزية الى كركوك من دون مقاومة تذكر،من الأهالي ومن عشيرة «هماوند» الكردية. غير ان تخلي البريطانيين عن كركوك قد أدى الى حدوث مآسي اقترفها الأتراك بعد ان اعادوا احتلال تلك المنطقة مع منطقة السليمانية مجددا. على ان الضباط السياسيين البريطانيين، استطاعوا من مقراتهم في كفري «وطوزخرماتو» ان يضمنوا اتصالهم باغوات الأكراد، وعلى الأخص بالناطق باسمهم المعروف الشيخ محمود البرزنجي بن الشيخ سعيد البرزنجي الذي قتل في الموصل سنة ١٩٠٨

كان تغلغل البعثة البريطانية الذي اعقبه تغلغل قوات بريطانية خفيفة في شمالي غرب بلاد فارس في اوائل سنة ١٩١٨، قد اضعف الجيش البريطاني بسبب التوسع المكثف،لكنه ادى من الناحية الأخرى الى الاتصال في اورميا مع الطائفة الآثورية.

انتهت الفترة العصيبة خلال سنتي ١٩١٦ ١٩١٧ بانهيار الروس،وادت الجهود التي بذلها الحلفاء الى توحيد كل العناصر المعادية للأتراك في اذربيجان•غير ان موقف الحكومة الفارسية الذي كان ينطوي على الضعف والتذبذب، قد ترك الباب مفتوحا امام التآمر والعنف الذي كان الجميع يمارسونه.



الخامس. واستطاع الأتراك احباط الهجوم الروسي، وارغام القوات الروسية على الأنسحاب من كل الجبهات الى قصر شيرين وسارت القوات التركية في اثر القوات الروسية المنسحبة فوصلت الى مدينة همدان الفارسية واحتلتها في العاشر من حزيران ثم ارتدت بعد تسعة اشهر الى خانقين في منتصف اذار ١٩١٧ (العميد محمود شكري نديم: الجيش الروسي في حرب العراق ١٩١٤ ١٩١٨ ص ٢٣ ٣١).

الفصل الرابع
الانتداب والملكية في العراق

١ ـ العراق بعد اعلان الهدنة

٢ ـ الادارة البريطانية خلال الفترة ١٩١٩ ـ ١٩٢٠

٣ ـ مقاومة البريطانيين

٤ ـ ثورة سنة ١٩٢٠

٥ ـ الملك فيصل الاول

١ ـ العراق بعد اعلان الهدنة

كانت الشهور التي اعقبت اعلان الهدنة في العراق ، والتي كان من المؤمل ان تشهد فترة من الراحة والثقة الجماهيرية العامة،قد تلاها فورا تجمع غير ظاهر في اول الامر لعناصر التذمر والتمرد ، لكن هذا التجمع مالبث ان اصبح مكشوفا فيما بعد ذلك ان هذه العناصر التي شملت قطاعات واسعة من الرأي العام ، ما فتئت ان توحدت ، وتحركت للعمل نتيجة ظهور حركة وطنية حمسة وثورية بين العناصر السياسية ، واستطاعت في سنة ١٩٢١ ان تخلق التمرد على القانون والاعتصاب بين العشائر في انحاء واسعة من البلاد[١] الامر الذي تطلب القضاء عليها عن طريق المبادرة بعمليات عسكرية كبيرة،استطاعت السياسة البريطانية التى استهدفت انشاء دولة في العراق والتي تم اعلانها قبل الثورة[٢] بعد فترة من التوقف تحقيق انشاء اول حكومة موقتة ، على ان تعقبها حكومة ملكية منتخبة في العراق. وفي خلال هذه المدة ، استطاعت ادارة اللاد ، التي كانت تدار مباشرة من قبل البريطانيين اولا ، ومن قبل البريطانيين والعراقيين فيما بعد ، ان تتطور وتتحسن بصفة عامة ، ماعدا الفترة التي وقعت فيها حوادث الثورة. وفي الوقت ذاته كانت تجري في الاقطار المجاورة للعراق ، حوادث لها اهميتها. فقد انشئت في اواخر سنة ١٩١٨ حكومة عربية في سوريا بدعم من البريطانيين ، في كل من دمشق وحلب ، تحت حكم الامير فيصل بن الحسين ، ذلك الامير الذي تربى تربية تركية وهو من اسرة امراء مكة المتحدرين من سل الرسول العربي محمد «ص» ، والذي استطاع ان يحقق له مكانة مرموقة في العالم العربي بحنكته السياسية وبشخصيته البارزة.

---

(١) لايفتأ المستعمرون وعملاؤهم في كل زمان ومكان ان يصفوا الحركات الوطنية الهادفة الى تحرير الشعوب واستقلالها بالتمرد والاعتصاب والعدوان وماشاكل ذلك من النعوت المبتذلة. فكأن الاحتلال والاستيلاء على اراضي الغير يعتبر من الامور المسموح بها من دون عقاب،وكأن البلد الذي احتلت ارضه ، وذل شعبه واهينت كرامته يعتبر معتديا ، اذا ما انتفض بوجه الظلم والاحتلال وثار لطرد المستعمرين والمحتلين من بلاده فلم تظهر في التأريخ الانساني كله ، اية حركة وطنية تستهدف التحرر والاستقلال ، الا ووصفت بالتهور والاندفاع ، وهذا الاندفاع والثورة هما اللتان يصفها المستعمرون بالعدوان كما يشير المؤلف الى ذلك صراحة الى بوادر الحركة الوطنية التي مهدت لثورة العشرين ضد الاحتلال البريطاني البغيض الذي جثم بكلكله على العراق ، وتنكر بسرعة لكل ماقطعه من عهود ووعود

(٢) كذب المؤلف فيما ادعاه من ان السياسة البريطانية كانت قد استهدفت انشاء دولة في العراق قبل الثورة ذلك لان بريطانيا لم تعلن اية سياسة لها في العراق سوى انتدابها عليه ولوقت لم يكن محددا ، كما ان التفكير في انشاء الحكومة الموقتة لم يخطر على بال الحكومة البريطانية الا بعد ان قامت الثورة والحقت الخسائر البشرية والمادية الكبيرة بقوات الاحتلال .

ولكن ازدياد الصراع داخل حكومة فيصل هذه والناجم عن المفهوم السياسي والبنية التنظيمية الداخلية اضافة الى مطالبة الفرنسيين يتولى الحكم في سوريا وتقاعس الحكومتين البريطانية والامريكية عن تخفيف هذه المطالبة[٣]، كل هذه العوامل قد ادت في شهر تموز سنة ١٩٢٠ الى انهيار الدولة العربية في سوريا ، واختفائها ، وذلك حادث اطلق الحرية للامير فيصل بعد سنة من ذلك التأريخ للبحث عن مصير اخر له

وفي تركيا المحطمة التي كان شعبها وجيشها على وشك الانهيار والتي لم تعد قوية الا في مضايقة جارها العراق ، بما كانت تهدد به حدوده من اخطار ، سرعان مابعث مصطفى كمال الحمية في نفوس الاتراك فاصبحت تركيا في سنة ١٩٢١ تمثل تهديدا مؤكداً لولاية الموصل

اما في بلاد فارس التي مزقتها الحرب واضعفتها فقد تم التوصل في شهر اب سنة ١٩١٩ الى اتفاق مع الحكومة البريطانية بشأن اعادة الاستقرار الى البلاد وتحقيق تقدمها بمعرفة من بريطانيا. ولكن هذا الاتفاق فشل في سنة ١٩٢١ في الحصول على موافقة المجلس الفارسي عليه، بينما تمت المصادقة من قبله على عقد معاهدة مع الدولة السوفيتية الجديدة ، حيث ادى ذلك الامر فيما بعد الى حدوث تقدم سريع باتجاه السلطة العليا ومن ثم الوصول الى العرش من قبل واحد من اقسى الدكتاتوريين تعسفا وكفاءة[٤]

وفي بريطانيا كانت قضية مستقبل العراق قد احتلت نصيباً ملموسا من الاعمال الرسمية والبرلمانية في ذلك الوقت ذلك ان وضع العراق باعتباره ولاية عثمانية سابقة، كان لابد من ادخاله ضمن معاهدة الصلح مع تركيا بمثابة مقدمة للتصرف بشأنه. فالالتزامات التي اعطيت اثناء الحرب للفرنسيين (اتفاق سايكس بيكو)[٥] والوعود التي قطعت لحكومة الحجاز[٦]، والضغط الذي مارسه الرئيس الامريكي (تيودور ولسون» بشأن حق تقرير المصير للشعوب ، والمصالح الستراتيجية البريطانية في الشرق الاوسط ، والمسؤولية المترتبة على تحقيق الامن والتقدم في العراق ، لدى الجمهور الذي اقيمت الان معه روابط شخصية وثيقة ، كل هذه الامور كانت من العوامل التي ينبغي التوفيق فيما بينها

---

(٣) يكذب المؤلف للمرة الثانية عامدا فهو يعرف جيدا ان بريطانيا وفرنسا قد تآمرتا ، قبل ان تنتهي الحرب العالمية الاولى ، على البلاد العربية واقتسامها فيما بينهما ، اما امريكا فانها فرضت على نفسها العزلة في اعقاب الحرب العالمية الاولى ولم تحاول ان تمد نفوذها الا بعد وقت غير قصير

(٤) المقصود به رضا بهلوي القوقازي الضابط في حرس شاه ايران الذي تغلب عليه وقضي على الاسرة القاجارية الحاكمة ونصب نفسه شاها على بلاد فارس وقد بدأ بحركة الانقلابية في سنة ١٩٢١

(٥) اتفاق سايكس بيكو السري بين الانكليز والفرنسيين الذي قسم البلاد العربية التي انسلخت عن الدولة العثمانية بينهم فاعلنت بريطانيا انتدابها على العراق وفلسطين ، وفرنسا على سوريا ولبنان

(٦) الملك حسين بن علي الذي اعلن نفسه ملكا على الحجاز ولكن حكمه لم يدم طويلا بعد ان رفض السماح باقامة وطن قومي يهودي في فلسطين ، [illegible] فضل الانكليز عليه عبد العزيز بن سعود الذي كانت لاسرته روابط مع الانكليز منذ القرن الثامن عشر

ولما كانت الصفة القانونية لعمم العراق الى بريطانيا لم ينطلق اي صوت للدفاع عنها في الوقت الذي كانت فيه الاصوات التي تطالب بجلاء الانكليز عن العراق قليلة، فان المشكلة لايمكن حلها الا في اطار صياغة دستور، وايجاد وضع سياسي لدولة العراق المقبلة، ولذلك تضاربت الاراء حول هذا الموضوع لدى الذين يحكمون بغداد، ولدى الحكومة البريطانية (الوايتهول)

فلو ان الحكومة البريطانية بما توفر لديها من معلومات وافية وقوية وبعيدة عن نطاق ضيق التفكير، قد اقدمت على اتخاذ قراراتها بمزيد من الحكمة والسرعة ولو امكن ابراز خطة لاقامة حكومة ذاتية عراقية الى حيز التنفيذ، وان مثل هذه الخطة قد طبقت فعلا وبشكل متقدم في اوائل سنة ١٩١٩ ولو قلصت اجراءات اللجنة التي تألفت لهذا الغرض ولم يتم التطويل فيها، لامكن التغلب على الاحتجاجات التي كان يبديها «ارنولد ولسون» ومماحكاته وربما لواعيد السير برسي كوكس الى بغداد لو حدث كل ذلك، لامكن آنذاك تجنب الكثير من المتاعب والخسائر وما خلفته الحدة والشدة من آثار

وفي الوقت ذاته كانت الحرب قد انتهت وتم احتلال كركوك، واربيل والموصل وفسرت بنود اتفاق الهدنة بشأن هذه المحافظات وشملت الجيش البريطاني عن طريق ادارته المدنية( ) في تأسيس حكومة مباشرة لولاية الموصل برمتها، ذلك الاقليم الذي لم تجر معه في اي وقت من

(•) من بين الضباط البريطانيين الذين انضموا الى الادارة المدينة خلال الفترة بين سقوط بغداد واعلان الهدنة هم كل من «بارلباي»، و «ماي» (للمالية) وسفرايت (للكمارك) و «بومان» (للتربية) اما الضباط القانونيون فهم كل من بوبهام كارتر ودراور، وبل، ونورتن، وضباط المرتزقة بويل، وكاننغ برس، وبتولف وهول والضباط الطبيون هم كل من الاطباء باتاي كيري ايفانس، وهجس، وذ مؤسسات الشرطة العراقية، كونس، وديفز. وبرسكوت، وولكنس وفي تسجيل الاراضي رويدز، وضباط سياسيون في مختلف الواجبات الادارية كل من بلفور، وبوردلون وبراون وبيري وكوك. ودالي ودتشبورن، غ ف ب جلان، سي ج هوكر، و هاي، س لي هجكوك. ر ف جاردان ج ف جفري، هـ اي لويد، ستيفن همسلي لونغرغ (مؤلف الكتاب) ميك ل ف نادلر ب ف نور برى، هـ.س بولي، ج سكلر س، ج س تومبسون، وتيلر، ووينغيت ويتس. وقد حذفت هذه القائمة عشرات من الضباط الذي عهدت اليهم مهمات بدلا من مهمة الضابط السياسي لفرقة من فرق الجيش

وفي الفترة مابين الهدنة وتشكيل الحكومة المؤقتة في تشرين الاول ١٩٢٠ تم نقل دائرة الزراعة العسكرية الى الادارة المدنية ونقل اليها كل من جي س كامرون، ر ج غراهام (بمنصب مدير)، ج ف وبستر، ر.ف. جيسمان توماس ولدائرة الري ل لويس (بمنصب مدير)، ب ل بورز، ر جى غارو، ب ج سلير، ب ابتكن، غ و شارب، ج ستراشان ولميناء البصرة سي وورد (مدير) وللبريد والبرق، ف كليريسي، ف دي سمدت، و و غمبلي، وللسكك الحديدية غ لوبوك (مدير) تينش. ف ج كيبرناتدر ودخل ف كونلف اون، الخدمة رئيسا للجنة تعويضات اللاجئين، ف و بيري للمساحة سي جادويك للبيطره وجند للاشغال العامة كل من ف. هـ. دي. ف اتكنسون. كيري وكلاي ولينام. هـ. هـ. ويلي، ج م. ن وفي مطبعة الحكومة كامرون ودائرة المالية س. باري.

الاوقات ، سوى اتصالات بريطانية ضئيلة ، ثم انقطعت تلك الاتصالات طيلة اربع سنوات بصفة مطلقة.

اوجدت اوضاع الحرب ، في كل مكان ، نقصاً ساحقا في التموينيات ، وهجرا للقرى ، ومجاعة في بعض الاماكن.غير ان ولاء العشائر كان قويا ، وظلت السلطة الفردية سليمة والسيطرة الابوية للاغوات مازالت غير معرضة للاهتزاز. فبالنسبة الى هذه العناصر الموغلة في القدم، والتي خفي البعض منها جزئياً تحت طقوس التدين الظاهرة ، وما اضيف اليها من عناصر اخرى قد ادت سنة ١٩١٨ الى نهاية ما فقد وجد الاغوات ان من غير المتصور ان تزول حكومة «الخليفة» الى الابد من الاقضية ومن الوديان ، وماذا عن الانكليز المسيحيين القادمين حلفاء الروس الكفار؟ لقد وجد الكثيرون ان من الملائم لهم ان ينشروا الدعاية للجامعة الاسلامية، والتي كان التاريخ الطويل اللازم لعقد معاهدة الصلح مع تركيا ، يوفر وقتا واسعا ملائما لها وكذلك لم يكن الحكم الجديد محبوبا ، بسبب ماذيع عن الكفاءة التي يتمتع بها ، ونتيجة صداقاته التي اقامها مع العرب. ومن سوريا تدفقت الحكايات عن قيام دولة عربية في دمشق كما تزيد في تشجيع المفاهيم المهمة الممزقة ، حول «الاستقلال الكردي»، وذلك ما كان يتوقعه قبلا، ليس المهاجرون الاكراد في باريس والمثقفون الاكراد ، او الفتيان الذين سيتولون الزعامة في مدن الجزيرة الشمالية حسب، بل المقبول ظاهريا بصفة اكثر من قبل اللجنة الكردية ذاتها في اسطنبول، والتي يتزعمها سيد عبد القادر شمدينان وحتى لدي ابن اخيه «سيد طه» الذي كان يترقب الفرص في مدينة «نهري» لكي يقطع عنق اسماعيل اغا (سمكو) عند منطقة الحدود الفارسية ، بل وحتى بالنسبة الى الشيخ محمود المسيطر على السليمانية

لقد تطورت مثل هذه الافكار تطورا جيدا عن طريق الدعاية المثيرة للاضطراب التي كانت تهب بلا انقطاع عبر الحدود التركية ، والتي قيل عنها بان العملاء البلشفيك كانوا يساهمون في نشرها ايضاً

اما بالنسبة الى النداءات والدعوات الصادرة من الاكراد القاطنين في بلاد فارس والحانقين على حكومتهم الخاصة، فان الممثلين البريطانيين لم يستطيعوا ان يفعلوا شيئا سوى الرد على ذلك سلباً

ولقد ادى هذا الامر ، ومارافقه من انعدام وجود القوات البريطانية في كردستان، والحكايات التي ترددت عن جلاء تلك القوات عن العراق ذاته ، الى اضعاف اعتبار البريطانيين وهيبتهم . يضاف الى هذا ان الاتراك الموجودين في جزيرة ابن عمر و «وان» و «بشقالا» ، والاغوات الخاضعين لهم قد استطاعوا ان يثيروا الريبة والشكوك لدى الاكراد ومن هنا غدت مهمة تأسيس حكومة مقبلة امرا لامجال الى تحقيقه

والواقع ان موقف الاداريين الجدد الشباب منهم والمتحمسون لذلك . كان يمثل ثقة

صريحة صادقة ، ذلك لان حسن نواياهم واهتمامهم القوي بمكانة البريطانيين، كل ذلك قد جعل الادار يين الجدد يواجهون المخاطر بشجاعة كبيرة في المكان وفي الزمان معا لقد وطد هؤلاء العزم على ان يحبوا الغير ويكونوا محبوبين. والحقيقة انه على الرغم من الحوادث المؤسية التي اتسمت بها الشهور القلائل القادمة ، فقد نمت كثير من الصداقات المخلصة بين الرؤساء الاكراد ، والضباط البريطانيين

وهكذا وعن طريق اعادة الحياة الاعتيادية في وقت مبكر ، وبصفة افضل من الامن المعتاد ، تم تحقيق ادارة فعالة ، بحيث تحققت لدى بعض الاغوات لاول مرة ،الامكانيات القائمة لانشاء حكومة امنية متماسكة ، حتى وان كانت مثل هذه الحكومة لابد وان تحدد المراكز الخاصة لأولئك الاغوات

تميزت تلك الفترة بتغلغل متسارع الخطى للمفاهيم الغربية،ولوسائط النقل العصرية في كردستان،فازداد النقل بين الموصل وبغداد ، وفتحت طرق جديدة ، ومنح تشجيع فعال لزراعة المحاصيل من التبوغ ، والكروم ، والقمح ، والرز ، والفواكه ، واعيد شحن الاسواق بالمواد ، وانتشار الثراء

تم ، منذ الايام الاول للاحتلال،تعيين الضباط السياسيين البريطانيين في كل من كركوك والتون كوبري ، واربيل والموصل ذاتها ، وذلك في اعقاب نقل العقيد لجمن من الصحراء ، وكذلك في الاقضية الكردية ، حيث سلمت الى القائمقامين هناك ادارة ماتزال في عهد التكوين . ولقد تراءى للحكومة البريطانية خلافاً لآراء الفرنسيين ، بان على حكومة الموصل ان تتجنب التشبه بالحكومات القائمة في القسم الادنى من العراق ، غير ان مثل هذا التمييز لم يكن له اي تأثير عملي ، ولم يتحقق من لدن الجمهور العام ، ماعدا فئة من المسيحيين الذين كانت تحميهم فرنسا ، والذين اعتادوا اثارة الاضطراب هناك

اقيمت حاميات عسكرية صغيرة في كركوك ، والتون كوبري ، واربيل والموصل ، وفي زاخو ودهوك ، غير انه لم توضع اية حامية ضمن الجبال المرتفعة،ولكن حتى اذا كانت الادارة المحسنة تمارس اتصالاتها الودية ، وتعطي مثل هذا التاكيد المحدد جهد المستطاع،فقد ظهرت على الفور دلائل تشير الى ان دعاية متشددة من المناطق القريبة من تركيا ، قد اخذت تنشط نشاطا فعالا ذلك ان جماعة من عشائر الغويان استطاعت ان توقع النقيب بريسون ، الضابط السياسي في زاخو ، في كمين نصبته له ، ففتكت به خلال شهر اذار سنة ١٩١٩ (٦) ولم يتم الثأر لمقتله

---

(٦) كانت حوادث اغتيال الضباط السياسيين الانكليز في الشمال من صميم الثورة التي قامت بها العشائر الكردية ضد الاحتلال البريطاني منذ اوائل سنة ١٩١٩ ، وقبل ان تبدا الثورة العراقية الكبرى في اواسط العراق وادانيه . فلقد احتل الانكليز مدينة زاخو في اليوم الاول من كانون الاول سنة ١٩١٨ وخلف النقيب «بيرسون» النقيب «ووكر» الذي عين اول الامر،وقد تم تدبير =

وبعد مرور ثلاثة اشهر على وقوع ذلك الحادث قتل النقيب «ولي» مع اثنين من الضباط السياسيين هما النقيب «مكدونالد» والقناص «تروب» على يد فريق من الرؤساء والساخطين في مدينة العمادية[7] ولكن في هذه المناسبة تم اتخاذ اجراءات عقابية فانزل العقاب بقبيلة «برواري كولي» وبعض العشائر المتشابكة وطبق حكم الاعدام بالجناة

اخذت الارتال العسكرية تتغلغل،وان لم يكن من دون اصابات كانت تلحق بها ، وتواصل التقدم ، وتجابه السير ، في تلك البلاد الشاقة ذات المسالك الوعرة ، بما في ذلك المناطق التي تسكنها قبائل «الغويان»-ولكن وجد ان من الحصافة ان يجري سحب مساعد الضابط السياسي من العمادية الى دهوك ، حيث عهد بالسلطة الى احد الزعماء الاكراد المحليين هناك

ولقد حدثت مثل هذه الطعنات من الخلف في منطقتي «عقرة» و «برزان» بصفة مشتركة مع ماحدث في الزيبار،ذلك الحادث الذي اثاره شخص نصف مجنون هو الشيخ احمد البرزاني . كانت علاقات هذا الشيخ متوترة جدا مع الاتراك الموجودين في «وان» ومع الرؤساء القاطنين عبر الحدود

اقدم الضابط السياسي الانكليزي «بل» الذي خلف العقيد «لجمن» في الموصل ، نتيجة سبب كاف ، على فرض الغرامة على اثنين من الزعماء الزيباريين وذلك في شهر تشرين الاول سنة ١٩١٩ وكان ذانك الزعيمان صديقين للشيخ احمد في تلك الفترة ، وقد تقبلا منه المساعدة في توجيه هجوم مركز على ذلك الضابط السياسي ومساعده النقيب «سكوت» عندما كان الضابطان يقومان بجولة على مقربة من «بيرا كبرا» في اقليم الزيبار[8]-قتل الضابطان واثنان من

اغتيال بيرسون من قبل السيد «حسو دينو» احد رؤساء الغويان ، حيث اعد هذا خمسة عشر رجلا من رجاله ففتكوا بالنقيب «بيرسون» على مقربة من قرية «بيجو» في اليوم الرابع من شهر نيسان ١٩١٩ وجردوا معيته من السلاح والامتعة والدواب. (انظر المرحوم عبد المنعم الغلامي ثورتنا في شمال الوطن ج١ من ٢٧ ط ١٩٦٦)

(٧) انتشرت الثورة في العمادية مثل بقية الانحاء الكردية الاخرى ، وكان النقيب «ويلي» قد عين بوظيفة معاون الحاكم السياسي في العمادية في ٢٨ حزيران ١٩١٩ ولذلك قرر زعماء العمادية وفي مقدمتهم الحاج رشيد بك القيام بهجوم على مقر الحامية البريطانية في العمادية،حيث اسفر ذلك الهجوم الذي وقع ليلة الخامس عشر من تموز ١٩١٩ عن مقتل النقيب مكدونالد والعريف تروب ، واحد الاطباء وهنديين من دائرة البرق وثلاثة وعشرين فردا من افراد الشبانة-ولقد ايد الزعيم الدين الشيخ بهاء الدين النقشبندي في العمادية تلك الثورة (المرجع السابق ص ٤٢ ومابعدها) وكذلك كتاب الدكتور كمال مظهر احمد الشعب الكردي في ثورة العشرين العراقية «طبعة ١٩٧٨»

(٨) «بيرا كبرا» كان مركز الناحية في قضاء عقرة في سنة ١٩٥٣ وكان «بل» وهو برتبة عقيد قد وصل الى الموصل خلفا للعقيد لجمن وذلك في ١٢ [illegible] اول ١٩١٩ وقد طلب الى زعماء الزيباريين ومنهم فارس اغا واخوه محمود اغا ان يسلموا كفالة نقدية بشأن [illegible] الامن تبلغ اربعة الاف روبية لكل رئيس منهم ، وعلى هذا الاساس قرر الرؤساء ان يفتكوا به وحصلوا على [illegible] الثاري في ذلك،وكمنوا للعقيد «بل» ومساعده النقيب «سكوت» عند شريعة دلان على نهر الزاب [illegible] الى الشريعة اطلق اصحاب الكمين النار عليهم فقتل النقيب سكوت اول الامر ، ثم لحق [illegible]ك معهما احدهما من عقرة والثاني اثوري وعلى اثر ذلك اشتعلت نيران الثورة في منطقتي

رجال الجندرمة معها واعقب ذلك نهب مدينة «عقرة»، ولكن سرعان ماتحطم التحالف القبلي فعاد البرزانيون الى مواطنهم، واذ ذاك تجمع سكان عقرة وطالبوا بعودة الضابط البريطاني لحمايتهم فنجحوا في ذلك حيث تحرك رتل عسكري الى منطقة الزيبار لانزال العقاب بها ، واقدم رجال ذلك الرتل على حرق بيوت الزعماء الزيباريين ، الذين ذهبت جهودهم هباءا ، لاثارة ثورة عارمة ضد البريطانيين كذلك لم يستطع قائمقام «نهري» عبر الحدود ان يحرك «سيد طه» او عشيرة «الاورامار» لمساندتهم

كان حلم بعض متزعمي الاكراد بقيام كردستان تحت رعاية البريطانيين قد ظهر بانه اوشك ان يتحول الى واقع في مدى اسابيع، وذلك بعد ان اصبح الاغوات يفدون على مدينة السليمانية ويغادروها وبعد ان اخذ البريطانيون في اعقاب اختفاء الاتراك من المنطقة ، يشجعون هذه البوادر ويضعون الخطط لتنفيذها وينفقون عليها بسخاء

غير ان ذلك الحلم لم يتحقق لان مثل هذه التجربة كانت، في الواقع تنقصها كل عوامل النجاح العملي كان الشيخ محمود ، لما له من اتباع واعتبار هو المرشح الوحيد لرئاسة حكومة كردية تقام في جنوبي كردستان غير انه لم يكن متزنا وكان اتباعه ، وعلى الاخص الرؤساء منهم يبتغون الهدايا والهبات من دون ان يتقبلوا اية التزامات تربطهم، وكانت المفاهيم السياسية لهؤلاء الرؤساء وتجاربهم وتأخرهم الاجتماعي ، واخلاقهم ومستوى تطورهم ، كان كل ذلك يحول دون استطاعة الشيخ محمود من انشاء احط مستوى لاية حكومة

ففي غضون اسابيع فترت همة العشائر المؤيدة له ، واعيد العمل بالسلطات التي كان الحكمدار السابق يطالب بها وحين اضمحلت حدة الرخاء الذي عاد الى المنطقة ، نجم عن ذلك تمرد عام ضد الشيخ محمود وفي الوقت ذاته سمح لعشائر الجاف في حلبجة بالانفصال عن نفوذ السليمانية، وعين ضابط بريطاني هو المقدم «سون» في منصب الحاكم السياسي لحلبجة وكان «سون» هذا من الذين ينتقدون الشيخ محمود بشدة

الزيبار وعقرة (عبد المنعم الغلامي ثورتنا في شمالي الوطن ص ٧٥ ومابعدها) والحقيقة ان الاجراءات التي اقدمت عليها سلطات الاحتلال الانكليزي كانت نابعة في الاساس من التخطيط الاستعماري الانكليزي لشق الوحدة الوطنية في العراق ، وتضخيم الثغرة بين الاكراد والعرب ، وبذر بذور الفتن والاضطرابات التي توارد حدوثها طيلة العهد الملكي والتي اشتدت في العهد الجمهوري. فلقد قطع الانكليز منذ الحرب العالمية الاولى وفي عهد الاحتلال والانتداب عهودا ووعودا كثيرة للزعماء الاكراد كانت تفسر في نظر قصيري النظر من المتزعمين والمتزمتين بالانفصال التام لكردستان عن بقية الوطن العراقي رغم ان كردستان عاشت الوف السنين في نطاق موحد مع بقية اجزاء القطر العراقي واختلط نضال الاكراد بنضال العرب وغيرهم في الدفاع حتى في العهود القديمة عن تربة العراق ووحدة اراضيه ، وتضامن شعوبه وانصرافها الى العيش سوية في سلام ورخاء، وذلك امر كان يضير المستعمرين وعملاءهم من اصحاب النوايا الخبيثة، والمصالح الانانية الضيقة الذين لايفكرون لا في مصلحة الشعب الكردي ولا الشعب العربي ولا مصلحة الوطن سواء كان الاكراد ام العرب هم الذين يقطنون هذا الوطن وينبغي لهم ان يحافظوا على امنه وسلامته من اي اعتداء يقع عليه

ازدادت العلاقات توتراً ومشقة ذلك لان الحاكم[٩] لم تكن لديه الحكمة ولا المعرفة في مقاومة مستشاريه، وهكذا لم يعد مستطاعا تأجيل الازمة واخيرا وعلى حين غرة في شهر ايار سنة ١٩١٩ ، حرك الشيخ محمود عصابة من انصاره وفدت عبر الحدود الفارسية، فاعتقل الضابط السياسي الانكليزي في السليمانية، وقطعت المواصلات واعلن استقلال كردستان، اما الضابط السياسي البريطاني في حلبجة فقد استطاع الهرب بمساعدة من «عادلة خانم»[١٠]. على ان الاسرى من الانكليز قد تم احتجازهم في السليمانية من دون ان تساء معاملتهم، وما لبثت السلطات الانكليزية ان ارسلت نجدة محسنة من القوات الهندية والسيارات المدرعة على الفور، فتقدمت من كركوك، لكن هذه النجدة ارغمت على التراجع في مضيق «طاسلوجة»[١١] ومع كل ذلك فلم يزدد عدد قوات الشيخ محمود ولم تقف العشائر الكبيرة الى جانبه.

استغرقت عملية تجميع قوات بريطانية اكثر فعالية من الحاميات المتناثرة في محافظة الموصل زهاء شهر من الزمن، ثم اعقبها حدوث تقدم آخر قام به لواءان من كركوك. التحمت المعركة في السابع عشر من شهر حزيران في مضيق بازيان حيث تمزقت قوات الشيخ محمود ووقع نفسه اسيرا وهو متخن الجراح ،[١٢] واذ ذاك اخذت القوات البريطانية تتوافد في ارتال على المناطق الكردية، لاعادة الامن والاطمئنان، حيث استطاع المقدم «سون» اقامة ادارة اعتيادية في السليمانية ، وشهدت المنطقة فترة انتعاش وتقدم نتيجة انتشار قوات الشرطة المحلية فيها ،

---

(٩) المقصود به الشيخ محمود نفسه

(١٠) كان الضابط السياسي الانكليزي في حلبجة انذاك هو النقيب «ليز» من ضباط الطيران وقد عين في ذلك المنصب في الرابع عشر من اذار ١٩١٩ وقد هرب من حلبجة عندما حاصره فيها انصار الشيخ محمود ، وكان القصد من ذلك الحصار هو اعادة حلبجة تحت نفوذ الشيخ محمود ، وهكذا وصل النقيب «ليز» الى خانقين سالما اما «عادلة خانم» فهي زوجة الشيخ عثمان رئيس الجاف وكانت على اوثق علاقة بالمقدم «سون» من قبل الحرب ومابعدها. وقد منحها الانكليز لقب «خان بهادر» وحين حاولت مجموعة من عشيرة «دزئي» الموالية للشيخ محمود الهجوم على دار عادلة خانم ، تحرك الانكليز انذاك فقامت طائرتان حربيتان بتدمير قريتي «بارام اوه» و«بلخه» وقرى اخرى في هورمان (د. كمال مظهر احمد دور الشعب الكردي في ثورة العشرين العراقية ص ١٤٢)

(١١) كانت القوة الانكليزية التي وصلت الى «طاسلوجة» تتألف من حوالي خمسة الاف رجل يقودها الرائد «بومي» وحين علم الشيخ محمود بذلك خرج بقواته لملاقاة القوات الانكليزية. وصلت القوات الانكليزية الى طاسلوجة في الخامس والعشرين من ايار ١٩١٩ والتحمت في معركة مع الثوار استمرت من الصباح حتى العصر ، وانتهت بهزيمة القوات الانكليزية وتراجعها الى كركوك تاركة وراءها اكثر من مائة قتيل، ومن ثم واصل الثوار تحركهم فاستولوا على جمجمال وكان اول الداخلين اليها عبد الكريم الهاوندي على رأس خيالته، وتم اسر النقيب «بوند» الحاكم السياسي في المدينة وارساله مخفورا الى السليمانية ومن ثم انتشرت حوادث الثورة الى كل من رانية وكويسنجق (عبد المنعم الغلامي ثورتنا في شمال الوطن ص ٩٨ – ١٠٠)

(١٢) بعد ان وقع الشيخ محمود في الاسر نقل الى بغداد وجرت محاكمته امام مجلس عرفي عسكري حكم عليه بلاعدام وعلى صهره الشيخ محمد غريب بالسجن خمس سنوات وتغريمه عشرة الاف روبية. ولكن الحاكم الانكليزي العام في العراق ابدل حكم الاعدام على الشيخ محمود بالسجن لمدة عشر سنوات ثم نفيه هو والشيخ محمد غريب الى الهند، حيث لبثا فيها حتى سنة ١٩٢٢ حين تم اصدار العفو عنهما واعادتهما الى الكويت ومنها الى السليمانية (المصدر السابق ص ١١١).

وتنشيط العمل بالاقدام على شق الطرق وبنائها

وفي راوندوز وجد الضابط السياسي البريطاني الذي عين هناك لاول مرة في شهر كانون الاول ١٩١٨ انه يستحيل عليه استتباب الامن من دون دعم عسكري ولذلك تم سحبه من هناك في شهر تموز ١٩١٩ الى «باطاس» وعين مكانه في راوندوز احد الارستقراطيين من الاكراد ، لكن الاضطراب مالبث ان تعاظم في المنطقة اكثر من ذي قبل وقد اشتد وتضاعف في اعقاب الاضطرابات التي وقعت في عقرة في شهر تشرين الاول[١٣]

في اوائل سنة ١٩٢٠ تكشفت الامور عن الفوضى والاضطراب ففي زيارة محفوفة بالمخاطر ، قام بها الضابط السياسي الانكليزي في اربيل[١٤] للمنطقة ، وجد ان انقاذها من الفوضى الضاربة اطنابها فيها ، انما يتمثل في تعيين احد الشبان من الاكراد المثقفين وهو ، اسماعيل بك ، ممثلا للحكومة هناك[١٥]

كان موقف قبيلة «شمر» مترجرجا على الدوام ولا يمكن تقديره اذ كان البعض من رؤسائهم المحاربين يقومون على وجه اصح ، بزيارة الحكومة الجديدة،بينما كان البعض الآخر منهم ينتهز فرصة حدوث الاضطراب لكي يغير على عشائر الجبور الذين يقطنون على ضفاف الانهار،ولقد اخفق «العاصي» الزعيم الاسمي للقبيلة والمحارب المراوغ في الظهور مرة اخرى وبالنظر لاعمال السلب الكبرى التي قامت بها «شمر» على الطرق خلال شهر ايلول سنة ١٩١٩ فقد تم فرض غرامة كبيرة عليها ، كما وجهت الحكومة ذاتها غارة معاكسة ناجحة

تم توطين عدد ممن يمتهنون حرفة الزراعة في بعض الاراضي لكن الاكثرية الرحالة بقيت موزعة هنا وهناك ، حيث بقي القسم الاكبر منها والذي يرأسه «دهام الهادي» حفيد «العاصي» بعيداً عن نطاق السيطرة في الاراضي السورية

* * *

كذلك شهدت المنطقة العليا من الفرات خلال سنة ١٩١٩ اكثر من مجرد الاضطراب العشائري،ولقد انبعثت المتاعب في هذه المنطقة من التجاوزات الحادة التي كانت تقوم بها العشائر المجاورة لها في الاراضي السورية،والتي تحكمها الان حكومة عربية يساندها البريطانيون. ولقد ادى

---

١١) كان الحاكم السياسي في راوندوز هو النقيب «كيرك» وقد عين في عقرة بعد القضاء على الثورة فيها

(١٤) كان الحاكم السياسي البريطاني في اربيل انذاك هو النقيب «هاي» الذي دون مذكراته في كتاب اصدره في سنة ١٩٢٠ بعنوان «سنتان في كردستان» ولقد قام المرحوم فؤاد جميل بترجمة هذا الكتاب الى العربية واصدره في جزئين سنة ١٩٧١

(١٥) هو اسماعيل بن سويد اغا بن عبد الله باشا من زعماء بلدة «باطاس» وقد عينه النقيب «هاي» حاكما على مدينة راوندوز باتفاق العشائر الموجودة هناك .

لغياب الامير فيصل في اوربا[١٦] ، ونفاد صبر الضباط العراقيين بشكل مباشر ، الى حدوث اعمال عدوانية على الحدود ، نتيجة دوافع سياسية محضة

في شهر كانون الاول من سنة ١٩١٨ تم ارسال ضابط سياسي بريطاني لملء الفراغ الحاصل في دير الزور[١٧] من دون ان يدعم باي عون عسكري.كان احد المحافظين العرب الذي عين لذات المنصب من لدن حكومة حلب ، قد تم سحبه[١٨] غير ان الدعاية الشريفية مالبثت الان ان تدفقت على هذه المنطقة،تلك الدعاية التي كان يقوم بها حزب «العهد» العراقي ، الذي انبعث مجددا تحت زعامة ياسين الهاشمي ، وهو قائد فيلق تركي سابق ، ويتولى منصب رئيس اركان قوات «فيصل» في دمشق وكانت هذه الدعاية تنادي بالقومية العربية ، وبالثورة ضد الاجانب

جرت في صيف سنة ١٩١٩ محاولات للاتفاق على تسمية الحدود بين العراق وسوريا لكنها انتهت الى تسوية غير حكيمة،وذلك بجعل نهر خابور ذاته يمثل خط الحدود بين البلدين.ولقد قيل بان الامير فيصل نفسه كان قد وافق على هذا الاجراء الذي تم التوصل اليه مع الفرنسيين.ولكن الاتفاق ظل غير معمول به ، واشتد الضغط على البريطانيين لكي يخلوا محافظة دير الزور كلها ، مادامت قواتهم قد جلت كلها في الواقع عن الاراضي السورية باكملها في تلك اللحظة. واذ قاربت سنة ١٩١٩ على الانتهاء ابرزت الشائعات العشائرية وما رافقها من تعيين قائمقام من لدن السلطات السورية على المدن التي جلت عنها القوات البريطانية ، دلائل واضحة على ان الهجوم الشريفي على منطقة «دير الزور» يوشك ان يقع

شهدت السنة التي اعقبت الهدنة تغييرا طفيفاً بين العشائر التي تسكن القسمين الاوسط والادنى من العراق فقد اجريت هناك بعض الاستبدالات في الزعامة العشائرية واعيد البعض من الخارجين على القانون الى اماكنهم كما رجع المنفيون من الاراضي التركية ومن الهند ، الى مواطنهم ، وغدت حركة التنقل اكثر حرية بعد ان زالت القيود التي فرضت اثناء الحرب ، واستؤنفت الاعمال التجارية المعتادة ، وزادت الفة الناس لسكة الحديد وللسيارات وقد صحب ذلك وقوع البعض من حالات الاقتتال بين العشائر ، وحدوث غارات قليلة من الطراز

---

(١٦) كان فيصل في ذلك الوقت قد ذهب الى باريس لحضور مؤتمر الصلح الذي عقد هناك لغرض ان يدافع عن حق العرب في الاستقلال والسيادة اعتمادا على العهود التي قطعها الانكليز لابيه الملك حسين.

(١٧) كانت الحكومة العربية في سوريا قد احتلت دير الزور في اوائل كانون الاول ١٩١٨ وعينت عليها مرعي باشا الملاح يعاونه في ذلك احد اشراف المدينة المنورة المدعو على الناصر،وحين اخذ «علي الناصر» يشتد في معاملة اهل الدير نظم البعض من سكانها ما كرة سرية تقدموا بها الى الحاكم السياسي البريطاني في عانة راجين فيها وضع دير الزور تحت الاحتلال البريطاني،وعلى اثر ذلك ارسل الانكليز النقيب «كارفر» مع بعض المدرعات والسيارات لاحتلال المدينة ،واخيرا رجح المركز العام لجمعية العهد العراقية اشعال نيران الثورة في دير الزور،واحتلالها،حيث عين لها فيما بعد «رمضان شلاش» من عشيرة العقيدات وقد احتج الامير فيصل على هذا العمل وطالب بخروج الثوار من البلدة حيث عاد الانكليز الى احتلالها مرة اخرى ، ونشروا بيانا بذلك في ٢٢ كانون اول ١٩١٩ (مقدرات العراق السياسية تاليف امين العمري ج ٣ ص ٣٣٦ ومابعدها)

(١٨) هو رمضان شلاش

التقليدي ، والاصرار على النزاعات القديمة القائمة بين المتجاورين ، وتعاظم الاوهام التي نمت اثناء الحرب ، وانبعاث التأثيرات المعادية للاجانب ، فكانت هذه الامور كلها من الظواهر التي تميز بها العالم العشائري في تلك السنة التي شهدت رغم كل ذلك ، اجراءات من الامن ، اكثر مما تستطيع الذاكرة الحية ان تتذكره

وعلى الحدود بقي «اللر» وسكان مندلي يواصلون منازعاتهم حول الحقوق المتعلقة بجدول ماء كان يجري من احد التلال.وكان والي «بشتكوه» مايزال يدعي الولاية على المنطقة،وكان هذا الوالي في وقت من الاوقات يفرض الجزية بالقوة على «بني لام» الذين يرعون مواشيهم ويمكثون فيما كان يسميه باراضيه. اما السلام القائم بين بدو جنوبي العراق ورعايا ابن السعود فكان يشوبه الحذر ولوأن أمير نجد كان منذ سنة ١٩١٧ ومابعدها منشغلا انشغالا جدا في المنازعات العربية.

اما في المدن فان التغييرات التي احدثتها الادارة الجديدة كانت اكثر وضوحا. فما خلا «النواحي السياسية» كانت هذه التغييرات بارزة في تخطيط الشوارع وتوسيعها ، ونظافة الاسواق وتبسيطها بصفة جيدة في مدينة الموصل،وفي بناء جسور جديدة في بغداد ، والحلة ، والعشار ، وفي ارتفاع عمل الشرطة ، وصيانة الامن ، وتقليل حدوث الجرائم[١٩]

ومن الظواهر الاخرى ذلك التحول التام الذي حدث في السجون المدنية وفي اقامة اكثر من عشرة سجون جديدة واصلاح القديم منها[٢٠] وتوسيع مصلحة البرق والهاتف ، وتوفير التسهيلات الصحية لكل قادم الى المؤسسات الصحية

وفي ميدان البلديات العراقية ، تمت دعوة العراقيين للمشاركة في هذا المجال مشاركة مهمة وان لم تكن البلديات تنعم بالمسؤولية الكاملة. وتم تشجيع التفاخر بين المدن على الاقل فغدت بعض التحسينات الملحة المطلوبة من الامور الممكنة. ومع ان القيود والمتطلبات التي استدعتها حالة الحرب ، قد بدا عليها الاسترخاء مؤخرا،فان المعسكرات الواسعة ، والمخازن ودوائر اسطول النقل التي يتطلبها الجيش ، قد اخذت تتقلص ، ومع كل ذلك فان ايجاد حياة مدنية ما تزال تعتبر من الامور الشاذة،وان وجود عنصر اجنبي وعسكري مهما كان مفيدا ، لابد وان يثير التذمر والانزعاج بين السكان كلما مرت الشهور.

---

(١٩) لايوجد ادنى شك في ان هذه الاعمال نابعة من الضرورات العسكرية وبقاء الاحتلال الغاشم ، اكثر من ان تكون نابعة من رغبة البريطانيين الصادقة في تهيئة العراقيين لكي يمسكوا بزمام السلطة والاستقلال

(٢٠) ان كثرة وجود السجون في اي بلد في العالم ، حتى وان كانت قائمة على الاسس العصرية ، يعكس بصفة جلية لاتقبل الشك الواقع الاصلي في ذلك البلد ، لان كثرة السجون ، تعني كثرة من تطبق العقوبات عليهم وهؤلاء اما ان يكونوا من مقترفي الجرائم الاعتيادية كالقتل والسرقة وماشاكلها واما من المتمردين المعارضين للحكم القائم في ذلك البلد . وعلى هذا فاذا كان مايقصده المؤلف هنا من وراء الاشارة الى كثرة السجون الجديدة هو التفاخر بما كانت تعمله الادارة البريطانية فان هذا لايمكن ان يكون مدعاة للتفاخر ابدا ، بل هو دليل قاطع على تذمر الشعب من الحكم الاجنبي المفروض عليه رغم ارادته،ولو على ضعف ذلك الحكم الاجنبي في مقاومة اسباب الجريمة حيث توجد اساليب كثيرة يمكن القضاء بها بصفة سليمة على الجرائم والمخالفات دون اللجوء الى استعمال القوة وفتح ابواب السجون امام المخالفين .

٢ ـ الادارة البريطانية خلال الفترة ١٩١٩ ـ ١٩٢٠

بقيت ادارة العراق المحتل، حتى شهر تشرين الاول من سنة ١٩٢٠، من مسؤولية القائد العام للقوات البريطانية، التي كانت تمارس، تحت اشراف نائبه، مفوض الشؤون المدنية. غير ان القائد العام لم تكن له، من الناحية العملية، اية مناسبة ظاهرة للتدخل في الشؤون المدنية. وكان السر برسي كوكس هو الذي يقوم بمهمة مفوض الشؤون المدنية الى وقت تعيينه وزيرا مفوضا لبريطانيا في طهران، وذلك في شهر ايار سنة ١٩١٨، حيث سلم وظيفته السابقة الى المقدم ارنولد ولسون الذي كان يشغل وظيفة وكيل مفوض الشؤون المدنية طيلة الثلاثين شهرا التي اعقبت ذلك

ونظرا للوضع المنفصل الذي يخص الموصل، والذي لم يعد الان يعتبر اسميا، كانت البلاد كلها ابتداء من اوائل سنة ١٩١٩ وما بعدها، تدار من لدن بغداد حسب اساليب موحدة بصفة عامة. ففي مقر الادارة الذي تعاظم بما التي عليه من مسؤوليات جديدة، كانت عناصر السكرتارية قد تم تاليفها، فظهرت صيغة مالحكومة منظمة. وما خلا موظفيه الشخصيين، ومن بينهم «المس غرترود بل» كان مفوض الشؤون المدنية، يعتمد على خمس من السكرتيريات. فقد كانت السكرتارية الخاصة بالواردات تحت امرة العقيد «هويل»، وهي تشمل ايرادات الاراضي، وكثير من الايرادات المنوعة، وتسجيل الاراضي، وقضايا الارض، واعمال المسح، والزراعة والري والبلديات.

وكانت السكرتارية المالية التي رأسها العقيد «سليتر» قد حصلت في سنة ١٩١٩ على تفويض من المقدم «ماي» يشمل كل مسائل الصرف والميزانيات، والعملة، والتدقيق، والكمارك، والقضايا التجارية. وصحف الحكومة ومطابعها. وكان السكرتير القضائي «السر بونهام كارتر»، الذي خلف «نوكس» في سنة ١٩١٩، يقوم بتوجيه التشريع، والمحاكمة، والاوقاف، في حين وضعت سكرتارية الصحة تحت امرة العقيد «بتي» الذي خلفه العقيد غراهام في سنة ١٩٢٠، وكانت هي التي تعالج قضايا الصحة، والمسائل الصحية، والموضوعات المتصلة بها، وبالحجر الصحي، ونقل الجثث والزوار، والجنون، والسجون المدنية، ومكتب الجو او المناخ.

وكان السكرتير الاول للاشغال العامة هو العميد «اتكنسون» الذي لم يمكث سوى شهور قلائل في العراق، وكان المقصود ان يشتمل فرعه هذا، سكك الحديد، وميناء البصرة، والري،

والاشغال العامة، وكل وسائل المواصلات. وهناك دوائر لم تشملها اية سكرتارية، وكانت من اشهر هذه الدوائر هي دوائر الشرطة والتعليم التي وضعت تحت اشراف مفوض الشؤون المدنية بصفة مباشرة.

وكانت ادارة الشؤون العشائرية من الناحية السياسية، وكذلك الامن، والشؤون الاجتماعية بصفة عامة، وجباية الايرادات، والعلاقات مع الجيش، من الوظائف الاساسية التي كانت تنهض بها الدائرة الشخصية لمفوض الشؤون المدنية، ويجري العمل بها في المحافظات، عن طريق الضباط السياسيين التابعين له.

ومن بين الدوائر التي كانت تعمل بحماسة طليعيةقبل اعلان الهدنة وما بعدها بمدة سنتين، هي دوائر التسجيل العقاري التي كان يرأسها «رويدز» والاوقاف التي رأسها «كوك». وكانت تسانده فيها لجنة من مشاهير رجال الدين الاقوياء[1] وكذلك دائرة المساحة التي وضعت تحت امرة العقيد «بيري» ومطبعة الحكومية تحت امرة «ويكفورد»، ودائرة البريد والبرق التي رأس الاول منها «كليريس». ورأس الثانية «دي سمدت»، ومن ثم جمعتا سوية تحت امرة (غمبلي) حيث بقيت هاتان الدائرتان من مسؤولية الادارة المدنية ابتداء من حزيران سنة ١٩١٩ اما دائرة الاشغال العامة التي اسسها اتكنسون في اواخر سنة ١٩١٩، فقد اشرف على ادارتها « ولسون» من سنة ١٩٢٠ الى السنة ١٩٢٥

وكانت المحاكم، ومسألة تطبيق القانون المدني التركي – ما خلا بعض القضايا المهمة التي تخص الضباط الاداريين–تطبق الاجراءات المدنية التركية بصفة عامة،وتدار امورها باللغة العربية، وبالرضا العام، وهي الوحيدة بين الدوائر الحكومية التي كانت تستخدم منذ البداية كبار الشخصيات العراقية. ذلك لانه، بالنسبة الى القضايا الاجرامية، تم اعداد قانون جديد، هو قانون العقوبات البغدادي، ووضعه موضع التنفيذ.

ينبغي هنا ذكر المزيد عن الدوائر التي حققت التحسن والضبط في الادارة. فلقد كانت دائرة الزراعة، ولاول مرة في العراق، من الدوائر التي تم تنظيمها على اساس علمي، واخذت تستخدم الاخصائيين في النبات وكيمياء التربة، وزراعة القطن، وتحسين الاصواف، وتربية المواشي وغيرها من الفروع. ولما كانت دائرة الزراعة هذه تدار من قبل السيد غراهام في سنة ١٩٢٠، وروجر توماس فيما بعد، فقد استطاعت ان تبرز الشواهد على نشاطها، وان تنشر كراريس عن البحوث الزراعية، وتقوم بتوزيع البذور، وتستورد الحيوانات من الخارج. ولكن

---

(١) عرفت هذه اللجنة باسم المجلس العلمي للاوقاف وكان اعضاءؤه مؤلفين من كل من الشيخ ابراهيم الراوي، وامين ملا رشيد، والسيد شمسي الالوسي، وقد عين هؤلاء الثلاثة في اليوم الاول من شهر ايار ١٩١٧، ثم اضيف اليهم اثنان هما قاسم الفندي الذي عين في ٢٨ تموز ١٩١٧، وصالح الملي الذي عين في ٢١ اب من نفس السنة (تقرير المس بل وترجمة جعفر خياط (فصول من تاريخ العراق القريب) حاشية ص ٣٠٥ ط ١٩٧١

الوقت لم يكن يسمح في الواقع، لدائرة، او حتى لواحد في العشرة من هذه الدائرة، بان تسد حاجات الزراعة في العراق.

وضعت دائرة الري اول الامر تحت امرة العميد «لويس» ومن ثم العميد اتكنسون، وبقيت هذه الدائرة حتى سنة ١٩٢١ غارقة في دراسة مشاكل الفيضان وتوزيع المياه والتطبيقات العملية للوقاية من الفيضانات، ولكن حيل بينها وبين النهوض باعمال مهمة نتيجة الالحاح على الاقتصاد الذي طبق بعد الحرب. ومع كل ذلك كانت اعمال هذه الدائرة من الامور المرغوب فيها.

م تشجيع الدائرة وربطت ببعض الاعمال الرئيسة التي تخصها، وبقضايا النواظم، وكري القنوات، واصلاح سدة الهندية في الدرجة الاولى.

فهاتان الدائرتان، الزراعة والري، بالاضافة الى دائرة المساحة، قد تم تحويلها من الجيش الى السلطة المدنية، بعد ان انقص عدد موظفيها وكذلك الاموال المخصصة لها ايضاءوذلك في سنة ١٩١٩

كانت دائرة الشرطة التي اسسها العقيد بريسكوت في سنة ١٩١٨ بعد ان خلف فيها العقيد «غريغسون» قد اخذت توسع من سيطرتها بسرعة الى كل انحاء العراق، واستطاعت بامانتها وبراعتها ان تحظى بالاحترام العام. لان «الضبطية» او «البوليس» لم تكن معروفة قبل ذلك. اما قوات المرتزقة «الليفي» وهي خلف لقوات «الشبانة» التي سبقتها، وكانت مثلها من القوات العسكرية الضاربة، فقد انتظمت في صفة فرق من مختلف الشخوص المحلية، تحت امرة ضباط بريطانيين، ولها مركزها العام في بغداد. كانت واجباتها هي التخفيف عن كاهل الجيش من كثير من المهمات، وتعزيز قوة الشرطة. كما تم انشاء دائرة للبيطرة في كانون الثاني سنة ١٩٢٠ تحت امرة المقدم «جاد ويك» وعهد الى قضايا العناية باللاجئين من الارمن والآثوريين الى ادارة مدنية منفصلة انشئت في المخيم الذي اقيم لهم في بعقوبة، وتولى شؤونها العقيد «كنليف اون».

جابهت دائرة التعليم التي اوحى بها اول الامر وقام بتأسيسها المقدم «بومان» مشكلة توفير المدارس في العراق، في الوقت الذي انعدمت فيه الاموال، والبنايات، والكتب، والتجهيزات الاخرى، والمعلمين اللازمين لذلك ولو بنسبة واحد في العشرة من الكميات الكافية. وبخطوات مخيبة للامال على الدوام، لكنها اكثر سرعة من الناحيتين المالية والوظيفية، تم فتح المدارس الابتدائية التي كانت تهدف الى تحقيق مستويات طيبة، حيث بلغ مجموع هذه المدارس خمسا وسبعين مدرسة في نهاية سنة ١٩١٩

كانت خمس وستون من تلك المدارس تدرس باللغة العربية، واحدى عشرة باللغة التركية، وسبع باللغة الكردية، وواحدة باللغة الفارسية. ولم تستطع مدرسة اعداد المعلمين التي اسست حديثا ان توفر سوى جزء ضئيل من المتطلبات الملحة لهذه المدارس، في حين كان نطاق المدارس الثانوية الذي حدد في ثلاث مدن رئيسة، منحطا الى درجة يؤسف لها. كذلك كان تغلغل

السياسة التي عمت القطر كله الى تلك المدارس في تلك الايام، اقل ظهورا.

تحققت الوسائل اللازمة لاعادة فتح كلية الحقوق، والمدرسة التجارية الصناعية. في حين واصلت الكتاتيب الخاصة، التي يديرها الملالي،والبالية في طرائقها ومداها وتجهيزاتها، عملها في تعليم القراءة والكتابة للالوف من تلامذتها. غير ان الميل الى مضاعفة عدد المدارس الحكومية ذات النمط الغربي، كان يلاقي المقاومة، ولقد توقف تعليم اللغة الانكليزية رغم كثرة الالحاح عليه. اما عن الرغبة في فتح مدارس للبنات، والتي كانت آراء المسلمين منقسمة حولها في اول الامر، فقد تم افتتاح خمس مدارس ابتدائية في الاسابيع الاول من سنة ١٩٢٠ كذلك حظيت مدارس الاقليات المسيحية واليهودية، وتلك التي تديرها بعثات التبشير المسيحية، بالدعم وبالاموال،وكان البعض من هذه المدارس على مستوى عال

بدأت بعض اعمال التنقيب عن الآثار القديمة على يد «كامبل ثومبسون» في موقع«ابو شهرين» (اريدو) وذلك في ربيع سنة ١٩١٨، كما اجرى السيد «هول» هو الاخر تنقيبات في «اور» وفي اماكن اخرى في سنة ١٩١٩.وكان يجري طبع الصحف في النجف سنة ١٩١٨، وفي السليمانية سنة ١٩١٩، وفي البصرة وبغداد والموصل منذ ان تم احتلال هذه الاماكن. وصدرت صحف بالانكليزية في بغداد والبصرة، وبالعربية في هاتين المدينتين والموصل، وبالتركية في كركوك، وبالكردية في السليمانية[٢]

ولقد وفرت الزيادة الكبيرة في السلع التي دخلت العراق خلال الفترة ١٩١٨ - ١٩١٩، اعلى مستوى من ايرادات الكمارك التي كان يديرها «واتكنسن» والمقدم «سيفرايت». وحصلت هذه الزيادة نتيجة لتوقف التصدير من روسيا الى شمالي بلاد فارس، كما ادت الى ازدياد قوة الصرف في العراق، وزيادة النضوب العام في المخزون من السلع خلال فترة الحرب. وشرع بتوزيع الروبية الهندية التي اصبحت هي العملة العامة السائدة في العراق، وذلك بمقدار معتدل، وارتفع نطاق وسائل النقل المدني التي يستطيع الآن ان ينهض بها ميناء البصرة بعد ان طور تطويرا تاما، وعهد بادارته الى العقيد «وورد» في خريف سنة ١٩١٩، وسرعان مانقلت ادارة هذه الميناء الى الادارة المدنية

وكانت سكك الحديد التي سلمها الجيش في نيسان ١٩٢٠ في اقصى مدى، وهي تؤلف

---

(١) لم يتأكد لدينا صدور صحف في النجف في تلك السنة عدا جريدة النجف الفارسية التي كان يديرها مسلم زوين والتي صدرت سنة ١٩١٠ اما في السليمانية فصدرت جريدة «سليماني بشكوتن» «تقدم السليمانية» بالكردية، وفي كركوك «نجمة كركوك» بالتركية صدرت في ١٥ كانون الاول ١٩١٨، وفي بغداد جريدة «العرب» التي صدرت بالعربية في ٤ تموز ١٩٠٧، وفي الموصل «الموصل» التي صدرت في ١٤ ت ٢ ١٩١٨، وفي البصرة (الاوقات البصرية) التي اصدرها سليمان الزهير وقد صدرت سنة ١٩١٥، اما الصحف الانكليزية فهي «الاوقات البغدادية» التي صدرت في ١ كانون الثاني ١٩١٨، والاوقات العراقية» التي صدرت في ايار ١٩٢١ وحلت محل جريدة سليمان الزهير.

حوالي الف ميل من الطرق الحديدية(٭) ولم يكن اقتصاد العراق مستعدا لضم هذه السكك التي انشئت بسرعة بتجهيزات بالية، وقاطرات مسحوقة، وخطوط صممت اصلا لخدمة الاغراض العسكرية. كان مدير السكك العام خلال الفترة ١٩١٩ ١٩٢٠ هو العقيد «لوبوك» وكان العمال الذين تستخدمهم ادارة السكك في هذه الفترة كلهم من الهنود

* * *

كانت الاجراءات المالية لادارة الاعمال الكبرى التي تتطلبها الادارة المدنية التي يجري وضعها وتمويلها من الصناديق المالية للجيش البريطاني، موضوع بعثة ارسلت الى العراق برئاسة «السر جون هوت»، وكانت الاموال المخصصة لها تبلغ مليوني باون، عدا نفقات سكك الحديد. ولكن معظم تلك الاعمال اتخذت اشكالا لاعلاقة لها بالحاجات المدنية. كذلك فان الاسطول النهري الكبير، وهو عسكري يعمل في النقل داخل المياه الاقليمية، لم يتم بعد تحويله هو الآخر، الى الادارة المدنية، ولم تكن وحداته يجري بيعها في المزاد العلني، كما كان عليه الامر بالنسبة الى كثير من المخازن العسكرية الكبيرة والعديد، والتي لم تعد اية حاجة اليها.

وازاء عاصفة الاحتجاج القوية التي انطلقت من مفوض الشؤون المدنية، ومن اصحاب المصالح التجارية من العراقيين والبريطانيين معا، اودعت تلك السفن النهرية في «بمباي» من قبل «اللورد لانتشكيب» نيابة عن الحكومة البريطانية، ولم يلبث اسطول النقل المدني في مياه نهر دجلة ان قلص الى المستوى الذي كان عليه قبل الحرب، وفقدت شركة لنج سفينتها «جلنار» مع بعض السفن الصغيرة الاخرى، لكنها مالبثت ان حصلت في سنة ١٩٢٠ على السفينتين «زنوبيا» و «زبيدة» اللتين بنيتا في سنة ١٩١٦، حيث ادخلت الشركة المتطلبات العصرية على اجهزتها

(٭) كان طول سكة حديد بغداد – البصرة ٣٥٢ ميلا، وخط بغداد – حتى الحدود الفارسية ١٣٠ ميلا وبغداد – الكوت ١٥٨ ميلا، والزبير جبل سنام ٣٠ ميلا، واور – الناصرية عشرة اميال. ومن قرەغان (على خط سكة خانقين) الى «كنكربان» (خارج كفري) ٢٣ ميلا، بالاضافة الى خط طوله ثمانية وثلاثون ميلا من البصرة الى المعقل. وكان خط بغداد – الشرقاط (٣). وهو من القياس المتري، يبلغ ١٨٦ ميلا، وهناك خط اخر بالقياس الضيق بين بغداد والكفل يبلغ ٢١ ميلا. وبين بغداد والفلوجة ٣٨ ميلا

(٣) قلص خط بغداد – الشرقاط في سنة ١٩٢٧ اذ اصبح خط بغداد ينتهي في محطة بعيجي (قضاء بيجي الحالي) وفي اواخر سنة ١٩٣٦ تقرر مد هذا الخط الى الموصل وكان كل من حكمت سليمان وجعفر ابي التمن وكامل الجادرجي قد قدموا في قطار خاص خلال شهر نيسان من سنة ١٩٣٧ ايذانا ببدء مشروع ايصال سكة بغداد الى الموصل، حيث كنت من بين الذين حضروا ذلك، وحيث حمل جعفر ابو التمن المطرقة وسلمها الى كامل الجادرجي لكي يضرب المسمار الذي يربط اخر قضيب من السكلة ايذانا ببدء العمل في الخط الجديد، وهو يقول له (هاك كامل بلك هذا شغلك موشغلي) لان كامل الجادرجي كان وزيرا للاشغال والمواصلات في وزارة الانقلاب.

ومنشآتها. فما دامت تستخدم بواخرها الشهيرة «بلوس لنج» و «خليفة» و «مجيدية» و «ملامير» والتي كانت تعمل في المؤسسة الخاصة بنهر «كارون» قبل الحرب. ومافتئت شركة لنج بعد سنة ١٩١٩ وفي غمرة الاضطراب الذي اصاب مصالحها، ان انضمت الى شركات النقل الاخرى من امثال شركة «غراي مكنزي» GRAY MACKENZIE، وانشأت منها شركة موحدة عرفت باسم «الشركة العراقية الفارسية للملاحة MesopotAMIANPERSIAN CORPORATION وقد عرفت هذه الشركة باسم مختصر هو مسبرس Mespers في كل من بغداد والبصرة

لم تعد المنافسة في ميدان الملاحة النهرية منافسة حكومية. فقد اختفت معظم السفن التي كانت تعمل قبل الحرب(**) لكنها كانت مع كل ذلك تقوم بنصيب له قيمته في ميدان النقل

* * *

وفي حكومات المحافظات، اعيد العمل بالوحدت الادارية التركية ذاتها. فقد كانت المحافظة تدعى في السابق، باسم «سنجق» او «لواء»، والمنطقة، تدعى «قضاء»، في حين طرأ على النواحي شيء قليل من التغيير. وكانت الوحدات الست عشرة في سنة ١٩١٩، تشتمل على كل من العمارة، وبغداد، وبعقوبة، والبصرة، ودير الزور، والديوانية، والدليم، والحلة (من ضمنها كربلاء) وخانقين، وكركوك، وكوت الامارة، والموصل، والمنتفق، وسامراء، والشامية (من ضمنها النجف)

وسرعان ماسلخت من هذه الوحدات، محافظة «دير الزور» عن العراق، واعطيت الى سوريا، وتألفت من وحدتي خانقين وبعقوبة محافظة واحدة، وفقد «الكوت» صفته، لكنه استعادها ثانية في سنة ١٩٢٢، في حين ادخلت الشامية في محافظة الديوانية، وسامراء في محافظة بغداد، وتألفت من كربلاء والنجف محافظة واحدة مؤخرا، واخيرا انشئت محافظة اخرى هي محافظة اربيل[٤]

(**) هذه السفن هي «بغداد» «نجمة الشرق» التي تمتلكها شركة اصفر، «والفرات» و «الرصافة» وعدد من القوارب البخارية العائدة الى «شركة النقل النهري» التي يملكها الالمان، قد تم اغراقها من قبل الاتراك لسد منافذ المياه، واعاقة حركات النقل البريطانية. وتم ارسال السفينة «البصرة» الى اوربا لكنها لم تتعد جزيرة مالطة، في حين نسف الاتراك الباخرتين «برهانية» و «حميدية» كيلا تقعا في ايدي الانكليز. ووصلت الباخرة «بغداد» الى الموصل، وهي اول باخرة تصل الى تلك المدينة، وهناك استولى عليها البريطانيون

(٤) حتى سنة ١٩٦٨ كان عدد المحافظات او الالوية في العراق يبلغ اربعة عشر لواء او محافظة ولكن حكومة البعث مالبثت بعد وصولها الى الحكم في اعقاب ثورة السابع عشر من تموز ١٩٦٨، ان زادت العدد الى سبع عشرة محافظة وابدلت اسماء بعض المحافظات، وكانت المحافظات التي استحدثت ثلاثا، هي محافظة دهوك، ومحافظة السماوة (ذي قار) ومحافظة تكريت (صلاح الدين).

وكانت كل محافظة تحت امرة ضابط سياسي بريطاني، بينما كان معاونوه يشرفون، كل واحد منهم، على قضائين او اكثر من اقضية تلك المحافظة. وكان مثل هذا يجري ايضا بالنسبة الى النواحي التي يرأسها مدراء عراقيون، وبقيت محافظة على ذات الاسلوب والتنسيق اللذين كانت عليهما قبلا

وفي مراكز المحافظات، كان تشكيل مجالس استشارية من الرجال المشهورين في المحافظة وموظفيها، تحت امرة الضابط السياسي البريطاني، يعتبر من اولى الخطوات التي تم اتخاذها في مبكر الايام التي اعقبت الحرب. وكانت هذه المجالس تعتزم ان تشرك الجمهور، شكليا والى مدى محدود، مع الادارة. غير ان هذه المجالس، مهما تم اختيار اعضائها بصفة جيدة، كانت مجردة من السلطة تماما، بحيث لم تستطع ان تؤدي اية خدمات فعالة، ولم تستطع البقاء في الايام العاصفة التي شهدتها سنة ١٩٢٠

كان الضابط السياسي البريطاني يمثل الحاكم المدني (وهو في الواقع يمثل ملك بريطانيا) ويسيطر على كل الدوائر. وكان يجري تفويض سلطاته الادارية والمالية، والقضائية، وفقا لاجراءات ملائمة، الى مساعديه في الاقضية، والذين كانت مهمتهم الاولى تتركز في حفظ الامن، والتعرف على العشائر، والتعامل معها، وجباية الضرائب

كانت المعضلة التي جابهتا ادارة «ارنولد ولسون»، بعد الغاء التعبئة العسكرية في اعقاب انتهاء الحرب، وما كان تتطلبه من الخدمات الاخرى، قد امكن حلها، عن طريق الاستعانة بالضباط الجيدين من الجيش البريطاني في العراق، ومن البلدان الاخرى الناطقة بالعربية، او من الكتائب التي اخذت تغادر العراق. غير ان التعقيدات التي واجهها موظفو ولسون، وتيارات المعارضة العميقة التي تطورت آنذاك، جعلت اولئك الموظفين قد يستهينون بها، مما ادى الى حدوث نتائج مؤسية ارتكبها بعض الاداريين الانكليز.

كانت ادارة ارنولد ولسون تبذل قصارى جهدها في اقامة علاقات ودية بين الحاكمين والمحكومين، ومع ذلك فان التهمة التي وجهت الى هذه الادارة بانها كانت من الاسباب التي ادت الى انفجار الثورة، تهمة لا يمكن نكرانها ابدا. لقد كانت هذه الادارة قبل كل شيء ادارة دولة اجنبية عن البلد الذي يراد تطبيقها فيه

وزيادة على ذلك مازال الاحتلال العسكري الانكليزي يحس بوجوده، سواء في الاستيلاء على بيوت بعض المشاهير السابقين، او السيطرة العسكرية على حركات النقل والطرق، او المعسكرات التي اقيمت في المناطق المزروعة، مما ادى الى توقف الزراعة فيها، وطمر قنوات الري، وغير ذلك من القضايا التي كانت تثير تذمر الاهلين. وازدادت هذه المساوئ بمرور الوقت نتيجة التخلي عن تنفيذ كثير من المشاريع التي كان الناس يأملون ان يفيدوا من انجازها، والالحاح على فتح المدارس، وعدم استطاعة خبراء الزراعة من تحسين الوضع الزراعي، او مقاومة الجفاف، او

مقاومة الفيضان، في الوقت الذي كان فيه الاصرار شديدا على جباية الضرائب التامة عن كل محصول وناتج او بستان، وتنفيذ ذلك بالقوة على الاغنياء والفقراء على حد سواء، الامر الذي جعل افراد الشعب يجدون انفسهم، على الرغم من الاسعار الواطئة التي كانوا يتقاضونها عن حاصلاتهم، مجبرين على ان يدفعوا من الضرائب، اكثر مما كانوا يدفعونه في عهد الاتراك، مع عدم وجود اي تحسن في الطرق القديمة الشريرة التي تطبق في تخمين مقدار الحاصلات

اما في المدن فان نقص الموظفين التابعين للادارة كان يبعث الناس على اليأس، في الوقت الذي كان فيه الموظفون السابقون يتسكعون في المقاهي، بائسين معدمين، بينما ازداد عدد العراقيين العائدين من تركيا. كانت جهود ادارة ولسون ضئيلة جدا في استخدام العراقيين الذين يتمتعون بالتجربة وحسن النية في الوظائف سواء منها الكبيرة ام الصغيرة. ولذلك فان هذه الامور قد جعلت افراد الشعب العراقي في سنة ١٩١٩ مستعدين لدعم اية حركة مناهضة للبريطانيين التي قد يتسنى لها الظهور. وكانت الزعامة التي يمكن لهذه الحركة المناهضة، ان تتبعها هي الحركة الوطنية، التي كان البريطانيون يقللون عامدين من شأنها، في حين انعدمت ثقة ادارة ولسون بهذه الحركة الوطنية القومية



٢ - مقاومة البريطانيين

قبلت مراسلات الحجاز التي تبودلت خلال ١٩١٥ - ١٩١٦، بين الشريف حسين والسر هنري مكماهون، بفكرة قيام دولة عربية بعد الحرب، تشمل - مع استثناءات محددة - كل الأقطار العربية في قارة آسيا. ولقد جرى النقاش في الواقع، على ان يقف العراق، على حدة من البلدان الأخرى بالنسبة الى حاجيات وشروط مختلفة، وأمكن التوضيح بأن رسائل مكماهون أنما كانت تدعو الى اتخاذ «ترتيبات ادارية خاصة في البصرة وفي بغداد». ولكن الشريف حسين رد على ذلك بان أبعاد العراق عن الدولة العربية ينبغي ان يكون مؤقتا ولفترة يتم الأتفاق عليها عن طريق المفاوضات. ذلك لأن العراق بلد عربي تأريخي ومقدس.

لم يكن وضع سياسة بريطانية تنطوي على التملك الاناني للعراق، من الأمور التي يمكن التفكير فيها، بالنسبة الى اي رجل دولة ينظر الى الأمور نظرة جدية. والواقع ان الأوامر التي اصدرتها وزارة الحرب البريطانية في شهر اذار سنة ١٩١٧، قد سبق لها ان صورت بصفة محددة مسألة انشاء امارة عربية في البصرة وبغداد. بل ان انشاء دولة، او دول عربية كان هدفا للمثاليين وللواقعيين معا في كل من سوريا وفي لندن أيضا. وقد تحقق هذا الهدف بصفة منظورة تحت امرة الأمير فيصل في دمشق قبل انتهاء سنة ١٩١٨، وتم الاعراب بجلاء عن سياسة تقرير المصير للبلدان العربية التابعة للعثمانيين قبلا من لدن رئيس الوزراء البريطاني[١] في شهر كانون الثاني سنة ١٩١٨ كما تكرر موضوع سياسة تقرير المصير مرة ثانية في النقاط الأربع عشرة التي اوردها الرئيس الأمريكي ولسون، وكذلك اعيد ذكره مرة أخرى في الاتفاق الأنكليزي الفرنسي المعقود في اليوم السابع من شهر تشرين الثاني سنة ١٩١٨[٢] فلقد اعلن الاتفاق الأخير بأن

---

(١) في الخامس من كانون الثاني ١٩١٨ القى رئيس الوزراء البريطاني لويد جورج خطابا عن اهداف الحرب، اشار فيه الى العراق في المحتوى التالي [illegible] الجزيرة العربية، وارمينيا، والعراق، وسوريا وفلسطين تستحق في نظرنا بأن يتم الاعتراف بأوضاعها القومية المنفصلة لكنه اوضح ان هذا لم يكن ليشتمل بعد على اعادة النظر الكاملة في السياسات البريطانية (د. غسان رابح العطية العراق دراسة سياسية ١٩٠٨ [illegible] ١٩٢١ ص ١٥٩ ط ١٩٧٣ بالأنكليزية وقد نقل ذلك عن كتاب لويد جورج المعنون والحقيقة عن معاهدا [illegible] السلام المطبوع في لندن سنة ١٩٣٨ مجلد ٢).

(٢) اذيع هذا [illegible] في اليوم الثامن من تشرين الثاني ١٩١٨ في كل من لندن وباريس، ونيويورك والقاهرة وقد نص على القول «ان الغاية التي [illegible] فرنسا و بريطانيا العظمى في خوض غمار الحرب في الشرق من جراء اطماع المانيا هي: تحرير [illegible] حكومات وادارات وطـ[illegible] سلطانها من رغبة السكان ومحض اختيارهم.

الهدف الذي تتطلع اليه كل من فرنسا وبريطانيا، هو التحرير الكامل والنهائي للشعوب التي عانت الاضطهاد طويلا على ايدي الأتراك، وانشاء حكومات وادارات قومية تستمد سلطاتها من الممارسة الحرة، ومن مبادرة السكان الأصليين واختيارهم»

لم يظهر الرأي العام العراقي، الذي اثار هذا الأعلان المشجع بين صفوفه، امالاً سامية ومباشرة خلال الحرب، اية دلائل منظورة عن الحس القومي. ذلك لأن الزعماء السياسيين الذين برزوا خلال الفترة ١٩١١ – ١٩١٤ كانوا قد تفرقوا بددا. فلقد كان السيد طالب النقيب خارج العراق. وكانت النوادي ميتة او غير نشطة، ولم يكن للصحافة من وجود، في حين كانت المواصلات مع البلدان الأخرى مقطوعة. غير ان الحركة القومية لم تكن ميتة. ولقد أصبح متوقعا ان أنتهاء الحرب لابد وان ينعش هذه الحركة بصفة أعظم حيوية عما كانت عليه قبلا.

وفي الوقت ذاته لم تكن اعمال البريطانيين ولا اقوالهم، ماعدا الخطاب الغامض المتحمس الذي القاه القائد «مود» في اذار ١٩١٧، تعطي اية اشارة عن مستقبل الحكومة الذاتية، ولم تستخدم القوات العربية في العراق لمقاتلة الأتراك، على الرغم من النجاح الذي حققته هذه القوات في الحجاز، وفي سوريا، ومن التحريض الذي كانت تقوم به وزارة الحرب البريطانية، وقد ظهر بأن القيادة العسكرية تخلت عن هذه الفكرة لأنه كان يستحيل ضمان اختفاء الأتراك بصفة نهائية، ولصعوبة تجهيز المجندين العرب وتدريبهم للقيام بحرب فعالة، وذلك بالنظر لنقص اتصالات القيادة العسكرية، بأفضل مادة عراقية متوفرة، ونعني بها الضباط الذين حاربوا مع الأمير فيصل، ولربما بسبب موقف حكومة الهند، التي لم توافق صراحة على المطامح القومية العربية وعلى اية حركة قد تشجع تلك المطامح.

كانت المواد التي انطوى عليها اتفاق سايكس بيكو المبتسر من الناحية الادارية، والذي اثار العويل والصراخ من الناحية الاخلاقية، والذي وقعت عليه كل من بريطانيا وفرنسا في شهر ايار سنة ١٩١٦، وفضحه الروس للعالم في شهر تشرين الأول سنة ١٩١٧، كانت هذه المواد قد بدت من الناحية الادبية في الواقع، وكأنها كانت موجهة بكل ثقلها ضد نظام حق تقرير المصير بالنسبة للعراق. فلقد اشترط ذلك الاتفاق بأن تودع مدينة الموصل، وجزء من ولاية الموصل ذاتها تحت استغلال الفرنسيين ضمن السيادة العربية، وان يطبق ذات الوضع على القسم الغربي من العراق، ولكن يخضع للسيادة البريطانية، في حين توضع المناطق الوسطى والجنوبية من العراق، تحت الحكم البريطاني المباشر. لقد كانت هذه الشروط التي لم يتخل الفرنسيون عنها بيسر، تتناقض تناقضا صريحا مع نصوص التزامات الشريف حسين وروحيتها. والواقع ان الحاجة الى مسالمة الأحاسيس الفرنسية، ولاسيما في سوريا، كانت تمثل الورطة الرئيسة التي لامهرب منها والتي واجهها البريطانيون بعد الحرب.

وفي الوقت ذاته كان الاعلان البريطاني الفرنسي، والتخفيف من القيود التي فرضت ايام

الحرب، وعودة العراقيين الى بلادهم من الخارج، والمطامح المتطلعة الى توفير الأمن والتطور في البلاد، كانت كل هذه الأمور قد ابرزت ان مستقبل العراق، يعتبر قضية مباشرة، واعادت القومية العراقية الى الحياة في يوم وليلة. فما ان انتعشت هذه القومية من مصادر مختلفة، حتى اخذت تنمو بسرعة خلال النصف الأول من سنة ١٩١٩ ومابعده.

كانت النواة الرئيسة للحركة القومية، تتمثل – دون ريب – في مطالبة قسم من الطبقات العراقية المتعلمة، بالاستقلال التام، كما تمثل الاستياء الذي كانت هذه الطبقة تتمسك به. ومما ساعد على ذلك، وكان معاديا للحكومة، اي معاديا للبريطانيين، هو أن هذه القوى، كانت في هذه المرحلة معرضة لدعاية دخلت العراق من تركيا، ومن روسيا البلشفية، ومن القوميين العراقيين المتحمسين الذين عملوا مع فيصل في سوريا، كذلك ساعدت على هذه الحركة أيضا، مخاوف رجال الدين من الشيعة على مراكزهم المهددة بالدمار على يد الأدارة البريطانية.

وكانت النواقص الحقيقية او المالية التي تشكو الادارة منها، والتي اتينا على وصفها في مكان اخر، قد ساعدت هي الأخرى على تفاقم التذمر وتعاظمه، ولذلك كان كل تردد وكل تأخير، وكل خيبة أمل، تعد من اخطاء البريطانيين، وتخلق المزيد من القوميين الجدده فلقد كان الشيوخ المتنافسون في كل مجموعة من العشائر، على استعداد دائم للانضمام الى اية حركة عصيان، وعزل الزعيم الذي يؤيده البريطانيون. وكان التلهف على ممارسة اعمال النهب، واللذة في شن الغارات على الغير، ومقت الانصياع لدفع الايرادات، والاقتناع بأن القوات البريطانية تقوم الآن بالجلاء عن العراق، كل هذه القضايا ساهمت هي الأخرى، في تمهيد السبيل امام شق عصا الطاعة بصفة جماعية، بل باسوأ من ذلك، ولهذا كان تاريخ سنة ٩١٩، وجزءا من سنة ١٩٢٠، واحدا من التواريخ التي تكاثرت فيها العناصر الساخطة، وتحالفت حتى بلغت الذروة في شهر تموز ١٩٢٠

فزع العقيد ارنولد ولسون من البيان الأنكليزي الفرنسي، واعلن بأنه غير ملائم بصفة مطلقة لأن يكون اساسا لايجاد حكومة في العراق. ولذلك راح يلح ويشدد القول بأنه لايوجد شيء ما سوى ايجاد ادارة بريطانية صارمة، ومهما كان نوع الدولة التي سيتم انشاؤها، تستطيع ان تحفظ البلاد من الفوضى. وهكذا اخذ ولسون يقاوم بشدة تلك المقترحات التي عرضها «خنزيره البري» لورنس حول امكانية انشاء مجموعة بكل يسر من الدول العراقية والسورية توضع تحت امرة الأمراء الشريفيين[٣]

كان اول عرض قدمه ارنولد ولسون الى الحكومة البريطانية هو انشاء دولة عربية في العراق،

---

(٣) اقترح لورنس في الرابع من تشرين الثاني ١٩١٨ ان يتم انشاء ثلاث دول عربية، هي القسم الأدنى من العراق من البصرة الى عانة، وحتى الراس الاسفل في الشمال وان تكون تحت امرة عبدالله وتوضع الموصل تحت امرة «زيد» في حين توضع سوريا تحت امرة فيصل (حسان العطية المصدر السابق ص ٧٠).

بشكل حذر، تشمل ولاية الموصل، وبعد ان يتم وضع هذه الدولة تحت حكم امير عربي، يجب دعمها بتعيين مندوب سام بريطاني، ومجموعة كاملة من المستشارين. غير ان مشقة اختيار احد الأمراء كانت واضحة، كما ان وكيل المندوب السامي، قد اخذ يعيد النظر ومن دون طائل في الادعاءات التي قدمت من احد اشراف الموصل(٤) ومن اشراف بغداد، ومن أمير مصري لم يحدد اسمه، ومن احد اولاد الملك حسين. وما ان وجد ولسون معارضة جدية لكل هؤلاء او اي منهم، فقد أنهى رأيه وفضل بأن مثل هذه الدولة يجب ان يحكمها السر برسي كوكس لمدة خمس سنوات ومن دون اي امير اطلاقا(٥) فقد كان ولسون يشعر بأنه اذا ماحدث هذا الأمر، فسوف يحقق الكفاءة، ويحصر الحركة القومية داخل حدود.

كانت شؤون الشرق الأوسط في لندن، في ذاك الوقت، تدار من قبل لجنة وظيفية داخلية يرأسها اللورد كرزن. وفي هذه اللجنة كانت المدرسة الغربية للمبدأ البريطاني حول الشؤون العربية تشتمل على المنافسة مع المدرستين الشرقية والهندية. كذلك عملت، في داخل هذه اللجنة الامزجة والآراء المتصارعة لكل من اللورد كرزن، والمستر ادون مونتاغو EDWINMONTAGU وزير شؤون الهند، دورا كبيرا ووافرا.

لقد عادت اللجنة المذكورة فأكدت البيان الانكلو فرنسي، لكنها لم تظهر سوى القليل من النوايا بشأن التخلي عن السيطرة البريطانية المباشرة. ومع كل ذلك فقد تم تخويل ارنولد ولسون، بان يقوم باجراء استفتاء في العراق، في كل محافظة من المحافظات، عن طريق الاجابة على الاسئلة التالية.

اولا هل هناك مصادقة على اقامة حكومة عربية في العراق تشمل ولاية الموصل تحت الوصاية البريطانية ؟

ثانيا هل يجب ان تحكم هذه الدولة من قبل رئيس عربي بصفة رسمية ليس الا ؟

ثالثا من هو المفضل ان يكون اميرا لهذه الدولة ؟

لم يكن من المتوقع اعطاء اي جواب صريح عن هذه الأسئلة من لدن الرأي العام في العراق خلال الفترة ١٩١٨ – ١٩١٩ ذلك لأن الادارة القائمة آنذاك،وكلها بريطانية، ولأن انعدام المؤسسات التمثيلية، وتركيب المجتمع كله، كان يحول دون ذلك. ولكن المحاولة قد تم الاقدام عليها،فعقدت الاجتماعات في كل المحافظات، والمح المندوب السامي في اوامره وتعليماته بأن الأجوبة (المرضية هي التي سوف يتم الترحيب بها، وان هذه الأجوبة متى ماتم استلامها، ستكون مؤيدة من قبل الأكثرية الملموسة لانشاء دولة عراقية موحدة تحت زعامة امير لم تحدد

---

(٤)هو المرحوم هادي باشا العمري عميد الأسرة العمرية المشهورة في الموصل.

(٥)اورد ولسون اقتراحه بأن يعين كوكس مندوبا ساميا على العراق للسنوات الخمس الأولى من دون اي امير عربي او اي رئيس اخر للدولة، وذلك في البرقية التي بعث بها الى وزير شؤون الهند ٢٤ تشرين الثاني ١٩١٨.

صفه، وباستمرار السيطرة البريطانية عليها.

كان من المشكوك فيه ان تكون تلك الاجتماعات ممثلة للجمهور ولاسيما في بغداد. وكان موقف الشيعة في المدن التي تقوم فيها الأضرحة المقدسة سلبيا، كما رفضت بعض المناطق الكردية اي حكم عربي.ومع كل ذلك فقد ظهرت مشابهة طيبة فيما فضلته الأكثرية، وعلى الأخص ما تعلق بالحاق الموصل بالعراق، لكن الاستنتاج الذي تم استنتاجه مسبقا جدا، هو ان السيطرة البريطانية لم تكن مرغوبة الا من قبل حفنة من «الساسة من ناكري الجميل» والذين لم تتم المصادقة على آرائهم قطعا(٦)

دفعت هذه النتائج لجنة اللورد كرزن الى دعوة المندوب السامي بأن يتقدم بعروض محددة لوضع «دستور لدولة عربية او مجموعة من الدول العربية على اساس رغبات السكان... مع بقاء السيطرة البريطانية التي لايوجد اي نزاع حولها». كان هذا الأمر يتطلب الأهتمام بالبيان الأنكلوفرنسي في هذا الشأن،وان مثل هذا الدستور يجب ان يكون مرنا، وان يعطي مجالاً لزيادة المشاركة العربية. ولقد ظهر من هذا ان امنية السياسة البريطانية كما اريد صياغتها، كانت مزيجا من الحرية التي جاء بها البيان، ومن الواقع الثابت للسيطرة البريطانية. حدث كل هذا في الوقت الذي لم يلتفت فيه الى الاشاعات المتزايدة عن القومية العربية في بغداد، وعلى ضفاف نهر الفرات، وحينذاك وجد ولسون، الذي استدعي الى لندن في شهر شباط سنة ١٩١٩، أن مشكلة الموصل قد حلت بصفة جزئية وذلك لأن جورج كليمنصو كان قد وافق في شهر كانون الاول سنة ١٩١٨،على التنازل عن حصته في الاسلاب التي جاء البيان الأنكلوفرنسي على ذكرها.

وعلى هذا الأساس ومع بقاء الاصرار الفرنسي على تمتع الفرنسيين بالنفوذ التام على الحكومة التي ستقوم في سوريا كلها، وفي ذات الوقت الذي كان فيه الأمير فيصل يسعى للحصول على تقبل للمطامح التي كان يتطلع اليها هو وابوه، والتي نالت التشجيع في وقت من الأوقات، لم يستطع ارنولد ولسون ان يطرح مشروعه الذي كان ينطوي على اقامة دولة عراقية شاملة.

ذلك لأنه يوجد امير يقوم الى جانبه مندوب سام بريطاني، وبالهيمنة البريطانية الفعالة على ادارتها، سوف تشمل مثل هذه الدولة ولايات الموصل ودير الزور وكل أنحاء كردستان، ماعدا المناطق التي صادقت معاهدة سيفر عليها، وحينذاك سوف تقوم حكومات عربية وتعين مجالس للمناطق العربية، وتكون المساندة المالية والعسكرية البريطانية متوفرة لهذه الحكومات.

كان اللورد كرزن، الذي قرر ان يؤجل اي التزام من جانب الحكومة البريطانية بشأن

---

(٦) لاشك ان هذه الحفنة كانت تضم اولئك الاشراف من البصرة الذين تقدموا بطلب الى الحكومة البريطانية بأن تربط العراق بحكومة الهند الانكليزية (راجع سليمان فيضي في غمرة النضال) وكذلك اهل الحلة الذين طلبوا تعيين كوكس حاكما على العراق).

موضوع الموصل، يفضل ان تكون ولاية الموصل امارة منفصلة تحيط بها حواضر كردية مستقلة.

استمر الجدل حول هذا الموضوع، وأصطدمت المطامح الفرنسية والعربية في سوريا، وخابت المساعي الطويلة لعقد معاهدة الصلح مع تركيا، واخذ الضغط الأمريكي يزداد في باريس، على حق الاختيار الحر من قبل السكان العرب، وذلك بالشكل الذي عدلته بعثة كنغ كراين لتقصي الحقائق، والتي قامت بزيارة سوريا في سنة ١٩١٩، وموقف مجلس العشرة في باريس الذي قرر في شهر كانون الثاني سنة ١٩١٩، انفصال العراق عن تركيا، ذلك المجلس الذي كان اعضاؤه في شهر اذار من تلك السنة على وشك ان يتفقوا على توزيع الانتدابات، اضافة الى اختلافات الرأي الواسعة بين مستشاري الحكومة البريطانية بشأن القضايا العربية، وزيادة المطالبة بالاقتصاد فيما بعد الحرب او حتى الجلاء او التراجع الى البصرة، تلك الموضوعات التي اثيرت في الصحافة البريطانية وفي البرلمان البريطاني، فهذه القضايا كلها كانت من العناصر التي تندر الملائمة فيما بينها، بقصد الوصول الى حل واضح لمستقبل العراق.

لم يكن للادارة البريطانية في بغداد حتى الان اي توجيه واضح تتلقاه من صانعي السلام في اوربا، حول فكرة الانتداب الجديدة التي طرحها الجنرال سمطس في مؤتمر فرساي والتي تم ادخالها في ميثاق عصبة الأمم الذي كان من المقرر ان يولد في اوائل سنة ١٩١٩، ذلك الانتداب الذي اعد بصفة خاصة كيما يتم تطبيقه حسبما اشترطت ذلك المادة الثانية والعشرون من ميثاق عصبة الأمم، على البلدان التي كانت تابعة للأتراك قبلا.

كان قبول هذا التفسير من لدن الدول المختصة قد حصل بصفة ضمنية في معاهدة فرساي التي تم التوقيع عليها في ٢٨ حزيران ١٩١٩، وصودق عليها في اليوم العاشر من شهر كانون الثاني سنة ١٩٢٠ اما بالنسبة الى العراق، فقد تناقص فيه عدد الجيش البريطاني بصفة منظورة في ذات الوقت، ذلك لأنه تم التخلي عن المواقع التي كانت ترابط فيها الحاميات العسكرية، وجرى تقويض المعسكرات، وأصبحت القوات المتحركة الفعالة اقل عددا، بل أصغر من ذلك كثيرا جدا. والواقع ان الأدارة المدنية كانت تلاقي على الدوام تقبلا شعبيا ملموسا في المدن وفي الأرياف من جانب العناصر المعتدلة التي لادخل لها في السياسة، ومن جانب الجمهور العام.

غير انه ما ان تقدمت سنة ١٩١٩ حتى ازدادت الدلائل على المقاومة التي اخذت الحكومة في شكلها الجديد تجابهها، تلك الحكومة التي لم ترض مطامح القوميين. فقد تناهت الانباء عن التمرد المحلي في كردستان، ذلك التمرد الذي بولغ فيه كثيرا[٧] وأخذت الرسل والأموال الكثيرة تصل الى بغداد والى منطقة الفرات من الضباط العراقيين الموجودين الان في دمشق وحلب. وقد

---

(٧) يقصد المؤلف بذلك الثورات التي حدثت في خانقين وكفري وفي زاخو والعمادية والزيبار وعقرة والسليمانية التي اشرنا اليها فيما سبق (انظر كتاب المرحوم عبد المنعم الغلامي: ثورتنا في شمال الوطن)، وكتاب الدكتور كمال مظهر احمد: مشاركة الشعب الكردي في ثورة العشرين العراقية.

وجه هؤلاء الضباط مذكرات الى القيادة البريطانية في سوريا، وأخرى غيرها الى وزير الخارجية البريطانية، وكلها توضح الحاجة الى ايجاد نظام حكم قومي في العراق[٨]

وعلى اثر ذلك استدعى ارنولد ولسون، احد الاداريين والمحامين البغداديين المشهورين هو «ناجي السويدي» من دمشق لكي يقبل بوظيفة مستشار في بغداد، لكن السويدي ما ان وجد الجو في بغداد غير ودي حتى عاد ادراجه، وهو غير سعيد، الى سوريا[٩] كذلك تحدث زائرون عراقيون اخرون من الغرب عن الموقف الاستعماري الذي تقفه ادارة ارنولد ولسون، ذلك الموقف الذي بدا عليه بأنه كان يقلل او يتجاهل القابليات العراقية.

تعاظمت الاشاعات في بغداد عن الأنتداب المقترح فرضه على العراق، والذي سيتم اقراره حالا من قبل المجلس الاعلى لمؤتمر الصلح. كما ذكرت الأنباء أيضا ان النساء والأطفال البريطانيين قد اخذوا يتوافدون على البلاد وكأنهم ذاهبون الى احدى المستعمرات البريطانية. والحقيقة ان خمسمائة نفر من هؤلاء البريطانيين كانوا قد دخلوا العراق في اواخر سنة ١٩١٩ لقد ظهر بأن عمل الدوائر المدنية البريطانية ومشروعاتها كانت تشير الى احتلال دائم للعراق. ذلك لأنه تم اعتقال وابعاد الكثيرين من مسببي الاضطرابات، اي القوميين والوطنيين. وشهرا بعد شهر تم ابتلاع صنوف الواعين سياسيا. فقد انشئت مدرسة ثانوية وطنية[١٠] لتكون مركزاً للدعاية وباقتراب فصل الخريف من تلك السنة غدت نتائج التحريض السياسي المنبعث من سوريا ومن بغداد، وتعاظم العنف في كربلاء والنجف، اكثر وضوحا بين العشائر التي تقطن الفرات.

اما في بغداد حيث تواردت الأنباء عن الأجتماعات والمنظمات السرية فقد لوحظت

---

(٨)يريد المؤلف بذلك القرار الذي اتخذه المؤتمر العراقي الذي انعقد في دمشق في يوم اعلان استقلال سوريا وطبيعي ان الاكثرية الساحقة التي حضرت ذلك المؤتمر وشاركت في صياغة قراراته كانت من الضباط العراقيين وقد صدر قرار المؤتمر في اليوم الثامن من شهر اذار ١٩٢٠

ومما جاء في القرار قوله «وبصفتنا ممثلي الشعب المكلفين بالاعراب عن ارادته اعلنا الان باجماع الاراء استقلال البلاد العراقية المسلوخة عن تركيا بحدودها المعروفة من شمالي ولاية الموصل الى الخليج، استقلالا تاما لا شائبة فيه، وايدنا استقلال سوريا التام، واعلنا اتحاد العراق بها اتحادا سياسيا واقتصاديا، ونادينا بحضرة صاحب السمو الملكي الأمير عبدالله ملكا على العراق واعلنا انتهاء الحكم الاحتلالي العسكري الحاضر على ان تقوم مقامه حكومة وطنية مسؤولة امام الشعب (مقدرات العراق السياسية. ج٣ ص ٤٠٩ - ٤١٠).

(٩) لم يستطع السويدي ان يهضم السياسة التي كان ولسون يعمل على تثبيتها ولاسيما فيما يخص مستقبل العراق ولذلك ترك وظيفته التي عين فيها وعاد الى سوريا•فقد كان السويدي قد الم بأن الأنكليز غير جادين في ايجاد حكم نيابي للعراق.

(١٠) يقصد بها مدرسة التفيض الاهلية التي اسست في شهر تشرين الثاني سنة ١٩١٩ وكانت تعرف اول الأمر بأسم «المدرسة الاهلية الثانوية» وكان مديرها ومؤسسها الرئيس المناضل المعروف المرحوم علي البازركان•وكان البازركان ورفاقه الذين اسسوا تلك المدرسة من الاعضاء النشطين في جمعية الحرس وكانت المدرسة مركزا للاجتماعات التي كان يعقدها رجال الحرس. وكان مديرها يقيم الحفلات الوطنية حيث تلقى خلالها خطب مهيجة وقصائد حماسية (انظر: امين العمري: مقدرات العراق السياسية ج ٣ ص ٥٩).

وكذلك علي البازركان. الوقائع الحقيقية في الثورة العراقية.

اتصالات جديدة وذات اهمية بين السنة والشيعة، وظهور ارتباطات سياسية دينية مشتركة، وتبادل المجاملات من دون سابق اشارة. وعلى هذه الشاكلة انقضى شتاء سنة ١٩١٩

وعلى الرغم من تفاقم العنف المتوقع في هذا الوقت، ومن تعاظم الحركة السياسية فقد امكن الحفاظ على الهدوء الحذر خلال هذه الشهور ماعدا منطقة واحدة هي منطقة الفرات الاعلى. لقد كانت التهديدات والاشاعات يتردد صداها هناك من قبل الاتراك الموجودين في ماردين، وكذلك من قبل وكلاء الحكومة العربية في حلب. وفي اواسط كانون الأول سنة ١٩١٩ احتلت العشائر المهتاجة التي كانت تصحب الحاكم الشريفي للفرات، مدينة دير الزور. اما الحالة الحرجة والمذلة التي طغت على هذه المدينة، ومارافق ذلك من انشغال الحاكم السياسي البريطاني فيها، فأنها لم تنته الا في يوم عيدالميلاد، وذلك في اعقاب ترتيب بين ممثلي المندوب السامي البريطاني وممثلي جعفر العسكري محافظ حلب، حيث تخلى البريطانيون عن دير الزور[١١]

لقد أصبحت دير الزور مركزاً للدعاية وللقاءات، والتهديدات الصارمة الداعية الى ضم ولاية الموصل اليها، ولم يلبث افراد القبائل ان دخلوا مدينة «البوكمال» ونهبوها، وكانت هذه المدينة تستخدم قبلا مقرا لجباة الضرائب العاملين داخل العراق. وكان المحافظ التالي في دير الزور وهو موصلي[١٢] قد شن حملة دعاية شريفية عنيفة وممولة تمويلا جيدا،ورفض كل المقترحات الداعية الى اجراء تسوية سلمية لقضايا الحدود بين العراق وسوريا،ولم تستطع الهيئات البريطانية، التي لم تكن لها اية قوة في المنطقة كلها، ان تفعل شيئا ما سوى الأحتجاج والتهديد باتخاذ اجراءات انتقامية جوية.

ادت عودة الأمير فيصل من اوربا في سوريا في اذار سنة ١٩٢٠ الى انسحاب الغزاة[١٣] وفي اوائل شهر ايار من تلك السنة انعقد مؤتمر للحدود في قرية «عشارة» ووافق على تحديد خط للحدود يبدأ مباشرة من غربي «القائم». ولكن هذه التسوية اخفقت اخفاقا تاما في تحسين

---

(١١) بعثت بريطانيا بالنقيب كارفر معاون الحاكم السياسي في عانة حاكما سياسيا على دير الزور ولكن محافظ الدير المعين من قبل حكومة دمشق العربية مرعي باشا الملاح لم يوافق على هذا الأجراء واقترح الذهاب الى حلب للتعرف على السلطة العليا فيها بهذا الشأن وكان جعفر العسكري يتولى منصب محافظ حلب،حيث تم الاتفاق على الجلاء عن دير الزور وضمها الى منطقة النفوذ البريطاني مؤقتا،واخيرا قرر العراقيون الموجودون في سوريا تعيين المرحوم مولود مخلص حاكما لمحافظة دير الزور والذي تحرك اليها من دمشق في الثاني عشر من كانون الثاني ١٩٢٠،وهو يحمل تعليمات الأمير زيد نائب الملك فيصل في سوريا بوجوب توطيد الآمن في محافظة الدير واجراء المذاكرت مع حاكم البوكمال السياسي المستر مايلس لصرف النظر عن جعل نهر الخابور حدا فاصلا بين سوريا والعراق (امين العمري مقدرات العراق السياسية. ج٣ ص ٣٥٠ - ٣٥١).

(١٢)هو مولود باشا مخلص

(١٣)يقصد المؤلف بالغزاة هنا العشائر التي غزت كلا من دير الزور والبوكمال وكانت هذه العشائر تتألف من العقيدات وعنزة، والبقارة والجبور التي كانت تخيم على مقربة من دير الزور وفي جوارها في تلك الايام.

الأوضاع. ذلك لأن جماعات السلايين الذين كانت تحرضهم سوريا، والتظاهرات مافتئت ان اجتاحت كل اراضي الدليم ومواطن قبيلة شمر.

كان الأيمان بمقت البريطانيين، وبضرورة جلائهم من العراق، ايمانا شاملا،ولذلك أصبح الطريق بين بغداد والموصل، ووضع سكة الحديد هناك، غير مأمون، ومالبثت شعارات الدعاية العنيفة التي نظمها حزب «العهد» العراقي، أن اخذت تظهر في مدينة الموصل ذاتها، وساعدت الجهود التي بذلها عملاء الاتراك الموجودون في جزيرة(ابن عمر) أولئك الضباط والمبعوثين الشريفيين، الذين كانوا يدفعون اموالا كانت في الأصل، كما تشكى الحاكم السياسي في العراق، قد دفعت من قبل الحكومة البريطانية ذاتها الى الشريف الذي كان يحكم سوريا.

لايعرف احد مدى ادراك الأمير فيصل للنشاط الذي كان يمارسه مؤيدوه المتحمسون في العراق. ومع كل ذلك فقد كان موقف فيصل من ذلك النشاط موقفا صائبا. في الأسبوع من شهر حزيران دخلت قوة عشائرية تحت امرة جميل المدفعي[١٤] الى مدينة تلعفر، فقتلت اثنين من الضباط البريطانيين هناك،هما النقيب «ستوارت» والنقيب «بارلو» ومعهما اثنين من رؤساء العرفاء[١٥] كما تحركت هذه القوة لتهديد الموصل[١٦] ولكن رتلا بريطانيا صغيرا من تلك الحامية استطاع ان يشتت رجال العشائر،وان يعيد احتلال تلعفر، وفي اثر ذلك تم اقرار سلم مشوب بالحذر في منطقة الفرات الاعلى والجزيرة، وتملصت حكومة دمشق بحصافة، من هذه الأعمال وغيرها التي اقترفها وكلاؤها.

لم تلبث الحالة في بغداد وفي اواسط الفرات ان ازدادت سوءا في اواخر ربيع سنة ١٩٢٠ اذ أستمرت الأجتماعات الوطنية المهمة، وراحت تتبارى في القاء الخطب اللاهبة، وأشتهر عملاء

---

(١٤) كانت القوة التي حاصرت الحامية البريطانية في مدينة تلعفر يقودها جميل الخليل قائد الدرك السابق في تلعفر وليس جميل المدفعي، ذلك لأن الحملة التي قادها جميل المدفعي من دير الزور كانت قد وصلت الى تلعفر بعد ان سقطت المدينة بأيدي الثوار، واذاك حاولت هذه الحملة التوجه الى الموصل.

(١٥) تحصن هذان ومعهما احد الجنود فوق سطح بناية السراي في تلعفر وكانا يطلقان نيران رشاشاتهم على المهاجمين،ولم يلبث احد الضباط المرافق للحملة القادمة من دير الزور،بعد ان وصلت الى البلدة، ان قذف سطح السراي بقنبلتين يدويتين فانفجرتا واحدثا دويا مرعبا وتطايرت اشلاء الجنود الثلاثة في الهواء «محمد يونس السيد عبدالله: اهمية تلعفر في الحركة الوطنية ص ٤٨ طبعة ١٩٧٦».

(١٦) استطاعت حملة دير الزور التي يقودها جميل المدفعي ان تجمع في طريقها عدداً من افراد العشائر التي مرت بها وان تتوجه الى الموصل بقصد الاستيلاء عليها، وذلك بعد ان نظم فرع جمعية «العهد» في الموصل، التمهيدات لذلك «انظر مقالتنا في مجلة الآفاق العربية عدد حزيران سنة ١٩٨٢ حول حملة دير الزور، وموقعة عين الدبس وغيرها من الحركات الثورية الأخرى في اواسط سنة ١٩٢٠».

الأتراك والبلشفك نشاطهم[١٧] بالاضافة الى الأعمال التي كانت تمارسها القومية العربية ورجال الدين، وخروج افراد العشائر على القانون، وماكان يرافق ذلك من ضغينة ضد البريطانيين. ولقد تأثرت حالة الأمن في بغداد ذاتها، فكانت الأسواق تغلق في فترات متقطعة ووقعت كثير من الحوادث القبيحة.

وجهت التحذيرات الى بعض الزعماء السياسيين، كان من بينهم السيد محمد الصدر، وجعفر ابو التمن، وناجي السويدي، وعلي البزركان، كذلك ادى اعتقال احد المحرضين الصغار[١٨] الى اثارة الحشود الغاضبة واطلاق نيران البنادق[١٩] ومما زاد من ايقاد هذه النار الملتهبة، ذلك القرار الذي اتخذته مجموعة من العراقيين الموجودين في دمشق والتي اختارت فيصل بن الحسين ملكا على سوريا، حيث قررت تلك المجموعة بأن يعرض عرش العراق على الأمير عبدالله وهو شقيق للملك فيصل وأكبر منه سنا[٢٠]

---

(١٧) لسنا نعتقد بأن دعاية البلشفيك الروس ونشاطهم كان من الأهمية في مكان بالنسبة للعراق. فنحن نخالف اولئك الذين يدعون بأنه كان للثورة البلشفية تأثير على قيام الثورة العراقية الكبرى ١٩٢٠ ذلك لأن عوامل الثورة في الواقع كانت داخلية محضة تتمثل في تنكر الحلفاء للوعود التي قطعوها بشأن اقامة حكومة عراقية مستقلة، وبسبب الضرائب الفادحة التي فرضتها سلطات الاحتلال على الشعب حيث انصب كل نشاط الادارة الاحتلالية على امتصاص ثروات الشعب في الدرجة الأولى.

(١٨) المقصود به «عيسى عبدالقادر الريزلي» الذي الق في الأجتماع الذي عقد في جامع الحيدرخانه قصيدة من أربعة وعشرين بيتا دعا فيها الى الأتحاد بين المسلمين وختمها بهذين البيتين

«وبعد اقول للجاسوس منا تجسس مااستطعت الحاضرينا)
وبلغ من تريد فقد بنينا لاستقلالنا الاس المتينا

علي الوردي لمحات من تاريخ العراق ج٥ ص١٧٦) وكان مطلع القصيدة هو
«بني النهرين نسل الطيبينا افيقوا واسمعوا حقا مبينا) علي البزركان ص ٩٥).

(١٩) رد الأنكليز على ذلك بأن بعثوا ببعض المدرعات الى الاجتماع المعقود في جامع الحيدرخانه فتصدت تلك المدرعات للمجتمعين. وحدث اثناء ذلك ان هجم احد الحاضرين وهو النجار رشيد الأخرس بفأس في يده على سائق احد المدرعات فضربه بها وعندئذ صوب احد الأنكليز نيران بندقيته الى الأخرس فارداه قتيلا وكان من أول شهداء ثورة العشرين.

(٢٠) بعد ان عاد الأمير فيصل من مؤتمر الصلح الى سوريا اتفقت كلمة الأحزاب السورية على رفض الانتداب الفرنسي على سوريا وكذلك رفض الأنتداب البريطاني على فلسطين، حيث بدأ اعضاء من حزب الأستقلال العربي، وحزب الاتحاد السوري وفريق من اعضاء المؤتمر السوري؟بالتفاوض مع فيصل واقناعه بضرورة اعلان استقلال سوريا وبضرورة تتويجه ملكا عليها. وفي الوقت ذاته طلب الأمير فيصل الى الضباط العراقيين في سوريا الذين كانوا يطالبون فيصلا بضرورة بذل الجهود لتحرير العراق، بأن يؤلفوا هيئة منتدبة من بينهم للتذاكر معهم في امر تأليف «مؤتمر عراقي يجتمع الى جانب المؤتمر السوري فيعلن استقلال العراق تحت ملوكية الأمير عبدالله في الوقت الذي يعلن فيه استقلال سوريا.ولقد تألف اعضاء المؤتمر العراقي من خمسة وعشرين عضوا من بينهم جعفر العسكري، وناجي السويدي وتوفيق السويدي ورضا الشبيبي وعلي جودت الأيوبي وجميل المدفعي وتحسين علي ورشيد الهاشمي «شقيق الشاعر محمد الهاشمي) وثابت عبدالنور ويونس وهبي ونوري القاضي وحمدي صدر الدين وغيرهم. وحينذاك انعقد المؤتمران السوري والعراقي معا في دمشق في اليوم السابع من ١٩٢٠ وفي نفس اليوم صدر قرار المؤتمر السوري باعلان استقلال سوريا واختيار الأمير فيصل ملكا عليها. وكان من بين الموقعين على ذلك القرار كل من محمد جميل بيهم وحمل الاتاسي وابراهيم هنانو وصبحي الخالدي وعبدا[illegible] الخالي وغيرهم (امين العمري مقدرات العراق السياسية ج ٣ ص ١٨٨ وما بعدها)

وكانت لهجة المناقشات التي جرت في مجلس العموم البريطاني، وجوهرها عن قضايا الشرق الأوسط، قد تمت دراستها بأمعان وقوة من لدن الساسة العراقيين. ذلك ان المظاهر المقيتة للادارة المحلية، واستبعادها العناصر العراقية، بقيت تطبق دون ادخال اي تحسين عليها. وأخيرا جاءت الأنباء مؤكدة الاشاعات المغرضة التي قالت بأن الدول المنتصرة قد اقرت في الأجتماع الذي عقد في (سان ريمو) في اليوم الثامن والعشرين من نيسان، بأن يعهد الى بريطانيا بالانتداب على العراق. وقد اعلن هذا النبأ الذي قضى على آمال العراقيين في التمتع بالأستقلال التام، في بغداد وذلك في شهر ايار مصحوبا بتأكيدات مبهمة من لدن الحاكم المدني البريطاني. على أن تأثير هذه الحوادث لم يتعاظم نتيجة التوصيات التي وضعتها اللجنة التي ترأسها بونهام - كارتر، والتي لم يتم الاعلان عنها، وكانت هذه اللجنة قد الفت من قبل السر ارنولد ولسون في شهر اذار لكي تضع مسودة الدستور المقبل للعراق. ومع ان توصيات تلك اللجنة جاءت مطابقة للافكار الاصلية التي كان يقول بها ارنولد ولسون، الا أنها باصرارها على ان تظل الهيمنة البريطانية مستمرة على تركيب المندوبين والموظفين العراقيين، كانت تنطوي على الحذر، وتضمر العداء الى درجة غير مقبولة تماما في نظر الوطنيين العراقيين.

قبل وقوع مذبحة تلعفر بيومين اي في اليوم الثاني من شهر حزيران، جرى لقاء بين ارنولد ولسون وكتلة مؤلفة من خمسة عشر شخصا من الممثلين الوطنيين[٢١] وقد أضاف ولسون من جانبه الى هؤلاء خمسة وعشرين شخصا من البارزين الذين اختارهم بنفسه، وأستخدمهم لغرض توضيح الهوة الفاصلة بين الآراء التي يقول هو بها، وبين تلك الآراء التي يؤمن بها القوميون.

وفي الوقت الذي لم ترض فيه القوميات بالتوضيحات التي اوردها ولسون والتأكيدات التي اعطاها، راح يعتبر مطاليبهم بالأستقلال الناجز للأمة العراقية، بأنها مطاليب عصابة متهوسة،

---

(٢١) عندما تم القاء القبض على عيسى عبد القادر، اختار المجتمعون من بينهم خمسة عشر رجلا، لمواجهة الحاكم العسكري البريطاني، وتقديم احتجاج اليه، عن اعتقال عيسى عبد القادر، وكان هؤلاء هم كل من السيد ابو القاسم الكشاني (الذي ايد مصدق في حركة تأميم النفط في بادئ الامر ثم انقلب عليه وانحاز الى جانب الشاه السابق وبارك انقلاب الجنرال زاهدي)، والسيد محمد الصدر، جعفر ابي التمن، الشيخ احمد الظاهر، يوسف السويدي، عبد الكريم حيدر، الشيخ عبد الوهاب النائب، الشيخ سعيد النقشبندي، السيد فؤاد الدفتري، السيد محمد مصطفى الخليل، احمد الشيخ داود، علي البزركان، ياسين الخضيري، محمود الشابندر، عبد الرحمن الحيدري، رفعت الجادرجي.

اما الاشخاص الذين اختارهم ارنولد ولسون بنفسه فنهم عبد الجبار الخياط، عبد القادر الخضيري، محمود الشابندر، جميل صدقي الزهاوي، صالح الحلي، محمد حسن الجوهر، جعفر عطيفة، الشاوي، عبد الكريم الجلبي، مناحيم دانيال، ساسون حسقيل، خسرو لموبجيان، عزرا مناحيم دانيال، يهودازلوف، الحاج علاء الا لوسي (لم يحضر الاجتماع). وما ان علم الوطنيون بما فعله ولسون حتى بادروا الى الاجتماع باؤلئك المندوبين، وتذاكروا معهم، حيث قرر الجميع مطالبة السلطة المحتلة بطلب الاستقلال التام (محمد علي كمال الدين: «معلومات ومشاهدات في الثورة العراقية الكبرى» ص ٢١٩ ومابعدها طبعة ١٩٧١)

واخذ يؤكد بأن الجمهور الرئيس في العراق سوف يكون أكثر تساهلا، واوسع امنا، في ظل حكم قد يرقى الى درجة الحكم البريطاني المباشر.

وفي الوقت ذاته كانت لجنة اللورد كرزن، وهي اقل حذرا وأكثر تحررا من آراء ولسون نفسه، قد اعادت النظر في المقترحات التي وضعتها لجنة بونهام كارتر، وفي الانتقادات التي وجهت اليها، وقررت بأن الوقت أصبح ملائما الان، للاعلان عن وضع دستور للعراق. وطبقا للأوامر الواردة من لندن، اعلن الحاكم السياسي في اليوم السابع عشر من شهر حزيران ١٩٢٠، ان جمعية عامة منتخبة سيتم عقدها، وأن هناك تطلعا اولياً نحو وضع دستور لدولة عربية ستكون حكومتها الذاتية، حكومة حقيقية وفعالة، وان لم تكن كاملة. غير ان اعلان هذا الأمر جاء متأخرا. فلقد سارت العواطف والأماني القومية قدما، وكانت القوى في المدن وبين العشائر في حركة لايمكن ازاءها للعبارات اللطيفة، أن توقف اعلان الدستور.

لم تترك الأيام القلائل التي امضاها السر برسي كوكس في بغداد، وقد غادرها الآن بعد ان تم تعيينه وزيرا مفوضا في طهران، سوى انطباع ضئيل، عن كل ماكان يتمتع به من اعتبار شخصي، ذلك ان «الأنتداب» تلك الكلمة المقيتة، قد أينع الآن، والحكم البريطاني المباشر الفعال متواصل، ولم تعد للاستقلال الحقيقي اية دلالة، ولا أي امل مبكر، كما ان اللجنة المؤلفة من المندوبين السابقين في البرلمان العثماني، والتي كان يرأسها السيد طالب النقيب الذي عاد الى العراق في شهر شباط سنة ١٩٢٠ قد أخذت ومن دون ادنى تأثير على الرأي العام في العراق، تواصل اعمالها في التمهيد لعقد الأنتخابات الموعودة[٢٢]

وفي الوقت ذاته سارت لائحة جلاء الجيوش البريطانية عن العراق قدما، وأصبحت القوات البريطانية الفعالة قليلة، وموزعة، وكانت طرق المواصلات في العراق وفي بلاد فارس طويلة ولايمكن الدفاع عنها، في حين كانت الواجبات المحددة لحراسة المخازن، والأسرى الأتراك

---

(٢٢) تحرك السيد طالب النقيب الى هذا العمل تنفيذاً لرغبات الحاكم البريطاني العام ارنولد ولسون الذي اراد كما يقول الدكتور علي الوردي – ان يقوم بعمل يلهي به الناس خلال الايام الاخيرة من حكمه وقد نشرت الدعوة لاجتماع اولئك النواب في الصحف في الثاني عشر من تموز ثم ارسلت الدعوة الى النواب للحضور في السادس من آب. وحين علم زعماء الحركة الوطنية بتلك اللعبة قرروا دعوة المندوبين لحضور اجتماع في دار السيد عبد الرحمن باشا الحيدري وهناك حاول السيدان يوسف السويدي ومحمد الصدر اقناع اولئك النواب بالانسحاب من اللجنة لكن النواب رفضوا تلك المبادرة وانهم – كما يبدو كانوا يرون نجاح الثورة امرا غير مضمون

وفي صباح اليوم السادس من آب حضر النواب السابقون الى محل الاجتماع في دار الحاكم فحضره ارنولد ولسون وحاكم بريطاني يدعى نورتن والمترجم محمد مرزا البوشهري وهو محمد خان بهادور مترجم ومساعد كوكس في الخليج العربي والذي عرف مؤخرا باسم المحامي محمد احمد في البصرة. واختار الاخرون اربعة من زعماء الحركة الوطنية هم جعفر ابو التمن ومحمد الصدر، ويوسف السويد وعبد الرحمن الحيدري للانضمام الى اللجنة ولكن السويدي وابا التمن والصدر قرروا مقاطعة اللجنة ووجهوا الدعوة الى عقد اجتماع شعبي عام يعقد في جامع الحيدر خانة في ١٥ آب لاثارة الجماهير على اللجنة (د علي الوردي لمحات من تأريخ العراق الحديث ج ٥ القسم الثاني من ٧ ٨

والمسيحين اللاجئين من تركيا، قد تم احتسابها لغرض أستخدام كل القوة الباقية تقريبا. كذلك فأن عوائل الجنود البريطانيين التي وصلت مؤخرا الى العراق، قد تم حجزها في «كرند» داخل بلاد فارس.

ومنذ شهر اذار سلمت القيادة العسكرية البريطانية في العراق، الى قائد كبير السن جديد على العراق هو «السر ايلمر هالدين»[٢٣] والذي لم يظهر منذ البداية سوى ثقة ضئيلة بالتحذيرات الصادرة من لدن الحاكم المدني، وضباطه، تلك التحذيرات التي أصبحت الان اداوات أنفجار واثارة بارزتين.



(٢٣) صاحب كتاب «الثورة في العراق» الذي ترجمه ونشره المرحوم فؤاد جميل.

٤ ـ ثورة سنة ١٩٢٠ [1]

نجمت الاضطرابات التي انفجرت بين افراد العشائر في منتصف صيف سنة ٠٩٢٠ بصفة مباشرة عن عوامل يعود البعض منها الى امور مألوفة من زمان طويل في العراق ، وذلك من امثال التمسك بالقبيلة والمقاومة ، وحب الغزو والنهب ، وتحريضات مجتهدي الشيعة اصحاب المصالح الذاتية ، ومطامع المشيخة المحلية ، او التنازع على المشيخة ، والامتناع عن دفع الضرائب ، وشدة النفور من الحكومة ، كما يعود البعض الآخر من هذه العوامل الى الحماسة ، والدعاية القومية الممولة تمويلا حسناً لهذه الغاية

ومن الامور التي ساعدت في تلك العوامل ، تبعثر القوات البريطانية ، وقلة عددها ، واعادة توزيعها ، ووضع القيادة العسكرية التي كانت تبدو في بعض الاحيان فاترة او متعبة ، وفي احيان اخرى ، غير متعاطفة ، ان صوابا حدث ذلك ام خطأ ، مع حاجات الادارة او حجمها . ولقد ادى التمرد الناتج عن ذلك ، الى اخضاع البلاد ، لمدة ثلاثة شهور ، الى اوضاع مشابهة لما كانت عليه اثناء الحكم التركي ، وذلك في فترة من أكثر الفترات التي مرت بها فوضى واضطرابا

فلقد شمل التأثير الذي احدثته هذه الاوضاع حوالي الثلث من الريف العراقي خارج المدن الكبرى ، وتميزت هذه الاوضاع بانقطاع المواصلات ، ورفض دفع الواردات ، ومقارعة قوات

---

(١) لم يشأ المؤلف هنا ، الا ان ينعت ثورة العشرين بمثل مانعتها به اضرابه من الكتاب الغربيين، حيث اطلق عليها كلمة «التمرد او الاعتصاب INSURRECTION بدلا من كلمة «ثورة Revolution» كل ذلك بقصد التقليل من قيمة المقاومة المسلحة التي جوبه بها المحتلون الانكليز من قبل الشعب العراقي، وانفجار تضحيته في سبيل تحرره وانعتاقه، وتعلقه بالحياة الحرة الكريمة. صحيح انه كان للعوامل التي ذكرها المؤلف اثرها الفعال في ايقاد نيران الثورة، ولكنه انكر العامل الاقتصادي الذي يعد من اقوى العوامل. اذ ان سوء الوضع الاقتصادي وفداحة الضرائب التي فرضت على المزارعين في الدرجة الاولى كانت من بواعث التمرد والتذمر. ومع ذلك فقد اورد المؤلف في ثنايا هذا القسم كلمة «الثورة» بلفظها العربي، ولسنا نعلم هل كان ذلك نابعا عن اعتقاده بحقيقة الثورة، ام انه جارى العراقيين في هذا القول. ومهما كانت تسمية الغربيين والاستعماريين منهم قبل غيرهم، فقد كانت ثورة العشرين من الثورات الحقيقية الشعبية حقا اذ شاركت فيها جماهير الشعب من مختلف الطبقات والمراتب، وكشفت عن مدى بغض الشعب لسيطرة الاجانب واستعداده لتقويض تلك السيطرة، فهو لم يكن متخلفا في هذه المقاومة عن بقية الشعوب الاخرى التي شهد العالم نضالها ضد الاحتلال ولاسيما خلال الحرب العالمية الثانية في الاقطار التي احتلتها المانيا وايطاليا واليابان.

الحكومة ، وبالهجمات المحلية المتعطشة الى سفك الدماء ، ونهب المساكن والاموال ، في حين لم يحدث في المدن اي اضطراب[٢]

كان حادث الثورة[٣] بالنسبة الى ضباط الادارة عاملا من عوامل الوهم والخيبة ، وضياع العمل الذي كرس لمدة سنتين ضياعا جزئيا ذلك لان هذه الثورة كانت تعني بالنسبة الى هؤلاء الضباط والى القادة العسكريين ايضا ، مرحلة من الكبت الشديد ، يوما بعد يوم ، لحياة وبقاء مهددين بالخطر. اما بالنظر الى الحكومة البريطانية فان الثورة كانت تذكيرا لها بان تطبيقها لسياستها كان في حد ذاته ، اقل من التأخيرات التي كانت تقع من لدنها ، ومن الانهيار النفسي ، الذي لم يعن كثيرا بالنقمة المحلية ، او بقوة القومية العراقية ، وقدرتها على كسب التأييد الشعبي

كذلك كانت تذكيرا للحكومة البريطانية ايضا ، اذا ما احتيج اليه ، بمدى الحاجة الى اقامة نظام حكم في العراق ، يستطيع عن طريق ارضاء العناصر الكبرى في البلاد ، ان يخفف من الاعباء الحالية التي تثقل كاهل دافع الضريبة البريطاني وبالنظر الى افراد العشائر في العراق ، والذين تكبدوا اصابات شديدة دون الحصول على اي عوض من ذلك من اي نوع كان ، فان الثورة قد لقنتهم ، ليس لاول مرة ولا لآخر مرة ، درسا قد يساعد النتائج غير الحميدة والناجمة عن خدمة اغراض الساسة المدنيين[٤] وللذين تزعموا الحركة الدينية من الفرس.

لم يقم سكان المدن وزعماؤهم المدنيون ، رغم ما كانوا يظهرونه من اخلاص وحمية ، باي دور مادي او عملي في الثورة ، لكنهم استفادوا من اضطراب حبل الامن ، والذي كانت الادارة ، على الرغم من وجودهم ، قادرة على صيانة الامن في المدن ومع كل ذلك فقد كان هؤلاء الزعماء يزعمون ، كما لايزال الجيل الذي خلفهم يزعم، بان «حرب التحرير الوطنية» التي اضفيت عليها صفات البطولة ، قد ادت بصفة ضرورية الى تعديل السياسة البريطانية ، واجبرتها على اقامة دولة عراقية

ان وضع مقارنة ايجابية بين الترتيبات الدستورية التي صيغت في السابع عشر من حزيران

---

(٢) لم تقتصر الثورة على الريف ، كما يذكر المولف ذلك.فقد شاركت فيها مدن كثيرة من امثال بغداد ، والنجف ، وكربلاء ، ومن بعض المدن الشهيرة في الشمال ، وان كانت مشاركة ابناء الريف اوسع واعم نتيجة تجمعهم في مناطقهم وتماسهم الشديد مع المدن

(٣) كتب المؤلف كلمة «ثورة» باللفظ العربي وبالحروف الانكليزية THAWRA

(٤) ولقد بقي افراد العشائر حتى اواخر سني الثلاثينات في العهد الملكي ، يثارون ويدفعون الى التمرد بتحريض من بعض الساسة المدنيين ، ومحترفي الحزازات والحركات الطائفية ، فضلا عن بعض رؤساء العشائر الذين خاضوا غمار السياسة بعد ان اصبح البعض منهم وزراء واعضاء في مجلسي الاعيان والنواب وعلى الاخص في الفترة التي سبقت وقوع انقلاب بكر صدقي وخلاله ، حيث غدت الانقلابات العسكرية المتوالية تعوض عن تمرد العشائر واعتصابها مما سيطلع عليه القارئ بكل وضوح في الفصول التالية

سنة ١٩٢٠ والتي اذيعت قبل الثورة ، والتي كانت في الواقع اجراءات تمهيدية لانشاء دولة عربية تعمل طبقاً لبرلمان وطني ووزراء ، وموظفين عراقيين ، وبين الترتيبات التي اعدها السربرسي كوكس في خريف تلك السنة[٥] ، لايمكن ان تدعم هذا الرأي ذلك ان الثورة على الرغم من الحاقها الخسائر المؤسية بالذين شاركوا فيها ، كانت قد اخرت ، الى بضعة اشهر ، تأليف الدولة الجديدة

ومن ناحية اخرى قد يقال عن الثورة بانها قد خففت الى حد ما من وسيلة تطبيق السياسة البريطانية ، وعززت قضية التفاهم عن طريق المعاهدة بدلا من قيام حكومة انتدابية بشكل مباشر. ومع ان العمليات الحربية التي قامت بها عشائر الفرات قد اظهرت دلائل على تدريبها او قيادتها من قبل ضباط مدربين ، هم الضباط الذين خدموا في الجيش التركي وكانوا ضمن قوات الامير فيصل ، مع كل ذلك فان مجرى الحوادث لم يكن له سوى قدر ضئيل من الاهمية

ذلك لان الثورة لم تتبع اية استراتيجية او اي تزامن اكثر دقة من مجرد نشر الفوضى الشاملة على ايدي عملاء العشائر ، متى وحيثما كان ذلك مستطاعا وقد ادى هذا الامر الى بقاء الادارة بصفة مستمرة وفي معظم المناطق.

وحتى الحد الادنى من السيطرة الموحدة على عمليات الثورة ، لابد وان جعل وضع البريطانيين من الامور التي لاتطاق ، وبذلك توحدت الهيئات الرئيسة التي كانت تلوح بقضية القومية ، او الفوضى. ويشير انعدام التماسد ليس الى فشل العنصر السياسي اللازم لتحقيق ذلك التماسك حسب ، بل والى الاغراض الضيقة لرؤساء العشائر ، والى تنوع دوافعهم ، ونقص الاحساس بالخدمة للقضية المشتركة

كذلك ينبغي علينا ان لاننسى بانه كانت في العراق نسبة عالية من رؤساء العشائر ، وبين الاشخاص البارزين في المدن ، قد منعوا حدوث اي تأييد للثورة ، في حين كان اخلاص القوة المسلحة العراقية المؤلفة من الشرطة والشبانة للادارة من الامور المشهودة

تطلبت اعادة الاوضاع السليمة الى البلاد ، بضعة شهور من الجهود العسكرية البريطانية المضنية ، التي لم تتميز ببعض الافعال المؤسية حسب ، بل بوقوع شواهد دللت على البسالة العسكرية ايضا فهذه الجهود التي اشتملت على جلب التعزيزات المهمة من الهند ، والتي كلفت مئات الاصابات وكميات من المهات الحربية ، واقامة المئات من المواقع المحصنة ، وعشرات الاميال من سياجات الاسلاك الشائكة ، ونفقات قدرت بأربعين مليون باون ، وهو

---

(٥) يشير المؤلف بذلك الى موضوع الاستفتاء الذي حاول ارنولد ولسون اجراءه ، والمحاولات التي اريد بها ، عن طريق دعوة النواب العراقيين في البرلمان التركي ، الى المشاركة مع السلطات البريطانية في تهدئة الوضع ، وحمل السكان على القبول بالحكم البريطاني المباشر للعراق ، مما ورد ذكره في القسم السابق

مبلغ يفوق كثيرا ذلك المبلغ الذي تم انفاقه على الحلفاء العرب خلال الحرب في الحجاز وفي سوريا

بقي الامن خلال شهر حزيران سنة ١٩٢٠ في كل انحاء العراق غير مضطرب ، ماعدا بعض الحوادث التي اعقبت مذبحة «تلعفر»،والواقع ان بعض المراقبين كانوا يعتقدون بان الامن قد تعزز بعد ان اخفقت القوات العشائرية خارج الموصل ، وبعد اعلان السياسة البريطانية في بغداد ، اثر عودة السربرسي كوكس ، واعتقال بعض المحرضين الوطنيين في بغداد وكربلاء والحلة ، والديوانية ، حيث تم نفي البعض منهم الى جزيرة «هنجام» في الخليج العربي[٦]

ولكن هذه الآمال كانت مزورة ، ذلك لانه لم يتم تجنب اعمال العنف التي الفها العراق في تأريخه الطويل وقع حادث في الرميثة على الفرات الادنى ، في الاسبوع الاول من شهر تموز ، ولم يكن مرتبطا اول الامر ، باية سياسة قومية او اية سياسة اخرى ، ادى الى قلع سكة حديد البصرة - بغداد قرب الرميثة والسماوة ، حيث حاصر افراد العشائر بصفة مطلقة ، دوائر الحكومة فيها فشلت الجهود البريطانية الاولى التي صممت للوصول الى الرميثة ، ولم تمكن لنجدة تلك الدوائر في اليوم العشرين من تموز ، الا بعد قتال عنيف ولكن تم التخلي عنها فورا وثارت العشائر في المشخاب ، و «ابي صخير» في الثالث عشر من تموز ، وحاصرت «الكوفة» بعد اسبوع من ذلك التأريخ حيث قتل النقيب ج س مان[٧] ثم جرت مهاجمة الكفل حيث تم ارسال رتل من كتيبة مانجستر على عجل لنجدتها ولكن هذا الرتل تعرض ، لسوء الحظ ، الى خسائر فادحة من القتلى والاسرى مما رفع من معنويات القوات العشائرية الثائرة واخلت القوات البريطانية سدة الهندية «والمسيب» ومن ثم اعيد احتلالها في منتصف شهر آب ولم تستطع القوات البريطانية الجلاء عن الديوانية الى الحلة الا بمشقة بالغة ، حيث بقيت القنوات والمدن الواقعة الى الجنوب منها ، خارج نطاق السيطرة لبضعة اسابيع وفي المنتفق ، ارغم الحكام السياسيون البريطانيون في كل من الشطرة ، وقلعة سكر ، وسوق الشيوخ على اخلائها ايضا في شهر آب وما خلا مقر محافظة الناصرية،ساد المنطقة هناك نظام غير حكومي لبضعة اسابيع ، وان لم يقدم ذلك النظام على اتيان اعمال ثورية مركزة

---

(٦) كان من بين المنفيين من بغداد كلا من الشيخ احمد الشيخ داود ، وجعفر الشبيبي ، ومحمد مصطفى الخليل ، وعارف السويدي والشيخ احمد مختار محلة الشيخ فتحي وهو احمد الشيخ داود وصبري قاسم اغا ، ونوري فتاح والسيد امين رئيس بلدية الاعظمية،وفي ٣٠ ايار ١٩٢١ اذاع المندوب السامي بياناً بالعفو عن القائمين بالثورة ومن بينهم بعض الهاربين من وجه العدالة من امثال الشيخ ضاري المحمود شيخ زوبع وولداه خميس وسلمان والاشخاص الذين قتلوا او حرضوا على قتل بعض الضباط السياسيين في تلعفر وديالى .

(٧) كان هذا يتولى منصب الحاكم السياسي في الشامية وقد عرف بحدة ذكائه ومكره واستطاع بمسعاه ايقاف قبائل الشامية عن اعلان الثورة ولهذا الضابط كتاب قيم عن اوضاع العراق عنوانه «اداري في دور التكوين ١٩٨٣ - ١٩٢٠ طبع لندن ١٩٢١ وهو من الكتب التي قررنا ترجمتها ونشرها ان شاء الله .

ثم قلع سكة الحديد ونهب احد القطارات وتدمير سفينتين نهريتين حربيتين هما «غرين فلاي» و «س ، ٩ .» (٨) وقتل ملاحوهما ، وعلى الرغم من ذلك ظلت نواة الولاء للادارة البريطانية موجودة تحت اشراف الاقوياء من شيوخ المنتفق ، واخذت الاحوال هناك تعود ، ومن دون الاقدام على عمل حربي ، الى مايشبه الحالة الاعتيادية في اواسط شهر تشرين الاول

لم تجد القلاقل التي حدثت اي وقت لها للانتشار الى الكوت ومناطق العمارة الواقعة على القسم الادنى من نهر دجلة ، كما انها لم تبلغ مدينة بغداد وضواحيها ما خلا وقوع حوادث منعزلة كان من بينها تدمير المخازن الرئيسية التي تحفظ فيها وسائل النقل المتحركة وكذلك فلم تبلغ الإضطرابات مدينة البصرة على الرغم من الجهود التي بذلها بعض المحرضين لذلك

بقيت الموصل والمناطق الكردية التابعة لها هادئة(٩) على الرغم من الدعاية العنيفة التي كانت تتسلل عبر الحدود ، وحدوث بعض الغارات العشائرية الواسعة اما السليمانية ، الغريبة عن القومية العراقية(١٠) والتي اصابتها الحوادث التي وقعت في سنة ١٩١٩ ، فانها قد بقيت على حدة وحدث توتر شديد في محافظة كركوك ولكن ذلك لم يؤد الى انفجار الاضطرابات فيها ، عدا ماحصل في «كفري» التي استولى عليها رجال العشائر لعدة ايام خلال شهر آب ، حيث اسروا النقيب «سالمون» مساعد الضابط السياسي فيها ، ومن ثم قتلوه(١١)

وفي اربيل انسحبت الادارة التي كانت تتعرض لضغط شديد موجه من قبل الاتراك ، من اقضية كل من رانية ، وكويسنجق ، وباطاس ، لكنها مع كل ذلك حظيت بمساندة بعض الاغوات الموالين ، واستطاعت ان تحافظ على وضعها في المدينة وفي الريف المحيط بها

---

(٨) كانت لدى الانكليز في الناصرية خمس سفن ، ثلاث منها حربية هي «غرين فلاي» وشو فلاي «وستون فلاي» الى جانب سفينتين عاديتين كانت كل واحدة منها تسحب جنيبتين . وقد تحركت هذه القافة بقيادة الملاح «سفولك» من الناصرية في ٢٦ آب ١٩٢٠ ، متجهة نحو السماوة ، فشرع الثوار يمطرونها بالرصاص قرب «الخضر» ، وقد اصاب العطب محرك احدى السفينتين فجنحت الى الشاطئ واذ ذاك هاجمها الثوار وقتلوا اكثر جنودها ثم نهبوها مع الجنيبتين واضرموا النار فيهاوكانت هذه الباخرة هي «غرين فلاي» (راجع تفاصيل ذلك في علي الوردي ج٥ قسم اول ٢٨٣ وما بعدها وفريق المزهر الفرعون الحقائق الناصعة ص ٤٨٨ ، ومحمد علي كمال الدين معلومات ومشاهدات ٢٦٤) .

(٩) لم يعد الهدوء الى المناطق الكردية الثائرة بمثل هذه السرعة التي اتى المؤلف على ذكرها فقد استمرت حركات التمرد والتصادم مع القوات الانكليزية طيلة سنة ١٩١٩ وشطر كبير من سنة ١٩٢٠ وحتى بعد نشوب الثورة في مناطق الفرات وديالى وغيرهما (راجع «عبد المنعم الغلامي وكمال مظهر احمد»)

(١٠) وهذا نوع من الدس لدى المؤلف ذلك لان القومية العراقية ، لاتفرق اطلاقا بين العرب وغير العرب على خلاف مايتظاهر به بعض القوميين المتشددين سواء من العرب او الاكراد او التركمان او غيرهم فهذه العناصر ، العربية والكردية والتركمانية وغيرها عاشت اجيالا عديدة متجاورة ومتشابكة في المصالح وبصلات الزواج ، في وحدة تكاد تكون متماسكة على الرغم من الحزازات التي كانت تثار في بعض الاحيان وكانت كلها موجهة ضد الحكومة وسوء ادارتها

(١١) انظر تفاصيل الثورة في كفري في كتاب د كمال مظهر احمد مشاركة الشعب الكردي في ثورة العشرين العراقية ، وكذلك كتاب عبد المنعم الفلاحي ، ثورتنا في شمال الوطن .

تمت السيطرة على اعالي الفرات بمساعدة شيوخ الدليم وعنزة ، الى ان تمّ اغتيال العقيد لجمن في اليوم الثاني عشر من شهر آب ١٩٢٠ ، حيث ادى ذلك الى قيام انتفاضات محلية ، وعزل مدينة «عانة» ، ونهبها هي والقرى الاخرى القريبة منها ، واضطرار الادارة الى الانسحاب من «هيت» لبعض الوقت ، حيث تمت اعادة الوضع الى سابقه بوصول ارتال عسكرية اعادت احتلال هيت في اليوم الثامن من شهر تشرين الاول ، غير ان منطقة الدليم بقيت مرتبكة لمدة نصف سنة اخرى

احدثت الدعاية المنبعثة من سامراء انتفاض بعض العشائر القاطنة حواليها مما ادى في اواخر شهر آب الى وقوع هجوم غير ناجح عليها[١٢]. وفي مناطق اخرى شمالي بغداد وشرقيها سيطرت قوى العنف هناك وحظيت بالتأييد والمكافأة فقد هوجم مقر محافظة ديالى في مدينة بعقوبة ، ومدن اقضية شهربان ، ودلتاوة بالتعاقب، واحتلتها العشائر جزئيا، ونهبتها في اواسط شهر آب ، وذلك بايحاء من رجال السياسة ، حيث تم قتل الضباط السياسيين البريطانيين ، النقيب «رغلي» والعقيد «برادفيلد» والنقيب «بوكانن» بالاضافة الى عدد من آمري قوات المرتزقة البريطانية ، واسر البعض الاخر منهم[١٣]

ففي هذه المناطق وفي مدينة «مندلي» على الحدود، كانت قد اقيمت ادارات مؤقتة تبعث على الامل اما المدن التي يقطنها التركمان والاكراد معا ، وهي قزلرباط (السعدية) وخانقين ، فقد دخلتها العشائر الكردية واحتلتها في ذات الاسبوع كما وقع هجوم على المعسكر الذي جمع فيه الاثوريون في بعقوبة. كان من اليسير على القيادة العسكرية ، في المناطق التي تتوفر المواصلات فيها في اواسط العراق ، وذلك بعد ان توفرت لهذه القيادة في اواسط شهر ايلول ١٩٢٠ ، قوات اقوى ، واستطاعت ان تستعيد المبادرة في يدها ، ان تبادر الى اعادة اقامة الادارة في تلك المناطق ، وان تعاقب الثوار ، بما توفر لديها من ارتال عسكرية متنقلة كانت تقوم بزيارة تلك المناطق

وبالنظر الى الانفراج العام للجمهور ، والى مافعله الكبار من اصحاب الاملاك في بغداد ،

---

(١٢) انظر مقالنا في مجلة افاق عربية عدد حزيران ١٩٨٢ عن محاصرة سامراء من قبل عشائر العزة والجبور والبو صقر وغيرهم وسبب ارتداد تلك الجموع عن دخول سامراء واحتلالها ، وماقامت به تلك الجموع من هجوم على مدينة «بلد» اثناء تراجعها عن سامراء

(١٣) [illegible] النقيب «بوكانن» واسمها «زيتون بوكانن» كتابا عن الثورة في ديالى ولاسيما في شهربان بعنوان «في ايدي العرب» صادر في سنة ١٩٢٤ وعندما عهدت الي ادارة مدرسة التفيض الاهلية بتحرير مجلة التنفيض واصدارها في اوائل سنة ١٩٣٩ [illegible] مقالات عن الثورة في الخالص من المرحوم «علي مهدي» بعنوان «كيف التهبت نيران الثورة في دلتاوة» نشرت في الاعداد الاولى الثلاثة من المجلة وحين اصدر صديقنا السيد عبد الرزاق بستانة في اوائل الستينات مجلة اسبوعية باسم «المناهل» اعاد [illegible] تلك المقالات التي نشرتها «التفيض» من دون ان يشير الى مصدرها وقد اعتمد الدكتور علي الوردي على بعض ماجاء في صفحات «المناهل» دون ان يلتفت الى اصل المصدر وهو مجلة «التفيض».

ان اخذت الاضطرابات في اواسط العراق تخف تدريجاً الى ان اختفت تماما ولكن مع كل ذلك بقيت اعمال التحريض والمنازعات القائمة بين العشائر في ديالى ، خارج نطاق السيطرة عليها وتهدئتها الى حد كبير ولاكثر من سنة اخرى اختفت الادارة التي انشئت في مندلي في اوائل سنة ١٩٢١ ، وتقلص عدد افراد العشائر التي هاجمت كفرى وخانقين ، وتحولوا الى عدد صغير من الخارجين على القانون ، وما لبث الهدوء ان اخذ يعود الى سكان مدن ديالى وبغداد وضواحيهما. وفي اواسط الفرات وادانيه استطاعت القوات البريطانية ان تظهر بمظهر القوة المحترمة في الاسابيع الاولى من شهر تشرين الاول ١٩٢٠ ذلك لانه امكن اعادة الاعتبار الى الادارة في النجف وكربلاء ، ونجدة كل من الكوفة والسماوة المحاصرتين واللتين انشئت فيهما حكومتين مؤقتتين لبضعة اسابيع ، حيث امكن استعادة الاسرى البريطانيين الذين تم اسرهم في شهر تموز مع افراد كتيبة مانجستر وعدة كتائب اخرى ، وكان هؤلاء الاسرى في حالة جيدة اخذت حملات تأديبية متنوعة تنطلق الى مناطق الاهوار التي لم تزرها القوات الانكليزية قبلا ، حيث استمرت المسيرات والاستعراضات العسكرية البريطانية متواصلة خلال شتاء ١٩٢٠ ١٩٢١ كما اعيد بناء الطرق بما في ذلك سكة حديد البصرة – بغداد بصفة متقدمة وقدم الشكر الى زعماء العشائر الموالية وكوفئوا على ذلك ، وغدا امر اخضاع الثائرين مقبولاً عدا قلة منهم هربوا خوفاً وانتقلوا في الاصل الى سوريا والحجاز

ادت ضريبة البنادق الى فرضها رئيس اركان الجيش البريطاني على العشائر ، الى جمع هذا النوع من السلاح بصفة فعالة ، حيث تم استلام حوالي سبعين الف بندقية ، منها احدى وعشرون الف بندقية من النوع الحديث ، وقد جمعت هذه كلها من عشائر اواسط الفرات وحدها خلال ستة اشهر ولم تجمع من المنتفق اية اسلحة وذلك لاسباب استثنائية كما قامت احدى الحملات العسكرية البريطانية بزيارة «الغراف» في شهر كانون الثاني ١٩٢١

في اواسط شهر تشرين اول عاد السربرسي كوكس الى العراق ، كما كان قد تقرر ذلك ، لكي يخلف نائبه ولسون ، في منصب الحاكم السياسي العام ، وليحقق المنهاج الدستوري الذي اذيع قبل اربعة اشهر خلت وبعد ان اجرى كوكس مشاورات في جنوبي العراق[١٤] وصل الى بغداد في اليوم الحادي عشر من شهر تشرين الاول ولقد ابدى دهشته حقا في البيان الذي نشره في السابع عشر من ذلك الشهر ، من الاهداف التي كانت ماتزال تتوخاها قلة من افراد

(١٤) وصل كوكس الى البصرة في الاول من تشرين الاول ١٩٢٠ وبعد ان قابل ابن السعود في «العقير» والشيخ خزعل في المحمرة استقل في اليوم الثاني طائرته لزيارة معارفه في الناصرية وسوق الشيوخ والعمارة والكوت وغيرها من المدن الواقعة على ضفاف دجلة والفرات للوقوف بواسطتهم على الرأي العام في البلاد واعادة الثقة الى النفوس فلما كان يوم ١١ من الشهر وصل الى بغداد بالقطار (عبد الرزاق الحسني: تاريخ العراق السياسي الحديث ج ١ ص ١٥٦ طبعة ١٩٥٧

العشائر الثائرة[١٥] اما المحاولة التي اراد بها رجال الدين من الشيعة ان يعيدوا بصفة جدية مراكزهم التي اهتزت بصفة مؤقتة ، وان يعلنوا انفسهم وسطاء بين الحكومة وافراد العشائر الشيعية ، فقد حال رفض السريرس كوكس لها دون حدوثها اخذت الاوضاع تعود الى الحال الاعتيادية اسبوعا بعد اسبوع ، وعلى ذلك اصبح مستطاعا استئناف التقدم الذي انقطع في بناء الدولة



(١٥) المقصود بدللك البيان الدي اداعه كوكس ونشرته جريده العراق ١٢٤ وبتاريخ ٢٦ تشرين الاول ١٩٢٠ والذي ذكر فيه ان الحكومة البريطانية قد انتدبته وليعود الى العراق لتنفيذ مقاصد الحكومة الثابتة ، بمساعدة رؤساء الامة ، وتشكيل حكومة وطنية في العراق سطارة حكومة بريطانية ويصعب على فخامته جدا تنفيذ منويات الحكومة البريطانية مادامت بعض اقسام العشائر والطوائف في العراق تعادي الحكومة ولايعلم فخامته غرض العشائر الذين يشغلون انفسهم بالحرب فاذا كان هناك سوء مفهومة يمكن ازالتها فيسر فخامته ان يبلغ العشائر ذلك اليه بواسطة اقرب حاكم سياسي اليهم (عبد الرزاق الحسني تأريخ الوزارات العراق ج ١ ص ٩ ١٠ طبعة ١٩٧٤)

٥ - الملك فيصل الاول

لم يكن «استقلال العراق التام المباشر» ليؤلف اي جزء من المنهاج الذي كان «برسي كوكس» يسعى الى انجازه ، بعد الفشل الذي احاق بالحركة الثورية التي نظمت لنوال ذلك الاستقلال . كما ان انهيار حكومة الامير فيصل في سوريا في شهر تموز سنة ١٩٢٠ ، لم يدع حتى اكثر المدافعين المتحمسين في تلك الحكومة›يندر الان ان يتوقعوا ذلك الانهيار .

كانت بريطانيا قد تقبلت الانتداب الذي فرض على العراق ، بكل ماكان يشتمل عليه ذلك الانتداب من وصاية مهما تم تفسيرها ولقد سمحت معاهدة «سيفر» مع تركيا ، والتي كثر النقاش حولها ، وتم التوقيع عليها في اليوم العاشر من شهر آب ١٩٢٠ ، قد سمحت للاكراد ان ينضموا - اذا ما رغبوا في ذلك - الى الدولة التي ستقام وتشمل اواسط كردستان .

ومهما كان برسي كوكس ، ومستشاروه ، متعاطفين مع اماني العراقيين ، الا انهم كانوا مقتنعين بان اخضاع العراقيين الذي تطلبه الحكومة البريطانية ، يجب - لغرض صحته ودوامه - ان يأتي بالتدريج وبخطى متقدمة صحيح ان الادارة البريطانية العملية ، التي كانت تعمل بصفة منظورة في كل المناطق ، والمحافظات ، والاقضية ، قد اصبحت حقيقة واقعة ، بحيث لم يعد مستطاعا ، في تلك اللحظة ، الكشف عن الامور السياسية

وفي الوقت ذاته كان المنهاج الذكي لانشاء «ادارة عراقية» والذي تم تطويره في اول الامر ، قد اخذ يحظى بواقع متزايد ، وفقاً للخطوط التي اعتمدتها لجنة بونهام - كارتر ، واقدمت كل من الحكومة البريطانية ، والسر برسي كوكس نفسه على تعديلها بصفة ملموسة ، بحيث اصبح متوقعا بان يحظى ذلك المنهاج بالتأييد من لدن اصحاب الآراء المعتدلة ، او غير ذوي الآراء السياسية ، تلك الآراء التي اخذت تتوطد الآن ، نتيجة التجارب المفزعة التي حدثت خلال شهري تموز وآب ، بالاضافة الى الضباط البريطانيين ، الذين كانت اغلبية كبرى منهم ، في الواقع ترغب وتتشوق الى المساعدة في انشاء نظام حكم جديد

كان التطرف في تلك اللحظة مستترا تحت سحابة ، حيث كان المتحمسون لذلك التطرف يعيشون خارج البلاد ، في حين ظل الاخرون منهم صامتين بصفة مؤقتة كان كثير من القوميين المخلصين ، بل معظمهم ، يرغبون ان يشاركوا لوقت ما في نظام الحكم الجديد ، الذي وان لم

يكن يرضيهم تماما الا انه كان على الاقل يمثل تقدما جوهريا وهكذا في غضون اسبوع منذ وصوله الى بغداد ، واستقباله استقبالا وديا في كل انحاء العراق ، استطاع برسي كوكس وبمعونة من مستشاريه بونهام – كارتر ، وهول ، وفلبي ، وسليتر ، وبولارد ، والمس بل ، ان يهيئ الخطط لاقامة حكومة عراقية مؤقتة

كان المقرر ان يحظى المجلس الذي يضم وزراء مسؤولين، بمساعدة من المستشارين البريطانيين ، وان تستأنف الخدمة المدنية العراقية الشاملة الامساك بزمام الحكومة في المحافظات
اما بالنظر الى رئاسة مجلس الوزراء ، فقد استطاع السربرسي كوكس ان يتغلب على التردد الاصيل الذي اظهره نقيب بغداد ، السيد عبد الرحمن الكيلاني ، واخيرا اصدر السيد النقيب ، في اليوم الخامس والعشرين من شهر تشرين الاول ، دعوات الى البارزين من رفاقه في القطر والذين اختارهم هو نفسه مع برسي كوكس للمناصب الوزارية

ولم يلبث مجلس الوزراء ، الذي رفض السيد عبد الرحمن النقيب مرتين ان يشارك فيه ، ان اجتمع في اليوم الثاني من شهر تشرين الثاني وقد ضم المجلس كلا من السيد طالب النقيب ، الذي اعتبر بالنظر الى مطامعه الشخصية الظاهرة جداً بانه جدير برآسة المجلس ، وكذلك السيد جعفر العسكري الضابط البغدادي ذا التربية التركية ، والشخصية الممتازة بشكل غير اعتيادي ، والذي ترك الجيش التركي ، وانضم الى الجيوش العربية اثناء الحرب ، ونال مرتبة رفيعة تحت امرة الامير فيصل ، وساسون حسقيل ، الممول اليهودي ، والنائب السابق في البرلمان العثماني ، والذي احتل مناصب رفيعة في اسطنبول اما الوزراء الآخرون فكان من بينهم صاحب الاملاك الشهير في البصرة ، السيد عبد اللطيف المنديل ، الذي تولّى وزارة التجارة ، والقائد التركي المتقاعد من كركوك ، عزت باشا الذي تولى وزارة الاشغال[1] ، ورئيس بلدية الموصل السابق ، محمد علي فاضل ، والقاضي السابق في بغداد وفي مكة السيد مصطفى الآلوسي الذي تولّى وزارة العدل كذلك تم اقناع السيد عبد الرحمن النقيب بتعيين السيد مهدي الطباطبائي وزيرا للمعارف والصحة[2] والى هؤلاء اضيف عدد من الوزراء بلا وزارة[3] مهم

---

(١) عزت باشا الكركوكلي تولى منصب رئيس اركان الجيش في عهد الوالي عبد الرحمن باشا)وقد حاول القضاء على امارة السعدون في المنتفق وتولى منصب القائم باعمال والي البصرة بعد ان عزل واليها علاء الدين الدروبي في سنة ١٩١٢

(٢) كان هؤلاء الوزراء بلا وزارة هم كل من عبد الرحمن الحيدري ، وعبد الجبار الخياط ، وفخري جميل ، وعبد الغني كبة ، والشيخ عجيل السمرمد وعبد المجيد الشاوي ، والشيخ محمد الصيهود ، وامير ربيعة ، وداود اليوسفاني ، والشيخ سالم الخيون ، واحمد باشا الصانع ونجم البدراوي ، والشيخ ضاري السعدون(٣)

(٣) ان كل هؤلاء كانوا من الموالين للانكليز ولم يشاركوا في الثورة العراقية بل آزروا الانكليز ضدها وقد نسي المؤلف اسم حمدي باباان فلم يدرجه بين الوزراء بلا وزارة ، وذلك بعد ان اعتذر عن الاشتراك هو والسيد هادي القزويني ، فحل محلها كل من ضاري السعدون ونجم البدراوي كذلك اعتذر السيد حسن الباجةجى عن قبول وزارة العدل فاعطيت الى السيد مصطفى الالوسي وظلت وزارة النافعة شاغرة الى ان ابدل اسمها باسم وزارة الاشغال التي عين لها عزت الكركوكلي وكان =

ستة من الذوات البارزين ، وثلاثة من المدن منهم مسيحيان[٤] وثلاثة من رؤساء العشائر في الفرات الاوسط ، في حين رفض احد افراد عائلة بابان الكردية ان يشارك في الوزارة .

تولت الاجتماعات الاولى التي عقدها مجلس الوزراء ، دراسة وضعه ، واجراءاته ، والموافقة عليها ، كذلك تم الاعتراف بالسلطة العليا للمندوب السامي ، وكان من المطلوب موافقته على تأييد كل قوانين الدولة ، والتعيينات الادارية الرفيعة كلها . وكان الدور الذي يلعبه المستشارون البريطانيون في الوزارات ثقيلا وشاملا . ومع كل ذلك فقد استطاع برسي كوكس في الحادي عشر من شهر تشرين الثاني ١٩٢٠ ان يعلن بانه الى ان تتم دعوة الجمعية الانتخابية العامة التي اجازها البيان الصادر في اليوم السابع عشر من شهر حزيران ، فقد انشئت حكومة قومية مؤقتة ، وان مجلس الوزراء يتألف من رئيس للوزراء ، ووزراء لكل من الداخلية ، والمالية والعدل والتربية والصحة والدفاع والاشغال العامة ، والتجارة ، والاوقاف مع وزراء اخرين بلا وزارة ، والى ان يتم تشريع القانون الاساسي ويشرع بتطبيقه ، سوف يكون مجلس الوزراء هو المسؤول عن ممارسة ادارة الحكومة والتي سوف تخضع لاشرافي وسيطرتي ، ماعدا الشؤون الخارجية ، والعمليات الحربية ، والقضايا العسكرية بصفة عامة ، عدا مايتعلق منها بالقوات المجندة محليا» .

وفي ذات الوقت تم تعيين المستشارين البريطانيين للوزارات . فعين «فلبي» مستشارا للداخلية ، وسالتر للمالية على ان يعمل في وزارة التجارة ، واتكنسون للمواصلات والاشغال ، «وايدي» للدفاع والسر بونهام -- كارتر للعدل ، ونورتن . للصحة والتربية ، وكوك للاوقاف .

استطاع مجلس الوزراء بكل اعتبار وتصميم ان يتحمل تنفيذ مهماته . وبضغط من جعفر العسكري اعدت الترتيبات الخاصة باستعادة الضباط العراقيين العاملين في حكومة فيصل في سوريا ، والذين كانوا من اشد القوميين حماسة ، ومن المتشككين بالحكم الذي اوحى البريطانييون به في العراق ، اولئك الضباط الذين كانوا يؤلفون عنصرا مهما في السياسة العراقية[٥] كذلك سمح لعدد من الساسة الذين ابعدوا في السنة ١٩٢٠ عن العراق الى جزيرة

= السيد محمد مهدي الطباطبائي من ذوي الخدمات السابقة في وظائف الحكومة في بداية الاحتلال ، حيث ورد اسمه في ملاحق مذكرات ولسون. فقد عينه الانكليز معاون حاكم سياسي في شباط ١٩١٨ (علي الوردي : لمحات من تاريخ العراق الحديث الجزء السادس ص ٣٠) .

(٤) هما عبد الجبار الخياط وداود اليوسفاني وكان الاخير قد اشتغل في معية الضباط السياسيين الانكليز في مناطق الشمال كما كان عضوا في البرلمان العثماني .

(٥) نشرت جريدة الوقائع العراقية في عددها الثالث الصادر في يوم الخميس الرابع عشر من شهر كانون الثاني سنة ١٩٢١ اسماء الرعيل الاول من الضباط العراقيين الذين عملوا سابقا في الجيش العثماني وتم قبولهم في الجيش العراقي الذي اسس في السادس من كانون الثاني تلك السنة ،وكان ثمانية منهم برتبة عقيد من بينهم صبيح نشأت ، تسعة وعشرون برتبة مقدم من بينهم الحاج رمضان علي ، وسبعة واربعون برتبة رائد منهم محمود رامز وامين زكي سليمان ، وبكر صدقي ، وتوفيق وهبي وحسين فوزي ، =

هنجام في الخليج العربي بتهمة التحريض على الثورة ، بالعودة البلاد[٦] في حين اطلق سراح البقية منهم وفقا للعفو العام الذي اعلن في شهر حزيران ١٩٢١

بدأ العمل بتأليف لجنة لتعديل قانون الانتخابات العامة المهم وتلك مهمة بدئت باجتماع سري عقده النواب السابقون في العهد العثماني برئاسة السيد طالب النقيب وذلك شهر آب ولقد برهنت تلك اللجنة على مدى جموحها ذلك لان المندوب السامي كان يؤيد تسمية تمثيل منفصل للعشائر، بينما كان الوزراء يمقتون ذلك. ومع ان ابناء العشائر يؤلفون اكثرية السكان ، الا انهم لايستطيعون مع ذلك بدون هذا الشرط ، ان يحصلوا اطلاقا على ناطقين برلمانيين باسمهم

كانت مسودة القانون المعدلة غير مرضية في اول الامر ، لانها ، من بين العيوب الاخرى فيها ، كانت تتجاهل الحقوق الخاصة للاكراد وفقا لمعاهدة «سيفر». ولذلك تم تأجيل وضع مسودة التعديل هذه ، بناءا على رغبة وزير الداخلية طالب النقيب ، الذي دفعته مطامعه الخاصة حتى الى تأجيل اجراء الانتخابات بصفة مطلقة، الى ان تنضج مخططاته[٧]

اشتملت خطة تعديل الحكومة الموقتة حسب الخطة التي نشرت في شهر كانون الاول سنة ١٩٢٠ على اجراء اعادة عامة لتقسيم الوحدات الادارية التي كانت سارية في العهد التركي والفقدان الموقت للتحسينات التي ادخلت من سنة ١٩١٨ الى سنة ١٩٢٠ كذلك تضمنت هذه الخطة ايضا اجراء فصل تام للوظائف التشريعية عن الوظائف التنفيذية ، وهي بدعة ، او اعادة للطرق التركية كانت محبذة في هذه الحالة ، واستلزمت حاجة مباشرة، وعلى كل المستويات، تعيين المزيد من القضاة والحكام ، لان الوسائل التي طبقتها وزارة العدل التي مضت منذ البداية

ونظيف الشاوي ولقد كان عدد العراقيين الموجودين في سوريا من الضباط العراقيين مائتين واربعين فردا وقد ابرق كوكس في ٢٧ تشرين الثاني الى الحكومة البريطانية يطلب الاذن منها بتسهيل عودة هؤلاء الضباط وعادت مجموعة اخرى في منتصف شباط ١٩٢١ كان في مقدمتهم نوري السعيد الذي عين وكيلا لجعفر العسكري وزير الدفاع. وتقول المس بل في احدى رسائلها عن لقائها بنوري السعيد «في اللحظة التي رأيته فيها ادركت اننا نواجه طاقة قوية ومرنة وانه ينبغي اما ان نتعاون معه او نخوض غمار صراع شاق حقا للتغلب عليه (اليزابث برغوين حياة المس من رسائلها الجزء الثاني ص ٢٠٩ – ٢١٠ طبعة لندن ١٩٦١ بالانكليزية)

(٦) اصدرت جريدة الاستقلال التي كان يصدرها المرحوم عبد الغفور البدري عددا خاصا عن عودة بعض المنفيين العراقيين الى هنجام والهند صدر في اليوم التاسع من شباط ١٩٢١ ولكن طالب النقيب وزير الداخلية الذي كان يحقد على جريدة الاستقلال لانها كانت تبث الدعاية لفيصل قبل مجيئه الى العراق ، والى رفض صاحبها عبد الغفور البدري مبلغ اثنى عشر الف روبية لقاء الكف عن تلك الدعاية لفيصل ، ان طالب مالبث ان اصدر في ذلك اليوم قرارا بتعطيل الاستقلال ، وتوقيف صاحبها مع احد عشر رجلا من اعوانه حيث سيق عبد الغفور وقاسم العلوي المحرر الاول في الاستقلال ، والشيخ مهدي البصير الى المحكمة فحكم على البدري بالسجن مع الاشغال الشاقة لمدة سنة، وعلى مهدي البصير لمدة تسعة اشهر، وقاسم العلوي لمدة ستة اشهر (انظر الوردي ج ٦ ص ٣٧ وطالب مشتاق اوراق ايامي ج ١ ص ٦٩)

(٧) لايوجد شك في شدة تجاوب السيد طالب النقيب ، في هذه الفترة ، مع الدسائس الانكليزية ولذلك كان يؤيدهم في موقفهم التحريضي من الاكراد كما اراد تأجيل الانتخابات لكي يحشد كل مالديه من جهود وانصاره لضمان ترشيح نفسه ملكا على العراق

قدما في استخدام المسؤولين العراقيين، لم تكن ناجحة في توفير العدد المطلوب من اولئك المسؤولين

كان محافظو المحافظات ، وقائمقامو الاقضية ، ماعدا محافظة السليمانية وشيء من الحذر في اواسط الفرات ، يخضعون كلهم للضباط السياسيين البريطانيين ومساعديهم ، ذلك لان المحافظين الفعالين في كل المحافظات كانوا يمثلون كل الاصناف ، وكل الاعمار ، وكل درجات الموهبة والامانة بين الموظفين الذين عملوا قبلا لدى الاتراك وكان نظام المحافظات الجديد ، والذي اشتمل على عشر محافظات ، وخمسة وثلاثين قضاء ، وخمس وثمانين ناحية يعتبر اشارة اكثر وضوحا للجمهور بان الحكومة العراقية غدت الان حقيقة قائمة

لقد عين في كل محافظة واحد او اكثر من الضباط البريطانيين بصفة مستشارين (عرفوا مؤخرا باسم مفتشين اداريين) ، وذلك اجراء كان يوحي بالعمل بصفة مرضية على العموم ، ويحظى بثقة كلا العنصرين ، البريطاني والعراقي لقد حدثت في بعض الاماكن اخطاء مؤسفة بالنسبة الى المستويات التي وجدت في العهد التركي ، وكانت هنالك دلائل تشير الى ان الادارة كانت تقوم على اسس التقسيم السياسي ففي الموصل قتل المحافظ الذي ارسل الى هناك عنوة[8] وفي بعض الحالات كان موظف التنفيذ العراقي ، وهو اكثر تجربة من مستشاره البريطاني ، ولا يقل عنه مقدرة ، هو الذي يسيء العلاقة ، ولكن ماكنة الدولة كانت بصفة عامة تعمل بتقبل تام ، وبالقليل من الاحتكاك

حدث في اوائل سنة ١٩٢١ تقدم في اتجاه تأسيس الجيش العراقي وكان القصد من انشائه في اول الامر ، ان يستخدم للوظائف الدفاعية التي لابد وان تقع على عاتقه وتتطور بعد جلاء القوات البريطانية،التي كانت تقوم بذلك الجلاء مسبقا تحت وطأة الالحاح الشديد من الصحافة والساسة في بريطانيا اولا وثانيا لكي يكون الجيش مجالا لاستخدام الطائفة العسكرية التي يمكن ان تغدو ذات خطر

كان ادماج قوات المرتزقة (الليفي) التي تضم الان قوة مؤلفة من اكثر من الفين من الافراد الاقوياء المتدربين والمعدين اعدادا فاخرا في الجيش العراقي ، ينطوي على احداث تغييرات اساسية في تركيب الجيش ، واستبدال كل ضباطه تقريبا ، بالضباط الجدد القادمين من قوات

---

(٨) هو السيد حامد السامرائي وقد قيل في حينه ان مصرعه قد تم تدبيره من قبل الانكليز انفسهم ، لانه ما ان تسلم منصبه حتى بدأ يضايق الضباط السياسين البريطانيين هناك فدبروا امر مقتله والتخلص من مضايقته لهم. ولقد ذكر المرحوم عبد العزيز القصاب في ص ٢١ من مذكراته ا السيد حامد قد اغتيل في يوم وصوله بالذات الى الموصل من قبل شخص مجهول بينما كان جالسا في بيت آل المفتي في محلة باب سنجار وان الحكومة لم تهتم للامر ولم تكشف الاسباب لارتكاب هذه الجريمة ويذكر القصاب انه عندما اختير محافظاً للموصل قابل وزير الداخلية توفيق الخالدي ورئيس الحكومة العراقبة الموقت عبدالرحمن النقيب واخبرهما بان لا يتمكن من الذهاب الى الموصل قبل ان يعرف اسباب هذا الاغتيال وهل حدث لعدم رغبة اهل الموصل فيه ام لان الانكليز لا بريدون تعيين عربي للموصل.

المرتزقة غير ان هذه الخطة قد رفضت واستعيض عنها بخطة تقضي بان توضع قوات المرتزقة موقتا تحت اشراف وزارة الداخلية وان تحافظ على كيانها المنفصل

انفقت وزارة الدفاع النصف الاول من سنة ١٩٢١ في اعداد الوظائف والموظفين ، وشروط الخدمة ، وكل الامور التمهيدية اللازمة لانشاء الجيش كان نوري السعيد صهر جعفر العسكري ، من الضباط اللامعين والوطنيين العراقيين قبل سنة ١٩١٤ قد عاد من سوريا لكي يتولى منصب رئيس اركان الجيش كذلك تم افتتاح الكلية العسكرية في شهر تموز١٩٢١

في الاسابيع الاولى من هذه السنة تحسنت الاوضاع في العراق تحسناً واسعا فقد توفر الوقت والفرص الان للمضي قدما في تطوير الدستور والادارة وفي اختيار حاكم للبلاد كانت الثورة قد انتهت ، ولو ان الاضطراب العشائري مايزال متفاقما في المنتفق ، وعلى درجات متباينة في كل مكان وعلى الرغم من النواقص الواضحة فأن هناك حكومة مؤلفة من العراقيين كان تمارس اعمالها ولقد اظهر الوزراء حسن نية ، وصبرا ظاهرين ولم تكن اليد المفردة التي كان يحركها السيد طالب النقيب بكل جلاء ، تنذر بالخطر لحظتئذ

لقد تم التوصل الى اتفاق بشأن الحدود مع الفرنسيين في سوريا سنة ١٩٢٠،ورافق ذلك تحديد خط حدود تم تجاهله منذ ظهوره ، وهو يفصل جبل سنجار والبوكمال ولكن علامات الحدود غدت الآن خالية من اعمال العنف على اقل تقدير،ولم تستطع الدعاية الملحة واعمال الفوضى المتسللة من الحدود التركية ، اثارة الاكراد العراقيين او ابناء الفرات بصفة خطيرة ذلك لانه تم التوقيع على معاهدة الصلح بين الحلفاء وتركيا واصبحت الاوضاع الجديدة هي التي تهيمن على بلد سبق له ان استنكر من قبل معاهدة سيفر ولم يعترف بها

وفي لندن ، كانت شؤون العراق من سنة ١٩٢١ ومابعدها تدار من قبل «دائرة الشرق الاوسط التي انشئت حديثا ضمن وزارة المستعمرات وكان اول عمل اقدم عليه تشرشل بعد ان نقل من وزارة الحربية الى وزارة المستعمرات،هو ان يعقد مؤتمراً في القاهرة لكي يقرر دفعة واحدة وبصفة عامة الكثير من القضايا المهمة للشرق الاوسط ولقد اجتمع هذا المؤتمر فعلا في اليوم الثاني عشر من شهر اذار سنة ١٩٢١ ، وحضره كبار موظفي الخدمة وخبراء الخارجية الخ. ومستشارو تشرشل للشؤون الشرقية بما فيهم لورنس ، كما حضره من العراق كل من الذي صحبه القائد العام للقوات البريطانية الفريق هالدن وجعفر وساسون حزقيل والمس بل واثنان من مستشاري الوزارات[9]

المؤتمر فيما خص العراق يشتمل على اختيار حاكم للبلاد ، ومعاملة اكراد العر والتخفيض المبكر للنفقات البريطانية في العراق وانشاء القوات العراقية التي صممت

---

(٩) ... المرشحين هم سليتر، وايدي واتكنسن قد شاركوا في مؤتمر القاهرة ولم يذكر المصدر ... الحديث ج ٦ ص ٤٨).

لكي تضمن الدفاع عن العراق بعد جلاء الحاميات البريطانية عنه لم يكن هناك بالنسبة الى منصب امير وملك العراق اي مرشح محلي قد يحظى بتأييد مقارب للكمال ذلك ان اسرة النقيب الذي تقدم به العمر[١٠] ،لاتستطيع ان ترشح خلفاله يكون مقبولا اما السيد طالب النقيب فانه بسجله السابق ، وبشخصيته المفضوحة بشكل سافر، قد اصبح يخشى منه الان ، اكثر من ان يقبل ترشيحه

اقترحت بعض الاوساط في بغداد وكركوك ترشيح احد الامراء الاتراك ، هو «برهان الدين» على اكثر احتمال[١١] لكنه كان من النادر للحكومة البريطانية ان ترحب بترشيح هذا الامير. كذلك لم يكن «اغا خان» الذي اقترح ترشيحه ، مرشحا جدياً ، في حين كان ترشيح والي بشت كوة ادنى من ذلك كذلك لم يكن هنالك اي تفكير في شيخ المحمرة الذي رشح نفسه ، كما لم يخطر على بال احد ترشيح امير نجد عبد العزيز بن سعود غير ان الامير فيصل كان موجودا الآن، وقد اقترح ارنولد ولسون في تموز سنة ١٩٢٠ ترشيحه ، حين سقطت دمشق بايدي الفرنسيين

في شهر كانون الاول من تلك السنة خول اللورد كرزن ، العقيد كورنواليس الضابط السابق في السودان ، ومن المشتغلين بالقضايا العربية، والذي خدم مع فيصل في سوريا، وظفر بصداقة وثيقة معه ، بان يعرض على فيصل عرش العراق ، ولكن فيصل رفض ذلك العرض ، بالنظر الى المطالبة العليا التي ابداها اخوه الاكبر الامير عبدالله[١٢] اما بالنسبة الى الذين كانوا في مؤتمر القاهرة يبحثون عن ملك للعراق ، فقد بقي فيصل هو الخيار المعتمد ، حيث قطع المنهاج الذي اعد لترشيحه واختياره ، شوطا بعيدا في هذا المضمار

كان الدور الملقى على عاتق بريطانيا هو ان تشجع الامير فيصل على زيارة العراق ، وان يعرض نفسه ملكا عليه ، وان لايثار فيما بعد اي اعتراض على اختياره ولكن في الوقت الذي لم تمارس فيه القوة لفرض مثل هذا الامر ، اصبح واضحا ، ان مثل هذه التجربة ينذر ان تبوء بالفشل

اما بالنسبة الى الاكراد فلم يتم التوصل الى اتخاذ اي قرار لقد غدا الان واضحا تمام

---

(١٠) كان السيد عبد الرحمن النقيب حين تولى رئاسة الحكومة الموقتة في الثامنة والسبعين من عمره ، ومصابا بداء المفاصل ومن الزاهدين في المناصب. وقد ذكرت المس بل في احدى رسائلها انها زارته في بيته في ٦ شباط ١٩١٩ وعرضت عليه تاج العراق فرفض ذلك رفضاً باتا وقال «ان صيرورتي رئيسا سياسيا للدولة هي ضد اشد مبادئ عقيدتي» (الوردي ذات المصدر ص ٢١).

(١١) الامير برهان الدين هو ابن السلطان عبد الحميد الثاني وقد حظي ترشيحه لعرش العراق بتأييد التركمان في كركوك وعدد كبير من اهالي البصرة الذين جمعوا له بعض الاموال لكي ينفقها في الدعاية لترشيحه. وكان برهان الدين هذا من مواليد ربيع الاول سنة ١٣٠٦ هـ - ١٨٨٨م. اما اغا خان زعيم الاسماعيلية ، فقد فكر بعض الانكليز في ترشيحه ، كما رشحوا ابن السعود ايضا اما والي بشت كوه غلام رضا خان فانه هو الذي رشح نفسه ، وحاول خزعل شيخ المحمرة ذلك وبذل الاموال.

(١٢) راجع تفاصيل تشبث عبد الله بعرش العراق في الجزء السادس من كتاب الدكتور علي الوردي: لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث.

الوضوح ان «الدولة الكردية» التي تصورتها معاهدة سيفر، لم يعد لها من وجود ابدا، لان معاهدة سيفر ذاتها اصبحت عاطلة، بعد ان ظهر مصطفى كمال وقام بحركة البعث القومي غير المتصورة في تركيا ولما كان الاكراد في محافظات الموصل وكركوك والسليمانية غير اهل للتمتع بالحكم الذاتي بشكل واضح جدا، فلابد وان يثير وجود هم المتاعب ضمن دولة عربية، كما ان رغبة المندوب السامي في تلك الحالة في ان يحكم الاكراد انفسهم بصفة مباشرة، لم تحظ باي تقبل من لدن الوزراء العراقيين الذين كانوا يرون ان الاكراد يجب ان يؤلفوا جزءا غير منفصل من العراق.

لم يعد هنالك من خيار غير ذلك الخيار الذي تم قبوله علانية في كل من مؤتمر القاهرة وفي العراق، وهو الاعتراف بوجود تمييز بين العرب والاكراد بالنسبة الى الاجراءات الادارية، ومعاملة الاكراد باللطف والعطف، والامل في الحصول على رغبتهم المطلقة في الانضمام الى الدولة العراقية، وان لايستطيع الاكراد من الناحية الاقتصادية الا ان يكونو متحدين معها. قبلت كركوك فعلا تعيين محافظ لها في شهر شباط سنة ١٩٢١ واصبحت اربيل تابعة الى كركوك، ويديرها نائب محافظ وظلت الموصل منذ حادثة القتل التي وقعت في كانون الاول سنة ١٩٢٠، تحت اشراف ضابط سياسي بريطاني[١٣] وان كان اتحاد الموصل مع العراق قد اصبح مقبولا اما محافظة السليمانية فقد رفضت في ذلك تقبل اي حاكم لها سوى المندوب البريطاني السامي نفسه

تم التوصل في مؤتمر القاهرة الى اتخاذ قرارات مهمة بشأن قضايا الدفاع لقد تقرر ان يتم تقليص القوات البريطانية مرة اخرى، وكانت القوة الجوية البريطانية في سنة ١٩٢٢ هي التي ستتسلم السيطرة من الجيش البريطاني. كما تقرر ان تنتقل امرة قوات المرتزقة التي ازداد عددها بافة مجندين اليها ليس من العرب وحدهم حسب بل ومن الاكراد والاثوريين، من وزير الداخلية الى المندوب السامي البريطاني ومن ثم الى القيادة العسكرية البريطانية التي كانت هي التي تدعم نفقات تلك القوات.

انفض مؤتمر القاهرة في اليوم الخامس والعشرين من شهر اذار، وعاد السر برسي كوكس الى بغداد في اواسط شهر نيسان، ليجد ان اختيار حاكم للعراق، قد اصبح الان يهيمن على التفكير السياسي برمته لقد اضمحلت الترشيحات المحلية لحكم العراق، وانمحت من الصورة الان ذلك لان السيد عبد الرحمن النقيب، الذي كان تتبعه الخاص ملموسا لكنه كان مغايرا في مصدره، لم يعد له اي مطمح شخصي، واصبح يميل بالتدريج الى اتخاذ موقف المعارضة لمن يريد ان يؤكد ترشيح حاكم من الاسرة الشريفية، وذلك بعد ان ظهر بان البريطانيين كانوا يرغبون في ترشيح مثل هذا الحاكم الشريفي وما عدا فيصل، فان المرشحين الاجانب لم

---

(١٣) يقصد بالحادثة مقتل محافظ الموصل التي سبقت الاشارة اليها، اما الضابط السياسي الانكليزي فهو العقيد «نولدر».

يظهروا اية رغبة في الترشيح

كان تصرف السيد طالب النقيب في وزارة الداخلية بملاحظاته الكثيرة الخالية من الاحتراس وانفاقه المفرط للاموال العامة ، يشيران الى وجود تصميم لديه للحصول على عرش العراق سواء بصفة مباشرة في الوقت الحاضر او بمثابة خلف للنقيب عبد الرحمن الكيلاني ، ولذلك فلم يعد مستطاعا تجاهل موقفه الناشيء هذا بشكل متعاظم لقد كان طالب النقيب شخصية يمكن ان تكون ذات قيمة للعراق ، وفعلا كان على مثل هذه الشاكلة اثناء الايام التعسة التي مرت خلال سنة ١٩٢٠ [١٤] لكن ظهر عليه الآن تماما بانه كان يسعى لتحقيق غايات ذاتية تنطوي على الخطورة.

وبعد ان هدد السيد طالب النقيب ، في حفلة عشاء ، بانه سوف يعبئ القوات العشائرية التي تعد بالالوف ، ويستخدمها «لمنع النفوذ البريطاني من ان يستخدم لصالح احد من المرشحين ، وجد السر برسي كوكس ان من الحكمة ابعاده عن المسرح ، وعلى اثر ذلك اعتقلته السلطات العسكرية البريطانية وابعدته الى جزيرة «سيلان» [١٥] وبذلك اصبح موقف المندوب السامي والضباط البريطانيين في الحكومة لصالح قضية الامير الشريفي علانية امافلبي، صديق طالب النقيب فقد بقي يدافع عن النظام الجمهوري بشدة [١٦] واعقب ذلك في الثلاثين من شهر ايار ١٩٢١ اذاعة العفو العام المنتظر عن السجناء السياسيين.

غادر الامير فيصل الذي تزامنت ترتيباته مع الخطة البريطانية ، ميناء جدة مع كورنواليس وطائفة صغيرة من المؤيدين في اليوم الثاني عشر من حزيران تم تبادل البرقيات الودية بين فيصل والسيد عبد الرحمن النقيب ، وحتى مع خصمه المتوقع عبد العزيز ابن سعود وفي بيان اصدره كوكس في السابع عشر من شهر حزيران انبأ جمهور العراق ، بان الحكومة البريطانية ، وفي سبيل مصالح العراق ، لن تضع اية عقبة امام اختيار حاكم من الاسرة الشريفية ، وتالفت من السيد عبد الرحمن النقيب وامين العاصمة بغداد [١٧] لجنة استقبال قوية من العاصمة ، وتوجهت الى البصرة وفي هذه المدينة التي سبق لها مؤخرا ان تقدمت باسترحام الى كوكس

---

(١٤) وقف السيد طالب النقيب بكل جلاء ضد الثورة العراقية في سنة ١٩٢٠ املا منه بان يثيبه البريطانيون على ذلك بعرش العراق الذي كان يسعى اليه

(١٥) فصل الدكتور علي الوردي في الجزء السادس من كتابته كيفية القاء القبض على طالب النقيب واعتقاله ونفيه الى سيلان ومصيره بعد ذلك النفي.

(١٦) لم يشر «فلبي» في مذكراته الى انه كان يحبذ النظام الجمهوري، وانما ذكر الجمهورية عندما تحدث عن مطامع طالب النقيب فقال «كنت في الواقع احمل آراء واسعة عن مستقبل (طالب النقيب)، ومهما برهنت عليه طاقته فانه سوف يكون اكثر ملاءمة لان يصبح رئيسا للوزارة مثلا او رئيسا للجمهورية. ومنذ هذه اللحظة سرت قدما في تدريبه على تولي احد هذين المنصبين (مذكرات فلبي المعنونة ايام عربية ص ١٨٩ طبعة لندن ١٩٤٨ و «اربعون سنة في التيه» وسوف نترجمها قريباً).

(١٧) هو عبد المجيد الشاوي وكان لقبه رئيس بلدية بغداد.

لاقامة نظام حكم منفصل نصف مستقل فيها جرى استقبال الامير فيصل في اليوم الثالث والعشرين من شهر حزيران بصفة ودية ملموسة.وفي مدن الفرات ولاسيما كربلاء والنجف كان استقبال الامير فاترا لكنه كان في بغداد حماسيا تماما وسرعان ما ظهر جليا ، بان شخصية الامير فيصل ، وموقفه كانا من اعظم ماكان يتميز به ، وقد اكسبه التأييد حتى من لدن الانصار السابقين للسيد عبد الرحمن الكيلاني والسيد طالب النقيب لقد كان فيصل يظفر بمكانة وطيدة حيثما حل ، واصبحت القضية تتركز حول اندر الاحتمالات بشأن شكل انتخابه وتتويجه

كان من غير المعقول ، بل من غير الملائم في الواقع ، ان يكون هناك انتظار الى ان يتم التوقيع على معاهدة صلح ثانية ماتزال بعيدة المدى ، مع تركيا ، او تمديد تبادل الآراء مع الحكومتين اللتين لهما مصلحة في الموضوع ، ونعني بهما الحكومة الفرنسية وحكومة الهند كذلك اصبح مستطاعا تجاوز الشكاوي التي اوردها المتحدثون باسم حكومة الولايات المتحدة الامريكية في جنيف ، والقائلة بان حكومتهم لم تتم استشارتها استشارة صحيحة في موضوع شروط الانتداب على العراق

كانت نية برسي كوكس منعقدة على الدعوة لانشاء جمعية دستورية لغرض انتخاب الملك غير ان مثل هذا الامر لابد وان يؤدي الى تأخير يمتد عدة اشهر ، لايمكن خلاله تجاهل احتمال وقوع انقلاب متطرف يصبح بداية غير صالحة للحكم الدستوري ولذلك تقرر تقليص مثل هذا الاجراء ففي اليوم الحادي عشر من شهر تموز ، وبعد ان تخلى «فلبي» عن وظيفته التي كانت سياسية تخالف تلك الوظيفة[١٨] صادق مجلس الوزراء على قرار باعلان الامير فيصل ملكا على العراق ، على شرط ان تكون حكومة سموه حكومة دستورية ، نيابية وحرة ، مقيدة بالقانون» وما ان تم القبول بهذا القرار ، حتى اعلن كوكس ، بانه ، ولغرض الظفر بالشرعية الحقة ، لابد ان يعزز ذلك القبول بالرضا الذي يبرزه الاستفتاء العام

---

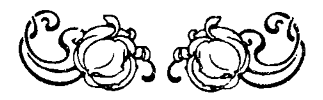
(١٨) كان فلبي قد عين اول الامر مستشارا لوزارة الداخلية التي شغلها السيد طالب النقيب.فلما تم ابعاد طالب، اصبح «فلبي» وزيرا للداخلية وكالة، ولكن فلبي صرح في مذكراته «بان تشرتشل قد صرح في البرلمان البريطاني ان فيصلا كان في طريقه الى العراق ليرشح نفسه للعرش، لكن الغريب ان السياسة التي اعلن عنها في حرية انتخاب رئيس للدولة ماتزال معترفا بهذا، وان الوضع والحالة هذه، ليس في صالح فيصل واقليته الضئيلة من المؤيدين له في البلاد».وعن قضية استقبال فيصل لدى وصوله البصرة يقول فلبي «ولقد بحثت المسألة مع برسي كوكس الذي كان يرتاب في موقفي الشخصي، ولكي اريحه مما كان يفكر فيه تطوعت في الشخوص الى البصرة لاستقبال فيصل...

وفي كل محطة نتوجه في طريقنا اليها كان حكام المناطق والمستشارون وجمهور كبير من الاهلين يسألونني «ماذا يجب ان نفعله في سبيل استقبال فيصل؟ فكنت ارد عليهم ليست هناك اوامر رسمية عليكم ان تقرروا ماترتأونه بانفسكم،علما بان فيصل قادم الان مرشحا للعرش،وليس ملكا».وهذه التصريحات من جانب فلبي تتناقض تناقضا مع روح الوظيفة التي يشغلها وهي وكالة وزارة الداخلية في الحكومة الموقتة التي اريد من وراء تأليفها التمهيد لترشيح فيصل لعرش العراق (انظر مذكرات فلبي المعنونة «ايام عربية»

تم اجراء الاستفتاء في اواخر شهر تموز وكانت صيغة المصادقة التي اعدتها الحكومة قد جرى تعديلها في بعض المحافظات او اضيفت اليها ملاحق فقد اضيفت الى الصيغة الاصلية الكلمات التي تطالب بالتحرر الكامل من السيطرة الاجنبية ، كما تمت في عبارات اخرى ، المطالبة بانشاء جمعية دستورية خلال ثلاثة اشهر

كانت البيانات الخاصة بالموصل ، وهي مؤيدة بصفة عامة ، تتحدث عن ضمان حقوق الاكراد والاقليات الاخرى ، في حين راحت مناطق الفرات تطالب باستمرار بفرض السيطرة البريطانية، بينما رفضت كركوك ترشيح الاميرفيصل ، وقبلت اربيل بذلك الترشيح، غير ان الاغلبية الساحقة، والتي لم تكن تقل عن ست وتسعين في المائة بصفة عامة، قيل عنها رسميا بانها قد قبلت بالملك الجديد كما ان البارزين من رؤساء العشائر ، ومن بينهم «ابن هذال» رئيس عشائر العمارات و«علي سليمان» رئيس الدليم ، كانوا قد اقسمو يمين الولاء للملك حتى قبل ان تتم عملية التتويج

كان آخر امر اخرق اصدرته الحكومة البريطانية في اخر دقيقة، ينص على انه ينبغي للامير فيصل في الخطاب الذي سيعلن فيه تقبله العرش ، ان يؤكد السلطة المطلقة للمندوب السامي ولقد حذف هذا التاكيد لحسن الحظ (١٩) لم تبق اية عقبات اخرى امام اعلان التتويج رسميا ولقد تم ذلك حسب الاحتفال اللائق في صبيحة اليوم الثالث والعشرين من شهر اب ١٩٢١ وفي حدة حرارة الصيف ، في ساحة «السراي» ببغداد، وعلى هذه الشاكلة ورث فيصل الاول حكم العراق من السر برسي كوكس الذي كان يشغل رئاسة الدولة بصفة رسمية



(١٩) كانت وزارة المستعمرات البريطانية قد ابرقت الى مندوبها في بغداد بان يعتبر الامير فيصل حاكما على العراق. وليس ملكا ولكن [illegible] ب السامي كوكس عارض هذا الطلب،واصر على ان يكون فيصل ملكا دستوريا على العراق.

الفصل الخامس

مملكة العراق

١ ـ بداية الحكم
٢ ـ المعاهدة الأولى
٣ ـ التهديد الموجه الى الموصل
٤ ـ المجلس التأسيسي
٥ ـ تسوية قضية الموصل
٦ ـ جارات العراق الأخر
٧ ـ الحياة والحكومة في الفترة مابين ١٩٢١ ـ ١٩٢٦
٨ ـ الأنماء والتطور

١ ـ بداية الحكم

قدر للملك الجديد ان يحكم العراق لمدة اثنتي عشرة سنة. وحين كان في السادسة والثلاثين من عمره عندما تولى العرش، كان يمتلك صفات نادرة من الفطنة والعطف، ولقد ساعدته على ذلك حنكته السياسية التي تعكس الذكاء الممتاز، تلك الحنكة التي استخدمها بصفة مكرسة دوما، وكانت معرضة للأخطار في بعض الأحيان، في سبيل خدمة وطنه المختار، كما ان تلك الحنكة قد عايشت الأخطار المحزنة التي احاقت ببناء كيان الدولة ضمن سنوات قلائل،اشد ضغطا وأعظم آمالا مما كان معظم المراقبين يتوقعونه.

والواقع ان القرار البريطاني بتشجيع ترشيح هذا الامير الذي طرد من عرشه،والذي لم يكن من اهل العراق، لكي يتولى عرش العراق ذاته، كان ينطوي على بذور كثير من البركات لهذا القطر.

قدمت عائلة الملك من مكة للانضمام اليه في بغداد. وكان اخوه من ابيه الأمير زيد، والبالغ من العمر آنذاك احدى وعشرين سنة، اول من قدم معه، حيث امضى بعد سنة من ذلك الوقت،ثلاث سنوات في اكسفورد، وسرعان ماتم توفير المستلزمات المادية للعرش، وكانت تلك المستلزمات تافهة الى حد كبير، وأصبحت الشخصية الملكية هي المحور الذي لانقاش حوله، لحياة العراقيين السياسية والاجتماعية معا، فأصبح اسمه يذكر في خطب ايام الجمع، وذلك بعد مرور اول جمعة على تقلده الملك.

وبما امتاز به من مقدرة على الاتصال بالناس، أصبح فيصل معروفاً لدى الألوف من مواطنيه. والواقع انه لم يقم بمساهمات اعظم وأكثر من الناحية الشخصية، من تطلعه الى تحقيق المساواة بين المدينة والريف، ذلك التطلع الذي كان يعكس خلفيته وتربيته نصف المدنية ونصف الصحراوية،وكذلك قدرته التي كانت تخونه في بعض الأوقات على الموازنة بين القوى المتطرفة للقومية العراقية وبين ضرورات الارتباط ببريطانيا.

كانت علاقات فيصل مع المندوب السامي الذي استقر الآن على ضفة نهر دجلة. منفصلا انفصالاً جسمانياً ورسمياً عن حكومة العراق عبر النهر، وكذلك مع العناصر البريطانية التي كانت هي المسيطرة حتما في الدوائر الحكومية خلال الأشهر الأولى، اجل كانت هذه العلاقات ودية

وذات قيمة، ولو ان العراقيين الذين كانوا يحيطون به، كما برز ذلك في الحال، كانوا يضمون فيما بينهم عناصر قومية، اقل واقعية او اكثر خيالا وتطرفا قد تكون مخربة.

كان كورنواليس الذي تولى مهمة المستشار لوزارة الداخلية منذ شهر اب سنة ١٩٢١ قد أصبح نفسه هو المستشار الشخصي للملك فيصل. وكان الوضع الدستوري للبلاد مايزال غير واضح على انفراد، ذلك ان من عناصر هذا الوضع هو ان السيادة التركية لما تزل موجودة وان كانت خامدة، وهناك انتداب قبلت به بريطانيا، لكن العراق لم يكن يرحب به، وهناك ملكية دستورية ولكن من دون دستور ومعاهدة مقصودة لتنظيم العلاقة مع بريطانيا. ولكن هذه المعاهدة لم تكن قد وجدت بعد. ومع كل ذلك، فأن هذه المظاهر لم تؤد الى اضطراب الادارة في البلاد، تلك الادارة التي سارت خلال نصف السنة الأولى من حكم فيصل سيرا مطردا وبلا انقطاع.

كان مجلس الوزراء الذي يرأسه السيد عبدالرحمن النقيب، والذي استقال بصفة صائبة عندما اعتلى فيصل العرش، قد اعيد تأليفه مع حدوث تغييرات فيه[1] ذلك ان الوزارة الجديدة التي تألفت في اليوم العاشر من شهر ايلول ١٩٢١، كانت تضم «ناجي السويدي» ذلك المحامي والوطني صاحب الأسم والسجل الشهيرين وزيرا للعدلية، والطبيب الموصلي المسيحي حنا خياط وزيرا للصحة، ومن ثم مديرا عاما لها. وكذلك معظم الوزراء السابقين بما فيهم جعفر العسكري وزير الدفاع، وساسون حسقيل وزير المالية، في حين خلف الحاج رمزي – وهو شخص لا اهمية له[2] السيد طالب النقيب في تولى وزارة الداخلية. ولم يتغير وزراء العدل، والأشغال، والأوقاف. اما وزارة التربية التي تم فصلها الان[3] فقد عهد بها الى احد المثقفين هو السيد محمد علي الشهرستاني. ولم تتغير هذه الوزارة حتى شهر آذار سنة ١٩٢٢

من بين المستشارين البريطانيين الذين عملوا في الوزارات، كان كنهان كورنواليس قد امضى في وزارة الداخلية اربع عشرة سنة، في حين تقاعد بونهام-كارتر، في شهر ايار سنة ١٩٢١، فحل محله «نيجل دافدسون» من حكومة السودان ايضا، ليخلفه في منصبه السيد دراور. وعندما غادر اتكنسون العراق عائدا الى الهند، خلفه في منصبه نائبه «وتلي»، بينا اصبح يونيل سمث مستشارا لوزارة التربية، كما عين العقيد «جويس» زميل الأمير فيصل ولورنس اثناء الحرب العربية، مستشارا لوزارة الدفاع ولم تتبدل وظيفة كل من سليتر وكوك.

كان تجميع الدوائر يختلف اختلافا واسعا عن نظام السكرتاريات الذي طبقه السر ارنولد

---

(١) يقصد المؤلف بذلك الوزارة النقيبة الثانية التي تألفت بعد تتويج الملك فيصل الأول في اليوم العاشر من ايلول ١٩٢١، وكان فيصل نفسه قد اصدر الأرادة الملكية الموجهة الى السيد عبدالرحمن النقيب، بتأليف الوزارة المذكورة.

(٢) الحاج رمزي من الموظفين العثمانيين المحبوبين في العراق، وكان يعمل اول الأمر في ابي صخير.

(٣) كانت وزارة التربية (المعارف) مرتبطة اول الأمر بوزارة الصحة ومن ثم تم فصلها احداهما عن الأخرى.

ولسون، ذلك لأن وزارة الداخلية مثلا، كانت تشمل بالاضافة الى قضايا سياسة العشائر والشؤون البلدية، الشرطة العراقية، والسجون المدنية ودوائر الزراعة والبيطرة، ومصلحة الصحة التي الغيت وزارتها. ومكتب الصحافة[٤] ودائرة الواردات الى ان تم تحويل هذه الدائرة الى وزارة المالية في شهر تشرين الأول سنة ١٩٢١

وكانت وزارة المالية تمارس اعمالها الأعتيادية في قضايا الايرادات والمصروفات والحسابات، ووضع الميزانية، والعملة، واستحداث الوظائف، والرقابة على ميناء البصرة، اما اعمال وزارة المواصلات والاشغال فكانت تشمل دوائر الري، والأشغال العامة، والبريد والبرق، والمساحة، وسكك الحديد.

كانت مهمة الوزارة في الحكم مرتبطة بالتشدد المالي الذي غدا مفرطا، نتيجة الاضطرابات التي وقعت خلال السنة الماضية، وبسبب استمرار الركود الاقتصادي الذي حدث بعد الحرب، وبالحاجة الى توفير الأموال اللازمة لوزارة الدفاع والعرش ذاته، وليس بالنسبة الى صيحات الصحافة والجمهور في بريطانيا واللذان كانا يطالبان بتطبيق اقتصاد متشدد لايرحم في العراق، او بالجلاء العاجل عنه حقا، ذلك الاقتصاد الذي يمكن ان يوفر الأموال من ذلك المصدر.

بدأت الدولة الجديدة في العراق من دون ديون، ولكن بسيولة مالية جهد ماتستطيع الحصول عليه منها، وكانت الخدمات العامة للصحة وللأشغال والتربية وغيرها، تواجه تخفيضات غير معقولة، وذلك في لحظة كان فيها جمهور الدولة الجديدة يوحي بالأمل في حدوث تطور عاجل ومفيد. ذلك ان المستشفيات والمستوصفات لابد من توفيرها بذاتها في ذلك الوقت، وينبغي ان لايزداد عدد المدارس الا زيادة طفيفة، وان لا يوسع التعليم الثانوي والفني الى اكثر مما تشير اليه الحاجة والرغبة العامتين.

قسمت وزارة التربية والصحة الى وزارتين، ومن ثم اصبحت وزارة الصحة فيما بعد، مجرد مديرية تابعة لوزارة الداخلية. وكان واضحا ان في الاستطاعة الاقدام على انشاء بعض الاشغال العامة، ولكن الطرق بقيت مع كل ذلك، فظة غير معبدة. ولم تستطع دائرة الزراعة ان تواصل عملها في البحث والمشاهدة الا في نطاق ضئيل، في حين اقتصرت اعمال دائرة الري على امور الصيانة وبعض الأعمال الطفيفة.

وفي المحافظات كان يجري تغيير وتجميع نظام الوحدات الادارية التركي الذي شرع به خلال الفترة من سنة ١٩١٧ الى سنة ١٩٢٠ بصفة تدريجية * في حين كان وضع محافظة السليمانية، كما

---

(٤) كان يعرف بأسم مكتب المطبوعات الذي تحول الى ملاحظية المطبوعات خلال سني العشرينات حتى اواخر الثلاثينات ثم سمي بأسم مديرية الدعاية في سنة ١٩٤١، وهي اصل وزارة الثقافة والاعلام وماتتبعها الان من منشآت دور الطباعة والصحافة المتعددة المزدحمة بالموظفين

(*) تألف المفتشون الاداريون البريطانيون الذين عملوا في المحافظات او في وزارة الداخلية في اوائل سنة ١٩٢٣ من كل من ادمونز، وجيلان، واسنن وموراي، وفلايمان، والبان، وليون، وملر، و«بري» «كتلفيل» وهيجكوك و«بولي» و «الدرمان» و..

هو منظور يختلف من شهر الى شهر. اما الكوت التي فصلت عن محافظة بغداد، فلم تصبح محافظة منفصلة الا في اوائل سنة ١٩٢٢ ولقد فصلت اربيل في سنة ١٩٢٣ التي كانت تابعة لمحافظة كركوك في سنة ١٩٢١، كما فصلت الديوانية عن محافظة الحلة ايضا. اما الحركة الانفصالية في البصرة فلم يعد يسمع عنها شيء ما.

غدت مجالس المحافظات التي اسست اثناء الثورة، ميتة الآن، وعادت المجالس الادارية التي انشأها الأتراك من الموظفين والرجال البارزين، الى الحياة مرة اخرى في كل محافظة وفي كل قضاء. واقبل الموظفون الاداريون من المحافظين والقائمقامين على العمل بكل همة في معظم المناطق مع زملائهم البريطانيين الذين اخذ معظمهم يعمل على دعم النظام الجديد بكل اخلاص. وكما هو الامر في الحكومة المركزية ذاتها، سرعان مااخذت تظهر في المحافظات المصاعب الناجمة عن أنقسام السيطرة بشكل واضح وان لم تكن في كل مكان.

وفي ميدان البلديات، كان عدد من المصالح التي انشأها الجيش البريطاني، قد تم تحويله الى رؤساء البلديات، والى المجالس البلدية. ومنذ اوائل سنة ١٩٢٤ لم يعد يتم تعيين المجالس البلدية من قبل الحكومة، وانما كان يجري اختيارها عن طريق الأنتخاب حسب الأنظمة التركية التي اعيد العمل بها. ولقد تطورت عظمة البلديات، وظهرت دلائل على المبادرات المحلية الملحة، لكن هذه المبادرات مالبثت،لسوء الحظ، ان تحطمت بكل جلاء نتيجة الفقر الحادث في ثلاث من المدن الكبرى، وعدد كبير من المدن الصغرى.

اخذت الصحف وكلها ملك لافراد ماعدا جريدتي «كركوك» و«السليمانية» تتضاعف،وبدأ العمل باصدار جريدة «الوقائع العراقية»[٥] في حين انتعشت المعاهد الخيرية والأدبية او ظهر البعض منها الى الوجود.وقد صممت هذه المعاهد على اقل تقدير لمكافحة الأمية الضاربة اطنابها بين الجماهير، الى درجة تكاد ان تكون مطلقة. وكان من بين هذه المعاهد، «الجمعية الاسلامية الخيرية» و «العصبة الثقافية» وعدد من النوادي الادبية[٦]

«ولسون» و «ايتس» «وكجنغ» «حفريز» «ريد» و «لونغرغ» (مؤلف الكتاب) و «دتشبورن» «لويد» «جاردان». وكان البعض من هؤلاء المفتشين قد بقوا في الخدمة حتى سنة ١٩٢٧ هذا بالاضافة الى كل من «كوك» و «جايمان» «غلوب» ولم يتم بعد ذلك التاريخ تم.. المزيد من المفتشين الاداريين البريطانيين ماعدا ستافورد الذي استقدم من مصر وامضى الفترة مابين سنتي ١٩٢٨ ١٩٣٣ في العراق.

(٥) الوقائع العراقية IRAQI GAZZETT خصصت لنشر القوانين والأنظمة والبيانات وماشاكلها وقد صدر العدد الأول منها في الثامن من الأول ١٩٢٢ وكانت تصدر ثلاث مرات في الاسبوع ولاتزال تصدر حتى الان وتصدر نسخة منها بالانكليزية مرة واحدة في الاسبوع.وقد توليت تحريرها واصدارها ابتداء من اليوم الثالث من كانون الثاني ١٩٦٩ حتى اخر ايلول ١٩٧٢

(٦) من بينها النادي العلمي في الموصل، ومثيله في بغداد.

مرت الحياة العشائرية خلال تلك الشهور في فترة من الهدوء. ذلك لانه تمت تسوية المنازعات المتأصلة في الدليم، واعيد فتح الطرق، بصفة حذرة، الى سوريا مرورا بمدينة دير الزور، كما انجزت عملية توطين كبرى للسكان على ضفاف قناة الصقلاوية التي اعيد فتحها. ومالبث انصار الاتراك من افراد قبيلة شمر ان عادوا فدخلوا الاراضي العراقية، كما انه لم يظهر اي حادث يستحق الذكر من قبل الاكراد الذين تم تطمينهم. كذلك رضيت عشائر منطقة ديالى بالمصالحة التي قضت على كثير من العداوات طويلة الامد، التي كانت قائمة فيما بينها. واصبح للعمل المجد الواسع الذي تمارسه الشرطة تأثيره الفعال ضد العناد والتصلب. كذلك اظهر توطين اقسام عشائرية من بغداد على ضفاف قناة اليوسفية» التي اعيد تخطيطها، نهجا جديدا ومشجعا لتقسيم الاراضي وتوزيعها بصفة منتظمة.

لم تكن العشائر التي تقطن اواسط نهر دجلة مثيرة للقلاقل، بل كانت تعيش في سلام، بعد ان تم توزيع المقاطعات الزراعية في العمارة، واسكات الادعاءات الملحة التي كان يدعيها والي «بشت كوه». وكانت المنتفق بمفردها تؤلف سجلا للجريمة وللاضطراب واعمال العنف، والامتناع عن دفع الضرائب. ولقد ساء الوضع هناك، بسبب الحيازة الواسعة للاسلحة نتيجة الشرور الزراعية المتفاقمة في المنطقة، والتي لم يتم اصلاحها الا بصفة جزئية وعن طريق استخدام الشرطة، او الاستعانة باعمال القوة الجوية البريطانية. اما شيخ الزبير نصف المستقل، فقد استعيض مؤخرا عن تحكمه، وذلك بتعيين مدير اعتيادي للمدينة[7]

وعلى حدود سلطان نجد، وهذا هو اللقب الذي اتخذه ابن السعود في سنة ١٩٢٠، كانت العلاقة بين قبيلتي «الضفير» و «العمارات» العراقيتين وقبائل المنتفق المنعزلة مع «الاخوان»[8] حذرة ، وذلك منذ ان اندفعت في سنة ١٩٢١ عناصر قبائل شمر اللاجئة الى العراق، هربا من الدولة السعودية. ولقد وقعت بعض الغزوات الصغرى، غير ان ايا من الحكومتين السعودية او

---

(٧) سبق ان اشرنا في هامش سابق الى شيخ الزبير ابراهيم العبدالله الذي تذكر المس بل في تقريرها، بانه من اوائل البصريين الذين اتصلوا بالسلطات الانكليزية اثر احتلالها البصرة، وقدموا لها المساعدات المختلفة. وعندما تألفت الحكومة العراقية الملكية في العراق في ٢٣آب ١٩٢١ تقرر جعل الزبير ناحية تابعة للبصرة ولكن هذا القرار لم ينفذ في حينه وبقي الشيخ ابراهيم العبد الله هو الحاكم الحقيقي للزبير،واذ ذاك التمس ابناء الزبير في طلبات كثيرة تنفيذ القرار السابق، واستجابت الوزارة الهاشمية لذلك، فاستدعت الشيخ ابراهيم للاقامة في بغداد، وتسلمت الحكومة شؤون الزبير ونظمت ادارتها وعينت لها مدير ناحية، ولم يسمح للشيخ ابراهيم بالعودة الى الزبير الا اواخر شهر نيسان ١٩٢٥ (الحسني: تاريخ الوزارات العراقية ج ١ص٢٣٤).

(٨) الاخوان هو اللقب الذي اطلقه انصار محمد بن عبد الوهاب مؤسس المذهب الوهابي السلفي، على انفسهم ولكن هؤلاء الاخوان ،ما لبثوا مثل بقية الطوائف الاخرى ان تطرفوا وادخلوا على تعاليم محمد بن عبد الوهاب كثيرا من البدع والتحريفات الفاحشة فاصبحوا يعتبرون كل من لا يتقبل مذهبهم، كافرا يحل قتله ونهب امواله ولذلك وجدت العشائر البدوية في الجزيرة العربية في المذهب الوهابي وسيلة اخرى، غير وسيلة العداء القبلي، لمهاجمة بعضها البعض والفتك واعمال السلب. اما «الاخوان المسلمون» الذين ظهروا في تنظيمات سياسية في مصر وفي العراق وفي سوريا فان للداهية الانكليزي «فلبي» ضلعا في تنظيمهم (انظر: رهينة خميني او الهجوم على القرن العشرين).

العراقية لم تستطع السيطرة على رعاياها. والواقع انه كان يدور هناك همس بان ملك العراق لابطاقته الخاصة ولا بطاقة اسرته، غير راغب في مضايقة الامير النجدي المعادي للهاشميين، بمثل هذه الوسيلة.

فلقد ادى استيلاء ابن السعود على «حائل» وتقويض حكم «آل الرشيد» في شهر تشرين الثاني سنة ١٩٢١، الى ارتفاع اعتباره وادعاته. كما ادى تعيين احد افراد اسرة السعدون لقيادة فيلق الهجانة العراقي على حدود نجد[٩] الى اثارة جديدة من قبل الجانبين، وشحذ العداء الشخصي لشيخ قبيلة «الضفير»[١٠] وهكذا انقضت اواخر شتاء سنة ١٩٢١ - ١٩٢٢ الى غمرة من التوقعات اليومية بحدوث قلاقل على نطاق واسع مع زعيم الاخوان «فيصل الدويش» شيخ قبائل «المطير» تلك القلاقل التي اتسمت بالصفة العدوانية.

ولكن من اكثر الامور خطورة بالنسبة الى ماكنة الدولة الاساسية في العراق هي الاوضاع التي سادت الحدود التركية وكردستان العراق، في هذه الشهور؛ ذلك لان الاتراك، على الرغم من اندحارهم النهائي سنة ١٩١٨، فانهم نتيجة تمسكهم العقيم بمعاهدة «سيفر» وكفاحهم في سبيل بقاء وجودهم في اسيا الصغرى - لم يتخلوا عن الاعمال العدوانية التي كانوا يقترفونها على حدود ولاية الموصل وفي ارجائها. فلقد اكد الاتراك في ميثاقهم القومي الذي اعلنوه في الخامس والعشرين من شهر كانون الثاني سنة ١٩٢٠، بان الاراضي غير المسكونة من قبل العرب في ولاية الموصل، سواء كان العدو قد احتلها ام لا، يجب ان لا تنفصل عن تركيا. وكانت الاشارة في هذا الادعاء مركزة بكل جلاء على كردستان. ومن هذه الناحية انطلقت حملة الدعاية في سنة ١٩٢٠، وكذلك الادعاءات التافهة بعرش بغداد، بالنيابة عن السيد احمد السنوسي الذي اتى به الاتراك الى مدينة «دياربكر» في سنة ١٩٢١، وما اعقب ذلك من استعادة الاتراك سيطرتهم على مناطق الحدود والعشائر في «وان» و «جلمريك»، واغرائهم رؤساء الأكراد في منطقة راوندوز، وارسالهم احد الموظفين المدنيين الاتراك تصحبه بعض القوات الى هناك.

ونظرا للسيطرة التي كانت تمارسها عشائر السورجي الهمجية، والتي كانت تشايع الاتراك بصفة مهيمنة، وللانقسام الحاصل لدى عشائر «بشدر»، فقد اصاب التغلغل التركي تقدما ظاهرا في تلك المناطق في سنة ١٩٢١ ولكن تم وقف ذلك التغلغل بفعل الغارات التي قامت بها القوة الجوية البريطانية، واعمال الشرطة العراقية، وكذلك قوات العشائر الموالية والتابعة لقوات المرتزقة

---

(٩) هو [illegible] يوسف بك السعدون وهو من المعادين جدا لحمود بن صويط شيخ الضفير.

(١٠) هو الشيخ حمود الصويط الذي سلب من احد التجار العراقيين مبلغ خمس وعشرين الف ليرة وهرب مع عشيرته الى السعودية واصبح وكيلا لدى ابن السعود في جباية اجور الرعي من العشائرالعراقية التي كانت ترعى مواشيها في المناطق السعودية المجاورة

، خلال فصل الخريف، تمهيدا لتوجيه ضربة قاضية الى «عبيد الله» شيخ عشائر السورجي، [11] الذي اوقع فريقاً من قوات المرتزقة في كمين نصبه له، ومن ثم رد على اعقابه في عمليات عسكرية قامت بها قوات المرتزقة العراقية، والقوة الجوية الريطانية،وذلك في منتصف فصل الشتاء.

ولكن خضوع العشائر، في اعقاب تلك العمليات الحربية، كان ينطوي على الحذر فلقد بقي عبيدالله على سعة من امره. وفي اوائل سنة ١٩٢٢ قامت القوات التركية من قواعدها في نصيبين والجزيرة [12] بتوجيه عدوان جديد. وفي والوقت ذاته كانت منطقة السليمانية هادئة نسبيا. نتيجة غياب الشيخ محمود واقاربه الادنين عنها، ولكن جماعة من الاكراد الفرس على الحدود استطاعت ان تهاجم سهل حبنجة، وان تجبي الضرائب من سكان ذلك السهل، وان تنصب كميناً للقوات المرتزقة، وتهدد المدينة بالاستيلاء عليها، الى ان استطاعت طائرات القوة الجوية البريطانية تشتيت اولئك المعتدين.

كانت هناك مشكلة اخرى شاقة وتحمل على اليأس وهي ترتبط بموضوع المطالب التركية، ونعني بها مشكلة الاثوريين [13]. ذلك ان انخراط هؤلاء الاثوريين في قوات المرتزقة، والذي بدأ مترددا ثم تحول الى اندفاع مثير، لم يضع حلا لمطالب هؤلاء المستديمة، او قد ساعد حتى على توطينهم في العراق، باعتبارهم واحدة من الاقليات. لقد ادت وفاة باولس مارشمعون في سنة ١٩٢٠، الى ان عهد بزعامة الآثوريين الى صبي ضعيف، لم يتجاوز الحادية عشرة من عمره يدعي «ايشاع» [14] وقد ادى هذا الامر الى ان يفقد كثير من اهل بيته ما كانوا يتمتعون به من سلطان، والى انتقال تلك السلطات الى مغامرين، من امثال «اغا بطرس باز» [15] احد القتلة والنصابين الدوليين، ذلك المخادع المعتدي، الذي فطر على الشقاوة والاجرام.

فلقد استطاع، اغا بطرس باز هذا بما ناله من مساندة البريطانيين وتخويلهم اياه ان يقود الالوف من الاثوريين عبرالجبال والوديان من «عقرة» الى «اورميا». ولكن مشروعه هذا ما لبث ان

---

(١١) هو ابن الشيخ رقيب الشيخ محمد البجلي وكانت عشائر السورجي قد قاتلت الانكليز في معركة كردسين في السادس من كانون اول سنة ١٩١٩ والتي تقول المصادر العربية بان الانكليز خسروا في تلك المعركة زهاء ثلثمائة قتيل (عبد المنعم الغلامي: ثورتنا في شمال الوطن ج ١ ص ٩٤).

(١٢) يقصد بالجزيرة هنا «جزيرة ابن عمر»

(١٣) لا يفتأ المؤلف يتحدث عن مشكلة الاثوريين في كثير من فصول كتابه هذا وهو بهذا التكرار انما يحاول ان يركز الانظار على هذه الاقلية الغريبة عن العراق والتي كانت منذ البداية العوبة بايدي الاستعماريين وعلى الاخص الانكليز منهم،وعقبة من العقبات الرئيسة التي اعترضت طريق التحرر والطمأنينة والتقدم في العراق. فلقد كان يجري تحريض هذه الطائفة الغريبة في ذلك الوقت ضد الحكم العراقي،رغم انه لم يكن حكما وطنيا خالصا ونقيا من شوائب التدخل البريطاني، وذلك كما سوف يمر بنا في الفصول القادمة، مما التصق التصاقا قويا بتاريخ العراق الحديث خلال الفترة بين الحربين العالميتين الاولى والثانية.

(١٤) هذا الصبي هو الذي اصبح فيما بعد «مارشمعون» واثار القلاقل خلال سني العشرينات واوائل الثلاثينات بتأثير عمته «سرمة خاتون» عليه.

مات سنة ١٩٢٠ لما اصابه من اعمال النهب والمصادمات الوحشية، وجرائم القتل الجماعي. واخيرا تركزت الاقلية الاثورية في معسكر اقامته لها القوات البريطانية في منطقة شيخ مندان خارج مدينة الموصل. ومن هذه المنطقة قررت الفئات الاثورية التي ذهبت الى اوربا، في اوائل سنة ١٩٢١ ان تشق طريقها الى بلاد فارس عن طريق بغداد، ولكن هذه الفئات لم تستطع ان تحقق هدفها ذاك بسبب المقاومة التي تلقتها من جانب الفرس، ولذلك تمزقت تلك الفئات وتبعثرت في البلاد التي مرت بها، في حين استطاعت فئة منها ان تعود الى بغداد.

وبمساعدة من البريطانيين ودعمهم المادي، تم اسكان الاثوريين الذين قدموا من منطقة «حكاري» في القرى العائدة للحكومة في مناطق «دهوك» والعمادية»، بينما استقر اخرون — بعد ان انهكهم التعب، والجوع، والمرض — في التلال القائمة على الحدود، ولكن شيطانهم «اغا بطرس باز» استطاع ان يهرب الى اوربا وان يلقي حتفه في مدينة باريس بعد ذلك مباشرة.

انشئت بطريريكية للاثوريين في «بيباد» على مقربة من العمادية، كانت تقوم على خدمتها «سرمة خانم» عمة الصبي «ايشاع» الذي عين بطريركا، غير ان القلاقل التي كان الاثوريون يثيرونها لم تجد نهاية لها.

اما بالنسبة الى الارمن اللاجئين الى العراق والذين قدر عددهم بحوالي خمسة عشر الف نفر اثناء انتقالهم في اواخر سنة ١٩٢٠ من «بعقوبة» الى معسكر خاص بهم اقيم على مقربة من «نهر عمر» قرب البصرة، فقد تم البحث عن وسائل اخرى لاخضاعهم. ذلك ان عدم تعاونهم، ورفضهم الشديد للعمل في العراق، قد ادى الى احباط كل الجهود التي بذلت لهم، ولقد تناقص عددهم بعد ان تفرق قسم منهم في المدن واختلطوا مع الاثوريين او نزحوا الى بلاد فارس، ولكن البقية الباقية منهم والتي يقدر عددها بثمانية الاف شخص قد تم نقلهم في السفن الى ميناء «باطوم» وعلى نفقة الحكومة البريطانية، وتم ذلك في الواقع طبقا لاتفاق مع الحكومة الارمنية الجديدة التي انشئت عبر القفقاس، اما الذين بقوا منهم يقاومون كل اشكال المساعدات، فقد ارغموا في شهر اذار سنة ١٩٢٢ على ان يغادروا معسكر «نهر عمر» حيث اغلق المعسكر بعد ذلك.



٢ ـ المعاهدة الاولى

كان العرض الذي قدمته الحكومة البريطانية في الاعراب عن العلاقة الانكليزية العراقية، في صفة معاهدة بينهما بدلا من الحكومة الانتدابية المتستر عليها، قد حظى بمصادقة الامير فيصل عليه،قبل وصوله الى العراق. وقد ظهر ان مثل هذا العرض لن يلقي المعارضة بصفة اولية من لدن الناطقين باسم القومية هناك. كذلك بدا بان الطرفين، الأنكليز وفيصل، كانا يودان تقليص صفة العار المذل المضفاة على العلاقة بين الحارس والمحروس، وان يتمتع العراق منذ البداية بالاعتبار الذي تحظى به المعاهدة والتي يراد من ورائها ايجاد دولة مستقلة.

والواقع ان هذه الطريقة كانت من دون جدال، اهم طريقة حصيفة ومبدعة لتمشية الحالة التي كانت تفتقر الى كل ماسبق. غير ان التذمر الذي اثاره الوطنيون العراقيون، وتسميم العلاقات الانكليزية العراقية طيلة السنوات العشر التي اعقبت ذلك ، ونظام الانتداب ذاته، كل هذا قد بقي على حاله ومن دون ادنى تغيير.

ومع ان الانتداب لم يرد ذكره في مسودة المعاهدة، الاّ انه قد عهد به بصفة معروفة الى بريطانيا، وتقبلته بدورها، وادخل الآن ضمن مسودة راحت تنتظر تصديق عصبة الامم عليها في الايام الاخيرة من سنة ١٩٢١

كان ابعاد مثل هذا الوضع القائم عن «الاستقلال التام» الذي طالب به القوميون، واضحا كل الوضوح مهما كانت العبارات التي فسر بها الانتداب، والاعذار التي انتحلت لغرضه، او لابقائه مخفيا عن الأنظار.

كان لابد للملك وبطانته من ان ينظروا الى المعاهدة والى الانتداب الذي تسترت عليه، مهما كانت سخية تلك المعاهدة، نظرة معادية منذ البداية وبصفة حتمية. لقد كان تشرتشل هو الذي قاده في لندن، ولقد تشكي، وهو يتصور صيغة مغايرة جدا للمعاهدة، بان الانتداب يجب ان يزول، وان يختفي وان يتم رفضه. واذا ما زعم بان الضرورة الدستورية القابلة للنقاش، او القانون الدولي، كانا غير واقعيين، او انهما ينذر ان يؤلفا قاعدة كافية، وان الشيء الوحيد المهم بالنسبة الى فئة صغيرة من العراقيين الذين وجدوا - كما فعل ذلك الساسة العراقيون من سنة ١٩٢١ الى ١٩٣٠، الذين خاضوا معركة استمرت عشر سنوات من الكفاح السياسي الذي تميز بالمقاومة

المدنية، واعمال القتل، والتمرد المتعمد - ان مايبقى صوابا هو ان الانتداب لايشتمل في الواقع على الاستقلال التام، وانه ليس سوى اهانة تحطم الكرامة القومية للعراق، في نظر جميع المسلمين في كل مكان.

وفي الوقت الذي تواصلت فيه المباحثات بشأن المعاهدة من قبل الوزارة في اوائل سنة ١٩٢٢، اخذت فكرة الرأي العام حول الموضوع تزداد وضوحا. فلقد شرع القوميون المتطرفون الذين ضموا الى جانبهم ولاسباب مختلفة حتى رجال الدين من الشيعة، والمؤيدين البارزين، وحتى اصدقاء الملك نفسه، ينادون بمقاومة العبودية التي يفرضها الانتداب، ويطالبون بجلاء البريطانيين جلاء تاما عن البلاد، تلك الصرخة التي لم تخفق في احداث رد فعل، كما قيل، من جانب «حزب الانكليز» المؤلف من البارزين وشيوخ العشائر المؤيدين، كان له تأثيره في الحكم البريطاني.

اما القوميون المعتدلون كثيرا، والذين شاركهم الملك في آرائهم، فقد وقفوا الى جانب الغاء الانتداب، وعقد معاهدة متساوية وودية، واستمرار الدعم البريطاني. ولم تلبث الهوة التي حصلت في الرأي العام ان ازدادت اتساعا واكثر بروزا، بعد المؤتمر الذي عقد في مدينة كربلاء في شهر نيسان سنة ١٩٢٢، والذي عقد في الدرجة الاولى للاحتجاج ضد «الاخوان» بدعوة من الشيخ مهدي الخالصي الذي كرس حياته للسياسة [١]. كان ينظر الى هذا المؤتمر الذي حضره حوالي مائتي شخص من الرجال البارزين لدى الشيعة، والعلماء، وافراد العشائر، نظرة ملؤها القلق من لدن الاطراف المعتدلة. ورغم ان القرار الذي تمت الموافقة عليه في النهاية كان قرارا تافها، الا انه كان عاملا فعالا في تكتيل الرأي المناهض للمعاهدة، كما كان حافزا ايضا الى تبني مبدأ يقرب من الفوضى في مناطق «المنتفق» و «شمر» التي اتسمت بالحساسية.

---

(١) لم يقتصر مؤتمر كربلاء على تمثيل الشيعة وحدهم كما ذكر ذلك المؤلف خطأً او تعمدا، وانما شارك فيه اهل السنة ايضا. فقد توجه موكب علماء السنة بزعامة الشيخ عبد الوهاب النائب، والشيخ ابراهيم الراوي وغيرهما الى كربلاء فاجتمعوا بالشيخ مهدي الخالصي في دار الشيخ تقي الشيرازي ثم نزلوا ضيوفاً على السيد قاسم الرشدي في داره. كذلك وصل وفد اخر من الموصل يضم كلا من مولود مخلص وسعيد الحاج ثابت وعبد الله النعمة وعجيل الياور ومحمد اغا ونزلوا في دار الحاج عمر العلوان،وقدمت دعوة الى الملك فيصل لحضور المؤتمر لكنه اعتذر تحت ضغط من برسي كوكس، واناب عنه وزير الداخلية توفيق الخالدي ، كما بعث نوري السعيد ممثلا شخصيا للملك نفسه. ولقد افتتح المؤتمر في صباح اليوم التاسع من نيسان ، وتقرر في ذلك اليوم تنظيم مذكرات تتضمن ابراز موقف الشعب العراقي ازاء اعتداءات «الاخوان»، ثم انعقد الاجتماع النهائي في الثالث عشر من نيسان في دار الشيرازي افتتحه جعفر ابو التمن بخطاب. وتليت في الاجتماع برقية الملك التي شكر فيها القائمين بالمؤتمر. ولقد امتنع بعض رؤساء العشائر الفراتية عن توقيع مذكرات المؤتمر وكان على رأسهم عداي الجربان، وعمران الزنبور وشمران الجلوب ومراد الخليل وعقد هؤلاء المنشقون اجتماعا لهم في الحلة وقرروا تنظيم مذكرات مضادة لمذكرات مؤتمر كربلاء (انظر تفاصيل المؤتمرين :على الوردي: تاريخ العراق الحديث الجزء السادس ص١٤١ ومابعدها) وانظر ماكتبه سندرسن عن عداي الجريان وعمران الزنبور في ترجمتنا لمذكرات سندرسن الطبعة الثالثة ص ٥٣ ومابعدها سنة ١٩٨٥

وهناك شر آخر غدا الآن اكثر ظهورا واتساعا، يتمثل في الادارة السياسية في بعض مناطق الفرات، والتي كان يطبقها القوميون من المحافظين والقائمقاميين تطبيقا قويا.[٢] لقد كان هؤلاء يتجاهلون وجود زملائهم المستشارين البريطانيين، ويتجهون صراحة الى مناصرة رؤساء العشائر في منازعاتهم بشأن الأراضي، وتقديرات الضرائب، والتجهم بوجوه الزمرة الانكليزية[٣]. تعاظمت المقالات التي كانت تنشرها صحافة العاصمة في العنف[٤] وكانت تظاهرات الشوارع كثيرة الوقوع في بغداد. والوفود تنتظر مواجهة الملك. ولم تلبث الوزارة ان دعمت تلك التغييرات، وذلك باستقالة خمسة من اعضائها كان من بينهم ناجي السويدي، وعزت الكركوكلي، وعبد اللطيف المنديل. وكان من بين الوزراء الذين حلوا محل المستقيلين، توفيق الخالدي وهو من كبار الموظفين ومن طراز عال، كان نائبا في مجلس المبعوثان التركي، وامينا للعاصمة مؤخرا، وصبيح نشأت التركي الكردي ذو الطاقة الشهيرة والمزاح المرح الغني، وعبد المحسن السعدون النائب السابق عن البصرة في المبعوثان التركي صاحب الآراء المعتدلة والشخصية السامية والسياسي القومي القوي، والحاج جعفر ابو التمن رجل الأعمال.

وافقت هذه الوزارة، بعد ان خرج منها ابو التمن، على المعاهدة في اواخر شهر حزيران ١٩٢٢، لكنها اشترطت لذلك شرطا، قاومه برسي كوكس عبثاً، يقول بان المعاهدة يجب ان يصادق عليها بالقانون الاساسي، وقانون الانتخاب، من قبل المجلس التأسيسي المقبل.

كان قانون الانتخاب قد تم نشره في شهر ايار، واعقبت ذلك المصادقة على المعاهدة عند البداية الاولى لعملية الانتخابات. واستمر الشعور المعادي للمعاهدة يظهر بصفة مثيرة، واصبح خطراً شديداً يتهدد النظام العادي، وذلك جراء الموقف المعادي الذي وقفه العلماء غير المهادنين، وفئات من شيوخ الفرات واصحاب المصالح الخاصة منهم وكذلك المناهضون المحليون من موظفي الادارة.

كانت الحالة في السليمانية، تنذر بالخطر بصفة خاصة، وقد تم ارسال ياسين الهاشمي الى هنالك باعتباره الشخصية القومية المهيمنة، محافظا للمنطقة في الوقت الذي ظلت فيه الاوضاع مضطربة في المحافظات الاخرى ومنها الدليم والحلة، والنجف، وديالى، بل ان هذه اصبحت تنذر بالمخاطر. وفي محافظات اخرى بذل المعارضون للمعاهدة جهودا كبرى، فاصبحت

(٢) من امثال جلال بابان الذي عين قائمقاما لسامراء، وياسين الهاشمي الذي عين محافظا للمنتفق، ورؤوف الكبيسي قائمقام سوق الشيوخ، وعلي جودت الايوبي محافظ الحلة وغيرهم.

(٣) المقصود بذلك الفئات الموالية للانكليز من رؤساء العشائر واضرابهم.

(٤) كانت الصحف المبرزة بالدفاع عن القضايا الوطنية في ذلك الوقت هي صحيفة الاستقلال لصاحبها المرحوم عبد الغفور البدري، وصحيفة «الرافدان» لمنشئها الاستاذ «سامي خونده»، وجريدة «دجلة» التي اصدرها المرحوم داود السعدي يعاونه فيها المرحوم الشاعر رشيد الهاشمي والذي شارك ايضا في صحيفة «الرافدان» بالاضافة الى بعض الصحف والمجلات غير السياسية من امثال الناشئة الجديدة لصاحبها ابراهيم صالح شكر التي صدرت في صفة مجلة شهرية ثم تحولت الى صحيفة اسبوعية.

معارضة المعاهدة مرادفة لمعارضة البريطانيين، ولذلك اخذ رجال السياسة والدين يعكرون صفو الامن بين العشائر، ومن هنا غدت اعمال العنف والاضطراب متوقعة في كل لحظة.

ووفقاً لقانون الجمعيات الذي نشر في تموز سنة ١٩٢١ اقدمت عناصر سياسية من الشيعة في بغداد على تأليف حزبين هما «الحزب الوطني»[٦] وحزب «النهضة»[٧] وكان الحزبان ندا للحزب الحر المعتدل الذي الفه السيد محمود، الابن الأكبر للسيد عبد الرحمن النقيب[٨]

في اوائل شهر آب عقدت اجتماعات حزبية اخرى في بغدادوفي النجف. وقد تميزت. الأحزاب والصحف الشيعية بالعنف وعدم المسؤولية، فراحت تطالب برفض المعاهدة، وعدم الاشتراك في الانتخابات. واخذ الشيخ مهدي الخالصي، الذي اتجه في بعض الاوقات الى تحبيذ الآراء التركية[٩] يلقي الخطب اللاهبة ضد كل اولئك الذين اعلنوا استقلالهم. وحين تحققت الوزارة بان الملك قد تعب كثيرا من المعارضة المتطرفة الموجهة ضد الوزراء انفسهم، وضد مجالسهم، اقدمت الوزارة على الاستقالة برمتها في اليوم الرابع عشر من شهر آب

كانت الايام التي اعقبت ذلك حرجة بالنسبة الى المملكة العراقية.فلقد ظهر موقف الملك مؤخرا بانه في الواقع كان موقف الشخص الذي تبدو عليه الرغبة في التعرف على العناصر المشتطة في مقاومة المعاهدة،، تلك المعاهدة التي لم تكن تمثل سياسة الحكومة البريطانية فحسب، بل

---

(٦) تأسس الحزب الوطني في بغداد في اليوم التاسع عشر من شهر اب ١٩٢٢، وكانت لجنته التنفيذية مؤلفة من كل من محمد جعفر ابي التمن، احمد الشيخ داود. حمدي الباجه جي. مولود مخلص، عبد الغفور البدري، ومهدي البصير، وبهجت زينل، وقد ذكر مهدي البصير بان الحزب الوطني كان مدعما من قبل السيد محمد الصدر (القضية العراقية)

(٧) تأسس حزب النهضة في الكاظمية في اليوم الثاني من شهر اب وكانت لجنته التنفيذية مؤلفة من كل من امين الجرجفجي، واحمد الظاهر، وعبد الرسول كبة، وواصف قاسم اغا، وعبد الرزاق الازدي، ومهدي البير ومحمد حسن كبة. ويلاحظ انه لم تصدر باسم اي من الحزبين المذكورين صحيفة خاصة تنطق بلسانه • وكانت جريدة الاستقلال لصاحبها عبد الغفور البدري وما اعقبها من جرائد اخرى بدلا عنها عند تعطيلها، هي التي تمثل آراء الحزب الوطني، في حين اصدر حزب النهضة بعد انبعاثه في سنة ١٩٢٧ صحيفة تنطق بلسانه باسم «النهضة العراقية» صدر عددها الاول في اليوم العاشر من آب سنة ١٩٢٧ عطلتها الوزارة العسكرية ثم استأنفت الصدور بعد استقالة الوزارة المذكورة،وكانت الصفة الشيعية هي الغالبة على حزب النهضة وحده على خلاف ماذكره المؤلف.

(٨) تأسس الحزب الحر المعتدل في بغداد بتأييد من عبد الرحمن النقيب. وكان ولده الاكبر «محمود» هو رئيس الحزب الذي تألفت لجنته التنفيذية من المشايعين للانكليز وهم جميل صدقي الزهاوي، وعبد المجيد الشاوي. وفخري الجميل، وحسن غصيبة وداود النقيب. وقد ذكرت المس بل في احدى رسائلها ان علي السليمان وكل شيوع العشائر الكبار قد وقعوا على الانتماء الى الحزب المذكور حيث عادوا في اليوم الثاني الى مواطنهم لتنظيم الفروع الحزبية في الالوية وقد جهز رجال القوة البريطانية طائرة خاصة لنقل علي السليمان بها الى الرمادي (اليزابت يورغوين: المس بل في رسائلها ج٢ ص٢٨٩ ومابعدها).

(٩) ذكرت المس بل في احدى رسائلها ان فتوى صدرت في تحريم الدفاع عن العراق ضد الاتراك، وان نسخا من هذه الفتوى قد الصقت على باب صحن «الكاظمية». ويبدو ان الانكليز قد اتهموا السيد مهدي الخالصي باعطاء تلك الفتوى. ويذكر الدكتور علي الوردي ان الشيخ مهدي الخالصي كان شديد الميل الى الاتراك ويقال انه كان في تلك الآونة يتراسل معهم سرا.. ويذكر الوردي ايضا عدة قصص عن وصول رسائل من الاتراك الى الخالصي ورد الخالصي عليها وان جواسيس الانكليز استطاعوا الحصول على تلك الرسائل (د. علي الوردي. تأريخ العراق الحديث الجزء السادس ص٢١٤ ٢١٥).

وحتى سياسة الوزارة العراقية ذاتها. وسرعان ما ساءت العلاقات مع المندوب السامي الذي تميز بالصبر بصفة محددة. فقبل يومين من البدء باحتفالات التتويج المنتظرة في الثالث والعشرين من شهر آب، اصدر الحزبان[١٠] بياناً عنيفاً يحتجان فيه صراحة الى الملك من النفوذ البريطاني، ويطالبان بتعيين السيد محمد الصدر رئيساً للوزارة[١١] وفي اثناء الاستقبال الرسمي ذاته وجه الشتم عمدا من قبل المتظاهرين المعادين للبريطانيين، والذين كان يقودهم احد موظفي البلاط عند اعتاب القصر[١٢].

طلب تقديم اعتذار عما حصل فاجيب ذلك الطلب، لكن الملك رفض ان يتخذ اي اجراء ضد المعتدين، وهكذا غدا النظام العام معلقاً في الميزان، ولم يعد للوزارة اي وجود آنذاك. في هذه اللحظة اصيب الملك فيصل بنوبة حادة من الزائدة الدودية، فاقدم الدكتور نوئيل براهام على اجراء العملية الجراحية التي تطلبت الضرورة اجراءها على الفور، وذلك في اليوم الخامس والعشرين من شهر اب، ولكن قبل ان يشفى الملك من اصابته تلك، وجد برسي كوكس نفسه ملزما باتخاذ عمل حازم. فقد اوضح للرأي العام موقف الحكومة البريطانية والمسؤوليات الملقاة على عاتقها، واستنكر التمادي الخطر الذي يمارسه المتطرفون، وعطل الحزبين والصحف المسيئة، واعتقل ونفى عددا من اشد الساسة عنفاً[١٣]

كان تأثير هذا الاجراء الذي اقدم كوكس عليه سريعا جدا، وكانت فرحة العناصر المعتدلة عميقة في كل انحاء العراق وعلى كل المستويات. ولقد تم دعم عملية اعادة الاوضاع العشائرية

---

(١٠) الحزب الوطني وحزب النهضة العراقي.

(١١) لم يتضمن الاحتجاج الذي قدمه الحزبان المعارضان الى الملك طلب تعيين السيد محمد الصدر رئاسة الوزارة وانما اقتصر الطلب على تأليف وزارة وطنية من الاكفاء المخلصين، وان كان السيد محمد الصدر هو الذي ترأس الاجتماع وربما توفرت لدى المؤلف ادلة على ذلك غير ما اتى على ذكره الذين ارخوا لهذه الفترة.

(١٢) توجهت التظاهرة التي نظمها الحزبان في يوم التتويج الى ساحة القشلة حيث كان مقر الملك هناك، فالقيت خطب لاهبة منها خطبة مهدي البصير باسم الحزب الوطني وخطبة محمد حسن كبة باسم حزب النهضة، وذلك في الوقت الذي وصل فيه كوكس وحاشيته الى القشلة وحين اخذ يصعد السلم هتف «حسون ابو الجبن» قائلا: تسقط بريطانيا يسقط الاستعمار» فردد المتظاهرون هتافه. وقد اعتبر كوكس تلك الهتافات اهانة له ولحكومته. ونظراً لأن الملك كان قد اوفد الاستاذ فهمي المدرس الى المتظاهرين ليطلع على مطاليبهم، وكان كوكس يعتقد بان فهمي المدرس وان كان موظفا في البلاط الا انه كان يعمل مع المعارضة سرا، فقد انتهزها فرصة طيبة لازاحته ولذلك وجهت دار الاعتماد البريطاني الى رئيس الديوان الملكي رسالة مؤرخة في ٢٤ آب يحتج فيها المندوب السامي على ماحدث، ويطلب تقديم اعتذار عنه، وان يعزل فهمي المدرس من منصبه وقد حدث ماأراده كوكس، وقيل ان رستم حيدر كان وراء تلك المناورة ضد الاستاذ المدرس.

(١٣) في ٢٦ آب اصدر كوكس بياناً كله تهديد ووعيد وارفق به صدور اوامر باغلاق الحزب الوطني وحزب النهضة، وتعطيل جريدتي «المفيد» و «الرافدان» واعتقال مهدي البصير وسامي خوندة وامين الجرجني وعبد الرسول كبة وحبيب الخيزران ونفيهم الى جزيرة «هنجام» حيث مكثوا هناك مدة من الزمن وتخلص من النفي عبد الغفور البدري وابراهيم حلمي العمر وقد هرب الاخير الى الأردن.

تدريجا، وذلك بنقل المحافظين الذين ظهرت وطنيتهم اثناء عملهم في الادارة، وقصف الثائرين الحقيقيين في الديوانية، وفي المنتفق، تأديبا لهم[١٤]

وبعد ان نجحت العملية التي اجريت للملك فيصل، واكدها الأطباء الذين بعث بهم والده الحسين من الحجاز، قدم فيصل في العاشر من ايلول، الشكر علانية الى المندوب السامي على الاجراءات التي اقدم عليها. والواقع ان تلك الاجراءات قد انقذت الدولة من الفوضى، كما انها ربما انقذت الملك فيصل نفسه من ان يعيش مرة ثانية في المنفى ومن دون عرش.

طلب الى السيد عبد الرحمن النقيب، بعد ان تحسن الجو، ان يؤلف وزارة اخرى[١٥] ادخل فيها توفيق الخالدي وزيراً للعدلية، وعبد المحسن السعدون وزيراً للداخلية، وكلا من ساسون حسقيل وجعفر العسكري، وعلي فاضل، وصبيح نشأت في ذات الوزارات التي كانوا يشغلونها سابقا، بينا عين المتمول النجفي الحاج محسن شلاش وزيراً للتربية كما الغيت وزارة المواصلات وما ان تحققت الوزارة من المناقشة بان الدخول في عصبة الامم، وهو الهدف الثاني للعراق، سوف يضع بنفسه حدا نهائياً للانتداب المقيت، حتى اكدت قبولها بالمعاهدة التي وقع عليها اخيراً كل من السيد عبد الرحمن النقيب والسربرسي كوكس في اليوم العاشر من شهر تشرين الاول سنة ١٩٢٢

كانت هذه المعاهدة التي اريد لها ان تمتد لمدة عشرين سنة بعد مصادقة المجلس التأسيسي عليها، قد تضمنت ولو من دون اشارة مباشرة الى الانتداب، معظم الاحكام الواردة فيه فقد اشتملت موادها على الالتزام باحترام الاجراءات الدستورية، وحرية الاديان والتعليم والمؤسسات التبشيرية كما اشتملت على حماية حقوق الاجانب، وتوفير الفرص الاقتصادية المتساوية لكل الدول (سواء كانت من اعضاء عصبة الامم ام لا وكان هذا الشرط صدى للمراسلات التي جرت بين «كولبي»[١٦] وكرزن، بشأن سياسة الباب المفتوح) والتعاون مع

---

(١٤) اصدر كوكس اوامره بعزل محافظ الحلة على جودت الايوبي، وعزل اعوانه من القائمقامين وفي مقدمتهم السيد خيري الهنداوي وشاكر الملا حمادي. وقامت الطائرات الانكليزية بقصف بعض العشائر المتمردة ومنها آل فتلة في المهناوية، والاقرع في عفك، وخفاجة في الشطرة، والعزة في المنصورية (الوردي ج٦ص١٦٤).

(١٥) كان كوكس هو الذي اقنع الملك فيصل بان يعيد النقيب تأليف وزاراته الثالثة التي تألفت في الثاني عشر من ايلول ١٩٢١ ولقد رشح الشيخ عبد الكريم الجزائري لتولي منصب وزير التربية ولكنه اعتذر عن ذلك فاختير الشيخ محمد على هبة الدين الشهرستاني لهذا المنصب. ومن بين ماقررته هذه الوزارة استعمال اللغة العربية في المكاتبات الرسمية بدلا من الانكليزية ابتداء من شهر نيسان سنة ١٩٢٢ وقد اشار النقيب في منهاج وزارته الى ان من اهم الامور التي تعتني بها وزارتنا هو تأييد المؤتمر الممثل للشعب العراقي، ووظيفته سن القوانين الاساسية، لان المؤتمر بمثابة الروح للمملكة الديمقراطية التي لاتقوم لها قائمة الا به» (الحسني تاريخ الوزارات ج١ ص٦٠)

(١٦) وزير خارجية حكومة الولايات المتحدة الامريكية.

عصبة الامم، والاجراءات الصحية الدولية، والنظام الجديد الذي تم اعداده بالنسبة الى الاثار القديمة.

كانت بنود المعاهدة مفتوحة امام تعديل فصلي متفق عليه، وقد وافقت بريطانيا على ان تمارس الضغط لترشيح العراق للدخول في عصبة الامم «حالما يصبح ذلك ممكنا»، وكانت هناك اتفاقات منفصلة ومالية يجري اعدادها بل الواقع ان مسودات تلك الاتفاقات قد وضعت بعد ذلك، وكانت تشمل التعاون العسكري، والشؤون المالية والسياسية) واوضاع الموظفين البريطانيين في الحكومة العراقية.

وبصفة عامة تم نقل المسؤوليات التي التزمت بها بريطانيا للعراق تجاه عصبة الامم، الى الحكومة العراقية ذاتها لتنفيذها، في حين حددت الميادين، والانماط التي ستواصل بريطانيا طبقا لها، الاستمرار في مساعدة الدولة الفتية ودعمها[١٧]

اشترط الاتفاق العسكري، بان يصبح العراق، خلال اربع سنوات، ملزما بالدفاع عن نفسه كلية فيما يخص الاضطراب الداخلي، والعدوان الخارجي معا. ولهذه الغاية فان على الحكومة العراقية ان تخصص مالايقل عن الربع من ايراداتها لشؤون الدفاع. ومن ناحية اخرى فان الحكومة البريطانية بالاضافة الى احتفاظها بقوات لها في العراق وعلى نفقتها الخاصة، سوف تزود الدولة العراقية ايضا بالضباط والمدربين والاسلحة والتجهيزات، وان تكون تحركات الجيش العراقي عرضة للتفتيش وللارشاد من قبل المندوب السامي نفسه.

كان ارضاء امريكا والدول الاخرى عن الغاء الاستعمار قد تم احرازه[١٨] واعطيت ضمانات قانونية محددة لقاء ذلك. مثال هذا ان رعايا هذه الدول يجب ان يحاكموا امام محاكم تضم واحداً او اكثر من الحكام البريطانيين، وان لايجري تفتيش دورهم الا بحماية، وان يستخدم اخصائيون قانونيون بريطانيون فيما بعد من قبل الحكومة البريطانية، وان تتم مصادقة المندوب السامي البريطاني على كل الاحكام القانونية التي تمس الاجانب قبل ان يجري عرضها على البرلمان.

---

(١٧) اجرى مجلس الوزراء العراقي في جلسته التي عقدها في ٢٥ حزيران ١٩٢٢ عدة تعديلات على النص التمهيدي للمعاهدة من اهمها المادة الاولى التي نصت على ان ينظم ملك العراق قانونا اساسيا يعرض على المجلس التأسيسي، والمادة الثامنة عشرة التي نص فيها على ان «تصبح هذه المعاهدة نافذة العمل حالما تصدق من قبل الفريقين الساميين المتعاقدين بعد قبولها من المجلس التأسيسي، وتظل معمولا بها لمدة عشرين سنة» كذلك سجل جعفر ابو التمن عدة اعتراضات على نص المعاهدة وفي اليوم التالي قدم استقالته. والظاهر انه اراد ان ينبه المعارضة الى خطورة الموقف بعد ان لاحظ اتجاها قويا في مجلس الوزراء يميل الى التصديق على المعاهدة» (الدكتورة. رجاء حسين حسني الخطاب: العراق بين ١٩٢١ - ١٩٢٧ ص ٦١ - ٦٣).

(١٨) استطاع الانكليز والفرنسيون الالتفاف داخل عصبة الامم وخارجها على مبادئ الرئيس ولسون حول تقرير المصير للشعوب المحررة، واشراك امريكا في المناورات التي بدأت حول اقتسام مناطق النفوذ ولاسيما ما تعلق منها بالمناطق التي يتوفر النفط فيها كمن امثال اقليم الاحواز العربي المغتصب من قبل حكومة فارس، والعراق، وبقية امارات ومشيخات الخليج حيث اشتد الصراع على ذلك منذ اوائل سني الثلاثينات (انظر كتاب المؤلف لونغرغ المعنون: استثمار النفط في الشرق الاوسط ١٩٣٨)

وطبقاً للاتفاق المالي وافقت مملكة العراق، بان لاتتعاقد حول اية ديون خارجية من دون موافقة بريطانيا، وان يتم الاعتراف بمسؤوليتها المالية في تحديد حصتها من الديون العثمانية العامة. وان توافق بان تنقل اليها بعض الاشغال المملوكة للبريطانيين والتي كانت قيمتها تبلغ زهاء سبعمائة الف باون. وكانت تلك الاشغال تشمل على وجه التحديد، املاك سكك الحديد، وميناء البصرة. وكذلك ينبغي اعفاء المواد التي تخص القوات البريطانية من رسوم الكمارك والضرائب الاخرى.

ومع ان الرضا عن توقيع المعاهدة كان اجماعيا لدى الرأي العام العراقي، الا ان الاضطراب العام لم يبدأ الا بعد مرور اربعة اسابيع على التوقيع، وذلك بنتيجة الفتاوي المعادية التي اصدرها علماء الشيعة غير المسالمين ضد المشاركة في انتخابات المجلس التأسيس(١٩)

ومع ان تأثير هذه الفتاوى كان ضئيلا في معظم انحاء العراق،الا انه كان قويا في الفرات الاوسط، حيث توقفت عملية الانتخاب هناك، بعد ان اصدرت ارادة ملكية باجرائها في الحادي والعشرين من شهر تشرين الاول. وفي الشمال كان لتهديدات الاتراك وضغوطهم تأثير مماثل ايضا.

وما ان واجه السيد عبد الرحمن النقيب هذه المصاعب، وعلى الاخص عدوان الاتراك على العراق، وكان في ذات الوقت شيخا مسنا متعبا، ويؤيد الاتراك في قلبه، حتى قدم استقالته من المنصب الذي شغله باخلاص خال من كل الاغراض، فخلفه عبد المحسن السعدون في رئاسة الوزارة التي الفها في اليوم العشرين من شهر تشرين الثاني ١٩٢٢ واحتفظت هذه الوزارة بالوزير السابق ساسون حسقيل، وجاءت بالسيد ناجي السويدي الى وزارة الداخلية، وعبد اللطيف المنديل الى وزارة الاوقاف. وعين عبد الحسين الجلبي لوزارة التربية، واعطيت وزارتا الدفاع والاشغال وكالة الى القائدين العسكريين السابقين ياسين الهاشمي ونوري السعيد(٢٠) وبعد ايام قلائل انتقل ناجي السويدي الى وزارة العدل حيث تخلى عنها رئيس الوزراء لكي يحتفظ بوزارة الداخلية وكالة(٢١)

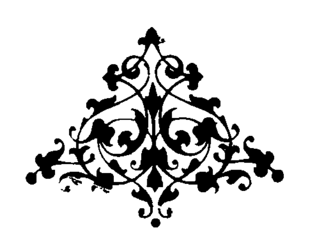
---

(١٩) صدرت الفتاوي لمقاطعة انتخابات المجلس التأسيس من لدن اربعة عشر عالما في مقدمتهم كل من محمد حسين الغروي النائيني، وابي الحسن الموسوي الاصفهاني، ومحمد مهدي الكاظمي الخراساني الخالصي،وقد اصدر الاصفهاني فتوى جديدة قال فيها «ان هذا الانتخاب يميت الملة الاسلامية فمن انتخب بعدما علم بتحريم الانتخاب حرمت عليه زوجته وزيارته ولايجوز رد السلام عليه ولايدخل حمام المسلمين (الوردي: الجزء السادس ص٢٠٣)

(٢٠) عين ياسين الهاشمي وزير الاشغال والمواصلات وكيلا لوزارة الاوقاف في الخامس والعشرين من الشهر ذاته. وكان عبد المحسن السعدون قد طلب تعيين عبد المحسن شلاش وزير الاشغال والمواصلات فلما اعتذر هذا عن القبول عهد بتلك الوزارة الى ياسين الهاشمي.

(٢١) ذكرت المس بل في احدى رسائلها ان السعدون والسويدي والمنديل قد راجعوها وطلبوا اليها ان تقنع المندوب السامي بالموافقة على نقل ناجي السويدي من وزارة الداخلية وتسليم هذه الوزارة وكالة الى عبد المحسن السعدون، (وقد طلبوا الي بان

ولقد التزمت الحكومة الجديدة بقبول المعاهدة، وبدعوة المجلس التأسيس الى الانعقاد، وبالدفاع عن وحدة الاراضي العراقية ازاء الادعاءات التركية، التي اشتد التأكيد عليها الآن بصفة مكشوفة.



اهيْ ذهن المندوب السامي لهذا الاجراء الذي وافقت عليه حالا وذلك لان محسن السعدون سيكون افضل من ناجي السويدي في توليه منصب الداخلية، لان السعدون اقل تأثرا بالمؤثرات السياسية•ولقد وافق السربرسي على ذلك واجريت التعيينات الآن ELIZABETHBURGOYNE: GERTRUDEBELLFROM HERPERSONA LPAPERS1914 1926 P 307 اليزابث بورغوين غرترودبل من رسائلها الشخصية ١٩١٤ ١٩٤٦ ص ٣٠٧ .

٢ - التهديد الموجه الى الموصل

لم تورد اوائل ربيع سنة ١٩٢٢ في الواقع اية انباء مريحة عن المناطق الكردية والحدود التركية. ففي السليمانية طالبت بعض الفئات بعودة الشيخ محمود، وفي بشدر كان العنصر المستقل تحت زعامة شخصية شهيرة هو «بابكراغا»[١] يلاقي مقاومة من القسم المؤيد للاتراك. وفي منتصف شهر اذار من تلك السنة ظهر قائمقام تركي جديد في راوندوز[٢] وفي اثره قوات يقودها القائد الشهير «علي شفيق» الملقب «يوز دمير» اي «الكتف الحديدية» لتعلن افتتاح الاتراك للولاية مجددا.

واخيرا في شهر ايار انتشرت القلاقل التي وقعت في مناطق عشائر «زنكنه» الى مناطق عشائر «الهماوند» التي ماتزال متمردة. ولم يلبث رئيسها «كريم فتاح» ان رتب عملية اغتيال اثنين من الضباط البريطانيين هما النقيب «ماكانت» و النقيب «بوند»[٣] وبذلك وطد مركز الاتراك في راوندوز. غير ان محاولة هؤلاء توسيع الحركة ضد البريطانيين، او ضد حكومة بغداد، قد اوقفت في ذات اللحظة، وذلك على اثر ارسال رتل من قوات المرتزقة، وطائرات من القوة الجوية البريطانية، في ذات الوقت الذي كان فيه «سمكو» رئيس «شكاك» و «طه النيري» قد تخليا، لاغراض خاصة عن اشعال نيران الثورة على الحدود.

ولكن ما ان انسحبت القوات البريطانية حتى تقدم الاتراك مرة اخرى فاحتلوا مدينة «رانية» واصبحوا على اتصال بمنطقة بشدر المتحررة ، حيث اجبرت الاحوال التي نشأت ، البريطانيين عَلى ان يخلوا رعاياهم من السليمانية بواسطة الطائرات ، وان يتركوا الامر فيها الى المجلس الذي

---

(١) هو ابن سليم اغا رئيس عشيرة «نور الدين» في قضاء بشدر وكان من المؤيدين للحكومة العراقية والمعارضين لعودة الاتراك.

(٢)

(٣) كريم فتاح الهماوندي كان يسيطر على منطقة جمجمال في اول الأمر ومالبث ان انسحب الى دربند بازيان.. للانضمام الى قوات الشيخ محمود وقد وقعت معركة حامية بين جماعة كريم فتاح والقوات الانكليزية في ١٨ حزيران ١٩١٩ تمكن فيها الانكليز من دحر الثوار واسر عدد منهم وكان من بين الاسرى الشيخ محمود نفسه وعمه «حاجي سيد حسن» وكاتبه «محمد طاهر» (الغلامي: ثورتنا في شمال الوطن ص١٠٧) وكان كريم فتاح هو الذي رتب اغتيال النقيبين الانكليزيين «ماكانت وبوند». والاخير كان يشغل منصب معاون الحاكم السياسي في جمجمال. فقد حدث ان ذهب الاثنان الى كريم فتاح في دربند بازيان واذ ذاك اشار الى رجاله بقتلهما رميا بالرصاص وكان النقيب «ماكانت» يتولى آمرية الدرك (المصدر السابق ص١١٠).

برأسه الشيخ عبد القادر شقيق الشيخ محمود. اصبح الان في قدرة الاتراك ان يحتلوا كويسنجق ، وان يهددوا مدينة عقرة في ذات الوقت الذي لم تكن فيه القوات البريطانية والعراقية، تمسك بشيء سوى الخط الداخلي لمدن اربيل – كركوك كفري.

على ان الاندفاع التركي المماثل الذي وقع خلال شهر ايلول ١٩٢٢ باتجاه العمادية في اقصى الشمال ، جيث كانت تجري هناك اعادة توطين الاثوريين. قد لقي مقاومة من العشائر الكردية في المنطقة، وانضمام الاثوريين الى صفوفهم بسرعة. تحت وطأة هذه الظروف وجد المندوب السامي نفسه، ولربما وقع في الخطأ نتيجة القرار الذي اتخذه، ان من الواجب عليه ان يرتب مسألة عودة الشيخ محمود الى السليمانية، وذلك لملء الفراغ الذي كانت الحكومة تشعر به هناك ولقد ايد الملك فيصل هذا الاجراء، واستعار من جيشه بعض الضباط الاكراد في الوقت الذي قام فيه المقدم «نوئيل» بمصاحبة الشيخ محمود في عودته

ولكن الشيخ محمود، وعلى النقيض من كل الوعود التي الزم نفسه بها، ما لبث ان اخذ يتراسل مع القائد على شفيق ، الذي كان يصفه بالرجل المتوحش، ويتآمر مع لجنة تركية نشطة في كركوك، الفتها عائلة النفطجي «وبعض التركمان المتمردين، والمطالبة بان يحمل الشيخ محمود لقب الحاكم الاول، وان يعين فيما بعد ملكا على كردستان. في هذه اللحظة، اي خلال شهر تشرين الثاني، تدنى اعتبار الحكومة العراقية وضعفت سيطرتها على الاجزاء الجنوبية من كردستان حتى بلغت الحضيض الى درجة ان السيد «طه النهري» وكان لاجئا الان من موطنه، لم يستطع حتى بمساعدة الحكومة ان يجمع بعض القوات العشائرية ، في الوقت الذي اخفقت فيه الطائرات البريطانية في تشتيت شمل الاتراك الذين احتلوا مدينة رانية.[٤] وفي السليمانية ساد حكم من الارهاب والاضطهاد على يد ما عرف باسم «الحكومة الكردية» حيث ارسلت هذه الحكومة بعثة منها الى بغداد وهي تحمل مطاليب غير واقعية على اعلى المستويات.

تمت مجابهة الحركة الاولى للعدوان التركي على الحدود الشمالية، بتعزيز القوات البريطانية والعراقية في منطقة الموصل، وباقامة الامير زيد في مدينة الموصل ذاتها بصفة موقتة[٥] ذلك ان

---

(٤) تحرك في رانية ضد الانكليز كل من «غفور خان» من عشائر «اكو» وسواراغا» من عشيرة «بيران» ومحمود اغا من عشائر نور الدين. ولما لم يستطع النقيب «باركر» معاون الحاكم السياسي في رانية الوقوف بوجه الحركة غادر رانية مع الحامية التي كانت ترابط فيها وذلك في اواخر ايار ١٩١٩ واذ ذاك قصفت الطائرات البريطانية الثوار في رانية فلجأ عدد كبير منهم الى الحدود الفارسية والتحق اخرون بالشيخ محمود وبذلك استطاع الانكليز احتلال رانية (عبد المنعم الغلامي: ثورتنا في شمال الوطن ص ١٠١ – ١٠٤).

(٥) كان الامير زيد قد وصل الى العراق لاول مرة في شهر تشرين الثاني ١٩٢٢ وفي شهر ايار ١٩٢٣ توجه مع القوات البريطانية والعراقية الى الموصل فاتخذها مقرا له وذلك لغرض اتخاذ الاجراءات اللازمة لكسب شعور الاكراد الى جانب العراق. كما انه الف هناك قوات غير نظامية من افراد العشائر العربية لصد اي اعتداء قد يقع على المناطق الواقعة غربي الموصل (تكوين الحكم الوطني في العراق ترجمة بشير فرجو ٦٩ – ٧٠).

شعبيته التي كان يتمتع بها وزيارته من قبل الملك فيصل شخصيا، قد اديتا الى توحيد الاحاسيس العراقية المناهضة للاتراك.ولكن توفز الاعصاب بقي متواصلا بعد ان كشف الاتراك عن مطاليبهم الحقيقية الواسعة.

وفي اوربا، كانت هدنة «مودانيا» التي انهت الحرب التركية اليونانية في شهر تشرين الثاني، وكذلك المرحلة الدقيقة الحرجة في العلاقات البريطانية التركية، قد اعقبها انعقاد مؤتمر «لوزان الاول». ففي هذا المؤتمر جوبه اللورد كرزن بشخصية عصمت باشا المتحدث باسم تركيا الثائرة والواثقة من نفسها والمنتصرة على الاضطراب وجميع اعدائها(٦)

طالب الاتراك بولاية الموصل اعتمادا على اساس العنصر، والادعاء بان العرب في الموصل قليلون، وان الاتراك كثيرون، وان من النادر تمييز الاكراد عن الاتراك، وانه لاتوجد اسس اقتصادية لان معظم تجارة الموصل تتم مع الاناضول، ولان البريطانيين قد احتلوا الموصل بعد ان اعلنت الهدنة في شهر تشرين الثاني ١٩١٨، وان للموصل حق تقرير المصير، وذلك لان سكان الولاية انفسهم قد طالبوا بعودة الاتراك اليهم.

كان من الضروري لتركيا ان تمنع انفصال اكبر قسم من الشعب الكردي، وتدعه يخضع لهيمنة حكومة اخرى ربما تكون اكثر تحررا،سيما وان الاتراك كانوا قد خططوا سياسة اذابة العنصر الكردي، ومن ثم نفذوا هذه السياسة بشدة وفرضوا الاضطهاد على الاكراد. واستطاع اللورد كرزن ان يفند مسألة عدد السكان التي طرحت في المؤتمر،والتي كانت في الواقع تبعث على السخرية والضحك. فلقد اوضح بصفة ايجابية وضع الجماعات العرقية وعلاقاتها، وصحح الاتصالات الاقتصادية المزعومة، وذلك لان تجارة الموصل كانت تقوم في الواقع مع سوريا وبغداد بصفة غالبة ودائمية، كما انه دحض الادعاء القائم على اساس تقرير المصير، وراح يؤكد مطالبة مملكة العراق برمتها بكل حق لها في ولاية الموصل، واخذ يذكر عصمت باشا بموضوع الانتداب على العراق والذي سبق ان شمل الموصل ذاتها ايضا،وبالنظر الى ما يخص التضاريس الارضية الحادة، والحياة البدائية التي يحياها السكان، فان اللورد كرزن لم يستطع ان يوافق على احتمال اجراء الاستفتاء العام في الولاية بصفة ايسر.

انفض المؤتمر في اليوم الثاني من شهر شباط سنة ١٩٢٣، ومن دون ان يتم حل المشكلة،

---

(٦) مؤتمر لوزان افتتح هذا المؤتمر الذي حضره مندوبون عن الحكومة الامريكية وبريطانيا، وفرنسا. وايطاليا واليابان ورومانيا ويوغسلافيا وتركيا، في العشرين من تشرين الثاني ١٩٢٠ وقد تم التوقيع على معاهدة لوزان في ٢٤ تموز ١٩٢٠، وتضمنت المادة الثالثة منها حدود تركيا مع سوريا والعراق. والتي تقول «سوف يعين خط الحدود بين تركيا والعراق باتفاقية ودية تعقد بين تركيا وبريطانيا خلال تسعة اشهر... وتتعهد الحكومات التركية والبريطانية تعهدا متبادلا بانه الى حين التوصل الى قرار حول موضوع الحدود لن تحدث حركة عسكرية ولا اية حركة اخرى قد تغير بطريقة ما حالة الاراضي الراهنة التي يتوقف مصيرها النهائي على ذلك القرار». وكانت المادة الاولى من معاهدة لوزان قد نصت على انهاء حالة الحرب مع تركيا واعادة السلام معها.

ورفض الاتراك بصفة مطلقة العرض الذي تقدم به اللورد كرزن، او التهديد بالاشارة الى قضية تحكيم عصبة الامم في الموضوع. سارت الجمعية الوطنية التركية في اوائل شهر نيسان من هذه السنة قدما في منح المغامر الامريكي الاميرال جستر[7] الباحث عن الامتيازات، امتيازا بمد خط حديدي، والتنقيب عن المعادن حتى داخل حدود العراق غير انه في مؤتمر لوزان الثاني الذي انعقد في اليوم الثالث والعشرين من شهر نيسان ١٩٢٣ قد ظهرت مجالس اكثر حكمة. فالضغط البريطاني لاحالة قضية الموصل الى عصبة الامم لاصدار قرار عنها، كان يمثل خطوة متجاوبة تماما مع الرأي العام العالمي برمته آنذاك، بحيث لم يعد مستطاعا مقاومة مثل هذه الخطوة.

تمسك عصمت باشا» بكل ادعاءاته، لكنه وافق على القول بانه اذا ما اخفق الاتفاق الانكليزي التركي خلال اثنى عشر شهرا (انقصت هذه المدة الى تسعة اشهر فيما بعد) فانه يطلب حينذاك تحكيم مجلس العصبة في النزاع.

ظل البحث عن اتفاق من هذه الشاكلة والذي جرى تعقبه في مؤتمرات حضرها السربرسي كوكس في اسطنبول خلال شهري ايار وحزيران سنة ١٩٢٤، امرا عديم الجدوى. ذلك لان ايامن الجانبين لم يظهر اي تساهل، وازاء التردد الواسع الذي اظهرته تركيا، اقدمت بريطانيا على احالة المشكلة الى مجلس عصبة الامم مرة اخرى، وكان المقرر ان ينعقد مجلس العصبة في اليوم العشرين من شهر ايلول سنة ١٩٢٤

لم تنتج كل هذه التحركات الدبلوماسية في اوربا شيئا ما، لكنها في الوقت ذاته ادت الى توحيد الحركة والعنف في كردستان. فقد اخذ الشيخ محمود يساند رفاقه القتلة على غصب ممتلكات اولئك الذي فقدوا النصير من الافراد، واخذ يعلن ترحيبه بالضباط الاتراك في السليمانية، وبعث بمندوبيه الى كركوك للتشاور مع التركمان المحليين، واكثر من هذا انه ارسل مندوبين من لدنه حتى الى الشيعة في كربلاء والنجف لينال مساعدتهم اياه.

واذ رفض الشيخ محمود اوامر المندوب السامي بان يؤكد وجوده في بغداد، فقد هرب من السليمانية بفعل قنابل القوة الجوية البريطانية، والتجأ الى سردشت بكل ما استطاع ان يجمعه من الاموال والانصار. ولكن الشدة التي اظهرتها طائرات القوة الجوية البريطانية قد حالت دون دخول عصابات الشيخ محمود الى السليمانية لاعادة احتلالها. كذلك اجريت الاتصالات مرة اخرى مع اخيه الشيخ عبد القادر.

---

(٧) الاميرال جستر اول المغامرين الامريكان الذين حاولوا الحصول على امتياز بالبحث عن النفط في تركيا والعراق في سنة ١٨٩٩ ثم جدد محاولاته تلك في عهد الاتحاديين وحصل منهم على وعد تحريري لمنح الامتياز المذكور. لكن الاتفاق لم يوقع عليه نتيجة قيام الحرب بين تركيا وايطاليا واحتلال ليبيا في سنة ١٩١١ (انظر كتابنا معركة النفط في العراق ج ١ ص ١٤ – ٢٥).

وهنا وجدت عشائر الجاف وغيرها منتهى المسرة في الانفصال عن نفوذ «حكومة السليمانية»

وعلى الحدود الشمالية كانت معاملة الاتراك للأكراد الساكنين هناك في اراضيهم تؤكد في داخل الحدودة العراقية - وجود المقاومة التي ابداها الاكراد بوجه عودة الاتراك•لقد كانت معسكرات الاتراك في نصيبين وجزيرة ابن عمر، تثير الفزع، وظل استمرار احتلال القوات التركية لرواندوز يؤلف مصدر مؤامرات عدوانية داخل العراق.

اما في الاراضي المتنازع عليها خارج الحدود، فقد اخذ توطين الاثوريين يسير فيها قدما، اذ بنيت مئات المنازل لهم في مناطق دهوك والعمادية وزاخو، بينما استقر اخرون منهم في موطنهم الاصلي منطقة «تياري»[8] والبلاد المجاورة لها. واكثر من هذا ان الاثوريين ما ان اخذوا يحاولون التوطن في اوائل سنة ١٩٢٣ حتى جوبهوا بهجمات من قبل اغوات «الاورمار» في العمادية، مع ان الاثوريين ساعدوا في صد الهجمات التركية وهجمات الزيباريين على العمادية ذاتها.

تمت استعادة مدينة راوندوز من ايدي الاتراك بعملية عسكرية احسن اداؤها، وشارك فيها الجيش العراقي، وقوات المرتزقة وقوات الشرطة، وذلك في شهر نيسان سنة ١٩٢٣، حيث شهدت المنطقة هبوطا في النفوذ التركي فيها. فلقد تم تعيين «سيد طه النهري» قائمقاماً لراوندوز، وعزز بحامية من قوات المرتزقة تمركزت فيها. اما الرتل الذي كان قد استعاد راوندوز فانه قد تقدم مرة اخرى نحو السليمانية. وبعد ان قلصت مدة المعاهدة باربع سنوات طبقا للبروتوكول الذي الحق بها، اصبح من اللازم الان وضع الترتيبات المسبقة للمستقبل الذي تحتله هذه المنطقة في الدولة العراقية

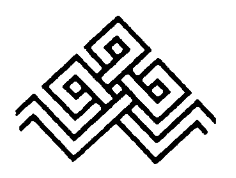
دخلت قوات الجيش العراقي، تؤازرها قوات المرتزقة، مدينة السليمانية في منتصف شهر ايار، وتم بحث المستقبل فيها مع الاغوات وابناء المدينة المتشوقين الى توطيد السلام، وضمان عمل الحكومة. ونظرا لانه لايمكن الاحتفاظ بقوات هناك فان سلطة المجلس المحلي في السليمانية التي اودعت الى الرتل العراقي الذي دخلها، كانت قصيرة وانتهت بانسحاب ذلك الرتل من المدينة

كان مستطاعا نقل المناطق البعيدة من عهدة محافظة السيلمانية من امثال جمجمال، وحلبجة، وسنغاو، ووضعها تحت الاشراف المباشر لمحافظة كركوك، على ان تترك المنطقة الضيقة المعرضة للاعمال التي كان الشيخ محمود يمارسها هناك. غير ان الشيخ محمود ما ان انذر بانه قد يتعرض لهجوم تقوم به قبائل الهماوند ضده خلال ايام قلائل قادمة، حتى عاد الى السليمانية في شهر تموز. وحين تجاهل للمرة الثانية امر المندوب السامي البريطاني بالقدوم الى بغداد، استنفرت القوات البريطانية للعمل ضده• وفي فصل الخريف، وحين كان الشيخ محمود مايزال يأبى الخضوع او الولاء للحكومة البريطانية، دخل مجددا في مراسلات مشجعة مع الاتراك، ووضع الخطط

---

(٨) من مناطق «حكاري» ومنها اشتق الاسم الذي مايزال يطلق على الاثوريين حتى الان حيث يسمون بالتيارية او التياريين نسبة منطقة «تياري». (انظر كتابنا معركة النفط في العراق ج ١ ص ١٤ ٢٥).

لمهاجمة كركوك، والقدم على جباية الضرائب من قرى حلبجة، وجمجمال، وعلى مثل هذه الشاكلة انقضى شتاء سنة ١٩٢٣ ١٩٢٤[٩]



(٩) اشارت المس بل في رسالتها المؤرخة في الاول من اذار الى محاولات الشيخ محمود لمهاجمة كركوك فقالت واني اخشى بانه اذا لم يقم بتسليم الحكم الى الاشراف المحليين، ويخلي مدينة السليمانية، كما امر ان يفعل ذلك، فاننا سنضطر الى ان نقصف المدينة بالقنابل. ان الحرب الجوية فظيعة بشكل مفزع ولكن عندما تتقلص قواتك البرية الى مجرد هيكل عظمي ليس الا. فما الذي في مقدورك ان تفعله؟ (بور غوين: المس بل من رسائلها الجزء الثاني ص ٣١٠).

٤ ـ المجلس التأسيسي

اعقب التوقيع على المعاهدة الانكليزية العراقية في اليوم العاشر من شهر تشرين الاول ١٩٢٢ وضع مسودة وتعديلها للقانون الاساسي الذي وعد به.في كل من لندن وبغداد، وذلك بعد ان تم التوقيع النهائي في اليوم الرابع من شهر اذار سنة ١٩٢٤، على الاتفاقات الاضافية الملحقة، وقبول بروتوكول المعاهدة الذي سبق اعداده تلك الاتفاقات بعدة اشهر. ولقد جاء وضع هذا البرتوكول اولا نتيجة ازدياد تاكد البريطانيين من «المشاعر التي اظهرها العراقيون ازاء قضايا الانتداب، وثانيا من تعاظم ضغط الصحافة والرأي العام في بريطانيا على الحكومة البريطانية، وبصفة خاصة على السيد «بونار لو» رئيس الوزراء البريطاني المقبل، بقصد تقليص النفقات والالتزامات البريطانية في العراق. ومالبث هذا البروتوكول ان اعيد الى بغداد على يد السر برسي كوكس من لندن، وذلك خلال شهر اذار ١٩٢٣، حيث وقع كوكس نفسه على ذلك البروتوكول مع السيد عبد المحسن السعدون في آخر يوم من شهر نيسان.

حظي تقليص مدة المعاهدة من عشرين سنة الى اربع سنوات بالترحيب الحار من لدن الملك فيصل ورجال السياسة على حد سواء، في حين ظل انصار الانكليز من رؤساء العشائر وبعض البارزين وحدهم، غير واثقين من الحكومة العراقية الفتية، ويخشون من منافسيهم، ويعتبرون هذه الحكومة حكومة خائنة.

كان توقيع السر برسي كوكس على البروتوكول آخر عمل قام به في العراق. في اعقاب ذلك غادر بغداد في اليوم الخامس من شهر ايار. وهكذا استطاع هذا الرجل بذكائه، وصبره، وتصميمه النافع، ان يقدم خدمات جلى الى الدولة العراقية. اعطي منصب المندوب السامي الى خلف ليس اهلا له، هو السر هنري دوبس الذي خدم في البصرة في اوائل ايام الاحتلال، وكان قد جاء من الهند الى العراق ليعمل مستشارا لدى كوكس في اواخر سنة ١٩٢٣

«لم يحقق التحسن الذي طرأ على الجو السياسي، والترحيب الذي لقيه الملك فيصل في جولاته الناجحة التي قام بها في المناطق الشمالية والجنوبية من العراق، اية وسيلة لتهدئة علماء الشيعة. فلقد تضاعفت تحريضاتهم اللاهبة ضد البريطانيين، والتي ظهر فيها العنصر المؤيد للاتراك

بشكل ظاهر في عدة اوقات، وذلك عن طريق اصدار الفتاوى ضد الانتخابات التي تقرر اجراؤها في شهر حزيران ١٩٢٣ [١]

كان التصادم بين سياسة هولاء الشيعة وسياسة حكومتهم جلياً بارزاً. كذلك أدىٰ حادث وقع في اواخر شهر حزيران في السوق الى التحام النزاع بين اولاد الشيخ مهدي الخالصي، ورجال الشرطة [٢]

كان الملك يرغب ان يأذن باعتقال الأولاد وأَبيهم معا. ولكن جيءْ بهم الى البصرة حيث غادروا البلاد ومن هناك توجهوا الى مكة لاداء فريضة الحج.

اغلقت الاسواق في النجف استنكارا لهذا الاعتداء الذي وقع على رجال العلم، الذين تجمع فريق منهم للخروج حانقين من العراق العاق. وقد سار هؤلاء الى كربلاء وصموا اذانهم عن تاكيدات الحكومة، ومِن ثم غادروا العراق، باعداد متناقصة، الى كرمنشاه في بلاد فارس. بقي هؤلاء في كرمنشاه ينتظرون بثقة تامة، النتائج التي ستسفر عنها مثل هذه المبادرة المثيرة، ولكن اية نتائج لم تحدث، بل لم يعقب ذلك الحادث ادنى تعليق من مدينتي النجف وكربلاء، في الوقت الذي ابدى فيه الفريق الآخر منهم فرحه بما حدث. اما بالنسبة الى الحكومة العراقية فقد كان ذلك الموقف هو الجواب الحقيقي الذي ردت به على الاحتجاجات التي تقدمت بها الحكومة الفارسية، والتي لم تجد لها اذاناً صاغية في بغداد [٣]

---

(١) المقصود بها انتخابات المجلس التأسيسي.

(٢) شارك ولدا الخالصي، حسن وعلي، في لصق فتاوى تحريم انتخابات المجلس التأسيسي على ابواب صحن المرقد الكاظمي. وحين كان حسن يروم الصاق احدى الفتاوي على باب القبلة في المرقد حاول احد افراد الشرطة القاء القبض عليه، لكن حسن الخالصي هتف بالناس «اقتلوا هذا الرجل انه كافر يهودي» فامسك الحاضرون بذلك الشرطي وطرحوه ارضا واستل حسن سكينة من جيبه وقال للشرطي «سوف اقتلك» لكن الشرطي استطاع الافلات والعودة الى مركز الشرطة، واذ ذاك اقدمت ثلة من الشرطة يقودها المعاون عبد الرزاق الفضلي فالقت القبـض على حسن وعلي ولدي مهدي الخالصي. ونظرا لان اكثرية مجتهدي الشيعة كانوا من اصل فارسي، والبقية منهم يحملون الجنسية الفارسية تخلصا من الخدمة العسكرية، فقد اجرت الحكومة تعديلا في قانون العقوبات البغدادي في التاسع من حزيران، وجوز هذا التعديل للحكومة حق نفي الاجانب من العراق، ولما كان السيد مهدي الخالصي فارسي الاصل ومن مدينة خراسان، فقد توفرت لدى الحكومة وسيلة قانونيه لابعاده هو واولاده عن العراق، حيث تم القاء القبض عليه في ساعة متاخرة من مساء يوم ٢٦ حزيران في داره واركب سيارة نقلته الى محطة القطار حيث اعد قطار خاص نقله مع ولديه واثنين من تلاميذه «سلمان الصفواني» الذي كان يعرف باسم سلمان القطيفي، وعلي فتي، الى البصرة، حيث تم نقلهم بالباخرة «فاسنا» الى بومباي، ومن هناك اعدت باخرة ثانية نقلتهم الى عدن ومن ثم ركبوا باخرة ثالثة الى جدة (انظر تفاصيل ذلك لدى علي الوردي ج ٦ ص ٢١٨ ومابعدها).

(٣) اعلن المجتهدون في النجف انهم متضامنون مع الخالصي وان نفيه اهانة للدين واهله، وصمموا على الهجرة من العراق احتجاجا على ذلك. توجه هؤلاء من النجف الى كربلاء فاعدت لهم خيمة نزلوا فيها هناك ومنع اتصال الاهالي بهم حاول محافظ كربلاء «مولود مخلص» التفاهم معهم واقناعهم بالعدول عن السفر، ولكنهم اصروا على ذلك واذذاك اذنت الحكومة للمحافظ بان يسمح بسفر الفرس، ووضع العراقيين من المجتهدين تحت مراقبة الشرطة وعدم السماح بسفرهم الى بلاد فارس. وفي اليوم الاول من تموز تم تسفير الفرس من المجتهدين وهم ابو الحسن الاصفهاني، وحسين النائيني، وجواد الجواهري، وعلي =

كذلك لم تجد نفعا الزيارة التي قام بها الوزير البريطاني في طهران للعراق لغرض الوساطة. وبعد اتصال عملي قام به المتحدثون باسم الدين من الشيعة، مع رئيس الوزراء في شهر تشرين الثاني، وادعائهم بحدوث تغيير في التفكير والسياسة، تم السماح لزملائهم الذين اختاروا المنفى بانفسهم، بالعودة الى العراق على شرط ان يتخلوا عن الامور السياسية بعد ذلك. وهكذا عادت نفس الجماعة التي خرجت، بالدخول الى العراق في شهر نيسان سنة ١٩٢٤، ومع ان هذه الجماعة مازالت تحتفظ بنفوذها، الاانها لم تستطع ان تسترجع سيطرتها القديمة على شؤون البلاد.

وما ان تم تطهير الميدان على هذه الشاكلة، حتى اصبح في مستطاع ماكنة الانتخابات ان تباشر عملها. اما الاضطراب الذي نشأ بين الاكراد والتركمان الساكنين في كل من كركوك واربيل، حول اقامة حكومة عربية، فقد استطاع المندوب السامي ان يهدأه، كما تم توضيح بعض الغموض الحاصل في الاحكام القانونية التي تخص تمثيل العشائر. ذلك لان افراد العشائر، الذين كانوا يخضعون لسلطة وزير العدل، في مستطاعهم ان يسجلوا اسماءهم بصفة ناخبين اعتياديين، بالاضافة الى تمتع الممثلين المحددين لهم، بعشرين مقعدا. ولذلك جعل هذا الامتياز الجديد الذي ناله افراد العشائر الذين لم توفر لهم مفاهيمهم التركية اي صوت على الاطلاق، جعل ابناء العشائر يمقتون المحافظين في الولاية والمنتمين الى الحزب الحر المعتدل الذي يتزعمه السيد محمود النقيب، كما انهم اثاروا الشقاق فيه مما ادى الى زواله.

استطاع الناخبون في السليمانية، والذين سجل البعض منهم في كركوك رغم ان مقر مدينتهم الخاصة بهم كان خارج نطاق السيطرة انذاك، ان يكملوا اوراق الانتخابات في محافظتهم، وان يختاروا نوابهم، بعد ان تم احتلال مدينة السليمانية مرة اخرى في سنة ١٩٢٤ وفي منتصف شهر اذار من تلك السنة كانت الاجراءات الخاصة بعملية الانتخابات الاولية والثانوية قد كملت.

وصلت وزارة السيد عبد المحسن السعدون في شهر تشرين الثاني الى مرحلة الاحتضار التي تسبق النهاية. وكان سبب ذلك هو الخلاف مع العناصر الشيعية، والى وجود شيء من عدم

= الشهرستاني، وعبد الحسين الشيرازي، ومهدي الخراساني، وحسن الطباطبائي، وعبد الحسين الطباطبائي. كذلك تم تسفير الشيخ محمد [illegible] من الحلة في مساء اليوم الثاني من تموز نتيجة اقدامه على تحريض الناس على التظاهر احتجاجا على تسفير اولئك [illegible] (على الوردي المصدر السابق ص٢٢٨ ومابعدها) توجه النازحون الى كرمنشاه فكثوا فيها شهراً وقد ابرق القنصل البريطاني في [illegible] ، الى رئيسه الوزير البريطاني المفوض في طهران السر برسي لورين يصف له وضع المنفيين الذين اعلنوا امام الناس انهم [illegible] الى العراق الا بشروط منها عزل الملك فيصل وزعموا بان لديهم رسائل من رؤساء العشائر الكبار يؤيدونهم في مطلبهم [illegible] هناء انتقل النازحون الى «قم» وحاول السفير البريطاني في طهران اقناع حكومة بغداد بالسماح للنازحين بالعودة [illegible] ذلك (ذات المصدر ص ٢٣٧) كان عدد المهاجرين الى فارس ثلاثين شخصا، وعدد الذين منعوا من [illegible] وقد توفي الشيخ مهدي الخالصي في خراسان في العاشر من نيسان ١٩٢٥ ودفن بجوار الامام علي بن [illegible].

الاتفاق مع الملك[٤] واذذاك دعا الملك، جعفر العسكري الذي عاد من جنيف، وعين محافظا للموصل لبضعة ايام قيمة، لتأليف وزارة ينبغي لها ان تواجه المجلس التأسيسي. وما ان قبل بهذه المهمة حتى احتفظ باثنين من الوزراء الشيعة، احدهما الحاج محسن شلاش لوزارة المالية[٥] كما اعطى وزارة الداخلية الى علي جودت الايوبي، وهورجل عصري الفكر ومن الضباط السابقين كان قد عهد اليه بوكالة محافظ الحلة. ومن ثم اكمل العسكري وزارته باستيزار كل من صبيح نشأت، ونوري السعيد، والشخصيتين البارزتين من الموصل والبصرة وهما احمد الفخري والشيخ صالح باش اعيان، لوزارات اخرى، في حين تم ابعاد ساسون حسقيل لاول مرة[٦]

حققت الزيارة الرسمية التي قام بها الملك، في شهر كانون الاول من تلك السنة لكل من كربلاء والنجف، نجاحا كبيرا. كذلك رفع اطلاق الملك حسين على نفسه لقب «الخليفة» في شهر اذار ١٩٢٤، بعد الغاء الخلافة العثمانية، وهو اللقب الذي كان سلطان تركيا يلقب به في خطبة الجمعة، من اعتبار العائلة المالكة، وقوبل برغبات مدهشة من الشيعة والسنة على حد سواء.

تم افتتاح المجلس التأسيسي بخطاب احتفالي القاه الملك في اليوم السابع والعشرين من شهر اذار. ولقد امضى المجلس، تحت رئاسة عبد المحسن السعدون، في تنفيذ مهمته الاولى، وهي التصديق على المعاهدة العراقية الانكليزية وعلى البروتوكول الملحق بها. وبدا بان الاغلبية المؤيدة للمعاهدة،كانت مؤكدة، وانها كانت حاضرة في البداية، ولكن الجو سرعان ماتغير. ذلك لان الشدة التي انطوت عليها المعاهدة، ولاسيما ما تعلق منها بالاتفاق المالي، قد اكدتها اصوات المعارضة وزادت من التهويل بشأنها، وسرعان ماتمت تعبئة كل الاحاسيس التي تقاوم الانتداب.

لقد انسحب النواب الاكراد، لاسباب خاصة بهم، من المناقشات، ولم يعد نواب الموصل يفكرون في شيء سوى الخطر الذي كان يتهدد ولايتهم[٧] اما رؤساء العشائر الذين كانوا يتحركون في عالم غريب بالنسبة اليهم، فانهم قد رأوا كل ذلك وسنحت لهم الفرصة المتاحة للمساومة على تأييدهم لقضية المعاهدة، لقاء منافع شخصية اوعشائرية. وسرعان مابرز القوميون من المحامين والساسة في المجلس التأسيسي، عنصرا واثقا من نفسه ونشطا، حيث شنوا حملة من الاصرار على تحقيق التغييرات الكبرى، بل التغييرات الاساسية في الواقع، في بنود المعاهدة، ومن

---

(٤) يبدو ان استفحال الضائقة الاقتصادية كان من الاسباب التي قللت من ثقة الملك فيصل بوزارة السعدون وقد ذكرت المس بل في رسالة لها مؤرخة ٣١ تشرين اول ان الملك قد اثار ازمة وزارية كعادته، وان تأثر الملك من هذه الوزارة، وهي حسنة على العموم، ليس معقولا (بورغوين ص ٩١٣).

(٥) اما الثاني فهو وزير التربية المزمن عبد الحسين الجلبي.

(٦) اعيد استيزار ساسون حسقيل بعد سقوط وزارة العسكري، وذلك في الوزارة الهاشمية الاولى التي تألفت في اليوم الثاني من شهر اب ١٩٢٤ ولم يستوزر بعد ذلك ابدا.

(٧) يقصد بهذا الخطر استمرار الاتراك في مطالبتهم بضم ولاية الموصل الى تركيا، اضافة الى حوادث الشغب التي احدثها الاثوريون في تلك الفترة.

ثم اعقب ذلك، التهويل المبالغ فيه، واثارة العنف الكلي في النهاية. لقد جرح اثنان من انصار المعاهدة جراحا عميقة في الشوارع[٨] وهدد اخرون غيرهم بالموت.

وبلغ الارهاب الذي اثير عمدا خارج بناية المجلس، حدودا كانت خارج نطاق سيطرة الشرطة، مما استدعى انزال قوات الجيش لصيانة الامن[٩]

كرس المندوب السامي، ولكن بنجاح ضئيل، جهودا وطيدة لعرض الطبيعة الاساسية للمعاهدة، وللحقائق المتعلقة بوضع العراق. فقد اوضح التزامات بريطانيا المقبولة ازاء عصبة الامم، واعطى تأكيدات حول ادخال تعديلات على المعاهدة فيما بعد، تكون في صالح العراق. غير ان عشرات اللقاءات التي جرت بين المندوب السامي، والملك ورئيس الوزراء، وكورنواليس، وياسين الهاشمي وزعماء المعارضة، لم ينتج عنها وضع قاعدة يمكن بها مصالحة «الوطنيين»[١٠] لغرض المصادقة على المعاهدة. وأخيراً أعلن المندوب السامي «هنري دوبس» بأن رفض العراق للمعاهدة، كما ظهر الآن بصفة حتمية، لابد من عرضه – مع كل الاسف – على عصبة الامم في اجتماعها المقبل، الا اذا حصل التوقيع على المعاهدة في اليوم العاشر من شهر حزيران، وان على بريطانيا حينذاك، ان تبحث فيما بعد ذلك التأريخ عن وسائل اخرى، بدلا من المعاهدة الودية السخية، لانجاز مهمتها الانتدابية. ولقد بقي موقف هنري دوبس ثابتا، ازاء هذه النقطة، ورفضه المساومة اوادخال تعديلات على المعاهدة.

ومثل اي يوم اخر سبقه، امتلأ اليوم العاشر من حزيران بالانشقاقات، والخضوع، والتحذيرات، والرفض. ولكن حتى بعد ظهر ذلك اليوم لم تظهر اية نتيجة، وحينذاك رفض «دوبس» رفضا قاطعا، تأجيل الموعد الى اربع وعشرين ساعة اخرى. وقبل منتصف الليل نجح رئيس الوزراء جعفر العسكري في اقناع تسعة وستين من مجموع مائة من اعضاء المجلس التأسيسي الذين حضروا القاعة. وفي النهاية تم الحصول على سبعة وثلاثين صوتا في عدم تعديل المعاهدة، واربعة وعشرين معارضا لها، وتغيب ثمانية نواب، كان تغيبهم دون شك، نتيجة التخويف.

---

(٨) هما عداي الجريان وسلمان البراك وقد تغيب بعض انصار المعاهدة عن الجلسات اثر ذلك من الخوف.

(٩) في الثاني من نيسان ١٩٢٤ قدم جعفر العسكري رئيس الوزراء الى عبد المحسن السعدون رئيس المجلس التأسيسي، نص المعاهدة وملحقاتها بكتاب مستفيض حيث جرت المناقشة عليها في ذلك اليوم ولكن المعارضة للمعاهدة تفاقمت وتعاظمت بما كان يعقد من اجتماعات جماهيرية وينشر من مقالات في الصحف المعارضة، وعلى اثر ذلك صدرت تأكيدات من الحكومة البريطانية ومن المندوب السامي في بغداد بأن المعاهدة المذكورة ستكون بدلا عن نظام الانتداب الذي فرضته عصبة الامم على العراق. كما صدرت من مجلس الوزراء عدة بيانات بان المجلس التأسيسي لن «يفرط بحقوق الشعب مهما كانت الاحوال». ووصل انذار من سكرتير عصبة الامم الى العراق بضرورة المصادقة على المعاهدة قبل عقد الاجتماع المقبل لمجلس العصبة في الحادي عشر من حزيران ١٩٢٤! اضافة الى الانذار الذي وجهته الحكومة البريطانية بهذا الشأن، واذذاك تقرر جمع المجلس التأسيسي ليلا فحضر الجلسة ٦٨ نائبا وتغيب عنها ٣٢ نائبا، وفي هذا الاجتماع تمت المصادقة على المعاهدة.

(١٠) كتب المؤلف كلمة «وطنيين» باللفظ العربي وبالحروف الانكليزيةWATANIS .

كان قبول المعاهدة، وحتى وان صودق عليها بمثل هذه الطريقة الشاذة بشكل مؤسف، قد تمت احاطته بشروط وجد جعفر العسكري ان من اللازم ان يحددها. وهي ان على الحكومة البريطانية ان تفي بتعهداتها وتأكيداتها بتعديل الاتفاق المالي لصالح العراق، وان يسارع ملك العراق في التفاوض مع الحكومة البريطانية في سبيل هذه الغاية، والا فان المعاهدة برمتها سوف تكون ملغاة وباطلة «اذا ما اخفقت الحكومة البريطانية في صيانة حقوق ولاية الموصل بكاملها».

اعقبت الايام والليالي العاصفة لتصديق المعاهدة في العراق وعلى نطاق واسع، فترة هدوء نسبي، ذلك الهدوء الذي اصبح فيه كل عنصر معارض للمعاهدة او للبريطانيين خامدا لكنه مايزال حيا.

اما في المجلس التاسيسي فان ورود فقرة سلمية في القانون الاساسي، وفي قانون الانتخاب، قد دللت على الخوف الجامح الذي احاق بالنواب. كان القانون الاساسي، وهو نتيجة تامة ومعقولة لاعادة وضع مسودته بصفة متكررة، يمنح العراق دستورا شبه ثابت، يعلن بان العراق دولة ذات سيادة، مستقلة وحرة، ذات ملكية وراثية ودستورية، وحكومة ممثلة توطد حقوق الشعب والتاج، والتشريع، والوزراء، وتؤسس المحاكم، وتنظم المسؤليات المالية والادارية.

اما قانون الانتخاب فانه يمنح حق التصويت لكل شاب عراقي يدفع الضرائب، ويشترط لذلك ان يكون الانتخاب اوليا وثانويا حيث ينتخب الناخبون الثانويون، بنسبة واحد من كل مائتين وخمسين من الناخبين الاولیین، نائبا يمثل عشرين الفا من الناخبيين، وينبغي على النائب ان يكون منتميا الى ذات الدائرة الانتخابية المؤلفة من مجموع من المحافظة، بصفة ناخب. وكان هناك تمثيل منفصل يتمتع به افراد العشائر، والاقليات اليهودية والمسيحية في كل من محافظات بغداد، والبصرة، والموصل.

وفر حل المجلس التأسيسي، الفرصة التي كان جعفر العسكري يبحث عنها للاستقالة من رئاسة الوزارة. وفي اليوم الثاني من شهر اب تألفت وزارة جديدة برئاسة ياسين الهاشمي، فاذا بهذه الوزارة تجابه بقضايا الحدود الشمالية، وبالصعوبات المالية الملحة. تم استدعاء عبد المحسن السعدون لتولي وزارة الداخلية، وساسون حسقيل لوزارة المالية، واعطيت وزارة العدل لمحام شاب نشط وحاذق ومن اسرة طيبة، لكنه كثير القلق والتسرع، هو رشيد عالي الكيلاني، بينما عهد بوزارة المواصلات والاشغال الى عضو اصغر من اسرة الباجه جي، مؤثر وغير قاصر، هو مزاحم، واعطيت وزارة التربية الى سياسي ومتعلم هو رضا الشبيبي، في حين اعطيت وزارة الاوقاف الى شيخ الاسلام السابق والذي عاد مؤخرا من اسطنبول ونعني به ابراهيم افندي الحيدري (١١)

(١١) هو حفيد المرحوم ابراهيم فصيح الحيدري، المتوفي في سنة ١٨٩٦، من كبار العلماء والذي وضع مؤلفاً شهيرا عظيم الفائدة سماه (عنوان المجد في بيان احوال بغداد والبصرة ونجد) وقد صدرت طبعة ركيكة غير منقحة لهذا الكتاب في سنة ١٩٦٤ ببغداد وهناك الآن حاجة قصوى الى اخراج طبعة منقحة وموثقة لهذا الكتاب.

تولى رئيس الوزراء نفسه منصب وزير الدفاع، بالاضافة الى وزارة الخارجية التي انشئت حديثا،وذلك وفقا لتلميح موقوت، في حين تولى نوري السعيد منصب رئيس اركان الجيش الذي كان الملك على رأسه بصفة اسمية. وفي السابع عشر من شهر تموز قدمت الحكومة البريطانية الى مجلس عصبة الامم، اداة تجسد بها احكام وشروط كل الوثائق التي يتم الآن التصديق عليها فيما بينها وبين العراق. ولقد قبلت تلك الوثائق من لدن عصبة الامم في اليوم السابع والعشرين من شهر ايلول ١٩٢٤، مقرونة بشرط ينص على تقديم تقرير سنوي من لدن بريطانيا الى عصبة الامم حول وصايتها على العراق، على افتراض ان تتحمل الحكومة البريطانية، المسؤولية التامة عن تنفيذ المعاهدة، وعن التهرب عن تعديل المعاهدة بكاملها من قبل البريطانيين او العراقيين، من دون رضا عصبة الامم. ولقد صادق الملك جورج على المعاهدة في اليوم العاشر من شهر تشرين الثاني، كما صادق عليها الملك فيصل في اليوم الثاني عشر من شهر كانون الاول ١٩٢٤



٥. تسوية قضية الموصل

في محافظة السليمانية البعيدة عن ضغوط بغداد، اخذ حلم انشاء دولة، اي نظام حكومة كردية تحت زعامة الشيخ محمود، والتي خربت الريف وارغمت السكان على الهجرة من المدينة، يتجه الى نهايته في ربيع سنة ١٩٢٤. ذلك ان قضائي جمجمال وحلبجة، اللذين لم يعد مستطاعا الآن ادراتهما من كركوك، قد انتخبا للمجلس التأسيس نوابا، كان من بينهم شقيق الشيخ محمود. كان الشيخ محمود قد تجاهل مرة اخرى الانذار الذي وجه اليه، وحذر بانزال العقاب فيه، وهو الانذار الذي وجه بشكل مغاير وعلى اسس انسانية، الى سكان القرى، والقاضي بانه سيتم قصفها في آخر مرحلة. وطبقا لذلك توجهت احدى طائرات القوة الجوية في اواخر شهر ايار ١٩٢٤ بزيارة المدينة، حيث ارغم الشيخ محمود في النهاية على مغادرتها، وعلى هذا الاساس دخلت قوات المشاة والخيالة من الجيش العراقي، الى جانب قوات المرتزقة، مدينة السليمانية في شهر تموز، واخيرا تم استئناف الادارة فيها من قبل الحكومة العراقية، التي استطاعت ان توفر الاموال اللازمة لمعالجة الاوضاع السيئة القائمة هناك.

اصبح في مستطاع سكان معظم الاجزاء غير المأهولة من مدينة السليمانية ان يعودوا الى بيوتهم بمعونة مجددة. وفي نهاية تلك السنة زاد عدد السكان في المدينة الى عشرين الف شخص. اما الشيخ محمود الذي اخذ يختبئ في القرى الجبلية، ويجتاز الحدود الى الاراضي الفارسية ويعود منها، فقد ظل يحتفظ بعصابة من الشقاة.

وعلى الحدود الشمالية، ادت اعادة توطين بضعة آلاف من الاثوريين العائدين الى مواطنهم الجبلية القديمة، الى حدوث الاضطراب وذلك بعد مرور سنتين على اعادة توطينهم بصفة سلمية، ذلك لان المنطقة المعينة لهم كانت تقع تماما شمالي الحدود القديمة للولاية، ولكنها داخل منطقة طالبت الحكومة البريطانية بضمها الى العراق كي تصبح ضمانا لاعادة توطين الاثوريين فيها.

ادى اقدام الآثوريين على اعتقال الوالي التركي في «جلمرك» حين كان يقوم بزيارة قرية «جلو» في شهر تموز، ومن ثم اخلاء سبيله، الى توتر المشاعر بشكل قاطع عبر الحدود، حيث اعقب ذلك تقدم القوات التركية بعدد كبير وتهيئة طويلة الامد، الى داخل الاراضي العراقية عبر

نهر «الهيزل». غير ان هذه القوات سرعان ما تم اخراجها بفعل القوة الجوية البريطانية ومساعدة الاثوريين، لكن القوات التركية مالبثت في طريق انسحابها ان هاجمت القرى التي يسكنها الاثوريون واحرقتها، اضافة الى عدد من مراكز الشرطة العراقية. لم تجد الاحتجاجات الاعتيادية المتبادلة، ولاالمناقشات التي جرت في «جنيف» نفعا، في الحيلولة دون وقوع اعمال الانتقام الفظيعة، وتدمير القرى الكردية والاثورية عند الحدود•وعلى اثر ذلك بدأت اعمال الاغاثة، واسكان المشردين بمساعدة من الحكومة العراقية

عقدت الجلسة الثلاثون لمجلس عصبة الامم في جنيف، وبعد اليوم العشرين من شهر ايلول، استمع المجلس الى المجادلات الاعتيادية التي تحدث بها الناطقان باسمي الحكومتين التركية والبريطانية، «فتحي بك» و «اللورد بارمور»•وتم تقديم ذات الادعاءات التأريخية، والعرقية، والاقتصادية، والستراتيجية، والسياسية، فجوبهت تلك الادعاءات، بذات التفنيدات والادعاءات المضادة

لم يظهر اي اثر للاتفاق او التفاهم. وكان القرار الذي قبل به الطرفان في النهاية، يشترط ارسال بعثة الى الموصل تقوم بها لجنة من عصبة الامم، لغرض تقصي الحقائق، ويكون حكم هذه اللجنة، اذا ماصادق عليه مجلس العصبة، مقبولا من كلا الفريقين. وفي الوقت ذاته كانت البرقيات التي وصلت الى جنيف وتضمنت اتهامات متبادلة حول اختراق منطقة الحدود، قد اجبرت مجلس عصبة الامم على انشاء خط حدود موقت وتم تثبيت هذا الامر في اجتماع عقد في بروكسل في اليوم التاسع والعشرين من شهر تشرين الاول، وقد عرف هذا الخط فيما بعد باسم «خط بروكسل»، ويمتد هذا الخط نوعا ما الى الجنوب من الخط الذي كانت تطالب به الحكومة البريطانية، ومن ثم فان هذا الخط يستثني بعض المناطق التي يقطنها الاثوريون، ومع كل ذلك فقد تقرر ان يحدد خط الحدود القومي الدائم والذي لم يطرأ عليه شيئ من التعديل الا بصفة نادرة

تألفت لجنة الوصل من كل من «السيد دي فرسن»، وهو دبلوماسي سويدي، اختير رئيسا لها، وعضوية الكونت تالكي وهو رئيس وزراء سابق من هنغاريا، ومن القانونيين والجغرافيين المعتازين، والعقيد باولس وهو ضابط متقاعد من الجيش البلجيكي

بعد ان زارت اللجنة اسطنبول ولندن، وصلت الى بغداد في النصف من شهر كانون الثاني سنة ١٩٢٥، ومن ثم انضمت اليها سكرتارياتها، ومساعديها من كلا الجانبين. ولكن كان فزع البريطانيين والعراقيين بارزا، حين وجدوا في الوفد التركي اثنين من المرتدين العراقيين الذين ظهروا في صفة خبراء اتراك، كان احدهما من اسرة «النفطجي» في كركوك، بينما كان الاخر صهراً للشيخ محمود[1]

---

(١) هذان العراقيان هما ناظم النفطجي وفتاح بك احد اقارب الشيخ محمود في السليمانية.

امضت اللجنة مع مساعديها وموظفيها بضعة ايام في بغداد، راحت خلالها تجري اللقاءات مع بعض البارزين من المواطنين، وقد اذهلتها التظاهرات المثيرة المخبولة. اما في الموصل، وهي نقطة التوقف التالية، فقد كانت الاحاسيس الشعبية مرتفعة. قدمت حماية الشرطة الى اعضاء اللجنة، لكن تم رفض هذا العرض

كانت صيانة الامن العام عسيرة، بالنظر الى عواطف السكان الهائجين المتظاهرين، والى وجود الكثير من العناصر المختلفة في اصولها، ومحاباتها، وميولها، ولذلك عقدت معظم تحريات اللجنة بصفة سرية. اما الشهود، وغالباً ماكانوا مناقضين بصفة ذاتية في اجاباتهم على الاسئلة التي تطرح عليهم، فانهم كانوا يترددون، في بعض الحالات، في التحدث، او انهم – بدافع الخوف من الانتقام منهم، لم يكونوا ليتحدثوا الى اللجنة الا في عزلة شديدة. وفي حالات اخرى كان هؤلاء الشهود جد متأثرين بمطامعهم وعداواتهم الشخصية، في حين لم تبرز هذه الاجابات، في حالات اخرى، سوى القليل من الاتجاهات التي لها قيمتها

لقد تأثر بعض الاشخاص بالقضايا العنصرية، بينما تأثر آخرون بالامور العشائرية، وغيرهم بالاعتبارات الاقتصادية، في حين تأثر الكثيرون منهم وبكل جلاء، بالمخاوف او الاماني الشخصية، التي لم تكن تتطلع الى قيام حكومة افضل، بل على العكس من ذلك كانت تريد قيام حكومة ضعيفة غير فعالة

امضت اللجنة شهرين كاملين في الولاية المتنازع عليها، وتصرفت بكل حرية في الاستفسارات المجدة والحصيفة، من كل مصدر ومن كل طبقة. تم تسليم التقرير الذي وضعته اللجنة، وهو من الوثائق المعتمدة والموضحة، الى مجلس عصبة الامم في شهر تموز ١٩٢٥ حيث جرت مناقشته في الايام الاولى من شهر ايلول تلك السنة. ولقد ابعد اعضاء اللجنة كل فكرة عن احتمال تقسيم الولاية. ذلك لانهم استعرضوا المحتوى العنصري للمنطقة المتنازع عليها، وتقبلوا بصفة عامة – وان لم يحصل ذلك من دون تحفظ – كل الحقائق والارقام التي ادلت بها الجهة البريطانية. ولقد وجد اعضاء اللجنة ان الاعتبارات الاقتصادية بصفة عامة، تربط الموصل بالعراق. كما صادقوا على خط بروكسل للحدود، واعتبروه خطاً منيعاً من الناحية الستراتيجية. وفي الوقت ذاته لم يقبلوا بالطلب الذي قدم اليهم لالحاق قسم من منطقة «حكاري» بولاية الموصل[٢] وكان هذا الرفض من الامور التي اثارت الخوف لدى الآثوريين المتحمسين لهذا الطلب

---

(٢) كان هذا الطلب من قبل الاثوريين المتشردين الذين ارادوا من ورائه ان يعتبروا وجودهم داخل العراق شرعيا ولتأكيد الاكاذيب التي مافتئوا هم وانصارهم من الاستعماريين الانكليز والفرنسيين والروس، وحتى بعض الكتاب اللبنانيين، وعلى رأسهم «يوسف ابراهيم يزبك» صاحب كتاب «النفط مستعبد الشعوب» الذين مافتئوا حتى الان يزعمون بان الاثوريين هم احفاد الاشوريين القدامى في العراق، ولذلك فان هؤلاء، ومن بينهم مؤلف الكتاب «لونغرغ» يطلقون عليهم اسم «الاشوريين» تمشيا مع الكذبة المفضوحة بشأن اصل هذه الطائفة

وصف اعضاء اللجنة، الاحوال السائدة آنذاك في العراق، بانها ماتزال غير مستقرة على الرغم من التقدم الذي تم انجازه في ظل حكومة الانتداب، كما انهم رفضوا فكرة الادعاء بالتملك القائم على اساس الفتح، او القانون الدولي، لكنهم اعترفوا في الاخير بان اغلبية السكان قد اظهرت في النهاية بانها تريد ضم ولاية الموصل الى العراق الذي يحكم الان حكما دستوريا، بدلا من اعادتها الى تركيا

وعلى هذا الاساس كانت توصية اللجنة تقضي بان توحد مع العراق، كل الاراضي التي تقع جنوبي خط بروكسل لقاء شرطين:اولهما، ان يظل العراق تحت الانتداب لمدة خمس وعشرين سنة، وثانيهما هو ضرورة الاعتراف بالمميزات العرقية والوعي الذاتي للاكراد، واستعمال لغتهم القومية بصفة رسمية وتعيين الاكراد، في الاقضية الكردية، اداريين، وقضاة، ومعلمين

لم يلبث الممثل التركي في جنيف، وهو رجل شديد التعصب القومي، والثقة بالنفس، وعدم التأثر بالحقائق او البراهين التي عرضتها اللجنة، ان رفض تقرير اللجنة بصفة مطلقة، وسحب وعده بالالتزام بقبوله، اذا ماصادق مجلس عصبة الامم عليه، واخذ يتساءل عن وضع اللجنة ذاتها. واذ ذاك قدم طلب عاجل الى محكمة العدل الدولية الدائمة في «لاهاي» في اليوم التاسع عشر من شهر ايلول، بان تعلن رأيها فيما اذا كان تقرير اللجنة بعد المصادقة عليه، يجب ان يعتبر مجرد عمل للوساطة، او توصية، او قرارا قطعيا

رفض الاتراك ان يحضروا جلسة المحكمة التي عقدت بعد شهر من ذلك التأريخ، ومع ذلك فقد اصدرت المحكمة المذكورة في اليوم الحادي والعشرين من شهر تشرين الثاني، حكما يعلن بان القرار الذي سيتخذه مجلس العصبة في القضية سيكون قرارا قطعيا وملزما، وان ذلك القرار سوف يقرر بصفة محددة حدود ولاية الموصل على شرط ان يكون ذلك باجماع الآراء، ماعدا اصوات الفريقين المهتمين بالنزاع.

في الوقت الذي انعقدت فيه المحكمة الدولية، وصلت الى اوربا شكاوى عن حدوث خرق شديد للاوضاع القائمة في المنطقة التي فصلها خط بروكسل،واذ ذاك عين مجلس عصبة الامم احد الضباط الاستونيين هو الفريق «ف ليدونر» وطلب اليه ان يتوجه الى المنطقة المذكورة يرافقه موظفان احدهما جيكوسلوفاكي والاخر اسباني[٤] وان يوافي مجلس العصبة من هناك بتقرير مستعجل عن الوضع. امضى الضابط الاستوني شهر تشرين الثاني في التحري جنوبي خط بروكسل على الدوام، وذلك لان الاتراك رفضوا السماح باي اتصال شمالي الخط

لقد ظهر ان معظم حوادث خرق الحدود التي وقعت هناك، كانت من الحوادث العرضية او الاعتيادية.اما في شمالي الخط فقد تحقق حدوث المخالفات الواسعة التي اقترفها الجنود الاتراك،

---

(٤) هما العقيد رودلف ياك، وهـ. ماركوس.

والتي صاحبها او اعقبها، طرد القرويين من المسيحيين الذين دفع بالالوف منهم الى داخل حدود العراق

عرض التقرير الذي اعده الفريق ليدونر ووصف فيه تلك الاعتداءات، امام مجلس عصبة الامم في اليوم العاشر من شهر كانون الاول، فاحدث في اعضاء المجلس تأثيرا بالغا. وفي الوقت ذاته استمر مندوب تركيا «منير بك» في نظره الى قرار المجلس، والذي لم يصدر بعدُ، بانه ليس سوى مجرد توصية قد تأخذها حكومته بنظر الاعتبار بصفة جيدة. وفي الوقت ذاته ادعى هذا المندوب بان ولاية الموصل، ماتزال حسب القانون تخضع للسيادة التركية، وانها يجب ان تظل على هذه الشاكلة الى ان يتم نقض مثل هذه السيادة

وفي ذات الوقت تواصلت اجتماعات مجلس العصبة، ولجنته التي الفت لهذا الغرض، بتغيب الناطق باسم الحكومة التركية عنها. وفي اليوم السادس عشر من شهر كانون الاول عرض على المجلس قرار محدد تمت المصادقة عليه بالاجماع. لقد اشترط القرار بانه لغرض تثبيت خط حدود بروكسل، واذعان بريطانيا له في غضون ستة اشهر، اولا ان يتم عقد معاهدة عراقية انكليزية جديدة تكون مدتها خمسا وعشرين سنة (الا اذا اصبح العراق قبل انتهاء تلك المدة عضوا في عصبة الامم).وثانيا طرح مقترحات بشأن تنفيذ التوصيات التي وضعتها اللجنة بشأن الصيغ التي تم اختيارها بصفة خاصة عن الادارة الكردية. وهكذا انهى هذا القرار مهمة عصبة الامم بالنسبة الى النزاع القائم حول الموصل، وثبت قراره النهائي ضمن المادة الثالثة من معاهدة «لوزان» (٥)

تم تقبل هذا الحكم في العراق برضا تام وعميق، استطاع – مثلما فعلت ذلك قضايا قليلة اخرى – ان يوحد جميع آراء مختلف الطبقات والعناصر. لقد كان ذلك الحكم قرارا ينطوي على الحكمة والعدل الى ابعد الحدود، ومثالا بناءا من امثلة التعاون الدولي لتسوية المنازعات

لقد تأكد لدى جميع المطلعين على الانقسام، ومميزات العروق، والاقليات ومصالحها داخل ولاية الموصل، وكذلك بالنسبة الى التقدم الذي تحقق في الادارة وفي الاقتصاد خلال السنوات الست الماضية، ان اقتطاع ارض من حكومة عراقية متحررة نسبيا، او دائرة في فلك بريطاني – عراقي لحكومة قائمة، واعادة تلك الارض الى حكومة مركزية مستبدة وجائرة في ذلك الوقت، يعتبر امرا لايمكن احتماله، وقد يؤدي اذا ماتم تطبيقه، الى تمزيق دولة العراق.

بدأ العمل في العراق بمنتهى السرعة لتنفيذ قرار عصبة الامم. فقد صدرت التعليمات الى جميع الوزراء، من لدن رئيس الوزراء وهو نفسه نصف كردي، بان يسارع في تنفيذ سياسة تميز

---

(٤) سبق لنا ان نشرنا نص هذه المادة في هامش سابق.

المناطق الكردية عن المناطق العربية تنفيذا تاما، وذلك بتعيين الموظفين الاكراد في كل الدوائر هناك [٥]

كانت المعاهدة الجديدة مع بريطانيا والتي صادق البرلمان عليها في اليوم التاسع عشر من شهر كانون الثاني في سنة ١٩٢٦، ولقيت تذمرا حادا من قبل ياسين الهاشمي وحزبه (حزب الشعب) بسبب فترة الوصاية الطويلة، قد اشترطت اعادة النظر بشكل فعال من قبل الدولة المنتدبة في سنة ١٩٢٨ ومابعدها، خلال فترات تمتد كل فترة منها اربع سنوات الى انتهاء مدة الخمس والعشرين سنة، كما اشترطت المعاهدة المذكورة امكانية تقديم توصية بقبول العراق في عصبة الامم، وان هذا القبول سوف ينهي الانتداب المفروض عليه. كذلك اشترطت المعاهدة ان يتم، في ضوء التقدم الذي تحرزه مملكة العراق، او لاي سبب اخر، تعديل احكام الاتفاقات المالية التي وجهت الانتقادات اليها كثيرا

بقي على بريطانيا ان تحقق ماأخفقت عصبة الامم فيه، الا وهو الاتفاق والتعاون مع الجمهورية التركية. فلقد قوبل القرار الذي اتخذته عصبة الامم بشأن الموصل، بهجمات قاسية وفظيعة في الصحافة التركية، الى درجة ان مصطفى كمال لم يتردد من ان يشخص ذلك بنفسه. بل ان حتى مجلسه العسكري لم يتجاهل فكرة نشوب الحرب بين بريطانيا وتركيا، عندما اجتمع غداة عيد الميلاد في سنة ١٩٢٥ في انقرة. ولكن كانت تقوم في ذات الوقت في تركيا مجالس اخرى اقل خطرا، وقد حملت تلك المجالس على الاذعان لقرار العصبة بالنفوذ المسالم الذي بذله كل من رشدي بك [٦] والسفير البريطاني، بل في الواقع بالاوضاع التي كانت سائدة في تركيا آنذاك

وفي اليوم الثامن عشر من شهر تموز ١٩٢٦ صادقت الجمهورية التركية على معاهدة تركية بريطانية عراقية، تم وفقا لها القبول بخط بروكسل خطا للحدود بين العراق وتركيا، كذلك تم تأليف لجنة حدود دائمة لتطبيق سياسة حسن العلاقات تحل محل خط الحدود المحايد.

وفي ذات الوقت تعهد العراق بان يدفع الى جارته، ولمدة خمس وعشرين سنة، العشر من مجموع مايحصل عليه من عوائد النفط، اذا ماتم العثور على منابع للنفط في ولاية الموصل، وبذلك وصلت قضية الموصل مرحلتها النهائية

* * *

(٥) يعني بذلك المرحوم جعفر العسكري

(٦) هو توفيق رشدي اراس الذي تولى منصب وزارة الخارجية في حكومة مصطفى كمال وشارك مشاركة فعالة في عقد المعاهدة التركية الانكليزية العراقية التي اعقبت صدور قرار عصبة الامم في موضوع الموصل وقد تم التوقيع عليها في الخامس من حزيران ١٩٢٦.

اصبحت الاوضاع في المنطقة الكردية من ولاية الموصل خلال السنة ١٩٢٥ واوائل سنة ١٩٢٦ ، اكثر هدوءا مما كانت عليه قبل سنوات مضت. ففي محافظة السليمانية ، ادى فتح طرق المواصلات ، وبناء مخافر الشرطة ومقراتها ، الى تحديد الحركات التي كان الشيخ محمود ومن معه من الخارجين على القانون يمارسونها.ونظرا للعمل الذي قام به الجيش العراقي والشرطة العراقية ، فقد اضطر الى ان يتسلل عبر حلبجة والمناطق الاخرى التي يديرها العراق ، الى داخل الحدود الفارسية. كما انه اخفق في كسب تعاون عشائر الجاف معه ، كما انه لم ينجح في نهب الاقسام التي هاجرت من هذه العشائر، ولذلك اعوزته الاموال اللازمة للاحتفاظ بانصاره

لم يعد في راوندوز اي وجود لاي نشاط تركي مباشر، كما ان النزاع في بشدر قد انتهى بمصالحة كانت لفائدة «بابكراغا». اما في الحدود الشمالية التي كانت تمثل المظهر المهم لتلك الفترة ، فانه الى جانب الزيارة التي قامت بها لجنة الوصل لتلك الحدود وهجرة المسيحيين الذين طردوا من تركيا ، كان يوجد زخم من اللاجئين الاكراد،الذين قدموا من المناطق التي نشبت فيها الثورة الكردية بزعامة الشيخ سعيد النقشبندي في شهر شباط ١٩٢٥ ، والتي ادى نجاحها المبكر الى اقدام الاتراك على اقتراف اعمال انتقام ثابتة وعنيفة

وكانت الجماعات التي نجت من الانتقام من هؤلاء الاكراد النازحين الى العراق تحت قيادة ابن سيد قادر رئيس «نيري» وابن الشيخ سعيد نفسه واخيه وقد تم توطين هؤلاء اللاجئين داخل العراق وفي اماكن بعيدة عن الحدود

وفي اوائل سنة ١٩٢٦ توجهت جماعات واسعة من الاكراد فاجتازت الحدود طلباً للالتجاء، الى العراق، اي الى ولاية الموصل. وكانت هذه الجماعات تضم اعدادا من عشيرة «ميران» تحت زعامة «نايف بك» قدمت في شهر شباط من تلك السنة ، وتم توطينهم في ذات المنطقة التي اعتادوا الرعي فيها اثناء الشتاء على ضفاف نهر دجلة. كذلك تم في شهر نيسان توطين سبعة الاف نفر من عشائر الغويان ايضا

وفي اعقاب هؤلاء جاء زهاء الف شخص من المسيحيين الذين قدموا من منطة «طور عابدين» ، في ذات الوقت الذي توافد فيه حوالي عشرة الاف نفر، كما قيل، من عشائر «الارتوش» الى منطقة العمادية ، وذلك نتيجة ضغط من القوات التركية التي دحرتهم وابعدتهم الى هناك

كانت المشكلة التي واجهتها السلطات العراقية نتيجة لجوء هذه الاقوام ، غير المرغوب فيها والمعدمة تقريبا ، من المشاكل المعقدة بصفة خطيرة. وبصفة عامة كانت النظرة في هذه الفترة الى المنطقة الكردية من العراق ، تبدو ملائمة. ذلك ان الاكراد لم يتأثروا بالانتفاضات وبالارهاب الذي حل في كردستان التركية. كما ان الادارة الاعتيادية ومن نمط اساسي ، قد سادت المحافظات الكردية الاربع،ماعدا منطقة صغيرة من محافظة السليمانية تقع عند الحدود مع بلاد فارس

قدمت مكافآت ملموسة وبسخاء حسن، الى الاكراد المتشائمين في موضوع اللغة، والقانون، والاجراءات المطبقة، والمدارس، وتعيين الموظفين. فقد كان المئات من الاكراد يعملون في الدولة العراقية، في الوظائف المدنية والعسكرية من جميع المستويات. كذلك تغلغلت القوات المدربة من الجيش وقوات المرتزقة التابعة للحكومة في كل زاوية داخل الريف الذي كان الاكراد يعيشون فيه. وتم بناء الطرق او اصلاح ماعطب منها، وفرضت الحراسة عليها، ومدت خطوط البرق، وشجعت تجارة التبوغ وتم تنظيم المؤسسات. كانت الحكومة البلدية هناك تسير قدما، واصبح الامن عاما. كذلك احتل النواب الاكراد مقاعدهم في مجلسي النواب والاعيان وفي الوزارة ذاتها. وبذلك اصبح اندماجهم التام في الدولة العراقية، يؤلف املا ليس من المستحيل تحقيقه

وعلى الرغم من الحنق الذي اصاب العراقيين من وجود الاقلية الاثورية المتمردة، الجامحة التي تصعب ادارتها، فقد ظهر بان هؤلاء يجب ان يتم توطينهم في العراق وليس في مكان اخر. لم تستطع البقية الباقية من هؤلاء، والتي يقدر عددها بعشرين الف شخص، ان تتركز في مستقر واحد، وذلك لان العراق لايستطيع ان يوفر مكانا وافيا، مزروعا، لايحتله احد. وهكذا انتشرت مئات العوائل من عشائر «باز» و «جيلو» في سهل الموصل، وفي منطقة التيارية العليا و «تاخوما» في مناطق دهوك والعمادية، وكذلك التيارية السفلى حوالي «برواري بالا»

كان المؤمل فيما بعد ان يتم ايجاد مكان لتوطين حوالي الف اسرة في منطقة «برادوست» من قضاء راوندوز، ولعدد اكثر من ذلك، في منطقة «برواري زير». تم جمع الاموال في لندن لمساعدة هؤلاء الاثوريين[7] وزودوا بالبذور وبالماشية. كما ان ماكان يحصل عليه المنضمون منهم الى قوات المرتزقة «الليفي» من مرتبات، قد جعل الكثير من عوائلهم تعيش سوية. غير ان احتفاظهم بهويتهم الاقلية واعتزازهم بديانتهم وتقاليدهم كانت تنتقل اليهم انفسهم، مثلما انتقلت طويلا الى الاخرين من الاقليات المسيحية الاخرى في العراق



(٧) كان هؤلاء الاثوريين ينتمون الى الطائفة التيارية في جبال ارمينيا ثم سكنوا في شمالي العراق بعد الحرب العالمية الاولى. وكان عددهم في سنة ١٩١٠ حوالي اربعين الف نسمة، التجأ منهم حوالي عشرة الاف نسمة الى العراق فمنحتهم الحكومة البريطانية اعانات لكل رجل وطفل وامرأة (١١٠) روبية في الشهر واستمرت تعيهم على هذا المنوال ثلاث سنوات كاملة (احمد رفيق البرقاوي العلاقات السياسية بين العراق وبريطانيا ١٩٢٢ ١٩٣٢ هامش ص ٩٧ طبعة ١٩٨٠).

٦ ـ جارات العراق الاخر

كانت علاقات العراق مع جارته الشرقية (فارس) غير مرضية،وبسبب اصرار النظام الفارسي على عدم الاعتراف بالمملكة الجديدة ، وبالتسلل المعتاد عبر الحدود المفتوحة التي يبلغ طولها الف كيلو متر ، فان مثل هذه العلاقات لايمكن ان تكون الا على هذه الشاكلة ولقد ازدادت هذه العلاقات سوءا ، بسبب الخصومة التي نجمت عن اقدام رجال الدين من الفرس على ترك العراق الى فارس بمحض ارادتهم وذلك في سنة ١٩٢٣،ولقد استمرت العلاقات على هذا المنوال حتى بعد عودة اولئك النازحين الى العراق في السنة التالية ، واعادة فتح الطريق امام الزوار الفرس في سنة ١٩٢٥ الى المراقد الشيعية،حيث شرعت سكك الحديد تقوم بنقلهم الى هناك

ولم تتحسن هذه العلاقات نتيجة اختراق الحدود من قبل عصابة سمكوو الاكراد الساكنين في بلاد فارس،ولا بالنزاعات التي كانت تذكرنا بما كان يحدث في الايام التي سبقت سنة ١٩١٤، من نزاعات بين السلطات الكمركية البصرية والفارسية حول شط العرب ، ولا بالعلاقات القائمة بين والي بشتكوه وعشائر بني لام ، ولو ان هذه العلاقات قد تحسنت في سنة ١٩٢٤،وكذلك فلم تتحسن العلاقات مع فارس بسبب الخصومة الدائمة بشأن مياه مندلي

ادت الاطاحة بالاسرة القاجارية الحاكمة المنهكة في بلاد فارس في الايام الاخيرة من سنة ١٩٢٤ على يد مغامر جرئي لكنه متوحش وغير متعلم،وشديد البطش،ونعني به «رضا بهلوي» الى اشاعة الثورة في الحياة الفارسية العامة في كل منطقة من بلاد فارس ، وتركت اثرا عميقاً في جارات فارس ذلك ان والي بشتكوه مع هربه المفزع الى العراق ، قد رجع الان الى موطنه الاصلي بقصد التفاهم ، بكل مايستطيعه مع ذلك الدكتاتور الذي استطاع ان يوطد مركزه

اما «خزعل خان» شيخ المحمرة ذو العلاقة الوثيقة ، طويلة الامد مع البريطانيين وشركة النفط الانكليزية الفارسية ، فقد اخفق بصفة غير حكيمة في ان يلائم نفسه مع نظام الحكم الجديد[1]وراح يخاصم الحكومة الفارسية في اوضاع لم تكن لتوفر للحكومات البريطانية اي

---

(١) هذا محض افتراء او تبرير من المؤلف للعدوان الذي قام به رضا بهلوي على المحمرة الامارة العربية العراقية الاصلية. ذلك لان من اولى خطط الفرس وجميع حكامهم هو احتلال تلك الامارة والتمهيد للاعتداء على العراق. لقد سبق لبريطانيا ان قطعت الوعود الكثيرة لعميلها الشيخ خزعل عن حمايته وحماية امارته من اي اعتداء يقع عليها لكن بريطانيا وغيرها من الدول=

اساس حق لاقامة تمثيل دبلوماسي. لقد ثار خزعل وهو ضعيف ليجد نفسه وقد تحطم وتم التغلب عليه ، ونقله الى طهران.وبعد تمرد قصير قامت به العشائر العربية المحلية ، عشائر «كعب» «والمحيسن» واحتجاجات مضادة معتادة بين بغداد وطهران ، غدت عربستان،التي ابدل اسمها الى خوزستان،ولاية تابعة لفارس

تم التوصل في النهاية الى تسوية اعتيادية للغارات التي وقعت بعد ذلك عبر الحدود ، بين اقرب الموظفين من كلا الدولتين العراقية والفارسية اما الاضطراب الخطير الذي كان يسود مناطق خانقين وقصر شيرين في اواخر سنة ١٩٢٥ ، فقد تم التفاهم بشأنه في اجتماع عملي مشترك جرى في شهر اذار سنة ١٩٢٦ كان من الدلائل المشجعة على التعاون بين البلدبن ، ذلك الطلب الذي تقدمت به الحكومة الفارسية (والذي نقله السفير البريطاني في طهران الى المندوب السامي البريطاني في بغداد)للحصول على مساعدة من العراق في فتح طريق تجاري جديد من كركوك التي ينتهي عندها الخط الحديدي ، الى مدينة تبريز.

لقد استلزم قيام الثورة الكردية في شرقي الاناضول فتح هذا الطريق الذي يحتوي على طريق جبلي يمر خلال صاووج بولاق وراوندوز.ولقد بدأت حكومة العراق باجراء المسوحات لهذا الطريق ، وطلبت جلب المواد اللازمة لانشائه من اوربا

وفي اقصى الجنوب من ذلك عاد سلار الدولة الى الظهور مرة اخرى وهو الذي اشتهر بتعكير صفو الامن هناك. فهذا الرجل غير المتزن وشديد الاصرار على المطالبة بالعرش في ذات الوقت،قد وضع له آمال جديدة اثر تغيير الاسرة الحاكمة في فارس ، ولذلك نقد اجتاز الحدود متنكرا ودخل الى الاراضي العراقية في ربيع سنة ١٩٢٥،وكان يسعى الى تحقيق اطماعه القديمة في اقليم كرمنشاه،ويتطلع الى اثارة اكراد فارس مرة اخرى لكي يقفوا الى جانبه

كانت العصابة الخارجة على القانون والتي يتزعمها الشيخ محمود ، اولى الجماعات التي انضمت الى سلار الدولة هذا،لكن عدد الذين بادروا بذلك من افراد العصابة كان قليلا،وقد استطاع المندوب السامي البريطاني بالرسائل التي وجهها اليهم ان يصرفهم جميعا ، عدا حفنة من المؤيدين لسلار الدولة،عن هذا المشروع الذي لا امل فيه ووفقاً لذلك طار آمر القوة الجوية البريطانية في العراق الى طهران لكي يضع مع السلطات الفارسية، الخطط الثابتة التي تحول دون حدوث التمرد. وما ان فقد سلار الدولة الدعم الجديد الذي يحتاج اليه ، حتى تراجع الى سوريا

= الاستعمارية الاخرى ما كانت وحتى الآن لتقيم اي وزن للعهود والمعاهدات والوعود،في سبيل ضمان مستقبل مصالحها في بلاد فارس،ضحت بحليفها الشيخ خزعل لانها آثرت التفاهم مع رضا بهلوي على حساب الاستقلال الذاتي للاحواز . ولم يكن هذا الامر جديدا بالنسبة الى تاريخ الاستعمار الحديث. فلهذا الحادث ، اي العدوان الذي وقع على امارة المحمرة ، امثال عديدة في كل مكان من الاماكن التي تبث المستعمرون اقدامهم فيها سواء في اسيا ام افريقيا ام في اي مكان اخر (انظر مقالتنا عن افساح الانكليز الطريق امام حكومة طهران لاحتلال الاحواز والقضاء على امارة المحمرة والمصير السيئ الذي صار اليه الشيخ خزعل وذلك في مجلة (افاق عربية العدد ٦من سنة ١٩٨١)

لكنه مالبث ان عاد في شهر اب ١٩٢٦ مرة اخرى فوصل الى منطقة هورمان ، وحرك بعض القوى التي اضر بها الجوع ، فاندفعت الى نهب بعض القرى الصغيرة قبل ان يتم تشتيت تلك القرى، ولم تصل بعد ذلك اية مساعدة اخرى الى ذلك المطالب بالعرش الفارسي، والذي عاد فدخل العراق مجددا متنكرا ، لكن سرعان ماا كتشف امره في مدينة اربيل، فالقي القبض عليه ، واودع رهن الاعتقال في بغداد، في الوقت الذي كان يجري فيه بحث ذلك التصرف الذي اقدم عليه

* * *

كان موقف العراق العام تجاه سوريا ، ينطوي على التذمر من الانتداب الفرنسي عليها ، وقد ادى ذلك الى اظهار العطف تجاه كل الوطنيين السوريين، وازاء الثورات التي قامت ضد ذلك النظام ، كما حدث في ثورة جبل الدروز سنة ١٩٢٥ ، غير انه لم تكن هناك اية آراء عن وقوع تدخل من جانب الملك فيصل كما نسب ذلك اليه

جرى استخدام الاطباء والمدرسين السوريين في العراق، وكان الممثلون السوريون مشاركين مشاركة ظاهرة في الحاشية الشخصية للملك

وكانت اعادة فتح الطريق من العراق الى سوريا سواء على جانب نهر الفرات الى دير الزور ، ام عبر الجزيرة من الموصل ،تمثل الامنية التي ادت الى عقد سلسلة من المؤتمرات في الموصل ، ودير القائم والبوكمال بين المندوبين العراقيين والسوريين والفرنسيين والبريطانيين خلال الفترة من سنة ١٩٢٠ حتى سنة ١٩٢٤، ولقد نجحت هذه المؤتمرات فعلا في اعادة فتح الطرق ، وتوفير الامن ، وتسوية جزء من العداوات القديمة جدا بين عشائر «العمارات» والعقيدات و «الدليم»

ففي داخل العراق ثبتت المسؤولية في قرى الدليم تحت زعامة الشيخ علي السليمان والحراس المتجولين من فيلق الهجانة الدليمي ولغرض حماية الطريق الذي اخذت تسير فيه سيارات شركة «نيرن» ، ابتداءا من خريف سنة ١٩٢٣ ومابعدها ، كان تعاون الفرنسيين في هذا الشأن تعاوناً تاما في هذا المضمار ، وان كانت الحوادث التي وقعت في سنة ١٩٢٥ [٢] قد اظهرت مدى ضعف الفرنسيين في حماية الامن كما تم في سنة ١٩٢٥ عقد اتفاق بشأن تجارة المرور ، استطاع ان ينظم حركة المتاجرة عبر الطريق الجديد ، وكذلك ضمان المعونة المشتركة في حملات مكافحة الجراد خلال سنة ١٩٢٦ وما بعدها

---

(٢) المقصود بذلك نشوب الثورة السورية في تلك السنة ضد الفرنسيين في جبل الدروز من ثم انتشارها الى مناطق اخرى خارج الجبل.

كان ادنى مظهر ملائم للعلاقات العراقية السورية يتمثل في النقص المتواصل في وجود حدود متفق عليها ، وذلك لان الحدود غير المخططة والمعمول بها منذ سنة ١٩٢٠ ، والتي كانت نافذة المفعول بصفة اسمية ، كان ينبغي تجاهلها في الواقع بصفة ضرورية واسوأ من ذلك كله ، هو استمرار الغارات العشائرية الملحة ذلك ان الاعتداءات التي كانت تمارسها عشائر «طي» واليزيدية ، والعقيدات ، والذليم ، متواصلة ، ولكن كان من اكثر المعتدين بروزاً للعيان هو «دهام الهادي» ذلك الشيخ المنشق عن قبيلة شمر، والذي انتقل الى سوريا ، نتيجة عدائه مع «عجيل الباور» ، الشيخ الشهير الذي اعترفت به حكومة العراق. فلقد كان دهام الهادي يغير من سوريا على قبيلة شمر وعلى عشائر العمارات التي يترأسها «ابن هذال»

لقد غدا مؤكدا في سنة ١٩٢٥ انه يستحيل عقد مؤتمر عشائري. ذلك لان القرارات التي اتخذت في اجتماع البوكمال في تلك السنة ، لم تكن قد كرمت بالقبول بعد ، وفي السنة التي تلت ذلك استطاع الشيخ عجيل الباور ان يصد الغارة الكبرى التي قام بها «دهام الهادي». فلقد ساعدت القوات الجوية البريطانية وفوج من السيارات الانكليزية المصفحة الشيخ عجيل في صد تلك الغارة، حيث راح عجيل يتعقب خصمه المنهزم الى ان استطاع نهب ما لديه من ماشية ، ولذلك قوبل هذا الحادث باستمرار حرب العصابات التي لم تكن قد ظهرت اية نهاية لها في الظاهر

* * *

كان الامل في اقامة علاقات حسن الجوار بين العراق ونجد يصاب بالخيبة دائما. ذلك ان الملوكية الهاشمية في العراق ، والعواطف العراقية الناتجة عن ذلك ، لم تكن ودية ازاء سلطان نجد الذي كان يعتنق العقيدة الوهابية، وخصما للملك حسين وللبيت الهاشمي، الى درجة بلغت حد اعلان الحرب ، والانتصار على الملك حسين وعلى البيت الهاشمي معا ربما كان مستطاعا التخفيف من هذه العوامل بالطرق الدبلوماسية ، ولكن فرض السلام على افراد العشائر في صحاراهم ، كان امرا اكثر مشقة

كانت الغارة الكبرى التي شنها فيصل الدويش زعيم الاخوان من قبيلة المطير، مع حلفائه في شهر اذار سنة ١٩٢٢ على الرعاة العراقيين في موقع «ابو غار» في منطقة المنتفق، قد تم صدها بعمل قامت به القوة الجوية البريطانية. ولكن على الرغم من الاعتذار الذي تقدم به ابن السعود، والعقاب الذي تلقاه حمود الصويط شيخ قبيلة «الضفير»، فان هذا الوضع قد اضاف المزيد الى القلق الذي كان العراقيون يشعرون به والذي تم استغلاله ازاء ذلك ، لاغراض سياسية داخلية [٣]

(٣) انظر تفاصيل هذه الغارات في كتابنا «مذكرات غلوب باشا» الذي يصدر قريباً.

كانت النتيجة التي برزت عن ذلك الوضع قد تمثلت في عقد مؤتمر من ممثلي الدولتين العراقية والسعودية في المحمرة،حيث نجح هذا المؤتمر في اليوم الاول من شهر ايار في وضع مسودة معاهدة وقع عليها ممثلو الدولتين،وعلى هذا الاساس تم وضع المبادئ التي تخص الولاء القبلي ، وحددت عشائر المنتفق والضفير ، والعمارات في العراق ، واشترط تأليف لجنة فيما بعد ، تنهض بمسألة تحديد ملكية او عائدية آبار المياه التي تقع على الحدود ، والاتفاق على الوسائل التي تحول دون وقوع الغارات ، وحماية طرق الحجاج ولقد تجسدت الاحكام التفصيلية لذلك ، في البروتوكول الذي تم التوقيع عليه في «العقير» في اليوم الثاني من شهر كانون الاول سنة ١٩٢٢،فقد اشترط هذا البروتوكول لاول مرة قيام حدود عراقية نجدية انعقدت النية على تحديدها،مع اقامة منطقة محايدة تخصص لحقوق الرعي المشتركة فيها[٤] غير ان هذه العلاقات المتحسنة لم تدم طويلا،ذلك لان اللاجئين من نجد الى العراق استمروا في اثارة اعمال الانتقام،باقدامهم على الاغارة داخل الاراضي النجدية،وتلك عادة متأصلة لدى العشائر،وليس في مستطاع اي عمل حكومي تقويمها. ولما كانت عادة الغزو هذه تطبق بانعدام تام للمسؤولية،وتتجاهل حدود الاراضي معا ، وقد تصبح في بعض الاحيان هي السلطة السائدة، فانها كانت تؤلف جزءا من طريقة الحياة في الصحراء والتي لم يستطع اي عنصر جديدأن يطورها بعد

بعد ان اخفقت الجهود التي بذلتها بريطانيا لعقد مؤتمر بين حاكمي الدولتين العراقية والنجدية نفسيهما تم في الاخير عقد اجتماع حضره ناطقان باسم العراق ونجد في الكويت،وقد ترأسه احد البريطانيين وذلك في شهر كانون أول سنة ١٩٢٣[٥] واذ برهن الاجتماع على انعدام القوة لديه في تسوية الخلافات فقد تم تأجيله،لكن المناقشات مالبثت ان استؤنفت ومع كل ذلك فقد اخفق هذا الاجتماع في تحقيق الوفاق حيث تبددت آخر الامال التي عقدت عليه ، بالغارات التي وقعت على القبائل العراقية وفي اوسع نطاق ، والتي قام بها فيصل الدويش في شهر اذار ١٩٢٤ ، حيث بلغت قائمة القتلى من افراد القبائل قرابة مائتي شخص،في حين قدرت المواشي التي نهبت بثلاثين الف رأس

ولقد تكرر العدوان على نطاق اضيق خلال شهرين متأخرين عن ذلك التاريخ، ثم تعاظم كرة اخرى في شهر كانون الاول من تلك السنة،ليعقبه عدوان جديد وقع في شهر كانون الثاني في سنة ١٩٢٥،وفي الوقت ذاته ارتفعت منزلة ابن سعود الى درجة عظيمة وذلك بالانتصارات التي حققت في الحجاز والتي انتهت بالقضاء على حكم الملك الشريفي،وهكذا فرضت الحماية الوهابية

---

(٤) الغيت المنطقة المحايدة بين العراق والسعودية وتم تقسيمها بين البلدين في اواخر سني السبعينات ، بعد ان تم الاتفاق على حقوق الرعي

(٥) هو الممثل البريطاني السياسي في الخليج العربي آنذاك.

على المدينتين المقدستين[٦] ولكن اوقاتا طيبة سادت الحدود وسارت قدما. لقد تحركت حامية من الجيش العراقي مزودة بالسيارات المصفحة واجهزة اللاسلكي الى موقع «ابو غار» الصحراوي وتم توفير الاتصالات الجوية معها،وفي شهر ايار سنة ١٩٢٥ تحركت القبائل اللاجئة المستفزة الى داخل الاراضي العراقية لتكون بعيدة عن الاغراء في حين عادت القبائل الاخرى التي تعقبتها الى داخل العراق من حيث اتت

قام الاخوان بغارة على قبيلة «الضفير» في شهر حزيران ١٩٢٥ وقد اعلن عنها بانها كانت مناقضة لاوامر ابن السعود،الذي كان منشغلا في ذلك الوقت بتوطيد سلطانه في الحجاز. عقد الممثلون البريطانيون نيابة عن العراق مؤتمرا مع مندوبي ابن سعود في نقطة «بحرة» في الحجاز ، حيث تم التوصل الى توقيع معاهدة في تلك النقطة في اليوم الاول من شهر تشرين الثاني من ذات السنة[٧]

ولقد قام السر جلبرت كلايتون الذي ساهم في التفاوض لعقد تلك المعاهدة، بزيارة بغداد فاوضح للملك وللوزارة بنود تلك المعاهدة ، حيث تمت المصادقة عليها من الجانبين الملك والوزارة معا ولو تم تطبيق ذلك الاتفاق بذكاء وحسن نية لاستطاعت احكامه ان تشمل،كما يظهر،مشاكل الغارات المتبادلة،والهجرة عبر الحدود ، وتبادل المعلومات ، ووسائل الاتصالات الرسمية. غير ان تسليم المعتدين من افراد القبائل لم يتم الاتفاق عليه

عملت معاهدة «بحرة» الشيء الكثير بالنسبة الى العلاقات العراقية النجدية،لكنها لم تنجح في ايقاف كل الغارات التي كانت تقع داخل اراضي الطرفين. وعلى اثر توقيع المعاهدة بدأت القوافل بين واحات نجد والمناطق الجنوبية الشرقية من العراق تسير بكل حرية،ومع انه لم يتم التوصل الى تأليف اللجنة التي ظل العراق يصر على تأليفها لهذا الغرض ، الا ان سلطات الحدود لكلا البلدين استطاعت ان تحقق اتصالات ودية فيما بينها

(٦) يقصد بهما المدينة المنورة ومكة المكرمة

(٧) كان المستر ايمري وزير المستعمرات البريطاني في العراق عندما وقعت غارات الاخوان على العراق،ولذلك شدد على عقد مؤتمر لتسوية الخلافات بين العراق ونجد ولقد ناب عن العراق توفيق السويدي وعن البريطانيين السر جلبرت كلايتون. وقد تألفت، اتفاقية بحرة من اثنتي عشرة مادة تم التوقيع عليها في مخيم بحرة في اليوم الاول من تشرين الثاني ١٩٢٥ الرابع عشر من ربيع الثاني ١٣٤٤ هـ.ومن اهم موادها المادة : الثانية (أ) التي تنص على تأليف محكمة خاصة للنظر في تفاصيل اي اعتداء يقع من وراء حدود الدولتين

٧ - الحياة والحكومة في الفترة مابين ١٩٢١ - ١٩٢٦

حققت هذه السنوات الخمس الاولى من عمر المملكة العراقية في الواقع ، مدى كبيرا من احلام القوميين الاولين.لقد شاهدوا اداة حقيقية يمكن الاعتماد عليها لحكومة عراقية ذاتية ، في ذات الوقت الذي اتخذت فيه الخطوات في كل دائرة من الحياة العامة والحكومة ، لانشاء دولة عصرية ، حيث جندت خدمات اكثر العراقيين قابلية لهذه المهمة كانت البدايات الاولى في معنى الوعي القومي الذاتي للاخلاص لهذه المملكة التي كانت المملكة الخاصة لاهل البلاد ، تنبع عن طريق الانتخابات ، ولو انه كانت ماتزال توجد عناصر طائفة قليلة من القبائل ومن الريف ، لم تتعود مثل هذه المفاهيم

لقد ظهر بان القدرة الادارية كانت متوفرة وقابلة للتحسن،وان المساعدة التي كان يقدمها حليف العراق على كل مستوى،من سياسة عصبة الامم والى العراك على اشغال منصب مدير ناحية، كل هذه الامور كانت على الدوام في سبيل خدمة هذه المملكة.وكان الدور الذي يمارسه البريطانيون في ميدان الادارة والذي يوصف عادة من قبل الصحف «بالتدخل» او «الامبريالية» والذي يثير الانزعاج في تلك الاوقات لدى الموظفين العراقيين نافدي الصبر ، كان يواجه بكل صبر واناة من لدن الموظفين البريطانيين الذين يحملون عقليات القرنين التاسع عشر والعشرين. ومع وجود مخالفات تقع عرضا،فقد كان هذا الدور بصفة مهيمنة معيناً وخاليا من الاغراض الخاصة على الدوام لكنه كان ضروريا ومرغوبا فيه.

ولقد اخذ هذا الدور يتناقص كلما مرت السنون وغدت الوظائف الاستشارية والتنفيذية يجري تمييزها بجلاء،وحيثما اصبحت المناطق او الدوائر تسير بنجاح تحت الادارة المؤلفة من العراقيين بصفة كاملة فلقد نمت العلاقات البريطانية العراقية وتحولت الى مودة اعتيادية وذات صداقات وثيقة في الغالب

* * *

اضمحل نظام الحكم التركي الذي ساد طيلة اربعة قرون فاصبح من اخبار الماضي ، وتعود العراق ذاته ، الانتعاش الثقافي والسياسي الجديد ، حتى في ذات الوقت الذي بقي فيه يتحمل

الكثير من مظاهر خصائص حياته الاجتماعية والاقتصادية القديمة.فلقد كانت توجد على الدوام دلائل على الخدمات البناءة الكبرى ، التي يؤديها الملك والمندوب السامي البريطاني. ذلك انهما كانا في هذه الفترة يخدمان من لدن مجموعة قديرة ومخلصة من كبار الضباط السابقين. كان الملك يتلقى الخدمة من قبل رستم حيدر ، ومن تحسين قدري ، السوري المثقف ذي التربية الفرنسية الذي اختار الجنسية العراقية ، اضافة الى آخرين من المخلصين والمتبارين في خدمة البلاط

وكان المندوبون السامون بدورهم ايضا من المحظوظين لما توفر لديهم من موظفين.فقد كان من بين اولئك الموظفين الذين عملوا بصفة قناصل ، كل من «غاربيت» الذي اعقبه «ريدر بولارد» السكرتير القانوني ، و «نيجل دافدسن» السكرتير الشرقي ، وغرتر رود بل التي كانت وفاتها المفاجئة في تموز ١٩٢٦ خسارة فادحة(*) وفي ميدان خدمة الحكومة العراقية كان الموظفون العراقيون ذوو النوايا الطيبة والمواهب المدهشة في بعض الاحيان،يختلطون بصفة حتمية مع موظفين من هم اقل قدرة او اقل اعتبارا،وذلك لملئ المناصب العليا والدنيا معا في الحكومة المركزية وفي المحافظات. كانت هيأة الموظفين البريطانيين ، حيث يتولى القسم الاكبر منهم منصب المستشار،لكنه مايزال يحتفظ مع ذلك بالسلطات التنفيذية في بعض الحالات القليلة ، تضم بعض الاشخاص من اصحاب المزايا الشهيرة حيث قدم الكثيرون منهم ، خلال سنوات بلغت عشرين سنة او زادت عنها خدمات وافية تماما للعراق

كان ياسين الهاشمي هو الذي انشأ في سنة ١٩٢٥،وزارة الخارجية تلك التي كان يشغلها رئيس الوزراء دوما،وذلك في الفترة المبكرة لتشكيل الحكومة العراقية.وفي ظل المسؤولية الباهظة التي تحملتها بريطانيا تجاه عصبة الامم لانجاز التزامات العراق الدولية،لم يكن عمل وزارة الخارجية يجري الا في نطاق محدود.فقد تم تمثيل هذه الوزارة في لندن اول الامر ومن ثم وبصفة متقطعة في جنيف ، من قبل جعفر العسكري.ومع ذلك فقد بدأ القناصل الاجانب يعينون في وقت مبكر ، في بغداد ، حيث كان وجودهم يمثل اعترافاً بالدولة العراقية من قبل كل من فرنسا ، ايطاليا ، والنرويج ، والسويد ، والمانيا ، واليونان . وهكذا اخذت الحكومة العراقية تشترك في مختلف المؤتمرات الدولية. ومع ان بلاد فارس كانت ممثلة بعدد من القناصل في العراق ، ومرتبطة معه باوثق المصالح ، الا ان عدم اعترافها رسميا بالمملكة العراقية ، قد الحق الضرر بالبلدين معا

كانت الاشادة قائمة في كل مكان بالوزارات العراقية التي تألفت حتى وزارة ياسين الهاشمي المؤلفة في سنة ١٩٢٤ [1] كانت وزارة الهاشمي تضم كل الاذكياء،ولكن نظرا لعدم وجود مناهج

(*) خلال الفترة مابين سنة ١٩٢٥ وسنة ١٩٣٢ اشغل بور ديللون منصب قنصل ليعقبه في سنة ١٩٢٩ هيوبرت يونغ ، في حين جاء «باركلي نهل» في اعقاب دافد سن ، وفيفان هولت في اعقاب المس غرترود بل

(١) تألفت وزارة ياسين الهاشمي الاولى في اليوم الثاني من شهر آب ١٩٢٤ من كل من عبد المحسن السعدون للداخلية ، وساسون حسقيل للمالية ، وابراهيم الحيدري للاوقاف ورشيد عالي الكيلاني للعدالية ، ومزاحم الامين الباجهجي للاشغال=

محددة تدعمها الاحزاب القائمة وكذلك الساسة العراقيون في ذلك الوقت ، كان لابد لها من ان تسقط مثل غيرها من الوزارات الاخرى، او ان تعيش بفضل اتفاق الآراء والمصادقة الملكية، او ان ينقصها هذان الامران

ولقد تميزت شهور سلطة الوزارة الهاشمية بانشغالها في قضية الموصل ، وبالخوف من خواء الخزينة. فهذا الفقر ، وهو الآفة المشتركة لكل الحكومات الناشئة، كان قد تضخم في عراق سنة ١٩٢٥ بانحطاط الاوضاع التجارية، وفقدان جزء من سوق التمور ، وتقلص تجارة المرور الفارسية، وسوء موسم الحصاد، وايرادات تلك السنة. وبذلك تطلب الوقت ، وبالحاح ، المزيد من النفقات وليس القليل منها

كان من اللازم توفير الاموال للجيش الذي يجري تشكيله الآن، والذي سيسعى على وجه السرعة لممارسة المسؤوليات الحيوية ، وكذلك الحصول على اموال من الحكومة البريطانية التي لم تكن في وضع تستطيع فيه ان تظهر تلميحات صريحة في هذا الشأن. كما ان تسوية قضية الديون العثمانية العامة قد القت بقسم جوهري منها على عاتق العراق، في الوقت الذي كانت فيه الخدمات العامة يجري تصويرها على نطاق اشتهر بادنى حد من التحمل، ولكن مايزال ذلك النطاق بعيدا ازاء الطاقة المالية

وعلى هذه الشاكلة فان الاستحالات الحسابية التي شاركت في هذا الوضع ، قد ادت في المبادرة في شهر اذار ١٩٢٤، بتوجيه دعوة الى ارسال بعثة مالية من الحكومة البريطانية كانت تضم كلا من «الاميرال هلتن يونغ» ، «والسيد فرنون». ولقد قامت هذه البعثة بدراسة الوضع، واعادت النظر فيه، ثم دافعت عن الاقتصاديات المحدودة، وراحت تتطلع الى تهدئة الثورة الحانقة التي اثارتها التزامات الديون العثمانية العامة ، واوصت بفرض رسوم كمركية عالية. لم تتم الموافقة على قسم كبير من المقترحات التي قدمتها اللجنة ولاسيما ماتعلق منها بفرض الضرائب الجديدة واعادة تنظيم الشؤون المالية[٢]

كانت الحكومة العراقية قد تقرر مصيرها في الواقع بان تظل قادرة على العمل ، ولكن مفلسة ، لسنوات قادمة وفي الوقت ذاته قام اثنان من اعضاء الوزارة البريطانية بزيارة العراق هما «امري» و «السر صموئيل هور» عرضت وزارة الهاشمي وهي اخر وزارة حكمت من دون

والمواصلات والشيخ محمد رضا الشبيبي للمعارف . وقد احتفظ الرئيس ياسين الهاشمي بمنصب وزير الدفاع وكالة ، واعلنت في مهاجها الذي اذاعته في اليوم الثامن من آب انها ستسرع في نشر القانون الاساسي ، وقانون انتخاب النواب ووضعها موضع التنفيذ وجمع المجلس النيابي وتقوية الشعور الوطني بكل الوسائل ، واستكمال اسباب الدفاع عن حقوق المملكة العراقية عامة ، وفي ولاية الموصل خاصة ، وتزييد قوات البلاد المسلحة

(٢) كتب المرحوم ياسين الهاشمي تعليقات ضافية على التقرير الذي وضعه «هلتن يونغ» في جريدة الاستقلال ومن ثم جمعت تلك المقالات في كتاب مستقل صدر بعد ذلك

برلمان خدماتها بنتائج قيمة خلال سنة واحدة، فقد كان من بين الاجراءات الاخرى التي اتخذتها ، وضع مشروع لكري ميناء الفاو ، وتوقيع اتفاق تجاري مع سوريا ، وتنظيم وضع الموظفين البريطانيين. اما القانون الاساسي فقد تأجل تشريعه من شهر تموز ١٩٢٤ الى شهر اذار ١٩٢٥ لكي يسمح باعداد قوائم الانتخابات وهي مهمة طويلة وشاقة ، وكذلك لتصفية قضية الموصل امام نظام الحكم الجديد ، كما جرت محاولة لقفزة كبيرة منتظرة الى امام تقوم بها الوزارة المذكورة

كملت الاستعدادات لعقد اجتماع للبرلمان في جلسة اعتيادية (وذلك لان الجلسات الاعتيادية لاتبدأ الا في شهر تشرين الثاني)وذلك في اواخر شهر حزيران ١٩٢٥ ، واصبح تغيير الوزارة امرا مؤكدا وبذلك القت الخلافات التي وقعت بين ياسين الهاشمي ووزير داخليته عبد المحسن السعدون على عاتق الحكومة الجديدة المقبلة مهمة حماية النظام البرلماني[٣]

عهدبرئاسة الوزارة الى عبد المحسن السعدون[٤] وقد ضمت وزارته هذه كلا من رشيد عالي الكيلاني والمحامي الحاذق ذا المواطنة العالمية رؤوف الجادرجي، ولو لفترة قصيرة، وصبيح نشأت والرجل الثري عبد الحسين الجلبي ، وناجي السويدي وحكمت سليمان (الأخ الاصغر للقائد التركي محمود شوكت باشا) والقومي المتطرف حمدي الباجه‌جي ، كما ضمت الوزارة في مشاركة اخيرة كلا من نوري السعيد ، وضابط المدفعية الكردي السابق والمؤلف محمد امين زكي. كملت الانتخابات وفي الحال عمد الملك الى تعيين عشرين عضوا في مجلس الاعيان ، ثم افتتح البرلمان في احتفال في اليوم السادس عشر من تموز سنة ١٩٢٥

ادى انتخاب رشيد عالي الكيلاني لرئاسة مجلس النواب ، الى ان يخلفه في منصبه حكمت سليمان وزيراً للداخلية، في حين اصبح القومي المجاهد يوسف السويدي ، والد ناجي وتوفيق ، رئيسا لمجلس الاعيان. ولقد بدأت الحكومة البرلمانية التي لم يشارك البريطانيون في اجراءاتها ، عملها بمنتهى الثقة، فكان مستوى النقاش محترما ، وكانت المعارضة التي يتزعمها ياسين الهاشمي بعيدة عن الاعتدال. ولقد مددت الحياة البرلمانية في جلستها الاولى مرتين وتواصلت حتى شهر

---

(٣) كانت اسباب هذه الخلافات هي الشكاوى التي كان عبد المحسن السعدون يقدمها الى الملك فيصل ضد السيد ياسين الهاشمي متهما اياه بانه يريد ان يجعل من وزرائه بمثابة كتبة ، في حين كان الهاشمي يتهم السعدون بموالاة الاتراك ولقد ذكر المرحوم طه الهاشمي في الجزء الاول من مذكراته ص ٩٠ ان «الملك هو الذي اوعز الى (نوري السعيد) ليتفق مع محسن ، وانه اوعز الى محسن ان يخالف ياسين وهذا الايعاز هو الذي ادى الى سقوط الوزارة، ويظهر من هذا ان الملك لايرغب ان تبقى الوزارة مدة طويلة خصوصا اذا كان على رأسها رجل ذو ارادة قوية كالهاشمي»

(٤) تألفت وزارة السعدون ، وهي الثانية، في السادس والعشرين من شهر حزيران ١٩٢٥ وكان ناجي السويدي وزيرا للعدل فيها ، وصبيح نشأت للدفاع ، ولم يكن محمد امين زكي عضوا فيها عند تشكيلها وانما عين لمنصب وزير الاشغال والمواصلات في ١٤ تشرين الثاني بعد ان حل عبد الحسين الجلبي وزير الاشغال السابق في وزارة المعارف خلفاً للسيد حكمت سليمان الذي نقل الى وزارة الداخلية

حزيران سنة ١٩٢٦ وعالجت منهاجا كثيفاً من التشريعات،بما في ذلك اجراء اول تعديل للقانون الاساسي،تم تصميمه لغرض توفير وصاية محتملة وللجلسات غير الاعتيادية ، كما تمت الموافقة على الميزانية والمصادقة عليها فيما بعد ولقد ادت المهاترات التي وقعت في مجلس النواب الى تخلي رشيد عالي الكيلاني عن رئاسته[٥] حيث اعقبه فيها حكمت سليمان•اما منصب وزير المالية الذي كان الاخير يحتله،فقد تولاه محافظ الموصل ، الرجل العاقل المعتدل عبد العزيز القصاب

وفي صيف ١٩٢٦ كان اسلوب المسلك البرلماني قد تم تكوينه ، غير انه كان واضحا منذ البداية بان تأخر العملية الانتخابية والسلطة التي استخدمتها الحكومة بكل حرية لضمان انتخاب النواب الذين اختارتهم بنفسها لم تكن الا ان تسبق اي احتمال مبكر لقيام ديمقراطية اصيلة

بدات الادارة التي ورث نصفها عن الاتراك ، ووضع النصف الاخر من قبل البريطانيين ، تباشر عملها بصفة جيدة•ومع وجود الكثير من النواقص والتجاوزات ، فقد شرعت الادارة تعمل منذ البداية بصفة اكثر سعة ، واوفر تأثيراً مما حققته اية حكومة تركية سابقة ، ذلك لانها استهدفت تحقيق مستوى رفيعاً من الخدمة.

ففي بغداد اخذت الدوائر تحت اشراف كل وزارة تحسن تنظيمها ، وتجري الغربلة بين موظفيها ، وتتقدم باتجاه تحقيق السيطرة العراقية الكاملة وفي سنة ١٩٢٦ لم تكن كل الوزارات الفعالة تحت سيطرة العراقيين حسب ، بل ان معظم الدوائر الكبرى قد تم تسليمها الى مدراء عراقيين ، وعلى الاخص ماتعلق منها بدوائر الصحة ، والمعارف ، والزراعة ، والبريد والبرق ، والحسابات الحكومية ، والشرطة ، والسجون ، ودوائر النفوس اما دوائر الري والتسجيل العقاري ، والكمارك والواردات واملاك الدولة ، والخدمات البيطرية ، والاشغال العامة ، وميناء البصرة وسكك الحديد ، فان هذه قد بقيت لفترة اخرى تحت السيطرة التنفيذية البريطانية

وفي المحافظات تم استخدام اقضية ونواحي جديدة واعادة تجميعها كان مركز الاستشارة الادارية البريطانية ، محددا بشكل واف بالقانون فقد كان المجلس الاستشاري القائم ، ينتخب موظفين عراقيين للوظائف العالية وكان يجري بالفعل انشاء خدمة مدنية منتظمة حسب الاسس العصرية مثال ذلك ان وزارة المالية التي عهد بمهمة الاستشارة فيها في سنة ١٩٢٥ الى

---

(٥) ذكر ساطع الحصري في مذكراته (مذكراتي في العراق ج ، ص ٢٧٦) ان عبد المحسن السعدون قال له «لما الفت هذه الوزارة اردت ان اخرج على العادة المتبعة منذ البداية في توجيه وزارة المعارف الى عبد الحسين الجلبي بل اسندتها الى حكمت سليمان واما عبد الحسين الجلبي فقد اسندت اليه وزارة الاشغال والمواصلات،غير ان التجربة اظهرت لي خلال هذه المدة القصيرة بانني كنت مخطئا،فقد كانت تأتي الى مجلس الوزراء من وزارة الاشغال تقارير مقترحات تحمل توقيع الوزير عبد الحسين الجلبي . وعندما يريد الوزراء ان يستوضحوا منه بعض الامور يناقشوه، يظهر لهم ان الوزير لايفهم شيئا عن القضية التي عرضها على مجلس الوزراء تحت توقيعه ولم ير الوزراء من الموافق للمصلحة استدعاء احد البريطانيين الى مجلس الوزراء فرأيت من الضروري ان اعيد عبد الحسين الجلبي الى وزارة المعارف»

السيد «فرنون» بعد ان بقيت خالية لفترة في عهد «سوان» هذه الوزارة قد تطورت ، وتخصص تنظيمها ، وقلص عدد الموظفين غير العراقيين فيها ، الى ادنى حد ممكن

كذلك تم تأسيس مديرية التفتيش المالي وفي سنة ١٩٢٤ احدثت وظيفة المدقق العام التي ربطت بمجلس الوزراء مباشرة[٦] وعهد بها الى السيد «بارلبي» الذي كان يعمل في المالية العراقية منذ انشائها في سنة ١٩١٧ وعهد بمهمة الاستشارة في وزارة الاشغال الى السيد «ويتلي» الى حين وصول «بوري» اليها في سنة ١٩٢٥ ، وقد استمرت بعد مغادرة هذا الاخير لمدة ثلاث سنوات

اما في وزارة الداخلية فقد كان السر كنهان كورنواليس يتلقى المعونة من لدن ثلاثة من مستشاريه الاداريين وهم كل من السيد «بولي» و «ولسون» و «ادموندز» ، ومن قبل واحد او اكثر من المستشارين الصغار

ولقد وفرت المحاكم العدل ، وتقبل الاحكام التي تصدرها الى مدى رفيع بالنسبة الى المحاكم العثمانية الشاذة الفاسدة ففي خلال هذه السنوات كانت المحاكم المدنية والجزائية متعددة في مركز كل محافظة ، وقضاء كلما تطلبت الحاجة ذلك وكانت احصاءات الدعاوى التي يتم سماعها ، تبرز التطبيق المتزايد للقانون ولقد اودعت الاحكام المدنية الى المحاكم المدنية في الاقضية ، وتم تعيين حكام صغار السن ، واسست محاكم الدرجة الاولى في مراكز ثلاث او اربع محافظات ، كما اسست محكمة واحدة للاستئناف والتمييز في بغداد يرأسها حاكم بريطاني ولقد ترأس هذه المحكمة خلال سنة ١٩٢٠ ١٩٢١ السيد فوربس ، وفي سنة ١٩٢١ — ١٩٢٢ السيد «بل» ثم خلفه فيها السيد الكسندر في سنة ١٩٣٤

وحين انتقل «دافدسون» مستشار وزارة العدل ، الى هيئة الموظفين العليا ، سلم منصبه السابق الى السيد «دراور» الذي بقي مستشارا لوزارة العدل حتى سنة ١٩٤٦ ولقد بقيت احكام «المجلة» وقانون الاجراء والقوانين التجارية والبحرية التركية ، سارية المفعول وكانت المحاكم الجزائية في ايدي حكام منفردين لكل حاكم منهم سلطات من الدرجة الاولى والثانية او الثالثة ، بينما كانت محاكم الاستئناف تملك حق التمييز ايضا ، في ذات الوقت الذي بقيت فيه بعض السلطات القضائية المحدودة في ايدي البعض من الموظفين الاداريين ، والهيئات البلدية

ولقد بقي قانون دعاوى العشائر ساري المفعول وكان هذا القانون محبوبا من لدن الموظفين الاداريين ، لكنه كان ممقوتا من قبل اصحاب العقول القانونية ولقد جرى تحديد حقوق الاجانب ، وان كانت تفضيلية ، الا انها لم تكن من قبل الامتيازات الاجنبية ، طبقا لاتفاق

(٦) يقصد بوظيفة المدقق العام مراقب الحسابات العام ، او مديرية الرقابة المالية التي كانت في اول الامر يعين لها رئيس او مدير بدرجة وزير من امثال توفيق النائب الذي شغل هذه المهمة عدة سنوات

قضائي تم التوصل اليه في هذا الشأن وبذلت جهود غير ناجحة في انشاء نقابة تضم المحامين المثيرين للشغب وغير المتدربين على المهنة،والتي كان ينتمي اليها خريجو مدرسة الحقوق كل سنة

* * *

كانت القوى التي تحمي القانون والامن في هذه الفترة تتألف من اربع:هي الجيش العراقي ، والقوات البريطانية البرية والجوية ، وقوات المرتزقة العراقية ، والشرطة كان الجيش العراقي الذي تأسس على اساس قاعدة التطوع ابتداء من سنة ١٩٢١ وما بعدها ، وضمن حدوده التي كانت تنشد احدث الاسس ، قد ارتفعت قوته في سنة ١٩٢٥ الى سبعة الاف وخمسمائة رجل ولقد بقي هذا الجيش ثابتاً في حدود تأسيسه هذه طيلة السنوات الثمان التي اعقبت ذلك فقد كانت هناك ستة افواج من المشاة ، وثلاث كتائب من الخيالة ، وكتيبتان جبليتان ، وبطرية ميدان واحدة ، بالاضافة الى كل الخدمات الضرورية

كان معظم الضباط ممن خدموا في الجيش العثماني ، ولكن الصنوف الواطئة ، كانت قابلة على الاقل ، للتكيف حسب المستويات الحديثة وشاركت وحدات الجيش في كثير من العمليات الصغرى التي استخدمت ضد الاعتداءات العشائرية ، لكنها طبقت خدمة اكثر جدية في مناطق كردستان،وان كانت قد لحقت بها بعض الخسائر هناك ولقد وجه اهتمام كبير الى مركز تدريب الجيش والى الكلية العسكرية الملكية ، حيث اعيد تشكيل البعثة العسكرية البريطانية من جديد،وزيد عدد افرادها في سنة ١٩٢٥(*) في هذا التأريخ كان دور الجيش العراقي يعتبر خلفا للقيام بكل المهمات البرية التي كانت تقوم بها القوات البريطانية،والتي اشير اليها بوضوح

فلقد تقلصت اعمال القوات البريطانية بشكل متقدم الى ان تلاشت في الواقع في سنة ١٩٢٩ ففي سنة ١٩٢١ كانت هناك ثلاثة افواج من المشاة وست كتائب من الخيالة ، وست عشرة بطرية وسرية للالغام والسيارات المدرعة وقد خفضت هذه القوات في سنة ١٩٢٦ الى ثلاثة افواج ومن ثم الى فوجين في سنة ١٩٢٧ واخيرا الى فوج واحد سنة ١٩٢٨ حيث اختفت نهائيا في سنة ١٩٢٩،في الوقت الذي بقيت فيه العناصر البريطانية العسكرية المميزة للعراق اثناء الاحتلال ، بعيدة بعد ذلك التأريخ حتى سنة ١٩٤١

اما القوة الجوية البريطانية التي كانت تحت امرة قواد متتابعين من صنوف عالية ، وكلهم تقريبا ممن قدر لهم ان يظفروا بالشهرة خلال الحرب العالمية الثانية ، فقد بقيت لكي تقدم المساعدة القيمة للحكومة العراقية في كثير من المناسبات فهذه الخدمات المرغوب فيها ،

(*) تألف رؤساء البعثة العسكرية البريطانية والمستشارون لوزارة الدفاع من كل من العقيد جويس ، سنة ١٩٢١ ، والفريق ادالي سنة ١٩٢٥ ، والفريق «لوج» سنة ١٩٢٨؛ والفريق روان روبنسون سنة ١٩٣٧ ، والفريق ووتر هاوس سنة ١٩٣٨ ، والفريق بروميلو سنة ١٩٤٢ والفريق رنتن سنة ١٩٤٤

والشخصيات الآمرة للقوات الجوية(**) كانت ظاهرة على نطاق واسع وغير محمودة امام الجمهور العراقي ولقد تعاظمت القوة الجوية البريطانية من اربعة اسراب في سنة ١٩٢١ الى سنة اسراب،ثم الى ثمانية اسراب في الفترة ما بين سنتي ١٩٢٢ و ١٩٢٦ ، ومن ثم جرى تخفيضها مرة اخرى الى خمسة اسراب ، ثم الى اربعة اسراب في سنتي ١٩٢٨ و ١٩٣٠،وكان لها اوسع تعاون متواصل مع قوات المرتزقة

اما قوات المرتزقة التي اجريت التغييرات في مواقعها وتنظيمها منذ ان كانت مبعثرة في البدايات الاولى لها ، والتي اظهرت سرعة ثابتة ، خلال الايام السوداء اثناء ثورة ١٩٤٠ ، فقد اتخذت مواقعها في اوائل سنة ١٩٢٢،باعتبارها قوة يسيطر عليها البريطانيون وهم الذين يدفعون نفقاتها ومرتباتها(***) وتخضع لتصرفهم ، وينطوي الغرض من انشائها على مساعدة السلطات العراقية ، وكانت تخضع لامرة ضابط عام (اصبح هذا الضابط في الاخير من ضباط القوة الجوية البريطانية) واخيرا وفي سنة ١٩٢٢ حصلت قوات المرتزقة على ثلاث كتائب خيالة اثنتان منها من الاكراد ، وفوجين من الآثوريين ، وفوج من العرب سكان الاهوار ، وبطرية محمولة من الاثوريين

ولقد بلغ مجموع القوات المرتزقة حوالي سبعة الاف وخمسمائة رجل ، كل ضباطها من البريطانيين والعرب والاثوريين وكانت قيمة القوات واضحة باعتبارها قوة اسعاف للحاميات البريطانية المتجهة الى شمال العراق ولقد كان من سوء الحظ ان ثارت المشاعر غير الودية ، نتيجة الفروق في الولاء والسلوك ، بين العناصر الاثورية في السنوات الاخيرة، وبين السلطات العراقية غير ان الخدمات التي ادتها قوات المرتزقة للعراق كانت لها قيمتها ومحترمة ، في حين كانت المنافع الاقتصادية التي ادتها الخدمة في القوات المرتزقة للطائفة الاثورية مهمة(٧)

* * *

(**) كان آمرو القوة الجوية البريطانية من سنة ١٩٢٢،عندما الحقت بقيادة الجيش البريطاني حتى الحرب العالمية الثانية/يتألفون من كل من نائب مارشال الجو السر جون سالموند ، ١٩٢٢ ، والسر هجنس سنة ١٩٢٥ ، والسر النغتون سنة ١٩٢٧ ، والسر بروك بوبهام سنة ١٩٢٩ ولودلو هوايت ١٩٣١ وبورنيت ١٩٣٣ ، وميتشل سنة ١٩٣٥ ، و كورتني سنة ١٩٣٧، ، وتايسن سنة ١٩٣٩ وسمارت سنة ١٩٤٠

(***) كان آمرو القوات المرتزقة بالتتابع منذ تنظيمها الاول في تشكيلة واحدة،هم المقدم بويل في سنة ١٩٢٠ ، العقيد فرت ١٩٢١ اللواء سالدر جاكسون ١٩٢١ والعقيد دوبن ١٩٢٢ اللواء براون ١٩٢٦

(٧) لم يكن لقوات المرتزقة اي نفع او خدمة للعراق ، ذلك لان الهدف الرئيس من انشائها هو حماية المعسكرات الانكليزية ، واستخدامها قوة اضافية مقاتلة الى جانب القوات البريطانية النظامية في مقاومة الانتفاضات الوطنية كما حدث ذلك على نطاق واسع اثناء ثورة ايار سنة ١٩٤١ ولقد كان التدريب الذي تلقاه الاثوريون في هذه القوات على ايدي الانكليز ، من العوامل الرئيسة التي شجعت الطائفة الاثورية على اقتراف اعمال التمرد والقتل التي قاموا بها في صيف ١٩٣٣

نمت قوات الشرطة خلال هذه السنوات ، فتحولت الى قوة ، تحظى كفاءتها وحسن اخلاقها بالاعجاب على وجه التعميم في كل مكان كان يتم اختيار افراد الشرطة بصفة جيدة ، وتزويدهم بالمعدات ، وتدريبهم وتعيين ضباطهم تحت امرة عراقية متنفذة،تتم مساعدتها وتفتيشها من قبل المستر «برسكوت» وضباطه الفاخرين ومع ان الجريمة ماتزال تقع ومن دون عائق غالبا بين العشائر النائية ، الا ان الشرطة التي كانت تنهض بواجبات «الشبانة» القديمة ، قد استطاعت ان تتغلغل عميقا اكثر من ذي قبل في المناطق الريفية ، وان تقوم بحراسة الطرق ، وتساند الموظفين الاداريين ، وتساهم في اداء الخدمة الفعالة مع القوات العسكرية[٨]

وهناك قوة تم اختيارها بصفة خاصة تتألف من راكبي الابل[٩] او المجهزة بسيارات مدرعة اذا مادعت الحاجة الى ذلك ، قد تم تنظيمها الان لاغراض العمل في الصحراء في منطقة الجزيرة ، اي في الدليم والصحراء الجنوبية وفي مراكز الشرطة انتقلت الدوائر المتخصصة في امور الجريمة ، والتحريات الخاصة ، وطبع الاصابع ، والجوازات والتدريب من ايدي البريطانيين الى ايدي العراقيين . ولقد غدت قوة الشرطة التي كانت في سنة ١٩٢١ تقل عن ثلاثة الاف رجل تزيد عن الثمانية الاف رجل خلال السنوات العشر الاخيرة وفي خلال هذه المدة تم تخفيض عدد ضباط الشرطة البريطانيين من اثنين وعشرين ضابطا الى اثني عشر ضابطا ، في حين ازداد عدد الضباط العراقيين من ضابطين الى ستين ضابطا وحدث تقدم كبير في دوائر السجون المدنية فتطورت صناعات السجون تحت الادارة العراقية تطورا كبيرا ، بعد سنة ١٩٣٠

* * *

اما الحياة المدنية في العراق والتي اخذت شكلها العصري في هذه السنوات ، وابرزت ذوقها في المنظر وفي المناخ عما كانت عليه في العهد التركي ، فقد اعيق تطورها بشكل محزن نتيجة الفقر . وقد ادى هذا الامر الى تحديد الفعاليات التي كانت تقوم بها البلديات ودوائر الحكومة المركزية التي كان عملها مدنياً بصفة رئيسة ومع كل ذلك ، فان الصيانة ، والنظافة ، وانارة الشوارع ، ومد انابيب المياه فيها ، وكذلك الامانة العامة للطاقة اللتين اظهرهما موظفو البلديات ، كل هذه قد اظهرت تحسنا عميقا بالنسبة الى المستويات التي كانت عليها في العهد التركي

---

(٨) تألفت قوة الشبانة ، بعد الاحتلال الانكليزي للعراق ، من بعض ابناء المدن والعشائر وعلى الاخص في مناطق الناصرية والديوانية وكان غلوب باشا في وقت من الاوقات يترأس قوات الشبانة هذه ، وقد التحق عدد من افرادها بالجيش الاردني فيما بعد ، حيث تولى غلوب الاشراف على هذا الجيش ، الى ان تم اخراجه من الاردن في اواخر سني الاربعينات وبعد انتفاضة كانون الثاني ضد معاهدة بورت سموث في العراق

(٩) اي قوات الهجانة اما الشرطة التي جهزت بالسيارات المصفحة فقد عرفت باسم قوات الشرطة الآلية في اول الامر ثم غدت تعرف باسم «الشرطة السيارة» وزادت تشكيلاتها في اوائل سني الخمسينات عن اكثر من لواء وشاركت مشاركة فعالة مع قوات الجيش النظامي في مقاومة حركات التمرد بين العشائر والاكراد

اصبح ارتداء «السدارة» لباس الراس العراقي المتميز ، والتي ازاحت الطربوش «الفيس» التركي ، امرا جماعيا في المدن كذلك تم اختيار الزي الاوربي في الملبس الذي كان يقتصر على الطبقة العراقية الرفيعة ، والاوساط الحزبية ، بصفة اكثر فاكثر من لدن سكان المدن وكثيرين من رؤساء العشائر الذين كانوا يقيمون بصفة دائمة في العاصمة بغداد كذلك اصاب التحول مدينة الموصل بالشوارع الجديدة التي شقت فيها ، وبالجسر الذي انشيء فيها ، ومشروع اسالة الماء ، والمباني العامة والحدائق

واتسعت مدينة البصرة الى ثلاثة اضعاف ماكانت عليه ، وذلك بالتراث الذي حققه الميناء خلال الحرب ، وبالتطور الاساسي ، وبالتوحيد الذي طرأ الان على ضواحي العشار ، والمعقل والمكينة[١٠] والتي راحت تتباهى بالجسور الحديثة والشوارع المحسنة وكان من افخم مستشفيات العراق موجودا هناك وهو مستشفى «تذكارمود»[١١] والابنية السكنية والتجارية الحديثة

* * *

اما بغداد التي كانت بلديتها تعتبر بمثابة ولاية منفصلة في الحكومة «الهيرارشية» تحت امرة «امين العاصمة» فقد كان في مقدورها ان تبرز الابنية الجديدة ، من امثال «كلية آل البيت» ، والبلاط الملكي ، وتمثال «مود» وغيرها وكانت بغداد تمتلك مصلحة عصرية للاطفاء ، وفنادق من طراز غربي ، وحوانيت كاملة ، بما في ذلك بعض الحوانيت الاوربية ، واسالة محسنة للماء ، وفروع لثلاثة مصارف هي المصرف الشرقي ، والمصرف العثماني ، والمصرف الفارسي ، والعشرات من وكالات السلع الاوربية ، ونوادي بريطانية وعراقية معا ، ومستوصف بلدية ، ومحكمة بلدية ومع ان شوارع بغداد ماتزال غير مخططة وغير معبدة الا انها كانت مضاءة اضاءة جيدة ، وهي تزدحم بوسائط النقل الالية ، وتحاول ان توفر صيانة ونظافة وتنظيما اوسع

كان تكييف امتياز الترامواي القديم الذي عقد في سنة ١٩١٢ ، يجري النقاش بشأنه[١٢] وفي البلديات الصغيرة التي كانت مواردها ناقصة اذا اما قيست مع متطلباتها التي يجري تصورها الان ، كانت توجد دلائل على الحياة الجديدة في المشروعات الكاملة ، او التي بدئ بها ، من امثال مشاريع الاضاءة الكهربية ، ونظافة الشوارع ، وانشاء الجسور وحدائق المدن ، وكذلك الشيء الكثير من المشاريع الصغيرة التي كان اللغط يدور حول المباهاة بها

ولقد عادت الادارة البلدية الى النمط التركي، وذلك عن طريق مجلس بلدي منتخب ،

---

(١٠) المكينة هي ماكنة «السوس» القريبة من نهير «الخندق» الكبير.

(١١) مستشفى تذكار مود الذي اقيم في بداية الطريق الممتد من مدينة البصرة القديمة الى الزبير وقد ابدل اسمه وحول الى مستشفى عصري.

(١٢) انشأت هذا الترامواي شركة اهلية ظلت تستخدمه بين بغداد والكاظمية حتى سنة ١٩٤٦

ورئيس للبلدية يتم تعيينه ، وقد تم ذلك بازالة كثير من العيوب،والغاء الكثير من الوظائف التي لم تكن اعمالها توازاي المرتبات المعينة لها

وفي الوقت الذي اعدت فيه الخرائط الحديثة والصحيحة للتخطيط الذي يشمل كل المدن وكثيراً من القرى ، والتي وضعت ، بصفة غالبة ، على اساس التصوير الجوي المتخصص ، ثبتت حقوق الملكية بصفة افضل،وكان لها تأثيرها الحسن على المشاريع المدنية

* * *

اصبحت الخدمات التربيوية والطبية منظورة بصفة افضل ، واظهرت تقدما جوهريا بالمقارنة مع المستويات التي كانت عليها في العهد التركي لقد كان الجمهور يحس بهذه الخدمات ابتداء من العاصمة والمدن حتى القرى ولكن هذه الخدمات كان يعتورها العطل دوما ، نتيجة نقص الاموال ، والمعلمين ، والمشرفين والمدربين . وكان هناك صراع في الآراء حول سياسة التعليم فقد كان «سمث» المستشار البريطاني ، يشعر بان التعليم يجب قبل كل شيء ان يكون صحيحا ، وان يقوم على اساس القيم الخلقية ، في حين كان المعارضون لرأيه هذا ، يريدون المزيد من المدارس مهما كان عدد المعلمين فيها ، ومهما كان نوع المستويات ، لان هذه المدارس كانت تعتبر في نظرهم دواءاً لمعالجة التخلف واذا مابقي جيل متأخراً كان يحرض طائفة المثقفين العراقيين ضد البريطانيين ، بسبب انه لم يحدث سوى الشيء الضئيل في ميدان التعليم خلال هذه السنوات العشر، فان الدفاع ازاء ذلك يجب ان يكون بالرد، بانه لايمكن تحقيق سوى قيمة ضئيلة من وراء الامية الجماعية التي كان يجري انتاجها، حتى وان توفرت الاموال، والابنية والتجهيزات، والمعلمين، مع العلم بان هذه الامور لم تكن متوفرة في الواقع.

وفي الوقت ذاته كانت وزارة التربية «المعارف» اول وزارة اصبحت الهيئة التنفذية فيها عراقية منذ سنة ١٩٢٣ فلقد تضاعف عدد المدارس الحكومية الابتدائية من اقل من مائة مدرسة الى اكثر من مائتين . وبدأ المتخرجون في المدارس الثانوية القليلة في المدن الثلاث في سنة ١٩٢٤ [١٣] وفتحت صفوف مسائية لتدريب معلمي المدارس الثانوية ، وكانت هذه الصفوف هي المرحلة الاولى لكلية تدريب المعلمين فيما بعد[١٤]

فتحت كليات اعداد المعلمين الابتدائية في بغداد[١٥] للرجال ، واعدت دور منفصلة للنساء[١٦] وفي الكليات السابقة تدرب بعض الطلبة ، بصفة خاصة على التعليم ، في المدارس الريفية ، ولكن وصل ذلك الى مستوى وجد بانه غير كامل في النهاية ومع ذلك فلم يكن هناك

(١٣) تدخل المدارس المتوسطة ضمن عبارة المدارس الثانوية وقد ظهرت لاول مرة في مدن بغداد والبصرة والموصل

(١٤) هي التي عرفت باسم دار المعلمين العالية انذاك ثم اصبحت كلية التربية فيما بعد ومازال قائمة في الوقت الحاضر.

(١٥) المقصود بهذه الكليات دور المعلمين وهي دار المعلمين بصنفيها الاولى والممتاز.

(١٦) اي دار المعلمات

تعليم ثانوي للبنات عدا المدارس الخاصة كانت المدارس الثانوية الحكومية للبنين قليلة ، وانشئت مدارس تقنية فيما عدا المرحلة الابتدائية ، في كل من بغداد والموصل حسب[١٧] ثم فتحت مدرسة ثانوية امريكية للبنين تحت اشراف الدكتور «كولن ستورت» في سنة ١٩٢١ ، كما فتحت مدرسة اخرى مماثلة للبنات في سنة ١٩٢٥،وكانت المدرستان في بغداد[١٨]، وهي احد مشاريع الكنيسة الهولندية المجددة ، اما الثانية فهي من مشاريع البعثة التبشيرية الموحدة في العراق

اما كلية آل البيت التي كرس لها الملك اهتمامه ووفرت لها وزارة الاوقاف الاموال اللازمة ، فكانت تقدم دروسا عن الفقه الاسلامي

* * *

ولم تهمل القيمة الاثرية الهائلة التي يتميز بها العراق فقد تواصلت اعمال التنقيب عن الآثار في سنة ١٩٢٢،وشاركت بعد ذلك التاريخ هيئات متعلمة من البريطانيين والامريكيين في اعمال التنقيب في كل من «أور» و «كيش» و «ترغلان» على مقربة من كركوك

وتم توزيع ماعثر عليه المنقبون الالمان في خرائب بابل واصبح المتحف العراقي الذي انشيء في غرفة واحدة في سنة ١٩٢٤،يحتل دارا موسعة بعد سنتين من ذلك التاريخ[١٩] وتم تشريع قانون ملائم للاثار . وكان هذا المتحف وجميع الشؤون الاثرية تدار ، بناء على طلب الملك فيصل ، من قبل المس غيرترود بل،والتي ظلت تحتل منصب المدير الفخري للمتحف حتى وفاتها حيث خلفها في عملها «ريجارد كوك» مفتش الاوقاف[٢٠]

* * *

---

(١٧) هي التي عرفت باسم مدارس الصناعة

(١٨) المقصود بها مدرسة الرجاء الثانوية في البصرة والتي كان يديرها المبشر الامريكي «فان ايس» الذي عاش فترة طويلة في العراق ووضع كتابا بالانكليزية عن اللهجة العراقية الدارجة،وكانت هذه المدرسة تدار مثل غيرها من المدارس التي انشئت في بغداد من قبل بعثات التبشير الامريكية ولقد تحولت الثانوية الامريكية في بغداد الى كلية عرفت باسم كلية «بغداد» كما توسع نشاط المبشرين الامريكيين في ميدان التعليم فانشئت في اوائل سني الخمسينات «جامعة الحكمة» التي بنيت لها بناية خاصة وواسعة على الطريق المار بين معسكر الرشيد وجسر ديالى وقد اممت هذه الجامعة مع غيرها من المدارس الاهلية الاخرى في اوائل سني السبعينات وتقوم كلية التكنلوجيا في نفس البناية التي كانت تشغلها جامعة الحكمة قبلا وحولت مكتبتها القيمة التي اشترتها من ورثة الباحث يعقوب سركيس الى مكتبة المتحف العراقي بعد التأميم مباشرة

(١٩) كان المتحف يقوم في بناية صغيرة ذات طابقين في شارع الامين الى ان تمت اقامة البناية الحديثة له في جانب الكرخ بعد ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ وما تزال حتى هذه البناية التي انفق على انشائها في حينه اكثر من خمسة ملايين دينارا ، ضيقة لاتفي بحاجات التوسع وعلى الاخص المكتبة وقاعة المخطوطات حيث ماتزال الوف المخطوطات مكدسة في الصناديق لعدم وجود مكان لحفظ فيه ويمكن ان يستفيد منها الدارسون

(٢٠) سطا كوك على كثير من الاثار في المتحف وحاول تهريبها الى خارج العراق فتم كشفها واسترجاعها منه وقد حدثت جراء ذلك ضجة واسعة في دوائر الدولة وفي الصحف ودوائر المعارضة بصفة خاصة

اخذت مصلحة الصحة التي كانت تحت امرة مدير عراقي منذ سنة ١٩٢٢ وبوجود الدكتور هالينان المفتش العام فيها ، تتطور تطورا بطيئا لكنه مصيبا فقد كانت تحتفظ بمستشفيات لها في المراكز الرئيسة ، وبمستوصفات في المدن ، وبالمحاجر وخدمات الحجاج الاخرى ، وبالمعاهد المتخصصة في امراض الرمد ، ومعهد الاشعة ، والمعهد الباثيولوجي ، والعلاجات المضادة لداء الكلب ، والدورات التدريبية في ميدان الصيدلة والتمريض

ولقد ازداد عدد الخمسة والعشرين طبيبا عراقياً ولبنانيا الذين تم استخدامهم في سنة ١٩٢١ الى اكثر من ثمانين طبيبا في بحر عشر سنوات ، وهبط عدد الاطباء البريطانيين في ذات المدة من اربعين طبيبا الى عشرين كما هبط عدد الممرضات الانكليزيات من اربع وعشرين ممرضة الى احدى عشرة ممرضة ، في حين هبط عدد الموظفين الهنود التابعين للصحة من اكثر من مائتي موظف الى اربعة موظفين حسب ، هذا في الوقت الذي ارتفعت فيه نسبة المرضى الذين اخذوا يقبلون على المستشفيات والمستوصفات من خمسة عشر الف وسبعمائة مريض في سنة ١٩٢١ الى مليون وستمائة الف مريض في سنة ١٩٢٦ وكان من المؤكد ان يتضاعف هذا العدد في سنة ١٩٥٠

وكان لمؤسسة سكك حديد الحكومة العراقية خدماتها الصحية المنفصلة كذلك استمر المستشفى اليهودي ، مستشفى مير الياس ، في بغداد ، يعمل بصفة مستقلة كذلك تم التصدي جيدا لوافدة الكوليرا الحادة التي وقعت في سنة ١٩٢٣

وفي عالم العشائر ، كان بروز شيء من الروح الجديدة فيه ، يبشر بالامل في مستقبل من السلام والاستقرار . ومع وجود الاساس الاقتصادي للاضطراب العشائري ، وعدم التاكد من حقوق الاراضي ، وادعاءات المتغيبين من اصحاب الاراضي ، وعدم السيطرة على مياه الري ، وانعدام الامن ، ووجود الحصص الضئيلة من الناتج بصفة غير عادلة ، كل هذه القضايا بقيت من دون تغيير .

ومع ان الكثيرين من افراد العشائر ، يعتبرون حكومات الشيوخ المحلية ، او حتى الفوضى ، هي النموذج ، الا انه كانت توجد قوى اخرى تقف الى جانب النظام والتقدم

فمثل هذه القوى من الشرطة ، او الاعمال التأديبية ، التي اضطرت الحكومة الى استخدامها خلال الفترة مابين سنتي ١٩٢٢ و ١٩٢٦ ، كان لها تأثير مغاير . ذلك ان العداوات قديمة العهد ، كتلك التي كانت قائمة بين عانة وراوة ، قد تم حصرها كما تقلصت اعمال استيفاء الاتاوات ، والغارات التي كانت تقوم بها عشائر شمر . وقد تحولت منطقة الجبايش في الاهوار الى وضع اكثر سعادة بعد ان تمت ازاحة الشخص المسيطر عليها وهو «سالم خيون»[(١)] كذلك

---

(١) عرف سالم الخيون بموالاته الانكليز عند الاحتلال وعندما تألفت الحكومة الوطنية في العراق لم يخضع لسلطانها واعلن التمرد فجردت الحكومة قوة عسكرية تأديبية ضده في اواخر سنة ١٩٢٤ ورغم ما اسدي اليه من نصائح بقي مستمرا في تمرده وتحريض =

تمّ القضاء على الاعمال الخارجة على القانون والطاعة في مناطق عفك والسماوة ، وفي كل مكان آخر، حيث انزل العقاب عن العشرات من الاعتداءات العشائرية وكان لشق الطرق في مناطق اواسط الفرات التي تتقاطعها الاهوار ، واقامة مراكز الشرطة المشيدة تشييدا صحيحا ، واعمال الحراسة المنتظمة التي تقوم بها الشرطة الخيالة ، او التي تستعمل السيارات المصفحة ، تأثير حسن كما ان سياسة الحكومة العشائرية بحد ذاتها قد طرأ عليها شيء من الاعتدال

كان من اسباب الثورة في سنة ١٩٢٠ ، منح السلطات التنفيذية لرؤساء العشائر طبقا للسياسة البريطانية ولذلك كان الموقف يتطلب بالحاح ايجاد طبقة عراقية تكون مدنية بصفة جوهرية ، ومناهضة لتصرفات العشائر. ولغرض التغلغل داخل العشائر ، وتحطيمها ، واضعافها ، وتمدينها ، كانت سياسية الحكومة مشابهة لما كانت عليه في العهد العثماني، وبقيت في ذات النطاق وحتى رؤساء العشائر الذين انتخبوا في البرلمان ، او الذين انضموا الى الحركات الحزبية ، وحصلوا على مراكز وزارية ، اصبحوا الان يفكرون في البحث عن مصالحهم، وذلك عن طريق عمل تقوم به الحكومة بدلا من اللجوء الى اعمال التمرد العشائرية

وتبين التقارير التي وضعت في سنة ١٩٢٦ مدى الرضا الناتج من انخفاض الغزوات العشائرية ، ورغبة افراد العشائر بالاجراءات التي تتخذها مراكز الشرطة ، وفي السيطرة الحكومية الجيدة ، والاستفادة من تطبيق نظام المنازعات العشائرية[٢٢]

العشائر في منطقته للعصيان ضد الحكومة ، واذ ذاك جردت حملة جديدة ضده فقضت على تمرده وانزال العقاب به بعد ان قصفت منطقته حيث سلم نفسه الى المقدم «بولي» الحاكم السياسي البريطاني وقد ادعى سالم الخيون في كتاب وجهه الى السيد عبد الرزاق الحسني مؤلف تاريخ الوزارات العراقية بان عبد المحسن السعدون هو الذي وجه الاعمال التأديبية ضده «حتى اذا جاء (السعدون) وزيرا للداخلية في وزارة ياسين الهاشمي ، وكنت عارضت المعاهدة وعارضت انتخابه (اي السعدون) رئيساً للمجلس التأسيسي اتهمني بالعصيان واقنع الانكليز على قصف عشيرتي وتسفيري» (الحسني تاريخ الوزارات العراقية ج ١ ص ٢٥٢ طبعة ١٩٧٤)

(٢٢) المقصود به نظام دعاوي العشائر والذي بقي ساري المفعول طيلة العهد الملكي ولم يلغ الا بعد قيام ثورة الرابع عشر من تموز سنة ١٩٥٨، «وكان هذا النظام يحيل الكثير من اعمال القتل والعدوان التي تقع بين العشائر الى التحكيم العشائري لاصدار قرارات فيها ، بدلا من احالتها الى المحاكم المختصة، ولذلك اهتم المحتلون الانكليز بتطبيق هذا القانون ومعارضة اي تعديل فيه من شأنه ان يخفف الاحكام الواردة فيه ، لان ذلك كان يتماشى مع اهداف الانكليز في تثبيت نفوذهم وسلطانهم في البلاد ولهذا وجدنا المؤلف «لونغريغ» يقول عن هذا القانون بانه «كان واحدا من اعظم تراث نافع خلفه النظام البرلماني (كذا !!) .

٨ ـ الانماء والتطور

اذا كان الفقر المكلكل بكاهله على الدولة، قد اعاق مشروعات الري الكبرى في هذه الفترة، فلن يكون هناك امر اقل قيمة، اذا ما تم ايجاد مؤسسة دائمة للري يتألف موظفوها من الاخصائيين، وتعتمد على اعمال المسح الواسعة، وتراقب الاوضاع، وتجمع المعلومات، وتقوم ببناء الاعمال الصغيرة ذات الفائدة المباشرة من امثال رؤوس القنوات، والنواظم، والكري، واعادة تصميم سدود الفيضان الحيوية، والتخطيط للمستقبل. وبدون ايجاد هذه الامور، فان الخراب والدمار اللذين شهدهما العهد التركي، لابد وان يتواصلا، سيما وان الفيضانات الخطيرة التي حدثت في سنتي ١٩٢٣ و ١٩٢٦ قد الحقت الاضرار المدمرة بالضواحي المحيطة ببغداد ذاتها بما في ذلك محطة سكك الحديد ومخازن الكمارك. فاذا ما حدثت مثل هذه الفيضانات الان فانها ستكون اكثر دمارا وتخريبا[١]

تم فتح قنوات عديدة من الضفة اليسرى لاواسط الفرات فوق سدة الهندية ونعني بذلك قنوات الصقلاوية واليوسفية، وقد خصصت لها الاراضي بشكل معتني به، وتم اصلاح سدة

---

(١) فاضت مياه دجلة في اليوم التاسع من نيسان ١٩٢٦ فحدثت كسرات في السداد القائمة حول بغداد ففاضت المياه وغمرت البيوت والقصور والبساتين المحيطة وطغى الماء حتى على البلاط الملكي، واضطرت الحكومة الى نقل العائلة الملكية الى بيت مناحيم دانيال في منطقة السنك بعد ان غرق الاثاث والمواشي والابقار الملكية في المزرعة الملكية. ودلت التحقيقات التي قامت بها الشرطة في حينه على ان اسباب حدوث تلك الكارثة يعود الى مدير المزرعة الملكية السيد توفيق المفتي السوري الجنسية الذي اراد ان يسقي الاقطان في المزرعة ففتح بوابة في الجانب الايسر من نهر دجلة بجوار البلاط، فتدفقت المياه من تلك الفتحة ولم يستطع ايقافها. وقد سرى الماء فوصل حتى الى محلة الفضل، وغرقت بعض الاموال التي كانت مودعة في شاحنات القطار التي كانت تنقل بالعبارة من الكرخ الى الرصافة قبل ان يتم بناء الجسر الحديدي المعروف بجسر الصرافية. وكانت المنطقة المجاورة للبلاط والتي غمرتها المياه قد عرفت منذ ذلك الوقت باسم محلة «الكسرة» ولا تزال تحتفظ بهذا الاسم حتى الان. ولقد اراد من ناجي شوكت محافظ بغداد في ذلك الوقت محاكمة توفيق المفتي علنا فاستاء الملك من ذلك وامر بفصل ناجي شوكت ولكن رئيس الوزراء، عبد المحسن السعدون، رفض امر الفصل ونقل ناجي شوكت محافظا لمحافظة الموصل. ومع كل ذلك قدم توفيق المفتي الى محكمة الجزاء في الاعظمية وكان حاكمها المرحوم عبد العزيز الخياط فحكمت المحكمة عليه بالسجن ستة اشهر بتهمة الاهمال، وعلى اثر استياء الملك فيصل من هذه المحكمة تم نقل عبد العزيز الخياط الى محكمة الصويرة. وبقي توفيق المفتي يعيش في العراق ويسكن دارا في الاعظمية حتى انهيار الحكم الملكي في سنة ١٩٥٨ وكانت المزرعة الملكية تقع في منطقة الوزيرية، وقد وزعت بعد حادث الغرق الى قطع لاقامة دور سكن فيها، ووزعت اولى القطع على بعض الوزراء من امثال نوري السعيد وياسين الهاشمي وطه الهاشمي فعرفت منذ ذلك الوقت باسم الوزيرية.

الهندية ذاتها وتحسينها. وكانت دائرة الري في ذلك الوقت تدار من قبل «انكس» حتى سنة ١٩٢١، ومن قبل «سلر» حتى سنة ١٩٢٥ ثم اودعت الى ج. م. ولسون» في تلك السنة ذاتها. واخيرا عهد بها الى «بوري» الذي جيء به من مصر، وذلك خلال الفترة ١٩٢٥ - ١٩٢٨

وفي ميدان الزراعة انشئت دائرة للزراعة يرأسها مدير عراقي، منذ سنة ١٩٢٤، وكان ج. ف. وبستر مفتشا عاما لها في اعقاب السيد روجر توماس الذي يعتبر اول من عنى بزراعة القطن في العراق، غير ان هذه المحاولة كانت في النهاية اقل من المتطلبات التي تتطلبها البلاد. ولم تكن قضية تسوية الاراضي قد تجاوزت النطاق المحلي بعد، وكانت تقوم على اسس واهنة، وبصفة عرضية. ولم يحدث اي تغيير في التخلف الزراعي المدمر. اما تجربة انواع من الحاصلات، وتربية دور القز، واستعمال مختلف البذور التي كانت تجري في المعهد الزراعي، فلابد انها بقيت في الوقت الحاضر دون ان تترك ادنى تاثير في الطرق المطبقة في الزراعة البدائية.

ومع كل ذلك شرع ببداية لزراعة القطن بصفة علمية عقدت عليها امال واسعة، ذلك لان شركة زراعة القطن البريطانية» قد فتحت وكالة لها، واقامت محلجا عصريا للقطن. كذلك باشر احد الانكليز بانشاء مزرعة عامة ذات نطاق واسع تعتمد على اسس الادوات الالية، وذلك على مقربة من الموصل لكن هذه المزرعة لم تدم طويلا. كذلك لم تستطيع «شركة ولفرا» التي استأجرت ارضاً لها على نهر ديالى، وحاولت تطبيق الطرق الزراعية العصرية، ان تتغلب على روح المحافظة المحلية فاضطرت الى التخلي عن المشروع ذاته[٢]

ولقد امتلك الملك فيصل نفسه مقاطعة زراعية مهمة على مقربة من خانقين، واقبل على زراعتها بالاساليب المحسنة. وكانت مجموعة من العراقيين والسوريين قد وقعت على عقد امتياز، باسم امتياز شركة اصفر، مع الحكومة العراقية في سنة ١٩٢٤ [٣] فكان ذلك يعد مشروعا طموحا لتطوير الاراضي وتنظيم الري، اذ اشتمل على انشاء حوض الحبانية، وسدة الفلوجة، واقامة سد على نهر ديالى. وانشأت شركة اصفر المندمجة، في سنة ١٩٢٥، مزرعة محدودة للقطن، ولكن من دون نجاح ملموس، وذلك بالاضافة الى مزارع القطن في ديالى. ولكن شروط الامتياز الرئيس،

---

(٢) WOLFRA SYNDI CATE كانت هذه الشركة، وهي انكليزية، قد حصلت على امتيازها هذا من اصحاب شركة اصفر او اصحاب مشروع اللطيفية ثم حولته الى شركة قطن ديالى «الانكليزية التي» قامت باعمال تجريبية في زراعة القطن في ديالى فلم تنجح في ذلك وتخلت عن المشروع.

(٣) وجهت التهمة الى شركة اصفر بانها كانت عميلة لبعض الشركات الانكليزية مما اثار ضجة في مجلس النواب ضد وزارة العسكري التي منحت ذلك الامتياز، ولما كان الامتياز يخول حق بيعه فقد تولت شركة قطن ديالى تنفيذ جزء من مشروع شركة اصفر، وذلك بان حصلت على اراضي على الجهة اليمنى من الفرات جنوبي المحمودية لتحويلها الى مزارع نموذجية للحنطة والشعير وغيرها وقد عرف ذلك المشروع باسم اللطيفية الذي بقي قائما الى ان بوشر بتنفيذ قانون الاصلاح الزراعي بعد ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨

سرعان ما اثارت بعد ذلك ضجة شعبية واسعة من التساؤل. فقد انفضحت السمة شبه الاحتكارية للشركة، مما عرض المشروع كله لاعادة النظر فيه مجددا[٤]

وفي الوقت ذاته تأسست منظمة حكومية لمكافحة الجراد، حسب النطاق الذي تتطلبه هذه الحشرة الفتاكة، وباستعمال كل طريقة معروفة. وقد ظهرت هذه المنظمة في القسم الشمالي من العراق، في الوقت الذي شاركت فيه الحكومة في الخطط الاقليمية التي اعدت بصفة مشتركة في دمشق.

كان الحاصل التافه في سنة ١٩٢٤، والنتائج التي نجمت عن شدة البرد والامطار المتواصلة، من خير الوسائل التي تذكر الناس بزعزعة الزراعة. واستطاعت دائرة البيطرة الصغيرة تحت امرة جادويك، الى جانب عملها في مراقبة ومعالجة خيول الجيش والشرطة، وما كانت تديره من المستشفيات المدنية للحيوانات، ان تحقق ما تستطيع به السيطرة على الامراض المزمنة والوافدة التي كانت تتعرض لها الاغنام والمواشي العراقية، وعلى الأخص طاعون المواشي الذي كان يسبب خسائر سنوية كبيرة.

* * *

كانت الطرق والمنشآت الآلية والمباني، من مسؤولية دائرة الاشغال العامة التي انتقلت مديريتها العامة من عهدة ج. م. ولسون، في سنة ١٩٢٠ الى ، كلاي، في سنة ١٩٢٥ ، وكانت الطرق ما تزال غير معيدة وملئً بالاوحال والاتربة في هذه الفترة. غير ان العناية الثابتة قد جعلتها مفتوحة نوعاما. فقد ازدادت كمية مسافات الطرق والدروب المتوفرة لوسائط النقل الالية الى ثلاثة اضعاف ما كانت عليه من قبل، فاخذت المئات من السيارات التي تنقل المسافرين والحمولات يجري استخدامها في اي من هذه الطرق، وما صاحب ذلك من انشاء حوانيت للتصليح والتجهيزات والمتعاملين فيها، تؤلف فرعا جديد من فروع الصناعة، فضلا عن كونه واحدا من فروع السفر.

تم تدشين طريق السيارات عبر الصحراء والذي يمر بمدينة الرمادي والرطبة حتى دمشق في سنة ١٩٢٣ ، على يد اثنين من النيوزيلنديين، هما الاخوان (نيرن) اللذين كانت مقرات عملها

---

(٤) «شركة اصفر» تالفت هذه الشركة في اوائل سنة ١٩٢٤ من كل من نجيب اصفر اللبناني الاصل، وحمدي الباجه‌جي وثابت عبد النور الموصلي، للقيام ببعض الاعمال الزراعية من بينها تجربة زراعة القطن، وبناء بعض السدود على نهري دجلة والفرات وقد تقدمت الشركة بطلبها الحصول على امتياز لها، الى الوزارة السعدونية الاولى، ثم كررت المطالبة في عهد الوزارة العسكرية الاولى، التي قدرت كلفة المشروع بحوالي اثنى عشر الف باون. ولما كانت الوزارة العسكرية قد طلبت الى الشركة تقديم اعتماد مالي بذلك حصلت الشركة من شركة «فوردكيس» الانكليزية على موافقة بتقديم الاعتماد المالي المطلوب، حيث اقر مجلس الوزارة بجلسته في العاشر من تموز ١٩٢٤ منح الامتياز المذكور. وكانت مشاريع الشركة تنطوي على اقامة سد عند الفلوجة، وتحويل الحبانية الى خزان للماء وايصاله الى هور ابي دبس، وانشاء سد على نهر ديالى عند جبل «تيبل» واخر عند الطويلة وانشاء خزان لخزن مياه ديالى مع ارض مساحتها «خمسة عشر الف هكتار في منطقة ديالى، واخرى مساحتها ستون الف هكتار في منطقة نهر الفرات.

في دمشق، وكان لهذه الشركة تأثيرها المباشر في توجه الاجانب نحو العراق[٥] ذلك لان هذه المصلحة مالبثت في سنة ١٩٢٦ ان ابتلعت الشركة الاولى المنافسة لها، وهي سورية كانت تستخدم طريق هيت – تدمر، وقد تعرضت في سنة ١٩٢٥ لهجوم وحشي عليها قام به افراد من عشائر الدليم.

اصبح فرع طريق الرطبة – دمشق الذي كانت تستخدمه شركة «نيرن» في صيف سنة ١٩٢٥، غير صالح للاستعمال، بسبب الثورة التي اشعلها الدروز[٦] ولذلك تحولت النقليات عن هذا الفرع، وبعد سنة من ذلك التاريخ، الى عمان وحيفا عبر شرقي الاردن، ذلك البلد المؤلفة اراضيه من كتل بركانية يحظر السير فيها.

غدت عملية نقل البريد عبر طريق الصحراء بالسيارة من العمليات المعتادة الى ان قضت عليها خدمات نقل البريد جوا. وكانت ترتيبات البريد مع العراق، والتي تتولاها ادارة عراقية بمساعدة خبير بريطاني، قد اتسعت فاصبحت اكثر شمولا، لانها ضمت كل خدمات البريد الاعتيادية. كذلك اعيد تأسيس خطوط البرق، وتضاعف عدد دوائره، كما اقيمت في الرطبة، وسط الصحراء، محطة لاسلكية.

لم تكن الملاحة في نهر دجلة لتتجاوز، بصفة جوهرية، ما كانت عليه قبل سنة ١٩١٤. فلقد كان السير في النهر بطيئا، والملاحة شاقة، في حين كانت سكك الحديد تمثل منافسة شديدة لها. كان اسطول سفن الملاحة في الفرات ودجلة والذي خططت له شركة مسبرز[٧] ما يزال يمارس نقل القسم الاكبر من النقليات ببواخره الثلاث القديمة، والباخرتين الحديثتين اللتين تتحركان بالرفاسات. ولقد ازداد عدد سفن هذا الاسطول في سنة ١٩٢٤، وذلك بعد الاستيلاء على

---

(٥) شركة نيرن اسسها انكليزي استرالي الموطن كان يعمل مع القوات الانكليزية التي احتلت العراق خلال الحرب العالمية الاولى فلما انسحبت تلك القوات من العراق بعيد الحرب، احال نيرن نفسه على التقاعد وبدأ هو واخوه بانشاء شركة للنقل البري بسيارات انكليزية الصنع متينة. واشتهرت الشركة بحسن المعاملة وتوفير الراحة للمسافرين وكان مقرها في الصالحية ببغداد على مقربة من المتحف العراقي وظلت تمارس اعمالها حتى نهاية سني الستينات.

(٦) لم تكن الثورة السورية قاصرة على الدروز وحدهم وان كان سلطان باشا الاطرش هو الذي فجر الثورة في جبل الدروز في سوريا، فقد شاركت في الثورة كل العناصر الوطنية السورية المعارضة للاستعمار الفرنسي، والتي خدعت مثل العراق وغيره، بالعهود والمواثيق التي تقدم بها الحلفاء اثناء الحرب. والقول بان الثورة السورية هي ثورة الدروز مشابه تماما المشابهة للادعاءات التي ما يزال البعض من طوائف العراق حتى اليوم يطلقونها، حيث يزعمون بان ثورة سنة ١٩٢٠ هي ثورتهم على الرغم من مشاركة كل مناطق العراق، من الشمال الى الجنوب، والعرب والاكراد مشاركة فعالة ومؤثرة في تلك الثورة سيما وان الثورة قد بدأت في المناطق الشمالية والوسطى من العراق قبل ان تبدأ في الجنوب (راجع عبد المنعم الغلامي: ثورتنا في شمال الوطن ج ١ وكذلك د. كمال مظهر احمد: مشاركة الشعب الكردي في ثورة العشرين العراقية) وغيرها.

(٧) سبقت الاشارة الى هذه الشركة في مكان اخر.

سفينتين اخريين هما «قدري» و «احسان»[8] اللتين بنيتا في سنة ١٩١٨، كذلك سفينة بغداد التي بنيت في سنة ١٩٠٨ والتي كانت تملكها اصلا، الادارة النهرية التركية. كانت هذه السفن الثلاث تعود الى شركة «الخضيري» التي تألفت منذ عهد بعيد، لكن ابتلعتها في سنة ١٩٢٤ «شركة الفرات ودجلة».

ولقد بقيت زوارق اخرى قليلة من سفن شركة الخضيري تمارس عملها، في الوقت الذي اخذت فيه القوة الجوية البريطانية تحتفظ بسيطرتها على وسائط النقل في المياه الداخلية، وعلى رصيف ميناء البصرة، وبعدد من السفن المستعملة لنقل تجهيزاتها.

وكان ميناء البصرة الذي كان يدار من قبل العقيد «وورد» مدير الميناء التابع لوزارة المالية في الحكومة العراقية منذ سنة ١٩٢٠ ما زال حتى سنة ١٩٢٦ مملوكا من قبل الحكومة البريطانية، الى ان يتم تسديد رأس المال الذي انفق عليه باقساط، وانشاء مؤسسة خاصة للميناء. ولقد تم تنظيم الميناء منذ سنة ١٩٢٢ وما بعدها، باعتباره قاعدة مدعمة بصفة ذاتية ايام السلم، وتم تزويده بكل التسهيلات الاعتيادية اللازمة للتجارة العراقية، ولاسطول ناقلات النفط من عبادان.

وفي سنة ١٩٢٣، وعن طريق قرض من شركة النفط الانكليزية الفارسية، شرع بحفر قناة عميقة عبر جرف الفاو، الذي لم تكن تجري خلاله قبل سنة ١٩٢٠ مياه مرتفعة لاية باخرة تغطس الى اكثر من عشرين قدما. واستطاع هذه الاتفاق ان يوفر ايجاد قناة عمقها ثمانية وعشرون قدما في المياه المرتفعة، وعرضها ثلثمائة قدم وطولها احد عشر ميلا. ولقد بدأ العمل بحفر هذه القناة في سنة ١٩٢٤ وبذلك تم افتتاح قناة روكا للنقل البحري وبهذه الابعاد في سنة ١٩٢٦

كانت حالة سكك الحديد التي يديرها تينش منذ سنة ١٩٢١، مماثلة لحالة ميناء البصرة. فقد كانت سكك الحديد ملكا للحكومة البريطانية. واخذت السلطات العراقية بعد سنة ١٩٢٣ تديرها بمساعدة عدد من الموظفين البريطانيين التنفيذيين والفنيين، وذلك تمهيدا لشرائها وضمها الى املاك الحكومة[9]

---

(٨) سبق لشركة نقليات حييم نتنائيل ان اشترت في سنة ١٩٢٧ من شركة دجلة والفرات، السفينتين «قدري» و «احسان» واخذت تشغلها في نقل المواد الزراعية والسلع بين بيجي والموصل ابتداء من شهر تشرين الثاني حتى شهر ايار من كل سنة وقد اطلقت على السفينة «قدري» اسم «شرقاط» وعلى السفينة احسان اسم «صادق» وقد احترق المركب «صادق» في شاطئ دجلة عند بيجي في ربيع سنة ١٩٢٩ نتيجة شرارات نار اصابت صفائح بنزين الطائرات التي كانت موسقة في احد «عنابر» المركب وقتل في الحادث احد الكتبة اليهود العاملين في الشركة المذكورة اذ حاصرته النيران وخشي ان يقذف بنفسه الى النهر لانه لم يكن يحسن السباحة، فاحترق مع المركب المحترق.

(٩) توصلت وزارة الهاشمي في سنة ١٩٣٥ الى عقد اتفاق مع بريطانيا بشأن نقل ملكية سكك الحديدية الى العراق وقد جوبهت هذه العملية بهجوم شديد من لدن المعارضة على الوزارة الهاشمية مما سيرد ذكره في الفصول القادمة. علما بان اكثرية العاملين في السكك حتى سنة ١٩٣٦ وما بعدها كانوا من الهنود والاثوريين واليهود.

اعيد العمل بسكة حديد بغداد البصرة في شهر نيسان في سنة ١٩٢١، ومن ثم مد الخط الى المسيب وكربلاء. وكذلك مد خط آخر من المفرق الى سدة الهندية. وكانت الفروع التي مدت الى خانقين ومدينة البصرة قد كملت في الفترة بين سنتي ١٩٢١ و ١٩٢٤ ولكن في تلك الفترة تم اغلاق الفروع التي كانت ممدودة بين بغداد والكوت، والى جبل سنام جنوبي البصرة، ومن خانقين الى الحدود الفارسية في «كياروق» (قريت).

وفي سنتي ١٩٢٤ و ١٩٢٥ انشئت جسور ثابتة فوق نهر الفرات ومد خط حديدي من خانقين عبر ديالى الى كل من كفري وكركوك، حيث كمل بناؤه في سنة ١٩٢٥ كما نقلت معظم مشاغل سكك الحديد من الشعيبة الى الشالجية في الضواحي القريبة من بغداد في ذات السنة. ولقد بقي المعبر الذي ينقل الشاحنات عبر نهر دجلة في بغداد بين خطين لسكة الحديد من نطاق مترين، ونعني بهما خط بغداد – البصرة، وخط بغداد – كركوك، بقي هذا المعبر مصدراً للتاخير والمتاعب حيث دمرت الفيضانات التي حصلت في سنة ١٩٢٦ كثيرا من ممتلكات السكك[١١] غير ان اعادة فتح الطريق امام الزوار من الفرس في سنة ١٩٢٤ قد حقق موارد طيبة لادارة السكك، واخذ الالوف من العمال الهنود يختفون سنة بعد اخرى حيث تم استبدالهم بالعمال لعراقيين.

كان ظهور الصناعة الحديثة بطيئا. ولقد سبقت الاشارة الى ظهور محالج الاقطان وصيانة وسائط النقل الالية، ومعاونة اشكال اخرى من المشاريع. ولم يظهر اي من المصانع الحديثة وان كانت مختلف الامكانيات بشأن ذلك، قد نوقشت بصفة غالبة. ومع كل هذا فان مصدراً لمستقبل اعظم لمشاريع القطر المفردة وثرواته، قد برز خلال هذه السنين، من داخل غرف المؤتمرات الى ميدان صناعة النفط بصفة مكشوفة. كانت لجنة الحدود التركية الفارسية خلال سنتي ١٩١٣ و ١٩١٤ قد خصصت لتركيا النصف الغربي من منطقة «نفطخانة» الحدودية التي تقع جنوبي خانقين والتي انتقلت الى العراق بصفة نهائية. ولقد قبلت الحكومة التركية، التي ورثتها الحكومة العراقية، بان هذه «المنطقة المحولة»[١١] ينبغي ان تعامل وكأنها ماتزال مشمولة بالامتياز

(١٠) اشرنا الى الفيضان الذي حدث في سنة ١٩٢٦ ودمر المزرعة الملكية في منطقة الوزيرية ومخازن السكك والكارك الواقعة هناك حيث كان يجري نقل شاحنات القطار باحد المعابر الى الضفة اليمنى من دجلة. وقد اقيم بدلا عن ذلك المعبر، الجسر الحديدي، الذي يعرف باسم جسر الصرافية في سنة ١٩٤٤.

(١١) الاراضي المحولة: جزء من الارض تابعة لقضاء خانقين بين العراق وفارس قضت لجنة الحدود بين تركيا وفارس في سنة ١٩١٣بتحويل ملكيتها الى الامبراطورية العثمانية ولماكانت العراق قد ورثت تركيا فقدكان عليها ان تدير امتياز دارسي الذي يشمل تلك الاراضي. في عهد الوزارة النقيبية الثالثة جرت مفاوضات بينها وبين المندوب السامي البريطاني في العراق حول هذا الموضوع اعترفت بموجبه الحكومة العراقية بحق شركة دارسي والدخول في مفاوضات معها بهذا الشأن وقد توصلت وزارة ياسين الهاشمي الاولى الى اتفاق في هذا الشأن مع شركة النفط الانكليزية الفارسية التي كان يمثلها المستر جاكسن مديرها العام وذلك في ١٨ ايار ١٩٢٥ وعلى اثر ذلك باشرت الحكومة العراقية، عن طريق «شركة نفط خانقين» في استخراج النفط من الاراضي المحولة، وخصص هذا المنتوج للاستهلاك المحلي والذي كانت تقوم بتوزيعه شركة اخرى عرفت باسم شركة نفط الرافدين، والشركتان انكليزيتان بصفة خالصة.

الذي منح الى «وليم دارسي» في سنة ١٩٠١.

اختتمت المفاوضات التي دارت بين شركة النفط الفارسية ووزارة الاشغال العراقية حول هذا الموضوع في سنة ١٩٢٥، ومن ثم تم استئنافها مرة اخرى بقصد التوصل الى اتفاق معدل وحديث في شهر ايار سنة ١٩٢٦ كان استخراج النفط قد بوشر به بصفة مبكرة في بئر منتجة ومن ثم اعقبتها ابار اخرى، حيث تقرر بأن ينقل النفط الخام في خط من الانابيب يمتد مسافة عشرين ميلا الى خانقين وكان قد تقرر، وبتشجيع من الحكومة العراقية، اقامة مصفاة للنفط على نهر «الوند» خارج خانقين، لكنها ماتزال ضمن الاراضي المحولة. ولقد بوشر بانشاء تلك المصفاة في شهر حزيران من سنة ١٩٢٦ ويبدو ان العراق اراد من وراء ذلك ان يضمن تجهيزاته الخاصة من النفط، نظرا لما يتمتع به النفط من اهمية بالنسبة الى وسائل النقل الالية، واستخدام مضخات الري وربما لصناعات مقبلة ايضا.

كان الوعد الوزيري الذي اعطى لشركة النفط التركية في ٢٨ حزيران سنة ١٩١٤، قد اصبح خلال السنوات السبع التي تلت ذلك، امرا مشكوكا فيه لاول مرة، ولكن وزارة الخارجية البريطانية ما لبثت ان اكدت ذلك الوعد مؤخرا. ولقد تعرض ذلك الوعد للتساؤل، ولكن الفرنسيين قبلوا به فيما بعد في سنة ١٩٢٠، حيث استطاعوا، بموجب الاتفاق الذي توصل اليه كل من «كادمان» و «برتيلو» في «سان ريمو»، ان يرثوا حصة المصرف الالماني في الشركة والبالغة خمسا وعشرين في المائة وان يساهموا في الشركة ذاتها.

نظر الامريكيون شزرا الى ذلك الاتفاق، فاخذوا يطالبون بسياسة «الباب المفتوح» بالنسبة الى استثمار نفط العراق، ولكن من دون تعقيد في الوعود التي لم تتم المصادقة عليها بعد. ولقد امكن التغلب على هذه العقبة وازالتها، عن طريق تخصيص نصف حصة شركة النفط الفارسية الانكليزية في الشركة التركية، الى مجموعة من الشركات الامريكية حسب اتفاق تم التوصل اليه بصفة مبدئية في سنة ١٩٢٣، غير ان هذا الاتفاق لم يتم العمل به رسميا الا في سنة ١٩٢٨ وعلى هذا الاساس تم توزيع حصص شركة النفط التركية في شكلها النهائي على قاعدة منح نسبة خمس في المائة، والى الابد، الى المستر «غلبنكيان» وتوزيع الباقي من الحصص وهو ٩٥ في المائة بين مجموعة شركات «شل» مثلما هو الامر بالنسبة الى شركة النفط الفارسية الانكليزية) وشركة النفط الفارسية الانكليزية باعتبارها انها هي شركة تحريات «دارسي»، وشركة النفط الفرنسية التي اوحت الحكومة الفرنسية بانشائها، والشركات الامريكية التي تجمعت للغرض ذاته، تحت اسم «شركة استثمار الشرق الادنى[١٢] ولم تتغير هذه الحصص طيلة ثلاثين سنة الا

(١٢) وزعت الحصص في شركة النفط التركية حسب الاتفاق الجديد على الوجه التالي:
شركة النفط الفارسية الانكليزية ٤٧٥ سهما اي بنسبة ٢٣/٧٥٪ وشركة النفط الانكلوسكسونية ٤٧٥ سهما، اي ٢٣/٧٥٪، وشركة النفط الفرنسية ٤٧٥ سهما اي ٢٣/٧٥٪ وشركة استثمار الشرق الادنى ٤٧٥ سهما اي ٢٣/٧٥٪. =

بالنسبة الى الحصص الداخلية لمجموعة الشركات الامريكية، حيث تقلص عدد الشركات الست التي ساهمت اولا، الى شركتين هما شركة «ستاندرد اويل نيوجرسي» وشركة «سوكوني فاكوم».[١٣]

قامت شركة النفط التركية بالاتصال بالحكومة الكمالية التي خلفت الحكومة العثمانية وذلك لاول مرة في سنة ١٩٢٤ لغرض ايجاد تنفيذ ملائم للوعد الذي اعطاه سعيد حليم. وقد استمرت المحادثات طويلا، وكانت الحكومة العراقية هي الاخرى مفاوضا صعبا، ولذلك بدا بان امل الشركة في الحصول على امتياز يشمل اراضي العراق كلها، قد غدا يستحيل تحقيقه.

كانت الاتفاقات التي تم التوقيع عليها في اذار ١٩٢٥ قد شملت قضية سكك حديد الموصل وبغداد برمتها. وحيث ان البرلمان العراقي لم يكن قد وجد في ذلك الوقت، فقد تمت المصادقة على تلك الاتفاقات من قبل مجلس الوزراء والملك نفسه[١٤] ولقد اشترط بان تبدأ شركة النفط التركية، خلال وقت محدد، بالبحث عن مناطق محدودة تقوم الشركة ذاتها باستثمارها مع الالتزام بان تدع المناطق الباقية المعدة للاستثمار للملتزمين الذين يدفعون اعلى الاثمان. وكانت العوائد القابل دفعها عن النفط المستخرج، والتي تم الاتفاق عليها، تبلغ اربعة شلنات ذهبية عن الطن الواحد من النفط، وان يتم تعديلها مؤخرا حسب هذه الاسس حينما يبدأ العمل الجيولوجي، اي الحفر، بطاقة وبنفقات كبيرة قبل نهاية سنة ١٩٢٥

تركز العمل لاول مرة في المواقع التي توجد فيها الترشحات المعروفة والترسبات السطحية الظاهرة في المناطق الشمالية من ولاية الموصل، حيث كرست الشركة سنة ١٩٢٦ لعمليات الكشف المكثفة عن النفط هناك.

صاحب هذا العمل، شق الطرق، ومد انابيب المياه، وتوفير الوقود، واقامة المباني. وقد اشترك في هذه الاعمال خمسون بريطانيا، والفان وخمسمائة عراقي. تم اختيار مواقع حفر الابار في جبل حمرين، طوز خرماتو بجوار كركوك وعلى مقربة من القيارة على الضفة اليمنى من نهر دجلة

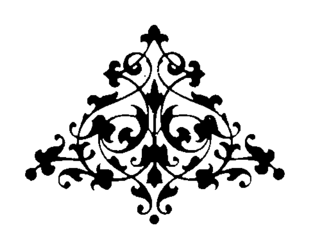
=(وهذه تمثل مجموع الشركات الامريكية) وشركة التعاون والاستثمار ١٠٠ سهم اي ٥٪ (وهي شركة غلبنكيان). ومما تجدر الاشارة اليه في هذا الصدد ان شركة النفط التركية كانت تدعى في الاصل «شركة الامتيازات الشرقية والافريقية المحدودة» وقد تألفت في اليوم الحادي والثلاثين من كانون الثاني في سنة ١٩١١ برأسمال مقداره خمسون الف باون انكليزي (انظر كتابنا: معركة النفط في العراق ج ١ ص ٦٢ و ص ٨٢ طبعة ١٩٥٢).

(١٣) هذه الشركة يهودية وصهيونية من الاصل وما تزال حتى الان تقوم باعمال التنقيب عن النفط في الاراضي الفلسطينية المحتلة.

(١٤) هي الاتفاقات التي تم التوصل اليها بشأن امتياز شركة النفط التركية والذي رفضته الحكومة العراقية في اول الامر لكن المندوب السامي الانكليزي تدخل في الامر وقدم صورة امتياز جديد الى الحكومة احيل الى لجنة خاصة لدراسته (الحسني تاريخ الوزارات العراقية ج ١ ص ٢٦٣ وما بعدها طبعة ١٩٧٤).

شمالي الشرقاط[١٥]

كان المقرر ان يباشر بحفر الابار في اوائل سنة ١٩٢٧ امـــا الادعاءات التي تقدم بها ورثة السلطان العثماني عبد الحميد الثاني ، والتي تتألف من هيأة ثابتة تضم كل الامراء والاميرات بشأن ملكيتهم لكل مناطق النفط في الاراضي الامبراطورية العثمانية ، فان العراق لم ينظر اليها بعد ذلك اية نظرة جدية.



(١٥) اخطأ المؤلف فذكر ان القيارة تقع جنوبي الشرقاط بينا هي تقع شمالي الشرقاط. ومما تنبغي الاشارة اليه انه في الوقت الذي كانت فيه الجيوش الانكليزية تتقدم لاحتلال اراضي العراق كانت بعثة جيولوجية انكليزية خاصة برأسها الجيولوجي الهندي الدكتور ا. ه باسيكو ترافق الوحدات المتقدمة، وتقوم بالبحث عن المعادن في التربة العراقية ولاسيما النفط.

الفصل السادس
في الطريق نحو الاستقلال

١ ـ ازمة المعاهدة العراقية الإنكليزية

٢ ـ التقدم نحو جنيف

٣ ـ انعكاسات عن الإنتداب

٤ ـ قضايا الاقليات في العراق

٥ ـ الحاكمون والمحكومون

٦ ـ المواصلات والتنمية

٧ ـ شؤون العراق الخارجية خلال الفترة ١٩٢٧ ـ ١٩٣٢

١ ـ ازمة المعاهدة العراقية الانكليزية

اظهرت السنوات الست التي اعقبت قيام الحكومة البرلمانية، وتسوية مشكلة الوصل، للمراقبين بان هذه المدة كانت كافية لكي تحقق الامال التي سمح سجل السنوات ١٩٢١ـ ١٩٢٦ بتكوينها، والتي تبرر التفاؤل بالمستقبل.

وقد بذلت جهود ناجحة في سنة ١٩٣٢ لاكمال تحرر المملكة من قيود الانتداب، فاصبحت حرة، وعضواً مساويا في عصبة الامم، واخذت الرقابة الخارجية عليها تتقلص بسرعة، ومن ثم غدت مميزة بصفة اساسية

تقلص عدد الموظفين من غير العراقيين، وتقلصت وظائفهم، ووصلت الحالة الخاصة للحكم المزدوج، كما اتهم الحكم بذلك، الى نهاية لها. فقد توقفت الامتيازات القضائية للاجانب بقيام محاكم، وتشريع اجراءات مساوية بين الجميع. وارتفعت شهرة العراق الدولية فعلا، بما اصابته من سعة الانتشار، وبنتيجة النزاع حول الموصل، ذلك النزاع الذي اتسع بالمناقشات التي دارت في جنيف واختصت بقطر العراق، وبقبوله في عصبة الامم، واستطاعته اقامة علاقات اعتيادية مع المهمين من جيرانه، تركيا وبلاد فارس، فضلا عن زيادة اهتمامه بالعالم العربي زيادة كبيرة

ولقد تطورت مواصلات القطر برا وجوا بالبلدان الاجنبية تطورا تجاوز كل الحدود السابقة. غير ان المعضلة التي كان يمثلها وجود الاقليات الصغيرة داخل العراق، بقيت، وبصفة جوهرية، من دون حل[1] ولكن هذه المعضلة قد تغيرت في صفتها، وكانت توحي بالتفاؤل الذي لم يبرره المستقبل، عن وجود اسس للامل في ايجاد حل سلمي. وينطبق نفس هذا الامر على افراد

(١) يركز الاستعماريون دوما على موضوع الاقليات في البلدان التي يبسطون نفوذهم عليها، والسبب في ذلك واضح ومكشوف، وهو ان المستعمرين طالما اتخذوا من هذه الاقليات ادوات لخدمة مطامعهم، او عقبات تحول دون عدم الاستقرار. فبالنسبة الى الانكليز نرى انهم لم ينسحبوا من اي بلد دخلوه الا وتركوا وراءهم في ذلك البلد مشكلة معقدة ومخربة للامن وللاستقلال من امثال الاقلية المسيحية في جنوبي السودان، وقضية الاقباط في مصر، والمسلمين في الهند، والنزاع بين الاتراك واليونانيين في جزيرة قبرص، والنزاع حول كشمير بين الهند والباكستان ومايضاف اليه من الصراع بين المسلمين والهندوس في الهند حتى الان وعلى الاخص المذابح التي اوقعها الهندوس بالمهاجرين المسلمين من بنغلادش في ولاية آسام والتي فاقت في فظاعتها مذابح معسكري صبرة وشاتيلا في بيروت على ايدي القوات الصهيونية والكتائب المارونية

العشائر الشيعية في منطقة الفرات. فلقد اصبح واضحا خلال هذه السنوات ان تذمر العشائر من الالتزامات التي الزمتهم بها الحكومة، لم يكن متميزاً او محددا، وان دوافع التمرد العشائري كان من نوع المناورات السياسية، وان كانت في هذه الفترة اقل ظهورا مما كانت عليه في السنوات التي اعقبت تلك الفترة. وفي الوقت ذاته تطورت معالجة الاضطراب العشائري في صفة بناء الطرق والجسور، وانشاء القوات المنظمة، ووضع نواة الاعمال الادارية الموثقة. فلقد تعاظم الجيش العراقي، وتحسن وضعه، ولو ان المشكلة المميزة فيه، وهي مشكلة التجنيد الاجباري، لم يتم حلها.

ولقد جرت محاولات عديدة لمعالجة قضايا الضرائب، وسك العملة النقدية الوطنية، وتم وضع الخطط لذلك، وتمت تصفية قضية الديون العامة بصفة جوهرية. وكانت مسألة تسوية الاراضي على اسس عصرية قد بوشر بها في سنة ١٩٣٢، في حين حصل توسع هائل في استخدام المضخات التي عمت كل الارياف التي تقع على ضفاف الانهار ولم تحل هذه المظاهر التقدمية دون تأثر الاقتصاد العراقي بالازمة الاقتصادية العالمية التي حدثت خلال الفترة ١٩٢٩ – ١٩٣١، كما ان هذه المظاهر لم توقف التقلص الثابت في تجارة المرور الفارسية. ولقد بقيت تلك المظاهر التقدمية اضعف من ان تصحح الظواهر غير الملائمة، بل المنطوية على الخطر في الواقع، من مظاهر الحياة العامة في العراق والتي كانت قبلا بارزة وربما قد تكون شاملة. ذلك ان الوزارات ذات الاعمار القصيرة، والمؤلفة من شخصيات متخاصمة، والاحزاب المتعفنة سريعة الزوال، والانتخابات المزورة، والبرلمانات التي لاتمثل الشعب، وتكون طيعة للوزارة القائمة في تلك اللحظة، وذلك لان مثل هذه البرلمانات قد انتخبت من قبل تلك الحكومة.

والحقيقة انه كان للبرلمان العراقي في دورته الاولى، كل مظاهر الهيئة الصارمة المعقولة. فلقد استطاع ان يعالج حوالي سبعين لائحة تقريباً، وانجز اجراءاته بمنتهى الصواب. غير ان الدورة الثانية التي افتتحت في اليوم الاول من شهر تشرين الثاني سنة ١٩٢٦، كانت اقل حظا، وذلك لان الانقسام السياسي والشخصي فيها، قد تعاظمت حدته. فقد كان حزب الشعب الذي اسسه ناجي السويدي في شهر اب ١٩٢٤ كان مايزال جم النشاط، ولو انه قد اوقف نشاطه في سنة ١٩٢٧ [٢] اما حزب الاستقلال الوطني الذي اسسه الموصلي الشهير عبد الله العمري فقد

(٢) لم يكن ناجي السويدي رئيسا لحزب الشعب بل ان ياسين الهاشمي هو الذي تزعم هذا الحزب منذ تأسيسه. وقد تأسس هذا الحزب على اساس التكتل البرلماني المعارض لحزب التقدم الذي اسسه عبد المحسن السعدون. وقد حصل حزب الشعب على اجازة تأسيس من وزارة الداخلية في اليوم الثالث من كانون الاول ١٩٢٥ وتألفت هيأته الادارية من كل من ياسين الهاشمي للرئاسة ومحمد رضا الشبيبي واحمد الشيخ داود، وفخري الجميل، ورشيد الخوجة، ونصرت الفارسي، وسعيد ثابت، وابراهيم كمال، وثابت عبد النور، ومحمود رامز، ومزاحم الباجه‌جي وعبد اللطيف الفلاحي (د. فاروق صالح العمر: الاحزاب السياسية في العراق ص ١٦٧).

سبق له ان مات في سنة ١٩٢٥ [٣] وكان حزب «التقدم» الذي اسسه عبد المحسن السعدون في سنة ١٩٢٥ هو السائد في الاوساط المعتدلة حتى وفاة مؤسسه [٤] في حين ازدهر «حزب الشعب الذي تزعمه ياسين الهاشمي من اواخر سنة ١٩٢٥ الى ١٩٢٨

اما الحزب الوطني الذي تزعمه جعفر ابو التمن، فقد تعرض للاضطهاد ابان مولده في سنة ١٩٢٢ ومالبث ان انتعش في سنة ١٩٢٦ وبقي عنيفا حتى سنة ١٩٣٣ وبالاضافة الى حزب النهضة الذي انتعش لمدة قصيرة، لم تعدم هذه الاحزاب اية وسيلة من شأنها ان تضفي الهدوء على المسرح السياسي

سقطت وزارة عبد المحسن السعدون الثانية في اليوم الاول لقيام المجلس النيابي الجديد، وذلك عندما هزم مرشح الوزارة لرئاسة مجلس النواب من المجلس ذاته [٥] وعلى اثر ذلك تم استدعاء جعفر العسكري، وكان يشغل منصب وزير العراق المفوض في لندن، «واحد التقدميين، للمجيء الى بغداد، حيث استطاع، بعد ثلاثة اسابيع، ان يؤلف في اليوم الحادي والعشرين من شهر تشرين الثاني، وزارة ائتلافية ضمت ياسين الهاشمي للمالية، ونوري السعيد للدفاع، والارستقراطي البصري، صالح باش اعيان للاوقاف، ومحمد امين زكي للمواصلات والاشغال، وعبد المهدي للتربية، وعبد الحسين الجلبي للري والزراعة، وهي الوزارة الجديدة التي استحدثت في شهر اب ١٩٢٧ ولقد تميزت هذه الوزارة بالعمل التشريعي النافع، لكنها جوبهت بشكل ثابت، بالمبدأ الفاسد للانقسامات الداخلية لدى الاحزاب، وبين رؤساء تلك الاحزاب، والوزارة التي لم يمنحوها سوى القدر الضئيل جدا، من الاخلاص

---

(٣) الاسم الحقيقي لهذا الحزب هو «الحزب الوطني العراقي» تأسس في الموصل في اواسط سنة ١٩٢٥ وكان رئيسه عبد الله سليمان، وليس عبد الله العمري الذي تولى نيابة الرئيس فيه وبقية اعضاء الهيئة الادارية فيه هم كل من مجيد العمري، واحمد الجليلي، واحمد الشربشي ومجدي النائب وتوفيق النائب، والدكتور محمد محفوظ والدكتور استراجيان ولقد اقامت الهيئة الادارية حفلة افتتاح للحزب في حديقة البلدية في يوم الخميس ٢١ ايار ١٩٢٥ (المصدر السابق ص ١٥٢)

(٤) تألف حزب التقدم خلال وزارة عبد المحسن السعدون الثانية وكان قائما على اساس اكثرية برلمانية. وقد تألفت الهيئة الادارية من عبد المحسن السعدون رئيسا، وارشد العمري، وفخري الجميل، ومحسن ابو طبيخ، وقاطع العوادي وامين زكي، وابراهيم يوسف، ومحمد سعيد عبد الواحد. والملاحظ ان الصفة الحكومية كانت تطغى على الحزب ولذلك فلم يحظ بالتأييد الشعبي ولم تكن له فروع وقد اصدر جريدة تنطق باسمه، بالاضافة الى جريدة العالم العربي لسليم حسون، هي جريدة «اللواء» التي اصدرها محمد سعيد العزاوي في ٣٠ ايار ١٩٢٨ ثم نابت عنها جريدة «التقدم» التي صدرت في بغداد في ١٦ تشرين الثاني ١٩٢٨ وكان مديرها المسؤول سلمان الشيخ داود وقد توقفت عن الصدور يوم انتحار السعدون. وكان ناجي السويدي من اعضاء حزب التقدم (المصدر السابق ص ١٦١)

(٥) يشير المؤلف بذلك الى قضية ترشيح حكمت سليمان لرئاسة مجلس النواب من قبل حزب التقدم، وترشيح المعارضة رشيد عالي لذات المنصب. وذلك في الاجتماع الاعتيادي الذي عقده المجلس النيابي في اليوم الاول من شهر تشرين الثاني سنة ١٩٢٦ ذلك ان رشيد عالي مرشح المعارضة، كان قد فاز في ذلك التصويت على المرشح الحكومي (د. فاروق صالح العمر : الاحزاب السياسية في العراق ص ١٧٤ — ١٧٥)

اتسمت تلك السنة بثلاثة مظاهر. اولها، والذي لم تشر اليه الاتجاهات السياسية السابقة، ان الزعامة الطاغية التي كان يمارسها علماء الشيعة على ابناء طائفتهم، قد تناقصت تأثيراتها الفعالة بكل جلاء منذ سنة ١٩٢٣، وعلى ذلك تقدم الشيعة بمطاليب للمشاركة في الحياة السياسية والثقافية، لم يكن مستطاعا تلبيتها قبلا بسبب قلة الوظائف الحكومية.

ولقد وقع احد الحوادث في اوائل سنة ١٩٢٧ عندما نشر احد المدرسين كتابا وجده الشيعة غير مقبول من لدنهم، حيث بدأت سلسلة من الحوادث اشتملت على تدخل وزاري، وعلى خلافات شديدة الى حد الخصومة في الاوساط العليا لوزارة المعارف[٦] وعلى هذه الشاكلة انقسم العالم السياسي في العراق وفي يوم واحد، بالفتنة الطائفية، حيث عقدت اجتماعات تبنت مطالب الشيعة في بغداد وفي المدن التي تقوم فيه المراقد المقدسة لدى الشيعة، وقد اوغلت تلك الاجتماعات في التحدث عن الاضطهاد المذهبي، يضاف الى هذا ان «حزب النهضة» الذي لم يعش سوى فترة قصيرة في سنة ١٩٢٢، قد انتعش الان، لان كان يخضع للزعامة الشيعية المطلقة.

وحين عرضت الوزارة على البرلمان لائحة قانون الدفاع الوطني التي تطالب باعلان التجنيد الاجباري تضاعف تحريض الشيعة وثوراتهم ضد الحكومة. فقد استقال ممثلهم في الوزارة السيد عبد المهدي من منصبه، كذلك اتضحت مساندة الاكراد في مقاومة التهديد الذي يمثله فرض التجنيد الاجباري. تم استبدال السيد عبد المهدي في وزارة المعارف بالسيد امين زكي، ومن ثم استبدال وزير الري والزراعة فيما بعد، بالسيد علوان الياسري، وبهذه الوسيلة استطاع رئيس الوزراء ان يضمن فض البرلمان في وقت ما، لكي ينقذ حكومته من السقوط، غير ان ذلك لم يؤد الا الى تحويل النشاط السياسي من بغداد الى منطقة الفرات.

وحين قام وزير المالية بجولة الى النجف، جوبه بالمقاطعة[٧] واحتاج الامر الى كياسة الملك وسخائه للحيلولة دون حدوث نتائج محزنة من موجة العنف التي وقعت في الكاظمية في اليوم العاشر من شهر محرم الذي يكون مليئا بالمخاطر عادة، وكان من نتائج ذلك الحادث ان اصبح

---

(٦) يقصد بذلك الكتاب الذي نشره الاستاذ انيس زكريا النصولي عن «الدولة الاموية في الشام» في اوائل سنة ١٩٢٧ فكان ذلك الكتاب اداة بيد الجهلة من الشيعة لتنظيم التظاهرات والاحتجاجات، رغم ان عددا كبيرا من الطلاب الشيعة في المدرسة الثانوية، التي كان النصولي بدرس التاريخ فيها، وفي دار المعلمين، قد احتجوا على تلك الفتنة وعلى الاجراء الذي لجأ اليه عبد المهدي بالغاء عقود النصولي وجملة من اصدقائه الاساتذة السوريين واللبنانيين واخراجهم من العراق (انظر تفصيلات ذلك في كتاب الدكتور علي الوردي لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث، الجزء السادس) وغيره من الكتب التي تخص هذه الفترة ومنها مذكرات الحصري.

(٧) كان ياسين الهاشمي يتولى منصب وزارة المالية في وزارة العسكري الثانية وقد قام بجولته تلك خلال شهر اب ١٩٢٧ وكان لتحركات حزب النهضة اثرها في مقاطعة الالتقاء بالهاشمي في النجف.

الوزيران الشيعيان في الوزارة يمثلان لعنة في نظر «حزب النهضة» كما ان هذا الحزب مالبث ان نظم التظاهرات في كربلاء والنجف، ووجه في صحفه مقالات عنيفة، الامر الذي حمل ياسين الهاشمي نائب رئيس الوزراء على ان يعيد الاوامر بتعطيل نشاط ذلك الحزب، وحين نوقش الاجراء الذي اتخذه الهاشمي، استقال هذا من منصبه، ليخلفه فيه، ولمدة قصيرة، رشيد عالي الكيلاني. وهكذا انتهت تلك السنة باعتصاب شديد الخطر، وبضعف بارز في كيان الحكومة، واذ ذاك استقال جعفر العسكري في السابع من كانون الثاني ١٩٢٧.

احتلت قضية التجنيد الاجباري، المرتبة الثانية من الاهمية في ذلك الوقت. ذلك ان الحاجة الى تعزيز العراق عسكريا كانت تدخل ضمن مطاليبه في ان يكون هو السيد الوحيد في بلاده. ترى هل كان التجنيد الاجباري هو الحل لذلك؟ لقد استشير المندوب السامي البريطاني حول الموضوع فكان جوابه في الواقع يقول «ان ذلك امر مؤكد اذا مارغب العراق فيه»، ولكن ليس معنى ذلك ان التجنيد الاجباري يجب ان يشتمل على تعزيز من قبل القوات البريطانية التي تميل الى مثل هذه المهمة، ولذلك جوبهت لائحة الخدمة الوطنية التي عرضت على البرلمان، بمعارضة انية من قبل الشيعة والاكراد، تم وضعها مسبقا.

اصبح موضوع التجنيد الاجباري، نتيجة نظرة الشيعة، وتخوف رجل الشارع منه، محببا لدى الصحافة العراقية، التي وجدت في الحذر البريطاني منه، دليلا على رغبة البريطانيين الخالصة في ان يبقى العراق بلدا ضعيفاً لاعون له. وعلى هذا كانت الوزارات المتعاقبة في شك مما اذا كانت تستطيع اسقاط المشروع وسط عنف الصحافة الوطنية والجيش ذاته، او ان تصر على امرار المشروع الى درجة يمكن معها حدوث انفجار بسببه لدى الشيعة والاكراد. وطبقا لمعاهدة سنة ١٩٢٦ كان ينبغي ان يعاد النظر في شهر كانون الثاني سنة ١٩٢٨، في موضوع عضوية العراق في عصبة الامم، ومن ثم يتكرر ذلك اربع مرات كل سنة بعد ذلك التاريخ.

اعلمت الحكومة البريطانية حكومة العراق في شهر تموز ١٩٢٧ بانها سوف تأخذ بنظر الاهتمام، التوصية التي طرحت لكي ينال العراق هذه العضوية في سنة ١٩٣٢، وليس في سنة ١٩٢٨، ولذلك فان هذا الامر الذي جاء مخيبا لامال الساسة العراقيين، لم يوقف المحاولات التي كانت تبذل للحصول على وضع موقت افضل، حيث عقدت المحادثات بشأن ذلك في اواخر سنة ١٩٢٧ ولقد شارك الملك، ورئيس الوزراء، والمندوب السامي في هذه المحادثات اضافة الى الناطقين بلسان وزارة المستعمرات البريطانية. وبعد ان وصل الوضع الى مايقرب من الازمة، تمت الموافقة على شروط دخول العراق في عصبة الامم، واذ ذاك وقع كل من جعفر العسكري، والمستر اورمسبي غور في اليوم الرابع عشر من كانون الاول على معاهدة جديدة بين العراق وبريطانيا، وكانت شرعية هذه المعاهدة تخضع لمصادقة مجلس عصبة الامم عليها، بالاضافة الى مصادقة البرلمان العراقي ايضا، كما كانت تعتمد في الوقت ذاته على تعديل الاتفاقات العسكرية

والمالية بين العراق وبريطانيا .

دلت المعاهدة الجديدة على تقدم محقق لكنه غير واسع . فقد اعترفت بان معاهدتي سنتي ١٩٢٢ ، و ١٩٢٦ ، كانتا قد عقدتا على نطاق طغت عليه الحوادث ، ولاسيما التقدم الذي حققه العراق. كما ان المعاهدة قد عاملت العراق صراحة بانه دولة مستقلة ذات سيادة ، واعتبرت التزاماته الداخلية والدولية على هذا الاساس ، وطبقا لبنودها فقد تعهدت الحكومة البريطانية بان تساند ترشيح العراق لعضوية عصبة الامم في سنة ١٩٣٢ ، على شرط ان يمضي التقدم الذي احرزه العراق ، قدما وبصفة جيدة خلال تلك الفترة ، ونتيجة لهذا الشرط قوبلت مسودة المعاهدة بترحاب بارد من لدن كل العناصر السياسية تقريبا في العراق .

ومع كل ذلك كانت هذه المعاهدة تؤلف جزءا من التراث الذي نهضت به الوزارة التي الفها عبد المحسن السعدون خلفا لوزارة جعفر العسكري في اليوم الرابع عشر من شهر كانون الثاني سنة ١٩٢٨ ، تلك الوزارة التي ضمت وزيرين من الشيعة ، ووزيرا مسيحيا ، وهيئة من السياسيين المحنكين. فقد اختير المحافظ السابق المعتدل والمجرب السيد عبد العزيز القصاب وزيرا للداخلية ، وحكمت سليمان للعدل ، ورجل المال والاقتصادي المسيحي يوسف غنيمة للمالية ، والصيرفي النجفي محسن شلاش للاشغال والمواصلات ، والحلي الذكي المجرب سلمان البراك للري والزراعة ، والاخ الاصغر التقدمي والذكي لناجي السويدي ، ونعني به توفيق السويدي ، لوزارة التربية ، والقومي المناضل احمد الشيخ داود للاوقاف .

غير ان التآلف السابق لم يلبث ان تمزق الان ، حيث دعا رئيس الوزراء الى اجراء انتخابات عامة. وكانت مفاوضاته الماهرة مع حزب «التقدم» ومايتمتع به من سلطة تنفيذية للتأثير في اختيار الناخبين ، قد ضمنت له اغلبية ستة وستين مقعدا من مجموع ثمانية وثمانين مقعدا وذلك في اعقاب انتخابات جرت بكل هدوء . ضم مجلس النواب الجديد ستة وعشرين نائبا من الشيعة وستة عشر نائبا من الاكراد. وفي وجه الكياسة التي قوبلت بها مسألة التجنيد الاجباري ، كان نفور المعارضة اقوى مما قد اشارت اليه قلة من المتحدثين باسم هذه المعارضة في البرلمان ، ولذلك فان العنف الذي اظهرته الاحزاب في صحافتها التي راحت تهاجم البريطانيين والمعاهدة بحرارة ، لم يدع اي مجال للتقدم بشأن القضايا المتنازع عليها[8] .

ادخلت تعديلات على الاتفاقات الملحقة بالمعاهدة ، تم البحث فيها طويلا بين الوزراء والمندوب السامي ولكن دون التوصل الى اتفاق في ذلك . فلقد كانت مطاليب العراق تتلخص

---

(٨) كانت المعارضة لمعاهدة سنة ١٩٢٧ شديدة وذلك للسرعة التي رافقت عرض المعاهدة والتصديق عليها . فخرج جماعة حزب الشعب المعارض من المجلس ، واخذت صحفه تنتقد المعاهدة وتشهر بها ، ووصفتها بانها نفس المعاهدة القديمة ولكن لمدة اطول .

(د. فاروق صالح العمر : الاحزاب السياسية في العراق ١٩٢١ - ١٩٣٢ ص ٧٤) .

في ان يظفر بالسيطرة التامة المباشرة على قواته الدفاعية، وفي الغاء الشرط الذي يضع القوات البريطانية والقوات العراقية المشتركة تحت امرة القيادة البريطانية، وكذلك الغاء الاعفاءات الكمركية التي كانت تتمتع بها القوات البريطانية.

ولكن كل هذه المطاليب لم تكن مقبولة من لدن البريطانيين، ومن دون اتفاق على هذه الامور، لايمكن ان تعقد اية معاهدة. تم التخلص مؤقتا من موضوع التجنيد الاجباري تجاه الانتقادات المرة التي وجهتها المعارضة، ولذلك تم طرحه من المنهاج التقدمي الذي وضعته الوزارة. وفي الوقت ذاته تحسنت المواقف بين السنة والشيعة، وذلك بفضل الجهود التي بذلها العقلاء من كلا الطرفين. ذلك ان «حزب النهضة» خسر التأييد الذي كان يلقاه من الشيعة، وبدلا من ذلك توجهت العواطف السياسية، في صفة مشتركة، ضد البريطانيين الذين كانوا يتهمون على الدوام بانهم هم الذين يحولون دون ذلك التحسن في المواقف[٩].

كانت سنة ١٩٢٨ من أسوأ مراحل «الوضع الشاذ»[١٠] تلك العبارة المحببة لدى الصحفيين والفكاهيين من العراقيين، والتي كانت موضوعا للقدح والتعزير. كانت الصفة الخاصة للوضع، هي ان الاستقلال كان يخضع للانتداب، وكانت المسؤولية الوزارية تخضع للرقابة الاستشارية، وتصاعد الاماني بشأن القوة العسكرية العراقية وان كانت لائحة التجنيد الاجباري قد حظرت، وان تدار ميناء البصرة وسكك الحديد من قبل العراقيين انفسهم. غير ان ملكية مؤسسات أخرى مازال خارج نطاق ادارة العراقيين ومارافق ذلك من امتيازات ممنوحة للاجانب المقيمين في العراق لم ينل العراقيون مثلها خارج بلادهم.

وبصفة عامة كان الغموض يخيم على الجو، وكانت المخاوف تحيط بالمجتمع المراهق، وقد نفد صبر الحكومة للتخلص من السيطرة الاجنبية، في الوقت الذي لم يعد فيه الساسة يثقون تماما بالتلطف وبالنصيحة التي كانت تزجى اليهم، اضافة الى سوء التفهم المتواصل. كان عبد المحسن السعدون يشعر بالمعاكسة له من قبل البريطانيين والمعارضة على حد سواء. ولذلك قدم استقالة حكومته في شهر كانون الثاني سنة ١٩٢٩[١١] واذ بقي السعدون رئيسا لحكومة موقتة الى ان تم

---

(٩) بدأت جريدة النهضة الناطقة بلسان حزب النهضة منذ العاشر من اب ١٩٢٧ بنشر مقالات نارية ضد الوزارة العسكرية الثانية واسناد مختلف التهم اليها، مما ادى الى ان ترد عليها الصحف الاخرى وعلى اثر ذلك اصدر مجلس الوزراء قرارا بتعطيل جريدة النهضة وجريدة «الزمان» المعارضة لها والتي كان يصدرها ابراهيم صالح شكر. وكانت تلك المناوشات الصحفية من الاسباب التي زادت من حدة الصراع الطائفي في العراق في ذلك الوقت.

(١٠) كتب المؤلف عبارة «الوضع الشاذ» باللفظ العربي وبالحروف الانكليزية طبعا AL - WADH AL - SHADH.

(١١) كانت الازمة بين عبد المحسن السعدون والانكليز قد نشأت بسبب الطلب الذي تقدم به العراق الى بريطانيا لادخال تعديلات على الاتفاقين المالي والعسكري المعقودين مع بريطانيا الحاقا بمعاهدة سنة ١٩٢٧، ذلك الطلب الذي لم تتجاوب الحكومة البريطانية بشأنه، ولذلك تصلب السعدون في موقفه ولم يقبل بالرسائل التي وجهت اليه من المستر ايمري وزير المستعمرات البريطاني، ومن السرهنري دوبس المندوب السامي البريطاني في بغداد، حول موضوع الاتفاقين المذكورين ـ

التغلب عليه، فقد ادعى بان حزبه لن يساند اية حكومة لن تصر على اجراء التعديلات الاساسية في الاتفاقين.

تألفت الوزارة التي خلفت الوزارة السعدونية في شهر نيسان من تلك السنة برئاسة توفيق السويدي، وكانت تنتمي بصفة كلية الى حزب «التقدم» لكنها لم تستطع اجراء سوى القليل من المحاولات، ذلك لان وزراء الداخلية، والمالية، والاشغال، والري، اي كل من عبد العزيز القصاب، ويوسف غنيمة، ومحسن شلاش وسلمان البراك بقوا في وزاراتهم هذه، في حين تولى داود الحيدري ابن ابراهيم افندي ذلك الشيخ الجليل، منصب وزارة العدل، وتولى خالد سليمان شقيق حكمت سليمان، منصب وزير التربية، وامين زكي وزارة الدفاع.

كانت وزارة الاوقاف قد الغيت وحولت الى دائرة تخضع لاشراف رئيس الوزراء. واذ حان الان موعد استبدال او اعادة اختيار نصف اعضاء مجلس الاعيان، فقد تم تحقيق ذلك وفقا لارادة ملكية صدرت في هذا الشأن. غير ان الحوادث الملحة كانت تصر على حل ازمة المعاهدة.

كان استبدال السرهنري دوبس، الرجل القدير والصديق المخلص للعراق، بالسر غلبرت كلايتون الذي سبق له ان مثل المصالح العراقية في الجزيرة العربية، ونال مركزا عاليا من الاحترام لدى العرب، والذي كان يظن (وربما كان ذلك خطأ) بانه سوف يسلك طريقا مواليا جدا للعراق، في ذات الوقت الذي كرر فيه ذات النصيحة التي قدمها سلفه الى الحكومة البريطانية بان تختار سياسة تحررية[١٢].

كان وصول حزب العمال الى الحكم في بريطانيا لاول مرة[١٣]، والتصريحات التي ادلت بها حكومة العمال بصفة مبكرة عن السياسة البريطانية ازاء مصر، كل ذلك، قد اثار المزيد من الاهتمام والامال التي لامبرر لها في بغداد. وقد تضاعفت هذه الاحاسيس عندما انبئت الحكومة العراقية، جوابا على طلبها، بان الاحكام المحددة لمسودة معاهدة سنة ١٩٢٧ لم تعد قائمة، وان

= ولذلك قدم السعدون استقالة حكومته في اليوم العشرين من شهر كانون الثاني سنة ١٩٢٩ وفصل في كتاب الاستقالة اسبابها. ومنها موقف الحكومة البريطانية من تعديل الاتفاقين. فقد ابدت الحكومة البريطانية في ذلك «تصلبا شديدا ولم توافق على تلك الاقتراحات، فانتهت المفاوضات بالفشل التام، وقد شعرت الوزارة من جراء ذلك بقسط كبير من اليأس والخيبة، واصبح موقفها حرجاً جداً» (الحسني: تأريخ الوزارات العراقية ٢٩٠ ص ٢١٤ ومابعدها طبعة ١٩٧٤).

(١٢) يقصد بالسياسة التحررية هنا، السياسة التي كان ينادي بها حزب الاحرار البريطاني، والتي تعرف الان اصطلاحا باسم السياسة اللبرالية ليس الا وكثيرا مايقع بعض الكتاب والمترجمين في فهم خاطئ بشأن هذه السياسة التحررية، اذ يخيل الى البعض منهم انها تعني الانعتاق EMANCIPATIONاي التحرر التام غير المقيد بقيود، في حين ان السياسة التحررية LIBERAL POLICY يراد بها المفهوم الدارج في الغرب وهو «الاقتصاد الحر» اساس النظام الرأسمالي.

(١٣) وصل حزب العمال البريطاني الى الحكم في بريطانيا لاول مرة في الانتخابات العامة التي جرت في شهر تموز ١٩٢٩ وتولى رمزي مكدونالد رئيس حزب العمال في ذلك الوقت، رئاسة الوزارة في بريطانيا.

الحكومة البريطانية قررت ان تساند ترشيح العراق لعضوية عصبة الامم من دون اية شروط، وذلك في سنة ١٩٣٢، وان من المبهج في الوقت ذاته، ان يتم تنظيم العلاقة البريطانية العراقية المقبلة، عن طريق معاهدة جديدة يجري اعدادها فيما بعد. وقد تم اعلام مجلس عصبة الامم طبقا لذلك



٢ ـ التقدم نحو جنيف

على ان مسرى اعداد المعاهدة والتي ظهر بأن المصاعب الرئيسة انما نبعت منها الان. قد اعترضته الحوادث المؤسية. ذلك لأن وفاة جلبرت كلايتون المفاجئة في اليوم الحادي عشر من شهر ايلول ببغداد. قد احدثت اسفا عظيما، اعقبته فترة خلو استمرت ثلاثة اشهر في منصب المندوب السامي. الى ان خلفه السر فرنسيس همفريز، من رجال الخدمة السياسية في الهند. الذي شغل مؤخرا منصب وزير بريطانيا المفوض في كابل. وفي الوقت ذاته سقطت وزارة توفيق السويدي في شهر آب. وتألفت وزارة جديدة برئاسة عبدالمحسن السعدون، ولقد تألفت هذه الوزارة من الأعضاء الاقوياء في حزب «التقدم» ومن عناصر غير حزبية ضمت ناجي السويدي الذي تولى وزارة الداخلية. ونوري السعيد للدفاع، وأمين زكي للاشغال والمواصلات، وناجي شوكت رجل الادارة القدير والمحامي السياسي من اسرة جيدة، لوزارة العدل، وعبدالعزيز القصاب للري والزراعة وعبدالحسين الحلبي للتربية، وياسين الهاشمي زعيم حزب الشعب للمالية.

غير ان رئيس الوزراء. مالبث ان أصبح معرضا للضغط، فراح يعاني نكران الجميل، وخيبة الأمل[1] ذلك لأن مشكلة التجنيد الأجباري غدت مثارا للخصومة الحادة، وكانت المفاوضات بشأن المعاهدة التي صحت النية على المبادرة بها في المرحلة التالية، جد مربكة، كذلك زاد الحذر البريطاني في ذات الوقت من ارباك وضع السعدون وما رافقه من نفاد الصبر لدى العراقيين. وعلى غير انتظار وبمزيد من الاسف العام، اقدم عبدالمحسن السعدون على الانتحار في اليوم الثالث عشر من شهر تشرين الثاني سنة ١٩٢٩، وبذلك خسر به العراق،

---

(١) يشير المؤلف بهذا الى ماجوبه به السعدون عند مناقشة خطاب العرش، الذي يعتبر بمثابة منهاج للوزارة السعدونية الرابعة في المجلس النيابي الذي انعقدت جلسته الثالثة في اليوم الحادي عشر من تشرين الثاني ١٩٢٩ حيث جوبه بانتقاد شديد من لدن بعض النواب، وفي مقدمتهم المحامي محمد زكي نائب البصرة انظر تفاصيل ذلك في الحسني: الوزارات العراقية ج٢ ص ٢٨٩ وقد نقل الحسني في حاشية ص ٢٩٢ من الجزء الثاني من تاريخ الوزارات ما ذكره توفيق السويدي في مخطوطته المعنونة «وجوه عراقية» بأن الملك فيصل كان يشجع من طرف خفي خروج اعوان السعدون والسائرين في ركابه عليه وعلى حزبه، ولاسيما بعد ان نال السعدون اعتماد المندوب السامي وثقته المطلقة في الوقت الذي كان فيه جلالته يريد الا يشاركه احد في هذه الثقة وهذا الأعتماد، ولسوف يرد فيما بعد تلميح من جانب المؤلف الى حسد فيصل وغيرته من كل عراقي يحظى بالأهتمام من لدن الأنكليز اكثر من الملك نفسه.

زعيا وارستقراطيا صحيحا ذا خلق ومواهب سامية[٢]

وبعد انتحاره، وقبل وصول السر فرنسيس همفريز بثلاثة اسابيع، تألفت وزارة من تركيب مماثل وثيق، وبأضافة السيد خالد سليمان. تولى رئاسة هذه الوزارة السيد ناجي السويدي، ولقد كرس هذا القومي المتلهف اولى طاقاته لنقل السلطات التنفيذية الباقية في الحكومة الى ايدي العراقيين، وذلك لأن وضع البلاد الجديد، اذا ماتحقق فأنه يتطلب مثل هذا الأمر.

اخذ الملك والرأي العام، والصحافة كلهم يتطلعون الى سيطرة الموظفين العراقيين المباشرة على كل شيء، ومن الاصرار المعاكس الذي اظهره المندوب السامي البريطاني في التباطؤ في اصدار الأوامر بتحويل الواجبات برز الأحساس المؤلم بصفة محزنة بشأن «الوضع الشاذ».

حصل شيء من التقدم حقا، حيث تم خفض عدد الموظفين البريطانيين، وذلك عن طريق رفض التخصيصات المحددة لهم في الميزانية في بعض الأوقات وعن طريق بعض الأنظمة الجديدة التي كان يقترح تغييرها عدة مرات في كل وزارة، غير ان ارتداد الاحزاب عن المساندة، والأزمة الاقتصادية المقبلة، وأنعدام التقدم المباشر للمعاهدة، والذي كان يعزى دوما الى العقبات التي يضعها البريطانيون مما كان موضوع تظاهرات صاخبة قام بها الطلاب في الشوارع، كل هذه العوامل قد ادت الى استقالة وزارة ناجي السويدي بعد مرور محض اربعة اشهر على تأليفها[٣]

تألفت الوزارة التي اعقبت وزارة ناجي السويدي في يوم ٢٣ اذار ١٩٣٠ ورأسها نوري السعيد الذي كان يتمتع بثقة كلا الحزبين[٤] وفد ضمت هذه الوزارة جميل المدفعي بطل معركة تلعفر، ذلك الحادث الذي وقع في سنة ١٩٢٠، وأصبح الان يعتبر من الاداريين البارعين

---

(٢) وقع حادث انتحار عبدالمحسن السعدون مساء اليوم الثالث عشر من شهر تشرين الثاني سنة ١٩٢٩ واحدث انتحاره رجة كبرى في البلاد حيث توجهت الأنظار الى الأنكليز الذين اتهموا بأنهم هم الذين كانوا السبب في أنتحاره بل ان بعض الناس كانوا يروجون اشاعة مؤداها ان السعدون قد قتل بيد المخابرات البريطانية وان وصيته الشهيرة الى ولده علي كانت مزورة. وقد ذكر ساطع الحصري في الجزء الثاني من مذكراته ص ٥٤٢ بأن الملك فيصل أستغل حادث أنتحار عبدالمحسن السعدون، واخذ يصرح بأنه لابد من تحسين سياسة بريطانيا تحسينا اساسيا. ويذكر السيد لطفي جعفر فرج في رسالته عن عبدالمحسن السعدون «ان السعدون قبل انتحاره بيوم واحد قد تبين له ان الحكومة البريطانية لم تكن جادة في احداث اي تغيير في سياستها نحو العراق، وانما كانت تعتقد بأن مجرد الافصاح عن نيتها بعضد دخول العراق في عصبة الأمم كاف لأقناع العراقيين بشروط معاهدة جديدة (ص ٣٥٢) «والتقى السعدون بكور نواليس وفهم منه ان ليس هناك تبدل في السياسة البريطانية تجاه العراق وان بريطانيا سوف لن تستجيب لمطاليب قائمة على اساس الاستقلال (نفس المصدر نفس الصفحة).

(٣) تألفت وزارة ناجي السويدي في اليوم الثامن عشر من شهر تشرين الثاني وقداصطدمت هذه الوزارة مع دار الاعتماد البريطاني بشأن الميزانية الجديدة خلال شباط ١٩٣٠ فكان هذا الاصطدام سببا اساسيا من اسباب استقالة الوزارة في اليوم التاسع من اذار سنة ١٩٣٠

(٤) يقصد بهما حزب التقدم وحزب الشعب والحقيقة ان اشتراك الحزبيين في وزارة العسكري، كان من العوامل الممهدة لتقويض الحياة الحزبية في البلاد، حيث تم القضاء على الأحزاب بالاتفاق بين رؤساء الاحزاب في سنة ١٩٣٥، وكان القصد من تفتيت الحياة الحزبية وشخصيات هذه الاحزاب هو ان «تبقى شخصية الملك فيصل هي القيادة، وهي الموجه السياسي الوحيد في البلد»، (د. فاروق صالح العمر: الاحزاب السياسية في العراق ص ١٧٧).

المجربين ولذلك اختير وزيرا للداخلية، وعلى جودت للمالية، وجعفر العسكري للدفاع، وجميل الراوي وهو من كبار الموظفين ومن طراز جيد وعائلة جيدة، للمواصلات والاشغال، وجمال بابان المحامي الذي يدعى بأنه من أصل كردي، وله الحق في ان يحمل اسم بابان الشهير[٥] وعبدالحسين الجلبي الذي تولى وزارة التربية مرة اخرى.

قامت هذه الوزارة بمحاولة مباشرة لعقد المعاهدة. وبعد مرور اربعة اشهر من المفاوضات من شهر نيسان حتى شهر حزيران، كانت تلك المدة كافية للتوصل الى اتفاق، حيث تم التوقيع على نص المعاهدة في اليوم الثلاثين من شهر حزيران سنة ١٩٣٠[٦] كانت معاهدة سنة ١٩٣٠ بالملاحق التي ارفقت بها وبالرسائل التي تبودلت بشأنها، تعتبر واحدة من معاهدات التحالف الوثيقة بين امم صديقة. فقد حققت الوعد بالمساعدة المشتركة ايام الحرب، والالتزام بالمشاورات الوثيقة، لكنها ماخلا هذه الأمور المحددة، تركت امور الدفاع عن العراق من شؤونه الخاصة به.

ولقد تم افهام العراق بمدى اهتمام بريطانيا «بالمواصلات الجوهرية عبر بلاده والسماح، لبريطانيا بأحتلال قاعدتين جويتين من قبل قوات يتم الأتفاق على مدى قوتها، تكون احداهما قرب البصرة، والأخرى في غربي الفرات، هما فعلا قاعدتا «الشعبية» و«الحبانية» وان تتم حراسة هاتين القاعدتين من قبل القوات العراقية وعلى نفقة البريطانيين[٧] وكان اشغال هاتين القاعدتين يبدأ خلال خمس سنوات من التوقيع على المعاهدة، والى ان يأتي ذلك الوقت، يتم اخلاء المعسكرات والمطارات الجوية في «الهنيدي» «والموصل»[٨] ولم يكن وجود هذه القوات «يؤلف احتلالا في اية حالة وانه لن يخل بحقوق سيادة العراق وان يتم تزويد هذه القوات الأخيرة بالاسلحة وبالمهمات والتدريب من قبل بريطانيا، وتستطيع القوات البريطانية زمن الحرب ان «تتمتع بكل التسهيلات والمساعدات التي تمنحها دولة العراق، وان تتحرك بصفة حرة في الجو، وفي البحر وفي البر. وان يكون الممثل البريطاني في بغداد من درجة سفير، وان يتمتع بالتفوق

---

(٥) يقصد المؤلف بذلك رئيس العائلة البابانية، وهو بابامير بن بوداق بن عبدال» الذي ظهر في القرن الحادي عشر للهجرة، القرن السابع عشر الميلادي، وكان احد حكام هذه العائلة ابراهيم باشا هو الذي اسس مدينة السليمانية في سنة ١٧٨٤ م واتخذها قاعدة للامارة بدلا من عاصمتها القديمة «قلعة جوالان».

(٦) تعمد الأنكليز ووافقهم نوري السعيد في ذلك على ان يكون التصديق على المعاهدة في اليوم الثلاثين من حزيران، وهو يوم اعلان الثورة في الفرات الأوسط في سنة ١٩٢٠ وبالفعل فان معاهدة ١٩٣٠ قد قضت على اخر مابقي من اثار تلك الثورة، وماقصد من ورائها.

(٧) لم تكن هذه القوات عراقية حقا، وانما هي قوات المرتزقة واغلبيتها من الاثوريين الذي كانوا يأتمرون بأوامر الأنكليز، فلو كانت حراسة هاتين القاعدتين موكلة الى العراقيين لسهل على الجيش العراقي في ثورة ايار سنة ١٩٤١، ان يحتل هاتين القاعدتين، ولتبدل الوضع في العراق تبدلا خطيرا ولما فشلت الثورة في ايامها الأولى بسبب وجود القاعدتين بأيدي الانكليز.

(٨) «الهنيدي» هو مايعرف الان باسم معسكر الرشيد وكان في الأصل من المطارات العسكرية البريطانية ومقرا من مقرات قوتهم الجوية في العراق. اما في الموصل فقد كان لدى الأنكليز مطار «الغزلاني» شمال غرب الموصل، ولكن اتساع العمران في الموصل في السنوات الأخيرة ابتلع اراضي هذا المطار وتجاوزها الى الغرب والشمال والجنوب.

والسيادة على الدبلوماسيين الأخرين». وهكذا استطاعت هذه المعاهدة ان تعيش لمدة خمس وعشرين سنة (٩)

تم وضع ترتيب اتفاق مالي اشترطته المعاهدة وذلك مقابل تنازل بريطانيا عن المعسكرات والمطارات التي تخليها القوات البريطانية داخل العراق خلال خمس سنوات، وكذلك نقل ملكية سكك الحديد الى العراق، لكي تتحول الى مؤسسة اضافة الى ميناء البصرة الذي سيتحول الى وحدة للميناء وان يكون الموظفون الاجانب الذين تحتاج اليهم الحكومة العراقية من البريطانيين، وان تظل اوضاع اولئك الذين سبقت لهم الخدمة في العراق، من دون ادنى مساس بها.

وحتى قبل ان يبلغ امر تعديل المعاهدة، مرحلته النهائية، جرت مفاوضات سارت قدما بقصد استبدال الاتفاق القضائي الذي تم الاتفاق عليه في سنة ١٩٢٤ والذي كان يضم بقية باقية من نظام الاخضاع الذي كان ساريا في العهد التركي، ولم يعد يتفق ومستقبل العراق، وبمبادرة من نوري السعيد والمندوب السامي البريطاني، تم التوصل الى هذا الاتفاق الجديد في ذات اليوم الذي صودق فيه على المعاهدة والتوقيع عليه في اليوم الرابع من شهر اذار سنة ١٩٣١ وقد اشترط الاتفاق المذكور، توحيد النظام العدلي وان يطبق هذا النظام على العراقيين والأجانب على حد سواء ولتيسير تحقيق هذا الغرض تقرر استخدام بعض المحامين البريطانيين حدد عددهم مؤخرا بتسعة اشخاص، ولفترة محدودة في المحاكم وفي وزارة العدل.

اجريت تغييرات محققة في القانون الجنائي، وفي قواعد الأثبات وذلك قبل ان يتم تنفيذ ذلك الاتفاق، واذ تم ايصال هذا الأتفاق الى مجلس عصبة الأمم فقد جرت المصادقة عليه على شرط ان تكون جميع السلطات المتعاقدة قبلا، راضية بالوضع الجديد لرعاياها في العراق، وفقا لهذا الاتفاق، ولقد قبلت الاطراف المعنية بذلك الشرط دون استثناء خلال اشهر قلائل ذلك القبول الذي جعل وضع العراق الجديد مقبولا لدى الأمم الاخرى.

وحتى بعد ان صحب ذلك، تفاهم مع المندوب السامي لتقليص عدد الموظفين البريطانيين على الفور، حيث جرى في الواقع تقليص عدد العاملين منهم في دائرة التفتيش الاداري، وتم استدعاء عدد كبير مهم الى بغداد، فأن المعاهدة قد قوبلت من دون حماسة في العراق ولغرض المعارضة تم انتقادها بشدة من قبل الكثير من المتحدثين في بريطانيا. غير ان الاقليات قد اخذت تشعر بالخوف كما سوف يظهر ذلك مؤخرا في ذات الوقت الذي استاء منها الساسة القوميون المتطرفون لأنهم اعتبروا بقاء تلك الامتيازات البريطانية استمرارا للعبودية.

---

(٩) مع ان هذه المعاهدة تعتبر لاغية بعد ان عقدت معاهدة بورتسموث في اواخر سنة ١٩٤٧ واوائل ١٩٤٨، ومع ان وثبة كانون الثاني ١٩٤٨، قد اوقفت تنفيذ معاهدة بورتسموث وتصديقها؟ الا ان معاهدة نوري السعيد لسنة ١٩٣٠ بقيت نافذة المفعول بصفة عملية حتى سنة ١٩٥٥ عندما توصل العراق الى اتفاق مع بريطانيا بشأن الانسحاب من قاعدتي الشعيبة والحبانية وزوال اخر الاثار الشاخصة لمعاهدة ١٩٣٠

قرر رئيس الوزراء اجراء انتخابات عامة لتعزيز وضع وزارته، ولكي يقرر موقف الأمة، ولو بصفة ظاهرة على الاقل. لم يكن الحزب الوطني[١٠] مقتنعا بمحاولة مقاطعة الانتخابات، وبأقصى النشاط الذي اظهرته المقالات التي نشرتها صحافته، وبالمنشورات اليدوية والشفهية التي لم تتردد في اثارة جماعة المجتهدين من الشيعة وتحريكهم لأستنكار المعاهدة الجديدة، ومع كل ذلك فأن هؤلاء المجتهدين لم يكونوا ميالين في الحال الى التدخل في الأمر، عدا ماحدث بصفة جزئية في سامراء، ولذلك جرت الانتخابات في جو سلمي في المناطق التي اجريت فيها، وفي السليمانية وحدها وقعت مصادمات عنيفة بين المتظاهرين والشرطة نجمت عنها اراقة الدماء ووفاة زهاء عشرة انفار[١١]

عرفت كل نتائج الأنتخابات في نهاية شهر تشرين الأول سنة ١٩٣٠ فأظهرت نصرا ساحقا لحزب الحكومة[١٢] اما مصادقة البرلمان الذي اجتمع في اليوم الأول من شهر تشرين الثاني على المعاهدة، فلم تحل دونها حملة الاستنكارات العنيفة التي اظهرها المتطرفون من الوطنيين، فلقد كان التصويت لصالح المعاهدة بنسبة ٦٩ صوتا مقابل ثلاثة عشر صوتا في مجلس النواب، واحد عشر صوتا مقابل خمسة اصوات في مجلس الأعيان[١٣]

ولكن بقي الشيء الكثير الذي ينبغي عمله في بغداد وفي جنيف معا. ظل البرلمان منشغلا بسن التشريعات، وتهدئة الأوضاع السياسية من منتصف صيف ١٩٣١ وكانت المعارضة ضد حكومة نوري السعيد قد تجمعت انذاك في صفة اشد صلابة مما كان يظهره الحزب الوطني المنعزل، والذي لم يستطع، بفضل وجود الموظفين الاداريين في المحافظات، ان يلعب سوى دور ضئيل في الانتخابات[١٤]

---

(١٣) كان عدد اعضاء المجلس النيابي الذي طرحت عليه المعاهدة ثمانية وثمانين نائبا وكان من ابرز الموافقين على المعاهدة نوري السعيد، وجعفر العسكري واحمد مختار بابان وجميل المدفعي، وجمال بابان، الحاج طالب، وصالح جبر، وفائق شاكر، ونجيب الراوي. اما ابرز المخالفين لها فمنهم رشيد عالي الكيلاني، صادق البصام، ابراهيم‌عطار باشي، معروف الرصافي، ياسين الهاشمي، ناجي السويدي وعلي جودت الايوبي.

(٤) يريد المؤلف بذلك حركة الاضراب التي تشأت في بغداد وغيرها من المحافظات في شهر تموز سنة ١٩٣١

كان الزعماء السايسيون المعادون لنوري السعيد واولئك اللذين لهم تحفظاتهم على المعاهدة من امثال ياسين الهاشمي، وعلي جودت الذي استقال من الوزارة في شهر ايلول، وخلفه في منصبه رستم حيدر مرشحا عن البلاط، قد الفوا من كل من الحزب الوطني، وحزب الشعب، ومن عناصر تحمل ذات التفكير، ماعرف باسم حزب الاخاء الوطني[١٥]

وفي اجتماع الافتتاح الذي عقد في شهر اذار سنة ١٩٣١ اوضح الحزب ان من اهدافه حل البرلمان الذي لم يكن يمثل الشعب، وتأليف حكومة جديدة «تتعهد بأن تأخذ بنظر الأعتبار علاقات العراق الخارجية». ولقد لمح عدد من اعضاء الحزب بفكرة ملائمة لاستقالتهم من مقاعدهم في مجلس النواب، وقرر الجميع ان يواصلوا حملتهم عن طريق الصحافة، وفي أنحاء البلاد•وكان نوري السعيد هو الاخر قد سبق له ان الف من النواب المؤيدين له «حزب العهد» وراح يتطلع الى ايام «العهد» العظيمة الماضية، وتنفيذ منهاج المعاهدة.

من بين اولى الأعمال التي اقدم عليها حزب الاخاء الوطني في اوائل شهر تموز، تنظيم سلسلة من الاضرابات لم تكن لها سابقة مماثلة في مدن العراق[١٦] بالنظر الى توقيتها المركز، وصداها الواسع. وكان لهذه الاضرابات هدفها وهو ارباك الحكومة. ذلك ان المنظمات الحرفية في الاسواق قد تولاها الخوف، واصابها الفزع الغامر، نتيجة الفقرة التي ادخلت حديثاً في قانون الرسوم البلدية، تلك الفقرة التي يمكن تفسيرها بأنها كانت غير ملائمة لتلك المنظمات. غير ان سوء التفاهم هذا والذي عالجته الحكومة بيسر، كان قد شجع الاصرار على الاضراب حتى اواخر شهر تموز، وبعد محاولات بذلت لمد الاضراب الى شمالي العراق. وبعد ان ادت القلائل التي وقعت في البصرة، وفي مدن الفرات الأوسط الى اصطدامات دموية، والى تدخل قوات الشرطة، امكن انذاك القضاء على اعمال التحريض والاثارة.

---

(١٥) تالف حزب الاخاء الوطني على انقاض حزب الشعب الذي الفه ياسين الهاشمي، وقد اجيز من وزارة الداخلية في ٢٥ تشرين الثاني ١٩٣٠ اي بعد اجازة حزب نوري السعيد، العهد، بشهر واحد وانتخب رشيد عالي معتمدا عاما له وتألفت لجنة ادارية جديدة ترأسها ياسين الهاشمي واصدر الحزب صحيفة يومية تنطق باسمه هي «الاخاء الوطني» كان صاحب امتيازها علي جودت الايوبي، ومديرها المسؤول عبد الاله حافظ ثم اصبح كامل الجادرجي هو المدير المسؤول للصحيفة والذي قدم الى المحاكمة بعد الدعوى التي اقيمت ضد الصحيفة في اعقاب نشرها قصيدة للاستاذ محمد حسين الشبيبي بعنوان «جرس الحرس» وكانت من المحاكمات الصحفية الشهيرة في ذلك العهد.

(١٦) اقر البرلمان لائحة الرسوم البلدية الجديدة في اليوم العاشر من شهر ايار ١٩٢١ وقد بدأ الاضراب العام في بغداد صبيحة يوم الاحد الخامس من تموز فاغلقت المخازن والحوانيت، وتوقفت حركة البيع والشراء، وتعطلت الصيدليات والمطاعم والفنادق وحتى دور السينما والملاهي، كما توقفت وسائل النقل عن الحركة. ومالبث الاضراب ان سرى الى ضواحي العاصمة وامتد الى الفلوجة والرمادي والحلة والنجف وكربلاء والكوت والناصرية وحتى الموصل وعمدت الحكومة ازاء ذلك الى فتح مخازن ومحلات حكومية لبيع المواد الغذائية واستنكرت الاحزاب السياسية قانون الرسوم واحتجت الى الملك ضد قسوة الشرطة ازاء المضربين. ومع ان الحكومة قد اعلنت عن الغاء الرسوم الجديدة. واطلاق سراح الموقوفين، ووعدت بالنظر في قضايا العمال العاطلين، الا ان ذلك لم يخفف من الازمة. وما لبث الوضع ان تفاقم بعد ان عين مزاحم الباجةجي، وكان من المعارضة، وزيراً للداخلية ووكيلا لرئيس الوزارة بعد سفر نوري السعيد الى تركيا، حيث استخدم مزاحم منتهى القسوة في كسر الاضراب.

ويبدو ان حصاد كل ذلك كان يتمثل في بروز طراز جديد ومخلص من السياسات العراقية فلقد نجح الاخاثيون في هذا المسعى، وقد دفعهم ذلك النجاح الى التقدم ثانية (كما قال ذلك اعداؤهم عنهم) الى خطوة اخرى تثير الاضطراب المحفوف بالمخاطر، وتزيد من توتر العلاقات بين الاكراد والعرب، وبين الاثوريين والاكراد.

والحقيقة ان موقف الاقليات ازاء مستقبل تحرر العراق، وزوال السيطرة البريطانية عنه، كان أكثر اشغالا لبال الحكومة العراقية، والحكومة البريطانية، وعصبة الأمم ذاتها، وبصفة خطيرة، ذلك لأن اهتمام عصبة الأمم قد تركز حول هذه القضايا او المظاهر من حياة العراق.

ولقد فعلت الحكومة افضل ماتستطيعه للتأكيد في هذا الشأن سواء بالجولات المتكررة التي قام بها الملك في المناطق الكردية، وبالتشريع الذي نص على استعمال اللغة الكردية، وعن طريق الوعد بالوفاء بكل التعهدات التي قطعت في الماضي، وبأمثال هذه التلميحات العملية عن حسن النية وباجراء تعديلات طفيفة في الوزارة، وفقدان جميل المدفعي منصبه في رئاسة مجلس النواب واضافة الدكتور عبدالله الدملوجي وزيرا للخارجية واعادة تشكيل الوزارة في شهر تشرين الأول[١٧] استطاعت وزارة نوري السعيد ان تصون كيانها، على الرغم من المكائد والهجمات التي وجهها الاخاثيون ضدها منذ تشكيلها في شهر اذار ١٩٣٠ حتى شهر تشرين الثاني ١٩٣٢

الف نوري السعيد وزارته الثانية في اليوم التاسع عشر من تشرين الأول ١٩٣١ فتولى ناجي شوكت وزارة الداخلية، ورستم حيدر وزارة المالية، وجمال بابان وزارة العدل، وجعفر العسكري وزارة الخارجية وامين زكي وزارة الاشغال والمواصلات، وعبدالحسين الجلبي وزارة المعارف. لم يعد يسمع الان سوى الشيء الضئيل عن التنافر الطائفي ماخلا بعض المخالفات الضئيلة للأنظمة بصفة ضمنية. كذلك لم يعد يذكر اي شيء عن التهديدات بأعلان التجنيد الاجباري، او الأمل في ذلك بعد ان استطاعت وزارة نوري السعيد ان تؤجل صدوره بضرب من الحكمة الى ان يزول الالتزام بالاصغاء الى مايقوله المندوبون الساميون البريطانيون

فقد كان الأهتمام الكبير في ذلك الوقت منصبا بشكل واضح على قبول العراق في عصبة الأمم والذي حددت له سنة ١٩٣٢

كانت نية الحكومة البريطانية تنطوي على ان تتقدم بهذه التوصية الى عصبة الأمم في شهر ايلول سنة ١٩٣٢، وان تثير فيما بعد، قضايا الاجراءات التي لم تكن موجودا قبلا، كانت اللجنة الدائمة للانتداب على العراق تقدم ابتداء من سنة ١٩٢١، تقاريرها السنوية الى عصبة الأمم مصحوبة بايضاحات شفهية، ولم يتراخ اهتمام تلك التقارير بالشؤون العراقية والوصاية البريطانية ابدا ولقد اوردت اللجنة في تقريرها لسنة ١٩٢٩ اشارات عن مدى استعداد العراق للتحرر او

---

(١٧) اخطأ المؤلف في تحديد تاريخ اعادة تشكيل الوزارة السعيدية اذ اعتبره في شهر تشرين الاول سنة ١٩٣٠ والصواب ان اعادة تشكيل الوزارة او تأليف الوزارة السعيدية الثانية حصل في التاسع من تشرين الاول ١٩٣١.

عدمه، ثم راحت تسأل الممثل البريطاني المعتمد في جنيف بصفة وثيقة عن مدى ذلك الاستعداد، كما انها تقبلت بسرور «التقارير الخاصة عن تقدم العراق منذ سنة ١٩٢٢ حتى سنة ١٩٣٠».

ولقد طلب مجلس عصبة الأمم في حزيران ١٩٣٠ الى اللجنة الدائمة بأن تصوغ له الأوضاع التي تم انجازها في البلد الخاضع للأنتداب والذي تقدم بالطلب للحصول على التحرر. وفي المناقشات التي اعقبت ذلك واستمرت طيلة سنتين اخذ قسم من الناطقين الانكليز في جنيف يؤكد تقدم العراق، لكي يوضح النواقص الملحوظة، ولكي يتخذ ازاء المستقبل، موقف التفاؤل الذي كان يعكس الرغبة الخالصة (سواء صدق ساسة بغداد بها، ام لم يصدقوا) للتخلص بصفة نهائية من مسؤليات الانتداب. كذلك لم يتأكد بعد لدى الحكومة البريطانية، بأن رفض مجلس العصبة لقبول العراق عضوا فيه، يمكن ان يوصف بشكل ثابت من لدن العراق، بأنه من المؤامرات البريطانية المعاكسة.

كانت الطلبات العديدة التي قدمتها الاقليات العراقية الى مجلس العصبة في جنيف، قد وفرت ميداناً اكثر جلاء للتساؤل عن ادعاءات العراقيين في الطلبات الملحة كثيرا، عن مصير الاكراد والاثوريين بعد انسحاب بريطانيا من العراق. ويبدو ان سياسة العراق حول هذه القضايا كانت في ذلك الوقت سياسة صائبة في الواقع ومعقولة ايضا، وان المندوب السامي البريطاني، اذا ما تم استجوابه حول الموضوع، يستطيع، ان يحدد الخطوات الملائمة التي اتخذت قبلا وان يتوقع استمرار تلك الخطوات وان يتم تقبل المسؤولية الادبية (تمييزا عن عمل عصبة الأمم) في هذا الميدان، اذا مابرهن العراق قبل كل شيء على جدارته بالتحرر. وطبقا لذلك كتبت لجنة الأنتداب الى مجلس عصبة الأمم في شهر حزيران سنة ١٩٣١ تقول بأن الظروف المواتية لتحرر العراق يبدو مستطاعا أنجازها وذلك بقيام حكومة مستقرة قادرة على الدفاع بصفة ذاتية وضمان الأمن الجيد، والمالية الوطيدة، والقضاء المحترم والادارة التي لاتبارى.

ولكن ينبغي اعطاء بعض الضمانات من قبل الأمة المحررة، وهذه الضمانات تخص حقوق الاقليات والأجانب وحرية التفكير. والدين والوفاء بالألتزامات المالية التي فرضها الأنتداب، وحماية الأموال الأجنبية التي تم الحصول عليها قبلا، وملاحظة المواثيق الدولية وحسن معاملة الأمة العراقية لكل الدول الأعضاء في عصبة الأمم.

كانت مسودة البيان الخاص بقبول العراق في عصبة الأمم، والذي اشتمل على كل هذه الضمانات، قد تم اعداده في الوقت اللازم له في جنيف وسلم الى الحكومة العراقية حيث ناقشه برلمانها وصادق عليه بترحاب مدهش في جلسته التي عقدها خلال ١٩٣١ - ١٩٣٢ [١٨]

(١٨) اراد بعض النواب ان يناقشوا تعهدات العراق لعصبة الامم مقابل اختياره عضوا فيها ولكن رئيس الوزراء نوري السعيد رد عليهم بانه «لا يوجد شيء في هذه الضمانات اكثر مما هو مطبق الان بموجب القانون الاساسي، كما اشار الملك فيصل في خطاب=

واذ اكتفى مجلس عصبة الأمم بهذه الاحكام والاجراءات مهما كان نوع الشكوك المعروفة ضمنا، فقد اعرب هذا المجلس في اليوم الثامن والعشرين من شهر كانون الثاني سنة ١٩٣٢ عن استعداده لانهاء الانتداب على العراق حالما يتم تسلم البيان العراقي. وكان هذا البيان الذي اودع في جنيف خلال صيف ١٩٣٠ يلزم العراق على الفور بأن يصحح ويعالج كل المشاكل التي تخص الجنسيات، والاقليات والاديان، واللغات معالجة حرة، وان يشتمل البيان على سلسلة من الالتزامات المحددة يتعهد بها العراق تجاه عصبة الامم. ولم تلبث لجنة الانتدابات ان قبلت بهذه التأكيدات في تشرين الأول سنة١٩٣٢ وفي مقابل ذلك قبلت الجمعية العامة لعصبة الأمم بها وان كانت ماتزال تميل كما هو الواقع الى ابداء قلقها نيابة عن الاثوريين، مع ان الأمر لايحتاج الى وضع صيغ اخرى.

لقد طلب الان الى الأمم التي استفادت قبلا من استسلام الدولة العثمانية والتي قبلت في سنة ١٩٣٠ بالأتفاق القضائي العراقي البريطاني، لأنه يضمن رعاياها خلال تطبيق ذلك الأتفاق بأن تتخلى عن تلك الحقوق فيما بعد بصفة دائمة، فوافقت على هذا الطلب. ونظرا لأستمرار الضغط من جانب بريطانيا، ونفاذ صبر العراق بصفة واضحة، فلم تكن هنالك اية معارضة يمكن مواجهتها. وعلى هذا الاساس وافقت الجمعية العامة لعصبة الأمم، والتي كانت تضم اثنتين وخمسين دولة، بالتصويت الكامل في اليوم الثاني من شهر تشرين سنة ١٩٣٢ على عضوية العراق في عصبة الأمم.

ولقد دللت خطب الترحيب والتقدير، على وجود مناسبة من الود الواسع، وشيء من الأهمية التاريخية، فقد تكلم نوري السعيد بأسم العراق، الى الممثل البريطاني، السر جون سيمون، عن الأمتنان الخالص الملزم، تجاه الشعب البريطاني، ذلك الامتنان الذي كان في الواقع، يشعر به هو وملكه وعدد من أكثر العراقيين مسؤولية وله مايسببه[19]

العرش الذي القاه في افتتاح المجلس النيابي في الاول من تشرين الثاني ١٩٣٢ الى موضوع قبول العراق في عصبة الامم فقال «لقد مضى على هذه البلاد ردح من الزمن، وهي تبذل كل الجهود المستطاعة لتصل الى مصاف الامم الحرة المستقلة، ومما يدعو الى ابتهاجنا جميعا، ان هذه الجهود قد تكللت بالنجاح فدخلنا عصبة الامم على اساس المساواة التامة مع جميع الامم الممثلة فيها» (الحسني: الوزارات العراقية ج ٣ ص ٢٠٢).

(١٩) بعث الملك فيصل برقية شكر الى المسيو بول بونكور رئيس مجلس عصبة الامم في ٣١ كانون الثاني في سنة ١٩٣٢ بمناسبة قبول العراق في العصبة، كما وجه فيصل في ذات اليوم برقية مماثلة الى المعتمد البريطاني في مجلس العصبة نفسه وهو السر فرنسيس همفريز، المندوب السامي البريطاني في العراق ولقد وافق المجلس النيابي العراقي في جلسته المنعقدة في اليوم الخامس من ايار ١٩٣٢ على تقديم تصريح الى مجلس العصبة تضمن تعهدات العراق ازاء العصبة، كما ابرق جورج الخامس ملك بريطانيا برقية تهنئة بهذه المناسبة الى الملك فيصل في الثامن من تشرين الاول ١٩٣٢ ورد فيصل عليها ببرقية شكر الى ملك بريطانيا في اليوم الرابع من الشهر المذكور (الحسني: تاريخ الوزارات العراقية ج ٣ ص ١٩٨ ـ ٢٠٩).

٢ . انعكاسات عن الانتداب

كان انهاء الانتداب، والذي ايدته الهيأة الأساسية التي تمثل الرأي العام البريطاني، عرضة للانتقاد في بريطانيا ذاتها ايضا. ذلك لان الغاء الانتداب كان يمثل سابقة للتخلي عن المصالح الامبراطورية، والفشل نهائيا في الحصول على كل المواصلات الستراتيجية المهمة، وخطرا، بل موتا محتما، يحيق بكل الاقليات العراقية. غير ان مثل هذه الانتقادات التي نشرت بكل حرية في الصحافة، والقيت في البرلمان البريطاني، قد اشترك فيها، ولو بصفة جزئية، الرأي العام الاوربي والامريكي ايضا، ولاسيما ما اشار اليه هؤلاء المنتقدون، بشأن الثقة حول معاملة الحكومة العراقية لاقلياتها الصغرى. اما المراقبون في فرنسا فقد ابدوا اسفهم لان المجال الذي تمت السيطرة عليه بصفة دولية، قد اخذ يتحول الى سيطرة بريطانية، في حين ان تحرر الولايات العربية التي كانت تابعة للعثمانيين قبلا، لن يقابل الا بالعويل في سوريا، وذلك لان السياسة الفرنسية هناك، كانت تسير على خطوط مختلفة.

ذلك لان الحكم الذي اصدره العالم على تخلي البريطانيين عن هذا الانتداب، وان كان يسري على ماضي تصرفهم ازاءه، يعتبر من قبل الاكثرية ثناء على البريطانيين؛ فلقد ظهر بان الحياة والحقيقة قد منحتا لاول مرة للاراء التي اوحت بمفهوم الانتداب. ذلك ان الشعب المتخلف سياسيا قد تم تآلفه حقا في صفة امة، وانه قد نال المساعدة في بنائه الدستوري وفي ادارته، وانه

(١) يحاول المؤلف في هذا القسم ان يعطي تبريرات الى فرض الانتداب على العراق، ويجهد نفسه في ان يظهر للقارئ بانه لو لم يفرض الانتداب على العراق من قبل بريطانيا، لما استطاع العراق ان يبدأ مسيرته نحو الاستقلال والتقدم. اننا نعترف بان العراق لم تكن له طيلة العهود التي اعقبت سقوط الخلافة العباسية في صفة رسمية سنة ١٢٥٨ ميلادية، اية حكومة مؤلفة من ابناء وطنه، وانه بقي كل تلك السنوات الطويلة حتى سقوط العثمانيين في سنة ١٩١٨ يحكم من قبل حكومات وعناصر اجنبية عن الشعب العراقي في كل شيء، في اللغة والسلوك والاهتمام بالمصلحة الوطنية. ولكن هذا لايعطي الانكليز، ولا اية دولة اخرى في ذلك الوقت، اي مبرر لان تفرض سلطتها التامة على شعب تعهدت بان تمنحه الحرية في تقرير مصيره، واختيار نوع الحكم الذي يرتضيه، فالانتداب البريطاني لم يكن ليفرق في جوهره عن الحكم العثماني، او حكم المماليك، وعن حكم الفئات الطامعة السابقة من السلاجقة والبويهيين والصفويين. فلو ترك العراق حرا بعد الحرب العالمية الاولى مباشرة، وتلقى المساعدة من الانكليز في تشكيل حكم وطني فيه بعد الهدنة، لامكن نجاح مثل ذلك الحكم على الرغم من وجود الروح الفردية وسيطرة رجال الاقطاع وزعامات مجتهدي الشيعة وغير ذلك من العوائق التي تحول دون توطيد النظام الديمقراطي الوطني الصحيح المرجو، ولكن ماذا كانت ومازالت الشعوب المغلوبة تنتظره من الفاتحين القدامى والمحدثين؟

اخذ يتلقى النصح من الخبراء، وتمت حمايته بقوات مسلحة وقد تحرر وباقرب لحظة من العبودية.

ومثل هذا السجل من الثناء قد شارك فيه الكثيرون من ذوي العظمة والصلاح، وكثيرون من العراقيين وغير العراقيين من العرب، وقوبل بالتهليل والترحاب لانه كان يمثل شيئا ما، من الغاء الاستعمار مما يندر الكشف عنه قبل حلول القرن العشرين لاسيما اذا ما تعلق الامر، وبصفة مميزة، بجو التفكير السياسي الغربي الذي ظهر في اعقاب توقيع الهدنة في سنة ١٩١٨ ذلك لأن المثالية لم تكن غائبة عن الدوافع التي املت السياسة البريطانية.

فاحترام حقوق الضعفاء، والوصاية المثيرة للريبة، لم تكن بدعة في نظر خيرة رجال الدولة من البريطانيين. ولكن كانت هناك بواعث اخرى قائمة ايضا، وعلى الاخص بالنسبة الى الحصول على كل الفوائد التي يستطيع العراق ان يوفرها، من امثال المواصلات بين الشرق والغرب، والنقاط الستراتيجية، والميدان المفتوح للنشاط التجاري، دون الاستمرار في تحمل ضغوط الحكومة الثنائية ومسؤولياتها، او عار الظهور، الى درجة ما، لمقاومة قوى القومية المحلية التي كانت ذاتها مدينة بالمزيد من الامثلة والقواعد البريطانية.

كان معظم المستشارين والفنيين الذين عملوا مع هيئة الضباط البريطانيين، ومعظم هؤلاء المستشارين ان لم نقل كلهم، ممن امضوا سنوات خدمة في العراق، من الرجال الفعالين، مثلهم في ذلك مثل بقية العراقيين، ولقد اظهر زوال الانتداب حماسة وعطفاً، خلال السنوات الاثنتي عشرة من التعاون مع الحكومة العراقية، والتي الزمت بريطانيا ذاتها بايجاد ذلك التعاون.

هناك امم قليلة ربما تكون قد طالبت، في مثل هذا الوضع الانتدابي، بالحصول على القليل من الامتيازات التجارية والامتيازات الاخرى، وكان من اليسير عليها ان تظفر بذلك على الرغم من انفتاح ابواب عصبة الامم امامها. لم تكن هناك مجرد خدمات عامة، ذلك لانه تم انشاء محاكم العدل، وبنيت القوات الدفاعية التي كانت تتفوق على القوات الدفاعية لجارات العراق المعاصرة.

وكان الواجب الجوهري لتدريب العراقيين، استعدادا للحصول على الاستقلال، قد لقي من الاهتمام اكثر مما هو موجود منه في سوريا الفرنسية او فلسطين البريطانية. ذلك لان علاقات العراق مع جيرانه قد تم وضعها على اسس منتظمة، وتحديد الحدود معها، وانقاذ الجزء الشمالي من العراق، من الكتائب التركية التي كانت تتغلغل فيه. ومع ان الجهود البريطانية التي بذلت لضم الموصل الى العراق[٢] قد استخف بها بسخرية، فان العراق كان يفتقر الى الموارد النفطية في

---

(٢) كان الهدف الاول لبريطانيا من رد مطالب الاتراك بالحاق الموصل بتركيا. هو ان تضمن وضع يدها على الكنوز النفطية في ولاية الموصل، التي كانت تشمل محافظة كركوك المركز الاول الذي كان معروفا بوفرة وجود النفط فيه. في سبيل هذا النفط خاضت بريطانيا معركة حامية الوطيس في اروقة مقر عصبة الامم، التي كانت بريطانيا نفسها هي المهيمنة عليها انذاك كما هو شأن ...

هذه الولاية، ولذلك فلم يبدأ العمل بالتنقيب عن النفط في شمالي العراق الا بعد ان مرت سنة على تسوية قضية الموصل.

وجه العراقيون انتقادات عنيفة الى التعليم، والصحة، والجيش في عهد الانتداب، لان هذه الخدمات كانت هزيلة لاتقوى على الحياة،ولكن هذه الانتقادات كانت متطرفة بصفة اكثر ولم تأخذ بنظر الاعتبار قلة الاموال المتوفرة للانفاق على هذه الخدمات. كما انه ليس مستطاعا تأييد مايقال بان البريطانيين كانوا في كل الاوقات، يمتازون بالكمال في الدقة وفي الحكم، او انهم لم يتأثروا بمصالحهم في ضمان استقرار العراق، وحسن النظام فيه. ذلك ان انهاء الانتداب قد ترك اكثرية الساسة العراقيين ومعظم المثقفين من الشباب يوجهون سهام انتقاداتهم ضد ارتباط العراق بالبريطانيين، ذلك الارتباط الذي اعتبروه بانه هو السبب لكل النواقص التي المت بدولتهم، والمخاوف التي طغت على طبقتهم، وكانت معظم الصحف العراقية ضالعة في هذه الدعاية المعادية للانكليز.

ففي العراق، مثل بقية البلدان الاسيوية والافريقية التي كان البريطانيون يشرفون عليها، لم تتأخر الطبقة المتعلمة فيها عن عرض مطاليبها في الاشتراك في السلطة السياسية، وازالة كل العوائق والضغوط التي تقف امامها، وحتى عندما كانت مثل هذه الطبقة المتعلمة، تظهر فضلا عن مواقفها الاعتيادية المعادية للبريطانيين، شيئا من عدم النضج وانعدام المسؤولية.

ان شبكة العالم المتمدين، والمترابطة ارتباطا دقيقا، لم يعد ممكنا معها ابقاء بلد ما في عزلة سعيدة عن الاخرين، او معاملة الشعوب المتخلفة معاملة ابوية. ذلك لان مثل هذه العزلة ومثل هذا الانحطاط الذي يرغب البعض فيه، غير موجود بصفة عملية هذه الايام. ذلك لان الوطنية والمصالح السياسية تتجاوز الحدود، وليس مستطاعا انكار التعلم بالصيغ المطلوبة بصفة حتمية، لان التعليم في العراق، قد سبق له ان بدأ بداية جوهرية في ظل الحكم العثماني، وان اقامة دولة وطنية تحكم نفسها بنفسها في العراق كانت من الاهداف الواضحة[٣]

= هيمنة امريكا على الامم المتحدة في الوقت الحاضر، لكي تضمن بقاء ولاية الموصل جزء لا يتجزأ من العراق. فلولا النفط لما اهتمت بريطانيا ابدا بموضوع الموصل، ولتساومت بشأنها مع الغاصبين الاخرين.

(٣) يحاول المؤلف هنا ان يختلق الاعذار والمبررات للسياسة الاستعمارية التي سارت عليها بريطانيا في احتضان الاقطاعيين، وافراد الاسر البارزة لتسليمها السلطة في العراق فهو يزعم بان «الانتداب الذي كان في الواقع يهتم بالامن والاستمرار، لم ير مناصا من تقبل القوة الحاكمة المؤلفة من الاقطاعيين، وكبار ابناء الاسر التي تجمع بين السلطتين الدينية والدنيوية معا، وكذلك البارزين من ابناء المدن النابهين قبلا في الشؤون العامة. ولذلك فلم يفرض سوى الضئيل من الضغط على التقدم لكي تصل الطبقة المتوسطة اليافعة الى المرحلة الوزارية» وهكذا تم تطبيق هذه الساسة الاستعمارية التدميرية بحذافيرها، عندما اودعت السلطة الى الطبقات الاقطاعية والاسر البارزة، فراح افرادها يتناوبون على الحكم ويتنافسون في التآمر في سبيل ذلك، وينساقون في سياساتهم حسب الاوامر الانكليزية مما حفل به الحكم الملكي حتى آخر لحظة من لحظات وجوده. ومع ذلك، يعترف المؤلف بان امساك هذه الطبقة بزمام الحكم قد دفع العناصر الشابة ومعظم العناصر التقدمية فيما بعد، الى ابراز رد فعل تميز بوسائل العنف والاخضاع.

ولقد نوطد رد الفعل هذا، ببعض التجمعات التي اسرعت في الظهور الى حيز الوجود فيما بعد. ذلك لان مثل هذا الامر لايمكن تجنبه بصفة عملية على اكثر احتمال، كما ان القوة المستبدة الحاكمة، ذات الآماد القصيرة، لم تكن تتوقع ان تفرض عنصرا غير مجرب، ليست له جذوره القبلية على بلد، لكي يصبح هذا العنصر هو القوة الحاكمة فيه!.

ومن التهم التي كانت توجه الى نظام الانتداب، تهمة عدم قدرة نظام الانتداب على حل المشاكل الاساسية العملية في البلاد، من امثال مشاكل الامن، وفوضى التصرف بالاراضي، وتأخر الزراعة، وعدم تطوير وسائل الري، وانتشار الفقر والمرض بصفة عامة. ويمكن الاجابة على هذه التهمة بان الاموال كانت محدودة[٤] ومع كل ذلك تم تحقيق شيئ من التقدم التقني، واصبح المجال مفتوحا امام مبادرات العراقيين، اذا ما توفرت الظروف والاموال اللازمة لذلك

واذا ما تجاوزنا العيوب التي الصقت ببريطانيا، باعتبارها الدولة المنتدبة على العراق، فلا بد ان نتساءل عن مدى النجاح الذي تستطيع به دولة غربية تحاول ان تصب شعبا شرقيا واسلاميا مثل العراق في قالب مشابه نوعا ما لقالبها هي. فاذا ما تركت مثل هذه الشعوب لذاتها فانها سوف تستعير من الغرب كثيراً من المواد غير الجوهرية والفجة التي لاتفيدها. فالنظام الذي ينتج عن ذلك، ويكون مماثلا لما كان موجودا في بلاد فارس وتركيا في القرن التاسع عشر، يكون نظاما خاصا بها. لقد هضمت المواد الغربية وتم تقبلها، ولكن الشرور الاجتماعية والسياسية القديمة لم يعد من المستطاع تحملها بالشكل الذي يؤدي الى الدمار حيث ينحصر التذمر غالبا في طبقة ضيقة مفهومة. ولكن الحالة تكون على خلاف ذلك، عندما تحل دولة اوربية نفسها، مهما كانت صفة الدوافع الى ذلك، في اراضي بلد متأخر، فتعمد الى اقامة صيغ غربية، وتصر على تطبيق القواعد والاهداف الغربية، وسط شعب، محير سرعان ما تجتاحه الثورة، وهو يفتش عن العدل والكفاية بالصفة التي ينظر بها اليهما في اوربا. ففي عالم افضل قد يحقق الشعب الذي تم اسعافه، كل بركات المؤسسات المحسنة، من القانون والمحاكم، والامن، والزراعة المتطورة، والمدارس، والمستشفيات والتي تكون مرضية طبقا لذلك.

ولكن الامر يكون على خلاف ذلك في ميدان التطبيق. فمفهوم الانتداب الذي تم تطبيقه على شعوب بدائية غير واعية، وكان بحد ذاته يؤلف تقليصاً للوضع القومي فيها، وضربة للعزة القومية، ولم يوجد اي انتداب كان ممثلوه المحليون يعملون على تحقيق مثل هذه البركات من دون اعتداء على الزعماء المحليين وعلى المصالح الراسخة، او من دون اثارة الكراهية ضد الاجانب

---

(٤) ان الادعاء دوما بنقص الاموال لايمكن ان ينهض دليلا على تبرير السياسة الانتدابية. ذلك لان الايرادات التي كانت الادارة البريطانية تحصل عليها من الضرائب، كانت اوسع بكثير مما كانت عليه في العهد العثماني، ولكن الانكليز لم يريدوا حتى ان ينفقوا تلك الايرادات المستحصلة من العراقيين على تعليمهم واصلاح احوالهم، وانما كانت تلك الايرادات تستعمل للانفاق على بقاء الجيوش البريطانية في العراق، وعدم تحمل الخزينة البريطانية اي شيئ من نفقات الاحتلال او الانتداب.

الذين غدوا مزعجين، وذلك حسب مستويات غير مألوفة، ومن قبل اناس غير مسلمين فضلا عن ذلك، ومن دون ، وربما كان ذلك بصفة لا ارادية، اختيار شيءٌ ما من اجواء التفوق والخصوصية الاجتماعية والتي تكون، من بين كل الامور، اقل تحملا بالنسبة الى المجتمع المتعلم في الشرق المتمدين.

تلك هي الاخطار التي لم يجهز البريطانيون الاتجهيزا ضعيفا لتفاديها، حيث تلا ذلك انعدام شعبيتهم على نطاق واسع بعد سني الانتداب. فلقد طغت على هذه الشعبية كثير من الاستثناءات الفردية ، ليس في الاوساط الوزارية او الوظيفية حسب، بل بين كل الطبقات التي كان عمل البريطانيين، نافعا لها. ومن المؤكد ان بعض مقاييس الاصلاح واعادة التنظيم، كانت بالنسبة الى مصالح الرخاء الوثيقة للجنس البشري من الامور المرغوب فيها في عراق سنة ١٩١٨ كذلك كان من المؤكد ايضا ان مثل هذا الرخاء لايمكن انجازه من دون الحاق ضرر بالمصالح المباشرة لتلك الطبقة التي كانت ترفع صوتها عاليا بالاحتجاج، سواء كان افراد تلك الطبقة من مجتهدي الشيعة، ام من المثقفين، او رجال الاقطاع او شيوخ العشائر.

٤ ـ قضايا الاقليات في العراق

كانت المشكلة التي واجهت الحكومة العراقية ، والطبقة الحاكمة العراقية ، من قبل العنصر الشيعي ليست بذات بال ، ولم تنل سوى اهتمام ضئيل من عصبة الامم ومع ذلك فقد كانت هذه المشكلة ، تعادل مشكلة الاكراد في تعقيدها ، وفي الحاجة الماسة الى ايجاد حل لها ، اذ ان اخطارها قد بدأت بالظهور خلال اشهر قلائل بعد ان ظفر العراق باستقلاله[١] ذلك لان استخدام تأثير المذهب الشيعي ، وكذلك القوة العشائرية ، سلاحا في السياسة الداخلية العراقية كان يمثل خطرا مهلكا

اما الطوائف الاخرى وهي اقل عددا من امثال المسيحيين ، واليهود ، واليزيدية ، والتركمان ، فانها لم تثر سوى القليل من الحوادث فلقد عومل المسيحيون على اساس المساواة مع المسلمين في المجتمع العراقي ، وفي شؤون الادارة ايضا وعندما اثار جلاء البريطانيين عن العراق في سنة ١٩٢٩ ، بعض الهواجس لدى الجبناء من المسيحيين ، فان رؤساء الطوائف لديهم ، لم يجابهوا اية مشقة في ان يؤكدوا لتابعيهم ، ويلحوا عليهم في مواصلة ولائهم لملكهم ، الذي هو ملك العراق ولقد ادت الجولة التي قام بها بعض الوزراء في سنة ١٩٣١ في القرى التي يسكنها المسيحيون ، الى توثيق عرى المودة ، كما تم تقديم كلمات الشكر رسميا ، الى القاصد الرسولي في العراق في هذا الشأن

ولهذا فلم يكن من العسير في سنة ١٩٣٠ اصدار تشريع ينظم الاوضاع الجديدة لهذه الاقليات المسيحية ، ويحدد سلطات قساوستهم وممثليهم وكان الاجراء الذي اريد به تطبيق الادارة الذاتية ، والذي تقبله المسيحيون ، مقيدا في الدولة العصرية ويراد به ان يؤدي في مدة قصيرة الى انهيار السلطة الفردية التي يمارسها رؤساؤهم

* * *

(١) يحاول اقطاب الاستعمار دوما في اي بلد من البلاد ، كما كان شأن العراق ذلك في مفتتح حياته الاستقلالية ، ان يتشبثوا بكل وسائل التفرقة والتمزيق عن طريق الادعاء بان الطائفة الفلانية هي اكثر عددا من الطائفة الاخرى ، كما سار الانكليز بعد الاحتلال مباشرة على سياسة التفريق الطائفي ، بان اخذوا يشددون على الناس ذكر مذاهبهم ، الى جانب عقائدهم الدينية ، حيث بقيت هذه التفرقة الطائفية قائمة حتى في المدارس على اختلاف مراحل الدراسة ، الى عهد وزارة ياسين الهاشمي التي تألفت في سنة ١٩٣٤ والتي الغت تلك التفرقة وكبحت جماح القائمين بها

وقعت الطائفة البهائية الصغيرة في بغداد ، خلال هذه السنوات تحت طائل حادث كان يخص البيوت البهائية المتنازع على ملكيتها في العراق فلقد بدأ البهائيون ، في اواسط سني العشرينات ، يصلحون ممتلكاتهم العقارية في بغداد ولكن المتطرفين من الشيعة المجاورين لهم ، قد رفضوا هذه المحاولة البهائية ، ورفعوا الى الملك التماسا يطلبون فيه بان يصدر اوامره باخلاء تلك البيوت ، ومصادرة مفاتيحها من ايدي البهائيين ، علما بان القضية كانت ماتزال آنذاك قيد الدرس في المحكمة المدنية ببغداد ، وان الحكم من قبلها قد صدر مؤخرا لصالح البهائيين . ولقد حاولت عصبة الامم اثارة هذا الموضوع ومناقشته ، غير ان المندوب السامي البريطاني في العراق احتج على تدخل العصبة هذا بصفة متكررة ولكن من دون طائل

ولم يحاول التركمان في كركوك وفي كفري ، وفي القرى التابعة لها اية محاولة للخروج عن نطاق الغموض الذي كانت له فائدته ، فلم يثيروا اية مشكلة ، منذ ات تمت تسوية قضية الموصل ، وعلى هذا تم قبولهم في الوظائف العراقية بنسبة تتجاوز ، كثيرا جدا ، نسبتهم العددية في البلاد[٢]

ولقد ظل اليهود على نفس حالهم الذي الفوه قبلا من اندماجهم فيما بينهم ، وعزلتهم عن بقية الطوائف الاخرى ، واكتفائهم الذاتي ، وتجنب المطامع ولقد كان من بينهم وزير المالية الشهير[٣] كما انهم حافظوا على مكانتهم في الدوائر الحكومية ، والسيطرة على كثير من الاسواق ، وامتلاك الاموال ، ودعم مدارسهم ومستشفياتهم الخاصة

وعندما قارب العراق ان يحقق استقلاله لم يكن اليهود من الجنون بحيث يجرأون بالاحتجاج المكشوف ضد الاستقلال ، ذلك لان اسلوب العيش الذي الفوه في العراق والمكوث فيه حتى في الاوقات العسيرة بالنسبة اليهم ، كل ذلك لم يكن من الامور الجديدة عليهم صحيح ان العراقيين ، مثل جميع العرب ، كانوا يشعرون بالمقت الشديد تجاه الحركة الصهيونية في فلسطين ، ولذلك استقبلت هذه الحركة الصهيونية بالتظاهرات العنيفة التي قام بها طلاب المدارس وبعض العناصر الاخرى ، التي جوبه بها «السر الفريد موند» عندما وصل بغداد في زيارة عمل له خلال شهر شباط سنة ١٩٢٨ وفي السنة التالية قامت تظاهرات في المساجد وفي انحاء بغداد ، ووقف اعضاء البرلمان لمدة دقيقتين حدادا ، وصدرت الصحف مجللة الحواشي

---

(٢) شغل مؤلف الكتاب «لونفرغ» منصب الحاكم السياسي البريطاني في كركوك مدة ليست قصيرة ، والم بالكثير من احوال التركمان وتصرفاتهم وسلوكهم في كركوك والقرى التابعة لها ولذلك فان مايصدره من احكام في هذا الشأن تعززه المشاهدة والتجربة العملية

(٣) يقصد به ساسون حسقيل وزير المالية في وزارات عبد الرحمن النقيب الاولى والثانية والثالثة وفي الوزارة السعدونية الاولى والوزارة الهاشمية الاولى .

بالسواد ، وارسلت البرقيات الى لندن تعلن معارضة السياسة الموالية لليهود[4]

ولكن اليوم الذي طغت فيه هذه الاحاسيس المصحوبة بالعنف ضد اليهود القاطنين في بغداد ، والطائعين للقانون ، والذين تبرأوا من الحركة الصهيونية ، ان مثل هذا اليوم قد تأخر الى ما بعد سنوات مقبلة[5]

تحول اليزيديون ، الذين لم يكونوا قد اشتهروا بانهم كانوا من المقتنصين القدامى للرخاء الذي اصاب العشائر ، او من ضحايا مثل ذلك الاقتناص ، الى اثارة شيءٌ من الاضطراب ، في نهاية تلك الفترة ، وبطرق خفية متعرجة ، كان يسلكها اميرهم «سعيد بك»[6] فلقد اتهم هذا الامير بسوء التصرف في الايرادات ، واهمال مرقد الشيخ «عدي» وزيارته ، ولذلك عقد اشراف اليزيدية مؤتمرا لهم في الموصل في سنة ١٩٣١ حضره المندوب السامي البريطاني نفسه

وعلى الرغم من بعض العوامل المؤثرة ظل الاكراد مندمجين في الدولة العراقية وكان الفشل الذي احاق بتمرداتهم ، والضغط الشديد الذي كان يعانيه اخوانهم الاكراد في تركيا وفي ايران ، من العوامل التي احدثت التفكك العميق فيما بينهم وفي الوقت ذاته بذلت الحكومة العراقية كل ما في وسعها من جهد للالتزام بالتوصيات التي اصدرتها عصبة الامم سنة ١٩٢٥ بشأن الاكراد فلقد منح الاكراد نصيبا سخيا في مختلف اشكال الوظائف الحكومية ، وكان لهم وزيرا في الوزارة ، كما زيد عدد نوابهم في المجلس النيابي وفقاً لهذه الغاية ومع كل ذلك فقد تقدم بعض الاكراد في سنة ١٩٢٩ الى الحكومة بطلب يريدون به زيادة صرف الاموال على انحاء كردستان وتشكيل ولاية كردية خالصة من المحافظات الاربع الخاصة بهم ، ولم ينس

---

(٤) حدثت هذه التظاهرات والاحتجاجات في العراق على اثر الانتفاضة التي وقعت في القدس سنة ١٩٢٩ وعرفت باسم انتفاضة البراق وقد بدأت ردود الفعل لهذه الانتفاضة في ٣٠ آب ١٩٢٩ عندما عقد اجتماع كبير في جامع الحيدر خانة قدر عدد المشاركين فيه مابين اربعة الاف الى خمسة الاف شخص وقد خطب فيه عدد من الشخصيات السياسية البارزة امثال ياسين الهاشمي ، فمحمد جعفر ابو التمن ، مزاحم الباجة جي ومحمود رامز وغيرهم وانتقد ياسين الهاشمي اللجوء الى اساليب القول لا العمل في معالجة القضية الفلسطينية ، وبعد انتهاء الخطب اعلن عن تشكيل «لجنة الاحتجاج بسبب حوادث فلسطين» (د عباس عطية جبار العراق والقضية الفلسطينية» من ٨٨ ٨٩ ١٩٨٣)

(٥) يشير المؤلف بذلك الى الحوادث التي وقعت ضد اليهود في بغداد في اوائل شهر جزيران سنة ١٩٤١ ، بعد فشل ثورة ايار وعودة عبدالاله وزمرته من الوزراء ، الى العاصمة من معسكر الحبانية تحت حراب الانكليز . ولقد كانت تلك الحوادث قد خططت بدقة قبل وقوعها واريد من ورائها اخافة اليهود العراقيين ودفعهم الى الانخراط في الجمعيات الصهيونية التي كثر عددها في العراق آنذاك ، وتشجيعهم على الهجرة سرا الى فلسطين الى ان تم لهم ذلك بصفة رسمية على يد صالح جبر وزير الداخلية في حكومة توفيق السويدي التي اصدرت في سنة ١٩٥٠ قانون اسقاط الجنسية العراقية عن اليهود الراغبين بالسفرا الى فلسطين .

(٦) تولى سعيد بك امارة اليزيديين بعد مقتل والده علي بك في سنة ١٩١٣ ونشأ نشأة ارستقراطية فانغمس في الملذات والملاهي بشكل مفرط ، الامر الذي ادى الى اشمئزاز رؤساء افراد طائفته منه ، وقطعهم الهبات عنه وكان القصد من ذلك المؤتمر اتمام المصالحة بين سعيد بك والخارجين عليه الذين ارادوا عزله عن الامارة ، لكنه مالبث بعد تلك المصالحة واستعادة مكانته ، ان عاد الى مسلكه القديم الى ان مات فيه موتة رجل اعتيادي في احد الفنادق (صديق الدملوجي اليزيدية من ٣٠ طبعة ١٩٤٩)

الناطقون باسمهم ان يزعموا بان المعاهدة البريطانية العراقية التي عقدت في سنة ١٩٢٢ ، والوضع الخاص بتسوية قضية الموصل ، انما كانت لمصلحة الاكراد على نطاق واسع

اصبح متوقعا في سنة ١٩٢٧ التوصل الى شروط غريبة محتملة مع الشيخ محمود بغية استسلامه الى الحكومة لكن الشيخ محمود رفض ، قبل اي شيء آخر ، ان يلتزم بتلك الشروط وقد برهن تصرفه ذاك بانه غدا من الضروري اخراجه من الموضع الذي كان يتحصن فيه في «بنجوين» باستخدام القوات العراقية وقوات المرتزقة سوية ، وقصف مواقعه ، وارسال قوات الاستطلاع من الخيالة بقصد التغلغل الى داخل المناطق التي يسكنها حلفاؤه من عشائر الهماوند

كان انسحاب الشيخ محمود الى داخل الاراضي الايرانية ، قد ازال ، ولو بصفة مؤقتة ، عقبة كأداء كانت تقوم في طريق اقامة حكم منتظم في محافظة السليمانية فلقد اصبح الآن مستطاعا اعادة انشاء مثل ذلك الحكم ، وذلك عن طريق تحسين الطرق ، وبناء مراكز الشرطة ، وجلب «بابا علي» بن الشيخ محمود ، الى بغداد للدخول في المدرسة ومن ثم ارساله للدراسة في كلية «فكتوريا» في الاسكندرية وبعد ان تخرج «علي بابا» ، بعد سنوات ، في جامعة «كولومبيا» الامريكية ، عين وزيرا في الحكومة العراقية وفقا لشروط التسوية مع ابيه

في سنة ١٩٢٧ استولى الشيخ احمد البرزاني ، على مقر الشيخ محمود الذي كان يمثل الزعيم الكردي العابث بالامن ولقد قامت القوات العراقية ، فيما بعد ، بمناورات في اراضي الشيخ احمد ذاته ولكن «بك الديرة» هذا (اي الشيخ احمد) نصف الذكي قد حفزه خلود العظمة ، الى التمرد ، فأخذ الآن يعتبر نفسه واحدا من العظماء.فقد اختلط عقله نتيجة الوعظ الذي كان يلقيه احد الملالي المتدينين . ولكن رد الفعل لذلك الوعظ لدى السامعين الخائفين قد ادى الى وقوع مذبحة ضاعت فيها ارواح كثيرة كانت من بينها روح اخ الشيخ احمد(٧) فلقد اعقب ذلك تدخل الشرطة ، وتعزيز الحامية العسكرية في «بله» على مقربة من ناحية «برزان» ولكن هذا الدين الجديد مالبث ان مات ، غير ان الشيخ الذي ظل يتحدث ويبعث بالرسائل عن الحرب والعصيان الى جميع اولئك الذين كانوا ينصتون اليه ، وينشر الاشاعات عن تدفق الاثوريين الى اراضيه ، كان هذا الشيخ مايزال يعتبر شخصا مثيرا للخواطر.

اخذ رد الفعل الحادث من قبل الاكراد خلال سنة ١٩٢٩ ١٩٣٠ ، يهدد بوقف جلاء البريطانيين عن العراق ولقد اصبح رد الفعل ذاك شاملا فلقد سجلت الانتخابات النيابية التي اجريت في سنة ١٩٢٩ حدوث عمال شغب في مدينة السليمانية كما سبق للنواب الاكراد

---

(٧) المقصود بذلك هو الشيخ صديق البرزاني

في البرلمان ان طرحوا اسئلة عن «الضمان» الذي تقدمه المعاهدة الجديدة من «حقوق المناطق الكردية» تلك الاسئلة التي لم تعط المعاهدة ذاتها اية اجوبة عنها

واذ كان الشيخ محمود يتوقع ان يحظى بالدعم على اساس ذات الادعاءات السابقة ، فانه عمد في شهر ايلول سنة ١٩٣٠ مرة اخرى الى ان يغزو الاراضي العراقية ، على الرغم من الانذارات المحددة التي وجهت اليه بان لايقدم على هذا العمل لكن الشيخ محمود لم يلبث ان منح لنفسه السلطة بنفسه ، وتقدم بطلب الى المندوب السامي البريطاني ، بان تتوحد كل كردستان في ظل الانتداب البريطاني ، وتمتد حدودها من زاخو حتى خانقين . ولم يكتف بذلك وحده ، بل اقدم على احتلال بنجوين مجددا غير ان قوات الجيش العراقي ، بمساعدة من قاصفات القوة الجوية البريطانية ، نجحت في طرده من بنجوين وسردشت ، لكنها لم تستطع طرده الى خارج الحدود الا بعد بضعة اشهر .

استمر نشاط العصابات خلال شتاء سنة ١٩٣٠ - ١٩٣١ ، غير ان الحركة التي قام بها الشيخ محمود في شهر اذار سنة ١٩٣١ لاثارة عشائر كفري وخانقين ، قد تم ايقافها بعملية مركزة من لدن قوات الجيش العراقي ، وقوات الشرطة العراقية ، والقوة الجوية البريطانية فقد استطاعت هذه القوات مجتمعة ان تلتحم مع قوات الشيخ محمود التحاما كبيرا في نقطة «او - ني - باويكا» على بعد عشرين ميلا ، الى الشمال الشرقي من طوز خرماتو وان تهزمه ، مخلفا وراءه عشرين قتيلا ، بعد ان هرب الى داخل الاراضي الايرانية لكنه لم يحصل على ملجأه الاعتيادي هناك بسبب العمل التأديبي الذي قامت به الحكومة الفارسية وفي لقاء جرى في «بنجوين» تم الاتفاق مرة اخرى على شروط الصلح ، حيث اعطيت للشيخ محمود تعهدات بالابقاء على حياته ، وخصصت له منحة مالية ، وتقرر ان يكون محل اقامته الثابت المحدد في مدينة الناصرية [٨]

كان السلام القلق خلال الفترة مابين ١٩٢٨ و ١٩٣١ يسود منطقة برزان ، حيث قام احد المفتشين الاداريين ، بزيارة شيخ برزان [٩] الذي قدمت اليه التحذيرات من قبل الحكومة

---

(٨) سلم الشيخ محمود نفسه الى السلطات العراقية في اليوم الثالث عشر من ايار ١٩٣١ وسمح له اولا بالاقامة في بغداد، ثم نقل منها الى السماوة فالناصرية واخيرا الى عانة وعندما هرب الشيخ محمود في سنة ١٩٢٧ عبر الحدود العراقية الفارسية كان في ذلك الوقت يعيش في قرية «بيران» قرب الحدود لكنه مالبث ان عاد الى داخل الاراضي العراقية في العاشر من ايلول ١٩٣٠، مع جماعة مسلحة من اتباعه فأستقر في منطقة شهر بازار» وراح يحرض الأكراد على العصيان، واذذاك تم انذاره من قبل وزير الداخلية والمندوب السامي البريطاني غير انه لم يرعو عن غيه، وعندئذ ارسلت الحكومة رتلين من الجيش العراقي لقتاله حيث تحرك الرتل الأول الى بنجوين بينما تحرك الرتل الثاني الى «جوارتا» يعاونهما عدد من الأكراد الموالين للحكومة (ملخص عن تاريخ الوزارات العراقية ج ٣ ص ١٣٥ - ١٣٧ ط ١٩٧٤)

(٩) يقصد به الشيخ احمد الذي كان يتزعم حركات التمرد والعصيان والعبث بالأمن في تلك المنطقة في اواخر سني العشرينات واوائل سني الثلاثينات ويجدر بنا في هذه المناسبة ان نذكر ان جد الأسرة المعروفة بالبرزانية نسبة الى ناحية برزان جاء من بلاد =

العراقية غير ان شيخ برزان ، مافتئ ان فقد عقله مجددا في شهر تموز سنة ١٩٣١ ، فارتد عن الدين الاسلامي ، واعتنق المسيحية وطلب الى اتباعه بان يوافقوه على دينه الجديد والذي سمح لهم باكل لحم الخنزير. ولقد اطاعه عدد من الذين كانوا يخافون بطشه ، غير ان جاره الشيخ رشيد البرواري[١٠] قام بوجهه وشن غارات ضده ادت الى شعال نيران الحرب العشائرية.

حاول الملا مصطفى ، شقيق الشيخ احمد ، عبثا تهدئة الامور بين الجارين بالطرق الدبلوماسية على ان الشيخ احمد سرعان ماطلق المسيحية وعاد الى الدين الأسلامي ، واقدم على شن غارات وحشية غير معتادة على اراضي اقليم «برادوست»

في شهر ايلول من تلك السنة صدرت الاوامر الى القوات النظامية ان تتدخل في هذا الامر على الرغم من حلول فصل الشتاء ولقد استطاع فيلق من الجيش العراقي ان ينفذ عبر الجبال فيصل الى القرية التي كان الشيخ احمد يقيم فيها ، لكن الجيش وقع في كمين ، لم يتخلص منه الا بتدخل من القوة الجوية البريطانية ، حيث هوجم الشيخ واتباعه بالقنابل من الطائرات ، وتم حصره في قريته ، واجبر على اطلاق سراح الاسرى الذين احتجزهم لانهم رفضوا الخضوع له ، ومن ثم انسحب من اقليم برادوست ، لكنه بقي متمردا

وفي اوائل ربيع ١٩٣٢ وبعد التحذيرات التي وجهها المندوب السامي البريطاني الى الشيخ احمد وتجاهلها تماما تقدمت القوات العراقية داخل اراضيه ، فاحتلت «مركة سور» وراحت تهدد قرية «برزان» ذاتها ، وبمساندة من القوة الجوية البريطانية ، استطاعت القوات العراقية ان تحتل «برزان» وكثيرا من الاراضي التابعة لها

وبعد توقف حصل نتيجة التفاوض على اطلاق احد الطيارين الأنكليز، وتجربة محاولات اخرى لعقد الوية السلام بشروط سخية، استؤنفت العمليات العسكرية البرية والجوية معا حيث طورد الشيخ احمد في اواسط صيف تلك السنة الى احد الاودية التي حاول منها اجتياز الحدود التركية واذ ذاك تم القاء القبض عليه، ونقله الى خارج الحدود ولقد أصبح مستطاعا انذاك اقامة ادارة اعتيادية او شبه اعتيادية في اقليم برزان وانشاء مراكز للشرطة، وقوات الاستطلاع ومنح العفو الى التعساء من بقايا اتباع الشيخ احمد الذين عادوا الى مواطنهم نادمين.

واذا كانت امثال هذه الاعتصابات الشبيهة بالحروب ذات النمط الاعتيادي في كردستان تحدث منذ الاف السنين، فأن مثل هذا الأمر لايصدق الا قليلا على العمل السياسي الذي اقدم

فارس وتستر على اغراضه بستار «الطريقة النقشبندية» التي انتمى اليها عدد كبير من الاكراد، وكان يدعى «محمد» في حين حاول احفاده الشيخ عبدالسلام والشيخ احمد وملا مصطفى والشيخ صديق السيطرة ليس على الاكراد في المنطقة بل حتى على المسيحيين والاثوريين..

(١٠) هو الشيخ رشيد لولان زعيم عشيرة البرواري والذي كان يسيطر على اقليم برادوست ومن الزعماء الذين قادوا الثورة بوجه السلطات الأنكليزية في سنة ١٩١٩.

زعماء الاكراد على اتخاذه، في شهر تموز سنة ١٩٣٠ تقدم عشرة من اشراف السليمانية بطلب الى مجلس عصبة الأمم في جنيف يطالبون فيه العصبة بأن تقوم بالاشراف على انشاء دولة كردية. ولقد علقت اللجنة الدائمة للانتداب على ذلك الطلب بأن قالت بأن عصبة الأمم لم تشر اطلاقا الى قيام حكومة كردية، وانما كانت قد اقترحت «اجراء معاملة خاصة» ليس الا وعلى هذا الحث اللجنة على الدولة المنتدبة بأن يضمن تطبيق هذه «المعاملة الخاصة» تطبيقا تاما قبل ان يصبح الوقت متأخرا جدا. ارسلت سلسلة من الطلبات الكردية الأخرى الماثلة كتبت خلال سنتي ١٩٣٠ - ١٩٣١، الى عصبة الأمم في سنة ١٩٣١، وقد نجم عن تلك الطلبات تقديم توصية مؤداها ان على بريطانيا ان تضغط على حكومة العراق بضرورة الحاجة الى ان تضمن ولاء رعاياها من الاكراد وأنهم مقابل ذلك سوف يحصلون على احترام عصبة الأمم واهتمامها، بالموقف الصائب الذي تقفه المملكة العراقية.

والواقع ان الحكومة العراقية لم تتأخر لحظة واحدة عن الالتزام بمبدأ استخدام الموظفين من الاكراد الى جانب الفنيين منهم، في المناطق الكردية وتأكيدا لهذا الالتزام اقدمت الحكومة على شن تشريع اللغة الذي جاء لصالح الناطقين باللغة الكردية، وتأسيس مكتب للترجمة، وتعيين مفتش كردي لوزارة التربية في المناطق الشمالية الشرقية من العراق، وتعيين معاون كردي لمدير الداخلية العام ومن ثم الفت الحكومة بعد ذلك لجانا محلية لتقرير لغة التعليم التي ينبغي العمل بها في كل مدرسة، وتحديد نوعية الحروف الأبجدية الكردية المطلوبة، واستبدال الموظفين الذين لا يتكلمون الكردية

ولقد قام الملك والامير غازي، والمندوب السامي البريطاني، والوزراء العراقيون بزيارات متكررة الى المناطق الشمالية، والشمالية الشرقية من العراق، وذلك بقصد ازالة الشكوك، وتوثيق الاتصالات الشخصية وجمع المعلومات المطلوبة التي من شانها ان ترضي لجنة الانتداب التي ماتزال تشعر بالقلق كان مستطاعا في هذه المرحلة ان يتعاظم الامل في هدوء المناطق الكردية من العراق، ولم تكن تلك الامال مستحيلة لكنها انطوت على تفاؤل ليس في محله، ذلك لان حرفة ادارة الدولة، والحنكة السياسية السامية، التي تستطيع ان تحقق كل هذه الغايات، لم تكن موجودة. ومع كل ذلك فباختيار موقف متردد ازاء هذه المطاليب، لم تكن الحكومة العراقية حكيمة دوما فلقد كانت هذه المطاليب، في كثير من الاوقات، مطاليب انفصالية صريحة، لاتتلاءم مع الدولة العراقية بالشكل الذي انشئت به، وتزداد اثارة وهيجانا بالتنافر الروحي الثابت، الذي يشعر به العنصران العربي والكردي[11] ولم يتناقص ذلك التنافر

(١١) لم يكن يوجد اصلا اي تنافر روحي بين العرب والاكراد. فلقد عاش العنصران الاف السنين متآخين متصافين، ولكن بروز الروح القومية في القرن التلسع عشر واوائل القرن العشرين في تركيا، والتي كانت في نظرنا من الادوات الناجحة للسياسة =

بظهور دلائل على المزيد من العطف والموقف السخي الذي وقفه المستشارون البريطانيون تجاه الاكراد اكثر من مواقف رجال الدولة العراقية (١٢)

وبالاضافة الى ذلك كان هنالك خوف قائم من ان تؤدي الامتيازات التي منحت للاكراد ، الى بروز مطاليب مماثلة وبصفة مباشرة تتقدم بها العناصر الشيعية في الفرات الادنى ، تلك العناصر التي بقيت غيرتها وروح الحسد لديها ، تؤلف عاملا كبيرا في القضية العربية الكردية

* * *

ويصدق ذات الشيء ايضا ، على الاقلية الصغيرة جدا ، والغريبة كثيرا ، والتي ماتزال اقل تجانسا فيما بينها ، ونقصد بها ، الاقلية الاثورية ذلك ان اعداداً كبيرة من هؤلاء الاثوريين قد استقرت في سنة ١٩٢٦ ، في الاراضي المتناثرة المحيطة بالقرى الكردية القائمة في محافظة الموصل كان اكمال عملية الاستقرار هذه ، بالاضافة الى اعادة توطين ممن كانوا اقل رضا ، وادخال تحسينات على المستوطنات ، من بين المهمات التي خططت خلال السنوات من ١٩٢٧ الى ١٩٣٠ ولقد ظهر مدى اهتمام المندوب السامي البريطاني بهذا الامر ، في الزيارات التي قام بها لتلك المناطق ، وبالمؤتمرات الكثيرة التي عقدت ، وبدعوة الحكومة الى اظهار ودها الملموس تجاه الاثوريين ، حتى وان كان هؤلاء بموقفهم المراوغ وغير التعاوني قد عملوا نوعا ما على وقف النشاط الذي كان يبذله الراغبون في تحقيق الخير لهم

تم استخدام ضابط متخصص تخصصا جيدا في قضايا الاسكان ، واعداد المزيد من القرى في منطقة «حرير» من قضاء راوندوز لاعادة توطين الاثوريين فيها ، كما تم تقديم الحبوب والنقود الى المترددين من المستوطنين . وفي الوقت ذاته اظهرت الحكومة حسن نواياها تجاه الاثوريين بتشريع اصدرته في شهر اذار ١٩٢٧ يقضي باعفاء المستوطنين ، لمدة مؤقتة ، من الضرائب

وحتى نهاية سنة ١٩٢٥ لم يكن هناك اكثر من بضع مئات من العوائل قد تم توطينها ، ولكن في نهاية سنة ١٩٢٩ لم يبق من هذه العوائل سوى حوالي ثلثمائة عائلة اما مشروع الاستيطان في منطقة «برادوست» فانه لم يتحقق نتيجة النزاع على الاراضي ، بين الاثوريين

=التي استخدمتها الدول الاستعمارية لتحطيم التماسك الاخوي بين المسلمين ، وتمزيق وحدة الاسلام ، كانت تلك النعرات القومية هي التي شجعت العناصر المتطرفة ذات المصالح الخاصة من الاكراد على الاحساس بالنفرة بل وحتى الانفصال عن الشعب العربي ، مما شجع اعمال التمرد والاعتصاب خلال العهد الملكي ومابعده

(١٢) لانوافق المؤلف رأيه على موقف المستشارين البريطانيين من الاكراد فلقد كانت مواقف اولئك المستشارين الانكليز وغيرهم ، وكما ايدت الوقائع دوما ، من العوامل التي شجعت الاكراد وغيرهم من الاقليات الاخرى ، على العصيان وخلق الارباك للحكومة . وسجل بريطانيا حافل ومشهود بالمآسي نتيجة السياسة التي سلكتها ازاء الاقليات في البلدان التي حكمتها سواء في ذلك العراق ام في فلسطين ام مصر ام السودان وغيرها

انفسهم وماكانوا يتمسكون به من ادعاءات ومع كل ذلك فان المستوطنات التي انشئت حول مدينة العمادية ، وفي زاخو ، ودهوك ، وفي السهول القائمة على مقربة من عقرة ، واراضي حرير في قضاء راواندوز ، وفي منطقة الشيخان من الموصل ، قد انجزت درجة طيبة من الاستقرار وبفضل الاعانات المالية وحسن تنظيم الزراعة من قبل القرويين ، وتحسين مواقفهم بصفة عامة ، ازاء الاقطاعيين الاكراد حيث كان نصف الاراضي المملوكة ملكا للاكراد ، والنصف الاخر ملكا للدولة ، غذا رخاؤهم يعتبر جيدا اذا ما قورن مع مستويات الحياة الجارية في المنطقة

كانت علاقات زعماء الاثوريين في هذه الفترة مع الحكومة مرضية وكان المدراء المحليون نافعين ، والعدل قائما كان التفاؤل يبعث على الامل في حدوث المزيد من التمازج لدى هذه الاقلية ، بحيث يمكن الاحتفاظ بها ، بصفة سليمة ، جزءا من هيكل السياسة العراقية ، لا ان تظل عنصرا غريبا محروما او مضطهدا كان اعداد المساكن للاثوريين الذين قاموا قبلا في بلاد فارس وعادوا الى العراق ، وكذلك للذين استوطنوا مهم المدن ، واشتغلوا في الحوانيت والمعامل ، ومؤسسة سكك الحديد ، وشركات النفط ، ومصالح الشرطة والمصالح الاهلية ، من الاجراءات النافعة والمنطوية على المساندة الذاتية

وفي الوقت ذاته استمر الاثوريون الذين انضموا الى قوات المرتزقة حيث لم يبق في هذه القوات سوى الاثوريين بعد سنة ١٩٢٨ الى ان تم انهاء الانتداب، يعملون بنشاط خلال الخدمة الفعالة في كردستان ، ويحصلون على الثناء الرفيع ولقد بدأ تخفيض قوات المرتزقة لصالح الجيش العراقي ، وتم استخدام عدد من الاثوريين ، ولكن من دون ضباطهم، في الجيش العراقي ايضا واذ ذاك بدأت عملية تفكيك قوات المرتزقة ، ونقل مقراتها ومستودعاتها سنة ١٩٢٨ من شمالي الهنيدي ، في الوقت الذي تسلم فيه الجيش العراقي معظم مواقع تلك القوات في المرتفعات الشمالية وفي الفترة مابين سنتي ١٩٢٨ و ١٩٣٢ كانت قوات المرتزقة ماتزال موجودة ، وقد استخدمت مرة اخرى في العمليات التي وجهت ضد الشيخ محمود

على ان هذه القوة قد شهدت احسن ايامها ، حيث تقرر ان تصبح ، بعد سنة ١٩٣٢ مجرد قوة يعهد اليها بحراسة معسكر القوة الجوية البريطانية ، اما الرجال الذين تم تسريحهم من قوات المرتزقة فقد منح كل واحد منهم بندقية وذخيرة لغرض الحماية الشخصية ، في المساكن الجديدة[١٣] التي انشئت لهم

---

(١٣) كانت هذه الحركة من جانب الانكليز هي التي شجعت بعض الاثوريين على القيام بالتمرد الواسع في منطقة الموصل في سنتي ١٩٣٠ ، ١٩٣٣ لان الرجال المسلحين منهم والذين سبق لهم ان تدربوا على القتال ضمن قوات المرتزقة كانوا على رأس المتمردين من الاثوريين الذين انخدعوا باقوال عملاء الاستعمار ووعودهم

وما خلا ذلك لقد كان في مستطاع قوات المرتزقة ان تساهم في تكوين اقتصاديات الاقلية الاثورية ، حيث ابرزت ذكاء ورغبة عجيبتين في استخدام الاساليب البريطانية ، واظهرت تحملا فاخرا وشجاعة فائقتين في حروب الجبال والتي كانت ملائمة لها كل الملائمة ولكن الاخطاء التي وقع فيها الاثوريون تتمثل في الانضباط الذي كان يطغي عليه الانقياد الوحشي ، والذي قد يظهر في الاوقات السيئة ، في صفة انفجار لاعمال النهب ، والتمرد الجماعي ، والاستعداد للخلط بين الام طائفتهم والامور السياسية ، وواجباتهم العسكرية ، والنقص الظاهر في ولائهم للعراق

لقد كان الاحتفاظ بهم في صفة قوات امبراطورية يديرها البريطانيون ، والتناقضات الكثيرة ، وسوء الفهم بينهم وبين الجيش العراقي ، واستخدامهم بصفة متكررة ضد الاكراد ، نقول كانت كل هذه الامور من القضايا التي يؤسف لها حقا

ولقد كان سوء العلاقة بين الاكراد والاثوريين من الامور التي اغرت بعض الساسة في بغداد باستخدام ذلك طريقة يسيرة لاثارة الاضطراب وقد اثمرت هذه الطريقة في وقوع سلسلة من اعمال القتل ، وبعثت الاصوات المعادية للاثوريين بين الاكراد ومع كل ذلك فان الاقلية الاثورية لو تمسكت بالصبر ، وتجنبت اثارة الشغب ، وقبلت بوضعها الجديد في العراق ، ذلك الوضع الذي كان في ذات الوقت افضل من وضع الكلدان والارمن ، لغدا مستقبلها محفوفاً بالسلام حتى وان كان معيبا ، ولتم الحفاظ على طقوسهم الكنسية ، وفرديتهم الاجتماعية ولضمنوا بيوتهم وسعادتهم

ولكن زعماء الاثوريين اختاروا طرقا اخرى ادت الى المأساة ذلك انهم تمسكوا بكل نقطة من قضيتهم المثيرة المعقدة والمتمثلة في ادعائهم بانهم كانوا حلفاء بصفة رسمية في الحرب العالمية الاولى ١٩١٤ — ١٩١٨ ، ولكنهم لم يكافأوا على ذلك ابدا ، وان قواتهم من المرتزقة قد ادت خدمات واسعة وعميقة ، وان هذه القوات في الواقع هي التي انقذت الجزء الجنوبي من كردستان وابقت عليه ، وان عصبة الامم سبق لها في سنة ١٩٢٥ بان اوصت باعادة منحهم «امتيازاتهم القديمة» التي مازالت معترفا بها حتى الان ، وان البريطانيين هم الذين قضوا على آمالهم ، في ان يهتم الاتراك بهم ، باعادة توطينهم في منطقة «حكاري» يضاف الى ذلك ايضا ان البريطانيين قد خانوهم في جنيف

كان ايشاي مارشمعون البالغ من العمر خمسا وعشرين سنة[١٤] ، والذي درس في انكلترا خلال الفترة ١٩٢٥ — ١٩٢٩ ويجهل جهلا تاما الحقائق العراقية ، غير ملائم لان يتزعم الاثوريين ، وان يشغل افكارهم بمفاهيم غير واقعية ذلك لان الرئيس الذي يحكم بين هؤلاء هو الذي يمتلك السلطة الدينية والتي كان يشعر بانها يجب ان تعزى الى زعامة «الملة» التي كانت

---

(١٤) ايشاي و «ايشو» تعني لدى الاثوريين اسم «عيسى»

في الغالب لحكم نفسها ذاتيا في الايام الحالية مهما كانت هذه الزعامة غير مقبول بها ، وغير دستورية في العراق الحديث كان والد ايشاي من اشد المحافظين ، وكانت عمته «سرمة خانم» ، والحماسة التي اصطبغت بها مشاعر الطائفة الان هي الحكم الطاغي لدى الاقلية الاثورية ، بالاضافة الى وجود القساوسة والزعماء الذين خانتهم حكمتهم فسرعوا ينشدون الاغراض الانفصالية بالاضافة الى الحالات المريبة ، كانت كل هذه العوامل ، قد دفعت بالاثوريين الى التمرد حتى ضد بطريركهم ولقد دفعت الحماسة التي نالها من الخارج احد المتنكزين من احفاد «هرمز رسام» مساعد «لايارد»[١٥] وكذلك احد الانكليز المدعو «ماتيوكوب» واللذين اساءا استعمال نفوذهما ، الى تنظيم الاسترحامات من لدن الاثوريين ، مما ادى الى ظهور امال كاذبة خادعة فيما بينهم ، وتعريض العلاقات الاثورية العراقية الى مزيد من المخاطر .

قدم مبعوث المندوب السامي البريطاني في عصبة الامم في شهر تشرين الثاني سنة ١٩٣٠ تاكيدات ، كان يعتقد فيها بانها كانت محقة بشأن مستقبل هذه الاقلية والاقليات الاخرى ومطامحها وفي ذات السنة عكف السر فرنسيس همفريز المندوب السامي البريطاني في العراق ، على دراسة الاسترحامات التي قدمها «هرمز رسام» وتعهد «بمسؤولية بريطانيا الاخلاقية بشأن الموقف الذي ستقفه الحكومة العراقية في المستقبل» وما ان عاد السر فرنسيس همفريز الى العراق ، وجوبه بالحالة التي تردت كثيرا بسبب الاعمال التي قام بها الاثوريون ، حتى عاد واوصى الحكومة العراقية بان تظهر كل مالديها من حسن النوايا ، فتستأنف سياستها في اعفاء الاثوريين من الضرائب ولقد تم تنفيذ هذا الامر وكانت له نتائجه الطيبة

كان من المقرر ان يعقب ذلك الاجراء ، تجديد محاولة المضي في مشروع توطين الاثوريين في برادوست ، وبشروط اكثر جاذبية هذه المرة ذلك المشروع الذي تأجل تنفيذه منذ وقت طويل ، لو لم تنفجر المعارك في منطقة برزان – برادوست وفي شهر تشرين الاول سنة ١٩٣١

---

(١٥) عمل هرمز رسام من عائلة رسام المسيحية المعروفة في الموصل مع الانكليز في اعمال التنقيب عن الاثار في نينوى فترة طويلة ولاسيما مع المنقب الانكليزي (لايارد) الذي اكتشف اهم اثار نينوى ، اما حفيده ويحمل ذات الاسم وهو هرمز رسام فقد كان ضابطا في الجيش الانكليزي في بريطانيا وقد جاء الى العراق في سنة ١٩٣٠ بدعوى انه نسطوري من الموصل ، وقد لحق به ماثيو كوب «احد ضباط البحرية الانكليزية ، فشرع الاثنان يتصلان برؤساء الطوائف المسيحية والاثورية والكردية ويحثانهم على الانفصال عن العراق وحين عاد رسام الى انكلترا في نهاية حزيران ١٩٣٠ بقي «كوب» في العراق فترة اخرى وشارك في تأليف جمعية في لندن باسم لجنة انقاذ الاقليات غير المسلمة في العراق التي اخذت تمطر عصبة الامم ولجنة الانتداب بالاسترحامات والطلبات بتوقيع بعض الزعماء الاثوريين وقد تم اخراج كوب من العراق في نيسان ١٩٣١ على حين ادعى هرمز رسام بانه اصبح هو الناطق باسم الاكراد في لندن ، ويقال انه كان لتوفيق وهبي ، الذي كان محافظا للسليمانية في ذلك الوقت، دخل في هذه الادعاءات التي اخذ هرمز ورسام يدعيها باسم الاكراد

عقد الاثوريون مؤتمرا لهم في الموصل ، حيث قدم المارشمعون مطاليب الى عصبة الامم [١٦] كان من بين ماتضمنته تلك المطاليب ادعاء الاثوريين بانه لما كانت «ملتهم» تستطيع ان تواجه الاوضاع التي ستقوم في العراق بعد انتهاء الانتداب البريطاني عليه ، فانه يجب ان يتم نقل الاثوريين بصفة جماعية الى بعض الاراضي التي تمت السيطرة عليها في الغرب في اي مكان منها او الى سوريا لم تأخذ لجنة الانتداب هذه المطاليب بنظر الاعتبار طيلة ثلاثة عشر شهرا ، الامر الذي اثار فزع الاثوريين فقرروا ان يقوموا من جانبهم بعمل مباشر . كان المارشمعون قد عرض في شهر ايار سنة ١٩٣٢ خطة غير معدة لتجميع كل افراد الطائفة في منطقة دهوك – العمادية في شهر تموز من تلك السنة كذلك هدد الاثوريون المنضمون الى قوات المرتزقة بتخليهم جميعا عن تلك القوات في اليوم الاول من شهر حزيران ، وذلك في مذكرة تهديدية سلموها الى قائدهم اللواء «ج ، غ ، براون» ذلك الشخص الذي كان يدافع دون كلل عن حقوق الاثوريين ، وقد تحول في النهاية الى مؤرخ لقوات المرتزقة [١٧]

ادى تدخل المندوب السامي في الامر الى تأجيل الازمة ، ومع كل ذلك قدم الاثوريون طلبا اخر الى عصبة الامم ، وتكرر التهديد باستقالة الاثوريين بصفة جماعية من قوات المرتزقة ، في حالة عدم الحصول على نتيجة مرضية كان هذا الطلب الجديد يلح على الاعتراف بوجود «ملة» اثورية ، وبالسلطة الدينية والروحية للبطريرك ، وبتعيين ممثل اثوري في البرلمان العراقي ، وانشاء مدارس خاصة بالاثوريين ، وتقديم الاموال الى البطريرك والكنيسة التي يتزعمها ، والحاق اراضي منطقة «حكاري» بالعراق ، او تشكيل محافظة تضم كل الاثوريين القاطنين الى الشمال من الموصل ، مع عدم الاقدام على تنفيذ مشروع استيطان جديد معتبر ، ومنح حقوق واضحة في تلك الاراضي

تخلى الاثوريون في قوات المرتزقة عن اضرابهم ، في الواقع بعد ان وصل فوج من القوات البريطانية محمولا جوا ، وهي عملية قوبلت بالترحاب ، واعتبرت من العمليات الحربية الشهيرة [١٨] استقرت السرايا الاربع لذلك الفوج في المحطات الاربع الرئيسة التي كانت

---

(١٦) كان الاستعماريون قبيل الحرب العالمية الاولى وخلالها وما بعدها يجوبون القرى الشمالية من العراق ، والمناطق التي وطن الاثوريون فيها ، بعد دخولهم اليها من منطقة حكاري ، بصفة مبشرين بالدين المسيحي ،او منقبين عن الاثار ، او دراسة مواطن البشرية ، ووكان الهدف الحقيقي من وراء ذلك كله هو تهيئة اذهان الاقليات المختلفة في تلك المناطق للتمرد وتسميمها بالاوهام والخزافات. وقد كان هذا المؤتمر الذي عقده الاثوريون في الموصل بحجة درس مشروع توطين الاثوريين، من ايحاء اولئك المبشرين وعلى الاخص المبشر الامريكي «ويغرام» الذي تستر على اهدافه الحقيقية تحت ستار التبشير والتنقيب حيث وضع كتابا خطيرا عن العراق سماه «مهد البشرية» وقد ترجمه جرجيس فتح الله ونشرته دار التأخي في اوائل سني السبعينات.

(١٧) وضع «براون» كتابا بعنوان «قوات المرتزقة في العراق» صدر سنة ١٩٣٢ وهو مشحون بالاكاذيب والدس والتحيز الفاضح.

(١٨) فوج نور ثمبتون شاير الذي جيء به جوا من مصر.

تحتشد فيه قوات المرتزقة ولم يلبث المارشمعون ، الذي تأثر بهذه الخطوة ، وبالمبعوث الذي بعث به السر فرنسيس همفريز اليه ، ان وافق على ان يصدر اوامره بان تظل قوات المرتزقة الاثورية قائمة بواجباتها الى ان يتم درس الطلب الذي تقدم به المارشمعون الى عصبة الامم في السابع عشر من شهر حزيران اما قوات المرتزقة الاثورية التي كانت موجودة في معسكر الهنيدي والتي واصلت تمردها فقد قلص عددها ، حيث تم تسريح حوالي مائتين وخمسين نفرا من افرادها وبطلب من المارشمعون نفسه تم تاجيل خفض القوات الاثورية المحرضة في كل مكان ، وحينذاك عاد فوج «نورثمبتون شاير» الى مصر .

وباذعان جزئي للطلبات التي ادرجها المارشمعون في الطلب الذي قدمه الى عصبة الامم ، اقدمت الحكومة العراقية على تأليف لجنة تكون مهمتها البحث عن اراضي اخرى لتوطين الاثوريين فيها ولقد اكتشفت هذه اللجنة اراضي قليلة صالحة للزراعة ومتوفرة ، ولكنها اوصت بان يتم الانفاق على مشروع للري في تلك الاراضي لكي يهيء المزيد من الاراضي الصالحة ولقد قبلت الوزارة القائمة بتقرير اللجنة هذا والذي تم ارساله الى عصبة الامم في جنيف ولقد قام الملك فيصل بزيارة العمادية ، وتحدث طويلا مع المارشمعون ، واستعمل كل الوسائل الممكنة لكسب ثقته ، لكن ذلك البطريرك الشاب العنيد لم يلزم نفسه باي شيء قبل ان يصل جواب عصبة الامم ، ولم يلبث ان غادر العراق الى سويسرا وبعد سفره بعث الاثوريون القاطنون في منطقة «برواري بالا» (داخل الاراضي العراقية) الى عصبة الامم بطلب معاكس لطلب المارشمعون ، يعربون عن كامل رضاهم بالترتيبات الحاضرة

اما المناقشات النهائية التي قامت بها لجنة الانتداب الدائمة ، ومجلس عصبة الامم ، والاستماع الى الشكاوى التي تقدمت بها الطائفة الاثورية ، واستحالة توفير الاستيطان الجماعي الذي طالب به الاثوريون ، فان ذلك كله لم تنجم عنه اية آمال في تحسن الوضع ذلك لان الهوة كانت واسعة جدا ، بين الحكم الذاتي التام الذي طالب به المارشمعون ، وبين المعاملة الحسنة التي كانت الاقلية الاثورية تعامل بها وعلى احسن وجه من لدن الحكومة العراقية وعلى هذا الاساس رفض مجلس عصبة الامم رفضا رسميا مشروع الحكم الذاتي للاثوريين ، ونظر بعين الرضا الى الاقتراح القاضي بتعيين خبير اجنبي في الاستيطان ، والتخلي عن الموضوع ، بكل ما كان ينطوي عليه من شكوك اعطت التبرير للاعمال المؤسية التي وقعت بعد ذلك على الفور .

٥ ـ الحاكمون والمحكومون

في طائفة او اقلية كانت تعيش خلال مرحلة التطور التي يقطعها العراق، كانت الادارة المركزية مهمة وقوية بالنسبة الى مجتمع البلاد، ولذلك بذلت **جهود عظيمة،** وان لم تكن ناجحة، منذ سنة ١٩٢٥ حتى سنة ١٩٣٢ من قبل العناصر العراقية والبريطانية على حد سواء لتحسين هذه الادارة. كان تخفيض عدد الاداريين البريطانيين *، يعد امرا ضروريا، وان كان قد صحبه نقص في الكفاءة والصلاحية، لأنه جزء من السير قدما بالخطوات نحو الاستقلال الاداري في العراق، خلال هذه السنوات التي لم تترك سوى الشيء الضئيل نسبيا من اثار الفترة التي اعقبت الأنتداب.

ففي سنة ١٩٣٢ عهد برئاسة دوائر اخرى الى مدراء عراقيين، كان من بينها دوائر الواردات واملاك الدولة التي كان المؤلف نفسه يرأسها وضريبة الدخل التي كان يديرها سنسبري والأشغال العامة التي كان يرأسها كلاي، وسرعان مالحقت بهذه الدوائر دوائر اخرى منها دائرة الري التي كان يرأسها «الارد» في سنة ١٩٣٣، ودائرة التسجيل العقاري التي كان يرأسها الدرمان الذي توفي في سنة ١٩٣٤، ودائرة الاثار في سنة ١٩٣٤ أيضا.

ولقد حدث تقدم في ارتفاع مستويات الموظفين، وتعاظم الغرض من انشاء المجالس المتلاحقة واللجان، واجراء الامتحانات. وكان العمل الذي ينهض به الوزير في اعادة انتخاب اشخاص الموظفين وانتقائهم، يقوم به الوزير اللاحق له، ولكن يندر ان يتحرر مثل هذا الاجراء من البواعث الشخصية. اما في ميدان العمل لتثبيت المؤسسات والأنظمة كما هو جار في كل النشاطات الحكومية فقد كان عدم الأستمرار الناجم عن التغيير المتلاحق للوزارات، من

(*) هبط عدد المفتشين الاداريين من البريطانيين من اربعة وعشرين مفتشا سنة ١٩٢٣ الى ثمانية عشر مفتشا في سنة ١٩٢٥ واربعة عشر مفتشا في سنة ١٩٣٣ كان عدد الموظفين البريطانيين الذين نشرت اسماؤهم بصفة رسمية في سنة ١٩٢٠، ٢٦٤ موظفا في سنة ١٩٢٣ فهبط العدد الى مائة وواحد وثمانين موظفا في سنة ١٩٢٦ والى مائة وثمانية واربعين في سنة ١٩٢٩، والى مائة وثلاثين موظفاً في سنة ١٩٣٠ والى مائة وثمانية عشر موظفا في سنة ١٩٣١ كان منهم ٣٨ استشاريا و ٨٠ موظفا تنفيذيا. اما بالنسبة الى الموظفين الذين لم تعلن اسماؤهم رسميا في الوقائع العراقية، فقد كان عددهم كما يلي: ٤٨٤ موظفا في سنة ١٩٢٠، ٣٦١ موظفا في سنة ١٩٢٣، ٥٢٠ موظفا في سنة ١٩٢٦، ٣٤ موظفا في سنة ١٩٢٩ و ٢٨ موظفا لنسة ١٩٣١ وكان عدد الموظفين الهنود قد بلغ في سنة ١٩٢٠ مقدار ٢٠٣٥ موظفا فهبط الى ١٢٧٠ في سنة ١٩٢٣ والى ٢٥٠ في سنة ١٩٢٦ **والى ٥٣** موظفا في سنة ١٩٢٩ و ٣٦ مءظفا فى سنة ١٩٣١

العقبات التي كانت تعيق التقدم.

ومع كل ذلك تم انجاز مستوى طيباً في تكوين هيئة الموظفين. ذلك لأنه لم يعد بين هؤلاء المزيد من المحاربين الأتراك السابقين، ولا أحد من الغرباء، وقد تفوق الموظفون بأمانتهم، وحسن نواياهم، وطاقاتهم على كل شيء كان معروفا في ايام الحكم العثماني. واذا لم يكن الفساد غير معروف، فانه يندر أن يكون فاضحا، وكان يتم استنكاره باخلاص، وذلك أمر لم يكن معروفا من قبل. وواصلت المحاكم اعمالها، وان لم تكن خالية من الفضائح العرضية، كما تحظى بالأحترام العام. وكان مستوى القضاء محترما، في حين كان بعض رجال القضاء من العراقيين يتمتعون بمزايا رفيعة، ونظرا ليسر مراجعة المحاكم فقد تعاظم اقبال الناس عليها. ففي سنة ١٩١٩ وحدها استمعت المحاكم المدنية الى ثلاث عشرة الف دعوى، وارتفع هذا العدد الى ست وثلاثين الف دعوى في سنة ١٩٢٩، وبلغ عدد المحامين الذين كانوا يمارسون حرفتهم هذه ثلاثة وسبعين محاميا في سنة ١٩١٩، وارتفع الى ٢مائة وخمسة وستين محاميا سنة ١٩٢٩

تم تشكيل وحدات ادارية جديدة من الأقضية والنواحي، وأخذ بنظر الأعتبار في ذلك مااستلزمته الحاجة من تقسيم هذه الوحدات وتنظيم درجاتها وكانت الأمثلة على ذلك مألوفة في كردستان،وفي منطقة الصحراء الجنوبية فرضت في سنة ١٩٢٨ رقابة جيدة على الحدود هناك وادى التجميع الجديد للدوائر في بغداد الى احداث تغييرات في الوظائف الوزارية، وتسميتها، غير ان الهدف من كل هذه الأمور، وهو حسن ادارة مشاريع الأنماء، والتقدم الاداري في كل ميدان، كان في الواقع يتعرض آنذاك بصفة جزئية، للتوقف نتيجة الانكماش الاقتصادي الذي حدث خلال السنوات ١٩٢٩ - ١٩٣٢

ذلك ان سنوات الفقر والأزمة التي سبقت دخول العراق عصبة الأمم، قد تطلبت الحكمة، والادارة المالية الصارمة، فلقد ادى الهبوط العام في اسعار المنتجات الزراعية الى حدوث نقص شديد في واردات الأراضي، تلك الواردات التي تدنت بشكل خطير بالنسبة الى الكمارك والأيرادات الأخرى.

وفي الوقت ذاته، لم يتناقص الانفاق الضروري، في الوقت الذي فرضت الأعمال العسكرية التي جرت في كردستان، متطلبات استثنائية. لقد كان متوقعا ان يكون الكساد، والتأثيرات الاجتماعية، اكثر حدة لو ان العراق كان من البلدان المصدرة للسلع المصنعة، فبدلا من كل ذلك استمرت منتجات العراق من النفط الخام تحظى بالطلب عليها، ولو بأسعار ادنى. وكان مستطاعا على الأقل الحفاظ على مستوى الخدمات العامة، ومساعدة المتضررين من المزارعين من أصحاب المضخات على العيش والبقاء.

كانت مالية الدولة تخضع لتوجيه قويم، فقد كنا نحن البريطانيين نقوم بوضع الميزانية بكل عناية ونقدم الحسابات الدقيقة، والأجراءات الاقتصادية، التي تتطلب شيئا من الجرأة

البياسية. فعندما ترك «فرنون» منصبه بصفة مستشار لوزارة المالية في سنة ١٩٢٨، خلفه فيها بعد ثلاث سنوات من ذلك التاريخ «سوان» في منصب معاون المستشار، ومن ثم اعقبه «هوغ» الذي جيء به من مصر في سنة ١٩٣١

ولقد تخلينا عن وزارة المالية انا والسيد هيجكوك خلال سنتي ١٩٣٠، ١٩٣١، كذلك تم فصل الأموال المخصصة للأشغال العامة، ومشروع السنوات الخمس، من الميزانية الدارجة، حيث خصص القسم الرئيس من عوائد النفط، والتي تحققت لأول مرة في سنة ١٩٣٢، لهذا الغرض، كذلك تم تأليف مجلس اقتصادي استشاري، وأنشئت غرف التجارة في بغداد والبصرة. وقام السيد «هلتون يونغ» بزيارة استشارية ثانية للعراق في سنة ١٩٣٠، وكان يشغل وظيفة المستشار المالي للعراق سنة ١٩٢٥، اضافة الى خبراء اجانب اخرين، نذكر من بينهم «سينسبري» الخبير في ضريبة الدخل، والذي ساعد في وضع قواعد هذه الضريبة الجديدة بشكلها العصري لأول مرة في سنة ١٩٢٨، لكن ثبت بأنها لم تكن منتجة نسبيا. والواقع ان هذه الضريبة انما كان يدفعها في الأصل، الموظفون والشركات الأجنبية[٥]

حدث تغيير كبير في فرض الضريبة على المنتجات الزراعية في سنة ١٩٣١ فقد كانت هذه الضريبة تقوم على اساس نظام جديد من استيفاء الضريبة في الأسواق اي طريقة المكان الذي يحصل فيه الاستهلاك من دون الحاجة الى تقدير او قياس الحاصلات الزراعية المنتجة. أنشئت دائرة للتفتيش المالي، وبذلت جهود ذكية ومطلقة في سنة ١٩٢٧ لتحرير العراق من عبء حصته من تحمل الديون التركية، حيث بلغت حصة العراق من تلك الديون سبعة ملايين جنيه تركي مضافا اليها مبلغ مليونين وخمسمائة الف جنيه تركي بصفة فوائد متراكمة.

قرر وزير المالية[١] ان يشتري سندات الديون التركية في سوق مفتوحة، وبعد ان سلم هذه الديون الى هيئة الديون واحتسبها بمبلغ مليون ومائتين وثمانية وعشرين الف جنيه استرليني، استطاع ان يدفع البقية القليلة منها بأقساط وبهذه الوسيلة استطاع العراق من كلفة الأموال المخصصة من الواردات الجارية لأطفاء ذلك الدين، ان يدخل الى عصبة الأمم وهو سعيد متحرر من اي عبء مالي يثقل كاهله.

كان انشاء المصرف الوطني الذي كثر النقاش حوله في الغالب مايزال مؤجلا. وكانت الروبية الهندية التي خدمت العراق جيداً خلال خمس عشرة سنة، قد استبدلت في اوائل سنة ١٩٣١، بالعملة العراقية التي تستعمل الدينار (المعادل للباون الاسترليني) والذي ينقسم الى الف فلس. وكان يشرف على موارد هذه العملة، واصدارها مجلس قائم في لندن، وكانت العملة العراقية تعتمد على موجودات الاسترليني. وكان الترحيب المنطوي على الثقة بالعملة العراقية أكثر

---

(١) هو المرحوم ياسين الهاشمي.

اطمئناناً، وذلك لأن العراق لم يكن يعاني موقتا من الافلاسات الناجمة من الكساد وحسب، وانما كان يعاني بصفة حادة من اضطراب ميزانه التجاري ايضا. فلقد حدثت هوة واسعة منظورة بين قيمة الصادرات العراقية وقيمة الواردات الأخرى التي لاغنى عن استيرادها من أمثال الوقود، والمواد المصنعة وبعض الأطعمة.

وكانت الصادرات غير المنظورة، والتي افترض في حينه بأنها سوف تسد تلك الهوة او الثغرة، تتألف من النفقات التي تنفقها القوات البريطانية والبعثات الدبلوماسية والاثرية، والجمعيات الخيرية والمدارس الاجنبية والزوار والرحالين والشركات الأجنبية والأرباح الناجمة عن تجارة المرور الفارسية. وكان التراخي السريع الذي اصاب تجارة المرور هذه، على الرغم من انخفاض رسوم المرور، يمثل مظهراً خطيراً في تلك الايام ذلك لأن القيود التي فرضتها حكومة فارس والمزاحمة الروسية وتحول الطريق الذي تمر به السلع عبر العراق، الى المحمرة وانشاء ميناء بندرشابور الفارسي الجديد، كل هذه العوامل قد ساهمت في التقليل من تجارة المرور التي كانت مربحة على الدوام، والتي ظهر بأن حتمية انقراضها لايمكن تأخيرها الا اذا تم تطوير طريق البحر الابيض المتوسط، عبر الاراضي السورية، وقد كانت هناك دلائل مشجعة في هذا الأتجاه.

استمرت اعمال الصيرفة تمارس من قبل الصيرفيين المحليين[٢] والمصارف البريطانية الثلاثة وهي المصرف العثماني والمصرف الشرقي والمصرف الفارسي الأمبراطوري. كذلك تم الأخذ بالنظام العشري في الأوزان والمقاييس بصفة رسمية ولو ان «الحقة» و «الطغار» و «المن» و«الذراع»[٣] بقيت مستعملة على نطاق واسع خلال العشرين سنة التي تلت ذلك، وسارت مبيعات الجملة والمفرد في ذات المسرى، في الوقت الذي بقيت فيه الشركات البريطانية تحتفظ بالهيمنة على ميدان التجارة الأجنبية، ذلك ان ثلاثين في المائة من مجموع استيرادات العراق، كانت من اصل انكليزي. ومع ان سلطات الأنتداب سواء في هذا الموضوع ام في اية عملية تجارية، لم تطالب بالفائدة على حساب المنافسين الاخرين، الا ان السلع المستوردة، كانت تلاقي من الأقبال على النوعية اقل من رخص السعر. وقد سمح هذا الأمر بظهور منافسة يابانية لأول مرة ، ولاسيما بالنسبة الى المنسوجات الحريرة والقطنية[٤]

---

(٢) كتب المؤلف كلمة «الصراف» باللفظ العربي والحروف الأنكليزية SARRAF

(٣) كتب المؤلف هذه الكلمات باللفظ العربي والحروف الأنكليزية لكنه نسي ان يذكر «الوزنة» و «الكاووج» وهما من اوزان ومكاييل الحاصلات الزراعية التي بقيت شائعة الاستعمال حتى اوائل سني الأربعينات من القرن الحالي.

(٤) نظمت دعاية واسعة من قبل الأنكليز ووكلائهم اليهود في الدرجة الأولى ضد المصنوعات اليابانية على اختلاف انواعها في العراق، فقد كانت هذه المصنوعات اليابانية توصف بأنها غير متقنة وغير قوية حتى صار المثل يضرب بها فحين يريد المرء ان ينتقد مادة او صناعة «ما» يقول «هذا جاياني» اي غير صالح او متين.

كانت المنسوجات الصوفية والسلع الحديدية ترد من بلجيكا، والسيارات من امريكا، والسكر من هولندا، والرز والشاي من الهند، والخشب من اسكندنافيا ورومانيا. اما معظم المواد الباقية وعلى الاخص المنسوجات والمضخات الزراعية والمكائن فكانت ترد من بريطانيا. وكانت صادرات العراق على الدوام تتألف من التمور والقمح، والجلود، والقرون، والصوف، والمصارين، وعرق السوس[5] ولقد حافظت هذه الصادرات على اسعارها الواطئة بشكل مرض خلال فترة الكساد، وادت الاحوال النقدية في اوربا بعد سنة ١٩٣٠، الى تصدير الذهب من العراق، الامر الذي ادى الى انتعاش موقت في اقتصادياته.

وحتى في الايام العسيرة من سنة ١٩٢٩ الى سنة ١٩٣٢، بقيت مشاريع تطوير البلديات والخدمات تتوسع بشكل ثابت. ففي سنة ١٩٢٩ حل قانون جديد للبلديات محل القانون التركي، وتوسعت ايرادات البلديات، وشرعت مئات المدن من كل درجة وحجم، تنشط في تحسين شوارعها وبناء الجسور، وتوفير الحدائق، ومشاريع الماء والكهرباء وبناء دور للموظفين في بعض الاحيان.

وفي المدن الكبيرة بدأت حركة واسعة وسريعة لتطوير الضواحي المحيطة بها راحت تستهلك - الرأسمال الذي كان يستخدم قبلا في تجارة المرور. ذلك لانه قد وضع مخطط لانشاء بغداد الجديدة على الضفة اليمنى من نهر دجلة[6] وتم تعديل وتثبيت امتياز القوة الكهربائية. الذي منح في سنة ١٩١٢، بعد مفاوضات استمرت عدة سنين لصالح شركة بغداد للقوة الكهربية[7] كذلك بدأ العمل بانشاء اماكن جديدة للقوة الكهربية[8] وتم التخلي عن خط الترام، وظهرت فنادق معتبرة في ثلاث مدن وفي كركوك، والحقت بدوائر السكك دور استراحة في المدن الصغيرة.

---

(٥) كانت صادرات العراق خلال سنة ١٩٥٧ على الوجه التالي ٨٦٦/٩٢٣ر٤ دينار من الشعير، و ١٩٩ الف دينار من الحنطة، و ٧٧٥٣٣ دينار من الذرة و ٦٦٩ر٤٥ دينار من الماش، ١٤١ر١٦ من الباقلاء، وماقيمته تسعمائة وثلاثة دنانير من الدخن. كذلك صدر العراق في تلك النسة ذاتها ٢١٠/١٦٩ راس من الغنم (نشرة الاحصائيات التي تصدرها مديرية الكمارك العامة لسنة ١٩٥٧)

(٦) كانت معظم الاراضي التي انشئت بغداد الجديدة عليها ابتداء من سنة ١٩٤٧ ملكا لاسرة «بلبول» اليهودية وقد شارك افراد هذه الاسرة في شراء بعض اسهم الشركة في حين شارك اخرون غيرهم في شراء بقية الاسهم. ولقد هبطت اسهم الشركة هبوطا شديدا بعد الفيضان الذي اجتاح بغداد الجديدة ومعسكر الرشيد سنة ١٩٤٨ واذ ذاك استطاع احد المساهمين وهو الحاج جاسم السامرائي ان يشتري معظم الاسهم من اصحابها الذين اقدموا على بيعها بعد الفيضان، ثم اشترى كل اسهم افراد اسرة بلبول بعد ان تخلوا عن جنسيتهم العراقية وغادروا العراق بعد سنة ١٩٥٠ ولم تلبث الاسهم ان ارتفعت في منتصف الخمسينات ومابعده ارتفاعا مطردا

(٧) تحولت ملكية شركة بغداد للقوة الكهربائية بعد الاحتلال الانكليزي الى شركة انكليزية كان موظفوها من الارمن واليهود في الدرجة الاولى. ولقد كنت اول من طالب بفسخ امتياز هذه الشركة في سنة ١٩٤٩ بمقالين رئيسين نشرتها في جريدتي «العصور» التي اصدرتها في ايار من تلك السنة، ولم تؤمم الشركة المذكورة الا في سنة ١٩٥٦

(٨) يقصد بذلك موقع القوة الكهربية في منطقة الصرافية، وبالقرب من معسكر الرشيد.

وحدث تقدم في فن صنع الطابوق، وطرق انشاء الصناعات، واطرزة البيوت الحديثة، والتجهيزات الداخلية، وموارد الحوانيت ونطاقها، وتجاوز هذا التقدم حدود كل المستويات التي عرفت في العهد العثماني. كثر الاقبال على ارتداء الملابس الاوربية بصفة عامة في المدن الكبرى، وانتشرت هذه الملابس بصفة مهمة الى افراد العشائر لتمديهم. ومع ان الحجاب كان ما يزال موجودا بشكل جماعي بين النساء المسلمات، الا ان نساء الطبقة العليا قد ازداد اقبالهن على ارتداء الملابس الغربية، وانعكست الرغبة في التقدم في تلهف الاغنياء على اقتناء السيارات والحاكيات، واللعب والملذات الاوربية. غير ان انعدام القدرة على دفع اسعار هذه المواد قد زاد من الطلب على النقد بشكل غير محدود.

* * *

ادى الاهتمام الذين اظهره مكتب العمل الدولي بالعمال العراقيين الصناعيين الى بذل جهود متجاوبة لوضع تشريع مناسب لذلك[٩]

غير ان صغر هذه الطبقة العاملة، وفي بلد غير صناعي، جعل المقاييس والمستويات الاوربية غير قابلة للتطبيق ومع ذلك فقد بذرت البذرات الاولى للاهتمام الاجتماعي بقضايا العمال

وبالنسبة الى مجموع افراد الشعب، والمجتمع المدني بصفة خاصة، والذي لايزال يطغى عليه الفقر، وضعف القوة الشرائية، ساهمت خدمات الصحة والتعليم الحكومية، مساهمة قيمة ذلك ان مصالح الصحة اقدمت على تحسين مالديها من المحاجر الطبية وخدمات الحجاج والزوار، وضاعفت من عدد المستوصفات التي انشأتها في الارياف، وادخلت التحسينات على المعاهد الصحية الخاصة، وكافحت وافدة الكوليرا التي حدثت في سنتي ١٩٢٧ و ١٩٣١

ومن الاهمية بمكان ان نشير الى ان عدد المرضى الذين كانوا يراجعون المستشفيات والمستوصفات، كان اقل من سبعمائة وخمسين الف مريض في سنة ١٩٢١، فقفز هذا العدد الى اكثر من ضعفه في سنة ١٩٢٦ ثم الى اربعة اضعافه في سنة ١٩٣٠ وتجاوبا مع صيحات المشترين الاجانب، اتخذت مديرية الصحة اجراءات للنظافة في صناعة التمور وفي سنة ١٩٢٧ تم تأسيس كلية الطب، وكانت هذه الكلية من المدارس الطبية ذات المستويات الجيدة والتي ظفرت بمركز رفيع بين الدراسات المهنية والعالية في العراق[١٠] اما كلية الصيدلة فقد تم انشاؤها

---

(٩) سن قانون العمال في عهد وزارة ياسين الهاشمي وباشرت حكومة الانقلاب بتطبيقه

(١٠) انظر عن موضوع كلية الطب مذكرات الدكتور سندرسن التي ترجمناها وصدرت طبعتها **الثالثة في سنة ١٩٨٥ ص١٢٧** ومابعدها.

منذ سنة ١٩٢٢[١١] وفي خلال هذه المدة شاركت الحكومة في حضور عدد من المؤتمرات الدولية عن الامور الطبية ، وكثير من القضايا الاخرى

ولقد بدت المدارس العراقية في هذه الفترة في نظر المراقبين الاجانب واخرين غيرهم ، بانها لايعوزها شيء من روح التعليم الجيد. وكانت هناك انتقادات موجهة الى تراخي الانضباط ، والتسيب الشخصي ، وعبادة الروحية العصرية المادية كما ان الامور السياسية التي تغلغلت في الكثير جدا من المدارس ، كانت تبرز في صفة عداء شديد للاجانب ، والتشوق الى التظاهر في الشوارع ومع ذلك فان تعاظم نظام التعليم ، وتضاعف التسهيلات امامه ، قد تطلبا الكفاح في سبيل زيادة التخصيصات له في الميزانية ، حيث تم انشاء مفتشية للتربية وشرعت الانظمة الخاصة بها كذلك تم تشكيل مديرية للصحة ضمن وزارة التربية ، تطورت فيما بعد تطورا واسعا[١٢] وشهدت سنة ١٩٣٠ تأسيس اولى المدارس الثانوية الحكومية للبنات

لقد انتهى ، بلا رجعة ، ذلك الزمن الذي كان فيه المسلمون يترددون في تعليم البنات اما بالنسبة الى الفتيان فقد مددت فترة الدراسة الثانوية من اربع الى خمس سنوات ، ثلاث منها للدراسة المتوسطة واثنتان لما هو اعلى. وفي الوقت ذاته تعاظم ارسال الطلبة للتعليم العالي في الخارج.

اما التعليم التقني فقد بقي غير مألوف ، ولم يصل بسرعة كافية الى الهدف الذي كانت الحكومة تتطلع اليه بصفة رئيسة وفي سنة ١٩٢٨ تم تأسيس مدرسة للزراعة بصورة سريعة وغير وافية لكي يعاد تأسيسها فيما بعد وفي سنة ١٩٣٢ وبعد ان ربطت مدرسة الموظفين الصحيين بكلية الطب ، حلت محل مدرسة الصيدلة التي كانت قائمة وبعد سنة من ذلك التأريخ ، افتتحت مدرسة التمريض والتي اضيف اليها قسم الولادة في سنة ١٩٣٦

لم يستمر تدريب المعلمين الريفيين في مرحلة التعليم الابتدائي ولكن ضرورة هذا التدريب الذي الحت عليه البعثة الامريكية التي زارت العراق برئاسة الدكتور «بول مونرو» في سنة ١٩٣٢ ، قد تم الاعتراف بها مؤخرا. كانت الخطة الموقتة التي وضعت سنة ١٩٢٣ للتدريب العالي للمعلمين ، قد توقف العمل بها هي الاخرى بقصد ادخال تعديلات عليها وفي سنة ١٩٣٢ تأسست مدرسة امريكية اخرى في بغداد ، قامت بها الطائفة الجزويتية هذه المرة[١٣] فراحت تقبل الطلاب فيها من مختلف الاديان

---

(١١) كانت تعرف بأسم مدرسة الصيدلة وليس كلية الصيدلة

(١٢) انشئت هذه المدرسة في مزرعة ابي غريب وكانت تقبل خريجي المدارس الأبتدائية في اول الأمر، ثم صارت تقبل خريجي المدارس المتوسطة.

(١٣)هذه هي طائفة اليسوعيين JESUITES وهي جماعة مسيحية اسسها رجل يدعى «لوا بولا» سنة ١٥٢٤ م لمناصرة الكثلكة وقد اعترف بها البابا وكانت تنظم صفوفها تنظيما عسكريا منذ ذلك الوقت، وكانت في مقدمة الجيوش الأوربية التي زحفت على=

بلغ عدد المدارس الثانوية الحكومية في سنة ١٩٣٠ خمس عشرة مدرسة[١٤] والابتدائية زهاء ثلثمائة مدرسة وقد اغلقت جامعة آل البيت الفقيهة ابوابها سنة ١٩٢٩ ، في حين حافظت مدرسة الحقوق ، وهي على شهرتها اقرب الى الجامعة في مهاجها فانتجت عددا من الموظفين المدنيين والمحامين. كذلك انشئت للاثوريين مدارس منفصلة لاتدرس سوى مايتعلق بالدين الاثوري ، في حين بلغ عدد المدارس الكردية في سنة ١٩٣٠ ثلاثين مدرسة من ضمنها مدرسة متوسطة ، ومدرسة ابتدائية واحدة للبنات ولقد تقرر تقديم منح سنوية الى مدارس الاقليات ومدارس بعثات التبشير الاجنبية التي كان مستواها اعلى بصفة عامة من المدارس الحكومية وعلى الاقل بالنسبة الى اللغات الاوربية وفي هذا الوقت كان حوالي ثمان في المائة من كل واردات الدولة يصرف على التعليم وحين استقال ليونيل سمث من مستشارية وزارة التربية في سنة ١٩٣٠ لم يعين مستشار احر مكانه

* * *

كان يحتاج الى مبالغ اكبر من هذه المبالغ لخدمات الامن ذلك لان حوالي الخمس او اكثر من دخل الحكومة ، كان مخصصا للجيش ، وحوالي السدس من ذلك لقوات الشرطة وحين تقلصت قوات المرتزقة الى فوجين في سنة ١٩٢٨ لم تعد هذه القوات تستخدم في العمليات العسكرية الا في نطاق متناقص كما تناقصت القوة الجوية البريطانية من ثمانية اجنحة خلال الفترة ١٩٢٢ - ١٩٢٦ الى اربعة اجنحة في سنة ١٩٣٠ ، حيث لم تعد بعد ذلك التأريخ مهيأة للمشاركة في العمليات العسكرية الداخلية ، لان الاعتماد يجب ان ينصب على قوات الشرطة والجيش العراقي ، ولذلك فلم ترافق تكوين هذه القوات وتحسينها اية الام

برزت القوة الجوية العراقية الى الوجود في سنة ١٩٣٠ بخمس طائرات خفيفة[١٥] اما الجيش العراقي الذي ظلت بريطانيا تمده بالمنح حتى سنة ١٩٣٢ فلقد تطور نتيجة التوجيه الذي كانت تقدمه البعثة العسكرية البريطانية، التي ارتفع عدد ضباطها من ستة ضباط في سنة ١٩٢١ الى ستة واربعين ضابطا في سنة ١٩٣٠، ومن ثم انخفض هذا العدد الى ستة وعشرين ضابطا بعد ذلك التأريخ. وكان الجيش يدرب ضباطه في الكلية العسكرية وفي كلية الاركان، ويقوم

=الشرق في مطلع الغزو الاستعماري الاوربي خلال القرن السادس عشر ومابعدها وقد اشتهروا بالقسوة في معاملة الاقوام غير المسيحية. انظر عن اعمال هذه الطائفة اثناء الاحتلال البرتغالي لمدينة (غوا) في الهند كتابنا «رحلة المشرق» الذي ترجمناه عن رحلة الطبيب الهولندي الشهير راوولف وصدرت طبعته الأولى في سنة ١٩٧٨

(١٤) يدخل ضمن هذا العدد المدارس المتوسطة في حين ان عدد الثانويات انذاك لم يتجاوز ثلاثا لمدن بغداد والبصرة والموصل

(١٥)كان الرف الأول من الطيارين العراقيين الذين تخرجوا في بريطانيا يتألف من محمد علي جواد وموسى علي، وناطق الطائي. ولقد قاد هؤلاء الطيارون طياراتهم من لندن فهبطوا في مطار «يشيل كوي» في اسطنبول في اواسط نيسان ١٩٣١ ونزلوا في ضيافة الحكومة التركية واقام والي اسطنبول مادبة عشاء لهم في فندق بيره بالاس وناجي شوكت: سيرة وذكريات ص (٢٠)

بارسال المراد مختارين الى كلية «ساند هرست» او «كويتا».

كان التجنيد خلال ١٩٢٦ ١٩٣٢ اختياريا، ولكن العدد لم يعد كافيا، في حين كانت اعمال التدريب والصيانة كاملة، والانضباط جيدا. وفي سنة ١٩٣٢ بلغت قوة الجيش العراقي حوالي لوائين. ولسوء الحظ فان العمليات المتواصلة التي اداها الجيش. وكانت موجهة ضد العصاة الاكراد، لم تكن مألوفة لدى القوات العراقية، بل على العكس من ذلك كانت تلك العمليات ملائمة للاعداء من سكنة الجبال التي ولدوا فيها.

اما قوات الشرطة فانها بعنصرها التنفيذي المؤلف من العراقيين وحدهم، مع وجود مفتشية بريطانية، كانت من اكثر الخدمات التي حظيت بالثناء. اما قوات الشرطة التي تطورت للنهوض باغراض محددة في بعض المناطق الخاصة، من امثال قوة الشرطة الخاصة بالصحراء الجنوبية، وشرطة السكك، والحدود، والموانى، التي بلغ تعدادها حوالي ثمانية الاف رجل، فقد تحسنت فروعها الخاصة، وحافظت على مستوى جيد من الامن، وان لم يكن منزها عن الخطأ. في سنة ١٩٢١ بلغ عدد الضباط والعرفاء البريطانيين، والضباط والمفتشين العراقيين العاملين في جهاز الشرطة اثنين وعشرين ضابطا وواحداً وسبعين رئيس عرفاء من البريطانيين، ومفتشين واثنين وتسعين مفوضا من العراقيين. وبعد عشر سنوات من ذلك التأريخ اصبح العدد اثنى عشر ضابطا وخمسة رؤساء عرفاء من البريطانيين وتسعة وخمسين مفتشا ومائتين وتسعة وتسعين مفوضا من العراقيين.

تم تعقيب كثير من الخارجين على القانون، من بيهم عصابتان ظهرت الاولى منها في كربلاء والثانية في جمجمال[١٦] وفي العمليات التي جرت ضد هؤلاء الشقاة، تعاون الاتراك في هذه العمليات عبر الحدود، كما ازداد عدد الطرق التي تسير فيها السيارات، وتحرسها الشرطة بأمان، حيث غدا مستطاعا استخدام وسائط النقل المدني بكفاءة.

ومنذ سنة ١٩٣٠ شرع بتدريب السجناء وتقويمهم حسب الاساليب العصرية تحت اشراف سلطة تنفيذية عراقية، وبذلك ازدهرت صناعات السجون في الوقت الذي اعدت فيه الاصلاحيات الخاصة بالاطفال. وهناك عنصر اخر شارك في تهدئة العشائر بصفة نسبية، هو شق الطرق الى المناطق التي يمكن الوصول اليها قبلا، وازدياد القوات الالية التي كانت الحكومة تستخدمها. ومع كل ذلك فقد حصل تقدم اخر باتجاه الادارة الحكومية المباشرة، فتناقص الاعتماد على شيوخ العشائر. كذلك حدث تغيير في السياسة منذ ايام الاحتلال، وذلك لان الانظمة التي شرعت بشأن حيازة الاسلحة، وان لم تطبق تطبيقا تاما، الاانها عملت الشيء القليل في منع حمل السلاح، ولكن قانون دعاوى العشائر. وان كان قد ساعد على تهدئة

---

(١٦) عصابة محمود الايراني في جمجمال.

المنازعات العشائرية الداخلية قليلا، الا انه لم يحل دون وقوع تلك المنازعات.

ذلك لان التطلع الى فرض التجنيد الاجباري، قد اثار مخاوف ابناء العشائر بالشكل الذي فهموا به هذا الموضوع، في حين ان دائرة احصاء النفوس، وهي ضرورة اولية لاغراض التجنيد الاجباري لم تخاطر بالقيام باعمالها الاولى في المناطق العشائرية.

تعود المكائد والمؤامرات التي يقوم بها رجال الدولة في بغداد بالاتفاق مع رؤساء العشائر للاطباق على الوزارات المنافسة لهم، الى الفترة التي اعقبت سنة ١٩٣٢ غير ان سياسة حزب الاخاء، كانت حتى ماقبل الاستقلال، تسير في ذلك الاتجاه المحفوف بالمخاطر.

ذلك ان المنازعات التي وقعت بين الفلاحين واصحاب الاراضي سنة ١٩٢٨ في منطقة الغراف، لم تكن تحتاج الى مثل هذا التوضيح، ومن امثلة ذلك ايضا التمرد الذي قام به شيخ هور الحمار في نفس تلك السنة والذي ادى ايضا الى معاقبته وهربه[١٧] وكانت الغارات العشائرية عبر الحدود التركية من الامور المحتم وقوعها، ولكن كان يستطاع حصرها بصفة محلية. ذلك ان العشائر الكردية، والقرويين المسيحيين الذين هاجروا من تركيا سنة١٩٢٦، قد تم توطينهم في العراق دون حدوث اية مصيبة. كما تمت هجرة اخرى في سنة ١٩٢٨ لم يسبق لها مثيل قبلا، قامت بها عشائر كفري والحويجة الى داخل الحدود الفارسية حول مندلي بحثا عن المراعي، وقد تمت بكل هدوء وبدون اراقة للدماء.

وبعد ثلاث سنوات من ذلك الوقت حدث الاضراب الخطير في الاسواق، والذي قيل ان حزب الاخاء الوطني هو الذي شجع عليه[١٨] ذلك الاضراب الذي لو نجح لادى الى فتح ابواب مدن الفرات، امام غارات العشائر عليها. كما ان كثيرين من شيوخ العشائر كانوا يشعرون او يأملون بان زوال النفوذ البريطاني، سوف يؤدي الى حرية اوسع امامهم مما كانت عليه ايام الحكم التركي.

وبفضل الامن النسبي في الارياف استطاعت اعمال التنقيب عن الاثار ان تمضي قدما مثلما كان عليه الوضع في كثير من المناطق العشائرية. فلقد استطاعت مديرية الاثار بالمتحف المحسن الذي انشأته، ان تؤلف مجموعة من الكنوز التي اكتشفتها في التربة العراقية، والتي كانت من بين اجمل ماعرفه العالم عن التأريخ السومري، والبابلي، والاشوري. وقد ازداد هذا النشاط بالجهد المكرس الذي تعقبه بسلام، وان كان في وسط فهم شامل وشهير لحملات التنقيب المعروفة في «اور» قرب الناصرية وفي «كيش» قرب الحلة، وخرسباد، وقوينجق، ونينوى قرب الموصل، وفي «تركلان» عند كركوك، وطيسفون جنوبي بغداد، والوركاء، ولكش، وتللو و«تل بله» في

---

(١٧) المقصود بشيخ الحمار هنا «الشيخ سالم الخيون رئيس عشيرة بني اسد».

(١٨) اشارة الى الاضراب ضد قانون رسوم البلديات الذي وقع في شهر تموز سنة ١٩٣١ والذي مرت الاشارة اليه قبلا.

(١٩) اخطأ المؤلف في اسم الموقع فسماه «تل بيلي» والصواب هو «تل بله».

اواسط العراق وفي سامراء والقسم الادنى من ديالى. فهذه التنقيبات الكثيرة كانت مدار عمل الجماعات البريطانية، والامريكية، والالمانية والفرنسية، وكذلك الهيئات العلمية الممثلة محليا بالباحثين من اصحاب الشهرة العالمية، والتي عززتها مديرية الاثار.

وعلى حدة من قيمة هذه النشاطات بالنسبة الى الدراسة العلمية الاختصاصية واغنائها بالمقتنيات العراقية، فان بعثات التنقيب، قد رفعت من قدر العراق، وذلك بما جناه، بصفة مباشرة من حسن النية، وتنقلات السواح. ولقد بذلت جهود لاثارة اهتمام الحكومة في وقف التنقل المحظور بين المناطق الاثرية، وسرقة الاثار، وهي مهمة لم تكن تؤيدها الصحافة الوطنية التي كانت تتحدث باستنكار عن استغلال المواقع الاثرية في العراق من قبل الشركات الاجنبية. كما تم تأسيس مدرسة بريطانية للاثار في العراق في سنة ١٩٢٩، بمثابة ذكرى للمس غرترود بل [٢١]

(٢٠) انشأ هذه المدرسة المنقب الانكليزي الشهير البروفسور «ملوان» وقد امضى ملوان سنوات عديدة ينقب في انقاض مدينة «نمرود» التي تقع جنوبي نينوى. وقد نشر نتائج بحوثه واكتشافاته في كتاب ضخم يقع في جزئين بعنوان «نمرود وبقاياها» وقد بقيت هذه المدرسة الانكليزية للاثار نشطة طيلة سنين عديدة وتولى رئاستها ملوان نفسه خلال الفترة ١٩٤٧ - ١٩٦١ وكان ملوان قد نقب في نينوى اول الامر في سنة ١٩٢١ وكانت ترافقه في عمله ذاك زوجته «اغاتا كريستي» صاحبة المؤلفات القصصية الشهيرة عن الحوادث الغامضة والتي بلغت سبعا وسبعين قصة.

٦ ـ المواصلات والتنمية

تطور طريق بغداد – دمشق الصحراوي لسير وسائل النقل الالية، تطورا وطيدا خلال السنوات الاخيرة من القرن التاسع عشر وسني العشرنيات من القرن الحالي. ذلك ان شركة «نيرن» الشرقية التي توحدت سنة ١٩٢٥، ظلت تمارس نشاطها حتى ظهور اوائل المنافسين لها واخفاقهم في تلك المنافسة، وقد حسنت «نيرن» من خدماتها، وطورت، بصفة خاصة، السيارات التي كانت تستعملها. ولقد دشن الملك فيصل في سنة ١٩٢٧، السيارات العملاقة ذات العجلات الست التي اخذت الشركة تستعملها. ولقد اقيم وسط الصحراء قرب «الرطبة» حصن، ودار استراحة، ومركز للشرطة، ومحطة للاسلكي في نفس تلك السنة.

وفي مناسبة واحدة او مناسبتين لا اكثر، وفي سنة ١٩٢٨ على وجه التخصيص، اعترض المغيرون من البدو طرق نقليات الصحراء. ولقد كان التطور الذي اصاب الطرق ملحوظا، وذلك بالنظر الى اتساع الطلب على استعمال وسائط النقل في الطرق، حيث ارتفع عدد السيارات من بضع عشرات الى ثلاثة وخمسمائة سيارة خاصة، والف سيارة لنقل السلع في سنة ١٩٣٠

على ان نوعية الطرق لم تتحسن بالنسبة الى طولها، على الرغم من الزيادة التي طرأت في شق الطرق بواسطة الاليات، فهذه الطرق لم تكن تؤلف سوى مسافات قصيرة منها في اول الامر، كان يجري تبليطها وتعبيدها، ففي سنة ١٩٣٠ لم يكن يوجد اكثر من مائة وسبعين ميلا تم تحسينها من مجموع اربعة الاف وخمسمائة ميل. ولقد اقيمت عدة جسور فوق سكك الحديد لعبور وسائل النقل عليها، وامتدت الطرق القابلة للمرور حتى الى التلال الكردية.

اقيم جسر فولاذي طوله تسعمائة قدم فوق نهر الفرات عند الفلوجة تعهدت بانشائه شركة «بلفور بيتي» البريطانية، وبعد فترة توقف بسبب الفيضان، اعقبها توقف اخر نتيجة حدوث قضية قانونية بشأن التعهد. وقد كمل بناء الجسر في سنة ١٩٣٢ [١]

كذلك تم التخطيط لاقامة جسور حديدية ثابتة فوق نهر دجلة في كل من بغداد والموصل حيث شرع في سنة ١٩٣٢ ببناء جسر الموصل، كما بدئ في سنة ١٩٢٧ بتنفيذ مشروع مهم لانشاء احد الطرق، وبعد توقف، نتيجة اعمال هندسية ملموسة، كمل بناء هذا الطريق بعد

---

(١) الصواب ان الجسر قد كمل في اوائل سنة ١٩٣٢ وقد تم افتتاحه من قبل فيصل في اليوم الخامس من نيسان من تلك السنة. وفي اوائل الستينات تم انشاء جسر جديد ثابت اضخم واكثر سعة يقع الى الجنوب من الجسر القديم.

خمس سنوات، لكي يربط نظام طرق العراق بين اربيل ونظام طرق اذربيجان الذي ينتهي في «تبريز».وبوشر بتجربة القسم العراقي من هذا «الطريق، بحمولات تجريبية وذلك في سنة ١٩٣١، مرورا بمضيق راوندوز الشهير[٢] في حين كمل القسم الفارسي عند شواطئ بحيرة اورميا. وكانت قوة هذا الطريق في تغيير تجارة تبريز، من «باطوم» او «طربزون» الى بغداد، مشكوكا فيها. وشهد خاتمة هذه الفترة استعمالا متزايدا للطريق المباشر بين بغداد وعمان، واول تجربة لتطوير طريق الحج بين النجف والمدينة المنورة.

لم تستطع البواخر التي تستخدمها شركة لنج والمنافسون المحليون لها، ان تصمد في منافستها للطرق البرية، والجوية، وسكك الحديد. ولهذا لم يعد امام شركة لنج سوى نطاق ضيق لتطور اعمالها، ولذلك باعت السفينتين المجربتين لديهـا، وهما بلوس لنج، وبغداد، في صفة انقاض، في سنة ١٩٢٧، مضافا اليهما السفينة «مجيدية» التي بيعت في سنة ١٩٢٨ ايضا. كانت هناك سفينتان اخريان كانت تمتلكهما القوة الجوية البريطانية، هما السفينتان س ١٦ و س ١٤، اللتين حصلت عليهما شركة لنج فاعيد تسميتهما باسم «بلوس لنج»، و«مجيدية» ومن ثم ضمت اليهما السفينة دجلة في ذات السنة في حين توقف السفينة «زبيدة» عن العمل بعد سنة ١٩٢٩

وفي ميناء البصرة كانت الاعمال التي جرت لكري جرف الفاو بصفة مؤقتة في سنة ١٩٢٦، قد انجزت مرة اخرى خلال السنوات ١٩٢٨ - ١٩٣٠، وكان من نتائج كري هذه القناة ان ارتفعت المياه في مسارات السفن الى ثلاثين قدما اثناء المد العالي، بدلا من ثمانية عشر قدما «اذا ما قورن ذلك بعشرين قدما في سنة ١٩٢٠»وبذلك اصبحت الحركة فوق الجرف الداخلي للفاو اكثر يسرا.

كان مجموع ادوات النقل في ميناء البصرة، يتألف كما كان قبلا، من ناقلات النفط التي كانت تتجه نحو «عبادان» وتخرج منها. ولكن شط العرب لم يكن يستعمل بصفة منتظمة الا من قبل شركة خطوط ستريك وشركة الخطوط الهندية والبريطانية، وغيرهما من الشركات البريطانية الاخرى، بالاضافة الى شركة خطوط «هانس» الالمانية، واحدى السفن التابعة للاتحاد السوفياتي، او السويد، التي كانت تمخر النهر مصادفة.

كانت مقرات الميناء تعتبر من اهم المباني القائمة في العراق. وتم تسديد القرض الذي اقترضته ادارة الميناء من شركة النفط الانكليزية الفارسية والبالغ اربعمائة وستين الف باون استرليني لاستخدامه في اعمال الكري، في الوقت ذاته تم الاستمرار على احلال العراقيين محل الموظفين البريطانيين والهنود في الميناء. وبعد ان ضم الميناء الى وزارة المالية، اصبح مديره العقيد «وورد» يشعر بالرخاء بصفة اعتيادية، وذلك بعد ان تأثرت موارد الميناء تأثرا سيئا بالكساد الذي حدث خلال السنوات ١٩٢٩ - ١٩٣٢، ولذلك استمرت ادارة الميناء تدفع الى بريطانيا، القسط

(٢) هو المضيق المعروف باسم «كلي علي» وكلمة «كلي» بالكاف المعجمة - تعني مضيق باللغة الكردية

السنوي، الذي تم تحديده سنة ١٩٢٢، بمثابة نفقات لتملك العراق للميناء، ولكن انشاء مجلس لادارة الميناء كان يجري التطلع اليه فيما بعد، وان ما اشترط بشأنه، في معاهدة سنة ١٩٣٠، لم يتحقق، مع كل ذلك.[٣]

لم يكن تاريخ سكك الحديد العراقية في هذه الفترة ينطوي على اية احداث ذلك لان وضع السكك بين ملكية بريطانيا وادارة الحكومة العراقية، تحت امرة «تينشو» كان مشوبا بالاضطراب، ولكنه كان محتملا من الناحية العملية. ذلك لان تحويل ملكية السكك الى مؤسسة يشترك في عضويتها البريطانيون والعراقيون، مثلما عليه الامر بالنسبة الى ميناء البصرة، قد تم اشتراطه في معاهدة سنة ١٩٣٠ ولقد تعرضت خدمة سبعمائة وخمسين ميلا من خطوط سكك الحديد، وصيانتها الى التعويق، بسبب فرض التشديدات المالية والتي تعود بصفة اعتيادية الى منافسة الطرق البرية لها، وعدم التأكد من امكانية نقل الحجاج، والعقبات الشاذة التي كانت تسببها الفيضانات من امثال ما حدث في سنتي ١٩٢٦ و ١٩٣٠ وكذلك بسبب تدني التجارة خلال الفترة ١٩٢٩ – ١٩٣٢

اعقب ذلك مد خطين اخرين من خطوط سكك كانت لها اهميتها الدولية، اولهما هو العمل الذي بوشر به في سنة ١٩٣٠ بشق طريق تسلكه السيارات من كركوك الى محطة السكك الحديدية التركية في نصيبين والذي من شأنه ان ييسر الاتصالات المباشرة بين البصرة واوربا. اما الخط الثاني فهو القيام في سنتي ١٩٣٠ – ١٩٣١ بمسح لانشاء سكة حديد بين بغداد وحيفا، وهو مشروع نال التأييد الشامل، ولكنه لم يتحقق حتى بعد عشرين سنة من ذلك التاريخ[٤]

كان من حسن حظ العراق، انه كان واحدا من بين اكثر الامم المعاصرة التي حققت تطورا سريعا في استعمال خطوطها الجوية. في اوائل سنة ١٩٢٧ دشنت اول مصلحة جوية لنقل البريد اسبوعيا بين بغداد والبصرة، وبين بغداد والقاهرة، ومن ثم اعقبتها بعد سنتين من ذلك التاريخ مصلحة نقل البريد جوا بين انكلترا والعراق والهند كانت تقوم بها مؤسسة الخطوط الجوية الامبراطورية الانكليزية.

وفي سنة ١٩٢٧ ذاتها، اقدمت القوة الجوية البريطانية على انشاء اول مطار مدني باشرت بانشائه شركة «يونكرز» الالمانية، لكن هذه المؤسسة اخفقت في التصدي لمؤسسة

---

(٣) استطاعت ادارة الميناء ان تسدد القرض الذي اقترضته من الحكومة البريطانية وقد اعيدت ادارة الميناء الى العراق في اعقاب سنة ١٩٥٤ وتألف مجلس ادارة له من العراقيين بعد ذلك التاريخ ثم تقرر ان يكون مدير الميناء برتبة وزير ولهذا عين عدد من الوزراء في العهد الملكي، مدراء للميناء، كان من بينهم سعيد القزاز ومظفر احمد وسامي فتاح قائد القوة الجوية العراقية.

(٤) كان وقوع الحرب في فلسطين في سنة ١٩٤٨ وقيام دولة اسرائيل في اعقابها مباشرة وقبل وصول القوات العربية الى فلسطين بعدة ايام، ووقوع حيفا في ايدي الصهاينة من الاسباب الرئيسة التي ارغمت العراق على التخلي عن تنفيذ ذلك المشروع الذي لم تقم له قائمة بعد. ويجري العمل الان في مد خط حديدي جديد من كركوك الى حديثة بعد ان كمل مد خط اخر من البصرة الى منطقة عكاشات وربما يوصل هذا الخط الى الاردن في المستقبل.

بغداد طهران. وسرعان ما ظهرت بعد ذلك اولى طائرات خطوط الاتحاد الجوي الفرنسي او «اير فرانس» وكذلك طائرات الخطوط الهولندية الملكية «ك ل م».كان الوضع المركزي للعراق بالنسبة الى المواصلات الجوية، وهو ما عرف في تلك الايام باسم دور مفرق «كلافام» الذي اكده المستر تشرتشل في سنة ١٩٢١، قد كشف بسرعة عن حقيقته. ولذلك بوشر على الفور ببناء مطار عصري خارج بغداد مباشرة في سنة ١٩٣١ فكمل بناؤه بعد سنتين من ذلك التاريخ[٥] ولهذا شرع منذ ذلك الوقت باستخدام اماكن لهبوط الطائرات في البصرة، وفي اور وفي الرطبة، وفي كل مكان اخر.

كان التأثير الذي احدثه فتح الطريق عبر الصحراء عميقا في ازدياد خدمات النقل الجوي للبريد بين الشرق والغرب. وتم استخدام الطريقين حال اعدادهما لنقل الرسائل، في الوقت الذي تم فيه استعمال الطريق البري لنقل الرزم ايضا، في حين شهدت المواصلات مع اوربا والهند ما يشبه الثورة. ففي سنة ١٩٢٩ انضم العراق الى الاتحاد البريدي العالمي. ونظرا للسرعة التي تم بها انشاء خطوط البرق، ووضع نواة للهاتف داخل القطر، اخذ العراق يضاعف من استعمال اللاسلكي. ذلك انه سبق لمحطة اللاسلكي في البصرة. ان اخذت تتصل بصفة مباشرة، مع اوربا. اما محطات اللاسلكي التي انشئت في الرطبة وفي بغداد فقد كانت مساعدة لمحطة البصرة ذاتها.

لم تستطع الحكومة تنيمة واستغلال بعض موارد البلاد القديمة او الجديدة. فلم يتم تعيين الاماكن التي توجد المعادن فيها ماعدا النفط. ومع انه تم منح امتياز للبحث عن الذهب في منخفض «قعرة» وسط الصحراء على مقربة من الرطبة[٦] الا ان ذلك لم يؤد الى الكشف عن الذهب هناك.

كذلك لم تجر اية تنمية صناعية ايضا، وان كانت هذه التنمية يجري ذكرها ويخصص لها مكانها في منهاج كل وزارة من الوزارات التي كانت تتألف.، وفي سنة ١٩٢٩ تم تشجيع ذلك بالاقدام على وضع تشريع لصالح هذا المشروع.

كان كل ما يعوز العراق هو الرأسمال العراقي، والمواد المعدنية الخام القابلة للاستغلال، والطبقة الماهرة من الصناع، وقوة الشراء المحلية. ولم يبرز المعرض الصناعي الذي اقامته الحكومة

---

(٥) عرف هذا المطار بالمطار المدني اول الامر ثم سمي بمطار المثنى بعد ثورة تموز ١٩٥٨ واخيرا اقتلع من اساسه وجرى توسيعه وتحويله الى مطار حديث اكثر سعة وتنظيما حتى من المطار الدولي، وذلك في سنة ١٩٨٠

(٦) ورد لهذا المنخفض ذكر في كتاب «البادية» للسيد عبد الجبار الراوي، الذي ذكر في الصفحة العاشرة من الطبعة الاولى من كتابه ذلك بقوله «واعتقد ان معدني الذهب والفضة قد وجد اثرهما في منطقة «القعرة» والسيد الراوي خبير بشؤون تلك المنطقة لانه سبق له ان تولى منصب مديرية شرطة البادية في سنة ١٩٣٠

بغداد «سنة ١٩٣٢ سوى الشيء الضئيل من ذلك[٧] ولكن حدث تطور محلي في القوة الكهربية. وفي صناعة الطابوق الميكانيكي، ولم يظهر الا بصفة بطيئة، سوى محلجين للاقطان احدهما بريطاني والاخر عراقي، كما انشئ مصنعان للصوف كان يعالجان الاصواف المحلية الغريبة في الوقت الذي حولت فيه معامل السكائر الصغيرة اذواق المدخنين، كما نجحت صناعة الصابون والدباغة بشكل متباين.

كان انشاء مصنع للسمنت من الاعمال التي تم التخطيط لها منذ زمن بعيد. وفي سنة ١٩٣٢ منح امتياز في هذا المضمار الى ياسين الهاشمي وشركائه. ولغرض الاستفادة من المنتجات العراقية الفائضة. وضعت الخطط لانشاء مصنع للاحذية، ومعمل لتعليب الفواكه، واخر لصنع السكر من التمور، ولكن مجموع هذه المعامل لم يستطع ان يحل سوى الضئيل من المشاكل التي كان القطر يعاني منها.

اما بالنسبة الى صناعة النفط فان الامر كان على خلاف ذلك. فمع ان تصدير النفط لم يبدأ الا في اواخر سنة ١٩٣٤، الا انه كان قد تقرر منذ سنة ١٩٢٧، بان العراق كان يهم بان يحتل مكانته بين بلدان العالم الكبرى في النفط. دشنت حملة حفر الابار التي باشرت بها شركة النفط التركية «الاسم القديم لشركة النفط العراقية) من قبل الملك فيصل في الاحتفال الذي اقيم بهذه المناسبة في شهر نيسان من تلك السنة، وكانت مكافأة هذا التدشين مبكرة، عندما انفجر النفط، وبوفرة استثنائية، في «بابا غرغر» القريب من كركوك في اليوم السابع من شهر تشرين الأول سنة ١٩٢٧[٨]

وفي الوقت الذي كان فيه حفر الابار يسير قدما في كثير من الاماكن وبنجاحات مختلفة، تم التأكد من ابعاد مقر كركوك وادارته، وذلك عن طريق الاختبارات التي دللت بانه كان حقلا للنفط من درجة عالية، مهما برهنت على ذلك الحقول الاخرى التي يمتلكها العراق.

خصصت السنوات الاربع التي اعقبت ذلك، لغرض تهيئة حقل كركوك للانتاج من ناحية، وذلك بالاستمرار في حفر الابار، وممارسة المراقبة العلمية، وتوفير الخدمات الضرورية من امثال المنشآت الانتاجية، وبناء احواض النفط، والمصانع، والمساكن، واعمال التسلية، ومن ناحية اخرى للتفاوض مع الحكومة العراقية بشأن تمديد الفترة المسموح بها لشراء النفط طبقا

---

(٧) عرف هذا المعرض رسميا باسم المعرض الصناعي الزراعي العراقي واقيم في شهر نيسان ١٩٣٢ في البناية التي اشغلتها قبلا وزارة الخارجية والتي كانت تشغلها مديرية اسالة الماء بجانب ما كانت تعرف باسم حديقة المعرض في باب المعظم وكان المطرب محمد عبد الوهاب من بين الذي غنوا في حفلة افتتاح المعرض التي حضرها فيصل نفسه قصيدة الشاعر الكبير احمد شوقي التي نظمها بهذه المناسبة «يا شراعا وراء دجلة يجري».

(٨) يقع موقع «بابا غرغر» شمالي كركوك مباشرة في منطقة تعرف باسم «عرفة» وهو تحريف لاسم «ارابخا» المستوطنة القديمة التي قامت في كركوك في العهد الاشوري. (انظر كتابنا «العراق القديم» الذي ترجمناه عن علماء الاثار السوفيت ونشرته وزارة الثقافة والاعلام في سنة ١٩٧٦ وصدرت طبعته الثانية في سنة ١٩٨٦

للاتفاق المعقود في سنة ١٩٢٥، ذلك لان الكثير من الاراضي في شمال العراق لا يمكن الوصول اليها للبحث عن النفط فيها، او تعديل ذلك الاتفاق، لانه عدا لامناص منه.

انتهت هذه المفاوضات بالاتفاق في شهر اذار سنة ١٩٣١ ووفقا له تنازلت «شركة النفط العراقية» التي عرفت بهذا الاسم في سنة ١٩٢٩، عن كل الاراضي التي تقع غربي نهر دجلة والى الجنوب من خط العرض ٣٣ ولكن ضمن المنطقة المخصصة التي كانت تشمل القسم الشمالي الشرقي من العراق. كانت الشركة تستطيع ان تستثمر ليس قطع الاراضي المختارة حسب، بل المنطقة كلها برمتها.

وعدت الشركة بان تباشر في سنة ١٩٣٥ ببناء خط للانابيب الى شاطئ البحر الابيض المتوسط بطاقة تبلغ ثلاثة ملايين طن على الاقل، [٩] وان يتفرع هذا الخط عند نهر الفرات الى كل من حيفا وطرابلس [١٠]، وان تدفع مبالغ سنوية حددت باربعة الاف باون استرليني ذهب، الى الحكومة العراقية في كل سنة اثناء عمليات الانتاج والحصول على العوائد وما ان تمت مصادقة البرلمان العراقي على هذا الاتفاق الذي كلف استقالة احدى الوزارات [١١] حتى اصبحت الشركة قادرة على وضع الخطط والمباشرة بتنفيذ خط انابيبها المزدوج عبر الصحراء، وانشاء محطات الضخ اللازمة له وسط الصحراء. وذلك عمل تطلب مضاعفة اقصى ما لديها من جهود، وعاملين، ومالية، طيلة السنوات الثلاث التي تلت ذلك. كان انشاء هذا الخط، والاستمرار في عمليات حقول النفط في كركوك، يؤلفان اهم المشاريع التي استطاعت قوة بشرية ان تنهض بها في تاريخ العراق الطويل، ويمكن لهذا العمل ان يصبح من اهم المشاريع النافعة لخزينة العراق والجماهير.

كمل بنيان شركة النفط العراقية في سنة ١٩٢٩ عندما قبلت بصفة محددة ان تضم الى صفوفها حملة الاسهم الامريكيين المساهمين في شركة «تنمية الشرق الادنى» وعلى اثر ذلك نقل مقر الشركة من «طوز خرماتو» الى كركوك في سنة ١٩٣١ في حين اقيم المركز الخاص بمد خط الانابيب في ميناء حيفا.

كانت المدفوعات السنوية التي تتلقى تركيا عشرة منها طبقا لمعاهدة سنة ١٩٢٦، تتم بالجنيهات الاسترلينية في مصرف انكلترا في لندن، وبسعر تحويل يقوم بين الذهب والجنيه الاسترليني وكانت

---

(٩) بدأ العمل بمد هذا الخط وهو من قطر ١٢ بوصة في اوائل ١٩٣١ من كركوك التي رمز لها بالحرف ك ١ فعبر نهر دجلة في «الفتحة» الى بيجى التي اقيمت فيها المحطة الثانية التي عرفت باسم ك ٢ ومن هناك اخذ سبيله الى حديثة التي سميت محطتها باسم ك ٣ ليعبر الفرات الى الاراضي السورية والاردنية

(١٠) يبدأ الخط في محطة حديثة ك ٣ بالتفرع الى فرعين احدهما يتجه الى الاردن فاراضي فلسطين ينتهي في ميناء حيفا وقد اقيمت على هذا الخط اربع محطات للضخ عرفت باسم محطة هـ ١ (اي ح) ١، و ح ٢ و ح ٣ و ح ٤ اما الفرع الثاني فيصل الى ميناء طرابلس في لبنان واقيمت عليه ثلاث محطات للضخ هي تي ١ (اي ط ١) و ط ٢ و ط ٣.

(١١) هي وزارة ياسين الهاشمي ولكن الاستقالة لم تكن بسبب امتياز النفط ابدا.

المنطقة الشمالية الغربية من العراق، والتي تخلت عنها شركة النفط العراقية سنة ١٩٣١، قد تم تخصيصها في السنة التالية من قبل الحكومة العراقية الى شركة تنمية النفط البريطانية وهي شركة بريطانية تضم اسهما اجنبية ملموسة لحملة الاسهم من الايطاليين والالمان وغيرهم[١٢]

ولقد حاولت هذه الشركة عبثاً، ان تحصل على قطع من الاراضي التي كانت تحت امتياز شركة النفط العراقية منذ سنة ١٩٢٥ ولقد احتجت هذه الشركة لدى عصبة الامم في سنة ١٩٢٩ ضد ابعادها عن تلك الاراضي،وما ان ورثت هذه الشركة نتائج الاختبارات التي قامت بها شركة النفط العراقية في منطقة غربي نهر دجلة، حتى الزمت نفسها بان تدفع سلفا عن الانتاج مبلغ ايجار سنوي مقداره مائة الف باون استرليني ذهب، ومن ثم رفع هذا المبلغ الى مائتي الف باون مقابل الحد الادنى من انتاج النفط وهو مليون طن في السنة الواحدة، وذلك ضمن فترة محددة مقدارها سبع سنوات، وان تخصص للحكومة العراقية، خمس ما تنتجه من النفط الخام بصفة مجانية، بالاضافة الى دفع عوائد بمقدار اربعة شلنات ذهبية عن الطن الواحد. وهكذا مضت هذه الشركة قدما في اختيارالاراضي المخصصة لها، والبحث عن النفط فيها، فالفت لهذا الغرض شركة عاملة هي شركة حقول نفط الموصل.

وفي الوقت ذاته اقدمت شركة النفط الانكليزية الفارسية، بالامتياز الصغير الذي حصلت عليه في «الاراضي المحولة» وفقا لاتفاقه المعدل الذي عقد حول هذه الاراضي في سنة ١٩٢٦، على تأسيس شركة نفط خانقين بمثابة فرع لها، وذلك للانتاج في داخل العراق، حيث كمل المصفى الذي انشأته على نهر «الوند» قرب خانقين في شهر ايار سنة ١٩٢٧ وقد افتتحه الملك فيصل الاول. ومنذ ذلك التاريخ اصبح شمالي العراق واواسطه يمونان باسعار مناسبة، بمنتجات النفط من هذا المصفى، في حين ظل القسم الجنوبي من العراق يسحب النفط من عبادان.

وسرعان ما غطت البلاد نواة لتسهيل توزيع النفط في ارجائها، وقد نهضت بهذا العمل «شركة نفط الرافدين» وهي شركة توزيع بريطانية فارسية، تأسست لهذا الغرض. كان استنباط النفط في منطقة «نفطخانة» محددا، وكان يجري استثماره من قبل شركة نفط خانقين لغرض استعماله لحاجياتها العملية، وكذلك في منطقة «شياه سرخ» والذي تم التخلي عنه في السنوات ١٩٠٤، ١٩١٢، ١٩٢٤ ومن ثم استؤنف العمل فيه سنة ١٩٣٠، غير ان الانتاج برهن بانه غير عملي.

ان الحياة اليومية لكثير من العراقيين قد تتأثر بتقدم الزراعة اكثر مما تتقدم حتى بالصناعة الكبرى، ولم يكن مثل هذا التقدم من الامور المهملة في هذه الفترة، ذلك لان مشاريع الري

---

(١٢) كانت اسهم هذه الشركة على الوجه التالي ٤٦٪ من الاسهم للمجموعة البريطانية، ٣٠٪ للمجموعة الايطالية، ١٢٪ للمجموعة الالمانية الهولندية، ١٢٪ للمجموعة السويسرية الفرنسية وكانت مدة امتياز هذه الشركة خمسا وسبعين سنة تبدأ من يوم ٢٥ ايار سنة ١٩٣٢ وتنتهي في سنة ٢٠٠٧

الواسعة التي دعيت الصحافة والجماهير للاطلاع عليها، لم تكن، في الواقع، من الامور التي يمكن انجازها. ذلك لان اعمال الصيانة، والتحسينات الطفيفة، وكذلك اعمال البحث، كانت هي الموضوع اليومي الذي يشغل الجميع في تلك الايام. ومع كل ذلك فقد تم انجاز بعض الاعمال الكبرى. فلقد بوشر ببناء السدود، وفتح القنوات على الفروع التي تمر بالديوانية والدغارة من نهر الفرات، اضافة الى تحسين توفير المياه لارواء الاراضي التي تزرع مزارع الرز فيها في سوق الشيوخ

كان تصريف مياه المستنقعات في منطقة كربلاء يعتبر في الدرجة الاولى من الاجراءات الخاصة بالصحة العامة. ولقد حل انشاء سد ثابت على نهر ديالى، محل الاعمال التي كانت تجري سنويا لتجديد القنوات التنفيذية، وتوفير كميات المياه اللازمة لقنوات «اللطيفية» وقنوات «الاسكندرية» و«شيشبار» وفي سنة ١٩٣٠ افتتح الملك فيصل بنفسه مشروع تطهير انهار البصرة، واقامة نواظم لها، في حين كانت الاعمال الجارية في شط «البدعة» في ريف المنتفق، من الاعمال ذات القيمة المحلية الكبرى.

ومع هذه الاعمال تواصلت الجهود في ميدان البحوث والمسوحات والتجارب في قضايا تصريف المياه، وازالة الطمى، والجهود الرامية الى صيانة وتحسين سداد الشواطئ التي قد تؤدي الفيضانات فيها الى تخريب اراضي الريف، مثلما فعلت ذلك الفيضانات التي حدثت في سنتي ١٩٢٦، و١٩٢٩، والتي استلزمت ضرورة اكمال المشاريع الخاصة بوقف الفيضانات وتحويل مياهها،وعلى هذا الاساس كان مشروع الحبانية الذي سبق للمهندس البريطاني «وليم ولكوكس» ان تصوره قبل عشرين سنة مضت، قد اعيدت دراسته بشكل وثيق خلال السنوات ١٩٢٧ - ١٩٣٢ وفي نهاية السنة الاخيرة دعي المناقصون للاشتراك في تنفيذه، حيث ظهر بان العمل في هذا المشروع يعتبر من الاعمال الجبارة.

وهناك مشاريع اخرى تم تأجيلها بسبب نقص الاموال، وعدم اكمال المعلومات المطلوبة عنها، ومنها مشروع سدة الكوت على نهر دجلة والتي تمد نهر الغراف بالماء وتسيطر على الاراضي التي تزرع بالرز في العمارة، ومشروع قناة ابي غريب الصغيرة من الضفة اليسرى لنهر الفرات والتي بوشر بها في سنة ١٩٣٢، ومشروع تصريف المياه في «عكركوف» على مقربة من بغداد، ومشروع حوض الماء المقترح انشاؤه في السعدية او على مقربة منها والذي قصد من ورائه المحافظة على مياه نهر ديالى لغرض استعمالها ايام الصيف، وانشاء رأس جديد لمياه شط الحلة، ومشروع شق قناة الاسحاقي التي تأخذ المياه من نهر دجلة قبالة سامراء، وكذلك المباشرة بشق قناة من نهر الفرات الى «الشنافية»

كانت دائرة الري تدار ابتداء من سنة ١٩٢٥ في سنة ١٩٢٨ تحت اشراف السيد بورنج، الذي عمل مستشاراً لوزارة للاشغال. ومن ثم انتقل بعد سنة ١٩٢٧ الى مستشارية وزارة الري

والزراعة. ولقد نجح السيد «الارد» في عمله مديرا للري من سنة ١٩٢٨ الى سنة ١٩٣٣ ورئيسا للمهندسين تحت امرة مدير عراقي خلال الفترة ١٩٣٣ ١٩٣٤ كذلك استأنف السيد «ويتلي» عمله مستشاراً لوزارة الاشغال والمواصلات في سنة ١٩٢٩، وظل يحتفظ بهذا المنصب طيلة السنوات الثماني التي اعقبت ذلك التاريخ.

ونظرا للحاجة الى تحسين الزراعة، فان فعاليات كل هذه القنوات، وان كانت قد اتت اكلها، الا ان الجمهور لم يدرك سوى الشيء الضئيل منها. وبدلا من الاستمرار في اعمال البحث والتجارب، بقيت المشاكل الاساسية للاراضي الزراعية من دون حل، وتتألف هذه المشاكل من تلف التربة، والتشبث بالاساليب القديمة في الزراعة، والانواع الغريبة من الحاصلات، وقلة المنتوج، وضعفه، وتعرضه لاخطار الفيضان والجفاف. كان ينبغي ان يعتمد حل مثل هذه المشاكل على العمل المتواصل والواسع الذي تقوم به قوى التعليم في الارياف، وضمان الامن الذي يمكن الاعتماد عليه، وتطبيق الالتزام الصائب للاراضي الزراعية، وانجاز المشاريع الممولة تمويلا صحيحا

وفي الوقت ذاته تطورت حملات مكافحة الجراد في شمالي العراق، بالاشتراك مع البلدان المجاورة، وامكن تحقيق تقدم في المناطق الجبلية التي تزرع فيها التبوغ، ومعالجة اوراقه حسب الاسس العصرية. كذلك تواصل العمل في تجارب صنع الحرير، وان لم يكن قد حقق سوى الضئيل من النجاح. وبقيت زراعة القطن محدودة، وذلك نتيجة انعدام الزراعة الماهرة، وبسبب الحشرات التي تصيب الزرع

واضاف الاقبال على انشاء بساتين واسعة للتمور في جنوبي العراق مشاكل عسيرة ليس بالنسبة الى الزراعة المحسنة حسب، بل والى قضايا التنظيم والتصرف ايضا، والى اندلاع المنازعات المحلية المشوبة بالغضب، بين اصحاب التمور وعمال المكابس. ولذلك فلم تنجح اي من المحاولات التي اجريت لانشاء مزارع عصرية متطورة. فلقد وجد بان المصرف الزراعي المقترح انشاؤه، لايمكن تدشين العمل به، الا بعد ان توفر الاراضي الممنوحة ضمانا لتسديد القروض. كان مشروع شركة اصفر «محدودا»، وتم تعديله لكي يتلاءم مع وسائل التملك والتنمية على يد الشركة التي تمتلك قناة «اللطيفية» جنوبي بغداد حيث انشأت مديرية الري القناة الرئيسة هناك على حساب الشركة، وشرع بالعمل في المنطقة الموعودة والبالغة مساحتها خمسة وستين الف فدان تحت اشراف ادارة اوربية[١٤]

كان التطور الزراعي الرئيس في ذلك الوقت يتمثل في استعمال المضخات التي تنصب على شواطئ الانهار. ولقد بوشر بهذا الاسلوب قبل سنة ١٩١٤ وتواصل بصفة معتدلة خلال الفترة مابين سنة ١٩٢٠ وسنة ١٩٢٥ وما ان تم تشجيع هذا الاسلوب بالامتيازات المالية، حتى بدأ

---

(١٤) مشروع اللطيفية سوف تأتي الاشارة اليه في هامش مقبل

بعد ذلك الوقت يظهر زيادة ملموسة الى درجة اصبح معها يؤلف المظهر الرئيس للاقتصاد العراقي. ولقد ادى الاقبال على نصب المضخات في محافظات بغداد، والديوانية، والعمارة، والكوت، وديالى في نهاية سنة ١٩٣٠، الى ان زاد عدد المضخات في تلك السنة عن الفي مضخة، الامر الذي كان يمثل زيادة مقدارها مليون فدان في الاراضي القابلة للزراعة

كانت هناك قيمة واضحة في اجتذاب رأس المال الى ميدان الزراعة، واستخدام النفط المتوفر باسعار رخيصة، واستغلال الاراضي البكر الواسعة، وتجنب الفرص الحذرة في تبذير مياه الري. غير ان هذا التطور لم يكن خلوا من المتاعب. ذلك لان انجذاب المزارعين الى الاراضي الجديدة، قد ادى الى فصلها عن الاراضي القديمة، بدلا من زيادة عددها، وتحسين الحاصلات نتيجة وجود اراضي جديدة، وضمان اروائها. ولكن ذلك لم يكن يتلاءم مع نقاء الحاصلات وانتاج انواع رفيعة منها لان ادارة المزارع التي حاولها المزارعون من اهل المدن، كانت تنطوي على قصر النظر، فضلا عن انها لم تكن اقتصادية. كما ان انخفاض الاسعار احيانا، في الايام الحرجة، كما حدث ذلك خلال الفترة ١٩٣٠ ١٩٣٣ قد ادى الى الحاق الدمار بالمشروعات الكثيرة التي كان يؤمل نجاحها.

وفضلا عن ذلك فان امثال هذه المشروعات كانت تدار بصفة مشتركة من قبل الرأسمالي المدني، غالبا مايكون احد النواب او من اشراف المدينة. وكان شيخ العشيرة او السركال [١٥] هما اللذان يثيران المصاعب المحيرة بالنسبة الى التزام الاراضي وحقوق الالتزام فيها. ولم تكن لسيطرة العشيرة التقليدية، ولا للحصة التي يطالب بها الرأسمالي القادم من المدينة، اية قاعدة في القانون. **فغالبا ماكانت الاتفاقات التي تعقد بين المزارعين والفلاحين، تدلل على عدم صلاحها للعمل، وانها في ميدان التطبيق لم تكن لتجلب الخير للمزارعين على الدوام. ومع كل ذلك فان هذه الاحوال تشير مرة اخرى الى حاجة العراق الملحة ليس الى تسوية قضايا الاراضي حسب، بل اتباع تفكير جديد في موضوع تملك الاراضي ايضا. ذلك لان ارتباط عدم الاستقرار البارز، وانعدام العدل المتواصل في موضوع التزام الاراضي بمستوى الامن والتقدم في الزراعة والتطور الاجتماعي، وبالطرق المالية، كان هذا الارتباط موجودا منذ امد طويل.**

ذلك ان انشاء دائرة لممتلكات الدولة. وجلب سجلات الاراضي القديمة من اسطنبول، وتأليف لجنة اراضي المنتفق العقيمة في سنة ١٩٢٩، والساعات التي لاتحصى والتي كان المحافظ او القائمقام يصرفانها في حل مشاكل قطع الاراضي الصغيرة الخاضعة للتسوية، كل هذه كانت من الدلائل التي تشير الى ان الحكومة كانت تدرك جيدا كل هذه القضايا والمشاكل الكبرى الناجمة عنها

---

(١٥) كتب المؤلف كلمة «سركال» باللفظ العربي والحروف الانكليزية SIRKAL .

تم في سنة ١٩٢٩ استقدام خبير من المصلحة المصرية، هو «السر داوسن» لدراسة قضايا تسوية الاراضي في العراق، ووضع تقرير شامل عنها. كان التقرير الذي قدمه في سنة ١٩٣٢ يحتوي على تحليل تام لكل المساوئ وكيفية معالجتها. ولقد ادى وضع ذلك التقرير الى انشاء مديرية تسوية الاراضي التابعة لوزارة المالية (١٦) والمصادقة على قانون يعترف بحقوق اللزمة، اي السيطرة الموروثة (١٧) وتعيين ضباط للتسوية، كان من بينهم كل من دتشبورن، واستن، وليون، وجاردن، وكل هؤلاء كانوا من صنف المفتشين الاداريين، رؤساء للجان التسوية التي كانت تباشر في اعمالها الميدان. ولقد كانت هذه الامور خطوات لها اهميتها الكبرى في تأريخ الاقتصاد العراقي/.

---

(١٦) الحقت مديرية تسوية الاراضي مؤخرا بوزارة العدل وبقيت على هذا الارتباط حتى بعد قيام الحكم الجمهوري حيث تم ربطها قبل الغائها بوزارة الاصلاح الزراعي

(١٧) كتب المؤلف كلمة LAZMA باللفظ العربي

٧ - شؤون العراق الخارجية خلال الفترة ١٩٢٧ - ١٩٣٢

كانت المملكة العراقية في السنوات الاخيرة من فترة الانتداب البريطاني قادرة بمساعدة حليفها على توسيع علاقاتها الخارجية ، ووضعها في صفة اعتيادية.ولقد تمّ هذا الامر عن طريق الارتباط بكثير من الاتفاقات الدولية(*) والمعاهدات والاتفاقات التي تعقد بين طرفين ، والتمثيل القنصلي والدبلوماسي وتثبيت الحدود ، وتبادل الزيارات مع الدول.وفي الوقت الذي كان فيه كثير من الامور يمثل تعاونا او مجاملة دولية اعتيادية كان البعض من هذه الامور ، بالنسبة الى دولة توشك ان تتحرر،يشير الى الرغبة في ان ترى الدولة وان تتم رؤيتها في الاوساط العالمية كانت حساسية المراهقة في قضايا الاعتبار طوع المباهاة العربية.وكان التأكيد على الفردية القومية العربية من الامور الجديدة بالنسبة الى العالم المتمدن.والحقيقة ان التحرك باتجاه الوحدة العربية الى مدى اوسع من نطاق الثقافة والاحساس المجرد ، كان من الامور المفهومة بصفة ضمنية تماما.فمن سنة ١٩٣٠ كانت واجبات وزير الخارجية اسمية وكان رئيس الوزراء يتولى على الدوام اشغال هذا المنصب الى جانب منصب الرئاسة

اصبح منصب الممثل العراقي في لندن ، منصب وزير في سنة ١٩٢٨ وتم ارسال الوزراء المفوضين الى كل من انقرة وطهران في اعقاب اعادة تنظيم العلاقات مع تركيا وبلاد فارس والتي سنأتي على وصفها بايجاز. وكانت هذه التعيينات متبادلة حيث تم تعيين قناصل عموميين في كل من القاهرة سنة ١٩٢٨ ، وبيروت سنة ١٩٣٢ ، وقناصل في عدد من المدن الاخرى في الشرق الاوسط في تلك السنة (١٩٣٢)

وكان الممثلون من الاجانب الذين ظهروا بمثابة دلائل ترحيبية باعتراف بلدانهم بالعراق ، في كل من بغداد والبصرة ابتداء من سنة ١٩٢٦ ومابعدها ، يمثلون حوالي اثنتي عشرة امة فهناك وزراء مفوضون لتركيا ، وبلاد فارس ، وفرنسا ، والمانيا وقناصل من بولونيا ، وايطاليا وبلجيكا ومصر والولايات المتحدة الامريكية ، والسويد ، والنرويج ، واليونان ، وهولندا والدنمارك وجيكوسلوفاكيا ، وهنغاريا والنمسا والافغان.وكان الاتفاق الثلاثي الذي عقد في سنة

(*) تتضمن المعلومات الواردة هنا من سنة ١٩٢٦ الى سنة ١٩٣٩ قضايا الكمارك والمرور عبر الاراضي وقواعد الحرب ، والملاحة البحرية والجوية ، واسالة الماء والقوة الكهربائية ، ودوائر البريد والمواصلات السلكية والصحة والادوية ومكافحة الجراد والاشرطة السينمائية واحوال العمال .

١٩٣١ بين امريكا وبريطانيا والعراق قد ادى الى اعتراف الولايات المتحدة الامريكية بالعراق ، وضمن للمواطنين الامريكيين ذات الامتيازات التي يتمتع بها مواطنو الدول الاعضاء في عصبة الامم،وفي سنة ١٩٣١ عقدت معاهدة غير اعتيادية مع مصر ، وبعقد معاهدة الصداقة مع اليمن في سنتي ١٩٣١ و ١٩٣٢ اصبح الباب مفتوحا امام تبادل الزيارات الرسمية بين البلدين. كذلك بوشر بتبادل الزيارات مع امارة شرقي الاردن التي كانت تخضع للانتداب البريطاني،من قبل الاخوين الحاكمين فيهما ، وذلك قبل وفاة الملك حسين في عمان سنة ١٩٣١ ومابعدها،حيث وقعت معاهدة صداقة بين البلدين في تلك السنة،وفي سنة ١٩٣٢ تم تحديد الحدود وسط الصحراء بصفة ودية ، ابتداء من جبل «طنف» الى حدود نجد

ينبغي التحدث كثيرا عن اقرب الجيران الى العراق. فبالنسبة الى بلاد فارس ، التي قطعت شوطا سريعا في التقدم المادي والاداري تحت زعامة دكتاتورها «البهلوي» حصل تقدم حسن في هذه السنوات في الاتصالات المباشرة بالحدود، واعتراف البهلوي الشاه رسميا بمملكة العراق[١] غير ان الاعذار والادعاءات الكافية لاثارة نزاع اخر ، ظلت قائمة.وفي سنة ١٩٢٧ اصبح مستطاعا وضع حد نهائي للجولات السنوية المثيرة للقلق والتي كان يقوم بها «سلار الدولة» عبثا ، وذلك اثناء ارساله في اجازة الى فلسطين[٢]

تم ترتيب النزاع الحاصل حول مياه مندلي عن طريق تأليف لجنة مختلطة. كذلك تمت تسوية قضايا الحدود في قاطع خانقين بوساطة المحافظين المجاورين.اما «سمكو» فقد ظل يختبئ بشكل هادئ داخل الحدود العراقية الى ان هجرها الى تركيا في سنة ١٩٢٨ وقد تم وقف الهجرات التي كانت تقوم بها عشيرة «بشدر»، وتصرفاتها في داخل الاراضي الفارسية وذلك بمبادرة من المندوب السامي البريطاني الذي عمل على عقد لقاءات بين السلطات المتجاورة. وفي منطقة البصرة ثار الاضطراب سنة ١٩٢٧ بين افراد قبيلة «المحيسن» التي كانت تسكن على جانبي الحدود[٣] وقد ثار هذا الاضطراب من النشاط الذي كانت تمارسه دائرة احصاء النفوس

---

(١) اعترفت طهران بالعراق رسمياً في الخامس والعشرين من نيسان سنة ١٩٢٩ وفي شهر نيسان سنة ١٩٣٢ وجه البهلوي دعوة رسمية الى الملك فيصل لزيارة طهران ونشرت مديرية المطبوعات بياناً عن هذه الدعوة في العاشر من نيسان ذاته وقد تحرك مركب الملك فيصل بعد ظهر يوم الجمعة ٢٢ نيسان ١٩٣٢ يصحبه نوري السعيد رئيس الوزراء وناجي السويدي وتوفيق السويدي ز ير العراق المفوض في طهران ، ووزير طهران المفوض في بغداد بالاضافة الى سندرسن الطبيب الخاص للملك ولقد فصل سندرسن في مذكراته تفاصيل هذه الزيارة في الفصل الثامن (انظر ذلك في الطبعة الثانية من مذكرات سندرسن ص ١٩٥ ومابعدها)

(٢) القت القوات البريطانية القبض على سلار الدولة في منطقة بحر قزوين وكان يحاول اثارة التركمان هناك ، اي الاذربيجانيين ضد طهران طمعا بالاستيلاء على عرش فارس ، وتم ارساله الى فلسطين ، وفرض الاقامة عليه هناك بدلا من حبسه او اعتقاله في اي قطعة قريبة من الحدود الفارسية

(٣) المحيسن فرع من فروع قبيلة كعب التي تقطن الاحواز ، وهو الفرع الذي استقل بزعامة المحمرة وضواحيها منذ ان تولى رئيس هذا الفرع «جابر بن مرداو» الامرة على المحمرة وخلفه فيها ولداه «مزعل» و «خزعل» .

العراقية. ذلك ان افراد «المحيسن» الساكنين في العراق ، كانوا قد تشكوا من مصادرة جوازات سفرهم الفارسية ، وبهذا اصبح خطر شمولهم بقانون التجنيد الاجباري العراقي اكثر دنوا ، ولهذا هربوا الى بلاد فارس ، ولحقت بهم الى هناك جماعات اخرى من العشائر تحمل الجنسية العراقية ونظرا للاحتجاجات التي اظهرها موظفو الشاه ازاء تعداد النفوس، فقد اصدرت الحكومة العراقية اوامرها بالكف عن احصاء النفوس بين افراد «المحيسن». لكن عملية الاحصاء قد استؤنفت بصفة انتقامية من قبل القنصل الفارسي المحلي ، الذي راح يعرض الجنسية الفارسية ، على عشرات من العراقيين ، ويحضهم على مقاومة حكومتهم.

امكن صد التظاهرات الساخطة التي حدثت لقاء ذلك بفعل تدخل الشرطة واعتقال رؤساء الحلقات ، ولكن لم تتم اعادة الهدوء الا بعد ان تلقى القنصل الفارسي اوامر من حكومته بالكف عما كان يقوم به من التحبيذ للعراقيين بان يتجنسوا بالجنسية الفارسية •

بقيت حدود شط العرب التقليدية المثيرة للسخط مصدراً من مصادر اثارة الحقد الفارسي واصبحت التدخلات الدبلوماسية البريطانية في سنة ١٩٢٨ فعالة في وقف فرض رسوم اعلى من رسوم الاستيراد الفارسية على السلع القادمة من العراق ، وذلك اجراء كان يهدد بتدمير تجارة المرور. غير ان وجود الاف من الرعايا الفرس في العراق ، وكذلك تخوف اولئك الذين كانوا يبغون التهرب من الالتزامات العراقية ، كل هذا قد جعل هؤلاء الفرس يزعمون بانه متى ما اصبحت الاحوال ملائمة فانهم لن يفشلوا في توفير الاسباب المادية التي لا انقطاع لها ، لاثارة النزاع او الاحتجاج

كان رفض الحكومة الفارسية الاعتراف بالعراق ، وهو مثير للاهانة حقا ، لا يعود في الواقع الى المنازعات الطفيفة والغيرة التي تقع بين المتجاورين بل الى الوضع الشاذ غير الهادئ لهذه المجموعة الكبيرة المهاجرة من بلاد فارس

فلقد كانت هذه المجموعة من الفرس الموجودين في العراق ، تطالب بان يعطي لها وضع ممتاز في العراق ، يكون مساويا للامتيازات التي يتمتع بها رعايا بعض الدول الاوربية. غير ان بلاد فارس لم تكن دولة حامية لجماعة دينية في الامبراطورية العثمانية[٤] ولذلك فلم يكن من المعقول **منح العراقيين في فارس معاملة مماثلة ولايمكن للحكومة العراقية ان تطالب بمنح حقوق خاصة يتمتع بها العراقيون انفسهم وذلك بالنظر الى كثرة عدد المشمولين بهذا الطلب. ولهذا السبب توقفت الحكومة الفارسية عن الاعتراف بدولة العراق الى ان يتم تنفيذ مطاليبها تلك، في حين رفض العراق ان ياخذ بنظر الاعتبار تلك المطاليب، الا بعد ان تعترف حكومة طهران بالعراق،**

---

(٤) كانت حكومة طهران ومازال حتى الان تدعي الزعامة على كل ابناء الشيعة سواء في العراق ام غيره ، وقد كشفت مواقف حكام طهران خلال الحرب العراقية الفارسية بكل جلاء عن هذا الادعاء الذي لايستند الى اساس سوى الاحلام الافيونية التي يعيشها حكام الفرس والعناصر الحاقدة والفئات الجاهلة المنخدعة بأولئك الحكام

ربذلك المعضلة تامة، وبقيت كل المفاوضات الحكومية بين الدولتين رهنا بايدي البريطانيين.

على ان التعديل الذي ادخل خلال سنتي ١٩٢٩ ١٩٣٠ على الاتفاق القضائي العراقي البريطاني في سنة ١٩٢٤ قد هيأ الفرصة لازالة جذور المتاعب. فلقد اثنى المندوب الفارسي في جنيف على المبدأ الذي تضمنه الاتفاق الجديد. الذي كان يحقق المساواة للجميع ، بحيث استطاع الوزير البريطاني المفوض في طهران ان يؤكد لحكومة الشاه بانه ، بالنسبة الى هذه القضية ، كل القضايا الاخرى ، وعلى الاخص حدود شط العرب ، بان الجيدين من الموظفين البريطانيين قادرين ومستعدين لازالة كل اسباب الخلاف. ولقد كان التأثير الذي احدثه هذا التأكيد آنياً، ففي شهر ايار سنة ١٩٢٩ اعترفت الحكومة الفارسية اعترافا تاما بالمملكة العراقية حيث ظهر الوزير الفارسي المفوض في بغداد في اعقاب ذلك الاعتراف مباشرة

كذلك تم التوقيع في شهر اب من تلك السنة على اتفاق مؤقت بين البلدين يتناول المعاملة التفضيلية للامة ، والتمثيل القنصلي والدبلوماسي ، والتجارة والمرور ، حيث جرى في اعقاب ذلك الاتفاق تعيين قناصل عراقيين في بعض المدن الفارسية. وعن طريق التقارب العراقي الفارسي حققت معالجة المصالح المشتركة نجاحا طيبا وكان يجري تعديل الاتفاق الموقت كل سنة ، في ذات الوقت الذي كان يجري فيه ، بصفة بطيئة، وضع مسودة بعقد معاهدة بين البلدين، حيث امكن السيطرة على حركات. عشائر بشدر المثيرة الاضطراب. فلقد كان الاغوات الاكراد الذين يحاولون الاتجاه عبر الحدود الى هذا البلد او ذاك يجري نقلهم بامان من مناطق الحدود تلك.

كان والي «بشت كوه» واولاده الذين تخلوا عن مبدأ الفوضى قد اصبحوا يعيشون منفين في بغداد، حيث تم جلبهم الى بغداد في سنة ١٩٢٩ ، [٥] حين لفتت الانظار اليهم محاولة ثورية حمقاء قامت في الاراضي الفارسية. وقد وجهت عمليات عسكرية مشتركة شاركت فيها القوات العراقية والفارسية واعطت نتائج طيبة خلال السنتين ١٩٣١ و١٩٣٢ ، ضد مثيري الاضطراب في هورمان وهما «محمود وزلي» و «جعفر سلطان». وقوبلت حركات الهجرة التي كانت تقوم بها عشائر الجاف من سهول حلبجة وكفري الى الاراضي الفارسية في سنة ١٩٣١ برقابة مشددة من قبل موظفي الشاه العصريين. وادى فرض الضريبة والسيطرة على الاسلحة الى حدوث ضجة استطاعت الحكومة الداخلية بالمفاهمة ان تهدأها.

ويبدو بانه لم يبق اي مصدر مشهود لاثارة الاضطراب، سوى الاستثناء الكبير ونعني به حدود شط العرب فيما تحت البصرة. فلقد قام المندوب السامي البريطاني في اوائل سنة ١٩٣٢ بزيارة الى طهران، ثم اعقبتها زيارة اخرى بكامل صيغها قام بها الملك فيصل ورئيس وزرائه في

(٥) هو غلام رضا خان وقد سبق له ان جاء الى بغداد في ١٣ اذار سنة ١٩٢٣ مع ٣٦٠ نفرا من جماعته لزيارة العتبات المقدسة في النجف وكربلاء والكاظمية وسامراء فاحتفت الحكومة العراقية بمقدمه واكرمت وفادته. وغلام رضا هذا هو اخ سلار الدولة الذي ثار على حكومة طهران.

شهر نيسان من تلك السنة.

غدت العلاقات بين العراق والجمهورية التركية اكثر ودا مما كان متوقعاً. ذلك لان اعادة الاتصالات الاجتماعية وان كانت ضعيفة الآن، الا انها قد اعادت الكثير من العلاقات بين البلدين، واوجدت اساساً اعتياديا مشتركا. ولو لم يتم القبول بصفة مخلصة. بالتسوية التي اجريت في سنة ١٩٢٦ [٦] لحدث تصادم جوهري في المصالح.كانت اعادة الوضع الاعتيادي للتجارة عبر الحدود، والمواصلات، مع كل ذلك عملية بطيئة بالنظر الى الحالة المضطربة في شرقي تركيا.

عقدت لجنة الحدود القائمة اول اجتماع لها في خريف سنة ١٩٢٦، ومن ثم بقيت تجتمع مرة كل ستة اشهر في تفاهم واسع لعدة سنوات. وكانت الاجتماعات الاخيرة متقطعة، وذلك لانه لم يعد يوجد سوى الشيء الضئيل الذي يتطلب العمل. ولقد باشرت لجنة مشتركة لتخطيط الحدود عملها تحت رئاسة احد السويديين، طيلة ستة اشهر من سنة ١٩٢٧، وقد حققت هذه اللجنة نتائج مقبولة بما اعدته من تخطيط بارع، وبما ثبتته من مئات اعمدة الحدود الكونكريتية، كما تم تبادل الوزراء المفوضين بين بغداد وانقرة، وكان صبيح نشأت ذلك الرجل اللطيف من اوائل هؤلاء الوزراء والذي توفي في العاصمة التركية [٧]

على ان الغارات التي كانت تقوم بها العشائر الكردية عبر الحدود، والمؤامرات التي يحيكها (سمكو) الذي ينشد الأمن والسائرون على خطه، من امثال اولئك الافراد الذين دفعتهم العنصرية الكردية الى مساندة الشيخ محمود، وكذلك دخول العشائر التركية ملتجئة الى المناطق العراقية الضيقة التي لايمكن الوصول اليها، نقول ان ايا من هذه القضايا لم تؤثر في حسن النوايا القائمة بين العراقيين والاتراك، كما انها لم تعكر صفو الامن في اواسط كردستان.

قام الملك وبعض وزرائه بزيارة للعاصمة التركية زيارة رسمية تصحبه فيها قوته الجوية في شهر تموز سنة ١٩٣١ [٨] وفي اوائل سنة١٩٣٢ اعاد نوري السعيد الزيارة للعاصمة التركية بقصد التوقيع على المعاهدات العراقية التركية الخاصة بقضايا الاقامة، والمتاجرة، وتسليم الفارين. كما تقبل الامير زيد منصب وزير العراق المفوض في تركيا ومكث في منصبه هذا بضع سنوات.

كانت العلاقات العراقية السورية تقوم على مستويين هما مستوى الاقطار العربية المتجاورة ومستوى العلاقات بين الانتدابين الفرنسي والبريطاني.ولقد تحسنت هذه العلاقات الاخيرة منذ قيام التوترات السيئة التي وقعت خلال الفترة مابين سنة ١٩١٨ وسنة ١٩٢١ وذلك لان المصالح

(٦) يقصد بها تسوية قضية ولاية الموصل

(٧) توفي صبيح نشأت في اسطنبول في اليوم التاسع عشر من شهر تموز سنة ١٩٢٩

(٨) كان الملك فيصل قد تلقى دعوة رسمية من رئيس الجمهورية التركية لزيارة انقرة وفي اليوم الرابع من تموز ١٩٣١ غادر فيصل بغداد على طائرة خاصة رافقتها اربع طائرات من القوة الجوية العراقية وقد هبط في حلب حيث استقبل الوفد التركي الذي وصل الى هناك للترحيب بمقدمه الى تركيا

المشتركة بالنسبة الى عربات نقل البريد وسلامة الصحراء، وتبادل المجرمين، والنقل والمرور، ومكافحة الجراد كل هذه الامور والعلاقات تعاظمت وان بقيت الخلافات السياسية الفرنسية البريطانية ازاء حماية هذه الامور ظاهرة للعيان

لقد تميزت حياة الصحراء بالمصادمات الاعتيادية بين قبيلة طي ويزيدية جبل سنجار وقبيلة شمر التي حوصرت في سنة ١٩٢٧ بالاضافة الى المصادمات بين الاقسام المتناحرة من قبيلة شمر ذاتها، من امثال التصادم بين عجيل الباور ودهام ومهاجمتهم، تجنبا لدفع الضريبة المفروضة عليهم[٩] غير ان اجتماعا ناجحا تم عقده بين ممثلي العشائر وممثلي الحكومة في مدينة «عقرة» في ربيع سنة ١٩٢٧ حيث تم الاتفاق في ذلك الاجتماع على اسقاط العشرات من الادعاءات الواسعة وقد تكررت مثل هذه الاجتماعات في سنة ١٩٣١ وبعدها وتم تجاهل الحركات الجماعية التي كانت تقوم بها الاقسام الكبرى من قبيلة «عنزة» بصفة نهائية لاستعادة سيطرتها الرسمية على الحدود

وفي سنة ١٩٢٩ توافدت الاقسام الكبرى من عشائر «الرولة» و «السبعة»[١٠] على الاراضي العراقية، لغرض الرعي والمرور عبر الطريق الذي تسلكه السيارات في الصحراء. غير ان القتال العشائري الذي كانت قبيلة «العمارات»[١١] العراقية مستعدة له، قد تم تجنبه وذلك بفعل انسحابها. وفي سنة ١٩٣١ حدث تقدم في المحادثات التي اجريت في باريس حول قضايا الحدود التي ما زالت معلقة، وسارت تلك المحادثات قدما، حيث قدم طلب الى مجلس عصبة الامم لان تقوم بتعيين لجنة تشرع بتخطيط الحدود على الاساس الذي تم التوصل اليه في سنة ١٩٢١ وقد عين رئيس سويدي، وعضوان احدهما اسباني والاخر سويدي ايضا لهذه المهمة. وكان اول هؤلاء الاعضاء وهو العقيد «دي رنبيه» قد فقد حياته في حادث سقوط طائرة عندما كان في طريقه الى الشرق، حيث حل محله شخص اخر من بلاده، هو العقيد «اصلان»

استطاعت اللجنة ان تنجز مهمتها في شهر ايار ١٩٣٢، وان تقدم توصياتها الى مجلس

(٩) كان عجيل الباور بن عبد العزيز بن فرحان باشا من فرع الدرة من فروع شمر اما دهام فهو ابن الهادي بن العاصي من فرع الجزعة . وقد تولى امارة شمر في سوريا عندما كان ابوه الهادي على قيد الحياة (عبد الجبار الراوي البادية ص ١٢٨ طبعة ثانية

(١٠) عشائر الرولة تنتسب الى مسلم بن عناز مؤسس قبيلة عنزة وتقطن الاراضي السورية على مقربة من مدينة دمشق وهي بطن من عشائر الجلاس.

اما عشيرة السبعة فهي فرع من قبيلة «ضنى عبيد» التي تنتسب الى «بشر بن عناز» رئيس قبيلة عنزة، وتتألف السبعة من بطنين كبيرين هما البطينان والعبرة وهي تسكن الاراضي السورية.

(١١) العمارات تنتسب الى بشر بن عناز ايضا تتألف من بطنين هما الجبل والدهامشة وينقسم بطن الجبل الى ثلاثة عشائر حبلان وصقور، وسلكه في حين يتألف بطن الدهامشة من خمسة افخاذ (البادية ص ١١٤ - ١١٦ عبد الجبار الراوي الطبعة الثانية ١٩٤٩).

العصبة والتي لم تتم المصادقة عليها الا في شهر ايلول من تلك السنة حين قبلت العصبة بها. كانت تلك التوصيات تنطوي على ضم منطقة سنجار برمتها الى العراق، وان تعوض سوريا عن اية ارض تسلخ منها في اي مكان. واستطاعت لجنة تخطيط الحدود اللاحقة، والتي رأسها نفس رئيس اللجنة السابقة، ان تنجز عملها في سنة ١٩٣٣

واصبح معروفاً انه بالنسبة الى المعاملات التي تجري بشأن الحدود فيما بعد، ومثلما كان عليه الامر سابقا، ان يقوم العراقيون بالدفاع عن مصالح العشائر العراقية، في حين يدافع الفرنسيون عن العشائر السورية.

كانت الحوادث المؤسفة التي وقعت على الحدود العراقية النجدية خلال السنوات ١٩٢٧ - ١٩٢٩، تصور بصفة نموذجية، اثار الانفة المنطوية على المجابهة والبدائية، والمتطرفة التي يتسم بها البدو الذين يعيشون في الاقسام الشمالية الشرقية من الجزيرة العربية التي توجد فيها حدود اقليمية، تلك الاقسام التي لا يستطيعون الاقامة فيها، ولا الاستيلاء عليها، لان مثل هذا الوضع يعارض احدى العادات التي تجري الاشارة اليها بصفة عشائرية بمحاولة من المبدأ القومي للاراضي الخاصة بهم، ذلك المبدأ الذي كانوا يقاومونه بفردية متوحشة، وبالاسلحة الحديثة التي كانت تثير سخطهم باعتبارها شرا من الشرور، وظلما صارخا.

وبتغلغل المفاهيم الغربية في الجزيرة العربية، واقامة حكومة مركزية موطدة الاركان نسبيا، وتعود البدو على المدافع والطائرات، لم تعد ذات الظروف والاحوال تقع بشكل متساو، بل ربما انها كانت في الواقع قد غادرت العالم بصفة ابدية. كان التأثير الحسن الذي احدثه اتفاق «بحرة» قد استمر لمدة سنتين. ومع ان اقامة حدود كانت المحاكم تتطلع اليها في ذلك الاتفاق قد تأخرت عدة شهور، الا انه تمت المحافظة على السلام في بوادي جنوبي غربي اواني الفرات، وفي الكويت. غير ان هذه الاساليب ما لبثت ان تعرضت للهجوم، ذلك لان قبيلة «المطير» التي كان يتزعمها الشرير فيصل بن الدويش الذي سبق له ان خضع لسيده[١٢] قامت في شهر تشرين الثاني سنة ١٩٢٧ بمهاجمة حصن «البصية»[١٣] العراقي، الذي يقع على بعد خمسة وسبعين ميلا داخل الحدود العراقية. وفي هذا الحصن الصغير المبنى من الطين وكذلك حصن «ابو غار» على بعد تسعين ميلا الى الداخل، كان يقيم فوج من القوات العراقية في كل واحد منهما.

ولقد قتل العشرات على الاقل من العراقيين، بايدي افراد المطير الذي اقتنعوا بانها هذين الحصنين كانا مدعاة للاستفزاز. وجه احتجاج شديد الى الرياض، وتم تعقب افراد المطير بالرشاشات المنطلقة من طائرات القوة الجوية البريطانية، غير انهم ما لبثوا ان تجمعوا ثانية

(١٢) المقصود به عبد العزيز السعود سلطان نجدو الحجاز في ذلك الوقت.

(١٣) البصية موقع على ايمن الوادي المعروف بهذا الاسم وفيها ابار ذات مياه عذبة والمسافة بينها وبين نقرة السلمان ماتنا كيلومتر والطريق بين البصية والزبير يبلغ مائة وخمسة وتسعين كيلو مترا.

وعاودوا الكرة في التغلغل الى داخل الاراضي العراقية فقتلوا الرعاة الذين وجدوهم على شواطيء النهر هم واطفالهم في «الجميمة»[(١٤)] وذلك في اواسط شهر كانون الاول من تلك السنة.

كان تأثير هذه الاعتداءات في العشائر العراقية وكذلك في قبيلة «عنزة» عميقا ومحزنا. كما ان ابن السعود، لم يعترف في المراسلات التي جرت معه في اعقاب تلك الاعتداءات، بشرعية وجود الحصون العراقية حتى وان لم تكن مثل تلك الغارات قد حدثت فعلا وفقا لاوامره، او خلافاً لها. ولهذا راحت طائرات القوة الجوية البريطانية تحلق باستمرار فوق المخيمات النجدية.

قامت الحكومة العراقية بوضع ... ات في مواقع «السلمان» و «شبيجة» الصحراوية[(١٥)] ولكن «المطير» هاجمت العشائر العراقية والكويتية مرة اخرى في جنوب البصرة وجنوبها الغربي في شهر شباط سنة ١٩٢٨ اصبح ابن السعود موزعا بين السخط على رعاياه الذين لم يتم ضبطهم، وبين الغضب من معاقبتهم باسلحة اجنبية. وما ان نجح في منع تكرار الغارات الكبرى حتى حضر اجتماعا مع المقيم السياسي البريطاني في الخليج العربي، واظهر نفسه بمظهر المتعنت ازاء الحصون المشيدة في الصحراء، وذلك عندما زاره في جدة كل من كورنوايس والسر غلبرت كلايتون في شهر ايار سنة ١٩٢٨

استؤنفت هذه المحادثات العقيمة في شهر آب بعد موسم الحج والتي حضرها هذه المرة السيد توفيق السويدي ممثلا عن الحكومة العراقية. غير ان هذه المحادثات قد اخفقت مرة اخرى، وبقيت الحدود تعيش تحت خطر الارهاب النجدي. وفي شهر كانون الثاني سنة ١٩٢٩ وقعت غارة اخرى قامت بها عشيرة العجمان[(١٧)] فقتلت عشرين عراقياً في الاراضي الكويتية، في الوقت الذي هاجمت فيه هذه العشيرة قافلة سيارات فيها بعض الامريكيين المسافرين فقتلت واحداً من ركابها هو الدكتور «بلكرات» احد المبشرين الامريكيين، واعقب ذلك وقوع هجوم اشد على الاراضي العراقية قامت به قبيلة «عتيبة»[(١٨)] وارتكاب اعمال سلب جماعية وقتل اكثر من سبعين شخصا. ثم جاءت في اعقاب ذلك غارات اخرى قامت بها «المطير» و «العجمان» وادت الى وقوع خسائر فادحة في الارواح لدى العشائر العراقية «بني مالك» والاراضي الكويتية.

(١٤) الجميمة. تقع على طريق الحج القديم والذي يصل الى «حائل» وهذا الطريق الذي بنته زبيدة زوج الخليفة هارون الرشيد من النجف حيث يبلغ الطريق من النجف الى الجميمة مسافة ثلثمائة وتسعة واربعين كيلو مترا.

(١٥) «شبجة او شبيكة تقع على طريق الحج القديم وتبعد عن النجف مسافة مائة وخمسة وسبعين كيلو مترا وتكثر ابار المياه في منطقة الشبكة وهي عذبة في الغالب وتعتمد كثرة الماء وقلته على سقوط الامطار.

(١٧) العجمان من العشائر النجدية المشهورة وتنقسم الى خمسة اقسام وكانت منازلهم المعتادة بين الاحساء والكويت وكان رئيسهم في هذه الفترة هو ابن «حثلين» وكانت تعد حوالي الفين ومائتي بيت في ذلك الوقت.

(١٨) «عتيبة» من القبائل الشهيرة في الحجاز ونجد الجنوبية وكانت تعد حوالي سبعة الاف بيت وكان يرأسها حتى اوائل الثلاثين «ابن حميد» وتنقسم الى قسمين هما «بركا» و «روكا» ومن عتيبة حكام البحرين الحاليين.

على ان العمليات التي قامت بها القوة الجوية البريطانية، وصمود حاميات الحصون العراقية في «السلمان» و «البصية» و «شبيجة» و «النخيب»[19] استطاعت ان تنقذ جنوب غربي العراق، خلال هذه الاسابيع من ذات الهجمات التي يقوم بها الوهابيون المتعطشون للدماء، والذين كانوا يهربون الى امارة الكويت.

اكد حاكم نجد مرة اخرى ومن دون شك فيما ادعاه بان تلك الغارات التي وقعت لم يكن مرخصا بها، واخيرا وجه اسلحته ضد رجاله المتمردين عليه وفي شهر اذار سنة ١٩٢٩ الحقت قواته هزيمة نكراء بابن الدويش وانتهت تلك السنة بالتحام وقع بين قوات ابن سعود والقوات الوهابية المتمردة، في حرب اهلية، استطاعت فيها قوات ابن سعود، ان تبسط سيطرتها بصفة منعزلة تدريجيا، وفي النهاية ان تحطم القبائل المتمردة، المطير، والعجمان، وعتيبة

وقد دلل ذلك الاجراء على وضع نهاية لحركة التطرف والتمرد بين العشائر السعودية الشمالية الشرقية التي سبق لها ان التفت حول ملكها، وكلفت العراق خسائر وفيرة في الارواح والاموال

اصبح السبيل الان مفتوحا امام توطيد علاقات افضل من تلك العلاقات، التي وعد بها في اجتماع «بحرة»، وفي شهر كانون الثاني سنة ١٩٣٠ التقى ابن السعود بالمقيم البريطاني وحضر مؤتمرا مع ملك العراق على ظهر الباخرة البريطانية «لوبن» في مياه الخليج العربي[20]

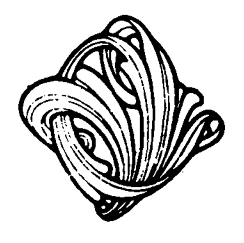
كان اللقاء ناجحا وقد تغلبت المجاملة وحسن المشاعر على الانقسامات الثقافية والعائلية العميقة فقد تقرر ان تتم تسوية قضية الحصون العراقية المعقدة في مفاوضات تجري فيما بعد، او عن طريق التحكيم، وان توضع مسودة لمعاهدة بين البلدين، وان يتم التعويض عن الدمار واراقة الدماء التي اقترفها العصاة الوهابيون والواقع انه تم دفع ربع المبلغ الذي تم الاتفاق عليه بصفة قطعية ومقداره ثلاثون الف باون.

لم تكن جميع الاطراف التي انسحبت بصفة ودية، غير مخلصة للاتفاق كليا، ولذلك توقفت الغارات. وفي شهر نيسان ١٩٣١ قام رئيس الوزراء، نوري السعيد، يرافقه طه

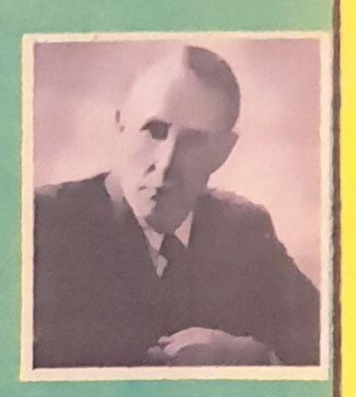
(١٩) النخيب من المواقع المشهورة على طريق الحج البري ويبعد عن مدينة كربلاء زهاء مئتين واثنين وثلاثين كيلو مترا وهو يقع على الجانب الايمن من وادي الابيض ويصل الطريق من النخيب الى «العريث» حيث يدخل الاراضي النجدية ومنه الى الحزول فحائل

(٢٠) هو المؤتمر الذي عرف باسم مؤتمر «العطور» والذي بدأ في اليوم الحادي والعشرين من شهر شباط سنة ١٩٣٠ وحضره ناجي السويدي رئيس الوزراء، ورستم حيدر ولحسين [illegible] بالاضافة الى كورنواليس مستشار وزارة الداخلية العراقية، وغلوب باشا المفتش الاداري لمنطقة الجنوب، والدكتور سندرسن [illegible] في حين وصل ابن السعود وحاشيته على ظهر الباخرة البريطانية «بارتك ستوارت» (انظر تفاصيل [illegible] الطبعة الثالثة ١٩٨١ ص ١٤٩ ومابعدها)

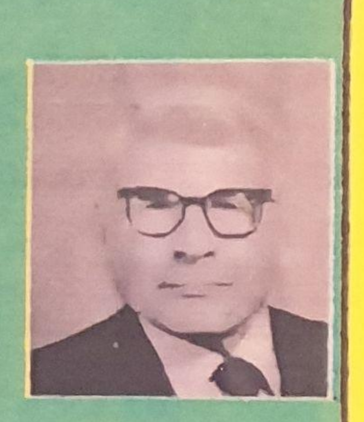
الهاشمي شقيق ياسين الهاشمي بزيارة مكة المكرمة للتوقيع على معاهدة الصداقة وتسليم المجرمين بين البلدين وقد رد على هذه الزيارة بزيارة قام بها سنة ١٩٣٢ الامير فيصل الولد الثاني لحاكم الجزيرة العربية وفي خريف تلك السنة التي انعم فيها على عبد العزيز بن السعود بوسام عراقي ، اعلن نفسه ملكا ، واعاد تسمية اراضيه نجد والاحساء والحجاز بصفة مشتركة باسم المملكة العربية السعودية



الفهرست



من ضباط الحملة العسكرية في العراق اثناء الحرب العالمية الاولى . تولى عدة مناصب استشارية في الحكومة العراقية ثم انصرف الى التاريخ فاخرج اول دراسة عن تاريخ العراق الحديث بعنوان اربعة قرون من تاريخ العراق الحديث ، وهذا الكتاب الذي يعتبر المتمم للكتاب الاول وله كتاب عن حكومة الملك فيصل في سوريا ، وكتاب عن استثمار النفط في الشرق الاوسط ، وكتاب آخر عن العراق نشره بعد ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ . تولى في سنة ١٩٥٠ منصب المدير الادراي لشركات النفط في العراق .



خريج كلية الحقوق ١٩٤٣ مارس العمل في الصحافة منذ سنة ١٩٣٦ ومارس المحاماة الى جانب ذلك اخر وظيفة له المترجم الاول في وكالة الانباء العراقية ورئاسة تحرير الوقائع العراقية بالانكليزية سنة ١٩٦٩ الى سنة ١٩٧٢ احيل على التقاعد في ايلول ١٩٧٢ وانصرف الى الترجمة والتاليف بلغ عدد المطبوع من كتبه المؤلفة والمترجمة خمسة وستين كتابا معظمها تخص تاريخ العراق الحديث والخليج العربي . من الكتب الجاهزة للطبع دور العسكرية في السياسة : انقلاب بكر صدقي وثورة ايار ١٩٤١ نوري السعيد ، اسمهان والمخابرات البريطانية ، مصرع الملك غازي وغيرها .



السعر : خمسة دنانير

نشر وتوزيع المكتبة العلمية شارع السعدون بغداد هاتف ٨٨٥٤٨٨ - ٧١٩٨٤٢٢

التصميم ليث متي

العراق الحديث

من سنة ١٩٠٠ الى سنة ١٩٥٠

الجزء الثاني



تأليف
ستيفن همسلي لونگريگ

ترجمة وتعليق
سليم طه التكريتي

الفجر
للنشر والتوزيع بغداد

اشتريته من شارع المتنبي ببغداد في ٢٣/رجب/١٤٤٣هـ
٢٥/٢/٢٠٢٢م

م. سرمد حاتم شكر

العراق الحديث

من سنة ١٩٠٠ الى سنة ١٩٥٠
تاريخ سياسي، اجتماعي، واقتصادي

طبع بمطبعة حسام

رقم الايداع في المكتبة الوطنية ٤٨٤ لسنة ١٩٨٨

منشورات الفجر
شارع السعدون ٨٨٨٥٤٨٨ - ٧١٩٨٤٢٢

العراق الحديث

من سنة ١٩٠٠ الى سنة ١٩٥٠

تاريخ سياسي، اجتماعي، واقتصادي

تأليف

ستيفن همسلي لونكريك

ترجمة وتعليق

سليم طه التكريتي

الجزء الثاني

الطبعة الاولى ١٩٨٨

الفصل السابع

الاستقلال التام [1]

١ - تقييم الوضع في سنة ١٩٣٢
٢ - ذروة المشكلة الآثورية
٣ - الوزارة الهاشمية
٤ - انقلاب بكر صدقي
٥ - البر والجو والبحر
٦ - الشؤون الخارجية

١ ـ تقييم الوضع في سنة ١٩٣٢

ابرزت الفصول السابقة عظم المسافة التي قطعها العراق في سنة ١٩٣٢، من عمره الطويل بصفته مجموعة من ثلاث ولايات تركية نائية ومتأخرة تقع في شمالي الجزيرة العربية، اما اللحظة التي اكمل بها مدة اثنى عشرة سنة بصفته دولة دستورية، منذ ان انشئت اول حكومة عراقية فيه، وتحقيق الاستقلال التام، فان تلك اللحظة لن يساء اختيارها لتقييم انجازه ذاك، وكذلك تقييم مطامحه بالصفة التي ظهرت بها فيما بعد.

لقد تم ايجاد مملكة العراق، واعترف العالم بوجودها، واستطاعت ان تضمن ماقد يجري التساؤل عنه من مستقبل ثلثها الشمالي، اي ولاية الموصل، ذلك الثلث الذي كان الاخرون يطالبون به بكل تصميم. لقد استطاعت المملكة ان تثبت، او انها كانت تعمل على تثبيت حدودها في ناحيتي الشرق والغرب، وقطعت شوطا بعيدا في اقامة علاقات ثابتة وودية مع جاراتها، وفي اكمال ماينبغي اكماله، مما يعد مهمة غير جسيمة بالنظر الى السنوات المتعاقبة.

في داخل العراق اصبحت الامة تتمتع بالفوائد الكبرى الواضحة، فلم تعد تخشى تزايد السكان، كما هو الامر بالنسبة الى مصر، ولا قلة الاراضي مثلما عليه الوضع في لبنان، وليست اراضيها حفنة من الواحات في صحارى شاسعة كما هو عليه وضع العربية السعودية، ذلك ان المملكة تمتلك فراغا واسعا من الارض وانهارا عظيمة، وخصباً شهيرا، وجوا صحيا ان لم يكن قاسيا، كما تملك التحقق من زيادة عدد السكان.

«ولم يكن شعبها باي حال من الاحوال، احط من مستوى الانسانية في الصفات الاعتيادية، بل انه كان اعلى من ذلك المستوى في الذكاء، ولهذا كان تقييم التقدم المتوقع، والرغبة في تحقيق هذا التقدم، واسع النطاق.»

اما بالنسبة الى قضية الادارة، فانه مهما كانت صفة التمرد وعدم الولاء المحلي، قد تشوب حدود المملكة، فان ادعاء حكومة بغداد بالسلطة لم تكن لتنازعها فيه اية ادعاءات منافسة، ولذلك كانت سلطة الحكومة مؤثرة وفعالة في كل انحاء البلاد تقريبا.

---

(١) كتب المؤلف عنوان هذا الفصل «الاستقلال التام» باللفظ العربي على النحو التالي AL - ISTI& LAL AL- TAMM

ومهما يكن الامر فعند هذه النقطة يشير الانعكاس الى بعض الصفات. ذلك ان صورة السلام غير المثير للتساؤل، والتي كانت ترفرف على كل انحاء العراق، كانت هي الصورة المفضلة جدا. فمناطق السهوب العربية، والجبال الكردية، التي يندر ان تتغلغل اوامر الحكومة الى داخلها، مما يمكن تجاهله حقا. ذلك لانه لابد ان تمتد سلطة الحكومة الى هذه المناطق دون شك، بقوات وبمواصلات متطورة، بمرور الوقت.

ولكن ينبغي ان يتغير الكثير، قبل ان يشرع الجمهور العراقي في المناطق الرئيسة من القطر، ان حسناً ام سيئا، في تكوين امة عصرية تستطيع فيها الحكومة ان تعمل بصفة مفيدة بشكل من شأنه ان يسمح بتطبيق مثل هذه العملية وتقييمها. ومن دون الاصرار على المشابهة التي قد تكون غير ذات قيمة او قاتلة، كانت الحالة السياسية المعافاة، والقدرة الادارية للامة، مناقضة لظهور اي من الفروق الثقافية العميقة، او الولاء او المستويات المتفاوتة بشكل قاطع للتطور الاجتماعي.

ولقد ظل وجود الاقليات المميزة في العراق، وحيويتها، والمجاميع الثقافية ذات الوعي الذاتي، يمثل المظهر المعاكس لتقدم العراق. ولكن اذا ماتركنا هذه الاقليات والطوائف جانبا، فاننا نجد، بكل جلاء، ان الجماهير العراقية، بل الطبقات الدنيا منها حتى في المدن وضواحيها، كانت تعيش في جهالة سحيقة، وفي فقر قاتل. ومع انها لم تكن غريبة بالنظر الى بعض الظواهر الحكومية الملموسة، فانها لم تستطع، بل لم تستذوق ان تساهم في اقامة نظام ديمقراطي للسيطرة على مصائرها الخاصة بها.

فبين العشائر التي مازالت تؤلف المجموع الاعظم من السكان، كان الجهل اشد عمقا، وكان المحيط اكثر بداءة. وكان المفهوم الاقطاعي الابوي للمجتمع، لدى هذه العشائر، على خلاف تام مع نظرة المواطن الذي يعيش في دولة عصرية. ذلك ان سكان العشائر في سنة ١٩٣٢، لم يتغيروا بصفة جوهرية الا نادرا، عن المستوى الذي كان يعيش فيه اباؤهم، وعلى هذا فان التقدم الدستوري لدولة العراق، كان قد سبق اي تقدم اجتماعي او مادي لهذا القسم الكبير من افراد الدولة.

ومع كل ذلك فانه بالنسبة الى جميع الذين كان في مستطاعهم ان يتقبلوا جهود الحكومة، وكانوا يرغبون ان يدوروا في فلكها، تم انجاز الكثير من ذلك. فلقد تألف جيش وطني، وقوة شرطة كاملة للاغراض الداخلية وما ماثلها. وبمثل هذا التطور الذي تأتي به السنون المتلاحقة، سوف تصبح هذه القوة قادرة على ضمان سلامة الحياة والثروة.

كانت ادارة امور العدل مرضية بصفة عامة. وكان يؤمل في السنوات القادمة ان تزيد هذه الادارة من تقبل الناس بها، ومن الثقة الشعبية فيها. وفي خلال خمس عشرة سنة تمت دراسة المشاكل المادية التي تعاني البلاد منها وكذلك امكانياتها، وتم تحليل تلك المشاكل بنظرات

وعقول حديثة. فقد غدا مستطاعاً ان يصلح التأخير المحيق بالزراعة، وذلك كما يبدو ، بطرق وزراعة حديثة غير عسيرة. وكان تقديم كل ذلك ، مع انقاذ الزراعة تدريجيا من الطرق البدائية والناتج المنخفض، يمثل مظهرا محققاً من مظاهر المستقبل.

وكانت مشاكل الارواء في العراق، والحماية من اخطار الفيضان ومحافظة المياه من الجفاف الموسمي، وعمليات البزل، كل هذه المشاكل قد تم حلها بصفة جزئية على الورق على الاقل. وهناك اكثر من مشروع واحد مهم، قد وضعت صيغته استعدادا لتنفيذه، في حين كانت الاعمال الصغرى جارية،واعمال اخرى غيرها ظاهرة للعيان. اما المشكلة المعقدة التي تتعلق بالصيغ المتناقضة والمعمول بها لتسوية قضايا الاراضي والتي لم يتواصل العمل فيها، فقد اصبح الطريق مفتوحا لتنقية تلك الصيغ ولاعادة العمل بها، وذلك لان لجان التسوية قد سبق لها ان اخذت تباشر اعمالها في الميدان.

كانت الثروة المعدنية من الامور التي تم التطلع اليها،لكن هذه وجدت بانها غير تامة، ماخلا الاهمية التي رافقت ظهور مادة مُعدنية واحدة هي النفط. فقد بدأ التطور في استثمار النفط بداية جيدة، وذلك لان امكانياته لم تكن محدودة، ولأن مساهمته في مالية العراق يمكن اعتبارها جوهرية بالنسبة لكل آمال العراق.

اما الصناعة، وان كانت الرغبة قوية في انشائها،اوا انها كانت تضلع نتيجة نقص المواد الخام، ونقص الاسواق، وكذلك نقص اللياقة والاستعداد، ومع ذلك فقد كان يتوقع تحقيق مكانة متزايدة لها ، ولو بصفة معتدلة، في الاقتصاد العراقي.

كانت التجارة في المستوى وفي الاسس التي يشير اليها التقليد والحاجات الراهنة، واستطاعت ان تبقى بصفة جيدة خلال فترة الركود العالمية الواسعة.

وتطورت وسائل المواصلات من كل نوع تطورا واسعا جدا خلال نصف الجيل الماضي، واصبح محققاً بانها سوف تلبي حاجات الاقتصاد المتوسع، وكذلك الحاجات الاجتماعية والدولية. وكانت عناصر الخدمات العامة المنظورة بصفة جيدة على الاقل، موجودة حقا. واذا ما سمحت الاموال المتوفرة فان هذه الخدمات ستزيد بالتدريج من نشاطها ومن نطاقها الاجتماعي. فهذا الامن، وهذه التطورات النافعة والخدمات الاجتماعية، قد تطلبت ولسوف تتطلب هدفين هما:الادارة الكفوءة الشاملة اولا، وثانيا السلطة الموطدة النافعة في الدولة ذاتها. وبناء الحياة السياسية على اسس مستقرة .

فاما بالنسبة الى الهدف الاول ، فان الادارة التي كانت موجودة في سنة ١٩٣٢، وان لم تكن تامة، وكانت فجة في بعض الاماكن، الا انها لم تكن اكثر تفوقا عن الادارة التركية السابقة فحسب، بل انها بدت ايضا بمرور الوقت، تترك ظلها على المظاهر التي انزلتها في الوقت الحاضر الى مادون المستوى الذي كان الموظفون العراقيون، الاكفاء، الاذكياء المخلصون،

جديرين به بشكل محقق.

وبالنسبة الى الهدف الثاني ، فان الاسس العامة للحياة وللتشريع ، كان يوجد الشيء الكثير الذي ينبغي التحدث عنه. لقد اختار العراق، طبقاً لشكل حكومته، الديمقراطية البرلمانية الممثلة. ويمكن توجيه الانتقاد الى هذا الاختيار، ولكن لم يكن هنالك اي معدى عنه. ذلك لان العراق ليس هو بلاد نجد، التي تخضع خضوعا تاما لرب الاسرة في الحكم،كما ان العراق ليس مثل فارس وتركيا اللتين قام فيهما حكم دكتاتوري.فالعراق لايملك سوى مرشد وحيد لطبقة سياسية تزعم بانها لبرالية تريد ان تسير الى ابعد مما وقفت ثورة ١٩٠٨ عنده، وكانت هذه الطبقة تزدري الصيغ السابقة، لكنها مع ذلك لم تكن تضم فيما بينها شخصية جديرة بالحكم المنفرد، او مجموعة جديرة بان تحكم الاقلية الخاصة،الامر الذي يمكن القبول به، ولذلك فلم يكن امام اي مراقب بريطاني أو غربي في سنة ١٩٢٠، ان لايقيم اشكال الحكومة بصفة تكون فيه مألوفة في الداخل ومطلوبة بشكل ظاهر في العراق، ومع كل ذلك فان هذه الاشكال الدستورية الصحيحة قد غدت الآن منظورة لكي توطن ذاتها في العراق، بمشقة وبنتائج مختلفة مباشرة.

واذا كان صحيحا بان فضائل النظام قد تم تقييمها في مكان ما، وان العالم الحديث لم يستطع ان يكتشف بدائل افضل من ذلك، مع هذا فلا بد من ان يتطلب هذا النظام التمثيلي والديمقراطي ظروفاً محددة. فهل ان مثل هذه الظروف كانت قائمة في العراق؟. كان يوجد في الواقع تقليد عربي طويل الامد من الديمقراطية بين افراد العشائر، وييسر الاتصال بالحكام. فحرية الكلام، والصحافة الناقدة، والاحزاب المنهمكة في نشاطاتها، والتظاهرات في الشوارع، كل هذه الامور يمكن ان يقال عنها بانها كانت مظاهر دمقراطية للحياة القائمة في بغداد. ولكن ايا من هذه المظاهر هو الصحيح؟

لقد كانت الصحافة ضعيفة التزود بالمعلومات، وغير مسؤولة ومتطرفة في الحس الوطني، ومعادية للاجانب بصفة قاسية. كان يجري تنظيم التظاهرات بصفة ايسر وبالقليل من النفقات، في اي اتجاه سياسي يراد. اما الاحزاب فلم تكن في الغالب سوى محض عصابات من الشخصيات، ليست لها تنظيمات متواصلة او واسعة، او اية سياسة ثابتة ما خلا سياسة معاداة الانكليز. وكان يسمح بحرية الكلام الى حد ابداء الاراء المتطرفة التي يندر ان تكون معتدلة. وكان العنف او المقاطعة ينتظر اية سياسة واضحة ، مهما كانت تلك السياسة حكيمة او مخلصة، اذا ما بدا عليها بانها سوف تفشل في ميدان الحمية القومية.

والواقع انه كان من الامور المشكوك فيها وجود احد المتعلمين العراقيين وسط مائة من اولئك الذين يتطلعون الى رؤية المجتمع وهو يقوم على اسس ديمقراطية حقا، وان تعطي السلطة لذلك المتعلم، فيستطيع ان يجد نفسه راغبا في تنظيم هذا المجتمع على الاسس الديمقراطية الحقة. فقد كانت طبيعة العراقيين تتميز بالفردية، وعدم الاذعان لاحد. وكانت تقاليدهم تقوم على اسس

التسلط والتحكم ، ولذلك كانت الاوضاع القائمة في مجتمعهم مناقضة للديمقراطية، ومؤذية لها حقا.

وكان النواب انفسهم ، في مجلس النواب ، يتم اختيارهم بالقليل من اصوات الناخبين الذين يخضعون للتعليمات ، والذين لاوجود لهم. بدلا من تعيينهم من قبل الوزارة القائمة في دست الحكم. ذلك ان قوائم المرشحين يتم نقلها الى المحافظين باعتبار انها تضم اسماء المرشحين الذين تريدهم الحكومة ،مع استثناءات غير متواصلة بالنسبة لاسماء النواب.

ولقد نتج عن هذه الكيفية ان اصبحت حكومة العراق في سنة ١٩٣٢ عبارة عن واجهة لصيغ ديمقراطية تبرز وراءها من الشوارع صور الضغوط وعنف الفتن والصلف ، والانانية التي كانت تمارس السلطة الحقيقية للطبقة الحاكمة الصغيرة، تلك الطبقة التي كانت من احدى النواحي تضم اكثر من الاعداد الجديرة بملء المناصب الوزارية ، ومن ناحية اخرى لاتتمتع الابتنوع ضئيل جدا في وجهات النظر لكي تتنافس على الحكم ، وعن طريق الدفاع عن المناهج التي لا معدي عنها بصفة اصلية.

ولقد كانت نتيجة ذلك كله تتمثل في التعديلات القاسية التي كانت تحل في الدوائر الحكومية، وقصر اعمار الوزارات التي لاتخلف وراءها سوى مخلفات مختصرة لكل فرد، وان تصبح خطوط الوزارات معتمدة ليس على موقف النواب الممثلين الذين يستطيعون بابداء تلميح ، من اسقاط الوزارة ، بل على الفتن الشخصية التي كانت تجري من وراء ظهورهم. لقد غدا واضحا تماما بانه اذا لم تنغمس اليد الوحيدة التي تملك السلطة في امثال هذه الدسائس الشاقة ، فان تلك اليد سوف يتم رفعها من قبل الملك ، حيث تتوفر الفرصة ، او الحتمية في الغالب ، امام بعض السلطات الاخرى للتدخل في اتخاذ قرار في الامر ، وذلك هو الدور الذي يقوم به الجيش في مثل هذه الحالة.

قد يطرح سؤال عما اذا كانت دكتاتورية الحكومة المتمتعة بالسلطة صراحة ، وحكومة الفرد المعروفة ، او محض الحكم الذي يمارسه رب الاسرة العربي› هي المفضلة؟ ، لقد كانت كل هذه الاشكال في الواقع ، اقل تقبلا بالنسبة للجمهور ، من الديمقراطية المزيفة المفروضة عليه. ذلك لان اجراءات الديمقراطية ، مهما اسيئ تطبيقها ، كانت اجراءات تهذيبية على الاقل ، وقد تظهر في الاخير ، هوة ضيقة بين الصيغة والروحية. وحتى مجلس النواب الذي كان يتم اختياره بشكل اشبه بالتعيين ، منه بالانتخاب ، كان يضم المزيد من الثقافة والتجربة ، والروحية العامة ، لان يصبح هيئة حصيفة ونقادة لها اهميتها وقيمتها ، وذلك لان السياسة والصحافة كانت على الاقل توفران مجالا للعمل امام الطبقة المثقفة التي يكون اضطهادها خطرا وعملا غير صحيح في ذات الوقت ، ولهذا فان البديل للديمقراطية قد يبرهن على قيام حكم دكتاتوري ظالم في الداخل ، ومحفوف بالخطر من الخارج ، بسبب التشابكات الدولية المتوقعة.

كان التاريخ السياسي للعراق، خلال السنوات العشر التي اعقبت انجازه لاستقلاله، يعد واحداً من البدائل، ولفترة قصيرة، عن شدة السلطة واسترخائها. فلقد كانت تصاحب فترات الشدة اجتماعات ومؤتمرات عنيفة ضد العبودية، في الوقت الذي كان يوجه فيه العيب الى فترات الاسترخاء بانها اجازة تؤدي الى الفوضى.

مرت الاشارة قبلا عن الطبقة الحاكمة. والواقع ان المطالبين بالزعامة اكثر من فرد واحد. واذا ما سمح بتحقيق مطالبيهم، فان هذه المطاليب يندر ان تكون متلائمة مع النظام الديمقراطي. ففي المجتمع العشائري ظل وضع شيوخ العشائر بما جبلوا عليه من المنافسات والانشقاق الشديد فيما بينهم. وكانت الوظائف،وهي مصدر لامعدى عنه للزعامة، وفي الوقت ذاته تؤلف العنصر الاجتماعي الرئيس، قد توسعت الآن بقبول ابناء عشائر الفرات فيها. ولقد ارتفع مستوى تهذيب الموظفين وسلوكهم، وكفاءتهم بصفة ملحوظة عما كان عليه ايام الحكم التركي. غير انه لم يكن في وضع هذه الوظائف، او في ولائها، ما يؤدي الى التضامن الصحيح مع الجماهير. ويصدق ذات الشيء على غير الموظفين من افراد الطبقة المتوسطة ذلك القسم الذي كان يضم المحامين والطلاب، والصحفيين. والاطباء وكبار اصحاب الحوانيت، والمستخدمين التجاريين، والفنيين الكبار، والمتوسطين من الرجال، والضباط السابقين.

واذ انتقلت هذه الطبقة من درجة الامية الى المطاليب التعليمية فانها كانت ذات وعي ذاتي وتمثل عنصرا متطورا وتقدمياً في بلادها. غير ان هذه الطبقة كانت تجابه نقص المنافذ الفعالة المتوفرة امامها في الحياة العامة، وعلى الاخص فشلها في اختراق الوسط الحاكم والنفاذ اليه، ومن هذه الطبقة، وقبل سنة ١٩٣٢، انبثق الساسة والجماهيريون الجدد.

وهذا العنصر الذي لاينقصه الذكاء ولا الحصافة السريعة، وفيه من المتحدثين والكتاب المؤثرين، والذي كان يتطلع بصفة متزايدة، الى ان يقود الامة، كان يضم عددا من الرجال الاكفاء المخلصين التقدميين، ولكن كان يوجد ايضا قسم اخر، اخذ يبرز نواقص الخلق السياسي العراقي، ويظهر التسرع العاطفي، وعدم المسؤولية، والانانية. ولم يبد على هؤلاء على الرغم من ادعاءاتهم بانهم من المثقفين، في الوقت الحاضر، بانهم كانوا يريدون التفوق على المدرسة القديمة كثيرا، عن طريق نكران الذات او الحكمة.

كانت المدرسة القديمة في ذات الوقت تمثل النظام الحاكم الذي يضم الوزراء والذي كان يمسك بالقسم الاعظم من زمام السلطة في سنة ١٩٣٢، والذي تحدر اعضاؤه من العوائل الثرية في المدن الكبرى، واصحاب الاراضي، وما سواهم، وكذلك من صفوف الموظفين السابقين الذين كانوا ينتمون الى تلك العوائل، اضافة الى كبار الضباط السابقين، والطبقة الصغيرة من الاشراف الاثرياء.

لقد كان هؤلاء بمجموعهم يؤلفون الهيئة المؤلفة من الرجال المتدربين ذوي الخدمة في عالم العراق. ولما كان هؤلاء قد كرسوا في الغالب كل نشاطهم لخدمة مصالحهم العائلية، فانهم لم يستطيعوا ان يتجاوزا تلك المصالح او يتخطونها. وفي الوقت الذي كانوا فيه يرغبون في تقبل الصيغ الديمقراطية، فانهم كانوا مترددين في الترحيب بالعناصر المتذمرة من خارج طبقتهم، او ممن هم دونها في المنزلة. فمثل هذه العناصر هي التي كانت تؤلف الوضع السياسي العام في العراق في سنة ١٩٣٢، او تلك التي كانت تزعم بأنها هي التي تتزعم ذلك الوضع. ولابد من ان تكشف سنين المستقبل مدى مصالحة هذه العناصر، او هضمها لها او البرهنة على جدارتها في الاذعان الذاتي.

وفي الوقت ذاته ومع وجود مادة كافية للمجالس المنقسمة، او التآمر، والفتنة والمصالح والمطامح الشخصية، كانت توجد عوامل مهمة لتوحيد الامة ايضا، اضافة الى الروابط العامة التي يمثلها الدين والثقافة، والمواطنة. فلقد كان الجمهور برمته وعلى حد سواء يخضع لنظام الانتداب بما كان يفرضه من سلطة، وما كان له من مجالس ذات نوايا طيبة[2]، ذلك النظام الذي كان الجميع يعملون ضده.

اما في المستقبل وبانقضاء السلطة المباشرة التي كانت بريطانيا تمارسها، فان خدمات طائفة من الموظفين البريطانيين في الحكومة العراقية سوف تبقى مطبقة، مهما كانت الطريقة والدرجة التي سوف يبرهن العراقيون عليها. ذلك ان المساعدة التي سيقدمها السفير البريطاني، الذي خلف المندوب السامي البريطاني سوف تكون متوفرة تماما لرؤساء الوزارات في المستقبل[*]

---

(٢) يقصد بهذه المجالس، مجالس المحافظات وحتى المجالس البلدية ذاتها.

(*) كان السفراء البريطانيون في العراق خلال الفترة ١٩٣٢ - ١٩٥١ (وكلهم ممن ورد اسمه في الكتاب) يتألفون من السرفرنسيس همفريز خلال الفترة ١٩٣٢-١٩٣٥، وكان من قبل يشغل وظيفة المندوب السامي منذ سنة ١٩٢٩، والسر ارشيبارد كلارك كير خلال الفترة ١٩٣٥-١٩٣٨، والسرموريس باترسون ١٩٣٨-١٩٣٩[3] والسربازل نيوتن ١٩٣٩-١٩٤١، والسركنهان كورنواليس المستشار السابق لوزارة الداخلية خلال ١٩٢١- ١٩٣٥ في الفترة ١٩٤١-١٩٤٥، والسر هيو ستونهور برد ١٩٤٥-١٩٤٧، والسر هنري مارك ١٩٤٧-١٩٥٠ والسرجون تروبتك ١٩٥١. اما الخدمات التي اداها للعراق كبار الموظفين البريطانيين، وان كانت ذات قيمة كبيرة في بعض الحالات، الا انها لم تكن معروفة كليا لدى الجمهور، فمن بين الذين تولوا منصب قنصل، وكانوا في الوقت ذاته يشغلون منصب القائم بالاعمال لفترات طويلة السيد «ارغل فوربس» ١٩٣٢-١٩٣٥، والسيد بيتمان ١٩٣٥-١٩٣٨ والسيد هوستون بوزول ١٩٣٨-١٩٤٠، والسيد هولمان ١٩٤٠-١٩٤٢، والسيد تومبسون ١٩٤٢- ١٩٤٥، والسيد بسك ١٩٤٦-١٩٤٨، والسيد همفري ترفليان ١٩٤٨-١٩٥٠[4]، والسيد بيل ١٩٥٠، اما سكرتاريو الشؤون الشرقية في تلك المدة فهم كل من فيفيان هولت ١٩٣٢-١٩٤٤، والسيد بيرون ١٩٤٥-١٩٤٧ والسيد دتشموند ١٩٤٨-١٩٥١.

(٣) صاحب كتاب «على جانبي الستار الحديدي» ومن الذي عهد اليهم بالتخلص من الملك غازي في سنة ١٩٣٩.

(٤) صاحب كتاب «الشرق الاوسط في غمار الثورة» ولربما اقدمنا على ترجمة القسم الخاص بالعراق من هذا الكتاب ونشره اذا ما سمحت الظروف بذلك.

وهناك عامل آخر هو وضع الملكية ذاتها. سنة ١٩٣٢. فلم يكن هناك اي توقع بان الخدمات التي كان الملك فيصل يقدمها والتي لا تمكن مقارنتها، لن تظل متوفرة لمدة عشرين سنة اخرى، ولسوف تكون هذه الخدمات قادرة على تحييد كثير من المنازعات، او المظاهر المزعزعة للحياة العراقية العامة. ذلك لان مثل هذا الامر لا يمكن بصفة رحيمة اخفاؤه عندما تحين ساعة الاستقلال.

وبما يعادل ذلك ايضا انه لم يكن من المتوقع ان تصبح احدى منظمات الامن والوحدة القومية ونعني بها الجيش الذي وضع فيه الامل، وتمثل بالطاعة قبلا وبصفة صحيحة، ان تمسك في يدها بزمام القيادة في ميدان الثورة والتنغيص، لقد اصبح ذلك الجيش، وهو من اعظم الادوات الفعالة في توحيد المظاهر، وان لم يكن حجمه ليزيد في الواقع عن فرقة واحدة وكان يقحم به في فتن مختلفة ذات درجات متباينة من بينها القومية،نقول اصبح هذا الجيش يؤلف القوة الوحيدة في السياسة العراقية المعاصرة.

لقد اتخذ الجيش العراقي، الصيغة المعتادة في البلدان الحديثة التي تختار بكل حماسة، مواقف كانت تخشاها من قبل، تلك الاقطار القديمة التي يسودها الوهم. ذلك ان فخر البلد، ورغبته في تحرره السياسي، كانا يقابلان بالترحاب بصفة عامة باعتبارهما من العواطف الممدوحة، وفي سنة ١٩٣٢ اخذ كثير من العراقيين يظهرون العواطف الوطنية باعتبارها عواطف محترمة مثلما كان عليه الامر في البلدان الاخرى. ولكن بالمشاركة مع الاقطار الاخرى، كانت القومية العراقية قد تطعمت الى حدها، بعناصر اقل احتراما.

لقد كان اصدقاء هذه العناصر يودون ان يظهروها من مظاهر تؤدي الى دمارها خلقيا، وماديا، وان تنشر الفخر الواعي للبلاد بدلا من ان تراه يتركز في طبقة صغيرة، لقد كان هؤلاء يفضلون الطموح السياسي الذي يستخدم القومية بمثابة صرخة حرب لها، وان يوجهوها نحو ضمان حياة افضل للجماهير، بدلا من توجيهها نحو الاهداف السياسية باعتبارها غايات قائمة بحد ذاتها.

فلو كانت القومية العنيفة المعادية للاجانب اقل قسوة في الواقع، واوسع قاعدة من الوطنية المتسامحة بصفة اكثر، قد اتخذت مكانتها، لكانت الآمال التي تصبو الى احراز تقدم صائب اكثر سطوعا، لقد كان عيب هذه القومية التي كانت تعمل ضد التأخر الاجتماعي. وتغتاظ من التفوق المادي والدولي للاوربيين (وغالبا ما تكتني برياح تفوقها الاجتماعي ايضا) انها كانت تساهم في صنع التأريخ المشوه، غير المنتقد والذي يتسم بالاطراء الذاتي.

لم تظهر القومية المحلية، ماخلا بالنسبة الى قلة من الافراد، سوى الشئ القليل من التثمين لما تستطيع المدنية الغربية ان تقدمه، وفي احسن حال تكون عليه، في ميدان التسامح، والكرم، والحرية الصادقة، والمساواة في الفرص، والقليل من الفهم للحكمة العملية التي تتسم بالمحافظة

الذاتية بالنسبة الى الامم الصغرى، وتقبلها بود لمكانة هذه الامم الصغرى، الى جانب دول اقوى. غير ان الحساسية العنيفة او المدمرة كان يجري توجيهها ضد الاذى من امثال مخاوف التدخل الامبريالي، او الحركات المشبوهة التي كانت تقوم بها الامبريالية.

وما ان تم تشخيص القومية خطأ بالوطنية ، حتى اصبحت ميدانا للتنافس السياسي الذي يكون فيه اشد المعادين للاجانب ، هو الوطني الاعظم [٥] فهذا المظهر الملح للسياسة العراقية قد كلفها تصرفها، في بعض الاحيان، حياة البعض من خيرة ابنائها، وحرم الشعب من المنافع الحقيقية.

كانت في الميدان الدولي ، ثلاث مهام اساسية قد تؤول الى الامة العراقية بعد سنة ١٩٣٢. اولاها هي الافادة الى اوسع مدى، من المساندة والمساعدة اللتين قد يهيؤها حليفها لها، من دون تدخل او بحث ذاتي لتقديم تلك المساعدة. والمهمة الثانية هي ان يساير العراق السياسية العالمية ويلائم نفسه معها كي يضمن سلامته في اي ضرب من الصراع بين الدول قد ينشب . اما المهمة الثالثة فهي ان يتخذ خطوات ، من امثال الاحساس الشعبي، قد يشير الى الاتجاه لاقامة علاقات اوثق مع بقية اقطار العالم العربي.

فالاولى من هذه المهام ، وان لم تكن تتطلب اكثر من صيانة العلاقات الودية المتبادلة مع البريطانيين ، فانها لم تكن مهمة شاقة، ذلك لانه لا يوجد فعلا ميدان للتصادم في المصالح بين الحليفين، وان الحملات الصحفية الشديدة ضدالاجانب من المستطاع تقييمها، دون شك من قبل الطرفين. اما بالنسبة الى الشؤون الدولية خارج العراق، فلم يكن امام حكومة العراق اي خيار الى حين ان وصل الحزب النازي الى الحكم في المانيا، وانجذاب كثير من العراقيين الى صيغ ذلك الحكم النازي وطرائقه•الامر الذي اوجد اغراءا لقيام حركة: داخل السياسة العراقية، مجانبة لبريطانيا، وباتجاه الاعداء المحتملين لها، ذلك الاغراء الذي فشلت في مقاومته حكومة عراقية قامت بعد عشر سنوات من ذلك الوقت.

اما بالنسبة الى العالم العربي فان هذه الحركة قد سارت قدما بصفة حتمية، وكان ينظر اليها نظرة عطف عام . ذلك لان فكرة «الوحدة العربية» قد اخذت تظهر في المناهج الوزارية حتى قبل ان تنتهي فترة الانتداب. ومع ان كل رجال الدولة لم يعطوا تفسيرات محددة لها، او يولوها الاولية ، الا ان الفكرة لم تخفق في جذب اهتمامهم. لقد كانت هذه الوحدة في الواقع ، من النوع الذي يقع بصفة ضمنية، في نطاق المحيط اللغوي والثقافي المشترك للعرب، وتقاليدهم المشتركة،

---

(٥) هنالك فرق في مفهوم الوطنية لدي الغربيين عنه لدى الشرقيين والعرب خاصة فالقومية NATIONALISM تختلف اختلافا كبيرا في المعنى والقصد عن الوطنية PATRIOTISM الى درجة ان كلمة «القومية» اصبحت في النهج السياسي في الغرب ولدى اليساريين بصفة اخص، تعني المحافظة او التعصب ولذلك اتهمت الحركات القومية لدى اليساريين بالفاشية والنازية.

والدين والعزة القومية، وابتداء من العراق حتى المغرب، كما انها كانت من الناحية السياسية، تعكس ذكرى الامبراطوريات الاسلامية التي قامت في العصور الوسطى (وان كانت تلك الامبراطوريات بصفة اساسية غير عربية في الواقع). كما انها كانت وريثة للقومية العربية المصممة التي ظهرت في اوائل سني القرن العشرين.

كان العراقيون شديدي الاهتمام، وبصفة خاصة جدا، بالوعود التي قطعت للملك حسين اثناء الحرب عندما اصبح انشاء حكومة عربية واحدة امرا متصورا، وحين اشتد الالحاح على لأم كيان امة عربية اوسع، كما تصبح مثل هذه الامة الكبيرة موازنة اكثر ثقلا بالنسبة الى السيطرة الاوربية، ولاصلاح التمزق الذي اصاب البلاد العربية بعد الحرب، وادى الى اثارة السخط والتذمر، وللتمتع بحياة اقتصادية واجتماعية اكثر سعة.

ولكن كانت هنالك عوامل اخرى لم يكن من اليسير الكشف عنها، والتي ينبغي التوقع بانها سوف تجعل الوحدة السياسية امرا يصعب تحقيقه. ولم تكن مثل هذه المؤثرات تقتصر على الانفصال الجغرافي الواضح وحده حسب، وانما كانت تشمل الولاءات المحلية المميزة التي تطورت منذ سنة ١٩١٨ بفعل التشجيع التام الذي كانت تلقاه من لدن الحكومات المتعاقبة في البلدان العربية.

على مثل هذه الشاكلة برزت الخلافات في التوجيه، وفي المصالح الاقتصادية والزعامات الشخصية للاسرة الحاكمة، او لرجال الدولة، ومراحل التطور التي تحققت في مختلف البلدان. يضاف الى ذلك، التباين، بصفة عامة، بين العطف الاخوي الموروث غير المجرب والمطالب الهينة المؤكدة للوحدة السياسية الحاضرة. وهناك عقبة اخرى لابد من تحملها ونعني بها فردية الشخصية العربية التي تقاوم الخضوع والمصالحة. لقد كان ينبغي مجابهة كل هذه المشاق عندما اصبحت الوحدة العربية بعد اثنتي عشرة سنة، تؤلف، في نطاق الأماني العراقية وعلى مدى واسع، حقيقة سياسية اصولية، ولتبرهن على جسامتها.

٢ ـ ذروة المشكلة الاثورية

كانت المظاهر الادارية والسياسية للحياة العراقية، والمماثلة لتلك المظاهر التي وجدت في سنة ١٩٣٢، قد استمرت في سيرها المعتاد لمدة ثلاث سنوات اخر واكثر من ذلك. ولكن في خريف تلك السنة برزت دلالة صغيرة لحدوث تغيير مفاجئ كان يشير الى ازالة الضغوط والى تعاظم الاتجاهات الخطرة التي جئنا على وصفها في الصفحات السابقة. فلم يعد نوري السعيد متلهفا لاطالة امد رئاسته للوزارة، وذلك لان مركزه القوي في البرلمان، قد تعرض للهجوم الشديد من خارج البرلمان، على يد حزبين هما حزب الاخاء والحزب الوطني. ذلك ان صحافة هذين الحزبين اخذت تهاجم بصفة متكررة الوزارة القائمة وتستنكر مجددا المعاهدة البريطانية، الى ان تم تشريع قانون «حظر الدعاية المضرة» لكي يكبح جماح تلك الصحافة.

كانت الفئة اللبرالية او الاصلاحية التي تكونت الان بين المحامين والصحفيين والعناصر المثقفة التي نفد صبرها، والتي اتجهت لاول مرة نحو القضايا الاجتماعية باعتبار ان هذه القضايا هي اساس السياسة، تأمل ان تساوق نفسها وصحيفتها «الاهالي» في اتجاه قيام حكومة اكثر تقدمية

وكان الملك ومستشاروه الذين كانوا يفكرون في استعمال عبارة «المقدمات المحددة» قد اخذوا يكيفون انفسهم بالنسبة الى العهود الجديدة لغرض البدء بمقومات تهدف الى ايجاد وحدة وطنية اوسع بين السنة والشيعة، وبين الاقطاعيين والفلاحين، وبين ابناء العشائر وسكان المدن، وبين الاكراد والعرب، وايجاد ادارة افضل، وتحقيق تطوير اوسع، وبناء جيش اقوى.

ومثل هذا المنهاج يمكن ان يتحقق بصفة افضل عن طريق تأليف حكومة تشترك فيها كل الاحزاب، وهذا معناه انه يشير الى تشكيل وزارة من حزبي «الاخاء» و «العهد»، وبعض العناصر المستقلة. وفضلا عن ذلك كان الاحساس السيئ ينبع من القضايا الشخصية والخاصة، ولربما كانت من ضمن ذلك صبغة خفيفة من غيرة الملك فيصل من النجاح الذي حققه نوري السعيد، ذلك النجاح الذي جعل مركز نوري السعيد منيعاً.

كان التحالف الذي قام بين حزبي «الاخاء» و «الوطني» مايزال حديث العهد، ولم يستطع الملك ان يتقبل الشرط الوحيد الذي اشترطه ياسين الهاشمي، وكذلك رشيد عالي الكيلاني،

الذي يشغل منصب رئيس الديوان الملكي الان، ورفاقها ، للقبول بتأليف الوزارة، الا وهو اعادة النظر في المعاهدة. على ان التوفيق الذي تم اختياره آنذاك، كان ينطوي على تأليف وزارة حيادية يرأسها ناجي شوكت، كانت تضم بين اعضائها مجموعة من المحامين المبرزين، من بينهم نصرت الفارسي ذلك الرجل القدير الحذر، وجميل الوادي، وجلال بابان، وهو ابن عم بعيد لجمال بابان، اختير مثل جمال بصفته من الاكراد للاغراض الوزارية. ولقد تولى هؤلاء وزارات المالية، والعدل، والاشغال بالتتابع. وهناك رشيد الخوجة، وهو ضابط سابق وقدير عمل محافظا لبغداد، وقد اسندت اليه وزارة الدفاع، وعين عباس مهدي المعتدل لوزارة التربية، في حين اختير الرجل الحصيف «عبد القادر رشيد» لوزارة الخارجية[١].

تألفت الوزارة الجديدة في اوائل شهر تشرين الثاني سنة ١٩٣٢[٢] وكان ينظر اليها نظرة خالية من الحماسة من لدن المعتدلين، ونظرة كلها نفور من قبل «الأخائيين».، ولذلك فان منهاجها الذي ضم قائمة اعتيادية من الاهداف التي لا يمكن تطبيقها، ولا تحقيقها على نطاق واسع ، لم يفعل سوى الشيء الضئيل لتركيزها. وعلى هذا الاساس قرر ناجي شوكت ان يدعم وزارته هذه، بمساندة برلمانية اوسع عن طريق اجراء انتخابات نيابية جديدة، في ذات الوقت الذي سمح فيه لحزب العهد ، حزب نوري السعيد بان يلفظ انفاسه.

لقد جاءت تلك الانتخابات التي قاطعها عبثا حزب «أبي التمن» بمجلس نيابي معقول، راغب في تأييد وزارة ناجي شوكت. كما ان ناجي شوكت نفسه كان بدوره على استعداد، مقابل ذلك ، لأن يستبدل موقفه المؤقت بتأليف وزارة دائمة. غير ان افتتاح شهر اذار سنة ١٩٣٣ ، قد كشف عن ان الوزارة الشوكية لم تكن تحظى الابحماسة ضئيلة في الوقت الذي تعرضت فيه لهجمات حزب «الاخاء». ولما لم يستطع ناجي شوكت ان يكيف نفسه وفقا لرغبة الملك في تأليف وزارة من كل الاحزاب، وتضم كل عناصر الدولة المبرزين لدى الملك، فقد تظاهر، اي ناجي شوكت بالمرض وقدم استقالة وزارته[٣]

كان تأليف وزارة يرأسها رشيد عالي، وبوجود مجلس نيابي تم انتخابه بصفة مغايرة لاكثرية

(١) كان المرحوم عبد القادر رشيد اول من اخرج ترجمة عربية موجزة عن الفرنسية لقصة الكاتب الاسباني الشهير «ميجويل سرفانتس» المعنونة «دون كيخوت» وطبعها طبعا انيقا في القاهرة في اواخر سني العشرينات.

(٢) تألفت وزارة ناجي شوكت في اليوم الثالث عشر من تشرين الثاني سنة ١٩٣٢ ، وتولى فيها «جلال بابان» وزارة الاقتصاد الى جانب وزارة الاشغال والمواصلات.

(٣) استقالت وزارة ناجي شوكت هذه في يوم ١٨ اذار ١٩٣٣ ، في حين الف رشيد عالي وزارته في اليوم العشرين من الشهر ذاته واستمرت حتى اليوم التاسع من ايلول ١٩٣٣ نتيجة وفاة الملك فيصل الاول ، لكن الكيلاني اعاد تشكيلها في ذات اليوم ولبثت حتى اليوم الثامن والعشرين من شهر تشرين الاول من ذات السنة.

الاخائيين، صور تصويرا جيدا تلك المفارقة القائمة بين الوزارات العراقية والمجلس النيابي. ذلك لأن النواب الذين تم انتخابهم باعتبارهم مؤيدين للفئة الحكومية اي «اصحاب الكرات البيض» لابد وان يساندو المعارضين «اصحاب الكرات السود» من باب المجاملة والملاطفة، مما جعل مقاعد اولئك النواب المؤيدين معرضة للخطر اكثر من اية هيئة اخرى لها مبادؤها.

بدأ رشيد عالي يطالب بان تطلق يده في تعديل المعاهدة، غير ان الملك، لم يستطع ان يقنع رشيد عالي بالتخلي عن هذه الفكرة، الا بعد ان هدد بالتنازل عن العرش[٤].

ولذلك اعلن في اليوم العشرين من الشهر ذاته عن تأليف وزارة جديدة برئاية ياسين الهاشمي، تولى فيها – الى جانب الرئاسة – منصب وزارة المالية، واعطيت فيها وزارة الداخلية الى حكمت سليمان، والخارجية الى نوري السعيد، والدفاع الى جلال بابان وعين عباس مهدي وزيراً للتربية ورستم حيدر للاشغال والمواصلات، واستوزر احد المحامين، وهو محمد زكي البصري وزيرا للعدل.

وسرعان ما قوبلت هذه الوزارة بالتعاون الوطني الاصيل، فسارعت الى نشر منهاج يثير الدهشة عن الاصلاحات التي تنوي القيام بها ولكن مع كل ذلك فقد خسرت هذه الوزارة تأييد الوطنيين لها بسبب الضعف الذي اظهرته ازاء المعاهدة. ولقد نشر اولئك الوطنيون، في شهر حزيران من تلك السنة، بياناً استنكروا فيه موقف الحكومة[٥].

ومرة اخرى كان هناك عنصر منفرد في الدولة قد اظهر رغبته في اثارة العنف العشائري، تمهيدا للاتيان بحكومة وحدة وطنية جديدة. وعلى الرغم من كل هذه الامور فان الحوادث المؤسية التي وقعت في خريف سنة ١٩٣٣، هي التي انقذت وزارة الاخائيين من الخطر المحيق

---

(٤) لايوجد ادنى شك في ان الملك فيصل الاول كان في تلك الايام يركز كل اهتمامه في الغاء فترة الانتداب البريطاني على العراق، وقبول العراق عضوا في عصبة الامم، ولذلك كان فيصل في تلك الفترة يعارض اجراء اي تعديل او مساس بمعاهدة سنة ١٩٣٠ مخافة ان يؤدي مثل هذا العمل الى اثارة نقمة الانكليز واستغلال ذلك مبررا لاطالة امد الانتداب، وتأخير اعلان استقلال العراق، ومن هذا المنطلق انبعثت معارضة الملك فيصل لما حاوله رشيد عالي بشأن المعاهدة والاصرار على ان تبقى المعاهدة دون مساس الى ان يتحقق الاستقلال ويزول الانتداب.

(٥) يراد بكلمة «الوطنيين» هنا اعضاء الحزب الوطني الذي يتزعمه جعفر ابو التمن وكان الحزب الوطني قد انفصل عن حزب الاخاء الذي تآخى معه منذ سنة ١٩٣٠. ففي اليوم التاسع من حزيران ١٩٣٣، نشر الحزب الوطني بيانا هاجم فيه الوزارة الكيلانية لانها لم تتألف من الكتلة النيابية المعارضة، ولانها كانت تعتبر معاهدة سنة ١٩٣٠ «خطوة الى الامام لاتنكر» كما نوه الحزب بالمخاوف التي قد تنجم عن موضوع حراسة المطارات الانكليزية وما اذيع عن عزم الحكومة الحصول على قرض من عوائد النفط لانفاقه على انشاء قسم من سكة حديد «حيفا – بغداد» وسد العجز في الميزانية، وغير ذلك من النقاط التي جاء البيان على ذكرها.

بها[٦] حيث توحدت كل انحاء البلاد، ولو بصفة مؤقتة، في تأييد الاخائيين باعتبارهم انهم هم حماة الامة.

كان الملك فيصل الاول الذي دعي للقيام بزيارة رسمية الى انكلترا، والتي احسن توقيتها، قد ترك ابنه غازي الذي يبلغ الحادي والعشرين من عمره، وصيا عنه في بغداد. وقد وصل فيصل الى لندن في اليوم العشرين من شهر حزيران، بصحبة ثلاثة من الوزراء هم ياسين الهاشمي، ونوري السعيد، ورستم حيدر، كانت تلك الزيارة ناجحة نجاحا تاما. فبعد اقامة امضاها في قصر بكنغهام، قام فيصل بزيارة سكوتلندا، وديفو نشاير، كما امضى اياما اخرى في سويسرا[٧]

انتهى التمرد الاثوري وانسحبت القوات العراقية، وعاد القرويون الى منازلهم، واقيم مخيم للاجئين في الموصل على نفقة الحكومة العراقية، انها اعادة غريبة لذات الاوضاع التي شهدتها بعقوبة في سنة ١٩١٩ عندما تم جمع الاثوريين هناك في مخيم اقيم لهم فيها. كذلك تم نقل المئات من الاثوريين العاملين في قوات المرتزقة الى مواقعهم في معسكر الهنيدي، وامتلأت الموصل بالمئات من اللاجئين العاطلين عن العمل وغير الصالحين له. وخوفا من تفاقم المشاعر، تم اخراج والد مار شمعون، واخيه، وعمته من الموصل.

وجد الملك فيصل الذي لم يلق المسامحة على تدخله، بانه قد تم تجاهله وسط التهليل والترحيب اللذين كان يلقاه ولده «غازي» والقادة. ولذلك عاد فيصل في اليوم الثاني من ايلول الى اوربا للعلاج الطبي مريضا فاقد الحمية، في الوقت الذي تم فيه نقل المارشمعون على متن احدى طائرات القوة الجوية البريطانية الى مكان امين في جزيرة «قبرص»، ومن ثم انضمت اليه اسرته هناك، وخصصت الحكومة العراقية مخصصات لمعيشته شريطة ان يقلع عن الاقدام على اية سياسة تحريضية، ولكن المارشمعون مالبث ان خرق هذا الشرط منذ اول ساعة قبل به فيها، وشرع من قبرص، يمطر عصبة الامم بوابل من ادعاءاته ومطاليبه.

كانت عودة السفير البريطاني السر فرنسيس همفريز الى بغداد في اليوم الثالث والعشرين من شهر آب، وهو يحمل الى الحكومة العراقية تأكيداً بعدم حدوث اي تدخل بريطاني لصالح الاثوريين، قد اتاحت الفرصة امام الوزارة الكيلانية لكي تتنفس الصعداء، وهكذا اخذ التوتر وثورة العواطف اللتين شهدهما منتصف شهر آب، بالاختفاء تدريجيا، وهكذا وصلت الانباء في اليوم الثامن من شهر ايلول الى بغداد، تعلن بان الملك فيصل، الذي كان الى جانبه اخوه الملك علي، ونوري السعيد، ورستم حيدر، قد توفي فجأة على اثر نوبة قلبية اصابته في مدينة «برن» بسويسرا.

---

(٦) يقصد المؤلف بالحوادث المؤسية تمرد الاثوريين في صيف سنة ١٩٣٣ واضطرار الحكومة العراقية لاستخدام قوات الجيش العراقي في ضرب ذلك التمرد، الذي وقت القيام به في الموعد المحدد لاستقلال العراق، وانتهاء الانتداب البريطاني عليه.

(٧) انظر تفاصيل هذه الزيارات التي قام بها فيصل الاول في مذكرات الدكتور سند رسن التي ترجمناها وصدرت لها ثلاث طبعات آخرها الطبعة التي صدرت في سنة ١٩٨٥.

٢ ـ الوزارة الهاشمية

كانت الرجة التي احدثتها هذه الخسارة التي لاتعوض مفاجئة بصفة مؤثرة . وصاحبتها موجة من الاحتقار الناكر للجميل ، وحولت اتجاه الرأي العام في غضون ساعة واحدة[١] ولكن فيصل مالبث بعد ذلك ان استعاد بكل استحقاق ، ماكان له من مكانة في اعتبار العراقيين ، وهو اعتبار بدا واضحا لدى وصول جثمانه من مينائي «تريست» و «حيفا» في اليوم الرابع عشر من شهر ايلول ، وذلك في التعبير عن الحزن الواسع الذي اصاب الامة العراقية. لقد كانت خدمات فيصل في الواقع تتجاوز الثمن بالنسبة الى دولة كان هو روحها ومجسدها معا على حد سواء . ولسوف تبرهن تلك الخدمات في الايام المقبلة ، بانه لايمكن الاستغناء عنها قط . فلم يعد مستطاعا لاي احد سواه ان يحتل مكانه بصفة موازن للقوى ، او ان يحتفظ بعلاقاته المتعادلة مع اصحابه المتطرفين ، ومع البريطانيين ، وطائفة المثقفين في المدن ، ورجال العشائر الشرسين. كما ان احدا غيره لم يكن في مستطاعه ان يهيمن بميزته الشخصية ، على الطبقة الحاكمة ووزرائها الذين كانوا يثيرون الفتن . لقد كان مستطاعا تجنب الكثير من الاضطرابات التي حدثت خلال الفترة من سنة ١٩٣٣ حتى سنة ١٩٤١ لو ان حكمة فيصل وتجربتها قد تم ادخارها لدولة العراق في تلك السنوات .

اقسم «غازي» ووريث الملك فيصل الذي ارتقى العرش ، يمين الاخلاص الرسمي ، وتبادل البرقيات مع الملك جورج الخامس ، كما تقبل استقالة الوزارة القائمة . كان غازي انذاك في

---

(١) كان التهمة الموجهة الى فيصل من الطامعين في التحكم والتسلط سواء في ذلك رجال المدرسة القديمة في السياسة ، ام المثقفون الجدد المحرومون ، ام العناصر التي الفت التمرد واثارة الفتن من رجال الدين وشيوخ العشائر ، انه كان يمالئ الانكليز ويسايرهم . وقد نسى هؤلاء جميعا ، وعلى الاخص بعد ان فشلت ثورة سنة ١٩٢٠ ذلك الفشل المريع في تحقيق اهدافها ، بان العراق لم يكن منذ الغزو المغولي ومابعدها شيئا مذكورا لا في تأريخ العالم ولا بين الامم . وان فيصل بمساعدة المخلصين من العراقيين وغيرهم ، قد استطاع لاول مرة ان يضع اسس قيام حكومة عراقية يديرها العراقيون بانفسهم . ولم يكن في مستطاع اي حاكم مثله يبرز في بلد تحتله الجيوش الغازية ، ويعوزه النصير من اي بلد اخر في العالم ، عربيا كان ذلك النصير ام غير عربي ، ان يقف بوجه الانكليز ويصارعهم لانه لايملك القوة لعمل ذلك . وهذه حقيقة ماتزال تغيب حتى اليوم عن اذهان كثير ممن يدعون الالمام بالحقائق ، ودراسة الموضوعات المتعلقة بالحكم ، من الذين يحكمون او يؤرخون الوقائع بحكمة وانصاف ونحن لانريد بهذا القول ان ندافع عن فيصل ورجاله ، وانما الحقيقة تقتضي مثل هذا القول

الحادية والعشرين من عمره ، فتى نشطا ووطنيا حمسا ، ومحبوبا . وكان يتمتع بالشعبية من لدن الجماهير ومن ضباط الجيش الذين درس معهم في كلية «هارو» لفترة غير ناجحة . ولكن ، مع ذلك ، كان ينقصه الاعداد الذهني والأهتمام بالشؤون العامة . وهذا النقص بالاضافة الى تكريسه وقته للمرح والالعاب قد اضعف الامل في البرهنة على كماله للنهوض بوظائف الملكية في العراق .

تم استيزار رشيد عالي الكيلاني ، واستطاع هذا ان يستفيد من الالتحام الوطني الذي حصل بين ابناء الشعب وعودة الامور الى حالتها الاعتيادية بعد الهجمات الصحفية والتظاهرات الشعبية التي وقعت في شهر آب.ولكن مهما كانت نوعية الالتزامات السابقة التي التزم بها رشيد عالي فانه لم يستطع الان ان يفعل شيئا ما ، اكثر من ان يعيد التأكيد بانه سوف يقتني سياسة فيصل «والتي كانت تتمثل في المعاهدة وفي الصداقة مع بريطانيا .

ولكن الحزب الوطني الذي يتزعمه جعفر ابو التمن ، والذي بقي مثابرا على خطته التحريضية السابقة حتى في فشل تلك الاحوال ، هذا الحزب مالبث في اليوم الثالث لتأليف الوزارة الجديدة ان اصدر بيانا اخر معاديا للوزارة الاخائية [٢] ولذلك قرر رئيس الوزراء ان يعزز مركزه بالدعوة الى اجراء انتخابات جديدة ، وتأليف مجلس نواب جديد ، يكون اكثر انقيادا للوزارة . غير ان الملك غازي وبنصيحة من علي جودت الايوبي ، رئيس الديوان الملكي ، رفض الموافقة على حل مجلس النواب [٣] ولم تلبث ان حدثت رجة للوزارة عندما استقال وزيران منها [٤] ثم اعقب ذلك سقوط الوزارة بكاملها في اليوم الثامن والعشرين من شهر تشرين الاول سنة ١٩٣٣ .

كان رئيس الوزراء المقبل ، جميل المدفعي ، شخصية صائبة ومخلصة ، ولكن كان ينقصه الالهام . ولما لم يكن المدفعي راغبا في البقاء في رئاسة الوزارة طويلا ، فانه كان يطالب بالتأييد

---

(٢) هاجمت المعارضة ، ومنها حزب ابي التمن من الكلمة التي القاها الكيلاني في اعقاب اعادة تأليفه الوزارة عندما قال فيها ان السياسة التي سارت عليها البلاد ، والتي من اهم اركانها الاعتماد على الصداقة بين العراق وبريطانيا سوف لايطرأ عليها اي تغيير فقد اعتبرت المعارضة ان هذا التصريح جاء مخيبا للآمال المعقودة على تعديل معاهدة ١٩٣٠ ولذلك اصدر الحزب الوطني في الحادي عشر من ايلول بيانا قال فيه بان الحزب لم يكن يتوقع في مثل هذا العهد الجديد السير على الخطة الماضية التي حققها حزب الاخاء والحزب الوطني معا والتي تنم عن تأييد المعاهدة. وذكر هذا البيان بان الحزب سوف يبين موقفه ازاء هذه السياسة الرجعية بعد انتهاء ايام الحداد الرسمي ولكن بيان الحزب لم يصدر بل صدر بيان ابي التمن عن اعتزاله السياسة في اليوم الاول من تشرين الثاني سنة ١٩٣٣ .

(٣) من هذه اللحظة برزت الاطماع والمصالح الذاتية للشخصيات التي كانت ملتفة حول فيصل وبدأت منا وراتها ومؤامراتها لاضعاف مركز غازي ولنشر الفساد في السياسة العراقية التي تدهورت تدهوراً واسعا في السنوات القلائل التي اعقبت وفاة فيصل والتي كانت من العوامل الاساسية التي ساعدت على وقوع انقلاب بكر صدقي ، وماتلته من ازمات ورجات اختتمت بثورة ايار سنة ١٩٤١ ولقد فصلنا العوامل الرئيسة لانقلاب بكر صدقي في كتابنا الذي اعددناه والذي نأمل ان يتسنى لنا نشره في ظروف مناسبة قادمة .

العام له ، لكنه لم يضغط على اجراء انتخابات جديدة . ضمت وزارة المدفعي كلا من جمال بابان للعدل ، ونوري السعيد للخارجية ، وناجي شوكت للداخلية ، ورستم حيدر للاشغال ، ونصرت الفارسي للمالية وصالح جبر للتربية ، وهو شاب شيعي جديد ذو قابلية عالية !! واذ شرعت الوزارة باجراء تغييرات اعتيادية بين كبار الموظفين ، فقد استطاع المدفعي ، وبافضل مايستطيع ، ان يكبح جماح جماعته القلقة ، وان يوجه الترتيبات اللازمة لاعلان خطوبة غازي على اول مولودة لعمه علي ، هي الاميرة عالية ، وذلك في اليوم الخامس والعشرين من شهر كانون الثاني سنة ١٩٣٤. عايش وزراء المدفعي المقاطعة التي امتدت مدة شهر في بغداد ، لشركة التنوير الكهربائي ، تلك المقاطعة التي نظمها اصحاب المقاهي ، والمنتفعون من اليهود ، وبالعمل الموجه المباشر الذي شارك فيه الساسة . غير ان فظاظة حدثت في الاوساط الوزارية ، اوجدت هوة بين النواب عندما جرت مناقشة مشروع «سدة الكوت» والتي ادت اول الامر الى استقالة رستم حيدر من منصبه ، ومن ثم الى استقالة رئيس الوزراء نفسه في اليوم العاشر من شهر شباط ١٩٣٤

* * *

بقي غازي ، وفقا للنصح الذي قدم اليه ، يرفض اجراء انتخابات عامة ، وذلك هو الشرط الذي قد يستعيد الاخائيون به الوزارة . وبدلا من ذلك رأى غازي ان من الحصافة ان يستدعي جميل المدفعي مرة اخرى الى تأليف الوزارة ، لكن المدفعي ، نبذ الوزراء الذين ادت خلافاتهم الى اسقاط وزارته الاولى ، وهم نوري السعيد ، ورستم حيدر ، وناجي شوكت ، وصالح جبر ، فاختار بدلا منهم كلا من ناجي السويدي ، وعباس مهدي ، ورشيد الخوجة ، وجلال بابان ، والطبيب عبد الله الدملوجي لاول مرة ، والذي كان وزيرا للخارجية خلال سنتي ١٩٣٠ - ١٩٣١ .

على ان هذه الوزارة التي اعيد تأليفها كانت اكثر نجاحا ، ولو بنسبة اقل ، من الوزارة السابقة . ذلك لان انحطاط الادارة منذ اواخر القرن التاسع عشر ، وسني العشرينات من القرن الحالي ، اصبح من الامور المؤكدة وعلى نطاق واسع . ولذلك تعرض رئيس الوزراء ، ومن دون انصاف ، الى اللوم الذي وجهه اليه خصومه. فلقد كانت هجمات صحافة الاخائيين مفرطة ، الى درجة ان الاحتفالات التي نظمت في شهر حزيران سنة ١٩٣٤ ، احتفاء بذكرى ثورة ١٩٢٠ ، لم تنجح لاتخاذها وسيلة من وسائل التلهية . ذلك لان تأييد البلاط كان فاترا ، ولان المدى الذي تأكد فيه الان بان الملك الشاب سوف يقصر فيه عما كان لوالده ، لابد وان يقلل من قيمة مثل هذا التأييد . ولقد تفاقم انعدام شعبية الوزارة بعد ان ضمت اليها شخصا

نائبا من اسرة السويدي ، حين حل توفيق السويدي محل عبد الله الدملوجي في وزارة الخارجية (٥) .

لم يكن الامر ينقصه تدبير مكيدة ضد رئيس الوزراء في الاوساط المعارضة العليا ، القريبة من العرش ، ولذلك قوبلت المصادقة على قرض قانون التجنيد الاجباري خلال فترة طويلة ، باختلاف ظاهر . واخيرا وفي شهر اب قدم المدفعي استقالة وزارته . ولم يجر تناسي «علي جودت» رئيس الديوان الملكي ، والذي كان منصبه المفضل هذا ذا تأثير على الملك ، وفي تنظيم المخالفات الملائمة ، ولذلك تقبل علي جودت رئاسة الوزارة ووزارة الداخلية في اليوم الثامن والعشرين من اب ، ولقد احتل رستم حيدر مكانه في البلاط ، في حين تولى نوري السعيد ، الذي عاد الى دخول الوزارة ، منصب وزير الخارجية ، واعطيت وزارة الدفاع الى جميل المدفعي نفسه وعين «ارشد العمري» وهو مهندس تركي الثقافة ومن اسرة شهيرة في الموصل ، وزيرا للاشغال في حين اعطيت وزارة المالية الى الاقتصادي المسيحي «يوسف غنيمة» وسلمت وزارة التربية الى عبد الحسين الجلبي .

كان اول عمل اقدم عليه علي جودت هو حل البرلمان ، وتلك خطوة مشكوك في دستوريتها ، ولذلك استنكرها الاخائيون ، لكنها كانت ضرورية لضمان التأييد البرلماني (٦) وفضلا عن ذلك سار علي جودت الى ابعاد لم تكن مأمونة في العراق ، كما زعم خصومه ، في اعطاء الاوامر الى موظفي المحافظات بشأن الاشخاص الذين يجب ان يعودوا الى مقاعدهم في مجلس النواب . اجتمع البرلمان الذي نجم عن تلك الانتخابات في الاسبوع الاخير من سنة ١٩٣٤ (٧) ولما كان ذلك البرلمان مدعما من قبل الاشخاص الذين رشحهم رئيس الوزراء نفسه ، فانه لم يكن ليمثل المعارضة الاخائية.

---

(٥) كان لابد ان تنتهي مدة عضوية عبد الله الدملوجي في الوزارة في اليوم العشرين من شهر اب الا اذا تم انتخابه نائبا او عين عضوا في مجلس الاعيان قبل ذلك اليوم تطبيقا للدستور ولهذا السبب رفع الدملوجي استقالته الى رئيس الوزراء في اليوم الثامن عشر من تموز ملمحا فيها الى موضوع العضوية في مجلس النواب او الاعيان ولكن ذكر ان سبب الاستقالة هو مانمي الى رئيس الوزراء جميل المدفعي من كلام تفوه به الدملوجي مع حاكم «كرند» الفارسي من كلمات لم يرض عنها رئيس الوزراء . ومما تجدر الاشارة اليه ان توفيق السويدي كان في ذلك الوقت يشغل منصب ممثل العراق الدائم في مجلس عصبة الامم .

(٦) وجهت الاتهامات الى علي جودت بشأن موقفه السابق من البرلمان ، واقدامه بعد توليه رئاسة الوزارة ، على حل ذلك البرلمان الذي عارض في حله قبلا عندما اراد المدفعي ذلك ، وقد رد تلك الاتهامات بالادعاء بان الظروف التي تولى فيها رئاسة الوزارة تختلف عن سابقتها بحجة ان البلاد قد فجعت بوفاة فيصل/وان الظروف انذاك لم تكن ملائمة لاجراء انتخابات جديدة

(٧) اخطأ المؤلف عندما ذكر ان البرلمان الجديد قد اجتمع في الاسبوع الاول من سنة ١٩٣٤ والصواب هو ان البرلمان قد اجتمع في يوم السبت التاسع والعشرين من شهر كانون الاول ١٩٣٤ .

على ان علي جودت ، لم يستطع ان يحقق التعاون المرغوب فيه نتيجة ضعفه امام الناطقين باسم العشائر والتظلم الذي كان الشيعة يظهرونه ، ولان المبادرة التي اقدم عليها في تأسيس «حزب الوحدة الوطنية» الذي يندر ان يكون قد تمتع بالحياة قبل زواله[٨]. لقد انتقدت الاجراءات التي اتخذت في الانتخابات انتقادا صارما في مجلس النواب ، كما عارض الاعيان ذلك النظام ايضا، الى درجة انهم اخذوا يتغيبون عن حضور الجلسات . وثار سخط الاوساط السياسية في بغداد ، نتيجة استبعادها ، وفي كثير من التصرفات اللاقانونية المزعومة الصقت شعارات ومنشورات معادية على الجدران ، ووزعت في المقاهي، وهكذا ظهرت كل النواقص الادارية مرة اخرى ، وكانت تعزى بصفة غير معقولة ، الى رئيس الوزراء نفسه.

لم تكن الوزارة في حال تحسد عليها. فقد اخذ المدفعي والعمري يشعران بان اخلاصها مشكوك فيه ، في الوقت الذي لم يكن فيه يوسف غنيمة ليمثل سوى مجرد تظاهرة سياسية . ومع ذلك فقد كان العنصر الشرير كثيرا هو نهر الدعاية المدمرة الذي كان يتدفق باستمرار من العاصمة، لاثارة ابناء العشائر في التعبير عن عواطف كانت ترتبط في النهاية بالعنف المضاد للحكومة . كان مفهوما ان تلك الدعاية كانت تنبع من لدن مجموعة من رجال الدولة المعارضين المتشددين في مخاوفهم، والذين كان يتزعمهم حكمت سليمان . كانت تلك الدعاية موجهة الى العناصر الكردية التي يتوقع ان تنهد الى التمرد في اقصى الشمال ، كما كانت موجهة بصفة منتظمة ايضا الى عشائر الفرات التي تسيطر النجف عليها ، حيث تم استبعاد بعض الساسة من شيوخ العشائر ، من امثال عبد الواحد الحاج سكر رئيس عشيرة «الفتلة» عن البرلمان بصفة غير حكيمة.

كانت لدى الشيخ عبد الواحد مطاليب خاصة واخرى عامة جعلته يأمل الحصول عليها من وراء تغيير الحكومة . وهناك اخرون على شاكلته من بينهم محسن ابو طبيخ وعلوان الياسري وغيرهما . وفي آن واحد ، وبرد فعل ضد مطاليب هؤلاء الاشخاص وادعاءاتهم ، كان نصف آخر من العالم العشائري لايقل تمردا ولاتحمسا لحقوق الشيعة ، يتطلع الى فضائل الوزارة القائمة في الحكم . ومن دون اثارة العنف لحظتئذ ظهرت صفة خطيرة هيمنت على عشائر محافظة الديوانية ، وانتقلت الى محافظة الحلة ، وقد برزت تلك الصفة الخطيرة في الاجتماعات الهائجة ورقصات الحرب التي كان افراد العشائر يمارسونها وازدهار عملية حمل السلاح . وصلت تلك المطاليب والنداءات الى علماء النجف ، وبصفة خاصة الى الشيخ محمد حسين آل كاشف الغطاء المجتهد العربي البارز، وهي تطالب بالدعم الموحد. تم ارسال البرقيات الى الملك ، ونظم

---

(٨) تألف حزب الوحدة الوطنية من علي جودت الايوبي رئيسا وصالح باش اعيان نائبا للرئيس وسالم قاسم اغا سكرتيرا اما الاعضاء فهم علي باشا اللوغره بجي ، وعبد الهادي الجلبي والشيخ رايح العطية وبهاء الدين النقشبندي ، ونجيب الراوي ، وحازم شمدين اغا وقد اصدر الزميل المرحوم عادل عوني صحيفة نصف اسبوعية باسم «الوحدة» كانت تنطق بلسان هذا الحزب وقد توقفت عن الصدور بعد استقالة الايوبي وموت حزبه .

طلب استرحام هائل الحجم ، واخيرا عقد اجتماع مع الملك نفسه في شهر كانون الثاني سنة ١٩٣٥.

لم تنتج عن هذه التحركات اية نتائج،ذلك لان علي جودت بذل كل مالديه لاعادة النظام الى نصابه ، عن طريق الاقناع ، وفرض الرقابة ، وحظر الاجتماعات ، وتعطيل الصحف . ولكن هذه الاجراءات والتقييدات التي اتخذت تمهيدا للاحتفال بافتتاح خطوط انابيب النفط من كركوك الى ساحل البحر الابيض المتوسط ، وحدوث فيضانات ربيعية مدمرة ، وتشييع جنازة الملك علي(٩) والازمة التي نشأت في المفاوضات مع حكومة طهران ، كانت هذه الاجراءات قد ذهبت سدى ولذلك استقالت الوزارة التي فقدت فعاليتها في اليوم الثالث والعشرين من شهر شباط سنة ١٩٣٥(١٠) .

ولغرض استبدال الوزارة باخرى غيرها اوصى النصحاء الملك بتأليف وزارة انتقالية ، من دون الاقدام على اجراء إنتخابات جديدة ، وان لاتضم هذه الوزارة ياسين الهاشمي او رشيد عالي الكيلاني في صفوفها . فقد كان الاعتقاد السائد لدى الساسة بان المكائد التي دبرها هذان الشخصان هي التي ادت الى هذه الحالة القريبة من الفوضى . لم يكن هناك من مناص من تأليف وزارة مدفعية اخرى وقد تألفت هذه الوزارة فعلا في اليوم الرابع من شهر اذار ١٩٣٥(١١) وكانت تضم شخصيات محترمة من امثال نوري السعيد ، وعبد العزيز القصاب ، وامين زكي ، ويوسف غنيمة وتوفيق السويدي ورشيد الخوجة .

غير ان هذه الوزارة لم تكن لها اية فائدة جوهرية تتفوق بها على الوزارات التي سبقتها . ذلك لانها لم تحظ الا بالقليل من مساندة البلاط او الدعم الشعبي لها،ولم تستطع ان تتحرك الى العمل لاعن طريق الدبلوماسية المستوحاة،ولاعن طريق السياسة الصارمة القاسية . لقد كان جميل المدفعي يأمل تهدئة مناطق الفرات بالوسائل الشرعية ، ولذلك كان يرسل الوزراء للتجول في

---

(٩) توفي الملك علي في الثالث عشر من شباط ، وشيع باحتفال الى مرقده الاخير ، حضره اخوه عبد الله امير شرق الاردن واعلنت الحكومة الحداد الرسمي لمدة ثلاثة ايام .

(١٠) قدمت الوزارة استقالتها في الثامن والعشرين من شباط وقبلت الاستقالة في اليوم السابع والعشرين منه .

(١١) هي الوزراة المدفعية الثالثة التي تولى فيها عبد العزيز القصاب وزارة الداخلية ويوسف غنيمة وزارة المالية ، وتوفيق السويدي وزارة العدل،ونوري السعيد وزارة الخارجية ، ورشيد الخوجة وزارة الدفاع ، ومحمد امين زكي وزارة الاشغال والمواصلات،وعبد الحسين الجلبي الوزير المزمن وزارة التربية،ووجه وزير الداخلية عبد العزيز القصاب برقية الى موظفي الالوية يناشدهم فيها الاهتمام بالسلوك الحسن والسهر على واجبات الوظيفة ، وانذرهم باستعمال الشدة ضد المهملين ومكافأة المهتمين منهم .

المناطق التي يسودها الاضطراب ، ويحاول عبثا اقناع الاعيان باستئناف واجباتهم ، ويطلب من المعارضة والصحافة بان تعمل على تحقيق الوحدة ورص الصفوف[١٢]

• • •

بعد مرور ثلاثة عشر يوما على تأليف وزارة المدفعي التعسة هذه ، قدمت تلك الوزارة استقالتها فاعقبتها على الاثر وزارة اخائية خفيفة ترأسها ياسين الهاشمي الذي دعي لتولي الحكم وذلك في اليوم السابع عشر من شهر اذار سنة ١٩٣٥ . ولقد ضمت هذه الوزارة بين اعضائها كلا من رشيد عالي للداخلية ، وجعفر العسكري للدفاع ، ونوري السعيد للخارجية ، ورؤوف البحراني ، المفتش المالي السابق للمالية ، ورضا الشبيبي الاديب للتربية ، ومحمد امين زكي للاشغال[١٣]

لم يكن في هذه الوزارة اي ممثل للجناح اليساري (جماعة جريدة الاهالي) الذي كان يتزعمه جعفر ابو التمن ، كما ان استبعاد حكمت سليمان من الوزارة ، قد اثار حنقه الشديد الذي ادى في الاخير الى نتائج خطيرة[١٤]

لقد برز الآن ، وللمرة الاخرى ، الطريق اليسير الذي كان شيوخ العشائر يرغبون السير فيه

---

(١٢) يسرد المؤلف هنا حوادث التمرد العشائري واحزابه التي قامت في مناطق الفرات والمناورات التي بدأها حكمت سليمان وجعفر ابو التمن وجماعة الاهالي وتوسيع مداها حيث بدأت في عهد وزارة علي جودت الايوبي عملية تحريض الساسة الطامعين في الحكم لرؤساء العشائر على التمرد ونشر الفوضى مما اتسم به الوضع العام في الشمال والجنوب خلال الفترة التي بدأت بعد وفاة فيصل الاول وامتدت طيلة عهد غازي الذي استغل الساسة وعلى الاخص البارزون منهم من امثال حكمت سليمان وجعفر ابو التمن ونوري السعيد وياسين الهاشمي ورشيد عالي وغيرهم ، نقول استغلوا حداثة سنه وعدم تمتعه بالحنكة والفهم لادارة شؤون المملكة الامر الذي ادى الى اعاقة حدوث اي تقدم في سير الحكومة والذي انتهى فيها بعد بالنكبات التي تعرض لها العراق ، سواءا في ذلك الانقلاب الذي قام به بكر صدقي ، ومقتل غازي ، وحدوث ثورة ايار ١٩٤١، ذلك لان حركات العشائر التي كان المجتهدون يحرضون عليها في اكثر الاحيان قد اظهرت الدولة بمظهر الضعف والعجز، كل ذلك لكي يظل الطامعون في الحكم يتناوبونه فيما بينهم من دون ان يأبهوا بالخراب الذي كانت البلاد تسير اليه ، وبالطبقات المثقفة التي يئست من الاصلاح ، فراحت بدورها تنشد الوصول الى الحكم هي الاخرى وتتشبث بكل الوسائل لبلوغ ذلك . ولذلك فقد ضربنا صفحاً عن ترجمة ماسرده المؤلف عن حركات التمرد هذه ولقد فصلنا مواقف هؤلاء الطامعين المتنافسين على الحكم في كتابنا الجديد «مصرع الملك غازي» الذي انتهينا من تأليفه وانتظار الموافقة على طبعه ونشره.

(١٣) عين المحامي البصري المعروف محمد زكي وزيرا للعدل في هذه الوزارة ايضا

(١٤) دعي حكمت سليمان للمشاركة في وزارة ياسين الهاشمي هذه لكنه اشترط مقدما ان يعطيه وزارة الداخلية فلما لم يعط له هذا المنصب رفض الاشتراك في الوزارة والتجأ الى المعارضة يقودها ضد ياسين ووزارته ، حيث انتهى الامر مؤخرا الى قيام انقلاب بكر صدقي للاطاحة بالوزارة الهاشمية .

على غرار مافعلوه قبلا ، وذلك عن طريق مساهمتهم في اية حركة يبدو عليها بانها توفر لهم فوائد شخصية ، او عشائرية ، من امثال الزعامة التي تفرضها الحكومة على العشيرة ، والحصول على مقاعد في مجلس النواب ، وفض المنازعات التي تثار حول التصرف بالاراضي ، اومنح الاراضي التي تزرع بالرز ... الخ

ولقد استطاع ياسين الهاشمي ببيان القته الطائرات ، ان يحقق تهدئة جوهرية مباشرة ، وتلا ذلك وقوع زيارات قام بها الشيوخ المؤيدون للاخائيين الى بغداد ، حيث ملأت السيارات التي تحمل اتباعهم المحتفلين ، شوارع العاصمة وفقاً لاذن مؤدب سمح به وزير الداخلية ، وان كانت تلك التظاهرة العشائرية قد اثارت الفزع بين الناس الذين كانوا يتفرجون عليها. ولما كان اولئك الشيوخ يتطلعون الى الحصول على بعض المكاسب المباشرة من عصيانهم الاخير ، فقد راحوا يسيرون في شوارع بغداد مع زملائهم من النواب الاكراد الذين جاءوا من المحافظات الشمالية ، والذين تم تنظيمهم من قبل الاخائيين لاعلان الاحتجاج ضد التصرفات التي اقترفها وزراء علي جودت وجميل المدفعي ، الذين وصلوا في الوقت المناسب لتقديم التهنئة الى من خلفوهم في مقاعد الحكم .

تم تكريم غازي ، الذي توفيت امه في شهر اذار ، بعد ان اصبح ابا لولد هو الوريث الواضح له ، ونعني به فيصل الثاني الذي ولد في اليوم الثاني من شهر ايار سنة ١٩٣٥ . كما جرى حل البرلمان في اوائل شهر نيسان من تلك السنة ، ومن ثم صدرت الاوامر باجراء انتخابات عامة . غير ان الغليان الذي اصاب مناطق الفرات لم يبرد بيسر. فلو ان فئة كبيرة من الاخائيين قد اكتفت بالتطلع الى الحكم ، فان المنافسين لها ، لابد وان تكون لديهم الاسباب التي تجعلهم يرتابون في وزارة ايدها خصومها في وقت متأخر؟

كان رفض ياسين الهاشمي لكل التفضيلات التي ارادها حزبه ، وللوعود التي قطعها لنوابه بان يتبوأوا ، مقاعد الخصوم السابقين ، واقدامه في النهاية على حل حزب الاخاء الوطني[١٥] ، كل هذه الخطوات التي خطاها ياسين الهاشمي لم تستطع ، ان تقنع الغير بصوابها ، ولم تنجح المحاولة التي اريد بها استخدام الشيخ محمد حسين آل كاشف الغطاء وسيطا للسلم

---

(١٥) لقد ارتاع اهل بغداد حقا من تلك التظاهرة العشائرية المقيتة ، لان الاكثرية اعتبروا تلك التظاهرة تشجيعا للعشائر وللعناصر الطائفية على التمرد والتدخل في الامور السياسية لاغراض شخصية وطائفية . كما ان تلك التظاهرة قد ولدت لدى العشائر والعناصر الطائفية في مدن الفرات ، مفهوما بانه في مستطاع هذه العشائر والعناصر التي تدعمها ان توجه الحكم الوجهة التي تريد منها . وان في مقدورها ان تتحكم بالشخصيات الحاكمة في بغداد ذاتها ، وبذلك وضعت قاعدة تحريك العشائر لاسقاط اية وزارة لايرضى عنها خصومها حيث استمر الوضع على مثل هذا التردي الى حين وقوع الاحتلال الانكليزي الجديد للعراق في اعقاب فشل ثورة ١٩٤١ .

وللتهدئة .[١٦] كان كاشف الغطاء محاطا على الدوام بجماعة معادية لـ «عبد الواحد سكر». لكنه لم يكن راغبا في ان يثير غضب اصدقائه السابقين، وان يساير الاوضاع.

اما الاضطرابات العشائرية الاخرى التي حدثت في سنتي ١٩٣٥ و ١٩٣٦ ، فقد كان العامل الكبير فيها يتمثل في الخوف من تطبيق قانون التجنيد الالزامي ، حيث تمردت قرية «المدينة» (بالتصغير) في جنوبي العراق ، ضد ذلك القانون . ولقد كانت المنازعات على الاراضي التي لم تتم تسويتها بعد ، والخوف من التجنيد الالزامي ، والمقت الذي قوبل به هذا القانون من لدن ابناء العشائر ، وسوء الادرة المحلية ، وفسادها ، من الامور التي ينبغي اضافتها الى الاسباب الاساسية للاضطراب العشائري .

يعود فشل ياسين في تحقيق الهدوء والامن اللذين وعد بهما الى اسباب سبق لنا ان اتينا على تحليلها قبلا ، كما يعود ذلك الفشل ايضا ، الى حد ما ايضا الى الطيش والتسرع الذي تميز به وزير داخليته . على ان الاضطراب الذي كان يشابه ما وقع منه اثناء ثورة العشرين والذي ساد مناطق الفرات ، لم يؤثر تأثيرا بالغا في بقية انحاء البلاد الاخرى . فقد كانت المدن هادئة ومأمونة ، ولم يحدث الاضطراب في المحافظات، ولا في كل المناطق التي تقع على ضفاف نهر دجلة . والحقيقة ان فترة رئاسة ياسين الهاشمي ، كانت حسب المستويات العراقية من اكثر الوزارات صرامة وصوابا ولقد بدا عليها في اواخر صيف سنة ١٩٣٦ بان عمرها سيكون طويلا ، ذلك لان الحادث الذي وقع فيما بعد نتيجة التدخل العسكري العنيف[١٧] لم يكن له اي ظل امامها .

جاءت الانتخابات العامة التي اجريت في شهر نيسان ١٩٣٥ ، خلال شهر اب من تلك السنة، بمجلس نواب ارتفع عددهم من ثمانية وثمانين عضوا الى مائة وثمانية اعضاء . وقد ارتفع عدد المقاعد في المجلس النيابي ، نتيجة الزيادة التي ظهرت في عدد السكان التي كشفت عنها دائرة احصاء النفوس العام[١٨] وقد كانت هذه الزيادة في عدد مقاعد مجلس النواب نافعة في ترضية المزيد من شيوخ العشائر والوطنيين.

---

(١٦) في هذه الفترة العصيبة عقد المؤتمر العام لحزب الاخاء الوطني في اليوم التاسع والعشرين من شهر نيسان ١٩٣٥ وقرر تعطيل اعمال الحزب بدعوى «ان البلاد كانت بامس الحاجة لتوحيد الكلمة» ولكن ذلك الاجراء قد ادى الى نتائج معكوسة وخطيرة جدا . ذلك لان مثل هذا الاجراء قد اشاع الحكم الاستبدادي ، وقضى على الحريات ، وزاد في تكتل العناصر الساخطة والعمل سرا ، حيث نشطت عدة منظمات سرية متضاربة الغايات والافكار للعمل في ذلك الجو في سبيل اهداف شخصية وطائفية وعنصرية ، مما كان له تأثيره الفعال في اضطراب الوضع والتمهيد لانقلاب بكر صدقي ، وسقوط الوزارة.

(١٧) المقصود به انقلاب بكر صدقي الذي اطاح بالوزارة الهاشمية في ٢٩ تشرين اول ١٩٣٦ .

(١٨) جرى احصاء النفوس العام في سنة ١٩٣٤ .

شهدت الجلسات الاولى للبرلمان اضطرابا بسبب الاتهامات العنيفة التي تبودلت بين الكتل النيابية حول اقتراف جريمة تحريض العشائر ضد الحكومة ، وهي في الواقع جريمة خاصة لم ينفرد اي حزب مفرد باقترافها . ولقد مضت الادارة قدما في اصدار عفو عام عن جميع المحكومين السياسيين في الشهور الاخيرة[١٩] ، والمبادرة بعملية تطهير الدوائر من الموظفين المشكوك فيهم ، ومعالجة المفاسد في الادارة، وذلك بتعيين اشخاص يعتمد عليهم اكثر من غيرهم .

كذلك بذلت في الحقيقة ، جهود صادقة لوقف الفساد الجاري في الادارة ، ولو ان الخفض الجديد الذي حصل في عدد كبار الموظفين البريطانيين قد قصد به المعنى المضاد لذلك. وكان من نتيجة هذا الخفض في عدد كبار الموظفين البريطانيين في سنة ١٩٣٥ ، ان فقد العراق الخدمات التي قدمها السر كنهان كورنواليس لفيصل الاول وللعراق ، حيث خلفه في منصبه[٢٠] السيد «ادمونز» صاحب الالمام الواسع العميق بالشؤون العراقية وعلى الاخص الشؤون الكردية منها[٢١] . وفي ذات السنة استقال «برسكوت» الذي اوجد الشرطة العراقية من منصبه مخلفا وراءه فيها «كونس» الذي امضى عشر سنوات في وظيفة مفتش الشرطة . اما «سيفرايت» خبير الكمارك الشهير ، فقد تقاعد عن عمله في الكمارك ، حيث اعقبه فيها في سنة ١٩٤١ «سوان» مستشار وزارة المالية، في حين عاد المدقق العام «بارلبي» الى الهند، كما توقف «مالينان» في سنة ١٩٣٣ عن ممارسة خدماته بصفة مفتش عام للصحة، واستبدل بطبيب عراقي .

اما دائرة التسجيل العقاري فقد تبعثرت بعد وفاة «الدرمان» (الذي خلف «رويدز» فيها في سنة ١٩٣٣) في سنة ١٩٣٤. ويصدق الامر ذاته على دائرة الزراعة التي غادرها «وبستر» في نفس السنة، بينما تخلى «نيولاند» مدير المساحة عن منصبه في سنة ١٩٣٥ الى نائبه «بوت» الذي مكث فيها ست عشرة سنة تالية . وترك «جاد ويك» دائرة البيطرة في سنة ١٩٣٤، ثم عاد اليها مرة اخرى في سنة ١٩٤٢ ليبقى فيها حتى سنة ١٩٤٧. اما الجيولوجي الحكومي الدكتور «مكفيدن» فانه بعد ان مكث سنتين في العمل غادر العراق في سنة ١٩٣٧، ولم يعين غيره في مكانه بصفة مباشرة ،

---

(١٩) صدر قانون العفو العام في اليوم السابع من شهر ايلول سنة ١٩٣٥ ولم يكن ليخص المحكومين السياسيين ، وانما اقتصر على الذين قاموا باعمال التمرد والاضطراب والشقاوة في الوية الديوانية والمنتفق وديالى وكركوك والسليمانية . اما المتهمون والمحكومون السياسيون فقد صدر العفو عنهم في الايام الاول من تأليف الحكومة الانقلابية .

(٢٠) كان كور نواليس طيلة بقائه في العراق يعمل مستشارا لوزارة الداخلية .

(٢١) بقي ادمونز يشغل منصب مستشار وزارة الداخلية حتى قيام ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ وقد اودع قسما مما اطلع عليه وخبره من شؤون العراق في كتابه القيم «عرب واتراك واكراد» الذي ترجمه جرجيس فتح الله الى العربية ونشرته جريدة التآخي في اوائل السبعينات . وقد قيل عن «ادمونز» هذا بانه رفع ، قبل ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨، الى السلطات المختصة تقريرا عن سوء الوضع ، وعن الانفجار المتوقع قريبا من لدن الجيش العراقي.

بينما تقاعد «الارد» من دائرة الري التي خلفه فيها احد العراقيين بصفة مدير عام .
غير ان رئيس المهندسين البريطاني ، والموظفين البريطانيين في المحافظات، بقوا يخدمون في اماكنهم . ومثل هذا يمكن ان يقال عن دوائر الاشغال والبريد والبرق . فقد تخلى «تينش» عن منصب المدير العام لسكك الحديد بعد خمس عشرة سنة، الى العقيد «وورد» الذي غدا مديرا لها اضافة الى استخدامه مديرا لميناء البصرة لمدة ثلاث سنوات. كذلك تخلى «وابتلي» عن وظيفة مستشار وزارة الاشغال والمواصلات في اوائل سنة ١٩٣٧.

كانت علاقات ياسين الهاشمي مع السفير البريطاني السر ارشيبالد كلارك كير ، الذي خلف السفير السابق فرنسيس همفريز في اذار ١٩٣٣ ، علاقات وثيقة وودية . تم تعزيز دائرة احصاء النفوس ، اضافة الى تعزيز دائرة النشر والدعاية التي غدت تمثل تطورا ، بالنسبة الى مكتب الصحافة القديم . وتم الحفاظ ايضا ، وبصفة جيدة ، على المحاكم بما كانت تحتفظ به من حكام بريطانيين وفقا لاتفاق سنة ١٩٣٠. ومن ناحية اخرى كانت الرغبة في وضع نظام شامل للتعليم تحظى بالاهتمام الاول ، وحدث تطور محدد في عدد المدارس الابتدائية والثانوية وازداد عدد المدرسين المصريين المعارة خدماتهم للعمل في العراق ، كما شرع بنشر الكتب المدرسية من قبل وزارة التربية ، واحرز التعليم التقني الذي تمت دراسته من قبل خبراء اجانب زائرين ، تقدما ضئيلا في حين بقي مشروع جامعة بغداد على حالته السابقة .
اعيد افتتاح الكلية العالية لتدريب المعلمين في سنة ١٩٣٥ [٢٢] وكمل انشاء مديرية للتعليم النسوي في سنة ١٩٣٤، لكنها الغيت في السنة التالية لها . وافتتحت في الشطرة والغراف كليات لتدريب المعلمين الريفيين وذلك تنفيذا لما ورد في التقرير الذي وضعته بعثة الدكتور «مونرو» سنة ١٩٣٤ ، ومن ثم نقلت الى بغداد، وانشئت كلية للمعلمات الابتدائيات في الديوانية لكنها لم تعش طويلا ، واسست كلية الصيدلة في سنة ١٩٣٦ . اما المدارس التي كانت تديرها طوائف الاقليات وبعثات التبشير المسيحية من البروتستانت والكاثوليك ، وكذلك مدارس الطائفة اليهودية ، فانها قد ازدهرت بدورها هي الاخرى .
اما المشروع الذي حصل التفكير فيه لانشاء مدرسة عامة على النمط الانكليزي ، فلم يكن قد تحقق بعد في ذلك الوقت ، كما توقف استخدام مستشار بريطاني لوزارة التربية ، وازداد

---

(٢٢) الذي يقصده المؤلف من كلمة «كلية» بالنسبة للتعليم هنا هي دور المعلمين فالمقصود بالكلية العالية لتدريب المعلمين هو «دار المعلمين العالية» التي تعرف الان باسم كلية التربية ، وكلية تدريب المعلمين الريفية هي دار المعلمين الريفية التي افتتحت في بغداد في منطقة الرستمية وكانت تقبل الطلاب من خريجي الدراسة الابتدائية ، وكلية المعلمات هي دار المعلمات وكانت هذه المدرسة في بغداد تعرف باسم «مدرسة تطبيق دار المعلمات» ومازال بنايتها القديمة قائمة على الجانب الايسر من شارع الخلفاء وقد حولت الى مدرسة للبنات .

تدريس اللغة الالمانية[٢٣] واصبحت الكتب المدرسية تتصف بالسمة القومية بصفة متزايدة حيث تعاظمت نغمة مقت الاجانب . كما طبق التعليم العسكري[٢٤] لاول مرة في المدارس سنة ١٩٣٥ ولم يلبث هذا التعليم ان اصبح فيما بعد مظهرا شائعا لحياة المدرسة ، ومارافقه من حركة متطورة للشباب الذين كانوا يرتدون البزات العسكرية .

بقيت الاثار القديمة في العراق ، تجتذب في كل شتاء بعثات المنقبين الاجانب عن الاثار. فقد اجريت تنقيبات على ايدي ممثلي الجامعات والمتاحف والهيئات العلمية من الامريكيين والالمان والبريطانيين والفرنسيين والايطاليين خلال الفترة ١٩٣٣ – ١٩٣٩ [٢٥] وذلك في المواقع الاثرية شمالي العراق في «غورا» ونينوى ، وخرسباد ، وفي منطقة ديالى وموقع خفاجة على نهر ديالى[٢٦] وفي سلوقية[٢٧] وكذلك في المدينتين السومريتين القديمتين «الوركاء» و «لارسا» والمواقع الواقعة جنوبيها. ولكن طعنة وجهت الى هذه النشاطات الاثرية في سنة ١٩٣٣ حين اقدم وزير التربية [٢٨] على وضع مسودة لقانون الاثار ، اعتبرت بما تضمنته من قيود غير مشجعة لعمليات التنقيب في المستقبل•غير ان وزارة الهاشمي ادخلت تحسينات عليها ، كيما تصبح مقبولة،وان يتواصل العمل في التنقيب وفق شروط معقولة .

ولقد ظهر بان دائرة الصحة التي انهال النقد ضدها ، لانها لم تكن تتوقع وافدة الملاريا التي وقعت في بغداد سنة ١٩٣٦ ، كانت تتطلب الاصلاح وبذل نشاط موسع،يشمل المناطق الريفية والمتأخرة مثلما يشمل المدن ذاتها. وكانت تلك الفترة من الفترات التي ظهر التحسن خلالها ، في كثير من البلديات ، وتقدم حركة البناء بصفة واسعة ، وتخطيط المدن ، وانشاء مشاريع الكهرباء وتوسيع الشوارع ، ومشاريع اسالة المياه ، والاهتمام بصيانة الغابات والانهار الطبيعية وانشاء الحدائق البلدية. فقد غدت هذه الامور من المظاهر البارزة للبلديات التي كانت تعتبرها من احقر الاعمال .

---

(٢٣) لم يقتصر تدريس اللغة الالمانية وحدها بل الفرنسية ايضا فقد كان على كل طالب في الدراسة الاعدادية ان يختار واحدة من اللغتين الالمانية والفرنسية الى جانب الانكليزية ولقد كنت من بين الذين اختاروا اللغة الفرنسية بعد تخرجي من الدراسة المتوسطة في صيف سنة ١٩٣٦ وقد الغي تدريس هاتين اللغتين بعد فشل ثورة ايار ١٩٤١ .

(٢٤) المقصود به نظام الفتوة الذي طبق على طلاب المدارس المتوسطة والاعدادية ابتداء من السنة الدراسية ١٩٣٥ – ١٩٣٦ ثم توسع فيما بعد ليشمل طلاب الكليات

(٢٥) انظر عن الاكتشافات الاثرية الاول في العراق كتابنا «سومر» الذي ترجمناه عن منقب «اثار الفرنسي الشهير واندريه بارو» وطبعته وزارة الثقافة والاعلام في سنة ١٩٧٧ .

(٢٦) الصواب موقع «خفاجي»

(٢٧) تقع قرب الدورة على الضفة اليمنى من نهر دجلة

(٢٨) صدر هذا القانون في عهد الوزارة المدفعية الثالثة التي تألفت في الرابع من اذار ١٩٣٥ .

وكان من سياسة ياسين الهاشمي في الواقع ، تشجيع تطوير الخدمات المحلية المودعة الى البلديات وتوفير الاموال اللازمة لذلك،مما جعل رؤساء الوزارات الذين جاؤوا من بعده يقتفون اثره في هذا المضمار. وكانت المصادقة على قانون العمل في سنة ١٩٣٦ تمثل الضغط الواقع على الحكومة ، لكي تصر ، ولو بصفة ظاهرية ، على تطبيق نوع من المستويات العصرية في معاملة العمال الصناعيين. غير ان هذا القانون لم تكن له في اللحظة التي اصدر فيها سوى تأثير عملي ضئيل .

وصدر في سنة ١٩٣٦ قانون ، تضمن فرض عقوبات صارمة ، الغي بموجبه استعمال الالقاب التركية من امثال باشا ، وبك وافندي ، واستبدالها بلقب عربي بسيط هو لقب «سيد» الذي يقابل كلمة «مستر» في الانكليزية ، ولكن الجمهور العام مالبث ان تجاهل هذا القانون مثلما تجاهله الاوربيون والوزراء انفسهم،وبعض الاشخاص الاخرين الذين كانوا في الحكم. اما تطبيق «قانون الخدمة الوطنية» الذي شرع في سنة ١٩٣٤ فقد آل الى الحكومة الهاشمية لكن النقص كان يعتوره وذلك لان مناطق عشائرية واسعة قد اعفيت من تطبيق هذا القانون عليها ، في حين استغلت المناطق التي يمكن الوصول اليها ، وكذلك المناطق الضعيفة لتطبيقه عليها. ولكن المقاومة المسلحة ضد تطبيق القانون كما شاهدنا لم تكن متواصلة في حين كانت حركات التهرب من التجنيد شائعة ، وكان دفع مبلغ واطئ من المال للاعفاء من اداء الخدمة العسكرية من الامور المعتادة. ولكن في الوقت ذاته كانت اداة التجنيد غير كفوءة وقوائم النفوس غير صحيحة،وكانت القوات العسكرية الناتجة عن هذا التجنيد في العادة ، اقل من القوة الممنوحة لها .

ومع كل ذلك فقد كان الجيش العراقي ، بالبعثة العسكرية البريطانية التي كانت تدعمه دعما ثابتا قد تحسن تدريبه وتجهيزه ، وتوفير التسهيلات اللازمة للسكن تلك الامور التي كان «غازي» يدعمها دعما ساميا . فلقد ازداد عدد افراد الجيش العراقي من احد عشر الف وخمسمائة شخص في سنة ١٩٣٣ الى ضعف ذلك العدد في نهاية سنة ١٩٣٦،فاصبح منظما في فرقتين ، وموزعا من ناحية البلاد في اربع مناطق . وكانت قدرته واسلحته كافيتين للاغراض الداخلية،واصبح ذوو الرتب الواطئة من ضباطه من النوع الجيد ، في حين اصبح الضباط ذوو الرتب العالية على خلاف من ذلك،او اضعف منه .

ولما كان الجيش لم يستخدم خلال سنة ١٩٣٤ في اية عمليات عسكرية سوى ماحصل في حادث واحد ، فقد غدا منهمكا في ضرب تمرد العشائر خلال السنتين ١٩٣٥ – ١٩٣٦،حيث [illegible] بعد مدة قصيرة بانه هو الهيئة التي تقرر مصائر العراق السياسية . وفي الوقت ذاته نمت القوة

الجوية العراقية من بضع طائرات الى ثلاثة اسراب تم تشكيلها مؤخراً،اما القوة الصغيرة الباقية من قوات المرتزقة ، والتي تضم حوالي الف وخمسمائة من الجنود الاقوياء ، فقد تخصصت الان في واجبات حماية مطار قيادة القوة الجوية البريطانية . ولقد تحطم الان احتكار الاثوريين للعمل في قوات المرتزقة هذه،على اثر تجنيد سرايا كردية، واخرى عربية فيها .

بقيت قوة الشرطة حتى تقليص المساهمة البريطانية فيها،قوة ذكية يمكن الاعتماد عليها ، وتستطيع ان تطبق بصفة جيدة ، الواجبات المتزايدة التي كان يعهد اليها القيام بها. وكانت قوة الشرطة هذه تضم خلال السنوات الاولى اقل من تسعة الاف نفر من بينهم قوة متحركة مؤلفة من سبعمائة وخمسين رجلاً[٣٠] اما القوة الجوية البريطانية والتي لم تلعب منذ سنة ١٩٣٢ ، اي دور فعال في توطيد الامن الداخلي في العراق ، رغم الطلبات الوطنية التي كانت الحكومة تتقدم بها اليها ، فانها بقيت تحافظ على قواعدها ومؤسساتها التدريبية . وقد سلمت معسكرات الهنيدي والموصل ، والمطارات والاراضي التي كانت الطائرات الانكليزية تهبط فيها قبلا ، الى السلطات العراقية في انتهاء هذه الفترة،حيث بدأت القوة الجوية البريطانية في اواخر سنة ١٩٣٦ تنشئ قاعدة لها في موقع معسكر «سن الذبان» عند بحيرة الحبانية .

استمرت الادارة المالية تبرز الحصافة والاصالة اللتين كانت تدار بهما المالية العراقية منذ الاول،فغدا ذلك من الامور اليسيرة ، لان فترة الركود الاقتصادي العالمي قد انتهت سنة ١٩٣٣، في حين ابرزت السنوات التي اعقبتها حالة من الرخاء النسبي . ذلك لان التحسينات قد ادخلت على استحصال ضريبة الدخل وايرادات الاراضي والكمارك ، وكانت العملة العراقية ثابتة ومحترمة وقد انتهت البقية الباقية من الديون الاجنبية على العراق ، وافتتحت مفاوضات في لندن للحصول على قرض جديد عن طريق «مصرف بارنغ اخوان» ولكن تلك المفاوضات ظلت غير عملية حتى سنة ١٩٣٧ .

كانت بدلات ايجارات النفط المية قد جرى تسلمها لاول مرة في سنة ١٩٣٢ واخيرا كرست عوائد النفط للقيام بالاعمال الرئيسة من امثال مشاريع الري ، والمواصلات ، وبناء الطرق والتي ادرجت في منهاج جرى تعديل مواده خلال سنتي ١٩٣١ و ١٩٣٥،وبقي عرضة للتعديل كل سنة فيما بعد ذلك التأريخ.وفي سنة ١٩٣٥ صودق على قانون لتأسيس مصرف زراعي صناعي بدأ اعماله بشكل متدن اول الامر ، في السنة التي اعقبت سنة تشريعه .

---

(٣٠) يقصد بها قوة الشرطة السيارة التي اتينا على ذكرها في شرح سابق .

٤ ـ انقلاب بكر صدقي

بدت الوزارة الهاشمية في صيف سنة ١٩٣٥، وكانت في الواقع اقوى وزارة عراقية تألفت بعد سنة ١٩٣٢، وكأنها تود ان تطيل امد مكوثها في دست الحكم. ولقد اشار ياسين الهاشمي صراحة، الى اعتزامه في ان يبقى في الحكم لمدة عشر سنوات [1] ومع انه لم يول الديمقراطية سوى القليل من الأحترام، الا أنه لم يكن يفكر في فرض الاسلوب الدكتاتوري في الحكم، ولذلك سرى الخوف الى نفوس شيوخ العشائر، وأصبح البلاط ضعيفا، وتم اخضاع المعارضة بالشدة.

ولكن قوى اقل وضوحا كانت تعمل بصفة جادة ضد الوزارة الهاشمية. ذلك ان الملك غازي الذي ضعف مركزه نتيجة تصرفاته الشخصية، وانعدام التحالف، وفرار شقيقته مع خادم فندق من جزيرة «رودس» واعتناقها الدين المسيحي [2] كل هذه الأمور جعلت غازي يود أن يرى بديلا للوزارة القائمة، بل لقد سبق له ان لمح بذلك الى ياسين الهاشمي عن طريق بعض الوسطاء.

أما في داخل الوزارة الهاشمية ذاتها، فقد كان يندر حصول الأنسجام بين ياسين الهاشمي ونوري السعيد وزير الخارجية، والذي كان على الدوام في خصام وشجار مع وزير الداخلية رشيد عالي الكيلاني، والواقع ان رشيد عالي الكيلاني هو الذي كان يبدأ الهجوم عادة، وذلك

---

(١) لم يذكر ياسين الهاشمي صراحة انه يريد البقاء مدة عشر سنوات في الحكم وأنما كان يتمنى في خطاب القاه في البصرة أن يطول بقاؤه في الوزارة تلك المدة كيما يستطيع ان ينفذ الوعود، وينجز المشاريع التي تحدث عنها في منهاج وزارته في كثير من المناسبات. وقد أستغل خصومه السياسيون وشيوخ عشائر الفرات ذلك التلميح فشرعوا يؤلبون الصفوف ضده حتى اسقطوه.

(٢) لم يثبت رسميا أن «عزة» اخت غازي قد اعتنقت المسيحية بعد هربها مع ذلك الخادم وذلك خلال سفرها مع شقيقاتها الى اوربا في شهر ايار ١٩٣٦، لقد كانت تلك الفرية من مبتدعات اعداء البيت الهاشمي من العراقيين وغيرهم، وعلى الأخص اقطاب المعارضة الذين كانوا يخططون لاسقاط الهاشمي، وكانت الصحف التركية اول الصحف التي نشرت ذلك الحادث وشنت حملة واسعة من التشهير والتشنيع، وعززتها بنشر صورة الأميرة الهاربة مع عشيقها. وكانت «عزة» بعد ان هجرها ذلك الخادم بعد فترة قصيرة قد اصبحت تعيش في «نابولي» على نفقة الحكومة . الايطالية عيشة الكفاف الى ان التقت مع عبد الاله في روما في اعقاب الحرب العالمية الثانية وتمت اعادتها الى «عمان» لتقضي فيها بقية حياتها (أنظر لقاء عزة مع عبد الاله في مذكرات ستلرسن ص ٣٦٨ ومابعدها الطبعة الثانية ١٩٨١).

بما كان يصدره من قرارات عنيفة متهورة، وبما اشتهر به من المحاباة والطمع الذي دفعه الى ان يتحدى احدى السوابق فيحاول ان يحصر في نفسه الوصاية المربحة على الأوقاف القادرية بعد وفاة السيد محمود النقيب في سنة ١٩٣٦.وفي شهر ايلول ١٩٣٥ استقال محمد رضا الشبيبي من وزارة التربية، فأستبدل به وزير شيعي من نمط اخر هو المحامي صادق البصام[٣].

تعاظمت علاقات العراق مع الاقطار العربية الاخرى تعاظما مشهودا، تمثل في عقد معاهدة مع المملكة السعودية، وفي تبادل الزيارات التي قام بها الامراء والوزراء بين العراق وهذه المملكة بالاضافة الى استقبال العراق للوفود والبعثات القادمة من سوريا ومن اليمن ومصر. وأخذ رجال الدولة العراقية، وعلى الأخص نوري السعيد، يتجاوبون مع الرأي العام القوي في العراق، حيث قام العراق في سنة ١٩٣٦ بالمشاركة مع ابن السعود، بدور بارز في انهاء الاضراب الطويل الأمد الذي اعلنه عرب فلسطين[٤].

ومع كل ذلك فان منتقدي الوزارة الهاشمية في بغداد، كانوا يريدون منها ان تقوم بعمل ما ضد الصهيونية، اقوى مما دعوه بتطيير البرقيات وارسال المبعوثين، والنداءات الأخرى التي كانت الوزارة توجهها،ولذلك اخذ اولئك المنتقدون يذكرون ياسين الهاشمي بأن المعارضة التي حصلت في سنة ١٩٣٢، وقيادته المقاومة ضد المعاهدة وضد السياسة البريطانية في العراق، كانت تختلف كل الأختلاف عن سياسة الملاطفة التي يبديها في الوقت الحاضر[٥].

---

(٣) استقال الشبيبي من الوزارة بسبب عدم انسجامه مع طه الهاشمي الذي كان يتولى منصب مدير المعارف العام انذاك.

(٤) اعلن عرب فلسطين الاضراب العام في شهر نيسان ١٩٣٦ بعد التحديات والأعتداءات التي أخذ اليهود يمارسونها ضد ابناء فلسطين الاصليين منذ ذلك الوقت. وكان من أهم اهداف ذلك الاضراب وقف هجرة اليهود الى فلسطين، وعلى اثر ذلك اعلنت الأحزاب الفلسطينية ارجاء سفر الوفد الذي يمثلها الى لندن تلبية للدعوة التي وجهها وزير المستعمرات البريطاني، الى زعماء الاحزاب كي تقدم الى لندن لعرض وجهة نظرها امام الوزير المذكور. وبعد ان تفاقت الثورة قررت الحكومة الانكليزية استعمال الشدة ضد الثوار والمضربين وعززت قواتها العسكرية في فلسطين بأرسال فرقة جديدة الى هناك، وتوجيه انذار الى المضربين بأن يكفوا عن الاضراب، وبعد مرور ثلاثة ايام على ذلك البيان الأنكليزي العنيف استقبل المندوب السامي الأنكليزي في فلسطين المستر «واكهوب» ثلاثة من زعماء الاضراب هم الحاج امين الحسيني، وعوني عبدالهادي، وراغب النشاشيبي، كلا على انفراد، فأكدوا له استعدادهم لحث أبناء فلسطين على وقف الثورة وحل الاضراب دون أي شرط سابق، اذا ما طلب ملوك العرب منهم ذلك، وفي اواخر شهر ايلول توجه وفد من اللجنة العليا للاجتماع بابن السعود، كما توجه عوني عبدالهادي الى الأردن للاجتماع بالأمير عبدالله وطبقا لأستشارات مسبقة مع الحكومة الأنكليزية، وجه ابن السعود وغازي، وعبد الله في اليوم العاشر من تشرين الأول ١٩٣٦، نداءا مشتركا دعوا فيه الى حل الاضراب ووقف الثورة، وسرعان ماتوقف الاضراب والثورة بالفعل وسمح للمنظات المسلحة ان تحل نفسها وللثوار القادمين من الأقطار العربية ان يعودوا الى بلادهم (أنظر عبدالوهاب الكيالي: الموجز في تاريخ فلسطين ص ١٥٧ - ١٥٨ طبعة ١٩٧١).

(٥) لم يكن موقف الهاشمي من الصهيونية او الثورة الفلسطينية ضعيفا كما وصفه المعارضون. فعلى النقيض من هذه الأتهامات كانت وزارة الهاشمي هي الوزارة العراقية الوحيدة التي ساندت القضية الفلسطينية بالمال والسلاح والرجال فلقد أستفاد ياسين

اما التلميحات الأخرى التي كان يبديها ساسة المعارضة، الذين تعاظمت مرارتهم نتيجة ابعادهم عن دست الحكم، فقد كانت موجهة ضد القسوة التي استعملت في ضرب عشائر الفرات المتمردة، وفي عدم موافقتهم على استخدام الجيش بشكل متكرر، في ممارسة الاجراءات التي تكون من اختصاص قوات الشرطة عادة. كذلك كان المعارضون يشيرون أيضا الى الثروات الخاصة التي قيل ان بعض الوزراء كانوا يجمعونها بصفة سرية، والمبالغة في الحديث عن نظام التجسس المزعوم الذي فرضته الوزارة، والذي كان واحدا من الاجراءات التي لجأت الوزارة اليها لضمان سيطرتها، ومارافق ذلك من تعطيل الصحف التي كانت تميل الى انتقاد بعض الوزراء. أنبعث التذمر بصفة خاصة من لدن جماعة «الأهالي» اليسارية. ذلك أن هؤلاء لم يكونوا يرون اي أمل، في ظل رئاسة الهاشمي للوزارة، في تحقيق الاصلاحات التي كانوا يدافعون عنها. ولما كانت جماعة «الأهالي» تظلل في بعض الحالات، اقلية متطرفة شيوعية حقا كانت، ام قريبة من الشيوعية، فان عدد الملتفين من حولها قد تعاظم وعلى الأخص بعد ان نضم اليها بعض الساسة العاطلين عن العمل. ومع ان افراد جماعة الاهالي لم يكونوا في ذلك الوقت قد الفوا ضربا من الأحزاب، الا انهم كانوا يقفون الى جانب الاصلاحات الاجتماعية، واصلاح الاراضي وفق اسس يجب ان تشتمل على بعض الاجراءات الخاصة بتوزيع الثروة، بعد أن تستبعد الحرب الطبقية، وتحقيق شيء من التحسن في أحوال الطبقة العاملة، وفرض بعض القيود على الامتيازات التي يتمتع بها الاقطاعيون وأصحاب الثراء[٦].

الهاشمي، من وجود أخيه طه في رئاسة الاركان فأمر بنقل بعض التجهيزات العسكرية المشتراة من جيكوسلفو كيا انذاك الى فلسطين ووضعها تحت تصرف الثوار، وخصصت وزارة الهاشمي مبلغ عشرة الاف دينار في سنة ١٩٣٦ للصرف على متطوعي العراق الذين ذهبوا الى فلسطين (سامي عبدالحافظ القيسي : ياسين الهاشمي : دوره في السياسة العراقية ج٢ ، ص ٢٧١) ويكفي ان ندلل على موقف حكومة الهاشمي الشديد ازاء الصهيونية بالتقارير التي بعث بها القنصل العراقي في حيفا الى وزارة الخارجية ومانشرته الصحف الصهيونية من مقالات ضد العراق ولاسيا صحيفتا «ها ارتس، ودافار»[المصدر السابق ص ٣٧٣]

(٦) لم يكن جماعة الأهالي من الشيوعيين او المؤمنين بالشيوعية وأنما ابتدعوا لهم مذهبا وسطا بين الشيوعية والاشتراكية بالمفهوم الغربي، اطلقوا عليه أسم «الشعبية» فراحوا يبشرون به بما اصدروه عنه من كراريس وكتب.وكان الأستاذ عبدالفتاح ابراهيم هو المهندس الأول لذلك المبدأ، ووضع الكتب والمؤلفات عنه،ولاسيا كتاب «الشعبية في المبادىء السياسية الحديثة» الذي صدر باعتباره الرسالة الثالثة من رسائل الأهالي في سنة ١٩٣٣.غير ان العناصر الشيوعية على ضعفها وقلة عددها في تلك الأيام كانت تؤازر جماعة الأهالي وتساهم في تحرير الصحف التي كانت تصدرها،الى ان حلت سنة ١٩٣٥ حين الف الشيوعيون اول حزب لهم في تلك السنة واصدروا صحيفة سرية تطبع بالرونيو باسم «كفاح الشعب». وحين اصدرت جماعة الأهالي في اواسط ١٩٣٥ كراسها الثالث عن الشعبية بعنوان «مطالعات في الشعبية» انبرى الشيوعيون في الرد على تلك الرسالة بأصدار رسالة مناقضة لها كان المحامي قاسم حسن قد الفها وهو الذي تولى زعامة الحزب الشيوعي بعد اعتقال عاصم فليح وتخليه عن العمل السياسي وانصرافه الى مهنة الخياطة وهي مهنته الاصلية. واذ علم جماعة الأهالي بطبع تلك الرسالة،بادر المرحوم كامل الجادرجي الى الأتصال شخصيا بالسيد قاسم حسن وجماعته، واقنعهم بعدم الاقدام على توزيع ذلك الكراس حرصا على وحدة الحركة اليسارية، وعدم اظهارها بمظهر التمزق منذ ذلك التاريخ، ولذلك اوقف توزيع كراس قاسم حسن.

كان من بين المبرزين في جماعة الأهالي جعفر ابو التمن [٧] ويوسف عز الدين وهو خبير مالي ومن اصل كردي، وستة افراد من المثقفين ثقافة انكليزية او أمريكية [٨]. ولقد ادى عدم عطف الحكومة على هذه الجماعة، واعتقال من هم اقل حصافة منهم [٩] الى مقاومة الحكم القائم بضراوة، الأمر الذي جعلهم يكسبون الأنصار والحلفاء من اي مصدر كان.

لم يكن بين جميع رجال الدولة من كان يشعر بنفاد صبره، نتيجة ابعاده عن الحكم، مثل حكمت سليمان. فقد أخذ هذا الرجل الذي اشتهر بقابليته الفاخرة، وبشعبيته العامة، يعمل بكل ذكاء على تكتيل مختلف القوى المعادية لياسين الهاشمي، كذلك كان حكمت سليمان يعجب اعجابا شديدا بالنمط الدكتاتوري للسياسة التركية، وعلى الأخص بعد ان زار تركيا مرة اخرى في سنة ١٩٣٥، اما في بغداد فقد تحالف حكمت سليمان مع الجناح اليساري، وكان شديد الامتعاض من الهجمات الصحفية التي كانت توجه ضده، والتي كانت تؤثر فيه بصفة شخصية، ولذلك اخذ يزيد من اتصالاته القوية مع قادة الجيش.

اما الجيش الذي ارتفعت معنوياته بعد قضائه على حركات التمرد والعصيان فقد كان يتساءل عما اذا كانت خدمة الساسة في بغداد ومطامعهم تعتبر هي الخدمة المثالية له، ام ان عليه ان يباشر بالسيطرة على الدولة بقواته المسلحة، على غرار ماهو موجود في تركيا ام في بلاد فارس، وعما اذا لم يكن مثل هذا الاجراء اكثر تجانسا؟ هنا تلاقت خطى حكمت سليمان مع شرور بكر صدقي الفعالة. لتؤلف اتفاقا اوثق، وعلى هذا تخلى بكر صدقي في النهاية عن ولائه لياسين الهاشمي، ولم يعد اخوه طه الهاشمي من الناس الذين يجب ان تقتفي خطواتهم. اما حكمت سليمان فقد كانت

---

(٧) تم كسب ابي التمن الى جانب جماعة الأهالي بعد ان اسس هؤلاء «جمعية السعي لمكافحة الأمية» وانضمامه اليها. وبعد ان اطلع على اول كراس صدر عن الشعبية ووثق بأنها تعادي الشيوعية التي كان يخشاها ويقاومها كثيرا انضم الى جماعة الاهالي وحين عطلت صحف الاهالي حصل ابو التمن على امتياز بأصدار صحيفة يومية سياسية بأسم «المبدأ» تولى جماعة الأهالي اصدارها وتحريرها وقد صدر عددها الأول في اليوم السادس والعشرين من شهر كانون الثانية سنة ١٩٣٤ وعطلت في اليوم الخامس من شهر شباط سنة ١٩٣٥، بعد صدور عددها الثامن والعشرون.

(٨) يقصد بالستة المثقفين كلا من محمد حديد، وعبدالفتاح ابراهيم، وجميل توما وابراهيم بيثون وعلي حيدر سليمان [illegible] جميل، الذي درس الحقوق في دمشق، وكان معظم هؤلاء ممن درسوا في الجامعة الامريكية ببيروت في حين درس محمد حديد في لندن، وعبدالفتاح ابراهيم في الولايات المتحدة الأمريكية.

(٩) سبق لكل من حكمت سليمان وجعفر ابي التمن ان قابلا الملك غازي اكثر من مرة واحدة خلال سنتي ١٩٣٥، و ١٩٣٦ وتحدثا اليه عن تردي الأوضاع في عهد وزارة ياسين الهاشمي، واوغرا صدره عليه. وذلك بما نقلاه الى غازي عن نية الهاشمي في اعلان الدكتاتورية، والتمسك بالحكم لمدة اطول، وقد استغلا في ذلك التمنيات التي اوردها الهاشمي في احدى تصريحاته في أن يبقى في الحكم لمدة عشر سنوات. كذلك نشرت الصحف السورية البيان الذي اعده جعفر ابو التمن واطلع عليه الملك غازي عند مقابلته له في احدى المناسبات.

الرغبة الملحة المباشرة لديه، هي تغيير الحكم لصالحه، وان الجيش هو الاداة الوحيدة التي تستطيع ان تفعل ذلك التغيير.

كانت مطامح بكر صدقي في الواقع تتركز في توجيه ضربة تضمن للجيش بأن يصبح هو الأداة المسيطرة على أمور البلاد، وان تصبح قيادة هذا الجيش في يد بكر صدقي نفسه. ويبدو ان احداً من المغامرين لم يكن يتطلع في اي وقت، الى الحصول على الدكتاتورية الشخصية او الرسمية. وفي شهر تشرين الأول غادر طه الهاشمي في زيارة الى تركيا، وعهد الى بكر صدقي قائد الفرقة الأولى بأن يتولى رئاسة الاركان نيابة عنه. وحدث ان هيأت المناورات التي يجريها الجيش خلال فصل الخريف في اواسط منطقة ديالى الفرصة لتركيز كل القوات العراقية المسلحة تقريبا خارج العاصمة بغداد.

حينذاك امكن ابلاغ المؤامرة التي حاكها بكر صدقي مع حكمت سليمان، الى عدد من الضباط الموجودين في «قره‌غان» وعلى الأخص عبداللطيف نوري قائد الفرقة الثانية، ولهذا وضع القائدان بكر صدقي وعبداللطيف نوري مسودة رسالة موجهة الى الملك يطلبان فيها تأليف وزارة جديدة برئاسة حكمت سليمان[٩]، وسلما تلك الرسالة الى حكمت سليمان نفسه[١٠] وعلم رؤساء الجماعة اليسارية بذلك السر.

ولم تلبث القوة الجوية التي كانت يتولى امرتها العقيد محمد علي جواد «الصديق الحميم لبكر صدقي، ان تركزت في «قره‌غان» وزودت بمنشورات كيما يتم اسقاطها فوق بغداد في اللحظة المواتية[١١] وفي ليلة التاسع والعشرين من تشرين الأول بدأت «قوة الدفاع الوطني» التي اطلق عليها هذا الأسم في تلك المناسبة، مسيرتها نحو بغداد[١٢] وفي صباح ذلك اليوم اسقطت الطائرات تلك المنشورات من الجو على بغداد، وأذ ذاك قام حكمت سليمان بنقل الرسالة المتفق عليها الى قصر الملك[١٣] حيث كان غازي قد استدعى اليه السفير البريطاني مسبقا. وكانت

---

(١٠) ذكر في حينه ان حكمت سليمان كان في صبيحة يوم الانقلاب يحمل تلك الرسالة داخل بطانة «سترته» وكان ينتظر وهو في بيت عبدالله الصافي اليعقوبي ظهور الطائرات العراقية في سماء بغداد والقاء قنابلها عليها، حتى اذا ماظهرت والقت ثلاث قنابل على مبنى مجلس الوزراء وغيره اسرع حكمت سليمان بالذهاب الى قصر الملك لأيصال تلك الرسالة.

(١١) ذكر جرالد دي غوري في كتابه «ثلاثة ملوك في بغداد» الذي ترجمناه ونشرناه، ان مقر القوة الجوية البريطانية في معسكر الهنيدي «الرشيد» قد استغرب تحليق عدة طائرات من القوة الجوية قبل الانقلاب بيوم واحد من دون ان تكون للمقر الأنكليزي اية معلومات عن الوجهة التي اتجهت اليها الطائرات العراقية والهدف الذي كانت ترمي اليه.

(١٢) لم يطلق هذا الأسم على القوة التي دخلت بغداد واسقطت الوزارة الهاشمية وانما اطلق عليها اسم «القوة الوطنية الاصلاحية» وقد ذكر هذا الأسم في المنشورات التي اسقطت من الطائرات على بغداد.

(١٣) يحتفظ مركز الوثائق الوطني ببغداد، برسالة بخط الملك غازي موجهة الى بكر صدقي في صباح يوم الانقلاب يستغرب فيه اقدام بكر صدقي على تلك الحركة، ويحذره من المخاطر التي قد تنشأ عنها، ولعلها هي ذات الرسالة التي حملها جعفر العسكري=

النصيحة التي قدمها السفير الى الملك هي ان يستشير وزراءه في الأمر، وان يتحقق من نوايا حكمت سليمان، وان يتصرف، قبل كل شيء تصرفا دستوريا. كان جميع الوزراء الذين التقوا الان مع رفاقهم، قد ابدوا استعدادهم للاستقالة ماعدا رشيد عالي الكيلاني.

القيت القنابل في منتصف صباح ذلك اليوم، وانتهت مهلة الساعات الثلاث التي حددت لاستقالة الوزارة الهاشمية، وقد دلل مقتل بعض الافراد وجرح اخرين غيرهم، على مدى تحمس القوة الجوية العراقية للحركة. وبعد مناقشات لم تنته الا بطريقة واحدة استقالت الوزارة، وصدرت ارادة ملكية بدعوة حكمت سليمان لتأليف الوزارة الجديدة

وقع حادث مستفز، اثار قلق الجمهور، واخاف السفير البريطاني، وادى الى اشمئزاز حكمت سليمان نفسه، ذلك الحادث هو مقتل جعفر العسكري، بطريقة وحشية على يد بعض ضباط الجيش، في منتصف الطريق بين بعقوبة وبغداد، وبأوامر صادرة من بكر صدقي بصفة مباشرة كما يعتقد[١٤].

كان جعفر العسكري باعتباره وزيرا للدفاع قد غادر بغداد في سيارة وهو يحمل رسالة من الملك،ويعتزم ان يلتقي مع آمر قوة الدفاع الوطني،.ويعلمه بتغيير الحكومة، وان يرتب معه وقف اعمال العنف. وسرعان مادفنت جثة ذلك الرجل الوطني المخلص الوفي الأمين، على قارعة الطريق في الوقت الذي واصل فيه الجيش مسيرته الظافرة نحو العاصمة، حيث دخل المدينة في مطلع مساء ذلك اليوم باحتفال كبير وعلى رأسه بكر صدقي.

تم تأليف الوزارة من قبل حكمت سليمان واعلانها في نفس ذلك اليوم. وقد احتفظ رئيس الوزراء نفسه بمنصب وزير الداخلية، ثم اتى بثلاثة اعضاء من جماعة الاهالي هم جعفر ابو التمن، وكامل الجادرجي، ويوسف عز الدين، لوزارات المالية والأشغال والتربية وتعيين صالح جبر لوزارة العدل، وناجي الأصيل للخارجية، وكوفيء عبداللطيف نوري، رفيق بكر صدقي في التآمر معه، بمنصب وزير الدفاع، في حين تولى بكر صدقي نفسه رئاسة الأركان التي كان يتولاها قبلا طه الهاشمي.قوبلت الوزارة بحماسة كبيرة، لايعرف ما اذاكانت حماسة حقيقية ام مصطنعة، وكان المنهاج الذي تمت اذاعته، وكذلك البيان الذي اذاعه جعفر ابو التمن بنفسه من دار الاذاعة، غنيين بالتفاؤل والامال.

معه حين اراد مواجهة بكر صدقي قبل دخوله بغداد. ويبدو مما نشره سندرسن في مذكراته ان غازي لم يكن يجهل تلك الحركة التي ستنقذه من ياسين الهاشمي، لكنه تنبه الى خطرها بعد فوات الأوان .انظر مذكرات سندرسن ص ٢١٦ ومابعدها.

(١٤) كان جعفر العسكري قد حضر الى مجلس الوزراء في ذات الوقت الذي القت فيه الطائرات قنابلها في ساحة المجلس وعلى مقربة من النقطة التي كان يقف فيها. فلم يفزع ولم ترعبه هذه المفاجأة. وأنما سارع بالذهاب الى مقره في وزارة الدفاع واصدر بخطه اوامر الى بعض قادة الوحدات العسكرية بالتحرك الى بعض الجهات محاولة منه لتعويق الوحدات التي تنوي الزحف على بغداد.

نظمت التظاهرات الكبرى في بغداد، وكانت الشوارع الرئيسة في بغداد، مسرحا لرقصات واهازيج حشود افراد العشائر والعمال، وجرى تشويه سمعة الوزارة الساقطة في كل مكان، واختفى عن الأنظار اعضاؤها الذين فضل بكر صدقي اغتيالهم مع غيرهم من الخصوم، وطلقوا الحياة العامة موقتا[١٥].

فقد غادر ياسين الهاشمي، ورشيد عالي الكيلاني تحت الحماية الى سوريا، وطار نوري السعيد على متن احدى طائرات القوة الجوية البريطانية الى مصر، وتقاعد الوزراء السابقون وبعض كبار الموظفين عن العمل، في غمرة التبدلات الكثيرة التي تمت بصفة شخصية من قبل الوزراء الجدد.

كان حكمت سليمان رئيس الوزراء في جميع الأوقات على اتصال مع السفير البريطاني، وذلك امر معيب، لكنه اخذ يفقد شعبيته القومية فيما بعد نتيجة عمله هذا. ومع كل ذلك ظل حكمت يؤكد للسفير البريطاني وللعالم اجمع، بأن ماحدث ليس دكتاتورية عسكرية، وأن وزارته محض وزارة برلمانية وديمقراطية يؤيدها الجيش المخلص، والواقع ان بكر صدقي لم يكن يتدخل الا قليلا في الأمور الادارية الجارية، ولم تكن له أية سياسة واضحة عدا عداوته الشديدة للانكليز، وقد اقصر كل الأمور الضرورية لديه على ترشيح اصدقائه لبعض التعيينات، والاصرار على ان تعطى الأرجحية للجيش، والقبول بأقتراح تشويه روح الأنتقام، يتلخص في البحث عن الأموال الخاصة للوزراء السابقين في اول الأمر، ولكن هذا الاقتراح مالبث ان أهمل في النهاية.

ومع كل ذلك فأن القوة المعارضة للوزارة لم تكن بطيئة في تنظيم صفوفها، وفي قدرتها في السيطرة على العناصر الفعالة، ذلك لأن الوزارة الجديدة لم تذكر في منهاجها سوى الشيء الضئيل عن المشاريع المناهضة للمعاهدة، بل الحقيقة ان المنهاج الذي تحدث عن الصداقة مع كل البلدان، قد تعهد بالحفاظ على المعاهدة، وعلى الرغم من التلميحات الشخصية المبررة خلافا لذلك، فقد وجه النقد الى المنهاج من قبل المتحمسين ضد الصهيونية، والمتطرفين من اعضاء «نادي المثنى» الذي كان ينادي بالجامعة العربية[١٦]. كذلك وجه الانتقاد من قبل بعض

---

(١٥) ذكر لي المرحوم كامل الجادرجي بعد ان اختارني للعمل في جريدة «صوت الأهالي» في شهر نيسان سنة ١٩٤٣، بأن بكر صدقي قدم الى وزارة الأنقلاب قائمة تضم زهاء ستين شخصا كان ينوي اغتيالهم او اعتقالهم بشتى الاساليب، لكن الوزراء وعلى الأخص كامل وحكمت، عارضوا تلك المحاولة وهددوا بالاستقالة من مناصبهم فورا، مما جعل بكر صدقي يتراجع عن ذلك بعض الشيء.

(١٦) ليس المقصود بالجامعة العربية هنا تلك المنظمة التي مازال تتعثر في مشيتها حتى الان، اي جامعة الدول العربية، وأنما المقصود بذلك «الوحدة العربية الشاملة» PANARAB.

الصحف السورية والمصرية في بعض الأحيان، على اساس ان المنهاج كان اقل تحمسا لموضوع الوحدة العربية(١٧).

كان بكر صدقي كرديا، وكان حكمت سليمان أكثر عطفا على الأتراك منه على العرب. ولم تكن «جماعة الأهالي» لتعير سوى القليل من الاهتمام بالسياسة الدولية، وكانت لهجة المنهاج الأول للوزارة، وأحاديث كل من كامل الجادرجي وجعفر ابي التمن متوازنة، ومن اليسير تصنيفها بأنها كانت احاديث شيوعية، ولذلك أثارت الخوف لدى الطبقات القائمة. والواقع ان افراد الفئة الاصلاحية كانوا يطالبون بنصيبهم في الحكم، وتسندهم في ذلك امال رفيعة، لكن هذه الفئة بما كانت تملكه من وسيلة وهي الصحيفة و«جمعية الاصلاح الشعبي» التي أنضم اليها اربعة وزراء(١٨)، لم تظفر الا بتأييد شعبي ضئيل. فلقد عارضها شيوخ العشائر الذين كانوا يخافون على مراكزهم الخاصة، كما عاكسها الجيش الذي لم يكن ليثق بها، بل وربما كان يحتقرها أيضا.

كانت الجهود التي بذلتها الفئة اليسارية مشكورة، وذلك لأن هذه الفئة كانت كما - تدعي - تقيم بعض شرور المجتمع العراقي، وتثمن الضعف الحقيقي الكامن فيه، غير أن مثل تلك الجهود لم تكن مفيدة ونافعة لوزارة كانت الرجعية والجيش يسيطران عليها، ذلك لأن الحرية الصحافية والسياسية التي وعد الجميع بها خلافا لحكم ياسين الهاشمي، لم يعد يسمح بهما الا بعد ان تعاظم النشاط الذي كان يبديه خصوم الوزارة.

---

(١٧) لم ترد في منهاج الوزارة السليمانية اية كلمة عن الوحدة العربية او التضامن العربي لا من قريب او بعيد، بل على النقيض من ذلك شدد المنهاج على «تعزيز روح التآزر بين العراق وبريطانيا العظمى»، والعمل المتواصل لتأمين اقصى الفوائد ماليا، واقتصاديا وعسكريا، من الحلف العراقي البريطاني والتعجيل بتوقيع ميثاق عدم التعدي بين العراق وتركيا وايران والأفغان(١٩). وبذل كل الجهود لحسم القضايا المعلقة بين العراق وايران(٢٠).

(١٨) الوزراء الذين انضموا الى جمعية الاصلاح الشعبي هم كل من جعفر ابو التمن وكامل الجادرجي ويوسف عز الدين وعبداللطيف نوري. اما حكمت سليمان فانه رفض الأنضمام الى الجمعية واقترح استيعابها في حزب حكومي بعد اعادة النظر في مناهجها. وبالفعل دعا جعفر ابو التمن الى عقد اجتماع في داره حضره ثمانية وثلاثون شخصا من الصحفيين والمحامين اضافة الى رئيس الوزراء والوزراء الاخرين، للعمل على تأليف حزب قومي بأسم «حزب الاصلاح الشعبي» وذلك بعد ان قررت الهيئة الادارية لجمعية الاصلاح الشعبي الأنسحاب من الهيأة التنفيذية للجمعية وايداعها الى هيئة الوزارة «فؤاد حسين الوكيل: جماعة الاهالي في العراق ص ٤٢٤ طبعة ١٩٧٩) والذي نعتقده ان حكمت سليمان كان في مقدمة الذين لم يرق لهم اعادة تأليف الأحزاب، بعد ان حلت في عهد الهاشمي وذلك ما شدد من دكتاتورية بكر صدقي وتدخله في كل شيء مهم من اعمال الوزارة.

(١٩) المقصود به «ميثاق سعد اباد» المهد الأول لقيام حلف بغداد الاستعماري العدواني المعروف.

(٢٠) يقصد بها اتفاقية شط العرب سنة ١٩٣٧ والتي تنازل بموجبها العراق عن قسم مهم من حقوقه الأزلية في شط العرب حيث قضت تلك الاتفاقية بمنح ايران مقدار خمسة اميال من شاطيء شط العرب قبالة عبادان، وكان ذلك في الأصل لصالح شركة النفط الأنكليزي الفارسية.

تم اطلاق سراح السجناء السياسيين والمسجونين من أفراد العشائر بما في ذلك اليزيديون، واعلن العفو العام عن الجميع. ولكن سرعان ماأعقبت ذلك اجراءات تعسفية أكثر شدة من تلك التي استخدمت في السنة الماضية، وفي الوقت ذاته شرع الكثيرون من أصدقاء جعفر العسكري، وعلى الأخص حموه نوري السعيد، ينادون من دون كلل، ويبعثون الرسائل من مصر ومن سوريا، بأنهم لن يسامحوا القتلة ولا الجناة، ولا الملك ولا الوزارة الحاضرة، في أن يظل اولئك القتلة والجناة من دون عقاب.

وبالاضافة الى عناصر الانتقاد والتذمر هذه، فأن وافدة التذمر والتمرد بين سكان اواسط الفرات، بقيت حية وسرعان مايهب اولئك السكان الى مباشرة اعمال العنف، والواقع ان المشاكل التي كانت تحيط بمركز حكمت سليمان كانت أكثر وضوحا، من المحاولات التي كان يبذلها لحل مشاكل عشائر الفرات التي لم يتم التوصل الى ايجاد حل لها، ذلك أنه كان عليه ان يجامل الساخطين من دون ان يثير الغيظ لدى اعدائهم، وأن يعفو عن المحكومين دون اظهار الضعف في ذلك، وان يحافظ على النظام ولكن دون اللجوء الى استعمال القسوة التي قد تثير السخط. على انه ما أن باشر عمله في هذا السبيل، بكل ماكان له من ثقة في نواياه، وبكل ماأوتيه من مهارة دبلوماسية، حتى اخفق في هذا المجال اخفاقا بارزا.

كان الجيشان الذي يؤججه حب الذات، وشهوة الانتقام التي تؤلف الحياة الاعتيادية لشيوخ عشائر الفرات، وللأوساط الدينية هناك، تأبى الا أن ترفض العروض التي عرضها حكمت سليمان. وكان وقوع نزاع شديد على الاراضي بين عشيرة «الأزيرج» في السماوة يمثل الفرصة الجديدة لتجمع القوى التي كانت تؤيد الشيخ عبدالواحد سكر، والسيد محسن ابي طبيخ، والقوى التي تعاديهما وتعارضهما، فقد تحدى هذان الشيخان أوامر الوزارة الى درجة اصبح من المحتم ازاءها، اللجوء الى استعمال القسوة التي كان حكمت سليمان يأمل بها أن يحل ذلك النزاع، وعلى هذا الاساس تم رفع الحصانة النيابية عن ذينك الشخصين اللذين تعودا خلق الاضطرابات، حيث جرى اعتقالهما ومن ثم صدر الحكم باحتجازهما في شمالي العراق[٢١].

أدى الاستمرار في الخروج على القانون في السماوة، خلال شهر حزيران من سنة ١٩٣٧، الى توجيه عمليات عسكرية اخرى من نوع اعتيادي الى تلك المنطقة، صاحبها تدمير القرى، ووقوع هجمات عشائرية على مركز بلدة السماوة ذاته. كما زعم في حينه بأن الجيش قد أقدم على قتل

---

(٢١) لم تقتصر الملاحقة على عبدالواحد سكر ومحسن ابي طبيخ وحدهما بل شملت العين علوان الياسري أيضا. فبعد ان قام حكمت سليمان بسفرة الى الديوانية وابي صخير وعفك والشامية اجتمع برؤساء «آل ازيرج» في النادي العسكري في الديوانية وتناول طعام العشاء معهم وذلك مساء يوم ١٣ شباط ١٩٣٧ ومن ثم عاد الى بغداد وعلى اثر ذلك قدم طلب الى البرلمان برفع الحصانة عن الأشخاص الثلاثة ونفيهم الى كركوك في اول الأمر، ومنها الى حلبجة في محافظة السليمانية، والزام كل واحد منهم بتقديم كفالة يتراوح مبلغها بين الف وخمسة الاف دينار، وعند عدم الدفع حبس كل واحد منهم لمدة ثلاث سنوات.

الرهائن الذين كانوا لديه، ومن هنا كان وقع مثل هذه المعاملة شديدا على افراد العشائر، ولذلك فلم يتوطد الأمن في تلك المناطق طيلة بقاء وزارة حكمت سليمان في دست الحكم. اما في المدن فقد كان الأمن مستتبا.

بقيت الوزارة السليمانية شقية في الميدان السياسي. ذلك لأن الانتخابات العامة التي أمرت باجرائها في شهر تشرين الثاني سنة ١٩٣٦، وكملت في شهر شباط سنة ١٩٣٧، قد اتت بمجلس نواب، استبعد منه كشرط لازم استجابة لرغبات بكر صدقي، القسم الأعظم من النواب السابقين وجميع الاصلاحيين ماعدا اثنى عشر شخصا منهم[٢٢].

ودليلا على الرغبة في المسالمة والمصالحة، وافق المجلس على انتخاب بعض المذبذبين الذين اسيء اختيارهم من أفراد العشائر. وكان المجلس النيابي، اثناء اربعة أشهر من الجلسات غير الاعتيادية، اي من شباط حتى حزيران من سنة ١٩٣٧، قلقا منقسما على نفسه بالاضافة الى الاحتكاك المؤلم الذي حصل بين أتباع الوزارة ذاتها، ممن اساءت الوزارة ذاتها مدى التثبت من اخلاصهم.

ولقد أدى هذا الاحتكاك، ومارافقه من المخاوف التي أنتابت اقلية من الوزراء وتنكرها لسياسة القسوة التي انتهجتها الحكومة في السماوة، الى استقالة اربعة وزراء من الاصلاحيين في شهر حزيران سنة ١٩٣٧[٢٣]. ولقد أوحى وجود هؤلاء الوزراء، أثناء وجودهم في الحكم، وعلى الأخص كامل الجادرجي من بينهم، بحدوث اضرابات خطيرة بين العمال الصناعيين، ولربما كان كامل الجادرجي من المشجعين لها[٢٤]، وعلى هذه الشاكلة يمكن تفسير الاضرابات التي

---

(٢٢) تألف النواب الاصلاحيون في البرلمان الجديد من كل من جعفر ابو التمن عن لواء بغداد، وكامل الجادرجي عن الحلة، ويوسف عز الدين ال ابراهيم عن كركوك، وعزيز شريف عن البصرة، وعبدالقادر اسماعيل عن بغداد، وحكمت سليمان من ديالى، وصادق كمونة عن كربلاء ومكي جميل عن ديالى، وعبدالجبار الملاك عن البصرة، ونعمة المنصور عن البصرة، وذيبان الغبان عن الكوت، ومحمد الجرجفجي عن المنتفق، وحين عين ابو التمن بعد ظهور نتائج الانتخابات عضوا في مجلس الأعيان تناقص عدد الاصلاحيين الى اثني عشر عضوا (حسين جميل: الحياة النيابية في العراق ص ٢٧٦ - ٢٧٧ الطبعة الأولى سنة ١٩٨٢).

(٢٣) هم كل من كامل الجادرجي، وجعفر ابي التمن، ويوسف عز الدين ال ابراهيم وصالح جبر، ولم يكن صالح جبر من الاصلاحيين ولا علاقة له بهم ابدا، ولكنه استقال لأسباب طائفية محضة، ولاحراج موقف حكومة الانقلاب التي بدأ الأنكليز يتنكرون لها، بعد ان ساندوها مساندة فعالة في اعقاب حصول الانقلاب مباشرة (راجع كتاب الدكتور محمد طربوش - رسالة دكتوراه من جامعة اكسفورد، والذي صدرت طبعته الأول بالأنكليزية في سنة ١٩٨٣ وقد اتممنا ترجمته واعداده للنشر، وهو بعنوان «دور العسكريين في السياسة العراقية».

(٢٤) لسنا نعتقد ان كامل الجادرجي كان يؤيد تلك الاضرابات العمالية كما شاهدنا ذلك بجلاء في نهجه السياسي، ومع انه قد أصبح على اشد خلاف مع حكمت سليمان نتيجة تخاذل هذا الأخير امام تسلط بكر صدقي على شؤون الحكم، الا أننا نعتقد ان كامل الجادرجي لم يكن يريد اسقاط وزارة الأنقلاب لأنه كان يخشى قيام حكم دكتاتوري ارهابي في اعقاب سقوط وزارة حكمت سليمان.

حصلت بصفة متلاحقة بين العمال العاملين في سدة الكوت، وفي مناطق حفر ابار البترول العائدة الى شركة استثمار النفط البريطانية، وفي معامل سكك الحديد الحكومية، وميناء البصرة، وكذلك اضراب النساجين في النجف[٢٥].

وسواء تم تبرير هذه الاضرابات من الناحية الصناعية، ام لا، فانها كانت قد عكست بروز روح جديدة في ميدان العمل، ووعيا ذاتيا بين العمال ليس ضروريا ان يعتبر امرا غير صالح. كما ان هذه الاضرابات أصبحت واحدا من الأسلحة السياسية الجديدة.

لم تلاق الامال التي كان حكمت سليمان يحلم بها لتعزيز وزارته بضم بعض رجال الدولة البارزين اليها، من أمثال نوري السعيد، او جميل المدفعي، سوى الفشل. ذلك لأنه لم تعد الان سوى فئة ضئيلة تثق ببكر صدقي، او بنظام الحكم القلق ذاته.

كان اثنان من الوزراء الأربعة الذين تم استيزارهم، هما علي محمود الشيخ علي، ومحمد علي محمود من المحامين والسياسيين معا، وكان عباس مهدي وجعفر حمندي من ذات الأساس حيث تولى الأربعة بالتتابع وزارات العدل، والمالية، والأشغال، والتربية[٢٦].

أصبحت القطيعة الان كاملة بين الحركة الاصلاحية والوزارة السليمانية. ولذلك اغلقت «جمعية الأصلاح الشعبي»[٢٧] وأعتقل بعض الشيوعيين البارزين، أن حقا كانوا من الشيوعيين ام ادعاءا، وهرب اثنان من أكثر هؤلاء الشيوعيين نشاطا الى باريس هما عبدالقادر، ويوسف ولدا أسماعيل[٢٨] وأصبح الجيش مسيطراً بصفة أكثر على رئيس الوزراء ووزارته.

---

(٢٥) يقصد بمعامل سكك الحديد، معامل الشالجية التابعة لمؤسسة سكك الحديد التي كانت تضم أكبر عدد من العمال الصناعيين وغيرهم من العراق انذاك. وكان عمال السكك يؤلفون الأكثرية في اول نقابة عمالية ظهرت في العراق، ونعني بها «جمعية اصحاب الصنائع» التي اجيز تأسيسها من لدن وزارة الداخلية في اليوم الأول من شهر تموز سنة ١٩٢٩. ولقد حصلت الجمعية على امتياز باصدار مجلة اسبوعية بأسم «الصنائع» صدر منها عددان، وصودر العدد الثالث من المطبعة قبل توزيعه ولقد اوردنا ذلك، في الجزء الثاني المخطوط من كتابنا «مفصل تاريخ الصحافة في العراق» والذي نأمل ان تتوفر الظروف المواتية لطبعه. ونتيجة الأنتخاب الذي اجري في بناية «المعهد العلمي» في محلة الحيدرخانة أصبح محمد صالح القزاز رئيسا للجمعية اما السيد عبدالرحيم التكريتي، الذي تقدم بطلب تأسيس الجمعية الى وزارة الداخلية، فأنه تخلى عن الجمعية وقطع علاقته بها، بعد ان فشل في انتخابات الهيئة الادارية لها.

(٢٦) تم أختيار هؤلاء الوزراء الأربعة الذين اعتبروا من القوميين نتيجة اتفاق وتداول في الاراء بين بعض الفئات القومية المعادية للحكومة السليمانية وبكر صدقي، ولم يستطع حكمت سليمان ازاء ذلك ان يظهر بمظهر المعارض لذلك «فؤاد حسين الوكيل: جماعة الأهالي في العراق ص ٤٣٣».

(٢٧) اغلقت جمعية الاصلاح الشعبي في ١٣ تموز ١٩٣٧ بقرار من وزير الداخلية اتهمت به الوزارة هذه الجمعية بأن «مقاصدها كانت مضرة بكيان المملكة وسلامة المجموع، واستهدافها بث فكرة مسمومة كالشيوعية».

(٢٨) عطلت جريدة الأهالي التي كان عبدالقادر اسماعيل يملك امتيازها بقرار من مجلس الوزراء في يوم ٢٤ تموز ١٩٣٧، ولم يهرب عبدالقادر وأخوه يوسف كما ذكر ذلك المؤلف، وأنما اسقطت عنهما الجنسية العراقية وابعدا عن العراق وشمل قرار اسقاط الجنسية ايضا «سركيس صوراني» صاحب جريدة «الدفاع» التي كانت تنطق بلسان بكر صدقي. وقد ابعد عبد القادر واخوه

كان الوضع الذي برز الان من النوع الذي لم يكن امام بكر صدقي الا ان يسيء استعماله. فبعد ان افسدته، هو والملتفون من حوله، السلطة المتعاظمة كثيرا، اخذوا يفقدون احترام العناصر الطيبة، نتيجة ادمانهم على السكر والعربدة والشجار، كما ان زواجه من راقصة نمسوية من فينا، قد جاء وبالا عليه. وفضلا عن ذلك أصبح الناس في كل مكان يعتقدون باشتراكه في مقتل «ضياء يونس» سكرتير مجلس الوزراء سابقاء وصديق ياسين الهاشمي الذي يعيش الان في المنفى[٢٩]. ولايقل عن هذا الجرم توجيهه عصابته في الهجوم على الزعيم العربي الوطني المحارب «والذي كان ينتقد بكر صدقي»[٣٠] ونعني به مولود مخلص.

ادت وفاة ياسين الهاشمي في دمشق خلال شهر حزيران ١٩٣٧ [٣١] الى تكتل الاحساس الشعبي الى جانب ياسين، تلك الشخصية القومية المخلصة التي لازمها شيء من النحس. وهذه الشخصية وان لم تكن تملك سوى نصف الظرافة، الا أن الخدمات التي قدمتها الى بلادها لم يتم تقييمها.

كذلك كان انتحار شقيق جعفر العسكري[٣٢]، ووفاة اصدقاء اخرين في وقت متزامن مع وفاة ياسين الهاشمي، ومقتل شخصية كبيرة في بغداد (عبدالقادر السنوي) على يد احد الأكراد الذي كان بكر صدقي يحميه، كانت كل هذه الحوادث من النذر المفزعة بالنسبة الى بكر صدقي.

يوسف الى سوريا فأستقر عبد القادر في دمشق وفيها كتب قصته الشعبية «من بنات الناس» وطبعها في احدى المطابع الدمشقية، ومن ثم لحق بأخيه يوسف الذي سبقه في الهجرة الى باريس.

(٢٩) يقول سليمان فيضي في مذكراته «جاءني ضياء بعد الانقلاب بايام قلائل، وهو بادي القلق والارتباك، وقال لي ان بعض الضباط دخلوا مكتبه وطلبوا منه احضار أضبارة تتعلق بالتهم التي نسبت الى بكر صدقي في عهد الوزارة السابقة بقصد اتلافها فلما اخبرهم بأنه لايعلم من امر تلك الأضبارة شيئا توعدوه بالقتل ان هو لم يحضرها ثم خرجوا «سليمان فيضي: في غمرة النضال ص ٣٠٥ الطبعة الأولى ١٩٥٢».

(٣٠) تصدت عصابة بكر صدقي للمرحوم مولود مخلص في احدى الأمسيات عند المنعطف من وزارة الدفاع الى الشارع الذي يسكن مولود فيه وهو شارع العسكري فأمطرته برصاصات وهو في سيارته لم تصبه بل رد على المهاجمين باطلاقات من مسدسه. وحين خرج مولود بعد ذلك الحادث بأيام قلائل الى مزرعته في «الحمرة» شمالي تكريت ارسلت اليه ثلة من الشرطة في سيارة مسلحة حيث طلب اليه معاون الشرطة في تلك السيارة ان يرافقه الى بغداد واستطاع مولود ان يخدع ذلك المعاون بأن طلب اليه بأن ينتظره في تكريت لكنه اعد العدة للهرب بالتوجه بسيارته الى سوريا يرافقه في ذلك ابن اخيه «جاسم امين» متخذا طريق شركة النفط العراقية في «بيجي» الى «حديثة» ومن هناك عبر الحدود السورية ليستقر في دير الزور.

(٣١) توفى المرحوم ياسين الهاشمي ببيروت ليلة الخميس ٢١ كانون الثاني ١٩٣٧ نتيجة نوبة قلبية لم تمهله سوى لحظات ونتيجة برقية بعث بها طه الهاشمي الى الملك غازي للسماح بنقل رفات ياسين الى بغداد، وافقت حكومة الانقلاب على ذلك شرط ان لايرافق طه الهاشمي الرفات الى بغداد.

(٣٢) المقصود بذلك «علي رضا العسكري» الذي وجد ذبيحا في داره صبيحة احد الأيام ولم يعرف ان كان قد انتحر ام اغتيل.

كانت الطلبات الملحة لتوسيع الجيش، قد أربكت الوزارة من الناحية المالية، ومارافق ذلك من كثرة الصرف دون روية، وزيادة الأموال المخصصة للانفاق على القوات المجندة طبقا لقانون التجنيد العام، من الأمور التي غدت غير مستحبة من لدن جمهور السياسيين. وكان جميع الضباط الذين شاركوا في انقلاب تشرين الأول سنة ١٩٣٦ قد نالوا تعويضات عن الاضرار التي اصابتهم وفقا للقانون الذي صدر في نيسان ١٩٣٧ (٣٣). على ان الاقتراح المستهجن لاقامة تمثال لبكر صدقي بطل الثورة، لم تتم الموافقة عليه(٣٤).

بقيت ادارة التجنيد الاجباري تعمل نابضة بالحياة على نطاق واسع، وان لم تواجه سوى القليل من المقاومة. غير ان معظم الوحدات المجندة كانت اوطأ من مستوى القوات المطلوبة. كذلك أصبحت العلاقات مع البعثة العسكرية البريطانية غير ودية انذاك، وذلك لأن الشرط الذي فرضته بريطانيا على التسلح والتجهيزات العسكرية، قد اثار قضايا لها صعوبتها الخاصة. فلقد جاءت هذه الطلبات في وقت اقدمت فيه بريطانيا على تسليح نفسها على نطاق موسع، ولذلك فلم تلب الطلبات التي تقدم بها العراق للحصول على المدافع، والطائرات والتجهيزات، الأمر الذي اثار حنق العراقيين ونفاد صبرهم.

استغلت الدعاية الألمانية المنسقة التي كان يديرها الهر «غروبا» الوزير الألماني في بغداد، والزيارة الخاطفة التي قام بها الدكتور «شخت»(٣٥) والتي تضمنت طرح عروض معاكسة تقدمت بها معامل الأسلحة الألمانية والجيكية، الامر الذي ادى الى تقديم طلبات من العراق للحصول على السلاح من شركات «كروب» و «سكودا»، في حين اودعت الطلبات على الطائرات وكلها من أنواع غير ملائمة الى المجهزين الايطاليين، حيث سلمت بعض الأسلحة التي طلبت. اما بقية الاسلحة التي طلبت، وكانت قيمتها تبلغ نصف مليون جنيه استرليني، فانها قد سلمت في الوقت الذي سقطت فيه وزارة الانقلاب(٣٦).

---

(٣٣) المقصود بذلك قانون العفو العام عن القائمين بحركة الانقلاب.

(٣٤) تقدم باقتراح اقامة تمثال لبكر صدقي لفيف من النواب الانتهازيين بقصد التملق والتزلف، وهم كل من تكليف المبدر الفرعون، واحمد عارف قفطان، وخميس ضاري، ورفائيل بطي، ومكي جميل، وفرهود الفندي، وشعلان الشهد، ومظهر الحاج صكب، وعبدالقادر الطلباني، وحامد الجاف، ومخيف الكتاب، وحسين النفطجي. وكان عبداللطيف نوري على رأس المعارضين من الضباط لذلك الاقتراح. وكان تقديم الاقتراح قد جرى في يوم ٢٨ نيسان ١٩٣٧.

(٣٥) كان الدكتور شخت يعتبر اعظم اقتصادي عالمي في ذلك الوقت، وكان يتولى منصب الاقتصاد في الوزارة النازية.

(٣٦) اشترى العراق انذاك من ايطاليا دبابات من احجام صغيرة وطائرات من طراز (سافوي) و (بريدا) استخدمت معظمها خلال ثورة ايار سنة ١٩٤١، واسقط البعض منها بفعل نيران العشائر في الديوانية والناصرية حيث ظنها البعض - كما زعموا - بأنها طائرات بريطانية!

لم تكن الحاجة ماسة لتدبير المال بقصد الانفاق على الجيش وحده حسب، بل ان حكمت سليمان كان يطمح الى تجسيد «ثورته» عن طريق الشروع بتنفيذ الأعمال المهمة التي اعدت مشاريعها من زمن طويل، من أمثال شق الطرق، وانشاء المباني، وتوسيع سكك الحديد، واكمال مشروع سدة الكوت.

ولقد تم الأتصال مرة اخرى بالسادة أصحاب مصرف «بيرنغ اخوان» لاقتراض مبلغ ثلاثة ملايين جنيه استرليني بشروط مناسبة، وعلى هذا الاساس خول البرلمان العراقي الحكومة، في ربيع سنة ١٩٣٧ امر الحصول على ذلك القرض[٣٧].

كانت شركة النفط، التي تعتبر العوائد التي تقدمها هي الضمان المفضل لذلك القرض، تميل اساسا ان تدفع هذه العوائد الى اي فريق اخر بدلا من الحكومة العراقية[٣٨] ونتيجة لذلك فلم تحصل الحكومة العراقية الاعلى قرض بمبلغ مليون جنيه ليس الا.ولقد تم التفاوض في حينه حول هذا المبلغ، ولكن لا الحكومة العراقية ولا المقرضون، ولا الحكومة البريطانية، قد تخلصت من النقد الموجه اليها، وكان هذا القرض أول دين اجنبي يتحمله العراق.

• • •

لم ينجم عن وجود قوى معادية للحكومة، اي تدخل مادي في الادارة التي كانت في صفتها مساوية للادارات التي سبقتها. ونظرا لخيبة الامال فيها، فان هذه الادارة لم تتفوق على الادارات السابقة. اما في ميدان الشؤون الخارجية، وبعض التطورات الداخلية التي حصلت، والتي ستأتي الصفحات الأخيرة من الكتاب على اعطاء وصف لها، فان شيئا من التقدم قد حصل في ذلك.

طرحت المشكلة الاثورية بعد شهر اب ١٩٣٣ على بساط البحث امام عصبة الأمم. وقد جاء الموقف الذي وقفته الحكومة البريطانية ازاء المشكلة، مخيبا لآمال المتطرفين من الاثوريين.

---

(٣٧) طرحت لائحة القانون الخاص بهذا القرض على المجلس النيابي لمناقشتها فتمت الموافقة عليها بالاجماع، ماعدا الشيخ باقر الشبيبي، الذي خالفها،ومع ان مبلغ القرض كان مليون جنيه الا أن الحكومة العراقية لم تقبض منه سوى ٨٣٧٠٩١ باونا، في حين انها الزمت بتسديد مبلغ مليون واربعمائة واثنين وتسعين الف باون في النهاية.

(٣٨) تحركت شركة نفط العراق، التي تملك الحكومة البريطانية اكثرية اسهمها لاسقاط حكومة الأنقلاب، وذلك نتيجة تقربها من المانيا وايطاليا وجيكوسلوفاكيا لشراء السلاح منها. ولقد كان العراق في الواقع اول بلد عربي، وفي الشرق الأوسط كله، يقدم على كسر الطوق الأحتكاري للتسلح المفروض على الشرق الأوسط والبلدان العربية منه بصفة خاصة.ولقد كانت الوزارة الهاشمية هي اول من بدأبكسر هذا الطوق عندما اشترت بعض الأسلحة من جيكوسلوفاكيا في سنتي ١٩٣٥، ١٩٣٦.

فليد قرر البريطانيون ان يحافظوا على دولة العراق المستقلة، بعد ان تأكدوا من النتائج الخطيرة التي لايمكن التسامح فيها. وطبقا لذلك وافق مجلس عصبة الأمم على تأليف لجنة سداسية تضم ممثلين عن بريطانيا، وفرنسا، والدانمارك وايطاليا والمكسيك، واسبانيا،عهد اليها امر البحث عن اي مكان في العالم لتوطين الطائفة الاثورية فيه. اقترحت اللجنة السداسية توطين الاثوريين في البرازيل، بينما طرح مشروع بريطاني لتوطينهم في مستعمرة «غوايانا»[٣٩]، ومشروع فرنسي لاسكانهم على ضفاف نهر النيجر في افريقيا. ولكن ظهر بأن كلا المشروعين البريطاني والفرنسي تافهان ولاينطويان على شيء. اما داخل العراق فقد بقي انصار المارشمعون يتمسكون بالامال الكاذبة في حين رفض المعارضون لمارشمعون، السكن في الاراضي التي كان «شمعون» واتباعه يطالبون بها.

كان المخيم الذي اقامته الحكومة العراقية على نفقتها في الموصل للآثوريين مايزال قائما حتى نهاية سنة ١٩٣٤، لكن هذا المخيم مالبث ان تقلص نتيجة ازدياد عدد الذين كانوا يغادرونه،اذ نقص عدد الذين جمعوا فيه الى النصف خلال سنة ١٩٣٤. وكانت عصبة الأمم قد اقترحت توطين الآثوريين في منطقة «الغاب» في سوريا على ضفاف نهر العاصي، ووضعت خطة لنقل الآثوريين الى ذلك المستوطن. ولكن الآثوريين مالبثوا انفسهم ان رفضوا هذا المشروع،وعاد من هرب منهم من العراق الى نهر «الخابور»،الى موطنهم في العراق حيث حدث تقدم في التأهيل الاقتصادي الذي وفرته الحكومة العراقية لهم، فتقبلوا الظروف الراهنة والرعوية العراقية بصفة نهائية.

لم يكن الحادث الذي ادى الى سقوط الوزارة السليمانية التي امضت في الحكم اقل من تسعة اشهر من حياة قلقة مضطربة، يعود الى اجراء دستوري،كان يندر اللجوء اليه لتغيير الحكومات في العراق، ولا الى اي تجمع من قوات المعارضة، وانما كانت اصول ذلك الحادث تكمن في حقد الجيش ذاته، فلقد خربت الذمم، واشتدت الضغائن والاحن، بسبب الامعان المعيب الذي كان بكر صدقي يظهره في تسلطه. لقد استطاع الحرس الخاص الذي كان يحيط ببكر صدقي حيثما ذهب ان ينقذه من محاولات سابقة للاعتداء على حياته خلال الاشهر التي انقضت حتى الآن من سنة ١٩٣٧. ولكن عندما كان في اليوم الثامن من شهر آب في طريقه لمشاهدة المناورات التركية، وكان ينتظر في مطار الموصل، استطاع قتلته، عن طريق الافراد الذين امدوهم بالمعلومات لذلك، ان ينجزوا واحدة من الخطط البديلة التي اعدت لاغتياله[٤٠] . فقد اطلقت عليه النار غفلا من قبل احد الجنود العراقيين، ولم يعش زميله محمد

---

(٣٩) مستعمرة غوايانا احدى المستعمرات البريطانية في جنوبي افريقيا.

(٤٠) اعدت محاولات عدة لأغتيال بكر صدقي كان من بينها قصف العربة التي سيكون فيها في القطار الذي سوف يقله الى كركوك من بغداد، من الجو قبل ان يبلغ مدينة كركوك. ويبدو بأن خبر هذه المحاولة قد تسرب اليه ولذلك سافر جوا كيلا يعلم احد بموعد وصول الطائرة الى الموصل، والمكان الذي سوف يمكث فيه.

علي جواد امر القوة الجوية العراقية، أكثر من دقيقة واحدة(٤١).

نقلت الجثتان الى بغداد، ودفنتا في تكريم عسكري تام، ولم يحدث سوى القليل من الأسف الذي رافق القائد الى قبره، ولكن مقتله، كان باتفاق الاراء يمثل فرجا للجماهير وللصحافة، كذلك لم يكن مقتله ينطوي على الظلم، ذلك لأن الصفحات التي دونها بكر من تاريخ العراق كانت حقيرة ويرثى لها على الدوام(٤٢).

اقدم القائد العسكري في الموصل، الفريق امين العمري، على اعتقال القاتل، ومحاصرة المطار، وادعى لنفسه السلطة الوحيدة في المدينة. وما ان وصلت اليه الأوامر من بغداد، بأن يعتقل بعض الافراد الذين ذكرت اسماؤهم باعتبارهم من الشركاء في الجريمة، او من المتواطئين فيها، حتى اذعن لتلك الأوامر في اول الأمر لكنه مالبث ان تحقق من الاحتمالات الخطيرة ان هو اقدم على اجراء تطهير عام لكل خصوم بكر صدقي المعروفين. وبعد مرور ستة ايام على حادثة الاغتيال اقدم العمري على اتخاذ خطوة خطرة، حين نشر بياناً اتهم فيه الحكومة بتطبيق اجراءات ظالمة، وأنه بالنسبة اليه، والى القوات التي تحت امرته، يرفض الامتثال للأوامر بغداد بأكملها(٤٣).

---

(٤١) يقول العقيد الطيار المتقاعد «موسى علي» انه دخل حديقة دار ضباط السرب الأول في الموصل بعد ظهر يوم الحادي عشر من اب ١٩٣٧ وفي الساعة الرابعة والدقيقة الخامسة والعشرين، فرأى بكر صدقي جالسا على اريكة ضخمة وعلى يساره اريكة ضخمة اخرى طويلة جلس في زاويتها اليمنى، اي على يسار بكر صدقي «محمد علي جواد..واشار بكر علي ان اجلس على يساره وفي محل محمد علي جواد الذي انسحب الى الجانب الآخر من الأريكة، وكان بكر يتحدث الى بصوت منخفض مما اضطرني الى ان اقرب رأسي قرب رأسه، واذا بي أسمع محمد علي جواد يتساءل «شتريد» ولما ادرت رأسي الى الخلف وجدت جنديا خيالا يلبس ثوبا خاكيا مع سروال قصير واقفاً خلفنا و يداه وراءه وهو على بعد خمسة امتار فظننت بأنه من مريدي بكر.. ولم ينظر بكر الى الخلف بل بقي ثابتا واذا بي أسمع صوت اطلاقات نارية فأدرت رأسي الى الخلف فورا لمعرفة مصدرها، واذا بي أرى الجندي الذي كان واقفا يطلق مسدسه بأستقامتي وسمعت بكر صدقي يئن انة واحدة وبعدها سكن بدون حراك (موسى علي: اضواء على مقتل الفريقين جعفر العسكري وبكر صدقي ص ٥٠ ومابعدها طبعة ١٩٨١).

(٤٢) سارع الأنكليز الى مساندة الانقلاب الذي قام به بكر صدقي منذ اللحظات الأولى لوقوعه لأنه انقذهم من حكومة ياسين الهاشمي التي وقفت موقفا مشرفا من المسألة الفلسطينية وكسرت طوق التسلح. غير أن الانكليز مالبثوا ان تحركوا ضد بكر صدقي بعد أن اتجه الى المانيا وايطاليا لشراء السلاح منهما، وقوى صلاته بالمر غروبا في بغداد، وكان يعتزم زيارة برلين بعد ان يشهد المناورات التركية للالتقاء بالفوهرر هتلر الذي وجه اليه دعوة خاصة لزيارة ألمانيا ولقد فصل الدكتور محمد طربوش في كتابه «دور العسكريين في السياسة» مواقف الأنكليز هذه بالتفصيل وبالأعتماد على وثائق وزارة الخارجية البريطانية قبل غيرها من المصادر الأخرى.

(٤٣) دفع عدم التبصر الفريق أمين العمري الذي يعتبره الأنكليز أنه المخطط الأول لاغتيال بكر صدقي الى اعلان انفصاله عن حكومة بغداد والاستقلال في الموصل واذاعة بيانين بهذا الشأن، حيث ادى اعتصابه، واعتصاب امر معسكر الوشاش، في بغداد العقيد سعيد التكريتي الى سقوط الوزارة السليمانية واسدال الستار على الانقلاب وحكومته.

كانت وحدات الجيش في بغداد تؤيد جماعة بكر صدقي تأييدا واسعا. واستطاع امين العمري بالرسائل التي وجهها ان يضمن مساندة الحاميات العسكرية في الديوانية وكركوك، والسليمانية لموقفه وبذلك غدت الحرب الأهلية محتملة الوقوع ؛ ولكن العقيد سعيد التكريتي امر القوات المحتشدة في معسكر الوشاش في غربي بغداد[٤٤] استطاع بوقوفه الى جانب امين العمري، وبالاغلبية الواضحة للقوات ان يسيطر على العنصر المعادي لجماعة بكر صدقي، ولذلك اكد البيان الذي اصدره سعيد التكريتي على الاخلاص للملك غازي «الذي كان نفسه يؤيد ذات الطرف» وتأييد أمين العمري. وسياسة عدم الانتقام،ونقل الافراد الذين عينهم بكر صدقي من القيادة، ومن ثم ابعاد الجيش عن السياسة،ولكن هذه الكلمات كانت قد قيلت عبثا.

أما رئيس الوزراء حكمت سليمان الذي عهد الى عبداللطيف نوري بمنصب رئيس الأركان العامة، وعين جميل المدفعي الذي اسرع في القدوم الى العراق من سوريا، وزيراً للدفاع، فقد تحقق الان من تفاقم الشعور المعادي لحكمه، وأنه لم يعد في مستطاعه بعد الان ان يبحث عن اي سند له،ولذلك قدم استقالته في اليوم السابع عشر من شهر اب حيث صدرت ارادة ملكية وفي ذات اليوم، بتعيين جميل المدفعي رئيسا للوزراء.



(٤٤) كان معسكر الوشاش يقوم في ذات المنطقة التي جلى الجيش عنها، والتي يقوم فيها متنزه الزوراء وقد أريد في اول الأمر تقسيم اراضي الوشاش الى قطع وعرضها للبيع ولكن تم العدول عن هذه الفكرة وتحولت تلك الأراضي الى اعظم متنزه حدث في بغداد في الوقت الحاضر.

٥ ـ البر والجو والبحر

اعطت تجارة العراق الخارجية ، وان كانت محدودة في نطاقها ، خلال هذه السنوات ، صورة صحيحة بل مشجعة في الواقع ،ذلك لان عرض الميزان التجاري المغاير ، مايزال يجري اصلاحه بعناصر اخرى . فلقد ازداد حجم الصادرات زيادة مشهورة من سنة ١٩٣٥ الى سنة ١٩٣٧ . واتخذت خطوات لتحسين اعمال كبس التمور ، وتنقية الحبوب من الأوساخ ، وتغطيس بعض الاصواف ، وإزالة بعض المظاهر التي حطمت شهرة المنتجات العراقية . غير ان التقلب الذي طرأ على الكميات المصدرة ، وعلى اسعار الصادرات الرئيسة للبلاد ، مازال يجري الحديث عنه من سنة الى اخرى .

شرع بتصدير النفط الخام في سنة ١٩٣٤ . وبفضل ارتفاع اسعار الذهب في الخارج ، فقد استمرت سبائك الذهب ، تستنفد، على نطاق واسع ، ماكان لدى العراق من احتياطي من الذهب ، وسار الحاصل الضئيل من القطن الصالح للتصدير ، سيرا منتظماً في اعقاب سنة ١٩٣٦ . وكان كل هذا القطن المصدر يذهب الى اليابان.وكانت الاستيرادات التي بقيت بصفة عامة ، ثابتة في حجمها ، او متزايدة فيه ، تخضع للرسوم المعدلة في التعريفة الكمركية التي وضعها في سنة ١٩٣٣ ، خبراء من عصبة الامم حسب الاسس الملائمة لنمو الصناعة المحلية .

حافظت بريطانيا ، بكل يسر ، على زعامتها باعتبارها البلد المصدر للسلع ، مع الولايات المتحدة الامريكية التي كانت في الغالب تحتكر توريد السيارات. اما المانيا فانها بما كان لديها رجال الاسواق الحاذقين في تقديم الائتمان ، وبالهبات التي كانت تقدمها وكالة «هاافارة» اليهودية الالمانية ، استطاعت ان تزيد بصفة متواصلة من نصيبها في ميدان تصدير المواد الكيمياوية والمكائن. ورفعت اليابان ، بجهود مريبة ، حصتها من سوق التوريد خلال الفترة ١٩٣٠ - ١٩٣٦ ، من اثنين الى عشرين في المائة . وكانت صادراتها تتألف من السلع القطنية والصوفية والسلع المصنوعة من الحرير الصناعي ، وبعض المصنوعات المعدنية ، وهذا التوسع الذي حصل في ميدان الصادرات اليابانية قد حدى بالحكومة العراقية الى الاصرار على اليابان بأن تتقبل المنتوجات العراقية بنسبة تعادل خمس عشرة في المائة اول الامر ، ثم بنسبة خمس

وعشرين في المائة مؤخرا من الاستيرادات اليابانية [1] اما المنافسة الروسية التي بدأت بدافع ثابت في سنة ١٩٣٣ ، فانها لم تستمر طويلا .

بقيت تجارة المرور مع بلاد فارس ، والتي كانت معرضة في كل الاتجاهات الى الاختفاء والزوال ، قائمة ، وان كانت قد اخذت تفقد نطاقها بالتدريج . وقد تعززت هذه التجارة باستيراد المنتجات النفطية من اواسط فارس وشماليها ، وبمروها بصفة ضئيلة من تحويل نقل منتجاتها وسلعها عن الطرق العراقية ، واختيرت بلدة المحمرة (التي اصبحت تدعى الآن باسم خرمشهر) لكي تحل محل بغداد بصفة مركز مالي للتجارة .

تغيرت عملية الصيرفة وكذلك الاسس المالية للمعاملات التجارية الداخلية في العراق تغيرا ضئيلا ، وان كانت قد برزت النية في فرض رقابة حكومية ادق ، وذلك بصدور القانون الذي يحصر بعض الحرف بالعراقيين وحدهم [2] وذلك عن طريق الاصرار على تقديم ودائع ضمان من لدن شركات التأمين الاجنبية ، وباعلان الحكومة عن رغبتها في الاسهام بصفة مباشرة ، في ميدان الصناعة ، حيث صدر في اوائل سنة ١٩٣٨ قانون الرقابة على اعمال الصيرفة. كذلك حافظت العملة العراقية على معادلتها للجنية الاسترليني ، لان مجلس العملة في لندن كان يساهم بربح سنوي في الخزينة العراقية. وكانت ادارة السلع وعملية نقلها وتوزيعها تجري بدرجة اكثر تجديداه فقد تضاعف عدد الحوانيت والفنادق المشيدة حسب الطراز الاوربي ليس في بغداد وحدها ، حيث كان اليهود والمسيحيون هم المبرزون في امثال هذه الفعاليات.

وكانت مظاهر الفترة التي ساعدت على ربط العراق الذي عاش في سني العشرينات ، بسني الخمسينات من القرن الحالي ، تمثل ظهور بدايات ضواحي المدن «والفيلات» العصرية ، وانتشار خدمات «الباصات» في المدن الرئيسة. لقد كانت هذه الخدمات تخدم جمهورا ، كان فيه ابناء المدن خلال مئات من السنين ، ينكرون على العرب ارتداء الملابس الاوربية ، اولئك الذين كانوا في الغالب يتخلون عن المميزات التي تتحلى بها السدارة العراقية ليفضلوا القبعة عليها ، او ليتركوا الرأس حاسرا ، وان يستطيع الرجل ان يخرج يتمشى مع نسوة لم يعد الحجاب امرا مطلقا بالنسبة اليهن.

---

(١) لايوجد ادنى شك في ان هذا الموقف الذي وقفته الحكومة العراقية انذاك وان كان من المواقف الوطنية حقا ، الا انها كانت مدفوعة في اتخاذه بضغوط انكليزية واضحة. وذلك لان اليابان غدت بعد انتهاء الازمة الاقتصادية العالمية في سنة ١٩٣٣ ، هي المنافس الوحيد الخطير للسلع الاوربية وعلى الاخص الانكليزية منها في البلدان الشرقية التي تخضع للنفوذ الانكليزي.

(٢) يراد به قانون حصر المهن بالعراقيين الذي شرعته حكومة ياسين الهاشمي التي وجدت ان الاجانب المقيمين في العراق انذاك وعلى الاخص الفرس والهنود،كانوا يحتكرون اكثر الاعمال وينافسون العراقيين في مجال العمل والعيش. ولكن شركات النفط الانكليزية العاملة في العراق لم تتقيد بهذا القانون واستمرت تفضل استخدام الاجانب على العراقيين في دوائرها ومحطاتها ومشروعاتها.

تقدمت الصناعة المحلية ولكن بشكل بطيء ولم يعد مستطاعا اضافة سوى القليل الى المشاريع التي اشير اليها قبلا خلال الفترة من سنة ١٩٣٢ الى سنة ١٩٣٧. وذلك لان واحدا او اثنين من معامل النسيج قد تم توسيعها نتيجة جلب مكائن المانية لهذا الغرض، واستجلاب العاملين الجيكيين. وكذلك انشئ المزيد من مصانع صنع السكاير ومعامل الطابوق الالية. وتضاعف عدد معامل الثلج «والصودا» التي كان الواحد منها يقام في غرفة واحدة. كما وضعت خطة لانشاء محلج ثالث للقطن في منطقة الكوت. على ان المشاريع الخاصة بصنع الشخاط والحلويات كانت في وضع حقير. اما مشروع معمل السمنت الذي بدأ به ياسين الهاشمي فانه لم يتحقق عمليا، على الرغم من الزيارة قام بها خبراء المان في هذا الشأن ، كذلك لم يحظ بالثقة مشروع سمنت آخر كان منشؤه الانكليزي جم النشاط في هذا الميدان.

وبالنسبة الى استثمار النفط ، كانت هذه السنوات من الناحية الاخرى ذات اهمية رفيعة وذلك لان شركة النفط العراقية ، وشركة استثمار النفط البريطانية[3] كانت تقدم بدلات ايجار سنوية يبلغ مجموعها بصفة مشتركة اكثر من نصف مليون باون استرليني سنويا حتى سنة ١٩٣٥، ولقد اصبحت عوائد شركة النفط العراقية وحدها بعد تلك السنة تبلغ ضعف هذا المبلغ.

وبعد الاحتفال الذي جرى في كركوك في شهر كانون الثاني سنة ١٩٣٥[4] بافتتاح الخط المزدوج من قطر اثنتي عشرة بوصة الذي اوصلته الشركة الى كل من حيفا وطرابلس، بدأ العمل بتصدير النفط عبر هذه الانابيب. ولقد حدد هذا الانجاز نهاية عشر سنوات من الصبر، والعمل الموجه توجيها جيدا، منذ ان تم منح اول امتياز للنفط، كما ميز هذا الانجاز ايضا تشغيل الالوف من العراقيين، وتوسيع المواصلات، وتقديم مثال امام ظهور صناعة عصرية ناجحة ذات مدى واسع، وما اضافه ذلك من فوائد للجماهير العراقية واغناء الخزانة العراقية بصفة مباشرة. اما اعمال استثمار النفط التدريجية في كركوك، واقامة المستودعات الاساسية للنفط في بيجي وفي حديثة والمدن التي اقيمت في محطات ضخ النفط القائمة وسط الصحراء بالطرق التي تربطها وخطوط الانابيب التي تصل بينها، وكذلك خطوط البرق، فان هذه كلها قد اصبحت مظهرا مميزا لمشهد العراق العصري. كذلك كان انتاج النفط الخام بمعدل اربعة ملايين طن سنويا ابتداء من سنة ١٩٣٥ او مابعدها، قد جعل العراق يعتبر بصفة مباشرة البلد الثامن بين البلدان التي تنتج النفط في العالم.

---

(٣) باشرت هذه الشركة استثمار النفط في منطقة عين زالة في الموصل وقد عرفت فيما بعد باسم شركة نفط الموصل وكانت فرعا من شركة النفط العراقية وجرى تأميمها بعد تأميم شركة النفط العراقية بمدة قصيرة.

(٤) جرى هذا الاحتفال في الرابع عشر من كانون الثاني ١٩٣٥ وحضره الملك غازي ووزراؤه ، وممثلو الشركات الاجنبية وبعض الشخصيات الاجنبية، وقد القى غازي خطابا طالب فيه بان لا يتم هضم حقوق العمال العراقيين في الشركة

مالبثت شركة استثمار النفط البريطانية، والتي كان الايطاليون والالمان والفرنسيون والسويسريون يسيطرون على الاسهم فيها خلال هذه السنين، ان وجدت نفسها مرتبكة ازاء التزامها بدفع مبالغ سنوية الى الحكومة العراقية، وكذلك ازاء اخفاقها في الانتاج على الرغم من حملات التنقيب الفعالة عن النفط منذ سنة ١٩٣٣، لانها لم تكشف سوى نفط فاسد يندر ان يكون صالحا لتصديره الى الاسواق. ولذلك انطوت الخطة التي اعدتها هذه الشركة بعد سنة ١٩٣٥ على تقليص مدفوعاتها النقدية، وكذلك ماتعهدت به من انشاء خط حديدي من القيارة الى تل كوجك لنقل نفطها الى ساحل البحر الابيض، وربط العراق بنظام سكك الحديد التركية، وذلك المشروع الذي رفضته الحكومة العراقية بعد مزيد من التردد.

اصبح الوضع المالي للشركة ميئوس منه بصفة اكثر. كذلك تميزت اعادة تشكيل مجلس ادارة الشركة في سنة ١٩٣٦ بتحويل رقابة الشركة الى مجموعة شركة النفط العراقية التي مالبثت ان برزت اخيرا بانها المالكة الحقة لشركة استثمار النفط البريطانية ولحقول نفط الموصل واختفاء اي من المساهمين من غير البريطانيين فيها، ماخلا اسهم شركة النفط العراقية والتابعين من حملة الاسهم الفرنسيين والامريكيين. اما قضية عدم صلاح النفط المستخرج وكثرة المواد الكبريتية فيه فقد بقيت من دون حل وفي الوقت ذاته واصلت شركتا نفط الرافدين وخانقين الصغيرتان اعمالها في استخراج النفط وتكريره في الاراضي المحولة وفي تسويقه داخل العراق. ولقد ارتؤي في هذه الفترة انشاء مصفى للنفط تمتلكه الحكومة العراقية ذاتها، وقد منح امتياز انشائه الى شركة النفط العراقية، غير ان العمل في انجازه كان بطيئا.

كان تزفيت الطرق من بين الخدمات التي استعملت المنتجات النفطية فيها في العراق. ولكن هذه المنتجات وكذلك الاموال المتوفرة والمحدودة جدا لم تستطع ان تعمل المزيد في هذا الوقت في تزويد البلاد بطرق ذات مستوى عال بل وحتى معتدل. ولقد كمل تبليط بعض الاقسام الاخرى من هذه الطرق من بينها طريق الرمادي – الرطبة في حين ظلت طرق اخرى على حالتها من الرداءة وعدم استطاعة المرور خلالها.

كانت صيانة الطرق التي تكلف كثيرا ويتعذر تمييزها، لا تحظى الا بافضلية واطئة عادة في التخصيصات الحكومية. فقد ازداد النقل في طريق النجف – المدينة المنورة، كذلك تم تطوير الطريق الى عمان فغدا منافسا قويا للطريق الشمالي الذي يصل الى بيروت. اما طريق راوندوز فانه، لخيبة الامل، لم ينجز سوى القليل من عمليات النقل، ماعدا ايصال بعض المنتجات النفطية الى شمالي بلاد فارس.

اعقب اكمال بناء جسر الفلوجة بناء جسور حديدية اخرى على الزاب الاسفل في التون كوبري وعلى الزاب الاعلى في اسكي كلك وفي اماكن اخرى. وفي بغداد تقرر استبدال

الجسرين الخشبيين فيها بجسرين ثابتين حديديين اعطى التعهد بانشائهما الى شركة «هو لواي اخوان» في سنة ١٩٣٦ [٥]. وكان ذلك التطور يمثل خطوة كبرى للعاصمة. كذلك كمل بناء الجسر الحديدي الثابت في الموصل، وسارت اعمال شق الطرق التي تقوم بها البلديات في اماكن اخرى وليس في بغداد وحدها.

لم يحصل سوى تغيير ضئيل في ميدان الملاحة في نهر دجلة. فالمخاوف الناجمة عن الظن بان سدة الكوت ستجعل مرور السفن البخارية مستحيلا قد اثيرت لكنها لم تنل التأييد. ولذلك فان الحركة التي اقدم عليها المنافسون المحليون للحقوق التي تتمتع بها «شركة الفرات ودجلة» [٦] لم تؤد الى نتيجة. ومع كل ذلك تناقص النقل النهري بصفة عامة فبيعت السفينة «زبيدة» الى الهند في سنة ١٩٣٥ وتحولت السفينتان «بلوس لنج» و«دجلة» الى انقاض في ذات السنة ولحقت بهما السفينة «خليفة» ايضا في سنة ١٩٣٧ [٧]. وفي سنة ١٩٣٦ انقسمت شركة «العراق – فارس» للملاحة الى شركائها الاصليين وهم شركة لنج وشركة غري مكنزي، في حين حصلت الحكومة العراقية في سنة ١٩٣٧ على اربعة زوارق صغيرة مزودة بالمدافع لاستعمالها في اعمال الشرطة النهرية لكن هذه الزوارق لم تستخدم الا قليلا.

كان ميناء البصرة يقدم خدمة وطيدة للبلاد، ولقد سمح له مدى اعمال النقل فيه بان يدفع بصفة منتظمة اقساط رأسماله الى الحكومة البريطانية، ولم يبق من ذلك الدين في سنة ١٩٣٧ سوى مبلغ ثلثمائة الف باون استرليني. اما الادارة الحصرية التي كان ينبغي انشاؤها طبقاً لمعاهدة سنة ١٩٣٠ فانها لم تظهر الى حيز الوجود، فقد ظل الميناء يدار من قبل مديرية عامة تابعة الى وزارة المالية [٨].

ظل مشروع الميناء المخصص لكري النهر يعمل بنجاح كبير وقد سددت قروضه وبقيت القناة العميقة مفتوحة وادخلت التحسينات عليها(*) وتم الحصول على كراكتين جديدتين واكملت

---

(٥) حل الجسران الحديديان محل الجسرين الخشبيين الجسر العتيق وجسر مود.

(٦) هذه الشركة ملك لشركة بيت لنج المعروفة والتي حصلت على امتيازها في العهد التركي.

(٧) كل هذه السفن كانت تابعة للاسطول الذي كانت تستخدمه شركة لنج في الانهار العراقية.

(٨) اصبحت مديرية الموانئ بعد ثورة تموز ١٩٥٨ تابعة الى وزارة الاشغال والمواصلات ويديرها مدير عام يعاونه مجلس ادارة. وكان المرحوم اللواء الركن الاستاذ مزهر الشاوي اول من تعين مديراً للموانئ بعد قيام ثورة تموز ١٩٥٨ وبقي فيها الى قيام ثورة شباط ١٩٦٣ ونفذ كثيرا من المشروعات المهمة في الميناء والبصرة من بينها مشروع الاسكان الخاص بموظفي الميناء وعماله وانشاء العديد من الحدائق العصرية من اهمها حديقة جزيرة السندباد.

(*) كانت اعماق المياه الواطئة في قناة «روكا» والتي انجزت في مراحل متعاقبة من مشروع كري شط العرب قد بلغت ثمانية عشر قدما في سنة ١٩٢٦، فاصبحت ٢٠/٩ قدما في سنة ١٩٢٨ وارتفعت الى ٢٣/٨ او ٢٤ قدما في سنة ١٩٣٥.

ادارة الميناء بناء المطار العصري في البصرة وزودنه بفندق[٩] وبكل التسهيلات المطلوبة.كذلك كانت ادارة الميناء هي التي تزود مدينة البصرة بالقوة الكهربائية وباسالة الماء العصرية. وازدادت حركة النقل عبر المحيطات والتي كانت تستخدم الميناء زيادة جوهرية بعد سنة ١٩٣٥. ففي اول الامر ظهر خطان للملاحة البحرية اليابانية ثم ارتفعا الى اربعة خطوط فيما بعد، بالاضافة الى ظهور خطوط بواخر من ملكية المانية وهندية، وايطالية ثم ظهور بواخر روسية وسويدية ويونانية بصفة عرضية، ولكن القسم الاعظم من الحمولة بالاطنان بقي كالسابق من حصة البواخر البريطانية والبريطانية الهندية بصفة مشتركة.

حافظت السكك الحديدية العراقية على مكانتها ووظائفها،على الرغم من التدخلات العشائرية في عمليات النقل بالقطارات وعدم استعمال التجهيزات الحديثة على نطاق واسع، والمنافسة الخطيرة التي كانت الطرق تمثلها. وقد تم ادخال الوسائل العصرية على نظام الملاحة حيثما وجد ذلك ملائما للتطبيق. فقد شرع بتقديم خدمات ملاحية يومية وسريعة بين البصرة وبغداد،ومددت المفاوضات مع الحكومة البريطانية حول الشروط التي يتم بها نقل ملكية سكك الحديد مثلما اشير الى ذلك في المعاهدة من سنة ١٩٣٢ الى سنة ١٩٣٦، وفي هذه السنة الأخيرة تم التوصل الى اتفاق بشأن ذلك، ويقضي هذا الاتفاق بان تصبح سكك الحديد المختصة ملكا للحكومة العراقية مقابل دفع مبلغ يقل عن نصف مليون باون[١٠].

(٩) هو فندق شط العرب الذي يقع عند المطار وكان من افخم واشهر الفنادق الموجودة في البصرة منذ ذلك الوقت حتى الى ماقبل سنوات خلت.

وكانت الارباح التي يدرها هذا الفندق عرضة للاختلاس كما انه كثيراً من كبار الموظفين الذين كانوا ينزلون فيه يتهربون من دفع الاجور التي تترتب في ذمتهم. وعندما توليت العمل في مستشارية الحقوق في الموانئ في اواخر سنة ١٩٦١ نظمت قوائم بالاجور المدين بها بعض الموظفين تمهيداً لمطالبتهم بتسديدها فكان ان زادت تلك الاجور عن اكثر من مائة الف دينار قبل ثورة تموز ١٩٥٨.

---

(١٠) قام بالتفاوض مع الحكومة البريطانية لنقل ملكية السكك الى العراق وفد مؤلف من كل نوري السعيد وياسين الهاشمي ورستم حيدر في شهر حزيران سنة ١٩٣٣ وبعد ان تم الاتفاق على ذلك في الاول من تشرين الاول ١٩٣٥ في عهد الوزارة الهاشمية،وكان المبلغ الذي تقرر ان تدفعه الحكومة العراقية هو اربعمائة الف دينار،وقد ابرم البرمان الاتفاق في اليوم التاسع من نيسان سنة ١٩٣٦. في ذلك الاثناء كانت المعارضة التي تزعمها حكمت سليمان وابو التمن بالاتفاق مع جماعة الاهالي قد استطاعت الحصول على امتياز صحيفة يومية باسم حكمت سليمان تدعى «البيان» تولى اصحاب الاهالي تحريرها ونشرها،وقد صدر العدد الاول من «البيان» في يوم ١٢ اذار ١٩٣٥ وهو يضم افتتاحية موسعة بعنوان «من الخطر على سلامة الدولة» كتبه جعفر ابو التمن اما العدد الثاني الذي صدر من البيان وهو العدد الاخير منها فانه صدر باربع صفحات في اليوم السابع من نيسان ١٩٣٦ ويكاد هذا العدد يكون خاصا بانتقاد اتفاقية السكك. فقد جاء فيه الى جانب المقال الافتتاحي «نستأنف العمل» مقال صب فيه جماعة الاهالي جام غضبهم على الوزارة الهاشمية لعقدها اتفاقية السكك تلك وكان ذلك المقال بعنوان «اقتصاديات البلاد تحت الانتداب لعشرين سنة اخرى» وكان محمد حديد هو الذي كتب ذلك المقال. وقد عطلت البيان بعد ذلك العدد (انظر تفاصيل ذلك في كتاب «جماعة الاهالي في العراق» لفؤاد حسين الوكيل ص ٣٢١ - ٣٣٧).

وبما قرره ذلك الاتفاق ان تظل ادارة السكك طيلة عشرين سنة من مسؤولية مجلس ادارة مشترك تكون اكثرية اعضائه من العراقيين وان يظل الموظفون التنفيذيون البريطانيون في مناصب رئيسة وقليلة-وقد صادق البرلمان العراقي على شروط هذا التحويل في شهر تموز ١٩٣٦ باكثرية لم تخلو من صراخات اقلية من النواب،وهكذا عادت الخصومة مرة اخرى الى الهدوء.

كان مشروع سكة حديد بغداد - حيفا الذي طال الدفاع عنه، قد تم رفضه في ذات السنة. غير ان تطورا في النقل باتجاه الشمال اصبح الان مؤكداً بالاحرى، في مشروع سبق للسلطات الفرنسية ان بدأت به في سنة ١٩٣٤ حين اوصلت الخط التركي بين حلب ونصيبين الى داخل المنطقة السورية المعروفة باسم (منقار البط) فاوصلته الى الحدود العراقية في تل كوجك. لم تبق الان سوى فتحة بين بيجي - الموصل - تل كوجك، وهذه كلها داخل العراق كما يتم اكمال سكة حديد البصرة - بغداد - اسطنبول، ذلك الحلم القديم لسكة حديد بغداد.

قررت الحكومة العراقية بناء القسم الناقص من خط الحديد هذا في شهر تشرين الثاني سنة ١٩٣٦ وبكلفة مقدارها حوالي مليون باون استرليني.

وكانت طلبات شراء مواد الخط التي عرضت في بريطانيا قد اجبرت الخزينة العراقية على عقد اول قرض اجنبي. ولقد بدأت الاعمال الترابية للخط في القطاع الشمالي الذي اعطيت له الاسبقية تلبية للرغبة الملحة من جانب الموصليين(١٦) وعشائر شمر والاقضية الشمالية(١٧).

تطورت المواصلات تطورا سريعا. فقد اخذت الخطوط البحرية البريطانية والفرنسية والهولندية العابرة للقارات تجتاز العراق،وتستخدمه الطائرات التي تربط الشرق الاقصى والهند نفسه ببلدان ساحل البحر الابيض المتوسط واوربا باستمرار متزايد. انشئت مطارات حديثة مزودة بتجهيزات كاملة في بغداد والبصرة،كما اخذت الطائرات المائية البريطانية بعد سنة ١٩٣٧ تستخدم بحيرة الحبانية وشط العرب. كذلك عرضت احدى الخطوط الجوية الفرنسية ان تقوم بسفرات مكوكية بين بغداد ودمشق، في الوقت الذي شرعت فيه مؤسسة مصر للطيران تمارس عملها بين بغداد القاهرة.

---

(١٦) كتبها باسم «مصلاوي» MUSLAWIS.

(١٧) بدات الاعمال الترابية في بيجي في شهر ايلول ١٩٣٦ واعطي التزام تقديم العمال الى عشيرة شمر التي يرأسها الشيخ عجيل الياور وكان ينوب عنه مشعال الفيصل. وقد استخدم التزوير علانية في قوائم اسماء العمال حيث كان بعض الرعاة والخدم التابعين لعشيرة شمر يتقاضون رواتب من ادارة سكك الحديد بصفة عمال، ولم يكونوا من العمال فعلا، وانما كانت اجورهم تسلم الى وكلاء عشيرة شمر لقاء بعض الدراهم القليلة تدفع الى كل مدع بانه من العمال. وقد بدل مسرى الخط اذ اصبح يمر بمحطة ضخ النفط في «ك ٢» تلبية لطلب شركة النفط حيث نقلت محطة القطار من بيجي الى محطة الضخ وعرفت باسم «الصينية» وهي محل استدارة شاحنة القطار واصبحت الان ناحية تابعة لقضاء بيجي. ولقد عاد خط القطار الى مسراه القديم الآن.

اقدم لفيف من المهتمين بشؤون الطيران في بغداد على تأسيس جمعية الطيران العراقية في سنة ١٩٣٦ (١٨) وتم نقل الطيران المدني الذي انشئ بصفة مدهشة في سنة ١٩٣٥ الى اشراف وزارة الدفاع. وفي ذات الوقت حصل تطور في استعمال خطوط البرق الارضية واللاسلكي مع عواصم بلدان ساحل البحر الابيض المتوسط والقاهرة، وقيام خدمات عامة في هذا الشأن بين بغداد والبصرة والرياض، وبيروت ومصر وفلسطين. وربطت هذه الخدمات عن طريق هذه البلدان ببريطانيا،وبذلك وضعت هذه الخدمات العراق ضمن شبكة من المواصلات السلكية واللاسلكية. وظهرت الاذاعة في بغداد لاول مرة لكنها بقيت حتى سنة ١٩٣٧ تجريبية (١٩) وتبث على فترات.

حصل تقدم طيب خلال هذه السنوات الخمس في النطاق المهم جدا المتعلق بتسوية الاراضي. فقد تم تشكيل ثلاث لجان للتسوية وفقاً للتشريع الذي سن في اعقاب التقرير الذي قدمه «داوسن»، حيث اخذت هذه اللجان تمارس اعمالها بشكل فاخر، وقد اضيفت اليها لجنة رابعة خاصة بمنطقة كركوك منذ سنة ١٩٣٣، واعقبتها لجان اخرى فيما بعد. ولقد وجهت الانتقادات الى التسوية التي انجزتها هذه اللجان واللجان الكثيرة التي اعقبتها من قبل بعض الذين زعموا بان التسوية كانت محابية للشيوخ، وللمزارعين المدنيين الذين كانوا كثيرا ما يتغيبون عن مزارعهم وظالمة للزراع الحقيقيين.

كان صحيحا في الواقع ان الوفا من هؤلاء الزراع قد بقوا بصفة قانونية من دون اراضي يملكونها وظلوا يعيشون بصفة تابعين لغيرهم الى الابد. ذلك لان كثيرا من الشيوخ الذين كانت وظائفهم الزراعية محدودة وبساء استعمالها دوما، غدوا من المالكين المسجلين لحقوق اللزمة الوراثية في مناطق واسعة، في الوقت الذي كوفئ فيه اصحاب المضخات من سكنة المدن بمنح مماثلة لانجاز مشاريعهم الزراعية.

لم يكن لهذه الانتقادات التي وجهت الى التسوية في هذا الشأن اي اساس،وانما كان مبالغا

---

(١٨) تولى المرحوم مولود مخلص رئاسة هذه الجمعية التي استطاعت من المشاركات والتبرعات ان تنشئ لها مقرا على الجهة اليمنى من انتهاء شارع الشيخ عمر في الباب الشرقي وشيدت غرفا فوق المقر لسكن بعض موظفي الجمعية. كما شرعت الجمعية بتدريب بعض الشبان على الطيران. وكانت تصدر مجلة شهرية باسم الطيارة تولى الاشراف عليها حميد يوسف الباني والد المحامي ناظم حميد.

(١٩) اسست دار الاذاعة لاول مرة في سنة ١٩٣٦ وكانت ادارتها في غرفة واحدة من بناية وزارة المعارف القديمة وكان المرحوم فؤاد جميل قد عين ملاحظا لها ولم يكن عدد الموظفين فيها انذاك يزيد عن اربعة او خمسة اشخاص وكان البث ثلاث مرات في الاسبوع. وكانت الاذاعة المصرية قد سبقت الاذاعة العراقية بثلاث سنوات ولذلك بدأ انتشار استعمال الراديوات في بغداد منذ ذلك الوقت اي ما قبل تأسيس الاذاعة العراقية ذاتها.

فيها بصفة عامة [٢٠] وذلك لان لجان التسوية لم توجد اية حقوق وانما كانت تقوم بتسجيل الحقوق التي كانت قائمة فعلا. لقد كان موظفو هذه اللجان من المثقفين الذين لايعطفون على الشيوخ (وعلى العكس من ذلك بالاحرى) وكانوا يبحثون بكل اصالة بين الزراع الذين كانوا يستغلون الارض،عن المرشحين لحق اللزمة الذين يستطيعون ان يثبتوا ادعاءهم القانوني باستثمارهم تلك الاراضي سنين متواصلة، او انهم كانوا يدفعون الرسوم عنها، حيث عثر على هؤلاء المرشحين في العشرات من القضايا وتمييزهم. وفي حالة عدم وجود مثل هذه الادعاءات حسب، كانت حقوق اللزمة باسم الشيخ واسرته.

لم يخصص اي حق للشيخ المتغيب عن الارض بامتلاكها وان كانت اقامة بعض الذين لهم حقوق اللزمة منقطعة او ليس في الاراضي المختصة المحددة. اما بالنسبة الى رجل المدينة الثري الذي حصل على حق تملك اراضٍ تصل الى «فدادين» واسعة، فان من العدل ان نتذكر مثل ذلك الرجل الذي انفق الرأسمال،وتقبل المخاطر المدمرة للزراعة في العراق، والمشاركة المضطربة فيها، هو الذي قد ادخل التطور والتنمية على اراض كانت مهجورة قبلا ولاامل في استثمارها. فهو باعتباره مزارعا فردا كانت تنقصه الثروة والمعرفة، غير مخول بان يمارس وظائف الاقطاع في التنظيم والتمويل والتحسين.

اما في شمال العراق، فقد كانت الاقطاعات الصغيرة هي الاساس او القاعدة ولذلك كان يتم تحديد هذه الاقطاعات وتثبيتها من قبل لجان التسوية .

وفي اواسط العراق وان لم تكن ضمانات اللزمة الجديدة وتقليص المنازعات مريحة تماما للفلاح الكادح المحروم من كل امتياز والغارق دوما في الديون والذي لم تتحسن حقوقه الشخصية الاقليلا، فان هذه الاجراءات قد ازالت جزءا كبيرا من الاسس المغايرة للتبدل الفوضوي المجرد من الحقوق بالنسبة الى لزمة الاراضي، والذي كان يسود الزراعة العراقية منذ زمن طويل.

• • •

(٢٠) حاول كثير من المتنفذين ومن ضمنهم عدد كبير من الوزراء والاعيان والنواب وغيرهم ان يسلكوا مختلف الطرق للتحايل على لجان التسوية وحق اللزمة فقد استولى امثال هؤلاء على اراضي تعود الى الفلاحين الذين تعاقدوا معهم قبلا على تجهيزهم بالمضخات ثم مالبثوا ان مدوا مساحات الاراضي الخارجة عن الحقول المزروعة فعلا فادخلوها في لزمتهم بحيث لم يعد امام لجان التسوية الا ان تسجل حقوق اللزمة لهم في تلك الاراضي

ادى الاستياء الذي اظهره جماعة جعفر ابي التمن في ظل حكم بكر صدقي من بقاء انعدام المساواة الى وقف العمل لمنح حقوق اللزمة، لكن هذا الاجراء مالبث ان استؤنف وفقاً للقانون الاصلي للتسوية. وفي الوقت ذاته وضعت الحكومة مشاريع لانشاء قرى جديدة جيدة في مفهومها لكن كانت ضئيلة في نتائجها انذاك، في ذات الوقت الذي جرت فيه محاولة لتوطين البدو عند قناة ابي غريب وفي منطقة الحويجة.

مضت الزراعة حسب خطوطها القديمة ولكن مع تزايد الوعي الوطني للنواقص الملمة بها. وذلك لان الاعداد السيئ للزراعة وعدم نقاء المنتوج وغشه، كل هذه كانت من الامور التي تسبب يأس التجار. كما ان ممارسة الطرق الفوضوية والخاسرة والانواع الواطئة من الحاصلات وضآلة المنتوج ذاته، كل ذلك قد ادى الى انحطاط مطامح المزارعين.

• • •

اما صناعة التمور في البصرة والتي كان يهيمن عليها اصحاب محلات الكبس والمصدرون البريطانيون والامريكيون الذين كانوا يحظون بالحصة المتفوقة منها، فان الانقسامات بشأنها غدت اكثر وضوحا في سنة ١٩٣٣، وذلك نتيجة ظهور مؤسسات متنافسة فيها من امثال جمعية منتجي التمور التي كانت الحكومة تساندها من ناحية، وجمعية اصحاب مكابس التمور من الناحية الاخرى. ولقد نجم عن التصادم بين هاتين الجمعيتين في المصالح والوسائل، على الرغم من انهما كانتا تمثلان مصالحها المتطورة، اوضاع مدمرة في هذه الصناعة، وقد ادت في سنة ١٩٣٥، بعد الزيارة التي قام بها ياسين الهاشمي للبصرة الى سن تشريع قانون يقضي بانشاء مجلس لادارة التمور كان يضم ممثلين لكل مصالح التمور في البصرة وتوجيهها واعفاء وارداتها من ضريبة التصدير الطفيفة. ولقد حقق هذا التشريع تحسناً ملموسا في الظروف المحيطة بزراعة النخيل وكبس التمور وتصديرها.

وفي سنة ١٩٣٣ الفت لجنة للتحري عن امكانية انتاج سكر القصب وقد وجدت اسبابا تدعو الى التشجيع في هذا المضمار. ولقد طرحت اولى الاقتراحات عن احتكار صنع منتجات التبوغ وتسويقها، كما حصل في الوقت ذاته شيئ من التحسن في عمليات تجفيف التبوغ الكردية وقطفها وحزمها. اما القطن العراقي الذي كان من الاهداف المنطوية على الامال الرفيعة طيلة السنوات العشر الماضية، فقد مر في فترة من الكساد.

فبعد ان تصاعد محصوله ببطء الى حد خمسة الاف بالة في سنة ١٩٢٨ هبط الى لاشيئ، ومن ثم عاد وارتفع الى ثلاثة الاف بالة في سنة ١٩٣٤. وظهرت زيادة سنوية جوهرية بعد تلك السنة حيث بلغ المحصول خمس عشرة الف بالة في سنة ١٩٣٨. وكان من بين الذين اهتموا

بزراعة القطن هي شركة اللطيفية، وهي مؤسسة وجدت نفسها في مبتدى عملها تجابه صعوبات خطيرة ذلك لان هذه الشركة قد اخفقت في استعادة ما انفقته على حفر القناة التي عرفت باسمها من الحكومة.

وفي سنة ١٩٣٥ اعطيت رقابة المشروع الى السادة اصحاب «شركة اندرويره»، ولم يعد مستطاعا بعد ذلك، ان تمضي الشركة الاصلية في العمل الزراعي المتقدم في المقاطعة، الابأضافة مال جديد الى رأس مالها وتعديل اتفاقها مع الحكومة. ولقد ظلت الشركة طيلة العشرين سنة التالية يدبرها مدير بريطاني مفرد، في الوقت الذي لم يستطع فيه المصرف الصناعي في سنواته الاولى ان يقدم المزيد من القروض والمساعدات الى الجمهور.

كان الارواء بوساطة المضخات قد تعرض لخسائر فادحة نتيجة الازمة الاقتصادية العالمية خلال السنوات ١٩٢٩ - ١٩٣١، والانخفاض الذي اصاب اسعار الحاصلات الزراعية. فقد ادت هذه العوامل الى توقف استعمال المضخات ولكن ذلك النشاط قد اخذ ينتعش مجددا بعد سنة ١٩٣٣ الى ان استقر فاصبح هو المظهر الرئيس للانتاج الزراعي في العراق. وادخل في الزراعة المحلية عنصر جديد لايعرف ان كان عنصرا صالحا ام طالحا، ذلك هو عنصر رأس المال الذي يساهم به سكان المدن في ميدان الزراعة، فقد ساعد هذا العنصر على ان يدفع بقسم من طبقة تعد اكثر ثراء الى اهتمام جديد بالشؤون الريفية وبالصيغ العصرية لاستغلال الاراضي. كذلك حصل تقدم في ارواء الارض سيما خلال تلك الفترة التي شهدت لاول مرة فائضا من الاموال غدا متوفرا بصفة معتدلة بفضل عوائد النفط في سنة ١٩٣٦.

• • •

كملت المرحلة الاولى من قناة ابي غريب البالغ طولها اربعين ميلا من نهر الفرات الى الضفة اليسرى منه في اسفل مدينة الرمادي. ورافق ذلك توفير فدادين كثيرة من الاراضي التي تمت السيطرة عليها. كذلك كمل انشاء (ناظم المشخاب) في القسم الادنى الاوطأ من قناة الكوفة التي تأخذ الماء من نهر الفرات في سنة ١٩٣٦ ايضا. وفي ذات السنة بوشر بحفر قناة تأخذ مياهها من نهر الزاب الاعلى غربي مدينة (التون كوبري)، وارواء الاراضي في منطقة «الحويجة».

اما المشاريع التي تخص انشاء سد ديالى واحياء نهر الاسحاقي القديم، فقد تمت دراستها. غير ان مشروع بحيرة الحبانية الذي كان هو المفضل منذ وقت طويل، قد ظهر بانه من غير المستطاع بعث الحياة فيه من جديد، ولذلك اعيدت صياغة المشروع المذكور في سنة ١٩٣٢، ودعي المتعهدون في السنة التالية لتقديم عطاءاتهم عنه. ولكن لم يتم القبول بها. وقد ظهر في سنة ١٩٣٤ بان ذلك المشروع قد قلص الى نطاق انشاء حوض لحفظ مياه الفيضان ليس الا، ولم

يحدث بعد ذلك اي تقدم اخر في المشروع. ذلك لان مكانه المفضل قد حل محله مشروع لانشاء سدة على نهر دجلة تسيطر على نهر الغراف من نقطة تشعبه قبالة مدينة الكوت.

اعلنت مناقصة هذا المشروع الذي كان يسمح عن طريق المغالق بالملاحة المتواصلة في نهر دجلة او لتربية الاسماك في سنة ١٩٣٤. وقد بدأ العمل فيه متعهدون مختارون هم السادة «بلفور بتي وشركاه». وفي سنة ١٩٣٧ اصبح المشروع على وشك ان ينتهى منه، وبهذا يكون المشروع الثاني العظيم الذي وضعه المهندس وليم ولكوكس قد تم تحقيقه. ولكن القنوات اللاحقة للمشروع كانت ضرورية لضمان قيمته الكاملة وهذا امر يتطلب وقتا وجهدا اخرين.

كان انهيار سد ديالى في سنة ١٩٣٥ والذي تم تشييده في سنة ١٩٢٨ يمثل طعنة كبيرة موجهة الى ماسمي باسم مشروع خزن المياه على نطاق واسع، ولذلك اتخذت الخطوات اللازمة لهذا الغرض خلال السنة ١٩٣٦ - ١٩٣٧. وفي الوقت ذاته استمر الحفاظ على القنوات الموجودة وتحسينها وذلك بزيادة استخدام الفنيين العراقيين وتوفير دراسة اوسع للمشاكل المتعلقة بالحماية من الفيضان، وتصريف المياه والاقتصاد في استعمال الماء والتخلص من الطمى، ولكن لم ينفق سوى القليل من المال على امثال هذه الامور.



٦ ـ الشؤون الخارجية

ادت الحوادث التي حدثت في العراق والاتصالات الخارجية الطبيعية خلال هذه السنين، الى قيام علاقات موسعة كثيرا بين بغداد والعالم الخارجي، اذ كانت عملية اقامة هذه العلاقات متواصلة. وقد عمل الاعتبار الذي يحظى به العراق، واهميته الستراتيجية، دورهما في تلك العلاقات. ولم يكن هناك اي مدى من نشاط الحكومة العراقية اكثر تحررا من السياسة الحزبية. لقد واصل نظام الحكم تقدمه حيثما كان تمثيل العراق في الخارج يعهد به الى الدبلوماسيين والقناصل البريطانيين، ماعدا ذلك في جنيف وفي العدد الصغير المتزايد من العواصم التي كان الوزراء العراقيون يعينون فيها. ولقد رفض الاتحاد السوفياتي لوحده ان يتقبل مثل هذا النظام او يعترف بالعراق.

اما بالنسبة الى ايطاليا التي خطط لان يقوم فيصل الاول بزيارة لها قبل وفاته، فانها قد تجاوبت مع نوايا العراقيين. وعلى الرغم من العقوبات التي فرضها العراق،وكان متفقا فيها مع الموقف البريطاني، تجاه العدوان الايطالي على الحبشة، فان ايطاليا قد لبت طلبات التسلح التي تقدم بها العراق اليها في سنة ١٩٣٦، واخيرا احتفلت ايطاليا بالزورار العراقيين لروما واكرمت وفادتهم ووافقت على فتح مفوضية عراقية في روما سنة ١٩٣٤. كذلك ظهرت في بغداد صحيفة ذات لهجة فاستشتية باسم «الشعب»[1] وعلى العموم كان نشاط ايطاليا في العراق، اقل وضوحا مما هو ظاهر في دول المشرق، وقد انعكس ذلك في تعيين اقليم العراق، الذي كان مع بلاد فارس، يمثل النصيب الذي عني به الالمان، وليس الطليان، في الشرق الاوسط. ذلك ان المانيا كانت تدفع، عن طيب خاطر، اجورا جيدة للمدرسين الالمان في العاصمة العراقية، وتأمل ان تزود العراق بالاسلحة، وتقدم إئتمانات طويلة الامد، حيث وقعت المانيا معاهدة تجارية مع العراق في سنة ١٩٣٥، وتعاظمت الجهود التي كانت المانيا تبذلها في مجال الشحن والمتاجرة،

---

(١) المقصود بذلك جريدة نداء الشعب لسان حال حزب الشعب الذي تزعمه ياسين الهاشمي قبل ان يؤلف حزبه الجديد الاخاء الوطني. وليس هناك ادنى شك في ان تغني نداء الشعب بالقومية العربية والافراط في ذم الانكليز ومعاهدة سنة ١٩٣٠، قد جعل المؤلف يتهم هذه الصحيفة بان لهجتها كانت فاشستية.

ورحبت الحكومة النازية بتعيين الامير زيد وزيرا مفوضاً للعراق في برلين، وانعمت على الملك غازي بوسام المأني، في الوقت الذي ادخلت فيه الى العراق المزيد من وسائل الدعاية النازية المعدة للاستعمال. وكانت هذه العمليات يجري توجيهها بلطف ورياء من جانب الوزير الالماني المفوض في العراق، يساعده في ذلك الوقت الدكتور «جوردان» مفتش الاثار في العراق، واحد النازيين النشطين[٢].

لم يتبادل الاتحاد السوفياتي التمثيل الدبلوماسي مع العراق، على الرغم من وجود عناصر شيوعية في العراق، تعرضت للعنف في ظل نظام حكم حكمت سليمان وبكر صدقي، ولربما كان اولئك الشيوعيون يتلقون المعونات من موسكو. ولم تستمر المحاولات التي بذلها الروس خلال الفترة ١٩٣٢ - ١٩٣٤ للتغلغل الى الاسواق العراقية. وكانت العلاقات الفرنسية، التي لم يكن لها سوى اهتمام ضئيل بالعراق ماخلا العلاقات الثقافية، غير ودية. ذلك لان التردد الظاهر لدى الفرنسيين في منح الحرية لسوريا ولبنان وانهاء انتدابهم عليهما. كان يدفع الجماهير العراقية الى مؤازرة كل اشكال القومية السورية المعادية للفرنسيين. والطلب الى «الفاتيكان» بان يعزل مبعوثه الرسولي الموجود في الموصل «وهو فرنسي»وقد حقق النجاح في هذا الطلب.

وبالنسبة الى الدول الاوربية الاخرى من امثال النمسا والسويد واسبانيا. فقد تم تبادل البعثات والدبلوماسيين معها. وقد تميز الاتصال الطفيف المتزايد مع الولايات المتحدة الامريكية بتعيين نائب قنصل عراقي في نيويورك، وبظهور بعض الحديث عن عقد معاهدة تجارية بين البلدين. ولقد ازدهرت مدارس التبشير المسيحية الامريكية في كل من البصرة وفي بغداد. كما شرع الاثاريون الامريكيون يواصلون اعمال التنقيب عن الاثار في العراق، في الوقت الذي شرع فيه باستخدام حفاري ابار النفط واللحامين من الامريكيين، من دون ادنى قيد، في حقول النفط. ولم يظهر لليابانيين اي مجال سوى التجارة.

كان وضع العراق في العالم العربي، هو وضع البلد المستقل الحديث، وما ناله من تقدم منظور، في حين ظهر في البلاد غير العربية، بمظهر البلد الذي يفكر كثيرا في الوحدة العربية او الجامعة العربية ويؤيدهما تأييداً وديا واسعا. فحتى في سنة ١٩٣٢ كان فيصل الاول يخطط لعقد مؤتمر عربي في بغداد، كما اعدت الخطط لاقامة اتحاد عربي على اسس ظن في حينه بانها غير قابلة للتطبيق، وعلى الاخص على يد بطل العراق، نوري السعيد[٣] ولم يستطع ان يظهر اي سياسي

---

(٢) الدكتور جوردان من علماء الاثار البارزين الذين عملوا في العراق خلال سني الثلاثينات والاربعينات.

(٣) المقصود بذلك مشروع سوريا الكبرى الذي اشغل تفكير نوري السعيد ونشاطه منذ ان اعلن استقلال العراق في سنة ١٩٣٢ فقد كان نوري السعيد يعمل ويفكر حسب الخطط الانكليزية لمد الخطوط استعمارهم الى سوريا وانتزاعها من الفرنسيين عن طريق هذه المشروع الذي يضمها الى العراق والاردن. وقد وضع الاسس الاولية لهذا المشروع وعرضها في صفة مذكرة قدمها

عراق بمظهر المتأخر عن خدمة هذه القضية ، بكل ما لها من تطلعات مجيدة الى التاريخ والى الاسلام ، والعزة القومية ،وبكل ما تتضمنه من معاداة للغرب. ولقد نجمت عن ذلك ظهور حركات فعالة او متطرفة في هذا المجال ، خلال تلك الفترة ، كانت تستهدف تعزيز الروابط العربية في الشرق الاوسط ،واذ شهدت تلك السنين تعاظما سريعا في الحركة المضادة للصهيونية في العراق ، فقد انهمك رجال الدولة في بغداد ، خلال تلك السنين باطراف «القضية الفلسطينية» المؤسية والتي اسيئت ادارتها بصفة مؤسية.

فلقد ادى الاضراب العربي في فلسطين سنة ١٩٣٦ ، الى حدوث تجمعات في بغداد ، كان الخطباء فيها يندبون شهداء فلسطين ، وارسال مبعوثين من تلك التجمعات الى السفير البريطاني ، واخذ بعض الافراد العراقيين ، وعلى الاخص الضابط السوري الاصل «فوزي القاووقجي» يتطلعون الى اثارة حرب العصابات في فلسطين حيث عادوا من هناك وكانهم ابطال. وعن طريق نداء وجهه العراق ، مع السعودية ، والاردن ، امكن وضع نهاية لذلك الاضراب ، واستطاعت هذه الدول الثلاث نفسها في سنة ١٩٣٧ ، ان تقنع عرب فلسطين بان يعرضوا قضيتهم على لجنة «بيل»[٤] بدلا من مقاطعتها ، ولم تلبث هذه اللجنة اخيرا في تقريرها الذي دافعت فيه عن مشروع تقسيم فلسطين ، ان اثارت تحذيرات وانذارات قدمها العراق الى السفير البريطاني ، والى عصبة الامم. وفي الوقت ذاته ظهرت تصريحات محددة ضد التقسيم من لدن رئيس الوزراء العراقي وزملائه[٦].

وهذه الاحاسيس التي شارك فيها كثير من الانكليز ، كانت احاسيس مخلصة بما لايدع اي مجال للتساءل عنها ، وقد تركت تأثيرها في كل العراقيين الذين يتمتعون بالوعي السياسي. ولكن القضية الفلسطينية التي كانت اساسا متماسكا لكل المشاعر التي عبرت جميع الاحزاب العراقية عنها ، كانت في الوقت ذاته تمثل نعمة للوزارات العراقية المتعاقبة. ففي الفترات التي كان يسودها الهدوء كان يتم تبادل المزيد من الزيارات بين العراق وفلسطين في الميادين الاجتماعية والثقافية.

= الى المستر «كيسي» وزير الدولة البريطاني المختص بشؤون الشرق الاوسط واستطاعت جريدة «لواء الاستقلال» لسان حزب الاستقلال في سنة ١٩٤٦ ان تنشر ترجمة تلك المذكرة في عدد خاص من اعدادها ، فاثار ذلك عاصفة من الهياج لدى العناصر الوطنية .

(٤) وجه نداء ملوك العراق والاردن والسعودية لوقف الاضراب في اليوم العاشر من تشرين الاول ١٩٣٦. اما لجنة «بيل البريطانية للتحقيق فقد توجهت الى فلسطين في الخامس من تشرين الثاني سنة ١٩٣٦ ، وعلى اثر توجه لجنة بيل اعلن وزير المستعمرات بان هجرة اليهود الى فلسطين لن تتوقف خلال الفترة التي ستقضيها لجنة التحقيق ، فقررت اللجنة العليا العربية التي يتزعمها المفتي امين الحسيني عدم التعاون مع لجنة بيل ، وحين وجدت اللجنة انها تواجه الانشقاق داخل صفوفها الغت في السادس من كانون الثاني ١٩٣٧ قرار المقاطعة وقدم اعضاء اللجنة العليا العربية شهاداتهم امام لجنة بيل (الدكتور عبد الوهاب الكيالي: الموجز في تاريخ فلسطين الحديث ص ١٥٨ وما بعدها طبعة سنة ١٩٧١).

وكان المفتي الحاج امين الحسيني من الزوار الفلسطينيين الذين جاؤا الى بغداد في سنة ١٩٣٣. وكان الطريق المباشر بين حيفا وبغداد قد تم افتتاحه وتحسينه، كما انشئت الاتصالات السلكية، وتطورت الترتيبات الكمركية في ميناء حيفا لصالح العراقيين.

كانت علاقات العراق مع سوريا تنطوي بشكل عاطفي على منتهى الود والعطف لهذه الامة الشقيقة التي لم تتحرر بعد[٧] ولقد وجد الجمهور العراقي الكثير من المناسبات لانتقاد التعنت الفرنسي. وبث الدعوة الى وحدة العرب. فحتى في الميدان الاداري لم يكن ليتم تحديد الحدود بين العراق وسوريا من دون احتكاك، ولذلك اشتملت الاتفاقات التي عقدت في منتصف سنة ١٩٣٣، وما بعدها، على مسائل حسن الجوار، والغارات العشائرية، وما شابه ذلك. ولقد عقدت سلطات الحدود لكلا البلدين اجتماعات لها في مدينة «تدمر» في سنة ١٩٣٤، وفي «عقرة» في العراق سنة ١٩٣٦. ولقد اصر العراقيون على ان يكون التفاوض مع السوريين بدلاً من الفرنسيين، وعلى الاخص بعد وقوع حوادث الثورة الشديدة التي وقعت في دمشق، واقدام الفرنسيين على قصف المدينة بالقنابل سنة ١٩٣٦.

تم استجلاب عدد من المدرسين من مصر الى العراق في سنة ١٩٣٦ للعمل في ميدان التعليم العالي. واستعرض المهندسون الزائرون المصريون، مشاريع الري العراقية. وقوبلت المعاهدة الانكليزية المصرية التي عقدت سنة ١٩٣٦ بالترحيب والهتاف في العراق، وذلك لانها تجعل من مصر ذاتها حليفاً، كما زاد تعيين عبد الرحمن عزام، ذلك الرجل المتحمس، وزيرا مفوضاً لمصر في بغداد، في تحسين العلاقات بشكل افضل، ولذلك افتتحت مصلحة هاتف مباشر بين القاهرة وبغداد، ووضع مشروع لعقد معاهدة تجارية بين البلدين.

كذلك تعززت علاقات العراق مع شرقي الاردن التي كانت ما تزال تخضع للانتداب البريطاني، وذلك بعد ان اكملت شركة النفط العراقية مد خط الانابيب الذي يمر عبر الصحراء، والطريق المحاذي لذلك الخط، وبوشر بتدشين اعمال النقل عبر الحدود، وتبودلت الزيارات الملكية بين الحكام الهاشميين، وان كان الامير عبد الله كان يتعرض في ذلك الوقت للنقد الشديد في بغداد، بسبب ما قيل عن ضعف حماسته لمقاومة الصهيونية.

---

(٧) مايزال الغربيون، ويقلدهم في ذلك بعض الكتاب العرب، يكررون اطلاق لفظة «امة» او «شعب» على كل بلد عربي، متناسين ان اي شعب عربي يعيش في اي من الاقطار العربية، انما هو جزء من مجموع الشعب العربي، او الامة العربية الواحدة، غير المتعددة ولذلك فان من الخطأ اطلاق لفظة «الشعوب العربية» وان تستبدل بها عبارة «الشعب العربي» سواء كان هذا الشعب يسكن العراق، ام مصر ام سوريا ام الصومال، ذلك لان اطلاق كلمة «امة» على الشعب المصري او السوري، انما يراد بها اظهار اي من الشعبين وكانهما منفصلين عن مجموع الامة العربية او الشعب العربي، وعلى هذا فان الاصح ان يقال الشعب السوري في سوريا والشعب المصري في مصر وهلمجرا.

كان ابن سعود جار العراق الجنوبي ما يزال يتمتع بعلاقات هادئة واعتيادية مع العراق، خلافاً للعواصف واراقة الدماء التي شهدتها السنوات الماضية. فقد كانت الوفود الملكية والوزارية، تتنقل بين بغداد والرياض، وشرع الحجاج العراقيون يسافرون من النجف، عبر اراضي نجد مباشرة، للوصول الى الاماكن المقدسة في الحجاز، كذلك اتخذت الدولتان اجراءات ثابتة للتدخل في فلسطين، وعقدت معاهدة تحالف بينها سنة ١٩٣٦. ولقد تميزت الاعمال التي قام بها امام اليمن في سنة ١٩٣٧، والذي استقبل بعثة من العراقيين الممتازين، وبعث بتلاميذ من بلاده الى المدارس العراقية والى الكلية العسكرية العراقية في بغداد، تقول تميزت هذه الاعمال بالحذر، ولم تكن لها اية نتائج عملية بالنسبة الى المعاهدة العراقية السعودية [٨].

سادت حالة مؤسفة من المهاترات بين العراق ومشيخة الكويت الصغيرة المستقلة. ذلك لان التساؤل عن مدى حق شيخ الكويت في تملكه مقاطعات من بساتين النخيل على شواطيء شط العرب، وعن ادعائه بان منتجات تلك المقاطعات معفاة من الضرائب، يتردد على الدوام وهو الذي يثير النزاع حول ذلك. وقد اخفقت وساطة السفير البريطاني في بغداد، والمقيم البريطاني في الخليج العربي، في التوصل الى تسوية ودية بشأن ذلك. ومما زاد في اثارة النزاع اكثر من ذي قبل، هو استمرار حركة تهريب السلع والمواد على نطاق واسع من الكويت الى العراق، حيث كانت صناعة الغوص لصيد اللؤلؤ هي الصناعة الرئيسة في الكويت قبل الفترة التي ظهر النفط فيها. اما شيخ الكويت الذي لم يكن يجهل الارباح التي يدرها هذا التهريب، فانه لم يقبل باي من الاقتراحات التي اقترحت لوقف حركة التهريب هذه. ولقد زعم في حينه بان الشرطة العراقية التي كانت تتعقب المهربين، كثيرا ما كانت تدخل الاراضي الكويتية، ولذلك كانت كل سنة تمضي تأتي بحكاية جديدة عن قضايا الحدود، تزيد من سخط كلا الجانبين وامتعاضهما. كذلك وجدت الصحافة البغدادية في ذلك موضوعا للتهجم واثارة مخاوف شيخ الكويت، والتي راحت

---

(٨) كانت مقدمة العلاقات الطيبة بين العراق واليمن عندما طلب ملك اليمن الامام يحيى حميد الدين الى العراق ارسال بعثة عسكرية عراقية لتدريب افراد الجيش اليماني وقد وصلت هذه البعثة التي ترأسها العقيد اسماعيل صفوت، الى صنعاء في اواخر شباط سنة ١٩٤٠ وكان من اعضائها المقدم محمد حسن المسيبي الذي وضع عن تلك البعثة كتابا اصدره في سنة ١٩٤٧ باسم «قلب اليمن». وكانت وزارة الدفاع العراقية قد اصدرت اوامرها بارسال البعثة المذكورة الى اليمن في اوائل الاسبوع الثاني من شهر كانون الثاني سنة ١٩٣٩، وتحدد السفر الى اليمن في اوائل الاسبوع الثاني من شهر كانون الثاني سنة ١٩٣٩، وتحدد اليوم الثالث من شباط ١٩٤٠ موعداً لسفر البعثة التي سافرت بالسيارات الى سوريا ومنها استقلت البحر الى مصر، ثم الى عدن بحرا، ومنها الى صنعاء برا. وقد مكثت البعثة في اليمن زهاء ثلاث سنوات زارت خلالها السعودية وادى اعضاؤها فريضة الحج، ثم بدأت عودتها الى العراق في الاسبوع الاخير من سنة ١٩٤٢ بطريق البر عبر الكويت فوصلت الزبير ظهر التاسع من كانون الثاني سنة ١٩٤٣.

تؤكد بان امارة الكويت ذاتها كانت تابعة لولاية البصرة في بعض الاوقات [(٩)].

تمت المصادقة على المعاهدة التجارية التركية العراقية التي وقعت في سنة ١٩٣٢، بعد مرور سنتين من التوقيع عليها، كما تم ضمان روابط الحدود بصفة جيدة، فاصبحت للعراق مفوضية في انقرة، وقنصلية في اسطنبول، واضمحلت ازمة الموصل وغدت من حوادث الماضي، وكان الخمس من عوائد النفط يجري دفعه بصفة منتظمة الى الخزينة المركزية، وغدت شهرة تركيا في العراق شامخة بما كان لها من اتصال اجتماعي تقليدي واستعارة ثقافية. فقد كانت انجازات حكومة تركيا ورئيس جمهوريتها ذات اثر فعال في العراق، وكان الافراد العراقيون، من مختلف الاحزاب، والعائدون من زياراتهم لانقرة، ممتلئين اعجابا بالنهج التركي، في ميدان التقدم والسلطة. وكان اقتراب سكك الحديد التركية من الحدود العراقية، والتوقيع المشترك على معاهدة حلف سعد اباد فيما بعد، والاهتمام المتبادل بتطور الحركات الاوربية في ذات الوقت، والزيارة التي قام بها وزير خارجية تركيا «رشدي اراس» الى بغداد في سنة ١٩٣٧، اجل كل هذه الحوادث قد عملت على توثيق العلاقات التي كانت قائمة انذاك.

اما بالنسبة الى بلاد فارس، والتي اصبحت تدعى باسم ايران بعد سنة ١٩٣٥ بصفة رئيسة، فان الحالة بينها وبين العراق كانت على شكل اخر. فعلى الرغم من اتفاق سنة ١٩٢٩، والذي تم تجديده على فترات، والزيارة التي قام بها فيصل الاول لطهران في سنة ١٩٣٢ [(١٠)] واتفاق الحدود الموقع عليه في تلك السنة، على الرغم من ذلك كله فان الاتصالات بين الدولتين بقيت غير ودية [(١١)]. لقد كان كل شهر يمر يجلب معه قضايا من عدم التعاون المزعوم بين موظفي الحدود، واختراق القوات المسلحة لتلك الحدود، ووقوع النزاع على نطاق اوسع حول المياه او

---

(٩) اعتبر الاتراك امارة الكويت جزءا من العراق، واعدوه قضاء تابعا لولاية البصرة واطلقوا على حاكم الكويت، منذ عهد الشيخ مبارك، صفة قائمقام تابع لمحافظ او متسلم البصرة.

(١٠) افرد الدكتور سندرسن في مذكراته فصلا خاصا لهذه الزيارة التي رافق الملك فيصل الى طهران مع بقية اعضاء الوفد الحاشية (انظر مذكرات سندرس ص ١٦٥ – ١٨٩ من الطبعة الثانية ١٩٨١).

(١١) لم يكن مثل هذا الموقف من جانب حكام طهران بالامر المستغرب ابدا. ذلك لان اطماع الفرس في العراق ليست حديثة العهد قط، بل تعود الى العصور التي سبقت العمل بالتاريخ الميلادي. فبعد مرور اكثر من خمس سنوات على قيام الحكم المدني في العراق، في اعقاب الحرب العالمية الاولى، لم تعترف حكومة طهران بذلك الحكم العراقي، الا بضغط واضح من الانكليز الذين كانت لهم الكلمة الاولى في بلاد فارس منذ اواسط القرن التاسع عشر وما بعده. وحتى في العهد الملكي كانت طهران تظهر العداء السافر في اكثر من مناسبة ضد العراق، وقد تعاظم هذا العداء بعد قيام الحكم الجمهوري في العراق، ثم تحول الى عدوان عسكري سافر في سنة ١٩٨٠ عندما تحالفت الامبريالية والصهيونية للاتيان بالخميني ورفاقه من الملالي المشبوهين الى دست الحكم في طهران، حيث سارع الخميني الى تنفيذ المؤامرة الكبرى التي حاكها الاستعمار والصهيونية ضد العراق بعد ثورة السابع عشر من تموز سنة ١٩٦٨، والتي اريد من ورائها اسقاط الحكم الوطني التقدمي الذي يوجهه الرئيس المحنك المنتصر صدام

المقاطعات الزراعية، او سوء السلوك على شواطيء شط العرب. ولم يحصل اي تقدم بشأن المصادقة على المعاهدات التي عقدت بين البلدين حول الحدود او القضايا التجارية، وقضايا الحياد، والملاحة، والاقامة تلك المعاهدات التي تم اعدادها في سنة ١٩٣٢. فلقد استمرت حكومة طهران بشكل خفي في اول الامر ثم بصورة ظاهرة مؤخرة، في سياستها الرامية الى عدم الالتزام بالنتائج التي توصلت اليها لجنة الحدود في سنة ١٩١٤.

ذلك ان حكومة طهران كانت قد انكرت مبدأ تالوغ Talweg بشأن الحدود، وحق العراق التاريخي المشروع في شط العرب، ذلك الحق الذي اقرته معاهدة ارضروم التي عقدت سنة ١٨٤٧، والمعاهدات والاتفاقات التي اعقبت تلك المعاهدة فيما بعد. واقرار هذا الحق بالمعاهدات والاتفاق التي عقدت منذ معاهدة ارضروم وما بعدها، يعتبر اكثر اهمية بالنسبة للعراق، ذلك لان العراق كان، على النقيض من بلاد فارس التي تحتفظ بساحل طويل على البحر (الخليج العربي) لايملك ممرا الى البحر سوى شط العرب ذاته.

طرحت خطة بريطانية لانشاء مجلس ادارة انكليزي فارسي عراقي مشترك، للمحافظة على الملاحة في شط العرب والرقابة عليه. ولكن بلاد فارس لم تقبل بهذه الخطة، كما فشلت المفاوضات الثنائية التي جرت بين البلدين ولذلك اودع العراق هذه القضية الى مجلس عصبة الامم في شهر تشرين الثاني سنة ١٩٣٤ وفي اليوم الرابع من شهر كانون الثاني سنة ١٩٣٥ استمع مجلس العصبة الى القضية، فطرحت امامه كل المستمسكات القانونية، والتاريخية، والجغرافية التي كان يتمسك بها كل من الطرفين. ولقد عرض العراق احالة القضية الى محكمة العدل الدولية، فرفضت حكومة فارس ذلك العرض. كذلك فشلت الجهود التي بذلها الوسيط الايطالي «البارون الوازي» في التوفيق بين الطرفين، ولو ان المحادثات كانت قد تجددت في كل من روما وجنيف وبغداد وروما وطهران في سنة ١٩٣٥. وفي السنة التالية لذلك بعث من جديد الاقتراح الذي طرح بانشاء مجلس مشترك للمحافظة على شط العرب، ولكن حكومة فارس

= حسين، ذلك لان العراق الذي سارع، تحت قيادة هذا الرئيس العظيم، الى تأميم الثروات النفطية العراقية وصرف عوائدها على الاعمار ورفع مستوى الشعب العراقي وازدهاره، على خلاف بعض المنتجين للنفط في الاقطار العربية الذين يستثمرون اموالهم في الشركات والمصارف الغربية ولاسيما الامريكية منها، علما بان اكثرية تلك الشركات والمصارف ملك للصهاينة وتدار من قبلهم. وعلى رغم ماقدمه العراق من تضحيات جسيمة لمقاومة العدوان الايراني السافر الذي استمر زهاء سبع سنوات كاملة، فانه، اي العراق، طالما ابدى استعداده التام لوقف القتال واحلال السلم وحل القضايا المتنازع عليها بالطرق السلمية، وما اعقب ذلك من تكاثف جهود الوساطة بين العراق وايران، ولكن حكام طهران من الملالي الذين رسمت الامبريالية والصهيونية لهم مخطط العدوان السافر ليس على العراق وحده حسب بل على الاقطار العربية الاخرى، ظلوا سادرين في غيهم، فرفضوا كل المبادرات السلمية، وبقوا ماضين في تنفيذ المؤامرة الاستعمارية الصهيونية الكبرى التي استهدفت تحطيم الحكم الوطني الثوري التقدمي، ووقف النهضة التي اخافت ليس الاستعمار والصهيونية وحدهما حسب بل المتعاونين معها من بعض الحكام المفروضين فرضاً على الامة العربية.

ظلت متشككة في مشاركة بريطانيا في ذلك المجلس لان بريطانيا بتملكها لتسعة اعشار الملاحة في شط العرب كانت تتوقع ان تكون من الاطراف الموقعة على ذلك الاقتراح.

ومع كل ذلك فان القلق الذي اصاب تركيا وضرورة تسوية الخلاف القائم بين هاتين الجارتين، ونتيجة للاستفزاز التي احدثه العدوان الايطالي(١٢) والذي اصبحت تشعر به كل الدول الضعيفة، قد جعل العراق وفارس يميلان الى الاتفاق. وعلى هذا الاساس ارتؤي بان ارسال مذكرة من العراق الى طهران في شهر تشرين الثاني سنة ١٩٣٦، قد يوفر اساسا لقيام هذا الاتفاق.

وفي اليوم الرابع من شهر تموز سنة ١٩٣٧، تم التوقيع في طهران على معاهدة تهيء القبول المحدد للحدود التي خططت في سنة ١٩١٤، وتمنح طهران منطقة ارساء للسفن مقدارها اربعة اميال من الضفة الشرقية لشط العرب، طبقاً لمبدأ «تالوغ»، المقابل لمدينة عبادان(١٣) وكان في ذلك حل للخلافات العراقية الفارسية التي استمرت زمنا طويلا وتميزت بالاصرار من كلا الجانبين. كذلك تم التوقيع على بروتوكول يوفر المحافظة على قناة صالحة للملاحة في شط العرب، وممارسة اعمال تطهير تلك القناة، ودفع رسوم الميناء، والحجر الصحي، ومكافحة التهريب، ولكن لم تؤسس اية سلطة تنهض بممارسة مثل هذه الواجبات، ومالبث ان برزت الشكوك الفارسية مرة اخرى وتزايدت، وبقيت ادارة مياه شط العرب في يد ميناء البصرة.

اصبح السبيل الان مفتوحا ولاول مرة، امام مشروع اخر. ذلك ان الخوف من المطامع الايطالية قد دفع كلا من تركيا وفارس في اوائل سنة ١٩٣٥ للاشتراك مع العراق للتشاور في جنيف حول تشكيل حلف للشرق الاوسط يضمن الدعم المشترك لهذه الدول. ولقد شرع بوضع مسودة هذا الحلف في شهر تشرين الاول، ولكن التوقيع، استلزم بالضرورة انتظار الحل الطويل المقترح للصعوبات العراقية الفارسية. ولم يلبث هذا الحلف الذي حددت مدته بخمس سنوات ان احتضن «بلاد الافغان» ايضا، والتي كانت العراق قد وقعت معها على معاهدة في سنة ١٩٣٤، وهكذا تم التوقيع على معاهدة الحلف، بالمساهم الرابع فيه في قصر «سعد اباد» في طهران بعد مرور اربعة ايام على توقيع المعاهدة العراقية الفارسية.

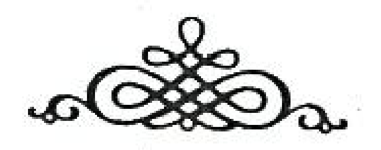
كان المعتقد ان الفائدة المرجوة من وراء هذا الحلف، ان وجدت، ستكون فائدة ادبية اكثر

---

(١٢) يقصد به عدوان ايطاليا على الحبشة واحتلالها في سنة ١٩٣٥ بعد معارك استمرت عدة شهور وعلى الرغم من المواقف العدائية التي كانت الحبشة تقفها من القضايا العربية المهمة، فقد ساندت الدول العربية الحبشة في نضالها ضد العدوان.

(١٣) كانت تلك هي معاهدة شط العرب لسنة ١٩٣٧ والتي ارغمت العراق، بضغط مباشر من بريطانيا، على التنازل عن الاميال الاربعة من ضفة شط العرب المقابلة لعبادان لكي تصبح مكاناً لرسو ناقلات النفط التي كانت تنقل نفط الاحواز الذي كانت بريطانيا تستغله لوحدها منذ سنة ١٩٠١.

منها مادية، لانها كانت تمثل الخطوة الاولى في اقامة سلامة اقليمية في القسم الغربي من اسيا، وانها قد ربطت العراق بعالم غير عربي. وكان من بين ما تضمنه الحلف، الامتناع عن التدخل المشترك، والتشاور المشترك، والمصادقة على الحدود القائمة، والالتزام بعدم الاعتداء، وقد اكد هذا الحلف من جديد ميثاق عصبة الامم، وكذلك الاتفاق الذي وضعه كل من «بريان» و «كيلوغ»[14] حيث تم انشاء مجلس دائم ينهض بمهمة انجاز الحلف، واكد هذا المجلس في الاجتماع الذي عقده يوم التوقيع على الحلف، الخطوات اللازمة للمساعدة المشتركة التي تمكن اعضاء الحلف من الحصول، كل على انفراد، على مقاعد لهم في مجلس عصبة الامم.



(١٤) في نيسان ١٩٢٧ اقترح «ارستيد بريان» وزير الخارجية الفرنسية على وزير الدولة الامريكي فرنك كيلوغ عقد اتفاق يحظر اعلان الحرب اداة للسياسة القومية،وقد وقع على هذا الاتفاق في مؤتمر عقد في باريس في آب ١٩٢٨ وحضرته تسع دول، واخيرا انضمت دول اخرى الى الاتفاق المذكور فبلغ عدد الدول المنضمة اليه خمسا وستين دولة (الان بالمر: قاموس التاريخ الحديث ١٧٨٩ - ١٩٤٥ ص ١٦٢).

الفصل الثامن

على أبواب الحرب العالمية الثانية

١ - الوزارة المدفعية الرابعة

٢ - وفاة الملك غازي

٣ - الأشهر الأولى من الحرب

٤ - الكيلاني والهاشمي

٥ - حرب الثلاثين يوما
ثورة أيار الوطنية ١٩٤١

١- الوزارة المدفعية الرابعة

لم تكن ناجحة تلك الوزارة التي اختير لها جميل المدفعي،واعلن عنها غداة تعيينه رئيسا لها في اليوم السابع عشر من شهر اب سنة ١٩٣٧، والتي مكثت في الحكم مدة ستة عشر شهرا، تحت الزعامة المعتدلة، ان لم نقل الزعامة الموحى بها لذلك الرجل البارد المخلص، في اعادة الثقة والحالة الاعتيادية. فلقد احتفظ بوزارة الدفاع تحت يديه، واشرك معه بعض الاداريين المجربين من امثال مصطفى العمري، وابراهيم كمال، وجلال بابان فعينهم وزراء للداخلية، والمالية، والاشغال، اضافة الى رضا الشبيبي وعباس مهدي اللذين اعطيت لهما وزارتا التربية والعدل، كما اعطيت وزارة الخارجية الى السياسي الضليع الداهية توفيق السويدي. تم استقبال اسماء الوزراء بقبول حسن، وما لبثت حامية الموصل ان اعلنت انسحابها من ميدان السياسة، وعاد الساسة الذين أبعدهم بكر صدقي الى سوريا ومصر، الى بغداد واحداً اثر واحد.

ومع ان الاوساط الاجتماعية والتجارية والعشائر،وحتى الرأي العام ،لم تتأثر إلا قليلا بهذه الازمة، وغيرها من الازمات الاخرى، الا ان الحلقات السياسية والعسكرية التي كانت روحية الجريمة لديها متواصلة، واعمال الانتقام اعتيادية، لم يكن من الهين كبحها وضبطها. ذلك لان انقلاب بكر صدقي، ومقتل جعفر العسكري الذي لم يؤخذ بثأره، والفتن والمكائد الحقودة التي حدثت خلال سنتي ١٩٣٤ و ١٩٣٥،قد خلقت تراثا مدمرا من الشدة والصرامة بين المتمسكين بالعمل الوظيفي من المدنيين والعسكريين واتباعهم، فاصبح الامن والوحدة لا يمكن احتمالها وغير مرغوب فيها.

وما ان ادرك المدفعي شرور سيطرة الجيش على امور السياسة حتى احال عبد اللطيف نوري على التقاعد، لكنه لم يقدم في الوقت ذاته لا على تعيين او تقاعد احد من اعوان بكر صدقي الذين كانوا اقل انقيادا، ولذلك اقدم على تعيين الفريق حسين فوزي بمنصب رئيس اركان الجيش لانه لم تكن لهذا الرجل بكل جلاء اية مطامع عسكرية.ولكن السهم الاكبر من ثقل السلطة في الجيش قد انتقل الان الى الفريق المعادي لبكر صدقي. ورغم كل اعمال الاحتجاج والاستنكار، بقيت جميع الوسائل المادية لوقوع انقلاب عسكري اخر قائمة،ولذلك فلم تكن

لدى المدفعي، القوة لتفتيت تلك الوسائل، مادام هو نفسه لا يرغب في استخدامها.

كانت سياسة المدفعي سياسة ترضية. فالعطف العام الذي حظي به اقدامه على الاحتفال بدفن جثمان جعفر العسكري في المقبرة الملكية، وهو عمل من اعمال التقوى بكل وضوح، لم يلزمه بالمساندة المطلقة من الاحزاب التي كانت تؤيد وزارة ياسين الهاشمي. لقد رفض المدفعي الاقدام على كل عمل انتقامي، وعفى عن شيوخ عشائر الديوانية الذين نفاهم سلفه حكمت سليمان واعادهم الى مواطنهم[1]. وفي الوقت ذاته اعلن لوزارته منهاجا «طوبائيا» غدا مألوفا مع تغييرات طفيفة، لكل الوزارات المقبلة، كما دعا في ذات الوقت الى اجراء انتخابات جديدة عامة.

التأم البرلمان الجديد في اليوم الثالث والعشرين من شهر كانون الاول ١٩٣٧، ولم يكن بين اعضائه الذين تم اختيارهم بعناية فائقة، اي من وزراء حكمت سليمان، عدا وزير واحد[2] ومع كل ذلك كانت جلسة البرلمان عاصفة، فقد عاد انصار جعفر العسكري الى الهجوم بحرارة ولكن من دون طائل. وكان اخر طلب تقدموا به لاجراء تحقيق قضائي، قد تم رفضه، لانه لم يكن ليتطابق مع قانون العفو العام عن المجرمين او المشتبه بهم في سنة ١٩٣٧. على ان سوء المشاعر بين حكمت سليمان ونوري السعيد الذي لم يكن بحد ذاته غير ملائم لاستقرار وزارة المدفعي، قد تعرض للانقطاع نتيجة غياب نوري السعيد عن البلاد، ولذلك كانت زيارات نوري السعيد للعراق تعتبر بمثابة اشارات للخطر.

شن الوزراء الذين شاركوا في وزارة الهاشمي الذين ابعدوا عن الحكم، في البرلمان الجديد، حربا مستديمة ضد الذين انتفعوا من حكم بكر صدقي، وتبودلت الاتهامات بالتآمر والخيانة، وبعد هذا لم يحدث اي تغيير في سياسة البرلمان البغدادي الذي اجلت اجتماعاته الى اليوم السابع من شهر ايار سنة ١٩٣٨. في هذه الفترة كان السر موريس باترسون قد خلف السر ارشيبالد كلارك كير، سفير بريطانيا في العراق قبل ذلك الوقت بشهرين.

كانت السياسة التي طبقت خلال سنة ١٩٣٨ واحدة من وسائل التهدئة الاستثنائية. فقد كانت كل انحاء كردستان هادئة، حيث اعتقل افراد العصابات في منطقة بازيان، او تم تشتيتهم. ولم يعد الريف المحيط بالسليمانية يعاني من اي اضطراب. واعيدت الى الشيخ محمود امواله التي صودرت سنة ١٩٣١. ولاول مرة قامت ادارة اعتيادية في قضاء «بشدر» والمنطقة المحيطة به.

---

(١) هم كل من محسن ابو طبيخ والحاج عبد الواحد سكر، وعلوان الياسري الذي نفتهم وزارة الانقلاب الى السليمانية.

(٢) هو الوزير عباس مهدي الذي كان يتولى وزارة الاشغال في وزارة حكمت سليمان بعد ترقيعها في اعقاب استقالة الوزراء الاربعة، والذي اصبح الان يتولى وزارة العدل

وكان مقتل المبشر الامريكي «كمبر لاند» على ايدي افراد من عشيرة الدوسكي في دهوك، يعتبر جريمة فردية منعزلة.

تم تجاهل المناحات التي اقيمت في كركوك عند وفاة كمال اتا تورك لانها لم تكن من الامور المؤذية. كذلك ايد الجميع اعتقال الشيوعيين ومحاكمتهم،كما اقدم البرلمان على سن تشريع يعتبر «الشيوعية» محرمة، كما يعتبر القائمين بنشرها من المجرمين الخطرين، ولذلك اضطرت الحركة الشيوعية الى العمل سرا[٣]. وفي الوقت ذاته لم تحدث اية اضرابات تعطل العمل الصناعي او الخدمات العامة، في حين بقيت اواسط الفرات هادئة هدوءا مشوبا بالحذر، وتم احتواء انفجار بين اثنتين من عشائر «العمارة» بوساطة احد المحكمين من المنتفق، بينما تواصلت المصادمات التقليدية، في الصحراء الغربية، بين عشائر شمر «والعقيدات».

بذلت الجهود للحصول على اسلحة للجيش العراقي اكثر صدقا من الجهود التي بذلها بكر صدقي[٤] كما تحسنت اوضاع الانقياد والطاعة في الجيش، وتقلصت المنافرات بين العرب والاكراد المشاركين في القوات المسلحة. واكملت القوة الجوية البريطانية انتقالها الى قاعدة الحبانية، بعد ان اقيمت لها المؤسسات المزودة بالوسائل العصرية. كذلك سارت المشكلة الاثورية في طريق الحل، او الاعتراف بعدم امكان حل لها، ذلك لان المستوطنات التي اقيمت على ضفاف نهر الخابور وعلى نفقة الحكومة العراقية اصبحت تنال المعاضدة من ساكنيها وفقا للترتيبات التي اجرتها لجنة من عصبة الامم حيث تخلصت الخزينة العراقية بعد سنة ١٩٣٨ من اية مساهمة اخرى في اسناد هذه المستوطنات ماليا. اما الاثوريون الذين بقوا في العراق فقد طبق عليهم التجنيد الاجباري دون حدوث اي اضطراب بسبب ذلك. فلقد تم توطين هؤلاء في قرى لم تكن مزدحمة بالسكان، وليست تنعم بالرخاء التام، وكانوا مترددين في الانتقال منها واكدت الحكومة العراقية لعصبة الامم بصفة رسمية بان وضع الاثوريين باعتبارهم مواطنين عراقيين، قد تم ضمانه، ولكن عودة المار شمعون الذي قبل الجنسية البريطانية واخذ يعيش الان في قبرص، لا يمكن اعطاء تقرير بشأنها.

---

(٣) كان هذا التشريع في صفة تعديل لبعض مواد قانون العقوبات البغدادي حيث اعتبر بث الشيوعية بين افراد القوات المسلحة جرما يعاقب عليه بالاعدام، وعلى اساس مثل هذا التعديل تم اعدام اربعة من زعماء الحزب الشيوعي في سنة ١٩٤٩.

(٤) يريد المؤلف بهذا ان يشير الى تجاوب الحكومة البريطانية مع العراق في موضوع شراء السلاح منها اكثر من تجاوبها مع حكومة الانقلاب،فقد كان تردد بريطانيا ومماطلتها في تجهيز الجيش العراقي بالسلاح، هو الدافع الاول الذي دفع بكر صدقي الى شراء السلاح من المصانع الالمانية والايطالية والجيكوسلوفاكية، هذه الحركة التي استنكرتها بريطانيا وراحت من وقتها تخطط للتخلص من بكر صدقي ومن وزارة الانقلاب ذاتها. ولهذا فان اي انتقاد يوجه من لدن الانكليز الى بكر صدقي يجب ان يفسر على اساس هذا التحدي في مسالة شراء السلاح من خارج بريطانيا.

كان التقدم السريع لحركة التجارة الخارجية وللرخاء الذي تميزت به الفترة ما بين سنة ١٩٣٥ وسنة ١٩٣٧، قد توقف الان توقفا ملموسا في سنة ١٩٣٨. فقد هبطت اسعار المحصولات، ونفدت التخصيصات الحكومية لمشاريع الاعمال الرئيسة. وكانت الايام الاخيرة التي قضتها وزارة المدفعي في الحكم، اياما تعسة من الناحية المالية. ولكن على الرغم من كل ذلك، فان احتكار صادرات التمور المكبوسة الذي منح اول الامر الى مجلس ادارة التمور في البصرة، قد اعطي الآن الى مؤسسة بريطانية هي شركة «اندروير»، في الوقت الذي قاربت فيه الترتيبات الخاصة باحتكار التبوغ ان تبلغ غايتها، في حين اصبح المصرف الزراعي الصناعي يغص بالمشاريع، وتوجهت شركة السمنت الى الجمهور للمشاركة في اموالها، وبقيت الحكومة تطمح الى انشاء مصفى للنفط خاص بها.

وفي سنة ١٩٣٨ تم منح امتياز التنقيب عن النفط في ولاية البصرة، وهذا الامتياز يشمل، على وجه الدقة، الاراضي التي تقع الى الجنوب من المنطقتين التي يشملها امتياز النفط القائم انذاك، منح هذا الامتياز الى شركة «نفط البصرة» وهي فرع من مجموعة شركة النفط العراقية، وفق شروط مشابهة للشروط التي تتحكم في الامتياز الذي منح في سنة ١٩٣٢ الى شركة استثمار النفط البريطانية. كذلك تم استقدام خبير او مستشار بريطاني لوزارة الاشغال والمواصلات من مصر هو السيد «لوغن» في اعقاب تقاعد المستشار السابق «ويتلي» في سنة ١٩٣٧، والذي اعتبر تقاعده خسارة للوزارة. كما عين خبير له خبرة طويلة في الخدمة في مصر هو السيد «اتكنسون» للري في سنة ١٩٣٩ فمكث يعمل في هذه الدائرة مدة سبع سنوات.

كذلك بقي العقيد «وورد» مديرا للميناء حتى وفاته في سنة ١٩٤٢، بعد ان تخلى عن مديرية السكك الحديدية في اوائل سنة ١٩٣٩. ولقد خلفه في منصبه في السكك خلال سنة ونصف كل من «لوغن» و «نيكول» ثم تسلم المنصب ذاته منهما «سمث» فمكث فيه تسع سنوات ابتداء من سنة ١٩٤١. كذلك تقاعد «هوغ» من منصب مستشارية وزارة المالية في سنة ١٩٣٩ وبقي هذا المنصب شاغرا بعده لمدة سنتين.

اما في ميدان العلاقات الخارجية فقد عقدت اتفاقات بشأن حقوق البلاد والمتاجرة مع السعودية ومصر على التعاقب. وقد وجه اللوم الى تركيا بسبب الضغوط التي كانت تمارسها لضم ميناء الاسكندرونة والمحافظة التابعة لها، مع ان الصفة العربية كانت هي الطاغية عليها. وبذلك تكررت التظاهرات الكبرى في بغداد في سنة ١٩٣٩، وراحت تندد بقصر نظر السياسة الفرنسية المطبقة في سوريا. وفي الوقت ذاته عقدت معاهدة تجارية مع الولايات المتحدة الامريكية، وان كان العطف الامريكي على الصهيونية لم يخف او يتوقف مقابل ذلك، كما عينت الفاتيكان مبعوثا رسولياً آخر لها في الموصل، كان هولنديا هذه المرة.

اقيمت العلاقات الدبلوماسية مع بلجيكا وهنغاريا، واعيدت العلاقات مع ايطاليا رغم ان ملك ايطاليا قد اعلن نفسه امبراطورا على الحبشة، وقد تم ارسال مهندسين وطيارين عراقيين الى ايطاليا لدراسة انواع الطائرات التي يحتاج العراق اليها. وتركت الحركة الهتلرية التي هيمنت على المانيا تأثيرا لها في اذهان الشعب العراقي، حيث ظهر المزيد من الالمان في بغداد يعرضون ما لديهم من ائتمانات تجارية طويلة الامد، ولقيت بعض الدعوات الالمانية لزيارة العراقيين لمدينة برلين باجور مخفضة شيئا من القبول، كما شارك بعض الشباب العراقي في الاستعراض الكشافي الالماني في المانيا. ونظمت المعسكرات الخاصة للشباب في العطلة الصيفية، واصابت حركة «الفتوة» شيئا ملموسا من النجاح[٥].

في شهر اذار ١٩٣٨ تم توقيع المعاهدة مع حكومة طهران[٦] ورافق توقيعها قيام تظاهرات لم تكن متوقعة، اظهرت عدم موافقة الجماهير على تلك المعاهدة، في الوقت الذي تحركت فيه الى العمل، اللجنة التي اتفق على انشائها لغرض تخطيط الحدود بين البلدين، كما بوشر في ذات الوقت بتشغيل خط طيران اسبوعي لدى الفرس بين بغداد او طهران. على ان الانزعاج الذي اصاب حكومة العراق، من عدم تعاون الكويت في ذلك الوقت لمكافحة التهريب، والرغبة في انشاء ميناء بديل لميناء البصرة، على شاطىء الخليج العربي، هذان الامران قد اديا الى اقدام وزير خارجية العراق على اعلان ضم امارة الكويت الى العراق،ولقد تكررت هذه المطالبه بصفة ملحة ومتواصلة عن طريق الاذاعة الخاصة التي اقامها الملك غازي في قصره، غير ان تدخل السفير البريطاني في الامر قد ادى الى ابطال ذلك الادعاء.

ولكن ظل فلسطين كان اشد وطاة على العراق، من اي من الاهتمامات الخارجية الاخرى. ذلك لان الصهيونية، وتقسيم فلسطين كان منذ زمن طويل يثيران ليس اهتمام الحكومة العراقية وحدها والساسة حسب بل اهتمام جزء واسع من الجماهير العراقية على نطاق اوسع. فلقد حضر المندوبون العراقيون الذين رأسهم توفيق السويدي، الاجتماع الذي، عقدته عصبة الامم في خريف سنة ١٩٣٧. كذلك شارك المبعوثون العراقيون، غيرهم من المبعوثين العرب، خلال

(٥) يحاول المؤلف هنا ان يبسط ما يعتبره من تعاظم النفوذ الالماني في العراق ومن سريان الفلسفة النازية الى الشباب العراقي. والحقيقة ان انعطاف العراقيين نحو الحركة النازية او غيرها، لم يكن نابعا عن الايمان باهداف تلك الحركة، مثلما كان نابعا عن شدة الحقد على الانكليز وحلفائهم اعداء العروبة وحلفاء الصهيونية، حيث تظاهر الالمان الهتلريون بالعداء للصهاينة واليهودية العالمية، الامر الذي زاد في تحمس العراقيين ضد هذه الحركة وضد بريطانيا التي فرضت الانتداب على فلسطين لكي تمهد لتحقيق الوطن القومي اليهودي فيها وفقاً لوعد بلفور.

(٦) المقصود بها معاهدة شط العرب التي ارغمت العراق في ذلك الوقت، وفي عهد حكومة الانقلاب، على التنازل عن قسم من الشاطىء امام عبادان لايران بقصد استخدامه مرسى لناقلات النفط التي كانت تنقل نفط الاحواز.

تشرين الاول من تلك السنة، في اجتماع «بلودان» بسوريا. وكانت «عصبة الدفاع عن فلسطين» في بغداد، نشطة نشاطاً بالغا في اقامة التظاهرات، والصلوات، وجمع التبرعات من النقود[٧].

اعقب التمرد العربي والثورة الفلسطينية الشديدة، في اواخر سنة ١٩٣٧، بروز عطف عليهما في العراق، راحت تزوقه وكالات الانباء الالمانية. كذلك نال الشعور بالوحدة العربية، الذي اثاره مأزق فلسطين، بصفة بارزة التأييد نتيجة بعض الحوادث، من امثال انعقاد المؤتمر الطبي في بغداد، وعقد مؤتمر آخر للاطباء البيطريين، وسفر وفد من الكشافة العراقيين الى لبنان.

اقيمت احتفالات عراقية سورية مشتركة في ذكرى وفاة ياسين الهاشمي، وظهر كثير من الزوار العرب المبرزين في «نادي المثنى» الذي امس في سنة ١٩٣٥ باعتباره مركزا للدعوة الى الجامعة العربية ومقراً للجنة الدفاع عن فلسطين. ومع كل ذلك فان الفتوى التي اصدرتها الجهات الدينية العراقية بضرورة الجهاد في فلسطين، لم تنل الثقة من الحكومة العراقية التي سارعت الى تفريق التظاهرات العنيفة التي قامت وحظر قيامها في النهاية، كما تم القضاء على عمليات القاء بعض القنابل على الاحياء اليهودية في شهر آب ١٩٣٨، وقام مولود مخلص بتمثيل العراق في المؤتمر البرلماني العربي الذي عقد حول قضية فلسطين في القاهرة في شهر تشرين الاول من تلك السنة، في الوقت الذي طرح فيه نوري السعيد مقترحات وضعها هو بنفسه كانت تتميز بالاعتدال وحسن الاحساس، عرضها على الحكومة البريطانية ولم يكن توفيق السويدي هو الاخر اقل نشاطا في كل من لندن وجنيف.

ففي مؤتمر لندن الذي انعقد في اليوم السابع من شهر شباط ١٩٣٩، والذي القى انعقاده ظلالا على جامعة الدول العربية التي تألفت مؤخرا، كان نوري السعيد الذي كان يتولى رئاسة الوزارة في العراق آنذاك، على مثل ما كان عليه دوما، قد اشتهر بمقترحاته البناءة المدعمة بالاتصالات الشخصية التي قام بها في العواصم العربية، ومع الحاج امين الحسيني المفتي الذي كان يعيش انذاك في المنفى. على ان الكتاب الابيض البريطاني الذي صدر في شهر ايار ١٩٣٩، والمعارضة العربية الاولية لذلك الكتاب، والتي لابد وان تتحول الى القبول به (وقد تحولت تلك المعارضة الى القبول فعلا) كل ذلك لم يكن قادرا على تهدئة المشاعر العربية القوية ضد الصهيونية، وضد المؤيدين لها. والحقيقة انه لم يكن بالنظر الى فترة العلاقات العراقية البريطانية من سنة ١٩٣٧ الى سنة ١٩٤١، من عنصر اكثر تسمما لتلك العلاقات من القضية الفلسطينية التي اسيء التصرف بشأنها وبشكل مؤسٍ.

---

(٧) المقصود بها «جمعية الدفاع عن فلسطين» التي تألفت في بغداد سنة ١٩٣٥ في عهد وزارة ياسين الهاشمي، وكان يرأسها سعيد الحاج ثابت. ولقد نشطت هذه الجمعية في تنظيم الاحتجاجات، واصدار نشرة خاصة عن انباء الثورة الفلسطينية الكبرى في سنة ١٩٣٦، وجمع التبرعات من الافراد والشركات والمنظمات لارسالها الى الثوار في فلسطين. وكان مقر الجمعية اول الامر في «نادي المثنى» في الصالحية، ثم انتقلت الى الدار التي استاجرتها «جمعية الجوال العربي» والتي نصبت فيها مطبعة خاصة بالجمعية في احدى الدور القائمة في محلة الصابونجية بالميدان.

اما بالنسبة الى ازمة ميونخ التي حصلت في شهر ايلول ١٩٣٨ (٧) فقد كان الموقف الذي وقفه جميل المدفعي ووزارته بالنسبة الى حليفهم موقفا صائبا جدا تميز بالشدة تجاه الدكتور غروبا وابناء جلدته. ومع كل ذلك فان ازمة ميونيخ قد لفتت نظر العراق الى الفجوات التي تنذر بالخطر في داخل اوربا، واثارت، لدى اصناف من الجماهير والجيش، روحية الاعجاب بالقسوة التي تميز بها الالمان ونجاحاتهم، التي حملت هذه الاصناف على ذلك الاعجاب خلال السنوات القلائل التي اعقبت ذلك. فقد كان ذلك الاعجاب مدعاة للتردد في مساندة اي رئيس وزراء موال للبريطانيين مهما كان صالحا وشهيرا.

اصبح اتجاه العراق نحو المحور، او ابتعاده عنه منذ ازمة ميونيخ فصاعدا، يؤلف واحدة من القضايا التي احدثت الانقسام بين الساسة في بغداد، الذين لم يعد احترامهم للمعاهدة البريطانية العراقية لسنة ١٩٣٠. بذي بال، سواء كان ذلك الاحترام روحيا او مكتوبا. ولقد كان هذا الانقسام بحد ذاته عنصرا من العناصر التي اضعفت مركز المدفعي الذي غدا واضحا كل الوضوح في ذلك الخريف. ولذلك اقتضت الضرورة اجراء تغييرات كبيرة في الوزارة خلال شهر تشرين من الاول، حيث وجهت سلسلة من الهجمات الشخصية ضد مصطفى العمري (٨) ولهذا تم نقل مصطفى العمري الى وزارة العدل، ونقل عباس مهدي الى وزارة الاشغال والمواصلات، وتولى المدفعي نفسه وزارة الداخلية وكالة، وعين صبيح نجيب، لوزارة الدفاع، وهو ضابط قديم سبق له ان عمل بضع سنوات مديرا عاما للشرطة، وكان في اخر وقت يشغل منصب المدير العام لوزارة الخارجية. ومع كل ذلك فانه كان اعلى رتبة بالنسبة الى القادة الذين كانوا في الخدمة، والذين اغاظهم ترفيعه الى مرتبة وزير.

شهد افتتاح البرلمان في اليوم الاول من شهر تشرين الثاني هياجا سياسيا تمثل بالاحتجاج

---

(٨) عقد مؤتمر ميونيخ (منش) من قبل رؤساء وزرات بريطانيا وفرنسا وبلجيكا وهولندة وغيرها وذلك لدراسة التهديدات الالمانية وقد اتفق المجتمعون في ذلك المؤتمر على مهادنة هتلر والسماح له باقتطاع منطقة «السوديت» والتي تقطنها اكثرية المانية، من جيكوسلوفاكيا كل ذلك على امل اقناع هتلر، بان يقلع عن اشعال نيران الحرب. والحقيقة ان مؤامرة ميونيخ تلك كان يراد من ورائها ابعاد هتلر عن اقتحام فرنسا والدول الاخرى الموالية لها بما في ذلك بريطانيا، وتوجيه انظاره الى الاتحاد السوفياتي الذي كان منذ ظهوره في اواخر سنة ١٩١٧ يؤلف الخطر الرئيس على الرأسمالية والرأسماليين، ولذلك عمدت الرأسمالية الى تهيئة الظروف الملائمة لظهور هتلر في المانيا وامدته بمختلف وسائل القوة لكي يضرب ضربته القاضية ضد الاتحاد السوفياتي وقد فعل ذلك فعلا.

(٩) كانت جريدة «الاستقلال» التي يصدرها المرحوم عبد الغفور البدري هي التي شنت تلك الهجمات ضد العمري وان لم تذكره بالذات فقد نشرت مقالتين متتاليتين شديدتين في عدديها الصادرين في ١٧ و ١٩ من تشرين الاول ١٩٣٨ ضد استشراء داء الرشوة في الدولة وبين الوزراء، الامر الذي ادى الى تعطيل الجريدة لمدة سنة وسوق البدري الى المحكمة بتهمة القذف والتشنيع فقضت المحكمة بالحكم عليه بالحبس لمدة ثلاثة اشهر.

الشديد جدا ضد امتياز البصرة، الذي تم منحه الى بعض الاشخاص[٩] وقد وجه ذلك الاحتجاج بعض المتحدثين البارزين من المعارضة، من بينهم حكمت سليمان ورشيد عالي الكيلاني، الامر الذي انعش الخصومات التي شهدتها السنوات الثلاثة الاخيرة، في حين وجد الاخرون ذرائع لهم في مهاجمتهم الحكومة لانها اقلعت عن فصل الموظفين المشتبه بهم، ونكلت بالتظاهرة وبالصحف المتمردة التي كانت تدار بصفة غير مرغوب فيها. وعندما انفجرت في اواخر شهر تشرين الثاني، موجة القاء القنابل في بغداد ونسبت (وربما كان ذلك صحيحا) الى العناصر المحرضة ضد الحكومة، لجأت الوزارة انذاك الى قانون الدعاية المضرة الذي سبقت المصادقة عليه قبلاً ولكن لم يشرع بتنفيذه، وبذلك امتدت احكامه الى عدد من خصوم الحكومة حتى في اقصى المدن. ولقد اشتمل المحكومون باحكام هذا القانون على عدد من الضباط المعروفين بولائهم لبكر صدقي، وبعض البارزين من المحامين والسياسيين طبقا للادعاءات الوزارية، ولم تلبث الازمة الراهنة ان اخذت تقترب اكثر فاكثر، عندما ادت اعمال التحريض المكشوفة التي قام بها رشيد عالي الكيلاني الى اعتقاله ونفيه الى مدينة «عانة»[١٦].

ولكن اصدقاء هؤلاء المبعدين لم يضيعوا الوقت عبثا فشرعوا يتصلون بعدد اخر من الساخطين من امثال تفكيرهم، من ناحية، وبعدد من رؤساء الجيش من ناحية اخرى. وكان من بين هؤلاء جماعة اطلق عليها فيما بعد نعت «المربع الذهبي» وكانت قد تألفت داخل الجيش قبلا، واشتهرت بالتهور والبطش، وكانت هذه الجماعة تتألف من صلاح الدين الصباغ آمر الفرقة الثالثة التي كانت تعسكر في العاصمة وحواليها، وفهمي سعيد الذي عهد اليه بآمرية القوة الالية، وكامل شبيب امر الفرقة الاولى، ومحمود سلمان امر القوة الجوية. لقد كان هؤلاء القادة حانقين، لانهم كانوا يخضعون لامرة رجل حديث عهد بالنعمة هو وزير الدفاع، ومن الترفيعات واوامر الفصل التي لم تلائم اذواقهم الا بنسبة ضئيلة.

ولقد اشرك هؤلاء القادة في اخلاصهم المهني لرئيس اركان الجيش السابق طه الهاشمي، السيد حسين فوزي رئيس اركان الجيش الحالي وعددا اخر من كبار الضباط، واخذوا يتقربون من طه الهاشمي، دون علم من نوري السعيد[١٣]، ويطالبون بتغيير الحكومة. ولم يلبثوا ان

---

(١٠) يقصد بذلك امتياز حكر تصدير التمور الذي منح الى شركة اندروير الانكليزية.

(١١) كانت وزارة المدفعي هذه قد عطلت جلسات المجلس لمدة شهر وفي خلال هذه الفترة استصدرت امراً بنفي بعض الاشخاص، كان الكيلاني من بينهم، الى بعض الاماكن وفرض الاقامة الجبرية عليهم هناك. وكان من بين هولاء، اسماعيل الاغا الذي نفي الى الفاو، وعلي محمود الشيخ علي الى بدرة، وداود السعدي الى حلبجة، وشاكر الوادي الى سوق الشيوخ، وجميل عبد الوهاب الى (علي الغربي). وعلي غالب الى عنه، وعبد الوهاب محمود الى تلعفر، وفائق السامرائي الى زاخو (الحسني: الوزارات العراقية ج ٥ ص ٤٥ - ٤٦).

(١٠) كان نوري السعيد منذ ان توفي فيصل هو اول من وضع اسس تدخل الجيش في السياسة. وقد دفعه نجاح انقلاب بكر

اجتمعوا في معسكر الرشيد، وقدموا التماسا الى الملك غازي، يطلبون اليه فيه تأليف وزارة جديدة برئاسة طه الهاشمي او نوري السعيد، واخذوا يكررون الطلب بالحاح على رئيس الديوان الملكي السيد رشيد الخوجة، الذي اوفده الملك اليهم للتباحث معهم. غير ان هؤلاء اقدموا في الوقت ذاته على انذار القوات التي تحت امرتهم بان تتزود بالسلاح، وان تحتل النقاط الرئيسة في بغداد، وتضع حرساً على بيت كل من طه الهاشمي ونوري السعيد، ذلك لانهم كان يخشون، او ادعوا بانهم يخشون بان يتم اعتقال ذينك الشخصين ومعاقبتهما.

وضعت هذه القضية، في الوقت ذاته، امام رئيس الوزراء جميل المدفعي من قبل ناطق عسكري كبير[١٣] اشار الى ان هذه الحركة لم يتدخل فيها المدنيون ولا قوات الشرطة. وحين اقتنع المدفعي، بعد المقابلة التي اجراها مع نوري السعيد، بان الامن سيظل مصونا، اخذ يلح على القادة بالعودة الى ممارسة واجباتهم الاصلية، ومن ثم جمع اعضاء وزارته في اجتماع عقده معهم وقدم استقالته في كتاب موجه الى الملك، ولم يلبث نوري السعيد، الذي تمرس في التظاهر بالتردد، ان تقبل منصب رئاسة الوزارة للمرة الخامسة في يوم عيد الميلاد سنة ١٩٣٨.



صدق في سنة ١٩٣٦، الى ركوب مثل هذا المركب الصعب الذي الحق بالبلاد الخراب والدمار لعدة اجيال سابقة. فقد اصطفى نوري السعيد هؤلاء العقداء الاربعة ومن والاهم من ضباط الجيش لتنفيذ مؤامراته، وتطلعاته الخاصة. فلطالما فرضوه على غازي عدة مرات لكي يؤلف الوزارة، كما فرضوا طه الهاشمي ورشيد عالي من بعده مما سيرد ذكره في الفصول اللاحقة.

(١٣) علم بعض الضباط الكبار بما كان العقداء الاربعة ينتوون عمله فذهب كل من القادة نظيف الشاوي، ويوسف العزاوي، وسعيد التكريتي الى دار السيد جميل المدفعي، وكان صبيح نجيب وزيرا الدفاع حاضرا عنده فافضوا الى المدفعي بان في نية العقداء الاربعة ومعهم العقيد سعيد يحيى، القيام بانقلاب ضد الوزارة، ولكن صبيح نجيب انكر صحة الخبر، وطلب الى الضباط الحاضرين لدى رئيس الوزراء ان يتركوا هذا الامر اليه، اي الى الوزير الدفاع (جريدة المواطن لصاحبها محمود الدرة من حديث للواء يوسف العزاوي نشر في العدد الصادر يوم ٢٩ اذار ١٩٥٢).

٢. وفاة الملك غازي

حييت الوزارة الجديدة بالامال الاعتيادية، في ان يكون الحكم قويا وثابتا في النهاية وزوال الانقسام الاعتيادي، واعمال الثأر والانتقام، والتدخلات العسكرية الاخرى. وتم الاعلان عن تأليف وزارة ذات صفة متوسطة، ولكن للمرة الثانية، لم تكن القاعدة الثابتة من المبادئ المشتركة، موجودة لكي توحد الوزارة. استدعى ناجي شوكت، الذي كان يتولى منصب الوزير المفوض في المفوضية العراقية بانقرة، ليصبح وزيرا للداخلية؛ وذهب رستم حيدر الى وزارة المالية، وعهد الى التركماني المقتدر عمر نظمي بوزارة الاشغال والمواصلات، ومحمود صبحي الدفتري بوزارة العدل، وعين صالح جبر لوزارة التربية، وطه الهاشمي لوزارة الدفاع. واعطيت رئاسة الديوان الملكي الى رشيد عالي الكيلاني.

وكان الخطاب الذي دشن به رئيس الوزراء، وزارته معتدلا بشكل معجب، وحكيما وذا تفكير سام. ذلك لانه استنكر فيه المغامرات العسكرية والح على جميع الفرقاء بان يتقبلوا قاعدة القانون والديمقراطية الحقة [1] وسمح للصحف المعطلة بان تعاود الصدور من جديد؛ وان يعود الموظفون المفصولون الى وظائفهم، كما سمح بتأليف الاحزاب، ولو ان هذه الاحزاب كانت قد اخفقت لحظتئذ في الظهور الى حيز الوجود، ووجهت كلمات مختلطة من التعزير والتشجيع الى شيوخ عشائر الفرات المجتمعين.

اما في داخل البرلمان فان الغلظة الموجودة في النقاش لم تبطئ في أن تتكرر نفسها من جديد.

---

(١) كان خطاب نوري السعيد هذا يناقض الحال القائمة فعلا. ذلك لان مجئ نوري السعيد الى الوزارة من جديد كان نتيجة تآمر العقداء ومن شايعهم من بعض الساسة، والذين فرضوا على الملك غازي، اسقاط الوزارة المدفعية. وتعيين السعيد رئيسا للوزراء.وليس هناك ادنى شك في ان السياسة التي انتهجها نوري السعيد في الايام الاولى من تأليف وزارته. من امثال اعادة المفصولين من الموظفين، والسماح للصحف المعطلة بالصدور بل وحتى السماح بتأليف الاحزاب. انما كانت من نوع سياسة ذر الرماد في العيون تمهيدا لما كان السعيد يخطط له منذ ان عاد من المنفى. وهو الانتقام من جماعة الانقلاب. وعلى رأسهم الملك غازي، كي ينفرد وحده بالحكم ويوجهه حسب الوجهة التي يعتقدها. والتي لم يفد منها سوى الانكليز والصهاينة مما كشفته السنوات التي اعقبت ذلك عنه بكل جلاء.

وقد تضاعفت، بعد سفر نوري السعيد الى لندن في اوائل ١٩٣٩.

طالب ضحايا النفي والابعاد اللذين فرضتهما حكومة جميل المدفعي المستقيلة، بالانتقام من تلك الوزارة، وذلك نتيجة التصرفات اللاقانونية الشاذة التي اقدمت عليها. وكخطوة اولى في ذلك، راح اولئك المتضررون يضغطون على احالة النقاط المتنازع عليها الى محكمة خاصة اشترطها القانون الاساسي في مثل هذه الحالة. ولما كانت الوزارة القائمة متحدة ولا خلاف فيها، فقد صممت على ان تعزز مركزها باجراء انتخابات عامة جديدة على امل ان تنتج مثل هذه الانتخابات مجلس نواب اكثر تجانسا. ولذلك صدرت الارادة الملكية الآمرة بحل البرلمان في اليوم الثاني والعشري من شهر شباط سنة ١٩٣٩، وقبل ان يقدم ولي عهد فارس في زيارة رسمية الى بغداد [٢].

اعقب عودة نوري السعيد من لندن في اواخر شهر شباط، اصدار المنهاج الوزاري، حسب الاسس المعتادة، وماهي الا ايام قلائل حتى اعلن عن اكتشاف مؤامرة، لم يشترك فيها حكمت سليمان العدو اللدود لنوري السعيد حسب، بل قائمة موسعة من الساسة والضباط الاخرين. وقد ذكر بان المؤامرة التي اكتشفت كانت تهدف الى قتل مالايقل عن خمسين شخصا من بينهم الملك غازي، وتنصيب ابن عمه الاول عبد الاله، او عمه الامير زيد حسبما فضله المتامرون الاخرون.

اعلنت حالة الطوارئ في معسكر الرشيد، وجرت بعض الاعتقالات، وانعقدت محكمة عرفية خاصة تضم حكاما مدنيين مع عدد مساو لهم من الضباط العسكريين. وبناء على قوة الاعترافات التي ادلى بها المشاركون من المتهمين فقد صدرت احكام الاعدام على خمسة من المتهمين من بينهم حكمت سليمان، كما صدرت احكام اخرى بالسجن لمدد طويلة على الاخرين، في حين برئت ساحة البعض منهم [٣]. وسرعان ماصدرت ارادة ملكية اعلنت تبديل احكام الاعدام بالسجن بالنسبة الى اربعة من المحكومين، ولم يخفف الحكم على حكمت سليمان الا بضغط حاد من قبل السفير البريطاني، ومن صديق بريطاني خاص [٤] وبعض الاصدقاء من العراقيين.

---

(٢) كان ولي عهد فارس، وهو محمد رضا بهلوي الشاه السابق قد وصل الى بغداد في اليوم السادس والعشرين من شباط ١٩٣٩، ونزل بضيافة الحكومة وتبودلت برقيات المجاملة بهذه المناسبة بين العاهلين العراقي والفارسي.

(٣) صدرت احكام الاعدام على كل من الضباط حلمي عبد الكريم، واسماعيل عباوي (توحلة) ويونس عباوي وجواد حسين، وعلي حكمت سليمان ايضا. وحكم كل من عبد الهادي كامل وعلي غالب بالاشغال الشاقة الموقتة لمدة سبع سنوات ووضعهما تحت مراقبة الشرطة لمدة سنتين. اما الذين خفضت احكامهم من الاشغال الشاقة المؤبدة فهم اسماعيل عباوي وحكم علي جواد حسين وهو ضابط طيار بالاشغال الشاقة الموقتة لمدة خمس عشرة سنة، وعلي حكمت سليمان بالحبس لمدة خمس سنوات. وكانت الحكومة البريطانية هي التي تدخلت ،سميا بتخفيف الحكم على حكمت سليمان.

(٤) هو المستر لويدرئيس جمعية التمور في البصرة.

لقد بقي بعد ذلك كله، وهم باقون الان[٥] اشخاص لهم قدرتهم الجيدة على اصدار الاحكام في كل ماحدث. وبين هؤلاء الاشخاص عدد كبير ممن كانوا يعتقدون، على الرغم من الاعترافات التي تم الادلاء بها، بان المؤامرة برمتها لااساس لها من الواقع، وان اكتشافها قد تم تخطيطه لكي يخدم غايات سياسية او شخصية. لقد تحقق احد اهداف المؤامرة عن طريق حادث مثير للاسى. فعندما كان الملك يقود سيارته بعدم الاكتراث الذي اعتاد عليه في اواخر ليلة الرابع من شهر نيسان[٦] اصطدم بعمود كهربائي على مقربة من قصره، وتوفي خلال ساعات قلائل نتيجة الكسور الشديدة التي كابدها، واصابت جمجمته.

اعلن نبأ الوفاة صبيحة اليوم الرابع من نيسان، واجتمع مجلس الوزراء على عجل، وتلقى تذكرة مكتوبة من الملكة عالية تذكر فيها بان غازي كان يرغب في ان يخلفه عند حدوث اية حالة اثناء طفولة ولده، ابن عمه الاول الامير عبد الاله بن الملك علي وصيا. تم جمع عدد كاف من اعضاء مجلس النواب المنحل، للمصادقة على هذا الاجراء طبقا للدستور، واذ ذاك اعلن عن تولي الملك فيصل الثاني الذي كان بالكاد قد بلغ الرابعة من عمره، ووصاية الامير عبد الاله له. وكان غازي يوم وفاته في السابعة والعشرين من عمره وقد حكم زهاء ست سنوات تقريبا.

لم يكن غازي يهتم الا قليلا بالمهام الاعتيادية لواجباته، وقد ندر اقناعه بانجاز تلك الواجبات. وكان من اخطائه عدم الاكتراث والاستخفاف. كما كان نفاد صبره من تطبيق البروتوكول والنصح الذي يوجه اليه، من الامور التي كانت تربك الحكومات المتعاقبة في عهده، ويغدو في بعض الاحيان غير مجامل لمواطنيه. ولكن مع كل ذلك فانه لم يكن ينقصه الذكاء و لاالظرف. وكان محبوبا من لدن الضباط الشباب في الجيش الذين كانوا من رفاقه الطبيعيين والمختارين. وكان كثير من مواطنيه يحبونه عن بعد، لشبابه، وحيويته، ووطنيته الصريحة الجلية.

اما الملك فيصل الصغير، والذي كانت تعنى به على الدوام ممرضة انكليزية، واحدى المربيات الانكليزيات فيما بعد، فقد كان المعروف عنه بانه طفل ذكي وجذاب. اما الوصي الجديد شقيق الملكة عالية وخال الملك، فقد كان الان في السابعة والعشرين من عمره، وقد درس في كلية فكتوريا في الاسكندرية. ومع انه لم يعن قبلا بالشؤون العامة، الا انه يعتبر شخصا جدياً وذكيا، وانه كان يود ان يوجه ظرفه الشخصي، ومواهبه الاجتماعية، توجيها حسنا.

---

(٥) يقصد المؤلف بذلك الذين بقوا على قيد الحياة حين صدور كتابه هذا في طبعته الاول سنة ١٩٥٣.

(٦) ذكر المؤلف ان حادث اصطدام غازي وقع ليلة اليوم الثالث من نيسان على اساس ان الحادث حدث قبل انتهاء الساعة الثانية عشرة من مساء ذلك اليوم (راجع ماكتبه الدكتور سندرسن في مذكراته عن حادث الاصطدام ومافعله الملكة عالية لانتزاع تصريح منه بانه قد سمع غازي يعلن وصيته لتعيين عبد الاله وصياً على ولده فيصل الثاني. وفي الوقت الذي لفظ فيه غازي انفاسه الاخيرة. مما سيطلع عليه القارئ في كتابنا المقبل «مصرع الملك غازي».

حضر حفل دفن الملك غازي في المقبرة الملكية كثير من الزوار العرب من الخارج، وعشرات الالوف من مواطنيه، واثار ذلك الحفل عواطف غير اعتيادية، ومالبث القصة الخيالية التي تقول بان وفاة الملك غازي كانت نتيجة تدبير اعدته «مصلحة الاستخبارات البريطانية»، ان تناقلتها وكالات الانباء الالمانية، وربما الدكتور غروبا نفسه. فلقد صدق الكثير من ذوي العقول الضعيفة من عامة ابناء المدينة الذين اكتنفهم الهياج، هذه الاكذوبة، فكانت هي المسؤولة عن الهجوم الذي وقع، بعد اقامة الصلاة على روح الملك غازي، على القنصل البريطاني في الموصل «مونك ماسون». فما ان احاط به المتظاهرون المهاجون حتى القيت الحجارة عليه، ومن ثم ضرب ضربة مميتة على رأسه وهو على سلم القنصلية. ولم يلبث رئيس الوزراء الذي تأثر تأثيراً عميقاً بهذه الوحشية، ان قدم الاعتذارات الى السفير البريطاني، وامر بدفع تعويض الى ارملة القنصل، وكان موكب تشييع جنازته في الموصل عاماً ومثيراً شارك فيه الموظفون العراقيون وضباط الجيش مشاركة فعالة. اصدرت احكام قاسية على قلة من المشاركين في الهجوم على القنصلية كان الطلاب هم البارزين من بينهم غير ان القاتل لم يتم اكتشافه [٧].



(٧) كان التعويض الذي دفعته الحكومة العراقية لعائلة القنصل البريطاني في الموصل يبلغ عشرين الف باون استرليني، تم دفعه في اليوم الحادي والعشرين من شهر ايار سنة ١٩٣٩، اما الذين اتهموا بقتله فقد بلغ عددهم حوالي خمسة عشر نفرا معظمهم من الطلاب، وقد حكم على احدهم بالاعدام، ولكن الحكم ابدل بالسجن لمدة خمس عشرة سنة. اما البقية فتراوحت احكامهم بين خمس سنوات وسنة واحدة.

٢ ـ الاشهر الاولى من الحرب

كانت الاشهر الخمسة التي سبقت الحرب العالمية الثانية، فترة هدوء ظاهري في العراق. فالزوار الذين حضروا موكب دفن الملك غازي، قد عادوا الان الى بلادهم، ووطن الوصي عبد الاله نفسه على اداء مهمته، واعيد تأليف الوزارة السعيدية التي استقالت في اليوم الرابع من شهر نيسان، طبقا لاحكام الدستور، بعد يومين متأخرين عن ذلك التأريخ، ومن دون اجراء اي تغيير في اشخاص الوزراء. ومالبث ناجي شوكت وزير الداخلية، بتأييده الفاتر لقضية المؤامرة، وباشياء اخرى اوجدت هوة بينه وبين رئيس الوزراء، ان استقال من منصبه في اواخر شهر نيسان[1] واذ ذاك تولى نوري السعيد نفسه وزارة الداخلية، واتى بعلي جودت الى وزارة الخارجية. كذلك كملت الانتخابات الجديدة في شهر ايار من تلك السنة، وان ظلت الاحكام العرفية قائمة حتى شهر اب في كل من الموصل وبغداد.

افتتح الوصي البرلمان في اليوم الثاني عشر من حزيران. وناشد، في خطاب العرش، الجميع بان يلتزموا بالهدوء وضبط الاعصاب. ولما كان الانتخاب قد تم حسب الاجراءات المعتادة، فقد ضم المجلس الجديد اكثرية كبرى من مؤيدي رئيس الوزراء نوري السعيد، ولذلك عاش هذا المجلس مدة اربع سنوات خلافاً لكل المجالس السابقة، ومع ذلك مايزال ظل الجيش يخيم ثقيلا على السياسة العراقية.

---

(١) كانت قضية المؤامرة المزعومة وصدور الحكم بالاعدام على حكمت سليمان من الاسباب الرئيسة لحدوث عدم الانسجام بين نوري السعيد وناجي شوكت. ولكي يستطيع نوري السعيد ابعاد ناجي شوكت عن بغداد لبعض الوقت، فقد عرض نوري السعيد على مجلس الوزراء ايفاد ناجي شوكت الى تركيا للاتصال برجال الحكومة هناك للتأكد من نوايا الجمهورية التركية وموقفها حيال الوضع الراهن في سوريا. لكن نوري السعيد مالبث - في الوقت الذي كان فيه ناجي شوكت يقوم بتلك المهمة ان اجرى تعديلا في وزارته استبعد به ناجي شوكت من الوزارة. وبعث اليه برسالة في هذا المعنى. وقد رد ناجي شوكت على رسالة نوري الرقيقة بان اعلن له انسحابه من الوزارة «واخيرا اخبركم بالي لايمكنني، بعد هذه الاحوال، ان اقبل اية وظيفة سواء في الداخل او الخارج (مذكرات ناجي شوكت ص ٣٨٦ ومابعدها طبعة ١٩٨٤).

كان مجلس النواب بحد ذاته يضم العدد الكافي من النواب الراغبين في تجديد كل الخلافات القديمة، وكان من بين هؤلاء رفاق الزعامة الالمانية، التي مافتئت تظهر بلا انقطاع، عداوات دامغة ضد الانكليز، ومازال ساخطة على معاهدة سنة ١٩٣٠، والقيود المزعومة التي تفرضها تلك المعاهدة على حرية العراق، والتي كانت تعاكس افكار طبقة المثقفين.

وكذلك تشدد انصار الجامعة العربية ضد الكتاب الابيض الذي صدر بشأن مستقبل فلسطين، والذي رفضه العراق. في هذه المرحلة لم يحصل اي تقدم ظاهر بالنسبة الى قضية عرب فلسطين من وراء السفرات التي قام بها رئيس الوزراء الى كل من القاهرة وعمان وبيروت خلال شهر اب، والتي كانت تبحث عن صيغة لضمان الحقوق العربية في البلاد المقدسة، وكذلك من وراء الرحلة التي قام بها علي جودت وزير الخارجية الى السعودية في شهر حزيران ١٩٣٩.

اخذ الملك الصغير الى لبنان لتمضية ايام الصيف فيها، وهناك حياه المتحمسون من ابناء القرى على قارعة الطريق، وهتفوا باسمه ملكا على سوريا. اما في بغداد فقد عين سفير بريطاني جديد هو السربازل نيوتن، وهو شخص غير ملم بمشاكل الشرق الاوسط، خلفا للسفير باترسون، وذلك في شهر اذار ١٩٣٩ [٢].

كانت الحاجات المالية للدولة قد اصبحت الان خطيرة، بسبب تجاوز الصرف فيها. وتم سد النقص بمنحة من الاعتمادات تقدمت بها الحكومة البريطانية، وذلك لمواجهة الحاجات الملحة لسكك الحديد العراقية، ولتجهيز الجيش. وبهذه الوسيلة امكن توفير حوالي اربعة ملايين باون، بضمان عوائد النفط، ووضع فائدة معتدلة، وان يتم تسديد المبلغ المذكور في اقساط خلال سبع عشرة سنة. وفي الوقت ذاته، تم تقديم قرض مجاني مهم من لدن شركة النفط العراقية، مقابل تأجيل صادراتها، وفقا للامتياز الممنوح الى شركة استثمار النفط البريطانية، حيث اصبح هذا القرض قابلا للدفع على شكل اقساط نصف سنوية يبلغ الواحد منها نصف مليون باون كل ستة اشهر على ان يتم تسديده على مهل من العوائد.

كمل خط سكة الحديد من تل كوجك الى الموصل، بكلفة لم تكن متوقعة قبلا وبذلك اصبحت القطارات قادرة الان على ان تتحرك من الموصل الى اسطنبول. وكذلك كملت مشاريع سدة الكوت، وصدور نهر الغراف في اذار ١٩٣٩، وكان الافتتاح الرسمي لسدة الكوت اخر عمل قام به الملك غازي [٣] وهذه السدة التي لها ستة وخمسون بابا تدار بصفة

---

(٢) يذكر العقيد جير الددي غوري في كتابه «ثلاثة ملوك في بغداد»، ان السفير باترسون هو الذي اوكلت اليه مهمة التخلص من الملك غازي فادى هذه المهمة بكل نجاح حسب قوله.

(٣) جرى الاحتفال بافتتاح سدة الكوت من قبل الملك غازي في اليوم التاسع والعشرين من اذار سنة ١٩٣٩ والقى غازي بهذه المناسبة كلمة للحاضرين تحدث فيها عن المشاريع القادمة. ولقد ادعت شركة بلفوربتي الانكليزية انها خسرت في انشاء هذه=

الية، ولها مغالق ويبلغ عرضها ١٦١٥ قدما ولها مرقاة للسمك قد كلفت مليونا ومائتي الف باون، ومن شأنها ان تيسر التصريف التام للماء خلالها (غدت السدة عاجزة عن ذلك في الوقت الحاضر) وكانت جديرة بان تضمن السيطرة على ارواء ارض مساحتها مليون فدان.

كذلك تم انشاء ناظم ذي سبعة ابواب في نهاية فرع الكوفة خلال الفترة ١٩٣٩ - ١٩٤٠ على يد شركة بلفوربتي ايضا. اما السد الجديد المحسن الذي اقيم على نهر ديالى فقد بوشر به هو الاخر في سنة ١٩٣٩ ايضا وكمل في نهاية سنة ١٩٤٠. وتجدد الاهتمام بتنفيذ مشروع بحيرة الحبانية، وذلك بعد الفيضانات التي حدثت في نهر الفرات سنة ١٩٣٨، حيث عهد بانشائه في شهر حزيران ١٩٣٩ الى شركة بلفوربتي ذاتها بمبلغ سبعمائة الف باون للمرحلة الاولى منه، والتي تشتمل على فتح قناة الى البحيرة عند مدينة الرمادي والسيطرة على تدفق الماء من البحيرة الى منخفض «ابي دبس الواسع».

ازداد التشدد في انجاز امثال هذه الاعمال. فقد كمل احد الجسرين الحديدين في بغداد واللذين تعهدت بانشائهما «شركة هولواي اخوان»[٤] وكان هذا الجسر بناء له تأثيره، اذ كان طوله سبعمائة قدم، وعرضه خمسين قدما وسمي باسم «جسر المأمون» وتم افتتاحه في احتفال حضره عبد الاله. ومما يجدر ذكره في هذا الشأن ان رسوم العبور على الجسر كانت قد الغيت في كل انحاء البلاد. كذلك قارب مشروع ظل صامدا زمنا طويلا، من الانجاز، هو المصرف الحكومي الذي عرف باسم «مصرف الرافدين»، وشرع له قانون خاص به ولكن لم يتم افتتاحه بعد[٥] وقد حدد رأسماله الاول بمبلغ نصف مليون باون، شاركت الدولة بقسم منه.

كذلك توفرت نظرة معتدلة لمناهج الاعمال الرئيسة على يد رستم حيدر وزير المالية، حيث خصص له مبلغ احد عشر مليون دينار تصرف خلال اربع سنوات. وحدثت خسارة كبيرة آنذاك نتيجة الحريق الذي شب في اليوم السابع والعشرين من شهر اب في سوق العطارين[٦]

= السدة زهاء مليون دينار وطالبت الحكومة بدفعها ولكن الحكومة رفضت الادعاء وتمت تسوية القضية مع الشركة بدفع تعويض لها مقداره مائة الف دينار في سنة ١٩٤٣.

(٤) هو الجسر المعروف الان باسم جسر الشهداء الذي شيد في مكان الجسر الخشبي العائم القديم الذي انشأه الاتراك.

(٥) كانت المعاملات المالية الخاصة بالحكومة العراقية يقوم بها المصرف الشرقي الانكليزي بفائدة محددة له ولذلك قررت الحكومة انشاء مصرف الرافدين ليقوم بذات المهمة ومختلف الاعمال الصيرفية التي تقوم بها المصارف الاخرى.

(٦) ذكره المؤلف باسم سوق العطرية وقد وقع هذا الحادث في مساء اليوم الخامس عشر من شهر شباط سنة ١٩٥٠ وكان الحريق قد نشب في خان يقع بمحلة باب الاغا. وذكر ان احد اليهود هو الذي تعمد احداث الحريق للاستفادة من مبلغ الضمان الذي اعطي للخان من شركة التأمين وقد استمر الحريق ثلاث ساعات وادى الى وفاة ثلاثة من رجال الاطفاء.

ولم يتم اطفاء ذلك الحريق الا بعد بذل جهود كبيرة، وقد وقع اللوم في الحريق على عاتق اليهود كالمعتاد، كما تطلبت قلة الطلب على التمور وهبوط اسعارها خلال السنتين ١٩٣٥ و ١٩٣٩، الالحاح على تحقيق التجانس بين اعضاء مجلس التمور مما ادى الى استبداله طبقا للقانون بجمعية التمور التي انشئت في ١٩٣٩،وقد منحت هذه الجمعية اموالا وسلطات اوسع، فشمل ميدان عملها جنوبي العراق كله، وكل فروع زراعة النخيل، وتسويق التمور، وقد اختير «لويد» مديراً عاماً لها ذلك الرجل المقتدر الذي اشتغل في خدمة العراق بصفة مدير اداري وحاكم. وكان اول عمل أقدمت عليه الجمعية انها منحت شركة اندر وير، امتيازاً لمدة خمس سنوات باحتكار التمور المكبوسة وتصديرها.

• • •

ادى اندلاع الحرب في شهر ايلول ١٩٣٩ بصفة حتمية إلى فترة تمثلت بالخبل المالي والتجاري في بغداد: مصحوبا بوقف الائتمان، وبالهروع الى المصارف لسحب الودائع منها، والاقدام على شراء الاطعمة والمواد المنزلية بجنون، وبشكل شاذ في الاسعار. ولكن سرعان ماستعيدت الثقة، ولو ان عدم توفر وسائل المواصلات، والنقص الحاصل في الشحنات غدا يحس به، وعادت الاوضاع الاقتصادية الى احوالها الاعتيادية في الغالب.

وعلى الرغم من اعلان حالة الطوارئ، واصدار مرسوم لتنظيم الموارد الاقتصادية، والرقابة الحكومية الاسمية على الصادرات والاستيرادات، وانشاء مجلس التموين المركزي، فان التدخل في امور المتاجرة العراقية كان طفيفا في الواقع. ولم يحدث اي تعتيم او احتياطات من الغارات الجوية، ولم تظهر سوى دلائل طفيفة من قيود الحرب، عدا الرقابة التي فرضت على الصحافة والبريد. كذلك تم اعداد تصدير التمور اعدادا جيدا في ظل الاحتكار الجديد،حيث تقدمت الحكومة البريطانية بطلبات كبيرة لشراء الشعير العراقي تلك الطلبات التي انجزت بمنتهى الراحة.

اعلن رئيس الوزراء في اليوم الرابع من ايلول بان العراق سوف يحترم بنود التحالف البريطاني احتراما تاما، وطبقا لذلك فانه سوف يوفر كل التسهيلات والمساعدات التي اشترطتها المعاهدة. اما بشأن اعلان تعبئة الجيش العراقي، فلم يعرض اي شيء ما بشأنه. قطعت العلاقات الدبلوماسية مع المانيا، وتم احتجاز الالمان الموجودين في العراق، ووضع الحجز على اموالهم، وعهد الى المفوضية الافغانية بتمشية اعمالهم. وغادر الدكتور غروبا العراق، وامتزجت منظمته الدعائية بالمنظمة التي اتخذت من طهران مركزا لها. وتبودلت البرقيات في هذا الشأن بين عبد الاله وملك بريطانيا جورج السادس، وقدمت كل التأكيدات الى السفير البريطاني في بغداد عن حسن نوايا العراق، وتقبل التزاماته.

والحقيقة ان مفاهيم نوري السعيد وتفسيراته قد ذهبت الى ابعد من هذا المدى. فقد كان السعيد يتطلع الى ادخال تعديل على «ميثاق سعد اباد» يقوم الموقعون عليه باتخاذ عمل عسكري وسياسي مشترك، وان تنضم مصر ايضا الى ذلك الحلف. غير ان شيئا من هذه المشاريع لم يتحقق[٧]. استقبلت الحكومة العراقية بسرور بالغ، الاتفاق الانكلو فرنسي التركي المعقود في اليوم السابع عشر من شهر تشرين الاول ١٩٣٩، والذي هيأ الفرصة امام الاقدام على اتخاذ عمل عسكري مشترك «في حالة اذا ماأقدمت دولة اوربية»،قال الاتراك عنها بانها لاتشمل روسيا، «على جلب الحرب الى الشرق الاوسط».

واخيرا وعلى الرغم من الانعطافات الالمانية التي كان يجري التلفظ بها بين افراد الجيش العراقي، وعدد من رجال الدولة، والسخط العام العميق الذي اثارته مؤامرة فلسطين العربية، والامتناع عن تحرير سوريا، على الرغم من ذلك كله بقيت لهجة الحكومة العراقية طيلة هذه الاسابيع مؤيدة للحلفاء بصفة ودية. ولم يحدث وصول المفتي امين الحسيني الى بغداد في شهر تشرين الاول بصفته ضيفا مكرما لدى الحكومة العراقية، وليس ضيفا سياسيا كما تم التأكيد على ذلك، اية تأثيرات مضرة بصفة مباشرة.

كذلك لم يتغير الموقف ايضا بالتغيرات التي حدثت داخل الوزارة القائمة في اواسط تشرين الاول عندما عين عمر نظمي وزيرا للداخلية، وعلي جودت للخارجية، والرجل المتحمس لحركة الفتوة الدكتور سامي شوكت (شقيق ناجي شوكت) وصادق البصام للوزارتين اللتين استحدثتا انذاك وهما وزارتا الشؤون الاجتماعية، والاقتصاد، وعين جلال بابان لوزارة الاشغال، وحكم على المذيع العراقي في برلين يونس بحري بالاعدام غيابيا، ولكنه بقي في الواقع على قيد الحياة وازدهرت حياته لسنوات كثيرة قادمة.

---

(٧) كان نوري السعيد منذ ان امسك بناصية السياسة والحكم في العراق، يبتدع مشروعات وخططا لم يكن حتى دهاقنة الانكليز يفكرون فيها، او يقدمون على التحدث بها. فما كان نوري السعيد يفكر فيه عند اندلاع نيران الحرب العالمية الثانية هو ارسال كتيبة على الاقل من الجيش العراقي لكي تحارب الى جانب الحلفاء ضد دول المحور، كما فعل الصهاينة ذلك في حينه فارسلوا كتيبة من قواتهم شاركت في القتال الى جانب الحلفاء مما عزز من ثقة الحلفاء وعلى الاخص بريطانيا وامريكا وفرنسا، بالصهاينة، والاستجابة الى مطاليبهم، ومساعدتهم بعد انتهاء الحرب على تحقيق، ليس الوطن القومي اليهودي الذي وعدوا به خلال الحرب العالمية الاولى حسب، وانما انشاء دولة اسرائيل ركيزة الامبريالية في الوطن العربي والشرق الاوسط برمته، فاصبحت هذه الدولة المفتعلة، اداة فعالة في يد الامبريالية تحركها ضد اية حركة وطنية خالصة في الوطن العربي، وراحت بعد الهزائم المنكرة التي الحقتها بالحكومات العربية المتخاذلة المنصاعة لاوامر المستعمرين سواء في ذلك حرب سنة ١٩٤٨ ام حرب سنة ١٩٦٧، ام غزو لبنان وانهاء الوجود الفلسطيني فيه، الامر الذي عجل بضياع فلسطين الى الابد كما دلت عليه حوادث سنة ١٩٨٢ والسنوات التي اعقبتها، ولاسيما بعد ان حركت الامبريالية ايران تحت زعامة الخميني الى العدوان على العراق، وذلك للحيلولة دون تصدي العراق للمؤامرة الاستعمارية الصهيونية في تصفية المقاومة الفلسطينية، وطردها من لبنان نهائيا بتعاون حكومة دمشق في ذلك تعاونا مباشرا، وفرض الاحتلال الاسرائيلي على لبنان.

عقد اجتماع البرلمان في اليوم الاول من شهر تشرين الثاني، وتحرك مرة اخرى للضغط على بريطانيا، في سبيل تحقيق افضل حل لقضية العرب في فلسطين، وقام رئيس الوزراء بزيارة خاطفة الى القاهرة لاجراء المزيد من المحادثات حول ذات الغرض. ولم تقم اية اهمية مغايرة لوصول اول وزير ياباني مفوض الى بغداد، في شهر كانون الاول ١٩٣٩، وقد بدا بان مهمته تختص بتطوير التجارة ليس غير بين البلدين.

وبحلول سنة ١٩٤٠ بقيت الاوضاع السائدة في العراق من دون تغيير بصفة ثابتة. اما الانشقاق الذي حدث بين ساسة العراق بالنسبة الى تأييد دول المحور او معاداتها، فلم يكن قد ظهر بصفة جلية بعد، وذلك لانه لم تتم تهدئة خصوماتهم، حيث كان الجميع يراقبون التطورات في اوربا على حد سواء. على ان ائتلاف العناصر المعادية للبريطانيين، داخل كتلة عسكرية مدنية فعالة، جعلها تقرر بان تفسر معاهدة سنة ١٩٣٠ بانها تنادي بالتزام الحياد التام، واذا مااقتضت الحاجة، ان تقرر الانسحاب من جانب الحلفاء، والالتجاء الى دول المحور. على ان مثل هذا التطور لم يحصل الا بعد الانتصارات التي احرزها الالمان في اواسط سنة ١٩٤٠.، وسقوط فرنسا.

غير ان تأثير قضايا فلسطين وسوريا، وجهود المفتي التي لعبت دورا اكثر وضوحا في اثارة العواطف ضد البريطانيين، كانت من بين الوسائل التي جرى تحريكها واستعمالها خلال تلك السنة [٨] وكان الوكلاء الروس ودعاياتهم، تراقب كل ذلك وتدين الامبريالية في علاقات بريطانيا بالعراق.ء

اشيع بان ضربة عاتية مدمرة قد اصابت وزارة نوري السعيد في اليوم الثامن عشر من شهر كانون الثاني، تلك هي مقتل رستم حيدر وزير المالية بيد مفتش شرطة سابق متحمس للالمان [٩]

---

(٨) حاول نوري السعيد منذ ان ... امين الحسيني الى العراق، ان يتظاهر بانه يريد التقرب من دول المحور. وقد افضى بذلك فعلا الى امين الحسيني بحضور جميل مردم في شهر كانون الاول ١٩٤٠. ولكن المفتي لم يقبل بالتعاون مع نوري السعيد، لانه كان واثقا من ان نوري السعيد يسعى بزعمه هذا الى اكتشاف مدى تعاون المفتي مع المحور، تمهيدا للايقاع به، وابلاغ الانكليز بكل نشاطات المفتي (راجع مذكرات غروبا : رجال ومراكز قوى في بلاد الشرق : ترجمة اللواء فاروق الحريري ج ٢ ص ٣٧٠ - ٣٧١).

(٩) قتل رستم حيدر قبل ظهر اليوم الثامن عشر من كانون الثاني ١٩٤٠ اما القاتل فهو مفوض شرطة مفصول من الوظيفة ولم يعرف منه انه كان من المتحمسين للالمان كما ذكر المؤلف ذلك هذا. وقد سرت اشاعات في حينها بان بعض المسؤولين قد حرضوا القاتل على ارتكاب تلك الجريمة ولذلك اوقف وزيران سابقان هما صبيح نجيب وابراهيم كمال، واثنان من المحامين نجيب الراوي وشفيق نوري السعيدي، وموظفان مفصولان هما المحافظ السابق احمد عارف قفطان، ومدير الشرطة حسن فهمي وغيرهم ممن اتهمهم القاتل بانهم هم الذين حرضوه على موضوع القتل. وقد اظهرت الدلائل بان نوري السعيد كان وراء توجيه تهمة التحريض الى المذكورين (الحسني : الوزارات العراقية ج ٥ ص ١١٦).

كان رستم حيدر قد ادى خدمة طويلة الامد مكرسة ومشكورة، مثل اي رجل اخر، للبلد الذي اختار الاقامة فيه. ولقد تم الاحتفال بدفنه في تكريم الى جانب جعفر العسكري. اما القاتل ابراهيم حسين فوزي، فقد انكر التهمة اول الامر، لكنه مالبث ان غير افادته لكي يوجه الجريمة الى الشخصيات التي زعم بانها كانت معادية للوزير القتيل، وكان من بينها ابراهيم كمال الذي تولى وزارة المالية في وزارة جميل المدفعي، وصبيح نجيب وزير الدفاع، واثنين من المحامين البارزين، ومحافظ سابق ومدير شرطة عام.

ضعفت حكومة نوري السعيد بعد ان فقدت الهدوء والقدرة الفائقة الموثوقة التي تميز بها رستم حيدر، ولذلك تمزقت هذه الحكومة نتيجة انشقاق واسع حدث فيها، اذ ضغط الوزراء الشيعة في الوزارة على ضرورة تشكيل محكمة عرفية وتطبيق الصراحة التامة المذكورة في القانون، في حين ارتأى الاخرون باحالة القضية الى المحاكم الاعتيادية وتطبيق الاجراءات التجريبية الكاملة. واذ وجد نوري السعيد بانه اذا ماأخفق في الاستجابة الى ذلك الطلب القوي، فانه سوف يثير مشاعر الشيعة، وانه ان واجه الامر بالعزيمة فسوف يتهم بتعقبه اثر العداوات الشخصية تحت شعار تلك الجريمة، ولذلك اقدم، وهو في غمرة تلك المعضلة، على تقديم استقالته في اليوم الثامن عشر من شباط سنة ١٩٤٠ [١٠].

كان الخلف المتوقع، على نطاق واسع، لنوري السعيد في رئاسة الوزارة هو رشيد عالي الكيلاني، رئيس الديوان الملكي منذ سنة ١٩٣٩، والذي لم يكن في هذه اللحظة قد شارك في تكوين سياسة العراق خلال الحرب.ولكن هذه اللحظة اثارت الشكوك في احتمال تدخل رؤساء الجيش في الامور السياسية مرة اخرى. طلبت الجماعة التي كان يتزعمها كل من حسين فوزي، وامين العمري الذي كان يعارض بصفة عامة كلا من نوري السعيد وطه الهاشمي، الى رشيد عالي بان يقبل بتأليف الوزارة، وفاتحت الوصي حول الاقتراح ذاته. غير ان فريقا اقوى منافسا لذلك هو فريق جماعة «المربع الذهبي» كان قد سمع بهذه المبادرة، ولذلك اجتمع هؤلاء فيما بينهم، واستفزوا نوري السعيد، وانذروا ماتحت ايديهم من قوات في معسكر الرشيد بان تتزود بسلاحها وتستعد للعمل، مثلما فعل ذلك منافسوهم في معسكر الوشاش.

استطاع نوري السعيد وطه الهاشمي الوصول ليلا الى الوصي الشاب الذي واجه الان اول

---

(١٠) يذكر صلاح الدين الصباغ في مذكراته ان نوري السعيد كان قد دعاه هو وفهمي سعيد، ومحمود سلمان وكامل شبيب وسعيد يحيى، واسماعيل نامق الى داره لتناول العشاء في مساء يوم ١٤ شباط ١٩٤٠، واعرب لهم عن رغبته في ضرورة تخلي وزارته عن الحكم، والذلك فقد اتفق مع طه على اسناد رئاسة الوزارة الى رشيد عالي الكيلاني، على ان يصبح هو (اي نوري) وزيرا للخارجية، ويبقى طه على رأس الجيش حيث هو. ولقد سأله فهمي ان كان جادا في قوله فاجاب نوري بالايجاب قال فهمي : ماهذا ياباشا انه امر لم يكن بالحسبان ولاندري ماذا تجيبك انت تعلم لماذا اسندت رئاسة الوزارة اليك وكيف تم ذلك؟ (صلاح الصباغ : فرسان العروبة في العراق ص ١٢٢).

ازمة من الازمات العديدة التي واجهته، ونصحاه بان يقدم على اتخاذ اجراء مباشر ضد رئيس اركان الجيش وتابعه. تخلى انذاك رشيد عالي عن محاولة تأليف الوزارة، ولذلك ادى الضغط الذي مارسه فريق العقداء الاربعة على نوري السعيد، والميل الذي اظهره عبد الاله، الى ان يعود نوري السعيد الى تولي رئاسة الوزارة مجددا في اليوم الحادي والعشرين من شباط ١٩٤٠ (١١) وعلى هذه الشاكلة مرت ازمة التدخل العسكري.ولقد رضي الضباط الاربعة الكبار لحظتئذ بما حدث، وتم طرد منافسيهم في القيادة العليا(١٢).

ولكن قضية مقتل رستم حيدر بقيت قائمة ولابد من مجابهتها. لم تختلف الوزارة الجديدة، ولاحيرة الجماهير فيما كان يجري عما كان عليه الامر في السابق، الا في تبادل الحقائب الوزارية بين سامي شوكت وصالح جبر وتعيين رؤوف البحراني وزيرا للمالية. كان خطاب التدشين الذي القاه نوري السعيد مصيبا لكنه كان تافها، ذلك لان اهتمام الوزراء والجماهير قد تركز حول قضية مقتل رستم حيدر التي احيلت الى محكمة عرفية. فقد ظهر بان القاتل كان مجرما عاديا فتم شنقه(١٣)، كما تم الحكم على صبيح نجيب بالسجن لمدة سنة بتهمة اثارة الكراهية ضد الحكومة، وربما طبق هذا الحكم ترضية للشيعة(١٤) في حين برئت ساحة المتهمين الاخرين لعدم توفر الادلة ضدهم.

لم يرض صالح جبر بقرارات المحكمة، فاستقال من الوزارة، ولم تكن استقالته تلك تؤلف الشاهد الوحيد حسب على التفكك الذي اصاب الوزارة، ولذلك لم يعد نوري السعيد الذي تعب ومرض من هذه القضية، ومن الضغط الذي انصب عليه من الرأي العام، ومن عصابة الجيش مرة اخرى بسبب سياسته التي اتهم فيها بانه ممالئ للبريطانيين، راغبا في التشبث بمنصب رئاسة الوزارة، ولذلك قدم استقالته مجددا في اليوم السابع عشر من اذار.

---

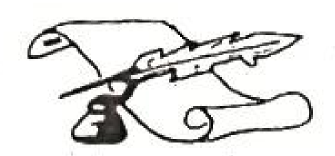
(١١) تلك هي وزارة نوري السعيد الخامسة التي ضمت نوري للرئاسة والخارجية وكالة، وعمر نظمي للداخلية والعدل وكالة، وطه الهاشمي للدفاع، وصادق البصام للاقتصاد، ومحمد امين زكي للمواصلات والاشغال، سامي شوكت للتربية، صالح جبر للشؤون الاجتماعية.

(١٢) هم كل من حسين فوزي وامين العمري، وعزيز ياملكي الذي احيلوا على التقاعد في ٢١ شباط.

(١٣) صدر قرار المحكمة باعدام قاتل رستم حيدر في يوم ٢٦ اذار ١٩٤٠ ونفذ فيه في فجر يوم الاربعاء ٢٧ اذار وكان نوري السعيد قد طلب الى طه الهاشمي بان يعجل في تنفيذ حكم الاعدام، ولذلك فلم يبلغ المحكوم بالاعدام الا قبل تنفيذه بدقائق. ونقلا عما اورده العقيد سعيد يحيى الخياط الذي ناب عن وزارة الدفاع في حضور عملية الاعدام كما طلب ذلك نوري السعيد بنفسه، فان المتهم هتف بحياة هتلر وبسقوط نوري السعيد الذي علمه الانحراف.

(١٤) راجت اشاعة في حينها بان رستم حيدر لم يوافق على تعيين صبيح نجيب وزيرا مفوضا للعراق في احدى العواصم، وعلى هذا اضمر صبيح نجيب العداء لرستم حيدر وراح يحرض على قتله. وقد كان لهذه الاشاعة قبولها بين رجال السياسة من الشيعة وتأثيرها فيهم. ولذلك اراد نوري السعيد باعلان الحكم بسجن صبيح نجيب لمدة سنة ترضية اولئك الرجال، لكنه، اي نوري، بعمله هذا يكون قد ثبت تهمة التحريض على صبيح نجيب.

لم يكن للتقلبات السياسية التي تجري في بغداد، كالعادة، اي تأثير كبير على الحوادث التي كانت تقع خارج غرف مجلس الوزراء. ذلك لان الحياة العشائرية بندر ان تعي الازمة الراهنة، بل ان تعي الحرب ذاتها في الواقع. فقد وقع قتال عنيف بين فريقين من قبيلة عنزة قيل عنه بانه كلفها مائتي قتيل. ولم تستمر العداوات التي انطلقت في اواخر سنة ١٩٣٩ بين العبيد وشمر، كما توفي عجيل الياور رئيس شمر القوي في سلطته، والمتصف بكل صفات المشيخة في اواخر ١٩٤٠ [١٥] وخلفه في المشيخة ولده «صفوق». وشهد شمال العراق حادثة حركت الرؤوس بين اليزيدية، وذلك حين هربت زوجة الامير سعيد شيخ اليزيدية، الشابة الى سوريا في موجة من السخط العارم. كذلك غادرت بغداد بعثة عسكرية من الضباط العراقيين الى اليمن تلبية لطلب من امام اليمن. كذلك كمل الجسر الثاني الحديدي الذي بنته شركة «هولواي اخوان»، وكان طوله تسعمائة قدم وقد سمي الان باسم جسر الملك فيصل الاول [١٦].



(١٥) وقعت هذه الحوادث عندما عبرت حشود من شمر، وعلى الاخص من فرع «الصايح» منها، نهر دجلة الى منطقة الحويجة المحاذية لكركوك والتي يكاد العبيد ينفردون بسكناها وزراعتها منذ ازمان قديمة بل ان المنطقة عرفت باسم «حويجة العبيد» منذ العهد العثماني.

(١٦) كان هذا الجسر قبلا مؤلفا من قوارب على غرار الجسر القديم، وقد بناه الانكليز بعد دخولهم بغداد سنة ١٩١٧ واطلقوا عليه اسم «جسر مود» تخليدا لذكرى الجنرال ستانلي مود فاتح بغداد.

٤ ، الكيلاني والهاشمي

كانت النصيحة التي ازجاها رشيد عالي الكيلاني رئيس الديوان الملكي الى الوصي تنطوي على ان يعود الوصي ، ان استطاع الى تأليف وزارة من كل الاحزاب ، وتكون قادرة على توحيد الولاءات ، وتجنب ضغط الجيش ، وعلى اساس ذلك عقد اجتماع في القصر حضره كل رؤساء الوزارات السابقين ، نوري السعيد ، والاخوان السويديان ناجي وتوفيق ، وناجي شوكت ، وجميل المدفعي وعلي جودت الايوبي . وقدم هؤلاء كلهم الى عبد الاله ، وعودهم بمساندة اية وزارة قد يتم تعيينها . ولقد اقترح نوري السعيد تعيين رشيد عالي رئيس الديوان الملكي ، الامر الذي وافق الوصي عليه وعلى هذه الشاكلة تألفت اول وزارة خلال اربع سنوات ، تتولى الحكم من دون ضغط من جانب الجيش ، وكانت هذه الوزارة تعلق امالا كثيرة على الاستقرار ، والتي اعلن رئيس الوزراء الجديد عن تأليفها في اليوم الحادي والثلاثين من شهر اذار سنة ١٩٤٠ ، تضم ناجي شوكت لوزارة العدل ، وناجي السويدي للمالية ، ونوري السعيد للخارجية ، وطه الهاشمي للدفاع ، وعمر نظمي للمواصلات والاشغال ، ومحمد امين زكي للاقتصاد ، وصادق البصام للشؤون الاجتماعية ورؤوف البحراني للتربية ، واحتفظ رشيد عالي بمنصب وزير الداخلية في يديه .

بدا وكأن تعيين نوري وطه سوف يدعم استمرار الوزارة ، وان هذا التشكيل يشير الى قيام جبهة موحدة لحكومة ائتلاف وطني ، كما زعم ذلك عنها . كذلك اعلن المنهاج الوزاري موقفا ينطوي على الصحة التامة ازاء التحالف مع بريطانيا . وكانت الاوضاع خلال ١٩٤٠ ، على حدة من الامور السياسية والموقف ازاء الحرب ، قد بدت وكأنها غدت مضمونة ويمكن تحملها حين كان يؤمل ذلك .

تم اطلاق سراح عدد من المتهمين الذين حكمت عليهم المحاكم العرفية في عهد الوزارات السابقة ، وانهيت حالة الطوارئ في معسكر الرشيد منذ شهر اذار ١٩٣٩ ، وصدر العفو عن صبيح نجيب واطلق سراحه . وما لبثت هذه الوزارة التي اطلقت عليها بعض الاوساط اسم الوزارة

الكيلانية ، ان اعلنت الحرب على انحطاط الاخلاق ، اذ اغلقت اماكن اللهو الشريرة ، والخمور ، واجرت التحسينات في ابنية الاوقاف بكل مباهاة ، ووضع حجر الاساس لتشييد مسجد فيصل[1] ، وفرضت الرقابة ضد الافطار العلني في شهر رمضان ، بصفة مشددة ، فاغلقت كل المطاعم اثناء النهار . كذلك كمل القسم الممتد من سكة الحديد بين بيجي والموصل ، فاصبح بنفقه الطويل في النهاية ، يسمح بالسفر المباشر بين بغداد واسطنبول ، وان كانت القاطرات المتوفرة للعمل في هذا الخط نادرة جدا . كذلك كان العمل يسير في مستودع الحبانية قدما .

وعاد انتاج النفط الى مستواه الاعتيادي بعد فترة التوقف التي استمرت طيلة شهر ايلول سنة ١٩٣٩ ، وبقي خطا انابيب النفط يعملان الى ان تم وقف ضخ النفط في خط طرابلس في تموز سنة ١٩٤٠ ، داخل الاراضي التي تحتلها حكومة «فيشي» . وازداد الاقبال كثيرا على زراعة القطن فتم انتاج خمس وعشرين الف بالة منه ، وتحقق مشروع احتكار الحكومة للتبوغ ، الامر الذي اثار حزن الكثيرين من زارعي التبوغ من الاكراد الذين عطلت حريتهم في التصرف بتلك التبوغ ، وجرى تشجيع الزراعة في كل مكان باخذ النظر الى الاكتفاء الذاتي القومي الكامل ، وان كانت الفيضانات الخطيرة التي حدثت في فصل الربيع ، قد اخذت تذكر بوجوب اتخاذ الحيطة والحذر .

اخذت الحياة التجارية والصناعية تتلهف لتضمن مستواها الاعتيادي بل وحتى التفوق عليه . فقد انشئت جمعية تعاونية طموحة لانتاج المعلبات . وكان المصرف الزراعي منهمكا في تقديم القروض الى المزارعين ، وبيع الالات الزراعية وخدمتها ، في الوقت الذي قدم فيه المصرف النقود الى محلج القطن الجديد في الوزيرية ، وحصل على حصص له في شركة السمنت ، وساعد في مشروع انتاج الزيوت النباتية ، كما سار العمل قدما في بناية الهاتف الذاتي في بغداد .

كانت ميزانية سنة ١٩٤٠ - ١٩٤١ التي خصصت الثلث من كل الايرادات للجيش ، قد وجدت متسعا لها للعمل في اكمال مشاريع ابي غريب ، والحويجة ، وسد ديالى ، وتحسين النهر في الشامية ، وبناء السدود حول بغداد . وكان الائتمان الذي تسمح به المصارف والصيارفة يجري تمديده او تحديده وفقا لانباء الحرب ، في حين كانت الاسعار في الاسواق ترتفع وتهبط ، ورقابة الحكومة على الميدان الاقتصادي غير مطبقة ، بل كانت في الواقع تافهة الى درجة كبيرة . لقد كان النقص الحاصل في الشحن ووسائل النقل ، عائقا خطيرا امام تجارة التصدير سواء اتم

(١) هو الجامع المعروف الان باسم جامع ١٤ رمضان والذي لم يكمل بناؤه الا في سنة ١٩٦٩ .

نقلها بحرا ام بالطرق البرية . ولقد قامت بعثة تركية بزيارة مدينة البصرة على امل ان تحقق فتح بوابة جنوبية يمكن الدخول منها الى بلاد تركيا . كذلك كان فقدان الفرنسيين لشراء الاصواف من الامور التي يحس بها احساسا شديدا ، في الوقت الذي بدت فيه المتاجرة مع اليابان ، على النقيض من ذلك ، تطرد في تطورها السريع .

راحت وزارة الشؤون الاجتماعية التي اوحى اليها الدكتور سامي شوكت ، بالخطوط الاساسية لفلسفة المحور ، تضغط بشدة لتحقيق مستوى اعلى في نسبة الولادات ، وتضع التشريعات التي تشجع المهور الواطئة ، والزواج المبكر في ذات الوقت الذي راحت فيه تلح على تحقيق تطور اكمل لنقابات العمال . كما انها قامت للمرة الاولى ، بتنفيذ قانون حصر بعض الحرف بالعراقيين لوحدهم ، كذلك تقدمت بلائحة قانون يجبر الاقطاعيين في مناطق متلاصقة على بناء اكواخ للمزارعين العاملين لديهم . وقامت دائرة الاثار القديمة التي تولى «سيتون لويد» منصب المستشار فيها منذ سنة ١٩٣٩ باجراء التنقيبات في سامراء ، وفي جبل سنجار سنة ١٩٣٩ ، وفي موقع مدينة واسط خلال الفترة ١٩٣٩ – ١٩٤١ ، وعادت احدى البعثات الالمانية الى التنقيب في موقع الوركاء ايضا في سنة ١٩٣٩ .

وبالنسبة الى الحركة السياسية فانها كانت منذ اوائل صيف ١٩٤٠ ومابعده ، في حالة من الشك في القرارات وفي الوحدة المزعومة ، الى الانقسام الواضح في المواقف . وما ان هيأ خمود الحرب مجالا لسلسلة من الانتصارات الالمانية وما اعقب ذلك من سقوط فرنسا ، ودخول الحلفاء الى ايطاليا ، فان كثيرا من العراقيين لم يعودا يرون في الانضمام الى بريطانيا ، شيئا سوى الاستنكار الذاتي للفريق الخاسر في الحرب .

رأى زعماء الجيش ، بالجبلة التي طبعوا عليها ، وبالدعايات التي هضموها ، انه لم يعد هناك مجال للتردد . فقد كانوا يجدون في كل ضغينة قديمة ضد الانكليز دعماً جديدا للمنطق الذي يجادلون به وللمصلحة القومية ايضا ، ولذلك اعترفت معظم التقلبات السياسية او النحسة او القلقة ، بقيمة الانضمام بصفة ضمنية الى جانب المنتصرين المتوقع انتصارهم . وكان فشل الجهود التي بذلت اخيرا خلال صيف ١٩٤٠ للحصول من البريطانيين على بعض التأكيدات عن مستقبل فلسطين ، او بعض الميل المأمول نحو تحرير سوريا ، كل ذلك قد تم استغلاله من قبل المفتي امين الحسيني وكثير من اصدقائه . ولقد تم تكريم الوزراء السوريين الذين زاروا بغداد في اواخر السنة ، وهم كل من جميل مردم ، وسعد الله الجابري ، ولطفي الحفار ، بحماسة منقطعة النظير باعتبارهم شركاء في النضال ضد الامبريالية .

قطعت العلاقات الدبلوماسية مع الدانمارك في الوقت الذي كان يجب ان تقطع فيه ، بعد ان اجتاح هتلر تلك البلاد . اما العلاقات مع ايطاليا التي اصبحت مفوضيتها في بغداد مركزاً لنشاط المحور ، فلم تقطع عندما دخل موسوليني الحرب في اليوم العاشر من شهر حزيران ، ولذلك

ذهبت اعتراضات السفير البريطاني واحتجاجاته سدى على عدم قطع العلاقات مع ايطاليا ، واطلق سراح الايطاليين القلائل الذين تم احتجازهم فعادوا الى بلادهم . ولما اخفق نوري السعيد في ان يحمل الوزارة معه في هذه القضية ، وفي قضايا اخرى مماثلة ، فقد استقال احد الوزراء وهو محمد امين زكي [٢] .

انتقلت لهجة الصحافة من الحياد المطلق الى التأييد المكشوف لدول المحور . وبدلا من ان يكبح رئيس الوزراء جماحها فانه اخذ يشجعها . وفي نهاية السنة وجدت بريطانيا ان هناك صعوبة بل الواقع ان من المستحيل تزويد الجيش العراقي بالسلاح ، كما ادى ترددها في توفير الدولارات لحليف لها بقصد شراء السلاح ، الى انفجار السخط العنيف لدى الموظفين العراقيين ورجال الجيش ، والى سفر بعثة المشتريات العراقية الى الولايات المتحدة الامريكية .

ساعدت الزيارة المشتركة التي قام بها كل من نوري السعيد وناجي شوكت الى انقرة في اواخر شهر حزيران على ان يفضي نوري السعيد ، عند عودته ، بانباء تفيد بان الاتراك قد نصحوه بضرورة التضامن مع بريطانيا . ومهما يكن الامر فان ناجي شوكت الذي كان الان يتزعم الجناح المناهض للبريطانيين في الوزارة ، كان ابعد من ان يتقبل مثل هذه النصيحة في النهاية . ولقد مكث مدة اطول في العاصمة التركية ، وزار اسطنبول ، واستقبل من قبل السفير الالماني فون بابن نفسه ، وليس هناك شك في ان الدافع لذلك اللقاء بينهما انما كان ينطوي على التساؤل عن موقف الالمان من العالم العربي في حالة انتصار دول المحور . وكانت نتيجة هذه المحادثات صدور بيان الماني يتضمن العطف تجاه العرب ، وذلك في اليوم الثالث والعشرين من شهر تشرين الاول ١٩٤٠ ، حيث كرر نشر ذلك البيان ، واعيد ، في الوقت ذاته ، فتح الاتصالات البرقية بين بغداد وكل من روما وبرلين بصفة ملحوظة .

وبانتهاء سنة ١٩٤٠ غدا الانقسام الظاهر لدى الرأي العام العراقي ، وفي داخل الوزارة ذاتها ، واضحا تماما للجميع . فالفريق الذي يضم نوري السعيد وجميل المدفعي وغيرهما من المدافعين عن نظرية الالتزام بالمعاهدة ، قد فقد الارضية التي يقف فوقها ، في حين غدا الفريق الذي يضم ناجي شوكت وقادة الجيش والصحافة في حالة تصاعد . ولم يلبث ناجي شوكت ان قام بزيارة انقرة مرة اخرى في شهر ايلول سنة ١٩٤٠ ، ومكث هناك بضعة اسابيع لاسباب صحية .

---

(٢) نعتقد ان استقالة امين زكي كانت بتحريض من نوري السعيد لان وجهة نظر امين زكي في مماشاة بريطانيا مشابهة لنظرة السعيد نفسه وبالفعل فان استقالة امين زكي قد مهدت السبيل الى تفكك الانسجام الوزاري في وزارة رشيد عالي حيث ظهر ذلك التفكك بارزا بعد ان تطورت الامور واستقال ناجي شوكت ونوري السعيد من منصبيهما واحدث ذلك ازمة شديدة للوزارة الكيلانية .

غدت المفوضية الايطالية في بغداد ، والتي لم يعد مستطاعا احتمال وجودها ، تتمتع بالشهرة . ويبدو ان الوقت قد اخذ يقترب حين تبدأ الجهود المبذولة عملها لايجاد قاعدة تفصيلية للتعاون مع الالمان .

مايزال رئيس الوزراء قلقاً بشأن الاحتفاظ بموطئ قدم له ، سواء في اي من المعسكرين ، او الدخول في علاقات وثيقة من العطف ووضع سياسة مع المحور ، وان وضعه لابد ان يجدد له الى حد ما ، زعامة ذلك الوضع ، لكنه جوبه باستياء مكشوف من لدن الحكومة البريطانية نتيجة قصر نظره باعتباره حليفا ، اكثر من قطعه العلاقات مع المانيا ، ولذلك اخذ يواصل الاعراب عن اخلاصه لتمسك العراق بالالتزامات التي تفرضها المعاهدة ، والتألم من الشكوك غير المحققة التي ابداها كل من السر بازل نيوتن ، والسيد انطوني ايدن ، ولذلك فانه كان في الواقع ابعد رغبة في ذلك الوقت من ان يثير ازمة مع بريطانيا .

مالبث نوري السعيد الذي هدد بالاستقالة من الوزارة ، ان ضبط اعصابه لحظتئذ ، نتيجة خوفه الذي شاطره فيه الوصي ، من ان غيابه عن الحكم سوف يبقي المؤثرات السيئة قائمة . نقلت تلميحة من الوصي الى نوري السعيد بان استقالته كان مرغوبا فيها ، لكن تلك التلميحة امكن الرد عليها بالزيارة التي قام بها للقصر ثلاثة من اعضاء الوزارة هم طه الهاشمي ، وناجي السويدي ، ورشيد عالي نفسه [٣] للاحتجاج بشكل صائب تماما بانه لايحق للملك في العراق على الاقل ، ان يطرد وزراءه اذا ما حدث ذلك بطلب من دولة اجنبية . وعلى هذا رفض رشيد عالي ان يستقيل ، في الوقت الذي امتنع فيه الوصي عن الدوام في البلاط وتوقيع الاوراق الرسمية .

اشتملت المحادثات الاخرى في القصر على اقتراح بان يبقى رشيد عالي رئيساً للوزارة ، وحينذاك يمكن تحقيق الوحدة بين اعضاء الوزارة ، باستقالة كل من نوري السعيد وناجي شوكت في آن واحد . وما ان اقتنع نوري السعيد بهذا الرأي حتى استقال من منصبه في اليوم الحادي والعشرين من شهر كانون الثاني سنة ١٩٤١ ، في حين استقال ناجي شوكت بعد اربعة ايام من ذلك التأريخ ، وقد استعيض عنهما بكل من السيد علي محمود الشيخ علي المحامي ، والقومي المتطرف ، يونس السبعاوي ، وهو شاب «مصلاوي» سياسي وصحفي .

غير ان قلق الوصي كان قد تعاظم في الوقت ذاته . فقد اظهر رشيد عالي ثقة عالية ، تقوم على اساس علاقاته الوثيقة الدائمة مع قادة الجيش ، وقد غدا واضحا بانه لامهرب من مجابهة الحالة . وفي السادس والعشرين من شهر كانون الثاني قررت اغلبية الوزراء ، على الرغم من

---

(٣) جاءت مقابلة هؤلاء لعبد الاله بعد الاجتماع الذي عقدته هيأة الوزارة بكاملها في البلاط بحضور الوصي وذلك في اليوم السابع عشر من كانون الاول سنة ١٩٤٠ .

معارضة رئيس الوزراء ، ان تتجنب الازمة ، وذلك بان يستقيل الاعضاء الباقون فيها وبهذه الطريقة تنحل الوزارة . تم اعداد صيغة الاستقالة ، ولكن الفريق محمود سلمان ، واجه الوصي نيابة عن العقداء الاربعة ، واكد له علانية بان الجيش قرر مساندة حكومة الكيلاني وصيانتها ، ونوه بالالم الذي سوف يحدثه العمل العسكري المباشر الذي هدد به حالا . وافق الوصي الذي كانت تعوزه القوة ، على ان يرفض استقالات الوزراء ، وان يملأ المناصب الشاغرة في الوزارة لكي تبقى حية .

في الثامن والعشرين من كانون الثاني صدرت ارادة ملكية بتعيين كل من المحامي والنائب محمد علي محمود ، والثري الرحالة والموظف السابق في السلك الخارجي موسى الشابندر ، في منصبين وزاريين . ومع كل ذلك فقد عانت وزارة الكيلاني ثلاثة ايام اخر من الاضطراب . ذلك لان لهجة مجلس النواب الذي انعقد في اليوم الثلاثين من الشهر ذاته ، كانت شديدة في النقد الذي وجه الى رئيس الوزراء ، ولذلك طلب الكيلاني الى الوصي بان يصدر ارادة ملكية بحل مجلس النواب . اما عبد الاله فانه ، لكي يكسب الوقت ، ويهرب من الاكراه الذي فرضه الجيش عليه ، غادر بغداد الى الديوانية وسكن هناك مع آمر الفرقة الرابعة المخلص ابراهيم الراوي .

اثارت هذه الحركة رشيد عالي الذي بعث باستقالته من رئاسة الوزارة برقيا وبعبارات يطغي عليها نفاد البصر ، الى الوصي في الديوانية ، واذ ذاك استدعى الوصي اكبر رجال الدولة سنا لكي يقدموا اليه في الديوانية[4] وقد علم من هؤلاء، بان البديل المفتوح امام ذلك ، اما قيام حرب اهلية ، او تأليف وزارة جديدة برئاسة طه الهاشمي الذي يقبل به اعضاء المربع الذهبي بدلا من الكيلاني،وبذلك صدرت الارادة الملكية بتأليف الوزارة الجديدة في اليوم الاول من شهر شباط سنة ١٩٤١ حيث عاد عبد الاله الى بغداد بعد ثلاثة ايام من ذلك التأريخ ، واصبح واضحا الآن بان كل شيء يعتمد على اخلاص رؤساء الجيش لطه الهاشمي ، وعلى سلطته التي يستطيع بها ان يسيطر عليهم .

---

(٤) كان من بين هؤلاء، محمد الصدر رئيس مجلس الاعيان ، وطه الهاشمي ، وناجي السويدي ، وجميل المدفعي ، وعلي جودت وصادق البصام . ولكن بعد ان اجتمع هؤلاء ومعهم مولود مخلص رئيس مجلس النواب في دار السيد محمد الصدر تقرر ان يذهب محمد الصدر وطه الهاشمي وصادق البصام الى الديوانية لمقابلة الوصي ، حيث استقل الثلاثة طائرة من القوة الجوية الى الديوانية ، حيث اختلى الوصي مع محمد الصدر برهة من الزمن ، ثم استدعى طه الهاشمي بحضور محمد الصدر وكلفه بتأليف الوزارة . ويذكر صلاح الدين الصباغ في مذكراته ان طه الهاشمي قد اجتمع بالقادة الاربعة وذكر لهم بان الوصي قد يكلفه بتأليف الوزارة وانه سيقبل بها ان ايده العقداء على شرط ان تسير الوزارة ضمن حدود المعاهدة كما طلب الصباغ ذلك، فوافقهم على هذا الشرط (الصباغ ص ٢٠٣) .

وضع رئيس الوزراء الجديد منصب وزير الدفاع في يديه ، واعطى وزارتي الداخلية والعدل الى عمر نظمي ، ووزارة المالية الى المالي المقتدر ممتاز الدفتري ، والاقتصاد الى السيد عبد المهدي ، والتربية الى صادق البصام ، والشؤون الاجتماعية الى القومي الشهير وملاك الاراضي حمدي الباجة جي ، في حين عهد بمنصب وزير الخارجية الى توفيق السويدي . وخلال الزيارة التي حدثت مؤخرا بالتوجه الى القاهرة في اواخر شباط لمقابلة انطوني ايدن ، والتي قد يسمح الوقت للوزارة بانجازها[٥] ، تلقت الوزارة نفحة اخرى من المشاعر المؤيدة للبريطانيين كانت قد دارت قبلا لدى بعض الوزراء ، ولدى البلاط ايضا . كذلك قدمت نصيحة في هذا المعنى من قبل الوزير الامريكي المفوض في بغداد السيد بول نابنشو ، ومن مبعوث الرئيس الامريكي العقيد دونوفان الذي كان يزور العراق آنذاك .

استقبلت الوزارة استقبالا حسنا من لدن البرلمان ، وظفرت بشيء من الشعبية ، نتيجة الزيادة التي اجرتها في مرتبات الموظفين ، واقدامها بصفة مقبولة ، على انجاز اعمال الاغاثة والانقاذ التي اقتضتها الفيضانات المدمرة التي حطمت سكك الحديد والاراضي الزراعية . ولذلك شعرت الوزارة بالقوة على ان ترفض الطلب الذي تقدم به رشيد عالي الكيلاني وعصابته المؤلفة من رفاقه ناجي شوكت ، وعلي محمود الشيخ علي ، ويونس السبعاوي ، وداود السعدي في السماح لهم بتأليف حزب سياسي باسم (حزب الشعب)[٦] ..

على ان مهمة مصالحة قادة الجيش حيث تقوم مجموعة رشيد عالي من الساسة المتلهفين للحكم والمتشددين ضد الوصي ، رغم ما كان يحيط بالوصي من النصحاء المعتدلين ، اصبحت مصالحة قادة الجيش مهمة مستحيلة وذلك لان رئيس الوزراء لم يستطع ، او انه لم يكن يرغب ان يقرر سياسة محددة في اي من هذين الاتجاهين . اما اعضاء المربع الذهبي الذي سبق لهم ان تخلوا عن ولائهم لنوري ، فانهم قد تخلوا عن هذا الولاء لطه الهاشمي تماما ، وزاد تقربهم من فئة رشيد عالي ، وذلك لانهم قد اخذوا يشعرون بان مركزهم غدا مهددا ، وان الضربة الاولى التي

---

(٥) اراد السفير البريطاني في بغداد ان يطير طه الهاشمي نفسه الى القاهرة لمقابلة انطوني ايدن اثناء وجوده في القاهرة . ولكن طه اعتذر بكثرة الاشغال فتقرر ارسال توفيق السويدي وزير الخارجية لهذا الغرض حيث غادر بغداد في اليوم السادس من شباط ١٩٤١ ويذكر السويدي في مذكراته بان النقاط التي عرضها على انطوني ايدن اثناء اجتماعه به تناولت مسألة تزويد الجيش باسلحة عصرية واجراء تسهيلات في دفع اثمان هذه الاسلحة ومد الحكومة العراقية ببعض القروض المالية ، وقبول ضباط عراقيين في المؤسسات العسكرية البريطانية. وكانت مطالب ايدن تتركز في قطع العلاقات مع ايطاليا والسماح للقوات البريطانية بالتحشد في العراق ، واقصاء العقداء الاربعة واتباعهم ، او تشتيت شملهم على الاقل. ومن هنا نرى ان حركة نقل كامل شبيب الى "الديوانية قد جاءت بناء على الرغبة التي ابداها ايدن .

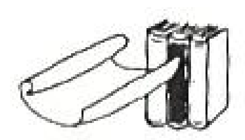
(٦) قدم هؤلاء السادة طلبهم بتأليف الحزب المذكور الى وزارة الداخلية في يوم ٢٧ آذار ١٩٤٠ ولم يحصلوا على جواب طيلة بقاء وزارة طه الهاشمي في الحكم .

تنقلوها قد ادت الى الخوف الذي حدث في اليوم السادس والعشرين من شهر آذار ١٩٤١ حين تم نقل احدهم ، كامل شبيب ، بعيدا عن بغداد .

كان لابد من اجراء تنقلات اخرى تعقب ذلك ، وان تتطور حملة الوصي لتحطيم المربع الذهبي . على ان اعضاء المربع سرعان ماتجاهلوا امر نقل زميلهم ، ولم يكن لدى طه الهاشمي من القوة على تنفيذ ذلك الامر ، وكان الوعد النادر الذي صدر من القادة في آخر يوم من جلسة البرلمان في الحادي والثلاثين من آذار هو انهم قد «اقسموا ، بشرفهم العسكري ، بانهم سوف يتخلون عن التدخل في السياسة» ولكن ذلك الوعد كان عديم القيمة بكل جلاء .

وفي ليلة اليوم الاول من شهر نيسان ، اجتمع القادة الاربعة مع امين زكي سليمان نائب رئيس اركان الجيش ، لاعلان حالة الطوارئ في معسكر الرشيد ، وتحريك قوات الجيش الى نقاط معينة حول بغداد وحول القصر ايضا . كذلك قام احد المتحدثين باسمهم [٧] بزيارة طه الهاشمي ليلا ، وطلب اليه ان يقدم استقالته وانبأه بان وزارته يجب ان لاتبقى سوى يوم واحد ، ومع ذلك فان الحوادث التي وقعت بعد ذلك قد جرفت الوزارة جانبا . فلقد هرب الوصي من قصره ليلة الاول من نيسان ، والتجأ الى الوزير الامريكي المفوض نابنشو فمكث لديه بضع ساعات حيث نقله هذا الى الحبانية ، وقد التقى الوصي بضع دقائق مع السركنهان كورنواليس ، الذي وصل الى هناك في مثل هذه اللحظات الحرجة ليتولى منصب السفير البريطاني في بغداد ، ومن الحبانية تم نقل الوصي جوا الى البصرة .

كانت الامال معقودة على امكانية ايجاد قاعدة قوية للمساندة في ميناء البصرة ، ولهذا السبب اصدر الوصي بيانا يدعو فيه الى تلك المساندة ، غير ان حامية البصرة التي بدا عليها التردد في اول الامر ، مالبثت بعد ذلك ان تلقت اوامر من بغداد «باحتجاز الوصي واعتقاله ، واستبدال محافظ البصرة صالح جبر الذي استقبل الوصي بكل اخلاص ، ولهذا اضطر الوصي في سبيل تحقيق سلامته ، ان يلجأ الى احدى البوارج البحرية البريطانية التي كانت تقف في نهر شط العرب ، ومن ثم تم نقله جوا ومعه علي جودت وجميل المدفعي الى عمان» .



---

(٧) هو المرحوم العقيد فهمي سعيد وقد صحبه في زيارة الهاشمي امين زكي وكيل اركان الجيش .

(٨) انظر تفاصيل هرب الوصي الى الحبانية في مذكرات ستدرسن ص ٢٦٦ وما بعدها الطبعة الثانية ١٩٨٢ .

٥ ـ حرب الثلاثين يوما
ثورة ايار الوطنية ١٩٤١

فرض المربع العسكري وقواته، السيطرة على بغداد. وما ان سيطر القادة على ذلك تماما حتى اعلنوا عن تأليف «حكومة الدفاع الوطني» التي تجسدت في مجلس، يضم القادة الاربعة ورئيس اركان الجيش. وكان رشيد عالي هو الرئيس الاسمي لذلك المجلس يصحبه فيه اثنان من اتباعه المقربين اليه. وفي اليوم الثالث من نيسان اصدر الفريق امين زكي بيانا معاديا بعباراته القوية جدا للوصي، وبتوجيه اذاعة تطالب بالدعم الجماعي للحكومة، واعقبه بعد ذلك رشيد عالي ببيان آخر برر فيه وضعه ووضع الجيش، وبين فيه بان سياسته سوف تكون احدى السياسات التي ترمي الى «عدم توريط البلاد في اخطار الحرب والقيام باداء رسالتها القومية، والمحافظة على تعهداتها الدولية».

كان تشريع نظام الحكم الجديد اقل يسرا. فقد تمت دعوة البرلمان للانعقاد بدعوة وجهها نائب رئيس البرلمان السيد علوان الياسري، وكان هذا الاجراء يمثل خطوة غير قانونية، وذلك لان عقد اجتماع البرلمان، يتطلب - وفقا للدستور - صدور ارادة ملكية بتوجيه مثل تلك الدعوة. على ان رشيد عالي استطاع، في الاجتماع الذي عقده مجلس النواب في اليوم العاشر من نيسان، ان يضمن اصوات الخائفين من النواب (وكثير منهم معروفون بولائهم للوصي في الواقع)، وان يعزل عبد الاله عن الوصاية ويعين مكانه رجلا كبير السن ذا قرابة ضعيفة، لكنها محترمة، بالعائلة الهاشمية هو الامير «شرف»[1]، واذ ذاك اقسم رئيس الوزراء اليمين بان يراعي الدستور، في حين اقسم الوصي الجديد يمينه هو الاخر، وبذلك اعلن النظام الذي تم تشكيله بانه غدا الان هو النظام الدستوري والشرعي.

---

(١) هو الشريف شرف. وكان الشيخ محمد حسن حيدر هو الذي وجه الدعوة الى اعضاء المجلس بالاجتماع وترأس الجلسة السيد علوان الياسري.

قبل الشريف شرف استقالة وزارة طه الهاشمي التي لم يتجاوز عمرها ثلاثة ايام، ومن ثم دعا رشيد عالي بصفة رسمية الى تأليف الوزارة الجديدة حيث خصص منصب وزير المالية الى ناجي السويدي، والدفاع الى ناجي شوكت، والعدل الى علي محمود الشيخ علي، والخارجية الى موسى الشابندر، والاقتصاد الى يونس السبعاوي، والتربية الى الدكتور محمد حسن سلمان، ولم يخفق رئيس الوزراء في ان يعلن، في تقليد شديد لرؤساء الوزارات الذين يتقلدون مقاليد الحكم، بان عصرا جديدا من الفضائل والبركات العامة قد بدأ الان. اما بالنظر الى الصفة الاعتيادية لوضعه. فقد اعترف الكيلاني، من دون شك، بان انقلابا عسكريا آخر، وعلى اسوأ حال، قد وقع، وان هذا الانقلاب امر داخلي محض. اما في نظر انصاره من حركة الشباب، وقسم من الجماهير المدنية، فان ما حدث هو انه قد تألفت في الاخير، حكومة قوية متحررة من الالتزامات المقيدة لها، وذات وطنية متأججة، وتحظى بدعم الجيش لها.

على ان القلق المستتر والغامض معا كان موجودا بين ابناء العشائر، ولذلك اخذ الحذرون المحافظون من رجال المدن، ومعظم الساسة القدامى، ينظرون بفزع الى الازدراء المطبق بحق البريطانيين. والتزام جانب الالمان والايطاليين، والى المشاركة في تهريب الوصي، والسيطرة الفضة الواهنة التي بسطها رجال الجيش، كذلك كان من الامور المهمة انذاك اطلاق سراح المذنبين الذين صدرت الاحكام ضدهم لاشتراكهم في قتل القنصل البريطاني في الموصل مونك ماسون.

على ان البارزين من رجال الدولة المخلصين للوصي وللمعاهدة البريطانية العراقية، ومن بينهم نوري السعيد، وداود الحيدري، ما لبثوا ان هربوا من بغداد، وانضموا الى عبد الاله وزملائهم الذين استقروا في فلسطين.

دخل السفير البريطاني الجديد الى بغداد في اليوم الرابع من نيسان من دون تحية من لدن الحكومة العراقية، ما عدا تحية امين العاصمة ارشد العمري. وقد بقي السفير مختفيا في سفارته: وهو يحاول بكل عناية بان يواجه نظام الحكم الجديد. والواقع انه لم يكن بين السفير ورشيد عالي من الناحية الشخصية، سوى القليل من الود، وفي الوقت ذاته راحت حكومة الكيلاني تمارس عملها في بغداد، التي سيطر الجيش عليها، واصابها الهلع بصفة اجتماعية، وحل بها الخمود من الناحية الاقتصادية. ذلك ان العقبات التي اصابت الصناعات زمن الحرب، وتوقف المعامل المرجوة عن مواصلة العمل، واستحالة استيراد الالات، ونقص وسائل النقل، كل هذه الامور قد اضافت عوامل مضادة واجهت الوزارة.

وان لم يكن القبول الذي قوبلت به الحكومة الجديدة في الخارج من صالحها، فقد اظهرت كل من تركيا والسعودية اسفها لانتهاج العراق سياسة مضادة لسياستها. اما في لندن، حيث لم تكن مثل هذه التطورات متوقعة الا قليلا، فقد كان القرار المباشر لبريطانيا هو ضمان السيطرة

جهد المستطاع، على البصرة وغيرها من مراكز العراق، وعلى وسائل المواصلات. ولهذه الغاية قدم تشرتشل طلباً مستعجلا الى حكومة الهند بان تهيئ القوات وتقوم بانزالها في البصرة، وطبقا لذلك تم تحويل وجهة لواء من الفرقة العاشرة الهندية، مع كتيبة مدفعية، وقوات مساعدة كانت على وشك الابحار الى منطقة الشرق الاقصى، وابحارها بدلا من ذلك من كراجي الى الخليج العربي في اليوم الثاني عشر من شهر نيسان تحت امرة اللواء «فريزر»، وقد وصلت هذه القوات الى البصرة في اليوم الثامن عشر من نيسان حيث انضم اليها، بعد ساعات قلائل، نصف فوج من المشاة البريطانيين، تم نقله بطائرات القوة الجوية البريطانية، كما يتم نقله جوا خلال اسبوعين الى قاعدة الحبانية.

اما كورنواليس الذي انذر من لندن في اليوم الثاني عشر من نيسان بشأن ارسال تلك القوات، فقد قام طبقا لذلك باعلام الحكومة العراقية بوصول تلك القوات، في اليوم السادس عشر. اصدر رشيد عالي اول الامر اوامره بمنح التسهيلات لنزول القوات البريطانية، لكنه ما لبث بعد ثلاثة ايام ان اعلن بان القوات التي نزلت، يجب ان تتحرك قدما عبر الاراضي العراقية الى منطقة الرطبة او وراءها، وان القوات التي تمر عبر العراق يجب ان لا يزيد مجموعها عن لواء واحد، وان تعطى تنبيهات سابقة بشأن وصول امثال هذه القوات، وفي الوقت ذاته، فانه لن يسمح بنزول المزيد من القوات الا بعد ان تكون القوات التي نزلت الان قد غادرت الاراضي العراقية. لم تكن مثل هذه القيود التعسفية غير الودية بكل وضوح، معروفة بالنسبة الى روحية المعاهدة الانكليزية العراقية او نصوصها. واوضح السفير البريطاني هذا الامر في اول اجتماع له مع الكيلاني في اليوم السادس والعشرين من نيسان، ذلك الاجتماع الذي لم يقرب وجهات النظر بينهما.

ادت الفيضانات الواسعة التي حدثت حول البصرة الى ان تظل القوات التي تنزل حديثا هناك، غير قادرة على الحركة لبعض الوقت. ولذلك كرر الكيلاني تحريريا في اليوم السابع والعشرين من الشهر ذاته، طلبه بان تنتقل القوات التي نزلت في البصرة. ومما قاله في طلبه ذاك بان الرأي العام قد اصيب بضربة خطرة لدى رؤيته تلك الحامية الانكليزية[٢] ولكن كورنواليس رد على ذلك انه كان قد اعطى في اليوم الثامن والعشرين من الشهر انذارا بوصول قوات اخرى مساندة او مساعدة، وان هذه القوات تبلغ زهاء لواء واحد على اكثر تقدير.

حصل لقاء آخر غير مرض بين رئيس الوزراء والسفير، وقد تمسك كل واحد منهما بمواقفه، واذ لمح رشيد عالي الى النتائج الوخيمة، راح ينحي سلفا باللائمة على البريطانيين. على ان

---

(٢) كانت اوامر او بيانات رئيس الوزراء هذه قد جاءت في شكل مذكرات بعث بها الحكومة العراقية الى السفارة البريطانية في بغداد وقد جمعت فيا بعد في كتاب مستقل عرف باسم «الكتاب الابيض» تولى نشره زوج ابنة رشيد عالي.

القوات الانكليزية التي نزلت الى البصرة لم تخل، دون شك، من معارضة شعبية وعسكرية، ادت الى وقف المجابهة الحادة الجدية، لفترة قصيرة. فقد احتلت القوات النازلة، منطقة الميناء، ومحطة القوة الكهربية، واستعدت لاستقبال قوات بنطاق اوسع، وقد انتقلت حامية البصرة تحت الضغط الى ضفة النهر الى مسافة خمسة عشر ميلا فوق النهر، في ناحية «كرمة علي».

وعلى الرغم من الجهود التي بذلتها الجالية البريطانية ومعظم العراقيين، في تأييد العمليات الاعتيادية، فقد ازداد الوضع في بغداد تشددا، نتيجة تلك الحوادث الى درجة، انه تم في اليوم التاسع والعشرين من نيسان ارسال الاطفال والنساء البريطانيات الى قاعدة الحبانية، وفق تعليمات اصدرها السفير البريطاني، وبضمان محدد من لدن رئيس الوزراء بالحفاظ على سلامتهم، حيث تم في الايام التي تلت ذلك نقلهم جوا مرة اخرى الى البصرة، والى خارج العراق.

كذلك تم جمع كل البريطانيين والامريكيين، ما عدا استثناءات ضئيلة، ممن خشي ان تساء معاملتهم خلال الاسابيع المتلاحقة، جمع هؤلاء بامان في السفارة البريطانية التي تقع على الضفة اليمنى من دجلة، وفي المفوضية الامريكية التي تقع في منطقة العلوية، وذلك في الثلاثين من نيسان، وكذلك في القنصلية البريطانية في الموصل ايضا. وهكذا كان على ثلثمائة وستين شخصا من هؤلاء البريطانيين والامريكيين، ومن انضم اليهم من اليهود، والهنود المحليين، ان يمضوا الشهر التالي داخل السفارة البريطانية، التي حوصرت وشددت الرقابة عليها.

تم تدمير السجلات واوراق الشفرات الرسمية واستمر المحصورون يستمتعون، بشكل حذر، بخدمات الحكومة من الكهرباء والنور والهاتف والماء (ولو بوجود فترات انقطاع فيها)، والحصول على الاطعمة والمواد الاخرى من الحكومة. كذلك تم الاحتفاظ بمائة وخمسين شخصاً آخرين، ومن دون احتجاج عراقي ضد مثل هذا التصرف غير الاعتيادي، تحت حماية الوزير الامريكي المفوض بول نابنشو، غير ان هؤلاء لم يستطيعوا الاتصال بالسفارة البريطانية.

بقي الملك وامه ثلاثة اسابيع في قصرهما خارج بغداد، ومن ثم اتخذا سبيلها بامان الى مقر جبلي في شمالي العراق[3] واجبرت المصارف البريطانية في بغداد، على ان تسلم مفاتيحها وبقية ما لديها من النقد. وفي ليلة التاسع والعشرين – الثلاثين من نيسان حركت قيادة الجيش العراقي قواتها التي كانت مؤلفة من المشاة، ولواء مدفعية، وسرية من حملة الرشاشات، طبقا لاجراء وصف بانه اجراء احتياطي، من معسكر الرشيد الى الارض المرتفعة التي تسيطر على موقع الحبانية بصفة مباشرة، وقد تعاظم عدد هذه القوات خلال يومين الى ما يقرب من عشرة آلاف رجل مساحين ومجهزين تجهيزاً تاماً بخمسين مدفعا وعدد من الدبابات[4].

---

(٣) اسكن فيصل الثاني وامه في بيت «ملا افندي» بمدينة اربيل.

(٤) كانت القوة التي احاطت بسن الذبان بقيادة العقيد فهمي سعيد مؤلفة من سرية للدبابات وسرية للمدرعات، وسرية رشاشات آلية، وفوجين اليين وكتيبة مدفعية آلية، ولواء مشاة، وبطريتين لمقاومة الطائرات، وسريتي هندسة ومخابرة اليتين، ولواء مشاة بنقصه فوج واحد (محمود الدرة: الحرب العراقية البريطانية سنة ١٩٤١ ص ٢٦٨ و ٢٦٩، الطبعة الاولى ١٩٦٩).

كان معسكر الحبانية يضم، بالاضافة الى بضعة الاف من العمال المدنيين، الفا ومائتي رجل من قوات المرتزقة (الليفي) نصفهم من الاثوريين، والنصف الآخر من الاكراد والعرب، وسرية سيارات مدرعة، وثمانين طائرة من مختلف الانواع، معظمها من طراز مهجور، وثلاثين ملاحا متدرباً، وعددا من الطلاب، وحوالي الف نفر من افراد القوة الجوية البريطانية، ومدفعين قديمين من نوع هويتزر. اما نصف فوج المشاة فقد سبق ان نقل جوا الى البصرة، يضاف الى ذلك ان المعسكر كان يحتوي على منشآت للصيانة، وعلى مخازن، ومدرسة للتدريب على الطيران، وكان المعسكر مهيئا للدفاع من الناحية العسكرية[٥]

اصبح الان واضحا تماما، ان وضع البريطانيين في العراق، غدا اكثر من وضع حذر، وان هذا الوضع لا يمكن احتماله الا عن طريق التعزيزات العسكرية. ولقد ادت الفيضانات التي اجتاحت البلاد، والرقابة التي يمارسها الجيش العراقي على سكة حديد بغداد – البصرة، الى اعاقة ارسال القوات البريطانية البرية من ميناء البصرة نحو الشمال. والواقع ان ايا من تلك القوات البريطانية لم يصل بذلك الطريق الا في منتصف شهر حزيران[٦] غير ان القرار الذي اتخذه تشرتشل، والوزارة البريطانية بضرورة المحافظة على مركزها، والاصرار على الحقوق التي تخولها لها المعاهدة في العراق، ان ذلك كله لم يحدث فيه اي تغيير.

طلب الى القائد «ويفل» وهو في مقره في القاهرة، بوجوب ارسال قوات من فلسطين لنجدة حامية الحبانية، ولاستعادة الوضع هناك، وقد استقبل ويفل ذلك الطلب بامتعاض، وذلك لان رئيس الاركان كان انذاك منشغلا بالالتزامات الواسعة المتغيرة المطلوبة منه في اليونان، وجزيرة كريت، وسوريا، وفي الصحراء الغربية من مصر والحبشة. ومع كل ذلك فقد تحركت قوة مؤلفة من لواء آلي وسيارات مدرعة، ومدفعية ميدان، ومدفعية مضادة للدبابات، وفوج من كتيبة «اسكس» وثلاثة اجنحة من قوات الحدود الاردنية، ومائتي سيارة نقل لتموين الحبانية بها. كذلك تجمعت كتيبة صحراء الية من الجيش العربي في الاردن الذي يقوده اللواء «غلوب»، فوضعت هذه القوات تحت امرة اللواء.. «كلارك».

---

(٥) كانت القوة الانكليزية في الحبانية مؤلفة من ٨٢ طائرة جئ بقسم منها من مصر، وفوج مشاة تعداده حوالي ٤٠٠ مقاتل، جئ به من الهند. وبذلك بلغ عدد المحاربين في القاعدة حوالي ٢٢٠٠ رجل، في حين كانت قاعدة الشعيبة في البصرة تضم حوالي ٣٨٠ جندي بريطاني وخمس عشرة طائرة اضيف اليها سرب من طائرات قاصفة من طراز ولنغتن جئ بها من شمالي فريقيا (محمود الدرة المصدر السابق ص ٢٤٧ – ٢٤٨)

(٦) انظر ما ذكره تشرتشل في مذكراته عن الحرب العراقية البريطانية في ايار سنة ١٩٤١ وذلك في كتابنا «ثورة ١٩٤١ في العراق» الذي صدر في سنة ١٩٦٣ وقد كشف تشرتشل في مذكراته تلك عن المأزق الكبير الذي وجدت بريطانيا نفسها فيه اثناء ثورة ايار، وكنا قد ترجمنا ذلك القسم من مذكرات تشرتشل ونشرناه في ذلك الكتاب.

كانت مهمة كلارك تنطوي على فتح خطوط المواصلات مع العراق والسيطرة عليها، وان يقوم بنجدة الحبانية في ذلك البلد، ويستعيد مركز البريطانيين فيه، ويسهل اعادة الحكومة الشرعية والصديقة فيه. وما ان تحركت تلك القوات شرقاً بطريق عمان - بغداد، حتى الف قسم منها، ما عرف باسم «القوة الملكية» تحت امرة اللواء «كنغنستون» فاجتازت حدود العراق في اليوم العاشر من شهر ايار، واستطاع هذا الرتل، عن طريق كتيبة «غلوب باشا» التي تقدمت في صفة ستار متقدم، ان يحتل «الرطبة» التي تخلى العراقيون عنها، بعد مقاومة ضئيلة، وان يصل الى نهر الفرات.

تمت السيطرة على اثنتين من محطات ضخ النفط في الصحراء، التي نهبت بصفة مكثفة[٧] في حين احدث افراد عشيرة «عنزة» المزيد من اعمال التخريب في بحيرة الحبانية وفي المكائن المستعملة هناك. وفضلا عن ذلك فان حظوظ الحرب في الحبانية، بلغت حد المعجزة. ففي اليوم الأول من شهر أيار رفض آمر القوة الجوية في الحبانية نائب مارشال الجو «سمارت» ما طلبه قائد القوات العراقية بوجوب ايقاف كل اعمال الطيران. لكن «سمارت» على العكس من ذلك طالب بسحب القوات العراقية من مواضعها لان تلك المواضع كانت معادية بكل جلاء، وتضع معسكره تحت رحمتها. ولكن لم يعط اي جواب لذلك من جانب القوات العراقية فقد امسك الجيش العراقي بمواقعه، وفي فجر اليوم الثاني من ايار قصفت احدى الطائرات البريطانية تلك المواقع العراقية.

ردت المدفعية العراقية على ذلك بقصف ابنية معسكر الحبانية، واستمر هذا القصف مدة ثلاثة ايام لكنه لم يكن قصفاً عنيفاً، وكان سيئ التهديف، وقد فشل ذلك القصف العراقي في اصابة مخزن الماء الحيوي الذي كانت الحامية تعتمد عليه، كما ان ذلك القصف لم يمنع عملية اخلاء النساء والاطفال من المعسكر جواً.

استمرت الطائرات البريطانية تهاجم القوات العراقية، ومواقع مدافعها، واستطاعت أن تدمر، حيثما وجدت ذلك مستطاعا،(*) أعظم قسم من القوات الجوية العراقية الصغيرة والتي كان يزدرى بها، والتي كانت تتألف من حوالي خمسين طائرة من الخط الأول، بما في ذلك بعض القاصفات الامريكية، والمقاتلات الايطالية السريعة.

---

(٧) هما محطتا ح ٣ و ك ٣ H3, K3 من محطات خطوط انابيب النفط من العراق الى البحر الابيض المتوسط.

(*) يرى بعض المراقبين ان عدم فعالية القصف العراقي كانت مقصودة هذا ما قاله المؤلف، ونحن نعتبر مثل هذا القول نوعا من الدس الرخيص ذلك لان آمر المدفعية انذاك هو العقيد فهمي سعيد الذي عرف بوطنيته واخلاصه وشدة عدائه للانكليز. ومع ذلك فقد ذكر محمود الدرة في كتابه انف الذكر «الا ان القادة العراقيين وبعض المسؤولين كانوا قد قرروا تجنب القيام باية حركة عسكرية تجاه القاعدة البريطانية.. كما ان القوة الدفاعية البريطانية في القاعدة لا يمكنها الصمود طويلا بوجه هجوم ليلي صاعق» (محمود الدرة الحرب العراقية البريطانية سنة ١٩٤١ ص ٢٧٠).

وصلت تعزيزات جوية صغيرة، وعلى الاخص طائرات «بلنهايم» الى البريطانيين في الحبانية من مصر، كما نقلت مفرزة من قوات «الغوركا» جوا من البصرة الى هناك. وكانت خسائر القوة الجوية، ولاسيما الطائرات، كثيرة في الواقع، وكان الخفراء اليقظون الاشداء من القوات البرية البريطانية، يمارسون اعمالهم ليلا باتجاه المواضع الخارجية في الهضبة فلا يلاقون سوى مقاومة ضئيلة. والحقيقة ان القوات العراقية لم تقم باي هجوم بري على اية نقطة من محيط الاميال السبعة التي يندر الدفاع عنها، والتي كانوا يستطيعون ان يتغلغلوا اليها باعدادهم واسلحتهم حيثما ارادوا ذلك في الغالب.

لكن العراقيين ما لبثوا ان انسحبوا قبل فجر اليوم السادس من ايار من الهضبة وتحركوا نحو الشرق، ثم توقفوا عند معترض «سن الذبان» في طريق الرمادي – بغداد، والذي يوفر ايسر السبل لقصف الاهداف.. ولكن هجوما من الحبانية حدث على هذا الموضع ادى الى اخراجهم منه، حيث تم اسر ستة وعشرين ضابطا واكثر من اربعمائة رجل من مختلف الاصناف، بالاضافة الى السيارات، والمدافع، والمواد الحربية الاخرى، وعلى هذا فقد تراجعت البقية الباقية منهم الى الفلوجة، في الوقت الذي استقرت فيه قوات الحبانية في مواضعها الجديدة، واعادت تنظيمها وراحت تراقب الحامية العراقية الموجودة من ورائها في الرمادي، وتقصف العدو بالقنابل من الطائرات.

وفي البصرة كان الجمهور في ذات الوقت مهتاجا ومعاديا.. ذلك ان وكيل المحافظ الذي عين حديثا[8] قد جرى استفزازه لاتخاذ موقف غير ودي بالاوامر الصادرة من بغداد، ولكن خوفه من الانتقام، جعله غير قادر على ان ينفذ تعليماته القاضية باعتقال جميع افراد الجالية البريطانية. وعلى الرغم من المقاومة التي اظهرتها قوات الشرطة والتي ادت الى ضرورة نزع سلاحها، فان القائد البريطاني «فريزر» اضطر في اليوم السابع من شهر ايار الى ان يحتل قسما من منطقة العشار، اما الاحياء التي لم يجر احتلالها من هذه الضاحية، ومدينة البصرة ذاتها، فقد كانت اعمال النهب التي قام بها الشقاة واسعة فيها. وعلى حين غرة غادر المحافظ مدينة البصرة في اليوم السادس عشر من شهر ايار، فظلت الفوضى سارية فيها الى ان تم تأليف لجنة مؤقتة من الاشراف في المدينة برئاسة الشيخ صالح باش اعيان، استطاعت ان تحقق بعد مرور اسبوع، شيئا من الهدوء[9].

---

(٨) هو صالح حمام احد مديري الشرطة.

(٩) تألفت هذه اللجنة من السادة صالح ال باش اعيان، وحامد النقيب، ومصطفى طه السلمان، وسعيد عبد الواحد، ومحمد صالح الرديني، وصالح حمام وكيل المحافظ، وسليمان فيضي. وقد قام هؤلاء في التاسع من ايار بمقابلة المقدم لويد الذي عين حاكما عسكريا للبصرة بعد نزول القوات البريطانية فيها، وطلبوا اليه حماية الامن في البصرة كما قابل وفد مؤلف من سليمان فيضي، وعبد القادر باش اعيان، ومصطفى طه السلمان، المقدم كلوي قائد القوات البريطانية وطلبوا اليه ان تأذن القيادة للمصارف القائمة بتسليم بلدية البصرة ما تحتاج اليه من نقود، وبعض البنادق والخراطيش، لحراسة المدينة فتمت الموافقة على ذلك

وفي مدينة الموصل، تم نقل المحافظ تحسين علي من قبل الحكومة الكيلانية، واستبدل القائد المحلي بغيره، ولكن ذلك لم يتم الا بعد ان تم نقل الاطفال والنساء التابعين لاسر الموظفين البريطانيين العاملين في شركة استثمار النفط البريطانية في الوصول الى تركيا او الى سوريا وصحب احتجاز البريطانيين والامريكيين في القنصلية البريطانية في الموصل فرض قيود شديدة عليها وعزلة تامة، وذلك اثر رؤية طائرة المانية كانت تحوم فوق الرؤوس، وانتشرت الاشاعات عن وصول كميات من المواد العسكرية من دول المحور، بالاضافة الى الموقف الشرس الذي وقفه قسم من سكنة الموصل.

وبدأ الانقسام بين الموظفين كالمعتاد، وتم احتجاز البريطانيين العاملين في شركة النفط العراقية في كركوك، بطريقة ودية احيانا وشرسة في احيان اخرى، في مختلف المباني الموجودة في مدينة كركوك، وفي المقرات القائمة في حقول النفط، وبذلك توقفت كل الاعمال النشطة في كركوك، وفي القيارة وفي عين زالة وفي كل مكان اخر في حين فرضت الرقابة من قبل الجيش على جميع المؤسسات الى ان يصل الالمان ليقوموا بادارتها. وكان نهب السيارات، والمخازن، والمواد المترلية، مشهودا وعاما في بعض محطات ضخ النفط. وفي بعض الحالات جيء بموظفي شركة نفط خانقين العاملين في منطقة «نفطخانة» وفي مصفى الوند، الى بغداد، والى بعقوبة في بعض الحالات الاخرى، حيث تحملوا مشاق الاسر القاسي المحفوف بالمخاطر.

غدا واضحا، بعد اسبوع من نشوب الحرب. ان الحكومة العراقية لم تضع اية خطة عسكرية او سياسية لمواجهة حالة الطوارئ التي كانت نفسها تتصورها، ولقد تم الحفاظ على الامن بصفة عامة في كل انحاء البلاد[10]

غير ان الرقابة الصارمة، والعقبات الادارية، وتصادم الصلاحيات، كل ذلك قد ابطأ حركة النبض في الحياة القومية كلها. كانت مواصلات سكك الحديد تتعرض للانقطاع او التوقف. وكان الجيش ذاته، وهو موزع الافكار، تجري ادارته من دون ضبط او قرار، في حين كانت استخباراته في حالة يرثى لها وحركاته غير متقنة، كما ان القسم الاعظم من فعالياته لم يوضع موضع التنفيذ او ما يقارب ذلك، وكان آمرو الوحدات فيه يتخذون آراء مغايرة عن الحالة الراهنة، وكان كثير منهم يرفضون الاوامر الصادرة اليهم بالقتال اذا ما صدرت مثل تلك الاوامر.

---

(١٠) الظاهرة البارزة والمميزة النادرة التي تميزت بها فترة الحرب طيلة شهر ايار هي تعاظم الالتحام بين جميع افراد الشعب والتوادد فيما بينهم، بحيث لم تقع اية حركة تخل بالامن العام وعلى الاخص في بغداد. ففي خلال مدة الحرب لم تقع في بغداد حادثة قتل، او سرقة، اوسطو، او حتى وقوع شجار او خصام بين الافراد، على عكس ما كان مألوفاً في العاصمة وغيرها قبل نشوب الحرب فلقد ابدى العراقيون من التآخي فيما بينهم وضبط الاعصاب وعدم التوتر ما اذهل حتى الاجانب الذين لاحظوا ذلك وقدروه حق قدره في تلك الايام.

كانت قنابل الطائرات البريطانية وطائرات السلاح الجوي للاسطول البريطاني المتمركز في رأس الخليج العربي، تسقط خلال الليل والنهار على الحاميات والثكنات العسكرية العراقية في «كرمة علي» والناصرية، والعمارة، والسماوة، والديوانية، والرمادي و «السعدية» والموصل، وادت عمليات التعتيم والتخفي في بغداد الى احداث المزيد من الخوف لدى الجماهير، بدلا من الثقة. وكانت الاشاعات المنطلقة شرسة ومخيفة في حين كانت البيانات الرسمية الملئ بالاكاذيب تصدر يوميا وكانت الصحف تواصل تهويلاتها المعتادة وتبجحاتها.

برز امين الحسيني يدعو الى الجهاد ضد بريطانيا الكافرة المضطهدة، فأيدت طوائف من الاديان الاخرى هذه الدعوة، واعترف الاتحاد السوفياتي بالعراق، وانشأ علاقات دبلوماسية معه في اليوم الثاني عشر من شهر ايار. ولكن هذه الحركة التي دارت المفاوضات بشأنها مدة شهور فيما سبق لم تكن لها اية قيمة او اهمية في مساعدة العراق. كما ان دول المحور لم تلمح الى الاعتراف بنظام الحكم الجديد في العراق، وان كانت وكالات انبائها لم تنقطع عن التحريض والتشجيع، غير ان هذه الامور لم تكن في نظر الكيلاني ووزرائه لتعوض عن المساعدة المالية، والتي لم تجر اية ترتيبات حتى الان لتقديمها الا في صورة عبارات غامضة ولم يتم التفاوض بشأنها بصفة ثابتة.

كان عرض الوساطة الذي تقدمت به تركيا في اليوم الرابع من ايار قد تم رفضه، ولذلك سارع ناجي شوكت في اليوم الثامن من ايار في السفر الى تركيا لكنه اخفق في اقناع وزير الخارجية التركية في انقرة بتأييد مطالبه في دعم الوزارة ولقد انتظر ناجي شوكت في انقرة عدة ايام الى ان عاد السفير الالماني «فون بابن» من اوربا، ولكنه مع كل ذلك لم يستطع ان يحقق شيئا ما.

وكذلك كان الموقف الذي وقفته كل من السعودية ومصر، اللتين قام ناجي السويدي بزيارتهما على رأس بعثة طارئة، غير مريح بالنسبة لحكومة بغداد[1]. ومن خلف الكواليس، وفيما وراء الاشياء المنظورة كانت الخطط قد اعدت بين الناطقين باسماء الحكومات الالمانية والايطالية والفرنسية، وهم كل من «ابتزو دارلان» في باريس، ودارلان وهتلر في برخستسغادن، والكونت شيانو وفون ربنتروب في روما حول استعمال المطارات والموانئ وسكك الحديد في سوريا، وبشأن ارسال اسلحة وخبراء مساعدين الى العراق.

---

(١١) اتصلت الوزارة الكيلانية بوزير السعودية المفوض في بغداد السيد اسعد الفقيه وكلفته بان يبلغ الملك عبد العزيز السعود التقدم الى مساعدة العراق بسد طريق الاردن - العراق بوجه الانكليز، لكن ابن سعود رفض ذلك بحجة ان العراق لم يستشره في نزاعه مع الانكليز، وعلى اثر ذلك انتدب ناجي السويدي وزير المالية للذهاب الى الرياض فقابل ابن سعود ولكن لم يحصل منه على جواب مفيد، اما الوساطة التي اريد بها ان تتم من قبل مصر، فان الحكومة البريطانية اوعزت الى سري باشا رئيس وزراء مصر انذاك بان يعزز وساطة الحكومة التركية بوساطة مصرية ولكن حكومة الكيلاني اعتذرت من ذلك لوجود الوساطة التركية انذاك.

والحقيقة ان سكك الحديد التركية قد تم استخدامها في نطاق حمولات محددة من القطارات في اواخر شهر ايار، وبموافقة من الاتراك كان قد ضمنها السفير الالماني «فون بابن». غير ان هذه المواد لم يكن لها اي دور في الحرب الدائرة بين العراق وبريطانيا، ولم تحسن هذه الترتيبات، وفشل كل ما اعد مثلها من المساعدة الالمانية تلك المساعدة التي كان الوزراء المحاصرون في بغداد يقيمون الصلاة من اجلها، اجل نقول ان هذه الترتيبات لم تحسن الا بعد ان بدأت مغامرة اغتصاب السلطة، ومن دون اية اتصالات المانية عراقية مباشرة على مستوى ضباط الاركان(١٢)

ومع كل ذلك كانت هذه الترتيبات ناقصة، وقد جاءت متأخرة جداً وعلى الرغم من ذلك فان الطائرات الالمانية والايطالية، والفنيين الذين اخذوا يصلون باعداد قليلة الى العراق في الاسبوع الثاني من شهر ايار، كانت لها قيمة فعالة وكان لابد ان تكون لها مثل هذه القيمة. ذلك لان هؤلاء الفنيين قد ركزوا مقرهم في مطار الموصل، ومن ثم جاء بعدهم، بفترة قصيرة، الفنيون في شؤون النفط، والذين كانوا يشاهدون في كركوك، كما انهم شاركوا في العمليات الحربية التي جرت في الفلوجة.

ومما تجدر الاشارة اليه انه رغم كل الاعمال التي قامت بها الطائرات الالمانية، والتي اشتملت على قصف متواصل للحبانية، كانت البيانات العسكرية العراقية تزعم بان الطائرات العراقية هي التي قامت بها. ولقد هوجمت طائرة المانية من نوع مسرشمدت كانت تحوم فوق مطار بغداد، بطريق الخطأ من نيران بندقية عراقية، وقد ظهر عند نزول الطائرة الى ارض المطار انها كانت تحمل جثة ابن المارشال بلومبرغ، الذي اصابته تلك الطلقة في رأسه(١٣)

لم تلبث القوة التي عرفت بقوة التجمع الملكي، والتي كانت تؤلف التعزيزات الاساسية للقوات البريطانية، ان وصلت الى الحبانية في اليوم الثاني عشر من شهر ايار قادمة من الصحراء، وانضمت حالا الى القوات التي شاركت في الهجوم المركز على الفلوجة التي خسرها العراقيون لكنهم استعادوها بعد عشرة ايام. لقد هوجمت هذه المدينة من جوانبها بقوات محمولة جوا، وبمفارز عبرت النهر في معابر، واستطاعت بعد قصف قصير الامد ان تدخل المدينة، وتحتل جسرها الكبير الذي لم تمتد اليه يد التخريب.

---

(١٢) ان كل الاتصالات مع الالمان لم تجر على اساس ضباط الاركان كما ذكر المؤلف ذلك حقاً، وانما قام بها سكرتير امين الحسيني، المدعو كمال عثمان حداد، وذلك ابتداء من شهر كانون الثاني ١٩٤١ حيث بعث وكيل وزارة الخارجية الالمانية في الثالث من نيسان ١٩٤١ بكتاب الى المفتي والكيلاني وقد ورد في ذلك الكتاب «ان المانيا مستعدة ايضا لتسليم المواد الحربية فورا لتقوية استعداد الامة العربية للحرب المحتملة ضد انكلترا متى ما امكن وجود طريق لنقل هذه المواد الحربية» (عثمان كمال حداد: حركة رشيد عالي الكيلاني سنة ١٩٤١ ص ١٠٨ صيدا. لبنان).

(١٣) يؤكد محمود الدرة ان ابن المارشال بلومبرغ كان قد قتل نتيجة التحام جوي فوق مطار بغداد مع الطائرات البريطانية

ولقد ساهمت قوات الاثوريين من المرتزقة مساهمة فعالة في احتلال الفلوجة، وتم صد الهجوم المقابل الذي شنه العراقيون بقوة ظاهرة.

اصبح اللواء كلارك الان حراً في اصدار اوامره لرجاله بالتقدم الى بغداد، حيث تم تقبل الحكايات الغريبة التي اذيعت عن قوة القوات البريطانية وماالديها من دبابات. على ان انتشار الفيضان على نطاق واسع عبر الطريق الى بغداد، والرغبة التي انصبت انذاك الى قطع الاتصالات القائمة بين بغداد والموصل، كل هذه الامور قد ادت الى حدوث شيء من التأخير امتد لبضعة ايام.

عبرت جماعة من الجيش العربي الاردني الذي يقوده «غلوب» منطقة الجزيرة وقطعت سكة حديد بغداد – الموصل، على مقربة من سامراء[١٤] ثم ما لبثت ان عادت وانضمت اليها وحدة من قوات الخيالة فعبرت الطريق مرة اخرى الى ضفاف نهر دجلة، واحتلت المشاهدة واستدارت نحو الجنوب متجهة الى بغداد فحاصرت القوات العراقية قرب التاجي، واتخذت مواقع لها في معامل الطابوق قرب الكاظمية، حيث تم اسر محافظ بغداد، ومن ثم اطلق سراحه واعيد الى داره[١٥]

تقدم الجزء الاساسي من قوات اللواء كلارك، الان شرقا باتجاه «خان النقطة»[١٦] كانت هذه القوة مؤلفة من الف وثلثمائة رجل، وهي اضعف في المدافع والتجهيزات والتموين من الوحدات العراقية التي كانت تواجهها، ومع كل ذلك فان هذه القوة التي لم تجابه باية مقاومة بصفة قادرة، قد استطاعت ان تعبر المناطق التي غمرتها مياه الفيضان بواسطة «المعابر» وان تصل الى ضواحي مدينة بغداد في اليوم التاسع والعشرين من ايار. على ان ضعف هذه القوات، والفيضانات التي قيدت حركاتها، ومواصلاتها الطويلة المعرضة للهجوم، قد جعلت وضعها حذراً، بل محفوفاً بالخطر في الواقع.

لم يكن الدفاع عن بغداد يسيرا حسب، بل ان ظهور حركة ذات تصميم يقوم بها جزء من القوات العراقية المتوفرة، لم تكن لتخفق في رد وتدمير الغازي الذي كانت قواته تعتمد على مجرد

---

(١٤) كان غلوب قد وزع قواته التي جاء بها من الاردن الى رتلين كان يقود القسم الاعظم منها معاونه العقيد لاشر الذي اودعت اليه مهمة الاستطلاع وقطع سكة حديد بغداد الموصل في شمال سامراء، في حين قاد غلوب بنفسه قوة اخرى واتجه بها الى نهر دجلة جنوبي سامراء في يوم ٢٣ ايار (محمود الدرة: المصدر السابق ص ٣٨٤) يجد القارئ المزيد من المعلومات عن هذه الحركات في كتابنا «مذكرات غلوب باشا» الذي يصدر قريبا جدا.

(١٥) هو المرحوم جلال خالد الذي تولى فيما بعد منصب مدير الكمارك العام وقد توفي في لندن اثر اجراء عملية جراحية له هناك سنة ١٩٨١.

(١٦) المعروف الان باسم خان ضاري

التصميم، والمناورة، والروحية العالية ليس الا. ولكن الواقع هو ان عمر الحرب القصير قد انتهى الان، وان وجود الحكومة العراقية ومقاومتها قد اصابها التفكك، والانهيار في وقت واحد.

اصبح الجمهور العراقي يدرك بان تحدي الحكومة لبريطانيا قد بدأ، وان الحرب الحقيقية تسير الان قدما، وان القوات البريطانية قد ظهرت تماما في عشرات من الاماكن.

انقطعت المواصلات في كل مكان، وماتت التجارة، وقفزت الاسعار عاليا، واصبحت ثلاثة ارباع العاصمة معزولة. وفي ميناء البصرة كانت القوات البريطانية تنهال عليها، وتحولت المعارضة لنزولها الى مجرد عدم مبالاة، وما لبث اللواء «كوينان» بصحبه اللواء «سلم» ان وصلا لتسلم القيادة في اليوم السابع من شهر ايار. وقد ظهر بان القوات العراقية في كركوك والموصل، كانت تدعم الحكومة العراقية بصفة عامة، الا انها لم تقم باية حركة، في حين كان قسم من القوات الموجودة في بغداد مؤيدا بالاحرى للوصي المخلوع، بينما اصبح الان القادة الاربعة لا يملكون من القوة ما يستطيعون به قيادة تلك القوات

ازداد الفرار من الجيش فاصبح خطراً اعلى على الامن، ولم يكن معظم سكان المدن والقرويين في المحافظات يتلهفون الان على شيئ سوى رؤية السلام، وعودة الامن، وان لم تكن مساندتهم لحكومة الكيلاني في اول الامر واسعة. كان الشباب الذين سلحوا باوامر من رشيد عالي خلال شهر ايار في بغداد، يتباهون بيزاتهم العسكرية ويخطرون بها في الشوارع، ومع ذلك فانهم لم يكونوا ليؤلفوا اداة حربية[17] ولم يقف اي من شيوخ العشائر وراء الحكومة. فالشيخ محمود الذي هرب من بغداد ووصل الى السليمانية، قد اخذ يتحدث عن عزمه على تجنيد قوات لمساندة البريطانيين. ولذلك فلم يكن هنالك من وقت ولا حاجة الى ان ينجز «غلوب» المهمة التي اوكلت اليه، بعد ان قاد رجاله الى العراق، وهي مهمة اثارة العشائر ضد الحكومة المغتصبة[18].

في اوائل الاسبوع الاخير من شهر ايار اخذ الوزراء يغادرون بغداد، وقد سبقتهم عوائلهم في هذا الامر، فقد هرب كل من ناجي شوكت وموسى الشابندر، وعلي محمود الشيخ وناجي السويدي الى بلاد فارس او الى تركيا. وسارع المفتي امين الحسني بالهرب الى طهران، وفي اليوم

---

(١٧) المقصود بذلك كتائب الشباب التي تألفت من طلاب الكليات، وفصائل الفتوة ولقد شاركت انا مع زملاء لي في تأسيس منظمة خارج نطاق كتائب الشباب والفتوة سميناها «الحرس الوطني» بدعم من المرحوم يونس السبعاوي في الدرجة الاولى، حيث تم اعتقالنا بعد الهدنة باكثر من شهر وقدمنا الى المحاكمة امام المجلس الوطني العسكري في معسكر الرشيد. وكانت بعض الاوساط التي استأسدت بعد فشل الثورة، وراحت تحاول الانتقام من مؤيدي الثورة قد اسمتنا باسم «الحرس الحديدي» واتهمتنا بالمشاركة في اعمال «الفرهود» التي جرت في بغداد عند عودة عبد الاله اليها قادما من الحبانية.

(١٨) تحدث عن هذه القوة العشائرية العقيد جرالد دي غوري في كتابه «ثلاثة ملوك في بغداد» الذي ترجمناه وصدرت طبعته الاولى في حزيران ١٩٨٣. ويجري اخراج طبعة جديدة موسعة ومنقحة منه الآن.

الثامن والعشرين من ايار ذاته هرب رشيد عالي من بغداد، واسرع الالمان والايطاليون، ومن بينهم الدكتور غروبا الذي عاد في الاخير الى بغداد منتصرا، في الهرب الى سوريا وقد سبقتهم طائراتهم الى هناك، وصحب الوصي شريف شرف الهاربين الى بلاد فارس، في حين عين يونس السبعاوي وزير الاقتصاد نفسه حاكما عسكريا للعاصمة وراح يحث الجماهير التي لا تملك اية قوة على تنظيم مقاومة نهائية. غير ان سلطته، ان كانت لديه سلطة، لم تدم اكثر من يوم واحد.[19] فقد هرب هو الاخر ولحق به القادة الذين تخلوا عن مناصبهم وواجباتهم، وانتهت مغامرتهم، التي اسيء تقديرها وتحقيقها، الى هزيمة شنعاء، وبقي ارشد العمري امين العاصمة ذو العزم لوحده لكي يحافظ على ما يقدر ان يحافظ عليه من النظام، ويعمد بصفة مباشرة الى حل كل العصابات المسلحة حتى حركة الشباب، ويؤلف، في اليوم الثلاثين من شهر ايار، «لجنة الامن الداخلي»[20] التي حظيت بالتأييد القوي من لدن المتمسكين بالقانون، وفي مساء ذلك اليوم ذاته، وبايحاء من الوزير المفوض الامريكي «نابنشو» ظهر ارشد العمري في السفارة البريطانية، وعلى الفور وجه كورنواليس رسالة باللاسلكي الى قائد القوات البريطانية العام في الحبانية يطلب اليه، اذا يستطيع، ان يتسلم علم الهدنة في تلك الليلة.

تم ترتيب شروط الهدنة، لا شروط الصلح لان الحرب لم تعلن بصفة رسمية، من دون ادني مشقة بين السفير البريطاني ولجنة الامن الداخلي، وقد تضمنت تلك الشروط، وقف اطلاق النار، واستمرار استقلال البلاد، والحفاظ على جيشها كاملا، واطلاق سراح الاسرى، واعتقال القوات الهاربة من المان وايطاليين، واعادة فتح جميع طرق المواصلات في العراق وفقاً لمعاهدة ١٩٣٠، وتلك شروط ابرزت الشهامة وحسن النية معا.

دخلت مفرزة من القوات البريطانية بغداد في اليوم التالي، واستطاع المحتجزون والمقيمون البريطانيون في بغداد والموصل وكركوك ان يخرجوا من الاسر الذي استمر طيلة شهر كامل بكل مآسيه، يعتورهم السخط والقلق، لانهم وجدوا ان الكثير من منازلهم قد غصبت، في الوقت الذي كانت فيه جماهير بغداد يسودها القلق والشدة. ولم تختف اثار التوقعات الكاذبة، ودعاية

(١٩) تم تعيين يونس السبعاوي حاكما عسكريا على بغداد بقرار من رشيد عالي نفسه، وقد صدر في شكل بلاغ رسمي في الثلاثين من ايار واذيع من دار الاذاعة العراقية في صباح ذلك اليوم.

(٢٠) لم تتألف لجنة الامن الداخلي في الثلاثين من ايار من قبل السبعاوي ولا من قبل ارشد العمري كما ذكر المؤلف ذلك خطأ، وانما تألفت هذه اللجنة في اليوم الثامن والعشرين بمبادرة من وكيل وزير الدفاع، وكان اعضاؤها هم امين العاصمة ارشد العمري، ومدير الشرطة العام حسام الدين جمعة وممثل الدفاع العميد حميد نصرت وقد انبئ رئيس الوزراء رشيد عالي بذلك فوافق عليه في ذات اليوم الذي اجتمعت فيه اللجنة وحددت اعمالها وواجباتها بتأمين سلامة الاهلين وممتلكاتهم وتنظيم حياتهم خلال الطوارئ في حالة الانسحاب من بغداد، وخولت اللجنة محافظ بغداد باصدار الاوامر بمنع التجول داخل العاصمة مدة الانسحاب.

المحور التي تم رسمها منذ مدة طويلة، الا بشكل بطيء.

مضى الوصي عبد الاله ثلاثة اسابيع في فلسطين والاردن، ثم عاد الى العراق في اليوم الثاني والعشرين من شهر ايار[٢١] يصحبه وزراؤه المخلصون له، وممثل بريطاني هو العقيد جر الددي غوري[٢٢]، ومن وثم وجه اذاعة اخرى الى شعبه[٢٣]. وتألف جوق الشرف الذي استقبله في الحبانية من القوات العراقية، والضباط العراقيين الذين استسلموا للبريطانيين في سن الذبان، في ذلك الوقت الذي كانوا فيه يقاتلون لحساب اعدائه الذين حلوا محله عن طريق المخادعة، والذين ما لبثوا ان غيروا الان مواقفهم مرة اخرى من دون ادنى جهد يذكر في ذلك.

دخل عبد الاله بغداد في اليوم الاول من شهر حزيران فرحب به السفير البريطاني وجمهور من المستقبلين، غير ان الامكانيات المخلصة المتوفرة في تلك الساعة لانشاء حكومة، كانت قد طغت عليها غمرة الهتافات والانتصار. ولقد عكرت ليلة الأول من حزيران، وجزء من اليوم الثاني منه، بانفجار اعمال خطيرة من اراقة الدماء، ونهب الاموال في بغداد، ووجهت اعمال الانتقام العنيفة الى اليهود. ولقد نظم القسم الاكبر من ذلك الانفجار على ايدي الضباط الهاربين من الخدمة العسكرية، وكان هؤلاء يأملون على نطاق واسع، القيام بثورة مضادة، كما كان هذا العمل يمثل جزءا من الانتقام الذي اقدمت عليه حركة الشباب التي القي القبض على بعض افرادها، كما كان في الوقت ذاته جزءا من الوحشية والفظاظة التي امتازت بها اخطر عناصر الغوغاء.

اصيبت لجنة الامن الداخلي بالذهول والارتباك، ولم تكن الشرطة مما يمكن الاعتماد عليه، وعلى ذلك فلم تمكن اعادة الامن الا عن طريق قوات الجيش التي جلبت من الخارج.

وفي ظهر اليوم الثاني من شهر حزيران تقبل جميل المدفعي بتردد ظاهر مهمة تأليف الوزارة، ووطن نفسه على اعادة الهدوء الاعتيادي[٢٤] كما تم تعيين محافظ يعتمد عليه للبصرة.

---

(٢١) كان عبد الاله ومن معه من الوزراء واعضاء الحاشية قد عادوا من فلسطين الى قاعدة الحبانية ومكثوا فيها الى ان حدثت الهدنة.

(٢٢) انظر ما كتبه جر الددي غوري في كتابه «ثلاثة ملوك في بغداد» والذي ترجمناه وتم طبعه عن اوضاع الوزراء الذي هربوا مع عبد الاله الى فلسطين وهم كل من نوري السعيد وعلي جودت وداود الحيدري، وغيرهم اثناء وجودهم في فلسطين ام في معسكر الحبانية.

(٢٣) اذاع عبد الاله هذا البيان في اليوم الرابع والعشرين من ايار، بعد وصوله الى الحبانية، وقد سبق له ان وضع بيانا اثناء وجوده في القدس يوم الثامن من ايار تم طبعه وتولت الطائرات البريطانية القاءه على ابناء المدن والعشائر في العراق.

(٢٤) الف جميل المدفعي وزارته الجديدة وهي الخامسة في ٢ حزيران ١٩٤١

وهكذا فان الحركة التي تغلبت على ذلك لابد وان تظل تتحمل لامد طويل، امكانية الطعن في اسم رشيد عالي او تمجيده، وان كان دوره فيها في الواقع، غير منظور ومحددا.

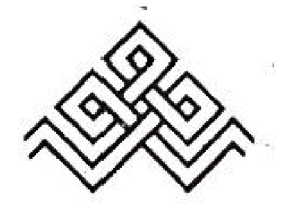
وحيث كان رشيد عالي نفسه يود ان يظل على علاقات حسنة طيبة مع بريطانيا، الى ان تصبح هزيمتها مؤكدة على الاقل، فانه لم يكن من المعادين للانكليز بشدة مثلما كان عليه الاخرون. لقد ارغم في اول الامر على عدم التوصل الى اتفاق واضح، ومن ثم الاقدام على المجابهة التامة مع بريطانيا التي كانت هي المنتدبة قبلا على العراق، تحت ضغط من انصاره العسكريين، الذين كانوا على الرغم من كل السوابق التي حدثت، يأملون ان يحققوا سيطرتهم، وكذلك بضغط من نفاد الصبر لدى رفاقه الاقربين اليه. ولما كان رشيد عالي لم يتحرك باي مبدأ من مبادئ الاخلاص للمعاهدة، وكان من الاساس عدوا لبريطانيا ومتهورا، وذا ثقة ذاتية بطبيعته، فانه مع كل ذلك لم يلزم نفسه باي التزام نحو المانيا، مثلما فعل ذلك القادة، وناجي شوكت.

لقد كان يأمل في ان يحقق الحياد، وان يحصل على ما يفيد بلاده من كلا الطرفين ان استطاع ذلك، ولم تكن تصرفات رشيد عالي في رئاسته الاخيرة تمثل الحكم التأديبي المستتب، ولا تمثل السياسة المقرر اتباعها.

ولذلك اخذ يتحول، او ارغم على ان يتحول عن تلك السياسة خطوة فخطوة. والا فمن ذا الذي كان يتقبل في الواقع، رئاسة الوزارة في اليوم الاول من شهر نيسان ١٩٤١، في احوال جعلت من قادة الجيش في منتهى القوة؟ ان مثل هذا الشخص الذي يفعل ذلك اما يكون قد اراد ان يلعب دورا غير الدور الذي لعبه الكيلاني، او ان يمهد السبيل فورا، امام من يريد ان يلعب ذلك الدور. لقد كانت هناك سياسات اخرى، واحكام تأديبية اخرى في العراق انذاك، ولكن مع ذلك لم تكن هناك قوة اخرى سوى قوة الجيش.

فلو تم تحديد التوقيت مع الالمان، وكانت مساعدة هؤلاء قد روعي فيها التوقيت، فان من النادر ان تفشل تلك الحركة مهما كانت الصورة التي انجزت بها. ذلك لان مئات قليلة من القوات الالمانية وبضع عشرات من الطائرات تستطيع ان تحتل العراق، وتستغل جيشه استغلالا حيويا، وتسيطر على بلاد فارس ونفطها، وتغلق البوابة الجنوبية في وجه روسيا، ومن ثم تهدد الدول القائمة على الساحل الشرقي من البحر الابيض المتوسط من ناحية الشرق. ولكن هذه لم تكن هي الحصيلة التي نجمت فيما بعد عن ثلاثة عوامل هي: عدم التصميم الضعيف لتركز الجيش العراقي في الحبانية وما بعدها، واخفاق دول المحور في توفير المساعدة الموقوتة، والمقاومة البريطانية في جزيرة كريت، والخطط التي اعدها هتلر لغزو روسيا، وسرعة نجاح حركة المناورة التي قامت بها القوات البريطانية الخفيفة.

لقد كان التدخل البريطاني الذي مايزال غير المسالمين من العراقيين، يستنكرونه، ويعتبرونه تدخلا لا مبرر له، هو الذي انقذ العراق في الواقع من الدكتاتورية العسكرية اولا، ومن الاحتلال الالماني المحقق ثانيا، ومن الانضمام الى الجانب الخاسر في الحرب العالمية الثانية اخيرا.



الفصل التاسع
الحرب العالميّة الثانية

١ ـ حملة القوات البريطانية في العراق وبلاد فارس[1]

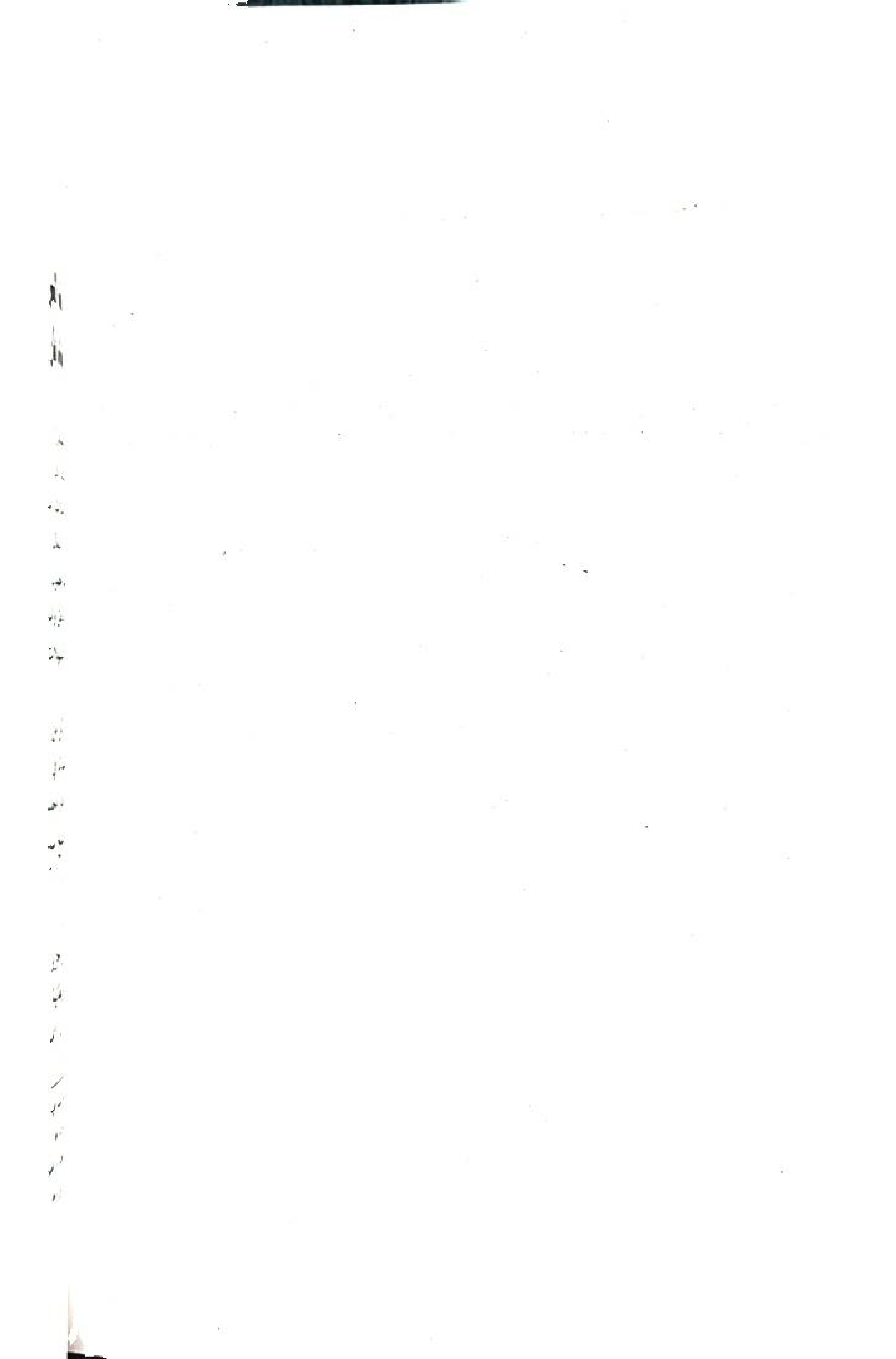
٢ ـ منتصف سنوات الحرب

٣ ـ وزارة حمدي الباجه جي

٤ ـ اقتصاديات زمن الحرب

٥ ـ الأكراد والهدوء الذي تنشده الحكومة

٦ ـ الجامعة العربية



١. حملة القوات البريطانية في العراق وبلاد فارس[1]

كانت الاوامر الصادرة بشأن العمليات العسكرية ، التي قام الفريق «كوينان» بانزال قواته في البصرة وفقا لها ، تطالبه بان يقوم بتطوير ذلك الميناء ، وتحويله الى قاعدة عسكرية كبيرة ، وان يضمن خطوط المواصلات عبر العراق ، ويحمي التموينات النفطية. وكان الاول بين هذه الواجبات قد ادى الى اشغال قواته خلال بضعة اسابيع، في عزلة عن المعركة التي كانت قائمة انذاك في البلاد ، ماعدا حصول بعض عمليات النقل الجوي اثناء الليل بين البصرة والحبانية. فلقد طغت الفيضانات على مناطق واسعة ، وتم قطع جميع الطرق من قبل الجيش العراقي ، فاصبحت الحاجة ملحة الى تنظيم التسهيلات في البصرة وفي جوار قاعدة الشعيبة ، لتسهيل وصول القوات والتموينات.

التقى قائد الاركان في كل من الهند والشرق الاواسط ، وهما الفريق السر اوكلود اوكنلك ، والفريق السر ويفل في البصرة ، في اليوم الثالث والعشرين من شهر ايار لوضع الخطط. وفي اليوم السابع والعشرين منه ، غادر احد الارتال قاعدة الشعيبة متجها نحو الشمال ، وبعد ان جابه مقاومة ضئيلة في «اور» واصلح سكة الحديد ، اثناء مسيرته ، وصل الى خارج بغداد في اليوم الثاني عشر من شهر حزيران ، وفي آخر يوم من هذا الشهر ، نزلت قوة ثانية في ضاحية العشار ، جاءت في اسطول محسن من وسائط النقل النهرية ، ومن ثم وصلت الى بغداد بعد أسبوع من ذلك. وفي اليوم الثاني عشر من حزيران ، استطاع الفريق كوينان ، بمواصلاته الى اعيد افتتاحها ، ان يسيطر على كل القوات البريطانية الموجودة في العراق ، ولم تلبث القيادة التي كانت تدير هذه العمليات قبلا من القاهرة ، ان انحصرت تحت امرة رئيس اركان الهند.

---

(١) عرفت هذه الحملة والقوات التي شاركت فيها باسم PAIFORCE وهي القوات التي تمركزت في العراق وبلاد فارس ، واوكل اليها ، بعد نزولها بفترة ، مهمة الاشراف على ايصال المساعدات التي اخذت امريكا تقدمها الى الاتحاد السوفياتي حسب قانون الاعارة والتأجير ، وذلك بعد ان غزا هتلر اراضي الاتحاد السوفياتي في الثاني والعشرين من حزيران ١٩٤١ ، ولم تنسحب هذه القوات الا بعد ان وضعت الحرب اوزارها في سنة ١٩٤٥ بمدة غير قصيرة.

كانت المهمة العاجلة المسلحة خلال صيف سنة ١٩٤١، تنطوي على وضع حاميات صغيرة في كل من كركوك، والموصل، والفلوجة، وحديثة، والرطبة وفي اي مكان اخر، وصيانة تلك الحاميات، واعدادها لمساعدة قوات الشرطة العراقية في صيانة الامن،وفي زيادة طاقة الميناء الذي سبق له ان ازدحم، وتطوير القواعد القائمة في البصرة وفي الشعيبة والكوت والمسيب، لاستخدامها من قبل القوات الكبيرة القادمة.

اقيمت مطارات جديدة في شمالي العراق، واتخذت خطوات لتحسين وسائل المواصلات بسكك الحديد، والنهر، والطرق البرية ووسائط البرق. وفي خلال شهري حزيران وتموز ارسلت قوات صغيرة للمشاركة في الحملة التي قادها الفريق متلند ولسون في سوريا ضد حكومة فيشي[٢] وبازدياد القوات التي توفرت آنذاك في شهر اب، اصبح في مستطاع الفريق كوينان، ان يباشر من البصرة ومن خانقين غزو معظم بلاد فارس دون اراقة الدماء[٣] وقد انتهت هذه الحملة بتغيير شكل الحكومة، والسياسة القائمة في تلك البلاد، وتحويلها من حكومة خطرة تعطف على دول المحور، الى دولة صديقة تتعاون مع الحلفاء.

اتسم شتاء سنة ١٩٤١ - ١٩٤٢ بشدة استثنائية. وبعد ان عقد مؤتمر تمهيدي في بغداد في شهر ايلول ١٩٤١ ضم السفراء البريطانيين ورئيس اركان قوات الشرق الاوسط، تقرر ان تكرس الشهور المقبلة لمواصلة تطوير العراق، وتحويله الى قاعدة للمواصلات وللدفاع. وقد تم انجاز هذا الهدف بتوسيع القواعد القائمة داخل البلاد، وميناء البصرة الذي انشئت فيه ارصفة جديدة، واقامة الرافعات، وتوفير الطرق والابنية، وفرض الرقابة، وتوسيع خدمات النقل النهري داخل القطر (طبق اسس راحت تذكرنا بايام الحرب العالمية الاولى) واستيراد العشرات من السفن الصغيرة والعديد من الطراريد من الهند وامريكا[٤] ووضع اليد على القسم الاكبر من الموارد المتوفرة في العراق، واقامة الشبكات الكاملة للبرق واللاسلكي، وتحسين خطوط سكك

---

(٢) حكومة فيشي هي الحكومة التي الفها الالمان بعد سقوط باريس في سنة ١٩٤٠ من بعض الفرنسيين الموالين لهم، واتخذت من مدينة فيشي القريبة من باريس مقرا لها فعرفت بهذه الاسم وكانت سوريا ولبنان قد اصبحتا تابعتين لتلك الحكومة.

(٣) كان رضا بهلوي، كاي دكتاتور اخر في ذلك الوقت، يريد ان يظهر بالمظهر الذي ظهر به هتلر وموسوليني، وان يقوى علاقاته بهما. فلما ان تقدم الحلفاء اليه بانذار هم في افساح المجال لدخول قواتهم الى بلاد فارس لتأمين خط مرور المساعدات الى الاتحاد السوفياتي، حتى رفض ذلك الانذار واصر على المقاومة واذ ذاك اصدرت القيادة الفارسية اول بلاغ لها عن الاصطدام بين قواتها والقوات الانكليزية لكنها اعلنت في البلاغ الثاني الاستسلام والتخلي عن المقاومة حيث القي القبض على رضا بهلوي ونقل الى جنوبي افريقيا، واجلس ولده «محمد» مكانه في دست الحكم.

(٤) المقصود بكلمة الطراريد، جمع طرادة، هنا هي ماتعرف بالجنيبات او الجنائب التي تربط الى جانب السفن التي تسير بالبخار او الحركات الاخرى والاشرعة وتوسق بالحمولة، والتي كانت من اهم وسائل النقل النهري في ذلك الوقت.

الحديد ومضاعفة اعدادها، وبناء خط حديدي جديد من الكوت الى بعقوبة[٥].

كان التهديد الالماني الذي صممت كل هذه الاستعدادات ضده، يحتمل ان يأتي عن طريق الاناضول، وعن طريق القفقاس واذربيجان، بعد ان غزا هتلر بلاد روسيا في الثاني والعشرين من شهر حزيران سنة ١٩٤١. وعلى هذا الاساس كان ينبغي تعزيز كل المناطق الشمالية من العراق، ولذلك اقام الفريق «كويننان» مدافع لهذا الغرض، واحتل المثلث الذي يضم الحدود التركية وديالى ونهر دجلة.

اشتملت هذه الاعمال على جهود كبيرة ومشقة ليست بالقليلة، وتطلبت استخدام قوات من العمال المحليين، وتوفير المعسكرات، ووسائط النقل، والتجهيزات، والاعاشة، والترتيبات الضرورية لصيانتها. ولقد ابتلعت هذه الاعمال الفرقتين الهنديتين الضعيفتين، الثامنة والعاشرة، وذلك بعد ان غادرت الفرقة السادسة الى بلاد فارس، والتي كانت بوحداتها المتنوعة هي التي تؤلف الحامية العراقية في ذلك الوقت.

كان القرار الذي تم اتخاذه لمساعدة الجيوش الروسية، بتموينات يجري نقلها من الخليج العربي، عبر بلاد فارس، يتطلب اجراء تنظيم ثابت لتدبير هذه العملية وتقديمها، والتي كانت تعتمد على البصرة. ولقد لعبت الشركات التجارية في بريطانيا، وشركة النفط الانكليزية الفارسية، والشركات البريطانية الاخرى العاملة في البصرة، دورا طليعيا لايمكن تقدير قيمته في هذا المضمار، فادت هذه العملية الى توسيع سكك الحديد، وانظمة الطرق في بلاد فارس. وفي جوار البصرة، وبالقرب من حدود العراق مع فارس. تم انشاء جسر «هول» الذي يبلغ طوله الفا ومائة وخمسين قدما، عبر شط العرب وهو اول جسر في التأريخ ينصب فوق هذا النهر. كذلك اصبحت نهاية سكة الحديد في خانقين قاعدة مهمة للنقل قدما.

على هذه الشاكلة انقضى شتاء سنة ١٩٤١ – ١٩٤٢. فالقوات البريطانية الموجودة في العراق وفي فارس، والتي تغلب نسبة الهنود في تكوينها، قد اعيد تجميعها في الايام الاول من شهر كانون الثاني سنة ١٩٤٢، وعرفت باسم «الجيش العاشر»، وانتقلت قيادتها مرة اخرى الى قيادة الشرق الاوسط. وفي فصل الربيع بقيت مهمات فصل الشتاء متواصلة في توسيع نطاق النقل بصفة ثابتة على الطرق البرية والانهار وفي الطريق الصحراوي الذي يمتد الى فلسطين، وفي القاعدة والمناطق المتقدمة الاخرى.

(٥) انشأت القوات البريطانية خلال الحرب العالمية الاولى مثل هذا الخط الحديدي بين بغداد والكوت لنقل المهمات العسكرية، ولكن هذا الخط تم رفعه بعد انتهاء تلك الحرب. ولو بقي قائما لامكنت الاستفادة منه في نقل المسافرين والسلع بين بغداد والكوت بصفة افضل واسرع، وذلك قبل ان يتم تبليط هذا الطريق وتسيير السيارات فيه بالكثرة التي نراها الآن.

واذ ادى غزو قوات المحور لمصر في ربيع سنة ١٩٤٢، الى نقل بعض القوات المحاربة من الجيش العاشر الى سوريا ولبنان وفلسطين، فان اعمق تغلغل للقوات النازية في جنوبي روسيا خلال الصيف، والتهديد بالوصول الى فارس والعراق عن طريق القفقاس، قد بدا وكأنه يزيد من الخطر الذي اصبح يهدد هذين البلدين. ولذلك ادت هذه الحالة الخطرة جدا في اوائل شهر اب ١٩٤٢، الى اتخاذ قرار بتعزيز «الجيش العاشر». فلقد تقرر ان يصبح هذا الجيش تشكيلة قتالية فعالة، بدلا من ان يظل تشكيلة مخصصة للمهام الدفاعية، والوظائف المتقدمة، وان يصبح فيما بعد هو قوة العراق وفارس والتي اصطلح فيما بعد على تسميتها باسم قوات حملة فارس والعراق PAIFORCE، وان تكون من مسؤولية رئيس الاركان الخاص بها، وان تخضع مباشرة الى وزارة الحربية البريطانية.

تم اختيار الفريق السر متلند ولسون لقيادة هذه القوات. وقد وصل الى بغداد خلال شهر اب. اما القوات الجديدة التي تقرر نقلها الى العراق وفارس فقد شرعت بالنزول في البصرة خلال شهر ايلول ١٩٤٢ ومابعده، وكانت هذه القوات مؤلفة من الفرقتين البريطانيتين الخامسة، والسادسة والخمسين، ومن ثم اعقبتها على الفور قوات اخرى مؤلفة من اللواء البريطاني المدرع السابع الذي جيء به من الهند، والفرقة الهندية الخامسة، والفرقة الكاراباتية الثالثة، احدى الفرق البولندية من الشرق الاوسط[٦].

ولقد تحركت هذه القوات جهد المستطاع الى الاجزاء الشمالية من العراق، والانحاء الشمالية من بلاد فارس، وان كان تراجعها الى المناطق التي تقع فيها نهايات خطوط السكك الحديدية، من الامور المحتمة لاسباب تموينية اثناء الشتاء.

كان البولنديون الذين اخذوا يصلون باعداد متزايدة من فارس الى خانقين بصفة لاجئين، قد وضعوا بسرعة تحت التدريب العسكري، ومن ثم تمت اضافتهم الى التشكيلات البولندية التي استحدثت في الشرق الاوسط تحت امرة الفريق «اندرز».

تم تنظيم فيلقين هنديين هما الفيلق الثالث والفيلق الحادي والعشرون من القوات المتوفرة في

---

(٦) وصلت اعداد كبيرة من القوات البولندية التي انسحبت بعد اجتياح الالمان لبولندا، الى العراق عن طريق روسيا وفارس، فتمركزت اكثريتها في منطقة خانقين وجاء قسم منها، اناثا وذكورا الى بغداد، وتغلغلوا بين اليهود، واخذ يدربونهم على امور القتال. وقد اصدر هؤلاء البولنديون في بغداد صحيفة باللغة البولندية باربع صفحات كانت تصدر ثلاث مرات في الاسبوع، وكانت تطبع في مطبعة «التفيض» التي كانت تديرها مدرسة التفيض الاهلية، وهي اول مطبعة من طراز «الاينوتايب» تجلبها مؤسسة غير حكومية الى العراق في ذلك الوقت. وقد نصبت هذه المطبعة في سرداب داخل بناية مدرسة التفيض في محلة العاقولية، في سنة ١٩٣٨ وطبعت فيها عدة كتب مدرسية وغيرها، الى جانب مجلة «التفيض» نصف الشهرية التي كنت اشرف على تحريرها واصدارها والتي صدر عددها الاول صبيحة مقتل غازي فاجل توزيعه الى اليوم الخامس من نيسان ١٩٣٩ وظلت تصدر لمدة سنتين.

حملة العراق فارس، وقد تألف هذان الفيلقان بكاملها في نهاية سنة ١٩٤٢ من فرقتين بريطانيتين، وثلاث فرق هندية، ولواء مدرع هندي، وفرقة بولونية، مع توقع انضمام قوات اخرى كان يجري تشكيلها. وفي الوقت ذاته تم اعداد الجيش العراقي هو الاخر، اذا ما تحقق التهديد القادم من الشمال، لكي يأخذ مكانه مع هذه القوات في الدفاع عن الممرات الرئيسة من منطقة «اورميا». على ان الدفاع الروسي الناجح عن ستالينغراد، قد وفر الوقت اللازم لاكمال الاستعدادات الجارية في العراق وفارس، وفي الاشهر الاولى من سنة ١٩٤٣، ادى انثلام الخطر الالماني الى تخليص حملة العراق وفارس قبل كل شيء من القيام بدور المقاتل.

اصبح مستطاعا قبل منتصف تلك السنة، نقل عدد من التشكيلات والوحدات الى شمالي افريقيا،لكي تشارك هناك في تعقب العدو المهزوم. وفي شباط سنة ١٩٤٣ تم نقل الفريق مثلند ولسون الى منصب رئيس اركان قوات الشرق الاوسط، والذي تجمعت تحت امرته مراكز قوات حملة العراق فارس، لما تبقى من ايام حياتها هناك، وخلفه في بغداد الفريق السر بونال، الذي اعقبه في منصبه ذاك بعد سنة، الفريق السر ارثر سمث. وكان كل من هؤلاء القادة لحسن الحظ، يمتلك صفات الاستيعاب والعطف اللذين يتطلبها وجود قواتهم في قلب بلد حليف.

كانت المهات التي القيت على عاتق حملة العراق فارس، في طورها الاخير، هي صيانة المواصلات، والاستقرار في المنطقة، وتدريب القوات، ولاسيا البولونية منها، لاستخدامها في ميادين قتال اخرى. وكان واجبها الاخر في بلاد فارس هو زيادة ايصال التموينات الى روسيا بالطرق التي تمر عبر بلاد فارس•وكان الجيش الامريكي منذ اوائل سنة ١٩٤٣ يلعب الدور الكبير في هذه المهمة، وقد اخذ، بتنميته لموارده الواسعة، على عاتقه النهوض بمهات تحسين سكك الحديد، وشبكة الطرق القائمة في بلاد فارس، ونقل ملايين الاطنان من مواد التموين ووسائل النقل والتجهيزات الى مستودعات الروس الساخطين، غير الشاكرين.

لابد ان يكون تاريخ الاحتلال السلمي للعراق مرة ثانية، كما تسميه احدى مدارس الفكر العراقي، قد اثر في الخلفية السياسية لهذه البلاد خلال هذه السنوات، وذلك بما وفره من وسائل لاحباط اية محاولة اخرى تهدف الى اخضاع العراق الى دول المحور، فمع ان القوات البريطانية بانفاقها المحلي الواسع على السلع والخدمات، واستخدامها العمال، ومبادراتها في ميدان الخدمات التي كانت تقدمها قلة من الصناع الماهرين، وشحنها الحبوب والحيوانات الى جبهات اخرى من ميادين الحرب، ان هذه القوات البريطانية قد ساهمت حتما في حدوث التضخم النقدي، وفي الشرور الاقتصادية الاخرى التي اوجدتها فترة الحرب في العراق، الا انها قد اوجدت، في الوقت ذاته، رخاء ملموسا كانت معظم طبقات السكان تستمتع به(!!)[٧].

---

(٧) لانوافق المؤلف على هذا الادعاء الكاذب اطلاقا لان الوقائع تكذبه صراحة. فالذين استفادوا واثروا من وراء السوق السوداء قلة ضئيلة جدا، اما بقية السكان فقد تعرضوا للفقر وللجوع، ذلك لان القوات البريطانية وضعت يدها، كما اعترف

وبايحاء من السفير البريطاني، تم اظهار كل الاهتمام والاعتبار والتقدير للسلطات العراقية، لاولئك الذين قبلوا بوجود القوات البريطانية، بصفة مؤقتة، في بلادهم. والواقع ان المدى الطفيف الذي ناءت به الادارة الاعتيادية في العراق، او الذي دعت الحاجة الى ان يحسب حسابه نتيجة وجود القوات البريطانية، نقول كان ذلك المدى مثارا للدهشة. فلقد كانت العلاقات بين بريطانيا والوصي فاخرة، حيث تقبل في سنة ١٩٤٣ مسرورا، الانعام عليه برتبة عميد جو فخرية في القوة الجوية، كما تم الانعام على اثنى عشر من كبار الموظفين في الحكومة العراقية، بدرجات فخرية مختلفة من وسام الامبراطورية البريطانية، نظرا للخدمات القيمة التي ادوها زمن الحرب.

كان مركز البريطانيين في العراق، خلال هذه السنوات، وبفعل الظروف، يختلف عما كان عليه خلال الفترة من سنة ١٩٣٢ الى سنة ١٩٤٢، كما انه كان يختلف من الاساس عما كان عليه ايام الانتداب. كان وضع البريطانيين هذا مهيمنا بكل جلاء، وكانت هيمنته تلك مرغوبا فيها من قبل بريطانيا، غير ان هذه الهيمنة لم تكن، في الواقع، تهتم بتقوية يد الحكومة العراقية اكثر من اهتمامها بفشلها عن العمل. فلقد بقي السر كنهان كورنواليس في السفارة البريطانية حتى سنة ١٩٤٥، وذلك لكي يربط، بين العالم العسكري البريطاني، والعالم المدني العراقي، ويقدم النصيحة العملية والنافعة للحكومة العراقية. ولقد كانت تساعده في الحفاظ على اتصاله بكل اجزاء البلاد، فئة صغيرة من المستشارين المقيمين بصفة مراقبين ليس الا، في شمال العراق، وفي وسطه وجنوبه.

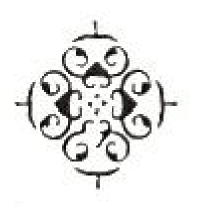
وفي الوقت الذي بقي فيه عنصر العداء الشديد للانكليز، قائما بين ضباط الجيش الذين خابت امالهم، والمعتقلين السابقين، وطبقة المثقفين الساخطين، فان اللهجة العامة للجمهور، وعلى الاخص في الاوساط الفردية والعشائرية وغير السياسية، ظلت مسالمة او ودية ازاء الاحتلال البريطاني[8] فلقد انضم كثير من العراقيين الى منظمة «اخوان الحرية»[9] وهي حركة

المؤلف نفسه، على المواد الغذائية، ووسائل النقل البري والنهري. وليس هناك من نسي في تلك الايام، الالام المضنية التي كان الشعب يعانيها جراء ارتفاع اسعار الحنطة والشعير والرز والسمن والسكر والشاي والاقمشة وغيرها، وعلى الاخص الادوية الطبية. وحتى بعد ان اسست مديرية التموين التي رأسها العقيد الانكليزي «بيلس» فان هذه المديرية لم تستطع وقف المضاربة بالاسعار ومحاربة الاحتكار، بل ان معظم موظفي هذه المديرية انفسهم قد استغلوا وظائفهم بقصد الاستفادة من الاهلين فيما تقرر من توزيعه عليهم من المواد الغذائية وغيرها فقد شارك بعض اولئك الموظفين في مديرية التموين، بعض الناس في فتح حوانيت لبيع الدقيق والسكر والشاي والاقمشة وغيرها.

(٨) انا نخالف المؤلف في ذلك، فلم يكن في ذلك الوقت احد كان ينظر الى الاحتلال البريطاني للعراق نظرة مهادنة او تغافل سوى اولئك الذين انتفعوا ماديا من عودة الاحتلال البريطاني، من بعض رجال السياسة وضعاف النفوس من الموظفين وعلى

ادعت انها كانت تضم سبمائة لجنة اوقفت نفسها لتحقيق العطف والدعم الدائم للقيم الدمقراطية. كذلك استطاع الكثيرون الذين كانوا يتلقون المعلومات والدعاية البريطانية المباشرة، ان يحققوا المساعدة التي كان الجيش البريطاني يستطيع ان يقدمها باستمرار للحاجات وللمصالح المدنية، بما في ذلك تأسيس الجمعية العراقية الانكليزية في لندن التي تأسست في ربيع سنة ١٩٤٥.

اخذ تقليص قوات حملة العراق وفارس يتقدم بصفة جيدة في ذلك الوقت. فقد قلصت هذه القوات من مدى اعمالها الانشائية (مما نجم عنه حدوث بطالة) كما انها قلعت كل سكك الحديد الطارئة، وتخلت عن النقل النهري، وضيقت من منشآت معسكراتها الواسعة في كل من الشعيبة والمسيب. وقد اختفت تلك القوات بصفة نهائية من العراق. في سنة ١٩٤٧، بعد ان تركت وراءها كميات واسعة من المواد المخزنية [١٠] وتراثاً ملموسا من التحسن الدائم في اشكال الابنية، والتجهيزات في ميناء البصرة، وفي سكك الحديد، والطرق الممتدة في البلاد.



الاخص المحافظين والقائمقامين ومدراء النواحي، وبعض مدراء التربية الذين اقبلوا على مكاتب التجسس التي افتتحها الانكليز في كل محافظة وقضاء والتي عرفت باسم مكاتب الارشاد، وكذلك رجال الاعمال وبعض النواب وشيوخ العشائر، وكبار التجار والمتعهدون.

(٩) اشرفت على انشاء منظمة اخوان الحرية وادارتها المؤلفة والرحالة الانكليزية المعروفة «فريا ستارك» وكانت هذه المنظمة تصدر نشرة اسبوعية بالعربية والانكليزية معاً كان يتولى تحريرها وترجمتها الاديب المعروف المرحوم عبد الوهاب الامين وكانت هذه النشرة تطبع في مطبعة الرشيد وتتحدث عن كل نشاطات المنظمة (راجع ماذكره ستدرسن في مذكراته عن هذه المنظمة).

(١٠) من بين مخلفات الجيش البريطاني في العراق كميات من الدبابات والسيارات المصفحة عرضت للبيع بالمزايدة في قاعدة الشعيبة في البصرة وقد اشترك بعض التجار العراقيين مع التاجر اليهودي شفيق عدس، في شراء هذه الصفقة وتصديرها الى ايطاليا ومن هناك تسلمتها العصابات الصهيونية واستخدمتها في محاربة العرب في فلسطين. وقد انكشفت هذه اللعبة وانحصر توجيه التهمة بشفيق عدس وحده دون شركائه الاخرين من العراقيين، حيث جرت محاكمته امام المجلس العرفي العسكري وحكم عليه بالاعدام شنقاً، فنفذ الحكم فيه، واسدل الستار على الشركاء الاخرين في هذه الجريمة النكراء.

٢ . منتصف سنوات الحرب

كانت الازمة التي مر العراق بها في شهر ايار ١٩٤١، قد بررت - بعد ان اعيد الوضع مرة اخرى - قيام حكومات اتسمت بالشدة والصلابة. ذلك لان النفور المنذر بالشؤم لدى الجيش العراقي، وضعف الادارة، والدمدمة المنتشرة بين منظمات الشباب التي جرى حلها، والتهديدات التي كانت تصدر عن انصار رشيد عالي الكيلاني الهارب، والذين كانوا يقولون بان نضالهم غدا الان هو البداية، كل هذه المظاهر قد زادت في تفكك الحياة القومية وشذوذها في العراق، فكانت تستدعي - بعد ان اخذت ظروف الحرب تفرض نفسها - وجود يد قوية وحاذقة. ولكن مثل هذه اليد القوية لم تكن متوقعة، ذلك لان جميل المدفعي الذي دفعه واجبه الوطني وحده، الى الاذعان مرة اخرى، لأن يتقبل الحكم، قد اخذ يعالج الوضع على اساس انه وضع جاء في اعقاب حصول حادث سياسي آخر، ولذلك فانه قد اختار بيسر ذات الدور الذي وقع في يده، بعد مقتل بكر صدقي، اي دور «اسدال الستار» على سوء التصرفات السابقة. ولهذا كانت الهوة واضحة بين الاجراءات التي مارسها، والاجراءات التي يشير اليها وضع العراق الراهن، والضرورات التي تدعو الحاجة اليها، اجل كانت هذه الهوة جلية الى درجة غدت معها سياسة القمع المبكرة التي طبقها، امرا محتما.

كانت الوزارة التي الفها المدفعي، من الوزارات التي تضم الساسة المجربين، ولكن من دون ادخال دم جديد فيها. فنوري السعيد الذي كان وجوده في العاصمة يثير الارتباك للمدفعي، كان قد غادر العراق الى القاهرة في منصب وزير مفوض للعراق فيها[1] ولهذا اعطي منصب وزير الخارجية الى علي جودت، ووزارة الداخلية الى الرجل الشديد المجرب مصطفى العمري، ووزارة

---

(١) استغل نوري السعيد وجوده هذا في مصر في تعزيز الاتصالات مع السلطات الانكليزية وفي رسم الخطط التي كانت بريطانيا تفكر فيها آنذاك لوضع سياسة مستقبلية للعراق وللاقطار العربية في المنطقة، حيث وضع نوري السعيد هناك خطته لانشاء سوريا الكبرى وماسواه من المشروعات التي وان كانت تبدو في الظاهر نافعة للعرب الا انها كانت في جوهرها لصالح القوى الاستعمارية ولتركيز السيطرة البريطانية في الدرجة الاولى على البلاد العربية كلها.

الاشغال الى جلال بابان، ووزارة المالية، ومعها وزارة العدل بصفة مؤقتة الى ابراهيم كمال ذلك الرجل الذي كان الكثيرون يرون فيه رئيس الوزراء المقبل[٢] واعطيت وزارة الاقتصاد الى نصرت الفارسي، في حين تولى رضا الشبيبي وزارة التربية، وجعفر حمندي وزارة الشؤون الاجتماعية.

قابلت هذه الوزارة بصفة ودية المقترحات التي تقدمت بها بريطانيا بشأن اقامة القوات البريطانية في النقاط الستراتيجية، وفرض الرقابة المشتركة على الميناء، فضلا عن الرقابة التي تطلبتها ظروف الحرب. تم اغلاق المفوضية الايطالية في بغداد، وابعاد قلة من المدرسين المحرضين من السوريين والفلسطينيين[٣] وتفكيك اداة الدعاية المعادية بشكل فعال. وقد تمت اعادة الادارة في كل مكان، وشجعت السلطات المحلية على المبادرة بالاعمال التقدمية.

كانت العشائر هادئة، ولم يكن الاكراد نشطين في تلك المدة. ولم تتخذ اية تعقيبات ضد اليزيديين الذين اطلقوا النيران على القائمقامين الاكراد. ولكن وزارة المدفعي اخفقت في اعداد سياسة ثابتة للحرب، وعلى الاخص في الموقف المترجرج الذي وقفته ازاء مثيري الاضطرابات المعروفين، والذين كان التساهل ازاءهم، بالنسبة الى اخطار الحرب، يعتبر حماقة محفوفة بالخطر. كانت سياسة الوزارة تنطوي على التهدئة. ولكن حدثت بعض الاعتقالات القليلة. ومع ان هذه القلة من المعتقلين قد ضمت عبد الواحد سكر واخرين معه من شيوخ رؤساء عشائر الفرات العنيدين الذين لايمكن اصلاحهم. فلم يلق محافظو المحافظات، نتيجة الرأفة التي اسيئ توجيهها، من الوزراء، اي تشجيع للمبادرة بالاعمال الثابتة، ولذلك فلم يتم سوى الشيئ الضئيل من اعمال التطهير الادارية ذاتها. كذلك سمح باتخاذ الاستعدادات لاقامة معسكر اعتقال في «الفاو».

بدت استقالة ابراهيم كمال من منصبه في منتصف شهر ايلول وكأنها سوف تعقبها وزارة يؤلفها هذا الرجل القدير نافد الصبر. غير انه لم يكن يملك الدعم الكافي له. ولذلك فضل عبد الاله، بعد ان اصبح تبديل الوزارة امرا ضروريا، ان يطلب الى نوري السعيد العودة من القاهرة، وذلك لان قابلياته هي التي كانت تتطلبها الظروف القائمة آنذاك. استقال جميل المدفعي في اليوم السابع من شهر تشرين الاول، وبعد يومين من ذلك اعلنت ارادة ملكية بان نوري السعيد قد الف وزارته السادسة. جاء نوري السعيد بصالح جبر ذلك الرجل القوي المؤهل لوزارة

---

(٢) حاول ابراهيم كمال بالتقرب من الانكليز كثيرا. ان يزاحم نوري السعيد في ذلك كي يصبح في المستقبل هو رئيس الوزراء. ولكن احلامه هذه لم تتحقق. وقد دفعه هذا الحلم الى التصدي للوزارة التي كان وزيرا للمالية فيها لانها لم تعاقب المشتركين في حركة ايار عقابا صارما فقدم استقالته (انظر الحسني ج ٥ ص ٤٦ - ٤٧).

(٣) كان من بين هؤلاء الذين طردوا من العراق المرحوم درويش المقدادي واكرم زعيتر وغيرهم، كما الغي تدريس الالمانية والفرنسية في الدراسة الاعدادية ايضا.

الداخلية، وعلي ممتاز لوزارة المالية، وصادق البصام للعدل، وتحسين علي للتربية ومحمد امين زكي للاشغال والمواصلات، وعبد المهدي للاقتصاد، وجمال بابان للشؤون الاجتماعية.

كان العبء الرئيس للادارة يقع على عاتق الوزيرين الاولين من اعضاء هذه الوزارة[٤] ولقد حدثت تغييرات في الوزارة خلال شهر شباط سنة ١٩٤٢ عندما تولى الدكتور عبد الله الدملوجي وزارة الخارجية (لمدة اربعة اشهر حسب)، وحل داود الحيدري في نيسان محل صادق البصام في وزارة العدل، وتولى عبد المهدي وزارة الاشغال مكان محمد امين زكي، وظل رئيس الوزراء يحتفظ بمنصب وزير الدفاع، وراح يضغط على السفير البريطاني في تحقيق رغبته، وهي ان يلعب الجيش العراقي دورا محددا في هزيمة هتلر. ولكن العرض الذي تقدم به نوري السعيد لارسال لواءين عراقيين الى ميادين الحرب في شمالي افريقيا، لم يتم قبوله من لدن الانكليز ومع كل ذلك، وبتأكيد من لدن الوصي، اظهر نوري السعيد حماسة طاغية في اعتقال من سماهم بغير المخلصين، ولو ان الذين كانوا يعطفون على النازيين، والذين استطاعوا ان يحموا انفسهم جيدا من الاعتقال، ظلوا امنين من دون ان يمسسهم شيءٌ، بل اكثر من هذا اعطيت لهم مناصب عالية!

تناقصت الحماسة لهذه الاجراءات، لفترة ما، في اواسط سنة ١٩٤٢، نتيجة النجاحات التي حققها القائد الالماني روميل في الصحراء الغربية[٥] وسرعان مابدأ العمل في انشاء معسكر اعتقال في «الفاو» واعقبه في وقت متأخر انشاء معسكر ثان في الصحراء في موقع «السلمان»، وثالث على ضفة النهر في العمارة، والذي نقل اليه كل المعتقلين بصفة مطلقة، بحيث ارتفع عدد هؤلاء المعتقلين، الى اعظم رقم هو ثلثمائة وخمسون معتقلا. ولقد القى البريطانيون القبض في بلاد فارس على عدد من العراقيين الهاربين الى هناك فاعتقلوهم لبعض الوقت في «الاحواز»، ومن ثم جيءَ بهم لمحاكمتهم في بغداد، او للاعتقال في روديسيا[٦].

تعرضت وزارة التربية لعملية ترقيع كاملة دعت الضرورة الى اجرائها. كما تم فصل عدد يؤلف بضع عشرات من الضباط غير الاكفاء من الجيش، ولكن اعداء نوري السعيد قالوا بان اولئك

---

(٤) المقصود بهما صالح جبر وعلي ممتاز.

(٥) انظر عن ذلك كتاب «المارشال روميل» الذي وضعه اللواء الانكليزي «دزموند يونغ» وقمنا بترجمته واصداره للمرة الاول في سنة ١٩٥٠، وقد صدرت له طبعة ثانية محققة وموسعة في بغداد ١٩٨٤. وطبعة ثالثة في ١٩٨٧.

(٦) التي تعرف الآن باسم «زمبابوي» وكان من بين المعتقلين فيها عضو منظمتنا «الحرس الوطني» السيد عبد الجبار حمزة، بالاضافة الى عدد اخر من انصار الكيلاني ناجي السويدي، الذي توفي هناك، وداود السعدي وعدد من المعتقلين الفلسطينيين الاخرين من بينهم رفيق التميمي الذي توفي ودفن في المقبرة الاسلامية بمدينة سالزبوري (انظر كتاب عثمان كمال حداد عن حركة رشيد عالي).

الضباط الذين فصلوا لم يكونوا اصدقاء لنوري السعيد، وتم في الوقت ذاته تطبيق قانون التجنيد الاجباري بتساهل حكيم على المناطق العشائرية.

قطعت العلاقات مع اليابان وحكومة فيشي، بعد ان تولى نوري السعيد رئاسة الوزارة. وتم ارسال وزير مفوض لاول مرة، هو علي جودت الى واشنطن في شهر اذار سنة ١٩٤٢ بعد وفاة الوزير الامريكي المفوض في بغداد «بول نابنشو» حيث شرع بالاستفادة من التموينات الامريكية، حسب قانون الاعارة والتأجير الامريكي، وذلك ابتداء من شهر ايار تلك السنة. واستطاع رئيس الوزراء ان يحصل على قرار من مجلس النواب لصالح الانضمام الى بيان الامم المتحدة الذي اعلن في اليوم الثاني من شهر كانون الثاني سنة ١٩٤٢، والذي عرف عنه في حينه بانه يعادل اعلان الحرب على دول المحور، وذلك هو الشرط الذي تم اشتراطه للانضمام الى ذلك البيان.

وعقد العراق معاهدة مع الصين، التي كان وزيرها المفوض يقيم في طهران[٧].

استمرت صحافة المحور، ووسائل دعايتها، تصور اوضاع العراق، بانها الاوضاع التي تفرضها السيطرة البريطانية الوحشية، والعمل الاستعبادي، والمؤامرات اليومية، وحركات التخريب، وغليان العشائر، وغير ذلك من الدعايات المضحكة التي كان يدعمها وجود رشيد عالي الكيلاني في اوربا (الذي نقض وعد الشرف الذي تعهد به حين غادر تركيا) وكل من ناجي شوكت، وفوزي القاوقجي وامين الحسيني وغيرهم. ذلك ان هؤلاء الفارين قد استقبلوا من قبل موسوليني، وروبنتروب، وهتلر نفسه، فكانوا يذيعون تصوراتهم للوضع القائم في العراق حسب الطلب. وفي الوقت ذاته لم يكن لزملاء هؤلاء الهاربين في العراق سوى الشئ الضئيل من مجالات العمل. ذلك ان وزارة نوري السعيد كانت قد انشأت محكمة خاصة في اواخر سنة ١٩٤١، وفي شهر اذار سنة ١٩٤٢ صدر الحكم غيابا بالاعدام على رشيد عالي واثنين من وزرائه هما يونس السبعاوي وعلي محمود الشيخ علي، وكذلك على ثلاثة من اعضاء المربع الذهبي هم فهمي سعيد، ومحمود سلمان، وصلاح الدين الصباغ، كما صدرت احكام بالحبس الطويل على كل من ناجي شوكت، وامين زكي سليمان رئيس اركان الجيش، وبمدة اقصر على وزير التربية الدكتور محمد حسن سلمان، ومدير الدعاية صديق شنشل. كذلك اجلت محاكمة متهمين اخرين مماثلين لهؤلاء الى ان تم تقديمهم للمحاكمة. وكان من بين هؤلاء ناجي السويدي (الذي توفي في رودسيا) وثلاثة وزراء اخرين هم كل من علي محمود، وموسى الشابندر، ورؤوف

---

(٧) مالبث هذا الوزير الصيني المفوض ان قدم الى بغداد وانشأ سفارة صينية تابعة لحكومة الجنرال جان كاي جك في سنة ١٩٤٣ وقد ظلت هذه السفارة الصينية قائمة في العراق حتى بعد استيلاء الشيوعيين على الحكم في الصين في سنة ١٩٤٩، ولم يتم قطع العلاقات بين العراق وماعرف بالصين الوطنية في فرموزا، الا بعد سنة ١٩٥١

البحراني وكامل شبيب العضو الرابع في المربع الذهبي، وعبد القادر الكيلاني ابن عم رشيد عالي [٨].

وادى تسليم البريطانيين لعدد من المتهمين الذين قبض عليهم في بلاد فارس، الى العدالة العراقية، الى اعادة محاكمة اولئك الذين صدر الحكم بحقهم غيابا. فلقد صودق الآن حكم الاعدام على يونس السبعاوي، وفهمي سعيد، ومحمود سلمان ونفذ فيهم، في حين صدر الحكم بالحبس لمدة سبع سنوات وخمس سنوات بالتتابع على كل من علي محمود الشيخ علي والفريق امين زكي سلمان، وبرئت ساحة صديق شنشل في الوقت الذي ثبتت فيه الاحكام الاخرى، وقد جرت محاولات اخرى من طراز مألوف اثناء المحاكمة للتأثير في مجرى العدالة.

كانت التشديدات الشخصية التي نجمت عن هذه الاجراءات، وبصفة عامة بالنسبة الى سياسة نوري السعيد في دعمه الخالص الصحيح لبريطانيا حتى في احلك الايام التي مرت بها، قد اثارت القلق الذي اصاب الوزارات، والذي تعاظم نتيجة الخلافات حول الاجراءات الاقتصادية التي تتطلبها الحالة الاقتصادة الخطيرة الآن وقد برزت تلك الخلافات بالمحاولة التي ابداها كل من علي ممتاز وعبد الله الدملوجي للاستقالة من منصبيهما اثناء الصيف، مما كان له تأثيره في الخلل الجزئي الذي اصاب الادارة.

غير ان الوزارة مالبثت ان استقالت في اليوم الثامن من شهر تشرين الاول سنة ١٩٤٢ بعد ان امتد عمرها سنة كاملة، لتعقبها وزارة اخرى الفها نوري السعيد نفسه ولم يطل عمرها اكثر من سبعة شهور. وفي هذه الوزارة احتفظ صالح جبر بوزارة المالية، وعبد المهدي بوزارة الاشغال والمواصلات، في حين اودع نوري السعيد وزارة الداخلية الى حموه تحسين العسكري (اخ جعفر العسكري)، ووزارة الخارجية الى الدكتور عبد الاله حافظ خريج كلية الاقتصاد وطب الاسنان، ووزارة العدل الى داود الحيدري، والتربية الى تحسين علي، والاقتصاد الى رجل الاعمال النجفي محسن شلاش، والشؤون الاجتماعية الى محافظ وحاكم سابق، احمد مختار بابان الكردي بالاسم ليس الا. ولقد عدلت هذه التشكيلة فيما بعد حين تخلى كل من عبد المهدي ومحسن شلاش عن منصبيهما، فاعطي الى سلمان البراك من الحلة الذي تولى وزارة الاقتصاد والمحافظ السابق الشاب عبد الرزاق الازري، الذي اخذ منصب وزير الشؤون الاجتماعية.

اعقبت تأليف هذه الوزارة، زيارة قام بها عبد الاله الى مصر حيث استقبل استقبالا ملكيا من لدن الملك فاروق، وهناك اعاد زيارته لكلية فكتوريا [٩] ومن ثم سافر الى الميدان العسكري في العلمين لتفتيشه [١٠]. اما ابن اخته الملك فيصل الثاني الذي غدا الآن فتى ذكياً تعقد عليه

---

(٨) حوكم كامل شبيب وحكم عليه بالاعدام ونفذ فيه الحكم. اما عبد القادر الكيلاني فلم يكن ابن عم رشيد عالي.

(٩) هي الكلية التي افتتحها الانكليز في مدينة الاسكندرية وظلت قائمة سنوات عديدة الى ان تم الغاؤها بعد ان تأسست جامعة الاسكندرية وحلت محلها.

(١٠) انظر وصف الزيارة التي قام بها عبد الاله لميدان معركة العلمين في مذكرات سندرسن الطبعة الثالثة من ٣١١ ومابعدها.

الآمال، فقد وجه اذاعته باللغتين العربية والانكليزية بمناسبة بلوغه السنة الثامنة من عمره، وذلك في اليوم الثاني من شهر ايار سنة ١٩٤٣.

كان من بين اولى الاعمال التي نهضت الوزارة بها، اعلان الحرب على كل من المانيا وايطاليا واليابان، على اساس الادعاء بالتدخل المتعمد لهذه الدول، في شؤون العراق، وقد اصدرت الوزارة كتابا اخضر عن سياستها في هذا المضمار. اخذ الوزير التركي المفوض ببغداد يقوم برعاية المصالح الفرنسية واليابانية في العراق، في حين كان القنصل السويسري يقوم برعاية المصالح الالمانية. وتبودلت البرقيات الودية، بهذا الشأن، بين نوري السعيد وتشرتشل رئيس الوزارة البريطانية. ولكن لم يكن من المتوقع حصول نتائج عملية من وراء هذه الحركة والتي قد تستعمل لكي تضمن للعراق مكانة افضل في مؤتمر الصلح، وتساعد في الوقت ذاته على ان يفرض العراق زعامته على العالم العربي (١١).

اما الرأي العام الذي لم يظهر لاتحمسا ولااستنكارا لاعلان الحرب، والذي لم يكن يتحسس الا بالقليل من الاحساس الناجم عن ذلك الالتزام، فانه لم يكن يرغب في مساندة رئيس الوزراء الى حد ما، في سعيه الى ارسال القوات العراقية خارج البلاد، كما ان الجيش ذاته قد اصبح الآن قادرا على النهوض بعمليات حربية خارجية. على ان هذه الحالة مالبثت ان تحسنت تدريجيا، بفعل الانتصارات التي حققها الحلفاء في شمالي افريقيا، ولذلك تم تنظيم زيارات لبعض الضباط العراقيين الى مواقع المعارك في ليبيا. وفي الوقت ذاته عملت البعثة العسكرية البريطانية تحت امرة الفريق «برومیلیو» الذي خلف الفريق «ووترهاوس» كل مافي وسعها لاعادة الروح المعنوية للجيش العراقي، وتعزيز روحية رفقة السلاح.

وفي ذات الوقت فان مساهمة العراق، حتى عند عدم مشاركته في القتال، في المجهود الحربي الحليف، لايمكن نكرانها ابدا. ذلك لان العراق قدم الى البريطانيين مواقع المعسكرات والاراضي اللازمة لها من دون بدل ايجار، كما قدم المباني حسب الطلب من دون ادنى اعتراض، ووضعت السيطرة الاقتصادية طبقا لنصائح البريطانيين، وتمت المشاركة في ادارة وسائل النقل النهري، وادارة الميناء، او تم التخلي عن هذه الوسائل للبريطانيين. كذلك تم تقبل استعمال سكك الحديد العراقية لاوسع استعمال عسكري، واعطيت الافضلية لمتطلبات

---

(١١) يتبين من هنا مدى قصر نظر نوري السعيد في هذا الشأن. فلقد كان هذا الرجل شديد التعلق بالانكليز ومشاريعهم الاستعمارية. ولذلك راح يضغط منذ وقوع الحرب على اعلان الحرب على دول المحور مسبقا، وارسال لوائين من الجيش العراقي للاشتراك في القتال الى جانب الحلفاء في ميادين القتال المختلفة، على امل ان يقيم الحلفاء هذه السياسة بعد انتصارهم في الحرب، فيحققوا الكثير من الوعود للعرب وللعراق. ولكن نسي نوري السعيد والسائرون معه في هذه السياسة ان الانكليز لم يفوا باي من الوعود التي قطعوها للعرب خلال الحرب العالمية الاولى، وانهم اي الانكليز ورفاقهم في الحرب كانوا يتصرفون وفق ماتمليه عليهم مصالحهم الاستعمارية دون اهتمام او رعاية لاية عهود او مواعيد اخرى سبق لهم ان قطعوها. والا فاين ذهبت فلسطين واين ذهب اهلها الشرعيون؟؟

رجال الجيش ، ووضعت اجهزة البرق والهاتف تحت التصرف العسكري ، وتم توفير الكميات اللازمة من الحبوب للقوات البريطانية[١٢] .

حالت مشاق تدبير الاقتصاد ، وعدم توازنه ، والتي اصابت العراق في هذه الفترة ، دون تنفيذ المشاريع الكبرى التي كانت النيّة معقودة على تنفيذها . ومع كل ذلك كان التقدم المدني يسير قدما ليس في العاصمة بغداد حسب ، بل وفي الضواحي التي خططت ، وشرع ببناء اجزاء منها ، والاقدام على البدء ببناء منازل لافراد الطبقة العاملة[١٣] لكي تحل محل الاكواخ غير الصحية المبنية من الطين وصفائح النفط الفارغة . والواقع ان سني الحرب قد شهدت تغييرات في مظاهر المدن . فقد تضاعف عدد المؤسسات البلدية ذاتها وان كانت موارد معظم المؤسسات والشركات ضئيلة ، ولو ان ايراداتها بلغت ثلاثة اضعاف ماكانت عليه خلال هذه السنوات الخمس . وبايماءة من امين عاصمة لندن (اللورد ماير) رافقتها رسائل اخوية ملائمة اقدم على اهداء امين العاصمة في بغداد وسام «سلسلة الادارة» .

واصلت الخدمات الصحية تطورها ، وازداد عدد الاطباء الذين يعملون لحساب الادارة ، كما ازداد عدد المتدربين الخاصين الذين جند معظمهم من الكلية الطبية في بغداد . وكان الاخصائيون البريطانيون الذين خدموا العراق بعلومهم طيلة عشرين سنة ، مايزالون يؤدون دورهم الذي لاتنكر قيمته . كذلك لم يحدث اي توقف في ميدان التربية خلال هذه الفترة . فقد تم سن قانون معدل للتربية العامة ، وارتفع عدد المدارس الابتدائية والمتوسطة والثانوية للفتيان والفتيات ومن النوع المختلط ايضا ، كما تم تأسيس الكثير من المدارس الخاصة الجديدة .

كان عدد الطلاب الذين ارسلوا للدراسات العليا في الخارج ، قليلا اثناء الحرب ، ولكن الفيض من ارسال هؤلاء قد بدأ مرة اخرى وبصفة قوية في سنة ١٩٤٤ . وفي سنة ١٩٤١ انشئت في بغداد مدرسة ثانوية حسب الاسس الاوربية ، توفر السكن والغذاء للطلاب عرفت باسم كلية الملك فيصل ، كما اعيد فتح مدرسة الصناعة في الموصل سنة ١٩٤٢ ، وفتحت مدرسة مماثلة لها في كركوك سنة ١٩٤٥ واسس معهد الملكة عالية في سنة ١٩٤٢ ، ولكن كلية

---

(١٢) ماذا كان جزاء العراق من بريطانيا ازاء هذه الخدمات ياترى ؟ هل غيرت هي وحلفاؤها من مواقفهم ازاء القضية الفلسطينية ، وقللوا من تحيزهم للصهاينة ؟ هل جلت بريطانيا جلاء تاما ومباشرا عن العراق بعد انتهاء الحرب فورا ، وامتنعت عن التدخل في شؤونه ؟ لقد كان ثواب العراق محاولة ربطه بمعاهدة بورتسموث التي تكاد لاتختلف بشيء ما عن معاهدة سنة ١٩٣٠ وان كانت موادها قد بطنت بعبارات تحتمل التأويلات والتفسيرات المتناقضة !

(١٣) انشئت اول هذه المنازل الصغيرة في منطقة «تل محمد» المجاورة لبغداد الجديدة ابتداء من سنة ١٩٤٧ وما بعدها ، وقد وزعت هذه المنازل على عدد من العمال ونواب الضباط والعرفاء في الجيش العراقي .

رياضة فتحت بعد سنة متأخرة عن ذلك ولم تعش اكثر من اربع سنوات[١٤] واسس معهد الفنون الجميلة مع اقسام منفصلة فيه للموسيقى والرسم والنحت والتمثيل . وعمل الاستاذ «همليAccept» مستشاراً لوزارة التربية خلال ١٩٤٢ - ١٩٤٣ . وهو اول مستشار لهذه الوزارة بعد فترة استمرت عشر سنوات ، وقد خلفه في ذلك «ربتش» للفترة ١٩٤٤ - ١٩٤٥ ، والمقدم «سكيف» من جامعة القاهرة للسنتين اللتين اعقبتا ذلك .

كانت دائرة الاثار جمة النشاط . فقد قامت بالتنقيب في موقع «العقير» على بعد خمسين ميلا جنوبي بغداد في السنة ١٩٤٠ - ١٩٤١ وفي موقع «دير» على قناة اليوسفية[١٥] وفي عكركوف خلال ١٩٤٢ - ١٩٤٤ وفي تل حسونة قرب الموصل ١٩٤٣ - ١٩٤٥ وان كان القسم الاعظم من اعمال التنقيب هذه ، قد انجز على ايدي الباحثين العراقيين الذين اصابوا مؤهلات عالية في هذا المضمار .

اما الادارة ذاتها ، والتي اصيبت بهزة عنيفة نتيجة حوادث ايار ١٩٤١ والضغوط التي اعقبتها ، وما جابهته من مهمات جديدة ومزاجات جديدة، فانها قد انحطت بصفة منظورة في كفاءتها واعتبارها ، ولم تعد تتوفر الوحدة الوزارية ، ولا الضغط الاداري لتصحيح هذا الضعف ، ولذلك ادت النتائج التي نجمت عن ذلك الى تجدد الشكاوى ضد «الوصاية القديمة» من النقاد الذين اخذوا يلحون على ادخال دم جديد في الوزارة ويفضلون انفسهم على غيرهم في هذا الشأن .

لم تسمح فترات اواسط سني الحرب واواخرها في الواقع ، باي مجال لوقوع الانقلابات العسكرية ، او تحريض شيوخ العشائر ، او الايحاء بوقوع الاضرابات . ولكن هذه الفترات سمحت بحدوث الشيء الكثير جدا من الدسائس الشخصية ، والنقد العنيف المشترك ، ووضع العقبات المتعمدة التي كان يجري اثارتها في الايام الاعتيادية . ولقد استقبلت انباء الحرب المثيرة الاتية من ميادين القتال في ليبيا وتونس خلال شتاء سنة ١٩٤٢ - ١٩٤٣ بمنح عطلات عامة لموظفي الدولة وغيرهم ، وتسمية بعض الشوارع ببعض الاسماء ، وانتهاء امال اولئك الذين كانوا يعطفون على النازيين ، وتلك امال لم تنبعث مجددا بسبب القاء القبض على ثلاثة من الضباط الالمان الذين هبطوا بالمظلات على مقربة من الموصل ، وعلى دليلهم الكردي .

---

(١٤) اعيد فتح كلية الرياضة مرة اخرى قبيل ثورة تموز ١٩٥٨ ومازالت قائمة حتى الان وقد تضاعف عدد الطلاب والطالبات التي يجري قبولهم فيها .

(١٥) المعتقد بصفة عامة لدى علماء الاثار ان موقع «دير» هذا هو ذات الموقع الذي كانت تقوم فيه مدينة (اكد) عاصمة الدولة الاكدية . ولقد قامت بعثة بلجيكية بالتنقيب في هذا الموقع في سنة ١٩٧٤ فعثرت فيه على مكتبة واسعة تضم اكثر من عشرة الاف رقيم مكتوب بالخط المسماري ، في حين لم توفق مديرية الاثار العامة الى ذلك رغم اشتغالها في التنقيب في ذات الموقع عدة سنوات منذ سني الحرب الثانية .

ادى تحسن الاحوال الى تحول السياسة الوزارية نحو الاهتمام المتزايد ، بقضية المعتقلين في معسكرات الاعتقال في العمارة وفي رودسيا . وقد اعتبر اطلاق سراحهم ، في نظر السفارة البريطانية عملا محزنا جاء قبل اوانه[١٦] ، واعقب ذلك اعادة رجال الى وظائف الدولة العامة ، ممن اشتهروا بالعنف ضد البريطانيين والهاشميين. وفي الوقت ذاته وقع عمل غير سياسي نافع من قبل اللجنة التي ضمت اعضاء من مجلس الاعيان والحكام ، واشترك فيها كل من دراور وادمونز ، بصفة مستشارين للنظر في تعديل الدستور وتصحيح بعض النواقص الظاهرة فيه ، وقد اجتمعت هذه اللجنة في اوائل سنة ١٩٤٣ ووضعت مسودة قانون ، ونتيجة جهودهم صادق النواب والاعيان عليه خلال شهري ايار وحزيران من تلك السنة[١٧] .

ولما كان تعديل الدستور قد تطلب قيام برلمان جديد ، فقد اعيد عرض القانون المذكور مجددا على مجلس النواب الذي نجم عن الانتخابات الجديدة التي جرت لاول مرة منذ سنة ١٩٣٩ ، والذي التأم في اليوم التاسع من شهر تشرين الاول وصادق على التعديل . وكان مما اشترطه التعديل الذي ادخل على الدستور ، انه في حالة عدم وجود وريث واضح للعرش ، يجوز اختيار وريث ذكر من اسرة المرحوم الملك حسين . وفي هذه الحالة ينبغي تسمية الوصي نفسه لذلك . وقد زيدت امتيازات الملك اذ منحت له السلطة في طرد رئيس الوزراء ، وذلك حكم لم يكن موجودا من قبل ، وادى تطبيقه بصفة متكررة الى احداث كثير من التغييرات العنيفة واللاقانونية في الحكومة .

اصبح مسموحا بزيادة عد اعضاء الوزارة من دون اي تحديد ، وان يشتمل العدد على نائب لرئيس الوزراء ، وعلى عدد من الوزراء بدون وزارة ، على ان لايقل ذلك عن سبعة وزراء. ولم يحدد اعضاء مجلس الاعيان بعشرين عضوا،بل ان يزاد هذا العدد على ان لا يتجاوز ربع عدد النواب . وقد تم تجريد البرلمان من سلطة العفو عن الاشخاص الذين يقترفون جرائم

(١٦) افرجت الحكومة في ١٣ كانون اول ١٩٤٣ عن خمسة وثلاثين معتقلاً واعقبت ذلك في الخامس من شهر تموز ١٩٤٤ الافراج عن سبعة وخمسين معتقلاً وفي يوم ١٨ منه عن ثلاث وعشرين وفي الخامس من كانون الاول عن واحد وخمسين معتقلاً .

(١٧) تألفت هذه اللجنة من السادة جميل المدفعي ، ومصطفى العمري ، وبهجت زينل ، وعبد الجبار التكرلي وتوفيق السويدي وعمر نظمي ومحمود صبحي الدفتري ، ونوري القاضي ، وعبد الهادي الظاهر وانطوان شماس وجميل عبد الوهاب ، وعبد الوهاب محمود . اما اللجنة التي يشير المؤلف اليها فانها كانت قد تألفت في عهد الملك غازي من كل من ناجي السويدي ، ورستم حيدر ، وعبد العزيز القصاب ودراور مستشار وزارة العدل . وقد طال امد النظر في هذا الموضوع ولم يتم الانتهاء منه وصياغة الدستور الجديد،الا في اليوم التاسع من حزيران سنة ١٩٤٣ .

ضد الدولة [١٧] وجوز امكانية عقد اجتماعات مجلس النواب خارج العاصمة عند الضرورة . وكان هذا الاجراء يمثل صدى واضحا لاقامة عبد الاله في الديوانية وفي البصرة خلال سنة ١٩٤١ ، واخيرا اباح التعديل امكانية اختيار الاجراءات الدستورية المعمول بها في البلدان الاخرى بقرار من مجلس النواب والاعيان ، ان لم تكن مثل تلك الاجراءات مناقضة للدستور.

كانت الانتخابات العامة التي اجريت في اواسط سنة ١٩٤٣ ، والتي اعقبت حل مجلس النواب في شهر حزيران من تلك السنة ، قد سبقتها اعادة اخرى لتأليف الوزارة . فقد ذهب صالح جبر الى وزارة الداخلية ، وتحسين العسكري الى الاشغال والمواصلات ، ولم يتغير منصبا وزيري الاقتصاد والشؤون الاجتماعية اللذين كان يشغلها كل من عبد الرزاق الازري وسلمان البراك . وجاء احمد مختار بابان الى وزارة العدل التي شغرت بخروج داود الحيدري منها، وعين المحامي المقتدر نصرت الفارسي وزيرا للخارجية ، وعبد الاله حافظ للتربية ، وتحسين علي رئيساً للديوان الملكي ، وجلال بابان للمالية . ولكن اعادة تأليف الوزارة كانت قلقة منذ البداية ، نتيجة تعاظم حرارة الصيف ، وتغيب رئيس الوزراء الدائم في سوريا ومصر والثقة الضئيلة التي حظيت بها من لدن القصر .

ولذلك فان هذه الوزارة لم تستطع ان تفعل سوى الشيء الضئيل ، وقد ازدادت ضعفا في شهر ايلول من تلك السنة ، بسبب الخلافات التي نشبت بين الوزراء انفسهم ، وبين رئيس الوزراء وعبد الاله حول اشخاص البرلمان الجديد الذي ينبغي ان يتم اختياره لكي يلعب دورا تنفيذيا كبيرا كالمعتاد . ولذلك شهد الاسبوع الاول من تشرين الاول استقالة نصرت الفارسي الذي احتل مكانه تحسين العسكري بصفة مؤقتة ، واستقالة صالح جبر الذي خلفه في منصبه ، احد المحافظين الكفوءين هو عبد الله القصاب ابن اخ عبد العزيز القصاب ، وكذلك استقالة جلال بابان الذي اودعت واجباته الى عبد الاله حافظ .

كان المجلس الجديد يضم خمسة وستين من النواب السابقين ، وكان البعض منهم من المشكوك في قابلياتهم ، غير انهم لم يكونوا من المعادين للانكليز بصفة ظاهرة . وكان واحد وخمسون من اعضاء هذا المجلس الجديد قد صوتوا سنة ١٩٤١ تحت ضغوط مختلفة الى جانب عزل عبد الاله عن الوصاية . اعقب افتتاح البرلمان واقرار تعديل الدستور مغادرة رئيس الوزراء

---

(١٧) في اعتقادنا ان هذا الجزء من التعديل كان هو الهدف الرئيس من التعديلات التي ادخلت على الدستور ، ومنح الوصي في الدرجة الاولى ، والى ان يبلغ فيصل الثاني سن الرشد ، ان بقي على قيد الحياة حتى ذلك الوقت ، سلطات دكتاتورية في الانتقام من خصومه او الثائرين عليه كما حدث ذلك فعلا في اعقاب ثورة ايار ١٩٤١ حين اصر اصرارا شديدا على اعدام العقداء الاربعة ، وقصد تركيا بنفسه ليطلب من رئيس جمهوريتها عصمت اينونو ، تسليم صلاح الدين الصباغ الذي لجأ اليها بعد فشل الثورة ، وجلبه الى العراق واعدامه امام باب وزارة الدفاع وحضوره بنفسه عملية الاعدام .

مرة اخرى الى مصر للمضي الان في اهتمامه الذي اشغله في ذلك الوقت في تعقب خطوات الوحدة العربية[18] .

في اواخر تشرين الاول ١٩٤٣ وصلت على الفور انباء تتحدث عن حدوث قلاقل في منطقة برزان الجبلية . كما ان عبد الاله ، الذي قد اصبح الان وليا للعهد قد غادر العراق الى بريطانيا استجابة لدعوة تلقاها من الملك جورج السادس ، وقد سبقه الى هناك داود الحيدري الذي عين وزيرا مفوضا للعراق في لندن ، وصحبه في سفرته الطبيب الخاص سندرسن باشا وحاشية عسكرية ، حيث استقبله الدوق غلوستر ، فمكث يومين في قصر بكنغهام ، وامضى اياما اخرى في لندن ، قبل ان يعود الى بغداد في اواسط شهر كانون الاول عن طريق لشبونة . وقد استقبل في كل مكان حل فيه ، باستقبال فاخر ، وخلق عنه ذات الانطباع[19] .

وما ان وصل عبد الاله العاصمة حتى جابه على الفور مهنة تأليف وزارة تكون اكثر اتحاداً او اكثر كفاءة ، غير ان علاقاته مع نوري السعيد كانت تمر آنذاك خلال مرحلة غير اعتيادية من نفاد الصبر ، وانعدام الثقة ، اذ كانت الاحاديث التي تجري بينهما مشوبة بالقلق[20] لم يكن ابراهيم كمال الذي لم تستخدم قابلياته غير راغب ، بل غير قادر على الاصح في ان يتقبل منصب رئاسة الوزارة الذي كان يعتقد بانه سوف يعرض عليه[21] في حين دعي نوري السعيد الذي استقال من رئاسة الوزارة لكي يؤلف وزارة اخرى هي وزارته الثامنة،وقد تم الاعلان عن تأليف هذه الوزارة يوم عيد الميلاد سنة ١٩٤٣ [22] حيث سانده لاول مرة نائب لرئيس الوزارة ، هو توفيق السويدي ووزراء جدد منهم ماجد مصطفى ، وهو موظف كردي سابق له نفوذه الذي تولى

---

(١٨) كان الانكليز قد لوحوا في ذلك الوقت لبعض الحكام العرب ، بامكانية انشاء منظمة عربية اقليمية هي جامعة الدول العربية لكي تلهيهم وتعوضهم عن الوحدة العربية التي كانت الجماهير العربية المتحمسة لها تتطلع اليها ، حيث ولدت هذه الجامعة العربية في مقر وزارة الخارجية البريطانية ، كما ذكر ذلك الصحفي الانكليزي اليهودي «جون كمشي» في كتاب صدر له عن الشرق الاوسط آنذاك .

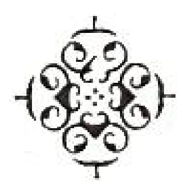
(١٩) انظر عن هذه الزيارة مذكرات سندرسن باشا ص ٣٠٩ ومابعدها . الطبعتان الثانية والثالثة .

(٢٠) نعتقد ان ماحدث الان بين عبد الاله ونوري السعيد شبيه بما حدث بين فيصل الاول وعبد المحسن السعدون ، اذ اصبح عبد الاله يغار من اعتماد الانكليز على نوري السعيد بدلا من اعتمادهم عليه ، اي عبد الاله .

(٢١) اشرت في تعليق سابق الى الاحلام التي كانت تراود كمال ابراهيم في الظفر برئاسة الوزارة وكان منبع تلك الاحلام احاديث عرضية تحدث بها المستر «هولت» سكرتير السفارة البريطانية المشهور في بغداد الى كمال ابراهيم ، عن قابلياته التي لم تقدر حق قدرها ، والتي تؤهله لتولي رئاسة الوزارة .

(٢٢) تألفت الوزارة السعيدية الثامنة في اليوم الخامس والعشرين من شهر كانون الاول سنة ١٩٤٣ .

منصب وزير بلا وزارة للشؤون الكردية [٢٣] ومحمد حسن كبة وهو حاكم سابق . اما الوزراء الاخرون فكانوا جميعهم ، ونتيجة للخوف من الاصلاحيين ، من الممثلين الضليعين لعصابة حاكمة كانت قد تألفت منذ وقت طويل ، وكان من بين هؤلاء سلمان البراك وزير الاقتصاد ، وصادق البصام وزير الاشغال ، وعمر نظمي التركماني الذي تولى وزارة الداخلية ، واحمد مختار بابان ، ومحمود صبحي الدفتري ، وعلي ممتاز ، وعبد الاله حافظ وزراء العدل والخارجية والمالية والتربية [٢٤] ولقد عرض نوري السعيد على كامل الجادرجي منصب وزير الشؤون الاجتماعية فلما رفضه تحول الى محمد حديد .



(٢٣) كان ماجد مصطفى يشغل منصب محافظ العمارة قبل استيزاره وقد قام باول مشروع للاسكان في مدينة العمارة ، اذ وزع قطعا من الاراضي على سكان المدينة لاقامة مساكن لهم على جنب الطريق القادم من بغداد ولاتزال هذه المنطقة او المحلة تعرف باسم «الماجدية» حتى الان وقد اختير للمنصب الوزاري بفضل الجهود التي بذلها في افشال ثورة برزان آنذاك .

(٢٤) تولى نوري رئاسة الوزارة ووزارة الدفاع وكالة ، وتوفيق السويدي نيابة رئيس الوزراء ، ومحمود صبحي الدفتري لخارجية ، عمر نظمي للداخلية ، علي ممتاز للمالية ، احمد مختار بابان للعدل ، صادق البصام للاشغال والمواصلات ، عبد الاله حافظ للتربية ، سلمان البراك للاقتصاد محمد حسن كبة للشؤون الاجتماعية ، وماجد مصطفى وزيراً بلا وُزارة.

٢ ـ وزارة حمدي الباجه جي

كانت وزارة نوري السعيد الثامنة،وزارة تعسة منذ البداية،ذلك لان رئيسها الذي لم يهتم اهتماما طويلا بالادارة الداخلية، قد انهكته اهتماماته الكثيرة، وغيابه المتواصل، نتيجة الزيارات التي كان يقوم بها الى البلدان العربية. ولقد ضمت وزارته تلك شخصيات كان يشك في تقبل عبد الاله لها، وكذلك تقبل اوساط البلاط التي كان يرأسها تحسين علي، تلك الاوساط التي انضمت الى المعارضة في صفة سياسية شائكة... حيث كثر التساؤل عن تعيين توفيق السويدي في منصب نائب رئيس الوزراء، ولذلك مالبث هذا ان استقال في شهر اذار ١٩٤٤.

كانت وحدة العرب، وتزايد زيارات اقطاب الدول العربية من الخارج، وتعاظم التهديد الذي تنذر به الحركة الصهيونية، المدعمة من لدن الامريكيين في داخل فلسطين، كل هذه الامور قد اخذت تعمل على رصّ صفوف شخوص الوزارة كلها، بل في الواقع، رص كل آفاق الفكر. ولكن معضلة السياسة التي طرحتها القضية الكردية، كان لها تأثيرها المعاكس. ولذلك ادى الموقف التحرري (اللبرالي) الذي وقفه نوري السعيد ومستشاروه البريطانيون، الى ظهور معارضة حادة ومتحمسة في كل مكان. فحتى الاقدام على انشاء وزارة للتموين التي كانت ضرورية ويجب تحقيقها (مع انه لم يتم العثور على وزير كبير كان يرغب في ان يشغلها) حتى ذلك، جوبه بالانتقاد من لدن الكثير من الذين كانوا ينعمون بالرخاء على حساب انعدام الرقابة الاقتصادية،وفي الوقت ذاته تضاعفت الضغوط الشخصية والتقلبات السياسية التي حدثت في تلك الاوقات، من المشاق الاعتيادية للادارة.

في غمرة هذه التيارات من الاضطراب والقلق، والتي غدت جد ظاهرة في النقد المتفشي داخل البرلمان، ومشاهد الحنق الواضحة فيه، استمرت سياسة الملاينة والتسامح ازاء المعتقلين، ولذلك اطلق سراح المزيد منهم من معسكر اعتقال العمارة في شهر شباط ١٩٤٣، وسرعان ماأخذ الصحفيون من اولئك المعتقلين، ينفسون عن كربهم، ويعبرون عن احاسيسهم بمقالات

صحفية تثني على النازيين[١]، ولم يكفوا عن ذلك الا بعد ان تم تهديدهم باعادتهم الى المعتقلات مرة اخرى.

خلال الشهرين التاليين اطلق سراح اخرين من المعتقلين، واعيد عدد من العراقيين الذين اعتقلوا في روديسيا، الى العراق، حيث تم تقديم البعض منهم الى المحاكمة. وبعد مرور اربعة اشهر على ذلك، حكم بالاعدام شنقا على كامل شبيب احد العقداء الاربعة، وعلى الشريف شرف، وكل من علي محمود الشيخ علي، وموسى الشابندر بالسجن ثلاث سنوات، وعلى رؤوف البحراني بالحبس لمدة سنتين، وعبد القادر الكيلاني بالحبس ثلاثة اشهر على ان يتم حجزه في احد المعتقلات بعد انتهاء مدة حبسه.

استأنف كثير من الذين كانوا معتقلين حملة المعارضة ضد السياسة المطبقة في البلاد، وضد الارتباط البريطاني بتلك السياسة. وفي حالات عديدة اعيد اولئك المعتقلون الى العمل، من دون قيد، في وظائفهم السابقة. اما حالة الجيش العراقي فانها، وان كانت قد تحسنت تحسنا ظاهرا. الا انها لم تكن مرضية، وهذا الامر قد وفر بحد ذاته مجالا لتنفيذ الخطة التي تحمس الفريق «رنتن» المفتش العام للجيش، لتنفيذها اى خطة «اعادة تنظيم الجيش»[٢]. وكان رنتن هذا قد خلف «الفريق بروميلو» في منصبه ذاك في شهر ايار ١٩٤٤.

في اوائل صيف تلك السنة، اصبح وضع وزارة نوري السعيد امراً لايطاق. ولما لم تجد طلبات نوري السعيد للحصول على مساندة عبد الاله له في سياساته، اية استجابة، اضطر نوري الى ان يقدم استقالة وزارته في اليوم الثالث من شهر حزيران سنة ١٩٤٤، وعندئذ اختار عبد الاله رجلا كهلا نصف مريض، لكنه محترم تمام الاحترام، هو حمدي الباجه جي. لقد ذكر في حينه بان اعضاء هذه الوزارة قد انتقاهم عبد الاله نفسه بشكل مفصل، ولذلك عرفت باسم

---

(١) هذا قول مخالف للحقيقة. فلم يعد احد في ذلك الوقت، وبعد ان سيطر الاحتلال الانكليزي الثاني على كل صغيرة وكبيرة في العراق، يستطيع ان يتحدث عن النازية او النازيين الاهسا. اما الصحفيون المعتقلون الذين استأنفوا اصدار صحفهم، وكان من بينهم المرحوم رفائيل بطي، فانهم شرعوا منذ اول عدد صدر من صحفهم، يتملقون عبد الاله، ويتزلفون اليه، لكسب رضاه، وللتدليل على «توبتهم» مما نسب اليهم قبلا من تأييد النازيين.

(٢) كانت هذه الخطة قد اعدتها بريطانيا وشرعت بتنفيذها بعد فشل ثورة ايار سنة ١٩٤١. وكانت تستهدف تنقية الجيش من كل العناصر ذات الاحساس الوطني الشريف، وتقريب المتزلفين الى الوصي، والى افراد البعثة العسكرية البريطانية. ونتيجة لتطبيق هذه المؤامرة، فقد احيلت اعداد كبيرة جدا من الضباط على التقاعد، واعطيت مناصب رفيعة في الجيش لعدد من الضباط غير النابهين الذين لم يكونوا اهلا لاشغال مثل تلك المناصب، وهكذا خيل للانكليز ولعميلهم عبد الاله بان الجيش قد «تطهر» من عناصر التمرد والثورة، ولكن النار كانت تحت الرماد فعلا، ودأب الضباط الواعون المتحمسون لتحرير بلدهم يعملون تحت ستار التظاهر بتطبيق الاوامر والتعليمات البريطانية، في اعداد العدة لليوم المرتقب لانقاذ العراق، حيث حل يوم الرابع عشر من تموز ١٩٥٨ ليضع نهاية للاستعمار البريطاني في العراق، وليقضي على الاعمدة العميلة التي كان يستند اليها.

«وزارة الوصي». وقد احتفظ وزيران من وزارة نوري السعيد المستقيلة، هما احمد مختار بابان، ومحمد حسن كبة بمنصبيهما في وزارتي الشؤون الاجتماعية والعدل، واعطيت وزارة الخارجية والتموين بصفة مؤقتة، الى ارشد العمري امين العاصمة الناجح المشهور، ووزارة الاقتصاد الى اختصاصي من الاكراد هو توفيق وهبي العقيد السابق في الجيش[٣] ووزارة الدفاع الى تحسين علي من البلاط، والاشغال الى عبد الامير الازري وهو مهندس متخرج في امريكا كان يشغل وظيفة مدير الري. والداخلية الى مصطفى العمري، والمالية الى صالح جبر، والتربية الى الدكتور ابراهيم عاكف الالوسي، وعلى هذه الشاكلة ضمت الوزارة اثنين من الاكراد احدهما كردي حقيقي، والاخر كردي بالاسم.

شعر نوري السعيد انه في حاجة الى الراحة، ولذلك فلم يرغب ان يشترك في الوزارة، في حين ان ابراهيم كمال لم يكن ليقبل بشيء سوى رئاسة الوزارة. اعلنت الوزارة منهاجا يتضمن اجراء تطهير في صفوف الموظفين، وتحسين ترتيبات التموين، والسلامة العامة، والمبادرة بانشاء مشاريع جديدة وعلى الاخص في المناطق الشمالية من العراق، وتطوير الخدمات الاجتماعية، والدعم الكامل للوحدة العربية.

لم تكن الاسابيع الاولى من عمر وزارة الباجه‌جي تدعو الى التفاؤل، ذلك لان رئيس الوزراء كان مريضاً وغير اداري حسبما كان يرغب ان يكون. وقد ظهر ان ارشد العمري كان يتطلع الى ان يسيطر على زملائه من الوزراء، وان يفرض اشرافه على التعيينات في الحكومة، في الوقت الذي قاوم فيه تحسين علي وزير الدفاع، مشروع اصلاح الجيش الذي اعده الفريق «رنتن» بينما ايد زملاء تحسين علي الاخرون ذلك الاصلاح، وكان هذا المشروع يشتمل على اعادة تجميع الجيش، وخفض قوته من اربع فرق الى ثلاث فرق. كذلك انقسمت الوزارة منذ البداية بشأن سياستها ازاء الاكراد، في الوقت الذي كان فيه كل من تحسين علي ومصطفى العمري يشكان في قيمة الامتيازات التطورية التي وعد بها نوري السعيد، والتي غدا رئيس الوزراء وارشد العمري يساندانها في شهر اب، وبعد مرور شهرين على تأليف الوزارة، ارغمتها الانقسامات التي حدثت فيها على الاستقالة[٤] لكي يعاد تأليفها من شخوص لم تتغير عن ذي

---

(٣) كان توفيق وهبي برتبة رائد (رئيس اول) في الجيش العثماني، وكان ضمن الرعيل الاول من الضباط العراقيين الذين عادوا الى العراق بعد انتهاء الحرب وتم قبولهم في الجيش العراقي الذي انشئ في السادس من كانون الثاني ١٩٢١. وفي اثناء الحرب العالمية الثانية اظهر توفيق وهبي ولاءه للانكليز تحت اسم مساندة الدمقراطية ونشر كتابا فيه ذم للنظم النازية ثم عكف على كتابة بحوث التربية ولغوية في مجلة المجمع العلمي الذي اختير عضوا فيه وقد امضى السنوات الاخيرة من حياته في لندن الى ان توفي فيها في اوائل سنة ١٩٨٤ وجيء بجثمانه الى العراق ليدفن في الموقع الذي اختاره قرب السليمانية.

(٤) استقالت وزارة حمدي الباجه‌جي الاولى في ٢٨ اب ١٩٤٤ وقد ذكر في كتاب الاستقالة ان سببها «عدم وجود التآزر بين بعض الوزراء».

قبل، ماعدا حذف تحسين علي منها. اعطيت وزارة الدفاع وكالة الى ارشد العمري الى ان تم تعيين رئيس الاركان الفريق اسماعيل نامق لهذا المنصب في شهر كانون الاول، وعهد بوزارة التموين الى صالح جبر وزير المالية[٥] الى ان تم قبول يوسف غنيمة مدير المالية العام، ووزير المالية السابق، ومدير الاثار مؤخرا، بذلك المنصب الذي لم يكن ليحسد عليه في شهر ايلول، كذلك استبدل محمد حسن كبة وزير الشؤون الاجتماعية بالدكتور مجيد علاوي[٦] في شهر كانون الاول.

على هذه الشاكلة تم تعديل وزارة الباجه جي فبقيت في الحكم ثمانية عشر شهرا، وهي مدة تعتبر طويلة بالنسبة الى المستويات العراقية لاعمار الوزارات وقد عاشت هذه الوزارة السنة الاخيرة من الحرب، والاشهر الستة الاول من عهد السلم. غير ان فترة الهدنة التي تم الاحتفال بها بمنح عطلات ومنحة مالية للموظفين، لم تكن تؤثر الا قليلا في مسرى السياسة والادارة داخل العراق.

لقد كانت الحرب العالمية الثانية، وبعد ان توقف احتمال نشوب القتال في غربي آسيا، واحدا من العوامل التي اثرت في اهتمامات البغداديين واشغلتهم. فقد اتسمت تلك الفترة بالاهتمام الخارجي الرئيس، وذلك في تطلع العراقيين الى المشاركة في الحركة المتجهة نحو تحقيق الوحدة العربية، وبالتنظيم الذي سوف يعقب انتهاء الحرب في العالم. اما في الميدان الداخلي فقد اتسمت تلك الفترة بالادارة الاعتيادية تقريبا، وبالحفاظ بصفة جيدة على الامن الداخلي. ولكن فرعا واحدا من هذه الادارة، ونعني به التمرد الذي حصل في الشمال، قد اخذ يجتذب القليل من الاهتمام لدى الجمهور العام، ذلك لان الوزارة الباجه جية قد شجعت التطور النشط للبلديات، والفت لجنة عهد اليها لتحديد المشاكل التي ستظهر بعد انتهاء الحرب. ولما كانت تلك اللجنة مؤلفة من موظفين مثقلين بالاعمال، فانها لم تنجز سوى الشيء الضئيل.

اخذ التعديل الذي ادخل في سنة ١٩٤٢ على قانون العمل الذي شرع في سنة ١٩٣٦، يعطي ثماره. ذلك ان هذا التعديل قد اشترط تحسين احوال النساء العاملات، ومنع استخدام الاطفال في الاعمال، واعطاء العطلات، ومنح التعويضات عن الجروح، والفصل في المنازعات التي تتعلق بالعمل. وفي عهد هذه الوزارة بدأت بداية لاحداث تبديل في العمل، وكانت هذه

---

(٥) عندما تولى صالح جبر وزارة التموين اثيرت قضية الجنفاص والذي استوردته الوزارة وراحت تبيعه للناس في صفة قماش، حيث جرت في مجلس النواب آنذاك معركة حامية حول «الجنفاص» بين النائب سعد صالح وصالح جبر استغرقت ساعات من الخطب النارية النابية بين الاثنين، ولم تهدأ المعركة الا بعد ان نهض توفيق السويدي والقى كلمة غمز بها كلا من سعد صالح وصالح جبر معا فهدأت العاصفة.

(٦) لم يكن عبد المجيد علاوي يحمل شهادة الدكتوراة، كما ذكر المؤلف ذلك خطأ، وانما كان مجرد خريج في كلية الحقوق ليس الا.

المبادرة ضرورية كثيرا، بعد ان تم الاستغناء عن كثير من العمال الذين كانوا يعملون في الاعمال العسكرية البريطانية، الامر الذي سبق له ان احدث بطالة بين العمال. كما تألفت عدة نقابات عمالية كانت تبعث على الامل، ومن بينها نقابة عمال النسيج، وعمال الاحذية، وعمال النفط وعمال السكاير، وزهاء ست نقابات غيرها ذات اهمية قليلة[٧] غير ان كل هذه النقابات كانت توجه من قبل منظمين بذلت الشيوعية السرية كل جهد لاجتذابهم اليها. كذلك الفت لجان لوضع معايير قياسية لاجور العمال واوضاعهم.

برز تنامي الوعي الذاتي لدى العمال المدنيين الذين تركزت اكثريتهم في نقابات عمال شركات النفط، والسكك والميناء، في تأسيس حركة «حقوق العاملين» التي طالبت بمنحها امتيازا باصدار صحيفة تكرس لاهتماماتها ومصالحها، وبنظام ضمان للعمال، وانشاء مجالس للتحكيم في موضوع الاجور[٨] ولم يتم الاضراب الذي قام به عمال السكك في شهر نيسان سنة ١٩٤٥ الا عن طريق القمع الشديد لذلك الاضراب وللنقابات على حد سواء[٩] ومن ثم غدت الامثلة متواصلة عن تنظيم الاضرابات بين العمال لاغراض سياسية، وكان اهتمامهم ضئيلا بالشقاء الذي كانوا يعانون منه.

حدثت خطوة مهمة عميقة في تفكيرها ولكن من دون اهتمام باخطارها فيما بعد. تلك الخطوة هي المصادقة على اجراء تعديلات كبيرة في قانون «ادارة المحافظات». كان الدافع الى ذلك التعديل هو مجابهة السلطات الكبرى التي كان يتمتع بها الموظفون المحليون، ومجالس المحافظات، وبذلك يمكن تسهيل التطور المحلي والخدمات المحسنة. كذلك تقرر في الوقت ذاته ادخال تعديل على القانون المدني، ولهذا الغرض امضى وفد من بغداد معظم ايام سنة ١٩٤٥ في القاهرة للتشاور مع القضاة المصريين.

ما ان شرع عدد قليل من الموظفين البريطانيين الباقين في بغداد يغادرون العراق، بعد انتهاء الحرب، حتى اتخذت الخطوات اللازمة لتجنيد عدد من الخبراء من بريطانيا ومن مصر في الامور

---

(٧) كانت نقابة عمال السكك في الحقيقة اول النقابات الكبرى التي تألفت في ذلك الوقت.

(٨) المعتقد ان هذه الحركة لم تكن قائمة فعلا وانما وردت في بعض مقالات جريدة «القاعدة» السرية لسان الحزب الشيوعي العراقي، او ربما جاءت في التقرير الذي قدمه فهد (يوسف سلمان يوسف) رئيس الحزب الشيوعي الى المؤتمر الاول للحزب الذي انعقد في شهر شباط سنة ١٩٤٤.

(٩) واضح من هذا ان زمام الاضرابات في تلك الفترة كان في يد الشيوعيين الذين راحوا يحاولون انتزاع ذلك الزمام من قادة النقابات والعمال الاصليين الذين ذكروا في التنظيم النقابي منذ سنة ١٩٢٨ ومابعدها من امثال محمد صالح القزاز ورفاقه الذين لم يكن لديهم اي ميل نحو الشيوعية او الاشتراكية في ذلك الوقت.

الفنية والطبية والتعليمية الذين تطلبت الفترة التي انفتحت الان، استدعاءهم للعمل في العراق. كذلك بذل جهد لم ينل التنفيذ القوي، لاستئصال الفساد بين طائفة الموظفين، واظهر الاصلاح الذي ادخل على الجيش في سنة ١٩٤٥ نتائج طيبة، وذلك باحالة عشرات من الضباط غير الكفوئين على التقاعد، وان كان هؤلاء من اعز الاصدقاء. ومضى التسليح المجدد قدما في مجال الطائرات والسيارات، والمدفعية من المخلفات البريطانية، ولو ان ذلك لم يحدث من دون سوء تفاهم واختلاس. كذلك حصل تقدم ملموس في مجال التدريب، والسكن والتجهيزات واوضاع الخدمة العسكرية.

بدأ الجيش الذي نال مساندة الوصي الجيدة، يقترب مرة اخرى من الوضع الذي يستطيع فيه النهوض بالعمليات العسكرية، اما بالنسبة الى قوات الشرطة التي تخلفت نوعا ما، ولكن ليس بشكل مؤس، عن مستوياتها القديمة العالية، فان قوتها قد ازدادت من عشرة الاف وخمسمائة رجل في سنة ١٩٣٩ الى تسعة عشر الف رجل في سنة ١٩٤٥، وذلك باضافة خمسة الاف رجل الى شرطة القوة السيارة.

وفي ميدان الخدمات الاجتماعية، كان الميل الموجود نحو تحقيق تطور وتحسين محدودين لاحوال الافراد مايزال ضعيفا، ذلك لان تخصيصات وزارة التربية في الميزانية قد خفضت الى مقدار الثلث، كما خفضت تخصيصات الصحة الى مقدار الربع من مجموع المبالغ التي تم توفيرها للدفاع.

ساهم اطلاق سراح المعتقلين من معتقل العمارة في اواسط سنة ١٩٤٤ وفي فترات اخرى من سنة ١٩٤٥، في تصاعد النشاط السياسي في ذلك الوقت. فقد تم تسليم العضو الرابع من المربع الذهبي، صلاح الدين الصباغ من قبل الاتراك، ونفذ فيه حكم الاعدام في شهر ايلول ١٩٤٥ [١٠] كما القي القبض على ناجي شوكت وجيء به من ايطاليا الى بغداد وشرع بمحاكمته، ولم يسمح لرشيد عالي الكيلاني بدخول الاراضي السويسرية، ولذلك راح يسعى للوصول الى المملكة السعودية عن طريق لبنان ملتجأ في ذلك الوقت، الى الموقف التقليدي الذي يقفه العرب ازاء الضيوف الذين ينشدون الامن، ذلك الموقف الذي قد يرفض الطلبات التي تقدم لاعادة تسليم المجرمين[١١].

---

(١٠) الصواب ان صلاح الدين الصباغ قد نفذ فيه حكم الاعدام شنقا امام باب وزارة الدفاع في صباح اليوم السادس عشر من شهر تشرين الاول سنة ١٩٤٥ وليس في شهر ايلول الذي سلمته فيه تركيا الى العراق.

(١١) ادعى «عبد الله فلبي» في كتابه (اربعون سنة في التيه) ان رشيد عالي قد صرح له بان الانكليز هم الذين سهلوا له، اي رشيد عالي، دخول المملكة السعودية.

كان نشاط الصحافة في بغداد قد تضاعف، فزاد عددها من خمس صحف الى اربع عشرة صحيفة، فكان ذلك عاملاً مؤثراً وسبباً جزئياً في اعادة تنشيط الوسط السياسي الذي بدأ بصفة جيدة قبل اليوم الثامن من ايار سنة ١٩٤٥، وهو يوم اعلان الهدنة مع المانيا. وبذلك عادت الكلمات القديمة عن «الامبريالية» و «الاجانب» و «الاستقلال التام» الى الظهور مجددا في الوف من المقالات الافتتاحية ذات اللهجة الشديدة. كما ان الاوضاع السائدة آنذاك في فلسطين وفي سوريا، وكذلك المعوقات الاقتصادية، قد وفرت موضوعات مناسبة للخوض فيها. والواقع ان كل مظاهر تأخر الامة، وانعدام المساواة فيها، قد برزت بانها لم تكن نتيجة اي خطأ ما، وانما كانت نتيجة الخيانة المتعمدة التي اقترفها البريطانيون، ولذلك اصبح الطلب بالسماح باعادة تشكيل الاحزاب السياسية مسموعا في كل ناحية، وقد صحبته المطالبة بازالة جميع القيود، والتبكير في تعديل المعاهدة المعقودة مع بريطانيا، لان الاوضاع الراهنة في العراق لم يعد مستطاعا تحملها اكثر من ذلك[١٢].

لم يتم القضاء على الحركة الشيوعية في بغداد حتى بعد ان اصبحت محرمة قانونيا في سنة ١٩٣٨[١٣]، بل على العكس من ذلك اصابت هذه الحركة ارضية لها بصفة ظاهرة خلال السنوات الاخيرة من الحرب[١٤]. ولقد سبق للشيوعيين ان ساندوا حركة رشيد عالي في سنة ١٩٤١[١٥] لكنهم مالبثوا ان تخلوا موقتا بعد ان غزا النازيون الاتحاد السوفياتي، عن معاداة

---

(١٢) الواقع ان المقالات والاحاديث التي تعرضت للمعاهدة في ذلك الوقت، ونعني بها معاهدة سنة ١٩٣٠، لم تكن تطالب بتعديل تلك المعاهدة وانما كانت تطالب على الاكثر بالغائها فورا لانها لم تعد تناسب، بعد ان انتهت الحرب العالمية الثانية، مع الاوضاع الجديدة التي اخذت بالظهور في العالم في اعقاب تلك الحرب مباشرة، وعلى الاخص تعاظم حركة التحرر الوطني في البلدان المستعبدة في الشرق والغرب، وطغيان الافكار الاشتراكية التي لم يعد يقتصر تطبيقها على الاتحاد السوفياتي وحده، مثلما كان عليه الامر قبل الحرب، وانما اخذت كثير من البلدان الاخرى تتجه نحو الاشتراكية، فضلا عن اقدام الاتحاد السوفياتي على ابتلاع كل من بلدان استونيا ولتوانيا ولاتفيا وضمها نهائيا الى جانب بلاده، وتشجيع الشيوعيين على تولي الحكم في كل من بولونيا، وهنغاريا، وجيكوسلوفاكيا ورومانيا والمانيا الشرقية فيما بعد.

(١٣) يشير المؤلف بذلك الى التعديل الذي ادخل على قانون العقوبات البغدادي في زمن جميل المدفعي بشأن الدعاية الشيوعية حيث كان ذلك التعديل يقضي باعدام من يثبت بثهم الشيوعية بين افراد القوات المسلحة.

(١٤) برر الشيوعيون مهادنتهم للبريطانيين بدعوى مساندة القوة المعادية للنازية والفاشية، ولذلك كانوا يبتعدون عن انتقاد السلطات البريطانية واعمالها سواء في العراق ام في فلسطين او غيرها من البلدان المبتلاة باستعمار الانكليز البغيض، وذلك في كل نشرياتهم التي كانوا يصدرونها في تلك الايام سواء منها جريدة «الشرارة» السرية الناطقة بلسان الحزب، او مجلة المجلة والتي سيطروا عليها بعد انضمام ذنون ايوب الى الحزب، وكذلك مجلة «المثل العليا» التي اصدرها كاظم الكشوان في النجف ثم احتال الشيوعيون عليه فسلبوه المجلة وراحوا يصدرونها حسب اهوائهم.

(١٥) فصلنا في الجزء الاول من مذكراتنا المخطوطة كيفية اتصال الشيوعيين في اليوم الاول لوقوع الاصطدام المسلح بين العراق وبريطانيا في الثاني من شهر ايار ١٩٤١، بالسيد رشيد عالي الكيلاني رئيس حكومة الدفاع الوطني والاتفاق معه على تعاونهم مع =

البريطانيين تأييدا لقضية الحلفاء، فظلوا يعيشون في المدن بصفة قوة مسالمة بشكل رئيس[١٦].

وعلى اساس هذا التنظيم كان الشيوعيون التابعون لعصبة العمل الشيوعي المزودين بالعضوية المثقفة والتابعين للمحامي داود الصائغ[١٧] هم الذين كانت حركتهم هذه تؤلف حاضنة الحزب الشيوعي الذي تزعمه المسيحي المدعو فهد[١٨] الياس يوسف سلمان الذي اخرج جريدة تطبع سرا باسم القاعدة. ولقد ظفرت الحركة الشيوعية باتباع لها في كردستان حيث انجذب اكثرية الروس الموجودين في شمالي ايران وفي غربها، بالاهتمام المؤمل لدى الطلبة الاكراد والاغوات المعادين للقوميين العرب، بعد ان يئس هؤلاء الاكراد من التدخل البريطاني لصالحهم[١٩].

انتشرت الشيوعية في بغداد وفي المدن الرئيسة في العراق بين الفقراء والعاطلين والخائبين في حياتهم وعلى الاكثر بين الاقليات الاثورية والارمنية واليهودية،ممن كانوا يتشوقون الى الارتباط باي حليف قد يساعدهم على قلب نظام الحكم القائم الذي بدا بانه لم يجلب لهم سوى الفقر

الثورة. وكان مما اشترطه الشيوعيون آنذاك اطلاق سراح ستة اشخاص من منتسبي الجيش العراقي حكمهم بكر صدقي بالاعدام، وانزل الملك غازي العقوبة الى السجن المؤبد، واستعانت حكومة الدفاع الوطني ببعض التقدميين لادارة امور التموين التي تخص المواد الغذائية خوفا من تلاعب التجار والمحتكرين بها، وكان من بين هؤلاء عزيز شريف وعبد الفتاح ابراهيم، وذنون ايوب، وتوفيق منير وغيرهم.

(١٦) تعمد البريطانيون ان يغضوا النظر عن الشيوعيين، واستطاعوا عن طريق ذلك ان يدسوا في الحزب الشيوعي بعض عملائهم الذين انكشفت اعمالهم فيما بعد.

(١٧) وقع المؤلف هنا في خطأ كبير بالنسبة الى التنظيم الشيوعي في العراق ولقد فصلنا ذلك كله في الجزء الاول من مذكراتنا المخطوطة . ذلك ان عصبة العمل الشيوعي التي اسسها داود الصائغ لم تكن هي اساس الحركة الشيوعية انما كان اساس الحركة هو الحزب الذي اعاد فهد تأسيسه بعد سنة ١٩٣٩، اما داود الصائغ فقد شارك في اعادة تأسيس الحزب مع فهد لكنه لم يلبث ان انقلب عليه وانفصل عنه،وانشأ(عصبة العمل الشيوعي)في سنة ١٩٤٣ واصدار مجلة سرية باسم العمل.

(١٨) اخطأ المؤلف في ذكر اسم فهد وهو يوسف سلمان يوسف وليس الياس يوسف سلمان اما جريدة الحزب فكانت الشرارة ومن ثم صدرت القاعدة بعد ان انشق عبدالله مسعود واستولى على مطبعة الحزب والشرارة. اما الياس فهو زوج اخت فهد وكان يعمل لدى الاستخبارات البريطانية.

(١٩) اختلطت فكرة الشيوعية لدى الاكراد بالعصبية القومية اي ان الشيوعية غدت صنوا للحركة الكردية الانفصالية مثلما كان عليه التفكير لدى الكثرين من سكان المناطق الشيعية. والحقيقة ان الاكثرية من الذين تزعموا الحركات المتمردة بين الاكراد كانوا مرتبطين بالوعود والامال التي مناهم الانكليز بها في انشاء حكم كردي في العراق،فلما يئس هؤلاء من وقوف الانكليز الى جانبهم في هذه التمردات،التجأوا الى الشيوعية ليتخذوا منها ستارا ووسيلة لتحقيق ما اخفقوا في تحقيقه عبر طريق الثورات وحركات التمرد المتواصلة/سيما وان الشيوعية كما هو شأنها في الاتحاد السوفيتي حتى الان تدعي بانها تحقق الاماني القومية للقوميات التي تنطوي تحت لوائها ولسنا نعلم كيف حقق سكان تركستان وغيرها من الاقطار التي سيطر الروس عليها امانيهم القومية وذلك بعد ان زاد الشيوعيون في اذلالها واستعبادها,بعد ان تولوا الحكم في اعقاب سقوط القياصرة وما هو مصير افغانستان الان؟!

واليأس كما ان كثيرا من الذين ادعوا بانهم حلفاء لالمانيا النازية قد اخذوا الان يتطلعون الى روسيا بدلا من ذلك[٢٠].

لم تكن لهذه الشيوعية في العراق خلال ١٩٤٤، ١٩٤٥ سوى قاعدة ثقافية ضئيلة،وان كانت قد اجتذبت المثقفين اليها،ولم يكن هناك اي ارتباط بالعقيدة او بعملاء موسكو الابصفة نادرة[٢١] وقد نظمت هذه الحركة عن طريق الاجتماعات السرية والنشرات والجرائد التي كان يصدرها فهد والتي لم يكتشف مكانها انذاك،وكذلك عن طريق المبشرين بها بين عمال السكك والنفط.

كان الطلب الذي تقدم به كامل الجادرجي واصدقاؤه في نيسان سنة ١٩٤٤ بالحصول على اذن بتألف حزب الشعب قد رفضه نوري السعيد[٢٢] ولذلك فان هؤلاء قد وجهوا احتجاجاتهم على ذلك الرفض صراحة، الى القنصل الروسي الموجود صراحة في مدينة كرمنشاه في بلاد فارس.[٢٤] ولقد رحب الشيوعيون والاصلاحيون المحليون بالافتتاح الرسمي لاقامة العلاقات الروسية العراقية في شهر ايلول من تلك السنة،في الوقت الذي اثار فيه ذلك الحادث الهلع بين المحافظين من العراقيين[٢٥] حيث عين غريغوري تيتوفج تسايتيف وهو شخصية مسالمة اول وزير

---

(٢٠) كان انجذاب بعض العراقيين الى المانيا الهتلرية ناشئاً في الدرجة الاولى عن كرههم للبريطانيين وللحكام العراقيين المرتبطين بهم وللحركة الصهيونية،ولذلك فعندما اصاب هتلر نجاحاته الاولى في الحرب العالمية الثانية ضد الانكليز والفرنسيين وغيرهم، اشتد ميل العراقيين الى النازيين نتيجة تأثرهم بهذه الانتصارات،وبقي ذلك شأنهم بعد ان غزت المانيا الاتحاد السوفيتي والحقت به الهزائم. وحين صمد السوفيت في ستالينغراد وكروا على الالمان في شتاء ١٩٤٣ وحققوا انتصاراتهم الرائعة،انقلب العراقيون ضد الالمان واتجهوا نحو السوفيت،وهكذا كانت مواقف العراقيين تتأثر بالمعارك وبمدى المقاومة للانكليز وحلفائهم.

(٢١) بقي الحزب الشيوعي العراقي منذ تأسيسه حتى الاخير حزباً برجوازياً لان قادته ورؤساء منظماته كانوا في الغالب من فئة المثقفين وليس من افراد الطبقة العاملة،ومع كل ذلك ظل الحزب يعلن عن نفسه بانه حزب الطبقة العاملة ويطبق في سياسته الداخلية نظرية دكتاتورية البروليتاريا بالنسبة الى الطاعة والانضباط ويتبع خط موسكو في سياسته الخارجية على خط واحد مستديم بدعوى ان الحزب الشيوعي في الاتحاد السوفيتي هو الحزب الذي يمثل الخط الاممي الاصلي للحركة الشيوعية في العالم

٢٢) اخطأ المؤلف في ذلك لان الذين تقدموا بطلب تأسيس حزب الشعب لم يكونوا من جماعة الاهالي ولم يشارك كامل الجادرجي معهم،بل قدم هذا الطلب من قبل كل من المحامين يحيى قاسم وعبد الامير وعبد الرحمن شريف، ومحمود صالح السعيد ، وتوفيق منير وابراهيم الخضيري، ويوسف جواد المعمار وابراهيم الدركزلي يوم ٢٧ كانون الاول سنة ١٩٤٣ ولم تلب الحكومة ذلك الطلب. واخيرا اتفق يحيى قاسم مع جماعة من انصار عزيز شريف على تقديم طلب للحصول على امتياز جريدة يومية باسم الشعب فلما حصل على ذلك الامتياز انفصل عن جماعته واستقل بها ووضع نفسه وجريدته تحت امرة شركة النفط العراقية حتى انهيار النظام الملكي.

(٢٤) نعتقد ان هذا الاحتجاج كان ضد رفض حكومة توفيق السويدي اجازة ما عرف بأسم حزب التحرر الوطني الذي اعده الشيوعيون عند السماح بتأليف الاحزاب سنة ١٩٤٦.

(٢٥) كان العراق قد حاول منذ سنة ١٩٤٠ اقامة علاقات مع الاتحاد السوفيتي لكن الانكليز لم يوافقوا على ذلك فتأجل الموضوع الى اقامة التحالف بين الغرب والاتحاد السوفيتي ضد دول المحور سنة ١٩٤١ حيث اقيمت العلاقات بين بغداد وموسكو في اخر شهر اب ١٩٤٤ في عهد الوزارة الباجهجية.

مفوض للروسيا في بغداد في شهر تشرين الثاني من ذات السنة،لكنه لم يقدم للاقامة الافي اوائل ١٩٤٥ ، في حين تولى عباس مهدي اول وزير عراقي مفوض في موسكو،منصبه في اواخر تلك السنة

وفي ذات الفترة غامر الحزب الشيوعي العراقي بثقة جديدة في توجيه خطاب الى رئيس الوزراء وارسال نسخ من ذلك الخطاب الى كثير من السلطات خارج العراق يطلب فيه الغاء كل القوانين الرجعية واصدار العفو عن جميع المسجونين من الشيوعيين والمتمردين الاكراد[٢٦] واذ خرج العراق من الحرب العالمية الثانية غنيا وغير محطم،فقد اخذ يتطلع لكي يلعب في الشؤون الدولية دورا اكثر ثقة مما كان عليه في سني الثلاثينات من هذا القرن،وهو يتوقع المعاملة التي تستحقها الدولة بكل مالها من مظاهر الاستقرار الحالي والوعود المأمولة. ولما كانت وزارة الخارجية العراقية قد نفرت من الفرنسيين نتيجة الحوادث التي وقعت في سوريا ولبنان[٢٧] فان هذه الوزارة اي الخارجية العراقية،لم تستقبل بعثة لجنة التحرر الوطني الفرنسية الااستقبالا فاترا[٢٨] ولم يكن لفرنسا اي ممثل في بغداد في ذلك الوقت.

اما الولايات المتحدة الامريكية التي كان اهتمامها المقبل في الحصول على الاسواق وعلى المطارات من الامور الظاهرة ، فانها لم تحصل الا على مكانة ضئيلة في مجال ادراك العراقيين. ولم يكن العراقيون في ذلك الوقت يثقون بامريكا نتيجة الموقف الامريكي ازاء الصهيونية ، ومع كل ذلك كان دور الامريكيين المقبل في شؤون الشرق الاوسط منظورا تماما ، حيث تم الترحيب في العراق بالدعوة التي وجهها الرئيس الامريكي روزفلت الى الوصي لزيارة الولايات المتحدة

---

(٢٦) نعتقد ان هذا الخطاب الذي يشير اليه المؤلف كان يحتوي خلاصة التقرير السياسي الذي القي في المؤتمر الاول للحزب الشيوعي العراقي الذي انعقد سرا في بغداد سنة ١٩٤٤ والذي تضمن العديد من المطاليب التي طرحها الشيوعيون في ذلك الوقت

(٢٧) ثار الشعبان السوري واللبناني في شتاء ١٩٤٣ ضد التعسف الاستعماري الفرنسي وطالبا الفرنسيين بتحقيق الاستقلال حيث امتلأت شوارع دمشق وبيروت والمدن الرئيسة بالتظاهرات الجماهيرية الواسعة،ولكن الفرنسيين وان كانوا تابعين انذاك الى لجنة فرنسا الحرة التي تألفت في المنفى بعد سقوط فرنسا بايدي الالمان في سنة ١٩٤٠ ، الا انهم ظلوا متمسكين بذات الاساليب الاستعمارية،فعمدوا الى سحق تلك الانتفاضة الشعبية بالقوة فهاجموا المتظاهرين بمختلف انواع الاسلحة وضربوا دمشق وبيروت بالقنابل من الطائرات،والحقوا مئات الاصابات بين الشعبين السوري واللبناني وقد فصلنا في الجزء الاول من مذكراتنا المخطوطة الموقف المخزي الذي وقفه الشيوعيون العراقيون من تلك الانتفاضة الشعبية الواسعة

(٢٨) يقصد المؤلف بذلك لجنة فرنسا الحرة التي كان يترأسها الجنرال ديغول والتي اتخذت مقرها في لندن بعد سقوط باريس مباشرة،حتى اذا ما احتل الامريكيون تونس والجزائر في سنة ١٩٤٣ انتقلت لجنة فرنسا الحرة بما لديها من قوات فرنسية الى شمال افريقيا برئاسة ديغول نفسه الذي حاول الامريكيون اغتياله وساعدهم في ذلك الانكليز انفسهم ، لان ديغول كان يعتبر الانكليز قد خانوا فرنسا ولم يدافعوا عنها امام الجحافل الهتلرية.

الامريكية. ولما كانت هذه الزيارة قد تأخرت بسبب وفاة الرئيس روزفلت، فقد غادر الوصي بغداد بعد ان ترك عمه الامير زيد في مكانه الى امريكا، بصحبة نوري السعيد وداود الحيدري، فوصل اليها في منتصف صيف سنة ١٩٤٥، وحل ضيفا على الرئيس هاري ترومان. قام الوصي وحاشيته بجولة في امريكا ثم زار الحاكم العام لكندا، واختتم جولته تلك بسفرات ناجحة، وزيارة كل من لندن وباريس وروما، واستنبول، وانقرة وبيروت[٢٩].

ادت مشاركة العراق، وكانت تلك المشاركة من الامور الصائبة، في المؤتمرات الدولية، المهمة خلال تلك الفترة الى توسيع وجهات النظر لدى بعض رجال الدولة العراقية على اقل تقدير. فقد حضر مندوبون عن العراق مؤتمر الغذاء الذي عقد في (هوت سبرنغ) في شهر ايار سنة ١٩٤٣، وكذلك مؤتمر (برتن وودز) عن قضايا العملة والتحويل الذي عقد في شهر اب ١٩٤٤، وكذلك الاتفاق الناتج عن ذلك المؤتمر، والذي صادق البرلمان العراقي عليه في السنة التالية. كذلك ضمت الاجتماعات التي عقدت في السنة التالية في كل من سنتي اتلنتك، وشيكاغو، بشأن التجارة وقضايا الطيران المدني، ناطقين فيها باسم العراق. وحدث مثل ذلك ايضا في مؤتمر سان فرنسسكو الذي انعقد في شهر نيسان سنة ١٩٤٥ والذي ارسيت فيه القواعد الخاصة بتأسيس منظمة الامم المتحدة. وقد مثل العراق في هذا المؤتمر كل من ارشد العمري وزير الخارجية، يصحبه كل من نصرت الفارسي والدكتور فاضل الجمالي الشاب المتخرج في امريكا. وكان الدور الذي لعبه الوزير العراقي في المؤتمر ممايوثق به. ولكن نظرا لرفض ارشد العمري المشاركة في تأييد بعض النصوص الواردة في ميثاق الامم المتحدة، تلك التي تم فيها فصل الحكم الذاتي عن الاستقلال، حيث اعتبر الحكم الذاتي من حق الاقطار الخاضعة للوصاية، فقد خول فاضل الجمالي حق التوقيع على الميثاق بدلا من ارشد العمري، الذي كلفه موقفه ذاك فقدانه لمنصب وزير الخارجية

صادق البرلمان العراقي على ميثاق الامن العالمي في شهر تشرين الاول. وفي اللجنة التحضيرية لذلك والتي اجتمعت في لندن في اواخر تلك السنة، كان ممثل العراق فيها شاكر الوادي، وهو ضابط ركن من جماعة بكر صدقي، على اساس انه كان يتولى منصب القائم بالاعمال العراقي هناك. وقد جاء ذلك الاجتماع متزامنا مع الاجتماع الاول الذي عقدته منظمة الامم المتحدة للثقافة والتعليم في لندن، والذي حضره الدكتور ناجي الاصيل مدير الاثار العام

وما ان تطورت شخصية الوصي واصبح مشهورا بصفة عامة فقد شرع يبدي اهتماما قويا جدا بالاوضاع السائدة، ورغب في ان يلعب دوره التام فيها، ولذلك شرع يمارس على الحكومة نفوذا اقوى من اي نفوذ كان القصر يمارسه منذ وفاة فيصل الاول. وكانت الادارة التي ساعدت

---

(٢٩) انظر تفصيلات هذه الزيارة في مذكرات ستدرمن الفصل الرابع عشر ص ٣٣١ وما بعدها الطبعة الثانية ١٩٨٢.

الوصي في ضمان استمرارها، قد حافظت على الامن وسمحت بمدى واسع للصحافة وشن حملات الطعن في المعتقلين السابقين ولعبت دورا رئيسا في حركة الوحدة العربية، لكنها لم تفعل سوى الشيء الضئيل بالنسبة الى الاصلاح الاجتماعي، وظلت ترفض حتى اخر شهر من سلطاتها ان تسمح بتأليف الاحزاب السياسية التي كانت الان تكافح في سبيل ظهورها وولادتها.

ومع كل ذلك فان الخطاب الذي القاه الوصي عند افتتاح البرلمان في شهر كانون الاول لسنة ١٩٤٥ قد كشف عن سياسة جديدة في هذا المجال، وذلك بالوعد في اعادة السماح بتأليف الاحزاب، وتطور الدمقراطية الصحيحة، واتخاذ اجراءات اوسع من المساواة والعدالة الاجتماعية، وتدريب العناصر الفتية من المواطنين على الحكم. ولقد نال هذا الخطاب الترحاب من لدى المتشوقين وانصاف العاطلين الخائبين في دنيا السياسة، في الوقت الذي اثار فيه الاضطراب لدى الشيوخ واصحاب الامتيازات، الامر الذي ادى الى توجيه انتقاد شديد الى وزارة حمدي الباجه‌جي في البرلمان، والى حدوث اصطدام بين الجناح اليساري الذي كان يقوده كامل الجادرجي، واقصى عناصر اليمين او النازيين السابقين الذي كانوا يتبعون سامي شوكت، وكان هذا قد تخلى الان عن وظيفته السابقة وهي المديرية العامة لوزارة الشؤون الاجتماعية لكي يتفرغ لتأليف حزب البعث القومي وعلى هذه الشاكله استقالت وزارة الباجه‌جي في نهاية شهر كانون الثاني سنة ١٩٤٦[٣٠].

■ ■ ■

(٣٠) اقدم الدكتور سامي شوكت على تأليف حزب البعث القومي واصدر صحيفة يومية باسم البعث القومي، لكنه في الاخير فشل فشلا ذريعا في ان يظل حزبه الذي الفه آنذاك باسم «حزب الاصلاح» فتخلى عنه وعن الجريدة، وانضم في النهاية الى حزب صالح جبر. وكانت مقالات كامل الجادرجي ضد سامي شوكت والتي جمعت في كتاب صدر باسم «بعث النازية في العراق» من اقوى المعاول التي هدمت سامي وحزبه.

٤ . اقتصاديات زمن الحرب

كانت المشاكل المسيطرة على العراق زمن الحرب والتي لم يتم حلها على نطاق واسع، تكمن في حياته الاقتصادية اكثر مما تكمن في حياته السياسية والادارية، بل وحتى الفعاليات العسكرية ايضا.

فقد كانت هذه المشاكل تثير الاضطراب بصفة غير اعتيادية، وقد تميزت بظواهر مشتركة مألوفة في تأريخ الحروب لدى كثير من الاقطار، من امثال ارتفاع الاسعار ونقص التموينات التي يحتاج اليها، والزيادة الكبيرة في الثروة وماتحدثه من تأثير في الحياة اليومية للجماهير.

وكان التأثير الاجتماعي الرئيس لهذه الاوضاع يتمثل في وجود مفارقة شديدة بين الطبقات التي تحصل على المال من وراء التجارة والتعهدات وبيع المنتجات والفرص الكثيرة من الوقت، وبين اولئك الذين لا يملكون شيئا. ففي اقصى الاطراف يقف التجار، وكان كثير منهم قد اقبلوا على مزاولة هذه المهنة لاول مرة، كما يقف في هذا الطرف رجال الطبقة الوسطى من اصحاب المواهب الذين كانوا يحتكرون اجازات البيع والشراء ومتعهدو الجيش ورجال الاقطاع الذين يبيعون الحاصلات الزراعية.

وفي وسط هؤلاء، يقف غير المدقعين من المزارعين. اصحاب الكفاءة الذاتية، الذين يتلقون اسعارا عالية، وقد تمت مساعدتهم، في حالات كثيرة، باعفائهم من ديون مدى الحياة، من امثال بوابي الحوانيت والخانات، والعاملين في وسائل النقل، الذين كانوا يخدمون الجمهور الذي كان يحصل على النقود ويبتلعها، بما في ذلك الجمهور العسكري، والمدني العام، وكذلك الصناع الذين كانت تتوفر خدماتهم في كل مكان، والعمال الذين كانوا يضمنون العمل في الاشغال العسكرية، طالما بقيت القوات البريطانية تحتاج الى حوالي ستين الف عامل منهم.

اما الفقراء فانهم كانوا يتألفون من اولئك الذين ربطوا بدخول نقدية ثابتة، من امثال موظفي الحكومة، تلك الدخول التي كانت افضل زيادة حصلت فيها العلاوات التي تقررت ايام الحرب

والتي كانت متخلفة دوما عن الاسعار القائمة وكذلك الكتاب والصحفيين وطالبي الصيد من انصاف المستخدمين الذين كانوا يعيشون على هوامش الحرف والسياسة.

كان التأثير الذي احدثه الثراء الذي حصل لدى الطبقة الاولى،ومن هذه الطبقات،قد اخذ يدفع بها،بسبب المستويات والطلبات المادية العالية،الى الابتعاد جدا عن مجموع ابناء بلادهم ، كما كان هذا التأثير ذاته خلال الايام القاسية يدفع بالطبقات المفتقرة الى احط المستويات بين مجموع موظفي الحكومة،في ذات الوقت الذي كان فيه يدفع بقسم اوسع من الطبقات الوسطى الشقية الجائعة الى درك ابعد من ذلك والى اقصى اليسار في بعض الاحيان.

لقد تفكك كيان المجتمع العراقي وتناقص التضامن والاحترام المتبادل فيه،وكان التذمر والهلع من الحياة اليومية ينعكس بصفة سياسية على الاهداف المتشددة او المتعارضة،كما ينعكس في الاوساط الوزارية والنيابية ايضا،ويضاعف من الارتباكات التي كانت تواجه الوزارات المتعاقبة. وكما هو الامر في اي بلد اخر فلم يكن في مستطاع اي من رجال الدولة او الموظفين ان يتقدم بطرح حكمة ثابتة ، او طريقة ادارية يمكن بها مواجهة الضغوط المتضاربة التي كانت تمليها الحالة المعقدة الناقصة التي استمرت طيلة خمس سنوات

كانت مساهمة العراق الاساسية في الثروة العالمية انذاك تتمثل في حبوبه وتموره،والتي كان يتم انتاجها تحت ضغط تأثيرات سنوية،نتيجة سقوط المطر،وحدوث الفيضانات،وانتشار الحشرات الضارة واستخدام قنوات الري. وكان قسم من الحاصلات الزراعية يستهلكه الزراع انفسهم، وقسم اخر تحصل عليه الحكومة لتبيعه فيما بعد ، حيث يجري تخويل السلطات الحكومية ببيع قسم من ذلك المحصول الى القوات البريطانية بغية استعماله لحاجاتها الخاصة ، في حين كانت الشركات التجارية البريطانية تحصل على قسم اخر منه لتصديره الى بريطانيا او البلدان الاخرى،بينما يتم تصدير قسم منه حسب الطرق التجارية المعتادة التي تنظمها الرقابة على الصادرات.

كانت التمور ماتزال يجري تصديرها من قبل شركة اندر وبر.وكان القطن الذي توقفت اليابان عن شرائه بعد سنة ١٩٤١،يتم ارساله الى الهند،ولكن بكميات ادى الارتفاع الناتج في اسعار الحبوب الى انخفاضها ، ولهذا فان انتاج القطن لم يتجاوز في سنة ١٩٤٠ ، ستا وعشرين الف بالة. وقد هبط هذا المقدار خلال السنوات التي اعقبت ذلك الى مقدار الخمس بل وحتى الى مقدار العشر من تلك الكمية، كذلك كان يتم ارسال الصوف الى امريكا .

غير ان نقل هذه المواد والسلع الاخرى التي كان يتم نقلها داخليا بطريق البر والنهر وتوفير مجال الشحن من ميناء البصرة،كان يمثل مشاكل شاقة. فقد كانت كميات من الحاصلات تنقل بالقطار الى سوريا ولبنان وتركيا وكانت الحيوانات ذوات الاظلاف ترسل في السنوات التي

يتحسن فيها الرعي الى القوات البريطانية في سوريا[1] وكانت جميع اسعار السلع محددة بالقيود التي فرضتها ضرورة الحرب، وبالتضخم النقدي الذي مايزال يتعاظم في العراق والذي ساعدت هذه الاسعار في ارتفاعه.

كان استيراد المواد المصنعة وبعض المواد الغذائية محدداً بكميات تقل عن مستوى الكفاية، وذلك نتيجة نقص المنتجات المتوفرة في البلدان المصدرة، والضغط الحاصل على نطاق الشحن. وكانت المساعدات تصل اكثر من مرة من بقايا موجودات منهاج الاعارة والتأجير الامريكي، بالنسبة الى الادوات الزراعية والسلع المعدنية واطارات السيارات والمواد الكيماوية والادوات الزراعية. واستطاعت قوات حملة العراق وفارس في عدة مرات ان تساعد في مواجهة النقص الطارىء، كما قامت الحكومة البريطانية في سنة ١٩٤٢ بوضع تنظيم حالة طوارىء لتموين الحبوب من الهند ومن كندا.

ولكن، وكما هو حاصل في كل بلد، ظلت النواقص المطلوبة والملحة على حالها، بل انها تضاعفت فعلا نتيجة سوء التوزيع والادخار اللذين ذهبت كل جهود القانون والرأي العام ضدهما سدى. ولقد ادت الحاجة للحصول على التموينات بكل النفقات، الى البحث العاجل عن موارد للتعويض عن اليابان وعن غيرها من البلدان المصدرة الاخرى.

تم وضع نظام الاجازات الاستيراد، وكان مربحا بشكل واسع للبعض، لكن تطبيقه لم يكن يخلو من النواقص والعيوب. وطبق اجراء لتحديد الاسعار بالنسبة الى عدد واسع من المواد، كما عززت الرقابة على الموجود من السلع التي اريد تطبيقها، عن طريق القيام بغارات واحكام كانت تقع بصفة عرضية، ولكن كان يجري الافلات من هذه الغارات والاحكام من قبل تجار السوق السوداء الذين انتشرت تجارتهم على نطاق واسع، في الوقت الذي امتد فيه نظام التقنين الذي طبق على السكر في اول الامر سنة ١٩٤٢ الى القهوة والشاي في السنة التي تلت ذلك، واخيرا الى المنسوجات القطنية والصوفية.

كانت هذه الرقابة التي نظمت حسب بطاقات التقنين واعتمدت على اساس قوائم عشائرية ومدنية بعدد النفوس سببا لحدوث مصاعب شديدة[2] وكان يتم التخلي عن هذه الرقابه بمنتهى

---

(١) دخلت القوات الانكليزية سوريا في اعقاب غزو هتلر للاتحاد السوفيتي في ٢٢ حزيران ١٩٤١م وطردت منها حكومة فيشي صنيعة الالمان والتي بقيت تحكم البلاد باسم لجنة فرنسا الحرة التي يرأسها الجنرال ديغول. والحقيقة ان الانكليز كانوا يتطلعون منذ البداية الى ضم سوريا الى منطقة نفوذهم وكان لهم اثرهم في ايقاد نيران الثورة في جبل الدروز بالنظر الى ارتباطات عديدة بينهم وبين الدروز. ولم يخرج الانكليز من سوريا الابعد انتهاء الحرب العالمية الثانية ونهوض فرنسا وعودتها مجدداً الى احتلال سوريا ولبنان وفيتنام.

(٢) حدث تلاعب كبير في تعداد النفوس فقد راح الاهلون يزيدون من عدد الافراد الذين يتم تسجيلهم في دفاتر النفوس عن طريق الرشاوى التي كانت تدفع الى مدري دوائر النفوس وكتبتها. ولو احصيت نفوس العراق انذاك طبقا لما هو مدون منها في دفاتر النفوس لزادت بمقدار نصف المليون ولربما بمليون شخص عما كانت عليه في الواقع وهكذا دفعت الحاجة الناس الى التماس اخس الطرق والوسائط للحصول على الحاجات الضرورية وعلى الاخص الملبس والمأكل في الدرجة الاولى.

الفرح في اول لحظة ممكنة، وكذلك كان الناتج الموجود من السلع غير كاف للسماح بفرض تخصيصات تامة بالنسبة لجمهور افراد العشائر. ومع ذلك كان تقنين المواد الضرورية امرا لامعدى عنه وتم تطبيقه بنجاح ملموس

واخيراً في سنة ١٩٤٤ ، وانتظارا لانتهاء الحرب ، وبحدوث رد فعل لما اقدم عليه نظام الحكم القائم من محاولة لفرض الرقابة التامة خلال سنة ١٩٤٣ - ١٩٤٤ ، بوشر بتطبيق سياسة التخلي عن الرقابة ، واخذت كل سلعة بعد الاخرى يجري اعفاؤها من شرط الحصول على الاجازة ، ومن تحديد السعر . وفي خلال سنة ١٩٤٥ رفعت كل انواع السيطرة على المواد فيما يخص التجارة مع منطقة الاسترليني ، ولذلك شرع التجار باتفاق واحد يتطلعون الى استيراد المواد التموينية من اية جهة كانت . غير ان حرية النقل كانت ماتزال مقيدة بنقص الشحن ، وقيود العملة ، وبالندرة الواسعة للسلع في العالم كله .

كانت متطلبات العراق من «العملة الصعبة» ولاسيما الدولار ، يجري توفيرها عن طريق ترتيب تم تنظيمه مع بريطانيا في شهر اذار سنة ١٩٤٥ ، حيث امكن تحويل مبلغ من الدولارات يعادل اربعة عشر مليون ، وذلك من بقايا الجنيهات الاسترلينية المتجمعة للعراق[٣] وكان هذا الترتيب يتم التفاوض بشأنه في كل سنة ، في حين بقيت القابلية المحددة لتحويل الدنانير العراقية الى دولارات ، غير مفهومة للجمهور، مثلما هو الامر بالنسبة للجماهير الاخرى في كل مكان .

كان لمهمة السيطرة الاقتصادية التي وقعت كلها على عاتق الموظفين المحليين ، والتي كانت تلقى العون - كما يعتقد - من البلديات او من غرف التجارة ، الكثير من النتائج المعتدلة التي لايمكن توقعها من نظام او انظمة محسنة لاتعتمد على احصاءات كاملة ، او آلية ، ويجري تطبيقها من قبل موظفين غير اخصائيين بل ومعدمين الامر الذي كان يثير دهشة الجمهور وتذمره . ذلك لان السيطرة الاقتصادية العالية المفروضة على البلد ، وفقاً لقانون يجري تعديله باستمرار ، اضافة الى تشريع انظمة لإعدادها ، كل ذلك كان يودع في الاصل الى لجنة التموين المركزية ، والى هيئات وزارية اصغر حجما من امثال لجنة التموين العليا التي عانت مدة الحرب كلها . ولذلك تطلبت كثير من المشكلات اتخاذ قرارات على مستوى الوزارة ، وبذلك ضاعفت امثال هذه القرارات من انعدام الاتفاق بين الوزراء .

---

(٣) لم تكن الحكومة البريطانية تسدد قيمة كل ماكانت تشتريه من مواد زراعية وحيوانية من العراق ، وانما كانت تستبق اكثر تلك الاقيام وخاصة اذا كانت من الدولارات لاستعمالها لاغراضها الخاصة . ولذلك تجمعت للعراق ديون كبيرة بالدولار على بريطانيا ، حيث اجرت الحكومة البريطانية مع الحكومة العراقية ترتيبا تسمح بموجبه اطلاق كمية من الدولارات تستعملها الحكومة العراقية لاستيراد بعض المواد الضرورية جدا من امريكا ولاسيما الادوية وماشاكلها..ولم تسدد الحكومة البريطانية بقية ديون العراق عليها الا بعد انتهاء الحرب بسنوات غير قليلة .

كانت دوائر النقل والاستيراد ، والموارد المحلية قد انشئت في اوائل الحرب ، وظلت تدار من قبل موظفين بريطانيين من امثال «لويد» و «غريس» و «لي بلال» وكذلك من بعض العراقيين ايضا . ولقد تجمعت هذه الدوائر في اوائل سنة ١٩٤٤ في وزارة التموين التي اسست لهذا الغرض ، وعين العقيد «بيلس» مستشارا اول لها ، وقد استقال من عمله بعد اشهر قلائل من نشاط قوي نافد الصبر ، نتيجة عدم الاتفاق مع زملائه العاملين معه . واستمرت لجنة التنسيق الانكليزية الامريكية تعمل حتى اشهر قلائل من منتصف صيف سنة ١٩٤٤ .

وفي خارج العراق كان يوجد مركز تموين الشرق الاوسط في القاهرة . وكان هذا المركز يهتم بمنتجات العراق ، وبالسيطرة على التموينات الاجنبية التي ترسل اليه . وقد عقد في القاهرة خلال شهر نيسان ١٩٤٤ مؤتمر لهذا المركز حضره مندوبون من العراق . وتحت اشراف مركز تموين الشرق الاوسط ، قامت بعثة علمية استشارية بجولة في العراق خلال سنة ١٩٤٣ ، كانت تضم كلا من الدكتور «كين» «والدكتور» «ورثنغتون» . وقدم المركز خدمات جلى في الظروف التي كانت تتطلب السيطرة الداخلية النافعة . ومع كل ذلك فقد وجه اللوم الى هذا المركز بسبب ضعف ما كان يخصصه من المواد التموينية ، ولذلك لم يأسف العراقيون لالغائه في اواخر سنة ١٩٤٥ ، لان الحاجات الخاصة لبلدهم ، كانت اعظم ، في حين كانت حاجات الحلفاء والحرب بعيدة ولامعنى لها . ولقد اعقب الغاء مركز تموين الشرق الاوسط قيام لجنة التموين التي بقيت حتى سنة ١٩٤٧ تمارس السيطرة على مواد نادرة من المواد التموينية . وحين غدا مستطاعا توفير اراء اوسع مدى عن الاقتصاد الدولي التطبيقي في العراق ، وفي الدول المجاورة له ، تم استخلاص الدروس القيمة من العملية التي كان مركز تموين الشرق الاوسط ، ينهض بها .

لم يكن من المعقول ان لايحدث نقص السلع ، وارتفاع اسعار المنتجات المحلية ، والنفقات العسكرية الوفيرة ، تأثيراً في مستويات المعيشة . فقد ظل اقتصاد العراق حتى منتصف سنة ١٩٤١ ، اقتصادا اعتياديا في الغالب ، ولم تزدد العملة المطروحة للتداول الا نادرا ، ولم ترتفع الاسعار الا قليلا . غير ان الاحوال مالبثت ان سارت سيرا سريعا بعد ذلك التأريخ . ذلك لان سوء الحاصل الزراعي،ونقص الاموال المستوردة ، والنفقات العسكرية ، قد اوجدت ظروفا كانت تهدد بخطر التضخم النقدي . ولم يكن امام الحكومة من حل مفضل اكثر من اللجوء الى الانظمة الحقيقية ، غير المدعمة بالتنفيذ ، والتي تم تشريعها لمواجهة مشاكل ندرة المواد ، والرقابة عليها ، وتوزيعها .

ولذلك ارتفعت نفقات المعيشة في سنة ١٩٤٢ الى مستوى اصبح يعادل ثلاثة او اربعة اضعاف عما كانت عليه في سنة ١٩٣٩ . ذلك ان حجم النقد المتداول قد ارتفع الى ثلاثة اضعاف ، ثم قفز الى ستة اضعاف ، في الوقت الذي ازدادت فيه الودائع في المصارف تبعا لذلك . لم تكن الحكومة ، التي كان يسعدها ان تتلقى الايرادات المتزايدة بصفة متعاظمة انقذتها

من العوز المخيف الذي واجهته في منتصف سنة ١٩٤١ ، راغبة في تطبيق اجراءات قوية لسحب قوة الشراء عن طريق فرض ضرائب عالية او عن طريق اصدار سندات قروض (حتى سنة ١٩٤٥) او عن طريق بيع الاراضي المملوكة للدولة ، ماعدا تلك التي تكون مساحاتها تافهة . والواقع ان الحكومة لم ترغب في تطبيق اجراءات صارمة وغير محبوبة مما كانت الحالة تتطلبه آنذاك .

فلم تهيئ بعض مبيعات الذهب والماس التي وفرتها الحكومة البريطانية سوى الشيء الضئيل لتصحيح الوضع المالي . ولقد حصل تحسن طفيف بفضل وفرة ناتج الحصاد ، وانخفاض اسعار الصادرات في سنة ١٩٤٣ ، والذي حال دون حصول ارتفاع اخر في نفقات المعيشة التي سبق لها ان ارتفعت الى ستة اضعاف عن مستويات سنة ١٩٣٩ . غير ان توقيع الهدنة اوجد في العراق ظروفا يندر ان تقل عن ظروف التضخم ، ولذلك كان يندر ان تكون اللهجة التي كان المجتمع العراقي يتحدث بها ، اكثر صحة .

لقد سارت مالية العراق اثناء الحرب مسرى شاذا . لذلك فان السنوات الثلاث ١٩٤١ — ١٩٤٣ قد ابرزت فوائض مفيدة على الرغم من ارتفاع النفقات . فقد غدا مستطاعا دفع الديون الاجنبية ، وتم منح العلاوات للموظفين اثناء الحرب . وكانت خطط التنمية تبدو مشجعة . ولكن اعقبت ذلك خلال السنتين التاليتين ، نتائج محزنة ، واكثر شقاء . فايرادات الحكومة لم تعد تتناسب مع النفقات ، حيث سمح للخدمات الاجتماعية ، وخدمات الشرطة بان تتوسع ، وتضاعف من عدد الموظفين .

بلغ مقدار الصرف الاعتيادي ، الذي كان يبلغ في سنة ١٩٣٩ ، حوالي ثمانية ملايين دينار عراقي ، خمسة عشر مليون دينار في سنة ١٩٤٣ ، ثم ارتفع الى واحد وعشرين مليون دينار عراقي ، في سنة ١٩٤٥ . وفي هذه السنة الاخيرة وجد العراق نفسه يقترب من وضع مالي اقل صحة مما كان يظهر به . ذلك لان الماليات الخاصة بالسكك وميناء البصرة ، كانت اكثر رخاءا خلال اوقات الحرب .

تم اصدار قرض عراقي داخلي في اوائل سنة ١٩٤٥ وكان على قسمين : الاول بمبلغ مليون دينار عراقي وبفائدة مقدارها اثنان في المائة لمدة عشرين سنة ، مع جوائز بنسبة اثنين في المائة والثاني بنفس المبلغ ولكن بفائدة مقدارها ثلاثة في المائة ويتم تسديده في مدة عشر سنوات . ولقد قوبل هذان القرضان ، اللذان اعتبرا تجريبيين ، استقبالا حسنا ، لكن قيمتهما كانت ضئيلة جدا كاداة للتقليل من التضخم النقدي .

اختفى المصرف الايطالي المعروف باسم مصرف روما (بنكو دي روما) في سنة ١٩٤١ ، فافتتح في ذات السنة «مصرف الرافدين» الذي تملكه الدولة» والذي كان يدير حسابات

الحكومة . وفي سنة ١٩٤٥ اخذت اعمال هذا المصرف تظهر ارباحا . وفي الوقت ذاته كان المصرف الزراعي الصناعي ، الذي تطور ضمن حدود ضيقة اثناء الحرب ، قد انقسم الى مؤسستين هما : المصرف الزراعي ، والمصرف الصناعي ، ومن ثم اعقبتهما المصارف المختصة بالعقارات والرهون(٤) . كذلك افتتح المصرف العربي (الفلسطيني) فرعا له في بغداد في تلك السنة (٥) .

كان التطور المادي للعراق ، والذي سار قدما وبصفة مشجعة حتى سنة ١٩٤١ ، قد تم اهماله بحكم الضرورة حتى نهاية الحرب.ولكن العراق كان على الاقل محظوظا في ذلك ، بالنسبة الى التدمير ، والخراب ، والانحطاط ، الذي كان المصير المشترك لبلدان اوربا برمتها . فلقد حصل العراق على اضافات ملموسة ، وعلى حساب الاخرين ، في طرق مواصلاته . ذلك ان سكك الحديد التي بوشر بمدها عن طريق قروض من السلطات العسكرية اثناء الحرب ، والصيانات التي كانت تجري فيها ، قد تحققت عن طريق المساعدة العسكرية بالسيارات وبالتجهيزات المقدمة من المصادر البريطانية ، او من مصادر منهاج الاعارة والتأجير ، وباعداد من عمال السكك المتقدمين ، ومارافق ذلك من مشاكل ازدحام وسائط النقل ، وعلى الاخص وسائط نقل السلع من تركيا وسوريا ولبنان وفلسطين ، ونقل الحبوب الى ميناء البصرة الذي كان يدار بايدي امينة .

تم قلع سكة الحديد العسكرية التي انشئت بين الكوت والعزيزية وبعقوبة ، بعد انتهاء الحرب . وفي سنة ١٩٤٥ اصبح في مستطاع مديرية السكك الحديدية ان تضع مرة اخرى خطتها في احداث تطورات كبرى . فقد اشتملت مشاريعها على بناء جسر حديدي في بغداد للقاطرات وللسيارات (تعويضا عن الشاحنات التي كان يجري نقلها بالمعابر) ، وبناء جسر في المسيب يربطها بكربلاء ، وبناء محطة ودائرة حديثة للسكك(٧) وانشاء ساحات للمناورات في بغداد ، ومد سكة حديد طولها خمسة وستون ميلا من كركوك الى اربيل ، مع انشاء جسر على الزاب الاصغر(٥) كذلك تم انجاز التطورات المهمة في ميناء البصرة وضواحيه على يد وكالة

---

(٤) هما المصرف العقاري الذي كان له اكبر الاثر في توسيع اعمال البناء وتوفير السكن ، ومصرف الرهون الذي كانت ترهن فيه المصوغات الذهبية والفضية وقد الغي هذا المصرف مؤخرا وربطت اعماله بمصرف الرافدين .

(٥) كان هذا المصرف وفروعه في البلدان الاخرى يدار من قبل الفلسطيني عبد الحميد شومان .. واختير طالب مشتاق مديراً لفرع بغداد ، والحاج نعمان العاني معاونا له . وبقي هذا المصرف قائما الى ان تم تأميم كل المصارف غير الحكومية .

(٥) هنالك مشاريع اخرى تمت دراستها في ذات الوقت ، كانت تتناول تحويل الخطوط ذات المقاس المتري الى المقاس القياسي المعروف ، وانشاء سكة حديد بغداد – حلب عبر الصحراء ، وانشاء خط حديدي بين كربلاء والنجف والكوفة . وكذلك مد خط بمقاس قياسي بين الموصل وديار بكر ، غير ان ايا من هذه المشاريع لم يتم تنفيذه .

(٧) هي محطة غربي بغداد الحالية .

عسكرية ، وقد شملت تلك التطورات ، بناء الارصفة والجوانب ، والتوصيلات ، وتسهيلات الخزن ، وانشاء جسر فوق شط العرب ، ومد سكة حديد من المعقل الى مدينة الاحواز . ولقد بقيت الاقسام المهمة من هذه الاعمال الاضافية الى ان اختفت حملة قوات العراق فارس[٨] ، ولو ان ارصفة الموانئ التي انشئت في «ام قصر» على «خور عبد الله» والسكة التي تربط هذه الارصفة بالبصرة ، لم تعد تستعمل بعد .

اهملت الرقابة العسكرية على النقل النهري في سنة ١٩٤٥. وكانت هذه الرقابة تمثل تراثا دائما من التحسينات في النهر ، واعمال التصليح ، فراحت قوارب شركة «لنج» ومنافسيها ، تستطيع ان تتنافس مرة اخرى في ميدان النقل النهري الذي لم يعد يكفي.

تم تقليص اسطول شركة بيت لنج في سنة ١٩٣٨ ، بعد ان خسر هذا الاسطول باخرته «مجيدية» واحترقت السفينتان «مالامير» و «قادري» وتحولتا الى انقاض الواحدة بعد الاخرى في سنة ١٩٤١ . اما المنافسون لشركة «بيت لنج» وعلى الاخص حنا الشيخ ، وعبد الكريم الخضيري ، فانهم كانوا اكثر مقدرة على الاحتفاظ بما لديهم من سفن . غير ان المنافسة التي ابرزتها سكك الحديد ، والنقل البري ، كان لابد لها ان تتعاظم بدلا من ان تتقلص . فبالنسبة الى نظام الطرق البرية للنقل ، ساهمت حملة قوات العراق فارس مساهمة كبيرة في هذا المضمار ، ولاسيما في بناء الطريق البري الذي يخترق الصحراء الى الاردن ، وفي اعادة تبليط كثير من امتدادات الطرق الاخرى ، وصيانة اساطيل النقل العراقية عن طريق تجهيزها بالاطارات.ومع كل ذلك فان المحافظة على سيارات النقل المدني اثناء الحرب ، قد برهنت على انها كانت شاقة جدا ، فضلا عن تناقص العدد المستعمل منها . اما المواصلات الجوية للبلاد فانها لم تتحسن خلال الحرب ، ولكن قبل ان تنتهي الحرب بوشر باعداد مشاريع لانشاء خط جوي قومي . ولذلك كانت شركات الطيران الاوربية التي تمر طائراتها عبر العراق وتزوره ، قد استأنفت سفراتها في سنة ١٩٤٥ بعد الانقطاع الذي حدث اثناء الحرب ، حيث بدأت شركة مصر للطيران سفراتها بين القاهرة وبغداد . وفي سنة ١٩٤٥ منحت شركة «ماركوني» الايطالية اجازة لانشاء محطة للاتصالات اللاسلكية .

تبدل مسرى التجارة الخارجية تبدلا بارزا ، عن مساراتها الاعتيادية نتيجة الحرب . فقد كانت بريطانيا في سنة ١٩٣٩ ، هي الزبون الاساس لتجارة العراق الخارجية ، ومن ثم اعقبتها الولايات المتحدة الامريكية في هذا المضمار . ذلك ان كل واحد من هذين البلدين كان يستأثر بمقدار الثلث من مجموع الصادرات المنظورة غالبا . ولكن في سنة ١٩٤٤ ، اصبح المشتري الرئيس لتجارة الصادرات العراقية هي فلسطين والاردن ، وتأتي بلاد فارس في اعقابهما . ذلك

---

(٨) هي القوات الانكليزية التي احتلت العراق وايران اثناء الحرب العالمية الثانية وعرفت باسم PAIFORCE.

ان قيمة الصادرات العراقية المنظورة التي ارتفعت الى اربعة ملايين دينار عراقي قبل الحرب ، قد ارتفعت نتيجة ارتفاع الاسعار الى تسعة ملايين دينار عراقي قبل ان تنتهي الحرب . اما تجارة المرور التي تقلصت الى ماقيمته ثلاثة ملايين دينار عراقي في سنة ١٩٣٩ ، كانت قد ارتفعت الى ثلاثة عشر مليون دينار اثناء السنوات الخمس الاخيرة ، وذلك بفضل مرور السلع الى روسيا . كذلك ارتفعت الاستيرادات من تسعة ملايين دينار قبل الحرب الى اربعة عشر مليون دينار في اخر سنة من سني الحرب . ولقد تدنت حصة بريطانيا من هذه التجارة من ثلاث وثلاثين الى احدى عشر في المائة ، وحصة اليابان من ثماني عشرة في المائة الى لاشيْ ، في حين ارتفعت حصة الهند من ثماني في المائة الى ثلاثين في المائة ، وسوريا من اثنتين الى ست عشرة في المائة ، وامريكا من ثماني الى اثني عشرة في المائة.

كانت الرغبة في التوسع الصناعي الذي كان على الدوام يؤلف مطمحا غاليا ، قد انتعشت مجددا نتيجة النواقص التي حصلت ايام الحرب ، وازدياد السوق المحلية . اما العوامل المعاكسة لذلك فانها كانت تتمثل في نقص المواد الخام ، وفي التنافس على استخدام العمال الماهرين ، واستحالة استيردا المعامل . فمن بين السبعين مشروعا صناعيا التي استفادت من قانون ١٩٢٩ ، كانت معظمها من مستويات تافهة ، مع تركيز الاهمية على المشاريع التجريبية التي تستطيع ان ترشد الطبقة المتوسطة الى امكانية ممارسة طاقاتها خارج نطاق الخدمة الحكومية ، او المهن ، او السياسة . ذلك ان نوعا من التقدم قد حصل اثناء الحرب ، في انشاء معامل الطابوق ، والمشاغل التي تنتج الادوات اليدوية من انقاض المعادن[٩] ومعامل سحق بذور النباتات الزيتية ، من امثال بذور القطن والسمسم ، وبذور الكتان ، والتي ازدادت ولكن في نطاق ضيق . كذلك اصبحت صناعة الدباغة تدار بالالات بصفة جزئية ، كما تحسنت نوعية منتوجها . اما معملا النسيج اللذان كانا يداران بالالات[١٠] والمعامل غير العصرية لتقطير العرق ، ومحالج القطن الثلاثة[١١] واشغال صنع الصابون الصغيرة ، ومعامل السكاير ، فان هذه كلها قد ازدادت اثناء الحرب نتيجة المحاولات التي بذلت لانشاء معمل للبيرة ، واشغال

---

(٦) فضلنا كلمة «مشغل» بالنسبة الى «حانوت العمل WORKSHOP التي مازال تستعمل لدى العامة بلفظها الانكليزي والتي سماها المصريون باسم «ورشة» .

(٩) المقصود بهما معمل فتاح باشا للنسيج في الكاظمية ، ومعمل محمد صالح ابراهيم في الاعظمية والذي تبرع به صاحبه الى الجيش العراقي ابان حرب فلسطين في سنة ١٩٤٨ .

(١٠) كان اول هذه المحالج ملكا لشركة ساهم فيها ياسين الهاشمي ، وجعفر ابو التمن ، وابراهيم عطار باشي وغيرهم وكان مقره في الكاظمية اما المحلجان الاخران فكانا في بغداد الجديدة وهما يعودان الى الحاج هاشم الحاج يونس الموصلي وشركاه .

بدائية لصنع الزجاج ، ومعمل للاصباغ ، وآخر للشخاط الشمعي .

اما معمل السمنت الذي خطط انشاؤه منذ زمن طويل ، فانه لم يكن قد بدأ الانتاج بعد ولكن شرع بانشاء مشروع مهم لغزل الاقطان ونسجها ولكنه لم يبدأ العمل بعد . كذلك وضعت خطة لاقامة مسرح للسينما في بغداد في سنة ١٩٤٥ ، وكان هذا المسرح هو الهدف لزيارة قام بها احد الخبراء البريطانيين لهذه الغاية .

جاءت الرغبة في ضرورة تأجيل اي اقدام على استثمار اراضي للنفط، متطابقة مع رغبة الشركات البريطانية والحكومة العراقية معا (١٢) .

على ان الامر الذي كان يبعث على الاسف كثيراً ، كما يظهر ، هو عدم الاقدام على مشاريع مماثلة للنفط في كل من بلاد فارس ، وفي الجزيرة العربية . ففي السابق كان يتم انتاج وقود الطيران ، والمنتجات النفطية الاخرى على نطاق واسع لاغراض الحرب . ولكن الصناعة الامريكية استطاعت في الاخيران تنتج تجهيزات وفيرة ، في الوقت الذي لم يستطع فيه البريطانيون ان يضمنوا للمملكة السعودية الدور البارز في انتاج النفط (١٣) ولهذا السبب تخلت شركة النفط العراقية الى مابعد الحرب ، عن انشاء خطوط الانابيب الاضافية ، وعن الانتاج الاضافي من النفط والذي كانت قد خططت له في سنة ١٩٣٨ . والواقع ان منتوجها من النفط قد هبط قسرا ، نتيجة الحوادث التي وقعت في بلاد المشرق خلال ١٩٤١ - ١٩٤٢ من اربعة ملايين طن الى مليون طن ، ولم يعد الى مداه العام الا في سنة ١٩٤٤ ذلك لان العطب الذي لحق بمؤسسات الشركة خلال شهر ايار ١٩٤١ ، سرعان ماتم اصلاحه ، وبذلك استطاعت الشركة مساعدة القوات البريطانية عن طريق توفير المقرات ، والمطارات الجوية ، وتقديم قروض شخصية ، وتسهيلات المواصلات ، وتموين القوات البريطانية بالمنتجات النفطية المكررة ،

---

(١١) كانت شركة النفط العراقية تكاد تحتكر سوق النفط في اوربا تقريبا . ولذلك فلم ترغب هذه الشركة والفروع التابعة لها ، ان تعمد الى انتاج النفط في المناطق التي خصصت لها ، لان انتاج مثل هذا النفط الفائض وتسويقه لابد وان يحدث تضخما في المطروح من النفط في الاسواق العالمية ويؤدي ذلك بالضرورة الى انخفاض اسعاره ، وهذا مايتنافى مع السعر الاحتكاري الذي كانت الشركة تفرضه في تلك الايام ، وبذلك تجنبت شركة النفط العراقية الخطأ الذي وقعت فيه منظمة الدول المصدرة للنفط في السنوات الاخيرة عندما ضاعفت من اسعار النفط ومن الانتاج فادى ذلك الى اغراق الاسواق بالنفط فارغمت المنظمة على خفض اسعارها وتقليص انتاجها فيما بعد .

(١٢) لم تعثر الشركات البريطانية التي منحت حق البحث عن النفط في المملكة السعودية على هذه المادة رغم مرور عدة سنوات على اعمال التنقيب مما اعطى السعودية حق الغاء الامتيازات التي منحت لهذه الشركات البريطانية، ومما نود ان يعرفه القارئ هو ان مؤلف هذا الكتاب «لونغرغ» يعد من الخبراء في شؤون نفط الشرق الاوسط وله كتاب قيم في هذا الموضوع عنوانه «استثمار النفط في الشرق الاوسط» كما انه كان من بين الذين اشتغلوا لدى شركة النفط العراقية خلال السنوات الاخيرة في العهد الملكي والى ان قامت ثورة الرابع عشر من تموز ١٩٥٨ (انظر كتابنا : الصراع على الخليج العربي) الطبعة الاولى ١٩٦٦ والذي ستصدر له طبعة موسعة قريبا .

حيث ازداد المنتوج من هذا النوع من المنتوجات لاغراض الحرب ، وادخال التحسينات على مصفى كركوك لتموين وقود السيارات بالاضافة الى الوقود الذي كان يستحصل من مصفى «الوند» .

تم انشاء معامل لصنع صفائح القصدير في كل من كركوك والموصل حيث تم ربط هذين المعملين بخط لانابيب النفط . اما في منطقة البصرة فقد انشئ خط لانابيب النفط بين عبادان والشعيبة . كان عدد من ابار النفط قد تم تخريبها كاجراء احتياطي ضد الغزو المعادي باوامر من الجيش في سنة ١٩٤١[11] لكنه لحسن الحظ لم يتم التدخل في سير الانتاج الحالي . وفي الموصل ، حيث تقوم شركة نفط الموصل التي كانت تعرف قبلا باسم «شركة استثمار النفط البريطانية» لم يكن مستطاعا المباشرة باية عمليات في عين زالة وفي اي مكان آخر ، وان كان التحري عن النفط في البصرة مازال مستمرا . ولم يكن مستطاعاً تجنب مثل هذا التأجيل في ظروف جعلت من العسير الحصول على التجهيزات الهندسية اللازمة ، والتي كان الترخيص بجلبها قد تم من قبل ، وفقا للاتفاق الذي عقد بين شركات النفط والحكومة العراقية في شهر آذار سنة ١٩٤٣ ، حيث تم التوصل الى ذلك الاتفاق مقابل منح قرض من الشركات الى الحكومة العراقية بمبلغ ميلون ونصف مليون دينار عراقي تبدأ مدته بفترة التوقف التي حدثت في شهر ايار ١٩٤١ وتمتد الى مابعد اعلان الهدنة بمدة سنتين .

وفي الوقت ذاته ظل مشروع اقامة مصفى للنفط على يد الحكومة مشروعا حيا ، ولو ان زمن انشائه لم يحدد آنذاك . ذلك لان قضية شروط امتيازات النفط بل وحتى شرعيتها في ذلك الوقت ، كانت مثار حركة اعتيادية لدى ساسة المعارضة .

كانت فترة الحرب ، بالنسبة الى اعظم الصناعات العراقية ، فترة نشاط غير اعتيادية في ميدان الزراعة التي انتعشت نتيجة الحاجة الملحة الى المنتوج ، وكذلك نتيجة الاسعار العالية التي كان الحاصل الزراعي يباع بها . فقد ظهرت المضخات الزراعية ، بفضل قانون الاعارة والتأجير ، لاول مرة في المحافظات الشمالية . اما بالنسبة الى المزارع القائمة حول بغداد والكوت فقد شهدت سنة ١٩٤٥ بداية استعمال العشرات من الجرارات والمحاريث الالية ، والباذرات والحاصدات والدارسات . ورافق ذلك حدوث تأثير كبير في المفاهيم العراقية بشأن الامكانيات الزراعية ، فأخذت مشاريع الزراعة الحديثة الطموحة تظهر لدى المتعلمين من من اصحاب رؤوس الاموال ، واسست كلية الزراعة في سنة ١٩٤١ ، وسن قانون في سنة ١٩٤٤ يخول

---

(١١) اخطأ المؤلف اذ ذكر ان تخريب ابار النفط قد حدث في سنة ١٩٤٢ والصواب هو سنة ١٩٤١ اثناء ثورة ايار من تلك السنة .

انشاء جمعيات زراعية تعاونية [١٢] غير ان ايا من هذه الاجراءات لم تحل دون ازدياد هجرة ابناء الريف بالمئات بل بالالوف الى المدن،حيث كان العمل متوفرا فيها بكثرة ايام الحرب [١٣] .

اما في ميدان تسوية الاراضي ، فان لجان التسوية التي كانت تعمل بثبات وباعداد متزايدة منذ سنة ١٩٣٣ ، قد حافظت بحكمة على كل واجباتها المهمة اثناء الحرب ، غير انه لم يعط الان سوى اهتمام ضئيل الى المناطق الجنوبية من العراق ، واقل من ذلك الى محافظات الموصل ، واربيل والدليم والديوانية او كربلاء ، ولكن تم الكثير من العمل بالنسبة الى الاراضي الزراعية المقفرة المتنازع عليها في كل من بغداد وكركوك والحلة وديالى ، حيث حصل تقدم كبير في مجال تحديد اصناف الاراضي ، ووضع الخرائط لحدودها ، وتدوين سجلات اسماء الافراد في المناطق التي تقرب مساحتها الآن من مليون فدان . وكان يسمع الكثير عن خطط لاقامة قرى متوسطة الاحجام ، وتخصيص قطع صغيرة من الاراضي الحكومية لبعض الاسر على انفراد ، وكانت تلك تعتبر اشارة على التأكد تماما من وجود الشرور التي يعانيها الفلاح من امثال انعدام الامن ، والفقر،وانعدام الحافز لديه على زراعة الارض .

وفي قناة ديالى ، واعتمادا على سدة الكوفة ، بوشر بالعمل في سنة ١٩٤٥ ، وفق قانون خاص صدر بهذا الشأن ، بوضع اساس لاجراء توطين عملي في المناطق الزراعية ، وذلك عن طريق توزيع قطع من الاراضي التي تملكها تكون مساحة القطعة الواحدة منها ستين فداناً لكل عائلة من العوائل التي يتم توطينها ، اضافة الى وجود محفز لذلك يتمثل في سند ملكية تلك القطع يتم الحصول عليه بعد عشر سنوات من العمل لاستثمارها ، وعلى ان تقوم مديرية الزراعة

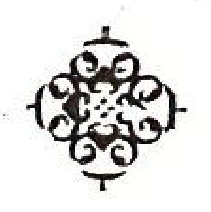
---

(١٢) كانت اولى الجمعيات الزراعية التعاونية التي انشئت هي الجمعية التعاونية الخاصة بمشروع الدجيلة في محافظة الكوت ولكن هذه الجمعية التي حصلت على المزيد من الالات الزراعية الحديثة سرعان ماتفككت نتيجة الشقاق بين اعضائها والسرقات التي كانت تحدث في المنتوج والالات وبذلك اعطت مثلا سيئا للعمل التعاوني الذي كانت الحكومة آنذاك تريد ان توسعه في الريف وتشجع القائمين به .

(١٣) كانت هجرة الفلاحين من الريف الى المدن من اعظم المعضلات التي عاناها العراق الحديث ، ومصدرا خطيراً من مصادر تحطم الزراعة واندثارها في النهاية . وكان مرد هذه الهجرة يعود في الدرجة الاولى الى تأثيرات معاشية وسياسية في ذات الوقت . فلقد كان الفلاحون يجدون في الاعمال في المدن موردا يؤمن لهم العيش يوما بيوم نتيجة حصولهم على الاجور والمرتبات وان كانت عيشة الاكثرية العظمى منهم في المدن اشد تعاسة من الريف لان الفلاح المهاجر الى المدينة مرغم على السكن بأجور ، وشراء حاجياته من الطعام بالنقد الذي لم يكن يتوفر لديه بكثرة . كما استغل عدد من ساسة مناطق الفرات حشود المهاجرين من الريف الى بغداد والبصرة وغيرها للفوز في الانتخابات النيابية في العهد الملكي . ولقد رافق قيام المشروعات الصناعية في بغداد وفي الحواضر الاخرى من العراق ، وعلى الاخص البصرة والموصل وكركوك وغيرها تصاعد واسع في هجرة الفلاحين الى هذه المدن ، وانخفاض شديد واسع جدا في المحصول الزراعي ، رغم ماكان يعطى للفلاحين من اراضي زراعية واسعة يتملكونها حيث انتهى الامر الى الاعتماد على المواد الزراعية المستوردة من الخارج ، وانعدام المحصول الزراعي الذي كان في القرون الماضية ، وبالادوات البدائية ، يعيل ضعف العدد الحالي من سكان العراق ، ويصدر المزيد من هذه المحاصيل الى البلدان الاخرى .

العامة ، بتوفير المؤسسات والمرافق القرويه ، من امثال افتتاح مدرسة ودوائر للزراعة ، ودور الحضانة ، والمستوصفات والمخازن التعاونية . وكان مشروع الدجيلة ينطوي على الامال التامة ، وقد بدئ به باختيار ثمانين عائلة تم اختيارها بكل عناية ، ثم تضاعف هذا العدد الى عشرة امثاله ، لكنه مالبث ان اثار المنافسة الحادة بالنسبة الى قبول المشاركين فيه .

سمح الامن الذي ساد العراق بعد سنة ١٩٤١ ، لمؤسسات الري الحيوية فيه ، ان تواصل اعمالها في صيانة القنوات ، والحماية من الفيضانات ، وفي دراستها وخططها ، وان لم يكن مستطاعا حينذاك ، البدء بتنفيذ المشاريع الكبرى التي كانت النية معقودة على تنفيذها . وكان العمل الذي توقف خلال سنة ١٩٤١ في انشاء منفذ لبحيرة الحبانية وهور «ابي دبس» قد تم اكماله في سنة ١٩٤٣ . اما فتح قناة تأخذ الماء من النهر (وهي القناة التي شرع بانشائها تحت اشراف السروليم ولكوكس) وكذلك القناة التي تعيد الماء الى النهر ثانية ، فقد اعيد تصميمها ولكن لم يباشر بتنفيذها ، في حين تم الحفاظ تماما على عمليات الارواء بالمضخات .



٥ ـ الاكراد والهدوء الذي تنشده الحكومة

خلال الايام السيئة من سنة ١٩٤١ ، وفي اثناء سنة ١٩٤٢ ، لم يقم الاكراد بأي عمل من شأنه ان يضيف شيئا ما الى مشاكل الحكومة ، ولذلك كان الحفاظ على الادارة السليمة يعتمد - كما يبدو - على تقليص الاحتكاك ، والتأكد من الانفعال العاطفي الواسع لدى الاكراد ، وضمان قوة الضرب الفعالة عند الحاجة .

ولقد كان الاضطراب الذي حصل في المناطق الكردية من بلاد فارس ، يمثل ارباكا اضافيا للحكومة العراقية . فلقد سمح للشيخ محمود الذي استمر في حركته المخبولة ، حتى بعد عودة عبد الاله الى الحكم ، وتأليف حكومة دستورية ، بان يعيش في احدى القرى التابعة له ، في الوقت الذي ادى فيه الغزو الانكليزي الروسي المشترك لبلاد فارس في تلك السنة [١] الى انهيار السلطة المركزية في طهران ، والى حدوث فراغ في السلطة ، حيث سارع رؤساء الاكراد في بلاد فارس الى ملئ ذلك الفراغ بان جعلوا من انفسهم رؤساء للحكم المحلي هناك ، وقطعوا اتصالهم مع طهران .

كان من بين الاكراد الذين اثاروا الاضطراب في شمالي العراق ، وعادوا من المنفى في ايران ، شخص يدعى «حمه رشيد خان» كان هذا الرجل عراقيا بالولادة ، لكنه اصبح الان يدعي جنسية مزدوجة عراقية وفارسية في وقت واحد . لقد اعلن حمه رشيد خان هذا استقلاله ، لوقت قصير في مدينة «ساقز» [٢] حتى سنة ١٩٤٢ ، حيث تم اخراجه من هناك ، ومن ثم عاد

---

(١) المقصود بها سنة ١٩٤١ عندما اتفقت بريطانيا والاتحاد السوفياتي على الاشتراك في احتلال بلاد ايران ، وتطهيرها من بؤر الجاسوسية المتلربة ، وابعاد رضا بهلوي الذي اظهر ميله نحو المحور علانية ، عن العرش وتولية ابنه محمد مكانه ، كل ذلك لتأمين مرور المساعدات الامريكية الى الاتحاد السوفياتي عبر اراضي ايران .

(٢) ساقز : احدى حواضر المنطقة الكردية في ايران ، ويزيد عدد نفوسها عن خمسة وثلاثين الف نسمة كلهم من الاكراد تقريبا واكثريتهم كانوا من اتباع الطريقة النقشبندية المنتشرة حتى في المناطق الكردية العراقية وهذه الطريقة نوع من الفرق الباطنية .

فعبر الحدود العراقية وخضع للاعتقال في كركوك ، ورفض الاتصالات التي قام بها زعماء الاكراد في ايران ، بالسفارة البريطانية في طهران ، بقصد الانضمام الى المنطقة التي تحتلها بريطانيا من ايران (وذلك امر كان يحدث بصفة غالبة قبلا) .

ولكن بعد مرور بضعة اشهر من خصومات لانهاية لها بين الاغوات الذين ساعدوا القوات الفارسية على الدخول الى معظم المدن في المنطقة الكردية من بلاد ايران ، تم ضمان نوع من السلطة هناك لحكومة طهران ، وابعد عدد من زعماء الاكراد الى داخل الحدود العراقية . وكانت مدينة «مهاباد» (صاووج بولاق) هي المدينة الوحيدة التي اخفق الفرس في الدخول اليها .

اصبحت مدينة «مهاباد» الان مركزاً لمقاطعة كردية خالصة في شمالي شرقي ايران وسرعان ماتألفت في «مهاباد» احدى الجمعيات الكردية المتطرفة تدعى «جيان كرد»[٣] التي اصدرت مجلة ناطقة باسمها تعرف باسم «نشتمان» اي «الوطن» التي اخذت اعدادها تصل الى العراق وتوزع في المناطق الكردية ولقد راحت جمعية «جيان كرد»تطلق على نفسها بكل بساطة اسم «كومالا كرد»[٤] .

ومع كل ذلك فلم يحدث اي اضطراب مكشوف لدى اكراد العراق في ذلك الوقت ، ولم يحاول زعماء بارزان المعتقلين في مدينة السليمانية ، وعلى الاخص الشيخ احمد واخوه ملا مصطفى ذلك الشخص غير المتزن دواما ، الاقدام على اية حركة الا في اواسط صيف سنة ١٩٤٣ ، حين هرب «ملا مصطفى» من معتقله في السليمانية ، الى بارزان فبسط سيطرته عليها وشرع يحاول الانضمام الى احد رجال العصابات الخارجين على القانون ، وهو شخص كردي وتركي معا يدعي «سعيد بيروخي» الذي وقع في ايدي رتل تركي كان يطارده في تلك الاصقاع.

نقلت رسالة من نوري السعيد الى الشيخ احمد البرزاني الذي مايزال معتقلا في السليمانية[٥] ، تلح عليه بضرورة الاستسلام ، ولكن الشيخ احمد رفض ذلك الطلب ، وازدرى باية سلطة كانت سوى سلطته ، ولذلك تحرك الجيش العراقي الى منطقة «برزان» لمعالجة التمرد هناك .

---

(٣) تعني هذه العبارة «حياة الاكراد» وكان يرمز لهذه الجمعية او الحزب بالحرفين ز . ك . اي «زيان كرد» .

(٤) كومالا كرد تعني «جمهورية الاكراد» لدى اكراد ايران اما اكراد العراق فيعرفون «الجمهورية» بكلمة «كوماري» و «الثورة» بكلمة «شورش» وواضح ان لغة اكراد ايران تختلف كثيرا عن لغة اكراد العراق ، وان بعض اللهجات يصعب حتى على الاكراد انفسهم معرفتها ، ان لم يقيموا فترة غير قصيرة في تلك المناطق .

(٥) لم يقتصر الامر على رسالة نوري السعيد وحدها ، بل ان السفير البريطاني في بغداد ، بعث – قبل تحرك الجيش العراقي لضرب التمرد – برسالة الى الملا مصطفى يطلب اليه فيها ايقاف القتال فورا ، وطلب العفو من الحكومة ، والتفاهم معها . ومما جاء في رسالة السفير تلك قوله (ان عدم ايقافك القتال يعني وقوفك ضد بريطانيا) .

كانت الزيارة التي قام بها «ماجد مصطفى» الوزير بلا وزارة ، خلال شهر كانون الثاني في سنة ١٩٤٤ لمنطقة بارزان ، ناجحة ، نشر في اثرها بلاغ رسمي زعم فيه بان «الملا مصطفى قد خضع للوصي دون قيد او شرط» ولم يلبث ماجد مصطفى ان قام في اعقاب ذلك البلاغ ، بجولة في المنطقة الكردية ، فنقل الموظفين غير المرغوب فيهم ، ونظم امر توزيع الشعير ، وعين قائدا كرديا متخرجا في كلية الاركان البريطانية ، وذا قابلية هو «بهاء الدين الشيخ نوري» محافظا للسليمانية[٦] . ولكن الملا مصطفى مع كل ذلك طلب تدخل الانكليز في الموضوع .

قام نوري السعيد باخر جولة وزارية له في كردستان، خلال شهر ايار سنة ١٩٤٤، ولقد اقترح نوري السعيد انشاء محافظة كردية تضم كل الأقضية الكردية في محافظة الموصل، وتعيين الموظفين فيها من قبل وزير يمثل الأكراد في الوزارة، وتعيين أحد الأكراد في منصب المدير العام لوزير التربية، وتحسين الخدمات الاجتماعية في الشمال، ومنح قروض زراعية، واعادة النظر في مصير احتكار التبوغ.

ولكن زملاء نوري السعيد في الوزارة رفضوا ان يؤيدوه في تلك الاقتراحات، كما رفض عبدالاله مشروع تحويل قضاء «دهوك» الى محافظة، وبذلك وقعت وزارة نوري السعيد في حمأة الشك والخصام[٧] .

تمت زيادة تمثيل الأكراد في الوزارة اكثر من ذي قبل، كما زيد عدد النواب الأكراد في مجلس النواب، وبعثت الوزارة بمحافظين كرديين لكل من السليمانية وأربيل، كما اوفدت وزير الاقتصاد «توفيق وهبي» على رأس بعثة لحسن النوايا. وفي شهر تشرين الثاني من تلك السنة[٨] اسقط أربعة اشخاص بالمظلات من احدى الطائرات الالمانية القي القبض على اثنين منهم، ونجا الأثنان الباقيان، وهكذا انتهت تلك السنة بانتشار القلق من احتمال تجدد اعمال التمرد.

لقد برهنت الحوادث على أن تلك المخاوف لم يكن لها، في جزء منها، اي اساس، ذلك لأن الهدوء السائد لم يمسه الأضطراب قطعا طيلة شتاء ١٩٤٤ - ١٩٤٥، وان كان تذمر الأكراد لم ينقطع، وازدياد النفوذ الروسي لم يحل دون الثقة.

وفي شهر اذار من سنة ١٩٤٥ عرضت على البرلمان لائحة اعلان العفو العام وتمت المصادقة

---

(٦) اصبح بهاء الدين نوري من اقرب المقربين الى عبد الاله فلم تكد تخلو وزارة من الوزارات التي تألفت في اواخر الاربعينات واوائل الخمسينات من مشاركة بهاء الدين نوري فيها . وقد توفي بهاء الدين نوري بعد ان اصيب بشيء من الشلل ، في الاردن بعد قيام ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ وكان منها بانتسابه الى الماسونية ، واكد هذه الحقيقة المرحوم صلاح الدين الصباغ في مذكراته .

(٧) هي وزارة نوري السعيد الثانية التي تألفت في ٢٥ كانون الأول ١٩٤٣ واستقالت في ٣ حزيران ١٩٤٤ حيث اعقبتها في الحكم وزارة حمدي الباجه جي الأولى التي عين فيها «توفيق وهبي»، وهو ضابط كردي سابق، وزيرا للاقتصاد.

(٨) الى سنة ١٩٤٤.

عليها بتردد من النواب، وكانت تلك اللائحة قد اعفت المتهمين من الأكراد ابتداءا من شهر شباط وهو تاريخ خضوع الملا مصطفى للحكومة. وقام الملا مصطفى بزيارة الموصل واستقبل فيها من قبل وزير الداخلية[9]، وتم نقل منطقة برزان من محافظة الموصل الى محافظة أربيل. ومع ذلك فلم يهدأ ملا مصطفى فأخذ يزعم بأنه يتلقى المعونة من البريطانيين، وتلك تلفيقات صدقها الكثيرون في بارزان وحتى في بغداد أيضا.

وحين اضطر الجيش العراقي الى العمل لاعادة الهدوء في شهر ايلول تقدمت ثلاثة ارتال الى الأماكن التي اسرع ملا مصطفى بالالتجاء اليها، في الوقت الذي قامت فيه القوة الجوية بقصف اتباعه وممتلكاتهم. كذلك تقدم رتل من قوات الشرطة من «العمادية». ولقد تعاونت الحكومة التركية مع الحكومة العراقية في هذا الشأن، بأن اغلقت حدودها مع العراق. تمت محاصرة الملا مصطفى من كل جانب، واذ ذاك اضطر الى عبور الحدود الى الاراضي الفارسية ومعه الفان من رجاله، ليلقى الترحيب من لدن جماعة «قاضي محمد» زعيم الأكراد في مهاباد، ويحظى بتأييد علني من جانب الروس الذين كانوا يدعمون حركة «قاضي محمد» الذي اعلن عن تأسيس جمهورية كردية في «مهاباد» ترتبط مع «جمهورية اذربيجان» داخل الأراضي الايرانية والتي ساعد الروس على تأسيسها تحت زعامة «جعفر بيشواري».

انتهت المعركة، وتم تشتيت قوات العدو بمختلف الوسائل، حيث قام الوصي بتوجيه الشكر الى الجيش على جهوده، وتوزيع الجوائز على رجاله، في الوقت الذي قام فيه رئيس الوزراء بجولة في الأنحاء الشمالية، حيث بذلت كل الجهود لاعادة تأسيس الادارة، واظهار حسن النية عن طريق المبادرة عاجلا، بانشاء المدارس، والمستوصفات، ومراكز الشرطة.

انعقدت محكمة عسكرية عرفية في أربيل لمحاكمة العصاة البرزانيين، واستدعت للحضور أمامها أكثر من مائة شخص كان من بينهم الملا مصطفى وأخوه الشيخ أحمد. ولقد حكم على الأخوين وثلاثين من اتباعهما بالأعدام غيابيا وحكم على سبعين اخرين بالحبس مدى الحياة، وسادت بعد ذلك فترة من الهدوء كان يمكن خلالها الحصول على المزيد من ذلك، عن طريق اظهار حسن النية وابداء عطف اوسع من قبل حكومة بغداد ازاء مخاوف الأكراد ومطاليبهم غير الضارة، سيما وان موجات من الدعاية الشيوعية القوية المختارة قد أخذت تصل الى الأكراد من شمالي غربي بلاد فارس، مما جعل هؤلاء الأكراد عنصرا عميق التذمر بل عنصراً يهدد الحياة القومية كلها بالخطر.

❊ ❊ ❊

---

(٩) هو مصطفى العمري.

٦ ـ الجامعة العربية

كان الارتباط بين بلاد فارس والعراق اثناء الحرب، اضعف بين الشعبين وكذلك بين الحكومتين العراقية والفارسية، من الروابط القائمة بين القوات العسكرية وطرق المواصلات المألوفة بين البلدين. ونظرا لسعة اعمال النقل التي كانت تقوم بها قوات حملة العراق – فارس بالنسبة الى الأفراد والتموينات، فلم تكن هنالك من حدود بين العراق وبلاد فارس. ذلك لأن البلدين كانا يؤلفان وحدة منفردة من وحدات الدفاع، ولتقريب الاتصالات مع القوات الروسية، ومن هنا كانت الاتصالات بين الحكومتين والشعبين، مقيدة بحركة غير محدودة، وكانت طرق المواصلات بينهما محتكرة في الغالب للحاجات العسكرية، وللزيارات المتناقصة. وفي الأقسام الشمالية الشرقية من العراق وحدها، كانت تجري حركات عبور الأكراد للحدود بين البلدين، واحداث التقارب بين مواطنيهما.

كان التلويح بالثورة الفاشلة التي قام بها احد اولاد الشيخ خزعل أمير المحمرة المعزول [1] في الأحواز سنة ١٩٤٣ قد تم اخمادها بصفة مبكرة، وتراجع القائم بها الى البصرة. كان ميثاق سعد اباد الذي حصل الحديث عن تطبيقه في أوائل الحرب، معطلا عن العمل في الواقع، وان كان يؤلف رابطة سياسية ليس مع فارس حسب، بل ومع تركيا أيضا، وكانت روابط العراق مع تركيا، كما هو شأنها على الدوام، وثيقة في النواحي الاجتماعية، وواسعة في الميادين التجارية، غير أنها كانت ضئيلة في الميدان السياسي، فقد كانت المعاملات التي تخص الحدود تسير سيرا وديا، والتعاون بين الجارتين متواصلا، ذلك أن البلدين كان يرغبان سوية في صيانة تجارة المرور عبر

---

(١) هو الشيخ كاسب بن خزعل الذي اتفق مع بعض عرب الأحواز في الدخول ذلك الأقليم في سنة ١٩٤٣ فأعلن الثورة هناك ولكنه انخدع بطلب الفرس التفاوض معه، ففشلت ثورته. وحاول تجديد الثورة مرة أخرى، ولكن القوات الأنكليزية التي كانت تشارك القوات الفارسية في حكم اقليم الأحواز في تلك الفترة حالت دون قيام اية مقاومة عربية للحكم الفارسي ولذلك اضطر الشيخ كاسب، عند فشل المحاولة الجديدة، الى العودة الى مقره في البصرة (فصلنا ذلك في كتابنا المخطوط : كفاح الأحواز ضد العدوان الفارسي الأستعماري عبر العصور». الذي نأمل نشره قريبا.

الحدود، على الرغم من النقص الحاصل في عدد شاحنات سكك الحديد، وندرة السلع. ولذلك قامت بعثة تجارية تركية بزيارة بغداد في سنة ١٩٤٥.

اخذ امتعاض العرب الناتج عن ضياعهم لمحافظة الاسكندرونة في سنة ١٩٣٨، يخف بمرور الزمن، وأدى وجود الأمير «زيد» بزوجته التركية في منصب وزير العراق المفوض في أنقرة، والزيارات المتتابعة الى العاصمة التركية واسطنبول، التي كانت الشخصيات العراقية تقوم بها، الى تحسين العلاقات، وفي الوقت الذي إنتشرت فيه اشاعة اعتزام الوصي بعبدالاله الزواج من ابنة عصمت اينونو في سنة ١٩٤٥، وهي اشاعة لا اساس لها من الصحة، قام عبدالاله بزيارة تركيا لأكثر من مرة واحدة.

على ان قلب العالم السياسي في العراق، كان منشغلا أكثر من ذي قبل بشقيقاته البلدان العربية. فقد كانت العلاقات مع شرقي الأردن طفيفة لكنها ودية، نظرا لتبادل الزيارات الملكية والوزارية بين البلدين، وارتباط حركة النقل العسكري البريطاني بينهما، وكانت المشاعر ازاء السعودية باردة، وذلك لأن البيتين الحاكمين في البلدين كانا يتبادلان النفرة المشتركة بينهما، كما كان مفهوم الوحدة العربية لدى السعوديين يناقض مفهومها لدى العراقيين، في الوقت الذي ادى فيه لجوء رشيد عالي الكيلاني الى مكة، الى اثارة السخط.

أما بالنسبة الى مصر التي قام عبدالاله ورجال دولته بزيارتها، فقد كان يوجد اساس مشترك (مع وجود شيء من التنافس على زعامة العالم العربي) في مطامحها بشأن الوحدة العربية. فقد كانت تجري استعارة الخبراء والمدرسين المصريين من قبل العراق، ولهذا الغرض تم انشاء «مكتب» للتعاون الثقافي في القاهرة، وافتتح فرع لجمعية «الاتحاد العربي» في بغداد[2] في الوقت الذي كانت فيه العلاقات الاجتماعية ضعيفة، والمشاعر تافهة أو انتقادية.

بلغت حركة الوحدة العربية قبل سنة ١٩٤٤، مرحلة أصبح التحقيق الشكلي لها، يعتبر هو الخطوة الأولى في هذا الشأن. ذلك أن جميع المبررات لقيام الوحدة، في نظر المتحمسين لها، كانت من أكثر الحركات التي سبقتها من أمثال المؤتمر الاسلامي العام الذي انعقد في مدينة القدس سنة ١٩٣١ [3] ومؤتمر «بلودان» سنة ١٩٣٧ [4] و«المؤتمر البرلماني العربي» الذي انعقد في

---

(٢) تألفت جمعية الأتحاد العربي في القاهرة من السادة عبدالستار الباسل، وفؤاد اباظة، وأسعد داغر، والدكتور محمد أسعد، وغيره. وقام وفد من هذه الجمعية بزيارة العراق في الخامس والعشرين من ايار سنة ١٩٤٢. وعلى أثر ذلك تم افتتاح فرع للأتحاد العربي في بغداد كان من بين اعضائه المؤسسين كل من تحسين العسكري، وابراهيم الواعظ، وتحسين علي، ابراهيم عاكف الألوسي، محمد سليم الراضي، جلال الأورفلي، عبد الهادي الجلبي، ابراهيم محمود الشابندر، سلمان فتاح، نوري فتاح، الحاج رابح العطية، وحسين الرفيعي وذلك خلال شهر اذار سنة ١٩٤٣.

(٣) انعقد هذا المؤتمر في القدس في شهر كانون الأول سنة ١٩٣١، وكان امين الحسيني من الأوائل الذين عملوا على عقد هذا المؤتمر كيما يفرض زعامته على الحركة الفلسطينية ولقد نازعه في ذلك خصومه السياسيون وعلى الأخص «ال النشاشيبي» الذين

القاهرة سنة ١٩٣٨ [٥] واجتماع ممثلي العرب في لندن سنة ١٩٣٩ [٦] كل هذه كانت مقدمات للاجتماعات الشكلية التي كان رجال الدول العربية يعقدونها، لقيام عمل تطبيق لاقامة «أتحاد عربي» «او جامعة عربية او دولة عربية» لم تكن تعوزها القدرة على ادارتها.

في سنة ١٩٤١ اعرب انطوني ايدن، بالنسبة الى بريطانيا عن عطفه العام على اية حركة تتجه نحو اقامة ارتباط اوثق قد يقوم به القادة العرب أنفسهم [٧]. أما بالنسبة الى قضية فلسطين، فلقد

عقدو النية على الدعوة الى مؤتمر اخر بأسم مؤتمر الأمة الاسلامية، ولكي يفهم القارىء خطورة المؤتمر الاسلامي واتجاهه الصحيح نقول له ان من زعماء المؤتمر اثنين من اتباع المذهب القادياني: المتحالف مع الأنكليز، كانا يمثلان المسلمين في الهند قبل التقسيم هما «محمد علي» وأخوه «شوكت علي» ولذلك فلم ينجم عن هذا المؤتمر سوى الخطب التي ذهبت ادراج الرياح بالنسبة الى مطامع الصهيونية وتحالف بريطانيا معها في ابتلاع فلسطين ذلك لأنه لم يتم تنفيذ اي من القرارات التي اتخذها المؤتمر من امثال فتح فروع له في العالم الاسلامي والدفاع عن قدسية مدينة القدس أو انشاء جامعة اسلامية باسم جامعة المسجد الأقصى، وانشاء شركة اسلامية للاراضي تعمل على الحيلولة دون سقوط أراضي عرب فلسطين بأيدي اليهود.

(٤) عقد هذا المؤتمر في مصيف «بلودان» في شهر اب ١٩٣٧، فكأنما اريد منْ ورائه أن يصطاف المشاركون فيه وقد اعلن المؤتمر بعد انتهاء جلساته بأنه أتخذ قرارات سرية لمقاومة مطامع الصهاينة في فلسطين: غير أن صحيفة سورية، نسيت أسمها كانت قد ذكرت في حينه بأن المقررات السرية لمؤتمر بلودان قد وقعت في ايدي الصهاينة ذلك ان جملة من الفتيات اليهوديات الكاعبات كن يمرحن في حديقة الفندق الذي نزل اعضاء المؤتمر فيه وقد استطعن اغراء بعض اعضاء المؤتمر بجمالهن وفتنهن وحصلن منهم على القرارات. ولقد تأكدت حكاية تلك الصحيفة السورية حقا، لأن القرارات السرية المزعومة لم تنفذ ابداً، بل لم تطلع عليها الأمة العربية والشعب الفلسطيني على الأخص.

(٥) انعقد هذا المؤتمر في القاهرة في اليوم الخامس من تشرين الأول ١٩٣٨، وحضره عن العراق وفد مؤلف من مولود مخلص رئيس مجلس النواب انذاك، وكل من النواب ابراهيم الواعظ، وحسين النقيب، وتوفيق السمعاني، ومحمود الملاح وعبدالهادي الظاهر، وابراهيم عطار باشي، وعلي الديمي، وعثمان العلوان.

(٦) عقد هذا المؤتمر بلندن في شباط ١٩٣٩، وحضره مندوبون من العرب واليهود في فلسطين. ونظرا لرفض العرب الجلوس مع اليهود على طاولة واحدة، اجتمع تشمبرين رئيس الوزارة البريطانية بالوفود العربية للتفاوض معها في صبيحة السابع من شباط، ثم اجتمع الى الوفد اليهودي بعد ظهر ذلك اليوم ذاته. وفي التاسع من شباط طرح جمال الحسيني المطالب العربية التي كانت تدعو الى الاعتراف بحق العرب في الأستقلال، والتخلي عن الوطن القومي اليهودي، ووقف هجرة اليهود الى فلسطين، وحظر بيع الاراضي العربية الى اليهود، وانهاء الانتداب البريطاني على فلسطين والاستعاضة عنه بمعاهدة تحالف بين بريطانيا والدولة الفلسطينية العربية. وأعلن وايزمن رئيس الوفد اليهودي المطالبة بالأبقاء على الوضع الراهن، اي استمرار الانتداب، ووعد بلفور ورفض أن يصبح اليهود اقلية (د. عبدالوهاب الكيالي: موجز تاريخ فلسطين ط١ ٧١ ١٩).

(٧) كانت بريطانيا ومازال حتى الآن، مثل غيرها من الدول والقوى الاستعمارية تحارب بمختلف الاسلحة والوسائل قيام اية حركة أتحاد او تقارب بين البلدان العربية. غير أن بريطانيا تظاهرت في ذلك الوقت بعطفها على أتحاد الدول العربية نتيجة خوفها من التطورات التي ستحدثها الحرب ومابعدها من مفاهيم ومواقف لدى العرب تكون ضد مصالح الدول الغربية من أمثال اتجاه العرب نحو الأتحاد السوفياتي وماشاكل ذلك، ولذلك كانت جامعة الدول العربية، كما قلت في تعليق سابق قد اعدت طبختها في مطبخ وزارة الخارجية البريطانية في الدرجة الأولى.

كان الكتاب الأبيض البريطاني الذي نشر في سنة ١٩٣٩، مايزال يمثل السياسة البريطانية حول هذا الموضوع[٨] ولابد له أن يجتذب التأييد العربي العام، حالما تظهر دلائل على ذلك «اذا ماوجدت هذه الدلائل» تشير الى تنفيذه بصفة مؤكدة. غير ان مضي السنتين الأولين من الحرب العالمية الثانية، ومع أن «الثورة العربية» قد انتهت[٩] وأصبح امين الحسيني في المنفى، أن كل هذه الأوضاع قد أعطت دلائل كافية بأن مشكلة فلسطين ماتزال من دون حل، وأن المخاوف لها مايبررها، فان معارضة اليهود للكتاب الأبيض ماتزال قائمة[١٠] وأخذت الهجرة اللاشرعية تتعاظم بشكل واسع، وازداد الارهاب اليهودي في الوقت ذاته.

ظل موقف بغداد حتى أوائل سنة ١٩٤٢ موقف الترقب المشوب بتوتر الأعصاب، وان بقي تاريخ وعد بلفور شعارا لأقامة التظاهرات المعادية للصهيونية. وفي سنة ١٩٤٣ وردت أنباء من نيويورك عن اعلان اليهود لمناهجهم الذي عرف بأسم «منهاج بلتيمور»، وهو واحد من التجمعات اليهودية والجيش على غرار مايعرف بـ «الكومنولث»، والذي كان يطالب برفع القيود عن الهجرة اليهودية، الأمر الذي اثار الخوف بين العاملين في القضايا العامة في بغداد، وأدى الى التشاور بين الناطقين باسم العرب عن الخطر المتجدد الذي كان من أخطر مظاهره، تلك المظاهر الواضحة لمساندة الادعاءات اليهودية في امريكا وفي اوربا، حيث تحدث «وندل ولكي» في سنة ١٩٤٢، وكذلك لويد جورج سنة ١٩٤٣، عن تلك الاشارات، اضافة الى عرض قرارين مكررين على

---

(٨) اصدرت الحكومة البريطانية هذا الكتاب في سنة ١٩٣٩ بعد فشل محادثات مؤتمر المائدة المستديرة في لندن في خريف ١٩٣٨ في الاتفاق على وضع دستور لفلسطين المستقلة تحت الحماية البريطانية. وقد أعلنت بريطانيا في الكتاب الابيض أنه ليس من سياستها ان تصبح فلسطين دولة يهودية، لكن بريطانيا ترى في الوقت ذاته انشاء دولة فلسطينية مستقلة يشترك فيها العرب واليهود في غضون عشرة اعوام، وان ترتبط بمعاهدة مع بريطانيا وان تحدد الهجرة اليهودية خلال الأعوام الخمسة الاولى بخمسة وسبعين الف مهاجر ولا يتم حظرها بعد ذلك الا بموافقة العرب انفسهم.

(٩) المقصود بذلك الثورة الفلسطينية الكبرى التي قامت سنة ١٩٣٦ وأستمرت حتى سنة ١٩٣٩.

(١٠) ذكر حييم وايزمن في كتابه «التجربة والخطأ» عن الكتاب الأبيض بأن رمزي مكدونالد رئيس الحكومة البريطانية التي وضعت الكتاب الأبيض، قد طلب من الوكالة اليهودية، قبل نشر الكتاب الأبيض، تعيين لجنة يهودية للتشاور مع اللجنة الوزارية الأنكليزية بشأن سياسة فلسطين. وكان من ابرز اعضاء اللجنة اليهودية وايزمن نفسه والبروفسور هارولد لاسكي. ولقد كافحنا في هذه اللجنة طيلة شهور الشتاء ضد فكرة الحكومة البريطانية القاضية بأن يكون تعهدها مقتصرا على يهود فلسطين دون يهود العالم. ولقد تعرضت امام المؤتمر اليهودي لحملات شديدة لأنني قبلت بالكتاب الأبيض بدلا من الاصرار على اصدار كتاب اخر يلغي الكتاب الأبيض ذاته. ويقول وايزمن في مكان اخر من مذكراته «والواقع ان الكتاب الذي وجهه رمزي ماكدونالد الي شخصيا، هو الذي مهد الطريق امامنا لكي ندخل في سنة ١٩٣٩ وحدها خمسة وستين الف مهاجر يهودي شرعي. عدا المهاجرين غير الشرعيين» ويبدو من مذكرات وايزمن ان تعيين السر ار واكهوب مندوبا بريطانيا ساميا في فلسطين كان بالأتفاق بين وايزمن والسر رمزي ماكدونالد» كما يذكر وايزمن أن المؤتمر الصهيوني الحادي والعشرين الذي أنعقد في ١٦ اب ١٩٣٩ قد قرر رفض الكتاب الأبيض «مذكرات وايزمن»: الترجمة العربية بيروت.

الكونغرس الأمريكي لأقرار حرية هجرة اليهود الى فلسطين واقامة دولة يهودية فيها.

وجهت الاحتجاجات العربية ضد هذين القرارين الى الرئيس روزفلت، الذي أكد للوصي عبدالاله وغيره من الزعماء العرب، بأن اي حل لقضية فلسطين لايمكن ان يتطور الا بعد التشاور مع العرب واليهود معا(١١).

كانت الزيارات التي يقوم بها رجال الدولة العراقية الى القدس متواصلة. ولقد تعاظم ربط قضية فلسطين بقضية الوحدة العربية الوثق، فغدا أكثر وضوحا، وراحت صحافة العراق منذ ذلك الوقت ومابعده، تتحدث بلهجة مخيفة ضد الصهيونية. كان لابد من ان يزداد التوتر العصبي بين الألوف من اليهود الذين يعيشون في بغداد والذين لم تكن الصهيونية مستساغة لديهم بل حركة تدميرية على أكثر احتمال، ولذلك كانت مقاومة معارك العرب الفلسطينيين في ميدان الرأي العام العالمي، باعثاً على تأسيس المكاتب العربية في لندن وواشنطن، في تلك السنة، حيث ساهمت الحكومة العراقية في المكتب الذي كان يديره «موسى العلمي» مثلا بمائة الف باون.

في شهر تشرين الثاني سنة ١٩٤٥ انتهت الحرب. واذ أصبح ايجاد نوع من الحل للمشكلة الفلسطينية ضرورة لاغنى عنها، وردت الأنباء عن تعيين لجنة انكلوامريكية للتحقيق. كانت اراء حزب العمال البريطاني الذي أصبح الان في دست الحكم معروفة بعدائها للكتاب الأبيض وبمناصرتها للصهيونية، في ذات الوقت الذي كان فيه الرئيس الأمريكي ترومان، وقبل البدء بأي تحقيق، يضغط على البريطانيين بقبول المزيد من اليهود المهاجرين الى فلسطين، ولذلك صادق المجلس الصهيوني العالمي في شهر اب من تلك السنة، على المطاليب الصارمة التي تقدمت بها منظمة بالتيمور.

كان هناك تفاؤل ضئيل في العراق، وفي أي مكان اخر، يحس به بأن حقوق الشعب الفلسطيني، الذي أصبحت مساكنه، ووطنه، وحقوقه بالذات معرضة للخطر، سوف تنال الأحترام. تم الاعلان في العراق عن مقاطعة جميع السلع المستوردة من فلسطين ابتداء من اليوم الأول من كانون الثاني سنة ١٩٤٦. اما الحوادث التي وقعت في سوريا فأن ماأثارته من الأهتمام، كانت أقل بصفة نادرة من الحوادث التي وقعت في فلسطين. والحقيقة ان رجال الدولة العراقية، وفي كل مرحلة من مراحل تاريخ سوريا ومنذ سقوط حكومة فيصل هناك والتي لم تدم طويلا، كان يظهرون الأحاسيس الأخوية الحارة، ولذلك وجهت الانتقادات في بغداد ضد تعطيل

---

(١١) يذكر وايزمن في مذكراته أيضا «قابلت السر جون فلبي وتحدثنا معا عن العرب واليهود ومما قاله لي في هذا الصدد أعتقد ان هناك سبيلين ليس الا لحل مشكلتكم. الأول ان يقول تشرتشل وروزفلت الى أبن سعود أننا نريد منك تحقيق برنامج اليهود في فلسطين. والسبيل الثاني ان يعمل تشرتشل وروزفلت على تمهيد السبيل لجعل أبن سعود سيد الأقطار العربية، وتقديم قرض كبير له !» «المصدر السابق».

الدستور السوري عند انفجار الحرب العالمية الثانية، وتعطيل الدستور اللبناني بعد ذلك بصورة مباشرة. وكذلك انتقد العراقيون الادارة التي كانت تطبقها الحكومات المعنية في سوريا ولبنان. ولقد أعقب أنهيار الحكم الفرنسي في اوربا وصول لجنة الهدنة الايطالية الى كل من سوريا ولبنان، وقيام فترة انتظار قلق بشأن الحوادث التي وقعت والتي حظر فيها النشاط السياسي بأكمله في ذينك البلدين. كذلك تمت دراسة مستقبل الدولتين السورية واللبنانية دراسة حرة في كل من بغداد والقاهرة حيث قام نوري السعيد باعتباره وزيرا للخارجية بزيارة كل من دمشق وبيروت في شهر تموز سنة ١٩٤٠ غير أن الاضطرابات في سوريا في اوائل سنة ١٩٤١، لم تؤد الا الى اجراء تغيير في المدراء فحسب، في حين كانت الآمال التي تعتمد على حركة رشيد عالي الكيلاني «والتي ساندها عدد من المنفيين السوريين، او المستخدمين المحليين منهم في بغداد» قد باءت بالفشل. غير أن احتلال سوريا ولبنان من قبل القوات البريطانية وقوات فرنسا الحرة، الذي حدث في اليوم التاسع من شهر حزيران سنة ١٩٤١، قد وفر الفرصة امام الجنرال «كاترو» لأن يعلن استقلال الجمهوريتين السورية واللبنانية، حيث شاركت الحكومة البريطانية نفسها في ذلك المضمار ولو بصفة محددة. ولقد تم تكرار ذلك الاعلان الذي اشتمل على عبارة «الدولة المستقلة» مرة أخرى في شهر ايلول، ولكن الموظفين المتعاطفين مع الاماني الفرنسية ظلوا يمسكون بزمام السلطة، في الوقت الذي امتنع فيه العراق وغيره من الحكومات العربية الأخرى خلال سنة ١٩٤٢ عن الاعتراف بتلك السلطة الى ان تم التأكد بأن حقيقة الوضع الجديد الموعود به في سوريا ولبنان، سوف يتحقق بأنشاء حكومة دستورية حرة.

لقد حدث هذا الأمر في أواخر صيف ١٩٤٣، وتميز اعتراف العراق بانشاء الحكومتين السورية واللبنانية بتعيين القنصل العام «تحسين قدري» وزيرا مفوضا هناك، كان ذلك الاستقلال الذي منح لسوريا ولبنان ناقصا، وأن تم التمتع به في الواقع، وقد تم التغاضي عن نواقصه تلك وعدم الأحتجاج عليها، الا بالنسبة الى الحوادث التي وقعت في بيروت في اليوم الحادي عشر من شهر تشرين الثاني في تلك السنة، عندما اقدم المندوب الفرنسي العام على اعتقال رئيس الجمهورية، وأعضاء وزارته وحل مجلس النواب وتعطيل الدستور. ولقد استنكرت الصحافة والساسة في بغداد انتقادا شديدا تلك الاجراءات، وعبرت عن استنكارها ذاك ببرقيات الاحتجاج التي أرسلت الى كل من باريس ولندن، ولم تهدأ العاصفة الا بعد ان الغي العمل الذي اقدم عليه المندوب الفرنسي، وباستدعائه من بيروت.

وفرت الزيارات التي تبودلت بين رجال الدولة من العراقيين والسوريين واللبنانيين، فرصا جديدة للتشاور ليس بالنسبة الى قضاياهم الخاصة حسب وانما على نطاق اوسع، هو نطاق الأتحاد العربي الذي كان العراقيون وطليعتهم في هذا الميدان نوري السعيد الذي اخرج كتابه

الموسوم بالكتاب الأزرق[١٢] ينظرون اليه بمثابة مخطط يعتبر بشكل ما، خطوة يمكن اعتبارها هي الأولى والمباشرة في سبيل تحقيق «مشروع الهلال الخصيب» الذي تتمتع الطائفة اليهودية فيه بالحكم شبه الذاتي[١٣]. ولكن هذا المفهوم الذي صمم اصلا لحل القضية الفلسطينية، ولمسألة الوحدة العربية أيضا، قد طرأت عليه التعديلات في الواقع مؤخرا، ومن ثم النكوص عنه في الحقيقة.

على ان الأخرين الذين كانوا يعيشون خارج الهلال الخصيب، لم يكونوا اقل تحمسا ومساندة لمشروع الاتحاد العربي، فهذا المشروع الذي كان نوري السعيد هو الحواري الاساسي له، والذي لم يكن كل من حمدي الباجه‌جي وجميل المدفعي، وزعماء اخرون غيرهما اقل تكرسا له، هذا المشروع قد قبلت به ايضا مصر الغنية كثيرة السكان، على الرغم من الفروق الواضحة في الثقافة والعرق، والتاريخ عن بقية البلدان العربية الاخرى. ولذلك كان زعيم حزب الوفد المصري، مصطفى النحاس، الذي كان يتولى رئاسة الوزارة المصرية انذاك، من أول الذين نظموا الخطوات الاولى الرسمية في سبيل هذا الاتحاد العربي، ودعى الدول العربية بأن تبعث بمندوبيها الى الأسكندرية في خريف عام ١٩٤٤ حيث عقد مؤتمر عام في قصر «انطونيادس» في أواخر شهر ايلول من تلك السنة، حين انضم السيد موسى العلمي ممثلا عن فلسطين، الى مندوبي سبع حكومات عربية مستقلة هي مصر، والعراق، وسوريا ولبنان، وشرقي الأردن والسعودية واليمن. وكان ممثلو العراق في ذلك المؤتمر هم كل من نوري السعيد، وحمدي الباجه‌جي وأرشد العمري.

صور بروتوكول الاسكندرية الذي نجم عن اجتماع ذلك المؤتمر جامعة الدول العربية المستقلة[١٤]. وكانت وظيفة مجلسها الذي يجتمع بصفة دورية، هي تنفيذ الاتفاقات التي تتوصل

---

(١٢) الكتاب الأزرق كتاب وضعه نوري السعيد بعنوان «وحدة العرب واستقلالهم» طبع بمطبعة الحكومة سنة ١٩٤٣ في نسخ محدودة جدا وزعها نوري السعيد نفسه على بعض الشخصيات وقد توفرت لدينا نسخة منه قدمناها الى مكتبة المتحف العراقي في سنة ١٩٧٤، وهو يرسم مستقبل العراق وسوريا والأردن وفلسطين ويقترح اعطاء اليهود في فلسطين مايشبه الحكم الذاتي داخل هذه المجموعة من البلدان العربية. وكان طبيعيا ان يقاوم اليهود هذا المشروع بعد ان تعاظم انعطاف الانكليز والفرنسيين والأمريكيين وغيرهم معهم في تحقيق مشروع الدولة اليهودية الكبرى من الفرات الى النيل.

(١٣) مشروع الهلال الخصيب، وهو المشروع العراقي الذي تبناه نوري السعيد وحظي بتأييد الانكليز واهتمامهم بعد ثورة ايار ١٩٤١ وهو يضم العراق وسوريا ولبنان وشرقي الأردن وفلسطين في اتحاد عربي يمكن لأية دولة عربية اخرى ان تنضم اليه وقد عرض نوري السعيد مشروعه هذا في مذكرة وجهها الى «ريچارد كيسي» وزير الدولة البريطانية للشرق الأوسط في القاهرة ثم أدرجه في كتابه الذي اصدره في سنة ١٩٤٣ بعنوان استقلال العرب ووحدتهم والذي عرف بأسم الكتاب الأزرق.

(١٤) لايزال الكتاب الغربيون حتى الان يطلقون على الجامعة العربية عبارة «عصبة الدول العربية LEAGUEOFARABSTATES فالكلمة عصبة «LEAGUE» تعني المنظمة او الرابطة في حين ان كلمة «الجامعة العربية» يتم التعبير عنها عادة بالكلمة «PANARAB» غير أن الدول العربية اعتادت ان تطلق على هذه المنظمة الاقليمية اسم «جامعة الدول العربية» وهو اسم يدلل على تجمع للدول العربية يعوض عن مفهوم «الجامعة» او «الوحدة».

اليها الدول العربية الممثلة في الجامعة فيا بينها، وتنسيق سياساتها والعناية بالمصالح المشتركة بصفة عامة. وحظر استعمال القوة بين الدول الأعضاء وأن لاتكون المعاملات بين الدول الأعضاء في الجامعة والعالم الخارجي مناقضة لدستور الجامعة نصا او روحا، او ان تكون معوقة لأي عضو من الأعضاء،وان يعرض مجلس الجامعة وساطته في المنازعات التي تحدث بين الدول الأعضاء، كذلك لم ينس الدستور ان ينص على التعاون في المعضلات الاقتصادية والاجتماعية، وان على لجان الخبراء في هذه الميادين ان يتوصلوا الى وضع مناهج للعمل المشترك.

كذلك تم التعهد بتقديم المساندة الكاملة لعرب فلسطين ؟ ومع ان هذا البروتوكول قد أصبح مصيره التعطيل بعد مرور ثمانية أشهر من صدوره الا أنه كان في الواقع يعتبر وثيقة مهمة بالنسبة الى الاقتراحات التي قدمها بشأن الأتحاد العربي في النهاية، وفي اصراره على السياسات المشتركة المتساوية، والتي مهدت مثلا السبيل أمام وضع فرنسا الخاص في سوريا ولبنان واعتبار معالجة قضية فلسطين على اساس انها من مسؤولية العالم العربي بأجمعه. ولقد استقبل البروتوكول في العراق بالتأييد واشار اليه الوصي عبدالاله في خطاب العرش الذي القاه في شهر كانون الأول ١٩٤٤، فأعتبره «خطوة طويلة الى أمام في مجال التعاون العربي».

ولقد مضت اللجنة التحضيرية التي وضعت البروتوكول قدما في تعيين لجنة فرعية لاعداد الدستور النهائي للجامعة حيث اكملت تلك اللجنة عملها ذاك في شهر اذار ١٩٤٦. وفي الثاني والعشرين من الشهر ذاته صادق ممثلو الدول الأعضاء في الجامعة على الميثاق النهائي لها، وكان من بينهم ممثلو العراق، أرشد العمر، وعلي جودت،وتحسين العسكري، وسرعان مابوشر بتنفيذ الميثاق بعد ان تكون قد اقرته اربع من الدول، ولقد اشترط الميثاق ان يكون المقر الدائم للجامعة في القاهرة وان تنتقل وظيفة السكرتير العام للجامعة اي رئاسة الجامعة، بين الدول الأعضاء بالتناوب المتساوي بين جميع الدول الأعضاء وان يجتمع مجلس الجامعة بالتمثيل المتساوي للجميع مرتين كل سنة، او أكثر من مرتين في الغالب، وان يتم قبول عضوية اية دولة عربية مستقلة في المستقبل، اضافة الى الدول الحاضرة الموقعة على الميثاق.

كانت الاحكام المناسبة في الميثاق تشمل الانسحاب من الجامعة و«التقييم» الذي يقرره المجلس ازاء اية دولة تفشل في تنفيذ التزاماتها، كما انه ينبغي على الأعضاء ان يحترموا الأنظمة والاهتمامات الداخلية لأي بلد عضو، وان يكون في مستطاع اي بلد عضو ان رغب في ذلك ان يعقد اتفاقات ثنائية اوثق من تلك الاتفاقات التي تربط الأعضاء بصفة عامة.

تكررت احكام البروتوكول بالنسبة الى اهداف الجامعة، والتنصل من استخدام القوة، كما نص على ان القرارات التي تتخذ"الا اذا حصل ذلك بأجماع الاراء،لن تكون ملزمة الا للدول التي قبلت بها، عدا مايتعلق منها ببعض الأمور الادارية المحددة. اما بالنسبة الى الخلافات الداخلية

بين الدول الأعضاء في الجامعة فان الميثاق كان اقل الزاما في هذا الشأن مما تضمنه البروتوكول ذلك لأن مثل هذه القرارات لا تصبح قانونية الا اذا كانت الدولة المختصة تتطلع الى الوساطة، والا اذا كان الامر لايمس استقلالها وسيادتها، واراضيها.

ولقد تم حذف التحديدات التي وضعها البروتوكول بشأن السياسات الخارجية للدول الأعضاء،كذلك حذفت المادة التي كانت تحث على تحقيق اتحاد اوثق في المستقبل، ولقد تقرر انشاء لجنة خاصة قائمة لتحقيق التعاون المستطاع بين الأقطار العربية في ميدان الأمور الاقتصادية، والمالية، والمواصلات،والجنسية، وتسليم المجرمين، والشؤون الثقافية والاجتماعية والصحة العامة. ومع أن الميثاق بصفة عامة كان يمثل ضعفا في الروابط المشتركة التي تمت صياغتها في البروتوكول الا أن مثل هذا التطور كان ناجما عن التردد الذي ابدته بعض الحكومات الأعضاء،والتي لم يشاركها المتحدثون باسم العراق في ذلك التردد، ومع كل ذلك فان توقيع الميثاق الذي صادق عليه البرلمان العراقي في اليوم الثامن والعشرين من شهر ايار سنة ١٩٤٦، كان حدثا له اهميته العظمى بالنسبة الى العراق الذي كان اهتمام رجال دولته بالسياسة العربية الداخلية، يقود العالم العربي منذ زمن طويل.

لقد اصبحت الجامعة العربية، في صفتها الاستشارية الخالصة في الوقت الحاضر، ابعد ماتكون عن المقترح الاول للمبادرة بتحقيق مشروع الهلال الخصيب، مثل بعدها عن كثير من الافكار، والدعاية المتحمسة غير الواقعية التي اتسمت بها فترة الحرب. على ان الجامعة العربية التي قامت على اساس استقلال مختلف الدول، مالبثت ان اخذت تواجه اهم قراراتها المناقضة، لفكرة انشاء دولة موحدة، او دولة اتحادية.

وفي الوقت ذاته كان تشكيلها لطراز سياسي، من جامعة عربية عصرية ومعقولة، وحكمها بالنسبة الى القرارات والاعمال المشتركة التي تنهض بها الدول الشقيقة، قد واجهت العالم الخارجي بظاهرة دولية جديدة، وكانت في الوقت ذاته تعطي الهاما جديدا لوزارات الخارجية للدول الاعضاء، وفرض تعقيدات جديدة عليها.

ومع ذلك فان الجامعة العربية خلال السنوات الخمس الاولى من قيامها، والتي كادت ان تفشل على نطاق واسع، قد تمسكت بالحكمة والاعتدال الواقعي. ولقد كان مستطاعا ان تصبح قادرة، اذا ما استخدمت بذكاء، عند حصول الفرص، ان تعزز يد العراق والدول الاخرى، في كيفية معالجة تلك الدول لشؤونها الخارجية. ذلك لان المبادرة المصرية في تأسيس الجامعة،

وجعل مقرها في القاهرة، وتعيين سكرتير عام مصري لها، كل ذلك كان قد حرم العراق من مركزه باعتباره البلد المناضل الاعضم، في سبيل الوحدة العربية.

وفرت الحوادث التي وقعت في سوريا ولبنان، والتي جرى بحثها في مؤتمر عقده «الحكام الهاشميون» ورجال دولهم في «الشونة» في شهر شباط سنة ١٩٤٥ [15] موضوعات لاول اجتماع يعقده مجلس الجامعة العربية. ذلك لان وضع الازمة التي حصلت سنة ١٩٤٤، بين الادعاءات الفرنسية بشأن منح «وضع خاص» للفرنسيين في سوريا ولبنان، وبين الطلب المحلي للتمتع بالاستقلال التام الذي تم الوعد به قبلا، كان وضع هذه الازمة قد ساء خلال ربيع سنة ١٩٤٥.

فلقد حدث القتال بين السوريين والفرنسيين اثناء شهر ايار من تلك السنة، في عدة نقاط من اراضي سوريا، وقصف الفرنسيون بمدفعيتهم مدينة دمشق [16]. ولم يتم منع انتشار الاضطراب الا بتدخل الانكليز الذي اثار حنق الفرنسيين. ولذلك انعقد مجلس جامعة الدول العربية على عجل في اليوم الرابع من حزيران، بينما عقدت آخر الاجتماعات التي حضرها رئيس وزراء العراق وزملاؤه، خلال شهري تموز وتشرين الثاني [17].

قام عبد الرحمن عزام، الامين العام لجامعة الدول العربية، بزيارة بغداد خلال شهر ايلول من تلك السنة. ولقد كانت المشاعر في بغداد آنذاك، قوية وحادة. وكانت الحماسة والتطور يطغيان على اجتماعات المجلس النيابي، ولذلك ارسلت برقيات شديدة الحنق الى كل الانحاء،

---

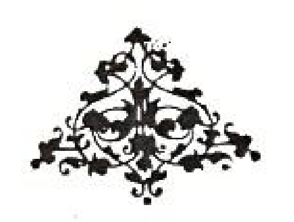
(١٥) مؤتمر الشونة بالأردن عقد هذا المؤتمر في اليوم الثاني من شباط سنة ١٩٤٦ وليس ١٩٤٥ كما ذكر المؤلف ذلك، وقد حضره عبدالاله يصحبه كل من صالح جبر واحمد مختار بابان واسماعيل نامق ومن ثم عادوا الى بغداد في اليوم السابع من الشهر ذاته وقد سبقت المؤتمر زيارة قام بها الامير طلال ولي عهد الاردن لبغداد في ١٤ كانون الثاني في ١٩٤٦ وانصبت المباحثات في المؤتمر على التمهيد لتوحيد العراق والاردن وبما كانت بريطانيا تنوي عمله في الاردن انذاك.

(١٦) ابلغ المستر تشرتشل، الجنرال ديغول، اسف الحكومة البريطانية لاضطرارها الى اصدار اوامرها الى القائد العام لقوات الحلفاء في الشرق الأوسط، بأن يتدخل للحيلولة دون الاستمرار في سفك الدماء، كما طلب تشرتشل الى الجنرال ديغول بأن يأمر القوات الفرنسية بالتوقف عن القتال وبوجوب عودة الجيش الفرنسي الى ثكناته. وفي خطاب القاه تشرتشل حول الموضوع في مجلس العموم في الخامس من حزيران ١٩٤٥ ذكر ان عدد قتلى الاضطرابات السورية بلغ خمسمائة شخص من الاهلين والجند، وان عدد الجرحى كان الف نسمة.

(١٧) قام رئيس الوزراء حمدي الباجه‌جي بزيارة مصر في اليوم الثامن من شهر تموز ١٩٤٥ اما الزيارة التي جرت في شهر تشرين الثاني فقد جرت في اليوم الثاني والعشرين من ذلك الشهر وقام بها وفد عراقي برئاسة صالح جبر وزير المالية وعضوية كل من نوري السعيد وعبدالمهدي. وكانت قد سبقت هذه الزيارة زيارة اخرى قام بها حمدي الباجه‌جي نفسه في اليوم الثالث من شهر تشرين الثاني لحضور اجتماع جامعة الدول العربية حول تطور القضية الفلسطينية(٢٢٢).

وانعقد مؤتمر عشائري تحت زعامة احد شيوخ السعدون ومع ان الحكومة العراقية قد حظرت التظاهرات، الا ان الاجراء الحاسم الذي اقدمت بريطانيا عليه في دمشق، في اليوم الثلاثين من شهر ايار، هو الذي حال دون تدخل عسكري من لدن العراق في دمشق، ذلك التدخل الذي كان مقدرا له ان يحظى بتأييد جماعي واسع.

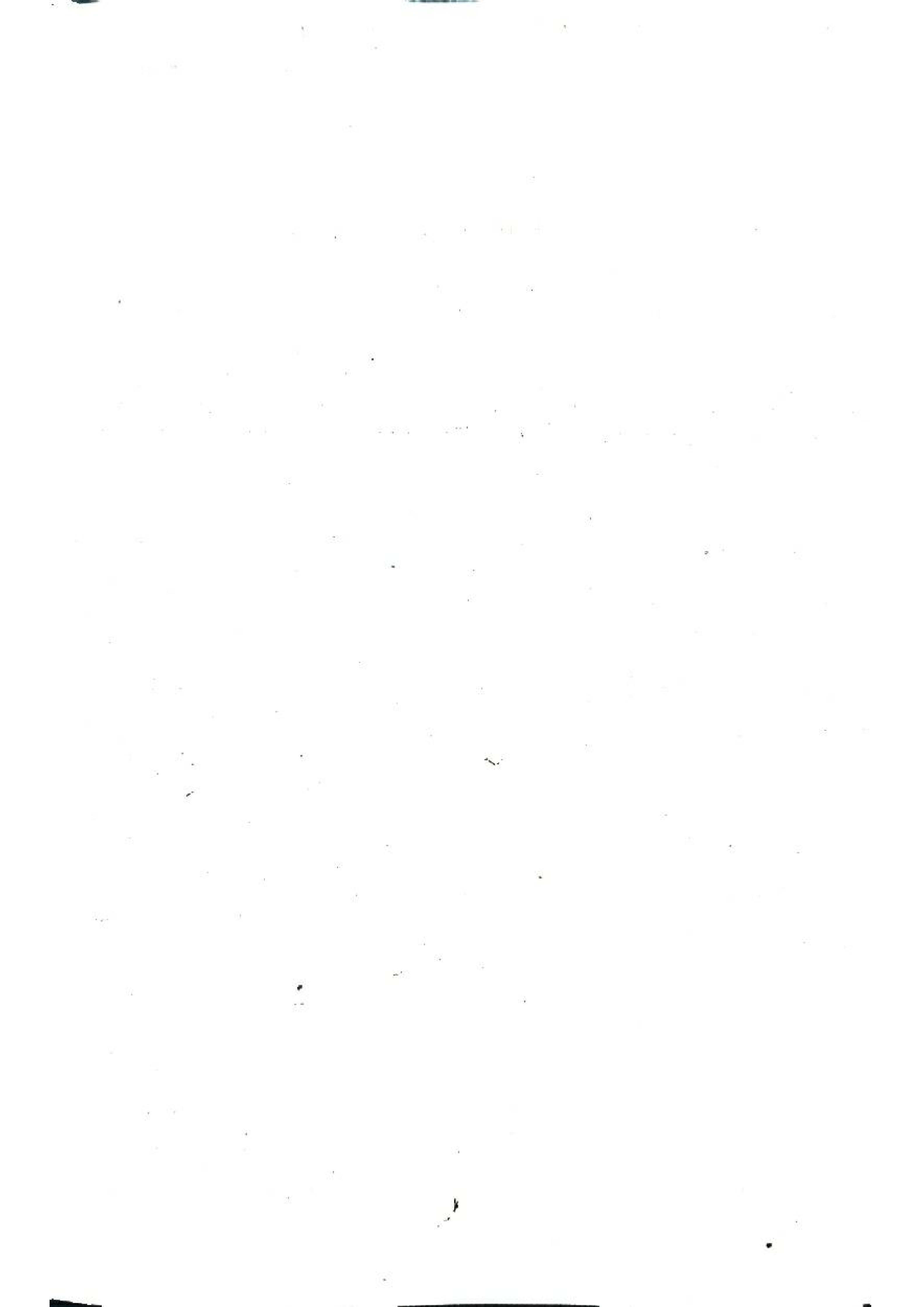
وهكذا انتهت سنة ١٩٤٥ بتركيز الاهتمام على البيان السياسي الانكلوفرنسي، الذي صدر في اليوم الثالث عشر من شهر كانون الاول من تلك السنة، والذي اشترط الانسحاب المبكر لكل القوات الاجنبية من سوريا ولبنان.





الفصل العاشر
انتهاء نصف قرن من حياة العراق الحديث

١ ـ تجمع العاصفة
٢ ـ معاهدة بورتسموث وفلسطين
٣ ـ المزيد من التغييرات
٤ ـ ثورة الأمة
٥ ـ المدينة والريف بعد نصف قرن
٦ ـ الدولة



١، تجمع العاصفة

اعقب استقالة وزارة حمدي الباجه جي، شهر من القلق، في حين تأخر اختيار وزارة جديدة تخلفها. وعلى الرغم من هواجس الشك التي كانت تخامر عبد الاله، فقد وقع الاختيار في اليوم الثالث والعشرين من شهر شباط سنة ١٩٤٦، على توفيق السويدي، ذلك الرجل صاحب المواهب العديدة، ولكن لم تكن من بينها الموهبة التي تستطيع ان تخلق الثقة. ولقد احتفظ السويدي لنفسه بوزارة الخارجية، وجاء بالرجل القدير الغيور، علي ممتاز الى وزارة الاشغال، والفريق اسماعيل نامق الى وزارة الدفاع، وعمر نظمي الى وزارة العدل، واحمد مختار بابان الى وزارة الشؤون الاجتماعية. اما بالنسبة الى الوزارات الثلاث المهمة اكثر من البقية، وهي الداخلية، والمالية، والتموين، فقد عين فيها على التوالي كل من سعد صالح احد المحافظين السابقين ومن المعادين لصالح جبر، وعبد الوهاب محمود احد المحامين من البصرة، وذو ماض سياسي عنيف، وعبد الجبار الجلبي من خريجي الجامعات الامريكية، وذي قدرة غير اعتيادية. وهناك وزيران جديدان عهدت اليهما وزارتا الاقتصاد والتربية هما عبد الهادي الظاهر، ونجيب الراوي. واجرى التعديل على هذه الوزارة في شهر نيسان حين استبدل احمد مختار بابان، بالدكتور شوكت الزهاوي احد الاطباء الباثيولوجيين من الاكراد والذي تولى وزارة الشؤون الاجتماعية، كما تم في الايام الاخيرة من العمر القصير الذي عاشته هذه الوزارة، نقل علي ممتاز الى وزارة الخارجية، وعبد الجبار الجلبي الى وزارة الاشغال.

واذ كانت الوزارة قد استلهمت الاراء الليبرالية، فقد بدأت عملها بآمال مشرقة. ومع انه لم يتم وضع ميزانية للسنة المالية ١٩٤٦ - ١٩٤٧، وذلك امر قد اثار دهشة شديدة، الا ان مالية الدولة كانت ماتزال تدار بالصفة التي لاتعطي اي سبب للقلق المباشر. فقد تم تجديد اتفاق العملات النادرة، الذي عقد مع البريطانيين في سنة ١٩٤٥، لمدة سنة اخرى، وتم الترحيب في بغداد، بالبعثة التجارية البريطانية التي كان يرأسها اللورد دافدسون، وتمت الموافقة على قانون الانتخاب الجديد، الذي كان يجري اعداده منذ زمن طويل، وادخلت عليه تحسينات جوهرية

ولبرالية بالنسبة الى الاجراءات القائمة، واعدت المباشرة بها، وللمرشحين الذين عرضوا انفسهم للمشاركة فيها، وتقسيم المحافظات الى وحدات من شأنها ان تخرج مائة وثمانية وثلاثين نائبا، بدلا من مائة وخمسة وعشرين نائبا. ومع كل ذلك فلم تتم المبادرة باجراء انتخابات مباشرة من درجة واحدة، وهو الامر الذي شاركت كل احزاب المعارضة في الحث على تحقيقه لكي تكون الانتخابات اكثر قرارا.

وفر قانون المحافظات الذي تمت المصادقة عليه في شهر شباط، الوعد بمبادرة وحماسة اوسع لتأليف وزارة عملية، وللاستقلال في العمل، في حالة وقوع اضطرابات. كما تمت صيانة الامن في الارياف بصفة جيدة، وانتقل فصل الشتاء الى فصل الربيع من دون ظهور اي اضطراب متوقع في كردستان، وان كانت انهار الدعاية المقيتة تتدفق اليه من جمهورية «مهاباد» التي كان ملا مصطفى من كبار اعضاء مجالسها. ولقد استقرت وحدات الجيش وهي على استعداد في الاقضية الواقعة على الحدود، وسلمت مذكرة احتجاج ومطالبة كردية الى لجنة التحقيق الانكلو امريكية في فلسطين، وقام رتل من قوات الجيش بزيارة الى مدينة «سنجار» ولكن لم تحدث هناك سوى مصادمات على نطاق ضيق.

على ان جو التذمر او التهديد الذي خيم على المدن التي تقوم فيها المراقد المقدسة لدى الشيعة، لم يؤد الى حدوث اضطراب مكشوف. وفي كل مكان في المدن، كانت الجهود التي بذلها التقدميون او الحاقدون لاثارة الاضطراب بين العمال، قد نجحت في الايحاء بحدوث اضراب في سكك الحديد في شهر اذار من تلك السنة. كما نظمت اضرابات وتظاهرات سياسية في شهر ايار احتجاجا على التقرير الانكلو امريكي[1].

غير ان كل هذه الامور لم تؤد الى تعكير صفو السلام، بل الواقع ان النواب انفسهم، اقدموا خلال شهر شباط على ارسال برقيات احتجاج الى لندن ضد استمرار الهجرة اليهودية الى

---

(١) يقصد به تقرير لجنة التحقيق الانكلو امريكية في فلسطين والذي قضى بتقسيم فلسطين بين العرب واليهود، ذلك المشروع الذي رفضه الفلسطينيون في حينه، نتيجة انشقاقاتهم وتعلقهم بالاوهام الكاذبة، فلم يقبلوا به مع ان المشروع لم يكن يعطي اليهود سوى شقة ضيقة من اراضي فلسطين. وكانت نتيجة ذلك الرفض ودمغ بعض الحكام العرب الذين قبلوا به بالخيانة والعمالة للاستعمار والصهيونية، ان اليهود لم يكتفوا، بعد ان فشلت المعارك غير الجدية التي خاضتها الجيوش العربية ضد العصابات اليهودية في فلسطين سنة ١٩٤٨، بذلك القسم الذي خصص لهم من فلسطين، بل استولوا على فلسطين برمتها بعد هزيمة العرب في حزيران ١٩٦٧، وبعد ضرب المقاومة الفلسطينية في لبنان واخراجها من هناك في اعقاب الغزو الاسرائيلي لاراضي لبنان سنة ١٩٨٢ ذلك الغزو الذي مهد له بعض اللبنانيين انفسهم وبمشاركة من الفرس، في اثارة الحرب الاهلية اللبنانية، والتي سكتت الحكومات العربية سكوتا مطبقا عليها، فلم تقم باي اجراء لوقف الغزو الاسرائيلي، وذبح الفلسطينيين في لبنان وتشريدهم منها. ومع كل ذلك فان فئة من المتزعمين للمقاومة الفلسطينية والذين ينعمون بالثروات والزعامات الكاذبة، مازالت ترفض اي تفاهم من شأنه ان يبقي على البقية الباقية من ارض فلسطين ووقف صيرورتها مستعمرة اسرائيلية مثل الاجزاء الاخرى التي احتلتها اسرائيل بعد ايار ١٩٤٨.

فلسطين، في الوقت الذي قدم فيه فاضل الجمالي شهادة مماثلة امام لجنة التحقيق الانكلو امريكية في القاهرة. وكذلك ارسل الوصي عبد الاله، والوزارة القائمة احتجاجات اخرى الى الحكومة البريطانية، والى الملك جورج السادس والرئيس الامريكي.

اصبحت التظاهرات السياسية المتوقع حدوثها الان، مدينة الى سياسة السويدي (او سياسة الوصي) الرامية الى رفع القيود المفروضة، والى السماح باعادة مولد الاحزاب، ولذلك تم اغلاق معسكر الاعتقال في العمارة، والغيت الاحكام العرفية التي اعلنت في بغداد والمناطق المجاورة لها منذ سنة ١٩٤١، واوقف العمل بمرسوم الامن العام الذي صدر في سنة ١٩٤٠، والغيت الرقابة على الصحف. ولكن هذه الحرية مالبثت ان قوبلت من قبل الصحفيين الذين اعتقلوا سابقا، بهجمات وحشية على وزارة توفيق السويدي. وهي هجمات كانت تعكس القسوة الشخصية والمواقف المتلاحمة للاحزاب التي شاركت في النشاط الكامل.

واذ كانت هذه الاحزاب تمثل، كما كان الامر ذلك على الدوام، المتذمرين والاشخاص الذين يبتغون الحكم، بدلا من الفئات السياسية والاجتماعية التي كانت ممسكة بزمام الحكم، وراضية به، فان مثل هذا الامر انما يصدق على الحزب الليبرالي الذي ظل خامدا منذ تأسيسه في سنة ١٩٣٩، والذي انتعش الان بعد تقبله منهاجا اصلاحيا معتدلا راح يجتذب التطرف المعادي للانكليز، والذي كان من بين اعضائه، وهم قليلو العدد، كامل الخضيري رئيس غرفة تجارة بغداد وسعد صالح، حيث اخذ هذا الحزب يصدر صحيفة تنطق باسمه هي «صوت الاحرار»[٢].

اما حزب الاستقلال الذي قام على اساس المعايير القديمة التي عرفت لدى كل من رشيد عالي الكيلاني وياسين الهاشمي، فانه قد برز في هذا التاريخ، بتراكم الطلبة والساخطين من افراد الطبقة المثقفة الذين انضموا الى الجناح القومي اليميني الذي كان يوجهه مهدي كبة، ذلك العضو المؤسس لنادي المثنى، والعطوف على النازية، يؤازره في ذلك اثنان من المعادين الاشداء للاجانب هما فائق السامرائي وصديق شنشل. وهذا الحزب الذي احسن تنظيمه وكان يتمتع بالاستقرار نسبيا، قد وضع سياسته الخارجية على اسس غير ودية تجاه تركيا، وبريطانيا، واتخذ موقف الحياد ازاء روسيا، والميل الى معاداة الهاشميين، وتأييد مفتي القدس، واطلاق الامنيات

---

(٢) المقصود به حزب الاحرار اي على غرار حزب الاحرار البريطاني، الذي يؤمن بالمبدأ الحر في السياسة والاقتصاد. وكان طلب حزب الاحرار قد تقدم به كل من داخل الشعلان، وعبد العزيز السنوي، ونوري الاورفلي، وعبد القادر باش اعيان، ومحمد فخري الجميل، وحسين النقيب، وكامل الخضيري، وعباس السيد سلمان، وقد انتهى وجود الحزب تقريبا بسقوط وزارة توفيق السويدي، ولم يبق له من اثر بعد ان اشتدت الازمة في عهد حكومة ارشد العمري، حتى ان صحيفة الحزب «صوت الاحرار» قد اعطيت الى الزميل لطفي بكر صدقي» فاصدرها باسمه ولحسابه الخاص. ولسنا نوافق المؤلف في زعمه بان حزب الاحرار كان قد تألف سنة ١٩٣٩، لان ماحدث في تلك السنة هو محاولة بعض الساسة في تأليف حزب بهذا الاسم ليس الا.

في الداخل بشأن الاصلاح الاجتماعي، وكانت جريدة «لواء الاستقلال» هي الناطقة بلسان الحزب. وكان حزب الدكتور سامي شوكت «حزب البعث القومي» وجريدته «الاصلاح» يقوم على ذات الاسس التي قام عليها حزب الاستقلال، وان كان اقل ثباتا في ارائه واكثر عنفا في لهجته [٣].

كان اخر احزاب الجناح اليساري هو الحزب الوطني الديمقراطي الذي يرأسه كامل الجادرجي، وهو زعيم كان ينقصه التأثير، وان كان فاضلا عنيدا من قادة الجناح اليساري. وكان يعاضده في ذلك، محمد حديد المثقف في لندن واحد الاشتراكيين من الجناح اليساري ومن اصحاب المواقف الجيدة، وحسين جميل الحاكم السابق، ومن اسرة طيبة، وصاحب افكار اصلاحية. وكانت الجريدة الناطقة بلسان الحزب هي «صوت الاهالي» واخيرا «صدى الاهالي».

وهناك حزب كان ينادي بالاصلاح الاجتماعي، كان قد انبثق عن جماعة الاهالي القديمة التي كانت موجودة في سنة ١٩٣٣. وكان هذا الحزب يستمد التأييد على نطاق واسع من اغنياء ابناء المدن، ومن الشبان المتحمسين الذين كانوا يوجهون هجماتهم العنيفة بصفة رئيسة ضد الدول الغربية و«العصابة القديمة» في الاوساط العراقية الحاكمة. غير ان موقفه الرسمي المعادي للشيوعية لم يجعله يحظى بموافقة بعض السياسات الروسية، ولم يكن اخلاصه القوي يعتبر انحرافا عن معاداة الهاشميين، وكانت جريدته «السياسة» عنيفة حقا وكانت العناصر المتضلعة في الحزب تتمثل في السيد عبد الفتاح ابراهيم المثقف ثقافة امريكية وصاحب مطبعة معدة لاعمال الطبع [٤]، وناظم الزهاوي.

وفي ذلك الصنف يقف «حزب الشعب» الذي الفه الشيوعي عزيز شريف وصحيفته «الشعب» واخيرا «الوطن» [٥] وقد عطلت الصحيفتان في سنتي ١٩٤٦ و ١٩٤٧ على التعاقب.

---

(٣) لقد حاول سامي شوكت ان يؤلف هذا الحزب قبل مجيء وزارة توفيق السويدي بفترة غير قصيرة، وكان قد مهد لتأسيس ذلك الحزب باصدار صحيفة يومية باسم «البعث القومي» وحين الف صالح جبر حزبه «الامة الاشتراكي» كان سامي شوكت من بين الذين انضموا الى ذلك الحزب.

(٤) المقصود بها مطبعة «الرابطة» التي كانت تديرها شركة مساهمة اكثر حصصها للاستاذ عبد الفتاح ابراهيم وافراد اسرته. وقد تأسست هذه المطبعة، بعد ان انفصل عبد الفتاح ابراهيم وعزيز شريف، عن جماعة الاهالي في شهر نيسان ١٩٤٣ واصدرت مجلة اسبوعية باسم «الرابطة» عاشت اكثر من سنة وظلت المطبعة قائمة الى ان تم الاستيلاء عليها بعد ثورة الثامن من شباط ١٩٦٣ حيث جرى تأميمها منذ ذلك الوقت وتم توسيعها لتصبح المطبعة الاولى من مطابع الحكومة الاخرى في الوقت الحاضر.

(٥) وقع المؤلف في اخطاء جسيمة بالنسبة الى حزبي الشعب وحزب الاتحاد الوطني. فلقد كانت جريدة «الوطن» هي لسان حزب الشعب الذي الفه عزيز شريف اما جريدة «الشعب» فكانت في الاصل بيد جماعة تزعمهم يحيى قاسم وقد تقدمت هذه الجماعة بطلب الى الحكومة في ٢٧ كانون الاول سنة ١٩٤٣ لتأليف حزب سياسي باسم حزب الشعب قدمه كل من يحيى قاسم،

وقد انضم الحزبان المذكوران الى بعضها البعض، قبل تعطيلها، في حزب واحد دعي باسم «حزب الاتحاد الوطني»[٦].

اما «حزب التحرير» الشيوعي الذي كان يتزعمه محمد الشبيبي[٧] وجماعته من الشيوعيين اليهود، فقد رفض طلبه، لكنه بقي مع جماعات اخرى يتزعمها. يوسف سلمان، «وداد والصائغ» يعمل سرا بكل نشاط، وكان اعضاء هذه الجماعات قد تم اجتذابهم من بين العمال الصناعيين، ومن صغار الاغنياء الذين كانوا يتسترون وراء الوزراء، وبصفة عامة من كل العناصر المتذمرة او تلك التي تحلم بالرؤى.

وعبد الامير ابو تراب، وعبد الرحمن شريف، ومحمود صالح السعيد، وتوفيق منير، وابراهيم الخضيري ويوسف جواد المعمار وابراهيم الدركزلي. ولكن الطلب لم يلب من الحكومة وبعد فترة غير قصيرة تقدمت نفس الجماعة بطلب الحصول على امتياز باصدار صحيفة باسم «الشعب» كان يحيى قاسم صاحبها، ومديرها المسؤول عبد الامير ابو تراب، وما ان حصل يحيى قاسم على الامتياز حتى انقلب على جماعته واستقل بالصحيفة وحولها الى صحيفة ناطقة بلسان الحكومة ومؤيدة لصالح جبر في الدرجة الاولى وذلك لان صالح جبر اهدى الى يحيى قاسم المطابع الحديثة التي جلبها من اوربا لطبع الجريدة التي ستنطق بلسان حزبه «حزب الامة الاشتراكي»، كما اصبحت الجريدة تنطق بلسان شركة النفط العراقية بعد ان عين يحيى قاسم محاميا للشركة وراح يمضي اكثر ايام السنة على حسابها في اوربا وفي لندن في الدرجة الاولى وبقيت الشعب تصدر حتى صباح يوم الاثنين الرابع عشر من تموز ١٩٥٨.

(٦) لم يجد عبد الفتاح ابراهيم ان من اللائق له ان ينضم الى حزب كامل الجادرجي او حزب عزيز شريف لانه كان يعتبر نفسه، وهو محق في ذلك، اكثر ثقافة وتبصرا في الامور السياسية منهما، ولذلك تقدم بطلب تأسيس حزب منفصل عنهما، سماه «حزب الاتحاد الوطني» واستخدام صحيفة «الرأي العام» لمهدي الجواهري، الذي شارك في الهيأة الادارية للحزب المذكور، لكي تكون ناطقة باسمه الى ان حصل على جريدة باسم «السياسة» وفي الوقت الذي اشتدت فيه الضربات على الحركة اليسارية في عهد حكومة ارشد العمري، جرت محاولة لادماج حزب الشعب وحزب الاتحاد الوطني في حزب واحد، وعقد اجتماع عام في مقر حزب الاتحاد الوطني لهذا الغرض القيت فيه الخطب والقصائد والشعارات، ونشر عبد الفتاح ابراهيم سلسلة مقالات في هذا الشأن عن «وحدة الحركة الديمقراطية» ولكن التوحيد لم يتم بين الحزبين. والحقيقة ان الحكومة قد فرحت كثيرا بذلك الانشقاق الذي حصل في الحركة الديمقراطية ولهذا سارعت باجازة كل من كامل الجادرجي وعزيز شريف وعبد الفتاح ابراهيم لتأليف احزاب منفصلة لان ذلك من شأنه ان يضعف الحركة اليسارية، ويشتت عناصرها، وهذا ماحدث فعلا، حيث انبرى كل حزب يحاول ان يظهر بانه هو الحزب الذي يتزعم تلك الحركة ويقودها، فضلا عن التخريب الواسع الذي لعبه الشيوعيون في هذا المجال، ونتائجه الخطيرة التي ظهرت في اواسط سنة ١٩٤٨ مما اشرنا اليه بشكل موسع في الجزء الأول من مذكراتنا المخطوطة.

ونشير في هذا التعليق الى الخطأ الكبير الذي وقع فيه المؤلف حين اعتبر حزب الاتحاد الوطني حزبا يمثل اغنياء المدن، ومن المعارضين للشيوعية، فلم يكن اعضاء الاتحاد الوطني يختلفون في مراتبهم الاجتماعية عن بقية غيرهم من الذين انضموا الى حزب الشعب او الوطني الديمقراطي، كما انه لم يكن يعادي الشيوعية، وان كان غير راض عن سياسة الحزب الشيوعي السري وتخريباته.

(٧) الصواب حسين محمد الشبيبي، وكانت كل العناصر المؤسسة لهذا الحزب من الشيوعيين وهو يعتبر الواجهة العلنية للحزب الشيوعي نفسه.

وكان تنظيم هذه الجماعات واسعا وافيا. فقد كانت لها خلايا بين موظفي الحكومة، وان كان الموظفون قد حظر عليهم حسب القانون، ان يشاركوا علانية في القضايا السياسية، وكذلك في المشاريع الصناعية.

وكانت السليمانية تمثل المركز الرئيس لهذه الجماعات الشيوعية[٨] لان الاتصال كان ميسورا مع العناصر الشيوعية الاخرى عبر الحدود، وكان المزج بين الشيوعية والقومية الكردية من الامور الفعالة في هذا الشأن.

كانت علاقات جارة العراق الشمالية ودية على الدوام، مع وجود بعض التحفظات، اذ انها تجددت بصفة ودية مرة اخرى، عندما تم ايفاد نوري السعيد الى انقرة في شهر شباط سنة ١٩٤٦. حيث بادر بوضع مسودة معاهدة للصداقة، وطدت الحدود القائمة بين البلدين منذ سنة ١٩٢٦، وقررت سياسة مشتركة من الاخاء، وعدم التدخل، والتشاور الحي، وراحت تتطلع قدما الى تسوية مشتركة للمشاكل المتبادلة فيما بينهما، من امثال مشكلة الاكراد، ومياه نهر الفرات، ولم يكن التصديق على هذه المعاهدة في بغداد في شهر حزيران ١٩٤٧ يبرهن على شيء من الصواب، ذلك لان بعض النواب قد اعادوا تذكر قضايا السخط القديم الذي اثارته قضية الاسكندرونة، في الوقت الذي كان فيه اخرون، يشعرون بان التقرب كثيرا من حكومة انقرة، لابد وان يكون خيانة للمصالح العربية، او ان قيام حلف عراقي تركي، وهو يعد من اسوأ الجرائم، سيكون مقبولا لدى بريطانيا[٩]. ومع كل ذلك فقد صودق على المعاهدة المذكورة. وبذلك اصبحت الزيارة التي سيقوم بها رئيس الجمهورية التركية للعراق، امرا متوقعا.

لقد الح البعض على احياء ميثاق سعد اباد. في حين كان البعض الاخر ينظر الى هذا الميثاق نظرة كراهية، لانه حلف غير عربي. اما معاهدة الاخوة مع الاردن فقد تمت المصادقة عليها في حينها، وسط نظرات سوداء اليها، وقيام تظاهرات في الشوارع من قبل الفئات المعادية للهاشميين.

حدث السقوط المبكر لوزارة توفيق السويدي في اليوم الثالث من شهر ابار، نتيجة المعارضة

---

(٨) هذا بالنسبة الى الحركة الشيوعية الكردية، التي اصطبغت بالصبغة العنصرية وكانت ارتباطاتها وثيقة جدا بالحركة الشيوعية بين اكراد بلاد فارس و اذربيجان، الذين اقاموا جمهوريات اشتراكية مثل جمهورية اذربيجان التي تزعمها جعفر بيشواري، وجمهورية مهاباد التي رأسها قاضي محمد. اما بالنسبة الى الخلايا الشيوعية العربية فكانت مصادر الاتصال منذ الاساس، تتمثل في الحركة الشيوعية في سوريا ولبنان عن طريق الحزب الشيوعي الموحد لها، وفي مركز الحركة الشيوعية في بلاد فارس، حيث كانت الاتصالات قوية بين الحزب الشيوعي العراقي وحزب «تودة» الفارسي ابتداء من سنة ١٩٤١ ومابعدها بصفة خاصة.

(٩) تناول المرحوم كامل الجادرجي هذه المعاهدة بالنقد والتجريح في مقالات نشرها في صوت الاهالي ومن ثم جمعت في كتاب مستقل، وكانت من اقوى ما كتب ضد المعاهدة العراقية التركية في حينه.

التي جوبهت بها في مجلسي النواب والاعيان، وانعدام مساندة القصر لها[١٠]. وعلى الرغم من الآمال الشعبية في تأليف وزارة حيادية او تكون مؤلفة من كل الأحزاب، وربما تحت رئاسة الامير، لتقوم باجراء الانتخابات العامة، ولتوطد كيان الحكم، فقد اعقبت الوزارة السويدية، في اليوم الاول من شهر حزيران، وزارة من صفة مغايرة ترأسها موظف عسوف هو أرشد العمري. لقد كان مقرراً ان يمكث ارشد العمري في الحكم مدة ستة اشهر، تميزت بسيطرته الشخصية على زملائه الوزراء وعلى كل دوائر الدولة، ومعالجة الحريات السياسية التي سمح بها سلفه، معالجة مميزة.

لقد اختار ارشد العمري كلا من عبد الله القصاب للداخلية، ويوسف غنيمة للمالية والتموين، ومحمد حسن كبة للعدل. اما بقية الوزراء فكانوا ممن تم استئزازهم لأول مرة من امثال عبد الهادي الجلبي (ابن الوزير القديم عبد الحسين الجلبي) الذي اعطيت له وزارة الاشغال، وبابا علي ذلك الشاب المتمدين والمتأمرك، ابن الشيخ محمود، لوزارة الاقتصاد، وسعيد حقي، وهو كردي آخر، لوزارة الدفاع، وفاضل الجمالي لوزارة الخارجية، والدكتور عبد الهادي الباجه‌جي، ابن عم حمدي الباجه‌جي ومزاحم الباجه‌جي، لوزارة الشؤون الاجتماعية، ونوري القاضي، وهو محام وحاكم من المدرسة القديمة، لوزارة التربية. ولكن في شهر آب استقال عبد الله القصاب من منصبه فتولاه أرشد العمري نفسه، ومن ثم عهد الى الدكتور عبد الإله حافظ بوزارة التموين.[١١]

---

(١٠) كان الانكليز وراء التغيير الذي حدث وجاء بوزارة توفيق السويدي الى الحكم ومنح الحريات لقد طبق الانكليز «سياسة التنفيس» مرات عديدة سواء في العراق ام في مصر وغيرهما فقد وجد الانكليز ان التذمر الذي ظهر في اعقاب الحرب لدى الشعب العراقي من بقاء الاحكام العرفية، والرقابة، وانعدام الحريات الدستورية، من شأنه ان يهيئ لثورة اخرى قد لاتقل خطرا على مصالحهم عن ثورة ايار سنة ١٩٤١، ولذلك اوعزوا الى عبد الاله ان يجري بعض التغيير في الوضع بقصد التنفيس ليس الا، والتخفيف من حدة التذمر الفاشي بين صفوف كل ابناء الشعب بما في ذلك صفوف الجيش العراقي الذي وضعه الانكليز على اسس جديدة تضمن ولاءه للعرش، وتنفيذاً لتوصيات الانكليز ونصائحهم اقدم عبد الاله على القاء بيان خطير في بهو امانة العاصمة مساء يوم الخميس السابع والعشرين من شهر كانون الاول ١٩٤٥ اريد من ورائه تهدئة الشعب لفترة ما، وذلك عن طريق التحدث عن العدل الاجتماعي، واعداد جيل من الخلف الصالح يتولى اعمال الحكم والمسؤوليات، وعلى اساس هذا الخطاب والخطة الجديدة المدبرة وجهت حملة مفتعلة ضد وزارة حمدي الباجه‌جي لاسقاطها وللاتيان بوزارة تنفذ ما لمح اليه عبد الاله في خطابه المذكور فكانت وزارة توفيق السويدي هي البديل وبعد ان انتفت الحاجة من بقائها ابعدت عن الحكم ليعود الظلم من جديد.

(١١) بدأت وزارة ارشد العمري حسب الخطة المرسومة من قبل الانكليز وعبد الاله، هجومها الشديد على الحريات الديمقراطية، وعلى الاخص الاحزاب، والنقابات والصحافة، واستغلت التخريبات والتظاهرات التي اثارها الشيوعيون، وعلى الاخص تظاهرة جماعة «عصبة مكافحة الصهيونية» في التاسع والعشرين من حزيران، والاضرابات التي حصلت في عدة مرافق في الدولة وغيرها، وبذلك انتهى ذلك الهجوم المرير الى تعطيل الحياة الحزبية والنقابية ليعود الشعب العراقي من جديد يرسف في قيود الذل والاضطهاد بعد فترة التحرر القصيرة جدا التي شهدها في عهد وزارة توفيق السويدي، حيث كان السويدي نفسه في مقدمة مؤسسي حزب الاحرار الذي اشرنا الى مؤسسيه في تعليق سابق.

وعلى الرغم من رغبة ارشد العمري في فرض الضبط والهدوء ، الا ان فترة وجوده في الحكم كانت مضطربة. فقد حدث بين العشائر تصادم دموي في شهر حزيران بصفة غير اعتيادية بين شمر والبو متيوت[١٢] ادى الى فقدان مئتي نفس. وقد بدا بان الخطر في كردستان قد تقلص ، بعد ان فشلت محاولة الروس في توطيد اركان جمهوريتهم الصنيعة لهم عبر الحدود[١٣] ، وبعد ان ادى التفكك والمجاعة الى اضعاف العوائل البارزانية في مواطنها، بحيث اصبح من اليسير نزع سلاحها، وتم شنق الكثير من المتمردين الاكراد ، في كردستان الفارسية ، بما فيهم «قاضي محمد» على يد الحكومة الفارسية ، عندما حاولوا الدخول الى هناك، ولكن الملا مصطفى رفض كل الشروط واستطاع ان يفلت من الاسر. وبعد ان اخفق في العودة الى العراق مرة اخرى، وصل الى المنطقة السوفياتية[١٤] كما وافقت الحكومة السوفياتية على استسلام غير مشروط بالنسبة الى اخيه الشيخ احمد والى ابن الملا الشيخ عبيد الله، هذا في الوقت الذي حكم فيه بالموت على اربعة من الضباط الذين حاربوا مع الملا[١٥] وعلى قلة من الزعماء الاخرين في حلقته، بينما استطاعت الحكومة العراقية الاحتفاظ ، وهي مرغمة ، بقواتها في المناطق المجاورة لبرزان، وذلك بالنظر الى حاجتها الى تلك القوات لمعالجة التمرد المسلح الذي قام به محمد خالد بن الشيخ احمد[١٦] .

---

(١٢) كان شيوخ شمر يعتبرون عشيرة البومتيوت من الجبور، بمثابة اجيرة لهم في الاراضي التي كانت تزرعها هذه العشيرة التي تقطن غربي الموصل بين الشرقاط وسنجار وكان الشمريون مايفتأون منذ سنة ١٩٤٤ يتعرضون بافراد البومتيوت ويعتدون عليهم. وفي يوم الخميس الثامن من شهر اب ١٩٤٦ زحفت قوات كبيرة من شمر على عشيرة البومتيوت فاعملوا فيها السيوف والخناجر والبنادق. لافرق بين رجل وامرأة، او طفل او شيخ فاوقعوا بينهم عدداً كبيراً من القتلى والجرحى، الى ان وصلت الانباء الى الحكومة فامرت قوات الشرطة بالتحرك لوقف الاقتتال فنجحت في ذلك ومن ثم اعتقلت الحكومة صفوق الياور واحمد الياور ولدى عجيل الياور، ومشعال الفيصل وحواس الصديد الى ان هدأت العاصفة ومن ثم اخلت سبيلهم بعد ذلك.

(١٣) المقصود بذلك جمهورية اذربيجان الشعبية التي الفها جعفر بيشواري في القسم الفارسي من اذربيجان والتي زحفت عليها القوات الفارسية، وبمناصرة علنية من القوات الامريكية والبريطانية، ورغم وجود القوات الروسية هناك، فسحقتها وقضت عليها وشنقت زعماءها وفي مقدمتهم بيشواري.

(١٤) المقصود بها المنطقة التي كانت القوات السوفياتية تسيطر عليها داخل الاراضي الفارسية حسب اتفاق سنة ١٩٤١ بين السوفيت والانكليز والامريكيين وان تكون متاخمة لمنطقة اذربيجان السوفياتية والتي اقام اليهود لهم فيها مايشبه الحكم الذاتي او الدولة شبه المستقلة والمعروفة باسم «بيجان».

(١٥) هم كل من الرائد الركن عزت عبد العزيز، والرائد مصطفى خوشناو، والنقيب خير الله عبد الكريم، والملازم محمد محمود قدسي الذين نفذ فيهم حكم الاعدام ليلة التاسع عشر من حزيران ١٩٤٧ .

وفي محافظة السليمانية كانت الحركات المعادية في اوائل سنة ١٩٤٧ تهدد بالانفجار بين الجبل الاصغر من السادة البرزانيين ، وعشيرة الجاف . في حين لم يتم الحفاظ بالكاد على الامن في اربيل بين عشيرتي بشدر وبيران . كذلك حدثت هزة ارضية في بنجوين في شهر تشرين الاول الحقت بعض الخسائر في الارواح[١٧] . وفي الاحواز حيث استطاع حزب تودة «الشيوعي» في اواسط سنة ١٩٤٦ ان يخلق احوالا مضطربة في مصفى النفط في عبادان ، تطلبت الحالة ارسال قوات بريطانية من الهند الى الشعيبة بمثابة اجراء احتياطي الامر الذي اثار المعارضة لحكومة بغداد ، نتيجة موافقتها على ارسال تلك القوات ، كما تم تنظيم اضراب من قبل الساسة الذين يعطفون على الشيوعية خلال شهر تموز بين عمال شركة النفط العراقية في كركوك ، على الرغم من ان احوال العمال واجورهم كانت جيدة واعلى من المستويات العراقية الموجودة . ولكن قبل ان يتم منع عقد اجتماع غير قانوني في مدينة كركوك من قبل الشرطة ، كان ذلك قد ادى الى اراقة الدماء ، وهو حادث مؤسف سارع المشتغلون بالقضايا العامة الى توجيه اللوم بشأنه الى شركة النفط ذاتها[١٨] .

وفي ميدان السياسة شعر رئيس الوزراء نفسه بانه مجبر ، نتيجة افراط الصحافة وزعماء الاحزاب[١٩] ، على انتهاج سياسة الارهاب ، ولذلك تم غلق صحيفتين واجراء اعتقالات بعد

---

(١٧) حدثت هذه الهزة عدة مرات ابتداء من اليوم الثامن من شهر اب ١٩٤٦ فاحدثت اضرارا جسيمة في الارواح والممتلكات ولذلك اخلت الحكومة البلدة من السكان الى اماكن خالية ونصبت لهم الخيام فيها وراحت تمونهم بالطعام والكساء وقررت منح المنكوبين مبلغ اربعة الاف دينار .

(١٨) حادثة كاور باغي في كركوك . كان عمال شركة النفط في كركوك قد بدأوا الاضراب اعتبارا من اوائل شهر تموز ١٩٤٦ واستمر مدة ثلاثة عشر يوما مطالبين بزيادة الاجور وتحسين اوضاعهم المادية وتوزيع المساكن عليهم وغير ذلك من الحقوق المشروعة ومع ان الحكومة والشركة قد وافقت على كثير من مطاليب العمال ، الا ان الشركة اخذت في الاخير تحاول التنصل من وعودها ولقد اعتادت شركة النفط هذه ان تجعل من محافظ كركوك ومدير الشرطة فيها اداة طيعة في يدها لتنفيذ اغراضها وحين كان العمال مجتمعين في احد البساتين في مدينة كركوك ويعرف باسم كاور باغي وهم ينتظرون عودة وفدهم المفاوض وصلت اليهم الانباء بان الشرطة قد اعتقلت افراد الوفد المفاوض فتعاظم الاضطراب والتظاهر وبينما كان العمال مجتمعين هناك يحيط بهم عدد من الاهالي بينهم كثير من الاطفال اقدمت قوات الشرطة على مهاجمتهم بالرشاشات وراحت خيل الشرطة تدوس بسنابكها النساء والاطفال فقتل عدد كبير من الاطفال والنساء والرجال قدر عددهم بستة عشر عاملا وطفلا وامرأة وجرح اكثر من ثلاثين امتنع معظمهم عن مراجعة المستشفى خوفا من اعتقاله وكانت هذه الحادثة من الاسباب التي ادت الى استقالة عبد الله القصاب وزير الداخلية في السابع عشر من اب ١٩٤٦ (للتفاصيل يراجع الحسني : تأريخ الوزارات الجزء السابع ، وسعاد خيري : من تأريخ الحركة الثورية المعاصرة في العراق الجزء الاول ص ١٥٠ ومابعدها) .

(١٩) كان ماأقدم عليه ارشد العمري من ارهاب مدروسا ومخططا من قبل الوصي والقادة البريطانيين في بغداد ولذلك فلم يكن ارشد العمري مجبرا على انتهاج سياسة الارهاب كما قال المؤلف ذلك ، وانما كان نفسه راغبا في هذه السياسة .

الاصطدام بين المتظاهرين والشرطة في شهر حزيران[20] عندما طالب ثلاثة الاف عامل بالجلاء المباشر للبريطانيين عن العراق ، وتأييد اجراء تسوية للمشكلة الفلسطينية وفي شهري اب وايلول عطلت صحف اخرى بسبب المقالات الملتهبة التي نشرتها.

ولقد اضرب المستخدمون في الصحف[21] وحكم اعضاء عصبة مكافحة الصهيونية الشيوعية نتيجة اصدارهم منشورات تخريبية وحظر توزيع صحيفة «العامل اليومي»[22] في كل انحاء القطر. كانت نتائج هذه الخطوات التي كان الساسة دوما يدعون الي تطبيقها في اول الامر ، ثم لايلبثون ان يستنكروها بشكل صارخ فيما بعد ، انها قد وسعت الشقة بين الحكومة المسؤولة ، والطامعين في الحكم من غير المسؤولين، وان يروح غير المسؤولين هؤلاء يؤكدون الى حد ما ، وصفهم البريطانيين بانهم هم الطبقة الحاكمة فعلا في العراق.

برهنت وزارة ارشد العمري بعناصرها المحافظة على ثباتها ، وظفرت بشيء قليل من التأييد من قبل منتقديها العنيفين ، عندما اذاعت منهاجها للسنوات العشر القادمة (في لحظة اسيء اختيارها بسبب تفاقم الازمة المالية) او عن طريق التلميح بأنها ستقدم منحة الى الموظفين في نهاية شهر رمضان ، والغاء الاجور المدرسية في المدارس الثانوية ، وافتتاح صندوق لاسعاف ضحايا الزلازل في بنجوين . اما في الميدان الخارجي من الجهد العربي الموحد ، فقد كانت سياسة ارشد العمري صحيحة ومقبولة . فلقد رحب العراق بالوضع الجديد لشرقي الاردن (حيث اصبح يدعى بعد ذلك باسم المملكة الاردنية الهاشمية والذي ظفر به بعد المعاهدة التي عقدها مع بريطانيا في اوائل سنة ١٩٤٦)[23] ، كما تم تمثيل العراق من قبل الوصي ورئيس الوزراء في مؤتمر

---

(٢٠) هي التظاهرة التي قام بها الشيوعيون من المنتمين الى عصبة مكافحة الصهيونية صباح يوم الجمعة الثامن والعشرين من حزيران ١٩٤٦ عندما توجه المتظاهرون من مقر العصبة القريب من السفارة البريطانية ببغداد الى الصالحية فجسر الوثبة فتصدت لهم الشرطة عند الجسر بالنار وقتل احد المتظاهرين من اليهود وجرح عدد منهم حيث تم اعتقال العشرات من المتظاهرين وصدرت الاوامر باغلاق منظمة العصبة وتعطيل صحيفتها اليومية «العصبة» وبداية الهجوم المركز على الحركة الشيوعية.

(٢١) الصواب هو اضراب عمال الطباعة التي تطبع الصحف فيها فقد كان الاضراب شاملا ولكن الحكومة امنت صدور الصحف الموالية لها وهي صحيفة «الحوادث» لصاحبها عادل عوني ، وصحيفة الاخبار لصاحبها جبران ملكون ، وذلك بـ طبعت هاتين الصحيفتين في مطبعة الحكومة بعد ان اضرب عمال المطبعتين اللتين كانتا تطبعان فيها ، تضامنا مع بقية العمال المضربين.

(٢٢) العامل اليومي يقصد بها الديلي وركر DAILYWORER لسان الحزب الشيوعي البريطاني والتي كان مسموحا بدخولها الى بغداد وبيعها في بعض المكتبات الخاصة ولاسيما مكتبة «مكنزي»

(٢٣) اعلن استقلال الاردن في ٢٥ ايار ١٩٤٦ وكان عبد الله قد بويع ملكا على الاردن في الحادي والعشرين من شهر شباط ١٩٤٦ وعلى اثر اعلان الاستقلال، ضم الاردن اليه الضفة الغربية من فلسطين.

«الشونة» الذي صادق على الهوية العراقية الاردنية في ميدان الافكار والاراء ، والتوافق مع الحركات والاجتماعات التي كانت تعقدها جامعة الدول العربية التي رسمت (بخطوات غير مقررة وغير محددة) حقوق العرب في فلسطين ، والجلاء الفرنسي عن سوريا ، حيث كانت العراق والاردن ، تتحسسان سبيلها نحو تفاهم اوثق في الميادين السياسية والثقافية.اما مشروع سوريا الكبرى [٢٤] الذي نادى به الملك عبد الله ، واخذ يلح عليه باصرار متزايد بعد الحرب ، فقد كان موقف العراق منه موقف التجنب الحذر من الالتزام به ، ولو ان افراداً من رجال الدولة في بغداد كانوا صريحين في مساندة ذلك المشروع ، ولقد ادت الزيارة التي قام بها الملك عبد الله الى بغداد والموصل في اواخر سنة ١٩٤٦ ، الى تقدم في موضوع التضامن العراقي الاردني ، ولكن هذا التقدم لايعني تقدما في مشروع سوريا الكبرى.وفي الوقت ذاته اتخذ العراق مكانته في الاجتماعات التي عقدت في كل من القاهرة والسودان ، كما انه بعث ، في نهاية صيف سنة ١٩٤٦ ، بممثليه الى لندن لحضور ماعرف باسم مؤتمر الطاولة المستديرة عن فلسطين [٢٥] ولم يكن موقف الممثلين العراقيين في ذلك المؤتمر مشكوكا فيه ، وقد اظهر الاضراب العام الذي نظم في كل انحاء العراق في اليوم الثاني من شهر تشرين الثاني ، استمرار الغليان الشعبي ضد الصهيونية [٢٦]

---

(٢٤) مشروع سوريا الكبرى : وهو المشروع الذي تبناه عبد الله ملك الاردن وقبل ان يتم تعيينه ملكا على الاردن ويتضمن توحيد سوريا ولبنان والاردن وفلسطين في حكومة موحدة او اتحادية ملكية او جمهورية وقد طرح هذا المشروع في اليوم الثامن من نيسان ١٩٤٣ وكانت بريطانيا قد اشارت الى هذا المشروع قبل طرحه بوقت غير قصير حين اشار انطوني ايدن وزير الخارجية البريطاني الى سياسة بريطانيا بشأن مستقبل الشعب العربي في ٢٩ ايار ١٩٤١ (الدكتور جهاد مجيد محي الدين : العراق والسياسة العربية ص ٦٨) وواضح ان مشروع سوريا الكبرى مماثل لمشروع الهلال الخصيب وكلاهما من مبادرات بريطانيا والهاشميين الذين وثقوا روابطهم بها حتى النهاية .

(٢٥) سبق ان اشرنا في تعليق سابق الى هذا المؤتمر الذي انعقد في لندن وكانت اقتراحات الحكومة البريطانية في ذلك المؤتمر تنطوي على الغاء الانتداب على فلسطين وعقد مؤتمر حول طاولة مستديرة في فصل الخريف (١٩٣٩) يوضع خلاله دستور دولة فلسطين المستقلة تحت الحماية البريطانية مع حماية الاقلية اليهودية بضمانات معينة،ولكن اليهود اخذوا يضغطون على الحكومة البريطانية لكى تتخلى عن هذا المشروع المقبول لدى العرب (عبد الوهاب الكيالي : موجز تأريخ فلسطين الحديث ص ١٧٦ وكان طبيعيا ان تستجيب بريطانيا لضغط اليهود فتسحب المشروع الذي اعدته لقيام دولة مستقلة في فلسطين)وبذلك مهدت السبيل امام الصهيونية لابتلاع فلسطين كلها بالتدريج في حروب متواصلة اقعدت الامة العربية ومن ورائها الامم الاسلامية كلها ، عن نصرة العرب في فلسطين ومواجهة التحديات الاسرائيلية نتيجة ارتباط حكام الامة العربية والامم الاسلامية بالامبريالية الامريكية والانكليزية والفرنسية وغيرها ، وتنازعهم فيما بينهم على مطامع ومصالح ذاتية خاصة وهكذا ضاعت فلسطين .

(٢٦) اعلن هذا الاضراب بمناسبة ذكرى وعد بلفور وكانت الاحزاب المجازة رسميا في ذلك الوقت قد الفت لجنة خاصة للدفاع عن قضية فلسطين واصدرت بيانات عديدة في هذا الشأن واشرفت على تنظيم الاضراب العام الذي جرى في يوم ٢ تشرين الثاني ١٩٤٧ وقد مر الاضراب بكل هدوء فلم تقع تظاهرات ولامشاحنات وقد اشرنا الى ذلك في كتابنا المخطوط المعنون «موقف الحزب الوطني الدمقراطي من القضية الفلسطينية» .

تم افتتاح مفوضية عراقية في اليمن ، وانشئت الاتصالات اللاسلكية بين بغداد وصنعاء ، كما اعترفت الحكومة العراقية بجمهورية اندنوسيا ، وكانت لها اراؤها بشأن التصرف بالمستعمرات الايطالية السابقة في شمالي افريقيا ، وايدت بصفة دورية ، موقف مصر في التفاوض الذي بدأ بينها وبين بريطانيا بعد الحرب،وكسبت الثناء عليها باختيار ممثل للعراق في مجلس الوصاية التابع لمنظمة الامم المتحدة ، ورفعت المفوضية العراقية في لندن الى درجة سفارة ، وعين الامير زيد فيها ، كما اعلن السفير البريطاني في بغداد عن رغبته في التخلي عن حقه الخاص الذي نصت عليه معاهدة سنة ١٩٣٠،في ان يكون هو المتقدم على الدبلوماسيين الاخرين ، في حين رفعت المفوضية الامريكية هي الاخرى الى درجة سفارة ايضا .

وفي الجزء الاخير من سنة ١٩٤٦ وصل الى بغداد نداء مكرر بالحاح من لدن القبائل العربية في الاحواز . فلقد ادى انحطاط اعتبار الحكومة الفارسية بعد الحرب العالمية الثانية في الاقاليم الممتدة ، وحددت الاحوال المقاربة من الفوضى التي احدثها حزب تودة ، وتمرد الحركة العربية ، كانت كل هذه الامور قد دفعت رجال العشائر العربية في الاحواز والذين ابعدوا زمنا طويلا عن وطنهم في ذلك الاقليم ، الى توجيه طلب الى بغداد والبصرة وجامعة الدول العربية بقصد منحهم حق المواطنة العراقية ، كما كان في الوقت تطلع الى انشاء حكومة عربية في الاحواز ، ولذلك كانت المحن التي نزلت بهؤلاء العرب المحرومين من الحقوق ، موضوعا اخذت تتحدث به الاحزاب القائمة في بغداد[٢٧] غير انه لم يسمع المزيد عن هذه الحركة بعد شتاء ١٩٤٦ - ١٩٤٧ ، وبقيت العلاقات العراقية الفارسية مشوبة بالشكوك والاثارة ، على الرغم من الاهتمام المشترك بالخطر الذي تمثله الشيوعية ، وضمان السلام في كردستان وعلى الحدود بين البلدين .

ظفرت القوى المعادية لارشد العمري في منتصف شهر تشرين الثاني بقوة اجبرته على الاستقالة،ولذلك عهد الى نوري السعيد في الحادي والعشرين من ذلك الشهر بتأليف وزارة اتحادية تقوم باجراء الانتخابات . وعلى اثر ذلك الف السعيد وزارته ، وحل البرلمان ، واعد العدة للانتخابات وفق اجراء جديد ، مع الوعد بمنح الحرية التامة لاختيار النواب . غير ان اماله

---

(٢٧) الحقيقة ان عرب الاحواز قد تأثروا بالحركات التي قام بها الاكراد والاذربيجانيون في شمالي بلاد فارس للانفصال عن حكومة طهران واقامة جمهوريات تقدمية هناك،فشرعوا يهيأون للثورة ضد الارهاب الذي يشنه الحكم الفارسي تحت اشراف الانكليز والامريكان،ولذلك تقدم رؤساء معظم العشائر العربية في الاحواز بنداءات الى الشخصيات البارزة في بغداد والبصرة يطلبون اليها مساعدتهم على اضفاء المواطنة العراقية عليهم بل العودة الى الوطن الام اي العراق. وقد ادعت الحكومة الفارسية في حينه ان حزب «تودة» الذي ساند نظام الخميني في طهران بكل قواه في الحرب العدوانية التي شنتها الطغمة الحاكمة في طهران ضد العراق ، ان هذا الحزب هو الذي نظم الاعتداءات الارهابية على المواطنين العرب في الاحواز ومع ان نسخا من تلك النداءات قد ارسلت الى جميع الاحزاب العراقية العلنية والسرية فلم يتطرق الى هذا الموضوع اي حزب منها عدا حزب الاستقلال الذي اشار في مقال افتتاحي الى الارهاب الذي يتعرض له الشعب العربي في الاحواز.

في الاتيان بمجلس نيابي قوي ، وفي ارضاء الاحزاب عن طريق دعوتها الى التعاون معه ، لم تتحقق الا بصفة جزئية . ولقد دعي كل من حزب الاحرار والحزب الوطني الى تسمية ممثليها في الوزارة ، واستدعي عدة اشخاص لهذا الغرض فعين علي ممتاز لوزارة الاشغال والمواصلات ومحمد حديد لوزارة التموين[٢٨] ولكن هذين الوزيرين مالبثا ان استقالا ، كما استقال معهما وزيران اخران هما صالح جبر وصادق البصام[٢٩] في الاشهر التي تلت ذلك لكي يكرسوا انفسهم لمعركة الانتخابات القائمة .

ولقد شاركت معظم الاحزاب ، بما في ذلك كتلة صالح جبر السياسية البرلمانية في تلك الانتخابات ، وكان احد الاحزاب وهو حزب التحرر الوطني الذي لم يجز رسميا سببا في وقوع تصادم مع الشرطة في الكاظمية . ونتيجة للتغيرات المتواصلة فقد تشكلت الوزارة مجددا بادخال عبد الهادي الجلبي وزيراً للاشغال ، وعبد الاله حافظ للتموين ووزارة المالية موقتا ، وشاكر الوادي (الذي اشتهر بنيله الثقة الموثقة من قبل الوصي) للدفاع ، وبابا علي الشيخ محمود للاقتصاد ، وجميل عبد الوهاب للشؤون الاجتماعية ولوزارة التربية موقتا،وفاضل الجمالي للخارجية ، وعمر نظمي للعدل .

لم يكن اجراء الانتخابات التي بدأت في شهر شباط ١٩٤٧ ليمنع نوري السعيد عن تحديد مراتع الشيوعية في البلاد ، وعن الادعاء بان ما اجراه من اعتقالات وتعقبات ضد العناصر الشيوعية ، قد قضى على تلك المراتع . وقد شملت تلك الاعتقالات انصار يوسف سلمان وداود الصائغ وزعماء من هؤلاء او من جماعات اخرى من امثال ابراهيم ناجي شميل وزكي محمد بسيم وعشرين اخرين من رفاقهم الذين تم اعتقالهم[٣٠] وباكتشاف الخلايا الشيوعية في كل محافظة كان رئيس الوزراء يأمل ان يتم توجيه ضربة قاضية الى الحركة[٣١] ولكن الامتنان من ذلك لم

---

(٢٨) كان علي ممتاز ممثلا الحزب الاحرار ، ومحمد حديد للحزب الوطني الديمقراطي وكان الحزبان قد اشترطا للاشتراك في الوزارة ان تكون الوزارة انتقالية ، فهمتها اجراء انتخابات حرة ، واطلاق الحريات الدستورية ، مثل حرية الصحافة والاجتماع ، وحرية العمل امام الاضراب .

(٢٩) استقال الوزيران علي ممتاز ومحمد حديد بناء على طلب الحزبين الذين ينتميان اليها وذلك بعد ان اخذت الوزارة تتلكأ في موضوع فتح فروع للاحزاب ، وبدرت منها بوادر التدخل في الانتخابات . اما استقالة كل من صالح جبر وزير المالية وصادق البصام وزير التربية فكان الدافع اليها تكتل طائفي محض ، وتمهيد للمجيء بصالح جبر الى رئاسة الوزارة وهذا ما تحقق حيث عهد الى صالح جبر بتأليف الوزارة الجديدة بعد استقالة وزارة السعيد تلك .

(٣١) يخلط المؤلف في هذا الموضوع بين كثير من الحوادث التي وقعت . فلقد تم القبض في صيف ١٩٤٧ على عدد من قادة الحزب الشيوعي من بينهم فهد وزكي بسيم وغيرهم في دار ابراهيم ناجي شميل في الصالحية وقيل ان العامل في التلفونات «فاضل فعل» هو الذي اوشى بهم الى الشرطة ، وقدموا الى المحاكمة وحكم على ثلاثة منهم بالاعدام ثم ابدل الحكم بالسجن المؤبد وهؤلاء هم يوسف سلمان (فهد) وزكي محمد بسيم وابراهيم ناجي شميل مع عشرة بالحبس ولكن الضربة التي وجهت الى=

يخفف الا قليلا من الهجمات العنيفة التي وجهتها الصحافة على نوري السعيد بالذات ، والى الاهداف التي هيأها البريطانيون ، وعلى الاخص وكالة رويتر للانباء والفروع المحلية للمجلس البريطاني (٣٢) .

كان مجلس النواب الذي جاءت به الانتخابات وسط الاحتجاجات المعتادة ضد التدخل الحكومي ، قد ابرز اكثرية كبيرة من النواب المستقلين او من انصار نوري السعيد وصالح جبر. ولقد حصل الحزب الوطني الديمقراطي على خمسة اعضاء (٣٣) في حين لم تحصل الاحزاب الاخرى شيئا من ذلك (٣٤) وعندما افتتح البرلمان عقد نوري السعيد الذي قبل رئاسة الوزارة على اساس هذا التفاهم ، النية على افساح الطريق امام صالح جبر ، واعلن استعداده لتأييد وزارة يؤلفها صالح جبر نفسه ، وهي اول وزارة يتولى رئاستها احد الشيعة (٣٥) .

الشيوعية وكانت قائلة عندما استطاعت الشرطة ان تداهم مقر الحزب الشيوعي في محلة الحاج فتحي في الرصافة وتكبس مطبعة الحزب التي كانت تطبع «القاعدة» وكل المنشورات الاخرى حيث اعترف «مالك سيف» الصابئي الذي كان يتولى منصب وكيل سكرتير الحزب الشيوعي العام في بغداد امام الشرطة بكل اسرار الحزب وراح يشارك في القبض على رفاقه ليس في بغداد وحدها حسب بل في كل المحافظات . وقد جمعت مديرية التحقيقات الجنائية العامة (مديرية الامن) كل ماعثرت عليه من مبرزات الحزب الشيوعي واعترافات مالك سيف وغيره من القادة في سلسلة من الكتب عرفت بعنوان «الموسوعة السرية» واذن للصحف في حينه بنشر محتويات الجزء الاول من تلك السلسلة التي بلغت ستة اجزاء وقد فصلنا في مذكراتنا المخطوطة الكيفية التي تمت بها معرفة مقر الحزب والشخص الذي وشى به الى الشرطة وربما تصدينا لذلك في كتاب مستقل عن الحركة الشيوعية في العراق ننشره ان سمحت الظروف بذلك .

(٣٢) المقصود به المجلس الثقافي البريطاني ، وكان مركزه في محلة الوزيرية ، وكان نشاطه مستورا تحت ستار تعليم اللغة الانكليزية ، ومايزال قائما حتى الان .

(٣٣) الذين فازوا بالنيابة من اعضاء الحزب الوطني اربعة اشخاص لاخمسة كما ذكر المؤلف وهم كل من حسين جميل ، وجعفر البدر ، وعبد الجبار الملاك وعبد الهادي البجاري . وبعد مرور اسبوع على انتهاء الانتخابات قرر الحزب ان يسحب نوابه من المجلس واصدر بذلك بيانا في اليوم السابع عشر من شهر اذار ١٩٤٧ ذكر فيه بان اشتراك الحزب في الانتخابات كان من اجل «حمل الشعب على ممارسة حقوقه الديمقراطية ، وامتحان رجال الحكم في اثبات صدق نواياهم وتصريحاتهم ، والان وقد تحقق ما استهدفه الحزب من اشتراكه وظهرت نتائجها مؤيدة بان الاكثرية الساحقة من النواب قد عينت تعيينا لذلك قرر الحزب سحب نوابه من المجلس الجديد (مذكرات كامل الجادرجي ص ١٤٢) وقد استقال حسين جميل من المجلس وبقي الثلاثة الاخرون فيه .

(٣٤) يقصد المؤلف بذلك حزب الشعب وحزب الاتحاد الوطني والحزب الشيوعي الذي تستر تحت حزب التحرر الوطني غير المجاز .

(٣٥) ذكر توفيق السويدي في مذكراته ان المساعي كانت تبذل من وقت طويل لان يخلف صالح ، نوري السعيد في رئاسة الوزارة ، وكانت هذه المساعي تصدر من جهات عديدة واكثرها كانت تمونه دوائر الاستخبارات البريطانية وعلى هذا الاساس وبعد ان اكمل نوري السعيد طبخة الانتخابات الجديدة واللعبة التي لعبها مع الاحزاب قدم استقالته في الحادي عشر من اذار ١٩٤٧ ليخلفه صالح جبر في رئاسة الوزارة في اليوم التاسع والعشرين من اذار ١٩٤٧.

احتفظ صالح جبر لنفسه بوزارة الداخلية ، واعتمد على زملائه المجربين في المناصب الاخرى . فاحتفظ بكل من فاضل الجمالي ، وشاكر الوادي وعبد الاله حافظ ، وجميل عبد الوهاب بمناصبهم السابقة ، واتى بجمال بابان الى وزارة العدل ، ووزارة الاقتصاد بصفة مؤقتة ، ويوسف غنيمة الى وزارة المالية ، والعالم الكردي توفيق وهبي لوزارة التربية ، وبضياء جعفر خريج جامعة برمنغهام الانكليزية في هندسة النفط ، الى وزارة الاشغال. اما المعارضة التي كانت نفسها مشتتة ، فقد تألفت بصفة رئيسة من الاحزاب الخمسة التي لم تمثل في الحكومة ولاسيما حزب الاحرار الذي كان يتزعمه سعد صالح . وكان منهاج هذا الحزب حياديا بصفة عامة ، او انه – كما قال البعض عنه-كان ميالا في صداقته الى روسيا[٣٥] ويحبذ التدخل المسلح في فلسطين وميله،الى العداء الشامل ضد البريطانيين .

تحدث رئيس الوزراء صالح جبر عن تعديل المعاهدة الانكليزية العراقية ، وعن مساعدة الصناعة المحلية ، وعن مصفى النفط الذي تملكه الحكومة ، والمصرف الوطني ، وتوسيع نطاق التربية وتحسينه،وعن الجامعة والاشغال العامة ، والتطور الاداري الواسع ، وتشجيع النقابات وتشديد المقاومة الصارمة ضد الشيوعية . وقد اعتمد صالح جبر على مساندة الوصي ونوري السعيد له،وبهذا يستطيع ان يحقق النجاح مدة بقائه في الحكم. لكنه مالبث ان جابه ، الى جانب الامور السياسية مصاعب جدية ، وكان من بين هذه المشاق تردي الادارة وفسادها ، والتي لم يبذل سوى جهد ضئيل لاستعادتها . وهناك مشكلة اخرى ، كانت اكثر الحاحا وشدة ، وهي سوء الوضع المالي في البلاد ، ذلك لان الميزانية التي خمنت لسنة ١٩٤٧ – ١٩٤٨ ، بشكل متعب ، قد اظهرت بان الايرادات كانت منذ سنة ١٩٤٤ ، ابعد من ان تتناسب مع زيادة النفقات ، وانها تمثل نسبة من الثروة القومية اقل بكثير،عما كانت عليه قبل الحرب.. ذلك لان كثيراً من الضرائب والرسوم المحددة بقيت على مستوياتها القديمة ، ولم تكن الايرادات الناجمة عن الكمارك قد تحركت صعدا بشكل مناسب للنفقات وللاسعار،وان الخدمات الاجتماعية قد سمح بتطويرها منذ الحرب ، بسخاء واكثر مما تستلزمه الحصافة والدقة. وعلى هذه الشاكلة افتتحت السنة المالية بنسبة ضئيلة من الفائض الذي توفر ايام الحرب ، وبنقص واضح في تخمينات تلك السنة المالية.

كان هناك نقص مخيف في العملة النادرة ، اصبح التجار المتلهفون على الاستيراد يشعرون به ، في حين كان موسم الحصاد في تلك السنة ادنى بكثير عن المعدل ، الى درجة انه غدا من

---

(٣٦) هذا خلط من المؤلف فلم يعرف عن حزب الاحرار انه كان ميالا الى روسيا او معاديا للانكليز. ولم يرد في مناهجه مايشير الى اي شيء من هذا،بل الواقع ان حزب الاحرار كان على غرار الاحزاب الحكومية التي تألفت في سني العشرينات واوائل الثلاثينات .

اللازم التفكير في استيراد الحبوب من الخارج،كذلك ادى التصدير الواسع غير الحكيم للحبوب خلال الشهور الاخيرة من سنة ١٩٤٧،الى نقص خطير في المواد الغذائية

كان تعويم القرض الداخلي بمبلغ مليون دينار وبفائدة مقدارها ٣٪، والذي خصص اصلا لتنفيذ المشاريع الرئيسة ، قد تم استخدامه للحاجات الجارية ، ولذلك فان القرض الثاني الذي اصدر في شهر كانون الثاني سنة ١٩٤٨ بمليون دينار وبفائدة مقدارها ٥ر٣٪ ولم يتم الاقبال عليه الابشكل متردد ، لم يحقق شيئا اكثر. كانت القضية التي تثير الحساسية ، والمتعلقة بموجودات العراق من الاسترليني لدى بريطانيا والتي ارتفعت بشكل متواصل حتى بلغت حوالي ستين مليون باون سترليني،قد تمت تسويتها بعد مشاورات مطولة وفق اتفاق تم التوصل اليه في اليوم الثالث عشر من شهر اب ١٩٤٧ ، حيث تقرر اطلاق مبلغ خمسة عشر مليون باون من تلك الموجودات ، على ان يتم توفيرها بصفة اقساط من ذلك التأريخ حتى سنة ١٩٥٢ ، وفي شهر تشرين الثاني ١٩٤٧ تم التوصل الى اتفاق لاحق ، يستبدل بعض الترتيبات المؤقتة،وينظم مايسمح به للعراق من العملات النادرة ، ويسمح بصرف مايعادل خمسة ملايين ونصف مليون باون من العملات النادرة خلال الاشهر الاثنى عشر القادمة ابتداءاً من شهر حزيران سنة ١٩٤٨ .

لم تبق بعد انسحاب القوات البريطانية من العراق خلال شهر تشرين الاول ١٩٤٧ ، وتحويل كميات كبيرة من المواد الحربية الى الجيش العراقي ، سوى حاميتين بريطانيتين في كل من الحبانية والشعيبة،تنفيذا لمانصت عليه معاهدة سنة ١٩٣٠،ولكن هذه المعاهدة ذاتها كانت معرضة لهجمات عنيفة طيلة تلك السنة [٣٧] كانت اهداف جميع الساسة ، (ماعدا اقلية منهم . عنيفة عنيدة تريد قطع كل شكل من اشكال الارتباط مع بريطانيا) تتركز في ازالة كل القيود المفروضة على الاستقلال ، والخيار الحر لتعامل العراق تعامل الشريك الكبير ، والغاء كل

(٣٧) كانت تلك اول مرة يضطر العراق فيها على استيراد الحنطة من الخارج بعد ان كان يصدر كميات هائلة منها قبلا ، وكانت ازمة الخبز التي اثيرت حتى في المجلس النيابي من العوامل الاساسية لحدوث وثبة كانون التي اودت بوزارة صالح جبر وبمعاهدة بورتسموث التي جاءت بها . انظر تفاصيل ازمة الخبز في كتاب «جر الددي غوري» المعنون (ثلاثة ملوك في بغداد) والذي ترجمناه ونشرناه سنة ١٩٨٣ وسوف تصدر الطبعة الجديدة منه قريبا جدا،ونضيف الى هذا ان ضجة واسعة وحادة حدثت في مجلس النواب بالنسبة الى الازمة الغذائية وتسرب الحنطة والشعير وغيرهما من العراق الى اقطار اخرى نتيجة التساهل الذي ابداه صالح جبر امام التجار والمضاربين في هذا الشأن وقد احرجت المناقشة في مجلس النواب موقف وزارة صالح جبر وكادت تؤدي الى سقوطها .

(٣٧) يقصد بها سنة ١٩٤٧ التي تحركت فيها الاحزاب والصحافة الى المطالبة بالغاء معاهدة ١٩٣٠ وتحرير العراق من كل آثر من اثارها،وذلك بعد ان اشيع عن اعتزام بريطانيا تعديل تلك المعاهدة باخرى غيرها.

الاحكام التي هوجمت بعنف ، والتي تسمح ببقاء الحاميات البريطانية في الحبانية والشعيبة في قلب العراق .

اظهرت المفاوضات الاولى مع السفير البريطاني ، بانها كانت تسير برفق ، وكانت الوزارة تأمل ان ترى في مفتتح سنة ١٩٤٨ حلاً سعيدا. كانت هجمات الصحف على بريطانيا ، والتي لم يكن لها من يساعدها في تلك الظروف ، تعتبر – كما كان الامر دوما – هي الشاغل المشترك لكل صحفي . ولم تتوقف هذه الهجمات الابصفة جزئية ومؤقتة خلال صيف سنة ١٩٤٧ عندما قام فريق من الصحفيين العراقيين بزيارة لندن[٣٨]

خلال السنتين اللتين اعقبتا عقد الهدنة ، كان معظم الموظفين البريطانيين الباقين في سلك الادارة ، وهي بقية ضئيلة من هيأة كانت نشطة وتبعث على الامل خلال ١٩١٩ – ١٩٢٠ ، قد غادروا العراق الان . كان «ادموندز» قد تقاعد ، وخلفه في وزارة الداخلية «دتشبورن».وفي سنة ١٩٤٦ كان كل من دراور في وزارة العدل ، وسندرسن في الخدمات الطبية،واتكنسون في الري ، وكابرن في الاشغال والمواصلات ، ولويد في جمعية التمور ، وغرايس في الداخلية ، من بين الذين خسرتهم الحكومة العراقية ، حيث اعقبهم في السنة التالية كل من «سوان» في وزارة المالية ، وسيتون لويد مدير الاثار ، وجادويك في دائرة البيطرة .

كان من المؤسف ان تضطر وزارة صالح جبر ، وهي من احسن الحكومات معنى ، مثل الوزارات التي سبقتها الى اتخاذ خطوات ضد الصحافة وضد التحريضات الحزبية التي تجاوزت كل الحدود المعقولة . لقد كانت سياسة وزارة صالح جبر ازاء قضية فلسطين اكثر صوابا ، وتحركاتها لتعديل المعاهدة نشطة ومحبوبة . ولكن هذا لم يكن كافيا بحد ذاته . ذلك لان «العصابة القديمة» المفعمة بالحقد والكراهية ، والتي ابعدت عن كراسي الحكم ، والتي كان يقال دوما بان البريطانيين يقفون وراءها ، هذه العصابة القديمة مازالت تقود الاحزاب الى حركات مخبولة من النشاطات المعادية للحكومة[٣٩] .

(٣٨) تألف هذا الوفد من كل من يحيى قاسم ، وعادل عوني ، وجبران ملكون ، ومحمد مهدي الجواهري وتوفيق السمعاني ، وصدر الدين شرف الدين،وقد امضى الوفد زهاء ثلاثة اسابيع في لندن ، والقى البعض منهم ومن بينهم جبران ملكون كلمات من اذاعة القسم العربي في لندن تحدثوا فيها عما شاهدوه في زيارتهم تلك من عظمة بريطانيا وشهرتها.ولم يشأ الجواهري الا ان يشذ عن الوفد ، ويتخاصم مع اعضائه ، ويشكو ذلك الى الامير زيد سفير العراق في لندن آنذاك فيتدخل هذا لاعداد منهج خاص بالجواهري. فصلنا ذلك في كتابنا المخطوط «مهدي الجواهري : ظلال وذكريات» .

(٣٩) يقصد المؤلف بذلك ان العصابة السياسية القديمة ، اي اعضاء المدرسة السياسية القديمة المرتبطة بالانكليز وبنفوذهم في العراق ، اخذت في الاونة الاخيرة تثير الاحزاب والمنظمات العمالية وتدفع بها دفعا الى احتدام النشاط المعادي للحكومة .

تم تعطيل احدى الصحف في شهر نيسان ، ثم اعقبها تعطيل صحيفتين اخريين في شهر حزيران [٤٠] واتهم كامل الجادرجي وعبد الفتاح ابراهيم بالعصيان ، واشاعة الفتنة ، وتم كبس مقر حزب الشعب واعتقال رئيسه عزيز شريف ولكن اخلي سبيله فيما بعد . كذلك ادت محاكمة بعض الشيوعيين الذين اوقفوا في عهد وزارة نوري السعيد الاخيرة قبل اشهر ، الى ان صدر الحكم على عشرة منهم بالسجن ، وباعدام كل من يوسف سلمان يوسف (فهد) وزكي بسيم ، وناجي شميل بتهمة تحريض قوات الجيش والشرطة ضد الحكومة * [٤١] .

تمت الاغارة على المكتبات في بغداد ، وجرى تفتيش مقرات الاحزاب المتطرفة ، ومن ثم عطل كل من حزب الشعب وحزب الاتحاد الوطني في شهر تشرين الاول بتهمة التحريض على الثورة ، واتهم الشيوعيون بالتحريض على الاضراب الذي حدث في ميناء البصرة [٤٢] .

---

(٤٠) اقيمت خلال وزارة ارشد العمري ثلاث دعاوي ضد كامل الجادرجي بسبب مانشره في صحيفة «صوت الاهالي» من مقالات اعتبرت مثيرة للكراهية . وقد بوشر بمحاكمة الجادرجي في اليوم الحادي عشر من اب سنة ١٩٤٦ فصدر الحكم ضده بعد يومين من بدء المحاكمة بالحبس لمدة ستة اشهر وتعطيل صوت الاهالي،واستؤنفت محاكمة الجادرجي مجدداً بسبب مانشره عن المعاهدة العراقية التركية ، وذلك ابتداء من اليوم السابع من تموز ١٩٤٧،ونتيجة لتلك المحاكمة عطلت صوت الاهالي عن الصدور ثم اعقبها تعطيل «السياسة» لسان حزب الاتحاد الوطني ، و «الوطن» لسان حزب الشعب الذي يرأسه عزيز شريف .

* وصفت جريدة الديلي وركر (العامل اليومي لسان الحزب الشيوعي البريطاني – المترجم) في عددها الصادر في السابع عشر من شباط ١٩٤٩ الحكومة العراقية ، بانها «حكومة فاسدة فتاكة ، وانها مجرد لعبة بيد الامبريالية البريطانية» . اما جريدة «لومانيته» (اي الانسانية لسان الحزب الشيوعي الفرنسي – المترجم) فانها قالت في عددها الصادر في الثامن من شباط سنة ١٩٤٩ ، ان الخطوات التي اتخذتها الحكومة العراقية ضد الشيوعية كانت لصالح اصحاب الملايين من الامريكيين والبريطانيين الذين كانوا يعدون العدة لاشعال نيران الحرب» .

(٤١) سبق ان اشرنا في هامش سابق الى محاكمة هؤلاء الشيوعيين بعد ان القي القبض عليهم في بيت «ابراهيم ناجي شميل» في صيف ١٩٤٧ . اما هذه المرة فان المحاكمة قد جرت بعد ان تم الكشف عن مقر الحزب الشيوعي وكبس مطبعته وكل منشوراته وسجلاته،ونتيجة للمحاكمة الاخيرة صدر حكم الاعدام على كل من يوسف سلمان ومحمد بسيم زكي اللذين حكما قبلا بالسجن المؤبد ، كما حكم حسين محمد الشبيبي ، ويهودا ازلوف بالاعدام ايضا بعد الاعترافات التي ادلى بها للشرطة «مالك سيف» الذي كان يتولى سكرتارية الحزب نيابة عن يوسف سلمان المحكوم بالسجن المؤبد. واستندت المحكمة في اصدار حكمها هذا الى التعديل الذي اجرته وزارة المدفعي في سنة ١٩٣٧ في قانون العقوبات البغدادي ، التي جعلت عقوبة من يبث الدعاية الشيوعية بين افراد القوات المسلحة الاعدام شنقا واستنادا الى ذلك التعديل تم تنفيذ حكم الاعدام في اواخر شهر كانون الثاني سنة ١٩٤٩ بكل من يوسف سلمان وزكي بسيم ، وحسين محمد الشبيبي ، ويهودا زلوف ، واصيب الحزب بضربة قاصمة ظل يعاني منها عدة سنوات.

(٤٢) عمدت وزارة صالح جبر ، الى اكمال حلقات الارهاب التي بداها ارشد العمري ونوري السعيد ، ضد الحياة الحزبية والحياة الديمقراطية باكملها . ولذلك اعلنت وزارة صالح جبر ببيان اذاعته مديرية الدعاية العامة في التاسع والعشرين من شهر ايلول ١٩٤٧ ، سحب اجازة كل من حزب الشعب وحزب الاتحاد الوطني بتهم ملفقة كاذبة . وكان الحزبان قد سعيا قبل تعطلها الى الاندماج في حزب واحد ، او اقامة اتحاد بينهما ويظهر من المقالات التي نشرها عبد الفتاح ابراهيم في جريدة «السياسة» داعيا الى وحدة الحركة الديمقراطية ، ان عزيز شريف بعد ان وافق على اندماج الحزبين في حزب واحد باسم «حزب الاتحاد الشعبي» عاد فاوضح بعد ذلك الاتفاق ، بان ماقصدته جماعة حزب الشعب هو التعاون في جبهة مشتركة وليس تأليف حزب (عبد الفتاح ابراهيم : «وحدة الحركة الديمقراطية» ص ٢٠).

ولقد ظلت مشكلة العرب قائمة في فلسطين نتيجة التهديد الذي كانوا يلاقونه من الصهيونية الغنية الموجهة توجيها قديرا من الرأسمالية الامريكية التي كانت تدعمها بالاموال ، والتي كانت تلقى المساندة في ذات الوقت من عناصر قوية في بريطانيا ايضا ، وبذلك اصبحت قضية الصهيونية في فلسطين تتجاوز اية قضية اخرى تستأثر بالاهتمام . لقد اثارت تلك المساندة التي ظفرت بها الصهيونية في فلسطين ، مشاعر حادة وقوية ابرزت، كما كان يحس بها ، الصورة الكاملة للظلم الغربي ، وروحية الاستهزاء لديه ، في الوقت الذي وجدت فيه كل الاحزاب في جو خطير من عواطف العداء ضد الاوربيين . ذلك ان مؤتمر لندن الذي عقد في خريف سنة ١٩٤٦ ، وتكرر مرة اخرى في اوائل سنة ١٩٤٧، والذي حضره فاضل الجمالي ، لم يتوصل الى اي اتفاق ، ماخلا رفض مشروع المصالحة بين العرب واليهود الذي طرحه رئيس الوزراء البريطاني موريسون ، والذي جاء في اعقاب الامور غير المناسبة وغير الحقيقية التي طرحتها لجنة التحقيق الانكلو امريكية . كذلك رفضت في اوائل سنة ١٩٤٧ خطة (بيفن) لتقسيم فلسطين رفضا تاما ايضا، واذ ذاك احالت بريطانيا قضية فلسطين الى منظمة الامم المتحدة ، والتي قامت لجنتها الفرعية المؤلفة من خمسة اعضاء بجولة في فلسطين خلال صيف تلك السنة .

وبعد مؤامرات لانهاية لها في «ليك سكسيس في خريف تلك السنة ، اصدرت منظمة الامم المتحدة تحذيراً الى بريطانيا ، بسبب اعتزامها الجلاء عن فلسطين في غياب تسوية متفق عليها ، ومن ثم اتخذت الامم المتحدة قرارها بتقسيم فلسطين بصفة نهائية الى منطقتين يهودية وعربية[٤٣] كان الانتداب البريطاني على وشك ان ينتهي ، والقوات البريطانية توشك ان تنسحب، وتكاد الدولتان العربية واليهودية ان تظهر الى حيز الوجود وان يؤسس نظام خاص لمدينة القدس .

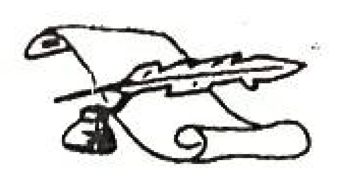
كان انقضاء عام من الهدوء الملموس في العراق ، والمصادقة على مجموعة من التشريعات التي يعتمد عليها ، او تقديم مجموعة اخرى منها للتصديق ، وتنفيذ بعض الاجراءات الصائبة ، ومنها احصاء النفوس بصفة جدية لاول مرة ، كل ذلك قد استطاع ان يخفي في ذلك الوقت ، القوة الحقيقية لعوامل التذمر والعنف المتوقع حدوثها ، تلك العوامل التي كانت قائمة فعلا ، واخذت تكسب المزيد من القوة .

---

(٤٣) صدر قرار منظمة الامم المتحدة بتقسيم فلسطين في ٢٩ تشرين الثاني ١٩٤٧ وكان المشروع يقضي باقتطاع قسم غير قليل من فلسطين يضم كل الموانئ المهمة ومنحه الى اليهود لاقامة دولة يهودية فيه ، في حين خصص القسم الثاني للعرب ووضع مدينة القدس تحت وصاية الامم المتحدة، ولقد ايد الاتحاد السوفياتي قرارا التقسيم هذا؟ امثلما ايدته بريطانيا وامريكا وبقية الدول الغربية الاخرى، وقد جاء تأييد السوفيت لقرار التقسيم ضمن مقال نشرته مجلة «الازمنة الحديثة : نيوتايمس» السوفياتية وفي هذا المقال تقول المجلة ان الاتحاد السوفياتي ايد توصية اكثرية لجنة الامم المتحدة الخاصة بفلسطين وان كان ممثل الاتحاد السوفياتي يرى بوضوح افضليات الاقتراح القاضي بانشاء دولة عربية يهودية موحدة على اساس اتحادي ولكن الخطأ الاساس في هذا الاقتراح هو انه لا يمكن تحقيقه في الوقت الحاضر بسبب توتر الحالة في فلسطين) . وكانت هذه المجلة تصدر في موسكو اسبوعيا في عدة لغات اوربية ومن ثم اخذت تظهر لها طبعة عربية في القاهرة باسم «العصر الحديث» في اوائل السبعينات.

وحين افتتح البرلمان في اليوم الاول من شهر كانون الاول ١٩٤٧ ، اخذت الطبقات الفقيرة التي كان يعوزها الحصول على الخبز بصفة خطيرة ، تقترب من حافة اليأس . ذلك ان البلاد كانت خالية من المواد الغذائية ، وكان الشيوعيون مايزالون نشطين ، ويتلهفون الى استغلال التذمر الراهن لخدمة اغراضهم في اثارة الفوضى . وكانت الاحزاب السياسية الصغيرة المتحمسة في ذات الوقت، وكلها مناهضة للحكام التقليديين وللبريطانيين وللغربيين على نطاق واسع ، بينما كان القوميون المحصورون في نطاق ضيق غير واقعي ، كان كل هؤلاء اقل ضعفا في تحريك الجماهير ، من العناصر الاصلية التي كانت تتحكم بتلك الجماهير ، كما ان هذه العناصر لم تكن على استعداد لاقامة اتحاد مؤقت بين بعضهم البعض ، ومع الشيوعيين في بعض المناسبات .

كان من نتيجة انقسام العالم بعد الحرب ، وعدم استقرار العلاقات بين الشرق والغرب من الصين حتى مراكش ، ومن تدني تقدم الديمقراطية المشكوك فيه ، ان خلق وهم لدى العناصر الواعية في مدن العراق ، من ذلك الوضع، انها راحت تظن ان خير مخرج لها يتمثل في حقلين : الاول هو ميدان الوضع القائم في فلسطين والذي اخذ الان يتحول من سيء الى اسوأ . اما الحقل الثاني فهو ان علاقات العراق مع بريطانيا والتي توشك الان ان يعاد النظر فيها . وعلى هذا فان كل المخاطر التي ظلت كامنة في سنة ١٩٤٧، تلك السنة التي كانت تبشر بالتقدم والامل ، قد تجسدت وتحققت في نتائج مؤلمة في السنة التي اعقبتها .



٢ ـ معاهدة بورتسموث وفلسطين

خلال الاسابيع التي اعقبت افتتاح البرلمان في اليوم الاول من شهر كانون الاول، بدا كل شيئ معدا للتوقيع على معاهدة جديدة، ولم تتم الموافقة على المواد الرئيسة منها حسب، بل وحتى على معظم النص الجديد الذي وردت فيه، من قبل رجال الدولة الذين تمت استشارتهم في بغداد، ومن لدن الوصي عبد الاله ايضا. واذيع في اواخر السنة بان رئيس الوزراء ووزير خارجيته سوف يمضيان الى لندن، ويصحبهما كل من نوري السعيد، وشاكر الوادي، لاجراء المحادثات النهائية وللتوقيع المحتمل على المعاهدة، وعلى هذا الاساس عهد الى جمال بابان بمنصب رئيس الوزراء بالوكالة.

والواقع ان المعاهدة قد تم الاتفاق على عقدها والمبادرة بوضعها في اليوم الثاني عشر من شهر كانون الثاني ١٩٤٨، وتم التوقيع عليها من قبل مندوب عراقي والسير ارنست بيفن وزير الخارجية البريطانية في اليوم الخامس عشر من ذلك الشهر[١].

وحين ظفرت المعاهدة بالثناء مؤخرا باعتبارها مثالا مشجعا، وسابقة لمشاريع اخرى مماثلة، فانها بذاتها وبملاحقها قد اشتملت على الامل في قيام التعاون في ميادين التطور الفني والاقتصادي، ولكنها كانت في الدرجة الاولى معاهدة دفاع مشترك. ذلك ان المعاهدة قد اشترطت وجوب التشاور وقت الخطر، وتقديم المساعدة المباشرة من اي طرف الى الآخر في حالة وقوع الحرب، وان يجري تسليم القاعدتين الجويتين في الحبانية والشعيبة الى العراق، مع الاحتفاظ بعدد محدود من افراد بريطانيين يعملون تحت امرة القيادة العراقية وعلى نفقة بريطانيا ذاتها، لضمان استعداد القاعدتين للاستعمال المباشر، كما تستطيع القوات البريطانية ان تعود الى

---

(١) هذا المندوب العراقي هو الدكتور فاضل الجمالي وزير الخارجية في وزارة صالح جبر والحقيقة ان التمهيد للمعاهدة قد بدأ اثر تأليف الوزارة حين توجه وفد عراقي الى لندن لذلك الغرض في اوائل شهر ايار ١٩٤٧، واعقب ذلك دخول عبد الاله نفسه في التفاوض مع بيفن خلال شهر اب من تلك السنة. فالواقع ان وزارة صالح جبر قد تركت كل مشاكل البلاد ومصالحها، وكرست كل مالديها من جهد ووقت لعقد المعاهدة الجديدة.

اشغال القاعدتين في حالة الحرب ليس الا، وان تختفي البعثة العسكرية البريطانية، ويؤلف مجلس بريطاني عراقي مختلط، يتولى تطوير الخطط الستراتيجية، وتقديم التوصيات بشأن تجهيز القوات العراقية، والتأكيد على توحيد معايير التجهيزات بين الجيشين، وان تقدم القوة الجوية البريطانية للقوة الجوية العراقية، المعونة في التدريب في الخارج، وتوفير الاسلحة من احدث الانواع، وان تصبح المعاهدة نافذة المفعول حالما يعود عالم مابعد الحرب الى احوال السلام، اي في الوقت الذي تصبح فيه كل معاهدات الصلح مع البلدان المعادية سابقا نافذة المفعول، وجلاء الجيوش المحتلة عنها.

وما ان نشرت المعاهدة حتى حظيت بالترحاب في بريطانيا، واعتبرتها العناصر المسؤولة في بغداد كافية، تلك العناصر التي سبق لها ان صادقت عليها، كما صادق عليها الوصي ايضا. وفي البرقيات التي تبادلها الوصي مع الملك جورج السادس، اوضح بان المعاهدة كانت «لصالح البلدين»، وانها سوف توطد اركان الصداقة بينهما.

شعر اعضاء الوفد العراقي الذي امضى في بريطانيا اياما قليلة في اجازة، بعدم وجود شك في ان لايتقبل ابناء وطنهم اتفاقا يمثل تقدما واضحا ومفيداً بالنسبة الى معاهدة سنة ١٩٣٠، ذلك الاتفاق الذي يبدو بانه لم يقصد المساس «بالسيادة القومية»،وعلى هذا فان اعضاء الوفد لم يكونوا قد خدعوا ابدا. على ان تغيب الوزراء الرئيسين عن بغداد، واخفاقهم في توضيح المعاهدة الجديدة، والدفاع عنها حين نشرها، او قبل ذلك، قد هيأ الفرصة امام اتخاذ موقف وطني متشدد، لرفض المعاهدة من لدن الاحزاب وجماهير المدينة التي تم تنظيمها على ايدي منظمين قادرين انفقوا الاسابيع، وربما الشهور، في الاعداد لهذا الحادث.

لم يجر سوى تساؤل قليل عن مفردات فقرات المعاهدة الجديدة، ولم يكن هذا التساؤل ضد البريطانيين بصفة محددة، اكثر مما كان ضروريا لتهيئة تجمع مشترك ذي كفاية مجربة، لمختلف العناصر. فاذا كان بعض الساسة والساخطين، يرون ان الارتباط البريطاني المتواصل، وحتى وجود الفنيين البريطانيين، يؤلف عدوانا، فان المناسبة غدت الآن اكثر ملاءمة لاطلاق احاسيسهم بالخوف من النقص الحاصل الآن في المواد الغذائية، والظلم الاقتصادي، ورئيس الوزراء الممقوت، والادارة التي تشوبها النواقص والفساد الواسع الفاشي فيها، وابعاد الساسة الشبان الساخطين، والمشتغلين بالقضايا العامة عن الحكم، اضافة الى اتباع رشيد عالي القدامى المتشددين، وقادة الجيش الذين عملوا معه.

كان رد الفعل المباشر لدى جماهير بغداد ازاء اذاعة المعاهدة، حدوث اضراب لمدة ثلاثة ايام قام به طلبة كليتي الهندسة والحقوق، وتنظيم التظاهرات، واتساع حجمها وشدتها، تلك التظاهرات التي نظمها الحزب الوطني الديمقراطي، وحزب الاستقلال، وحزب الاحرار والحزب

الشيوعي. ولقد تمت الدعوة الى اعلان الاضراب في الدوائر وفي المعامل، ووقعت هجمات عنيفة على المنشآت البريطانية، او المصالح التي يشتبه فيها بانها مصالح بريطانية، وعلى مبنى «جريدة الاوقات العراقية»[٢] والمصادمات الوحشية مع الشرطة التي ملأت شوارع العاصمة. غير ان التظاهرات التي امكن السيطرة عليها باستعمال الشدة في اول الامر، سرعان ماتجاوزت حدود الضبط. فلقد اشتدت حماسة الجماهير، ولم يعد احد يلتفت الى البيانات التي كان يصدرها نائب رئيس الوزراء، ووزراؤه الذين استولى الخوف عليهم الآن. على ان اقدام الشرطة على فتح النار لاعادة النظام لم يكن ناجحا، بل انه زاد من حدة السخط بصفة وحشية. فلقد قتل مالايقل عن خمسين شخصا، وجرح مابين مائة ومائتي شخص، كان من بينهم عدد من افراد قوات الشرطة.

اخذ نطاق الحركات الجماهيرية التي بدأت في اليوم السادس عشر من شهر كانون الثاني سنة ١٩٤٨، يتعاظم في كل يوم لاحق، وقد ظهر بان اعادة الامن يجب ان يعهد بها الى الجيش، اذا وجد اي من الوزراء، ولربما الوصي نفسه، ان من الحصافة استعمال هذه القوة التي لم يكن موقفها معروفا، وكانت قيادتها تضم في اقسام منها اولئك المتشددين في عدائهم للانكليز، وسرعان ماانحطت معنويات الشرطة الذين كانت تقاومهم الجماهير وتحتقرهم،في ذات الوقت الذي لم يحصلوا فيه على المساندة من لدن رؤسائهم.

اما في المحافظات فان المحافظين الذين كانوا بعيدين عن مثيري الاضطرابات، فقد استطاعوا كالمعتاد ان يسيطروا، او على الاقل، ان يقللوا من نطاق المسيرات المنظمة في الشوارع، وان يحافظوا في معظم المراكز على الاوضاع الاعتيادية تقريبا. اما في السليمانية فان المتظاهرين اخذوا يثنون على الروس، ويحتقرون كل العرب، ويشتمون البريطانيين، ولقد اختطفوا احد المدرسين الانكليز من المدينة، واحرقوا المعهد البريطاني الموجود هناك[٣].

كان الوصي، الذي كان جزء من الاضطرابات موجها ضده نتيجة دفاعه الشهير عن المعاهدة، بل جرى الحديث في الواقع عن اقامة الجمهورية، قد دعا الى عقد جلسة لمجلس

(٢) صحيفة الاوقات العراقية IRAQ TIMES كانت تصدرها شركة خاصة ببغداد منذ ايام الاحتلال البريطاني، وكانت عند صدورها تعرف باسم الاوقات البغدادية، نظرا لوجود صحيفة اخرى مثلها صدرت في البصرة باسم الاوقات البصرية. وكانت الاوقات العراقية تصدر في اربع صفحات يوميا احداها باللغة العربية والثلاث الباقية بالانكليزية وكان مقرها في شارع الرشيد مقابل بناية بيت لنج القديمة وبقيت تصدر الى ان حلت محلها الصحيفة الحكومية المعروفة باسم «بغداد اوبزرفر».

(٣) ذكر الحسني في حاشية ص ٢٨٥ ج ٧ من تاريخ الوزارات ان السبب في احراق المعهد البريطاني يعود الى وجود اذاعة خاصة فيها تبث الدعاية للاجانب، وتحارب الروح الوطنية حسب تقرير مديرية شرطة السليمانية المرقم س ٥٤ والمؤرخ في ١٩ شباط ١٩٤٨.

التاج[٤] في اليوم الحادي والعشرين من شهر كانون الثاني. وبعد محادثات استمرت خمس ساعات احس بضرورة تعديل موقفه من المعاهدة واستنكارها، ولذلك اصدر في ختام تلك المحادثات بيانا قال فيه «ان المعاهدة قد وجدت غير مرضية لانها لاتحقق الاماني القومية للعراق، ولاتعزز الصداقة بين البلدين، وانه لن يصادق على اية معاهدة تفشل في تحقيق كل اهداف البلاد»[٥] ومع هذا التغيير في المبدأ، استمرت التظاهرات من دون رادع نتيجة تدني سيطرة الشرطة، وظهور دلائل واضحة عن تفكك او اختفاء قسم من قوات الشرطة.

اقيمت مواكب التعزية التي حضرها الالوف من الناس، للطلبة الذين سقطوا قتلى، غير ان عودة رئيس الوزراء، الذي كان مايزال مقتنعا بان كل ماحدث كان من فعل اقلية من المحرضين، وتضليل الجماهير[٦] لم يوفر اي شيء، حتى ان حماية سلامته الشخصية لم تتحقق بالحامية التي استقرت على سطح داره الخاصة.

---

(٤) لم يكن يوجد في العراق في العهد الملكي مجلس يعرف بمجلس التاج على غرار ماهو موجود منه في بريطانيا ولذلك فان المقصود بذلك المجلس هو الاجتماع الذي عقده الوصي في مساء اليوم الحادي والعشرين من كانون الثاني في البلاط وحضره بقية اعضاء الوزارة الموجودين في بغداد بما فيهم جمال بابان وكيل رئيس الوزراء وبعض رؤساء الوزارات السابقين من امثال جميل المدفعي وحكمت سليمان وحمدي الباجه جي وارشد العمري، وممثلو الاحزاب العلنية ومنهم كامل الجادرجي، ومحمد مهدي كبة رئيس حزب الاستقلال، وعلي ممتاز ممثل حزب الاحرار، واعضاء من الكتلة البرلمانية هم كل من نصرت الفارسي، ورضا الشبيبي وجعفر حمندي، وبعض الاعيان منهم محمد الصدر، ومصطفى العمري، وداود الحيدري وعبد المهدي، ورئيس مجلس النواب ونائب رئيس مجلس الاعيان، والنائب نجيب الراوي ومولود مخلص رئيس مجلس النواب السابق وقد بدأ جمال بابان الحديث عن الغرض من الاجتماع فعزا ماحدث من اضطراب الى «العناصر الهدامة والمفسدة التي ارادت ان تستغل الموقف» وقلل من عدد الاصابات ليدلل على ان الشرطة لم تكن قاسية في معاملة المتظاهرين، وهدد بقمع كل حركة من شأنها الاخلال بالامن. وعند الانتهاء من كلامه سأل كامل الجادرجي الوصي عبد الاله عما اذا كان يرغب في حصر الموضوع بالوضع الخطير القائم الآن في البلد فرد الوصي بان الاجتماع يقصد منه بحث الموقف الراهن (مذكرات كامل الجادرجي ص ١٧٣ - ١٧٤) وبعد المداولات التي جرت في اجتماع البلاط امر رئيس التشريفات باصدار بيان ذكر فيه ان الوصي يعد الشعب العراقي بانه سوف لاتبرم اية معاهدة لاتضمن حقوق البلاد وامانيها الوطنية.

(٥) النص الاصلي للبيان الذي اذاعه رئيس التشريفات يقول «عرض المجتمعون (في البلاط) اراءهم بخصوص مسودة معاهدة بورتسموث العراقية الانكليزية، وقد اجتمعت اراؤهم على انها لاتحقق اماني البلاد، وليست اداة صالحة لتوطيد دعائم الصداقة بين البلدين سيما وان مجلس الوزراء لم يقر بعد تصديق المعاهدة المذكورة».

(٦) طلب الوصي الى جمال بابان ان يتصل بصالح جبر في لندن فورا وان يعود الى بغداد على جناح السرعة. وعاد صالح جبر فورا فنزل في مطار الحبانية، لكنه قبل عودته اذاعت محطة اذاعة لندن في يوم ٢٢ كانون الثاني تصريحا له جاء فيه انه موقن بان البرلمان العراقي والشعب سيجدان في المعاهدة مايحقق الاماني القومية تحقيقا كاملا، وان بعض العناصر الهدامة من الشيوعيين والنازيين الذين اعتقلهم في سنة ١٩٤١، استغلت فرصة غيابه واحدثت القلاقل في البلاد، وانه سيعود الى العراق فورا وسيسحق رؤوس هذه العناصر الفوضوية حتما». ويذكر توفيق السويدي في مذكراته ان الحكومة البريطانية هي التي طلبت الى صالح جبر ان يعود الى بغداد فورا ليتمكن من تنوير الرأي العام عن الموقف الراهن، وان طائرة خاصة اعدت لنقله تحركت من لندن يوم ٢٥ كانون الثاني فهبطت في اليوم التالي في مطار الحبانية (نقلا عن الحسني ج ٧ ص ٢٩٣ - ٢٩٤).

لم تستطع نيران الشرطة، ولا اعتقال العصابات الشيوعية التي كانت تطلق النار، ان تخمد هياج الصحافة والجماهير ضد رئيس الوزراء، ولذلك كان البيان الذي اذاعه بلهجة الواثق، قد وقع على اذان صماء[٧] فقد بلغت مسيرات الشوارع، واعمال العنف ذروتها في اليوم السابع والعشرين من كانون الثاني، بوقوع عدد كبير من القتلى والجرحى، وكانت الجماهير تطالب القصر باقالة رئيس الوزراء، بل حتى بموته، واذ ذاك ارغم صالح جبر على الاستجابة فقدم استقالته، وهرب ناجيا بجلده الى منزله العشائري في ريف الفرات[٨] ومن هناك توجه الى الاردن ومنها الى انكلترا.

حضر بمجالس التعزية على ارواح الشهداء نحو مائة الف شخص، وفيها طالب المتحدثون باسماء الاحزاب بالغاء المعاهدة. واظهرت الايام التي تلت ذلك تحسنا ضئيلا في حالة الامن العام، ولكن الاجتماعات الجماهيرية استمرت في الشوارع، وسيطرت الاعلام الوطنية على المدينة، وانطلقت التهديدات بالموت للاعداء، وبالهتاف لتوزيع الاراضي الزراعية مجانا على الجميع، وبتدمير كل الاجانب. اما اعضاء الاحزاب القادمون من المحافظات، ومن بينهم الاكراد، فقد طالبوا باطلاق سراح زعماء البارزانيين، وشاركوا في الحشود التي كانت في العاصمة، فتعطلت الحياة التجارية والاجتماعية كلية، واختفى رجال الشرطة من الشوارع على نطاق واسع، ولم يكن خلال هذه الاوضاع ي امل في حرية التعبير، واقل من ذلك في تقبل اراء الكثيرين الذين كانوا يعتقدون بان معاهدة بورتسموث، كانت اجراء واقعيا ونافعا، له فوائده العظمى للدولة.

عند اختفاء صالح جبر، اودعت مهمة تأليف الوزارة الى القومي السيد محمد الصدر البالغ من العمر آنذاك ستا وستين سنة. وما ان تجاهل الصدر كل الادعاءات عدا ادعاءات رجل واحد من زعماء الاحزاب الذين احدثوا «الاضطراب الحالي»[٩]، حتى احاط نفسه برجال الدولة المجربين في وزارات سابقة. فقد استطاع باستيزاره محمد مهدي كبة لوزارة التموين، وصادق

---

(٧) أذاع صالح جبر بيانه هذا في مساء يوم ١٩٤٨/١/٢٦، وكرر فيه زعمه بأن المعاهدة الجديدة «تضمن للبلاد حقوقها وأمانيها واستقلالها التام». وقد انفجرت التظاهرات مجدداً في اعقاب ذلك البيان الذي اذيع بعد الساعة الثامنة مساء.

(٨) هرب صالح جبر الى منزله في مزرعته التي تقع في ضواحي مدينة الهاشمية، حيث كان عداي الجريان، والد زوجته، يمتلك مقاطعاته الزراعية وبيوته العديدة هناك.

(٩) عندما كلف محمد الصدر بتأليف الوزارة اخذ يفاوض اثنين من الاحزاب السياسية الثلاثة، هما حزب الاستقلال وحزب الاحرار وقد رفض حزب الاحرار المشاركة في الوزارة ولكن قبلها حزب الاستقلال وعين رئيسه محمد كبة وزيرا للتموين، اما الحزب الثالث وهو الوطني الديمقراطي فلم يفاوضه الصدر، ولعل ذلك بايعاز من الوصي الذي لم يكن راغبا في اشراك هذا الحزب بسبب مساهمته الفعالة في حوادث الوثبة، والصفة اليسارية التي يتصف بها.

•البصام للمالية، ورضا الشبيبي للتربية، ان يضمن خدمات جميل المدفعي في وزارة الداخلية (لوقت قصير)، وارشد العمري لوزارة الدفاع، وحمدي الباجهجي (الرجل المريض الذي توفى بعد ثلاثة اشهر) لوزارة الخارجية، ومصطفى العمري للاقتصاد، وعمر نظمي للعدل، ونجيب الراوي للشؤون الاجتماعية، وجلال بابان للاشغال. وكان المتوقع ان يتم اختيار كل من نصرت الفارسي، ومولود مخلص، وحكمت سليمان، وعبد الاله حافظ اعضاء في الوزارة، ولكن داود الحيدري اولا، ومحمد الصيهود امير ربيعة بعد اسابيع قليلة، اصبحا وزيرين بلا وزارة.

كانت المجموعة التي تألفت منها الوزارة قوية بشخصياتها وتجربتها، ومع انها قد حظيت بالتأييد من معظم الاحزاب، الا انه كان ينقصها الانسجام والتماسك، وانتهاج سياسة تنطوي على مجرد الترضية. اذيع بعد اول اجتماع للوزارة بان المعاهدة لن يتم التوقيع عليها لانها لم تكن اداة نافعة لتعزيز الروابط مع بريطانيا، ولكن يمكن اخذ معاهدة اخرى بنظر الاعتبار[10].

مددت فترة البرلمان خمسين يوما، واذ اعلن في اليوم الخامس والعشرين من شهر شباط ١٩٤٨، بان البرلمان لم يعد ممثلا للامة، ولانه قد تم انتخابه بصفة غير قانونية، فقد جرى حله وصدرت الاوامر باجراء انتخابات جديدة. وفي هذا الشهر بالذات جاء السر هنري ماك سفيرا لبريطانيا في العراق خلفا للسر «هيوستونهيور برد».

كانت الفترة التي اكملت فيها قوائم اسماء الناخبين، وجرت فيها عملية الانتخابات، من الفترات المضطربة التعسة التي صاحبها تدخل حكومي مفضوح عكسته محاباة اشخاص الوزارة، ولكن من دون اية خطة لذلك. اما الاحزاب التي لم تكن متأكدة من نجاحها فقد احتجت من البداية ضد تدخل الحكومة، كما ان اثنين من تلك الاحزاب قد اعلنا مقاطعة الانتخابات[11].

كان الوزراء يحسدون احدهم الاخر على تنصله عن القيام باي دور لمقاومة العنف الذي اثاره المحرضون ايام الثورة التي حدثت في اليوم العشرين من شهر كانون الثاني ١٩٤٨، ولذلك عينت لجنة للتحقيق في الاعمال التي قامت بها الشرطة. واستمرت استعراضات الطلبة وهتافاتهم. كما

---

(١٠) جاء في قرار مجلس الوزراء الصادر في ٢٤ شباط ١٩٤٨ عدم الموافقة على المعاهدة، وتخويل وزير الخارجية ابلاغ الحكومة البريطانية بذلك، مع ابدائه في نفس الوقت استمرار رغبة الحكومة العراقية في استبدال معاهدة ١٩٣٠ بمعاهدة جديدة تحقق الغاية المذكورة اعلاه.

(١١) هما حزب الاحرار والحزب الوطني الديمقراطي. اما حزب الاستقلال فقد شارك في الانتخابات معتمدا على وجود رئيسه محمد مهدي كبة وزيرا في حكومة الصدر، ومع كل ذلك فلم يفز حزب الاستقلال باكثر من اربعة مقاعد ثلاثة من بغداد فاز بها داود السعدي ومحمد مهدي كبة واسماعيل الغانم. وفاز فائق السامرائي عن سامراء. وقد حدثت احداث دامية في منطقة الكرخ بين انصار داود السعدي وانصار شاكر الوادي الذي حشد جمهورا كبيرا من ابناء العشائر المسلحين من خارج بغداد في مركز الانتخاب، حيث اصطدم ابناء الكرخ مع المسلحين العشائريين فقتل عدد كبير منهم كما قتل عدد من ابناء الكرخ منهم المرحوم سليم بن المرحوم اسماعيل الدرة.

ادت الاجتماعات التي عقدت، والتلويح بالاعلام، واطلاق رصاص البنادق في السليمانية وفي المراكز الاخرى، مرة ثانية الى اصطدامات عنيفة والى اختلال النظام. وتمت مهاجمة القنصل البريطاني في كركوك، وتم الاعلان بان البعثة العسكرية البريطانية سوف تنسحب (والواقع ان هذا الانسحاب كان باقتراح من البعثة ذاتها)[١٢] وتم الترحيب بهذا النبأ باعتباره انتصارا قوميا.

كانت المعاهدة الانكليزية الاردنية التي عقدت في اليوم التاسع والعشرين من شهر اذار ١٩٤٨، موضوعا اخر لتحريض طلاب المدارس المعادين على التظاهر في شوارع العاصمة، ولكن النداء الذي اصدرته الوزارة بضرورة الالتزام بوحدة الصف والهدوء، وكذلك النداء الاخر الذي وجهه الصدر شخصيا، لم يعر لهما اي التفات، ولذلك تم على نطاق واسع تجاهل عمل الادارة الذي لم يستطع رئيس الوزراء الاهتمام به، او مباراة الغير فيه. كما انه لم تتم معالجة الاوضاع المقاربة للمجاعة بين الطبقات الفقيرة الا بعد موسم الحصاد الذي وعد بانه سيكون ضئيلا. وفي الوقت ذاته، وبمبادرة من البريطانيين، تم تحويل وجهة باخرة تحمل الحبوب من استراليا، الى البصرة، ووزعت على عجل كمياتها التي كانت الحاجة ماسة اليها.

ادت وفاة حمدي الباجه‌جي في اليوم السابع والعشرين من اذار الى حدوث تغييرات بين الوزراء القلقين في وزارة الصدر. فقد استقال عمر نظمي[١٣] فحل نجيب الراوي محله في وزارة العدل، في حين تولى داود الحيدري وزارة الشؤون الاجتماعية التي كان الراوي يشغلها، وخلف نصرت الفارسي، جميل المدفعي في وزارة الداخلية، بعد ان اصبح جميل رئيسا لمجلس الاعيان، وقد خلفه في الداخلية مصطفى العمري، بعد ان انتقل الفارسي الى وزارة الخارجية، كيما يستطيع العمري بذلك ان «يسيطر» على الانتخابات القادمة. واستقال امير ربيعة في شهر نيسان وعاد الى موطنه، في حين ترك محمد مهدي كبة الوزارة في اوائل شهر حزيران[١٤].

---

(١٢) كان معروفا بصفة عامة لدى اوساط الجيش والشعب ان البعثة العسكرية البريطانية حاولت بعد ثورة ايار ١٩٤١، بمختلف الوسائل والاساليب تقليص الجيش العراقي، واخراج اي ضابط يستشف وجود احساس قومي او وطني لديه، وقد حدث ذلك بصفة خاصة عندما تولى الفريق «رنتن» المعروف لدى افراد الجيش باسم صاحب اليد المقطوعة، رئاسة البعثة العسكرية. وبعد الاثار التي تركتها الوثبة الوطنية سنة ١٩٤٨ على سياسة بريطانيا في العراق وغيرها من البلدان العربية الاخرى الخاضعة للنفوذ الانكليزي، ارادت بريطانيا، ان تتفادى مافد يقع مستقبلا، وفي الوقت ذاته ان تظهر بمظهر المنفذ لرغائب الشعب العراقي، فقررت سحب البعثة العسكرية البريطانية من العراق عند انتهاء عقد الفريق رنتن مع الحكومة العراقية في ١٦ ايار ١٩٤٨ ومهدت لذلك بان اوعزت الى رنتن هذا بان يقدم تقريرا يذكر فيه بان الجيش العراقي لم يعد في حاجة الى وجود مثل تلك البعثة البريطانية، وعلى هذا الاساس اصدرت الحكومة العراقية بيانا نشرته بهذا الشأن في ٢٢ اذار ١٩٤٨.

(١٣) استقال عمر نظمي من منصبه لانه عارض البيان الذي اصدرته وزارة الصدر بشأن الغاء معاهدة بورتسموث اذ كان عمر نظمي يعتقد ان ذلك البيان لم يكن يستند الى صفة قانونية.

(١٤) لم يذكر السيد مهدي كبة في مذكراته (مذكراتي في صميم الاحداث ١٩١٨ - ١٩٥٨) الاسباب التي حملته على الاستقالة من منصبه وزيرا للتموين في وزارة الصدر.

ولقد ادت الغيابات المتوالية لوزيري المالية والعدل اثناء اجتماعات مجلس الجامعة العربية، الى تغيير دائم في المهات الوزارية، حيث عانت الادارة من الهزات والتأخيرات التي احدثتها تلك الغيابات. اجتمع مجلس النواب في اليوم السادس والعشرين من حزيران. بعد الانتخابات التي بذلت فيها الاحزاب القانونية والسرية كل جهودها، والتي ادت الى الاصطدام في شوارع الكاظمية، وفي بغداد والسليمانية. وقد حصل حزب الاستقلال على اربعة مقاعد، والحزب الوطني الديمقراطي على مقعدين وحزب الاحرار على مقعد واحد(١٥) وكان جميع النواب الاخرين متحررين من الارتباط الحزبي، ومن الذين يصوتون عادة لكل وزارة تكون في دست الحكم. ولقد غدا واضحا بان حماسة الاحزاب وزعامتها لم تكن تحظى الا بتأثير ضئيل بالنسبة الى الناخبين من قبل مرشحيها المألوفين من ذوي الاهمية المحلية في دوائرهم الانتخابية، او في مقاومة نفوذ المحافظين للسيطرة على طبقة الموظفين، ذلك لان قيام مجلس نواب او دوائر انتخابية على اسس حزبية صحيحة، مايزال يعتبر مفهوماً لم يتم تحقيقه بعد.

كان من سوء وضع البرلمان وهلعه انه جوبه بحالة كانت تنطوي على مظاهر جديدة ومفزعة، خلقتها الحوادث التي وقعت في فلسطين. ذلك لان قرار منظمة الامم المتحدة الذي اتخذته في شهر تشرين الثاني سنة ١٩٤٧، بتقسيم فلسطين، قد اثار معارضة حانقة في العراق، وفي الاجتماعات الطارئة التي عقدتها جامعة الدول العربية. غير انه لم يتم اتخاذ اجراءات مشجعة او مخططة بالنسبة لهذه الامور، وذلك لان اسس الانقسام داخل الجامعة العربية غدت واضحة كل الوضوح، وكانت معظم الدول الاعضاء في الجامعة تشك في استقرارها.

تمت الموافقة في نطاق محدود على اتخاذ قرار بتشجيع تغلغل تقوم به عصابات المقاتلين من كل بلد عربي الى داخل اراضي فلسطين، وذلك بقصد تعزيز المقاومة المحلية فيها. وقد ذكر ان بضع مئات، بل قيل ان فوجين من الشبان وقلة من المناضلين العراقيين قد جندتهم جمعية الدفاع عن فلسطين(١٦) كانت قد دخلت الى فلسطين وعملت او عرضت ان تخدم مع فوزي القاووقجي والقادة الفلسطينيين. ولربما كان هؤلاء الشبان قد اندفعوا الى ذلك العمل بدافع فدائي، ولكن كانت تعوزهم القدرة على القتال.

ادت عدم كفاءة هذه القوة، وانهيار المقاومة العربية امام الارهاب اليهودي وقواته الواسعة،

---

(١٥) فاز به علي ممتاز.

(١٦) شكلت جمعية الدفاع عن فلسطين في العراق في عام ١٩٣٦ واتخذت من بناية نادي المثنى مقرا لها وكان طه الهاشمي رئيسا لها ومن اعضائها البارزين سليمان فيضي، وسعيد الحاج ثابت، ونجم الدين الواعظ ومهدي كبة. وبقيت هذه الجمعية قائمة حتى حرب فلسطين في سنة ١٩٤٨ وقد لعبت الجمعية دورا دعائيا بارزا اثناء ثورة ايار ١٩٤١ وكان مقرها في المنزل الذي انتقلت اليه مطبعة الجزيرة التي اشترتها جمعية الجوال العربي من الملا عبود الكرخي في اوائل سنة ١٩٣٧.

الى ان تقرر جامعة الدول العربية، وقبل اعلان انتهاء الانتداب على فلسطين بصفة رسمية، بان تدخل الجيوش النظامية العربية. وفي شهر نيسان ١٩٤٨ قام الوصي، الذي اعادت له زعامته وحيويته، الكثير من شعبيته، بزيارة كل من عمان والقاهرة يصحبه وزراء الدفاع والمالية والخارجية. وجهت الدعوة في بغداد الى اضراب يقوم به الطلاب عن الطعام بقصد الالحاح على ارسال الجيش العراقي الى فلسطين[١٧]، وتم اغلاق خط انابيب النفط الذي يصل الى ميناء حيفا، كما تم الترحيب بالمنفيين الفلسطينيين، واذ ذاك لم تجد وزارة الصدر معدى عن تعقب السياسة التي اقرتها جامعة الدول العربية في التدخل، على نطاق واسع، مهما تم تنسيق ذلك التدخل بشكل صوري، واذ ذاك تحركت القوات العراقية تحت امرة الفريق صالح صائب[١٨].

كانت تلك القوات سيئة الاعداد، رديئة التجهيز يشوبها نقص واضح في التموين وفي الاحتياطي، والتي تحركت من مواقعها في العراق، تبلغ زهاء عشرة الاف او اثنى عشر الف جندي قوي في وحدات آلية، او محمولة بالسيارات، وقد اتخذت مواقع لها على الحدود القريبة من المملكة الاردنية، ثم مالبثت ان اجتازت الحدود الى القطاع الذي خصص لها من ارض فلسطين وذلك في اليوم الخامس عشر من شهر ايار وبعد اعلان قيام دولة اسرائيل مباشرة[١٩].

كان اندلاع هذه الحرب، وهي اول مرة او مناسبة يستخدم فيها العراق قواته خارج بلادها، مؤذناً باعلان الاحكام العرفية. وكانت تلك الاحكام خطوة سعيدة، تم عن طريقها اعادة الهدوء التام، ولكنها لم تكن ايذانا بايجاد اي حل حقيقي لاية مشكلة من المشاكل التي تشكو

---

(١٧) شارك في هذا الاضراب عن الطعام طلاب من كليات الحقوق والاداب والهندسة ويزعم عبد الرزاق الحسني ان «العجلوني» وزير الاردن المفوض في بغداد كان يحرض الطلاب على التظاهر مما حمل السيد الصدر ان يطلب اليه الكف عن ذلك، ومن ثم انفجرت التظاهرات وتوجهت الى مجلس الوزراء فحاول الصدر ان يطمنهم بان الحكومة جادة وساهرة في مهمة انقاذ فلسطين».

(١٨) فصل الفريق صالح صائب الجبوري في كتابه «محنة فلسطين واسرارها السياسية والعسكرية» الصادر في سنة ١٩٧٠ كيفية اتخاذ القرارات بشأن ارسال الجيوش العربية النظامية الى فلسطين والتنافر القائم آنذاك بين الحكومات العربية وكيف ان عبد الله ملك الاردن كان قد طلب ان تسند اليه قيادة الحركات العامة في فلسطين وابداء المعاونة للاردن ماليا وعسكريا من قبل البلدان العربية حيث اعترضت بعض الحكومات العربية على ذلك الطلب، كما شرح المؤلف في كتابه ايضا موقف الجيش العراقي العام وقوته، وتسليحه عند بدء الحركات ومشكلة النقل بين العراق وفلسطين، وضعف التشبثات الخارجية لتأمين احتياجات الجيش العراقي الى السلاح والمهات الاخرى.

(١٩) دخلت الجيوش العربية، ومنها الجيش العراقي فلسطين في اليوم الخامس عشر من شهر ايار سنة ١٩٤٨ ولكن اليهود كانوا في ذلك الوقت قد اعلنوا قيام دولة اسرائيل (في ١٥ نيسان ١٩٤٨) وبدأ نفوذهم لدى الدول الغربية يتعاظم بحيث اخذت تلك الدول تعترف بقيام الدولة اليهودية الواحدة تلو الاخرى فاعترفت اولا امريكا ثم تلاها الاتحاد السوفياتي مباشرة وهكذا تحول الحلم الذي ظلت الصهيونية تحلم به عدة قرون الى حقيقة واقعة «والحبل على الجرار».

الامة منها[٢٠]. ذلك لان نظام الطوارئ الذي يسر للحكومة السيطرة على الانتخابات، كان قد تميز بالرقابة الصارمة، وبافتتاح معسكر اعتقال في الصحراء الجنوبية[٢١] زج فيه عدد من مثيري الاضطراب، واخضاع الموظفين المدنيين والعسكريين في كل المناطق، وانشاء المحاكم العرفية العسكرية. فقد حظر حمل الاسلحة النارية، واستعمال انظمة الشفرة، وتعطيل الكثير من القوانين القائمة. كما فرضت قيود ثقيلة على الحقوق المدنية، في حين ازداد التصادم بين السلطات المدنية والعسكرية حدة وحسدا بمضي الاسابيع، وتبودلت الاتهامات، والاتهامات المضادة بشأن استعمال القسوة المتعمدة او التساهل الضعيف. وسرعان ما اخذ محافظو المحافظات والقائمقامون يتساءلون: اية حكومة تكون اكثر سوءا، تلك الحكومة المؤلفة من طلبة المدارس ام المؤلفة من ضباط الجيش! فلقد تقلصت الصحف الى عدد غير اعتيادي من صحف يومية ليس لها سوى رواج تافه، على ان العنف اللامسؤول فقد في يوم واحد اسوأ مظاهره (ماعدا العنف الموجه ضد البريطانيين وضد اليهود) حيث اغلقت بعض الصحف القليلة التي رفضت الانصياع الى الاوامر، كما جرى استعراض لقوات الشرطة في بغداد اعاد اليها شيئا من معنوياتها، واثارت حرب فلسطين المساندة اللفظية المتحمسة، في كل ناحية، وفي بغداد شارك اليهود المسلمين بحماسة في حمى معاداة الصهيونية وفي الاموال التي جمعت للاجئين الفلسطينيين.

ولكن الحملة العسكرية كانت منذ البداية، تدار بشكل ضعيف، غير محظوظ. ذلك لان القيادة العليا لم تكن ملهمة، وترتيبات التموين والتجهيز ناقصة، كما ان انضباط القوات العراقية ومدى تحملها، والتي قدرت بانها اعلى من بقية القوات العربية الاخرى، ماخلا القوات الاردنية، لم يحقق لها سوى القليل من الامجاد.

دخلت الوحدات العراقية ارض فلسطين في الخامس عشر من ايار ١٩٤٨، عبر المنطقة التي تقع بين «غشن» و «وادي يابس»، ومن ثم سارت الى طولكرم ونابلس، وهي مناطق لم تكن محتلة من قبل اليهود. ولكن المحاولات التي قامت بها في الهجوم على «طبرية» لم تكن ناجحة، غير انها استطاعت ان تحتل بنجاح، المثلث القائم بين نابلس وطبرية وجنين، وان تتقدم الى حوالي اثني عشر ميلا من تل ابيب. غير ان هذه الحركة المنطوية على الامل قد اوقفت بفعل المقاومة

---

(٢٠) وجدت حكومة الصدر وكل العناصر الرجعية فيها في فرض الاحكام العرفية في البلاد بحجة حماية مؤخرة الجيش الذاهب لانقاذ فلسطين، اعظم فرصة لها لكي تكيل الصاع صاعين للحركة الوطنية بكاملها، فتنزل بها اقسى الضربات التي تعرضت لها حتى ذلك الوقت في العراق كله، اذ تمزقت قوى الاحزاب وحطمت الاقلام وكمت الافواه، ولم يعد هناك من يجرأ على اطلاق كلمة احتجاج او انتقاد او التظاهر في الشوارع كما كان عليه الامر قبلا، وقضي حتى على المكاسب الضئيلة التي كسبها الشعب بدمائه الغالية التي ذهبت سدى في وثبة كانون الثاني ١٩٤٨.

(٢١) اعيد افتتاح معتقل «نقرة السلمان» في البادية الجنوبية ليحصر فيه الشيوعيون وحدهم ليبقوا فيه الى ماقبل حدوث ثورة تموز ١٩٥٨ بمدة قصيرة.

اليهودية في جبهة «نثانيا» وبضغط معاكس اجبر القوات العراقية على ان تتخلى عن «بيت تباه» وتمسح المجال داخل المثلث المحتل[22]. كان الامر الذي اصدره مجلس الامن الدولي في ٢٢ ايار بوقف القتال قد تم تجاهله من قبل الطرفين، ومع ذلك فقد قبل الطرفان بهدنة امدها اربعة اسابيع يبدأ تنفيذها من اليوم الحادي عشر من شهر حزيران.

كانت الحماسة التي رافقت الغزو العربي في ذلك الوقت قد ضاعت، وانكشف ضعف العرب، ولم يبق لديهم سوى القليل من الاسلحة الثقيلة التي كانوا يتفوقون بها على اليهود في اول الامر، ذلك لانهم لم يستطيعوا الاحتفاظ بذلك التفوق. وفي خلال الهدنة اخذت الاسلحة تنهال على الجيش اليهودي في حين لم يصل شيءٌ من تلك الاسلحة الى ايدي العرب. وبعد رفض المقترحات التي قام وسيط الامم المتحدة الكونت برنادوت، وبعثة الهدنة التابعة له، بتطويرها الى اقامة اتحاد بين دولتين احداهما عربية واخرى يهودية في فلسطين والاردن[23] تجدد القتال ثانية في اليوم التاسع من شهر تموز.

فشلت المحاولة العراقية للاستيلاء على «نثانيا»، وذلك لان اليهود كانوا قد تغلغلوا عميقا في

---

(٢٢) يذكر الفريق صالح صائب الجبوري في كتابه «محنة فلسطين» ان القوة العراقية التي ارسلت الى فلسطين تركزت فور وصولها في منطقة «جسر المجامع» حيث بدأت بالهجوم على حصن «غيشر» والمستعمرة الصهيونية المعروفة باسمه والواقعة على الضفة الغربية من نهر الاردن، في الوقت الذي احتل فيه اليهود قرية «كوكب الهوى» غربي غيشر باتجاه بلدة العفولة وقد استمرت معركة الاستيلاء على حصن غيشر حتى اليوم العشرين من ايار حين طلبت القيادة العراقية تأجيل الهجوم على كوكب الهوى والانتقال الى منطقة نابلس «وهكذا توقفت الحركات في منطقة غيشر وماجاورها». (محنة فلسطين ص ١٧٩ – ١٨٢). وبعد ان احتلت القوات العراقية منطقة المثلث الخطر كما يسمونه جنين – طولكرم – نابلس كانت المفارز الاردنية قد انسحبت من هذه المنطقة عند وصول القوات العراقية اليها.

وفي اليوم الاول من شهر حزيران بدأ اليهود بهجوم على جنين بعد ان مهدوا لذلك باحتلال قرية صندلة وقرية جلمه ومقيلة في ذلك اليوم ولكن هجومهم اصابه الاخفاق بعد ان وصلت اوائل افواج جحفل اللواء الرابع من العراق الى هناك في اليوم الثاني من حزيران. وحين اصبح موقف القوات العراقية دقيقا في منطقة جنين مما اضطر القيادة العامة ان ترسل في اليوم الثالث من حزيران برقية الى الجيش السوري وقوات فوزي القاووقجي تطلب اليها فيها ان تقوم «بحركات تعرضية خلال اليومين المقبلين في منطقة «بنت جبيل» نحو الجنوب.. لتخفيف الضغط عن القوات العراقية في منطقة جنين، غير ان القوات السورية وقوات القاووقجي لم تقم باية حركة لهذا الغرض.. ولقد فهمنا اخيرا بان الفريق غلوب كان يتصرف في تسيير حركات الجيش الاردني حسب الاتفاق الذي تم بين الجهات البريطانية، واعني وزير الخارجية البريطانية بيفن، ورئيس وزراء الاردن توفيق ابو الهدى قبل بدء الحركات (ذات المصدر ص ١٧٨).

(٢٣) وضع الكونت برنادوت مشروعا لاقامة دولتين في فلسطين احداهما عربية والاخرى يهودية على الوجه التالي: تشمل فلسطين جميع البلاد التي كانت سابقا تحت الانتداب البريطاني اي قبل فصل شرقي الاردن عنها، وان تقسم جميع تلك المنطقة الى دولة عربية ودولة يهودية، تشمل دولة اسرائيل المنطقة المخصصة لها بموجب مشروع التقسيم باستثناء «النقب» الذي يجب اضافته الى الدولة العربية، وفي الوقت ذاته تضاف منطقة الجليل العربية من عكا حتى الحدود السورية اللبنانية الى دولة اسرائيل، وتكون حيفا ميناء دوليا حرا، ويؤسس مجلس مركزي اعلى يسمى المجلس المركزي مهمته حل الخلافات التي تنشأ بين الدول وتوحيد السياسة الخارجية والدفاع والشؤون الاقتصادية (امين المميز: امريكا كما رأيتها ص ١٨٢ طبعة اولى ١٩٥٢).

منطقة الجليل، ولم يتم وقف تقدمهم الذي كان اكثر عمقاً، الا بعد ان فرضت الهدنة الثانية التي اصبحت سارية المفعول منذ اليوم الثامن عشر من شهر تموز، ولكن هذه الهدنة رفضها العراق لوحده، في الاجتماع الذي عقدته الجامعة العربية في «عاليه» لأسباب تتعلق بالسياسة وبالمباهاة، غير ان تلك الهدنة أصبحت نافذة المفعول حقاً، وكانت الحرب بالنسبة الى العراق قد انتهت فعلاً.

لم تكن المحاولات العديدة التي اريد بها اعادة السلام الى فلسطين، وحل مشاكلها المستعصية، ومقتل الكونت برنادوت بأيدي اليهود، وتجدد المعارك بين اليهود والمصريين منذ شهر تشرين الاول حتى نهاية سنة ١٩٤٨، نقول لم تكن كل هذه الامور تؤلف جزءاً من تاريخ العراق. فقد بقيت وحدات الجيش العراقي تحتل القسم الشرقي من المثلث الفلسطيني لبضعة شهور، وكانت تعتمد دوما في ذلك على خط مواصلاتها الطويل عبر الاردن، وتتسلم مرتباتها بصفة غير منتظمة من خزينة فارغة في الوطن.

طلب الى صالح صائب الذي اعيد الى العراق، وعين رئيساً لأركان الجيش العراقي[٢٤] ان يعود مرة اخرى الى فلسطين في صفة قائد عام للقوات العراقية الاردنية،ولكن هذه التجربة من القيادة المشتركة لم تستمر اكثر من اسابيع قليلة. كما ان المشروع الأوسع الذي اعد لانشاء قيادة موحدة لكل دول الجامعة العربية، والذي كان ضرورة عسكرية جلية، قد اعيق تحقيقه بسبب الانقسام الحاصل بين دول الجامعة، ورفض مصر لذلك المشروع. وعلى هذا الاساس لم يعط تنفيذ حقيقي للقرار الذي اتخذه النواب والاعيان العراقيون في شهر تشرين الثاني ١٩٤٨، والذي كان يقضي باتخاذ خطط عسكرية وسياسية موحدة لانقاذ فلسطين، ذلك لان مثل هذه الفكرة لم تكن واقعية قبل ان تنتهي السنة.

كان عبد الاله يقوم بزيارة الوحدات الموجودة في فلسطين والاردن بصفة متكررة اكثر مما كان يفعله وزراء الحكومة لديه، اولئك الحائرون المتذبذبون الذين كانوا يوحون بأن مثل هذا الجهد كان أمراً مستطاعاً. تم الاعلان عن قيام حكومة فلسطينية في المنى، وكان ذلك من الحوادث المثيرة للحسد في العلاقات العربية الداخلية، ولذلك اعترف العراق بهذه الحكومة الفلسطينية ترضية للمصريين؟!.

***

---

(٢٤) عين صالح صائب بارادة ملكية صدرت في ٢٢ ايلول ١٩٤٨ قائدا عاما للجيش العراقي المرابط في شرقي الاردن وفلسطين وتخويله قيادة الجيش الاردني، علاوة على منصبه الذي كان يشغله وهو رئاسة اركان الجيش العراقي ويذكر صالح صائب في كتابه انف الذكر انه حدث في يوم تشرين الاول ١٩٤٨ ان انفصل جناح احدى طائرات «انسن» مع المحرك والعجلة وهي في الجو فوق مطار المفرق فهوت الى الارض وقتل من فيها وبعد الفحص تقرر ايقاف الطيران بهذه الطائرات غير الصالحة فاصبح موقفنا حرجا بسبب تفوق العدو بالجو وتكاثر عدد انواع طائراته (محنة فلسطين ص ٢٧٦).

٢. المزيد من التغييرات

غدت الانتخابات العامة التي اجريت بعد عقد الهدنة الاولى في فلسطين باربعة ايام، نافذة. وحين التأم البرلمان في اليوم الحادي والعشرين من شهر حزيران ١٩٤٨، كانت استقالة وزارة السيد محمد الصدر قد عرضت عليه وقبلت. ذلك لانه لم تكن لهذه الوزارة سوى سلطة ضئيلة، ولانها قد اخفقت في اعادة الامن الا عن طريق فرض الاحكام العرفية، واهملت الادارة الجارية، وسمحت بحدوث هبوط مالي مخيف، فاخذت الان ترث ذات التراث الذي يثبط العزائم في الداخل وفي الخارج.

وقع اختيار الوصي الان لتعيين خلف للصدر، بشكل غير متوقع على رجل دولة كان من المبرزين قبلا، اما الان فانه، بسبب اقامته الطويلة في اوربا، لم يكن على اتصال تام بالسياسات الجارية في البلد، ذلكم الرجل هو مزاحم الباجه‌جي. لقد ادعى هذا بانه غير حزبي، واختار وزراءه من شخصيات مألوفة منذ زمن طويل، فعين مصطفى العمري للداخلية، وعلي ممتاز للمالية والتموين، ومحمد حسن كبة للعدل، وصادق البصام للدفاع، وجلال بابان للاشغال والشؤون الاجتماعية، ونجيب الراوي للتربية، ثم جاء بوزير جديد مفرد، هو عبد الوهاب مرجان، احد الاقطاعيين الشباب في الحلة فعهد اليه بوزارة الاقتصاد، ولم يلبث علي حيدر سليمان، وهو نائب كردي من راوندوز تثقف في بيروت واعتقل في سنة ١٩٤١، ان حل محل جلال بابان في وزارة الشؤون الاجتماعية خلال شهر اب.

كان على هؤلاء الوزراء الذين ابرز تعيينهم مرة اخرى، الدور الضئيل الذي لعبته الانتماءات الحزبية في تأليف الوزارات، ان يمكثوا، مع التغييرات التي حدثت، زهاء نصف سنة في الحكم، وان ينجزوا بعض الشيء، ولكن ليس كثيرا، باتجاه الكشف عن النكبات الراهنة التي كان العراق يعانيها بسبب الفاقة، وانعدام الامن، والمعوقات الخارجية. فلقد سارت مالية الدولة من سيئ الى اسوأ، وذلك لان ميزانية سنة ١٩٤٨ - ١٩٤٩ لم تعرض على البرلمان الا في نهاية تلك السنة المالية ذاتها ولقد هبطت الايرادات الاعتيادية نتيجة سوء الوضع التجاري ورافقها

سوء حصاد اخر، وفرض ضرائب فادحة، ووهن الادارة، ولكن النقص المؤكد في كل مابوشر به خلال السنة، لم يحل دون تخصيص مايقرب من اربعين في المائة من الاموال المتوفرة، للجيش، والمبادرة بمساهمة جوهرية للعناية باللاجئين الوافدين من فلسطين. ولقد هبطت عوائد النفط الى النصف نتيجة توقف ضخ النفط في خط انابيب حيفا، ذلك الخط، الذي مهما كانت الخسائر الناتجة عنه بالنسبة للدولة، لم تجرأ اية وزارة على اعادة فتحه، على الرغم من الاتصالات التي اجرتها الحكومات البريطانية والفرنسية والامريكية، وشركة النفط العراقية ذاتها[1].

ولكن الوزارة والاحزاب، على العكس من ذلك، وجهت طلبا بزيادة العوائد التي تترتب على هذا النفط، مادام يجري تصديره الان الى الخارج، وبوشر بالتفاوض مع شركة النفط حول هذه القضية والقضايا الاخرى. تم البحث في امر الحصول على قرض مالي من مصر، واستقبل العراق زيارة قام بها حافظ عفيفي باشا لهذا الغرض[2] كذلك اقترح اصدار قرض عراقي داخلي اخر، غير ان هذا القرض لم يتم اصداره. وفي اواخر تلك السنة تم الترحيب في بغداد بخبراء المصرف الدولي الذين قدموا الى بغداد، حيث قدم الى المصرف المذكور طلب بالحصول على قرض للاعمار. كذلك عقد اتفاق يخص العملات النادرة مع الحكومة البريطانية في شهر تموز ١٩٤٨، حيث خصص مبلغ خمسة وعشرين مليون دولار خلال فترة امدها سنة، ثم فرض نظام الاجازات بالنسبة للاستيراد في خريف تلك السنة، وقد قصد من وراء فرضه اسعاف

(١) اننا لنعجب كيف غاب عن ذهن المؤلف ان تسيير النفط العراقي الى ميناء حيفا، معناه تغذية اسرائيل باهم مصدر من مصادر وجودها وهو النفط، وان ذلك على الاقل يجعل تصدير النفط العراقي الى الخارج تحت رحمة اسرائيل. فاذا مانصرفت اي تصرف سيئ وهذا هو ديدنها دائما، فن الذي يوقفها ويمنعها؟ اهي بريطانيا التي ينتمي اليها المؤلف نفسه والتي كانت هي المسؤولة الاولى الوحيدة عن نكبة العرب ليس في فلسطين وحدها بل وفي كل البلاد العربية؟ هل كان حكام اسرائيل حلفاء بريطانيا في مهاجمة مصر والعدوان عليها في سنة ١٩٥٦، سوف يتوقفون عن استثمار النفط العراقي لتقوية دولتهم التي اقامتها بريطانيا قبل غيرها من الدول الاستعمارية الاخرى غدرا وعدوانا في قلب الامة العربية؟ انه لمنطق ينطوي على القحة والاستهتار ذلك المنطق الذي كان يطالب حكومة العراق بان تستأنف ضخ النفط في خط انابيب حيفا. وطبيعي ان الاتصالات التي قامت بها الحكومات البريطانية والفرنسية والامريكية، وشركة النفط العراقية التي تملكها مؤسسات بريطانية وفرنسية وامريكية مع الحكومة العراقية، انما كان يتوخى من ورائها منافع هذه الحكومات بالاضافة الى منفعة حكومة اسرائيل، وان هذه الحكومات كانت متحققة بان الحكومة العراقية لم تكن قد تخلصت من النفوذ الاجنبي عليها، وان الحكم في العراق كان العوبة بايدي المستعمرين الاجانب بعد ان فضل الحاكمون في العراق مصالحهم الخاصة ومصالح اسيادهم الاجانب، على مصالح الشعب الذي كان يئن من وطأة الجوع والظلم والارهاب.

(٢) سافر علي ممتاز الى القاهرة لهذا الغرض لكنه لم يحصل على اية استجابة من مصر للحصول على القرض المذكور، ولذلك اتفق مع الشركات التي تستغل النفط العراقي على ان تدفع حق العراق من عوائد النفط كل ثلاثة اشهر بدلا من استلامها في نهاية كل سنة، كما استدانت الحكومة من البنوك الاجنبية العاملة في العراق ثلاثة ملايين وربع مليون دينار لتأمين دفع مرتبات الموظفين.

الاضطراب العالي الحاصل في الميزان التجاري والتحويل الخارجي. ومع كل ذلك بقيت الخزينة خاوية وعرضة لمطالب غير اعتيادية من لدن الجيش، ومن دون ادنى امل في تسديد الديون، كما واجهت ضرورة اخرى لاستيراد الحبوب.

كان تقليص عدد الموظفين، والتوقف الجزئي في الاشغال العامة، واستلام عوائد النفط مقدما من شركة النفط العراقية(٥) من الشواهد التي جعلت الحكومة تحافظ على قدرتها في الايفاء بديونها. كانت العلاجات القوية التي اقترحها «علي ممتاز» قد اهملت ولم تنل المساندة من لدن رفاقه الوزراء، ولذلك قدم استقالته من الوزارة(٣). وادى الكساد والعوز العام الى حدوث اعمال شغب في بغداد والبصرة وكركوك واربيل وخانقين، وحدوث اضرابات كان من بين من شملتهم، عمال النفط، واخرين من عمال السكك، وكانت مساهمة هذه الاوضاع في الاضطراب السياسي خلال ١٩٤٨ – ١٩٤٩ من الامور الملموسة.

وفي الوقت ذاته بقي قسم كبير من الجيش العراقي في فلسطين والاردن. كانت مسألة استئناف الحركات العسكرية الفعالة، من الامور غير العملية ابدا، ولكن استدعاء القوات لابد وان يصطدم اصطداما خطيرا، بالعواطف الوطنية للطلاب، الذين لم يقاسوا متاعب الحرب، والذين كانت التظاهرات مازال تضغط عليهم لخوض معارك اخرى، وعلى الاخص لمساعدة الجيش المصري الذي مايزال ملتحما في القتال مع الاسرائيليين(٤).

والحقيقة ان الوضع في فلسطين كان من اعظم المشاكل التي واجهت مزاحم الباجه‌جي،

---

(٥) من المطالب الاخرى التي طلبها العراق هي ان يتم دفع العوائد، المعبر عنها بالشلنات الذهبية حسب سعر التحويل بالنسبة للذهب في السوق الحرة، ومعارضة سعر التحويل الذي يفرضه مصرف انكلترا، ومشاركة الحكومة العراقية في المشروع، وتخصيص المزيد من المناصب العالية للعراقيين في شركة النفط.

(٣) كان علي ممتاز قد درس الوضع المالي الخطير في العراق انذاك وقدم مقترحات لمعالجة ذلك الوضع من بينها الغاء جميع المخصصات للموظفين عدا مخصصات غلاء المعيشة له وايقاف جميع الايفادات والبعثات الى الخارج، وزيادة الاجور والرسوم واعادة النظر في توزيع الضرائب فلما رفضت اقتراحاته استقال في اواخر تشرين الاول.

(٤) الذي نعتقده ان الانكليز وعبد الاله وبقية الوزراء السائرين معهم في ذلك الوقت، كانوا يخشون ان يعمد الجيش العراقي الى القيام بانقلاب عسكري جديد عنيف، اذا ماعاد الى العراق فورا، بعد ان خسرت الدول العربية بكل مالديها من جيوش معركة فلسطين. فلقد كان الفشل في فلسطين من العوامل الاساسية لوقوع الانقلابات العسكرية في البلاد العربية، حيث بدأ الجيش السوري اول هذه الانقلابات في سنة ١٩٤٩ بوقوع انقلاب حسني الزعيم، وماتلاه من انقلاب سامي الحناوي وادیب الشيشكلي، ومن ثم انقلاب مصر في ٢٣ تموز ١٩٥٢ وفي اعتقادنا ان امثال هذه الانقلابات العسكرية التي وقعت انذاك ومابعدها في البلاد العربية كانت من العوامل التي اضعفت المقاومة العربية ومكنت اسرائيل من زيادة تسلحها والعدوان على البلاد العربية، بدلا من ان تقف موقف الدفاع عن نفسها كما شاهدنا ذلك في سنتي ١٩٥٦ و ١٩٦٧. وكنا قد وضعنا دراسة موسعة بعد انكسار العرب في سنة ١٩٦٧ حللنا فيها الانقلابات السورية والمصرية واثرها في ذلك، ولكن الرقابة منعت نشرها في حينه.

والتي كشفت عن انعدام الوحدة بصفة محزنة داخل جامعة الدول العربية في اول تجربة عنيفة تواجهها تلك الجامعة. ذلك لان مواقف الدول العربية قد تغيرت، بالنسبة الى مقترحات الحرب، والهدنة، والقيادة العسكرية، وحكومة المفتي المزعومة لعموم فلسطين، وللادارة الاردنية التي انشئت في القسم الشرقي من فلسطين[٥].

لقد ابرزت كل هذه الامور كيف ان تحقيق القليل من الوحدة بين العرب، من شأنه ان ينقذ ماء الوجوه العارية للدول العربية، فتظل هذه الدول قائمة. واذا كان الهدوء الشامل داخل العراق قد تم الحفاظ عليه، فان مرد ذلك يعود الى استمرار العمل بالاحكام العرفية. فمن طريق هذه الاحكام العرفية التي كان انتهاؤها يقابل بالفزع من لدن الحكام، استمرت العداوات التخريبية بين السلطتين المدنية والعسكرية، وغدا ضروريا تقييد المحاكم العسكرية، لان كل واحدة من هذه المحاكم اصبحت ساحة للصراع بين قوى محافظ المحافظة، والحاكم العسكري المحلي. وكان مثل هذا الخصام او الصراع يحدث في اول الامر بسبب صنف محدد من القضايا، من امثال مايخص فلسطين والشيوعية، ومن ثم حدوث هذه المحاكم في صفة محكمة مفردة مقرها في بغداد.

تحسنت حالة الامن في المدن، على الرغم من الشغب الضئيل الذي اثير اثناء الانتخابات، ومارافق ذلك الشغب من التظاهرات التي كانت تحدث في بعض الاحيان، عند حصول اية ذريعة لذلك. ولقد حدث ضغط متزايد على يهود بغداد[٦] وكان وقوع مثل هذا العداء في مثل هذه الظروف يعد من الامور الحتمية من الناحية النفسية.

---

(٥) تمزقت فلسطين، بعد قيام دولة اسرائيل في ايار ١٩٤٨ الى اشلاء بين اليهود، والاردن، ومصر. فقد وضع الملك عبد الله يده على الضفة الغربية من الاردن، اي القسم الشرقي من فلسطين، وضمها الى مملكته، وضمت مصر اليها قطاع غزة وراحت تحكمه كما لو كان مستعمرة. وكان عبد الله يعتبر ضم الضفة الغربية الى الاردن بداية لتحقيق حلمه الكبير القديم في انشاء سوريا الكبرى والتربع على عرشها. غير ان ضم «غزة» وكذلك الضفة الغربية لم يدم طويلا بعد هزيمة العرب سنة ١٩٦٧ امام اسرائيل، حيث استولى الصهاينة على كل فلسطين، وغزة وصحراء سيناء، وسلخوا هضبة الجولان من سوريا، ثم ضاعفوا من ذلك بغزو لبنان واستئصال ليس المقاومة الفلسطينية وحدها حسب، بل وتصفية العنصر الفلسطيني جسديا بمذابح صبرة وشاتيلا، وباقامة معسكر الانصار، في الوقت الذي سكتت فيه الحكومات العربية عن هذه الاعتداءات سكوتا مطبقا، وراح البعض منها يكيد للبعض الاخر، كما تكشف ذلك بوقوف حكومة حافظ اسد وحكومة القذافي العميل المفضوح الى جانب العدوان الفارسي الغاشم على العراق، ومحاولة البعض من الحكام العرب اغماض اعينهم عن هذا العدوان المدعم من قبل الصهيونية والاستعمار وكأنه موجه ضد العراق وحده وليس ضد الامة العربية. وحتى بعد ان تكشفت حقائق العدوان الفارسي على العراق وشموليته، مايزال هذا الصنف من هؤلاء الحكام يحاول ان يحصر الموضوع بين ايران والعراق.

(٦) لقد ظهر جليا فيما بعد، بان الاعتداءات التي وقعت على اليهود في العراق، كانت في الاصل من صنع العناصر والعصابات الصهيونية التي اخذت تفجر القنابل في بعض الاحياء اليهودية ببغداد، بقصد اثارة الفزع لدى اليهود وارغامهم على مغادرة العراق الى اسرائيل التي كانت انذاك بامس الحاجة الى الرجال والاموال لتنفيذ اعتداءاتها المقبلة على البلاد العربية. ولقد شاركت

وفي خريف سنة ١٩٤٩ شملت الاعتقالات التي اصابت اليهود جميع الذين كانوا متجمعين منهم في بيعتهم في مدينة العمارة، وكانت الاحتجاجات التي صدرت عن اسرائيل ضد هذا الاجراء، ومازعم عن حدوث اعتقالات اخرى في معسكرات الاعتقال، قد وصلت الى منظمة الامم المتحدة. وكان الربط بين الصهيونية والشيوعية من الامور المسلم بها خلال الصخب الشعبي، وقد تم تشخيص الصهيوني، واليهودي، ولقد اثار منظر هذه الطائفة الخائفة التي اتهمت بانها كانت تبيع الاسرار الى يهود فلسطين، شواهد سيئة من الضغينة والشغب، ولكن مع كل ذلك فلم تعدم المواقف التي كانت تتسم بالذكاء والفروسية.

ولقد احتج عدد من محافظي المحافظات الى وزير الداخلية ضد الحكم العسكري الارهابي في محافظاتهم، وارغموا «صادق البصام» وزير الدفاع على الاستقالة من منصبه[٧].

لم يحظ اعتقال كبير الحاخامين، وادانة التاجر اليهودي شفيق عدس وشنقه، ولكن من دون شركائه المسلمين، بمصادقة من لدن كثيرين من افراد الجمهور. كما سمح للصحافة بالحرية الكاملة في مهاجمة البريطانيين، بدعوى انهم هم الذين خلقوا الاضطرابات في فلسطين وفي العراق أيضاً[٨] وتروح تطالب بكل شراسة بمحاسبة شركات النفط، وتهاجم الكتيب، الذي اصدره

=جميع الحكومات العربية التي لم تكن قد تحررت بعد من الاستعمار والنفوذ الامبريالي، بصفة غير مباشرة، بمد اسرائيل بالرجال والاموال عندما سمحت بعد سنة ١٩٥٠ لليهود الساكنين في بلادها بالتخلي عن جنسياتهم والمغادرة الى اسرائيل، حيث توفر لاسرائيل من ذلك عدد كبير من الشباب اللائق للخدمة العسكرية، والحرف الاخرى، ومن الاموال التي اخرجها المهاجرون اليهود مصدر كبير من المصادر المالية للدولة العبرية.

(٧) اوضح صادق البصام في كتاب استقالته من وزارة الدفاع ان الاسباب التي دفعته الى الاستقالة هي ادعاؤه في ان حل قضية فلسطين لن يكون الا بقوة السلاح، وان الشكاوى كانت ولم تزل تترى من بعض الوزراء على اجراءات المجالس العرفية والخاصة باليهود، دون الاستطاعة الى معرفة كنهها الحقيق، ودون ان نلمس جزءاً منها في الاجراءات التي اتخذتها المجالس العرفية قبلاً ضد الاف المسلمين والعرب لصيانة المجهود الحربي البريطاني، او تلك التي اتخذت في الوزارات السابقة ضد اخفاق هؤلاء. (الحسني: الوزارات العراقية ج ٨ ص ١٩ – ٢٠).

ولقد صدرت ارادة ملكية باستقالة صادق البصام في ٢٧ ايلول ١٩٤٨ واشيع في حينه ان البصام قد استقال، بعد ان ظهر له ان بعض الجهات العراقية كانت تسعى لانقاذ «شفيق عدس» من حبل المشنقة، في حين اصر البصام على تنفيذ حكم الاعدام وبذلك تم انقاذ شركاء عدس في جريمة تهريب السلاح الى اسرائيل، من نفس المصير الذي صار عدس اليه.

(٨) لاجدال في ان بريطانيا تتحمل المسؤولية الاولى والخطيرة معا عن ضياع فلسطين من ايدي العرب، واقامة الدولة اليهودية فيها. فقد مهدت لذلك باصدار وعد بلفور، وراحت تضغط على الملك حسين وابنه الملك فيصل بانتزاع اعترافات منهما باقامة الوطن القومي لليهود في فلسطين. كما ان بريطانيا هي التي دربت اليهود على القتال واستعمال الاسلحة في فلسطين وامدتهم بمختلف انواع السلاح في ذات الوقت الذي حرمت فيه على العرب حمل حتى المدي والفؤوس. واكثر من هذا ان بريطانيا حين قررت على حين غرة الغاء انتدابها على فلسطين تخلت عن كل ماكان لديها هناك من معسكرات ومخازن سلاح وذخيرة الى العصابات اليهودية، في الوقت الذي سمحت فيه، خلال انتدابها على فلسطين، بفتح باب الهجرة امام اليهود الى فلسطين ووصول=

نوري السعيد، بعد عودته الى العراق في منتصف ذلك الصيف، والذي كان يبرر فيه معاهدة بورتسموث[٩].

والواقع ان البيانات التي اطلقها مؤيدو المعاهدة، كانت من المظاهر في تلك الشهور. فقد تم الترحيب بصالح جبر لدى عودته الى بغداد في شهر تموز، واستطاع نوري السعيد ان يعود الى دخول المعترك السياسي في ذلك الصيف، وان يخلف شاكر الوادي، وصادق البصام في منصب وزير الدفاع في شهر تشرين الأول، وعين فاضل الجمالي وزيرا مفوضا للعراق في القاهرة، وكان جميع هؤلاء من المرشحين مرة اخرى لمناصب عليا في نهاية تلك السنة.

حدد النشاط السياسي الحزبي، بسبب الظروف الشاذة، وتعرقل نشاط الحزبين الوطني الديمقراطي والأحرار بسبب نقص الأموال لديهما، والشكوى من القيود غير القانونية، فتوقفا عن العمل الجاد في شهر كانون الأول[١٠] وحدثت سلسلة من التغييرات في الوزارة القائمة في شهر تشرين الأول، وذلك بعد شهور من تبادل المناصب الوزارية بين عدد من الوزراء العاملين وكالة،فقد جاء شاكر الوادي الى وزارة الدفاع، وعمر نظمي الى وزارة الداخلية، واستدعي علي جودت من واشنطن ليصبح وزيرا للخارجية،وضم امير ربيعة، محمد الصيهود ثانية الى الوزارة، فأصبح وزيرا بلا وزارة مرة اخرى. ومع ان مصطفى العمري كان تحت المعالجة الطبية في لندن وقد تخلى عن منصبه وزارة الداخلية، الا أنه بقي في الوزارة الى ان أستقال بعد شهر من ذلك، كما أستبدل علي ممتاز وزير المالية بعد فترة بمدير الكمارك والمكوس العام الرجل المجرب خليل اسماعيل. وبعد ان أصبح عبدالوهاب مرجان وزير الأقتصاد، رئيسا لغرفة التجارة، خلفه في منصبه علي حيدر سليمان وزير الشؤون الأجتماعية،وكان نجيب الراوي وزير التربية وممثل العراق في أجتماعات «ليك سكس في أمريكا قد عاد الى البلاد، ولم يكن لخطاب العرش الذي التي في اليوم الأول من أنتظام البرلمان، اي لون سياسي.

الاسلحة الى اليهود من كل مكان في اوربا وامريكا وغيرها. على ان بريطانيا التي خرجت من الحرب العالمية الثانية مفلسة وضعيفة ماليا واقتصاديا مالبثت ان تخلت عن اسرائيل للامريكيين مثلما تخلت لهم عن معظم مستعمراتها وعلى الاخص مناطق النفط في الشرق الاوسط، في السعودية، وايران وبقية دول الخليج العربي.

(٩) يقصد المؤلف بذلك الحديث الذي ادلى به نوري السعيد بعد الوثبة، عن معاهدة بورتسموث ومازعمه من وجود فوائد كبيرة منها وعلى الاخص ماتعلق بقضية فلسطين. وقد اصدر ذلك الحديث في كتيب بعنوان «بعض حقائق عن قضايا العراق الاخيرة وفلسطين سنة ١٩٤٨» كما تطرق صالح جبر هو الاخر الى ذات الادعاء في حديث نشره بعد سقوط وزارته بوقت غير قليل.

(١٠) لم يكن سبب توقف الحزبين عن نشاطها هو نقص الاموال كما ادعى المؤلف ذلك، وانما هو الضغط على الحريات العامة ولقد فصل كامل الجادرجي هذا الموضوع في مذكراته ص ٢٤٦ - ٢٤٩.

لم تستطع وزارة مزاحم الباجه‌جي بكل جلاء ان تسيطر على مشاكلها المتضاعفة، ولم تعش الاسابيع الأخيرة، من سنة ١٩٤٩، الا بمساندة من صانعي معاهدة بورتسموث، نوري السعيد وصالح جبر. وكان انعطاف مزاحم نحو مصر، باعتبارها اقوى دولة عربية وتجاوبه مع تظاهرات التدخل التي جرت في اليوم الثلاثين والحادي والثلاثين من شهر كانون الأول[11] تتصادمان مع اراء الجيش، بل في الواقع مع كل شخص واقعي من هؤلاء، وقد خلقت مأزقاً كان المخرج الوحيد له يتمثل في تغيير الوزارة، ولذلك استقال مزاحم من منصبه في اليوم السادس من شهر كانون الثاني ١٩٤٩.

استدعى الوصي الذي لم يكل من التجول في أنحاء القطر، وزيارة وحدات الجيش، والعواصم العربية، نوري السعيد لتأليف وزارة جديدة.

وقد ألفها في ذات اليوم، وأحتفظ بأربعة وزراء سابقين هم حسن كبة للعدل، ونجيب الراوي للتربية، وجلال بابان للأشغال، وشاكر الوادي للدفاع، كما انه اتى بكل من بهاء الدين نوري للشؤون الأجتماعية، وضياء جعفر للأقتصاد، وعبدالاله حافظ للخارجية، وأحتفظ لنفسه بوزارة الداخلية، وطلب الى جلال بابان ادارة وزارة المالية مؤقتا الى أن تولى خليل اسماعيل ذلك المنصب.

ونظرا لنقص الثقة بصفة اساسية بين رئيس الوزراء والعرش وبعض الوزراء، فقد كان التأريخ الوزاري لسنة ١٩٤٩ مضطربا على الرغم من التحسن الذي طرأ على الزعامة، فقد كانت الوزارة منذ البداية ضعيفة وتمت تقويتها بالتبدلات التي حصلت بعد شهرين، حين دخل عمر نظمي الوزارة في صفة نائب لرئيس الوزراء، واستدعى فاضل الجمالي من القاهرة لتولي منصب وزير الخارجية، وعين عبدالاله حافظ مديراً للمصرف الوطني، وأصبح توفيق النائب، وهو حاكم ومحافظ سابق، ومن أنصار صالح جبر، وزيرا للداخلية.

كان رئيس الوزراء يأمل في منتصف الصيف ان يظفر بقوة أخرى لدعم الوزارة التي أصبح الشقاق داخلها من الأمور المدمرة. ولذلك استشار كلا من جميل المدفعي، وصالح جبر وتوفيق السويدي وعلي ممتاز، وكان الشخصان الأخيران ممن يتوقع انضمامها الى الوزارة غير أن الاتفاق على التعيينات لم يكن منظورا، وبالكاد استطاعت الوزارة البقاء في الحكم خلال شتاء

---

(١١) ادى اشراك شاكر الوادي في الوزارة، الى تململ الحركة الطلابية مرة اخرى، وشجعها على ذلك تكتل المعارضة في مجلس النواب ضد السماح بعودة رجال معاهدة بورتسموث الى الحكم بمثل هذه السرعة. فقد أضرب طلاب بعض الكليات عن دروسهم احتجاجا على ذلك التعديل الوزاري وخرجت تظاهرة طافت بشارع الرشيد ونادت بسقوط الوزارة، وكان من ابرز ماحدث من المشادات الكلامية العنيفة في مجلس النواب ماحصل بين شعلان سلمان الظاهر ورفائيل بطي، وكان رفائيل بطي قد حاول في تلك الأيام ان يحافظ على كرسي النيابة والظفر بعطف الحكم عليه، بأي ثمن كان، وذلك ماحمل الوصي على تعيينه وزيرا بلا وزارة في احدى الوزارات التالية.

١٩٤٩ – ١٩٥٠. ولما كان وزيرا الداخلية والخارجية غير عضوين في مجلس النواب، فقد أجبرا حسب منطوق الدستور على الاستقالة من منصبيهما بعد ان مكثا فيهما مدة ستة اشهر، ومن ثم اعطي منصباهما الى كل من شاكر الوادي وعمر نظمي.

واذ استفاد نوري السعيد من الهدوء الجزئي الذي ساد النشاط الحزبي، اذ لم يبق سوى حزب الاستقلال يمارس نشاطه الفعال، فقد صمم في اواخر تلك السنة على أن يؤلف حزبا خاصا به، هو «حزب الاتحاد الدستوري» وبمنهاج غير متوقع، عن الأخوة العربية، والصداقة مع كل الأمم، ومكافحة الشيوعية وتعديل المعاهدة والتقدم نحو العظمة القومية في الداخل وفي الخارج، ولقد تألف هذا الحزب من عناصر مختلفة من ذوي النزعة المحافظة والمصلحة المستثمرة، ومن افراد العشائر والمدنيين، وحقق تماسكا في الدعم المشترك لنوري السعيد ذاته طالما بقي قويا، واتخذ مكانته كواحد من أكبر الأحزاب، وأكثرها اعتدالا، الا أنه لم يستطع الهيمنة على مجلس النواب مادام اعضاء هذا المجلس متماسكين سوية، كما أنضم الى هذا الحزب تجمع معروض عليه مؤلف من الوزراء السابقين ومن الذين يتوقعون ان يصبحوا وزراء في المستقبل.

كان اخر عمل قامت به وزارة مزاحم الباجه جي هو تجريد حملة اخرى ضد الشيوعيين، والتي كانت من اولى الأعمال التي قررت وزارة السعيد القيام بها، فأوقف بعض المئات، وحكم على العشرات بأحكام شاقة بتهمة الثورة والخيانة، ذلك أن اربعة من الشيوعيين المشهورين هم يوسف سلمان، ويهودا زلوف، ومحمد زكي بسيم، وحسين محمد الشبيبي قد حكموا بالأعدام، ونفذ هذا الحكم[١٢] في هذا الوقت وسط أحتجاجات صاخبة من صحافة العالم الشيوعي ولاقى شيوعي اخر نفس المصير في شهر ايار[١٣] وقد زعم بأنه تم القاء القبض على اعضاء اللجنة المركزية وسجلات الحزب الشيوعي، وبذلك أقتنعت الحكومة بأن ظهر الحركة الشيوعية قد قصم في النهاية.

اما المعادون بصفة اقل للدولة، من أمثال بعض الذين كانوا يشتمون رئيس الوزراء، فقد

---

(١٢) نفذ حكم الاعدام بهؤلاء الأربعة في بغداد صبيحة يوم ٢٦ شباط ١٩٤٩ وعلقت جثثهم في اماكن مختلفة من بغداد.

(١٣) يقصد به «ساسون دلال» الذي تولى زعامة الحزب الشيوعي بعد اعدام فهد ورفاقه، وقد القي القبض عليه في اوائل شهر ايار ١٩٤٩ وحوكم امام المجلس العرفي وحكم عليه بالأعدام ونفذ فيه، كما حكم عدد من رفاقه بالسجن لمدد مختلفة وكانت هذه هي اللجنة المركزية الثالثة للحزب الشيوعي التي يكتشف أمرها ويتم القاء القبض على اعضائها مع مالديها من سجلات ونشرات وكان دلال قد حكم في سنة ١٩٤٧ بالسجن لمدة سنتين ووضعه تحت مراقبة الشرطة لمدة سنة ولكنه هرب من السجن في سامراء وتولى العمل في الحزب في اواخر سنة ١٩٤٨ (انظر تفاصيل ذلك في الموسوعة السرية الجزء الثالث).

صدرت بحقهم احكام مختلفة، حيث حكم على كامل الجادرجي بالحبس لمدة اربعة اشهر[١٣]

كانت التظاهرات التي اقيمت في ذكرى معاهدة بورتسموث، مما لم تستطع السلطات السيطرة عليها الا بصفة محدودة، ومع ذلك فأنها لم تؤد الى شيء من أعمال الشغب والاعتقالات. وبقيت اجراءات المحاكم العرفية تعمل باحتكاك اقل، طيلة السنة، ولكن كان نوري السعيد يشعر بأنه غير قادر على اعادة النظام الاعتيادي في البلاد، وعلى الرغم من الشائعات المخيفة خلال الربيع، فان عودة مصطفى البارزاني، وغزوه المتوقع للعراق، كانت متأخرة.

كانت علاقات العراق مع بريطانيا قد ساءت سنة ١٩٤٨ بالنسبة لقضية فلسطين أكثر مما ساءت بالنسبة للمعاهدة، وكان اعظم من ذلك رفض البريطانيين تزويد الجيش العراقي بالسلاح، ولكن هذه العلاقات تحسنت في سنة ١٩٤٩ وذلك بمجيء وزارة اقل عداء للأنكليز، وبأستئناف تموين الجيش العراقي بالاسلحة الحديثة حالما يغادر الجيش ارض فلسطين.

قام عبدالاله ورئيس الوزراء وبعض الوزراء بزيارات الى بريطانيا خلال السنة، وتم استلام القروض بفرح، وجند عدد من الخبراء البريطانيين للعمل في العراق، ومع ذلك لم يكن من الامور المتصورة ان يقدم اي شاب سياسي بل الواقع اي حزب، عدا حزب رئيس الوزراء، على توجيه اللوم باعتقاد راسخ، او بمحض العادة او الواجب الوطني الى بريطانيا عن كل الشرور الملمة بالدولة العراقية. ومع أن التأكيد الجوهري لسلطة الحكومة، كان واحدا من الانجازات التي حققها نوري السعيد في وزارته العاشرة الا أنه استطاع مع ذلك ايضا ان يحول دون تدهور مالي اخر. فقد أمكن ضبط معدل النقص السنوي، وتجنب الاقتراض للحاجات الجارية.

وبعد سنة اتسمت بالحذر، ابرزت الشهور الأخيرة من سنة ١٩٤٩ طموحات اقل قلقا، فقد اعدت ميزانية السنة المالية ١٩٤٩ – ١٩٥٠ بموازنة مقدارها خمسة وعشرون مليون دينار عراقي من الايرادات والمصروفات ومن دون اي تأخير متتابع فيها، وأشترطت الميزانية حصر ايرادات الكمارك، واجراء شيء من الاقتصاد في الادارة. ولكن المقترحات التي طرحت لغرض ضرائب اعلى، او لتقوية هذه الضرائب لاغراض سياسية، لم يتم تعقبها، وبقي الوضع التجاري والاقتصادي غير ملائم على الرغم من جودة موسم الحصاد في سنة ١٩٤٩ والذي سمح باعفاء

---

(١٣) شارك المرحوم كامل الجادرجي في المؤتمر العربي الذي انعقد في دمشق في ايلول سنة ١٩٥٦ وكان عضوا في الهيأة التي انبثقت عن ذلك المؤتمر والتي كانت القاهرة مقرا لها ولذلك انتقل الجادرجي الى القاهرة وكان فيها عندما وقع العدوان الثلاثي على مصر في ٢٩ تشرين الاول ١٩٥٦، فبعث من هناك ببرقية ينتقد فيها موقف حكومة السعيد انذاك من العدوان الثلاثي في مصر وما ان عاد الجادرجي من القاهرة الى بغداد حتى جرى اعتقاله في يوم ٢٩ تشرين الثاني ١٩٥٦ وحوكم امام المجلس العرفي وحكم عليه بالسجن لمدة ثلاث سنوات وذلك بتاريخ ١٩ كانون الأول ١٩٥٦، وقد أودع السجن فعلا ومكث فيه أكثر من نصف المدة التي حكم بها وهي ثلاث سنوات واربعة اشهر كما ذكر المؤلف ذلك ومع أن ضغطا قد حدث عليه لكي يعتذر عما ورد في برقيته التي كانت سبباً لمحاكمته، كما يكون ذلك الأعتذار سببا لاعفائه عما تبقى من محكوميته، الا أنه رفض ان يفعل ذلك.

صادرات الحبوب من الضريبة. ولكن النفقات العسكرية على حساب قضية فلسطين قد تم انهاؤها في شهر تموز من السنة ذاتها، وكانت المساعدة متوقعة من وراء بيع مخازن الحكومة، ومن عوائد النفط التي كان يجري استلامها مقدما.

تم الحصول على قروض من لندن ومن المصرف الدولي لاغراض الاعمار وذلك عن طريق المفاوضات التي جرت خلال صيف ١٩٤٩. وتقدمت شركة النفط العراقية بعرض لتقديم قرض بمبلغ ثلاثة ملايين باون، واشترطت لذلك اعادة فتح خط أنابيب النفط الى ميناء حيفا، ولكن هذا الشرط بالنسبة الى الوزراء العراقيين (بغض النظر عن الاراء التي كانوا يعبرون عنها في مجالسهم الخاصة) يعد مستحيلا من الناحية السياسية، ولذلك توقف تقديم القرض المذكور. وأفتتح المصرف الوطني ابوابه في اليوم الأول من شهر تموز ١٩٤٩، وتعهد بأصدار قرض من مجلس العملة، الذي اختفى الان بعد ان قدم للعراق خدمة جيدة طيلة عشرين سنة(١٤).

أصبح موضوع اخراج العراق الان، من وضعه الراهن في فلسطين ذلك الوضع الذي كان ينطوي على كثرة النفقات، والخطورة وعدم الفعالية، من الضرورات الملحة، ولكن الحماسة الملحة للحرب التي شهدتها الايام الأخيرة من وزارة مزاحم الباجه‌جي، لم تؤد الى انتهاج سياسة معقولة. فمن الناحية العسكرية تم خسران الحرب وأنتهاؤها، ومن الناحية السياسية كانت الحاجة ملحة الى انقاذ عرب فلسطين، قدر المستطاع، من اسرائيل التي غدت الان تقوم على اسس ثابتة وأصبحت دولة توسعية بصفة متوقعة.

كان نوري السعيد على استعداد للقبول بمشروع تقسيم فلسطين بالصورة التي عرض بها في شهر تشرين الثاني ١٩٤٧، ولكن ليس بالشكل الذي تم تعديله به حسب المطاليب الاسرائيلية المتأخرة. فقد كان السعيد يسلم جدلا بأن تظل القدس عربية، وبعدم تسليح اسرائيل، وجعل ميناء حيفا دوليا، وتعويض اللاجئين. ولكن مثل هذه الشروط لم تكن من الامور التي يمكن تحقيقها. غير ان الزيارة التي قام بها جميل المدفعي الى العواصم العربية في سبيل ضمان الوحدة للمطالبة بهذه الشروط، قد كشفت بدلا من ذلك عن انعدام الأتحاد، ولذلك فلم يعد مستطاعا منع الدول العربية الواحدة اثر الاخرى عن التوقيع على اتفاقات منفصلة للهدنة مع اسرائيل، وان تمضي كل دولة عربية في طرقها الانفصالية.

وفي شهر اذار وجد رئيس الوزراء ان الموقف قد أصبح ميؤوسا منه، ولذلك بوشر في شهر نيسان بأعادة القطعات العراقية العسكرية، من فلسطين وكملت تلك الاعادة في شهر تموز، وتم

(١٤) هو المجلس الذي انشيء في لندن في اعقاب قرار الحكومة العراقية بسك عملة خاصة بها، والاستغناء عن العملة الهندية التي كان التعامل جاريا بها منذ أن دخلت القوات الأنكليزية أرض العراق في اوائل الحرب العالمية الأولى، وظلت سارية المفعول حتى سنة ١٩٣١ عندما بوشر بتداول العملة العراقية التي كان المجلس المذكور يشرف على اصدارها وكان معظم اعضاء هذا المجلس من الخبراء الأنكليز.

تحقيق اعادة توطين الجيش داخل العراق وتوزيعه على المقرات المعدة له زمن السلم، من دون ان يحصل اي حادث معكر.

كانت سياسة العراق انذاك تقوم على اساس تحاشي لجنة تسوية قضية فلسطين في «لوزان» والأمل في فرض تسوية تكون اكثر تحملا من التسوية الحالية. وكان العراق قد وقف لوحده مع الاردن في ان تظل القدس بكاملها عربية، لكنه مع ذلك انضم الى الدول العربية الاخرى التي اتصلت بواشنطن في شهر تشرين الثاني لكي تجبر اسرائيل على انجاز الترتيبات الاقليمية التي تقررت في سنة ١٩٤٧ والتي اكدها بروتوكول لوزان في شهر ايار ١٩٤٩[١٥].

واذ ضاعت فلسطين وغدت الدروس المستخلصة من ضياعها مفهومة فهما جيدا، فقد أصبح مشروع سوريا الكبرى، الذي عارضته كل من مصر والسعودية معارضة شديدة بالاضافة الى المعارضة من قبل ثلثي سوريا،مسألة ميتة لم يبق لها من وجود الا في الذهن المتبلد الذي يحمله الملك عبدالله،ولذلك فقد تحولت افكار العراقيين مرة اخرى الى وحدة الهلال الخصيب او على الأقل وحدة العراق مع جارته سوريا.

كان الكتيب التذكاري الذي نشره موسى العلمي بعنوان «عبرة فلسطين» والحماسة الشعبية التي اظهرت للملك فيصل الثاني الصغير أثناء مروره عبر سوريا سنة ١٩٤٨،قد اعادت المشروع القديم الى الظهور مرة ثانية[١٦] ولكن الانقلاب العسكري الذي قام به العقيد حسني الزعيم في دمشق في الثلاثين من شهر اذار ١٩٤٩، قد ازاح الخصم الرئيس للمشروع، وهو الرئيس السوري شكري القوتلي،كما كان يظن بأن حاجة حسني الزعيم الى المساندة قد جعلته يرحب بالتقارب الأخوي مع العراق[١٧] ولكن الزيارة التي قام بها نوري السعيد الى دمشق بسرعة لم

---

(١٥) بروتوكول لوزان: عقد في ١٢ ايار ١٩٤٩ واتخذ قرارا بان تقوم لجنة المدنة التابعة للامم المتحدة باسرع مايمكن بتنفيذ قرار الامم المتحدة الصادر في ١١ كانون اول ١٩٤٨ بشأن اللاجئين واحترام حقوقهم واموالهم واراضيهم، وذلك عن طريق تعاون الطرفين العربي والاسرائيلي في هذا الشأن.

(١٦) يقصد به مشروع اتحاد سوريا مع العراق.

(١٧) بعث حسني الزعيم فور تسلمه مقاليد السلطة في سوريا بمذكرة الى الدول العربية يشرح فيها أسباب الأنقلاب الذي قام به. وكانت حكومة نوري السعيد قد عينت جمال بابان وزيرا مفوضاً للعراق في لبنان، فلما حدث الانقلاب في سوريا،كلفته الحكومة بالسفر فورا الى سوريا ولبنان «وزودته برسالة موجهة الى فارس الخوري رئيس مجلس النواب لاستطلاع امر الانقلاب في الدرجة الأولى». وقد وصل بابان الى دمشق في اليوم الأول من نيسان ١٩٤٩، وأجتمع فور وصوله اليها بالزعيم حسني مدبر الأنقلاب ونقل اليه وجهة النظر العراقية بشأن الوضع الجديد في سوريا، كما قابل فارس الخوري وسلمه الرسالة التي وجهت اليه،وفضلا عن ذلك علمت وزارة الخارجية العراقية عن طريق وزيرها المفوض في دمشق أن بعض السوريين يحبذون اقامة وحدة بين سوريا والعراق دون شرقي الأردن،واضافة الى ذلك ابدى حسني الزعيم رغبته في عقد اتفاق عسكري بين العراق وسوريا فأستجاب العراق لهذه الفكرة وبعث بوفد ترأسه المرحوم العقيد الركن عبدالمطلب الأمين، وأجتمع الوفد مع حسني الزعيم الذي سارع=

تنتج سوى النفور القوي المتبادل، ذلك لأن هذا الدكتاتور الجديد غير المتزن، سرعان ماتحول بعنف نحو جارته الشرقية، وراح يتطلع بنجاح الى الدعم من مصر والسعودية، وبروج الحكايات الكاذبة عن حشد القوات العراقية. ولكن الانقلاب الثاني والذي استبدل به حسني الزعيم بالعقيد سامي الحناوي[١٨] قد سمح بأتصالات ودية اخرى، وكشف عن مقدار واسع من التأييد في سوريا، للتقارب السوري العراقي في شكل من الأشكال، غير أن هذا التقارب لم يتقدم خطوة اخرى الى أمام، ذلك لأن كلا من بريطانيا وأمريكا لم تكونا ترغبان في هذا الوقت، تحقيق مخاطر مثل هذا التغيير الدستوري الكبير[١٩] كما أن كلا منهما قد رفضت ان توافق عليه.

وعلى أثر ذلك اقترحت مصر قيام حركة مضادة للمشروع، تمثل في الحلف الأمني الجماعي العربي، الذي زعم عنه بأنه هو المفضل، في الوقت الذي كان فيه السوريون يبدون كل اهتمامهم بقيام الوحدة الثنائية المجردة، بين العراق وسوريا.

اغتاظ العراق الذي كرس كل جهوده لمشروعه المفضل، الذي بدا عليه بأنه يتجاوز المشروع السوري، من التدخل العربي في الموضوع، ولذلك فلم ينتج عن زيارة المندوبين العاملين لتحقيق الصلح، الى القاهرة اي شيء، وهكذا غدا انقسام الجامعة العربية الى مجموعتين احداهما

بأرسال وفد سياسي عسكري الى بغداد في الثالث عشر من نيسان فأجتمع الوفد السوري برئيس الوزراء نوري السعيد الذي مالبث أن سافر الى دمشق حالا على رأس وفد عسكري للتفاوض مع الدكتاتور السوري، وتحدث نوري السعيد في المفوضية العراقية بدمشق الى بعض السوريين الذين اجتمعوا به فأوضح لهم بأن مادار بينه وبين حسني الزعيم يخص الاتحاد، ولذلك أكد هؤلاء على نوري السعيد، ضرورة التقارب السوري العراقي وعدم الأهتمام ببعض الحكومات العربية التي تعارض هذا التقارب. وكانت مصر أول من اظهر العداء للتقارب السوري العراقي، فعندما جرت الاتصالات بين العراق ومصر حول موضوع التقارب السوري العراقي، كان رد رئيس الوزراء المصري على ذلك الموضوع بقوله وأن مصر لاتوافق على ان تكون الأمانة العامة لجامعة الدول العربية حكومة فوق الحكومات. ونشير هنا الى أن من خيرة الكتب التي بحثت هذا الموضوع هو كتاب باتريك سيل المعلق البريطاني المعروف والمعنون «الصراع على سوريا» والذي صدرت له ترجمة عربية، وطبعة انكليزية جديدة في اواخر ١٩٨٦.

(١٨) قام العقيد سامي الحناوي بالرد على انقلاب حسني الزعيم، بأنقلاب عسكري جديد حدث صبيحة يوم الأحد الرابع عشر من شهر اب ١٩٤٩، وقتل فيه حسني الزعيم وقد تم ايفاد احمد مختار بابان رئيس الديوان الملكي العراقي، الى سوريا لدراسة الوضع فيها «انظر كتابنا «اسرار الانقلابات العسكرية في سوريا» طبعة ١٩٤٩».

(١٩) لايمكن تبرئة بريطانيا وامريكا والصهيونية العالمية اطلاقا من المشاركة في تدبير الانقلابات التي حدثت في سوريا انذاك فقد دللت الحوادث بما لايقبل الشك والجدل على أن انقلاب حسني الزعيم كان يتماشى والسياسة الأمريكية في الشرق العربي، بينما كان انقلاب سامي الحناوي يسير مع الخط الأنكليزي في البلاد العربية، ولذلك سارعت حكومة بغداد الى الترحيب بانقلاب الحناوي والدخول معه في مفاوضات لقيام الأتحاد بين سوريا والعراق، وكاد هذا الأتحاد ان يتحقق لو لم يرد الأمريكيون عليه، وبتأييد من مصر والسعودية، وذلك بأزاحة سامي الحناوي عن طريق انقلاب ثالث قام به العقيد اديب الشيشكلي في التاسع عشر من كانون الأول ١٩٤٩، ولقد فصلنا اثار هذه الانقلابات وسواها التي وقعت في البلاد العربية في توهين قوة العرب واضعافها للصمود امام اسرائيل والمؤامرة الامبريالية وذلك في كتابنا المعنون «هزيمة حزيران ١٩٦٧» والذي لم يسمح بنشره في حينه، ونأمل ان نحصل على السماح بنشره قريباً.

هاشمية والأخرى سورية مصرية عربية، أكثر وضوحا في اواسط سنة ١٩٤٩، والواقع ان الخصومة بين الدول العربية الأعضاء في الجامعة العربية، ولاسيما بعد ان ابتلعت الأردن القسم الشرقي من فلسطين في شهر نيسان قد أصبحت تنذر بحصول ازمة. فقد كانت الهمسات تسمع عن احتمال انسحاب العراق وكذلك الأردن من الجامعة العربية، كما تم الأعراب عن النقد الحاد الموجه الى عبدالرحمن عزام الأمين المصري العام لجامعة الدول العربية اثناء وجوده في بغداد.

• • •

قام عبدالاله بزيارة رسمية الى طهران في شهر حزيران ١٩٤٩ ولكن هذه الزيارة لم تحدث اي تحسن دائم في العلاقات مع بلاد فارس، ولو ان معاهدة عن المساعدة المتبادلة، والعلاقات الجيدة، كانت قد أبرمت بين البلدين في اليوم الثالث والعشرين من ذلك الشهر، وأعقبها رفع المفوضيتين العراقية والفارسية الى درجة سفارة، وفي اواخر تلك السنة اتخذت خطوات لتأليف لجنة الحدود المنتظرة بين القطرين، وان كان القرار الفارسي الذي أتخذ على حين غرة، بابعاد كثير من المقيمين العراقيين في بلاد فارس «معظمهم من اليهود» قد ادى الى نشوب ازمة[٢٠]. وعلى الرغم من الاقتراحات التي قدمت في سنة ١٩٤٧، ووجود هيأة تمثل الرأي الراهن المجند لذلك، فلم تتخذ اية خطوات لاحياء ميثاق سعد اباد.

وصل وزير باكستاني الى بغداد اواخر سنة ١٩٤٨، وتمت المصادقة على عقد معاهدة صداقة بين البلدين في اوائل سنة ١٩٥٠. وكان الموقف التركي المنطوي على التساهل والتسامح ازاء اسرائيل، وانعزال تركيا انعزالا تاما عن المنازعات القائمة فيما بين الدول العربية، ودعمها حسني الزعيم الذي خاصم العراق والحق به الاذى، قد ادى لفترة ما، الى تقليل الموقف الودي العراقي العام تجاه تركيا، ولكن تغيير حكومة انقرة في اوائل سنة ١٩٥٠ قد اثار اهتماما كبيرا في بغداد.

اصبح سقوط وزارة نوري السعيد في خريف سنة ١٩٤٩ متوقعا. فقد اخذت الخلافات الوزارية حول الاوضاع الداخلية والعربية، والقلق والتعب المستمرين اللذين كان رئيس الوزراء يشعر بهما، وانشغاله بامور حزبه الجديد، تشير الى تغيير متوقع. وعندما التأم البرلمان في اليوم

(٢٠) كانت بلاد فارس ومازالت حتى الان من اهم مراكز النشاط الصهيوني في العراق وفي شرقيه منذ بداية هذا النشاط في عهدي الاحتلال والانتداب، فقد كان في ذلك الوقت يجري تنظيم شبكات التجسس الصهيونية وتنظيم هجرة اليهود من العراق وغيره من الاقطار الأخرى الى فلسطين عن طريق بلاد فارس، اذ كانت السلطات الفارسية تشجع هذه الهجرة وترعاها قبل ان تقوم دولة اسرائيل في قلب فلسطين بسنوات عديدة وكانت هذه العلاقات الجيدة بين الفرس والصهاينة مصدر التعاون السافر الذي تقيمه الان طغمة خميني مع اسرائيل في مواصلة العدوان الاثم على العراق.

الاول من شهر كانون الاول، كانت مشاورات عبد الاله مع الخلفاء المحتملين لنوري السعيد، قد قطعت شوطا حا سما. وحسب العادة كانت الرغبة تتركز في تاليف وزارة ذات تعاون او اتحاد اوسع، غير ان مثل هذه الوزارة لم تتألف، وفي اليوم الثاني عشر من كانون الاول عرض نوري السعيد استقالته فقلبت مؤخرا، وصدرت ارادة ملكية بتعيين علي جودت الايوبي، خلفا لنوري السعيد، وذلك من دون اهتمام منظور، كما هو جار دوما، بالاحزاب وبالسياسات او النواب.

ضمت الوزارة الايوبية التي تألفت الان كلا من مزاحم الباجه‌جي بمنصب نائب رئيس الوزراء ووزيرا للخارجية، وتلك اشارة مؤكدة بان المدرسة المصرية في التفكير ستظل موجودة بصفة موقتة. وجيء بالوزير المجرب عمر نظمي الى وزارة الداخلية، ووزارة الدفاع وكالة، وعلي ممتاز الى وزارة المالية، ونجيب الراوي الى وزارة التربية، وعبد الرزاق الظاهر الى وزارة الاقتصاد وعلي حيدر سليمان الى وزارة الاشغال. اما الوزراء الجدد فهم سعد عمر المحامي الشاب من كربلاء، وحسين جميل اللذين اعطيت لهما وزارتا العدل والشؤون الاجتماعية. واصبح علي الشرقي عضو مجلس الاعيان الكهل وزيرا بلا وزارة[٢١].

ومع ذلك فان هذه الوزارة التي كانت اغلبية اعضائها، تعارض سياسة نوري السعيد، قد اعتمدت على اصوات اعضاء حزبه (الاتحاد الدستوري) الذي كان يهيمن على مجلس النواب، ولذلك فان هذه الوزارة لم تعش الا عمرا قصيرا. وما ان وضعت الوزارة، من دون عائق او اثارة، نهاية لوجود الاحكام العرفية، فانها قد نجحت فيما اخفقت فيه الوزارات الاخرى في هذا الشأن. اما بالنظر الى القضايا الاخرى، فقد صدت عن ذلك، ولم تعلن اية سياسة لها، وتعرضت للنقد نتيجة اقدامها على تمديد مدة جلسات مجلس النواب لفترة خمسة واربعين يوما.

وحين زار مزاحم الباجه‌جي مصر، ووافق اثناء وجوده هناك على التخلي لفترة عدة سنوات، عن كل الخطط الرامية الى الوحدة مع سوريا، وجدت الوزارة نفسها منقسمة انقساما عميقا فيما بينها، فقدمت استقالتها من الحكم. ولكن وزير الخارجية ورئيسه قد اساءا الحكم تماما في الآراء التي انبعثت من زملائهما ولذلك رفضت سياسة مزاحم، من قبل مجلس تألف من كبار رجال الدولة، دعا الى عقده عبد الاله بعد عودته[٢٢].

---

(٢١) فات المؤلف بان عبد الرزاق الظاهر وزيرا لاقتصاد كان واحداً من الوزراء الجدد الذين استوزروا لاول مرة في وزارة الايوبي هذه.

(٢٢) عقد هذا المجلس، او الاجتماع بكلمة اوضح في قصر الرحاب في مساء اليوم الذي عاد فيه مزاحم الباجه‌جي وسعد عمر ونجيب الراوي من مصر، بعد عقد الاتفاق المصري العراقي، وحضره بعض الساسة من رؤساء الاحزاب والوزارات السابقة وقد ابدى عبد الاله امتعاضا ظاهرا من الاتفاق المصري فغادر الاجتماع غاضبا، والحقيقة ان احلام عبد الاله، وعمه عبد الله من قبل ومن بعد، كانت من العوامل الاساسية لكل محاولات التقارب بين العراق وسوريا، وتحقيق الوحدة بينهما. فلقد كان عبد الاله يحلم بان تتاح له، بمثل هذه الوسائل الخادعة، تولي الحكم في سوريا في اعقاب بلوغ الملك فيصل الثاني السن القانونية، =

وقبل ان يعود نوري السعيد من جولته الصحبة في مياه الخليج العربي، كانت الوزارة في الاسبوع الاول من شهر شباط سنة ١٩٥٠، قد افسحت الطريق امام وزارة جديدة تخلفها الفها توفيق السويدي الذي احتفظ لنفسه بمنصب وزارة الخارجية الى جانب الرئاسة. ولقد تألفت وزارته تلك من كل من نوري السعيد، ومن صالح جبر الذي تولى وزارة الداخلية فيها(٢٣) واذ كانت هذه الوزارة قوية في مظهرها، فانها - بعد سبعة اشهر من وجودها في الحكم - غدت تعاني خيبة الامل في انجازاتها، وقد استخدمت خدمات كل من الحكيم الكردي توفيق وهبي، وشاكر الوادي، وضياء جعفر، الذين تولوا وزارات الشؤون الاجتماعية، والدفاع، والاقتصاد بالتعاقب، في حين عين عبد المهدي لوزارة الاشغال، وسعد عمر للتربية، والسيد عبد الكريم الازري (شقيق عبد الرزاق الازري(٢٤)) الرجل القدير المثقف في لندن، لوزارة المالية، وحسن سامي تاتار، وهو محام من كركوك، لوزارة العدل، ولما لم يكن هذا الوزير الاخير نائبا في مجلس النواب، فقد استقال من منصبه في شهر أب، بعد ان امضى ستة اشهر فيه، فخلفه فيه جميل الاورفه‌لي، وهو محامي واقتصادي. تولى ثلاثة اشخاص وزارات بلا وزارة في وزارة السويدي وهم حامد شمدين اغا، وهو نائب كردي من منطقة زاخو، وذو تجربة برلمانية طويلة، وجميل الاورفه‌لي، وخليل كنة احد المعتقلين خلال سنة ١٩٤١، لكنه يرتبط الان بمصاهرة مع نوري السعيد(٢٥).

وكان السوريون لا يفتأون يستغلون هذا الحكم ويضربون على هذا الوتر كلما اعوزتهم النقود، التي كان العراق، على الرغم من فقره الواضح وتدهور ماليته، ما يفتأ يغدقها بكميات كبيرة على الساسة السوريين لاقناعهم بالوحدة مع العراق. فكان هؤلاء ما ان يتسلموا الاموال المطلوبة من العراق حتى يعمدوا الى تغيير الوزارة القائمة لكي تتخلى الوزارة التي تخلفها عن مشروع الاتحاد وهكذا كانت هذه اللعبة السورية تتجدد طيلة العهد الملكي، وقد تجددت في عهد حكومات البعث من سنة ١٩٦٣ ومابعدها عدة مرات.

(٢٣) تالفت وزارة توفيق السويدي في اليوم الخامس من شهر شباط سنة ١٩٥٠ واستقالت في اليوم الخامس عشر من شهر ايلول ١٩٥٠ وهذه الوزارة هي التي اصدرت قانون اسقاط الجنسية عن اليهود والذي كان وامثاله في البلدان العربية الاخرى من المقومات الاساسية لدولة اسرائيل.

(٢٤) عبد الكريم الازروي شقيق عبد الامير عبد الرزاق.

(٢٥) كان خليل كنه من جماعة الاهالي قبلا ثم انفصل عنهم وانضم الى القوميين وساهم في حزب الاستقلال لكنه ما ان لوح له نوري السعيد بمنصب وزاري حتى انشق على حزب الاستقلال ونشر استقالته تلك في كراس اتهم فيه الحزب بالتعاون مع الشيوعيين، ولم يلبث بعد ذلك ان تزوج احدى بنات هادي العسكري شقيق جعفر العسكري فاصبح من المقربين جدا لنوري السعيد، بل من اصفيائه فعلا، واندفع في خدمة اغراض نوري السعيد وعبد الاله اندفاعا شديدا، فبقي يتقلب في احضان المناصب الوزارية حتى القضاء على النظام الملكي في صيف ١٩٥٨، وجرت محاكمته امام محكمة المهداوي، ومن ثم غادر العراق نشر كتابا يدافع فيه عن الحكم السابق بعنوان «العراق امسه وغده». ولقد عاد الى بغداد مؤخرا.

أعلنت سياسة توفيق السويدي بأنها تنطوي على الأخوة العربية واقامة علاقات اوثق مع الدول الشرقية الأخرى وتحقيق الاصلاح القانوني والداخلي، والاعمار الصناعي والاقتصادي. والحقيقة ان سنة ١٩٥٠ كانت واحدة من السنين التي تميزت بالتحسن المادي، ذلك لأن السنة المالية ١٩٥٠ – ١٩٥١ كانت أحسن من السنة السابقة لها، واستطاعت ان تقضي على النقص المالي الضئيل حيث بدأت الخزينة خلال سنة ١٩٥٠ بالامتلاء مجددا واجريت اقتصادات ملموسة في نفقات الادارة في كل مكان أكثر مما جرى في الخدمات الاجتماعية، وغدت ايرادات الكمارك والضرائب الجديدة تعمل عملها، وفي نهاية السنة استطاعت وزارة المالية ان تعلن بأن الأيام السيئة قد أنتهت. والواقع ان السنة المالية ١٩٥٠ – ١٩٥١ كانت على وشك الأنتهاء انذاك، بفضل عوائد النفط المتزايدة، والموازنات المربحة في الميزانية الجارية، وفي ميزانية الأشغال الرئيسة. ومع ذلك فان خسارة مهارة «اليهود» ومساهمتهم في ميدان التجارة والصيرفة والالتزامات الثقيلة التي فرضها قانون الصيرفة الذي اصدر في شهر كانون الثاني سنة ١٩٥٠، كل هذه الأمور كانت عقبة من الناحية الاقتصادية (٢٦).

لم يعد يسمح بالمزيد من اجازات الاستيراد في هذا الوقت، ولذلك بقيت السلع المتوفرة في البلاد قليلة، وقد ارتفعت اسعار المواد المستوردة، وكذلك المواد الغذائية عند اندلاع نيران الحرب الكورية. كان موسم الحصاد لسنة ١٩٥٠ جيدا على الرغم من حدوث فيضانات مدمرة، وبروز ظاهرة الاعاصير في البصرة في شهر ايار من تلك السنة. وقد بلغت قيمة الصادرات الى حد الضعف اذا ماقورنت بصادرات سنة ١٩٤٩، وأصبحت زيادة عوائد النفط تمثل مطمحا متعاظما بصفة دائمة.

تم التوصل الى اتفاق بشأن العملات النادرة مع بريطانيا في شهر اب ١٩٤٩، وقد أفتتحت المفاوضات بعد عقد ذلك الاتفاق بمدة قصيرة لتمديده او تعديله. ومنح المصرف الدولي العراق قرضا جديدا جوهريا بالدولار في شهر تموز للأنفاق على انجاز مشروع الثرثار (٢٧).

---

(٢٦) لانعتقد أن تخلي اليهود عن جنسيتهم العراقية، عند صدور قانون اسقاط الجنسية عنهم في عهد هذه الوزارة، قد ترك فراغا في ميدان الأعمال التجارية والصيرفة، ذلك لأن مثل هذا الفراغ سرعان ماتم سده بالنازحين من النجف وكربلاء والناصرية والديوانية ومختلف انحاء الجنوب وكذلك الموصل، والذين حلوا محل اليهود في اعمال الصيرفة وصياغة الذهب والفضة ومخازن السلع الكبرى والخانات التي كان اليهود يديرونها في بغداد والتي سلموها الى الخدم والعمال الذين كانوا يعملون معهم فيها ومن بينهم هؤلاء قسم كبير من «الفيلية».

(٢٧) يقصد به مشروع سد الثرثار الذي اقيم على نهر دجلة في سامراء والذي كمل في سنة ١٩٥٤ وكان الهدف الأول من اقامة هذا السد الذي كلف في حينه ستة عشر مليون دينار، وهو وقاية بغداد من الغرق، واقامة محطة كهربائية عليه لتوليد الطاقة وقد تحقق الغرضان تماما، ولكن لم تتم الاستفادة من المياه الفائضة التي تتسرب عبر السد الى البحيرة الكبرى لأغراض الزراعة وماشا كلها.

وجدت وزارة السويدي وكذلك وزارة نوري السعيد التي اعقبتها في الحكم ان الوضع الحكومي العربي الداخلي اقل تماسكا مما كان عليه قبلا، فبالاضافة الى التصادم الاعتيادي في المصالح والمشاعر بين الدول العربية، كانت توجد مظاهر خاصة من الحيرة بشأن اقامة دولة اسرائيل وتوطيد اقدامها، وبشأن التصرف بالقسم الشرقي من فلسطين، والثورة ضد السلطة في سوريا (حيث وقع انقلاب ثالث في سوريا في اوائل ١٩٥٠ اطاح بالعقيد سامي الحناوي، وتنصيب اديب الشيشكلي مكانه) وتوتر العلاقات بين مصر وبريطانيا ذلك التوتر الناجم عن عدم جدوى المفاوضات التي جرت بينهما. ولم تتخذ اية خطوات حاسمة بشأن الوحدة مع سوريا سنة ١٩٥٠ وان كان رئيس وزراء سوريا قد زار بغداد خلال تلك السنة،وكان موقف العراق ينطوي دوما على الادعاء «بأننا مستعدون طالما كنتم انتم مستعدين».

كان السبب الرئيس لاضطراب مكانة العراق في جامعة الدول العربية ناجما عن مساندته للأردن الذي قام حاكمه بتبادل الزيارات الأخرى-غير أن هذه المساندة كانت محدودة عندما اشارت الدول الأعضاء في الأجتماع الذي عقدته الجامعة العربية في شهر نيسان الى المفاوضات المزعومة التي كان الأردن يقوم بها مع اليهود.

كانت مهمة ايجاد تبرير لضم ماتبقى من فلسطين الى المملكة الأردنية (وقد تبين بأن هذه الخطوة لا معدى عنها من الناحية العملية) من الأمور التي يصعب تسويتها بالرغبة المستطاعة في تهدئة عواطف مصر، ولذلك صوت توفيق السويدي، في اجتماع جامعة الدول العربية، على قرار يعلن بأن فلسطين يجب ان تكون ارضا مودعة تحت عهدة الجامعة العربية؛كما صوت في اجتماع اخر للجامعة عقد في شهر ايار،على قرار يعلن بأن تصرف الأردن في ضم القسم الشرقي من فلسطين اليه، يعد خرقا لهذا المبدأ الذي وضع على تلك الشاكلة. ومن ثم استطاع السويدي بكل مشقة ان ينجح في تأجيل القرار الذي اتخذته الجامعة العربية والداعي الى طرد الأردن من الجامعة نفسها،كما نجح في وضع صيغة مقبولة للمصالحة من لدن كل الدول الأعضاء ماخلا الأردن ذاته،والتأكيد على أن فلسطين، بعد تحررها سوف يتم التصرف بها وفق قرار جماعي من لدن الجامعة.

لم يكن التفكك بين الدول العربية اقل بروزاً بالنسبة الى الانضمام الى ميثاق الأمن الجماعي الذي اقترحته مصر في سنة ١٩٤٩، ولكن الميثاق او الحلف بقي غير مقبول من لدن العراق لعدة شهور، وذلك لأن الناطقين بأسم العراق لم يروا سوى قيمة ضئيلة في حلف لايشمل الاردن-غير أن هذا التصادم في الاراء والذي لم يتم حله حتى نهاية سنة ١٩٥٠،لم يمنع رئيس الوزراء العراقي من عرض تأييده الشفوي لمصر في كفاحها الدبلوماسي ضد بريطانيا.

اما بالنسبة الى (اسرائيل) فقد استمرت الوزارات العراقية المتعاقبة ترفض اي نوع من التفاوض معها، بل ان الوزارة القائمة كانت قد اعترفت مع ساسة اخرين غير متسامحين من

الدول الأخرى ، بأنها ترى تهديدا جديدا من الامبريالية في البيان الذي سوف يصبح اداة تحذير، والذي اصدرته كل من بريطانيا وأمريكا وفرنسا في اليوم الخامس والعشرين من شهر ايار ١٩٥٠ ، والذي عارضت فيه هذه الدول الثلاث ، استعمال القوة العدوانية من قبل اية دولة من دول الشرق الأوسط بما في ذلك اسرائيل ذاتها، وأنه لن يسمح بعد ذلك الا بتزويد الاسلحة الضرورية لكل بلد في الدفاع عن نفسه. ولقد وافق توفيق السويدي على ذلك البيان، مع ابداء تحفظات عليه افضى بها الى كل من سفيري بريطانيا وأمريكا[٢٨] .

وفي ميدان الشرطة تولى «علوان حسين» مدير الشرطة العام السابق ، القيادة مجددا ، في اعقاب ماقيل عن محاولة انقلاب قام بها «علي خالد» وادت الى طرده ، حيث استعادت الشرطة انضباطها وقوتها ، ولكن الجيش بقي غير راض عن التجهيزات التي توفرت له ، وعن قلة الشواغر المتوفرة لطلاب الكلية العسكرية في انكلترا ، وراح الجيش يحاول بكل اصالة ، تحسين كفاءته ، ويتطلع عبثا الى الحصول على المساعدة العسكرية الامريكية . ولقد قام القائد البريطاني العام في الشرق الاوسط بزيارة الجيش العراقي،كذلك شرع محافظو المحافظات ، بعد بداية بطيئة قبل سنة ١٩٥٠ ، يستعملون ، بصفة جدية ، السلطات المخولة لهم وفقا لقانون ادارة المحافظات ، والادارة الاقليمية ، بحيث اصبح من المؤمل ان تبرز فيما بعد ، صورة لمبادرة اكثر حيوية في توفير اموال اوسع .

كانت مظاهر الشيوعية المحلية ، اقل وضوحا ، وما ان ظهرت حتى تم القضاء عليها بعمل الشرطة ، ولكن حيوية الحركة الشيوعية كانت ماتزال واضحة في لهجة المقالات الصحفية ، وفي الشوارع ، والاجتماعات التي كانت تعقد في السليمانية ، وفي الخلايا النشطة غير المنظورة بشكل مؤقت بين عمال الموانئ ، والسكك ، والنفط. غير ان قوة الحركة الشيوعية الصامدة كانت تكمن بين هؤلاء العمال وبين الشبان السياسيين المتشددين المتذمرين الذين يئسوا من الاصلاح الاجتماعي للشعب ، ومن التقدم المفتوح امامهم انفسهم ، الا عن طريق الثورة ، اولئك الذين لم يعودوا يثقون ، بل الواقع انهم كان يمقتون كل الدول الغربية نتيجة السياسات التي طبقتها تلك الدول في فلسطين ، وبسبب مظاهرتها ومساندتها الواضحة لروح المحافظة ، حيث كان اولئك الشباب المتذمرون يدافعون عن سياسة الحياد الدولي الشديد ، ان لم يكن الانضمام

---

(٢٨) فات المؤلف او تغاضى عامدا عن قانون اسقاط الجنسية العراقية عن اليهود الذي شرعته وزارة توفيق السويدي، والسماح لهم بالسفر الى اسرائيل فلقدكان هذا القانون الموحي به حتما من قبل الدوائر الأستعمارية والذي شرعته بقية الدول العربية الأخرى اثر تشريعه في العراقمن اخطر المؤمرات التي شاركت بها الدول العربية مجتمعة ضد عروبة فلسطين وتشريد سكانها العرب الاصليين والتسهيل على اليهود احتلالها وتوسيع دولة اسرائيل حسب الاحلام التي ظل اليهود خلال قرون عديدة يحلمون بها، وهي دولة اسرائيل الكبرى من النيل الى الفرات.

الايجابي نحو الكتلة الروسية ، تلك السياسة التي كانت قوية في تخاطبها مع العناصر الواسعة ، بدلا من العناصر الشيوعية .

وحين ارغمت الحرب الكورية ، الدول العربية ، على ان تحدد موقفها ازاء المجموعتين العالميتين ، الشيوعية والرأسمالية ، سار العراق في اعقاب اكثرية دول الجامعة ، في تأييد مقاومة الدول الغربية ؛ لكنه لم يقدم ، مثل تركيا ، اية مساعدة عملية في هذا المضمار . فاذا كان مستطاعا وقف الغزاة الكوريين الشماليين فلماذا لايمكن وقف الغزو الصهيوني ؟

ومع ان مسألة الموقف الدولي الذي ينبغي اتخاذه ، كانت السبب الرئيس للانقسام في بغداد ، الا انه كانت توجد اسباب اخرى لذلك . تمت مجابهة مشكلة اليهود العراقيين الذين تجرأوا خلال السنتين ١٩٤٨ و ١٩٤٩ على الهرب من العراق الى اسرائيل ، وما اعقب ذلك من كثرة الهاربين،منهم بعد ان اوقف العمل بالاحكام العرفية ، عن طريق القانون الذي صدر في شهر اذار سنة ١٩٥٠ . فهذا القانون الذي هوجم بشدة في مجلس الاعيان ، قد سمح لليهود بالتخلي عن جنسيتهم العراقية ، ومغادرة العراق ، وان يعطي الحق لكل مهاجر بان يخرج معه مبلغ خمسين ديناراً من العراق[٢٩] .

وفي نهاية سنة ١٩٥٠ كان تسعون الف يهودي قد سجلوا اسماءهم لمغادرة العراق ، في حين بلغ عدد الهاربين قبلا عشرين الف . وكان نقل هؤلاء اليهود المغادرين،قد تم توفيره على يد احدى شركات النقل الجوي الامريكية التي كانت تتمتع بالاحتكار في ذلك الشأن، وذلك باتفاق سابق مع الوكالة اليهودية .

كان موقف الحكومة ، بعد ان وضعت هذه السياسة ، ينطوي على الالحاح على حصول المزيد من عمليات مغادرة اليهود ، والاسراع بها ، في حين كانت الاصوات الشعبية تتعالى وتسمع (ولكن من دون ان يؤبه بها بصفة رسمية) وهي تدافع عن انشاء معسكرات اعتقال لليهود الذين بقوا في العراق ، وطردهم . والحقيقة ان فقدان مركز اليهود بين طبقة الموظفين ، وحتى عندما تم التعويض عنهم بمشقة ، ولاسيما في دوائر البرق والسكك ، وذلك عن طريق جلب الباكستانيين ، وحتى في حالة تساوي الحقوق والفرص في ميدان التجارة ، فان البقية

---

(٢٩) لم يطبق هذا التحديد في اخراج اليهود للاموال الا بصفة ظاهرة فقد سبق لاكثرية الذين تخلوا عن جنسياتهم ان هربوا اموالهم الى اسرائيل والى غيرها من البلدان الاخرى عن طريق بلاد فارس في الدرجة الاولى . كما ان اليهود الذين اقدموا على مغادرة العراق قد باعوا كل ماكانو يمتلكون من اثاث وحوانيت وخانات ومنازل وحتى الاشياء التافهة من المواد باسعار متهاودة، وحولوها الى نقود جرى تهريبها عن طريق وكلاء وعملاء ، الى اسرائيل والى مختلف البلدان الغربية والشرقية الاخرى التي لجأ اليها اليهود بعد خروجهم من العراق ، وعلى الاخص بلاد فارس وتركيا وعن طريق هذه الاموال اليهودية المبيعة اصبح عدد كبير من الذين كانوا يعملون لدى التجار اليهود ، من اغنى الاغنياء في العراق ومن اعاظم التجار فيها في الفترة التي اعقبت خروج اليهود من العراق .

الباقية من اليهود ، لم تعد تتوقع مستقبلاً مشجعاً لها في العراق . ومع كل ذلك فضل بضعة الاف منهم ، البقاء في العراق كان من بينهم عدد من الاشخاص المبرزين المشهورين ، كما ان عددا كبيرا منهم الذين وصلوا الى فلسطين قد اسفوا اسفا مريرا لتغييرهم موطنهم .

في اليوم السابع من شهر اذار ، وفي اوائل حياة وزارة توفيق السويدي ، وقع حادث في مجلس النواب تمثل في استقالة جميع افراد كتلة النواب المعارضين لحزب نوري السعيد ، حزب الاتحاد الدستوري ، الذي كان في الواقع يحتفظ بسيطرته على وزارة السويدي ، وبهيمنته على مجلس النواب ، ولقد ذكر المستقيلون انهم قد فعلوا ذلك بواقع اليأس من المساواة البرلمانية الحقة ولقد كانت هذه الاشارة مدعاة للأسف لانها انهت كل ادعاءات الحكومة بشأن الاسس الحزبية . غير ان العطف الذي كسبه النواب المستقيلون لم يكن يعايش خصوماتهم الخاصة ، وانعدام الهدف المشترك فيا بينهم ، ولذلك فان الانتخابات التي اجريت في شهر حزيران لملء المقاعد الشاغرة في المجلس ، لم تأت باعضاء متجانسين(٣٠) .

لم تبق في مجلس النواب اية عناصر ملموسة للمعارضة فيا بعد تلك التي كانت قد مددت حياة هذه المعارضة لمدة سنتين او ثلاث سنوات ، غير انه لم يمكن الحفاظ بيسر داخل الوزارة ، على التوازن الثلاثي للقوى والمؤلف من رئيس الوزراء ، وانصار نوري السعيد ، وانصار صالح جبر . فقد كان من بين انصار صالح جبر اثنان من رجال الدولة سرعان ما اختفت مودتهما القديمة ، ولم تعد مساهمة صالح جبر في بناء الحزب يجري ذكرها الا قليلا .

وفي منتصف صيف ١٩٥٠ لم يستطع رئيس الوزراء الحفاظ على مركزه الا بمشقة. لقد كانت المشروعات المفضلة لديه هي : سن قانون جديد للصحافة الذي عرقل وزراؤه صدوره . وكان غياب عبد الاله ونوري السعيد في لندن ، ايذانا بتغيير الوزارة حتى الخريف ، ولكن توفيق السويدي ارغم على تقديم استقالته في اليوم الثاني عشر من شهر ايلول .

بعد مرور اربعة ايام على ذلك التأريخ اعلن عن تأليف نوري السعيد وزارته الحادية عشرة ، ولقد وجد نوري السعيد حتى في تأليف هذه الوزارة نوعا من الصعاب التي عاناها توفيق السويدي قبله ، في الملاءمة بين الشخصيات كل حسب قيمتها ، ولذلك فان نوري السعيد لم يشرك معه في وقت متزامن لا توفيق السويدي ولا صالح جبر ، وانما فضل في تلك اللحظة ان يقنع بهيكل الوزارة التي اقترح بان يعززها ويوسعها ، اذا ماسنحت الفرصة لذلك ، في صفة وزارة حقيقية للوحدة الوطنية ، كما اعلن عن نيته في انجاز الاعمال الاقتصادية والادارية الملحة .

---

(٣٠) استقال نواب المعارضة عند عرض قانون اسقاط الجنسية العراقية عن اليهود على المجلس. ولما كانت استقالاتهم تلك لم تعرض على المجلس بعد، فقد اوفدت المعارضة بعض نوابها الى المجلس عند انعقاده لمعارضة القانون المذكور.

ومع انه قد وضع منصب وزير الداخلية في يده فقد عين شاكر الوادي لوزارتي الدفاع والاشغال . وعبد الوهاب مرجان للمالية .

وعهد بوزارات العدل والتربية والشؤون الاجتماعية والاقتصاد بالتوالي الى كل من حسن سامي تاتار ، وخليل كنة ، وماجد مصطفى ، وضياء جعفر . ولكن غدا واضحا في وقت مبكر ان التصادم مع انصار صالح جبر قد اخذ بنسع .

ولذلك اقدم هذا الاخير،اي صالح جبر ، الذي كان كثير من المراقبين يعتبرونه هو الخليفة المطلق الذي يخلف نوري السعيد ، على تأسيس حزبه المعروف باسم «حزب الامة الاشتراكي» في اوائل سنة ١٩٥٠ (٣١) وكان هذا الحزب مولفا من مجموعة من العناصر المحافظة على الرغم من اسمه الذي اسيء اختياره بصفة فردية . ومع ان هذا الحزب كان حزبا شخصيا لمؤسسه صالح جبر على نطاق واسع ، الا ان تأسيسه قد نظم على اسس شيعية ، وكان يتطلع الى مساندة الاكراد (٣٢) كذلك انضم «حزب الاصلاح» الذي اسسه سامي شوكت الى حزب صالح جبر هذا،وفي الوقت ذاته اخذ قادة المعارضة من مختلف الميول من امثال طه الهاشمي ، ومزاحم الباجة جي ، ورضا الشبيبي ، وصادق البصام ، يتجهون سوية نحو «حزب الجبهة الشعبية» الهش والمؤثر في ذات الوقت ، والذي اعلن عن تشكيله بمنهاج غامض في اواسط سنة ١٩٥٠ (٣٣) .

كان الحزب الوطني الدمقراطي قد استأنف نشاطه الكامل في سنة ١٩٥٠ ، ومع ذلك فالظاهر بانه لم يكن هنالك من سبب كان يجعل نوري السعيد ، باغلبيته البرلمانية وسلطته الشخصية التي تجاوزت في السنوات السابقة كل ماكان يتمتع به اي عراقي آخر ، بان لايخضع للتغييرات وللفرص غير المنظورة ، وان يبقى في الحكم طالما كانت صحته وطبيعته القلقة تسمحان بذلك . ففي الايام الاخيرة من سنة ١٩٥٠ جاء نوري السعيد بعمر نظمي ، ومحمد حسن كبة ، وصادق البصام الى الوزارة بمثابة وزراء بلا وزارة ، في حين عين عبد المجيد محمود مدير المصرف الزراعي العام وزيرا للاقتصاد ، ونقل ضياء جعفر الى وزارة الاشغال ، وابقى عبد الوهاب مرجان في وزارة المالية ، ومع كل ذلك فلم تتم اية وحدة حقيقية ، ولم تظهر السياسات الداخلية

---

(٣١) تأسس حزب الامة الاشتراكي في ٢٠ حزيران ١٩٥١ . وليس في اوائل ١٩٥٠ كما ذكر المؤلف ذلك خطأ وكانت هيأته المركزية مؤلفة من صالح جبر وعبد المهدي وعبد الكاظم الشمخاني ، وجواد جعفر ، ونظيف الشاوي ، وحنا خياط ، ومحمد القبب واحمد الجليلي وحبيب الطالباني وعز الدين القبب وعبد الرزاق الازري .

(٣٢) هل كان صالح جبر وزمرته من ابناء طائفته مسانداً للحركة الاقتصادية الكردية . ام كان لهم قصد آخر؟

(٣٣) تأسس حزب الجبهة الشعبية ٢٦ ايار ١٩٥١،وكان كامل الجادرجي من بين الجماعة الذين ارادوا الانضمام الى الحزب المذكور قبل اجازته .

اي دليل على الترفع عن الخصومات المعتادة بين الشخصيات المتناقضة .

واجهت نوري السعيد في وزارته هذه سلسلة شاقة من المشاكل المستعصية داخل البلاد العربية وفي الميدان الدولي . اضافة الى المشاكل السياسية والمالية . غير ان ايا من هذه المشاكل لم يكن اكثر وضوحا للعيان،من مشاكل اسرائيل واللاجئين الفلسطينيين ، وتعديل معاهدة ١٩٣٠ . وضمان الحصول على ارباح اوسع من النفط ، ولذلك وجدنا هذا السياسي المقتدر يتحول الان الى هذه القضايا .

اكمل الملك فيصل الثاني . الذي صادف تأريخ ميلاد الخامس عشر في اليوم الثاني من ايار سنة ١٩٥٠ . ايام دراسته التحضيرية في انكلترا ، فاصبح منذ ربيع سنة ١٩٤٩ طالبا سعيدا وناجحا في كلية «هارو»،وكان من المقرر ان يتم تتويجه في اليوم الثاني من شهر ايار سنة ١٩٥٣ . ولقد حصلت العائلة المالكة العراقية على منزل لها على مقربة من «ستينس» في انكلترا ، حيث امضت الملكة الام «عالية» معظم السنة هناك ، ومع ذلك فقد اخذت صحتها تسبب القلق منذ سنة ١٩٤٩ . وبعد المرض الطويل الذي الم بها ، والعملية الجراحية التي اجريت لها ، اعيدت الى بغداد حيث توفيت فيها في شهر ايلول سنة ١٩٥٠ ، ولم تكن قد تجاوزت التاسعة والثلاثين من عمرها . وكانت وفاتها خسارة لابنها الملك ، ولاخيها المفضل لديها الوصي عبد الاله[٣٤] .



(٣٤) توفيت عالية بالسرطان في صباح اليوم الحادي والعشرين من كانون الاول ١٩٥ ، واحتفل في اليوم التالي بدفنها في المقبرة الملكية في الاعظمية وقد حضر الملك عبد الله حفلة التشييع ، واقيمت «الفواتح» على روحها في عدة اماكن في بغداد .

٤. ثروة الامة

وردت في الصفحات السابقة اشارات الى الوضع الخطير لمالية الدولة خلال الفترة ١٩٤٧ – ١٩٤٩، والى استعادة ذلك الوضع لمركزه بصفة جوهرية، حيث تحقق ذلك في نهاية سنة ١٩٥٠. فقد غدا متوقعا بعد ذلك التاريخ المتأخر، بان الموارد الموضوعة تحت تصرف الحكومة، سوف تكون – مادامت بعيدة عن الضائقة المالية – اكثر وفرة في المستقبل، ليس للاغراض الاعتيادية للخدمات العامة بالشكل الذي كان ينظر اليها به قبلا حسب، بل لوضع منهاج موسع للتنمية، على شرط ان تظل الرقابة على الصرف كافية، مثلما كانت عليه قبلا (ما خلا سنة ١٩٤٨) ذلك لانه لا يوجد سبب يدعو الى الشك في هذا الامر، لان قابلية اشخاص الحكومة وكفاءتهم لم تنحط، ولان الجهود قد بذلت لاكمال تخصيص وجمع المصادر الرئيسة الاعتيادية للايرادات، من امثال الكمارك والمكوس، والضرائب على السلع الطبيعية، واحتكار التبوغ، وضرائب الملكية والدخل، والتي ماتزال متواصلة، وذلك عن طريق الاستعمال الكامل للسجلات، والاسس الفنية، ومشورة الخبراء المتحسنة.

ولقد غدا مستطاعا، حتى على حدة من عوائد النفط الذي يجري تصديره، ان يعتبر وضع الخزينة بانه لن يثير القلق مرة اخرى. فمن بعد هذه الفترة يجب ان يعقب ذلك الاقدام على تسديد ديون الحكومة وقروضها، وتهيئة السكن الجيد، ومرتبات الادارة ذاتها، واحتمال توسيع التجميد في الخدمات الاجتماعية.

لقد خصصت من تخمينات ميزانية سنة ١٩٥٠ – ١٩٥١ خارج نطاق الانفاق الاعتيادي البالغ مقداره اربعة وعشرين مليون دينار، نسبة تبلغ ثلاثين في المائة للجيش، وللقوة الجوية العراقية، وست عشرة في المائة للتعليم، وثلاث عشرة في المائة للادارة العامة، واحدى عشرة في المائة للشرطة، وثماني في المائة للخدمات الصحية، واثنتين وعشرين في المائة لكل الدوائر والوظائف الاخرى. ولقد قدرت الاموال المخصصة للانفاق على الاعمال الكبرى في تلك السنة باقل من اربعة ملايين دينار.

كانت الايرادات من اعظم مصدر مفرد لثروة البلاد، ونعني بها منابط النفط وصناعة استثمارها، يجري تخصيصها منذ بداية ظهورها بصفة اعتيادية، لغرض التنمية العامة. ولقد

عززت هذه القاعدة، التي كان يجري خرقها في الايام العسيرة، بانشاء مجلس الاعمار الذي اسس في سنة ١٩٥٠، وفقا لقانون كان يقضي بان تحول الى مجلس الاعمار كل الايرادات الناجمة عن النفط(*) ذلك ان هذه الايرادات التي بلغت اقل من اربعة ملايين دينار في سنة ١٩٥٠، سوف تصبح، كما هو واضح، اكثر من ضعف، بل اربعة اضعاف ذلك المبلغ في السنوات المقبلة[1].

ولقد ابطل العمل بقاعدة تقسيم تخمينات موارد الدولة الى ميزانية اعتيادية، واخرى للاعمال الرئيسة بانشاء مجلس الاعمار.

لقد ظهر بان مجلس الاعمار الذي كان بعض العراقيين يمقتون وجوده على اساس انه يمثل حكومة داخل الحكومة[2] قد غدا ينظر اليه من قبل الاخرين، ومعظم المراقبين الاجانب بانه يوفر الامل في الاستمرار، والكفاءة، والتحرر من الاعتبارات السياسية التي لم تكن موجودة قبلا الا بصفة نادرة(*). فقد كان المجلس يتألف انذاك من ثمانية اعضاء، من بينهم رئيس الوزراء ووزير المالية الموجودين انذاك، وستة اعضاء من غير الموظفين الذين يتلقون المرتبات، تعلن اسماؤهم بارادة ملكية ويمكثون في الوظيفة خمس سنوات. وكان من المقرر ان يكون ثلاثة من هؤلاء الاعضاء الستة من الخبراء في شؤون المالية والري، واخر لم يحدد ميدانه. وطبقاً لذلك ازداد العداء الموجه ضد الاجانب، عندما تم استخدام سكرتير بريطاني عام للمجلس، وخبير مالي بريطاني هو السرملر ومهندس امريكي للري.

(*) عدل هذا التحديد في سنة ١٩٥٢ بتعديل التشريع الذي كان يشترط منح مجلس الاعمار سبعين في المائة من عوائد النفط، وتخصيص ثلاثين في المائة منها للايرادات العامة، وهو اجراء كان يسمح بصفة حكيمة، بتعويض السلطات الاقليمية حق القيام بمشاريع تنمية وخدمات صغيرة.

(١) تحدث الي المرحوم الدكتور نديم الباجه جي وزير الاقتصاد والذي لا انسى فضله، في صيف سنة ١٩٥٦ عندما سألته عن الاسباب التي دفعت الحكومة الى رفض العروض التي تقدمت بها «شركة الخليج الامريكية» لاستثمار موارد الكبريت في العراق، وقد رد على ذلك السؤال بقوله «انا بعد اربع سنوات من الان، سوف لا نعرف اين ننفق موارد النفط. ذلك لان معظم المشاريع التي خططها مجلس الاعمار، سوف تكمل خلال تلك الفترة، ولن نحتاج بعدها الى مشروعات اوسع يحتاج للانفاق عليها، وعلى هذا فاذا ما تأخرت الموارد المتوقعة من استثمار الكبريت الان فان ذلك لن يؤثر في الوضع الاقتصادي الجيد للبلاد خلال السنوات القادمة.

(٢) كان مجلس الاعمار يتمتع، خلافا لاية مؤسسة حكومية اخرى، بامتيازات فيما يخص تعيين الموظفين والمرتبات والمخصصات فيه. ومن بين هذه الامتيازات حق المجلس زيادة مرتبات المستخدمين لديه دون الرجوع الى استحصال موافقة مجلس الوزراء على ذلك ولطالما اعترض ديوان الرقابة المالية العام على ذلك ولكن من دون ادنى نتيجة.

(*) ومع ذلك فان مجلس الاعمار سرعان ماتعرض للهجوم من قبل بعض الصحف غير المسؤولة والمتجنية دوما لانه اخفق في ان يرفع خلال اسابيع قلائل، من مستوى معيشة الجماهير».

استطاع مجلس الاعمار الذي كان ارشد العمري يمثل الشخصية البارزة فيه، في سنة ١٩٥١. ان يضع له منهاجا لمدة خمس سنوات. وان يخصص مبلغ مائة وخمسة وخمسين مليون دينار عراقي لانفاقه خلال تلك المدة(٥). ولكن سرعان ما غدا واضحا بعد ذلك مباشرة، بان الايرادات المخصصة لذلك سوف تكون متوفرة. وفقا للتعديل الذي ادخل على اتفاقات النفط (٣).

اصبح جليا للجميع في هذه المرحلة ان تأكيد الحصول على هذه الايرادات الفائضة التي سوف تتحقق في حينه، اذا لم يحدث تصرف انتحاري احمق، او كارثة خطيرة، سيكون – بشكل يمكن الاعتماد عليه خلال سنوات كثيرة مقبلة، اداة لتحول اقتصاد العراق، ومعدل التطور فيه. والحقيقة ان تاريخ العراق من سنة ١٩٥١ وما بعدها، ينبغي ان يعتبر تاريخ بلاد كانت تؤيد بصفة استثنائية كل ما كان يتعلق او ينبع من المصادر تحت تصرف حكومته. بقيت الآفة التي تشكو البلاد منها طيلة قرون عديدة تتمثل في الفقر. وبفضل اكتشاف النفط واستثماره اصبحت البلاد الان تقف على عتبة من الثروة الوفيرة، ولابد لهذه الثروة الى جانب بركاتها، ان تصاحبها المسؤوليات. وان تجلب الكوارث والمخاطر الاخلاقية والاقتصادية معا(؟؟).

كان الميزان التجاري المباشر للبلاد، والذي مايزال وخاؤه المقبل امرا مشكوكاً فيه فعلا، ما يزال حتى سنة ١٩٥١ يبرز النقص المعتاد فيه. ولقد تم سد هذا النقص جزئيا عن طريق سحب ما تبقى من احتياطي الاسترليني الذي توفر خلال الحرب من ناحية، وبالمواد غير المنظورة من ناحية اخرى، على غرار ما كان عليه الامر في الايام السالفة. وكانت استيرادات البلاد على الدوام، وبصفة رئيسة، تتألف من المنسوجات القطنية والصوفية، والحريرية، والالات والسلع الكهربائية والسيارات، والشاي والقهوة، والسكر، والمواد الكيمياوية والسمنت والاخشاب.

وكانت بريطانيا توفر نصف هذه المواد تقريبا، بالاشتراك مع الهند وامريكا وبلجيكا باعتبارها هي البلدان المصدرة الرئيسة، وعلى نطاق اقل كانت هناك مواد تستورد من ايطاليا وهولندا وفرنسا، في حين اختفت كل من المانيا واليابان من قائمة البلدان التي كانت تجهز العراق بمواد. اما الصادرات التي لم يحدث تطور البلاد، سوى تغيير طفيف فيها طيلة سنوات عديدة،

• كان القرار الذي اتخذ في سنة ١٩٥١ يقضي بتخصيص (بالاف الدنانير) ٩٣٦٤ لسنة ١٩٥١، و ٢٠٤٦٠ لسنة ١٩٥٢، و ٢٨٣٩٠ لسنة ١٩٥٣، و ٣١٦٠٠ لسنة ١٩٥٤، و ٣٢٣٣٥ لسنة ١٩٥٥، و ٣٣٢٢٥ لسنة ١٩٥٦

(٣) بدأت مفاوضات الحكومة العراقية مع شركات النفط العاملة في العراق لتعديل الامتيازات الممنوحة لها منذ اوائل شهر تموز سنة ١٩٥٠ حيث صدر بيان عن تلك المفاوضات في اليوم العاشر من شهر اب ١٩٥٠ والحقيقة ان العراق قد استفاد من الحركة التي اقدم عليها الدكتور محمد مصدق رئيس وزراء بلاد فارس الذي اعلن تأميم النفط في بلاده، فسرعان ما وافقت الشركات العاملة في العراق على تقبل مبدأ المناصفة في الارباح. وعندما اثيرت في البرلمان ضجة حول المطالبة بتأميم النفط رد نوري السعيد على المطالبين بان العراق سوف يحصل على اكثر من نصف الارباح اذا ما حصل اي قطر اخر في المنطقة على مثل ذلك المقدار.

فقد بقيت تتألف في الغالب بشكل قاطع من منتجات العراق الزراعية والطبيعية. فقد بلغ مقدار الشعير الذي يجري تصديره سنويا بمعدل ربع مليون طن، وكان يتم شحن الحنطة بالبواخر بصفة عرضية، وبدون انتظام، ومع ذلك فلم يصدر منها شيء على الاطلاق خلال الفترة ما بين ١٩٤٠ و ١٩٤٩، في حين كانت الذرة والشوفان والبذور الزيتية (بذور القطن والسمسم، والكتان) متوفرة في العادة ولكن بكميات قليلة.

ولغرض تنسيق الصلاحية المتعلقة بتصدير كل صادرات القمح، فقد تم انشاء «مجلس الحبوب» التابع للدولة[٤] والذي كانت تعمل الى جانبه شركة التصدير والاستيراد الزراعي... ولقد بلغت صادرات التمور مستوى سنويا مهما: هو ربع مليون طن، من التمور التي تم تصديرها الى اكثر من اربعين بلدا. واختفى القطن من قائمة الصادرات بعد سنة ١٩٤١، لكنه ما لبث ان اخذ يزحف الى هذه القائمة في سنة ١٩٤٧. اما المواد الاخرى ذات الحجوم الصغيرة من الصادرات، فكانت تتألف من المواشي التي كانت تساق الى بلدان المشرق، في حين كان الصوف يصدر الى كل من فرنسا وامريكا: والقرون، والجلود، والصمغ والعفص، كانت ترسل الى بلدان مختلفة.

وكانت الآمال المعقودة على احتمال اضافة التبوغ الى قائمة الصادرات، تعتمد على التحسن في هيكل وانتاج التبوغ المحلية[٥]. وكان ايجاد طرق جديدة للتجارة الدولية يجري البحث عنها باستمرار وفق مبادرات عراقية او اجنبية. ولقد جرت خلال السنوات ١٩٤٥ — ١٩٥٠ اتصالات مع الهيئات التجارية الاهلية والحكومية في ايطاليا ويوغوسلافيا. وبلجيكا، واسبانيا والباكستان واليابان. ولكن على قياس لا يمكن ان يقارن بما كان عليه قبل جيل مضى، وبامل ضئيل في الزيادة، واستعملت كل من تركيا وبلاد فارس الطرق المارة عبر العراق لتصدير كميات قليلة من سلعها.

كان المظهر العام لتجارة العراق الخارجية في نهاية سنة ١٩٥٠ في نطاق، يعتبر من باب المفارقة. حقيرا في كميته وقيمته بالنسبة الى حجم القطر وامكانياته. وقد عكس ذلك النقص والتخلف الحاصلين في الزراعة بصفة متواصلة. وتضاؤل ونقص الموارد الطبيعية القابلة

---

(٤) المقصود به «لجنة تنظيم الحبوب» التي حولت الى مجلس الحبوب فيما بعد.

(٥) استقدمت الحكومة في اواخر سنة ١٩٥٤ خبير امريكيا في التبوغ يدعى «جارلس بنت داردن» عمل في مديرية انحصار التبغ ولما كنت قد عينت في تلك السنة مترجما في المديرية المذكورة فقد كنت اصحب ذلك الخبير في جولاته واسفاره. ولقد قام بجولات مكثفة في مختلف المناطق التي تزرع التبوغ فيها، ثم قدم تقريرا الح فيه على ضرورة بناء مخازن حديثة لخزن التبوغ، وقد نفذت هذه التوصية حيث اعلنت المديرية في اوائل سنة ١٩٥٦ مناقصة عامة لانشاء هذه المخازن اشتركت فيها عدة شركات اجنبية، وبنتيجة ذلك فازت احدى الشركات الايطالية بعقد انشاء تلك المخازن التي بنيت في بغداد في كركوك والسليمانية وكويسنجق والموصل وغيرها.

للتسويق، ماعدا النفط. على ان العصر الجديد للتطور المتزايد الذي كان يتوقع ان يبدأ تاريخه في سنة ١٩٥١ لم يتحقق، واخفق على وجه التاكيد في ان يؤثر في ذلك التطور، وان يزيد من تحقيقه، وقدرته على الامتصاص.

كانت المصارف الاجنبية والعراقية، وكذلك الصيارفة الذين تناقص عددهم بخروج اليهود من العراق، تعرض الخدمات الاعتيادية للتجارة في مجال الائتمان والخصم. وكانت تسهيلات التأمين تمنح من لدن فروع او وكلاء لشركات تأمين بريطانية عديدة، وعلى هذا الاساس كان تأسيس شركة تأمين وطنية تقوم بكل هذه الاعمال قد صمم في سنة ١٩٥٠ حسب اسس وطنية ترمي الى تقليص الاعتماد الاقتصادي على العالم الخارجي.

بقيت العملة التي اشرف المصرف الوطني منذ شهر تموز ١٩٤٩ [٦] على اصدارها وادارتها، ممثلة بالدينار الذي كان يقوم على اساس قاعدة الاسترليني، وهي الكتلة التي كان العراق ينتمي اليها. غير ان ذلك لم يخل من حركة او صراخ انطلق من بعض الاقتصاديين او القوميين الذين كانوا يؤيدون الانفصال عن كتلة الاسترليني [٧].

كان لابد من ان تظل الزراعة تؤلف المصدر الرئيس للبلاد، وكانت الزراعة ماتزال تعتبر وظيفة الحياة لاكثر من ثلثي السكان. ولقد اشرنا في الصفحات السابقة الى المشاكل الجوهرية التي كانت تبذلها تلك الدائرة الصغرى [٨] لحل تلك المشاكل. غير انه لم يصنع سوى الشيء الضئيل لتعديل الممارسات القديمة الواسعة في القطر، ولمعالجة الجهل، ونقص الكفاءات، ودرء الاخطار. ولكن ببروز نصف قرن يمر على قيام الحكومة العراقية، كانت تلوح في الافق، عوامل مشجعة كثيرة. فلقد تمت دراسة المشاكل، واصبحت الاهمية الاقتصادية والاجتماعية. لاقامة ريف ينعم بالرخاء،وارتباط هذا الامر بالامن وبالسياسة، من القضايا التي يجري تثمينها.

اجتذبت الزراعة العصرية اهتمام وجهود قسم من المثقفين، واصحاب رؤوس الاموال من الجمهور. فلقد وجد عدد من الاشخاص الذين اخذوا يفضلونها حتى على السياسة. وكان شيوخ العشائر والاقطاعيون الساكنون في المدن، يشاهدون هنا، وهناك، يعملون على ادخال الالات الحديثة في استثمار مقاطعاتهم الزراعية، والتخلي عن الطرق القديمة، والمشاركة مع العلماء الذين

---

(٦) المقصود بذلك المصرف المركزي.

(٧) كان خروج العراق من كتلة الاسترليني من المطالب الرئيسة التي حققتها ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ في الايام الاولى من قيام الجمهورية، علما بان العراق كان قد تسلم كل ما توفر له لدى كتلة الاسترليني من عملات نادرة خلال الحرب الثانية.

(٨) المقصود بذلك «مديرية الزراعة العامة» التي كانت تنهض بتطوير الزراعة واستصلاح الاراضي وما شاكل ذلك. وكانت نجاحاتها في هذا الميدان اوسع بكثير جدا حتى بعد ان قامت في مكانها وزارتان منفصلتان في اول الامر هما «وزارة الزراعة» و «وزارة الاصلاح الزراعي» اللتان ما لبثتا ان ادمجتا بعد ذلك في وزارة واحدة هي وزارة الزراعة والاصلاح الزراعي.

كانوا يقومون بالتجارب بصفة مشوقة. ولم تتم تجربة انتاج انواع جديدة من الحاصلات، ولكن قوة المضخات المستعملة في الارواء، ونطاق بنائها، كان قد تضاعف بصفة ظاهرة. يضاف الى هذا ان ادخال الالات في الزراعة، قد قلل الاعتماد على العمل الفردي الذي يقدمه الفلاحون الذين كانوا يشتركون في الحاصل. لم يعد مشروع اللطيفية هو المشروع الوحيد للمقاطعة الزراعية العصرية ذات النطاق الواسع القائم في ميدان العمل. ذلك ان مجلس التمور[9] الذي عمل الشيء الكثير لادخال الطرق العصرية وتوطيدها في ميدان انتاج التمور وتسويقها، والتي لم تقتصر على تمور شط العرب وحدها، ان هذا المجلس هو الذي كان يتولى احتكار تصدير التمور، بعد ان ادخل تعديل مناسب على الشروط والاسعار اثناء الحرب وما بعدها. غير ان فترة التمديد البالغة ثلاث سنوات والتي منحت الى شركة اندرو ير في سنة ١٩٥٠، كان ينظر اليها بانها يجب ان تكون هي الاخيرة. وفي تلك السنة ذاتها تم تأسيس الشركة الوطنية لتجارة التمور حيث افترض بان تكون تلك الشركة هي التي تحتكر تصدير التمور. وقد خصصت ٤٩ في المائة من اسهم هذه الشركة لجمعية التمور و ٢٦ في المائة للجمهور، و ٢٥ في المائة للاجانب الذين يقومون بتصدير التمور وكبسها.

احتفظت الحكومة بمدرسة الزراعة التي كانت فترة الدراسة فيها ثلاث سنوات، وضمت اليها مقاطعات زراعية تجريبية في منطقة «ابي غريب» (وذلك لتطبيق اصول الفلاحة وتربية الحيونات، ومكافحة الحشرات، واصلاح التربة)، كما انشئت مزرعة الزعفرانية (للبستنة، والفواكه والخضراوات) بالاضافة الى انشاء محطات زراعية على نطاق اصغر في كل من «بكرهجو» والحويجة، ونينوى، واسكي كلك والبصرة، ومحطة رئيسة للغابات في اربيل، ومشاتل في كل محافظة من المحافظات.

ولقد تم اعداد الخبراء لهذ المزارع واختيارهم، واصدار انواع جديدة من البذور صمم استعمالها لغرض رفع نسبة المنتوج ونوعيته، ومدى مقاومته، ولمكافحة الحشرات، وعلى الاخص لتنظيم حملات مكافحة الجراد بالطرق الفنية التي جعلت العراق يدعى بانه يتفوق على العالم في ذلك، الامر الذي ادى الى انشاء «سايلو» للحبوب في بغداد، ووضع الخطط لانشاء اخرى امثاله اكثر سعة في البصرة، مع اقامة مخازن حديثة لخزن الحبوب فيها في مراكز كثيرة.

كانت الدائرة الزراعية في ارتباط مع الصناعة المحلية التي تستطيع ان تستعمل الحاصلات العراقية من البذور الزيتية، والقطن، والتمور، والشعير، وقصب السكر، والصوف، والتبوغ في صفة مواد خام. كذلك وضعت الخطط للمبادرة بتجارب على نطاق اوسع لادارة المزارع،

---

(٩) يقصد بذلك جمعية التمور التي كان مقرها البصرة.

وللبحث عن دورات للحاصلات تقلل من استعمال النظام الدوري في الزراعة الذي اصبح الان يعتبر مضيعة بصفة متواترة .

ولذلك تم تشجيع انشاء التعاونيات ، وفقا للقانون الصادر في هذا الشأن سنة ١٩٤٤ ، وزيادة دوائر التفتيش فيها ، وتأسيس غرف للزراعة. ولقد اهتمت هذه الخطط ذاتها بالتعليم الريفي ، وتأسيس المدارس الزراعية في كل محافظة وتشجيع التوطن في القرية ، كما تم توسيع مشروع الدجيلة المهم والمشجع للامال ، والذي كان يقوم على اساس المجموعة التي تمتلك قطعا صغيرة من الاراضي ، واكماله ، كذلك بوشر بانشاء مشاريع اخرى في منطقة الحويجة وفي اي مكان اخر .

خصص مجلس الاعمار في سنة ١٩٥١ اكثر من اربعة ملايين دينار لتوفير الآبار الارتوازية ومياه الشرب. كذلك تعاظم استعمال الالات الزراعية في الريف عن طريق انشاء نظام لتهيئة مستودعات للالات ومشاغل للتصليح عبر الريف ، تدار حصراً من قبل الحكومة وفقا لقانون خاص بذلك ، مع انشاء مديرية عامة لهذه المشاريع. والحقيقة ان كل الاهمية التي اعطيت للمكننة ، حتى مع وجود الصعوبات الجديدة لاعمال الصيانة الصحيحة وللتموين ، قد جرى تقييمها على اساس انها تؤلف جزءا من مستقبل الزراعة العراقية التي كانت تستطيع — بوجود المناطق الجديدة الواسعة التي تخضع للارواء المسيطر عليه — ان تحقق ليس الارض والماء حسب بل وحتى اليد العاملة ، وتعتبرها العامل الرئيس المحدد لها .

اعطي الاهتمام لزيادة الحيوانات ولتحسينها ، حيث خصصت لذلك مناطق واسعة من الريف. ولقد تم استيراد الثيران من انواع «ابرشير» و «فرايسن» وتم توزيعها ، كما بيعت اكباش من قطيع مختار الى الزارع الذين يعتمد عليهم ، وانجز بناء المختبرات الخاصة بالاصواف. ومع كل ذلك فقد وضعت اسس اخرى من التقدم ، كان من بينها انشاء معامل للالبان ، وبدء التجارب لانتاج الجبنة ، وتربية انواع محسنة من البغال والحمير ، وزيادة انتاج البيض ، وذلك عن طريق ادخال التحسن في تربية الدجاج .

كانت المبالغ التي خصصها مجلس الاعمار للسنوات الخمس المارة خلال الفترة ١٩٥١ — ١٩٥٦ ، قد بلغت زهاء مليوني دينار للانفاق على البحوث الزراعية ، وثلاثة ملايين ونصف المليون من الدنانير لمشاريع الاستصلاح ذات النطاق الصغير ، ومليون دينار لاستصلاح المستنقعات ، ومليون وربع مليون دينار لتربية الحيوانات. ولقد تحققت الحاجة التي اهملت قبلا الى تطبيق الاجراءات القاضية بالتفريق بين تربية الحيوانات وانتاج الحاصلات ، وانه يقتضي تشجيع الجهود الفردية الضرورية الواسعة في ميدان الزراعة ، والري ، والتعليم الريفي ، وتسوية الاراضي ، وتوفير الرأسمال .

ولقد غدا محققا بان سني الخمسينات قد بدأت، اذا ماتعزز مثل هذا الجهد ولم تقع اية نكبة عامة، تفتح الطريق والمطامح امام تطور زراعي في هذه البلاد الواسعة المفضلة، وضمن حدود مثبتة بشكل مطلق، من مياه انهارها وامطارها، وان ذلك سوف يتجاوز ليس التطور الموجود في اي من بلدان الشرق الاوسط حسب، بل وحتى اي بلد من ذات المساحة في العالم، ذلك لان زراعة المواد الغذائية وتوفيرها للامم غير المحظوظة سوف تبرهن في الواقع على ان العراق يستطيع ان ينهض بالدور الرئيس في المساهمة المادية للانسانية!.

وفي مجال العناية بالغابات، لم ينجز اي شيء خارج حدود الدراسة والتجربة، وانشاء مشاتل للاشجار، ومازال مناطق واسعة ومهملة من شمالي العراق، غير مزروعة وغير مستصلحة، وينقصها سن تشريع عصري بشكل واضح للغابات، واعداد موظفين متدربين على العناية بالغابات، بل ويعوزها حتى الكتشف التفصيلي على المواقع التي يمكن ان تنشأ الغابات فيها. والحقيقة ان بعض الخطوات قد اتخذت لتوفير الوقاية من الحرائق، وانجاز اول الكشوف عن الغابات، باستخدام الطائرات العمودية، والتصوير الجوي. ولكن لم يكن مستطاعا الحيلولة دون قطع الاشجار الا بصفة قليلة، لان الغابات لاتخضع للرقابة، وبسبب الرعي فيها واجتياحها على الدوام من قبل القرويين. ولقد خصص مجلس الاعمار مبلغ مليون دينار لتطوير الغابات خلال السنوات ١٩٥١ – ١٩٥٦، وتمت دراسة اهمية مثل هذه الخطط والمناطق بالنظر الى تآكل التربة، وترسبات الغرين، وفيضانات الانهار، حيث اعدت الخطط عن هذه القضايا والامور المتعلقة بها،غير انه لم تطبق سوى البداية لحل هذه المشاكل، والتحرك نحو العمل الواسع الذي ينبغي ان تشتمل هذه البداية عليه، وان توفر لجمهور العراقيين مصادر للوقود، وللاخشاب، وذلك امر لم يكن متوفرا في ذلك الوقت.

ومع ان صيد الاسماك من البحر، والذي وضع على اساس الصيد في شط العرب، لم يكن سوى مورد محدود، فان انهار البلاد واهوارها كانت مصدرا لصيد الاسماك التي كانت تقدر بالاف الاطنان في كل سنة، حيث كان تصدير الاسماك الى سوريا ولبنان، وعلى الاخص الى اليهود في فلسطين، يعتبر من الامور الاعتيادية ابتداء من سنة ١٩٣٢ حتى منتصف فترة الحرب العالمية الثانية. لقد كان متوقعاً – نتيجة البحث وايجاد سلطة مسؤولة لم توجد قبلا – ان يزداد انتاج الاسماك في الوقت الحاضر بصفة واسعة. اما تطوير مصائد الاسماك، فقد وجد منذ سنة ١٩٤٨ سبيله الى المناهج الوزارية، حيث تم في سنة ١٩٥٠ تسليم سفينة صيد لاستخدامها في مداخل مياه شط العرب، كما شرع بانشاء مخزن للاسماك على حساب المصرف الزراعي.

كان تأريخ الري في العراق من سنة ١٩٤٦ الى سنة ١٩٥٠ يعتبر تأريخ اتصال سريع، بل وحتى تأريخ انجاز جزئي للمطامح المرغوب فيها منذ امد بعيد، وذلك عن طريق ايجاد مصادر

جديدة للثروة، ولذلك اصبحت هذه المطامح في سنة ١٩٥١ قابلة للتطبيق. وكانت الدعوة الى اتخاذ اجراءات بطولية اكثر وضوحا منذ ان حدثت الفيضانات الخطيرة المدمرة في سنتي ١٩٤٦ و ١٩٤٨، وحصول النقص الحاد في انتاج الحبوب، وذلك في بلاد اشتهرت بطاقتها الانتاجية. وفي اواخر سنة ١٩٤٦ تمت اضافة ملاحق الى مصادر دائرة الري ذات الجهد السامي للغرض ذاته، وذلك بتعيين لجنة من موظفي الري تحت امرة «هي» من مصلحة المهندسين الهندية.

كان هدف اللجنة اعداد دراسة ووضع تقرير عن السيطرة على الانهار وامور الري، وتقديم منهاج عنها. وفي شهر حزيران ١٩٤٩ قدمت هذه اللجنة تقريرها المذكور. وكانت مهمة السيطرة على الفيضانات، وخزن مياهها، قد بوشر بانجازها في نهر الفرات، وذلك عن طريق اكمال مشروع الحبانية – ابو دبس، وتمديده. اما في نهر دجلة فقد تقرر ان يتم توسيع ذلك بتوسيع مشروع الثرثار (على مرحلتين) وذلك بانشاء سد (على غرار جبل طارق) على نهر ديالى في النقطة التي يجتاز فيها جبل حمرين، وكذلك بانشاء سد «دوكان» على نهر الزاب الصغير.

فهذه المشاريع التي ذكر عنها بان قابلة للتحقيق، لابد ان تنقذ العراق من الفيضانات، وتحدث زيادة في موارد المياه التي تنخفض خلال الفصل الذي تهبط فيه مياه الانهار. ويمكن ان يصحب هذه المشاريع، تطوير الري في مناطق جديدة، وذلك عن طريق شق القنوات، واقامة رؤوس القنوات، والسداد، والجداول المغذية بالماء في مناطق اواسط الفرات، والزاب الصغير، واواسط نهر دجلة وذلك في مناطق تسيطر عليها قناتا «الاسحاقي» و «النهروان» وعلى نهر ديالى، ونهر الغراف، والقسم الادنى من نهر دجلة.

كانت المبازل واعمال تصريف المياه تنفذ باليد بصفة شاملة وذلك في المناطق المروية الموجودة فعلا، او المخطط ايجادها معا ؛ وفق اسس اظهرت التجارب التي اجريت بشأنها من سنة ١٩٤٠ الى ١٩٤٦، بانها قابلة للتنفيذ. كذلك كان من المقرر ان تقام محطة لاستحصال القوة الكهربائية من التيار في رؤوس كل من سد «سامراء» والسد الماثل لجبل طارق، وسد دوكان. يضاف الى هذا ان اقتراحات قدمت بشأن استصلاح الاهوار الواقعة في جنوبي العراق، واعادة تشكيل القسم الادنى من نهر دجلة، غير ان هذه المقترحات لم يتم تنفيذها.

من هذا المنهاج الهائل الذي كان يتوقع ان يكلف انجازه حوالي تسعين مليون دينار، بوشر بتنفيذ الربع منه بصفة مباشرة، وتم انجازه خلال عشر سنوات، وقد شمل ذلك، القسم الاول من توسيع بحيرة الحبانية، ومشاريع وادي الثرثار، والسد الماثل لسد جبل طارق، واعمال البزل والتصريف، وتوسيع الري في منطقتي النهروان والغراف، وفي مناطق نهر الفرات ايضا. ولقد اقر مجلس الاعمار قسما كبيرا من هذه الخطط (٠) في اجتماعاته الاولى التي عقدها سنة ١٩٥١ مع

(٠) كان مشروع السنوات الست الذي وضعه مجلس الاعمار في اوائل سنة ١٩٥٢، قد وفر الانفاق سنة بعد اخرى ابتداءا من سنة ١٩٥١ الى سنة ١٩٥٦ على مشروع الثرثار (بما يبلغ مجموعه ١٥٣٠٠٠ دينار، ومشروع الحبانية (٢٠ الف دينار) وسدود

التعديلات المتوقعة، وذلك لاعداد قاعدة لفعالية الري المقبل في العراق، والذي لابد وان يستغرق انجازه التام، على الرغم من نفاد صبر الجمهور والصحافة، مالايقل عن خمسين سنة.

كانت المشاريع التي اكملت فعلا قبل سنة ١٩٥١ تتمثل في اعادة استقامة مدخل بحيرة الحبانية (قناة الورار) ومخرج العودة الى النهر (قناة سن الذبان) وضمان الحماية من الفيضان، وامكانية استعمال المياه التي يتم خزنها. وكانت القناة التي تصب في وادي الثرثار تعتبر من الاعمال العظيمة حقا، وقد عرضت مناقصتها من قبل مجلس الاعمار في سنة ١٩٥١. اما سد سامراء ورؤوسه، ومشروع الحبانية الكبير، فقد كان من المقرر ان يجري تنفيذهما بعد ذلك. ومع هذا فقد بقيت مخططات وتصاميم تفصيلية ينبغي القيام بها، ومنها منهاج السنوات الخمس التالية الذي بوشر به الان حالا، وقبل ان يوضع المنهاج المخصص للجزء الادنى من نهر دجلة والعمارة والبصرة والغراف

اما مدى هذه المشاريع بالنسبة الى الخطط التي وضعها «ولیم ولكوكس» قبل اربعين سنة من ذلك التأريخ، والتي ثبتت فيها جميع الاختيارات اللازمة لذلك، فقد كان هذا المدى واسعا جدا في الواقع. فلم يتم التخلي الا عن سد الفلوجة، وسد «بلد». كما ان المشروع الذي وضع لتطوير منطقة البصرة - هور الحمّار، فانه قد يتعقب الخطط التي وضعها «ولكوكس» في النهاية او لايتعقبها. وقد بدا الان ظاهرا ان الارواء بواسطة المضخات قد بلغ حده الاقتصادي في كثير من مناطق البلاد، ولكن كان هناك، مع ذلك، مجال وافر للمزيد من الزراعة المكثفة في الاراضي التي تروي بالمضخات.

كان الارتباط المعقول بين الصيغ الثابتة لحق منح اللزمة في الاراضي، قد اعترفت به الحكومة منذ امد طويل، وذلك بالنشاط الذي اظهرته في موضوع تسوية الاراضي. ولقد برزت في الاخير شواهد على النطاق المعتمد من الانجازات بعد عهد من الجهد الشاق استغرق مدة ثماني عشرة سنة. ذلك ان الانتقادات التي وجهت في اول الامر الى الاجراءات التي بوشر بتطبيقها، والتقدم الذي حصل في العمل ذاته في كل انحاء العراق؛ قد تم وصفها في كل مكان. ففي غضون خمس سنوات اخرى بعد انتهاء الحرب، تم تحديد وتقييد وتسجيل الحقوق الشخصية في مناطق واسعة اخرى.

لم تكن مشكلة حقوق الاراضي في المنتفق والتي كانت المطالبة بحلها تجري على الدوام، قد حلت بعد. وفي العمارة لم تكن الاجابة عن ذلك لتختلف عن صيغة «الامر الواقع!». غير انه تم

ديالى وقنواتها (٦٧٥٠٠ دينار) وسد الحويجة وسد العظيم وقنواتها (٦٧٥٠٠ دينار) وسد بخمة (٨٧٠٠٠ دينار) واعمال الري في محافظتي الموصل واربيل (١٩٠٠٠ دينار) وسد نهر دجلة وقنواته جنوبي مصب نهر العظيم (١٨٠٠٠ دينار) ومشروع البزل الرئيس (٤١٠٠٠ دينار) واعادة شق القنوات في اواسط نهر الفرات وادانيه، وكذلك في اداني نهر دجلة ونهر الغراف ومنطقة البصرة (١٠٤٢٥٠ دينار).

بدون ضمان طويل الامد للشيوخ. ولتقسيم الاقطاعات الى قطع على حد سواء. وفي كل مكان لم تكن المشكلة العسيرة التي يعيشها الفلاح الذي لا يملك ارضا، قد حظيت الا بتغيير طفيف[10] ذلك لان الفلاح كان على الدوام غير قادر على وضع قاعدة للاستحقاق. ويواجه في ذلك المعارضة الشديدة. في حين ان اصحاب الحظوظ الحسنة الذين يتمتعون بالمشيخة بمحض الولادة، او اصحاب المشروعات التجارية الاخيرة، كانوا قد حصلوا على استحقاق تملك الاراضي. كل هذه الامور كانت من التصرفات الواضحة التي تثير الحسد والغيرة.

والواقع انه كان يوجد مجال وافر للنقد على اسس متباينة. ذلك لان الحكومة قد تخلت عن حقها في التصرف الحر بالاراضي الواسعة التي لم تكن مسجلة قانونيا من قبل. وان كانت تلك الاراضي مأهولة في الواقع. فمثل هذه الامور كانت في النهاية تعيق خطط التنمية. فلقد تم الاعتراف بالمصالح المخولة بسخاء جدا، ولذلك كان اصلاح الاراضي وفق منهاج متعادل في نظر الجناح اليساري من الساسة في بغداد (وفي نظر بعض المراقبين الاجانب ايضا) من الامور التي يكثر الالحاح عليها دائما.

ومع كل ذلك. وضمن حدود المجتمع والاقتصاد بالشكل الذي كانت عليه تلك الحدود، فان اجراءا واسعا لتحقيق الاستقرار قد تم انجازه. ذلك لان المنازعات على الارض غدت قليلة، وازدادت الثقة. ولم يعد احد يفكر في العودة الى الاحوال التي سبقت تسوية الاراضي، حيث كان قانون الغاب هو الذي يتحكم في الزراعة. فبالنسبة الى الاراضي الصغيرة والكبيرة، والى ملكية الفلاح ومزرعة الرأسمالي التي تقوم على الاسس العلمية، كان هناك مجال واسع امام العراق في المستقبل. لتأسيس شركة للتنمية الزراعية، والمباشرة بتنفيذ مشروع حكومي واسع النطاق في ميدان المزارع الواسعة غير المستغلة التابعة للدولة.

• • •

ومع ان الحدود التي كانت الصناعة سوف تتطور ضمنها خلال نصف قرن. قد تمت دراستها بصفة مطلقة من قبل لجنة البحث الصناعي ومديرها العام، فقد كان هنالك مجال للتوسع اثناء

---

(١٠) ماذا حصل بعد ان حرر الفلاح من الاقطاع والظلم والارهاب؟ واعطيت له اراضي يتملكها وزود بالبذور وبالمياه وبالالات ليزرعها؟ اين هو الانتاج الذي اتجه الفلاح بعد تحرره في العهد الجمهوري؟ ولماذا هبط هذا الانتاج الى الصفر، وهجر الفلاح ارضه وحيواناته ونزح الى المدن يعيش في جحور ضيقة قذرة ويشارك سكان المدن طعامهم ومشاكلهم، في الوقت الذي كان فيه يملك له كوخا خالصا يسكنه ويربي المواشي والدجاج ويفيد من بيع البيض والحليب ويأكل الخبز من الحاصل الذي ينتجه؟ لقد كان من نتائج هجرة الفلاحين لاراضيهم بعد ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ ان اصبح العراق يستورد باثمان النفط وبقية الموارد الاخرى كل مايحتاج اليه من غذاء ابتداء من الحنطة والرز الى البيض والدجاج والفواكه والخضراوات وحتى العلف الحيواني هذه هي حصيلة تحرر الفلاح!!

السنوات الخمس الاخيرة. غير ان الاساس القانوني لتشجيعها، والذي يمثل سياسة كل الوزارات المتعاقبة، كان قد تغير بالغاء قانون ١٩٢٩، والاجازات التي اصدرت وفقا له، وذلك لصالح القانون الذي شرع في سنة ١٩٥٠. فهذا القانون الاخير قد منح امتيازات مهمة للمشروعات التي تدار بالقوة،والتي كانت تستخدم تسعين في المائة او اكثر من ذلك، من العمال المحليين، وكانت اقامة كل مشروع منها يكلف خمسة الاف دينار عراقي على الاقل، وتستخدم اكثر من نصف رأس المال العراقي.

في سنة ١٩٥١ تم قبول خمسة وثلاثين من هذه المشاريع التي تحققت فيها هذه الشروط، ولذلك منح المصرف الصناعي قروضا الى عدد منها.

اما الناتج الصناعي لهذه المشروعات فقد كان البعض منه في ادنى نطاق واضعف اهمية من امثال صنع الحلويات، والمعكروني، والدبس، والمواد التي تصنع من المرمر الكردي، والخزفيات، والشخاط الشمعي، والازرار، ومعالجة الزجاج،والقاشي غير المزجج، واواني الالمنيوم. اما المعامل التي كانت تقوم على نطاق اوسع فهي تتمثل في معامل الطحين، والزيوت النباتية، والمقوى واوراق التغليف (التي كانت تصنع من سوق الحبوب والرز) والصابون، والسلع المحاكة بالابرة، والسجق، واللحوم المعلبة، والزيوت المثلية، والعرق، والانابيب الكونكريتية، والبلاستيك، وشبابيك الالمنيوم، والاثاث المجوف.

ولقد فشل مشروع انشاء معمل مبكر لصنع البيرة، ومن ثم بدأت معامل عصرية للبيرة تستعمل الشعير المحلي في انتاج الجعة الفاخرة في سنة ١٩٤٩ (١١) وكان هنالك مشروع طموح لانشاء معمل لصنع الاكياس المصنوعة من الجوت قيد الانشاء.

واستمرت معامل الطابوق في التطور حسب الاسس العصرية وكانت قادرة على سد الاحتياجات المحلية، في حين مضت معامل السكاير قدماً في تزويد المدخنين في كل انحاء القطر بالسكاير، سواء في ذلك السكاير التي تصنع بالطريقة العصرية، ام التي تصنع باليد. ولقد حدث تقدم كبير تحت اشراف جمعية الجلود، في معالجة الجلود المحلية بصفة افضل، فكانت تنتج منها جلود مدبوغة جيدة، ولذلك زاد نطاق معامل الاحذية التي كانت تدار بالقوة الكهربية، وارتفعت نوعيتها.

ولقد بدأ معمل السمنت الذي انشئ خارج بغداد، والذي كان يستعمل الجبس الذي

---

(١١) كان اول مصنع للجعة قد انشأته شركة الخضيري وجماعته واقامته في منطقة الزعفرانية وكانت البيرة التي انتجتها هذه الشركة تحمل علامة «ديانا» وظلت تعتبر من افخر الانواع، ولم يكن سعر القنينة بالمفرد انذاك يزيد عن تسعين فلسا. على ان الاقبال على البيرة المحلية، كان قليلا في اول الامر، ثم مالبث ان ازداد وتعاظم بمرور الايام بعد ان وجد كثيرون ان في الامكان التعويض بها عن «العرق» وغيره من المشروبات الروحية الاخرى.

يؤتى به من طوزخرماتو ، انتاجه بصفة مهمة منذ سنة ١٩٤٩[١٢] وسرعان ما اصبح يبيع في اليوم الواحد مائتين وخمسين طنا من السمنت . وكانت هنالك ثلاثة محالج للقطن قد انشئت ايام الحرب الثانية ، بقي واحد منها ، وهو الذي انشأه المصرف الزراعي في العزيزية ، قائماً ، وكانت طاقته الانتاجية تزيد كثيراً عن حاصل القطن المتوفر هنالك .

وبقيت جميع المطابع ، وكلها صغيرة ، عدا مطبعة واحدة يملكها بعض الاوربيين[١٣] ومطبعة الحكومة ، بصفة جوهرية على ماكانت عليه قبل الحرب ، عدا ما احدث من تجهيزات عصرية فيها.وتوسعت امام صناعة الغزل والنسيج ، والتي كانت تقوم في بعض الحالات بصبغ الغزول وانتاجها ، في اوائل سنة ١٩٥٠،مجالات للتطور الذي كانت عليه قبل الحرب ، فكانت تستعمل القطن المحلي في جزء من انتاجها.كذلك اخذ احد المعامل التي انشئت في الموصل ينتج اقمشة «الريون» ايضا . وكان هنالك عدد اخر من المشروعات الصناعية ، قل او كثر ، على وشك ان يتحقق في سنة ١٩٥٠ ، ومنها معامل لصنع قماش «الريون» من القش ، وانتاج المخصبات المحلية ، وتكرير السكر .

ولقد تمت دراسة معالجة اوراق التبوغ دراسة مكثفة ، ولكنها ظلت متخلفة . وكان الاعتقاد الراسخ ان صناعات اخرى سوف تتطور بصفة اكثر ، وذلك باستعمال الخامات العراقية ، وتقليص الحاجة الى الاستيراد . ومن بين هذه الصناعات ، صناعة السمنت ، والصابون ، والكحول ، والزيوت النباتية ، والجلود والاحذية والسكاير ، والجعة والمنسوجات . اما الصناعات الاخرى فقد ظلت امكاناتها دون المستوى ، ولو ان لها مكانتها النافعة ، ذلك لان ايا من هذه الصناعات ، لم ينتج فائضاً لغرض التصدير ، الا اذا كان البعض يعتقد ويأمل ان في الامكان ايجاد صناعة تستخدم لهذا الغرض ، من امثال صناعة المخصبات او غيرها ، ووفرة منتجات النفط.وكان مجلس الاعمار يعتزم ان ينفق نفقات واسعة على مشاريع الصناعة والتعدين خلال فترة السنوات الخمس من سنة ١٩٥١ الى سنة ١٩٥٦ ، وعلى اسس يتم الكشف عنها مؤخرا .

• • •

---

(١٢) يقصد به معمل السمنت الذي اقامته الحكومة على مقربة من معسكر الرشيد وكان اول معمل من هذا النوع .

(١٣) المعتقد ان هذه المطبعة هي المطبعة التي كانت تطبع بها جريدة «الاوقات العراقية» التي كانت تصدر باللغة الانكليزية وتمثل وجهة نظر الحكومة ، واراء الدبلوماسية الانكليزية في ذلك الوقت . وكانت هذه الجريدة تصدر في اربع صفحات واحدة منها بالعربية ، وتصدر بمناسبة عيد الميلاد عددا خاصا يصل الى حدود اربع وعشرين صفحة في تلك الايام .

لقد ظهر بان الفقر الذي يعانيه العراق في المعادن ، ماعدا النفط ، قد تحسن بفضل ما اكتشف في اواخر سني الاربعينات من مناجم مهمة للنحاس ، واحجار النحاس في الاجزاء الجبلية من منطقة «قلعة دزة» . كما قدم احد جيولوجي الحكومة تقارير عن امكانية انتاج نوع فاخر من المرمر قرب «رابات» ، وتموينات في اماكن اخرى من مادة «الكرومبت» وخامات الحديد والمنغنيز . فلقد كان يظن بان هذه المعادن وغيرها غير قابلة للاستثمار التجاري . وكان العمل جاريا للكشف عن حجر الجير الصلب الملائم لاقامة السدود ، وقد تم العثور عليه فعلا ، وكان الملح ، والجبس ، وطين الآجر ، وحجر الموصل الذي يستخدم في البناء ، والمواد التي تدخل في صناعة السمنت ، تستعمل على مثل ماكانت عليه فعلا . كما تم التخطيط بتجديد النشاط الذي ادى اثناء الحرب الى انتاج خمسة عشر الف طن سنويا من الفحم في كفري .

وعلى الرغم من التأخيرات والمعوقات التي فرضتها فترة الحرب ، كان الوضع الذي انجز في صناعة النفط في سنة ١٩٥٠ ، قد وضع العراق في مقدمة الاقطار المنتجة للنفط ، مع الوعد ، بل التحقق من حدوث استثمارات اوسع في متناول اليد . فلقد اصبح مشروع انشاء مصفى حكومي للنفط والذي فكر فيه منذ سنة ١٩٤٥ ، على وشك الانجاز في نهاية سنة ١٩٥٠[١٤] وذلك بعد ان اكملت الخطط التي وضعت لانشائه ، ووفرت الاموال اللازمة له . وكان حقل النفط الصغير ومصفاته التي انشأتها الشركة المستثمرة ، وهي شركة نفط خانقين ، في كل من نفطخانة وخانقين ، مايزال يباشر عمله ولكن على نطاق محدود كان يتلاءم وتموين شمالي العراق واواسطه بالمنتجات من قبل شركة نفط الرافدين. هذا في الوقت الذي لم يكن فيه لتوزيع هذه المنتجات من قبل شركة نفط الرافدين اي مستقبل الا في سنة ١٩٥١ ، وذلك بعد ان اوقفت تموينات النفط التي كانت تصل من عبادان الى البصرة ، في الوقت الذي كانت فيه تموينات نفطية اخرى ترد من الشمال تجابه مشاق ونفقات تتطلب التحسين .

اما التطور الذي حصل في عمل شركة نفط الموصل (شركة استثمار النفط البريطانية سابقا) والتي ولدت توأما لشركة النفط العراقية على الضفة اليمنى ، من اعالي نهر دجلة ، فان هذه الشركة قد باشرت منذ سنة ١٩٤٧ وما بعدها في حفر ابار اخرى في منطقة «عين زالة» وماجاورها ، ولكن هذه الاعمال لم تكشف الا عن حقل ذي ابعاد معتدلة ، واستغلال غير

---

(١٤) هو مصفى الدورة ولقد نشرنا عدة مقالات في حينه طالبنا فيها بضرورة انشاء هذا المصفى في منطقة الفتحة عند قضاء بيجي وبينا اسباب ذلك التفضيل ، ولكن الحكومة لم تلتفت الى اهمية الفتحة ولا الى الاخطار التي يمثلها وجود مصفى الدورة في بغداد ، وسبب ذلك يعود الى ان كثيرين من اصحاب الاراضي الزراعية في منطقة الدورة قد تدخلوا لكي تباع اراضيهم باثمان عالية في ذلك الوقت . وقد تحققت خطورة موضع مصفى الدورة في الايام الاول من وقوع العدوان الفارسي على العراق اذ كان المصفى من اول الاهداف التي قصفتها الطائرات الفارسية المعتدية والحقت الاضرار به وبالساكنين حواليه .

مؤكد . ولكن الامتياز الذي منح الى شركة استثمار النفط البريطانية هناك ، لابد وان يؤدي بعد فترة قصيرة ، الى الانتاج التجاري . وكان مد خط انابيب من عين زالة الى المحطة «ك ٢» قرب بيجي ، تحت الانشاء في سنة ١٩٥٠ - ١٩٥١ لغرض تصدير نفط شركة نفط الموصل من هناك [١٥] .

اما في منطقة البصرة ، من الناحية الاخرى ، فقد استأنفت شركة نفط البصرة بحثها عن مواطن النفط بعد انتهاء الحرب . وبعد الانتهاء من القيام بعمليات جيوفزائية ، باشرت باعمال الحفر في منطقتي «نهر عمر» والزبير ، فحققت في ذلك نجاحا مباشرا هناك ، وركزت اكتشافها في الموقع الاخير ، الذي كان يقع على بعد اثنى عشر ميلا جنوبي غربي البصرة ،كما حفرت ابار اخرى ، واقيمت منشآت الحقل ، ومد خط انابيب الى الفاو في سنة ١٩٥٠، لتصدير النفط من هناك بمعدل اولي ، حيث غدا ممكنا في الايام الاخيرة من سنة ١٩٥١ تصدير مايقرب من مليوني طن في السنة .

وكانت حقول نفط الزبير التي عززت بحقول اخرى في ذات الموقع ، من المستطاع ان تأخذ مكانتها كجزء له قيمته من موارد العراق .

كانت العمليات التي قامت بها شركة النفط العراقية بعد الحرب العالمية الثانية ماتزال مكثفة وفعالة . ذلك لان السنين الاخيرة من الحرب لم تشهد سوى انتاج محدود بسبب ظروف ايام الحرب المقيدة . ولذلك فان استئناف تصدير النفط بعد سنة ١٩٤٣ الى موانئ البحر الابيض المتوسط،بنفس المستوى الذي كان عليه قبل الحرب ، والذي كان يندر ان يتجاوز اربعة ملايين طن في السنة ، واعلان الهدنة ، والغاء القيود المفروضة على التموينات واليد العاملة بصفة تدريجية ، قد مكن الشركة من ان تجدد بصفة فعالة مشروعها الذي وضعته في سنة ١٩٣٨ لمضاعفة خط انابيبها ، فبدأت في سنة ١٩٤٦ ببناء خط انابيب جديد من قطر ست عشرة بوصة(*) يسير موازياً للخط القائم آنذاك وهو من قطر اثنتي عشرة بوصة ، من كركوك الى حيفا ، كما مد خط اخر بعد اشهر قليلة الى ميناء طرابلس . وقد اكمل الخط الاول في اوائل سنة ١٩٤٨ ، ماعدا الجزء الذي يمتد منه الى حيفا ، حيث فضل عدم انشائه ، وذلك بسبب ظروف الحرب ، وعدم التأكد من المستقبل بعد قيام دولة اسرائيل في شهر ايار من تلك السنة . كما انه لم يعد مستطاعا استمرار العمل بالخط من قطر اثنتي عشرة بوصة . وكانت خسارة الحكومة من

---

(١٥) كان المخطط لدى شركة نفط الموصل ان يتم نقل ماتنتجه من النفط الى محطة ك ٢ في بيجي ومن هناك يجري ضخه في الانابيب الرئيسة القادمة من كركوك الى ساحل البحر الابيض المتوسط .

(*) كان هذا اكبر قطر للانابيب امكن الحصول عليه من مصادر المنطقة الاسترلينية آنذاك .

وراء ذلك ماتقرب من سبعة ملايين طن كانت تصدر سنويا ، ومايقابلها من الخسارة في عوائد النفط .

اما بالنسبة الى الخط الشمالي المتجه نحو طرابلس فقد اكمل الخط من قطر ست عشرة بوصة في منتصف سنة ١٩٤٩ ، وبذلك اصبح تصدير النفط من طرابلس ثلاثة اضعاف عما كان عليه قبلا . وفي اقل من سنة بعد ذلك التأريخ ، بادرت الشركة ببناء خط جديد من قطر ثلاثين بوصة.ولما كان هذا الخط قد تم تصميمه على ان يبدأ من كركوك الى ميناء بانياس في سوريا على ساحل البحر الابيض المتوسط (وهو خط مواز للخطين من قطر ١٢ بوصة و ١٦ بوصة الا بالنسبة الى نهايته الغربية) فان هذا الخط سوف ينقل نفط العراق الى الاسواق العالمية بمعدل اربعة عشر مليون طن في السنة ، وهو اوطأ معدل من ضخ النفط فيه ، اذ يمكن رفع هذا المعدل بصفة اكثر عن طريق زيادة محطات الضخ(**) .

صاحبت هذا التوسع في خطوط انابيب النفط ، زيادة مهمة في مشروع الضخ والتسهيلات اللازمة له ، وذلك عن طريق اقامة سبع محطات للضخ ، على جانبي النقطة التي تنفصل بها الخطوط عن بعضها البعض على مقربة من «حديثة» وفي حقل كركوك ذاته[17] اما التطور الذي حصل في حقل كركوك فقد انجز توسيعه يمتد شمالا الى محافظة اربيل فيما وراء نهر الزاب الاصغر ، وذلك عن طريق القيام بحملة نشطة لحفر ابار النفط والعمليات المتنوعة التي رافقت ذلك .

واذ مضت عمليات حفر الابار قدما ، فقد بوشر بتوفير خطوط التجميع وبناء الصهاريج ، ومحطات تخليص النفط من الغاز ، وانشاء وحدات جديدة في مشروع التنقية والافراز ، وبناء مساكن للادارة والسكن ، ونصب المشاغل والمخازن والمستودعات ، والمختبرات ، واقامة مشروع القوة الكهربية،ومد انابيب اسالة الماء .

ولقد كان العراقيون محظوظين حقا ، وذلك لان استغلال اعظم ثروة في اراضيهم ، قد تم تحقيقه حسب الطرق العصرية والاقتصادية ، ومن دون اضاعة لتلك الموارد او تعريضها الى الخطر . ولقد تمت مواجهة حاجات العمل عن طريق المبادرة ببناء البيوت العصرية للمستخدمين

(**) تم بناء خط انابيب ذي ٣٠ بوصة بسرعة فائقة حيث بدأ العمل فيه في اواخر ربيع سنة ١٩٥٢[16] .

(١٦) تعهدت شركة «بكتل» الامريكية وهي من اكبر الشركات الاستثمارية العالمية ، بمد هذا الانبوب فانجزته في مدة تقل حوالي سنة عن المدة المحددة في العقد،وقد منحت العمال في العمل اجوراً افضل بكثير مما كانوا يحصلون عليه من الشركات الانكليزية .

(١٧) هذه المحطات السبع تتألف من ثلاث محطات على الخط الممتد الى ميناء بانياس في سوريا ، واربع محطات على الخط الممتد الى ميناء طرابلس في لبنان . اما الخط الذي كان يمر الى ميناء حيفا فقد اوقف العمل به منذ ان بدأت الحرب العربية الاسرائيلية في شهر ايار ١٩٤٨ عند المحطة الرابعة (حيفا ٤) داخل الاراضي الاردنية وفي داخل الاراضي المحتلة في فلسطين .

العراقيين ، والحوانيت ، وساحات الالعاب ، وتوفير وسائط النقل الى مواقع العمل ومنها ، ومنح العلاوات ، وتعديل المرتبات ، وذلك لمواجهة الارتفاع الحاصل في نفقات المعيشة ، وانشاء صناديق التوفير ، وتوسيع المستشفى والتدريب الفني داخل العراق وفي بريطانيا معا .

وعلى الرغم من المصاعب النفسية ، والمادية ، والسياسية (التي كان التظاهر بها يتم بصفة مصطنعة) والتي لايمكن فصلها عن وجود الهوة الاقتصادية المتقدمة بالنسبة الى اقتصاديات الفلاحين البدائية ، فان معيشة عمال النفط ، وظروف عملهم ، على الرغم من انها كانت اقل كمالا ، كانت دون شك من افضل ماوجد في ميدان الصناعة العراقية المعاصرة ، ولم تكن تلك الظروف تستحق تلك الهجمات المنطوية على الكذب الصارخ ، والتي اعتادتها صحافة بغداد التي كانت تتحدث عن اهوال العمل لدى شركة نفط العراق ، وقسوة المستثمرين من الاجانب [١٨] .

كذلك حققت الصناعة النفطية ايضا فوائد جوهرية غير مباشرة للجمهور في عمليات الشراء المحلية ، والتعهدات ، وزيادة القوة الشرائية ، وتوفير النقد الاجنبي ، وتعليم المهارة الصناعية ، وممارسة الخدمات القيمة ذات النفقات الواسعة في كركوك ، اذاستطاعت في سنة ١٩٥١ ان تحقق بان وجود شركات النفط وعملياتها الموسعة ، سيظل من المنافع الاقتصادية الواسعة والاجتماعية للشعب العراقي . ذلك لانه بعد التخريب ، العظيم الذي اصاب صناعة النفط في فارس،والذي اوجدته الحكومة الفارسية نفسها [١٩] اصبح وضع العراق باعتباره بلدا مجهزا للنفط الخام ، لابد وان تكون له اهمية دولية ، نتيجة لذلك ، اعظم مما كانت عليه قبلا . غير ان عقول الوطنيين المحليين وعواطفهم ، والذين لم تحدث المأساة الفارسية بالنسبة اليهم اية اخطار

(١٨) لانوافق المؤلف في ذلك فلقد كانت انتقادات الصحافة لاوضاع عمال النفط ، حتى وان كان مستوى معيشتهم آنذاك ارفع نسبيا عن مستوى بقية العمال الاخرين العاملين سواء في القطاعات الحكومية او الاهلية ، نقول كانت اوضاع عمال النفط في الدرك الادنى ، اذا ما اخذنا بنظر الاعتبار مستوى امثالهم في البلدان الغربية ، وليس الشرقية ، وكذلك مقدار الارباح المفرطة التي كانت تصيبها الشركات ، وكلها اجنبية ، من وراء استخراج النفط وتسويقه . ذلك لانه حتى حصة الحكومة لم تكن لتزيد في ذلك الوقت عن النسبة المئوية الضئيلة جدا من الارباح ، فكيف باجور العمال التي كان معدلها بالنظر الى اكثرية العمال يتراوح بين ربع دينار وثلثمائة وخمسين فلسا في اليوم الواحد . وفضلا عن ذلك فان السكن الذي وفرته الشركة لم يكن يستفيد منه سوى عدد ضئيل جدا من العمال والمستخدمين ، ذلك لان مشروع السكن قد اقتصر في الدرجة الاولى على منطقة كركوك وحدها ولم يشمل محطات الضخ الاخرى القائمة على امتداد خطوط الانابيب الى البحر الابيض المتوسط .

(١٩) يشير المؤلف بذلك الى حركة تأميم نفط الاحواز التي اقدمت عليها حكومة الدكتور محمد مصدق في سنة ١٩٥٠ وكيف تطورت تلك الحركة بعد ان تحالفت امريكا مع بريطانيا في الحيلولة دون تسويق النفط المؤمم الى العالم، الامر الذي مهد لاسقاط حكومة مصدق اثر الانقلاب الانكلو امريكي الذي نفذه الجنرال زاهدي ، ومن ثم تفاهمت واشنطن ولندن فيما بينهما على اقتسام نفط الاحواز . انظر كتابنا (معركة النفط في ايران سنة ١٩٥١

او خسائر ، سوف لن تتخلى عن «التأميم» الذي قد يسمح اولا يسمح (بالنظر الى طريقته وصيغته) باستمرار تلك الصناعة[٢٠] .

غدا واضحا تماما ان وجود مشاريع اوربية ناجحة وثرية ومنظمة تنظيما حسناً في العراق تحت الاشراف الاجنبي ، وتوفير المستويات العالية للمعيشة والمميزات التي يهيؤها امتياز النفط ، لابد وان يمثل اعتداء على الاحساس القومي ازاء ، واحدة على الاقل ، من مدارس الساسة المحليين ، مهما كان سلوك اولئك الساسة صحيحا ، ومهما كانت سياستهم متفتحة ، وفي فترة قد لايصبح فيها استثمار النفط الذي يمكن ان يستمر على مثل هذه الاسس ، منظورا بشكل موثوق به على الرغم من كل المنافع التي يوفرها للبلاد .

وفي الوقت ذاته فبالنسبة للخزينة العراقية ، لم يعد ماكانت تتسلمه من موارد النفط ، مجرد ايرادات لاحقة لايرادات اخرى ، وانما اصبحت موارد النفط هي العمود الرئيس للحكومة ذاتها ، واسس كل آمالها في التنمية والتحسين . ولذلك كان رجال الدولة في العراق يتطلعون بلهفة الى تسلم ايرادات متواصلة من صناعة النفط ، اعظم من تلك الايرادات التي توفرت في امتيازي سنة ١٩٢٥ او سنة ١٩٣١ والتي كانت محددة باربعة شلنات ذهبية عن الطن الواحد ، وادعاء تلك الامتيازات بان كلمة «الذهب» يجب ان تترجم الى كلمة «جنيه استرليني» حسب معدلات الاسعار غير الرسمية في الاسواق المفتوحة ، والتي ادت من سنة ١٩٤٧ حتى سنة ١٩٥١ الى محادثات متكررة بين الحكومة العراقية وشركة النفط . ذلك لان قضية النفط التي وافقت فيها الشركة،بناء على طلب الحكومة العراقية في سنة ١٩٤٩ ، ان يسمح بتسويتها من قبل محكمة بريطانية بدلا من التحكيم ، ان هذه القضية ظلت خارج نطاق التسوية،عندما انتهت الفترة ، مع الاشارة الى ان حكومة بغداد كانت تعتزم ان توالي الضغط على مطاليبها الكاملة(٠) .

---

(٢٠) لابد وان المؤلف قد اطلع جليا على معركة العراق لتأميم النفط والنجاح الذي اصابته هذه المعركة التي اعادت للعراق حقوقه الطبيعية في موارد نفطه ، والاستثمار بها دون بقية الشركات الاجنبية الامر الذي وفر للبلد اموالا طائلة جدا بوشر بانفاقها على المشاريع النافعة وعلى الاخص في ميدان الاعمار والبناء ،ذلك لان الحكومة الوطنية التي نفذت التأميم ، لم تحذ حذو الحكومات النفطية في الخليج العربي والسعودية ، في استثمار عوائد النفط في المصارف والشركات الاجنبية من امريكية وانكليزية وفرنسية ، ومنها عدد كبير من الشركات الصهيونية ، وانما اوقفت الحكومة الوطنية كل عوائد النفط للاعمار ولرفع مستوى معيشة السكان ، بحيث كاد الفرق ان ينعدم تماما بين الريف والمدينة .

(٠) كانت هذه المطاليب تبلغ زهاء عشرين مليون باون استرليني حيث تم الاتفاق على رقم مطابق لمبلغ خمسة ملايين باون استرليني بين المتفاوضين في سنة ١٩٥١ . ولكن ذلك لم يكن يؤلف جزءا من التسوية التي صادق البرلمان عليها في اوائل سنة ١٩٥٢ .

نجم عن تعديل قضية العوائد في سنة ١٩٥٠ ، التوصل الى اتفاق شرطي يسري بصفة جزئية على ماسبقه ، ويقضي برفع الشلنات الذهبية الاربعة الى ستة شلنات ذهبية . غير ان هذه الزيادة التي كانت بصفة مباشرة مساعدة للخزينة العراقية كما هو واضح ، قد تم ايقافها نتيجة مفاوضات اخرى طويلة الامد تقوم على اساس مبدأ جديد هو مبدأ المناصفة في الارباح ، الذي اعلنته لاول مرة شركة النفط العربية الامريكية (ارامكو) في المملكة السعودية في اخر يوم من سنة ١٩٥٠ ، ذلك الشرط الذي كان يتفوق على كل الشروط التي كانت اقل تفضيلا[٢١] والتي كانت تتمتع بها البلدان المجاورة . ولقد سارت المحادثات الجارية في بغداد حول هذا المبدأ قدما ، بين الشركة والحكومة خلال النصف الاول من سنة ١٩٥١ ، وكانت تشمل التزامات الانتاج من لدن كل الشركات العاملة في العراق ، وكذلك العوائد ، والضرائب ، التي يتوقع الحصول عليها من تلك الشركات** .

---

(٢١) في الوقت الذي اظهرت فيه الحكومة الامريكية تأييدها لحكومة مصدق في موضوع التأميم ، ودفعها الى ذلك بكل الوسائل ، عمدت امريكا الى احراج وضع حليفتها بريطانيا في بلدان الخليج والسعودية والعراق ، فشجعت الحكومة السعودية على ان تطالب بتطبيق مبدأ المناصفة بالارباح ، وذلك لكي تحمل الحكومات الاخرى في البلدان المنتجة للنفط ومنها العراق ، على المطالبة بتطبيق هذا المبدأ الذي قد يؤدي تطبيقه الى وقف الاندفاع نحو المطالبة بتأميم النفط، وعلى الاخص بعد ان اممت حكومة مصدق النفط في بلاد فارس .

(**) تم القبول باتفاق النفط الجديد الذي يقوم على اساس مبدأ المناصفة المتعادلة في الارباح في شهر آب ١٩٥١ بين الحكومة والشركة، ولقد صادق البرلمان عليه في شهر شباط ١٩٥٢ م، وكان لهذا الاتفاق اثر رجعي يسري الى اليوم الاول من شهر كانون الثاني سنة ١٩٥١ ، مع قيام مبادرة متوقعة (خلال سنة كاملة) لمد خط انابيب من قطر ثلاثين بوصة (يستطيع ان ينقل مايتراوح بين اربعة عشر مليون وخمسة عشر مليون طن من النفط ، اضافة الى الخطين اللذين ينقلان حوالي ثمانية ملايين طن) الى طرابلس وهما الخطان من قطر ١٢ بوصة وقطر ١٦ بوصة . وكان المتوقع ان تبلغ ايرادات العراق من هذا المصدر ، وفقا لقواعد النفقات والاسعار المعمول بها ، مايزيد عن ثلاثين مليون باون في سنة ١٩٥٢ ثم ترتفع الى ستين مليون باون في سنة ١٩٥٥ . ولقد تم الاتفاق على ان يكون الحد الادنى من الانتاج اثنين وعشرين مليون طن سنويا (بالنسبة الى شركة النفط العراقية وشركة نفط الموصل مشتركا) وذلك ابتداء من سنة ١٩٥٤ ومابعدها ، وان يكون انتاج شركة نفط البصرة ثمانية ملايين طن ابتداء من نهاية سنة ١٩٥٥ . واكدت الحكومة العراقية ان مقدار ما تتسلمه من العوائد يجب ان لايقل عن قيمة الربع من النفط الخام الذي توفره شركة النفط العراقية وشركة نفط الموصل على ساحل البحر لتصديره ، ومقدار الثلث من النفط الذي توفره شركة نفط البصرة للتصدير . ولقد اخذت تقلبات النفقات والاسعار في النفط العالمي بنظر الاعتبار عند التأكد من الارباح المنظورة ، وان في مستطاع الحكومة – ان رغبت – ان تحصل على مايعادل نسبة اثني عشرة ونصف في المائة من النفط الخام المستخرج ، وان يتم التصرف به او بيعه ثانية الى الشركات العاملة . وكان ينبغي ان يتم تسليم الحكومة جزءا كبيرا في صفة ضريبة للدخل ، في حين يكون الحد الادنى الذي تتسلمه الحكومة مضمونا ، ولايخضع الا لحالة القوة القاهرة ، بحدود عشرين مليون باون في سنتي ١٩٥٣ و ١٩٥٤ وبمقدار خمسة وعشرين مليون باون في سنة ١٩٥٥ وما بعدها . وفي حالة حدوث فشل مادي لا مجال الى تجنبه في الانتاج يصبح الحد الادنى قابلا للدفع عن سنتين . كذلك اشتمل الاتفاق على مضاعفة عدد الممثلين العراقيين في المجالس الادارية للشركات ، ووضع قيود على تعيين غير العراقيين في الشركات ، وحصول زيادة (تصل الى حد خمسين في المائة كل سنة) في عدد العراقيين الذين يقبلون في الجامعات البريطانية لاغراض الدراسات العليا ، وتوسيع التعليم الفني الذي كانت شركة النفط العراقية تديره في حقول كركوك .

وتحت تأثير حركة التأميم ، ولكن بطريقة اكثر اعتدالا من الطريقة القاسية ذات التشويه الذاتي الذي اقدمت عليه حكومة طهران، قررت الحكومة العراقية في سنة ١٩٥١ ان تؤمم عملية تصفية نفطها وتوزيعه ، مادام هذا النفط يتم استهلاكه داخل العراق ، حيث طبق ذلك التأميم على شركتي نفط خانقين ، ونفط الرافدين . وادت المفاوضات التي جرت مع هاتين الشركتين ومع رئيستهما «شركة النفط الانكلو فارسية» ، الى اتفاق يقوم على اساس ان تحول تلكما الشركتان مشروعيهما وموجوداتهما الى الدولة العراقية حسب القيمة القائمة آنذاك ، وان تظلا تمارسان العمل لمدة عشر سنوات في صفة وكلاء عن الدولة .

• • •

تمت صيانة ميناء البصرة خلال السنوات ١٩٤٦ – ١٩٥٠ وتحسين خدماته بصفة جوهرية ، وذلك باستخدام المزيد من الارصفة والمظلات ، والرافعات ، والالات . وعلى الرغم من ازدياد نفقات العمل والتموينات ، امكن تحقيق ارباح في عمليات كل سنة من السنين . فقد استمرت ادارة الميناء تدفع كل سنة ماكان في ذمتها من دين رئيس ، واكمال العمليات التي بدأت بها في سنة ١٩٥١ ؛ واستطاعت ان تصون وتوسع على نطاق واسع تزويد مدينة البصرة بالقوة الكهربية ومياه الشرب . اما مطار البصرة فقد بقي هو ومصلحة اللاسلكي والفندق الموسع القائم فيه ، ملكا للميناء . وادخل التوسع على مستودع الكراكات في الفاو ، وتم انشاء طريق بري يربط الفاو في كل الاجواء بمدينة البصرة . وانشئ مستودع عند شاطئ شط العرب في (حرمق) مقابل عبادان ، وقد تناقصت وسائل النقل التي كانت تستخدم ارصفة المعقل ، بشكل مفاجئ ، عن المستوى الذي كانت عليه خلال سنوات الحرب الخمس ، غير ان الناقلات التي كانت تنقل النفط الانكليزي الفارسي حتى سنة ١٩٥١ ، قد ازداد عددها اكثر مما يكفي للتعويض عن النقص الذي حدث في استخدام ارصفة المعقل . وكان تطوير ميناء ثانوي (ميناء ام قصر) على «خور عبد الله» يعتبر واحدا من المشاريع المقرر البدء بها .

وفي ذات الوقت سارت عمليات كري جرف الفاو لضمان عمق من المياه الواطئة مقداره ثلاثة وعشرون قدما عبر قناة «روكا» التي جرى تعميقها وتوسيعها بصفة جوهرية ، لقد سارت هذه العمليات قدماً من سنة ١٩٣٤ حتى سنة ١٩٥٠ ، ولكن الفيضانات الواسعة ، واضرار حركة تراكم الطمى نتيجة لذلك ، كان يسبب مصاعب خطيرة ، بحيث برهنت الاوضاع على عدم امكانية صيانة القناة المذكورة . ولذلك تمت اعادة النظر في سنة ١٩٥١ في تخطيط المدد الخاصة بانشاء قناة جديدة ، وتغيير الظروف المحيطة بحوض البحر .

ولغرض انجاز انشاء هذه القناة الجديدة ، والتي اصبحت اكثر ضرورة ، منذ ان تضاعفت

عمليات نقل النفط التي يقوم بها العراق ، وبصفة خاصة من حقل الزبير ، مرات عديدة . ومن هنا اصبحت الخسائر الواسعة التي اصابت الايرادات التي كان الميناء يحصل عليها من وراء عمليات الناقلات التي تنقل النفط من عبادان ، من العوائق الخطيرة امام تنفيذ ذلك المشروع (٭) غير ان قناة الفاو الحيوية ، ومستقبل ميناء البصرة بصفة عامة ، كان يجري تقييمها في الواقع بكل حكمة ، وبعد نظر .

كان مجموع حمولات السفن التي تستخدم ميناء البصرة يبلغ اكثر من نصف ، وفي بعض السنين اكثر من ثلثي مجموع حمولات السفن البريطانية والسفن الهولندية والامريكية واليونانية والسويدية والنرويجية ، والممثلة تمثيلا جيدا في هذه النقليات . وقد استمر التفكير في انشاء شركة شحن عراقية خالصة ، وكان ذلك يؤلف هدفا لهذا المطمح بين اصحاب التفكير من القوميين المهتمين بهذا الموضوع ، باعتباره من الوسائل التي ترمي الى تقليص اجور الشحن التي تتقاضاها خطوط النقل البحري الاجنبية .

تولى منصب المدير العام لميناء البصرة ، بعد التزامين قصيري الاجل ، العقيد جونسون في سنة ١٩٤٧ ، و «كلت» في سنة ١٩٥١ . وقد اتخذت خطوات متلاحقة من سنة ١٩٤٨ ومابعدها لتدريب العراقيين ، غالبا في اوربا ، بغية تعيينهم في كل مناصب الادارة ، بما في ذلك اعلى المناصب ، وبهذا اصبح تعيين مدير عراقي للميناءمن الامور المتوقعة في مستقبل قريب . ومع ان النقل بواسطة الانهار في العراق كان له دوره الذي لايمكن التعويض عنه في حياة المدن التي تقوم على ضفاف الانهار ، باعتباره الشريان الرئيس للنقل بين البصرة وبغداد ، الا ان وسائط النقل المتوفرة آنذاك لم تكن تسمح ، بالنسبة الى جيل لم يكن يسمح له الا في وقت الحرب ، باي تطور واسع لتنمية استخدام الفن في نهر دجلة ، ذلك لان النقل العسكري قد توقف بحلول الحرب ، وبازدياد المنافسة من قبل وسائل النقل البري ، وسكك الحديد ، والجو ، ولذلك تخلت «شركة الفرات ودجلة» سنة ١٩٤٦ عن معظم ما بقي لديها من اسطولها النهري ، بما في ذلك الباخرة «زبيدة» ومن ثم تحولت في سنة ١٩٥١ الى التصفية الاختيارية ، وبيع القسم الاعظم من وحداتها الى المنافس المحلي لها ، وهو «حنا الشيخ» . ولقد بقي هذا الاخير ، وافراد من اسرة الخضيري ، نشطين في ميدان النقل النهري لكي يملأوا ذلك الفراغ الذي تخلت عنه كة بيت لنج بعد تسعين سنة ، لانه لم يعد مربحاً لها .

. اما سكك حديد الحكومة العراقية ، التي تركزت في سنة ١٩٤٥ الاهتمام في مشروعات مهمة ، فانها واجهت هي الاخرى ايضا ، منهاجا موسعا من خدمات التأهيل والتحسين التي

(٭) اشتمل العمل الذي اقدمت الحكومة الفارسية عليه بجعل صناعة نفطها في حالة توقف وركود ، اضافة الى تدمير تلك الصناعة، على الحاق خسارة بميناء البصرة وبمشاريع الكري فيه ، بما لايقل عن مليون باون استرليني كل سنة .

يحتاج اليها ، وادخال اضافات على الخطوط المستعملة ، حيث شهدت السنوات الخمس التي اعقبت ذلك اكمال مد سكة حديد بين كركوك واربيل ، وبناء جسر على نهر الزاب الاصغر ، وكذلك انشاء جسر لسكة الحديد للمرور عليه في بغداد** (٢٢) .

وفي اواخر سنة ١٩٥٠ دشن جسر في المسيب يؤدي الى كربلاء ، واقامة محطات جديدة للسكك في بعقوبة ، والديوانية ، والناصرية وفي كل مكان . وكانت قضبان الحديد التي اعلنت بالمناقصة قد تم تسليمها في سنة ١٩٥٠ ، وحصل تقدم في انشاء محطة موسعة ومقرات ادارية في غربي بغداد ، واعادة تصميم الساحات والمستودعات هناك . على ان النفقات المرتفعة لهذه المشروعات ، ونقص الايرادات المستلمة نتيجة المزاحمة للسكك ، برا وجوا ، (على الرغم من حسن انتظام نقل الحبوب ومواد حقول النفط) والخسائر الناجمة عن الفيضانات المتكررة في الانهار ، قد التهمت ، وبمنتهى السرعة ، الفائض من الاموال التي توفرت اثناء الحرب ، مما ادى الى حصول حاجة تدعو الى الاقتراض ، من الحكومة اولا في سنة ١٩٤٦ ، ومن ثم الحصول على قرض بمبلغ ثلاثة ملايين باون ، من لندن في سنة ١٩٥٠ ، وقبل ان يتم دفع اجور المجهزين والمتعهدين ، وسير العمل قدما .

اضطربت احوال العمل في سكك الحديد بالاضرابات التي سبقت الاشارة اليها ، والتي حدثت خلال السنوات ١٩٤٥ ، ١٩٤٦ و ١٩٤٩ . وتم التعويض عن اليهود والمستخدمين في فرع النقل سنة ١٩٤٩ بجلب موظفين من الباكستان ، وتدريب العراقيين على الحلول محل هؤلاء الباكستانيين ، وكذلك البقية الباقية من البريطانيين . غير ان وضع مجلس ادارة السكك وتركيبه لم يحصل اي تغيير فيه ، ولو ان الصحافة قد وجهت النقد اليه ، باعتباره مجلسا قديما ، وعدم كفاءة العناصر القوية فيه.ولقد انتقل منصب مدير السكك العام من «سمث» الى «موفت» في سنة ١٩٥٠ ، ومن ثم تولاه موظف عراقي هو الفريق اسماعيل صفوت في سنة ١٩٥٢ .

كانت مصلحة السكك الحديدية هي التي بادرت بانشاء مصلحة الخطوط الجوية العراقية في سنة ١٩٤٥ ، باعتباره مشروعا تابعا لها . ولقد بدأت مصلحة الخطوط العراقية الجوية عملها في سنة ١٩٤٦ بخمس طائرات خفيفة استؤجرت من بريطانيا ، وفي السنة التالية استبدلت الطائرات المستأجرة بطائرات تملكها المصلحة ذاتها ، ووسعت من مدى رحلاتها بين بغداد والبصرة ، الى الموصل ، والقاهرة ودمشق . وفي سنة ١٩٤٨ ، وبفضل الاتفاقات الثنائية

** قامت شركة السادة «هولواي اخوان» ببناء هذه الجسور ، في حين تولت شركة بلفور بيتي انجاز الاعمال الترابية .

(٢٢) هذا هو جسر الصرافية الحالي الذي يربط سكة حديد بغداد - كركوك - اربيل ، بالمحطة الرئيسة في غربي بغداد ، وكان يجري قبلا نقل البضائع عن طريق معابر تنقل الشاحنات من الضفة اليسرى الى الضفة اليمنى من نهر دجلة كما يتم سحبها بعد ذلك الى المحطة الرئيسة .

اصبح مستطاعا ممارسة النقل الجوي الى طهران ، وكراجي ، وانقرة .

ولقد تمت صيانة مصلحة الخطوط الجوية العراقية هذه ، والتي عملت شركة الخطوط الجوية البريطانية لما وراء البحار ، بصفة مستشارين فنيين ووكلاء لها ، غير انها لم تكن مربحة بسبب المنافسة ، والنفقات المرتفعة . وكذلك استمرت شركات الطيران البريطانية والامريكية والهولندية والفرنسية ، وغيرها تستخدم المطارات العراقية ، وكان انفاق حوالي مليوني دينار على انشاء المطارات يؤلف جزءا من مشروع انمائي مدته ست سنوات .

اما مصلحة الانواء الجوية التي بدأت في سنة ١٩٣٦ بغرفة واحدة ، فقد اصبحت الان تدير ، تحت اشراف وزارة الدفاع ، اثنتي عشرة محطة ، وكثيراً من الدوائر المهيأة لتوقعات سقوط الامطار ، وتستخدم اتصالاتها اللاسلكية الخاصة بها ، واعداد التقارير عن التوقعات الجوية في منطقة بغداد كل نصف ساعة . وعند اختتام هذه الفترة بلغت المواصلات السلكية واللاسلكية مستوى رفيعا . ذلك لان الخطوط الرئيسة لهذه المواصلات قد تم تجديدها بصفة شاملة ، وتضاعفت اعدادها ، وتوسعت على نطاق واسع ، كما انشئت البدالات الذاتية للهاتف في البصرة وفي بغداد ، والضواحي المحيطة بهما ، واصبح استعمال الهاتف والبرق مألوفاً ، ومن الامور التي لايمكن الاستغناء عنها من لدن كل الطبقات ، ماخلا الطبقات المتأخرة كثيرا . كذلك تم اكمال محطة البث اللاسلكي في ابي غريب في سنة ١٩٥١ بمدى وتصميم عصريين واسعين يضمنان الاتصال باوربا وامريكا ، وكانت هذه المحطة تستخدم للاذاعة القومية ، كما اعد مجلس الاعمار خطة لانفاق مليوني دينار على المواصلات السلكية واللاسلكية خلال الفترة مابين ١٩٥١ و ١٩٥٦ .

حدث تأخير في تحسين الطرق خلال السنوات ١٩٤٦ – ١٩٥٠ ، وذلك بسبب الضيق المالي في السنوات التي اعقبت الحرب . وكان تحسين الطرق مع بناء الجسور يؤلف جزءا من المشاريع التي كانت النية معقودة على انجازها عن طريق مجلس الاعمار خلال السنوات الخمس المارة بين ١٩٥١ – ١٩٥٦*** ذلك لان اكمال هذا المنهاج سوف يحدث تحولا اساسيا في اوضاع النقل والسفر داخل العراق ، وما يتبع ذلك من نتائج اقتصادية بعيدة المدى .

كان الطريق الذي تستخدمه سيارات «شركة نيرن» الى دمشق ، ما يزال يستخدم بصفة منتظمة ، وقد نظمت وسائل النقل فيه بصفة رفيعة ، وذلك باستعمال السيارات المزودة باجهزة

*** قدرت نفقات المشاريع التي اهتمت بالطرق الرئيسة مع الجسور اللازمة بمقدار مليونين وثمانمائة الف دينار لطريق البصرة – العمارة الكوت – بغداد ، ومليونين ونصف مليون دينار لطريق بغداد – كركوك – اربيل ، وثلاثة ملايين واربعمائة وخمسين الف دينار لطريق بغداد – الشرقاط ، كما خصص مبلغ اربعة ملايين واربعمائة وخمسين الف دينار للطرق الجبلية ، وستة ملايين ومائة وسبعة وستون الف دينار للجسور المتنوعة ، ومليون وخمسمائة وخمسون الف دينار لطريق الحلة – النجف ، ومليون وثلاثة الف دينار لطريق الحلة – الديوانية – الشامية وخمسة ملايين وربع المليون دينار لانشاء عدد من الطرق القصيرة الاخرى .

تكييف الهواء من قبل الشركة الاصلية او وكلائها . ولم يكن طريق داوتجن يستعمل الا قليلا .
كما ان الطرق التي تؤدي الى نجد وبلاد فارس لم يكن استعمال وسائط النقل فيها يعد من الامور المهمة ، في حين فقدت الطرق الرئيسة المارة الى الاردن وفلسطين قيمتها ، عندما اقدمت دولة اسرائيل على اغلاق منفذ البحر التي كانت تمد تلك الطرق .



٥. المدينة والريف بعد نصف قرن

في نهاية عملية احصاء النفوس التي اجريت سنة ١٩٤٧، اعلن ان عدد سكان العراق قد بلغ اربعة ملايين وثمانمائة الف نسمة[١] وبهذا يكون عدد السكان قد تضاعف منذ بدء القرن الحالي. ولكن توزيع السكان لم يتغير بصفة عامة[*] بالنسبة الى المدن والقرى الممتدة، والى مناطق الريف العشائرية والبدو. ذلك لان حوالي الربع من مجموع السكان كانوا من سكنة المدن، وخمس السكان كانوا من البدو الرحل، والباقي من الفلاحين المتوطنين في الارياف. ولقد بقيت مناطق واسعة من السهوب الصحراوية، والجبال القفراء، غير مسكونة في الواقع[٢]

---

(١) هذا العدد بل اكثر منه كثيرا جدا يعيش الان في مدينة بغداد وحدها من العراقيين انفسهم، ومن دون ادخال الاجانب فيهم، وكل هذه الزيادة الواسعة قد نتجت عن الهجرة المكثفة من المدن الاخرى والارياف. ولقد بدأت هجرة ابناء الريف منذ اوائل سني الثلاثينات هربا من سوء الاوضاع في الريف ومن قسوة رجال الاقطاع وبحثا عن مصادر الرزق ولتحقيق بعض المآرب السياسية في الدرجة الاولى. ولكن طوفان الهجرة انفجر بعد ثورة الرابع عشر من تموز ١٩٥٨ فلم يستطع قانون الاصلاح الزراعي الذي شرع في الايام الاولى للثورة، ان يوقف تلك الهجرة او ان يخفف من غلوائها واثارها الوخيمة على اهم واضمن مورد من موارد البلاد وهو الزراعة. وكانت المبادرة بالتصنيع، ومن دون تخطيط ودراسة متقنة من العوامل الفعالة التي ساعدت على اتساع نطاق الهجرة، ذلك لان الفلاحين الذين تركوا اراضيهم وهاجروا الى المدن، قد امتصتهم المعامل والمشاريع الصناعية الجديدة، دون ادنى عناية بتدريبهم واعدادهم لهذه الأعمال مما ادى الى خسائر عظيمة وخطيرة. فقد ادى ذلك الى توقف الانتاج الزراعي توقفا عاما في البلاد، والى اخفاق اكثرية المعامل والمصانع في الانتاج وفي نوعيته واسعاره حيث مايزال العراق حتى الان يعاني من اخفاق معظم هذه المعامل وعدم كفايتها، واضطراره الى استيراد ذات المواد التي تنتجها هذه المعامل ذاتها من البلدان الاخرى وبالعملات النادرة وفي مقدمة ذلك معامل انتاج الزيوت النباتية، والصابون، والسمنت والسكاير والعدد الكهربائية وغيرها.

(*) يراجع توزيع السكان حسب الوحدات الادارية في الملحق (ب) من الكتاب.

(٢) ماتزال امثال هذه السهوب والجبال غير مستغلة وخالية من السكان حتى الان. مثال ذلك المناطق الواسعة الصالحة للزراعة والممتدة زهاء سبعين كيلومتر طولا من الكوت الى بدرة وجصان وبين العزيزية وهاتين البلدتين. فهذه الاراضي الشاسعة ماتزال ارضا خلاء لانبت فيها ولابشر وكذلك الاراضي الواسعة جدا والقائمة على ضفاف نهر الثرثار سواء منها المحصورة بين الضفة اليسرى من الثرثار ونهر دجلة، او المحصورة بين الجهة اليمنى ونهر الفرات فهذه المناطق، وهي من اكثر الاراضي خصبا، مازالت مهملة غير مستثمرة، ولايعيش فيها سوى عدد قليل من ابناء الريف الذين اعتادوا تربية المواشي والاعتماد على العشب وحده في ذلك ناهيك عن الاراضي الواسعة الممتدة بين الحضر وسنجار فان معظمها غير مستغل وغير مأهول حتى الان.

ولابد ان تظل على هذه الحالة لمستقبل منظور. ولعل اوسع هذه المناطق هي التي بقيت منفصلة عن الادارة في الانحاء الشمالية والمناطق الجنوبية من صحراء الشامية والتي تبلغ مساحتها زهاء الخمس من جميع اراضي العراق. وكانت كثافة السكان بالنسبة الى القطر كله في نطاق احد عشر شخصا للكيلو متر الواحد، او في حدود ثمانية عشر شخصا، اذا ماحذفنا المناطق الصحراوية. وكانت المحافظات التي تضم اكبر عدد من السكان هي محافظة بغداد التي كان عدد سكانها يبلغ ثمانمائة الف نسمة، وتليها في ذلك محافظة الديوانية، وذي قار (الناصرية) والعمارة. وكانت اعظم كثافة للسكان تبلغ تسعة واربعين شخصا في كربلاء، واربعين شخصا في بغداد، ومن ثم تأتي في اعقاب ذلك كل من محافظات البصرة، والناصرية والسليمانية.

وفي كل انحاء القطر التي تتباين في منظرها وتقاليدها، بقيت طريقة الحياة التي فرضها المحيط المحلي، والموارد، والتكتلات الاجتماعية طيلة قرون، وكأنها لم تتغير، لاول نظرة، تغيرا جوهريا، ولسوف تقدم الصفحات التالية النتائج الناجحة عن القاء نظرة اقرب عن المجتمع العراقي خلال نصف قرن.

فبالنسبة الى التطور الذي طرأ على جماهير كانت اقل تجانسا واقل براعة مما كانت عليه الجماهير التي وجدت قبل سنة ١٩٠٠، شهدت الخمسون سنة التي انصرمت نوعا من التقدم في هذا المضمار. غير ان التحول كان ناقصا بشكل واضح. فلقد بقي الانشقاق والتمييز الطائفي، ليس بالنسبة الى المذهبية حسب بل وحتى من الناحيتين السياسية والاجتماعية، امرا معروفا ومميزا.

صحيح انه لم يبق سوى تمييز ضئيل في ميدان المصالح الحكومية، والحرف والصناعات. ذلك لان الشيعة سارعوا في ميدان التجارة الى ملء الفراغ الذي حدث بخروج اليهود من العراق، وتقلص نفوذ المجتهدين من الشيعة كثيرا، ولكن مع كل ذلك بقي الانقسام الطائفي القديم يعتبر عنصرا ملحا من عناصر الانقسام العام، وانعدام الوحدة، سيما وان العقيدة الشيعية التي كانت تستخدم لاغراض التجمع السياسي، كان من شأنها ان تثير رد الفعل لدى اهل السنة دون ريب.

على ان حركة البعث الاسلامي الواعية من الناحية السياسية، والتي لم تخل من تطلعاته، مثل حركة الاخوان المسلمين في مصر، لم تستطع ان تقدم اية دلالة على تطورها داخل العراق، وذلك لان الدين السلفي فقد الكثير من قبضته على الشباب المثقف، لان التعليم كان بمجموعه تعليما دنيويا، وبهذا اصبحت العقيدة الاسلامية والتقيد بها، اكثر ندرة الا بين النساء وكبار السن من الرجال. واذا كان الاسلام لم يستخدم سلاحا لمعاداة الاجانب الا قليلا، فان ادعاءات الشيعة، وتذمرهم مازال ملتهبا، ومايزال عنصر التطرف بينهم قائما، اذ كان افراد العشائر الشيعية اكثر انقيادا، وان لم يكن ذلك اقل استعدادا واكثر عمى عما كان عليه في

السابق، بالنسبة للتوجيه الرجعي الذي تتمسك به مدن الشيعة المقدسة، ولاسيا بالنسبة الى الفرس المقيمين في العراق، والذين كانت تنظر اليهم حكومة طهران نظرة التشجيع .

• • •

تحقق مستوى طيب من الامن والعدل، كان اعلى، دون شك، من اي مستوى عرفه العراق خلال قرون، في كل المناطق او في معظمها. فلقد تطورت المحاكم خلال السنوات الخمس الاخيرة، بانشاء محكمة البداءة في مقر كل محافظة، وبانشاء محاكم للاستئناف في كل من البصرة، والموصل، والحلة، وبعقوبة وكركوك وفي العاصمة بغداد ايضا. ولكن قانون دعاوى العشائر بقي ساري المفعول مع ادخال تعديلات جديدة عليه. كذلك اصبح القانون المدني الذي شرع في سنة ١٩٥١ نافذ المفعول بعد مرور سنتين على تشريعه، في حين تم العمل بتنفيذ القانون التجاري الجديد قبل ذلك الوقت. واحتفظ القانون الجنائي الذي شرع في سنة ١٩١٨ بنفوذه[٣]. وبصفة عامة ابرز النظام القضائي، بالقوانين، والمحاكم، والحكام والقضاة، كل مظاهر الكمال بالنسبة الى حاجات العراق الراهنة، وذلك هدف تم التوصل اليه خلال ثلاثين سنة، وبجهود موجهة توجيها جيدا حيث غادر اخر حاكم بريطاني، هو السر بريجادر، العراق في سنة ١٩٥١[٤].

• • •

كانت قوات الشرطة التي يقرب عددها من حوالي عشرين الف رجل، من كل الاصناف، تضم اقساما من الشرطة السيارة المجهزة بالاليات يبلغ عددها حوالي ستة الاف رجل. ولقد استعادت الشرطة مستوياتها التي فقدتها بصفة مؤقتة، في سنة ١٩٤٨[٥] وغدت يحس بوجودها، وعلى فترات عرضية، بانها قوة كافية يمكن الوثوق بها. ولقد غدت هذه القوة منظمة تنظيما تاما، ومدربة، ومخصصة للنهوض بواجبات مختلفة متعددة في المدينة وفي الريف، والمناطق الجبلية والصحراوية. وكان مستوى ضباطها رفيعا بصفة غالبة، ومدعاة للاعجاب. في حين

---

(٣) يقصد بذلك قانون العقوبات البغدادي الذي ادخلت عليه تعديلات كثيرة منذ تشريعه بعد احتلال بغداد مباشرة، كانت معظمها تنطوي على التشديد وتضييق الخناق على الحريات وكان اخر تعديل عليه قد اجرى سنة ١٩٧٩ .

(٤) كان بريجارد يتولى رئاسة محكمة تمييز العراق في بغداد طيلة مدة تزيد على اكثر من عشرين سنة .

(٥) اشارة بذلك الى حوادث الوثبة ضد معاهدة بورتسموث، في كانون الثاني ١٩٤٨ .

اصبحت ادارة السجون تدار حسب الاسس العصرية والانشائية، وتؤلف عالما مغايرا عن الادارة التي اتسمت بالقذارة والفساد خلال العصور الوسطى، وفي العهد الحميدي.

اما الجيش الذي شهد خلال حياته التي امتدت ثلاثين سنة، كثيرا من الايام الجيدة والسيئة معا، فقد اصبح الان يحوي مادة جيدة نوعا ما، ومغايرة الى حد ما. ذلك ان قيادته قد غدت هي الاخرى فاخرة، في الوحدات الصغرى، ومن المشكوك فيها في الوحدات الكبرى، وكانت حماسته القتالية تبرز دوما في جزء محدد من قيادته على الدوام، واصبحت تنظيماته(٥) ومؤسساته التدريبية، وتركيزه على الوحدات الالية والجبلية ملاءمة بصفة جيدة لواجباته الداخلية المتوقعة. اما بالنسبة لارسال الجيش للخدمة خارج البلاد، ماخلا ذلك لاغراض احتفالية، فلم يتم تطبيق ذلك في الوقت الحاضر.

على ان مدى مقاومة الجيش في المستقبل، للاغراء الذي يؤكد لافراده بانهم لسيوا خدما للدولة بل اسيادا لها، لابد من ان يظل من الامور المنظورة. في مدى عشر سنوات منذ المغامرة التي قام بها العقداء الاربعة(٦)، لم تظهر اية دلالة تشير الى تكرار الانقلابات التي حدثت منذ سنة ١٩٣٥ حتى سنة ١٩٤١، او اي تقليد للعقداء الدكتاتوريين السوريين في تلك الايام(٧).

غير ان الخطر كان حقيقيا، ذلك لان قادة الجيش كان يعوزهم الاحساس المخلص بالخدمة للدولة والطاعة لها. فهم لايشعرون الا بقدر ضئيل من الاحترام لمؤسسات الدولة المدنية، او التضامن مع الجماهير، ولايدركون شيئا ما سوى انه لاتوجد اية قوة او سلطة، في اية حالة، تستطيع ان تصدهم وتردعهم.

نعود الان الى العناصر التي كان المجتمع العراقي يتألف منها. ان الذي يزور خيام البدو الحقيقيين الذين لايزالون يحيون حياة شاقة ملؤها الجوع والفاقة والتي لايحسدون عليها، يرى فيما بينهم ان كل مظهر وكل حالة وكأنها لم تتغير خلال الخمسين او الخمسمائة سنة التي انقضت اخيرا. ذلك لان قبائل عنزة وشمر، وهما اكثر تأثيرا، وكذلك قبيلة الضفير، لم تظهر سوى القليل

---

(٥) كانت الخدمة في الجيش العراقي اجبارية (مع وجود اعفاءات اصولية يمكن شراؤها بالمال) لمدة سنتين، تعقبها خدمة احتياطية الى حد سن الخامسة والاربعين. اما الخدمة الطوعية فكان يستعاض بها عن الخدمة الاجبارية، اما خلال السنتين الاوليين، او مابعدهما، وتستمر لمدة احدها سنتين بعد تلك الفترة، ومن دون ان يؤثر ذلك في احتمال تعرض الفرد لاداء خدمة الاحتياط اذا مالزم الامر.

(٦) اي ثورة ايار سنة ١٩٤١.

(٧) اشارة الى الانقلابات العسكرية الثلاثة المتلاحقة في سوريا في اواخر سنة ١٩٤٩، واوائل سنة ١٩٥٠ التي قام بها كل من العقيد حسني الزعيم، والعقيد سامي الحناوي، والعقيد اديب الشيشكلي والتي كانت في الدرجة الاولى من نتائج اخفاق الحكومات العربية في حرب فلسطين سنة ١٩٤٨.

من دلالات التجدد. ذلك لان الفقر الشديد الذي تعيش فيه قد منعها من الحصول حتى على القليل من التجهيزات المادية البدائية. ولذلك كان تنظيمها الاجتماعي، وعزلتها، تحولان في الغالب، دون كل وسائل التقدم الثقافي. صحيح ان بعض كبار مشايخ البدو اصبحوا يمتلكون السيارات التي تحمل اجهزة اللاسلكي، ويزورون المدن باستمرار، وان اولادهم غدوا يختارون، مصادفة، وسائل الحياة الغربية الغريبة عن الوطن. كذلك اصبح جليا ايضا، ان القوى الالية الحكومية اصبحت تستطيع الان ان تتغلغل الى ابعد المناطق في البادية[٨] وذلك لان تيسير الاتصال مع الحكومة، منذ العهود التركية، قد تم تشجيعه عن طريق استعمال لغة البلاد في الادارة، بدلا من اللسان الاجنبي الذي لم يكن معروفا لدى افراد العشائر[٩]. كما ان الميل الى التوطن والاستقرار عائلة فعائلة على اطراف الصحراء المتاخمة للمناطق المزروعة لم يكن اقل، بل ربما غدا اوسع مما كان عليه قبلا.

ولذلك اصبحت الحياة البدوية في الجبال الكردية في الوقت الحاضر، اكثر تعقيدا بالاغراءات التي تمثلها الحياة القعيدة غير المتحركة من ناحية، ومن ناحية اخرى، مقيدة بقيود الحدود المعقدة، وان كانت اقل تشددا. فكل هذه العناصر كانت تعمل عملها، وقد قلصت كثيرا من سلطة شيوخ البدو في مضايقة الحكومة او الجيران، غير انها مع كل ذلك، لم تغير من طريقة قيام المشيخات واشكالها، ولا اسسها الاجتماعية والاقتصادية. فبين البدو الحقيقيين مايزال التنظيم العشائري القائم هو الذي يؤلف الوحدة الجوهرية للتجمع، ووجوب اتباع الشيوخ او الاغوات.

في انحاء الريف التي يسكنها افراد العشائر غير الرحل، ادى استمرار المظهر الخارجي من الهيئة والملبس والسكن والحديث والطعام، الى اخفاء النصف من التغييرات التي احدثتها الخمسون سنة الاخيرة. ومع ان المنطقة التي تسودها الحياة القبلية قد تقلصت محليا نتيجة اضعاف الرابطة العشائرية في القرى الممتدة، الا انه مع كل ذلك تستطيع اول نظرة، ان تكشف، بالنسبة الى البقية، عن عالم يبدو بانه لم يتغير عما كان عليه قبل خمسين سنة، لا في النفوذ الذي مايزال يحتفظ به شيوخ كثيرون بين عشائرهم، ولا في الاحتمالات المتواصلة لحدوث الانفجارات العشائرية، وفي التأخر الملح للعقلية العشائرية الجاهلة الساذجة، وفي مستويات العيش الواطئة بصفة محزنة، للفقراء ذوي الاحساس المتبلد، بما هم عليه من سوء التغذية،

---

(٨) ذكر المؤلف كلمة البادية بالفظ العربي وبالحروف الانكليزية Badia.

(٩) يقصد بذلك اللغة التركية التي فرض استعمالها في دوائر الدولة وفي التعليم ايام الحكم العثماني، والتي ظل سكان الارياف والعشائر بعيدين عنها ولم يتعلموها، مثلما كان الامر بالنسبة الى سكان المدن وعلى الاخص المدن الرئيسة بغداد والبصرة والموصل.

والمرض وقصر الحياة .

ومع كل ذلك ، وفي اقل من العشرين سنة التي اعقبت الاستقلال،حدثت تغييرات في الاتجاهات ، اذا ما لخصناها نرى انها يمكن ان تعد اربعة اضعاف عما كانت عليه قبلا. وكانت اولى هذه التغييرات اقتصادية ، وذلك بفضل السيطرة ، بصفة افضل ، على امور الري ، والمساعدة الكثيرة التي يجري تقديمها من قبل الدولة او الافراد في ميدان الزراعة ، وتحسين المواصلات. كذلك حصل تقدم ، وان كان طفيفا وحذرا بالنسبة الى امن المعيشة وضمانها .

وكان التغيير الثاني نفسيا ، وقد برز في التوسع الجزئي للعقلية العشائرية لكي يشمل جزءا ما ، من الاهتمامات بالعالم الخارجي الذي اصبح الان يمكن الوصول اليه عن طريق وسائط النقل اليسيرة ، والتجارة الحيوية ، وانتشار الخدمات الاجتماعية الحكومية ، واجهزة اللاسلكي للاستقبال ، وازدياد استخدام المصنوعات الالية ، والادوات الغربية. فكل اكتشاف جديد ، وكل بحث للشرطة عن تعداد النفوس ، واستعمال خطوط البرق او كل تخطيط لقنوات الري ، كان يعتبر خطوة منفصلة عن العزلة القبلية القديمة .

ويكمن العنصر الثالث للتغيير في تغلغل قوات الدولة في الارياف ، تلك القوات التي اصبحت الان متحركة ومجهزة جيدا بالاليات التي لم تكن تملكها من قبل ، وغير مرتشية ، وتستطيع في مدى يوم واحد ان تتقدم وتشتت اي تمرد قد يحصل في اقصى المناطق. لقد اصبحت العشائر الان في الحقيقة ، ولاول مرة والى الابد ، لاتحظى بالمساعدة من الناحية العسكرية. واخيرا فان انقاذ الروحية القبلية بحد ذاتها ، قد خطا خطوات اخرى نحو ذلك التقدم المحتوم ، والذي لابد ان ينتهي سواء في العراق ، او في سكوتلاندا ، ومن دون ريب ، عن طريق تقليص القبائل والعشائر ، وتحويلها الى مجرد بقايا صورية تثير الحنين الى المباهاة والمفاخرة !.

في سنة ١٩٥٠ قدمت كثرة واسعة من الجماهير غير العشائرية ، اهتمامات وولاءات يمكن ان تنافس تلك التي كانت تتسم بها الاصول العشائرية القديمة. ذلك لانه بعد استقرار السكن ، والامن من الغارات ، ووجود الحكومة ، لم يعد يسمح الا بالاقل والاقل من المجالات لقيام زعامات حسب الاسس القديمة. كما ان الاقتصاد الجديد الذي تمثله الزراعة ، قد شارك — في كثير من الحالات — ضد التجمع والموالاة الجديدة. فالشيوخ الذين لم يعودوا يعينون من قبل الدولة ، او ان تعترف بهم ، وغالبا ما كان هؤلاء من بين النواب ، او من منصبيدي المناصب الوزارية ، كانوا يسكنون بكثرة في بغداد ، او في مراكز محافظاتهم المحلية ، وقد اصبحوا الان بعيدين عن التزمت القبلي ، في اقبالهم على مسرات المدينة ، في حين كان ابناؤهم يستطيعون الذهاب ، بل كانوا يذهبون فعلا الى الدراسات العليا ، او يقبلون على تلقف السفسطة الغربية ، في بيروت ، او كمبرج او كولومبيا .

لقد اصبحت صورة العالم العشائري العراقي في سنة ١٩٥٠، في الواقع، صورة مرحلة مبكرة، ولكن ليس اقدم مرحلة من الانتقال القلق، ولربما الانتقال غير السعيد، من احوال فوضوية نائية وتقليدية، الى حضارة كانت ذاتها حضارة انتقالية وغير مصاغة لبلد واسع او الى مدنه الكبرى. فهنا بدأ الالتئام والتوافق بين الشعب القبلي واللاقبلي بصفة جيدة. ومهما كانت عوامل التأخر المستمر المحيطة به، فان العراق لم يكن في سنة ١٩٥٠، يتوقع، وللمرة الاولى، من تجمعاته القبلية ماكان يتوقعه في العهد القديم، من مجرد الاضطراب، والمقاومة، بل على العكس من ذلك؛ المشاركة الاقتصادية والسياسية النافعتين للدولة.

كان كل من يراقب الاحوال في سنة ١٩٥٠ يواجه في المدن ذات المشاكل التي يواجهها لدى العشائر. واذن فما هو مدى التغيير الواسع، ان وجد مثل هذا التغيير، الذي جاءت به الخمسون سنة؟ الحق ان ذلك التغيير كان ملموسا على اقل تقدير. فاذا كانت بعض اقسام المدن ضيقة، خالية من الهواء، وغير مخططة كما كانت عليه المدن القديمة، واذا كانت الحمير ماتزال تحمل ذات السلع التي تعرض للبيع وسط الذباب وضجيج ذات الاسواق، فمع ذلك نجد الشوارع الرئيسة للنقل، والاحياء الجديدة قد تغيرت كلها، ولم يعد احد يستطيع تمييزها، وان الضواحي العصرية المحيطة بها، والخدمات العامة التي وفرتها الدولة الآن، لابد وان تساهم في تقييم الوجود المدني الجيد.

لقد اصبحت لكل المدن مواصلات متحسنة، وضواحي تتألف من عدد قليل من المساكن الغربية الحديثة «فيلات» وتمتد هذه المواصلات الى كل المناطق ذات الشوارع المخططة، والارصفة المزروعة، والحدائق العامة والبنايات العصرية العامة(*)، والتي تفوق، في نطاق اوسع، تلك االبنايات التي عرفتها تركيا العثمانية. ومع ان هذه البنايات كانت قليلة، ومشيدة بنفقات اقل، فالظاهر ان ذلك قد حصل نتيجة الضغط والاجبار(**).

ولم تكن خدمات تنظيف الشوارع، ماعدا مداخل بعض الاحياء القديمة، تامة، ولكن امكن صيانة الشوارع بصفة جيدة، وازداد تبليطها وتوسيعها كلها اصبح ذلك مستطاعا. وكانت مشاريع تخطيط المدن تحت التنفيذ، وتنطوي في النهاية على الامل في تطوير بناء المساكن للفقراء العاملين ولموظفي الحكومة، ولقد شجعت المشروعات الخاصة بالبناء نظرا لتحسن حالة الامن، والمحافظة على حقوق التملك، وتطوير المرافق في المدن، والحاجة الى منافذ للاستثمار السليم.

(*) تعد مقبرة الملك فيصل الاول التي شيدت خلال الفترة ١٩٣٤ - ١٩٣٦ من اجمل الابنية العصرية في العراق.

(**) خصص مجلس الاعمار مبالغ كبيرة لمشاريع البناء خلال الفترة ١٩٥١ - ١٩٥٦. فلقد خصص مبلغ خمسة ملايين واربعمائة الف دينار للمستشفيات والمؤسسات الصحية، وخمسة ملايين للمباني العامة الاخرى، ومليون وستمائة وخمسون الف دينار لاسكان الموظفين والفقراء.

وفي العاصمة انشئت مصلحة عصرية للنقل يديرها مجلس بغداد لنقل الركاب، تقوم بتجهيز كل الحاجات. ومن الطبيعي فان مثل هذه المصلحة سوف يتم انشاؤها، كما هو الامر حاصل في البصرة، في كل حواضر المحافظات. واصبحت سيارات الاجرة وفيرة في كل مكان، واستطاعت ان تطرد العربانة[١٠] من الشوارع تقريبا ولكن ليس بصفة تامة. وكانت السيطرة على وسائل النقل فاخرة، وحلت الجسور الحديدية والحجرية في كثير من الاماكن، عدا بغداد، والموصل، محل القوارب الصغيرة البدائية التي تعبر بها الانهار. واخذت حوانيت عصرية تظهر الى حيز الوجود سنة بعد اخرى، وتستطيع ان تجهز المشترين من كل الطبقات بجميع الحاجيات حتى الاستثنائية منها، كما اخذت الفنادق تقترب من الخدمة التي تقدمها الفنادق الاوروبية، وتم انشاء دور للسينما بصفة حسنة، فاصبحت الاشرطة الامريكية والاوربية والمصرية يجري عرضها في حوالي ستين دارا لعرض الصور في العراق.

وانشئت خدمات وافية لاطفاء الحريق في المدن الرئيسة فبررت وجودها فيها بصفة جيدة. واعدت خدمات اسالة الماء والقوة الكهربائية في كل المدن الكبيرة، وكانت محطة توليد القوة الكهربائية في بغداد ملكا لشركة بريطانية[١١] في حين كانت محطة البصرة تعود الى مصلحة الميناء، وكانت شركة النفط العراقية تقوم بتجهيز مدينة كركوك بالتيار الكهربائي الذي كانت توفره هذه الشركة.

* * *

كان تعديل قانون العمل الذي شرع في سنة ١٩٤٢[١٢] والنشاط الذي تمارسه وزارة الشؤون الاجتماعية، والاهتمام بادبيات مكتب العمل الدولي ومستوياته، واستخدام خبير بريطاني بقضايا العمل في سنة ١٩٤٩، من الامور التي ضمنت، ولو ان قسما من قانون العمل لم يتم تطبيقه، حصول تقدم حقيقي نحو الاهتمام الفعال باحوال العمل والحماية بالنسبة الى الاعمال

---

(١٠) كتب المؤلف كلمة «عربانة» باللفظ العربي ARABANA الشائع لدى العامة.

(١١) استحوذت هذه الشركة البريطانية في سنة ١٩١٧ على الشركة العراقية الموجودة لتنوير بغداد بالكهرباء وظلت تحتكر هذا المشروع حتى سنة ١٩٥٢.

(١٢) الحقيقة ان اول قانون للعمل كان قد شرع سنة ١٩٣٦ في عهد وزارة ياسين الهاشمي لكنه لم ينفذ وقد تم بعثه مجددا لكن القانون لم ينفذ بصفة عملية الا في سنة ١٩٤٢ وبعد ادخالات تعديلات كثيرة عليه.

المدنية. وقد امتد هذا التقدم الى تأليف نقابات العمل ووضع تعويضات للعمل، ومشاريع الاسكان والرفاه، وخطط السلامة الاجتماعية التي لم يتأخ تحقيقها الا بسبب كثرة نفقاتها العالية.

وفي الوقت ذاته انشئت تسهيلات محددة للرفاه من امثال المستوصفات والحوانيت العامة، والنوادي، وساحات الالعاب، تلك المرافق التي كانت تتم طواعية من قبل قلة من اصحاب الخدمات، مثلما كان عليه الامر بالنسبة الى مصلحة الميناء، ومصلحة السكك، والمزيد من الشركات الصناعية المعتبرة، حيث جهزت هذه التسهيلات على نطاق اوسع كثيرا، واصبحت جزءا من التنظيم الشامل من قبل شركات النفط.

• • •

اما بالنظر الى مستويات المعيشة الداخلية، فاذا كان صحيحا ان حركة التحديث، واقتباس الاسس الغربية التي برزت بين افراد الطبقات المتوسطة والتي هي اوطأ من المتوسطة في المدن، ماتزال تدع «الفقراء» يصيبون قليلا من التحسن في مساكنهم الخاصة، مما كانوا عليه قبل خمسين سنة خلت، فان نسبة العوائل التي غدت قادرة على ان ترتفع عن مستوياتها المنحطة القديمة، قد ازدادت، فاصبحت حياة الطبقة المتوسطة مثل الطبقة العليا، تبرز ظاهرة في تجهيزاتهم، وفي بيوتهم الداخلية، وامور الصحة والملبس، كما ان سلسلة من الاهتمامات والتغييرات الكبيرة، قد اخذت تؤثر الى حد ما، في الجيلين المتأخرين.

في الملابس التي يرتديها الرجال والنساء سوية، وفي مظاهر الاسر وسلوكها، وتهيئة وجبات الطعام، بل اكثر من ذلك بصفة عامة، في العائلة والحياة الاجتماعية، اخذت الطرق الغربية تفوز بمكانة كبيرة لها. ذلك ان مقاومة تحرر المرأة غدت الان في نطاق ضيق، كما ان الحجاب الذي اعتادت المسلمات استعماله. قد اصبح منبوذا بصفة متواصلة، واصبحت النساء يتعلمن ويدرسن، ويقبلن على الالتحاق بمؤسسات الطب والقانون، ويعقبن القضايا السياسية (بما في ذلك القضايا الشيوعية ايضا) ويساهمن في العمل الاجتماعي. وعن طريق «جمعية المرأة» الخاصة

---

(١) كانت الالعاب التي تجري ممارستها، هي: كرة السلة. وكرة القدم. وكرة الطائرة وبعض الالعاب الرياضية الاخرى، «الملاكمة والمصارعة»، ورفع الاثقال. ولعبة كرة المنضدة، و «الدومينو». والشطرنج. وكانت تنظم عدة فرق وبطولات بالنسبة لكرتي القدم والسلة. وكانت مهارة العراقيين في العابهم المختارة، فاخرة جدا.

بهن[١٣]، كانت اصواتهن تسمع بشأن المطالبة بالتحرر والانعتاق[١٤] ومع ذلك فان الاوساط التي مازالت النساء معزولات عنها بشدة، كانت ماتزال واسعة وكبيرة، وهي تشمل بيوتات عدد كثير من الوجهاء البارزين وبيت العائلة المالكة نفسها.

تشعبت الحياة الاجتماعية نتيجة الزيارات المتزايدة بين العوائل، وانتشار دور السينما والملاهي من الطرازين الشرقي والغربي معا، والمقاهي العصرية. وحافظت المقاهي التقليدية على روادها الرجال من مختلف الطبقات، وضمن درجة اجتماعية ينتمي اليها كل فرد، في حين بقي النادي ومقر العمل، يعتبران هما المركزان اللذان يتجمع فيهما الالوف. وتطورت حياة النوادي كي تشتمل على نوادي اجتماعية واسعة للاغنياء ولاصحاب الحرف من افراد الطبقة المتوسطة، ونوادي المحامين وضباط الجيش والموظفين من مختلف فروع الحكومة، بالاضافة الى وجود اكثر من عشرة نواد رياضية، غير ان هذه النوادي الرياضية التي كان لها انصارها المتحمسون، قد اعيق تطورها نتيجة نقص الملاعب والاموال، ولربما نتيجة وجود بعض البقايا من روح المحافظة. والحقيقة ان الالعاب[*] لم تكن موجودة في العراق قبل جيلين ماعدا الالعاب العشائرية، والمصارعة التي كانت ماتزال ابعد عن التكوين حتى بين جماعات الشباب، من ان تصبح الموضوع الرئيس للاهتمام الشعبي الذي تحتله في اوربا في امريكا والذي يتمثل في سباق الخيل، وهو في كل مكان يعتبر عملا نصفه رياضي ونصفه الاخر تجاري، والذي كان يحظى بالدعم الجبار. فقد كانت لعبة سباق الخيل هذه تنظم وفق القانون، وتطبيق ترتيبات الاجهزة العصرية التي تنظم بها عملية جمع الارقام، واماكن الوقوف ووسائل المسرة، وكان يجري تنظيم لعبة السباق هذه من قبل شركتين،ومن هاتين الشركتين بدأت اخلاف من نوادي السباق وشركاته تتألف من سنة ١٩١٨ ومابعدها، حيث استطاعت احدى هذه الشركات ان تحافظ على دورها في ضاحية بغداد الجديدة[١٦] في حين تركزت الشركة الثانية في احدى المزارع الملكية التي يجري اعدادها الان[١٧] وكانت العاب الصيد والبولو من الالعاب التي تمارسها طائفة صغيرة من

---

(١٤) تأسست جمعيتان رئيستان لمساعدة المرأة العراقية على التحرر في اوائل سني الاربعينات. اولاها الاتحاد النسائي العراقي الذي ضم عضوات من الاسر الكبيرة والمتنفذة وقد ترأسته السيد «اسيا وهبي» زوجة الاستاذ توفيق وهبي. والثانية هي «جمعية تحرير المرأة» وكانت يسارية الاتجاه وقد ترأستها «نزيهة الدليمي» واصدرت الجمعيتان مجلتين باسم الاتحاد النسائي وتحرير المرأة.

(١٥) اللعبة المعروفة عندنا بالدومنة.

(١٦) كانت هذه هي شركة محمود نديم الطبقجلي وشركائه وقد انشئت في سنة ١٩٤٩ وبعد المباشرة بانشاء بغداد الجديدة في سنة ١٩٤٧.

(١٧) هي ساحة سباق الخيل الحالية في ضاحية المنصور وكانت تستغلها الشركة الاصلية التي انشئت للسباق في سنة ١٩١٨ وكان مدراء هذه الشركة من الانكليز منذ انشائها حتى الى وقت متأخروقد الغيت سباقات الخيل بعد ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ مباشرة ولكن ارتؤي مؤخرا اعادتها فاعيدت. وكانت ساحة السباق على اثر احتلال الانكليز بغداد تقع في المنطقة التي تقوم فيها الان كلية الاداب، والسايلو، ومحطة قطار كركوك القديمة.

ضباط الجيش وبعض الاغنياء تحت رعاية عبد الاله.

* * *

كان للزيادة الواسعة في الحركة والسفر للجميع، حتى بالنسبة الى اكثر الطبقات فقرا، تأثيرات اجتماعية ونفسية قوية، ادت الى تبسيط الافق الضيق القديم، وتشجيع اهتمامات اوسع نطاقاً. ويصدق ذات الشيء على السفرات التي يقوم بها كل سنة، الوف من ذوي الاوضاع المالية الجيدة الى تركيا، او سوريا او لبنان او اوربا، حيث كانت هذه البلدان تعتبر مناطق للتخلص من حر الصيف، وتفضل بشكل متزايد على مواطن التلال العراقية في كردستان والتي لا توفر سوى البرودة والمناظر ولكن في ظروف كالحة صارمة (*) وكان انفاق مبلغ يزيد عن مليونين ونصف المليون من الدنانير العراقية على المصايف ودور الاستراحة يمثل في سنة ١٩٥١ جزءا من مشروع خمس سنوات اعده مجلس الاعمار.

* * *

ومع ان الامية والجهل العميق، ما يزالان منتشرين في المدن ويسودان العشائر بصفة واسعة، الا ان الهزات التي اصابت عالمي المدينة والعشائر خلال خمسين سنة قد احدثت زيادة واسعة جدا في الاتصال مع الغرب، ذلك لان تيسير السفر والمواصلات، واتساع التطور المادي، ووفرة الصحافة والاذاعة، ومضاعفة عدد المدارس مضاعفة كبيرة، وممارسة السياسات القومية والمحلية، كل هذه الامور قد عملت عملها في تخفيف العزلة القديمة للحياة التي يحياها الفقراء وعقولهم، والتي ازدادت بشكل لا يقاس، بين الطبقات المتعلمة، ومعرفتها بالعالم وبالازمان. فمثل هذه المعرفة، والتي كانت في الغالب سطحية ومضطربة، كانت مع كل ذلك.

(*) كانت هذه الاماكن التي بدأت تأريخها في اواخر سني الثلاثينات تتمثل في موقع صلاح الدين (بيرمام سابقا) الذي اقيم فيه فندق واسع مع منازل خاصة يمكن استئجارها، وشقلاوة، وحاج عمران اللذين توجد فيهما فنادق صغيرة، وسرسنك الذي انشيء فيه فندق متوسط مع سكن ملكي جعله اكثر حداثة. وكانت جميع هذه الاماكن يمكن الوصول اليها بطرق مطروقة[١٨].

(١٨) استحدثت في السنوات الاخيرة بعض المصايف كان من اهمها السولاف، وسره رش، وزاوية ولكنها ما تزال ضيقة ولا توجد فيها سوى فنادق قليلة لا تسد حاجة المصطافين اليها، والحقيقة ان انعدام الخدمة والروحية الحقيقية للاصطياف سواء عند الحكومة او الاهالي ما يزال من العوامل الاساسية التي تقلل من الاقبال على المصايف العراقية الا في الاوقات التي يحظر السفر فيها خارج العراق.

تمثل عالما بعيدا عن عالم ذلك «الافندي» العراقي الذي كان يعيش في سنة ١٩٠٠، في محتوى وفي نطاق ذات التسلسل الاجتماعي لاولئك الذين تأثروا به. ذلك لان عدم الاهتمام بالتعليم العالي مايزال نادرا، وقد انحصر علم الفقه لدى مجرد اثنى عشر طالبا من دارسي التاريخ المحلي، او الاثار، او الحكايات الكردية والتقاليد القبلية، حيث انتج البعض منهم في هذا المجال رسائل لها اهميتها وقيمتها. اما الخريجون العائدون من الجامعات الاجنبية فقد بلغوا، على الاقل، مستوى تشير اليه شهادات الدكتوراه التي حصلو عليها، غير ان قلة من هؤلاء قد اجتذبتهم ثقافة الغرب التي كانت اكثر عمقا.

لم تزل دراسة الاصول الاسلامية والتاريخ مطبقة لدى جميع الاوساط الاسلامية المتمرسة بالقضايا الوطنية، على اختلاف طوائفها. وما تزال هذه الدراسة تجتذب الطلاب اليها، غير ان انفصالها الظاهر عن العالم الحي، كان يسبب النفور لدى الجيل الصاعد المتميز بالنشاط وبالحيوية، ذلك لان هذه الدراسة كانت تعرض صفة اقل اهتماما من الحرف او السياسة، وكانت مغرياتها مجردة من القوة في مجتمع فقد فيه الاسلام الكثير من سلطانه، (بل فقد كل هذا السلطان تقريبا في ميدان السياسة).

ومن ناحية اخرى كانت المستويات الحرفية في ميدان الدراسات الطبية والاثرية والشرطة والعسكرية، وفي ميدان الهندسة، والاقتصاد، والعلوم التطبيقية، قد تجاوزت حد المقارنة بما كانت عليه قبل جيل سابق، وقد افسحت المجال امام افضل صفات العقل العراقي. وكان نتاج التأليف الادبي الاصيل ضئيلا، ذلك لان المطابع الحديثة (من طراز لاينو تايب) التي انشئت منذ الحرب العالمية الثانية، لم تنتج بصفة رئيسة، سوى المؤلفات والكراريس الخاصة بالدوائر الحكومية او المؤسسات الاخرى، وكانت معظم هذه المؤلفات من الكتب المدرسية، ولم تكن طرق النشر الغربية قد استعملت بعد، اذ كانت المؤلفات تطبع على حساب مؤلفيها وتباع، بمشقة، عن طريق باعة الكتب[١٩].

وكانت المهارة في اخراج الكتب، وعلى الأخص في ميدان التجليد والتصوير ضعيفة، كما أن نقص الطلب (بعد خروج اليهود بصفة خاصة) وعدم رغبة الأغنياء في رعاية الاداب، وفي الأوقات التي تؤمن فيها الرقابة الشديدة، كل ذلك لم يشجع الكتاب على التأليف. ولم تكن هناك سوى اثار تافهة للجهد المبدع، وكانت هذه الاثار منحصرة في ميدان الشعر (وهو الميدان الذي يحتل به العراق على الدوام مكانته في العالم العربي)، وفي نطاق اضيق من كتابة القصص،

---

(١٩) اخفقت كل الجهود والمحاولات التي اجريت لانشاء دور نشر في العراق على غرار ما هو موجود فيها في الغرب. وسبب ذلك ان ضعف رواج المطبوعات في ذلك الوقت لم يكن يشجع اصحاب الادخارات على المغامرة بانفاق ادخاراتهم في طبع الكتب او الصحف. كما ان انعدام حرية الرأي والنشر كان من اول العوائق امام ذلك.

وكان للنسوة الكاتبات مكانتهن في الميدانين.

وكان الأهتمام بالادب العربي المعاصر، ماخلا ماينشر عنه في الصحف، ضئيلا ولكن دراسة الكتب العربية القديمة، وان كانت تعتبر الى حد ما من التراث القومي، لم تكن تجتذب جيل الشباب كثيرا، لأن هذا الجيل كان يفضل كتابات اوربا الحديثة. وكانت المجلات الشهرية او الدورية، التي بلغ عددها زهاء اثنتي عشرة مجلة، والتي كانت تصدر في كل من الحلة، والنجف، والبصرة، والموصل وكركوك، وفي بغداد ايضا، تعتبر في معظم الحالات من الالسنة الناطقة بمختلف الجمعيات او الدوائر الحكومية. ومع ان هذه المجلات كانت تتبارى في الكتابة، الا أنها لم تنل سوى القليل من المشتركين فيها، ولم تكن لها ادعاءات ادبية موسعة.

وكان النشاط الأدبي الكردي، ولو انه كان في نطاق ضيق، يبعث كل الحيوية والأمل، في حين كان الفنانون العراقيون، من الناحية الأخرى، ينتجون نتاجات لها بعض الأهمية، وان كانت في الغالب، تنهل من الهامات غربية. وكان يجري تدريس الموسيقى والدراسات التمثيلية في معهد الفنون الجميلة، وهناك أكثر من موسيقار عراقي، وعلى الأقل ممثلة سينمائية واحدة، وقد ظفر كل هؤلاء بمكانة مرموقة.

كانت أوضاع الحياة العامة، والفئة المثقفة الحية من الطبقة المتعلمة،قد جعلت الصحافة في الواقع واسعة الوفرة في كميتها،بالاضافة الى عشرات من الصحف سريعة الزوال التي كانت تظهر وتختفي. ولم تكن الكتابة فيها تتسم بالمرح والاهتمام على الدوام، ولكن يبدو بان الصحافة، بصفة عامة، قد أخفقت في اجتذاب خيرة العقول والأذهان الموجودة في البلد، وكانت في صفة حرفة، ينظر اليها بقليل من الأهتمام من لدن العامة. وباستثناءات غير مستديمة، معتادة* كان اختيار الأنباء وتقديمها، فجا وغير ماهر، ومتخلفا عما هو موجود في الوسائل الفنية الغربية، بل وحتى المصرية واللبنانية. ذلك لأنه كان يندر أن تكون مصلحة الانباء مغرية، وأنما هي مجرد فصاحة سياسية، وعمل مضن لعبارات منتحلة تأخذ مكان الواقع او تحليل او تعليق صارم حاد.

كانت الاذاعة تذاع من محطة اذاعة بغداد التي أخذت بعد سنة ١٩٥١ تستعمل محطة الارسال العصرية الجديدة في ابي غريب تماما. وكانت تقدم كل يوم منهاجا يمتد عشر ساعات

---

* كان من من خيرة الصحف اثنتين او ثلاثا من الصحف المستقلة، وفي الدرجة الأولى هي جريدة الزمان و «الشعب» والصحف المنتمية الى الأحزاب السياسية، وكانت هذه الصحف الأخيرة معتدلة، مثل «الأتحاد الدستوري، والأخبار وجريدة الحوادث المسائية، والتي كانت تنطق بلسان حزب الأتحاد الدستوري، و«الأمة» و «النبأ» الناطقتين بلسان حزب الأمة الأشتراكي، ولواء الأستقلال لسان حزب الأستقلال، وصدى الأهالي، وهي اقرب الى الشيوعية، الناطقة بلسان الحزب الوطني الديمقراطي، والجبهة الشعبية، لسان حزب الجبهة الشعبية. فهذه الصحف التي صدرت في سنة ١٩٥١ وكانت ثابتة تماما، ومدعمة بصفة ذاتية، كانت تنطق بلسان الأحزاب، وهي غير معرضة نسبيا للتعطيل الحكومي، اما الصحف اليومية في المحافظات فقد كانت تشتمل على ثلاث صحف (واكثر من هذا العدد في الغالب) في البصرة والموصل، وأخرى في السليمانية وكركوك باللغات الدارجة في تلك المحافظات، وقد حققت مستويات طيبة.

باللغة العربية، وثلاث ساعات باللغة الكردية وساعة واحدة او نصف ساعة باللغة الأنكليزية. ومع ان العمل في الأذاعة لم يكن هينا، الا أنه قد تحسن بصفة مادية في السنوات الأخيرة في ميدان التحرير، وفي طاقة الأستماع الموثوق بها. وكانت الاذاعة تلق المساعدة من بعض خيرة الكتاب العراقيين، وكانت غنية بمناهجها الموسيقية العربية، غير أن كثرة التغييرات الأدارية المتلاحقة فيها، قد أثرت في صفتها وفي استمرارها، ولذلك كان كثير من المستمعين يفضلون الأستماع الى المحطات الأجنبية، وعلى الأخص اذاعات لندن، وباريس، ومحطة الشرق الأدنى في جزيرة قبرص.

كان نظام التعليم المطبق في العراق في سنة ١٩٥٠ يمثل - بكل ما كان يكتنفه من النواقص، نتاجا ملموسا لجهود مضنية ذات مواهب. فلقد سار العمل على مدى هائل قدما، ولكن فترة البطء والبدايات العسيرة قد تخلفت، وأصبح مستطاعا الحصول على مواطيء قوية سنة بعد أخرى. كانت أخطار التعليم في العراق تتمثل في السطحية، ونفاد الصبر، وفي المستويات الواطئة والاضطراب الطاغي للسياسة في المدارس، والذي لم تستطع العوائق القانونية ان تضبطه[٢٠].

على أن فضائل هذا التعليم كانت تتركز في الحماسة الأصلية وفي استعمال الطرق الفنية العصرية، واستخدام المدرسين والمشرفين الذين اكتسبوا التحسن في مهنة التعليم والأشراف. ولقد كان المأمول أن يعقب ذلك وعلى الفور انشاء الكثير من ابنية المدارس الجيدة[٢١] كان التعليم مجانيا في كل المستويات[٢٢] وأدخلت الأسس العصرية على أنظمة التعليم، وأصبح التعليم الأبتدائي اجباريا من الناحية النظرية[٢٣].

---

(٢٠) أنحط مستوى التعليم والمعلومات لدى الطلبة في كل مراحل التعليم تقريباً عن المستويات السابقة، وذلك في العهد الجمهوري نتيجة التسلط الحزبي ومارافق ذلك من اضطراب في الحياة العامة في البلاد. فقد أصبح مستوى طلبة الاعداديات يقل حتى عن مستوى المدارس الأبتدائية في بعض الحالات، ولم تعد مستويات بعض الكليات توازي المستوى المتوسط او الأعدادي بين المدارس التي وجدت قبلا.

(٢١) ومازالت آفة نقص ابنية المدارس الجيدة قائمة حتى الان فما تزال هناك ثلاث مدارس او اربع احيانا تستعمل بناية واحدة غير ملائمة من ناحية الصحة والكفاءة، وذلك بسبب نقص عدد المدارس وعدم توفرها.

(٢٢) كان التعليم العالي غير مجاني ويخضع الطلبة لدفع اجور سنوية سواء كان ذلك بالنسبة الى كليات الحقوق والطب والهندسة والصيدلة وماعداها، ولم تتحقق مجانية التعليم في كل مراحله الا بعد سنة ١٩٧٤.

(٢٣) شرع بتطبيق نظام التعليم الاجباري منذ سنة ١٩٧٦ حيث نظمت حملة واسعة النطاق لمكافحة الأمية تعاظمت نفقاتها وجهودها ولكن النتائج التي اسفرت عنها لم تكن حسب المأمول.

وكان مجلس التعليم العالي يمثل كل المؤسسات التعليمية، ويحظى بمساعدة وزير التربية ومدير التربية العام بالنسبة الى وضع السياسة والتنسيق. ولقد اصاب التعليم النسوي حقوقاً متساوية مع تعليم الذكور. فمن مجموع الستة آلاف معلم الذين كانوا يعملون في المدارس الحكومية،كان عدد المعلمات مايقرب من الثلث. ومثل هذه النسبة كانت موجودة بين معلمي المدارس الثانوية والعالية، ولم يكن عدد الأطفال الذين كان يجري تعليمهم في المدارس الحكومية والمدارس الأهلية من كل الدرجات (بما في ذلك المدارس الأجنبية) يزيد عن مائتي الف طفل، وذلك رغم انه اخذ يزداد كل سنة بسرعة فائقة. ولم تبق سوى بقية ضئيلة من المدارس اليهودية، فقد اغلقت مدرسة الاليانس، في حين استمرت مدرسة التفيض التي اسست سنة ١٩١٩ في صفة هيأة تعليمية شعبية غير سياسية، تواصل عملها في مكافحة الامية، وتحتفظ بمطبعتها[٢٤].

مايزال الطلاب يتمتعون بالاعفاءات والامتيازات المهمة بالنسبة الى الالتزام باداء الخدمة العسكرية،ولقد شملت هذه الاعفاءات، المدارس الحرفية، والتعليم التقني، والعلوم الداخلية، والزراعة، والصحة العامة، وواجبات الشرطة. وازدادت تسهيلات تدريب المعلمين في سنة ١٩٤٩، وذلك بافتتاح صفوف اضافية في مراكز عدد من الثانويات القائمة، وبذلك ارتفعت المستويات. اما الجامعة فعلى الرغم من التوصيات المتكررة التي تقدم بها الخبراء ماتزال من المشاريع التي لم تتحقق[٢٥]، غير ان التعليم العالي كان متوفرا في مدرسة الحقوق، وكلية الهندسة التي اسست في سنة ١٩٤٢، وتوسعت في سنة ١٩٥١. كما اسست كلية الطب والمدارس المرتبطة بها، وهي مدرسة الصيدلة والتمريض وكلية الزراعة، وكلية العلوم والفنون سنة

---

(٢٤) كان لتأسيس مدرسة التفيض الأهلية هدف وطني اوسع من نطاق التعليم انه اعداد الشعب للاستقلال والتحرر من الأحتلال الانكليزي، وذلك ان بعض مؤسسي هذه المدرسة والمدرسين فيها، وعلى رأسهم المرحوم علي البازركان، كانوا من الأعضاء النشطين الفعالين في الثورة العراقية الكبرى. فقد كانت التفيض اول المراكز التي اخذت تهيء اذهان الشعب العراقي، والمخلصين من ابنائه للثورة ضد الأنكليز، كما أن المدرسة وسعت نطاقها التعليمي وذلك بأفتتاح عدد من المتوسطات خارج بغداد منها متوسطة تكريت وسامراء وعانة والفلوجة وخانقين وغيرها مما اتينا على تفصيله في الجزء الأول من مذكراتنا المخطوطة. اما مطبعة التفيض فقد كانت اول مطبعة اهلية من طراز اللاينوتايب يتم نصبها في بغداد بعد مطبعة الحكومة، وقد استوردت هذه المطبعة في سنة ١٩٣٨ ونصبت في السرداب الذي يقع تحت بناية المدرسة في العاقولية وكانت تطبع بعض الكتب المدرسية ومؤلفات عدد من الكتاب والمؤرخين في مقدمتهم المورخان الكبيران المرحومان عباس العزاوي وعبد الرزاق الحصان،وفي اوائل سنة ١٩٣٩ باشرت بأصدار مجلة نصف شهرية بأسم التفيض صدر عددها الأول في اليوم الرابع من نيسان واوكل الي امر الاشراف والتحرير على هذه المجلة التي استمرت تصدر سنتين.

(٢٥) تأسست جامعة بغداد بصفة تدريجية ابتداءا من سنة ١٩٥٦ وقد خطط لها ان تكون ادارتها والكليات الملحقة بها في منطقة الجادرية، الواقعة جنوب بغداد كيا تكون بعيدة عن العاصمة وضواحيها ولكن لم يتم سوى انشاء بناية الادارة وبعض الكليات هناك، وبقيت الكليات الاخرى في مواقعها التي اقيمت فيها داخل بغداد.

١٩٤٩ [٢٦] وانشئ معهد الفنون الجميلة وكلية التجارة والاقتصاد في سنة ١٩٥١، الى جانب الكلية العسكرية، وكلية الاركان، والمدرسة العالية لتدريب الشرطة. واخذ عدد كبير من الطلبة يلتحقون بالجامعات الاوربية والامريكية، ولسوف يزداد عدد هؤلاء بعد ان تتوفر الاموال الطائلة نتيجة التطور الذي سوف يحدث في منهاج شركة النفط للتدريب التقني والعلمي، كما ان المكتبات العامة غدت متوفرة في مقر كل محافظة.

استمرت مديرية الاثار في تطوير متحفها الغني بالاثار بشكل يدعو الى الأعجاب (ولسوف تستبدل ابنيتها بأبنية أكثر كمالا) لكي تتعامل مع عالم العلوم، او تشرف او تقوم، بأعمال التنقيب، في المواقع القديمة [٢٧].

وفي الفترة من سنة ١٩٤٦ الى ١٩٥٠ أصبحت حملات التنقيب التي تمارسها مديرية الاثار، نشطة في مواقع «تل ابو شهرين» على مقربة من موقع «اور» وفي اسافل محافظة ديالى، وسهل أربيل وجوار جمجمال، والسليمانية وفي الحضر قرب الشرقاط. وأقدمت حملات من الجامعات الامريكية، من أمثال جامعة شيكاغو وبنسلفانيا، وهارفارد، على التنقيب في المواقع الواقعة في منطقة كركوك وفي مناطق جمجمال وبرادوست في كردستان، وعلى مقربة من «عفك» في اواسط الفرات. كما نقبت بعثة من مدرسة الاثار البريطانية لمدة ثلاثة فصول في «نمرود».

وبالعمل الذي قام به هؤلاء الباحثون، بغض النظر عن جنسياتهم ومارافقه من حسن النوايا، تعاظم اهتمام العالم الأكاديمي بثروة العراق الاثرية وبكنوزه الراهنة، ذلك أن المدرسة الأمريكية للبحوث الشرقية التي تأسست في سنة ١٩٣٢، وكذلك المدرسة البريطانية التي تأسست في سنة ١٩٢٩ قد أحتفظتا سوية بمقرات لها في بغداد، ونشرتا نتائج البحوث التي توصلتا اليها.

وفي ميدان الصحة العامة حققت الخدمات الحكومية الشيء الكثير في هذا الميدان. ولكن ايا من ذلك لم يكن بالأمر الذي يستحيل تحقيقه، ولقد واجهت هذه الخدمات ميدانا واسعا جدا ينبغي لها أن تشمله وتفتحه، بعد ان بدأت من لاشيء، وكانت هذه الخدمات على الدوام مقيدة بنقص الأموال المتوفرة ونقص الموظفين المدربين لديها.

وفي الوقت ذاته، وبصفة حتمية، استمر المرض او العوامل التي تسبب الضعف في البلاد، وكذلك البلادة، وروحية المحافظة لدى السكان. وكانت مشكلة نقص التغذية بصفة عامة والنقص الحاصل في القوة الجسمانية، يؤلفان في الواقع مشكلة الفقر القائم، وكان علاج ذلك،

---

(٢٦) كانت كلية الطب قد أنشئت في سنة ١٩٢٧ وقبل فيها عشرون طالبا سبعة من المسلمين وثمانية من اليهود وخمسة من المسيحيين (الدكتوران هاشم الوتري ومعمر خالد الشابندر: تاريخ الطب في العراق ص ١٠٩ طبعة ١٩٣٩).

(٢٧) اكملت بناية المتحف الجديد، ومقر مديرية الاثار في سنة ١٩٦٥ وبذلك انتقلت المديرية الى هذه البناية من المكان القديم الذي مايزال قائما على مقربة من مدخل الجسر القديم. (المأمون).

وهو امر مايزال بعيد المنال، يكمن على الأكثر في ازدياد الثروة مثلما يكمن في التثقيف. ويصدق ذات الأمر على موضوع تربية الاطفال. فعلى الرغم من نشاط الأمومة ومضاعفة مداها، وتوفير العيادات التي تعنى بالأطفال،كان معدل وفيات الأطفال مايزال مرتفعا بشكل يدعو الى الأسى، ذلك لأنه لم تقدم سوى دراسة ضئيلة بدلا من أن تكون دراسة شاملة بصفة متزايدة، لمكافحة امراض الانكلستوما والملاريا، او البلهارزيا،كما ان بذل مجهود شامل لمكافحة هذه الأمراض، وكذلك امراض السل الرئوي، والعيون، ومجموعة امراض التيفوئيد، كانت تتطلب المزيد من الوقت والمزيد من الأموال، وكذلك المزيد من الموظفين الأخصائيين.

كانت الخطوات لمكافحة الأمراض الوافدة ناجحة فلم يعد الطاعون ولا الهيضة يظهران الا بصفة نادرة مرة واحدة كل ربع قرن[٢٨] كما تمت معالجة الجدري معالجة جيدة بالموارد العصرية النامة. كذلك تحسنت الأوضاع الصحية في المدن اذ طبقت فيها مشاريع المجاري، كما تطور تدريب المفتشين الصحيين. غير أن الظروف بالنسبة الى هذا المضمار بقيت في معظم أنحاء البلاد بدائية كلها، ولم يهتم الأطباء العراقيون بالادارة الصحية العامة الا قليلا. فقد كانت تجري خدمة البلاد صحيا على نطاق واسع بوجود ثمانين مستشفى كانت ثلاثة ارباعها من المستشفيات العامة، في حين خصص الربع الباقي منها للحميات وللأمراض العقلية والتناسلية والجذام (العمارة) والأمراض الصدرية والعيون وللأطفال.وكان زهاء الربع من مجموع هذه المستشفيات موجودا في بغداد.

اما المستشفيات غير الحكومية، فكان من بينها مستشفيات شركات النفط، ومستشفيات البعثات الأجنبية والاقليات[٢٩] وكان مستشفى ميرالياس اليهودي مايزال مفتوحا امام جميع المراجعين من المرضى[٣٠] في حين اغلقت المستشفيات والمستوصفات اليهودية الأخرى.

وحافظت مستشفيات السكك والميناء والشرطة والجيش على تقديم خدماتها الصحية المنفصلة. ولقد تحسن جهاز الأطباء كثيرا بفضل كلية الطب منذ سني الثلاثينات،غير أن الأعتماد على بعض الأطباء الأجانب مازال من الأمور الضرورية،وقد أستخدم حوالي ثلاثين من هؤلاء الأطباء الأجانب في سنة ١٩٥١، وكان تجنيد المزيد منهم يسير سيرا متقدما، كما بلغ عدد

---

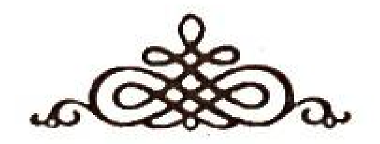
(٢٨) آخر مرة حدثت الكوليرا فيها، كانت في سنة ١٩٦٤ ولكن الاصابات كانت طفيفة جدا.

(٢٩) من أمثال مستشفى الراهبات (مستشفى القديس ميخائيل الذي لم يجر تأميمه.

(٣٠) أممته الحكومة بعد ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ وعرف باسم مستشفى الشعب ثم هجر بعد أن شيد مستشفى جديد بهذا الأسم على مقربة من مستشفى دار السلام.

المدربين المسجلين حوالي ثلثمائة متدرب في سنة ١٩٤٥،ثم أرتفع هذا العدد الى اربعمائة وعشرين متدرب في سنة ١٩٤٩.

وكان إلتردد الذي يبديه الأطباء العراقيون في الخدمة في المناطق النائية والتي تقع في اية مناطق عدا بغداد، مايزال يعتبر من الأمور التي تربك الوضع الصحي، ومع كل ذلك فقد انتشت المستشفيات والمستوصفات التي لها قيمتها في كل أنحاء العراق،وكانت هذه المؤسسات تلعب دورا أكثر انسانية واستقرار موسعا، مما يجعل الآمال العالية المتوقعة في المستقبل،في مكانها حقا.



٦. الدولة

سوف نخصص الصفحات الاخيرة من هذا الكتاب لمراجعة تقييم علاقات العراق، خلال نصف قرن من الزمن، مع جاراته وبقية العالم على نطاق اوسع، ولتركيب وضع حياته العامة، دون التطرق الى سجل جامعة الدول العربية في سنة ١٩٥٠، وذلك في عبارات تعيد بشكل حزين، ذكرى الجامعات الاخرى التي كانت تقوم على اساس الاتفاق الدولي، من امثال عصبة الامم، ومنظمة الامم المتحدة ذاتها.ولقد ابرز ذلك السجل مشقة بالغة في التنسيق بين الخلافات. كما ان الصفحات السابقة من الكتاب قد اتت على وصف العوامل العامة التي لا تساعد على قيام الوحدة العربية، والقضايا الخاصة التي ادت منذ سنة ١٩٤٥، الى احداث الثغرات والفجوات الواسعة، ولذلك فلم يكن الوضع عند ختام هذه الفترة التي نؤرخها مشجعا على اقامة جبهة موحدة دائمة بين الدول العربية.

واذا كانت التلميحات الوحيدة السخية المفردة ما تزال يمكن التلميح بها، فان ارسال القوات العراقية مثلا الى دمشق في ربيع سنة ١٩٥١، ومواثيق الدفاع الجماعي، التي امكن تشريعها، فان ضغط الولاءات والمصالح القومية والتنافر الملح، لابد ان يعيق في مستقبل منظور، اي شيء يمكن ان يتجاوز التعاون العرضي، والحفاظ على نوع من الواجهة الوحدوية.

لقد وجهت الاتهامات باستمرار الى بعض الدول، وعلى الاخص الى بريطانيا بعدم رغبتها في تكوين وحدة عربية كاملة، او حتى وحدة اقليمية، [1] والى بعض الدول الاخرى التي كانت

---

(١) ان معاداة بريطانيا للوحدة العربية ليست وليدة هذا العصر وانما كانت تؤلف خطا بارزا لموقفها حيال هذا الامر حتى قبل ان تنتهي الحرب العالمية الاولى، حين تفاهمت مع فرنسا على اقتسام الاقطار العربية التي انفصلت عن تركيا، حسب معاهدة سايكس بيكو. ومع ان موقف امريكا لا يختلف عن مواقف بريطانيا وفرنسا من موضوع الوحدة العربية، وعلى الاخص بعد ان قامت دولة اسرائيل قاعدة امبريالية كبرى في قلب الوطن العربي، مع كل ذلك فان امريكا مافتئت حتى الان تعمل وتشجع قيام التكتلات داخل البلاد العربية وربط هذه البلاد بمشاريع تحالفية ودفاعية. ذلك لان امريكا التي تفضل التعاون مع اي عسكري يتولى السلطة في اي بلد كان، لان ذلك اضمن لمصالحها من وجود حكومة لها معنى الحكومة الحقيقي بوجود برلمان او احزاب او صحافة، ان امريكا هذه تفضل قيام وحدة من نوع ما بين بعض الدول العربية لكي تستطيع عن طريق مثل هذه الوحدة ان تربط هذه المجموعة من الدول بعجلتها الاستعمارية وعلى الاخص اذا ما وجدت ان مثل هذا التكتل لن يكون موجها ضد اسرائيل، بل ضد عدو مبهم كالاتحاد السوفياتي او الشيوعية.

تعمل على تحطيم مثل هذه الوحدة، وان اياً من هذين الموقفين كان يمثل، الى حدما، مظهراً من مظاهر الامبريالية. والحقيقة ان امم الغرب بدت بصفة عامة مؤيدة لتضامن دول الجامعة العربية الى الحد الذي يمكن له ان يعطي الوعد بانتاج استقرار وتفاهم في اسيا الغربية. ولكن الامم الغربية كانت من الناحية الاخرى، راغبة او مجبرة على ان تدع هذه القضية في ايدي الامم المختصة بها.

لقد كان دور العراق البارز في السياسات الداخلية للجامعة العربية، واهتمامه الحي بالعروبة حيثما تعلق الامر بذلك، يعتبر من المظاهر الدائمة لسياسته الخارجية وللمطاليب التي تعتبر اعظم اهمية بالنسبة الى الجماهير العراقية.

فبالنظر الى علاقات العراق مع بلاد فارس، لم يكن هناك اي سبب يدعو الى توقع حدوث تغيير في الموقف الفعلي السائد على اي من جانبي الحدود العراقية الفارسية. كما كان من المشكوك فيه ان يستمر مثل هذا الموقف لسنوات عديدة، بحيث يصبح واحداً من اسباب الاحتكاك والتنافر، ولكن هذا الموقف لن يكون من اسباب الاعتراف بالمصالح الواسعة المشتركة.

ولم تكن العلاقات مع الجمهورية التركية بحاجة الى ان تسوء، في غياب اي تصادم خاص بين المصالح، الى درجة قد تؤدي فعلا الى حالة من التوتر التي تسببها اضطرابات الحدود، والتدخل في مياه الاقسام العليا من نهري دجلة والفرات، اوباختلاف الاستقامة الدولية..

كان موقف العراق في سنة ١٩٥٠ هو موقف الامن المحروس، او الموقف الودي على الاقل بين اولئك الذين يدعون الى الوحدة العربية، والذين كانوا يخشون التأثير المناقض الذي تثيره الصداقات مع الدول غير العربية. فعلى حدة من الشرق الاوسط، استطاع العراق ان يحتل مكانة امة في العالم(٥)، ولم يستطع ان يتهرب من المسؤوليات او المخاطر المترتبة على مثل هذه العضوية في العالم. ولهذا كان موقفه ازاء الاتحاد السوفياتي، خلف واجهة من التبادل الدبلوماسي الصحيح، قد تم تعزيزه فعلا بموقفه المتشدد ازاء الشيوعية المحلية، حيث لابد من ان تعتبر المفوضية السوفياتية في بغداد، هي المساند الرئيس لتلك الشيوعية المحلية.

---

(٥) كانت للعراق في سنة ١٩٥١ سفارات في لندن وواشنطن وطهران، ومفوضيات في دلهي وكراجي، وباريس، وبروكسل، وانقرة، وبيروت، ودمشق. وعمان والقاهرة، وروما، وكابل، وجدة. وكانت لديه قنصليات عامة في بومباي، ونيويورك، واسطنبول، وقنصليات اخرى في المحمرة وكرمنشاه، وحلب. اما السفارات الاجنبية في بغداد فتمثل في السفارة البريطانية، والامريكية والفارسية، والمفوضيات الافغانية والسعودية والمصرية والاسبانية والفرنسية والايطالية واللبنانية والروسية. وكان الوزيران البلجيكي واليوناني المعتمدان للعراق يقيمان في بيروت في حين يقيم وزراء الصين الوطنية، والدانمارك والسويد وجيكوسلوفاكيا في طهران. وفي خارج بغداد كانت للبريطانيين والفرس قنصليات عامة في البصرة، وقنصل فارسي عام في السليمانية، وقناصل بريطانيون او نواب قناصل في كل من العمارة والموصل، وقناصل فرنسيون وسعوديون وباكستانيون في البصرة، وقنصل تركي في الموصل.

ذلك ان روسيا القوية والتوسعية، والجارة القريبة، لم تكن مجهولة بالنسبة الى رجال السياسة، كما ان هؤلاء لم يكونوا يجهلون بان الشوعية سوف تعترض القانون والنظام والملكية الفردية ايضا، بالشكل الذي كانوا يتصورونه. غير ان محاربة الشيوعية المحلية بشدة لم تكن لتمنع جزءا جوهريا من العالم السياسي، من الدفاع عن الحياد القوي بين الكتلتين الشرقية والقومية.

والواقع ان السياسة الموالية للغرب، والتي يتم الجهر بها دوما، لم تكن خالية من العار الذي تسم به. ذلك لان مأساة فلسطين قد حطت، بصفة خطيرة (وليست مدهشة) من الاحترام، والحنكة السياسية، بل وحتى الشرف الذي كان يحظى به الغرب لدى الشعوب العربية [٢]. لقد كان الغرب ومن ضمنه بريطانيا، والحقد الذي كان بعض العراقيين يظهرونه تجاه بريطانيا، كان يمثل المنبع الرئيس لامثال اولئك العراقيين، حتى في الوقت الذي كان فيه الاخرون، ولربما ممن هم اكثر حكمة وتجربة، يشعرون فيه بان بلدهم سيكون في وضع اكثر امنا مع اصدقاء اقوياء مألوفين لديهم، وان لم يكونوا من الاصدقاء الكاملين مع الاسف [٣].

والغرب يشتمل على فرنسا ايضا، والتي لا يمكنّ مسامحتها عن الحكم التعسفي الذي فرضته طيلة عشرين سنة على سوريا (كما كان ذلك الحكم يحس به على مثل هذا الصورة) يضاف الى هذا تخلي فرنسا عن لواء الاسكندرونة، وما يذكر عن استعمارها المزعوم لبلدان شمالي افريقيا [٤].

---

(٢) كانت الشعوب العربية في الحكومات التي ظهرت الى حيز الوجود بعد الحرب العالمية الاول، تشعر جيدا بوطاة الاحتلال الاجنبي لبلادها، وتصرفها فيما تصرف الحاكمين بامرهم. كما كانت الشعوب العربية تدرك جيدا ان الحكومات التي تألفت في البلاد العربية، لم تكن تستطيع ان تقرر سياستها بحرية وبمعزل عن اوامر المستعمرين وايحاءاتهم، ولذلك فقدت تلك الشعوب ثقتها بالحاكمين من ابنائها، وراحت تنظر اليهم بانهم مجرد صنائع للمستعمرين، في الوقت الذي لم تكن فيه هذه الشعوب لتثق بوعود المستعمرين وعهودهم او ما يدعونه من شرف، لان كل ذلك قد انكشف زيفه منذ ان بدأ التآمر على البلاد العربية اثناء الحرب الاولى والتنصل من الوعود والعهود التي خدع بها شريف مكة، وما اعقب ذلك من تجزئة البلاد العربية واقتسامها بين المنتصرين من المحاربين المتحالفين.

(٣) لقد كان امثال هذا الصنف من ساسة بعض البلاد العربية في ضلال عظيم نتيجة وثوقهم بالانكليز وسواهم من الغربيين. ذلك لان البلاد العربية لم تحظ بالامن نتيجة تحالفها مع الغرب، لانه لم يكن هناك من يهدد ذلك الامن غير الغرب وحده. ولقد القم العدوان الثلاثي الاستعماري على مصر في اواخر سنة ١٩٥٦، امثال اولئك الساسة العرب حجرا، لان العدوان الذي وقع على مصر لم يأت من دولة معادية اخرى بل من حلفاء مصر ذاتها، بريطانيا في الدرجة الاولى، ومن ثم فرنسا وربيبة الكل اسرائيل، وهكذا فعل الاصدقاء الاقوياء، كما يدعي المؤلف،بالعرب، اشنع واقسى مما كانوا يتوقعونه من الاعداء. ذلك لان الحلفاء، كانوا على الدوام هم الاعداء المعتدون.

(٤) لا يقل سجل فرنسا الاستعماري في البلاد العربية خاصة سوادا عن سجل الانكليز والايطاليين فيها. فلقد اتسم حكم فرنسا في سوريا ولبنان والمغرب وتونس والجزائر بمنتهى العنف والشدة. واكثر من هذا ان الفرنسيين في الوقت الذي كانت فيه بلادهم فرنسا تحت وطأة نعال النازيين، فانهم اي الفرنسيين، لم يتخلوا عن الروح الاستعمارية الاستبدادية حيث اعتدت قوات فرنسا الحرة التي سلم الانكليز لها سوريا ولبنان مجددا بعد طرد ممثلي حكومة فيشي منها في صيف ١٩٤١، اعتداءا شنيعا على الشعب السوري اللبناني لانه طالب باستقلاله فضربت مدنه وقراه بالقنابل من الطائرات والمدافع والرشاشات في شتاء ١٩٤٣.

ومن دول الغرب ايضا الولايات المتحدة الامريكية، وهي الدولة التي اشتهرت بمساندتها للصهيونية، والتي لم تعد، بالتزاماتها الحالية في استثمار النفط في العالم العربي، تعتبر دولة قديمة وغير مهمة. ولذلك كان من الطبيعي، بسبب رد الفعل الواقع من جانب الغرب، ان تجعل الامبريالية التي تكونت على هذه الشاكلة، واصبح مشكوكا فيها، كثيرا من العراقيين يبدون استعدادهم للتقليل من المخاطر العالمية في ذلك الوقت[٥]، وان يفترضوا بان الحياد الذي لا يثير اللوم سوف يحقق الامن اذا ما وقعت حرب عالمية ثالثة، وكان هؤلاء يهزون رؤوسهم بشأن الاقتراحات والعروض التي كانت تطرح عن التحالفات الدفاعية مع الكتلة الغربية.

اما الاخرون الذين اتجهوا وجهة اخرى، فقد وجدوا انجذاباً لهم في التوجيه الشرقي المنظم بصفة خاصة، ولذلك راحوا يعطون قيمة جدية للوحدة العسكرية بين بلدان جامعة الدول العربية، كما عثروا على الالهام في المؤتمرات الاقتصادية الاسلامية التي عقدت في كراتشي وطهران، او انهم كانوا يرغبون الانضمام الى الباكستان، ودول ميثاق سعد اباد لاقامة كتلة شرقية مضمونة من الناحية الاسلامية، ومتحررة من كل الالتزامات، والامبريالية الغربية.

غدا واضحا بالنسبة الى المراقبين المعاصرين، بان تفكير العراق حول هذه الامور، كانت تنقصه الواقعية، وانه في تردده، وفي رغبته اشراك السياسة الخارجية مع الانقسامات الداخلية، وعدم قدرته على ان يقف امام مخاطر الزمن، انما كان يمثل نموذجا للامم الصغرى. التي تطالب، وتهتف باستمرار، في سبيل الاستقلال التام الذي لا يمكن ايجاده في العالم المتمدن، الا على سطحية متزعزعة جدا، الا اذا استطاعت، بصفة ثابتة، ان تنضم الى دولة مدافعة من دول الاصدقاء الاقوياء!؟

ففي ميدان الادارة الداخلية، حيث كان من النادر على الحكومة التركية ان تمارس سوى سلطة جزئية لم تكن فعالة في وقت من الاوقات، على جميع انحاء البلاد، استطاعت الحكومة العراقية في سنواتها الاولى ان تدعي بوجود سلطة اوسع لها، لكن تلك السلطة لم تكن مطبقة بصفة صائبة. اما في سنة ١٩٥٠ فلم تعد توجد هناك اية هوة لانعدام الحكومة، سواء في

---

(٥) لابد ان المؤلف يقصد الاتحاد السوفياتي بعبارة «المخاطر الدولية» ولكن الاتحاد السوفياتي لم يكن يمثل خطراً انذاك على الشعوب العربية بل كان يقف الى جانبها في كفاحها في سبيل التحرر والاستقلال ولكن الدول الاستعمارية الممسكة بخناق الشعوب العربية انذاك هي التي كانت تحاول ان تخدع هذه الشعوب وغيرها بما كانت تتحدث به عن خطر الاتحاد السوفياتي.ولم يتغير موقف الاتحاد السوفياتي من العرب الا بعد ان انضم الى الدول الاستعمارية في الاعتراف بدولة اسرائيل بعد اعتراف امريكا بها مباشرة، وتلكؤه في كثير من المواقف الحاسمة في اظهار مساندته للدول العربية في صراعاتها مع اسرائيل ومع الدول الامبريالية ذاتها. ولاشك في ان موقف الاتحاد السوفياتي هذا قد احدث خيبة كبيرة لدى الشعوب العربية، واضعف من ثقتها القوية فيه، فلم يبق له في البلاد العربية غير الشيوعيين المحليين الذين كانوا يطبقون السياسة الذيلية باجل مظاهرها ومازالوا حتى الآن سائرين في ظل هذه السياسة، اي سياسة التبعية للاتحاد السوفياتي.

الصحراء، أو الاهوار، والجبال، فمن مدير الناحية حتى الوزير، ومن الكاتب حتى المدير العام، كانت الادارة في ذلك التأريخ، وباعتبارها اداة عاملة وحاكمة، تواجه المقارنة مع الادارة القائمة في اي بلد قابل للمقارنة به، بل يمكن اعتبارها متفوقة على كثير من الامم التي تكونت قبل وقت اطول.

لقد حققت الفترة من سنة ١٩٣٠ الى سنة ١٩٥٠ اقل مما كان يخشى منه ان يضعف الادارة او يفسدها. فلقد عاشت الادارة مستويات واطئة، ومع انها كانت ملموسة الا انها لم تكن مدمرة. واذا كانت الادارة قد استفادت من الحكم البريطاني الذي امتد ثلاث سنوات[٦] ومن السنوات الاثني عشرة من سني الوصاية المقيتة[٧] الا انها مع كل ذلك قد استخلصت مواهبها في الدرجة الاولى، من صفات وكفاءة لاشخاص القائمين بتلك الادارة، وهي صفات كان من المألوف للزائرين، ولكثير من العراقيين انفسهم، ان يزدروا بها، في حين كان يجري تقييمها تقييما واسعا من لدن اؤلئك الذين كانوا يعرفونها معرفة افضل.

ان العيوب المتوطنة في كل الاوساط البيروقراطية، والحداثة النسبية لاداة الحكم، وعدم استمرارية الوزارات الموجهة، وندرة المتنفذين من الكبار المجربين، والزلات الخلقية التي كانت تقع عرضا، كل هذه العوامل قد اخفقت في ترجيح النوايا الطيبة، وفي ذكاء واخلاص الاكثرية الساحقة من الموظفين المدنيين. كما كانت ماكنة الحكم ذاتها، بكل علاقاتها المتشابكة، وانقسامات أجزائها، والسيطرة على الدوائر، وعلاقتها بحكام المناطق، ومن ثم علاقات هؤلاء الحكام بالوزارات التي يتبعونها وبالجماهير. كل هذه الامور قد وصلت، في بحر ثلاثين سنة، الى حالة من الكفاءة المتحققة اختبرت للتطبيق على عكس ما لم يجر به الحكم التركي على اوضاع البلاد.

ذلك لانه ما ان غدت منافع العراق، وموارده الطبيعية البارزة، على وشك ان تنال الاستثمار التام، وبوجود الحكم الملكي النافع والمحبوب(؟؟) والراسخ في بيت ملكي قديم، و بما يملكه من اداة حكومية غير كاملة، وبالجهود التي كان مجتمعه يبذلها للتطور على اسس عصرية، عن طريق الاستعارة المتشعبة عن الفكر الغربي وطرائقه، وعن تقنيته ايضا، حتى توفر، في الواقع، مقياس طيب من الامل في قيام مستقبل ثابت ومرفه ايضا.

اما بالنسبة الى اولئك الذين كانوا على نقيض ذلك يقارنون امكانيات البلاد في المجالات، والحياة، والثروة، بالبؤس الذي تعانيه بعض جارات العراق، من امثال الشقاء الاقتصادي

---

(٦) يقصد بها سنوات الاحتلال العسكري البريطاني للعراق من سنة ١٩١٨ الى سنة ١٩٢١.

(٧) المقصود بذلك فترة الانتداب البريطاني على العراق من سنة ١٩٢١ حتى سنة ١٩٣٣.

الصارخ في اسرائيل، والدمار المؤسي الذي تعيش فيه بلاد فارس، والدكتاتوريات العسكرية قصيرة الامد في سوريا، وحكم المملكة السعودية الذي يبدد الثروات، والذي اخفق حتى الان، وكذلك الخطر الذي تمثله كثرة السكان في مصر ووحشية الشغب فيها، ان كل هذه الامور انما تبرز في الواقع ان اضطرابات العراق المتفاقمة جزئيا قد تم توطيدها بصفة حسنة عن طريق الامن والتقدم. فلقد غدا مستطاعا بفعل التفاؤل الذي يؤمن به المتنبؤن، وبعد بضع سنوات من الهدوء، ان يظهر مدى من الانسجام، وان تحدث موجات غير منظورة من موجات الحظ، اذا ماسارت هذه الامور في الواقع سيرا حسنا كما اشترطتها المعاهدة الاولى، وان تحتل الامة العراقية مركز الزعامة بلا منازع او منافس بين الاقطار العربية، وتنال المكانة المحترمة في العالم الدولي الاوسع.

غير ان هناك احتمالا اقل مسرة ولامعدي عنه، ذلك الاحتمال هو ان عدم الاستقرار الذي صورته العشرون سنة الاخيرة بصفة مستمرة، قد لا يمكن احتواؤه نهائيا. فلسوف يظل عدم الاستقرار هذا قائما بنخر كيان الامة العراقية، ويبرهن على تدمير شعبها، ذلك لانه في الوقت الذي تستطيع فيه اقلية مسلحة ان تستولي على الحكم وتمسك بزمامه، يصبح من الضروري جدا للنظام الدمقراطي ان يوطد اساسه بشكل ثابت على ولاء الجماهير المتلاحمة تلاحما سياسيا، فمثل هذا النوع من الحكم لم يوجد في العراق، وان مواهب ادارته بل وحتى حسن نوايا الكثير من افراد طبقته الحاكمة والسياسية، لا تستطيع، كما يشعر بذلك المراقبون ممن هم اقل املا، ان تحميه من عدم الاستقرار الشامل.

يبدو ان الظاهرة الحالية للحياة السياسية في العراق سوف تظل - لسنوات كثيرة مقبلة - تعيق الامل في قيام حكم دمقراطي اصيل، بالشكل الذي سبقت الاشارة اليه قبلا، ومن النوع الذي توفر في سنة ١٩٣٢، ذلك لان الحكم الدمقراطي الذي كان قائما في سنة ١٩٥٠، كان اقل دمقراطية وبصفة نادرة. فالنواب لم يكونوا ممثلين للناخبين تمثيلا تاما، في حين كانت الوزارة ذاتها تستطيع ان تتجاهل وجود النواب، بل انها كانت تتجاهل وجودهم فعلا. اما الوزارة التي يتم اختيار اعضائها من قبل رئيس الوزراء والوصي، وتقوم على اسس من التقبل الشخصي، فانها كانت في الواقع وبشكل اعتيادي، عبارة عن هيئة من رجال قادرين وبارزين، لكنها في الوقت ذاته لم تكن تمثل الاكثرية البرلمانية، ولا تمثل الكيان الثابت للقواعد.

لقد وجد بان السبع والاربعين وزارة التي تألفت خلال الثلاثين سنة الاولى من الحياة الدستورية، والتي كان المجال مفتوحا امامها، كانت تسقط بسبب الخصومات داخل الوزارة ذاتها، وكذلك بسبب الازمات، وعدم تأييد القصر لها، ولم يكن سقوطها ذاك ناجما عن سحب التأييد المنظم من قبل الجماهير، او من قبل البرلمان. فمثل هذه الوزارات لم تكن تمثل الديمقراطية البرلمانية، وانما كانت تمثل حكومات وزارات ليس الا.

وكان مجلس النواب نفسه عبارة عن هيئات تتبارى في النقاش ويضم اعضاء من ذوي التجربة والذكاء الكاملين(*)، لكن هذا المجلس كان يشغل وقته بتهدئة الخصومات الانشقاقية فيا بين اعضائه، وقد اعتاد – حسبما تنظر اليه اكثرية النواب المستقلين – تأييد رغبات الحكومة يوما بيوم. ولم يكن البرلمان يعتبر نفسه ميدان المعركة ضد السياسات المنافسة، ولا ان يصبح – مثلما نص الدستور على ذلك – حكما للوزارات التي كانت، على النقيض من ذلك، تتمتع غالبا بوجود مستقل.

وفي الوقت ذاته كانت طريقة الانتخاب على مرحلتين، والانتخابات التي تسيطر عليها الحكومة، والهوة الواسعة بين معظم النواب وناخبيهم، قد جعلت نشاط النواب، في الغالب، مستقلا عن الناخبين، وذلك وضع لايعكس الكثير من العيوب في الدستور حسب، من امثال التأخر الذي يعيش فيه الناخب الامي الذي لم يجعله قادرا على ممارسة الاختيار الحر المستقيم في انتخاب النواب الناطقين باسمه، ولا السيطرة عليهم بعد ان يتم انتخابهم، حتى وصل الامر الى درجة ان الاحزاب السياسية اخذت تقوم مقام المحافظ بصفة ناخبين نشطين لانتخاب النواب، كما تغيرت عمليات الانتخاب تغيرا اساسيا (لان الاحزاب المعارضة قد كفت عن المطالبة بذلك) فثل هذه الحالة، وبما لها من ضرورات، لابد وان تظل قائمة لسنوات عديدة.

لقد اظهرت الديمقراطية البرلمانية التي فرضت على العراق، في كل مكان، اثناء طفولة البلد السياسية، انها كانت بحاجة الى وجود احزاب سياسية مسؤولة لكي تمثل المنافسات السياسية، وان تتطلع عن طريقها الى الحكم. غير ان مثل هذه الاحزاب، وبالصيغة التامة لواجباتها، لم يكن لها من وجود في العراق. والحقيقة ان صفحات هذا الكتاب قد اشارت مرات كثيرة الى الاحزاب التي عادت الى الظهور، بعد حظر استمر بضع سنوات، في سنة ١٩٤٦ او مابعدها ولكن هذه الاحزاب كانت في سنة ١٩٥٠ مسؤولة عن جزء اوسع من النشاط السياسي بصفة خاصة في البلاد. ولقد ازداد مداها، ولربما ديمومتها الى درجة ما، اذا ماقورنت مع الاحزاب التي سبقتها في جيل سابق.

بعد نصف قرن من الزمن، كانت الاحزاب النشطة، اذا ماتجاهلنا الحزب الشيوعي السري الذي مايزال يعمل في الخفاء، تتمثل في خمسة احزاب في عددها، وكان احد هذه الاحزاب الخمسة (**) حزبا بالاسم ليس الا. ويبدو بانه لم تكن له اية سياسة او مبدأ، سوى سياسات ومبادئ شخصيات، وامال مجموعة متنوعة من الوزراء السابقين الذين لم يكونوا من غير الراغبين

(*) استقال كل النواب والاعيان اليهود من البرلمان في سنة ١٩٥٠. وفي اوائل سنة ١٩٥٢ تألفت لجنة حكومية لاعادة النظر في مستقبل تمثيل اليهود في البرلمان اذا ماأريد ذلك في المستقبل.

(**) هو حزب الجبهة الشعبية الذين كان يرأسه طه الهاشمي. وفي اواخر سنة ١٩٥١ ظهرت عليه دلائل الانقسام والتفكك.

في الوصول الى الحكم. وهناك اثنان من الاحزاب(***) كان يوجهان اهتمامها الى اكثر العناصر التقدمية في الاوساط المتعلمة والمثقفة في المدن، وبدافعان بخطى حثيثة عن كثير من الاسس مع التأكيد دوما على الاستقلال التام، والحياد، والاصلاح الاجتماعي والثقافي. وكانت للحزبين صحافة مجندة، بل شديدة العنف في الواقع. وكانا، في وقت من الاوقات، قادرين على اثارة عواطف الجماهير، ولكن من دون التمكن من كبح جماحها، غير انهما لم يكونا يظفران بتأييد واسع بين المواطنين.

اما الحزبان الاخران فهما حزب نوري السعيد، وحزب صالح جبر، وكان كلاهما يتألفان من كيان مختلط، ومتفرق، من الطبقات المالكة والراضية عن الاوضاع بصفة اساسية، تلك الطبقات التي كانت تضم الاشراف، والاقطاعيين وشيوخ العشائر واتباعهم المحترمين. ومع ان كلا الحزبين كانا اصلاحيين بشكل معتدل، ومسؤولين نسبيا، الا انهما لم يقوما على اساس من المبادئ المتفق عليها، وانما على اساس الشخصيات المنضمة الى هذين الحزبين وقادتهما، واملها في التحرر من الاضطراب، وعلى اساس الخوف الطبيعي من التغييرات المفاجئة غير المتوقعة.

ولقد كانت المناهج السياسية الرسمية لكل هذه الاحزاب، متشابهة بصفة ملحوظة تتمثل في خلط المطامع والتطلعات الشخصية بالمثالية، ولم يكن المبدأ الرفيع في كل منها يختلف اختلافا كبيرا. وكان للبعض منها فروع صغيرة في المحافظات، في حين لم يكن البعض الاخر يملك مثل هذه الفروع. ومع ان حزبي نوري السعيد وصالح جبر كانا يحظيان بتأييد اوسع، الا ان جميع الاحزاب كانت تتحدث عن البركات العظمى التي ترضي الشعب في ميدان الحياة القومية بكامله، وتوضح مثل هذه البركات في مناهجها.

ولقد ازدهرت الحدة الحزبية، بصفة رئيسة، نتيجة السخط الذي ادى الى نفاد صبر اعضاء حزبي الاستقلال والوطني والديمقراطي، من السيطرة المتواصلة التي كانت تمارسها الطبقة التي تملك الثروة والراضية بالاوضاع الراهنة، وكذلك من السياسات المؤدية الى امتلاك السلطة المتحزبة للغرب ولبريطانيا بصفة خاصة، والقيود التي كانت تفرضها تلك السلطة على الصحافة، وسيطرتها (عن طريق السلطة التنفيذية) على الانتخابات، وفشلها الذريع في تحقيق التقدم العصري المنشود.

لم يكن هناك سوى قليل من الخيار بين المستوى العقلي والحدة الوطنية التي اتسمت بها الاحزاب. ذلك لان معظم القادة والكتاب كانوا اقل عنفا، واكثر حصافة، عندما كانوا

(***) هما الحزب الوطني الديمقراطي الذي يتزعمه كامل الجادرجي. وحزب الاستقلال الذي يتزعمه محمد مهدي كبة وفائق السامرائي.

يستعرضون، في احاديثهم الخاصة، المآسي القائمة في البلاد، ويكونون اكثر ظرافة من الناحية الاجتماعية، في خطبهم الخالية من المعاني او التي غالبا ماكانت تتضمن الحماسة الكاذبة بصفة قاسية، وكذلك في مقالاتهم التي كانوا يدبجونها. ولقد بقي نوري السعيد هو رجل الدولة الوحيد الذي يحظى بمكانة دولية، وكان واحدا من القلائل الذين استعادوا التجربة الواقعية الكاملة للجيل في الداخل وفي الخارج معا.

ونظرا لانعدام وجود احزاب سياسية، طيلة سنين عديدة، تقوم على اسس مناهج مختلفة اصلا، لكنها تكون عملية مع ذلك، وظهور منظمات واسعة في كل انحاء القطر تجعلها ممثلة بصفة معقولة للناخبين، فقدكان من العسير في سنة ١٩٥٠، عدم التوقع بان تستمر الوزارات الحاكمة لمدة طويلة، وماكان يرافق ذلك من الحذر الذي لااساس له، بالنسبة الى نظام حكم كان يبدو في اي وقت بان مؤامرة، او انقلابا عسكريا ناجحا ومن نهج مألوف جدا، من شأنه ان يقلب نظام الحكم القائم ويقوضه.

فعلى حدة من الضعف الدستوري او السياسي الموجود، ظهر ان عوامل اخرى قد طرحت نفسها، والتي لابد وان تعيق التفاؤل الهين بالنسبة الى الشرط الوحيد لتحقيق كل آمال البلاد، المتمثلة في استقرار حكومتها واستمرارها.

ولقد كان الاول بين هذه العوامل يتمثل في الصفة العربية التي لم تتغير، بكل ظرفها وذكائها، وعطفها المتجاوب، اذ انها بنفاد صبرها، وبرفضها سياسة «اعط وخذ» التي اسيء اختيارها بصفة خاصة ازاء الضغوط، وكبت الحريات، والحلول الوسط التي تحتاج اليها السياسات والحكومة العصرية.

اما العامل الثاني فهو يتمثل في طبيعة القومية المحلية التي لم يفقد فيها التمجيد الذاتي العنيف، والضيق، والمرتاب والبالغ الحساسية، وغير الواقعي، شيئا ما، من الصفة التي اتينا على وصفها في الفصل السابع (الاستقلال التام).

فما تم اعتباره رأس الفضائل، بقي يعتبر من اسوئها، مدمراً للثقة وللتقدم، مفضيا الى اساءة علاقات العراق مع افضل الاجانب الذين يحسنون الظن به، واقحام البلاد في مشاكل الدول الاخرى، بدلا من افادة جماهيره الفقيرة المتخلفة.

وكان العامل الثالث يتركز في انعدام التجانس بين ابناء العامة انفسهم، بالنظر لوجود مستويات متباينة تبايناً واسعاً في تطورهم، وبسبب ولاءاتهم الاقليمية، والضغوط الطائفية القوية، شيعية كانت تلك الولاءات ام كردية، وكذلك بالنسبة الى امتلاك الاراضي، او الثقافة. اما رابع العوامل فهو التأثير المدمر او الممزق الذي احدثته الهزات الاخيرة (والتي لايعود سببها الى خطأ العراقيين) والتي وقعت بصفة مفاجئة على الدولة، وعلى مجتمع مازالت اسسها مفقودة، وغير ناضجة من الناحية السياسية، من امثال فقدان الملك فيصل الاول، والاثارات

القوية التي احدثتها الامبراطورية النازية لفترة وجيزة، ومسألة فلسطين، والضغائن والفجوات التي احدثتها الحرب العالمية الثانية، فلقد كانت كل هذه الويلات امتحانات غير مقدرة للدولة الفتية، وقد قوضت استقرارها بصفة مؤلمة.

وفيما وراء كل هذه القوى كان هنالك احساس بالالتباس الروحي، وحيرة الشعب الذي مايزال غير مضمون من النواحي الثقافية والذهنية، بين القيم الشرقية والقيم الغربية، بين التقليد والابداع، بين الاسلام والالحاد. لقد كانت هذه الامور اعظم ارباكا واوسع خطرا، في وقت تفاقم فيه التهديد الدولي المربك والذي اصبحت فيه الدول الممعنة في القدم والقوة يندر ان تشعر بالطمأنينة في الكيفية التي كانت تصرف بها شؤونها الخاصة. لقد كان العراق انذاك[٨] يعاني من الوهن والفشل، ومن المخاوف التي رافقت فترة من فترات الانتقال السريع المحفوف بالخطر، والتي وجد ان من العسير عليه ان يحقق هدفه الواسع بشكل هادئ.

اما بالنسبة الى تصرف الامة الخاص الذي يمكن ان يفضي الى تحقيق هذا الهدف، فكان ينبغي التطلع الى تحقيق ذلك، بعمليات وصفات يسهل وصفها، وهي وان كانت عسيرة، الا انه ليس من المستحيل تحقيقها، ونعني بذلك التعزيز العضوي والتدريجي لمؤسساتها، وزيادة التثقيف والتلاءم بين جماهيرها، ورفع مستوى معيشة الفقراء، وتحقيق الولاء والضبط اللذين يجب ان تتمسك بهما قواتها المسلحة، وكيفية تدبير سياستها الخارجية، بل الداخلية منها على الاخص، بالعقل، والحكمة، والديمومة.

فبمثل هذه الوسائل كان شعب العراق يستطيع بجهوده الخاصة ان يحقق مثل هذا الحظ والسعادة، وذلك بالشكل الذي تسمح به القيود البشرية، وظروف العالم المضطرب، والذي يعتبر العراقيون اعضاء منه ولايمكن فصلهم عنه.

---

(٨) تتميز تلك الفترة باشتداد الحرب الباردة بين الغرب والشرق، بل بعبارة اوضح بين الامبريالية والاتحاد السوفياتي. فقد وجدت دول الغرب التي خرجت من الحرب منتصرة، وعلى الاخص امريكا، ان الخطر الذي يتهددها من الاتحاد السوفياتي يعد في نظرها اعظم واوسع من خطر النازية والفاشية اللتين تم القضاء عليهما عسكريا، ولذلك بدأت امريكا تسعى الى فرض زعامتها ليس على العالم الغربي حسب بل وحتى على البلدان التي عانت من الاستعمار الغربي طويلا، والتي كانت تنزع الى التحرر والاستقلال، ولذلك تعددت مشاريع امريكا لتحقيق هذه الزعامة، سواء في ذلك مشروع مارشال الذي اعاد تسليح اوربا الغربية لتقف قوية في وجه الاشتراكية، ومختلف مشاريع الاحلاف بمختلف مسمياتها سواء في ذلك الحلف العسكري التركي الباكستاني، ومن ثم حلف بغداد وما الى ذلك من المشروعات.وكان اخطر ماتكشفت عنه الحرب الباردة في العالم انذاك هو تسابق دول الغرب والشرق الى دعم اسرائيل ومدها بكل اسباب الحياة والقوة لكي تصبح الاداة الوحيدة بيد الغرب للسيطرة على الشرق الذي اخذت كنوزه الغنية ولاسيما النفط بالظهور وعلى نطاق واسع بعد سنة ١٩٥٤. ولقد كان العراق، وهو اكبر بلد منتج للنفط في الشرق الاوسط انذاك، في خضم هذه الحرب الباردة بعد ان برز الى الوجود حلف بغداد العدواني الذي لم يستهدف الوقوف بوجه الاتحاد السوفياتي كما زعم في حينه، وانما ابقاء السيطرة الاستعمارية للغرب على بلاد الشرق الاوسط في الدرجة الاولى (انظر كتابنا والشرق الاوسط في اعقاب الحرب العالمية الثانية ١٩٤٥ - ١٩٥٠) الماثل للطبع.

الملحق الأول

الملحق الاول
مقارنة السنين الهجرية بالسنين الميلادية
خلال الفترة ١٨٩٥ - ١٩٥٥

السنة الهجرية	السنة الميلادية
١٣٠٨	١٧ اب ١٨٩٠
١٣٠٩	٧ اب ١٨٩١
١٣١٠	٢٦ تموز ١٨٩٢
١٣١١	١٥ تموز ١٨٩٣
١٣١٢	٥ تموز ١٨٩٤
١٣١٣	٢٤ حزيران ١٨٩٥
١٣١٤	١٢ حزيران ١٨٩٦
١٣١٥	٢ حزيران١٨٩٧
١٣١٦	٢٢ ايار ١٨٩٨
١٣١٧	١٢ ايار ١٨٩٩
١٣١٨	١ ايار ١٩٠٠
١٣١٩	٢٠ نيسان ١٩٠١
١٣٢٠	١٠ نيسان ١٩٠٢
١٣٢١	٣٠ اذار ١٩٠٣
١٣٢٢	١٨ اذار ١٩٠٤
١٣٢٣	٨ اذار ١٩٠٥
١٣٢٤	٢٥ شباط ١٩٠٦
١٣٢٥	١٤ شباط ١٩٠٧
١٣٢٦	٤ شباط ١٩٠٨
١٣٢٧	٢٣كانون ثاني١٩٠٩

السنة الهجرية	السنة الميلادية
١٣٢٨	١٣كانون ثاني ١٩١٠
١٣٢٩	٢كانون ثاني١٩١١
١٣٣٠	٢٢كانون اول١٩١١
١٣٣١	١١ كانون اول ١٩١٢
١٣٣٢	٣٠ تشرين ثاني
١٣٣٣	١٠ تشرين ثاني
١٣٣٤	٩ تشرين ثاني ١٩١٥
١٣٣٥	٢٨ تشرين اول
١٣٣٧	٧ تشرين اول ١٩١٨
١٣٣٨	٢٦ ايلول ١٩١٩
١٣٣٩	٥ ايلول ١٩٢٠
١٣٤٠	٤ ايلول ١٩٢١
١٣٤١	٢٤ اب ١٩٢٢
١٣٤٢	١٥ اب ١٩٢٣
١٣٤٣	٢ اب ١٩٢٤
١٣٤٤	٢٢ تموز ١٩٢٥
١٣٤٥	١٢ تموز ١٩٢٦
١٣٤٦	١ تموز ١٩٢٧
١٣٤٧	٢٠ حزيران ١٩٢٨
١٣٤٨	٩ حزيران ١٩٢٩
١٣٤٩	٢٩ ايار ١٩٣٠
١٣٥٠	١٩ ايار ١٩٣١
١٣٥١	٧ ايار ١٩٣٢
١٣٥٢	٢٦ نيسان ١٩٣٣
١٣٥٣	١٦ نيسان ١٩٣٤
١٣٥٤	٥ نيسان ١٩٣٥

السنة الهجرية	السنة الميلادية
١٣٥٥	٢٤ اذار ١٩٣٦
١٣٥٦	١٤ اذار ١٩٣٧
١٣٥٧	٣ اذار ١٩٣٨
١٣٥٨	٢١ شباط ١٩٣٩
١٣٥٩	١٠ شباط ١٩٤٠
١٣٦٠	٢٩كانون ثاني١٩٤١
١٣٦١	١٩كانون ثاني١٩٤٢
١٣٦٢	٨كانون ثاني١٩٤٣
١٣٦٣	٢٨كانون اول١٩٤٣
١٣٦٤	١٧كانون اول١٩٤٤
١٣٦٥	٦كانون اول١٩٤٥
١٣٦٦	٢٥تشرين ثاني١٩٤٦
١٣٦٧	١٥تشرين ثاني١٩٤٧
١٣٦٨	٣تشرين ثاني١٩٤٨
١٣٦٩	٢٤تشرين اول١٩٤٩
١٣٧٠	١٣تشرين اول١٩٥٠
١٣٧١	٢تشرين اول١٩٥١
١٣٧٢	٢١ ايلول ١٩٥٢
١٣٧٣	١٠ ايلول ١٩٥٣
١٣٧٤	٣٠ اب ١٩٥٤
١٣٧٥	٢٠ اب ١٩٥٥

الملحق الثاني

الملحق الثاني

مساحة كل محافظة وعدد سكانها فيها

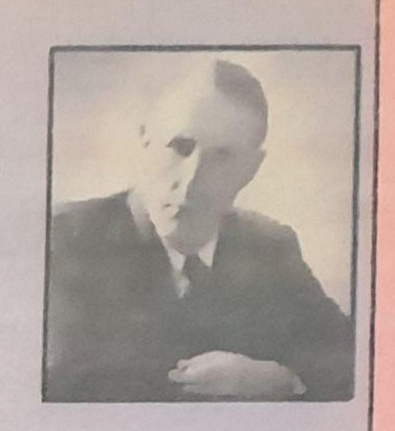
المحافظة	المساحة بالكيلومتر المربع	عدد السكان	الاقضية	المساحة	عدد السكان
بغداد	٢٠٠٠٠	٨٠٥٠٠	بغداد	١٩٠٠	٥٥٢٠٠٠
			الكاظمية	١١٠٠	١١٤٠٠٠
			سامراء	١٥٦٠٠	٩١٠٠٠
			المحمودية	١٤٥٠	٤٨٥٠٠
الموصل	٤٨٠٠٠	٦٠٢٠٠٠	الموصل	١٢٠٠٠	٣٤٠٠٠٠
			العمادية	٢٧٠٠	٥٠٠٠٠
			زاخو	٢٢٥٠	٣٧٠٠٠
			دهوك	٢٢٥٠	٤٠٠٠٠
			عقرة	١٩٥٠	٣٢٠٠٠
			سنجار	١٦٠٠٠	٣٢٠٠٠
			شيخان	١٤٠٠	٢٤٧٠٠
			تلعفر	٨٢٥٠	٤٥٥٠٠
البصرة	١٢٣٠٠	٣٥٢٠٠٠	البصرة	٤٧٠٠	٢٠٦٠٠٠
			ابو الخصيب	٤٠٠٠	٨١٠٠٠
			القرنة	٣٦٥٠	٦٥٠٠٠
كركوك	١٩٩٠٠	٢٨٦٠٠٠	كركوك	٧٠٠٠	١٤٨٠٠٠
			كفري	٥٣٠٠	٤٨٠٠٠
			جمجمال	٢٤٠٠	٣٠٠٠٠
			طاووق	٥٢٠٠	٥٠٠٠٠

اربيل	١٨٤٠٠	٢٤٠٠٠٠	اربيل	٣٥٠٠	٨٠٠٠٠
			مخمور	٣٥٠٠	٤٤٠٠٠
			كويسنجق	١٩٠٠	٣١٠٠٠
			راوندوز	٥٥٠٠	٤٦٠٠٠
			رانية	٢١٠٠	٢٧٠٠٠
			زيبار	١٩٥٠	٦٦٠٠
سليمانية	٩٤٠٠	٢٢٣٠٠٠	سليمانية	٣٠٠٠	٧٧٦٠٠
			حلبجة	٣١٠٠	٧١٠٠٠
			شهربازار	٢٠٠٠	٣٨٧٠٠٠
			بشدر	١٢٥٠	٣٥٦٠٠
الدليم	٤٥٤٠٠	١٩٣٠٠٠	الرمادي	١٥٦٠٠	١١١٠٠٠
			الفلوجة	٤٧٥٠	٤٩٠٠٠
			عانة	٢٥٠٠٠	٣٣٦٠٠
الحلة	٥٣٠٠	٢٦٢٠٠٠	الحلة	٩٦٠	٨١٠٠٠
			الهاشمية	١٩٠٠	٥٢٠٠٠
			الهندية	١٢٠٠	٨٢٠٠٠
			المسيب	١٢٠٠	٤٦٠٠٠
الكوت	١٦٠٠٠	٢٢٥٠٠٠	الكوت	٤٠٠٠	٨٢٠٠٠
			الحي	٣٠٠٠	٦٧٠٠٠
			بدرة	٣٨٠٠	١٦٢٠٠
			الصويرة	٥٢٥٠	٥٩٢٥٠
كربلاء	٦٠٠٠	٢٧٧٠٠٠	كربلاء	٥٦٠٠	١٥٠٠٠٠
			النجف	٤٠٠	١٢٧٠٠٠
الديوانية	١٤٩٠٠	٣٨٤٠٠٠	ديوانية	٩٨٠٠	٦٣٠٠٠
			سماوة	٤٧٠٠	٨٢٠٠٠
			الشامية	٢٩٠٠	١١٤٠٠٠
			ابوصخير	١٣٠٠	٧٩٠٠٠
			عفك	٤٢٠٠	٤٦٠٠٠

الناصرية	١٤١٥٠	٣٧٠٠٠٠	الناصرية	٥٥٠٠	١١١٠٠٠
			الرفاعي	٣٢٠٠	٨٢٠٠٠
			سوق الشيوخ	٣٨٠٠	١٠٩٠٠٠
			الشطرة	١٦٠٠	٦٨٠٠٠
ديالى	١٦٠٠٠	٢٧٣٠٠٠	بعقوبة	٢٠٥٠	٩٤٥٠٠
			الخالص	٣٦٠٠	٦٩٠٠٠
			خانقين	٣٧٥٠	٥٧٠٠٠
			مندلي	٦٥٠٠	٥٣٠٠٠
العمارة	١٨٧٥٠	٣٠٨٠٠٠	العمارة	٨٦٥٠	٨٤٠٠٠
			علي الغربي	٥٧٥٠	٣٦٠٠٠
			قلعة صالح	٤٣٥٠	٨٨٥٠٠

منطقة الصحراء الشمالية ٩٤٧٠٠ }
منطقة الصحراء الجنوبية ٧٥٧٠٠ } السكان من الرحل ويدخلون ضمن المحافظات الملحقة .





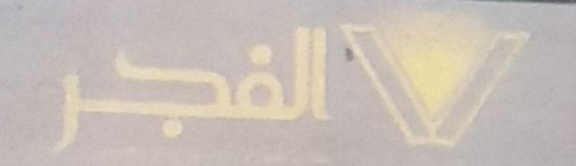
من ضباط الحملة العسكرية في العراق اثناء الحرب العالمية الاولى . تولى عدة مناصب استشارية في الحكومة العراقية ثم انصرف الى التاريخ فاخرج اول دراسة عن تاريخ العراق الحديث بعنوان اربعة قرون من تاريخ العراق الحديث ، وهذا الكتاب الذي يعتبر المتمم للكتاب الاول وله كتاب عن حكومة الملك فيصل في سوريا ، وكتاب عن استثمار النفط في الشرق الاوسط ، وكتاب آخر عن العراق نشره بعد ثوة ١٤ تموز ١٩٥٨ . تولى في سنة ١٩٥٠ منصب المدير الادراي لشركات النفط في العراق .



خريج كلية الحقوق ١٩٤٣ مارس العمل في الصحافة منذ سنة ١٩٣٦ ومارس المحاماة الى جانب ذلك اخر وظيفة له المترجم الاول في وكالة الانباء العراقية ورئاسة تحرير الوقائع العراقية بالانكليزية سنة ١٩٦٩ الى سنة ١٩٧٢ احيل على التقاعد في ايلول ١٩٧٢ وانصرف الى الترجمة والتاليف بلغ عدد المطبوع من كتبه المؤلفة والمترجمة خمسة وستين كتابا معظمها تخص تاريخ العراق الحديث والخليج العربي . من الكتب الجاهزة للطبع دور العسكرية في السياسة : انقلاب بكر صدقي وثورة ايار ١٩٤١ نوري السعيد ، اسمهان والمخابرات البريطانية ، مصرع الملك غازي وغيرها .

التصميم ليث متي

السعر : خمسة دنانير



نشر وتوزيع المكتبة العلمية شارع السعدون بغداد هاتف ٨٨٨٥٤٨٨ - ٧١٩٨٤٢٢